

الثواب لعظمة السردار ارفع

القصيدة العلوية المباركة

او

تاريخ شعري لصدر الاسلام

يا علي

الى عظمة السردار ارفع الشيخ خزعل خان

بقلم عبده ومملوكه

عبد المسيح انطاكي بك

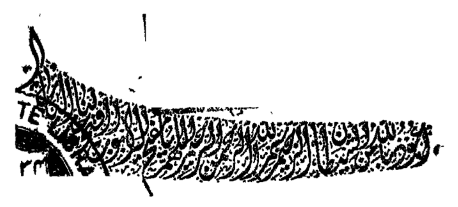
صاحب جريدة العمران في مصر

وشارحها ومعلق حواشيها

مطبعة رعمسيس بالفجالة بمصر



حَضْرَةُ مُعِزّ السَّلْطَنَةِ السَّرْدَار أَرْفَع صَاحِبِ الْعَظَمَةِ الشَّيْخِ خَزْعَلِ خَانِ
أَمِيرِ نُويَانِ وَسَرْدَارِ عَرَبِسْتَانِ وَحَاكِمِ الْمُحَمَّرَةِ أَدَامَ اللهُ إِجْلَالَهُ



المقدمة

أَزِينُ مَلْحَمَتِي ٱلْغَرَّا وَأُحَلِّيهَا   بِحَمْدِ رَبِّيَ فَلْيَحْمَدْهُ قَارِيهَا (١)

وَبِٱلصَّلَاةِ عَلَى طَـٰهَ وَحَيْدَرَةٍ   قَدْ كُنْتُ بَادِءَهَا بِرًّا وَمُنْهِيهَا

وَبَعْدُ قَدْ وَفَّقَ ٱللهُ ٱلْعُبَيْدَ إِلَى   هٰذِي ٱلْقَصِيدَةِ مَعْ ضَافِي حَوَاشِيهَا

نَظَمْتُ سِيرَةَ مَوْلَانَا أَبِي حَسَنٍ   فِيهَا عَلَى قَدْرِ إِدْرَاكِي خَوَافِيهَا

فَمَا عَرَفْتُ لَهُ فِي ٱلدِّينِ مَأْثَرَةً   إِلَّا وَكُنْتُ مَعَ ٱلْإِخْلَاصِ رَاوِيهَا

---

(١) عتب علي نوع خاص ان أنظم القصيدة المباركة الحاوية تاريخاً شعرياً لصدر الاسلام لا يتخلله نثر أبداً ويعرف الشعراء ما في ذلك من الوصب والمكنه وصب محبوب لقلب شغف بذاتي الكاملين وأخي الرسول الامين أحد سيدي الثقلين سيدنا علي بن أبي طالب أبي الحسنين عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام والذي أزادني نشاطاً في اتمام هذا المشروع المبتكر اعتقادي اليقيني بانه يسر سيدي ومولاي وولي نعمتي معز السلطنة سردار أرفع صاحب العظمة الشيخ خزعل خان أمير نويان وسردار عربستان الذي امتاز بحب آل البيت الطاهرين الخيرين وانصرف الى التشيع لهم بتقوى وحس يقين وكان القدوة الصالحة للصلحاء المتقين أدام الله علاه وحقق بمنه ووفقنا الى ما يحبه ويرضاه سبحانه ملبي من دعاه

ولقد دعوت هذه القصيدة المباركة باسم « ملحمة » اتباعاً للمغاربة الذين أطلقوا هذه الكلمة على ما وضعوه نثراً أو نظماً من وقائعهم الحربية وقصصهم التاريخية ونوادرهم الادبية ويجمل بنا في هذا المقام ان نشير الى هذه الملاحم الغربية كتوطئة لبيان مزية هذه القصيدة المباركة في عالم الشعر فأقول:

لقد خلق الله العرب ذوي سليقة شعرية بطبيعتهم وهي التي جعلت لغتهم على ما هو معروف من سعة الفاظها وكثرة كناياتها تلك الصفة الشريفة التي جعلت الشعر العربي تاريخاً حياً للعرب حتى عرفنا من قليل ما اتصل الينا منه شيئاً كثيراً عن تاريخ جاهليتهم بينما يرجع الناس في مدائن تواريخ الأمم الى ماتركوه من حجارة منقوشة وأنصاب مدفونة

وَبعضُ آثارِهِ مَا جئتُ أَذكُرُهُ ۞ وَلَمْ أَزَلْ عَاجِزاً عَنْ ذِكْرِ بَاقِيهَا
تُحصَى النُّجُومُ وَلَا تُحصَى مَنَاقِبُهُ ۞ فَكَيفَ لَا يُدْرِكُ الإِعْيَاءُ مُحصِيهَا
مَنْ يَرْجُ أَنْ يَتَوَلَّى مَدحَ حَيدَرَةٍ ۞ بِغُرِّ آثَارِهِ وَصْفاً وَتَشْبِيهَا
رَجَا المُحَالَ وَأَعْيَا عَنْ بُلُوغِ أَمَا ۞ نِيهِ مِنَ المُرْتَضَى أَوْ مَا يُدَانِيهَا
فَهَذِهِ يَاذَوِي الأَلبَابِ مَلحَمَتِي ۞ أُمْلِي عَلَيكُم بِالتَّقوَى أَمَالِيهَا
وَإِنَّهَا خَيرُ تَارِيخٍ لِنَشْأَةِ دِيـ ۞ ـنِ اللهِ مَعْ مَاجَرَى بَيْنَ الوَرَى فِيهَا
وَقَدْ جَهِدْتُ عَلَى عَجزِي وَنِيَّةُ إِخْـ ۞ ـلَاصٍ لِبَيْتِ رَسُولِ اللهِ أَنْوِيهَا
أَنْ أُدْرِكَنَّ بِهَا رِضْوَانَ حَيدَرَةٍ ۞ وَمَنْ بِهِ شَغَفُوا حُبّاً وَتَدْلِيهَا
وَتِلكَ بُغْيَةُ مَمْلُوكِ المُعِزِّ حَبِيـ ۞ ـبِ المُرْتَضَى مَاسِوَاهَا رُحْتُ أَبْغِيهَا
تَزَلُّفاً لِأَمِيرِيِّ الأَرْيَحِيِّ عَمِيـ ۞ ـدِ العُرْبِ مَنْ بَاتَ لِلْخَيرَاتِ دَاعِيهَا

ولقد جال الشعراء العرب بشعرهم في جميع ما عرض لهم من المعاني كالغزل والنسيب والخمريات والزهريات والحكم والحماس والفخر والمدح والهجاء والرثاء فأبدعوا ما شاء الابداع وأبقوا لنا عقوداً يتحلى بها جيد الأدب العربي وكان ذلك منهم في الجاهلية والاسلام الى يوم الناس هذا

ولم يفت العرب الشعر القصصي فاشتغل به شعراؤهم وأدباؤهم الا انني لم أرَ واحداً منهم تفرّغ الى قصة معينة أو فصل من تاريخ أو واقعة من الوقائع فنظمها قصيدةً واحدةً أو مجموعة قصائد على نحو ما فعل هوميروس اليوناني في الياذته التي نقلها الى العربية شعراً سليمان افندي البستاني الشهير ودانتي التلياني في جحيمه والفردوسي الفارسي في شاهنامه وكما سمعت ان كتاب كليله ودمنه الشهير قد نظمه شعراً أحد شعراء العرب ولكني لم أتوفق الى الاطلاع على نسخه الشعرية وكل ما أمامي من الشعر الذي يصحّ ان يطلق عليه اسم « الشعر القصصي » هو قصة عنترة وسيرة بني هلال وما كان من هذا النوع من موضوعات العرب لما فيه من الرواية الا ان واضعي هذه القصص جعلوها خليطاً بين النثر والنظم فنظموا فيها قطعاً من الشعر القصصي مزجوها بما نثروا من قصصهم وهكذا بقي الشعر العربي خلواً من قصيدة جامعة يصحّ ان يطلق عليها بكل المعنى اسم « الشعر القصصي »

والذين حدثونا عن كتاب كليله ودمنه الشعري قالوا انه كان مجموعة قصائد على بحور وقواف مختلفة فاذا صحت روايتهم فيكون كترجمة الالياذة الى الشعر العربي بقلم سليمان افندي البستاني وقد نظمها أيضاً على أوزان مختلفة وقوافٍ متنوعة

ولقد تعرّض بعض الشعراء الى نظم بعض العلوم أراجيز شعرية كقصيدة ابن سيناء في الطب وأشباهها كثير مما نظم في الدين والفقه والنحو ولكن ليس للاراجيز المرتبة العليا التي لغيرها من بحور الشعر لما تلم من كثرة الاباحة والتوسع في الوزن وعدم تقيد الشاعر بالقوافي وهي أقرب الى النثر المسجع من الشعر المنظوم

ويجوز لنا ان نطلق على سبيل التوسع اسم « الشعر القصصي » على القصائد التي نظمت في

وَهُوَ ٱلَّذِي فِي رِضَى طٰـهَ وَحَيْدَرَةٍ ... وَٱبْنَيْهِمَا يَبْذُلُ ٱلدُّنْيَا وَيُعْطِيهَا

وَنَفْسُهُ فِي هَوَى بَيْتِ ٱلنُّبُوَّةِ مِنْ ... كُلِّ ٱلْبَرِيَّةِ مَعْرُوفٌ تَصَبِّيهَا

مَا كُنْتُ شَاعِرَهُ إِنْ لَمْ أُجِدْ بِمَدَا ... ئِحِ ٱلْعَلِيِّ ٱلَّتِي مَا ٱنْفَكَّ يَرْوِيهَا

مِنْهُ عَرَفْتُ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَيْـ ... ـدِيهِ ٱلْحِسَانَ ٱلَّتِي قَدْ كَانَ يُسْدِيهَا

وَهَا أَنَا نَاظِمٌ مَا كَانَ يَنْثُرُهُ ... عَلَى مُحِبِّيهِ مِنْ غَالِي دَرَارِيهَا

وَبِٱلْوَفَاءِ وَبِٱلْإِجْلَالِ أَرْفَعُهَا ... إِلَى مَعَالِيهِ فِي زَاهِي تَلَالِيهَا

شُكْرًا عَلَى ٱلنِّعَمِ ٱلْجُلَّى ٱلَّتِي لَقِيَتْـ ... ـنَا مِنْ يَدَيْهِ وَمَا زِلْنَا نُلَاقِيهَا

وَإِنَّهَا نِعَمُ ٱلسِّرْدَارِ أَرْفَعَ أَغْـ ... ـنَتْنَا وَكَمْ مَعَنَا أَغْنَتْ عَوَافِيهَا

وَخَزْعَلٌ قَدْ تَوَلَّى فِي مَكَارِمِهِ ٱلْـ ... ـعُقُولَ فَهْوَ مَعَ ٱلْأَجْسَامِ يَغْذِيهَا

فَكَانَ مُرْشِدَهَا ٱلْأَسْمَى وَوَاعِظَهَا ... وَكَانَ لِلْحَقِّ دَاعِيهَا وَهَادِيهَا

مدائح المصطفى والمرتضى صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلم لما تضمنته من بعض مواقفهما أو من طرف تاريخيهما الا انا لم نجد في احدى هذه القصائد الكثيرة التي نترنم بتلاوتها قصيدةً واحدةً توخى صاحبها نظم السيرة المباركة من أولها الى آخرها لجمع شواردها وتقيد أوابدها وترك قارئها ان يقف منها على تلك السيرة المباركة بحذافيرها

واني وان كنت أعرف عجزي واعترف به فقد أقدمت على وضع هذه القصيدة العلوية المباركة على طراز يصح لي ان أقول ان شعراء العرب لم ينسجوا على منواله ولا أتوا بمثاله فهي نسيج وحده جمعت فأوعت سيرة أمير المؤمنين سيدنا علي ابن أبي طالب عليه صلوات الله منذ تشرف هذا الوجود بوجوده الى يوم امتدت اليه يد الشقي ابن ملجم لعنه الله وما اكتفيت بهذا بل شفعته بمآثره العالية وحكمه السامية وبوادره الباهرة وآثاره الزاهرة وجاءت القصيدة على طولها بوزن واحد وقافية واحدة فكانت ملحمةً عربيةً فذةً في بابها مطربة تلوب قرائها وطلابها

أما لفظة « ملحمة » التي أطلقتها على هذه القصيدة المباركة اتباعاً للمغاربة فمعناها اللغوي « الوقعة العظيمة » ولعلها مأخوذة من قولهم التحم القوم للقتال أي اشتبك بعضهم ببعض . أو ربما قصد المغاربة باسم « الملحمة » الذي أطلقوه على القصائد التي لا ذكر فيها للقتال ايضاً « الاحكام » من قولهم لحم الامر أي احكمه . ومن هذين المعنيين أطلق القوم على المصطفى صلى الله عليه وسلم لقب « نبي الملحمة » وقالوا في تفسيره « نبي القتال » أو « نبي الصلاح وتأليف الناس » . ويصح ان نقول ان لفظة « الملحمة » مشتقة من قولهم ألحم فلان الشعر وحاكه أي نظمه وذلك لتشبيههم بيت الشعر بيت الشعر أو بالثوب المحوك ومن هذا اشتقت لفظة « الملحمات » التي أطلقوها على القصائد المعروفة المشهورة للفرزدق وجرير والاخطل وعبيد الراعي وذو الرمة والكميت والطرماح وأرادوا بها الاشارة الى ان هذه القصائد كانت محكمة النظم متآلفة الاجزاء حسنة السبك

وبعد هذه التوطئة الوجيزة أتقدم من العالم العربي عموماً ومحبي سيدنا أمير المؤمنين علي بن

وَهٰذِهِ ٱلطُّرفَةُ ٱلحَسْنَاءُ قَدْ فَخَرَتْ ... فِي ٱلإِنْتِمَاءِ إِلَيْهِ فِي تَآبِيهَا

وَإِنَّهَا قَبسَةٌ مِنْ نُورِهِ ٱقْتُبِسَتْ ... لِظُلْمَةِ ٱلجَهْلِ كَيْ تَجْلُو دَيَاجِيهَا

أَو أَنَّهَا لِلوَرَى مِنْ وَفْرِ حِكْمَتِهِ ... شَرِيعَةٌ بِٱلهُدَى فَاضَتْ مَجَارِيهَا

وَإِنَّنِي بِٱسْمِهِ ٱلمَحْمُودِ أَعْرِضُهَا ... عَلَى ٱلأَعَارِبِ فِي زَاهِي تَجَلِّيهَا

بِهَا أُرَدِّدُ آيَاتِ ٱلثَّنَاءِ عَلَيْـــهِ ... وَٱلوَفَاءُ لَهُ تَٱللهِ مُوحِيهَا

وَكَيْ أُسَهِّلَ تَسْهِيلاً تِلَاوَتَهَا ... عَلَى ٱلمَلَا لَم أَدَعْهَا فِي تَتَالِيهَا

لَكِنَّنِي بِعَنَاوِينٍ مُفَصَّلَةٍ ... أَوضَحْتُ لِلقَارِئِ ٱلذَّاكِي فَحَاوِيهَا

وَقَدْ تَوَسَّعْتُ فِي مَجْرَى حَوَادِثِهَا ... بِمَا نَثَرْتُ عَلَيْهَا مِنْ حَوَاشِيهَا

وَجِئْتُ بِٱلنَّصِّ مِنْ أَقْوَالِ حَيدَرَةٍ ... وَهِيَ ٱلَّتِي زَنَتْ نَظْمِي مِنْ مَعَانِيهَا

وَلَمْ تَكُنْ غَيْرَ نُعْمَى خَزْعَلٍ فَلَهُ ... ثَوَابُ قَارِئِهَا ٱلتَّاقِي وَمُنْشِيهَا

وَٱللهُ كَالِئُهُ ذُخْــــراً لِأُمَّتِهِ ... يُحْيِي بِهِمَّتِهِ ٱلعُلْيَا أَمَانِيهَا

أبي طالب عليه صلوات الله خصوصا بقصيدتي العلوية المباركة ذاكراً لها مالابدَّ من ذكره فأقول:

ان القصيدة العلوية المباركة هي أولى القصائد التي ظهرت في الشعر العربي فكانت نسيجاً وحده لاني ما عرفت قصيدة عربية مثلها تناولت تاريخاً أو قصة فجاءت عليها من أولها الى آخرها بقافية واحدة ووزن واحد كما انها أطول قصيدة في لغة العرب على الاطلاق . وقد قسمتها الى فصول جعلت لكل فصل عنواناً يعين المطالع على ادراك مراميها واستقراء معانيها وهي تنقسم الى قسمين أولهما تاريخ أمير المؤمنين عليه صلوات الله منذ ولادته الى ان امتدت اليه يد الشقي ابن ملجم لعنه الله فكان سيد الشهداء والقسم الثاني خصصته بمناقب وفضائل وحكم أمير المؤمنين وفيه تظهر صورة هذا الامام النفسية مكبرةً بانوارها الساطعة وأشعتها اللامعة على قدر ما يدركه عاجزٌ مثلي . وقد عنيت عنايةً خاصةً بنظم كثير من خطب وأقوال ورسائل ومواعظ أمير المؤمنين عليه صلوات الله . وفي ذلك جرءةٌ أدبيةٌ على الكلام العلوي الذي قيل فيه بحق انه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق وأرجو ان يغتفر الامير حرأتي « عليه صلوات الله » بما وضح لحضرته الحيدرية القدسية من حسن نيتي وفرط محبتي . هذا ولم أكرر قافية في فصل مهما كان طويلاً . وتحاشيت حوشيّ القوافي على قدر جهدي . وبعدت عن الجوازات الشعرية فما استجذت منها غير القليل النـادر . واتباعاً لاهل الغرب دعوتها « ملحمةً » وهو أقرب الاسماء اليها وذيلت هذه القصيدة المباركة بحواشٍ كانت تاريخاً صحيحاً لصدر الاسلام . وذكرت في هذه الحواشي ما نطمته من كلام أمير المؤمنين تشريفاً له . وبذلت كل ما في طوقي لتكون هذه القصيدة المباركة حرية بمن نظمت فيه عليه صلوات الله . وخليقة بتخليد ذكر من نظمت في ظلاله حيّاه الله وبياه . واني لمعترف بان المدد العلوي الروحاني هو الذي وفقني الى هذا العمل العظيم . وان الاحسان الخزعلي هو الذي ساعدني على التفرغ الى ترصيع هذا العقد النظيم . واني لاسأل الله سبحانه ان يقيني العثار والذلل . ويعصمني من الخطأ والخطل .

عرض القصيدة العلوية

على الاعتاب السنية الخزعلية

في تهنئة عيد الاضحى المبارك

توطئة

قَدْ حَجَّتِ ٱلنَّاسُ عُرْبِيُّهَا وَعُجْمِيُّهَا وَكَبَّرَتْ عِنْدَ مَاضَحَّتْ أَضَاحِيهَا(١)

فَهَا هِيَ ٱلْيَوْمَ فِي تِلْكَ ٱلْمَوَاطِنِ تَسْـعَى بِٱلتُّقَى قِبَلَ ٱلْبَارِي مَسَاعِيهَا

وَحَوْلَ كَعْبَتِهَا ٱلْغَرَّا تَطُوفُ بِإِخْبَاتٍ وَأَكْرِمْ ذَارِيهَا مُطِيفِيهَا

وَإِنَّ أَجْمَلَ مَا يَبْدُو لِأَعْيُنِ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ مَا هُوَ بَادٍ مِنْ تَآخِيهَا

وَخَيْرُ مَا يَتَجَلَّى مِنْ مَظَاهِرِهَا مَا ذَرَّ أَحْكَمَتْ طُهْراً تَسَاوِيهَا

فَلَيْسَ ثَمَّةَ أَقْدَارٌ وَلَا رُتَبٌ سِيَّانِ فِي «ٱلْبَيْتِ» دَانِيهَا وَعَالِيهَا

كَذَا تَسَاوَتْ بِحُكْمِ ٱلشَّرْعِ أُمَّةُ أَحْمَدٍ فَلَا مَيْزَةَ إِلَّا لِتَاقِيهَا

نَعَمْ فَأَفْضَلُهَا عِنْدَ ٱلْإِلٰهِ جَمَاعَةٌ لَقَدْ حَسُنَتْ بِرّاً مَآتِيهَا

فريضة الحج المباركة

وَحَجَّةُ ٱلْبَيْتِ فِي ٱلْإِسْلَامِ وَاجِبَةٌ عَلَى ٱلْعِبَادِ وَذُو ٱلْإِيمَانِ يَقْضِيهَا(٢)

---

(١) وفق الله سبحانه الى اتمام نظم السيرة العلوية المباركة وهي القسم الاول من هذه الملحمة المباركه في سلخ ذي القعدة سنة ١٣٣٦ ﻫ فتقدمت بها الى أعتاب مولاي ولي النعم معز السلطنة سردار أرفع صاحب العظمة الشيخ خزعل خان أمير نويان وسردار عربستان بعد ان صدرتها بهذه القصيدة هنأت بها عظمته الملوكية السنية بالعيد على ما تقضي به فروض الاخلاص لعتبته العلية وحسبي فخراً ان عظمة مولاي قد تفضل بقبول هديتي وتلطف بتبليغي رضاءه العالي عني أنا عبده المملوك الشكور

(٢) كانت تحجُّ العرب الى الكعبة كرمها الله من قبل الاسلام بخمسة وعشرين قرناً لاعتقادهم انها بيت الله والغريب انهم أجمعوا على هذا الاعتقاد على اختلاف أديانهم وكانوا يقصدونها سنوياً ويطوفون حول البيت العتيق من غير ان يدعيها فريق لنفسه والاغرب من هذا ان الوثنيين منهم الذين كانوا يعبدون الأصنام والانصاب والحجارة لم يرد عنهم انهم عبدوا حجارة الكعبة كما لم يعرف

وَالْعُرْبُ أَجْمَعُهَا كَانَتْ تَقُومُ بِهَا ... فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَبْغِي عَفْوَ بَارِيهَا

بِهَا لَقَدْ أَمَرَ اللهُ الرَّسُولَ وَبَا ... تَتْ سُنَّةً وَكِتَابُ اللهِ وَاحِيهَا

فَقَالَ: أَذِّنْ بِهَا وَالنَّاسُ تَقْبَلُ أَفْـ ... ـوَاجًا مِنَ الْأَرْضِ دَانِيهَا وَقَاصِيهَا

وَلِلْوَصِيِّ خِطَابٌ فِي فَرِيضَتِهَا اسْـ ... ـتَوْفَى بِهِ الْحِكْمَةَ الْكُبْرَى الَّتِي فِيهَا

فَقَالَ: قَدْ فَرَضَ الْحَجَّ الْإِلٰهُ عَلَى ... عِبَادِهِ حَجَّةً أَعْظِمْ بِمُوفِيهَا (١)

وَإِنَّمَا الْحَجُّ لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ وَفِي ... أَفْيَائِهِ الْعَفْوُ يَلْقَى مُسْتَفِيئِيهَا

وَإِنَّهُ الْقِبْلَةُ الْكُبْرَى الَّتِي تَتَلَقَّـ ... ـاهَا الْوُجُوهُ إِذَا صَلَّى مُصَلِّيهَا

وَمَوْرِدُ النَّاسِ أَضْحَى وَشْلُهَا تَرِدُ الْأَ ... نْعَامُ عَنْ ظَمَإٍ صَافِي مَسَاقِيهَا

وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ كَالْحَمَامِ وَقَدْ ... وَلِهْنَ بِالْوَطَنِ الْمَحْبُوبِ تَوْلِيهَا

هٰذَا عَلَامَةُ إِذْعَانِ النُّفُوسِ مَعَ الـ ... ـتَّوَاضُعِ الْمُشْتَهَى مِنْهَا لِمُبْدِيهَا

وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ السُّمَّاعَ فَهُوَ إِذَا ... دَعَا فَدَعْوَتَهُ كَانُوا مُجِيبِيهَا

وَصَدَّقُوا بِيَقِينِ الْقَلْبِ قَوْلَتَهُ ... فِي قُرْبِ كَعْبَتِهِ الْأَمَانِي تَطَلِّيهَا

عنهم انهم عبدوا الحجر الاسود الذي فيه مع اجلالهم له نقول وكان النصارى واليهود أيضاً يشاركون بقيه العرب من موحدين ومشركين بفريضة الحج لاعتبارهم انها موسم عام لهم جميعاً ولما جاء الاسلام أمرَّ فريضة الحجّ وجعلها من قواعده الخمس اذ قال المصطفى عليه الصلاه والسلام « بني الاسلام على خمس : شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلاً » وكان هذا منه عليه الصلاة والسلام حسب أمر الله سبحانه وتعالى في القرآن وقد قال « وأذن بالحج يأتوك مشاة وعلى كل ضامر من كل فج عميق » ولعمري أن فريضة الحج التى لزمها العرب جاهلية واسلاماً فكانت تجمع شتيتهم في أشهرها الثلاثة على هدنة لا يجوز معها القتال لهي من أفضل الوسائل لجمع كلمتهم وتآخيهم في بيت الله فضلاً عن انها الوسيلة المفضلى للتوبه وكسب المغفرة لمن تاب وأناب وانصرف الى الله يرجو حسن الثواب

(١) قد اقتبست درر هذه الأبيات من خطاب لأمير المؤمنين في فريضه الحج وهاك نصه :

« وفرض الله عليكم حجَّ بيته الحرام ، الذي جعله قبلةً للأنام ، يردونه ورود الانعام ، ويألهون اليه ولوه الحمام ، جعله سبحانه علامةً لتواضعهم لعظمته ، واذعانهم لعزته ، واختار من خلقه سماعاً أجابوا اليه دعوته ، وصدقوا كلمته ، ووقفوا مواقف أنبيائه ، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه ، يحرزون الارباح في متجر عبادته ، ويتبادرون عند موعد مغفرته ، جعله سبحانه وتعالى للاسلام علماً ، وللعائذين حرماً ، فرض حجه ، وأوجب حقه ، وكتب عليكم وفادته ، فقال سبحانه : ولله على الناس حجّ البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنيٌّ عن العالمين » اه

فِيهَا لَقَدْ وَقَفُوا بِرًّا مَوَاقِفَ أَرْ بَابِ ٱلنُّبُوَّةِ فِي سَامِي مَجَالِيهَا
وَبِٱلْمَلَائِكِ فِي تَطْوَافِهَا أَبَدًا بِٱلْعَرْشِ قَدْ شَبَّهُوا تَاللهِ تَشْبِيهَا
قَدْ أَحْرَزُوا ٱلرِّبْحَ فِي سُوقِ ٱلْعِبَادَةِ فَٱسْتَغْنَوا وَثَرْوَتُهُمْ مَا ٱلدَّهْرُ مُفْنِيهَا
فِي مَوْعِدِ ٱلْعَفْوِ وَٱلْغُفْرَانِ قَدْ وُجِدُوا لَدَى غَفُورٍ خَطَايَا ٱلنَّاسِ مَاحِيهَا
سُبْحَانَ جَاعِلِ حَجِّ ٱلْبَيْتِ رَايَةَ هَذَا ٱلدِّينِ فَوْقَ رُؤُوسِ ٱلنَّاسِ مُعْلِيهَا
وَجَاعِلِ ٱلْكَعْبَةِ ٱلْغَرَّا لَهَا حَرَمًا فَمَنْ بِهَا عَاذَ صَانَتْهُ مَغَانِيهَا
هُوَ ٱلْمُهَيْمِنُ حَجَّ ٱلْبَيْتِ أَوْجَبَهُ عَلَى ٱلْوَرَى سَائِدِيهَا مَعْ مَسُودِيهَا
فَقَالَ : حِجَّةُ بَيْتِ ٱللهِ قَدْ فُرِضَتْ عَلَى ٱلْعِبَادِ إِذَا كَانُوا مُطِيقِيهَا
وَمَنْ غَدَا كَافِرَ ٱلنُّعْمَى فَرَبُّكَ مُسْتَغْنٍ عَنِ ٱلْخَلْقِ جِنِّيهَا وَإِنْسِيهَا

جهاد عظمة السردار أرفع للعرب

تَاللهِ حِجَّتُنَا ذَا ٱلْعَامَ تَبْعَثُ لِلْأَ لْبَابِ بُشْرَى مُنًى تَدْنُو مَجَانِيهَا(١)

(١) هي الحرب الاوربية العظمى التي استعدَّ لها الالمانيون اربعين عاماً وأرادوا من ورائها استعباد العالم وقد استعر لهبها في ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ وخمدت نارها يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ففي ذلك اليوم عرفت الامة الالمانية ان جهودها الحربية العظمى قد ضاعت سدًى وانها مغلوبة لا محالة فأكرهت امبراطورها غليوم الثاني على الانزواء وعسكريتها على امضاء شروط الهدنة التي وضعها الحلفاء توطئةً لشروط الصلح العادلة القاهرة التي أملاها الحلفاء على الالمانيين فأمضوها مرغمين في يوم ٢٨ يونيو سنة ١٩١٩ في مدينة فرسايل بجوار باريس وقد كانت هذه الحرب أشد حروب التاريخ لم يعهد الانسان منذ الخليقة مثل ويلاتها وضحاياها والرزايا التي تسببت عنها ولم يبق انسان واحد على وجه البسيطة لم يتأثر منها ويشكو أذاها

أما نصيب العرب من هذه الحرب العظمى فقد كان خيراً كثيراً وذلك ان الامة العربية الكريمة كانت الى هذه الحرب مضيعة استقلالها السياسي خاضعة للسلطنة التركية العثمانية الا بعض أماراتها في العراق ونجد واليمن ظلت مستقلة استقلالاً داخلياً غير معترف به رسمياً من الدول غير ان عقلاء العرب كانوا من قبل هذا التاريخ بنحو ثلاثين عاماً شاعرين بان السلطنة العثمانية على شفا جرف هار وانهم اذا لم يتنبهوا لامتهم فقد تضيع بضياع العثمانيين على أنهم كانوا مجمعين على سياسة معينة لا تتجاوز طلب اصلاح السلطنة العثمانية واعطاء العرب بعض حقوقهم تحت سيادتها وما كانت حالة الامة النفسية معينة لهم على عمل مفيد حاسم يخرج بالعرب ظافرين ولذلك كان طالبو الاستقلال منهم قليلين أما أكثر أولئك السياسيين العقلاء فكانوا يرمون الى البقاء في السلطنة العثمانية على أن تصلح ما اختلَّ من شؤونها وأن يكون من قواعد ذلك الاصلاح تنازل الترك عن سيادتهم الموروثة

فِيهَا لَقَدْ أَنقَذَ ٱللهُ ٱلأَعَارِبَ إِنـــقَاذًا بِقُـدْرَتِهِ مِنْ مُسْتَبِدِّينَهَا

كَأَنَّمَا حَرْبُ أُورُوبَا وَقَسْوَتُهَا وَمَا أَصَابَ ٱلْبَرَايَا مِنْ دَوَاهِيهَا

لِخِدْمَةِ ٱلْعَرَبِ ٱلأَجْوَادِ قَدْ وُجِدَتْ حَتَّى تُعِيدَ إِلَيْهَا عِزَّ مَاضِيهَا

وَهَمَّ خَزْعَلَ أَمْرُ ٱلْعُرْبِ مِنْ قِدَمٍ وَكَانَ فِيهِ يُغَنِّي ٱلنَّفْسَ يُعْيِيهَا

يَقُولُ: أَحْرَى بِقَوْمِ ٱلْمُصْطَفَى وَلَمَا مِنْ مَجْدِهَا تَالِدٌ فِي ٱلنَّاسِ يُسْمِيهَا

أَنْ تَسْتَعِيدَ بِلاَ بُطْءٍ مَفَاخِرَهَا وَأَنْ تُلاَقِيَ مِنَ ٱلأَيَّامِ هَانِيهَا

وَحَسْبُهَا إِحَنٌ دَكَّتْ مَعَالِمَهَا أَفْنَتْ مَآثِرَهَا لاَشَتْ مَعَالِيهَا

وَخَالَفَتْهَا عَلَى مَاضِي كَرَامَتِهَا تُعَالِجُ ٱلذُّلَّ مِنْ أَيْدِي مُذِلِّيهَا

وَضَيَّعَتْ مَعَهَا زَاهِيَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلآ دَابِ أَقْبِحْ بِمَنْ كَانُوا مُضَيِّعِيهَا

وَطَالَمَا ٱفْتَكَرَ ٱلْمَوْلَى بِأُمَّتِهِ كَمُشْفِقٍ بَاتَ مُرْتَابًا بِآتِيهَا

وَٱهْتَمَّ بِٱلدَّهْرِ يَبْغِي أَنْ يُصَرِّفَهُ عَلَى هَوَاهُ لِيَلْقَاهُ مُوَاتِيهَا

الى سواد الامة على ما فيها من الاجناس والمذاهب المختلفة أو اعطاء العناصر العثمانية استقلالاً داخلياً فيحكم كل عنصر نفسه في بلاده وتظلها جميعاً الراية العثمانية وكان القائلون بهذين الرأيين يعتقدون استحالة حصول العرب على الاستقلال التام لتشتت كلمتهم وخوار عزيمتهم. وكان هنالك قوم آخرون مأيوسون من اصلاح السلطنة العثمانية أو امكان حمل الاتراك على التنازل عن سلطتهم الموروثة لسواد الامة ويقولون ان لم نعمل على الاستقلال بانفسنا فصير أمتنا العربية الى الاضمحلال التام وهؤلاء كانوا الراشدين ولنا الشرف أن نحشر النفس مع هؤلاء المخلصين

أما أمراء العرب المستقلون الذين أشرنا اليهم فقد كانوا من أنصار هذا الفكر الاخير لانهم مع ثباتهم الطويل على استقلالهم بسيوف أبطالهم كانوا يعانون الامرين بالدفاع عن أنفسهم أمام هجوم الاتراك عليهم المتواصل تارة بالسيف وطوراً بالسياسة للقضاء على استقلالهم ومن حسن حظهم أنهم وجدوا من الدولة الانكليزية العادلة صديقة المسلمين عموماً والعرب خصوصاً معاونات جدية مكنتهم من الدفاع عن أنفسهم اذاء الاتراك وردت هؤلاء عنهم مقهورين. وحاول الكثيرون التوفيق بين هؤلاء الامراء والسلطنة العثمانية بوحدة قد تفيد السلطنة ولا تضر بأمراء العرب وكان هذا على نوع خاص بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ واستلام شبان الاتراك المعروفين باسم «الاتحاديين» زمام الحكم في السلطنة العثمانية فخاب فألهم وضاعت مساعيهم لأن هؤلاء الاتحاديين خطر لهم ما عجز عنه الاتراك أيام عزهم ومجدهم وهو تجديد مجد دولتهم بتدويخ العناصر وتتريكها ولا سيما العرب فكانت خطتهم الهوجاء هذه منبهة عقلاء الامة العربية الى الخطر المحدق بأمتهم واستحالة الاتفاق مع الاتراك وضرورة الانفصال عنهم

وكانت المانيا منذ تربع على عرشها الامبراطور غليوم الثاني سنة ١٨٨٨ قد نوت بمساعي

وَكَانَ يُصْفِي ٱلْوَلَاءَ جَهْرًا لِصَافِيهَا   وَمِنْهُ يَخْطُو إِلَى مَلْقَى مُعَادِيهَا
وَكَانَ أَحْصَفَ رَأْيًا أَنْ تَجُوزَ عَلَيْهِ خِدْعَةٌ مِنْ عَدُوٍّ رَاحَ يُبْدِيهَا
وَكَانَ يَعْرِفُ أَعْدَاءَ ٱلْأَعَارِبِ مَهْمَا أَظْهَرَ ٱلْوُدَّ تَمْلِيقًا مُرَائِيهَا
وَتِلْكَ أَلْمَانِيَا مَعْ مَا ٱدَّعَتْهُ مِنَ ٱلْقُوَّاتِ بَرِّيِّهَا كَذِبًا وَبَحْرِيِّهَا
وَأَنَّهَا ٱتَّخَذَتْ نَصْرَ ٱلْأَعَارِبِ وَٱلْإِسْلَامِ أَقْدَسَ مَا تَرْمِي مَرَامِيهَا
مَا ٱغْتَرَّ تَاللهِ بِٱلْأَلْمَانِ مَا خَبُثُوا   كَلَّا وَقُوَّاتُهُمْ مَا كَانَ خَاشِيهَا
وَكَانَ يَعْلَمُ مَا تَنْوِيهِ دَوْلَتُهُمْ   لِلشَّرْقِ مَكْرًا إِذَا أَمْسَى مُجَافِيهَا
وَكَانَ ذَا ثِقَةٍ بِٱلْإِنْكِلِيزِ وَهُمْ   فِي أُمَّةِ ٱلْمُصْطَفَى أَسْمَى مُعِينِيهَا
وَلَمْ يَفُتْ عِلْمَهُ مَا لِلْأَعَارِبِ مِنْ   مُنًى بِإِنْكِلْتِرَا كَانَتْ تُرَجِّيهَا
وَمَا أَكَنَّتْ مِنَ ٱلْوُدِّ ٱلْمُوَثَّقِ لِلْـ   ـعُرْبَانِ فِي كُلِّ مَثْوًى مِنْ مَثَاوِيهَا
وَشَاقَهُ مَا رَأَى مِنْ عَدْلِهَا وَمَجَا   لِي حُكْمِهَا وَٱنْثَنَى يُطْرِي مَبَادِيهَا

هذا الامبراطور أن تملك العالم وتستبد به وأخذت تعمل لهذا الغرض من الوجهتين الحربية والسياسية ومن جملة ما عملته انها استمالت السلطان عبد الحميد اليها وكان سلطاناً قادراً قاهراً قابضاً بيده الحديدية على زمام السلطنة العثمانية فماشاها وأخذ يداونها على ابلاغها مطامعها الاشعبية وهو يجهل أن دولته في هذه السياسة معرضةً للوقوع في يد الالمانيين قبل غيرها من دول العالمين اذا نجحت سياسة الالمانيين وما كاد يسقط عبد الحميد عن عرشه ويحل الاتحاديون محله حتى نحوا نحوه بمسادقه المانيا التي عرفت كيف تغرّر بهم وتمدهم بالمداونة اذا هي انتصرت على تحريك العناصر وعلى مدّ سلطان العثمانيين على العالم الاسلامي أيضاً فاغتروا بوعودها وساروا معها خطوات واسعة بعامل الطمع وسلموها زمام الدولة العثمانية فاخذت تتصرف فيها تصرف المالك بملكه

فلما أعلنت المانيا الحرب الاوربية العامة كان من جملة القوى التي استخدمتها حمل الاتحاديين على اعلان الجهاد الاسلامي ضدّ أعداء ألمانيا « بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا » باسم سلطانهم المدعي الخلافة فكان لاعلان هذا الجهاد بعض التأثير على بعض المسلمين ولم يجوزه البعض الاخر والدين قالوا بعدم جوازه هم الذين يعلمون أنّ الجهاد لا يكون الا لنصرة الاسلام أو الدفاع عنه وكانوا يرون أنّ هذه الحرب لم تشهرها المانيا الا للاعتداء على أعظم دولة عرفت بنصرة الاسلام وصداقة المسلمين وهي بريطانيا العظمى. وكان في مقدمة هؤلاء العقلاء عظمة السردار أرفع الشيخ خزعل خان أمير المحمرة الذي بسداد رأيه وبعد مواقع نظره عرف أولاً أنّ الخطر الحقيقي على الاسلام والمسلمين هو من المانيا نفسها فاذا كان ثمت اضطرار الى الجهاد الديني فيجب أن يكون ضدّها لا معها ضدّ أعدائها وثانياً ان القوات الالمانية التي اغتر بها الاتحاديون والبلغاريون وغيرهم من الناس مهما عظمت فهي عاجزة عن التغلب على بريطانيا العظمى التي جمعت بين القوة والعقل .

وَقَالَ أَليسَ سِوَاهَا عَوْنَ أُمَّتِنَا عَلَى اللَّيَالِي الَّتِي أَذجَتْ دَيَاجِيهَا

أَعْظِمْ بِهَا دَوْلَةً بِالْعَدْلِ سَائِدَةً سِيَادَةً قَهَرَتْ قَهْرًا مُنَاوِيهَا

فِي الأَمْسِ حَرَّرَتِ الْعُبْدَانَ مُحْسِنَةً فَأَصْبَحَتْ تَتَسَاوَى مَعْ مَوَالِيهَا

وَالْيَوْمَ مَدَّتْ يَدَيْهَا كَيْ تُحَرِّرَ أَقْـوَامًا قَدِ اسْتُعْبِدَتْ مِنْ مُسْتَهِينِيهَا

وَأَعْلَنَتْ أَنَّهَا حَتْمًا مُنَفِّذَةُ الـتَّحْرِيرِ مَا الدَّهْرُ عَنْهُ بَاتَ يُشْنِيهَا

وَالإِنْكِلِيزُ إِذَا قَالَتْ فَقُلْ فَعَلَتْ وَلَيْسَ يَخْرُجُ غَيْرُ الصِّدْقِ مِنْ فِيهَا

نَعَمْ وَإِنْ وَعَدَتْ لَا شَكَّ وَافِيَةٌ وُعُودَهَا رَغْمَ أَنْفِ الدَّهْرِ تُجْرِيهَا

وَإِنْ صَفَتْ صَفْوُهَا مَا شَابَهُ كَدَرٌ فَلْيَبْشِرَنَّ بِمَا يَرْجُو مُصَافِيهَا

لِذَا الْمُعِزُّ دَعَا الْعُرْبَ الْكِرَامَ إِلَيْـهَا وَهْيَ لَبَّتْ مَعَ الشُّكْرَانِ دَاعِيهَا

وَحَالَفَتْهَا عَلَى حِفْظِ الْوِدَادِ لَهَا طَوْعًا لِأَوْفَى صَفِيٍّ مِنْ مُحِبِّيهَا

وَإِنَّمَا الْعُرْبُ الْعَرْبَاءُ حَاضِرُهَا عَلَى الْوَفَا قَدْ نَشَا نَشْئًا وَبَادِيهَا

ولذلك طفق ينادي قومه العرب بوجوب الثبات على مودة أصدقائهم الانكليز وكان لندائه هـذا تأثير عظيم في نفوس كثيرين منهم كما أنه أوقف قواته وبلاده لنصرة بريطانيا العظمى وحليفاتها في هذه الحرب . ونجم عن هذه الجهود الصادقة التي بذلها هذا الامير الحكيم لقومه خير عظيم لانها سهلت انقاذ العراق من ويلات هذه الحرب فلم تصب ناسه بما أصيب به السوريون واليمنيون والسنوسيون والدرفوريون وغيرهم من الامم كما أنَّ الامارات العربية المستقلة التي نحت نحو عظمة الشيخ خزعل خان بالاخلاص لبريطانيا العظمى لم ينلها الاذى الذي نال سواها من الامارات العربية الاخرى. وهكذا كان لعظمة الشيخ خزعل خان فضل مزدوج على العراق ونجد خصوصاً وعلى العرب عموماً. كما كان خير وسيط بين أمراء العرب وساداتهم ووجوههم وبين الانكليز العادلين الاوفياء . وسيخلد التاريخ فضله كلما ذكرت النهضـة العربية التي ابتدأت بصورة جدية عند ظهور نتيجة هذه الحرب العظمى بانتصار بريطانيا العظمى وحليفاتها وانكسار المانيا وحليفاتها. فبارك الله بهذا الشيخ الجليل وأدام علاه ووفقه الى الخير الذي ينويه لأمته وبلاده بمدد المصطفى والمرتضى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام

وليس من اللغو ان نشير في ذيل هذه القصيدة المباركة الخالدة الى مساعينا في سبيل العرب. . . فنفتخر اننا كنا نجهر بحقوق العرب ونطالب باستقلالهم من سنة ١٨٩٨ وهي السنة التي هجرنا فيها حلب « سوريا » وتدمنا مصر وقد ترسمنا في ذلك خطوات المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي فيلسوف الاسلام وصاحب كتابي « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » فاشتغلنا معه الى سنة وفاته « ١٩٠٢ » رحمه الله ثم مضينا على سنته ندعو العرب الى صون « ذاتيتهم » ونطالب بحقوقهم ولا ننسى ما لاقيناه وقتئذٍ من مأجوري عبد الحميد من الاضطهاد بدعوى انا نفرق بين

نُصفِي ٱلوَلاءَ مُصَافِينَا وَنَشكُرُ مَنْ   يُسْدِي إِلَيْنَا جَمِيلَ ٱلصُّنْعِ نَجْزِيهَا
تَاللهِ مَا ٱلغَدْرُ مِنْ أَخْلاَقِنَا أَبَداً   وَلاَ ٱلْخِيَانَةُ تَدْرِينَا وَنَدْرِيهَا
وَلاَ شَرِيعَتُنَا ٱلسَّمْحَا تُعَلِّمُنَا   سِوَى ٱلخِلاَلِ ٱلَّتِي يَسْمُو تَجَلِّيهَا
وَإِنَّنَا شِيعَةُ ٱلسِّرْدَارِ أَرْفَعِ لاَ   نَأْوِي سِوَى خِطَطٍ قَدْ رَاحَ يَبْنِيهَا
نَخْطُو خُطَاهُ وَأَنَّى سَارَ نَتْبَعُهُ   بِهِ أَمِنَّا ضَلاَلَ ٱلسَّيْرِ وَٱلتِّيهَا
فَقَدْ رَأَى ٱلشَّيْخُ مَا فِي ٱلإِنْكِلِيزِ مِنَ ٱلـ   ـمَآثِرِ ٱلْغُرِّ عَالِيهَا وَزَاهِيهَا
فَمَدَّ يُمْنَاهُ بِٱلإِخْلاَصِ صَافِحَهَا   فَصَافَحَتْهُ بِإِخْلاَصٍ بِأَيْدِيهَا
وَٱسْتَوْثَقَ ٱلعُرْبُ مِنْهَا بِٱلْمُعِزِّ وَبَا   تَتْ تَرْتَجِي ٱلصَّفْوَ مِنْ دَاجِي لَيَالِيهَا
وَإِنَّهَا لَمْ تَخِبْ فِي ظَنِّهَا وَأَمِيـ   ـرُ ٱلعُرْبِ لِلْمَجْدِ وَٱلإِسْعَادِ يُمْشِيهَا
مُعِزُّ سَلْطَنَةِ ٱلإِسْلاَمِ خَزْعَلُ مَنْ   نَاطَتْ بِهِ ٱلعَرَبُ ٱلعَرْبَا أَمَانِيهَا
وَإِنَّ قَوْماً جَنَابُ ٱلشَّيْخِ قُدْوَتُهَا   أَمِنْ مَسَارِحُهَا يُمْنٌ مَسَاعِيهَا
وَفِيهِ تَبْلُغُ أَسْنَى مَا ٱشْتَهَتْهُ مِنَ ٱلـ   ـمُنَى وَمَا غَيْرُهُ تَاللهِ يُشْهِيهَا

العرب والاتراك وهذه جرائد المؤيد والعلم والشعب الصادرة من سنة ١٩٠١ الى ١٩١١ ملأى بكتابتها ضدنا والطعن بنا ولا ذنب لنا في نظرها الا اننا ندافع عن قومنا العرب . وقد كنا نطلب للعرب أمراً من أمرين فاما ان يتحدوا باسرائهم على نحو اتحاد الولايات الاميريكية الشمالية ويظلون في السلطنة العثمانية دولة مستقلة كما كانت دولة المجر في الامبراطورية النمسوية واما ان يستقلوا استقلالا تاماً ويؤلفوا « ولايات متحدة » بنفس النظام الاميريكي ولهذا الغرض تجولنا في البلاد العربية وأكثرنا من مخاطبة الاتحاديين للتفاهم معهم واحتلفنا مع اللامركزيين السوريين في مؤتمر باريس سنة ١٩١٣ الذي شهدناه بأنفسنا ووجه اختلافنا معهم هو انهم كانوا يطلبون من الاتراك ان يعطوا العناصر العثمانية الاستقلال الداخلي على قاعدة اللامركزية ومن جملتها العرب وتكون كل ولاية مستقلة في داخليتها ومرجعها الاستانة عاصمة الترك ونحن كنا نقول ان مصلحة العرب ان يكونوا جميعاً قوةً واحدة ازاء السلطنة التركية ولهم فيما بعد من أنفسهم ما يوصلهم الى تنسيق الاحكام في داخليتهم . ونحن أول من نادى بان المؤتمرين في باريس سيستسلمون الى مواعيد الاتحاديين الخلابة ويطمعون بوظائفهم وهكذا كان فانهم ما عادوا من باريس الا للتربع على دسوت الوظائف التي اتفقوا عليها مع الاتحاديين وهكذا قرر الاتحاديون بقتل النهضة العربية وقتئذ . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ للعرب الاضمحلال فهيأ لهم هذه الحرب العامة في العام التالي « ١٩١٤ » وبقذفهم الى الابد من الحكم التركي . وما علينا نحن العرب بعد هذا الا ان نعمل لتجديد مجدنا مستفيدين من المعاونات الثمينة التي نلقاها من دولة العدل والفضل صديقتنا بريطانيا العظمى الوفيه

مناقب عظمة السردار أرفع

وَٱلشَّيْخُ خَزْعَلُ مَحْمُودُ ٱلْمَنَاقِبِ مَمْدُوحُ ٱلْخَلَائِقِ عَالِي ٱلنَّفْسِ رَاضِيهَا(١)

وَٱللهِ مَا عَرَفَ ٱلْعُرْبُ ٱلْكِرَامُ أَمِيرًا فِي شَمَائِلِهِ أَوْ مَا يُحَاكِيهَا

قَدِ ٱتَّقَى ٱللهَ تَقْوَى مُسْلِمٍ وَرِعٍ فَنَزَّهَتْهُ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ تَنْزِيهَا(٢)

وَوَاصَلَ ٱلْعَمَلَ ٱلْمَبْرُورَ مُتَّبِعًا آيَ ٱلْكِتَابِ وَمَا نَصَّتْ مَثَانِيهَا

فَلَمْ يَجُزْ مَا تَجَلَّى مِنْ أَوَامِرِهَا يَوْمًا وَلَا مَا تَلَقَّى مِنْ نَوَاهِيهَا

مُتَبِّعًا سُنَّةَ ٱلْهَادِي وَهَدْيَ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَبِٱلْإِحْكَامِ يُجْرِيهَا

فِي دَوْلَةٍ بِحِمَاهُ بَاتَ سَاكِنُهَا أَوْفَى ٱلْأَعَارِبِ إِسْعَادًا وَتَرْفِيهَا

فَٱلشَّيْخُ نَاصِرُ بَارِيهِ بِكُلِّ قِوَا هُ وَهْوَ سُبْحَانَهُ لُطْفًا مُقَوِّيهَا(٣)

وَقَلْبُهُ لِرَعَايَاهُ فَيَرْحَمُ أَهْلَ ٱلضَّعْفِ مِنْهَا وَيَعْفُو عَنْ مُسِيئِيهَا(٤)

وَزَهْوَةُ ٱلْمُلْكِ لَمْ تُنْسِ ٱلْأَمِيرَ جَلَا لَ ٱللهِ حَتَّى تَجَافَى ٱلزَّهْوَ وَٱلتِّيهَا(٥)

---

(١) ان مناقب عظمة مولاي ولي النعم السردار أرفع المعظم من أعلى المناقب وأسناها وأشرفها فقد جمع بشخصه المحبوب أسمى الاخلاق الكريمة العربية ، وأدب نفسه الرضية بالآداب العالية الاسلامية ، على ما استفاده من أصله الطيب وحسبه الأثيل ، ومما اقتبسه من القرآن الشريف وأحاديث المصطفى ومواعظ المرتضى عليهما الصلاة والسلام ، كيف لا وهو العربيّ الابيّ سليل أعظم بيوتات العرب كابراً عن كابر ، وله من حسبه وأدبه أعظم الامجاد والمفاخر ، وهو المسلم الورع المتأدب بآداب القرآن ، والمقتفي خطوات النبي الامي خير ولد عدنان ، والمتفقه بمواعظ أمير المؤمنين عيبة العرفان ، والمتربي أفضل تربية اسلامية جعلته قرة عين الزمان ، فبارك الله بعظمته الملوكية ليدوم مصدر كلّ برّ واحسان ، وأدام علاه ذخراً وفخراً للعرب والاسلام ، مدى الايام

(٢) قد اقتبس عظمة السردار أرفع هذا من كتاب أمير المؤمنين عليه صلوات الله الى الاشتر النخعي حين ولاه مصر اذ « أمره بتقوى الله وايثار طاعته ، واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه ، التي لا يسعد أحد الا باتباعها ، ولا يشقى الا من جحودها واضاعتها »

(٣) وهذا مقتبس من ذلك الكتاب الجليل اذ أمر أمير المؤمنين الاشتر « ان ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه ، فانه جلّ اسمه قد تكفل بنصر من نصره واعزاز من أعزه »

(٤) وهذا مقتبس من ذلك الكتاب الكريم اذ أمر أمير المؤمنين الاشتر فقال « واشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم »

(٥) مقتبس من ذلك الكتاب البهي اذ قال أمير المؤمنين للاشتر « واذا حدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة ومخيلة ، فانظر الى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك »

وَأَنْصَفَ ٱللَّهَ بَرًّا فِي رَعِيَّتِهِ . مِنْ نَفْسِهِ وَٱلأُلَى مِنْ مُسْتَحِبِّيهَا(١)

وَمَا تَوَخَّى أُمُورًا لَا يُلَائِمُهَا حَقٌّ صُرَاحٌ وَلَا عَدْلٌ يُؤَاخِيهَا(٢)

وَقَدْ تَحَبَّبَ فِي سَامِي فَضَائِلِهِ إِلَى ٱلرَّعَايَا مُصَلِّيهَا وَذِمِّيهَا(٣)

سَاوَى بِعَدْلِ كِتَابِ ٱللَّهِ مُتَّقِيًا مَا بَيْنَ مُتْرِبِهَا ٱلْعَافِي وَمُثْرِيهَا

وَعَنْهُ أَبْعَدَ أَرْبَابَ ٱلْمَفَاسِدِ لَمْ يَدَعْ لَهَا سُلْطَةً يَشْكُو تَسَطِّيهَا(٤)

وَلَا ٱلسُّعَاةُ لَدَى عَلْيَائِهِ قَدْ وَجَدَتْ أُذُنًا وَلَا عِنْدَهُ قَدْ فَازَ وَاشِيهَا(٥)

وَلَا ٱسْتَشَارَ حَرِيصًا فِي مَكَارِمِهِ يُثْنِيهِ عَنْ حَسَنَاتٍ هَمَّ يُسْدِيهَا(٦)

وَلَا ٱسْتَشَارَ جَبَانًا فِي مُحَارَبَةِ ٱلأَ عْدَا وَكَانَ بِلَا شَكٍّ مُلَاشِيهَا

وَلَا ٱسْتَشَارَ غَبِيًّا فِي سِيَاسَتِهِ ٱلْـ ـحُسْنَى ٱلَّتِي تَاهَ أَرْبَابُ ٱلذَّكَا فِيهَا

سَفِينَةُ ٱلْمُلْكِ فِي بَحْرِ ٱلزَّمَانِ بِمَا أُوتِيَ مِنَ ٱلْحَزْمِ يُجْرِيهَا وَيُرْسِيهَا

مُبَرْهِنًا أَنَّهُ رُبَّانُهَا وَإِلَى أَمْثَالِهِ قِيلَ أَعْطِ ٱلْقَوْسَ بَارِيهَا

تَاللَّهِ مَا سَامَ خَسْفًا أَوْ بَغَى حَكَمًا فِي أُمَّةٍ سَعِدَتْ إِذْ بَاتَ رَاعِيهَا

---

(١) مقتبس من أمر أمير المؤمنين للاشتر في ذلك الكتاب النفيس اذ قال « أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك، ومن لك هوى فيه من رعيتك فانك ألا تفعل تظلم »

(٢) مقتبس من ذلك الكتاب العزيز اذ قال أمير المؤمنين « وليكن أحب الامور اليك أوسطها في الحق ، واعمها في العدل ، وأجمعها لرضى الرعية »

(٣) مقتبس من دلك الكتاب النفيس اذ قال أمير المؤمنين « واشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فانهم صنفان : اما أخ لك في الدين ، واما نظير لك في الخلق »

(٤) مقتبس من دلك الكتاب البديع اذ قال أمير المؤمنين « وليكن أبعد رعيتك منك ، وانثاهم عندك ، اطلبهم لمعايب الناس ، فان في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها ، فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فانما عليك تطهير ماظهر لك، والله يحكم على ماغاب عنك، فاستر العورة ما استطعت ، يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك »

(٥) مقتبس من ذلك الكتاب الازهر اذ قال أمير المؤمنين للاشتر « لا تعجلن على تصديق ساع ، فان الساعي غاش وان تشبه بالناصحين »

(٦) مقتبس من دلك الكتاب الافضل اد قال للاشتر « لا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ، ويعدك بالفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الامور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله »

وَإِنَّهُ وَهُوَ ذُوْ عِلْمٍ وَذُوْ عَمَلٍ ... بِعِلْمِهِ وَوُجُوْهُ ٱلْخَيْرِ آتِيهَا

تَزْدَانُ مَجْلِسُهُ بِٱلسَّادَةِ ٱلْعُلَمَا ... هُمُ لِأُمْرَتِهِ أَسْمَى مُشِيرِيهَا

وَلَمْ يَفُتْ عِلْمَهُ أَنَّ ٱلرَّعَايَا صُنُو ... فٌ لَا حَضَارَةَ إِلَّا فِي تَآوِيهَا (١٢)

فَرَاحَ يَهْتَمُّ فِي إِسْعَادِ جُمْلَتِهَا ... عَلَى تَفَاوُتِهَا قَدْرًا وَتَوْجِيهَا

حَتَّى تَمَلَّكَ أَلْبَابَ ٱلْجَمِيعِ فَبَا ... تَتْ وَهْيَ مُشْغَلَةٌ حُبًّا وَتَوْلِيهَا

يُحْيِي لَيَالِيَهِ فِي دَفْعِ ٱلْأَذِيَّةِ عَنْـــهَا وَهِيَ نَائِمَةٌ ... فِي ظِلِّ مُحْيِيهَا

قَدِ ٱطْمَأَنَّتْ فَلَا ٱلْأَخْطَارُ تَدْهِمُهَا ... فِي ظِلِّهِ لَا وَلَا ٱلْأَقْدَارُ تُؤْذِيهَا

وَقَدْ ثَنَتْ نُوَبَ ٱلْأَقْدَارِ هِمَّتُهُ ٱلْـــقَعْسَاءُ عَنْهَا ... فَلَا تَعْدُوْ عَوَادِيهَـــا

وَٱلْعُرْبُ تَغْبِطُهَا وَٱلْعُجْمُ تَحْسِدُهَا ... عَلَى ٱلْمُعِزِّ ٱلْمُفَدَّى وَهْوَ حَامِيهَا

مَلِكٌ مَنَاقِبُـــهُ ٱلْغَرَّاءُ آخِذُهَا ... عَنِ ٱلْوَصِيِّ كَمَا قَدْ كَانَ مُمْلِيهَا

وَمَا ٱلْوَصِيُّ سِوَى إِسْتَاذِهِ وَمُرَبِّـــيهِ ... بِهِ قَدْ سَمَا فَضْلًا وَتَفْقِيهَا

وَمَنْ تَتَبَّعَ آثَارَ ٱلْوَصِيِّ حَوَى ... مِنَ ٱلْمَنَاقِبِ سَامِيهَا وَرَاقِيهَـــا

وَبَاتَ أَسْمَى ٱلْوَرَى فَضْلًا وَأَعْظَمَهُمْ ... قَدْرًا وَإِنَّ خِلَالَ ٱلنَّاسِ تُعْلِيهَا

---

(١٢) مقتبس من ذلك الكتاب الفريد اذ قال أمير المؤمنين للاشتر « واعلم أن الرعية طبقات ، لا يصلح بعضها الا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من أهل الحاجات والمسكنة ، وكلٌّ قد سمى الله له سهمه ، ووضع على حدّه وفريضته في كتابه ، أو سنة نبيه (صلى الله عليه وآله) عهداً منه عندنا محفوظاً ، فالجنود باذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين ، وسبل الامن ، وليس تقوم الرعية الا بهم ، ثمَّ لا قوام للجنود الا بما يخرج الله لهم من الخراج ، الذي يقوون به على جهاد عدوّهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم ، ثمَّ لا قوام لهذين الصنفين الا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد ، ويجمعون من المنافع ، ويؤتمنون عليه من خواصّ الامور وعوامها ، ولا قوام لهم جميعاً الا بالتجار وذوي الصناعات ، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ، ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفّق بأيديهم ، مما لا يبلغه رفق غيرهم ، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة ، الذين يحق رفدهم ومعونتهم ، وفي الله لكلٍّ سعة ، ولكلٍّ على الوالي حق بقدر ما يصلحه ، وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله تعالى من ذلك ، الا بالاهتمام والاستعانة بالله ، وتوطين النفس على لزوم الحق والصبر عليه ، فيما خفّ عليه أو ثقل »

شجاعة عظمة السردار أرفع وحروبه

وَٱلشَّيْخُ خَزْعَلُ خَوَّاضُ ٱلمَعَامِعِ مَنْصُورُ ٱللِّوَا فَارِسُ ٱلْهَيْجَا مُجَلِّيهَا(١)

مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ ٱللهِ نَاصِرُهُ … بِسَيْفِهِ وَعِدَاةُ ٱللهِ مُرْدِيهَا

يَسْعَى بِنَفْسٍ يَهَابُ ٱلمَوْتُ سَطْوَتَهَا … إِلَى صُفُوفِ ٱلْعِدَى يَفْرِي هَوَادِيهَا

نَفْسٌ تَخَالَطَ بِٱلتَّقْوَى أَبَا حَسَنٍ … أَجَلْ بِهِ شَجُعَتْ مَا مَنْ يُقَاوِيهَا

وَعَنْهُ قَدْ فَقِهَ ٱلْتِقْتَالَ مَارِسَهُ … وَبِٱسْمِهِ يَقْهَرُ ٱلأَبْطَالَ يُغْنِيهَا

وَآيَةُ ٱلْفَتْحِ بِٱلإِقْبَالِ قَدْ كُتِبَتْ … لِجُنْدِهِ فَرَأَتْهَا فِي مَغَازِيهَا

وَحَسْبُهَا بِٱسْمِهِ تَلْقَى ٱلْعِدَى وَلَحَسْبُ … ٱلنَّصْرِ فَخْراً وَعِزّاً أَنْ يُمَاشِيهَا

وَمَنْ يُعَادِ أَبَا ٱلأَشْبَالِ خَزْعَلَنَا … عَادَى ٱلأَعَارِبَ فِي أَسْمَى مُجَيَّرِيهَا(٢)

وَلِلْحَنِيفِيَّةِ ٱلسَّمْحَا وَأُمَّتِهَا … عَادَى وَمَا كَانَ ذَا رُشْدٍ مُعَادِيهَا

وَمَا عِدَاهُ سِوَى شَرِّ ٱلْعِدَى وَلَهَا … مِنْ سَيْفِهِ مَا ٱنْتَضَاهُ مَا يُرَبِّيهَا

---

(١) من أظهر مظاهر عظمة مولانا السردار أرفع الشيخ خزعل خان شجاعته في حروبه فهو خواص المعامع منصور اللواء غازي الأعداء وانه أطال الله بقاءه يفتخر بأنه تلقى دروس الشجاعة على بسيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله بدرسه مغازيه العلوية المشهورة وطالما شهد العراقيون حروبه ودهشوا من جرءته في لقاء صفوف أعدائه منفرداً وذلك لحسن ايمانه وثقته بربه وأمداد أحبته المصطفى والمرتضى وآلهما الخيرين عليهم الصلاة والسلام. ومما نثبته مع الافتخار في هذا الباب أن عظمة الشيخ خلد الله ملكه وأيد عرشه ما خاض حرباً ظالمة ولا طلب القتال الا في سبيل الله ولنصرة دين الله شأن المسلم الصالح الورع. كما نذكر بافتخار أن النصر كان حليف جيوشه المنصورة في كل الحروب التي خاضت غمارها باسمه وتحت لوائه الوارف الظلال

(٢) لا جرم أنَّ من يعادي عظمة مولانا السردار أرفع الشيخ خزعل خان فقد عادى الاسلام في نصيره الأكبر والعرب في أميرهم الأشهر وهو عداء صاحبه ملوم ومقهور معاً وكيف لا يكونه عدو عظمة المعز عدواً للاسلام والعرب وقد ذاع وشاع وملأ الاسماع ما لهذا الأمير الجليل والمليك المهاب من المساعي الطيبة في خير العرب وفي سبيل الاسلام وقد خدمهما بسيفه وماله وعلمه وجاهه خدمات مشهورة خالدة آخرها وقفته العظمى في العراق في وجه الألمانيين المستنصرين بالأتراك وفي صداقته الطيبة النتائج للدوله الانكليزية الوفية صديقة الاسلام والعرب الوحيدة سنة ١٩١٥

نعم فقد أثبت تاريخ النهضة العربية الحديثة ان الامير الاكبر والحازم الاشهر مولاي معز السلطنة سردار أرفع صاحب العظمة الشيخ خزعل خان أمير نويان وسردار عربستان كان اول وأقدر من دعا قومه العرب الى موادة بريطانيا العظمى والاعتصام بها للنجاة من الاستعباد التركي

اللهُ أكبرُ ذا السَّرْدَارُ أرفَعُ مُرْ ... دِيهَا وَمُهْلِكُهَا هُلْكاً وَغَازِيهَا
وَإِنَّهُ كَافِلٌ أَيْتَامِهَا وَنِسَا ... هَا فِي مَوَاقِفِهَا السُّوءَى وَكَافِيهَا
وَمَا عَرَفْنَا مَلِيكاً قَبْلُ قَدْ قَتَلَ الآ ... م بَاءَ بِالعَدْلِ وَاسْتَحْيَا ذَرَارِيهَا (١)
وَتِلْكَ مَكْرُمَةٌ مَا جَاءَهَا مَلِكٌ ... وَلَا التَّوَارِيخُ أَبْدَتْ مَا يُحَاكِيهَا
إِلَّا عَنِ المُرْتَضَى السَّامِي وَرَحْمَتُهُ ... مَأْثُورَةٌ طَمِعَتْ أَعْدَاؤُهُ فِيهَا
فَكَانَ يُعْنَى بِأَيْتَامِ الخَوَارِجِ إِحْـ ... ـسَاناً وَآبَاؤُهَا الأَشْرَارُ يُفْنِيهَا
وَإِنَّهُ عَضُدُ السَّرْدَارِ نَاصِرُهُ ... عَلَى عِدَاهُ وَمُعْلِيهِ وَمُخْزِيهَا

الالماني وطالما سمعه العرب مشيراً بمدلها متمثلا بمحامد رجالها حتى اذا ما استعر لهب الحرب العامة وخاضت تركيا غمارها طوعا للالمانيين الذين كانوا مسيطرين عليها ومشترين ذمم الاتحاديين وهم رجالها فحملوهم على التغرير بالمسلمين باعلان الجهاد العام فغترّ به كثيرون من الجهلاء الذين لا يعرفون أحكام الجهاد ومسوغاته وانه لا يكون صحيحاً اذا نادى به سلطان تركي مغلوب على أمره كمحمد رشاد لنصرة دول مسيحية كالمانيا والنمسا على دول مسيحية كفرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى حينئذٍ تصدّى هذا الامير العربي الكبير ونادى بقوة بصوته الجهير مظهراً خطأ الاتحاديين بزجهم الدولة التركية في أهوال هذه الحرب بغير فائدة لهم ولا للاسلام الذي نادى سلطان الترك بالجهاد لاجله ولا للمسلمين الذين كانت مصالحهم الحقيقية بالانضمام للحلفاء أنصار الديموقراطية الضامنة حرية الشعوب الضعيفة فقال حقاً ونطق صدقاً وفاز الألى أصغوا لكلماته الحكيمة وآب بالخسران الألى أصموا مسامعهم عنها واذا كان الحقّ أحقّ ان يقال فان هذا الامير الجليل العربي حفظه الله وصانه وأيد سلطانه خدم المصلحة العربية أفضل الخدم في انقاذ العراق من براثن الاتراك والالمان عند ما أقبل في سنة ١٩١٥ الجيش الانكليزي المهدي المنصور لتطهيره من جيوشها التي كانت تعيث فيه فساداً فسبق غيره من أمصار العرب بالتحرير وسبقها بالتعمير أيضاً. ويسرنا ان الانكليز الاوفياء يعرفون لعظمته هذا الاخلاص والفضل. وان العراقيين وعموم العرب يعترفون لذاته الملوكية بهذه المنة التي نالوا بها أفضل ما كانوا يصبون اليه من سؤل.

(١) من أدهش ما يروى من نوادر الملوك وأعجب ما ينقل عنهم ما نرويه عن عظمة مولانا السردار أرفع أزاد الله علاه من الرأفة والشفقة ليس على رعاياه المخلصين فقط بل وعلى أعدائه أيضاً فقد رأيناه مرأى العين كما رأى وسمع العراقيون وكثيرون من أهل جزيرة العرب ان هذا الأمير الجليل ما عاد منصوراً من حرب عشيرة نشزت عليه أو قوم من جيرانه اعتدوا على أمارته العلية الا ويبادر الى اسعاف الأرامل والأيتام الذين قتل آباؤهم وأزواجهنّ في حروبه فكان حفظه الله يكفلهم بمحض برّه واحسانه ويدرّ عليهم الخير بدافع مروءته وشفقته وانها لعواطف شريفة يحق أن تخلد بماء الذهب لهذا الأمير الحليم الشفوق الذي جاء بما لم يسمع الناس مثله من تواريخ المتقدمين من الملوك والأقيال الا عن المرتضى أمير المؤمنين عليه صلوات الله الذي رأيناه يعنى بذراري الخارجين عليه ويعولهم وهكذا كان عظمة مولانا السردار أرفع مقلداً بكل قواه امامه الأعظم بل أعظم أئمة الدين الحنيف

كرم عظمة السردار أرفع

وَمَنْ أَرَادَ ٱلْغِنَى عفوًا بِلَا تَعَبٍ ... مَعَ ٱلْوَجَاهَةِ فِي أَبْهَى مَجَالِيهَا(١)

فَفِي مُحَمَّرَةٍ وَٱلْمَجْدُ سَاكِنُهَا ... وَٱلْجَاهُ وَاطِنُهَا وَٱلْجُودُ آوِيهَا

هُنَالِكَ ٱلشَّيْخُ فِي دَسْتِ ٱلْإِمَارَةِ تَأْ ... تِيهِ ٱلْعُفَاةُ فَيُولِيهَا تَرَجِّيهَا

هُنَالِكَ ٱلْمَالُ يَهْمِي مِنْ أَنَامِلِهِ ... هَمْيَ ٱلسَّحَابِ وَقَدْ هَلَّتْ هَوَامِيهَا

فَلِلْقَرِيبِ ٱلْغَوَادِي مِنْ دَرَارِيهَا ... وَلِلْبَعِيدِ ٱلدَّرَارِي مِنْ غَوَادِيهَا

وَٱلشَّيْخُ يَلْقَى ٱلْعَوَافِيَ فِي تَلَطُّفِهِ ... كَأَنَّهُ آخِذٌ مَا هَمَّ يُعْطِيهَا

يَبُشُّ لِلنَّاسِ مَا تَغْشَى مَنَازِلَهُ ... وَيَلْتَقِيهَا بِتَرْحَابٍ وَيَقْرِيهَا

ثَمَّتَ بِأَمْوَالِهِ ٱلْكُبْرَى يُحَكِّمُهَا ... يَقُولُ مِنْ حَقِّهَا أَمْوَالُ بَارِيهَا

يَصِيحُ مَعْ سَيِّدِ ٱلْإِحْسَانِ حَيْدَرَةٍ ... إِذْ كَانَ يُولِي عَطَايَاهُ عَوَافِيهَا

مَا كُنْتُ يَوْمًا بِصَفْرَاءٍ أُغَرُّ وَبَيْــ ... ــضَاءٍ إِذَا ٱغْتَرَّ بِٱلْأَمْوَالِ قَانِيهَا

---

(١) قد يخطر لقاريء هذه الملوية المباركة اننا نحذو حذو الشعراء في وصف الكرم الخزعلي الذي نغير حدال أصبح مضرب الامثال في الناس بحاتماً ومعناً وغيرهما ممن اشتهروا بالجود والعطاء وأصبح عظمة مولانا الشيخ المعز سيد المحسنين الكرماء ووالله لو حاولت أن أسطر نوادر عظمه الملوكيه في كرمه الحتان لاحتجت الى كتب ضخمة كهذا الكتاب وحسبي أنَّ هذه النوادر يتناقلها الناس في كل قطر وصقع بل حسبي أن الناس تقصد ساحة المعز من بعيد الامصار فلتلقى عنده ما تشتهي من ثرى ويسار

نقرأ عن حاتم الذي أصبح مضرب الامثال للكرام في الجاهلية والاسلام أنه كان ينحر الابل لقاصديه أو يهديهم الانعام وهذا كثير على مثله وفي مثل البيئة التي عاش فيها فنقول أين حاتم وأين زمانه؟ ونقرأ في كثير من التواريخ عمن تقدم من خلفاء العرب وملوكهم وأمرائهم أنهم كانوا يجودون على الشعراء بألوف الالوف من الدراهم والدنانير فيقول قائلنا من لنا بمثل أولئك الاجاويد يشترون الشعر بالمال ويكفون الشعراء ذل السؤال ونفقات العيال؟ ألا والذي نفسي بيده أليَّة صادق تؤيده المشاهدات ان العرب لم تظفر بكريم كعظمة السردار أرفع يجود بالبيضاء والصفراء للشعراء والعلماء والعفاة والفقراء بل ائتوني بقاصد سأل الشيخ المعز ولم يظفر بنعمه واحساناته من ألوف تصادق لا رحم تقولي وأجهر بأني من الملفقين الكاذبين على أني آتيكم بذكر ألوف الالوف ممن أغناهم الشيخ بعد الفقر وما زالوا عائشين في نعمة ورفاه ويسر

ومما نذكره لعظمة السردار أرفع أنه يبذل المال قبل السؤال وهو مستح كانك تعطيه الذي أنت نائله وطالما سمعناه يردد قول أمير المؤمنين عليه صلوات الله « يا صفراء ويا بيضاء غري

أَشْرِيَ بِهَا مُرْتَضَى رَبِّي وَمَثُوبَةَ ٱلْأُ م خْرَى ٱلَّتِي خَيْرُ خَلْقِ ٱللهِ شَارِيهَا

نَعَمْ أَبَا جَاسِبٍ جَدْوَاكَ شَامِلَةٌ عُفَاتُكَ ٱلْكُثْرُ دَانِيهَا وَنَائِيهَا

كَسَبْتَ فِيهَا رِضَى طَـهَ وَأَحْمَدَ وَآلْـوَصِيِّ وَآلْآلِ مَعْ شُكْرَانِ عَاطِيهَا

فَآلْعُرْبُ تُثْنِي عَلَى عَلْيَاكَ تَحْمَدُهَا حَمْدًا يُرَدِّدُ فِي مُشْجِي أَغَانِيهَا

وَآلْعُجْـمُ تَنْقِلُ عَنْهَا مَا تُرَدِّدُهُ مِنَ ٱلثَّنَاءِ فَيَفْشُو فِي مَآوِيهَا

وَفَضْلُ خَزْعَلَ أَمْسَى فِي ٱلْوَرَى مَثَلًا بِهِ نَسَتْ مَعْنَهَا ٱلسَّاخِيَ وَطَائِيهَا

وَلَسْتَ تَسْمَعُ فِي ٱلْأَفْوَاهِ غَيْرَ ثَنَا تِلْكَ ٱلْأَيَادِي يَلِيهِ قَوْلُ مُنْشِدِيهَا

وَمَنْ يَكُنْ جُودُهُ جُودُ ٱلْوَصِيِّ عَوَا فِيهِ لَقَدْ بَلَغَتْ أَقْصَى تَمَنِّيهَا

تقوى عظمة السردار أرفع

وَآلشَّيْخُ خَزْعَلُ فِي بَارِيهِ مُشْتَغِلٌ بِرًّا وَتَقْوَى وَإِيمَانًا وَتَدْلِيهَا (١)

لَهُ تَوَجُّهُ فِي حُسْنِ ٱلْعِبَادَةِ وَآلْـهُجُودِ مُطَهِّرُ ٱلنِّيَّاتِ نَاقِيهَا

لِوَجْهِهِ يَعْمَلُ ٱلْخَيْرَاتِ يَبْذُلُهَا لِلنَّاسِ لَا يَرْتَجِي إِلَّا ٱلرِّضَى فِيهَا

يُثْنِي عَلَيْهِ ثَنَاءَ ٱلْمُسْلِمِ ٱلْوَرِعِ ٱلْـتَّاقِي ٱلَّذِي عِزَّةُ ٱلْبَارِي يُرَجِّيهَا

غيري » بل طالما شهدنا هذا الامير الجليل أمدَّنا الله بطول حياته وجعلنا فداه يبذل أمواله على عفاته وهو يقول «انه مال الله لعباد الله وما أنا الا أمين عليه »

ومما نفتخر باثباته هنا أن عظمة مولانا المعز أمدَّ الله في عمره السعيد من أعمارنا أنه يأبى سماع الشكر على ما يسديه من بر حتى أنه ليخجل مما يتلى على مسامعه الشريفة من صادق أماديحه من أفواه الشعراء الكثيرين الذين يقصدون ساحته ويقاطعهم بقوله « غاليتم » أو قوله « وفقني الله لتحقيق ما تقولون »

وقصارى القول أنَّ عظمة مولانا السردار أرفع قد جدَّد عهد الرشيد في عهده الازهر وبات بيت القصيد من كل ما يذاع من آيات الكرم ويشهر

(١) ان القول في تقوى عظمة مولانا السردار أرفع الشيخ خزعل خان وانصرافه بكليته الى الله شأن المسلم الورع لا يحتاج الى برهان وكل من عرف عظمته الملوكية وفاز بنعمة التشرف بمعرفته السنية يرى شهادة عيان من تمسك عظمته بأحكام القرآن وقضاء الفروض والنوافل في كل مكان وزمان ما يدرك معه مبلغ ما في نفسه الطاهرة من الصلاح والبر والتقوى وهو حفظه الله يسدي الخيرات ويواصل الحسنات بالحسنات لوجه الله الكريم يطلب بها ثواب الآخرة لا الوجاهة في هذه الحياة الدنيا على أنه رعاه الله فاز بهما جميعاً

فلستَ تلقاهُ إلاّ في عبادتهِ   مُصلّياً صائماً بالبرِّ يقضيها
أوْ في فرائضهِ العَلْيا يُتمّمها   أوْ في أوامرهِ بالطوعِ يُمضيها
وبالرّسولِ وآلِ البيتِ أجمعِهم   لقدْ تولّهَ بالإخلاصِ توليها(١)
مُستشفعاً بهمِ عندَ الإلهِ وهُمْ   قدْ نوّهوا باسمهِ للهِ تنويها
عليهمِ كانَ بعدَ اللهِ مُتّكلاً   في أمرِ إمرتهِ مذْ باتَ واليها
ومَنْ يكنْ برسولِ اللهِ مؤتزراً   معْ آلهِ وهوَ مُصفيهِ ومُصفيها
يلقَ الليالي أميناً منْ مخاطرِها   ولا تُلاقيهِ إلاّ في تهانيها
وللوصيِّ هوىً في نفسِ خزعلَ فهـ   ـي فيهِ مُشغفةٌ والحبُّ مُحييها(٢)
وقدْ تثقّفَ في علمٍ وفي عملٍ   على مواعظهِ إذْ راحَ واعيها
فما لديهِ معَ القرآنِ غيرُ كتا   بِ المُرتضى لِمُربّي النفسِ يُرقيها
بذا انجلى خزعلُ الوافي العلاءِ بأخـ   ـلاقٍ حسانٍ تناهتْ في تساميها
وآضَ أفضلَ منْ نالَ السّيادةَ واستـ   ـترضى بآلائهِ الحسنى مُسوديها
وحسبُهُ أنّهُ قدْ كانَ مُتّبعاً   آثارَ حيدرةٍ برّاً وقافيها

دعاء الحجاج لعظمة السردار أرفع

وها الحجيجُ بإحرامِ التقاةِ حيا   لَ البيتِ ناسكةٌ والبرُّ غاشيها

---

(١) قد امتاز عظمة مولانا السردار أرفع روحي فداه بحبه واخلاصه للنبي العربي الامي محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام فلا تلفيه الا وهو يشرف مجالسه بالصلاة على المصطفى وذكر شرفه وما نال الخلائق من الخير برسالته المقدسة داعياً الناس الى التخلق بأخلاقه القدسيه والتأدب بآدابه العليا ثم ينصرف الى الله سبحانه فيقول مع المرتضى عليه صلوات الله « اللهمّ هو أمينك المأمون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة، ورسولك بالحق رحمة، اللهمّ أقسم له مقسماً من عدلك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك، اللهمّ أعلِ على بناء البنائين بناءه، وأكرم نزله، وشرف عندك منزلته، وآته الوسيلة، وأعطه السناء والفضيلة، واحشرنا في زمرته غير خزايا، ولا نادمين، ولا ناكبين، ولا ناكثين، ولا ضالين، ولا مضلين، ولا مفتونين» اه

(٢) ان تعلق عظمة مولانا السردار أرفع بهوى أمير المؤمنين يعسوب الدين سيدنا الامام الأعظم علي بن ابي طالب منبثق من تعلقه روحي فداه بالله وبالمصطفى تمماً لصادق اسلامه ومتانته في دينه وطالما سمعناه يردد قول المرتضى عليه صلوات الله « أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين

وَبَعْدُ فِي عَرَفَاتٍ كَانَ مَوْقِفُهَا   لِلسِّرِّ وَالطُّهْرِ تَرْجُو عَفْوَ بَارِيهَا
هُنَاكَ قَدْ ذَكَرَتْ فَضْلَ الْمُعِزِّ عَلَى الْـ   ـقُرْبِ الأُلَى كَانَ لِلإِسْعَادِ شَادِيهَا
وَهَلَّلَتْ بِاسْمِهِ لِلّٰهِ دَاعِيَـةً   بِأَنْ تُلَاقِيَهُ أَحْقَابٌ فَيُبْلِيهَا
وَاللّٰهُ سُبْحَانَهُ مُصْغٍ لِدَعْوَتِهَا   فِي قُرْبِ كَعْبَتِهِ الْعَلْيَا مُلَبِّيهَا
وَإِنَّهُ لَمُطِيـلٌ عُذْرَ حَزْعَاهَا   لِكَيْ تَزِيدَ بِهِ جَاهاً وَتَرْفِيهَا
وَإِنَّهَا دَعْوَةٌ مَا فِي الأَعَارِبِ إِلاَّ   مَ مَنْ يُرَدِّدُهَا عَفْواً وَيَبْغِيهَا
وَإِنَّنِي نَاقِلٌ مَعْهَا إِلَى أُذُنِ الْـ   ـمُعِزِّ فِي عِيدِ أَضْحَاهَا أَمَانِيهَا
بِأَنْ يَظَلَّ خُلُوداً سَيِّداً عَلَماً   يُحْيِي مَفَاخِرَهَا فَضْلاً وَيُنْشِيهَا
وَعِيدُهَا أَنْ تَرَى السِّرْدَارَ فِي نِعَمٍ   غَرَّاءَ سَابِغَةٍ تَزْهُو مَجَالِيهَا

عرضه القصيدة العلوية

مَوْلَايَ فِي الْعِيدِ يَلْقَى الْعَبْدُ سَيِّدَهُ   مَعَ الدُّعَا بِهَدَايَا قَدْرَ مُهْدِيهَا
وَاللّٰهُ وَفَّقَ مَمْلُوكَ الْمُعِزِّ إِلَى   هَدِيَّةٍ جَاءَ لِلأَعْتَابِ يُزْجِيهَا
هَدِيَّةٌ فَوْقَ قَدْرِي بَلْ وَيُعْجِزُنِي   إِهْدَاءُ بَدْرَةِ دُرٍّ مِنْ دَرَارِيهَا
قَصِيـدَةٌ مَا لَهَا نِدٌّ يُمَاثِلُهَا   فِي دَوْلَةِ الشِّعْرِ مُذْ شِيدَتْ مَغَانِيهَا
وَلَا تَصَدَّى إِلَى أَمْثَالِهَا أَحَدٌ   قَبْلِي مِنَ الشُّعَرَا وَصْفاً وَتَشْبِيهَا
وَلَمْ يَجُلْ قَلَمٌ فِي مِثْلِهَا أَبَداً   وَلَا الطُّرُوسُ وَعَتْ يَوْماً مُضَاهِيهَا

صلى الله عليه وآله وسلم ، انه يموت من مات منا وليس بميت ، ويبلى من بلي منا وليس ببال ، ولا تقولوا بما لا تعرفون ، فإن أكثر الحق فيما تنكرون، واعذروا من لا حجة لكم عليه، وأنا هو (وهنا كان يقول لنا المعز بارك الله فيه أنه علينا المرتضى عليه صلوات الله هو الذي لا حجة عليه) ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر ، وأترك فيكم الثقل الأصغر ، وركزت فيكم راية الايمان، ووقفتكم على حدود الحلال والحرام ، وألبستكم العافية من عدلي ، وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي ، وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي ، فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدرك قعره البصر ، ولا تتغلغل اليه الفكر » اه ثم ينصرف عظمته أدامه الله ركناً لنا ركيناً ببيان غرر ما حوته هذه الخطبة العلوية بما يشف عن صادق اعتقاده بالحضرة الحيدرية وتشيعه الى الكمالات العلوية مما يطرب السامع ويدعو الى خشعة الخاشع ويعرف معه التشيع والمشايع

بل صنعة الشعر تعيا عن نشائدها　　وما قوافيه كفء أن توشيها

ما في الملاحم واسم الله ملحمة　　ألوف أبياتها تشجي مغنيها

تنسقت كلها وزناً وقافية　　على اختلاف المعاني مع تناهيها

لآلئ ضمها سلك فباهي عقـ　　ـد نظمه للورى أسنى تلاليها

ولا أنا أدعيها لست ناظمها　　حاشا ولكنني تالله راويها(١)

عليَّ قد هبطت من عالم علو　　ي كنت أكتبها معه وتمليها

حتى انجلت آية في الشعر باهرة　　تنبي بفضل موشيها وموحيها

تبدي بأجمل ما يسطيعه قلم　　فضل الوصي على الدنيا أغانيها

وفضله يتلالا في شريعتنا الـ　　ـسمحا وفي كل مثوى من مثاويها

لا بل به أعجبت كل البرية سيـ　　ـان المجوسي فيها أو كتابيها

لا غرو مدحته أن تمسين فريـ　　ـدة المدائح لا مدح يحاكيها

ما دام ممدوحها ما من يشابهه　　بين الخلائق باستثناء هاديها

يزينها نشرها باسم المعز ويهـ　　ـديه المثوبة قاريها وشاديها

سبب نظم هذه القصيدة المباركة

عن المعز تلقيت الغرام بآ　　لاء الإمام التي ما زال يبديها(٢)

---

(١) اني لأجهر على رؤوس الاشهاد بأن هذه الملحمة الفريدة التي لم ينسج الناسجون على منوالها ولا أتى الشعراء بمثالها هي فوق علمي وما أنا ناظمها وانما هبطت علي من عالم علوي فأنا راويها وناقلها وان الفضل الأكبر في تجليها على شكلها الأزهر لموحيها وموشيها ألا وهو المدد الروحاني العلوي فهي معجزة من معجزاته وآية من آياته عليه صلوات الله

(٢) ان غرام عظمة مولانا السردار أرفع الشيخ خزعل خان أطال الله بقاءه بسيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كما سمت الاشارة يفوق حد الوصف والتصور يعرف هذا كل من أسعده الحظ فتشرف بالحضرة السنية الخزعلية أوحضر مجلساً من مجالس حضرته البهية وهي على ما يعلم الجمهور مجالس علم وأدب وسياسة وفكاهة تغص دائماً أبداً بالعلماء والادباء والشعراء والظرفاء ولا أذكر كما لا يذكر غيري من اللائذين بالعرش الخزعلي العالي أن خلا مجلس من مجالس حضرته من ذكر سيدنا أمير المؤمنين وسرد غرر محامده ومناقبه عليه صلوات الله والمجلي في مضمار البيان هو جناب الشيخ المعز المدان الذي لا ينفك يطرب سامعيه بالمآثر العلوية والمحامد الحيدرية ويتلو بين حب

وَٱلشَّيْخُ أَوْفَى مُحِبِّيهِ وَأَكْثَرُهُمْ تَوَلُّهاً بِسَجَايَاهُ وَتَدْلِيهَا
فَلَسْتَ تُلْفِيهِ إِلَّا عَنْ مَحَامِدِهِ مُحَدِّثاً وَهُوَ بِٱلإِعْجَابِ يُلْقِيهَا
فَكُنْتُ أَسْمَعُهَا مِنْهُ وَأَفْقَهُهَا وَمِنْ حَقَائِقِهَا نَفْسِي أُغَذِّيهَا
مِنْهُ عَرَفْتُ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّ ٱلْعُرْبَ لَيْسَ لَهَا إِلَّاهُ يُحْيِيهَا
وَلَيْسَ تَسْعَدُ إِلَّا فِي تَتَبُّعِهَا خُطَى ٱلْوَصِيِّ كَمَا قَدْ كَانَ خَاطِيهَا
فَفَضْلُ خَزْعَلَ فِي إِنْشَاءِ مَلْحَمَتِي بِأَنَّهُ كَانَ لِي يُوحِي مَعَانِيهَا(١)
وَفَضْلُهُ أَنَّهَا فِي جُودِهِ نُظِمَتْ لَوْلَاهُ مَا شِمْتُ وَقْتاً فِيهِ أُنْشِيهَا
كَفَى عِيَالِي وَأَكْفَانِي حَوَائِجَهَا فَكَانَ وَٱللهِ غَاذِيهَا وَكَاسِيهَا
فَمَا ٱلْغَلَاءُ بِمُضْنِينِي وَإِنْ شَكَتِ ٱلنَّاسُ ٱلْغَلَاءَ ٱلَّذِي قَدْ كَادَ يُفْنِيهَا(٢)

وآخر «هذا هو أبو الحسين هذا هو أمير المؤمنين» وكان كثيراً ما يتلو علينا خطب الأمير ورسائله وهو يحفظها فيجوّدها تجويداً وكان يقول «ان الأمة العربيـة لاتظفر بأمانيها الطيبة وتعود الى مجـدها السالف الا اذا اتخذت أمير المؤمنين عليه صلوات الله قدوة لها فتخلقت بأخلاقه واقتـدت به وتجردت لخدمة الأمة تجرده» واني أعترف بأني ما عرفت أمير المؤمنين عليـه صلوات الله حق معرفته وتدلهت بحبـه تدليهاً الا بفضل مولاي وولي نعمتي المعزّ المعظم روحي فداه وكثيرون مثلي بفضل عظمته الملوكية تدلهوا بسجايا الامام وهاموا بشخصه المقدس عليه السلام

(١) أقول ان فضل عظمة مولاي السردار أرفع في نظم هذه الملحمة الثمينة والقصيدة المباركة فضلين أحدهما أدبي وهو تغذيته نفسي بحب أمير المؤمنين وتفقيهه لي بسجاياه ومآثره العظيمة عليه صلوات الله والثاني أني صرفت على نظم هذه الملحمة مدة تقرب من سنتين في أشد سنوات الناس غلاءً هما السنتان الأخيرتان من الحرب العامة «١٩١٨ و ١٩١٩» ومن علم أني والد تسعة عيال أعولهم وأمهم في بلد كمصر أنا معروف فيه بصفتي مملوك السردار أرفع أعيش بنعمته والطهور يقصم الظهور كما يقولون تدرّ فضل مولاي المعزّ المعظم الذي كفاني حوائج العيـال وصرفني الى نظم مناقب أمير المؤمنين الغوال فلا غرو سد الحمر بنعمة المعزّ واعلان شكرها أن يهديه الثواب كل معجب بهـذه الملحمة المباركة ومترنم بتلاوة أناشيدها المطربة

(٢) يخلق بي أن أشير هنا الى الغلاء الفاحش الذي عاناه الناس في سنوات الحرب أولا تبياناً لفضل عظمة مولاي ولي النعم السردار أرفع المعظم باكفاء عيالي حوائجهم فيها وشكر عظمته على هذا الفضل العمم وبالشكر دوام النعم أوكما يقال لا يشكر الله من لا يشكر الناس وثانياً لتخليد ذكر هذا الغلاء في بطون الأوراق ذكرى للخلق عما منيت به الانسانية من الضيق والعسر في هذه السنوات العصيبة التي لا يذكر التاريخ مثلها . نعم ان التاريخ يذكر كثيراً من القحط والضيق الذين أصابا الناس في أدوارهم الماضية ولـكن ذلك الضيق والقحط كانا ينحصران في صقع دون آخر فيتاح للمعسرين مساعدة الموسرين خلافاً لما في الحرب العامة هذه فان الضيق قد استحكم في العالم

وَلَا أُبَالِي بِأَسْوَاقِ ٱلْحُرُوبِ وَإِنْ   تَحَكَّمَ ٱلْبَائِعُ ٱلْقَاسِي بِشَارِيهَا
وَلَا أُسَائِلُ يَوْمِي مَا يَجِيءُ غَدٌ   مِنَ ٱلرَّزَايَا ٱلَّتِي ٱلدُّنْيَا تُقَاسِيهَا
وَهَا أَنَا فِي حِمَى ٱلْمَوْلَى وَنِعْمَتِهِ   وَجُودِهِ مُطْمَئِنُّ ٱلنَّفْسِ هَانِيهَا
لَاهَمَّ لِي غَيْرُ أَنْ يَرْضَى وَإِنْ رَضِيَ ٱلْـ   ـمُعِزُّ مَا غَضْبَةُ ٱلدُّنْيَا أُبَالِيهَا
لَوْ فِي هَلَاكِي رِضَاهُ مَا بَخِلْتُ بِنَفْـ   ـسِي فِي سَبِيلِ رِضَاهُ أَنْ أُضَحِّيهَا
وَقَدْ عَرَفْتُ يَقِينًا أَنَّهُ وَلِهٌ   بِٱلْكَامِلِ ٱلْمُرْتَضَى سِرًّا وَتَجْرِيهَا
وَأَنَّ أَفْضَلَ مَا يُرْضِيهِ مِدْحَتُهُ   وَنَشْرُ أَفْضَالِهِ ذِكْرَى لِنَاسِيهَا
فِي فُرْصَةٍ هَبَّتِ ٱلْعُرْبُ ٱلْأَكَارِمُ فِيـ   ـهَا لِلنُّهُوضِ إِلَى إِرْجَاعِ مَاضِيهَا(١)
وَمَا لَهَا قُدْوَةٌ إِلَّا ٱلْوَصِيُّ أَمِيـ   ـرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِهَا تَلْقَى مَعَالِيهَا
لِذَاكَ جَاهَدْتُ فِي تَنْسِيقِ سِيرَتِهِ   أُنْشُودَةً تُطْرِبُ ٱلدُّنْيَا شَوَادِيهَا
فَمَنْ تَلَا مِنْ عِبَادِ ٱللهِ مَلْحَمَتِي   فَلْيَسْأَلِ ٱلْأَجْرَ لِلسَّرْدَارِ مُوصِيهَا

بأجمه في مشارق الأرض ومغاربها فلم يبق بلد من بلاد العالمين الا وشعر أهلها بالعسر والفقر وغلاء المعيشة على تفاوت في المصيبة بين بلاد هلك أهلها جوعاً وأخرى أتيح لأهلها سد الرمق ولم تخل هذه الأصقاع من أفراد اغتنوا بمتاجرهم ومزارعهم غناءً فاحشاً ولكن رفاه هؤلاء الأفراد لا يذكر بشيء بجانب شقاء المجموع ولا جدال أن الاصقاع الأميركية والمستعمرات الانكليزية كانت أسعد حالاً في هذا الشقاء العام من سائر بلاد الدنيا وهذا بفضل حسن تدابير الدولتين الكبيرتين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأميركية . ومما نقوله عن هذا الغلاء الفاحش الذي عانيناه هو أننا صرنا ننفق أربعة أضعاف ما كنا ننفقه قبل الحرب في بعض الأشياء وضعفين أو ثلاثة أضعاف في ابعضها وكان أشد النكبة في الورق الذي نطبع عليه مطبوعاتنا فقد بلغ ثمانية أضعاف قيمته قبل الحرب ومع شدة هذا الغلاء وكثرة العيال أعلن صراحة بأن نعمة عظمة مولاي وولي نعمتي المعز قد اكتنفتني فما شعرت بشيء من الشدة التي ما انفك الناس يشكونها وانها لنعمة أشكرها ما دمت في الحياة وتشكرها أعظمي في قبرها بعد الممات

(١) لا جرم أن الأمة الكريمة العربية مهما ساعدتها نتيجة هذه الحرب العامة فانها لا ترجع الى ماضيها الا اذا اقتدى رؤساؤها بأمير المؤمنين عليه صلوات الله وأخلصوا اخلاصه في النهضة بالأمة من رقدتها الطويلة كما أخلص في نصرة الاسلام بين يدي ابن عمه المصطفى عليهما الصلاة والسلام ولهذا أرى نشر مناقبه السنية بهذا الطراز الجديد ذكرى لناسيها منهضاً همم أقطاب هذه الأمة الى الاقتداء بالذات السنية العلوية في اخلاص النية لخدمة الأمة الكريمة العربية وهذا ما يرضي عظمة مولاي السردار أرفع بل هو أسمى ما يتوخاه ويرضاه والله سبحانه من وراء الهداية

كيف نظمت هذه القصيدة المباركة

مَا كُنْتُ أَطْمَعُ أَنْ أُرْضِيَ ٱلْوَصِيَّ بِأَبْـيَاتِي — وَلَا أَنْ تُوَاتِيَنِي قَوَافِيهَا
وَلَا حَلِمْتُ بِأَنْ أُوفِي حُقُوقَ أَمِيـرِ — ٱلْمُؤْمِنِينَ بِهَا أَوْ أَنْ أُؤَدِّيهَا
لَكِنْ طَمِعْتُ بِعَطْفٍ مِنْ أَبِي حَسَنٍ — يَنَالُنِي وَبِهِ نَفْسِي أُقَوِّيهَا
وَإِنَّهُ فِي عُلَاهُ لَيْسَ يَجْهَلُ نِيَّـةَ — ٱلْعُبَيْدِ ٱلَّتِي قَدْ كُنْتُ أَنْوِيهَا
وَإِنَّنِي أَبْتَغِي ٱلْخَيْرَ ٱلْعَمِيمَ بِهَا — لِلْعُرْبِ وَهْوَ ٱلَّذِي مَا ٱنْفَكَّ آوِيهَا
فَكُنْتُ عِنْدَ رَجَائِي بِٱلْإِمَامِ فَلَمْ — يَبْخَلْ عَلَيَّ بِنُعْمَى كُنْتُ رَاجِيهَا
فِيهَا قَضَيْتُ شُهُورًا سَبْعَةً وَأَنَا — أُلْقِي ضِيَاهُ عَلَى مَجْرَى ثَوَانِيهَا(١)
جَلَالُهُ نُصْبُ عَيْنِي عِنْدَ يَقْظَتِهَا — فَلَا تَرَى غَيْرَهُ يَوْمًا مَرَائِيهَا
وَإِنْ أَنَمْ فَتُوَافِي ٱلنَّفْسَ عَاشِقَهَا — وَفِي رِحَابِهِ ٱلزَّهْرَاءِ يُثْوِيهَا
لَذَّتْ حَيَاتِي بِذِكْرَاكَ ٱلْحِمَى وَلَهَا — مِنَ ٱلْوَصِيِّ ٱلْمُفَدَّى مَا يُهَنِّيهَا
وَإِنَّ أَطْيَبَ أَوْقَاتِي وَأَبْهَجَهَا — تِلْكَ ٱلَّتِي مَعَهُ قَدْ كُنْتُ أَقْضِيهَا
فَبَيْنَمَا كُنْتُ فِي تِلْكَ ٱلْحُرُوبِ أَرَى — أَبَا ٱلْحُسَيْنِ مُجَلِّيهَا وَغَازِيهَا
إِذَا أَنَا بَيْنَ أَيْدِيهِ أَرَاهُ عَلَى — عَالِي ٱلْمَنَابِرِ آيَ ٱلْوَعْظِ يُلْقِيهَا
وَكَانَ بَيْنَهُمَا يُلْقِي ٱلْإِمَامُ عَلِـيٌّ — مِنْ دُرُوسِ ٱلْقَضَا وَٱلدَّهْرِ عَالِيهَا
وَكُنْتُ أَطْلُبُ مِنْ سَامِي تَعَطُّفِهِ — مَعُونَةً لِأَمِيرِ ٱلْعُرْبِ يُسْدِيهَا
وَأَنْ يُحَقِّقَ آمَالَ ٱلْأَعَارِبِ فِي — تَأْيِيدِهِ وَهْوَ لِلْعَلْيَاءِ مُرْقِيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى عَضُدُ ٱلسَّرْدَارِ نَاصِرُهُ — وَنُصْرَةُ ٱلْمُرْتَضَى تَكْفِي مُرَجِّيهَا

---

(١) بدأت بنظم قصيدتي المباركة العلوية في اول شهر فبراير سنة ١٩١٧ وانتهيت من نظم السيرة المباركة العلوية وهي القسم الاول منها في آخر سبتمبر سنة ١٩١٨ وهذه هي الشهور السبعة التي أشرت اليها في المتن ثمَّ استأنفت العمل في القسم الثاني من القصيدة وأعدت النظر في القصيدة فيما بقي من سنة ١٩١٨ وكل سنة ١٩١٩ فأكون قضيت في نظم هذه القصيدة المباركة وتهذيبها وتعليق حواشيها وطبعها هذه الطبعة المتقنة في نحو حولين والحمد لله في البدء والختام

وقفة في الروضة الحيدرية

سِرْ بي أَمِيرِيْ إِلى مَثوى الأَمِيرِ إِلى   مَقادِسِ العَتَباتِ الزُّهرِ ثَوِيها
وَطالَما زُرتُها بِالرُّوحِ وَهيَ لَقَدْ   وَاللهِ شامَتْ مِنَ الأَنوارِ سانِيها
وَكُنتُ أَغبِطُ نَفسِي وَهيَ ظافِرَةٌ   بِمَنْ تُحِبُّ وَلا تَخشى تَنائِيها
وَقَفتُ فِيها بِإِجلالٍ وُقُوفَ شَجٍ   مُدَلَّهٍ خاشِعٍ تاقٍ أُثَبِّيها
أُعَفِّرُ الوَجْهَ تَعفِيراً بِتُربَتِها   وَأَسكُبُ الدَّمعَ عَن شَجوٍ وَأَسقِيها
أَقرا الصَّلاةَ عَلى الثَّاوِي بِساحَتِها   فَإِنَّ يَعسُوبَ دِينِ اللهِ ثاوِيها
وَأَبلُغُ السُّؤلَ مِن هانِي زِيارَتِهِ   زِيارَةٌ فازَ بِالإِسعادِ آتِيها
هُناكَ أَنشُدُ بِالتَّقوى أَبا الحَسَنَيـ   ـنِ المُرتَجى بِأَمانِي العُربِ أُزجِيها
أَقُولُ: يا عَضُدَ الإِسلامِ يا سَنَدَ الـ   ـعُربانِ مُنيَةُ نَفسِي أَنتَ مُولِيها
وَإِنَّ مُنيَتَها تَأيِيدُ خَزعَلِنا   عَلى الرِّغابِ الَّتِي لِلعُربِ يَنوِيها
وَفِي رِحابِكَ أَروِي شُكرَ أَنعُمِهِ الـ   ـكُبرى الَّتِي فِي سَبِيلِ اللهِ يَأتِيها
فَاشفَعْ بِهِ وَانصُرَنهُ مَع مُحَمَّدَ عِنـ   ـدَ اللهِ نُصرَةَ إِقبالٍ يُؤَرِّخُها
وَاذكُرْ بَنِيهِ وَهُم تَاللهِ شِيعَتُكَ الأَ   م خِيارُ بَينَ الوَرى أَسنى مُشَيِّعِيها(١)
ذَوُو نُفُوسٍ تَسامَتْ فِي خَلائِقِها الـ   ـغُرِّ كَما تَخِذَتها عَن مُرَبِّيها
نُجُومُ هَديٍ ذَكاها خَزعَلٌ وَبِهِ   قَد تَمَّ فِي أُفُقِ العَلياءِ تَلالِئِها
فَجاسِبٌ وَحَمِيدٌ وَالمَجِيدُ عَزِيـ   ـزٌ وَالكَرِيمُ وَعَبدُ اللهِ سادِيها
وَامدُدهُمُ لِيَدُومُوا لِلمُعِزِّ كَها   لَةٍ تُحِيطُ بِشَمسٍ وَهيَ تُسنِيها
هذِي مُنى العُربِ نُسدِيها بِرَوضَتِكَ الـ   ـغَنّا وَأَنتَ خَلِيقٌ أَن تُسَنِّيها

(١) المال والبنون زينة الحياة الدنيا ولنهما من نعم الله تعالى على عباده يحمد عليهما إناء الليل وأطراف النهار . أما المال فقد أفاضه الله سبحانه على عظمة مولانا السردار أرفع الشيخ خزعل خان روحي فداه فكان بين يديه أمانة طيبة لعباد الله يجود به عليهم كريماً لا يريد بذلك شكراً ولا أجراً سوى رضاء الخالق العظيم . وأما البنون فقد خص الله سبحانه من وارف نعمه وفيض كرمه عظمة مولانا المعز حياه الله بستة أنجال نجباء أذكياء تفضل عليهم عظمته من قبل أن يخلقوا

المعايدة

مَوْلَايَ جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ ٱلإِمَامِ أَمِيـــــرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِآيِ ٱلْحَمْدِ أُهْدِيهَا

وَإِنَّنِي مَاثِلٌ بِالرُّوحِ بَيْنَ يَدَيْ عُلْيَاكَ فِي ٱلْعِيدِ فَاسْتَقْبِلْ هُيُولِيهَا

وَٱعْطِفْ وَأَنْتَ أَمِيرِي ٱلْمُرْتَجَى كَرَمًا عَلَى مُحِبٍّ بَعِيدِ ٱلدَّارِ نَائِيهَا

يَوَدُّ لَوْ طَارَ مَعْ سِرْبِ ٱلطُّيُورِ إِلَى مَثْوَى جَلَالِكَ يَرْقَى مَعْ زَوَاقِيهَا

فَإِنَّهَا مَا تَغَنَّتْ فِي مَسَارِحِهَا إِلَّا بِحَمْدِكَ فَٱسْمَعْ شَدْوَ شَادِيهَا

وَٱقْبَلْ تَهَانِيَّ بِٱلْأَضْحَى وَقَدْ طَرِبَتْ بِهَا ٱلْأَعَارِبُ إِذْ بَاتَتْ تُغَنِّيهَا

وَإِنَّكَ ٱلْعِيدُ وَٱلْأَعْيَادُ مَا بَهُجَتْ إِلَّا بِرُؤْيَاكَ وَٱلْأَعْدَا تُضَحِّيهَا

وَٱلْعُرْبُ مَا عَيَّدَتْ إِلَّا بِجَاهِكَ إِذْ بِهِ ٱلْخَلَائِقُ إِنْ تَفْخَرْ تُجَاهِيهَا

وَمَا لَهَا مُرْتَجَى عِنْدَ ٱلْمُهَيْمِنِ إِلَّا م أَنْ تَظَلَّ مَدَى ٱلْأَجْيَالِ وَالِيهَا

فَدُمْ لَهَا سَرْمَدًا وَٱسْلَمْ وَعِشْ رَغَدًا مَاصَاحَ فَوْقَ غُصُونِ ٱلرَّوْضِ قُمْرِيهَا .

باختيار أمهاتهم من كرائم العشائر وبعد أن ولدوا بعنايته بهم وسهره على تربيتهم فضلاً عن انبثاق نفوسهم العالية من نفسه الطيبة فشبوا في ظله الظليل وهم يحكون عظمته في مكارم الأخلاق ومحاسن السجايا فبارك الله فيهم من كواكب لامعة في أفق المفاخر الخزعلية

وكبير الأنجال هو صاحب السمو نصرة الملك الشيخ جاسب خان حاكم المحمرة وثاني الأنجال هو صاحب السمو الشيخ عبد الحميد خان حاكم الأهواز وثالث الأنجال هو صاحب السمو الشيخ عبد المجيد خان ورابع الأنجال هو صاحب السمو الشيخ عبد العزيز خان وهو أخ شقيق لسمو نصرة الملك وخامس الأنجال هو صاحب السمو الشيخ عبد الكريم خان وسادس الأنجال هو صاحب السمو الشيخ عبد الله خان هؤلاء هم الهالة التي تفيء حول الشمس المشعشعة بأنوارها السنية من الذات العلية الخزعلية وقد نشأوا على الفضيلة وكلٌّ منهم حفظ القرآن الشريف من نعومة أظفاره فتأدبوا بأدبه واهتدوا بهديه وتربوا على حبّ المصطفى والمرتضى وآلهما الخيرين عليهم الصلاة والسلام فكانوا شيعةً لهم متدلهين بهم حباً وفتحوا أعينهم في حجر والد ماجد تمثلت فيه المحامد فتطبعوا عليها وهي من أصل طبيعتهم الطيبة وهكذا أنبتهم الله في ظلال عظمة مولانا المعزّ نباتاً طيباً فكانوا قرة عينيه بل هم قرة أعين الأمة العربية التي تنظر الى عظمة والدهم المحبوب المفدى بحبات القلوب نظرة حب واحترام واجلال . ولقد انصرف هؤلاء الأنجال النجباء الى العلم اقتداءً بوالدهم العليم فكانوا مثله راغبين فيه يساعدون بالأموال ذويه فترى مجالسهم عامرة بالعلماء والشعراء والأدباء كما تراهم وحولهم الكتب والدفاتر والدساكر ولقد توسعوا في الفقه والآداب العربية وأتقنوا اللغتين الفارسية والانكليزية ولم يزالوا في ريعان الشباب ومقتبل العمر وكبيرهم دون الثلاثين وصغيرهم لا يتجاوز السادسة عشر تقريباً فالله المسئول أن يتولاهم بفضله بشفاعة المصطفى والمرتضى وآلهما عليهم الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

عطف أمير المؤمنين

على ناظم هذا العقد الثمين

رؤيا روحية وتجليات سنية

بُشْرَى فَنَفْسِيَ قَدْ نَالَتْ أَمَانِيهَا   فَمَا أَنَا فَوْقَ مَا نَالَتْ أُمَنِّيهَا(١)

بُشْرَى لَهَا بَلَغَتْ أَسْنَى مَطَالِبِهَا   وَٱلدَّهْرُ أَضْحَى بِمَا تَبْغِي يُؤَاتِيهَا

وَأَيُّ مَفْخَرَةٍ تَرْجُوْ وَقَدْ كَسَبَتْ   مِنَ ٱلْمَفَاخِرِ وَٱلْأَلْطَافِ عَالِيهَا

وَأَصْبَحَتْ تَزْدَرِي أَسْنَى ٱلرَّغَائِبِ إِذْ   بِٱلنُّجْحِ قَدْ كَلَّلَ ٱلْبَارِي مَسَاعِيهَا

وَإِنَّهَا حُرَّةٌ فَٱسْتَعْبَدَتْ بِسَجَا   يَا ٱلْمُرْتَضَى فَرَأَى فَضْلاً تَأَمِّيهَا

وَقَدْ أَوَتْ ظِلَّهُ رَغْداً وَهَاهِيَ فِي ٱلـ   ـنَّعْمَاءِ تُثْنِي عَلَى إِحْسَانِ مُؤْوِيهَا

وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي ٱلْقَدْرِ زَاهِرَةٍ   بِنَظْمِ مَدْحِ عَلِيٍّ كُنْتُ أُحْيِيهَا

---

(١) انصرفت الى نظم هذه القصيدة المباركة كلفاً بسيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله خالياً من كل تكلف ولكي ألم بالسيرة وأقف على ما فيها من الشؤون الخطيرة عكفت على التواريخ الخامة التي وضعت لصدر الاسلام أدرسها درساً لاوفق بين رواياتها المتضاربة وأنقد صحيحها من فاسدها وراجحها من مرجوحها فكنت أحيي في هذا العمل الشاق الليالي الطوال وكنت كلما حققت في الدرس وتوسعت في المطالعة أزداد ولهاً بذلك الرجل الكامل صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام وأفضى بي هذا الوله الى تمثل شخصه المقدس عليه صلوات الله في يقظتي ومنامي على حد قول ابن الفارض

جمالكم نصب عيني   اليه وجهت كلي

وسركم في ضميري   والقلب طور التجلي

وبدأ بي المرتضى عليه صلوات الله الان يشفق على هذا العاشق المفتون وينعطف بجوده فضل على جلال قدره ونظر الى أحقر عبيده بلطفه المتناهي وامدني بروحانيته القدسية في ليلة الاحد ١١ جمادى الثانية سنه ١٣٣٦ «١٤ مارس سنة ١٩١٨» فكانت لي تلك الليلة المباركه ليلة القدر وهي خير من ألف شهر تواري كل ما قضيته وأقضيه من ليالي العمر في الصفو والبشر. نعم في تلك الليلة المباركه عمد

فَخِلْتُنِي فِي جِنَانِ ٱلْخُلْدِ مُغْتَبِطاً ... فِيهَا فَطُوبَى لِبَاقٍ فَائِزٍ فِيهَا

هُنَاكَ قَدْ صَاحَ بِي صَوْتٌ وَرَنَّتُهُ ... كَرَنَّةِ ٱلآيِ إِذْ تُتْلَى مَثَانِيهَا

وَقَالَ: بُشْرَاكَ فَافْخَرْ إِنَّ مِدْحَتَكَ ٱلْـغَرَّاءَ مَقْبُولَةٌ بِتْنَا مُثِيبِيهَا

نِلْتَ ٱلرِّضَاءَ وَمَوْلَاكَ ٱلْمُعِزُّ كَمَا ... تَرْجُو عَوَارِفُهُ يَلْقَاكَ ضَافِيهَا

وَهْوَ ٱلْمُؤَيَّدُ فِي سَامِي مَقَاصِدِهِ ... لِلْعُرْبِ يَقْهَرُ عَادِيهَا وَشَانِيهَا

لَقَدْ تَوَفَّقَ لِلْخَيْرَاتِ يَعْمَلُهَا ... وَلِلْمَفَاخِرِ يَسْتَدْنِي قَوَاصِيهَا

عَنْهُ ٱرْتَضَى ٱلْمُصْطَفَى مَعْ رَهْطِ عِتْرَتِهِ ... فَلْيَبْشِرَنْ بِمُنًى يَسْمُو تَوَخِّيهَا

وَٱلْخَيْرُ مَاسَمِعَتْ أُذْنِي وَقَدْ سَمِعَتْ ... لِخَزْعَلٍ نِعَماً أَعْظِمْ بِمُعْطِيهَا

وَقُلْتُ فِي مَوْقِفِي وَٱلْبِشْرُ يَمْلَأُ نَفْـ ... ـسِي وَهْيَ شَاكِرَةٌ شُكْراً مُنَاجِيهَا

مَوْلَايَ مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ ٱلثَّنَاءَ عَلَى ... جَدْوَاكَ أَذْكُرُهَا ذَا ٱلْيَوْمَ نَاسِيهَا

بِحُلْيَةٍ مِنْ بَدِيعِ ٱلنَّظْمِ رَائِعَةٍ ... جِيدُ ٱلزَّمَانِ تُحَلِّيهِ لَآلِيهَا

وَاللهِ مَلْحَمَةُ ٱلْيُونَانِ ضَائِعَـةٌ ... بِهَا وَإِنْ كَانَ هُومِيرُوسُ مُنْشِيهَا

وَفَضْلُهَا أَنَّهَا فِي ٱلْمُرْتَضَى نُظِمَتْ ... وَمِنْ مَحَامِدِهِ ٱسْتَوْفَتْ مَبَانِيهَا

وَمِنْ مَدَائِحِهِ نَالَتْ مَحَامِدَهَـا ... وَمِنْ بَلَاغَتِهِ ٱسْتَوْحَتْ مَعَانِيهَا

ذَاعَتْ فَوَاتِحُهَا مِنْ قَبْلُ أَنْ كَمُلَتْ ... فِي ٱلْخَافِقَيْنِ وَغَنَّاهَا مُغَنِّيهَا

وأشجاني تغريد البلابل على أفنانها فوددت لو اتيح لي الاقامة في تلك الروضة الاريضة برهة من الزمن أسبح فيها الخلاق العظيم . على ان الجواد ما زال في عدوه حتى وصل بنا الى بناء رحب كثير الزخرف أقيمت فيه القبب الموشاة بالذهب الوهاج ومن حولها المآذن كالعرائس فقلت انه مسجد عظيم وجامع فخيم وهناك وقف الجواد فنزل صاحبي وأنزلني وقال : هل أنت تعب ؟ قلت كلا . ولكن هلا أخبرتني على من نحن قادمون ؟ ؟ قال سوف تعرف فتأدب فلزمت الصمت واتبعت خطوات صاحبي الذي دخل بي فناءاً واسعاً مفروشاً بالمرمر الناصع البياض في وسطه حوض واسع تتدفق منه المياه تدفقاً وحوله الزهور والرياحين تنعش القلوب والأطيار تتغنى على الأشجار وتتنقل بين الأزهار والأثمار نخالني في جنات النعيم وبينما أنا مغتبط بما أرى سمعت صوتاً رخيماً له رنات كرنات المثالث والمثاني يقول « بشراك بشراك فإن مدحتك السنية لقد قبلت وقد نلت عالي الرضاء فافخر وان مولاك السردار أرفع راض عنك ومديم نعمته عليك وهو مؤيد ومسود في حسن مساعيه لأمته العربية الكريمة وقد وفقه الله للخيرات واسداء الحسنات وهو حائز على رضاء المصطفى وآل بيته جزاء حبه لهم — وما رضاؤهم الا من رضاء الله »

وَسوفَ تُصبِحُ بِالأَفوَاهِ مُنشَدَةً ... بَينَ الأَعَارِبِ فِي أَنأَى بَوَادِيهَا
وَيَحمَدُ المُنشِدُونَ المُطرَبُونَ بِهَا ... مَن بِاسمِهِ جُلِيَت جَلياً قَوَافِيهَا
مَولَايَ خَزعَلَ مَجلَى كُلِّ مَكرُمَةٍ ... حَسنَا لِعِزَّةِ آلِ البَيتِ يَأتِيهَا
فَهوَ المُثَابُ بِهَا يُهدِي الثَّوَابَ لَهُ ... مَنِ اغتَدَى بِالتُّقَى وَالبِرِّ تَالِيهَا
فَامدُدهُ يَا مَصدَرَ النَّعمَاءِ حَيدَرَةً ... مِنَ السَّمَاءِ وَزِد عَليَاهُ تَوجِيهَا
وَبَينَمَا كُنتُ فِي هَذَا انتَبَهتُ إِلَى ... نَفسِي وَبِالمُرتَضَى الرَّاضِي أُهَنِّيهَا
ثُمَّ انبَرَيتُ إِلَى القِرطَاسِ أَنظِمُ رُؤ ... يَايَ الَّتِي كُنتُ بِالتَّوفِيقِ رَائِيهَا
رُؤيَا حَسَدتُ عَلَيهَا النَّفسَ وَهيَ بِهَا ... فِي حُبِّ حَيدَرَةٍ تُبدِي تَفَانِيهَا

الى العتبات الحيدرية

هَيُّوا بِنَا لِنَزُورَ المُرتَضَى بِتُقًى ... زِيَارَةً يَحمَدُ المَسعَى مُؤَدِّيهَا
وَنَنبَرِي فِي مَقَامَاتٍ مُشَرَّفَةٍ ... بِهِ نُحَيِّي مَعَ الإِجلَالِ ثَاوِيهَا
هَذِي مَوَاطِنُهُ العَليَا لَقَد رَحِبَت ... بِقَاصِدِيهَا الأُلَى وَافَوا مَغَانِيهَا
تَسَابَقُوا فَطَوَوا نَائِي الدِّيَارِ إِلَيـ ... ـهَا وَاستَحَثُّوا المَذَاكِي فِي تَخَطِّيهَا
لِيَلثِمُوا عَتَبَاتٍ نَالَ لَاثِمُهَا ... آمَالَهُ وَعَلِيُّ البِرِّ مُولِيهَا
وَهوَ المُدِلُّ عَلَى الرَّحمٰنِ خَالِقِهِ ... بِالصَّالِحَاتِ الَّتِي قَد كَانَ آتِيهَا
هَيُّوا إِلَيهِ لِنَجلُوَ عِندَ سَاحَتِهِ ... عَنِ الصُّدُورِ إِذَا ضَاقَت دَوَاعِيهَا
وَنَطلُبَ المَدَدَ العَالِي لِأُمَّتِنَا ... بِهِ تَنَالُ مِنَ الدُّنيَا أَمَانِيهَا

فلما سمعت هذه الكلمات الطيبة اغتبطت نفسي وانطلق لساني بالثناء على ما سمعت من النعم لسيدي ومولاي المعز المعظم ورضوان الله ورسوله وآل البيت عنه وأثنيت على عطف الحضرة العلوية وخصصت عظمة مولاي المعز بأفضل الدعوات لدى من عنده تقبل الشفاعات وبينما أنا متهلل بهذا الدعاء المستجاب ان شاء الله تعالى فتحت عينيَّ فوجدت نفسي على متكأي وبين يدي تلك القصيدة المباركة فتفاءلت واستبشرت وصليت على النبي وآله وأسرعت الى كتابة ما رأيت لأبشر عظمة مولاي بمعونة المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام آه

واني وأشهد الله سبحانه على ما أقول ما زلت اجد الانوار الحيدرية تبهر نواظري وتطيب خواطري وامداده الروحاني مصاحبي ومسامري وسوف اظل في هذه النعمى ان شاء الله

على أبواب العلوية المباركة

هنا عَيِيتُ فَلا عِلمِي وَلا أدَبِي وَلا ٱلقَوافِيْ ٱلَّتِي أخضَعتُ عاصِيَها
وَلا سمَاعِيْ كَلامَ ٱلعُرْبِ أجمَعِها مَأنُوسَها بَيْنَ أقوامِي وَحُوشِيَّها
وَلا مَغارِيْ عَلى مَا حَبَّرَ ٱلأُدَبا مِنَ ٱلنَّفائِسِ فِي زاهِي مَعانِيها
بِمُبلِغِي رَغبَةً مَا نالَها بَشَرٌ قَبلِي وَبِتُّ بِها نَفسِي أُمَنِّيها
مِن أينَ لِي لَوْ بَذَلتُ ٱلعُمْرَ أجمَعَهُ فَضائِلُ ٱلمُرتَضَى ٱلزَّهْرَا أُجَلِّيها
وَهَلْ تُصَوِّرُها هٰذِي ٱلحُرُوفُ وَما يُنبِي عَلَيهِ مِنَ ٱلمَعْنَى تَجَمِّيها
يا لَيتَ لِي شُهُبُ ٱلأفلاكِ أنظِمُها شِعرًا وَإنْ عَجِزَتْ عَن أنْ تُحاكِيَها
لَكُنتُ آتِي أمِيرَ ٱلمُؤمِنِينَ بِها مَنظُومَةً تُطرِبُ ٱلدُّنيا رَواوِيها
تَطاوَلَتْ هِمَّتِي لِلشَّمسِ أحسَبُنِي أدنُو إليها وَأبعِدْ أنْ أُدانِيَها
أوْ إنَّ نَفسِي بِنَيلِ ٱلمُستَحِيلِ تَعَلَّـقَتْ فَما ٱلمُمكِنُ ٱلمَعقُولُ يُرْضِيها
فَبِتُّ أخشَى بِأنْ تُمنَى بِخَيبَتِها مِن بَعدِ ما بَذَلَتْ أقصَى مَساعِيها
وَلِلمَطامِعِ حَدٌّ مَنْ تَجاوَزَهُ يَعَضُّ أنمُلَهُ يَأسًا فَيُدمِيها
وَإنَّ حَيدَرَةً وَٱللهِ أطمَعَنِي بِحِلمِهِ وَهْوَ سَمحُ ٱلنَّفسِ سَاخِيها
وَإنَّنِي مِن جَدا سَامِي مَكارِمِهِ وَمِن مَعُونَتِهِ إذْ أُضْتُ لاقِيها
قَدْ جِئتُ قَومِي أروِيْ عَنْ فَضائِلِهِ مَا لَوْ تَقَسَّمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُسْمِيها
فَأمُدُّ أمِيرِيْ عَبِيدًا يَرتَجِي مَدَدًا لِقَولَةٍ فِيكَ بَاتَ ٱلدَّهرُ مُصغِيها
عَذْراءَ مَا جُلِيَتْ قَبلًا عَلَى أحَدٍ مِن عاشِقِيها وَظَلَّتْ فِي مَخابِيها
وَإنْ حُلِيَتها ٱلحَسْناءُ مِدْحَتُكَ ٱلْـــغَرَّاءُ تُبدِي بِها ٱلإعجابَ وَٱلتِّيها
وَهاهِيَ ٱليَومَ تَسعَى سَعيَها بِدِيَا رِ ٱلعُرْبِ مُبدِيَةً أجلَى تَهادِيها
فَرَاحَ حاسِدُها وَٱلنَّارُ تَأكُلُهُ وَعادَ عاشِقُها بِٱلمَدحِ يُطرِيها
وَمَهرُها ٱلدَّعَواتُ ٱلصَّالِحاتُ إلَى ٱلْـــمُعِزِّ مِن كُلِّ مَنْ يَبغِي تَدانِيها



الاستعانة بأمير المؤمنين

أَوْحِ ٱلْبَلَاغَةَ فِيْ أَزْهَى مَجَالِنِهَا   فَأَنْتَ سَيِّدُهَا ٱلْأَسْمَى وَمُوْحِيهَا(١)

أَوْحِ ٱلْبَلَاغَةَ لِيْ حَتَّى أَجُوْلَ بِهَا   فِيْ وَصْفِ ذَاتِكَ مَعْ سَامِيْ مَعَانِيْهَا

نَعَمْ وَأَطْلِقْ لِسَانِيْ فِيْ مَحَامِدِكَ ٱلْـ   ـغُرَّا لِأَنْشُرَ بَادِيْهَا وَخَافِيْهَا

وَٱصْفَحْ أَبَا حَسَنٍ عَمَّنْ تَجَرَّأَ عَنْ   حُبٍّ عَلَى مِدْحَةٍ تَسْمُو مَبَانِيْهَا

لَوْلَمْ أَكُنْ طَامِعاً فِيْ رَحْبِ صَدْرِكَ مَا   حَاوَلْتُ وَٱللهِ أَنْ أَرْوِيْ قَوَافِيْهَا

---

(١) ما اعتاد العرب في جاهليتهم ان يفتتحوا قصائدهم باستمداد معونة جنياتهم اللاتي «على زعمهم» كنّ يوحين اليهم الشعر كما أننا لم نرَ واحداً منهم افتتح قصيدته بالاستعانة بمعبودهن يعبد سوى الاله الواحد الواجب الوجود أو الاصنام التي عبدوها اشراكاً أو لله زلفى بل كان شاعرهم يبدأ بموضوعه على هواه مستعيناً بنفسه على نظامه أو بمن تخيل من صاحب له أو صاحبين كما فعل امرؤ القيس في معلقته المشهورة فافتتحها بقوله

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فمن هما صاحباه الذان دعاهما الى تلك الوقفة المحزنة ؟ لا ندري الا أن يكونا لسانه وقلبه غير أن العرب بعد ان جاء الاسلام ودانوا به طفقوا يفتتحون ما يصنفون ويؤلفون بالبسملة اتباعاً

وَدِدتُ فِي نَظْمِهَا لَوْ أَسْتَعِيرُ مِنَ ٱلْأَ م فلَاكِ كَيْمَا أُوَشِّيهَا دَرَارِيهَا
أَوْ أَنْ تَهَبَنِي شُعَاعاً مِنْ ذُكَائِكَ فِي تَرْصِيفِ أَبْيَاتِهَا فِيهِ أُحَلِّيهَا
وَقَدْ طَلَبْتُ بِهَا حُسْنَ ٱلرِّضَاءِ فَإِنْ تَرْضَى فَقُلْ بَلَغَتْ نَفْسِي أَمَانِيهَا
وَهَلْ يَخِيبُ فَتَى وَافَاكَ مُلْتَمِساً عَوْناً وَأَنْتَ مُغِيثُ ٱلنَّاسِ مُنْجِيهَا
حَاشَا يَخِيبُ فَتىً وَافَى أَبَا حَسَنٍ يَرْجُو مَعُونَتَهُ مِثْلِي وَيَبْغِيهَا
فِي نَظْمِ مَلْحَمَةٍ كُبْرَى أَرُومُ بِهَا أَنْ تَطْرَبَ ٱلنَّاسُ مِنْ مُشْجِي أَغَانِيهَا
وَٱلْفَخْرُ لِي أَنَّنِي قَدْ رُحْتُ أَنْظُمُهَا فِي ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ أَرْجُو ٱلرِّضَا فِيهَا
وَحَسْبُهَا أَنَّهَا تَحْكِي فَضَائِلَهُ ٱلْـــغُرَّا وَآثَارَهُ ٱلزُّهْرَا وَتَرْوِيهَا
أَبَا ٱلْحُسَيْنِ ٱنْعِطَافاً لِلْمُحِبِّ وَقَدْ وَافَى لِسَاحَتِكَ ٱلزَّهْرَاءِ يُزْجِيهَا
بِٱسْمِ أَبِي جَاسِبٍ فَٱعْضُدْ إِمَارَتَهُ وَفِي ضَرَاعَتِكَ ٱلرَّحْمٰنُ يَحْمِيهَا
وَهُوَ ٱلْمُدِلُّ عَلَى عَلْيَاكَ مُنْشَغِفٌ بِهَا وَلَا يَرْتَجِي إِلَّا تَرَضِّيهَا
فَٱمْدُدْهُ بِٱلْعَوْنِ حَتَّى نَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى ٱللَّيَالِي إِذَا جَارَتْ عَوَادِيهَا
وَإِنَّمَا ٱلْعُرْبُ فِي سَامِي عِنَايَتِهِ تَاللّٰهِ قَدْ أَمِنَتْ مَعْدَى أَعَادِيهَا
وَكُنْ لَهُ سَنَداً وَٱشْفَعْ بِهِ أَبَداً حَتَّى يَتِمَّ لَهَا فِيهِ تَمَنِّيهَا
وَٱلشَّيْخُ خَزْعَلُ وَافِي ٱلْوُدِّ صَادِقُهُ لِلْمُصْطَفَى وَلِآلِ ٱلْبَيْتِ تَجْزِيهَا

للحديث الشريف القائل : « كل أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر . وفي رواية أقطع وفي رواية أخرى أجزم » ولم يقف مؤلفو المسلمين العرب عند حدّ البسملة بل شفعوها بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي وتفنن بهذا متفننوهم فجلوا في حمد الله والصلاة على نبيه اشارة الى موضوع الكتاب أو الرسالة . الا أنَّ العرب لم يتبعوا هذا في قصائدهُم الا ما كان منها من نوع الاراجيز فقط لسهولة النظم فيها

على أن الشعراء الاجانب في جاهليتهم افتتحوا ملاحمهم باستمداد المعونة في نظمها من الهة الشعر التي تخيلوها وجعلوها هي المنشدة تورعاً وتديناً كذلك رأينا الياذة هوميروس التي نقلها الى العربية شعراً سليمان أفندي البستاني وكان افتتاحها هكذا :

ربة الشعر عن أخيل بن فيلا أنشدينا واروي احتداماً وبيلا

وقد حسن لنا هذا الاسلوب في نظم ملحمتنا فبعد أن افتتحنا مقدمة هذه القصيدة بالبسملة والحمدلة والصلاة والسلام على المصطفى والمرتضى وآلهما الخيرين عدنا الى الاستعانه تورعاً بالحضرة السنية العلوية مستمدين امدادها وبالفعل لم نخب من المدد والعطف على ما سبق الوصف

وَقدْ تَشَيَّعَ عَنْ تَقْوَى لِحَيْدَرَةٍ ... وَإِنَّ شِيعَتَهُ خَارَتْهُ تَحَامِيهَا
وَنَفْسُهُ دَائِمَاً تَصبُو إِلَى عَتَبَا ... تٍ قُدِّسَتْ بِعَلِيٍّ فَهُوَ هَاوِيهَا
يَزُورُهَا بِهَيُولَى ٱلرُّوحِ مُلْتَمِسَ ٱلإِ ... مْدَادِ وَٱلْعَوْنَ مِنْ إِحْسَانِ آوِيهَا
يَرْجُو شَفَاعَتَهُ ٱلْحَسْنَاءَ مُعْتَمِداً ... عَلَى ٱلأَيَادِي ٱلَّتِي مَا خَابَ رَاجِيهَا

الأمة التي نبغ منها أمير المؤمنين

سِرْ فِي ٱلأَعَارِبِ وَٱنْزِلْ فِي مَغَانِيهَا ... وَٱشْهَدْ مَكَارِمَ بَادِيهَا وَقَارِيهَا
وَٱشْهَدْ بِمَا قَدْ رَأَتْ عَيْنَاكَ إِنَّ شَهَا ... دَةَ ٱلْعَيَانِ تُلَاقِي مَنْ يُكَذِّبُهَا
وَصِفْ فَإِنَّ مَجَالَ ٱلْوَصْفِ ذَا سِعَةٍ ... خِلَالَهَا ٱلزُّهْرَ مَعْ سَامِي مَبَادِيهَا
نَعَمْ لَقَدْ جُلْتُ فِي أَرْضِ ٱلْجَزِيرَةِ جَوْ ... لَاتٍ بِهَا جُسْتُ شَرْقِيَّهَا وَغَرْبِيَّهَا(١)

---

(١) يحسن بي الاشارة هنا الى سياحاتي في البلاد العربية وأسبابها حتى عرفت هذه الامة الكريمة على حقائقها العظيمة فأقول : لقد نشأت في حلب الشهباء في وسط كله تعصب وجهل ومن حسن حظي أن بيتنا في حلب كان في شارع اكثر أهله عرب مسلمون يدعى « قسطل المشط » فكنت أجد من حسن معاملة العرب المسلمين لاهلي ورعايتهم لجوارنا غير ما كنت أسمع من الدفرة منهم من أفواه عشرائي المسيحيين فشببت وأنا على غير رأيهم في هذه الامة الكريمة ثم عند ما اتسعت مداركي صرت أعرف وأعتقد أن هؤلاء المسلمين العرب الذين يجاورونا ونجاورهم هم شركاؤنا في الوطن ومشتركون معنا في منافعه ومضاره وفوق هذا أن بيننا وبينهم صلة قربى بلحم ودم لان المسلمين عند ما دخلوا سوريا كان أهلها مسيحيون ويهود ومجوس فاسلم منهم من أسلم وبقي على دينه من بقي وربما انقسمت العائلة الواحدة الى مسلمين وغير مسلمين وهكذا أصبحت متعصباً للعرب أعدُّ نفسي واحداً منهم يسرني ما يسرهم ويسيئني ما يسيئهم ويصدقني واحداً منهم بات همي أن أعتني بمصلحتهم . وتوفقت الى أصدقاء منهم أهل علم وسياسة متعصبين للعرب يرمون الى استعادة مجدهم فتربيت على أيديهم وعلى رأسهم أستاذي المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي الشهير

ولخدمة العرب أنشأت مجلتي الشذور في حلب سنة ١٨٩٧ — ١٨٩٨ فحاربتني الحكومة فهجرت وطني وأويت مصر وأنشأت جريدتي الشهباء ثم حولتها الى اسم العمران وتبعني الى دار هجرتي أستاذي الفيلسوف الكواكبي سنة ١٨٩٩ فلذت به وقضيت في صحبته كل المدة التي اقامها في مصر الى أن استأثرت رحمة الله تعالى بنفسه الطاهرة فيها سنة ١٩٠٢ فأخذت على عاتقي الضعيف استئناف الجهاد في سبيل العرب الذي كان يجاهده وأنا في خدمته . وباسم هذه الخدمة المقدسة اتصلت بكثيرين من شيوخ وأمراء وسلاطين العرب ونلت الحظوى منهم بالمراسلة . ثم سحت في البلاد العربية مراراً أولها في أواخر سنة ١٩٠٧. وسأظل في خدمة هذه الامة المباركه ما حييت ولا يسرني الا أن أكون الخادم الامين للعرب واني لأخاطبهم بلسان ابن الفارض القائل :

لا تحسبوني في الهوى متصنعاً ... كلفي بكم خلق بغير تكلف

مِنَ ٱلشَّامِ إِلَى أَرْضِ ٱلْعِرَاقِ إِلَى نَجْدٍ إِلَى يَمَنٍ مَعَ مَا يُحَاذِيهَا
وَزُرْتُ تُونُسَ مَعَ أَرْضِ ٱلْجَزَائِرِ مَعْ مَرَاكِشٍ جَائِساً أَنْثَى بَوَادِيهَا
جُزْتُ ٱلْجِبَالَ مَعَ ٱلْوِدْيَانِ مُنْتَقِلاً فِيهَا إِلَى كُلِّ مَثْوَى مِنْ مَثَاوِيهَا
فَمَا وَجَدْتُ سِوَى جُودٍ وَحُسْنِ صَفَا فَةٍ وَدَارِ أَمَانٍ عَزَّ ثَاوِيهَا
وَأُمَّةٍ خَيْرُ مَا تُسْمَى بِهِ عَرَبٌ إِنْ رَامَ تَمْجِيدَهَا يَوْماً مُسَمِّيهَا(١)
وَأَنْفُسٍ حُرَّةٍ مَا ٱسْتُعْبِدَتْ وَأَبَتْ أَنْ تَسْتَذِلَّ لِغَيْرِ ٱللهِ بَارِيهَا
وَهِمَّةٍ تَنْشُدُ ٱلْعَلْيَا وَتَطْلُبُهَا مَا ٱلدَّهْرُ يُقْعِدُهَا عَنْهَا وَيُثْنِيهَا
وَعِيشَةٍ قَدْ تَوَخَّتْهَا ٱشْتِرَاكِيَّةٍ أَجْلَى مَظَاهِرِ أَهْلِيهَا تَآخِيهَا
حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بِالْيُمْنِ بَاخِرَتِي مَرْسَى مُحَمَّرَةٍ أَلْقَتْ مَرَاسِيهَا(٢)

---

(١) ان العرب اليوم هم سكان الجزيرة وما جاورها من العراق والشام ومصر والسودان وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش الخ فوجدت حيث العرب على فطرتهم الاخلاق العربية الفاضلة متمثلة فيهم بأتمّ معانيها على نحو ما نقرأ عن السلف الصالح في الجاهلية وصدر الاسلام واذا كان قد فقد بعض العرب الذين دانوا للترك شيئاً من تلك السجايا العالية وبفضل صحبة هؤلاء الذين تغلبوا عليهم فاذلوهم بعد عزهم وأضاعوا مفاخرهم ودكوا معالم حضارتهم وعلومهم. ومما استلفت نظري أن المستعربين منهم لا يعرفون لانفسهم من فخار الا أن يسموا عرباً كذلك ترى أهل الشام وأصل الكثيرين منهم ينتهي الى الروم والسريان وهم يأبون الاأن يكونوا عرباً وكذلك قل عن أهل العراق ومصر وبربر افريقيا وكلهم يفتخرون بعربيتهم ويرفضون أن يرجعهم باحث الى الفرس أو الكلدان أو الفراعنة أو البرابرة أو القرطجنيين الخ وهذه بركة من بركات الاسلام والقرآن يجب أن نحتفظ بها قبل كل شيء اذا أردنا الاحتفاظ بقوميتنا والعمل على انمائها وتكثيرها واعادة مجدها اليها والاطمئنان على سلامة ذاتيتها المقدسة

(٢) لا يزال النهران العظيمان دجلة والفرات يسيان متقاربين متباعدين بينهما أرض تسمى الجزيرة وعلى ضفافهما المدن والقرى أشهرها بغداد على دجلة وكربلاء والنجف الاشرف «الكوفة» على الفرات الى أن يجتمعا في مكان يسمى القرنه على مسافة مئة ميل من خليج العجم فيتألف منها بحر ضخم يسمى « شطّ العرب » فيمر بالبصرة وهي أعظم موانئ هذا الشط تليها المحمرة وهي عند مصب نهري قارون وبهمشير في الشط ثم يأخذ الشط بسيله نحو خليج فارس الى أن يبلغ الفاو وبعدها يصب في مياه الخليج فيختلط الماء العذب بالماء المالح

والمحمرة هذه هي حاضرة ولاية عربستان الايرانية وتسكنها عشائر عربية تدين كلها لبيت ساكن الجنان نصرة الملك الحاج جابر خان الذي استقل بحكمها تحت السيادة الايرانية بفرمان شاهاني من ساكن الجنان ناصر الدين خان شهنشاه دولة علية ايران وهو الوالد الكثير المحامد لعظمة مولانا فخر العرب والعجم معز السلطنة سردار أرفع صاحب العظمة الشيخ خزعل خان أمير نويان وسردار عربستان

وَصَاحَ بِيَ ٱلسَّعْدُ فَٱنْزِلْ هُهُنَا لِتَرَى ... مَوَاطِنًا سُؤْدَدُ ٱلْأَعْرَابِ يَأْوِيهَا
أَجَلْ هُنَاكَ تَجَلَّتْ لِي وَجَاهَةُ هَا ... مْ رُونَ ٱلرَّشِيدِ كَمَا ٱلتَّارِيخُ يَرْوِيهَا (١)

وهذه المدينة هي الثانية في موانئ شط العرب كما تقدم وهي مركز تجاري عظيم ترسو في مياهها البواخر الكبرى التي تأتيها من أوروبا بطريق السويس فالبحر الأحمر فخليج فارس ومن الهند بطريق هذا الخليج وكذلك ترسو في مياهها وهي عائدة

ولقد جدد عظمة السردار أرفع بنيان أسواق هذه المدينة كلها وجعلها على طراز واحد وأشاد فيها القصور الفخمة فأصبحت في عهد عظمته أجمل مدينة على ضفاف الخليج وشط العرب على أن مقر عظمته ليس في البلد بل خارجها في موضع اسمه « اميلية » وهو على الشط أيضاً يبعد بضع أميال عن المحمرة فهناك قصور الحرم وثكنات الجنود ودار الضيافة والحكم التي تسمى «الديوانية» وهي منارة بالكهرباء يليها على مسافة ثلاثة أميال القصر الخزعلي العالي الذي يناطح السماكين ويدعى موضع هذا القصر باسم «الكمالية» والقصر مبني على أجمل طراز فكان أعظم قصور العراق بغير جدال وهو مزدان بأجمل الرياش الخليقة بالملوك وبجوار القصر العامر حديقة غناء فيها من كل فاكهة زوجان وبجوار القصر والحديقة ثكنات الحرس الخزعلي الخاص ومنازل عيال الحرس وهم قسمان أحدهما عربي والآخر فارسي وهذا القصر هو قبلة أنظار العرب وعكاظ الشعر والأدب ومثابة ذوي العلم والسادة النجب ومحط الرحال ومبلغ الناس الآمال

أما امارة عربستان فتمتد من الفاو حتى العمارة في العراق وشوشتر الايرانية حاضرة خوزستان حيث تنزل قبائل البختيارية وعدد أنفس القبائل النازلة فيها يبلغ نحو المليون وأراضي الامارة خصبة يكثر فيها النخيل ونمر فيها الأنهر كشط العرب ونهر بهمشير ونهر قارون وعظمة الأمير منصرف بكليته الى تعمير أراضيه وترفيه أهاليها ومعاونتهم على الاثراء يبذل في سبيل ذلك من الجهد والمال الشيء الكثير وقد ترقت ترقياً عجيباً على عهده السعيد الا أن مساعيه الطيبة وأمانيه الخيرية لم يستطع تنفيذها كلها قبل الحرب لكثرة ما بذل من الجهود لمقاومة الدسائس التي كانت تدس لامارته العلية من الترك والبختيارية ومع ذلك توفق بحزمه وسداد رأيه من ادخال اصلاحات جمة الفائدة على امارته . وقبيل الحرب اهتم عظمته بادخال زراعة القطن في بلاده العامرة فاستجلب من مصر كمية من بذرة القطن وجرب زراعته فأتت التجربة على نتيجة حسنة ناجحة . والمنتظر بعد تبدل الأحوال السياسية في هاتيك الجهات أن يتفرغ عظمته الى تنفيذ نياته الحسنة المباركة في تلك الامارة العظمى فتصبح انشاء الله في ظله الظليل بعد بضع سنوات جنة يانعة الثمار تدر على أهاليها النضار حقق الله بعظمته الآمال وأدامه مصدر الفضل والنوال مدى الليال

(١) ان عصر هرون الرشيد هو عصر العرب الذهبي فانهم لم يعهدوا زماناً اتسع فيه سلطانهم وعظمت فيه شوكتهم وكثر فيه يسارهم وزهت فيه حضارتهم كزمان الرشيد وقد كان شخص هذا الخليفة ممتازاً بصفات راقية عالية أزادت المجد العربي ظهوراً ولذلك اصبح العربي عند ما يذكر مجد أمته يتجه نظره بادئ بدء الى هارون الرشيد قبل سواه من الخلفاء والملوك وهو خامس الخلفاء العباسيين أبوه محمد المهدي ثالث الخلفاء العباسيين ابن المنصور ثاني خلفائهم واخي أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عم رسول الله عليه الصلاة والسلام اول الخلفاء العباسيين بويع بالخلافة في الكوفة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الاول سنة ١٣٢ هـ

فِيهَا تَرَى ٱلْبَدَوِيَّ ٱلْجَاهِلِيَّ يُصَوِّ ... رُ ٱلْحَضَارَةَ فِي أَسْمَى مَعَانِيهَا
سِيَّانِ فِي حَرْبِهِ أَمْ فِي مَفَاخِرِهِ ... أَمْ فِي ٱلْحِسَانِ ٱلَّتِي يَبْغِي تَصَبِّيهَا
وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ تَارِيخُ ٱلْأَعَارِبِ قَدْ ... أَبْقَى لَهَا أَبَدًا ذِكْرَى مَعَالِيهَا(١)
مِنْهُ عَرَفْنَا مَغَازِيهَا وَهِمَّتَهَا ... وَكُلَّ سَامٍ عَظِيمٍ مِنْ مَآتِيهَا
كَانَتْ لَهُ دَوْلَةٌ فِي ٱلْعُرْبِ طَائِعُهَا ... قَدِ ٱسْتَعَزَّ بِهَا إِذْ ذَلَّ عَاصِيهَا
وَرُبَّ بَيْتٍ بِهِ تُهْجَى ٱلْقَبِيلَةُ يُو ... لِيهَا ٱلْمَذَلَّةَ وَٱلْإِهْوَانَ هَاجِيهَا
وَرُبَّ بَيْتِ مَدِيحٍ لِلْقَبِيلَةِ يُو ... لِيهَا مَدَى ٱلدَّهْرِ تَعْزِيزًا وَتَوْجِيهَا

وكان الملوك والأمراء العرب من أقدم أزمنة التاريخ يستدنون الشعراء اليهم بهباتهم ويقدمونهم في مجالسهم لا لاتقاء شرّهم فقط بل رغبة نشر نفوذهم بواسطتهم وحباً بتخليد ذكرهم للعصور الآتية . وعند ما ظهر الاسلام أقرَّ المصطفى عليه الصلاة والسلام عادة استدناء الشعراء واجازتهم وارتضى مدائحهم وأشهر الذين اتصلوا بحضرته القدسية حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب ابن مالك وغيرهم فكانوا بشعرهم يمدحونه وينشرون دعوته ويناضلون عنه ويهجون كفار قريش أعداءه . واقتدى بسنته النبوية خلفاء المسلمين وملوكهم وأمراؤهم الى هذا اليوم

ولعمري ان أكبر الملوك حظاً وأوفرهم مجداً من توفق الى فطاحل الشعراء فمدحوهم وقد زالوا واندثرت ممالكهم ولكن ذكرهم ظلّ خالداً بما قيل فيهم من شعر خالد وهو فضل للشعراء لا يوازيه ما نالوه من كثير العطاء وهذا سيف الدولة علي الحمداني أمير حلب وقد بقي له في دواوين العرب من الذكر العاطر المخلد بفضل قصائد أبي الطيّب المتنبي وأبي فراس الحمداني وغيرهما فوق ما كان له من ملك وسلطان وان من يقرأ مدائحه في دواوين هؤلاء الشعراء يتصوره أعظم ملوك الأرض في طولها والعرض مع ان مملكته لم تكن أكثر من مدينة حلب وما جاورها من القرى وان دولته لم تدم أكثر من أعوام معدودات كان هو ربها وقد دالت بعد أن توفاه الله كما دالت دول أمثاله من أصحاب الجاه ولكن ذكره قد بقي الى الآن وسيبقى الى آخر الزمان بفضل ما قيل فيه من القوافي الحسان

ولم يزل للشعراء عند العرب المنزلة الرفيعة ولا يزالون يعيشون من شعرهم كما يعيش كل ذي صناعة من صناعته وهي مزية لهم على كل شعراء الأمم كما انّ من أشهر ميزات العرب دون غيرهم الجود والكرم

(١) أقول ولم تقف فائدة الشعر العربي على ما تقدم من تخليد أسماء أفراد من الملوك بل تعدتهم الى تخليد تاريخ الأمة العربية الكريمة في جاهليتها فان العرب دون سواهم عرف الناس من تاريخ جاهليتهم ما عرفوا بفضل ما بقي من أشعار الجاهلية خلافاً للأمم الأخرى التي ما استطاعت تخليد بعض أخبارها الا بما أقامته من الآثار الحجرية أما الأمم التي ما توفقت الى اقامة هاتيك الاحجار فقد ضاعت أخبارها عن الناس تماماً وهذا الفضل وحده يكفي للدلالة على الذكاء العربي . والباحث المدقق لا يقف فقط من أشعار الجاهلية على مجمل تاريخها بل وعلى أخلاقها وحضارتها وعوائدها بحيث

وَكَانَ أَعْظَمُ نُعْمَى لِلْقَبِيلَةِ أَنْ تَلْقَى لَهَا نَابِغاً فِي ٱلشِّعْرِ يَحْمِيهَا
أَمَّا شَمَائِلُهَا ٱلْغُرُّ ٱلَّتِي بَلَغَتْ بِهَا ٱلْفَخَارَ فَلَيْسَ ٱلْعَدُّ يُحْصِيهَا
فَمِنْ مَكَارِمِ أَخْلَاقٍ إِلَى كَرَمٍ إِلَى نُفُوسٍ تَنَاهَتْ فِي تَعَالِيهَا
إِنْ عَاهَدَتْ حَفِظَتْ رَغْمَ ٱلزَّمَانِ عُهُودَ ٱلْأَصْدِقَاءِ وَبِٱلْأَرْوَاحِ تَفْدِيهَا
أَوْ إِنْ أَتَتْهَا ٱلْعَوَافِي فِي حَوَائِجِهَا نَالَتْ كَمَا تَشْتَهِي شَتَّى أَمَانِيهَا
وَضَيْفُهَا لَمْ يَهَبْ غَدْرَ ٱلزَّمَانِ بِهِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَى أَعَادِيهَا
وَجَارُهَا بَاتَ مَغْبُوطاً بِجِيرَتِهَا فَلَا يَهَابُ مِنَ ٱلدُّنْيَا عَوَادِيهَا
وَعَنْ شَجَاعَتِهَا حَدِّثْ وَلَا حَرَجٌ إِنَّ ٱلْأُسُودَ لَتَخْشَاهَا وَتَتَّقِيهَا

يستطيع أن يستخرج منها صورة قريبة من الكمال يعرف الناس منها أن العرب كانوا منذ بداوتهم وجاهليتهم على أفضل الأخلاق أشهرها الكرم ، والوفاء ، وخفر الدمام ، وصيانة حقوق الجوار والتضامن في المعيشة ، والعطف على المستضعفين ، والاقدام على المصائب ، والحلم ، والشمم ، والعفاف الخ

ومما يستلفت الانظار من أخلاق العرب احترامهم للمرأة من أقدم أزمانهم وأنت تعلم أن الأوربيين في عصرنا الحاضر يفتخرون بأن من آثار تمدنهم تقديم الاحترام للمرأة ومساواتها بالرجل فما قولك اذا قلنا أن العرب كانوا على هذا الخلق منذ جاهليتهم فهم سباقون فيه سبقهم في الشورى والاشتراكية ؟ ألا ترى الشاعر العربي يصدر قصيدته بالغزل فيفرغ قوى قريحته في وصف المرأة ومغازلتها بينما هو يمتدح ملكاً عظيماً أو مثرياً كريماً ولا يجد من ممدوحه الا الاستحسان والتصفيق برهاناً على اشتراك الناس جميعاً باحترام هذا المخلوق العجيب الذي يتوقف عليه بقاء النسل واليه يوكل في تربيته الاولى والذي وصفه أديب اسحق فأحسن الوصف بقوله :

هي شيطان اذا أفسدتها واذا أصلحتها فهي ملك

وما اقتصر الشاعر العربي على وصف محاسن النساء والتدلل باظهار حبه لهن وابداء ما يكنه صدره من تمني قربهن ومن التألم لبعدهن بل تعدى هذا كله الى ما هو أبعد غاية في الاحترام فكان اذا أراد الافتخار بشجاعته وكرمه وهما أشرف خصال العرب اتجه ببصره الى المرأة فطفق يخاطبها بهما في مثل قول عنترة العبسي:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

أو مثل قول الآخر وهو يعتذر لصاحبته وقد لامته على الكرم :

ألم تعلمي ياعمرك الله انني كريم على أن الكرام قليل

وازداد العربي تلطفاً بزوجته حتى أنه اذا أراد استنهاضها الى عمل ولو فيه الخير بالغ باللطف بها والتأدب بمخاطبتها بما لم يبلغ أعظم منه الافرنجي في هذا العهد في مثل قول الشاعر :

ياربة البيت قومي غير صاغرة ضمي اليك رحال القوم والقربا

وأمثال هذا كثير مما طويت عليه أشعارهم ويعرفها كل متأدب لبيب

وَحَسْبُهَا إِنَّهَا لِلْغَيْرِ مَا خَضَعَتْ ... وَطَالَمَا أَخْضَعَتْ قَهْراً مُنَاوِيهَا(١)
وَكَمْ لَهَا حَنَتِ ٱلنَّاسُ ٱلرِّقَابَ وَمَا ... رِقَابُهَا قَطُّ لِلْأَغْيَارِ تَحْنِيهَا
سَادَتْ وَصَالَتْ وَأَبْقَتْ مِنْ مَفَاخِرِهَا ... أَوَابِداً لَيْسَ كَرُّ ٱلدَّهْرِ مَاحِيهَا
كَانَتْ لَعَمْرُكَ تَأْبَى أَنْ تَعِيشَ عَلَى ... هَوْنٍ وَأَنْ تَتَصَافَى مَعْ مُهِينِيهَا
يَثُورُ ثَائِرُهَا إِنْ نَالَ وَاحِدَهَا ... سُوءٌ وَكَانَ ٱلَّذِي يُؤْذِيهِ يُؤْذِيهَا(٢)

---

(١) من مفاخر العرب أنهم في كل تاريخهم لم يخضعوا لحكم أجنبي عنهم خضوعاً صحيحاً فقد دان بعضهم في عهد الجاهلية لا كاسرة الفرس في العراق والبعض لقياصرة الروم في الشام ولكنهم كانوا وهم تحت السيادة الفرسية أو الرومية مستقلين في داخليتهم ملوكاً على قبائلهم . أما بعد الاسلام فإن دولتهم ظلت عربية وان اشترك فيها الفرس والاتراك والمغول اشتراكاً فعلياً حتى كانوا في بعض الازمنة متغلبين على الخلفاء العرب الذين كانوا يحكمونهم فعلاً على ان العرب ما ارتضوا بتسلط هؤلاء الغرباء الا لاعتقادهم بأن حاكمهم الشرعي هو الخليفة العربي . أما أهل البادية ورجال القبائل فهم ما كانوا يعرفون الطاعة الا لرؤسائهم وأمرائهم وشيوخهم. وعندما تغلب الاتراك العثمانيون على الخلافة العربيــة وقضوا نهائياً عليها فمع أنهم ادعوا الخلافة لأنفسهم ظلَّ العرب في باديتهم على استقلالهم الداخلي وطالمــا حاربوا العثمانيين وأتعبوهم . ويصح لي أن أقول أن أهل المدن أنفسهم من العرب ما كانوا خاضعين للسلطنة التركية خضوعاً صحيحاً وطالما انتقضوا عليهم وحاربوهم. وهكذا بقي العرب على أنفتهم وإبائهم الخضوع للأتراك بالرغم عن كل ما بذل هؤلاء لاخضاعهم الى أن دالت دولتهم في هذا العهد

(٢) ان التضامن عند العرب مألوف ومعروف ومشهور بحيث لا ينكب فرد من قبيلة بمظلمة الا وتهب القبيلة بجملتها للانتصار له من ظالمه ورد مظامته . ولم يقتصر هــذا التضامن على أفراد القبيلة الواحدة بل تعداه الى الانتصار للجوار أيضاً الذي هو من عاداتهم المحمودة يدلك على ذلك حلف الفضول الذي عقد على أثر حرب الفجار حيث اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو الأسد بن عبد العزى وبنو زهرة وبنو كلاب وبنو تميم بن مرّة في دار عبد الله بن جدعان وحضر هــذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الرابعة عشرة من ربيع عمره وتحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها ولا يقرّ ظالمٌ على مظلوم ما بلّ بحرٌ صوفة (أي الى الأبد) وكان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أحب ان لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم واني أغدر به ولو دعي به في الاسلام لأجبته » أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نودي بعد البعثة عن مظلوم يا آل حلف الفضول للباه ونصره لأن الاسلام انما جاء باقامة الحق ونصرة المظلوم

وأما كلمة فضول التي سمي بها هذا الحلف فقد اختلف في تفسيرها العلماء فقال بعضهم أنهم أرادوا بها أن قريشاً دخلوا في فضول من الأمر لا يعنيهم . وقال غيرهم بل ان الفضول مال الظلم يردونه على أهله . وقال آخرون بل أن قريشاً على أثر هــذا الحلف أخرجوا فضول أموالهم للأضياف. وعندي أن الأول هو الأرجح وهو المقصود

أما السبب الذي دعا قريشاً لهذا الحلف فهو ان رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل وكان من زعماء قريش وحبس عنه ثمنها فاستغاث الزبيدي ببعض زعماء قريش

فإنْ يَصِحْ وَانصِيرَاهُ رَأى أُسُدَاً سَلَّتْ لِقَهْرِ أَعَادِيهِ مَوَاضِيهَا
تَضَامُنٌ بَيْنَ أَفْرَادِ ٱلْقَبِيلَةِ لَا يُبْقِي عَلَى ٱلضَّيْمِ فَرْدَاً مِنْ مَوَالِيهَا
وَمُنْذُ نَشْأَتِهَا ٱمْتَازَتْ مَعِيشَتُهَا عَنِ ٱلْبَرِيَّةِ وَحْشِيهَا وَحَضَرِيهَا
بِٱلإِشْتِرَاكِيَّةِ ٱلْكُبْرَى فَلَا رُتَبٌ تُنْبِي ذَوِي ٱلْجَاهِ مِنْهَا عَنْ أَدَانِيهَا(١)

فسفهوه وانتهروه فسار الزبيدي الى جبل أبي قبيس عنـد طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الـكعبة وصاح بأعلى صوته

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت مكارمه ولا حرام لثوب التاجر الغدر

فاهتزت قريش لهذه الأبيات وأسرع الزبير عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى عقد حلف ينصرون به المظلوم على ظالمه فتمّ لهم ذلك الحلف الذي هو أشرف حلف عقدته العرب لما ترتب عليه من الانتصار للمظلوم والضرب على يد الظالم

أقول وانّ قوماً يعقدون مثل هذا الحلف لأن واحداً من وجهائهم حبس حقّ تاجر «غريب» وهم في جاهلية لا يعرفون فيها الحرام من الحـلال ولا شريعة لهم تأمرهم بالمعروف وتنهيهم عن المنكر لخليقٌ أن تحترم ضمائرهم الطاهرة ونفوسهم العالية وأخلاقهم الراقية

(١) ان الاشتراكية أصل من أصول الديانات الالهية الموسوية والعيسوية والمحمدية اذا أريد بها مشاركة الغني الفقير بيساره وثروته على ما فيها من الاوامر بالزكاة والصدقة كما أنها أصل من أصول العمران والاجتماع فان الاغنياء اذا قبضوا أكفهم عن الفقراء ثار هؤلاء عليهم وقوضوا معالم الحضارة على رؤوسهم ونادوا بالشـقاء العام وهذا بديهي وقد وجد مع الانسان منذ عهـده بالحضارة على اختلاف فيه حسب اختلاف البيئات وتفاوت الناس في الغنى والترف والمدارك

على أن الاشتراكية التي أردتها في المتن غير هذه بل أعظم منها عرفت عن العرب في الجاهلية والاسلام ولم تعرف عن سواهم من الامم

ومن المعلوم ان الامم تنشأ على الاشتراكية في بداوتها أو في بدء حضارتها يوم يكون النـاس فيها متشاكلين بأقدارهم وثرواتهم ثمّ يأخذ التفاوت يظهر ويتسع فيما بينهم بتفاوت أقدار بعضهم عن بعض اما بالشجاعة وكانت هي أساس المجد عند الاقدمين الذين ما كانوا يعرفون حقاً لغير القوة أو بالثروة واليسار أو بالعقل والعلم وكل ما لدينا من تواريخ الامم القديمة كالهنود والفرس والصينيين والبابليين والمصريين يشير الى أنّ الناس كانوا طبقات بعضهم فوق البعض فهناك الخاصة وهم الملوك فروساء الدين «وكان العلم منحصراً فيهم» فأمراء الجيوش فالحكام فأصحاب الاملاك والاراضي فالعامة وهم عبارة عن أهل التجارة والصناعة والزراعة ورعاية الماشية فالعبيد ولم يكن للعامة حق الاختلاط بالخاصة كما لم تكن لهم حقوق شخصية تعرفها الخاصة فضلا عن أن تقدسها ومع ان أخلاق الناس تلطفت بعد النصرانية بفضل اشـتراكية الانجيل مع ذلك ظلت الناس طبقات بعضها فوق البعض وباطل الخاصة حق وحق العامة باطل ولا يختلط هؤلاء بهؤلاء لا في مجالسهم ولا في اجتماعاتهم الى عهد قريب وأول من كسر قيود هذا التقليد على ما نعلم هم الفرنسويون بثورتهم المشهورة سنة ١٧٨٩

وَلَولا ضَخَامَةُ أَلقابٍ تُمَيِّزُ ما بَينَ الأَعارِبِ عُلوِيِّها وَسُفلِيِّها
وَلَيسَ تَأنَفُ أَربابُ الوَجاهَةِ مِنـــهَا أَن يَضُمَّ سَوادَ القَومِ نادِيها
وَإِنَّ أَحكامَها شُورى يُصِيخُ لَها شُيُوخُها إِذ تُنادِي مُستَشارِيها
شُورى إِلَيها انتَهَت مِن جاهِلِيَّتِها تَاللهِ قَد تَخِذَتها عَن قُرَيشِيِّها (١)

فانهم ما اكتفوا أن ثاروا على ملوكهم واسقطوهم من عالي عروشهم بل ثاروا على خاصتهم فأوقعوا بهم ومثلوا بهم أبشع تمثيل ومن هذا العهد نودي بالاشتراكية المعتدلة أو كما يسمونها بالافرنجية « الديموقراطية » وقالوا بمساواة الناس بالشرف والحقوق وابطال المراتب الموهومة بينهم وهكذا دكدكوا الحواجز التي كانت تفصل العامة عن الخاصة ودهوروها دهورة. وانتقلت هذه الروح الديموقراطية بالتدريج الى بقية الممالك الاوربية والاميركية فتوسعت بعض الشعوب فيها توسعاً محموداً ولا سيما في الولايات المتحدة التي قامت جمهوريتها على عدم التمييز بين الناس على الاطلاق ولم يبق في عهد الناس هذا امة متمسكة بتقاليد القدماء هذه الا الامة الروسية التي كان الناس فيها طبقات بعضها خاصة والبعض عامة الى يوم سقوط آل روماتوف قياصرتهم في اثناء هذه الحرب العامة «سنة ١٩١٧ » حيث جنت العامة الروسية جنونها المطبق ونادت بالفوضى بأبعد معانيها وهي التي اطلق عليها اسم «بلشفية» وما هذا الجنون الا نتيجة لازمة لجنون القياصرة واعوانهم من الخاصة باستبدادهم بالعامة اذ كانوا يسومونهم من الظلم والذلّ الشيء الكثير والافراط كالتفريط في كلّ شيء

أما العرب فمن أقدم تاريخهم في جاهليتهم لم يعرفوا هذا التفاوت ولم يكن عندهم حاجز بين الخاصة والعامة على ما نقرأ من اشعارهم وتواريخ قدمائهم في اليمن والحجاز والعراق والشام ولو أردنا الاستشهاد على هذا لضاق بنا المجال وما افدنا القارىء اللبيب شيئاً جديداً لانه معروف عند الجميع ومألوف. وعندما ظهر الاسلام أيد القرآن الشريف هذه الاشتراكية الصحيحة التي ألفها العرب فآخى بين المؤمنين وجعل المصطفى الافضلية بين المسلمين لمن فضل اخوانه بالتقوى وهي في استطاعة كل مؤمن يريد أن يكون صالحاً. ومن يطالع تاريخ المصطفى صلى الله عليه وسلم يجد هذا النبي الذي قام بنشر الدعوة كان القدوة الصالحة لمن خلفه من الخلفاء والملوك باشتراكيته ودعته وتواضعه اذ كان يجالس عامة الناس ويواكلهم ويباسطهم ويبش لهم كما دعوه باسمه الشريف «يا محمد»

وبعد أن انبسط ملك العرب وامتدّ سلطانهم على الشام ومصر والبربر والعراق وفارس والاندلس واصبحت كلمتهم في العالم هي العليا لم يغرّهم سمة الملك كما غرّ غيرهم فظلوا على ديموقراطيتهم لا يأنف خلفاؤهم وملوكهم وأمراؤهم وقضاتهم وعلماؤهم ان يجالسوا العامة ويواكلوهم ويتزوجوا منهم ويزوجوهم ولسان حال الجميع الآية الشريفة « انما المؤمنون اخوة » وما زال حال العرب في مواطنهم على هذا المنوال الى يومنا هذا على ما شهدنا عياناً الا حيث امتدّ نفوذ الاتراك فقلدوهم وهم كغيرهم من الشعوب ما عرفوا للاشتراكية معنى واننا لنفتخر باثبات هذه المزية لامتنا العربية الشريفة ونحن واثقون انهم سيجرون عليها في مستقبلهم السعيد كما احتفظوا بها في ماضيهم وهكذا يعلمون المثال الحي للاشتراكية أو الديموقراطية المحمودة الى الابد

(١) كان القريشيون سادات العرب الحجازيين وأشرافهم بالاجماع ولعلهم نالوا هذا الشرف

العظيم لسكنى روسائهم وهم هاشم ، وأمية، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم، وعدي وجمح ، وسهم ، في مكة المكرمة نفسها التي هي مقرّ الكعبة محاج العرب جميعاً كرمها الله ، وكان هؤلاء الروساء يقتسمون الحكم بينهم على ما يقرب من الحكم الجمهوري المعروف في زمان الناس هذا وهاك أقسام ذلك الحكم الذي سميناه جمهورياً

كان بنو هاشم مختصون بالسقاية وهي أهم الوظائف لذلك العهد لما تعلمه من قلة المياه في مكة كرمها الله فرؤي أن يناط أمر سقاية الحجاج بأكبر أولئك العرب نفوذاً حتى لا يقتتلوا على المياه في الأشهر الحرام المحرّم فيها القتال

واختص بنو هاشم أيضاً بالعمارة وهي حفظ النظام في الكعبة المكرمة في زمن الحج فكانوا يراقبون الحجاج ويمنعونهم عن بذيء القول أو رفع الصوت أو التزاحم بالمناكب الخ

وكان العقاب وهو راية قريش الكبرى عندهم من نصيب بني أمية يحفظونها عندهم حتى اذا ما وقعت حرب أخرجوها وأعطوها لمن يتفقون عليه من أولئك الروساء وقدموه عليهم في الحرب وبقوة هذه الراية جمع أبو سفيان والد معاوية العرب على حرب النبوّة

وكانت الرفادة في بني نوفل ومعناها رفد المنقطعين من الحجاج لاعادتهم الى مواطنهم

وكانت السدانة والحجابة في بني عبد الدار ومعناهما خدمة الكعبة وحفظ مفاتيحها وكذلك كانت فيهم الندوة أي موضع اجتماع أولئك الروساء للتشاور بأمورهم المهمة

وكانت المشورة في بني أسد ولعلهم أرادوا بها رئاسة ندوتهم عند ما يجتمعون للشورى بدليل أنهم كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب المشورة فان أعجبه وافقهم عليه والا تخير وكانوا له أعواناً فيما يختار

وكان الأشناق في بني تيم ويريدون بهذه الوظيفة جمع المال والجمال لمساعدة من يحمل غرماً أو دية من قريش توسلاً لحقن الدماء وحفظ كرامة قريش

وكانت القبة في بني مخزوم وذلك ان قريشاً عند ما كانوا يهبون الى حرب كان يضرب لهم زعيم بني مخزوم قبة يجمعون اليها عددهم الحربية وتجهيزاتهم العسكرية

وكانت الأعنة أيضاً فى بني مخزوم ويريدون بها رئاسة الخيالة فكان زعيم بني مخزوم هو الذي يعتني بالخيالة في الجيش ويقودهم الى القتال

وكانت السفارة في بني عدي ويراد بها مخابرة الأعداء لاشهار حرب أو تلافيها أو عقد صلح الخ

وكان الايسار في بني جمح وهي الأزلام والقداح كانوا يضربون بها اذا أرادوا أمراً خطيراً وهي من خرافات العرب وجاهليتهم وقد حرمها الاسلام

وكانت الأموال المحجرة في بني سهم وهي الأموال المرصد ريعها على آلهتهم أو قترائهم وهي أشبه بالأوقاف الخيرية المعروفة في الاسلام

وعلى هذا التقسيم كانت قريش تدير شؤون العرب وتحكمهم حكماً جمهورياً شورياً قد أقره الاسلام بقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وقوله سبحانه مخاطباً المصطفى «وشاورهم في الأمر» ومن هذا الحكم يكون للعرب أولاً وللاسلام ثانياً فخر ايجاد الحكم الشوري الذي تتمشى عليه الأمم الراقية في عصرنا الحاضر وتحسبه شعار تمدنها

أَمَّا عَقَائِدُهَا فَالأَكْثَرِيَّةُ أَلَّهَتْ إِلٰهَ ٱلسَّمَا ٱلخَلَّاقَ تَأْلِيهَا(١)

(١) وجد الدين مع الانسان منذ وجد وتفرعت أصوله بتفرع ادراكه وكان باعثه اليه ضعفه ووجوده محتاجاً أبداً الى قوة علوية تدفع عنه الشر وتسهل اليه ما يحتاج من خير وقد تخيل ان ما وصل اليه من خير وما توفق اليه من دفع ضرّ هما بمدد قوة علوية فعبدها واحترمها وألهها وما كفاه هذا حتى أشرك معها ما تخيله مظهراً من مظاهر هاتيك القوة العلوية كالشمس التي أدرك أن الكائنات تعيش بحرارتها وتستجلي الظلمات بضوئها ثم عبد الكواكب والنجوم لاستدلاله بها على الانواء ثم تدرّج الى عبادة الأشخاص الذين امتازوا باعمال غير مألوفة فحسبوهم من مظاهر الاله سبحانه حتى اذا ما توفوا تحولت عبادتهم لقبورهم أو أقاموا لهم الصور والتماثيل ثمَّ لجهل الانسان نسي أن عبادته الأشخاص أو صورهم وتماثيلهم أوالشمس والنجوم والكواكب حتى الحيوانات أيضاً التي كانت تفيده لحياته أو يخشى ضرّها نعم نسي أن عبادته هذه كانت زلفى لله خالق الكائنات على اعتبار انها من مظاهره سبحانه وتعالى بل نسي أيضاً نفس الخالق وعبدها لنفسها فكانت العبادة الوثنية مملوءة بالجهالات والخرافات ومفضية الى الاشراك فالكفر بالله والعياذ بالله

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يعيد الناس الى الهدى بعد الضلال فأرسل اليهم رسله وأنبياءه فكان أولهم بعد الطوفان سيدنا ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم فكان أبا الأنبياء جميعاً وكلهم من صلبه وأشهرهم موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام لكثرة من انتمى اليهم من الموحدين

وكان العرب قبل عهد سيدنا ابراهيم على الوثنية حتى اذا ما هاجر اليهم هذا النبي الكريم بولده سيدنا اسماعيل وامرأته هاجر عليهم السلام دخل العرب في دينه أفواجاً ووحدوا الله على يديه وابتنى لهم الكعبة المشرفة على أن كثيرين منهم ظلوا على وثنيتهم يرون الهدى ولا يهتدون

ثم انتقلت الديانة الموسوية الى العرب بهجرة طائفة من بني اسرائيل الى الحجاز وأول من دان بها هم أهل طيبة « وكان اسمها يثرب » وهي المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام قالوا ان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عند ما خرج بقومه من مصر بعد قصته مع فرعون على ما في القرآن الشريف أقام أربعين سنة في صحراء سيناء وهي التي دعتها التوراة باسم « التيه » وفي هذه المدة تخلّف عنه بعض اليهود وساروا الى الحجاز فنزلوا في موضع فيه ماء يسمى « بئر أدهم » فأقاموا فيه وبنوا في موضعه مدينة دعوها يثرب فكانت مدينة يهودية ثمَّ طفق اليهود ينتقلون الى الحجاز فاليمن طلباً للرزق أو فراراً من الاضطرابات والحروب التي انتابت بلادهم « فلسطين في عهد ملكهم لوقوعها بين دولتين قويتين متشاكستين هما دولة مصر ودولة آشور » وباختلاط الاسرائيليين بالعرب دان منهم كثيرون باليهودية وكانوا مع مشركي قريش أعداء للنبوّة على ما هو مذكور في القرآن وتاريخ صدر الاسلام

ثمَّ انتشرت النصرانية في العرب فكان أول ظهورها في نجران شمالي صنعاء اليمن وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر نعمان بن المنذر وفي قبائل من طي وفي عرب الغساسنة في الشام لمجاورتهم الروم وهم على النصرانية

نقول وان آثار التعاليم الموسوية والمسيحية كثيرة في كثير من الشعر الجاهلي وفي هذا دلالة ناصعة على أن اليهود والنصارى العرب نشروا كتبهم بين القوم فداولتها الألسن

وعلى هذا فقد كان العرب عند ظهور البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام على أربعة

عَلى شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ تَحفَظُهَا عَنِ ٱلْجُدُودِ وَتَأْبَى أَنْ تُخَلِّيهَا
وَكَانَ فِيهَا ٱلنَّصَارَى وَٱلْيَهُودُ وَأَقْوَامٌ مُعَطِّلَةٌ وَٱلْكُفْرُ مُطْغِيهَا
وَأُمَّةٌ عَبَدَتْ زُلْفَى لِخَالِقِهَا ٱلأَصْنَامَ جَهْلاً وَتَأْبَى هَدْيَ هَادِيهَا
وَغَايَةُ ٱلْقَوْلِ إِنَّ ٱللهَ وَاصِفُهَا بِخَيْرِ مَا فِي ٱلْبَرَايَا مِنْ أُنَاسِيهَا(١)
فَتَأْمُرُ ٱلنَّاسَ بِٱلْمَعْرُوفِ تُوجِبُهُ كَمَا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ٱلْمَشْئُوفِ تَنْهِيهَا
وَآمَنَتْ بِإِلٰهِ ٱلْعَرْشِ قَدْ عَرَفَتْهُ ٱلْوَاحِدَ ٱلأَحَدَ ٱلْقَهَّارَ ذَارِيهَا
هٰذِي هِيَ ٱلأُمَّةُ ٱلْعَلْيَا ٱلَّتِي بَزَغَتْ أَنْوَارُ أَحْمَدَ مِنْ أَقْصَى فَيَافِيهَا
وَٱخْتَصَّهَا ٱللهُ بِٱلإِسْلَامِ تَنْشُرُ فِي ٱلأَمَمِ فَاقَ دَعْوَتَهُ ٱلْحَسْنَا وَتُزَكِّيهَا
وَكَانَ أَشْرَفَهَا جَاهاً وَأَعْظَمَهَا قَدْراً قُرَيْشٌ فَلَا نِدٌّ يُدَانِيهَا
وَإِنَّهَا لَبُطُونٌ وَٱلْوَجَاهَةُ فِي ٱلتَّخْصِيصِ مَا ٱبْتَعَدَتْ عَنْ هَاشِمِيِّيهَا

أديان أولهـا الموحدون على دين ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل والثـاني النصارى والثالث اليهود والرابع الوثنيون

على أنَّ الذين كانوا على دين سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل ما كانوا يخلون من الاشراك وذلك ان ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام بنيا الكعبة في مكة المكرمة على ما عامت وجعلاها مطافاً يحجها أولادهما فلما كثروا انتشروا في أطراف الجزيرة وكانوا في هجرتهم من مكة يأخذون معهم للتبرك شيئاً من حجارة الكعبة فجعلوا يعظمونها تقرباً لله عزَّ وجلَّ وما زالوا يتوسعون بتعظيمها حتى جعلوها أصناماً وأوثاناً وعبدوها مع الله سبحانه فباتوا مشركين

وحدث ان عمرو بن لُحَيّ الخزاعي سافر الى بلاد الشام وفي طريقه رأى هؤلاء المشركين وما عندهم من التماثيل التي يعبدونها فحسنت له عبادتها فأخذ بعضاً منها وأقامها على الكعبة وكان هو سادنها وهكذا دخلت عبادة التماثيل الى الكعبة المشرفة التي بنيت في الأصل لعبادة الله الواحد الأحد

وعند ما رأت قريش ما فعل عمرو بن لُحَيّ اتبعوه وما اكتفوا بما جاء به من التماثيل بل أضافوا اليها تماثيل أخرى الظاهر أنهم اقتبسوها عن التماثيل اليونانية التي كانت تمثل القوات المختلفة ويسمونها آلهة كاله الحرب واله البحر الخ ووضعوها في فناء الكعبة

ومما لا ريب فيه ان العرب ما كانت تعظم هذه الأوثان التي ملأت بها الكعبة المشرفة الا تقرباً لله لما جاء في الكتاب العزيز « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » على أنَّ هذه العبادة حسبها محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام اشراكاً ودعا لأجلها قريشاً مشركين وأبى عليهم الا أن يتجردوا لعبادة الواحد الأحد موحدين وأيده الله فكان له النصر العظيم

(١) قال الله عزَّ وجل في كتابه العزيز يصف الأمة العربية الكريمة «كنتم خير أمَّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» ولعمري أن شهادة الوحي هذه لهم لتكسبهم غاية الفخر الى يوم القيامة

وَخَيْرُ هَاشِمَ بَلْ خَيْرُ ٱلْخَلِيقَةِ أَحْـمَدُ ٱلَّذِي شَرَّفَ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِيهَا
وَبَعْدَهُ ٱلْمُرْتَضَى صِنْوُ ٱلنَّبِيِّ رَسُو ل ٱللهِ أَفْضَلُ خَلْقِ ٱللهِ تَقْفِيهَا
وَحَسْبُ أُمَّتِنَا بِٱلْمُصْطَفَى وَعَلِـيٍّ ٱلْمُرْتَضَى أَنْ تُكَامِيَ مَنْ يُكَاسِيهَا

حسب أمير المؤمنين ونسبه

وَنِسْبَةُ ٱلْمُرْتَضَى كَٱلْمُصْطَفَى وَهُمَا فِي ذِرْوَةِ ٱلْمَجْدِ فِي أَعْلَى أَعَالِيهَا(١)
هُمَا خِيَارُ بَنِي ٱسْمَاعِيلَ نَازِلِ أَرْ جَاءِ ٱلْحِجَازِ ٱلْأُوْلَى بَاتُوا مَوَالِيهَا
وَإِنَّهَا عِتْرَةٌ مَا فِي ٱلْخَلَائِقِ مَنْ يَدْنُو لِسُؤْدُدِهَا أَوْ مَنْ يُدَانِيهَا
نَمَتْ أُصُولاً وَأَفْخَاذاً مُنَوَّعَةً وَكَانَ أَسْمَقُهَا مَجْداً قُرَيْشِيهَا
وَفِي قُرَيْشَ فُرُوعٌ كَانَ أَفْضَلَهَا جَاهاً هَوَاشِمُهَا مَا مَنْ يُسَامِيهَا
وَفِي ٱلْهَوَاشِمِ سَادَ ٱلنَّاسَ مُطَّلَبٌ فَكَانَ نَاظُورَهَا ٱلْأَعْلَى وَرَافِيهَا
وَزَادَهُ ٱللهُ جَاهاً بِٱلنُّبُوَّةِ فِي حَفِيدِهِ ٱلْمُصْطَفَى إِذْ آضَ رَاعِيهَا
وَإِنَّهَا عِزَّةٌ تُحْنَى ٱلرِّقَابُ لَهَا وَلَيْسَ مِنْ عِزَّةٍ قَعْسَا تُنَاحِيهَا
قَدِ ٱبْتَدَتْ بِٱلْأَمِينِ ٱلْمُصْطَفَى وَعَلِـيٍّ مِنْهُ آخِذُهَا إِرْثاً وَجَانِيهَا
كِلَاهُمَا نَهَلَا مِنْ مَوْرِدٍ عَذِبٍ جَرَى بِهِ مِنْ مِيَاهِ ٱلْمَجْدِ صَافِيهَا

---

(١) ان التنويه بحسب المرتضى ونسبه عليه صلوات الله كالتنويه بفضل الشمس وكما انّ كل انسان يعلم أن الله سبحانه خلق الشمس لتضيء دياجي الكون ولترسل حرارتها فيحيا بها النبات والحيوان والانسان باذنه تعالي كذلك كلّ انسان يعلم حسب المرتضى وانه في شرف نسبه مقترن مع المصطفى كلاهما فرعي دوحة بلغت من الشرف غايته ومن السؤدد نهايته هي دوحة آل عبد المطلب رأس بني هاشم وما بنو هاشم الا سادات قريش وما قريش الا أشرف أشراف العرب بانتمائها الى سيدنا اسماعيل بن سيدنا ابراهيم الخليل عليهما وعلى المصطفى والمرتضى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام

واذا كان المجد العربي الاسمى قد انتهى في الجاهلية الى بني هاشم فقد ابتدأ من هذا البيت الكبير مجد أسمى لا يدانيه مجد في الدنيا والآخرة بالنبوة اذ اختصّ بها سبحانه وتعالى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فكان خاتمة النبيين وسيد المرسلين . ولقد ورث هذا المجد العظيم وصيه ووليه وصنوه وأخوه وربيبه وصهره وابن عمه سيدنا سيف الله الغالب عليّ ابن أبي طالب فكان ثاني اثنين في العالمين لا يدانيه بذلك مدان من بني عدنان ومن عالم الانسان. وسوف ترى فضائل هذا السيد العظيم التي لا يحيط بها بيان وقد قامت عليها البينات وأثبتها القرآن

نَعَمْ أَبُوْ طَالِبٍ رَبَّى ٱلرَّسُوْلَ وَحَا جَاتُ ٱلرَّسُوْلِ ٱلْمُفَدَّى كَانَ قَاضِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى كَرَمًا رَبَّى ٱلْوَصِيَّ عَلَى يَدَيْهِ تَرْبِيَةً مَا ٱنْفَكَّ فَانِيْهَا
كَمَا تَرَبَّى بِإِدْلَالِ ٱلْخَدِيْجَةِ أُ مِّ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى رَاضِيْ تَبَنِّيْهَا
وَقَدْ تَزَوَّجَ مِنْ أَسْمَى كَرَائِمِهَا وَمَا بَنُوْ ٱلْمُرْتَضَى إِلَّا ذَرَارِيْهَا
وَبِنْتُهُ بِنْتُ طَـٰهَ وَهُوَ مُتَّحِدٌ مَعْهُ بِوِحْدَةِ حَالٍ لَا نُجَزِّيْهَا
وَفِيْ ذُرَى ٱلْكَعْبَةِ ٱلزَّهْرَاءِ مَوْلِدُهُ فَكَانَ فِيْ ٱلْعُرْبِ ٱلْعَرْبَاءِ كَعْبِيْهَا
وَكَانَ لِلْمُصْطَفَى ٱلْهَادِيْ ٱلْبَشِيْرِ أَخًا مُذْ أَحْكَمَتْ أُمَّةُ ٱلْهَادِيْ تَآخِيْهَا
كَانَا كَمُوْسَى وَهَارُوْنٍ لِأُمَّتِنَا وَإِنَّمَا بِهِمَا ٱلْخَلَّاقُ مُنْشِيْهَا
وَلِلرَّسُوْلِ أَحَادِيْثٌ مُثَبَّتَةٌ عَنْ فَضْلِ حَيْدَرَةٍ مَا مَانَ رَاوِيْهَا
وَفِيْ ٱلْكِتَابِ مَثَانٍ فِيْهِ قَدْ نَزَلَتْ فَشَرَّفَتْهُ فَقُلْ: سُبْحَانَ مُوْحِيْهَا

والد أمير المؤمنين

لَدَى أَبِيْ طَالِبٍ قِفْ صَاحِ مُحْتَرِمًا غُرَّ ٱلْأَيَادِيْ ٱلَّتِيْ قَدْ كَانَ يُسْدِيْهَا(١)
وَلَا تَخَلْ أَنَّنِيْ أُوْفِيْ مَدَائِحَهُ فَإِنَّ مِدْحَتَهُ مَا مَنْ يُوَفِّيْهَا

---

(١) كان لعبد المطلب كبير بني هاشم ثلاثة عشر ولداً وهم الحارث وهو أكبرهم وكان به يكنى وشقيقه تم. وعبد مناف وقيل عمران المكنى بأبي طالب والزبير وعبد الكعبة وعبد الله والد المصطفى عليه الصلاة والسلام وهؤلاء الأربعة هم أشقاء. وحمزة والمقدم والمغيرة الملقب بجحل وهؤلاء الثلاثة أشقاء. والياس وضرار وهما شقيقان. وعبد العزى المكنى بأبي لهب وهو أعدى أعداء النبي الذي نزلت فيه آية « تبت يدا أبي لهب » ومصعب الملقب بالغيداق وهما شقيقان. وكان أبو طالب أوجه وجهاء قريش وزعيمهم بعد أبيه عبد المطلب وأنفذهم كلمةً وأحكمهم رأياً واشتهر عنه انه لم يذق الخمر طول حياته وكان من الذكاء والدهاء وقوة الارادة ما يدلك عليه نفوذه على قريش حتى استطاع أن يحمي ابن أخيه المصطفى من أعدائه فلم ينله أذاهم طول حياته مع أنه كان يحارب دينهم

ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش يتيماً فقد مات أبوه عبد الله وأمه حامل به فكفله منذ ولادته جده عبد المطلب ومات وللنبي من العمر ثمان سنوات فكفله عمه أبو طالب الذي انتقلت اليه زعامة بني هاشم بعد موت أبيه ولقد قيل كثيراً عن رعاية أبي طالب لرسول الله عليه الصلاة والسلام في مدة كفالته له التي دامت الى أن شب عن الطوق وفي الأحاديث الثابتة عن المصطفى انه عليه الصلاة والسلام كان كثير الامتنان من كفالة عمه الطيبة له. والثابت انه كان يضجعه بجانبه ويسهر على راحته ويقدم له أحسن الطعام . وكأني بالشيخ أبي طالب كان يحسن الفراسة بالغلام

قَدْ كَانَ أَفْضَلَ شَيْخٍ فِي قُرَيْشَ جَمِيعاً بِالْمَحَامِدِ لَا فِي هَاشِمِيتِهَا
وَكَانَ بَعْدَ أَبِيهِ أَقْوَمِ سَيِّدَهَا بِلَا جِدَالٍ وَحَامِيهَا وَآسِيهَا
وَكَانَ أَحْكَمَهَا رَأْياً وَأَفْضَلَهَا حَزْماً وَأَكْثَرَهَا مَجْداً وَتَوْجِيهَا
مِنْ بَعْدِ مُطَّلِبٍ دَانَتْ لِسُؤْدُدِهِ طَوْعاً فَكَانَ إِلَى الإِسْعَادِ مُمْشِيهَا
وَالْجَاهِلِيَّةُ فِي عَلْيَاهُ قَدْ خَتَمَتْ فَخَارَهَا مُذْ غَدَا الإِسْلَامُ طَاوِيهَا
وَحَسْبُهُ كَفَلَ الْهَادِي الأَمِينَ كَفَا لَهُ جَمِيعُ عِبَادِ اللهِ تُطْرِيهَا
فَكَانَ كَافِلَهُ وَهُوَ الْيَتِيمُ بِعَطْفَةٍ وَحَقِّكَ مَا الآبَاءُ تَأْتِيهَا
وَكَانَ يَعْنَى بِهِ بِرّاً يُفَضِّلُهُ عَلَى بَنِيهِ لِكَيْ يَزْدَادَ تَرْفِيهَا
وَكَانَ يُضْجِعُهُ فِي قُرْبِهِ وَلَيَا لِيهِ الطِّوَالُ عَلَيْهِ كَانَ يُحْيِيهَا
وَكَانَ فِي بَيْتِهِ الرَّبَّ الْمُحَكَّمَ فِي شُؤُونِهِ مِثْلَمَا يَهْوَى يُجَرِّيهَا
وَفِي الْمَآكِلِ لَا يُطْهَى هُنَالِكَ مِنْ أَلْوَانِهَا غَيْرُ مَا قَدْ كَانَ شَاهِيهَا

محمد عليه الصلاة والسلام ويقدّر له مستقبلاً عظيماً في الدنيا ووجاهةً كبرى عند الله يدلك على ذلك استسقاء السماء بوجهه. قال جلهمة بن عرفطة قدمت مكة وقريش في قحط فاختلفوا في كيف يستسقون السماء فقال بعضهم باللات وآخرون بالعزى وفي الأخير قال عاقل منهم أنى تؤفكون وفيكم باقية ابراهيم وسلالة اسماعيل عليهما السلام ألا وهو أبو طالب فلنصرف اليه فأطاعوه وقصدوا أبا طالب في بيته فخرج معهم ومعه المصطفى وهو غلام وقصدوا الكعبة كرمها الله وهناك جاء بالمصطفى عليه الصلاة والسلام وألصق ظهره بالكعبة وصلى ودعا فأقبل السحاب واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي . وقد أشار أبو طالب الى هذا الحادث العظيم الذي كان باكورة معجزاته عليه الصلاة والسلام في قصيدته الكبرى التي انشدها في مدح المصطفى بعد بعثته بقوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامل

وكان أبو طالب كثير التعلق بالمصطفى كما كان المصطفى كثير التعلق به ولذلك عند ما عزم أبو طالب على المسير الى الشام للتجارة على عادة قريش وذلك بعد كفالته له بأربع سنوات عزّ عليه فراقه فصحبه معه وكانت هذه أولى رحلات المصطفى وأوفرها بركةً وفيها من الحوادث العظمى المشيرة الى نبوّته مع راهب بحيراء وغيره ما هو صريح في السيرة النبوية

ونال أبا طالب جهدٌ عظيم عند ما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعثته وهمَّ مشركو قريش وكفارها بمعارضته ونادوا بكراهه ما كان يجهر به من تحقير آلهتهم وتعظيم الهه الأحد على انه استطاع أن يحميه منهم فما نالوه بأذى في كل حياته وهذا فضل عظيم لهذا العميد الفخيم

وعند ما أدركت أبا طالب الوفاة وهو كما علمت كبير زعماء قريش استدعى زعماء قومه اليه وودعهم بهذه الوصية فقال : « يامعشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب ، فيكم المطاع

وَسَارَ مَعَهُ إِلَى أَرْضِ ٱلشَّآمِ بِرُحْــلَةٍ بَدَا جَاهُ طَـهَ لِلْمَلَا فِيهَا

وَرَدَّ عَنْهُ ٱلْأَعَادِيَ عِنْدَ بَعْثَتِهِ ٱلـــزَّهْرَا وَقَدْ كَثُرَتْ جَهْلًا أَعَادِيهَا

وَكَانَ يُنْشِدُ فِي طَـهَ قَصَائِدَهُ   وَفِي نُبُوَّتِهِ ٱلْعُصَمَا وَيُمْلِيهَا

وَكَانَ يَدْعُو إِلَى مَحْمُودِ دَعْوَتِهِ   جَهْرًا قُرَيْشَ وَبِالْأُخْرَى يُمَنِّيهَا

وَعِنْدَ مَا قَدْ دَنَتْ مِنْهُ ٱلْوَفَاةُ دَعَا   رُؤُوسَ أُمَّتِهِ كَيْمَا يُفَاهِيهَا

وَقَالَ وَٱلْمَوْتُ يَغْشَاهُ بِصُفْرَتِهِ   وَرَهْبَةُ ٱلْمَوْتِ يُشْجِي ٱلنَّفْسَ فَاجِيهَا

أُوصِيكُمُ يَا بَنِي أُمِّي بِكَعْبَتِنَا   فَإِنَّ فِيهَا رِضَاءَ ٱللهِ ثَاوِيهَا

وَإِنَّ رِزْقَكُمُ فِيهَا يَنَالُكُمُ   مِنَ ٱلْحَجِيجِ إِذَا وَافَتْ مَغَانِيهَا

وَبِٱلْوِدَادِ صِلُوا أَرْحَامَكُمْ وَبِذَا   تَنَالُ أُمَّتُكُمْ أَقْصَى أَمَانِيهَا

وَحَاذِرُوا ٱلْبَغْيَ مَعْ شَرِّ ٱلْعُقُوقِ وَمَا   يَلِيهِمَا مِنْ شُرُورٍ ضَلَّ جَانِيهَا

فَإِنَّهَا أَهْلَكَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ أُمَمًا   كَانَتْ فَبَادَتْ وَإِنَّ ٱلْإِثْمَ مُفْنِيهَا

وَإِنْ دُعِيتُمْ فَلَبُّوا أَوْ سُئِلْتُمْ إِحْـــسَانًا فَجُودُوا وَخَيْرُ ٱلنَّاسِ سَاخِيهَا

وفيكم المقدّم الشجاع ، والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً الا أحرزتموه ، ولا شرفاً الا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به اليكم الوسيلة ، أوصيكم بتعظيم هذه البنيّة (يريد الكعبة كرمها الله) فان فيها مرضاةً للرب ، وقواماً للمعاش ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فان في صلة الرحم منسأة (يريد فسحة) في الأجل ، وزيادة في العدد ، واتركوا البغي والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعي ، وأعطوا السائل ، فان فيهما شرف الحياة والممات وعليكم بصدق الحديث ، واداء الأمانة ، فان فيهما محبة في الخاص ، ومكرمة في العام ، واني أوصيكم بمحمد خيراً فانه الأمين في قريش ، والصديق في العرب ، وهو الجامع لكلّ ما أوصيكم به ، وأيم الله كأني أنظر الى صماليك العرب ، وأهل البرّ في الأطراف ، والمستضعفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت روساء قريش وصناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ، واذا أعظمهم عليه ، أحوجهم اليه ، وأبعدهم منه ، أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها دونكم ، يامعشر قريش لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد ، وما اتبعتم أمره ، فأطيعوه ترشدوا » اهـ

وتوفي أبو طالب في العام الذي توفيت فيه سيدتنا خديجة أم المؤمنين وكانت وفاتهما في زمن متقارب في العام العاشر من بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام وقبل هجرته للمدينة المنورة بثلاث سنوات وعلى أثر وفاة ذلك الشيخ الجليل أخذت تمتدُّ يد قريش للمصطفى بالأذى فطفقوا يهينونه ويسبونه عنوةً ويحثون عليه التراب وكان هذا الأذى سبب هجرته مكة المكرمة الى المدينة المنورة

وَٱلصِّدْقُ أَوْلَى بِكُمْ وَٱلْكِذْبُ مَنْقَصَةٌ ذُو ٱلْعَقْلِ وَالدِّينِ يَأْبَى أَنْ يُدَانِيَهَا
أَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ أَدُّوهَا بِلَا مَهَلٍ إِلَى ذَوِيهَا تَنَالُوا شُكْرَ أَهْلِيهَا
وَإِنَّنِي ٱلْيَوْمَ أُوصِيكُمْ بِأَحْمَدَ خَيْـــراً وَاسْمَعُوا دَعْوَةً مَا ٱنْفَكَّ دَاعِيهَا
مَا مِنْ أَمِينٍ سِوَاهُ فِي قُرَيْشٍ وَلَا صَدِيقَ لِلْعُرْبِ إِلَّا [illegible] يُوَالِيهَا
إِنِّي لَأَنْظُرُ فِي ٱلْأَيَّامِ مُقْبِلَةً عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ أَنْ يُجْلِيَ دَيَاجِيهَا
فِيهَا تَهُبُّ صَعَالِيكُ ٱلْأَعَارِبِ مَعْـــهُ بَيْنَ حَاضِرِهَا ٱلْمُهْدَى وَبَادِيهَا
وَقَدْ أَجَابَتْ مَعَ ٱلْإِيمَانِ دَعْوَتَهُ وَعَظَّمَتْ أَمْرَهُ تَدْعُوهُ هَادِيهَا
أُلْفِيهِ يَخْرُجُ فِيهَا لِلْحُرُوبِ جِمَا عَاتٍ تَخُوضُ ٱلْمَنَايَا لَا تُحَاشِيهَا
تَبْغِي قُرَيْشاً وَأَسْرِعْ أَنْ تَذِلَّ لَهَا وَأَنْ تَسُودَ عَلَيْهَا أَوْ تُلَاشِيهَا
إِذْ ذَاكَ أَسْيَادُهَا تُمْسِي وَحَاجَتُهَا إِلَى مُحَمَّدَ بِٱلْإِذْلَالِ تُزْجِيهَا
وَأَبْعَدُ ٱلنَّاسِ مِنْهُ بَاتَ أَقْرَبُهَا إِلَى مَوَدَّتِهِ بِالصَّفْوِ يُبْدِيهَا
وَٱلْعُرْبُ دُونَ قُرَيْشٍ تَحْتَ رَايَتِهِ صَالَتْ وَجَالَتْ وَعَزَّتْ فِي تَسَطِّيهَا

وقد اختلف المؤرخون في اسلام أبي طالب أو بقائه على الشرك ولكل فريق أدلة يرتكنون اليها وأحاديث نبوية يستشهدون بها وليس لمثلي أن يبت في مثل هذا الأمر الخطير وانما الاستدلال من واقع الحال يرجح قول الذين يقولون بايمانه لأن الانسان مهما تمالى في صلة رحمه وفي حبه لابنه أو ابن أخيه أو نسيبه لا يسعه أن يغض الطرف عن ذاك المنتسب اليه أو المحبوب منه اذا رآه يعتدي على دينه ويحاول أن يدك أركانه ويقيم في موضعه ديناً آخر ان لم يكن هو أيضاً متفقاً معه في الاعتقاد لما تعلم من تمسك الناس بأديانهم ومبالغتهم بتقديسها وتفضيلهم لها على كل اعتبار آخر حتى ان المؤمن ليقتل ابنه أو أباه اذا رآه يحقر دينه ويستهين بمعبوده . واذا صدق هذا على عامة الناس فبالأولى أن يصدق على خاصتهم مثل أبي طالب الذي كانت له المكانة العليا في قريش فهو ملزم من جهة نفسه ومن جهة مركزه أن يدافع عن الدين الذي يدين به هو وقومه كي لا تسقط مكانته من عيونهم وكي لا يعرض نفسه لغضب معبوداته فيخسر آخرته . وعلى هـذا فأبو طالب لا بد وأن يكون قد آمن برسالة ابن أخيه عليه الصلاة والسلام في قلبه ولكنه لم يجهر بها لاعتبارات تقتضيها الحكمة وتدعو اليها السياسة . فانه لو جهر بايمانه في بدء البعثة وفجر الدعوة لانقلبت عليه قريش بجملتها وأسقطته من حالق مجده وعبثت بحرمته وحينئذ يعجز عن رد الأذى عن ابن أخيه وهو لا يزال ضعيفاً وهذا الذي جعله يكتم ما في نفسه من الايمان وظاهر أعماله وقصائده وخطبه تظهره بأجلى بيان . اذ رأيناه يدافع عن المصطفى بنفوذه وجاهه ويمدحه بقصائده وخطبه حتى آخر لحظة من حياته على ما رأيت من وصيته وعلى هـذا فيكون أبو طالب من خيار الصحابة والأنصار بغير

وَاللهِ يا أُمَّتِي لا يُسْعَدَنَّ فَتىً إلاّ بطَاعَتِهِ طُوبَى لِحَافِظِيهَا
وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِي مِنْ ذِي الوَصِيَّةِ حتّى مَاتَ وَهُوَ عَلَى السَّمَّاعِ يُلْقِيهَا
وَعَمْرَكَ اللهَ هَلْ هذِي وَصِيَّةُ مُشْرِكٍ لِأُمَّتِهِ قَدْ رَاحَ يُوصِيهَا
مُمَدَّدٍ فِي فِرَاشِ المَوْتِ فِي دَنَفٍ وَنَفْسُهُ بَلَغَتْ مِنْهُ تَرَاقِيهَا
وَهَلْ يُوَصِّي بِطَاعَةِ ذِي الوَصِيَّةِ إلاَّ مُؤْمِنٌ شِرْعَةُ الإِسْلامِ رَاضِيهَا
كَذا أَبُو طَالِبٍ قَدْ كَانَ أَوَّلَ أَنْصَارِ الشَّرِيعَةِ بَلْ أَوْفَى مُحِبِّيهَا
فَإِنْ يَمُتْ مُشْرِكاً مَا الشِّرْكُ مُهْلِكُهُ لِلْمَحْمَدَاتِ الَّتِي قَدْ رَاحَ آتِيهَا
وَإِنْ يَمُتْ مُؤْمِناً فَاللهُ مُؤْجِرُهُ أَجْرَ الصَّحَابَةِ مُثْوِيهِ مَثَاوِيهَا
وَإِنَّ نَفْساً أَتَتْ تِلْكَ الفَضَائِلَ مَا الإِسْلامُ تَاللهِ نَاءٍ عَنْ مَطَاوِيهَا
فَقَدْ تَكُونُ أَقَرَّتْهُ بِخَافِيهَا وَالمَحَاذِيرُ مَا أَبْدَتْهُ مِنْ فِيهَا
كَمْ مِنْ نُفُوسٍ أَقَرَّتْ بِالشَّهَادَةِ وَالإِسْلامِ سِرّاً وَكَانَ اللهُ دَارِيهَا
وَكَمْ نُفُوسٍ لَقَدْ أَبْدَتْ شَهَادَتَهَا زُوراً وَكِذْباً وَكَانَ الكُفْرُ غَاوِيهَا
وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَبِالْعَدْلِ الإِلهِيِّ يَوْمَ الدِّينِ يُجْزِيهَا
فَالمُؤْمِنُونَ لَهُمْ رَحْبُ الجِنَانِ إِذَا أَعْمَالُهُمْ صَلَحَتْ يَثْوُونَ هَانِيهَا
وَالمُشْرِكُونَ لَهُمْ نَارُ الجَحِيمِ وَفِيهَا الخَالِدُونَ وَمَا الأَحْقَابُ تُطْفِيهَا

والدة أمير المؤمنين

أُمُّ العَلِيِّ وَأُمُّ المُصْطَفَى أَدْرَتْ أَيُّ المَفَاخِرِ أَبْقَتْهَا لِأَهْلِيهَا (١)

جدال . وحبذا لو وفق الله الاسلام في عصر الناس هذا الى من يحمون ذماره ويعلون كلمته كما فعل أبو طالب في فجر البعثة اذن يظل الاسلام في خير

هذا هو أبو طالب كفيل المصطفى وعمه وحبيبه ونصيره ووالد سيدنا أمير المؤمنين يعسوب الدين أسد الله الغالب علي بن أبي طالب بل هذا هو الرجل العظيم الذي ربى هذين النيرين فأضاءا في سماء الدنيا والدين

(١) ان والدة أمير المؤمنين عليه صلوات الله هي فطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي وكان سيدنا أمير المؤمنين أصغر بنيها وكانت من فضليات النساء وعاقلاتهن المدركات

فإنها كفلت خير الخلائق أسماها وأعظمها جاهاً وهاديها
وإنها أنجبت صنو الرسول أميناً للشريعة يفشيها ويحميها
كذا الملائك في جنانها حفلت بنيريها وودت لو تهنيها
فتلك فاطمة أولى كرائم ها شم لقد ولدت في هاشميينها
وخيرهن بمن ربت ومن ولدت وحقها بهما تبدي تباهيها
والله أسعدها دنيا وآخرة جزاء ما أسلفته من مآتيها
فأسلمت بعد عشر من تقاة عبا د الله ذلك من ألطاف باريها
وهي التي بايعت قبل النساء رسو ل الله بيعة صدق لم تونيها
وكان يثني عليها المصطفى ولها يدعو بأمي إذا ما راح داعيها
وكان يكرم مثواها ويحفظ ما لها عليه قديماً من أياديها
إيام قد كان يثوي رحب منزلها ما بين أبنائها يلقى تحنيها
ومثل أحمد لاينسى جمائل مثـلها وربي يتيماً في مغانيها
وظل يحمدها حتى إذا رحلت إلى الخلود انثنى يبكي ويرثيها
أوصت إليه قبيل الموت حاجتها وحسب رغبتها قد كان مجريها
وكان كافنها في ثوبه كرماً ونام في القبر معها وهو باكيها
كيما يهون عنها ضغطة عرفت للقبر من مات لا شك يعانيها
وكي تفوز بأثواب الجنان تبا هي الصالحات جميعاً في تكسيها
وقيل للمصطفى عن حسن فعلته معها وما عهدته قبل آتيها

بالاجماع يدلك على فضلها عنايتها بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام عند ما كفله زوجها أبو طالب حتى كانت تفضله بمأكله وملبسه على بنيها ويدلك على تعقلها أنها أدركت معنى الاسلام وأسلمت قبل غيرها فكانت في عداد المسلمين جميعاً الحادي عشر أي أنها أسلمت بعد عشرة من المسلمين والمسلمات وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل كل النساء المسلمات وكان المصطفى عليه الصلاة والسلام يبالغ باكرامها واعزازها وتبجيلها واحترامها ويثني عليها كثيراً ويدعوها أمه وحسبها بذلك شرفاً لا يعادله شرف وعند ما حضرتها الوفاة أوصت الى المصطفى فقبل وصايتها حتى اذا ما استأثرت بروحها الطاهرة رحمة الله كفنها رسول الله بقميصه وصلى على جثمانها ونزل معها الى لحدها واضطجع بجانبها ولم

فَقَالَ: مَا بَرَّ بِي مِنْ بَعْدِ عَمِّيَ طَا ... لِب سِوَاهَا لِذَا إِنِّي أُكَافِيهَا
وَإِنْ أَضَفْنَا إِلَى هٰذَا ٱلْفَخَارِ فَخَا ... رَ ٱلْمُرْتَضَى وَغَذَاهُ دَرُّ أَثْدِيهَا
وَإِنَّهَا أَوْجَدَتْ لِلنَّاسِ قُطْبَ هُدًى ... بَعْدَ ٱلرَّسُولِ إِلَى ٱلْإِيمَانِ يَهْدِيهَا
وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِي ذَاعَتْ مَفَاخِرُهُ ... هُوَ ٱبْنُهَا وَمَبَادِيهِ مَبَادِيهَا
قُلْنَا لِفَاطِمَةٌ خَيْرُ ٱلنِّسَاءِ كَمَا ... قَالَ ٱلرَّسُولُ وَمَنْ إِلَّاهُ يُدْرِيهَا

ولادة أمير المؤمنين

فِي رَحْبَةِ ٱلْكَعْبَةِ ٱلزَّهْرَاءِ قَدِ ٱنْبَثَقَتْ ... أَنْوَارُ طِفْلٍ وَضَاءَتْ فِي مَغَانِيهَا(١)
وَٱسْتَبْشَرَ ٱلنَّاسُ فِي زَاهِي وِلَادَتِهِ ... قَالُوا: ٱلسُّعُودُ لَهُ لَا بُدَّ لَاقِيهَا
قَالُوا: ٱبْنُ مَنْ فَأُجِيبُوا: إِنَّهُ وَلَدٌ ... مِنْ نَسْلِ هَاشِمَ مِنْ أَسْمَى ذَرَارِيهَا
هَنُّوا أَبَا طَالِبِ ٱلْجَوَّادَ وَالِدَهُ ... وَٱلْأُمُّ فَاطِمَةٌ هَيُّوا نُهَنِّيهَا
إِنَّ ٱلرَّضِيعَ ٱلَّذِي شَامَ ٱلضِّيَاءَ بِبَيْـ ... ـتِ ٱللهِ عِزَّتُهُ لَا عِزَّ يَحْكِيهَا
أَمَّا ٱلْوَلِيدُ فَلَاقَى ٱلْأَرْضَ مُبْتَسِماً ... فَمَا رَغَا رَهَباً مَا كَانَ خَاشِيهَا
إِلَى ٱلنِّسَاءِ ٱلَّتِي حَوْلَيْهِ قَدْ نَظَرَتْ ... عَيْنَاهُ نَظْرَةَ مُسْتَجْلٍ خَوَافِيهَا
وَهُنَّ أُعْجِبْنَ بِٱلْمَوْلُودِ شُمْنَ بِهِ ... شِبْلاً بِبُنْيَتِهِ سُبْحَانَ بَانِيهَا
وَقُلْنَ: فَاطِمُ قَدْ جَاءَتْ بِحَيْدَرَةٍ ... يَذُبُّ عَنْ قَوْمِهِ ٱلْعُدْوَى وَيَحْمِيهَا

يكن قد فعل مثل هذا قبلها مع ميت من المسلمين فسأله أصحابه عن صنيعه فقال « لم يكن أحد أبرّ بي بعد أبي طالب منها انما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة واضطجعت معها لتهون عليها ضغطة القبر » فاذا أضفنا الى هذا الفخار فخار كون المرتضى عليه صلوات الله ولدها وقد تغذى من درّ ثدييها قلنا انها بلا جدال خير النساء

(١) كانت ولادة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين في العام الثلاثين لولادة المصطفى عليهما وعلى الهما الصلاة والسلام على ما حقق المحققون فتكون ولادته الشريفة حول سنة ٦٠١ مسيحية . ومن بشائر سعده عليه صلوات الله انه ولد في الكعبة كرمها الله ولدته أمه فيها فاستبشر بذلك أبوه وعمومته وعند ولادته الشريفة دعته أمه حيدرة ومعنى هذه الكلمة الأسد فكأنها أرادت أن تسميه باسم أبيها فلما وقع نظر أبيه أبي طالب عليه توسم بملامحه العلاء ودعاه علياً وقد صدّقت الأيام فراسته فكان عليه صلوات الله علياً في الدنيا والآخرة

وعام مولد سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله هو العام المبارك الذي بُدِئ فيه برسول الله

فَرَاقَ فَاطِمَةَ وَٱلطِّفْلُ بَيْنَ يَدَيْـــهَا قَوْلَةٌ سَمِعَتْهَا مِنْ جَوَارِيهَا
وَٱسْتَبْشَرَتْ ثُمَّ قَالَتْ: وَالِدِيَ أَسَدٌ فَبِٱسْمِهِ صِرْتُ أُسْمِيهِ بِخَافِيهَا
ثُمَّ أَبُو طَالِبٍ وَافَى حَلِيلَتَهُ وَطِفْلَهَا وَٱنْثَنَى صَفْوًا يُحَالِيهَا
وَهَمَّ بِالطِّفْلِ يَسْتَجْلِي مَلَامِحَهُ ٱلـــزُّهْرَا فَأَلْفَى ٱلْمَعَالِيَ كُوِّنَتْ فِيهَا
وَقَالَتِ ٱلأُمُّ: يَا بُشْرَى بِحَيْدَرَةٍ بُشْرَى أَبَا طَالِبٍ وَافَيْتُ أُسْدِيهَا
أَجَابَهَا: بَلْ عَلِيٌّ إِنَّنِي لَأَرَا هُ بَالِغًا ذُرْوَةَ ٱلْعَلْيَا وَرَاقِيهَا
أَللهُ أَكْبَرُ مِنْ تِلْكَ ٱلْفَرَاسَةِ بِٱلْـــمَوْلُودِ وَٱلْوَالِدُ ٱلْمِفْضَالُ رَائِيهَا
قَدْ حَقَّقَتْهَا ٱللَّيَالِي بِٱلْوَلِيدِ فَأَمْـــسَى بَيْنَ أَهْلِ ٱلْعُلَى وَٱلْمَجْدِ عَالِيهَا
وَعَامُ مَوْلِدِهِ ٱلْعَامُ ٱلَّذِي بَدَأَتْ بَشَائِرُ ٱلْوَحْيِ تَأْتِي مِنْ أَعَالِيهَا
فِيهِ ٱلْحِجَارَةُ وَٱلأَشْجَارُ قَدْ هَتَفَتْ لِلْمُصْطَفَى وَهْوَ رَائِيهَا وَصَاغِيهَا
وَإِذْ دَرَى ٱلْمُصْطَفَى فِيهِ وِلَادَةَ مَوْ لَانَا ٱلْعَلِيِّ غَدَا بِٱلْبِشْرِ يُطْرِيهَا
وَبَاتَ مُسْتَبْشِرًا بِٱلطِّفْلِ قَالَ بِهِ لَنَا مِنَ ٱلنِّعَمِ ٱلزَّهْرَاءِ ضَافِيهَا

تربية أمير المؤمنين

عَطْفُ ٱلرَّسُولِ عَلَى أَفْرَادِ عِتْرَتِهِ لَقَدْ تَنَاوَلَ دَانِيهَا وَنَائِيهَا(١)

صلى الله عليه وسلم فأخذ يسمع الهاتف من الأحجار والاشجار ومن السماء وكشف عن بصره فشاهد أنواراً وأشخاصاً وفي هذا العام ابتدأ بالتبتل والانقطاع والعزلة في جبل حراء وكان رسول الله يتيمن بذلك العام وبولادة سيدنا علي عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام وكان يسميه « سنة الخير وسنة البركة » وقال المصطفى لأهله عند ما بلغته بشرى ولادة المرتضى « لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة » وكان قوله هذا أول نبواته فان المرتضى عليه صلوات الله كان ناصره والحامي عنه وكاشف الغماء عن وجهه وبسيفه ثبت الاسلام ورسخت دعائمه وتمهدت قواعده

(٢) في السنة السادسة من ولادة سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله منيت قريش بأزمة قحط شكاها الناس وتضرروا منهـا فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما امتاز به من الشفقة والحنو وصلة الرحم والوفاء أن يخفف عن عمه أبي طالب وهو كثير العيال مؤونتهم فسار الى عميه حمزة والعباس وقال لهما ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المحل فنأخذ بعض أولاده ونكفيه حاجتهم فقالا نعم وأصبت وسارا معه الى دار أبي طالب حيث شافهوه بقصدهم فأبى وقال لهم دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم اذ كان شديد الحب لعقيل فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً

وَنَالَ جَمْعَهُمُ مِنْ فَيْضِ رَحْمَتِهِ ... مَفَاخِراً لَيْسَ مِنْ فَخْرٍ يُدَانِيهَا

عنْهُ مُوَاصَلَةُ الأَرْحَامِ قَدْ تَخِذَتْـ ... ـهَا النَّاسُ إِذْ كَانَ آتِيهَا وَمُوصِيهَا

وَذَاتُ عَامٍ بِقَحْطِ العَيْشِ قَدْ مُنِيَتْ ... قُرَيْشُ حَتَّى تَعَالَى صَوْتُ شَاكِيهَا

وَأَوْشَكَ الجُوعُ أَنْ يُفْنِي جَمَاعَتَهَا ... وَالجُوعُ لِلنَّاسِ مِنْ أَدْهَى دَوَاهِيهَا

وَإِنَّ أَشْقَى الوَرَى حَالاً وَأَتْعَبَهُمْ ... عَيْشاً وَأَقْلَقَهُمْ بَالاً مُعِيلِيهَا

وَلَمْ يَفُتْ أَحْمَدَاً أَنَّ المُصِيبَةَ قَدْ ... نَالَتْ أَبَا طَالِبٍ السَّامِيَ دَوَاعِيهَا

وَإِنَّهُ ذُو عِيَالٍ بَاتَ يَعْجِزُ عَنْ ... حَاجَاتِهَا وَهُوَ يَغْذُوهَا وَيُكْسِيهَا

وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنِّي لِعَمِّيَ مَدْ ... يُونٌ وَدَيْنَتُهُ قَدْ آنَ أُوفِيهَا

أَعَالَنِي بَعْدَ جَدِّي غَيْرَ مُطَّلِبٍ ... أَجْراً إِعَالَةَ بِرٍّ لَسْتُ نَاسِيهَا

فَهَلْ مِنَ العَدْلِ إِذْ ضَاقَتْ مَعِيشَتُهُ ... أَنْ لَا أَقُومَ بِنُعْمَى كَانَ مُولِيهَا

وَأَعْمَلَ الرَّأْيَ فِي تَرْفِيهِ عِيشَةِ عَـ ... ـمٍّ كَانَ مِنْ أَوْسَعِ الأَسْيَادِ تَرْفِيهَا

فَجَاءَ حَمْزَةَ وَالعَبَّاسَ إِنَّهُمَا ... عَمَّاهُ بِالرَّغْبَةِ العَلْيَاءِ يُسْدِيهَا

فَقَالَ : هَيَّ بِنَا هَيَّ نُخَفِّفُ عَنْ ... عَمِّي أَبِي طَالِبٍ بَلْوَى يُعَانِيهَا

بِأَخْذِنَا نَفَراً مِنْ وُلْدِهِ وَلَنَحْـ ... ـنُ اليَوْمَ أَوْلَى بِهَا مِنْهُ نُرَبِّيهَا

فَمَا أَبَى دَعْوَةَ الهَادِي وَرَغْبَتَهُ ... عَمَّاهُ بَلْ وَافَقَا قَالَا : نُلَبِّيهَا

وَصَاحَبَاهُ فَسَارُوا يَقْصِدُونَ دِيَا ... رَةً أَبُو طَالِبٍ المِفْضَالُ يَثْوِيهَا

وَأَنْبَئُوهُ فَلَمْ يَرْفُضْ بِرَغْبَتِهِمْ ... وَسَرَّهُ أَنَّ حُبَّ الخَيْرِ دَاعِيهَا

وَقَالَ أَبْقُوا عَقِيلاً لِي وَدُونَكُمُ الأَ ... م وْلَادُ رَاشِدُهَا الذَّاكِي وَنَاشِيهَا

فَاخْتَارَ طَالِبَ عَبَّاسٌ وَجَعْفَرَ حَمْـ ... ـزَةٌ وَأَحْمَدُ مِنْهَا خَارَ عَالِيهَا

فَاخْتَصَّ مِنْ وُلْدِهِ الأَنْجَابِ أَفْضَلَهَا ... مَخَايِلاً مَا اخْتَفَتْ عَنْهُ خَوَافِيهَا

وَقَالَ قَدْ خِرْتُ مَنْ رَبِّي تَخَيَّرَهُ ... لِي خِيرَةُ اللهِ خَيْرُ النَّاسِ يَبْغِيهَا

وأخذ محمد صلى الله عليه وسلم علياً وقال قد اخترت من اختاره لي الله علياً . ومن هذا التاريخ كفل المصطفى المرتضى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام

هُوَ ٱلْعَلِيُّ بِهِ وَافَى خَدِيجَتَهُ … هَدِيَّةً قَالَ بُشْرَى جِئْتُ أُهْدِيهَا

عَلَى يَدَيْهَا وَفِي سَامِي عِنَايَتِهِ … لَقَدْ نَشَا سَيِّدُ ٱلتَّقْوَى وَحَامِيهَا

وَحَسْبُهُ إِذْ تَرَبَّى فِي ظِلَالِهِمَا … أَنَّ ٱلْبَرِيَّةَ تَدْعُوهُ مُرَبِّيهَا

حديث أمير المؤمنين عن نشأته

وَحدَّثَ ٱلْمُرْتَضَى عَنْ نَشْئِهِ بِحِمَى … طَـهَ وَعَنْ نِعَمٍ قَدْ كَانَ لَاقِيهَا(١)

وَفَاخَرَ ٱلْعَرَبَ ٱلْعَرْبَا بِهَا وَبِهِ … وَبِٱلْفِعَالِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَ آتِيهَا

فَقَالَ: مِنْ صِغَرِ سِنِّي قَدْ أَخَذْتُ بِكَلْـكَلِ ٱلْأَعَارِبِ لَمْ أَرْهَبْ تَجَنِّيهَا

وَمَا رَبِيعَةُ تَنْسَانِي وَلَا مِضَرٌ … مُذْ كُنْتُ فِي نُصْرَةِ ٱلْإِسْلَامِ غَازِيهَا

عَلِمْتُمُ مَوْضِعِي مِنْ أَحْمَدٍ وَقَرَا … بَتِي ٱلْقَرِيبَةُ مِنْهُ ٱلْكُلُّ دَارِيهَا

وَإِنَّ مَنْزِلَتِي مِنْهُ مُخَصَّصَةٌ … مَا فِي ٱلْخَلَائِقِ طُرًّا مَنْ يُدَانِيهَا

نَعَمْ فَقَدْ كُنْتُ أُثْوِي حِجْرَهُ وَأَنَا … طِفْلٌ وَلِي عَطْفَةُ ٱلْإِشْفَاقِ يُبْدِيهَا

---

(٣) لم نرَ أقرب لتفهيم مطالع هذه القصيدة المباركة حال المرتضى مع المصطفى وهو في ظلاله من نقل خطبة خطبها أمير المؤمنين بعد انقضاء أمر الخوارج في النهروان فانه عليه صلوات الله أجمل حالته في نشأته الأولى بما عرف عنه من البلاغة العجيبة بحيث صوّرها صورة تقرب لتصور قارئها وسامعها حتى ليحسب نفسه يشاهد ذينك النيرين عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام بعينيه وهذا نص تلك الخطبة النفيسة: «أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب، (أي عند ما كان يحارب لنصرة الاسلام في المغازي النبوية) وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر، (أما كسره ربيعة فكان في تلك المغازي المقدسة. وأما كسره لمضر فكان بقتله كثيراً من رؤسائهم في مواقع الجمل وصفين لعصيانهم خلافته وانضمامهم الى معاوية وعائشه) وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد، يضمني الى صدره، ويكنفني في فراشه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبةً في قول، ولا خطلةً في فعل، ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن ان كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحرّاء، (اسم جبل معروف في مكة كرّمها الله) فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوة، ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال هذا الشيطان قد أيس من عبادته، انك تسمع ما اسمع، وترى ما أرى، الا انك لست بنبيّ، ولكنك لوزير وانك لعلى خير» اه

وَطَالَمَا ضَمَّنِي لُطْفاً وَمَرْحَمَةً　　لِصَدْرِهِ ضَمَّةً أَلْقَى ٱلْهَنَا فِيهَا
وَكَانَ يَكْنُفُنِي وَهْوَ ٱلْمُمَجَّدُ فِي　　فِرَاشِهِ كَنْفَةً بَادٍ تَحَنِّيهَا
يُمِسُّنِي كَرَماً جُثْمَانَهُ وَيُشِمُّـ　　ـنِي نَوَافِحَ مِسْكٍ فَاحَ نَامِيهَا
وَكَانَ يَمْضَغُ لِيْ فُوهُ ٱلطَّعَامَ حُنُـ　　ـوّاً وَٱلْمَضَاغَةُ لِيْ بِٱلرِّفْقِ يُعْطِيهَا
وَلَمْ يَجِدْ كِذْبَةً لِيْ فِي صَحَابَتِهِ　　كَلَّا وَلَا خَطْلَةً قَدْ كُنْتُ آتِيهَا
وَهْوَ ٱلرَّسُولُ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ يَصْحَبُهُ　　مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْأَطْهَارِ سَامِيهَا(١)
مُذْ كَانَ طِفْلاً فَطِيماً لَا يُفَارِقُهُ　　فِي نُهْرِهِ وَإِذَا أَدْجَتْ لَيَالِيهَا
وَكَانَ يُسْلِكُهُ طُرُقَ ٱلْمَكَارِمِ بَلْ　　أَسْمَى ٱلْخِلَالِ بِهِ قَدْ كَانَ خَاطِيهَا
وَكُنْتُ أَتْبَعُهُ فِيهَا ٱتِّبَاعَ فَصِيـ　　ـلٍ أُمَّهُ لَسْتُ أَسْهُو عَنْ تَلَقِّيهَا
وَكَانَ فِي كُلِّ يَوْمٍ رَافِعاً عَلَماً　　لِيْ مِنْ خَلَائِقِهِ حَتَّى أُرَائِيهَا
وَكَانَ يَأْمُرُنِي بِٱلْإِقْتِدَاءِ بِهِ　　أَوَامِراً مَا أَنَا مِمَّنْ يُجَافِيهَا

---

(١) يخلق بنا هنا أن نجمل القول عن بداءة الوحي حيث كان المرتفي يشاهد ما يحدث لرسول الله عياناً على ما أشار في خطابه النفيس فنقول : عند ما بلغ محمد عليه الصلاة والسلام الاربعين من عمره السعيد بعثه الله رحمة للعالمين ورسولاً للناس أجمعين وأول ما بديء به رسول الله من النبوة الرؤيا الصالحة فكان لا يرى شيئاً في نومه الا كان في اليقظة كما رأى . وظل يرى هذه الاحلام الصالحة مدة ستة أشهر . وحدّث عليه الصلاة والسلام خديجة عن هذه الاحلام فقال « اذا خلوت سمعت نداءً أن يامحمد يامحمد وأسمع صوتاً وقد خشيت أن يكون لهذا أمرٌ وأخشى أن يكون بي جنون » وكانت خديجة تشجعه بأقوالها العذبة . ثمّ ان المصطفى طابت له الخلوة فلم يكن أحبّ اليه من أن يخلو وحده في جبل حرّاء فكان يتعبد فيه الى الله الليالي ذوات العدد وكان كلما فرغ زاده عاد الى مكة وتزوّد الى خلوة ثانية . وكان يصحبه بخلوته هذه ابن عمه وربيبه سيدنا عليّ كما رأيت في ظاهر قوله في خطابه . وما زال كذلك الى الشهر الذي أراد الله تعالى به ما أراد من كرامة المصطفى فخرج عليه الصلاة والسلام الى حرّاء . وقد اختلف المؤرخون في ذلك الشهر فقال بعضهم انه رمضان وآخرون أنه ربيع أول وآخرون انه رجب .

فبينما هو في ذات يوم قائم على جبل حرّاء اذ ظهر له شخص وقال : أبشر يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الله لهذه الأمة . ثم أخرج له قطعة نمط من حرير مرصعة بالجواهر ووضعها في يده وقال : اقرأ قال : والله ما أنا بقاريء ولا أدري في هذه الرسالة كتابة قال المصطفى : فضمني اليه وغطني حتى بلغ مني الجهد . فعل ذلك بي ثلاثاً وهو يأمرني بالقراءة ثمّ قال اقرأ فقلت: ماذا أقرأ وما كنت أقول ذلك الا اقتداءً منه أن يعود اليّ بمثل ما صنع قال : اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، خلق

وَكَانَ فِي كُلِّ عَامٍ يَخْتَلِي بِرُبَى ... حَرَّاءَ يَرْجُو هُدَى ٱلْبَارِي وَيَبْغِيهَا

فَكُنْتُ ثَمَّ أَرَاهُ لَا يَرَاهُ سِوَا ... يَ فِي عِبَادَتِهِ وَٱللهُ رَائِيهَا

يَوْمَ ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ ٱلْمُسْلِمُونَ ثَلَا ... ثَةٌ وَلَا رَابِعٌ فِي ٱلنَّاسِ تَالِيهَا

خَدِيجَةٌ وَأَنَا وَٱلْمُصْطَفَى وَبِنَا ... دِيَارَةُ ٱلدِّينِ قَدْ شِيدَتْ مَبَانِيهَا

أَرَى ضِيَا ٱلْوَحْيِ مَعْ نُورِ ٱلرِّسَالَةِ فِي ... أَشِعَّةٍ جَلَّ رَبُّ ٱلْعَرْشِ مُسْنِيهَا

أَشُمُّ ثَمَّ عَبِيرًا لِلنُّبُوَّةِ فَوَّا ... مًا حَا وَنَفْحَتُهَا قَدْ ضَاعَ مَقْدِيهَا

وَقَدْ سَمِعْتُ بِأُذْنِي رَنَّةً وَمَتَا ... نِي ٱلْوَحْيِ جِبْرِيلُ لِلْهَادِي يُؤَدِّيهَا

فَقُلْتُ رَنَّةُ مَنْ ذِي يَا مُحَمَّدُ حَتَّـ ... ـى قَدْ دَوَى ٱلْيَوْمَ فِي أُذْنِيَّ دَاوِيهَا

فَقَالَ قَدْ أَيِسَ ٱلشَّيْطَانُ مِنْ عَبَدَتِـ ... ـهِ وَهْيَ زَفْرَتُهُ فِي ٱلْيَاسِ مُبْدِيهَا

وَقَالَ تَسْمَعُ مَا قَدْ بِتُّ أَسْمَعُهُ ... وَأَنْتَ رَاءٍ أُمُورًا بِتُّ رَائِيهَا

أَصِخْ فَلَسْتَ نَبِيًّا بَلْ وَزِيرَ نَبِيِّـ ... ـيَ وَٱلْوِزَارَةُ مَا إِلَّاكَ كَافِيهَا

وَٱبْشِرْ فَأَنْتَ عَلَى خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ ... بِشَارَةٌ كُنْتُ أَيْمُ ٱللهِ رَاضِيهَا

الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، فقرأتها وانصرف عني وهببت راجعاً الى مكة حتى اذا كنت في شظ من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل فوقفت أنظر اليه فاذا جبريل على صورة رجل واضعاً احدى رجليه على الاخرى في أفق السماء فوقفت أنظر اليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها الا رأيته كذلك فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي الى ان انصرف عني فانصرفت راجعاً الى اهلي حتى اتيت خديجة فجلست اليها وحدثتها بالذي رايت وسمعت فقالت : ابشر يا ابن عمي واثبت فوالذي نفسي بيده اني لأرجو ان تكون نبي هذه الأمة »

تقول هكذا ابتدأ جبريل يظهر للمصطفى وينقل اليه الوحي الالهي على ان مقدمات ظهور هذا الوحي بدأت منذ ولادته عليه الصلاة والسلام والعناية الالهية شملته منذ كان في بطن امه وما زالت تحوطه من ذلك اليوم بملك من خير ملائكته كان يصحبه ليله ونهاره على ما قال سيدنا امير المؤمنين وهو اصدق المخبرين بالاجماع واقدم المصاحبين بغير نزاع

ومن الثابت الذي لا ريب فيه ان رسول الله منذ ضم علياً اليه كان لا ينفك عن مصاحبته فكان يشاهد منذ نعومة اظفاره عناية الله بمحمد ويسمع ما يسمع وينظر ما ينظر ويستفهم منه عما لا يفهم فيبين له المصطفى ما اشكل عليه حتى ساعة ظهور جبريل للمصطفى وتبشيره بالنبوة وما تلا ذلك من رنة الشيطان وهي زفرة الخاسر على ما قرأنا في خطبة المرتضى فلا غرو بعد هذا اذا تفرد امير المؤمنين دون المسلمين بادراك كنه الاسلام وتمسك بأحكامه وتفانى في نصرته واعجز في شرح قواعده وتبيان مراميه

أمير المؤمنين ومعجزة الشجرة

رَوَى ٱلأَمِيرُ وَمَا مِثْلُ ٱلأَمِيرِ خَبِيـــرٌ بِٱلرِّوَايَاتِ عَنْ طَـهَ لِيَرْوِيَهَا(١)

فَقَالَ كُنْتُ مَعَ ٱلْهَادِي مُلَازِمَهُ فِي مَكَّةٍ تَتَمَشَّى فِي مَمَاشِيهَا

لَمَّا أَتَتْهُ قُرَيْشٌ وَهْيَ مُنْكِرَةٌ عَلَيْهِ بَعْثَتَهُ إِذْ رَاحَ يُبْدِيهَا

وَافَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ غَيْرَ خَاشِيَةٍ مِنَ ٱلرَّسُوْلِ وَلَمْ تَرْهَبْ مَفَاهِيهَا

قَدِ ٱدَّعَيْتَ عَظِيمَاً مَا ٱدَّعَاهُ سِوَا كَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى سَامِي مَعَالِيهَا

وَنَحْنُ نَسْأَلُ أَمْرَاً فِي إِجَابَتِهِ تَصِحُّ دَعْوَى لَقَدْ أَصْبَحْتَ دَاعِيهَا

مِنْهَا نُحَقِّقُ إِنْ كُنْتَ ٱلنَّبِيَّ رَسُوْلَ ٱللهِ لِلنَّاسِ قَدْ أَقْبَلْتَ تَهْدِيهَا

أَوْ سَاحِرَاً كَاذِبَاً وَافَيْتَ تَسْحَرُهَا وَلِلضَّلَالَةِ تَبْغِي أَنْ تُخَطِّيهَا

فَقَالَ صَلَّى عَلَيْهِ ٱللهُ مُبْتَسِمَاً: أَيُّ ٱلْمَسَائِلِ جِئْتُمْ تَسْأَلُوْنِيهَا

قَالُوْا: أَمَامَكَ أَشْجَارٌ أَلَا ٱدْعُ لَنَا تَٱللهِ وَاحِدَةً تَأْتِيكَ تَجْرِيهَا

نَادَاهُمُ: إِنَّ رَبِّي دُوْنَ قُدْرَتِهِ مَا تَعْجَزُ ٱلنَّاسُ عَنْهُ فِي مَآتِيهَا

فَإِنْ أَجَابَ نِدَاكُمْ فِي سُؤَالِكُمُ هٰذَا بِمُعْجِزَةٍ فِي ٱلْحَالِ يَأْتِيهَا

أَتُؤْمِنُوْنَ وَتَأْتُوْنَ ٱلشَّهَادَةَ بِٱلْـــحَقِّ ٱلصُّرَاحِ كَمَا تَبْدُوْ لِرَائِيهَا

قَالُوْا: نَعَمْ قَالَ: إِنِّي ٱلآنَ مُنْظِرُكُمْ هٰذِي ٱلْعَجِيبَةَ فِي سَامِي مَعَانِيهَا

وَإِنْ أَكُنْ عَالِمَاً خَافِي نُفُوسِكُمُ فَلَا تَفِيءُ إِلَى خَيْرٍ مَطَاوِيهَا

---

(١) ان الحديث الوارد في معجزة الشجرة كثير مستفيضٌ قد ذكره المحدّثون في كتبهم على نحو ما رواه أمير المؤمنين عليه صلوات الله في خطبته وهو شاهد عيان وبعضهم روى أن الذين اقترحوا على المصطفى معجزة الشجرة من قريش هم ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب وجماعة من أصحابه قالوا وكان هذا الرجل أشدّ قريش على النبوّة . وهذه رواية أمير المؤمنين قال : « ولقد كنت معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما أتاه الملأ من قريش فقالوا له يا محمد انك قد ادعيت عظيماً لم يدّعه آباؤك، ولا أحدٌ من بيتك، ونحن نسألك أمراً ان أنت أجبتنا اليه وأريتناه علمنا انك نبيّ مرسل ، وان لم تفعل علمنا انك ساحرٌ كذاب ، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : وما تسألون ؟ قالوا : تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ان الله على كل شيء قدير ، فان فعل الله لكم ذلك أتؤمنون

وَفِيكُمْ فِئَةٌ خُصَّ ٱلْقُلَيْبُ بِهَا . نَعَمْ وَأُخْرَى رَعَايَايَ تُجَزِّبُهَا

ثُمَّ دَعَا بِٱسْمِ بَارِيهِ ٱلشُّجَيْرَةَ دَعْـــوَةَ ٱلْمُؤَكِّدِ مِنْهَا أَنْ تُلَبِّيَهَا

وَقَالَ: إِنْ كُنْتِ حَقًّا تُؤْمِنِينَ بِيَوْ مِ ٱلْحَشْرِ وَٱللهِ بَارِيْ ٱلْخَلْقِ ذَارِيْهَا

وَإِنَّنِي لَرَسُولُ ٱللهِ فَٱنْقَلِعِيْ مَعَ ٱلْعُرُوقِ ٱلَّتِيْ ٱلْأَرْضُونَ تَغْذِيهَا

وَسَارِعِيْ ٱلسَّيْرَ نَحْوِيْ غَيْرَ وَانِيَةٍ بِطَاعَةٍ رُحْتُ مِنْكِ ٱلْآنَ أَبْغِيهَا

قَالَ ٱلْإِمَامُ : وَمَنْ بِٱلْحَقِّ بَعْثَتُهُ أَلِيَّةٌ صَدَقَ ٱلتِّبْيَانَ آلِيهَا

مَا أَمْهَلَتْ فَرَأَيْنَاهَا إِنِ ٱنْقَلَعَتْ مَعَ ٱلْعُرُوقِ وَقَدْ لَبَّتْ مُنَادِيَهَا

وَأَقْبَلَتْ وَلَهَا قَصْفٌ كَقَصْفِ كَوَا سِرِ ٱلطُّيُوْرِ إِذَا أَبْدَتْ تَهَيُّبَهَا

وَقَدْ سَمِعْنَا حَفِيفًا فِيْ أَسَامِعِنَا لَهَا وَمَعْهُ دَوِيٌّ كَادَ يُؤْذِيهَا

حَتَّى إِذَا مَا دَنَتْ مِنْ أَحْمَدٍ وَقَفَتْ لَدَيْهِ مُبْدِيَةً طَوْعًا تَذَلُّلَهَا

وَرَفْرَفَتْ ثُمَّ أَلْقَتْ فَوْقَ هَامَتِهِ بِغُصْنِهَا ٱلسَّامِقِ ٱلْأَعْلَى يُحَيِّيهَا

وَبَعْضُ أَغْصَانِهَا قَدْ ظَلَّلَتْنِيَ حَيْـــثُ كُنْتُ فِيْ ٱلْقُرْبِ مِنْهُ فِيْ تَلَقِّيهَا

وَعِنْدَ مَا رَأَتِ ٱلنَّاسُ ٱلْعَجِيبَةَ قَا لَتْ وَهْيَ تُكْبِرُهَا وَٱلْكُفْرُ مُعْمِيهَا

مُرْهَا فَتَرْجِعُ ثُمَّ عُدْ فَمُرْ فَيَنْ ا فِيْ طَائِعًا نِصْفُهَا مِنْ دُوْنِ بَاقِيهَا

فَكَانَ مَا ٱقْتَرَحَتْ حَتَّى رَأَيْتُ غُصُوْ نَهَا عَلَى ٱلْمُصْطَفَى بَادٍ تَجَمُّعُهَا

قَالَتْ عُتُوًّا وَكُفْرًا : مُرْ لِيَرْجِعَ هَـــذَا ٱلنِّصْفُ وَٱلْهُزْءُ مَرْسُوْمٌ عَلَى فِيهَا

وتشهدون بالحق ؟ قالوا : نعم ، قال فاني سأريكم ما تطلبون واني أعلم انكم لاتفيئون الى خير، وان فيكم من يطرح في القليب، (ومعنى القليب البئر وهذا القول من معجزات نبوة المصطفى واخباره عن الغيب فانه من ذلك العهد أشار بان في قريش قوماً سيشتدون في الكفر ويحاربونه ويكون نصيبهم الطرح في القليب كعتبة وشيبة ابن ربيعة بن عبدشمس وعمر بن هشام بن المغيرة المكني أبا جهل وغيرهم فانهم طرحوا في قليب بدر بعد انقضاء الحرب) ومن يحزّب الاحزاب (وأشار المصطفى بهؤلاء الى أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية والدمعاوية وامثاله ممن كانوا أعدى أعداء النبوّة يحزبون الاحزاب على المصطفى ويحرصون على قتاله وظلوا كذلك الى أن آتى الله المصطفى النصر فدخل مكة كرّمها الله) . ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : يا أيتها الشجرة ان كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يديَّ باذن الله ، والذي بعثه بالحقّ لانقلعت بعروقها وجاءت ولها دويٌّ شديد وقصف كقصف أجنحة الطير حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله

فَعَادَ أَدْرَاجَهُ نِصفُ ٱلشُّجَيْرَةِ لِلـ ... ـثَّانِي وَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ بِمَاضِيهَا

قَالَ ٱلإِمَامُ: فَوَحَّدْتُ ٱلْمُهَيْمِنَ تَوْ ... حِيدًا بِأَلْفَاظِهِ إِذْ رُحْتُ تَالِيهَا

وَقُلْتُ: إِنِّيَ يَا طَـهَ لَأَوَّلُ مُؤْ ... مِنٍ بِأَنَّكَ هَادِي ٱلْخَلْقِ رَاعِيهَا

وَأَوَّلُ ٱلنَّاسِ إِقْرَارًا بِطَاعَةِ هٰـ ... ـذِهِ ٱلشُّجَيْرَةِ تُدْنِيهَا وَتُقْصِيهَا

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قُرَيْشٍ وَهْيَ تَائِهَةٌ ... فِي ظُلْمَةِ ٱلْكُفْرِ تَغْشَاهَا دَيَاجِيهَا

إِلَّا إِنِ ٱسْتَسْلَمَتْ لِلْمَيْنِ كَاذِبَةً ... عُيُونُهَا بِٱلَّذِي شَامَتْ مَرَائِيهَا

قَالَتْ: وَحَقِّكَ ذَا سِحْرٌ وَأَحْمَدُ سَحَّـ ... ـارٌ كَذُوبٌ يُضِلُّ ٱلْخَلْقَ يُشْئِيهَا

وَهَلْ يُصَدِّقُهُ إِلَّا كَذَا وَأَرَا ... مُ دُونِيَ بِقَوْلَتِهِمْ مُذْ أَسْمَعُونِيهَا

وَإِنَّنِيَ ٱلْحَقَّ مِنْ قَوْمٍ بِنُصْرَتِهَا ... لِلْحَقِّ مَا خَشِيَتْ يَوْمًا مُلِيمِيهَا

سِيمَا ٱلتُّقَاةِ كَسِيمَاهَا وَقَوْلَةُ أَهْـ ... ـلِ ٱلْبِرِّ قَوْلَتُهَا أَنْعِمْ بِرَاعِيهَا

ضَاءَتْ بِأَعْمَالِهَا ٱلْحَسْنَاءِ أَنْهُرُهَا ... وَعَمَّرَتْ بِرِضَى ٱلْبَارِي لَيَالِيهَا

وَٱسْتَمْسَكَتْ بِعُرَى ٱلْقُرْآنِ وَهْيَ بِهَا ... سِنَّاتُ طَـهَ وَرَبِّ ٱلْعَرْشِ تُحْيِيهَا

مَا ٱسْتَكْبَرَتْ لَا وَلَا غَلَّتْ وَلَا حَقَدَتْ ... كَلَّا وَلَا أَفْسَدَتْ بِرٌّ خَوَافِيهَا

أَجْسَادُهَا فِي فِعَالِ ٱلْخَيْرِ مُنْهَكَةٌ ... لَكِنَّ أَلْبَابَهَا ٱلْجَنَّاتُ تَأْوِيهَا

نَقُولُ: مِمَّا رَوَاهُ ٱلْمُرْتَضَى عُرِفَتْ ... هٰذِي ٱلْعَجِيبَةُ فِي زَاهِي تَجَلِّيهَا

كَمَا وَمِنْهَا عَرَفْنَا أَنَّ حَيْدَرَةً ... قَدْ كَانَ أَسْبَقَ إِيمَانًا بِمُجْرِيهَا

وسلم مرفرفةً وألقت بغصنها الاعلى على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وببعض أغصانها على منكبيَّ وكنت عن يمينه صلى الله عليه وسلم ، فلما نظر القوم الى ذلك قالوا علواً واستكباراً : مرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها ، فأمرها بذلك فأقبل اليه نصفها كأعجب اقبال وأشدّه دوياً ، فكادت تلتفُّ برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقالوا كفراً وعتواً : فمر هذا النصف فليرجع الى نصفه كما كان فأمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم فرجع ، فقلت أنا (أي أمير المؤمنين) لا اله الا الله اني أول مؤمن بك يا رسول الله ، وأول من أقرَّ بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوّتك ، واجلالاً لكلمتك ، فقال القوم كلهم : بل ساحر كذاب عجيب السحر خفيف فيه ، وهل يصدقك في أمرك الا مثل هذا ؟ (وهم يعنوني) واني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم ، سيماهم سيما الصديقين ، وكلامهم كلام الابرار ، عمّار الليل ومنار النهار ، متمسكون بحبل القرآن ، يحيون سنن الله وسنن رسوله ، لا يستكبرون ولا يعلون ولا يغلّون ولا يفسدون ، قلوبهم في الجنان ، وأجسادهم في العمل » اه

سبق أمير المؤمنين بالاسلام

ضَاءَ ٱلْهُدَى لِرَسُولِ ٱللهِ وَٱنْبَثَقَتْ ... أَنْوَارُهُ وَإِلٰهُ ٱلْعَرْشِ مُسْنِيهَا (١)

بِبَعْثَةٍ رَحِمَ ٱللهُ ٱلْخَلَائِقَ فِي ... زَاهِي هِدَايَتِهَا مَعْ فَضْلِ هَادِيهَا

وَمُذْ أَتَتْ أَحْمَدَ ٱلْهَادِي نُبُوَّتُهُ ... كَانَ ٱلْوَصِيُّ بِإِيمَانٍ مُلَاقِيهَا

فَقَدْ رَأَى نُورَهَا ٱلْأَسْنَى يَضِيءُ عَلَى ... مُحَمَّدٍ وَهْوَ يُخْفِيهِ لِيُخْفِيَهَا

وَكَانَ يَسْمَعُ جِبْرِيلاً يُشَافِهُهُ ... بِهَا وَآيَاتُهَا ٱلزَّهْرَاءُ يُوحِيهَا

---

(١) ان السبق في الاسلام فضيلة مثابة نزل بها الوحي في آية « ربنا اغفر لناولاخواننا الذين سبقونا بالايمان » فتعين على المسلمين ان يتلوا هذا الدعاء في صلواتهم الى يوم القيامة وهم بها يستغفرون الله لاولئك السـباقين الصالحين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطري الذين سبقوا الى الايمان ويعلن فضلهم لانهم بسبقهم ذاك نصروا الدعوة التي جاء بها أيام كان الحول للمشركين والكفار. والاحاديث النبوية مستفيضة بالشهادة لامير المؤمنين على أنه أول من دخل قلبه الاسلام بل انه منذ بدء عهده بالتكليف الشرعي كان مسلماً وعلى ذلك نستطيع أن نقول انه لم يعرف الشرك ولا عبد غير الواحد الاحد. ومسألة سبق الامام الاكبر علي بن أبي طالب في الاسلام ما كانت لتقبل الجدل لو لم يظهر فيما بعد قوم ذوو حول وطول كان يهمهم صرف القلوب عنه فحاولوا الحط من قدره واختلقوا عليه ما اختلقوا واذ انتهوا الى سبقه الى الاسلام عجزوا عن ايجاد سابق له يفضلونه عليه واذ أعيتهم الحيلة عمدوا الى التدجيل فقالوا انه أسلم صغيراً لا يدرك ما الاسلام بفضل وجوده في صحبة المصطفى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام وسهي عليهم أنهم بهـذا أيضاً أزادوا في مجده وفضله لأننا مع كل ذي ايمان نرى أن الله الذي اختار المصطفى ليكون رسوله ونبيه اختار سيدنا أمير المؤمنين ليكون وزيره وعضده الأكبر في نشر دعوته وهيأه الى ذلك بحصول القحط في قريش فكان سبباً لانتقال المرتضى من بيت أبيـه الى بيت ابن عمه عليهما الصلاة والسلام. وبالبداهة ان العناية التي اعدت المصطفى للدعوة هي نفس العناية التي اعـدت المرتضى لتأييدها وانها لعناية الله بالآلى اختارهم لنشر دينه

ومما نذكره في سبق أمير المؤمنين في الاسلام هو أن المرتضى عليه صلوات الله كان أزكى الناس بالاجماع يدلك على ذلك ما نقل الينا من خطبه وأقواله ورسائله واجماع النّاس على تفوقه في العلم وبالبداهه نعرف أن الولد الذكيّ يكون موضع عناية والده أو مربيه يسره ملازمته ومحادثته وهذا الذي كان فعلاً فان المصطفى عليه الصلاة والسلام عند ما اختصّ لنفسه الغلام علياً وهو في السادسة من عمره سرّه ما رآه من ذكائه فصحبه ولازمه وأكثر محادثته يدلك على ذلك ما قاله المرتضى عليه صلوات الله وقد نقلناه فيما تقدم أن المصطفى كان يأويه في حجره ويضجعه بجانبه ويصحبه الى حرّاء في خلواته حتى كان يسمع ما يسمع المصطفى وينظر ما ينظر فلا عجب بعد هـذا اذا اعتقدنا أن أمير المؤمنين فتح عينيه على هدى وهو يسمع جبريل ينقل الوحي الى المصطفى فآمن قلبه ايماناً يقينياً لا يداخله شك ولا يشوبه أثر ريبة أو اعتراض

مِنْ قَبْلِ سَبْعِ سِنِينٍ مِنْ ظُهُورِ رَسُو ... لِ ٱللهِ بِٱلدَّعْوَةِ ٱلنَّاجِي مُلَبِّيهَا
وَكَانَ حَيْدَرَةٌ مَا طَرَّ شَارِبُهُ ... فِي زَهْرَةِ ٱلْعُمْرِ يَسْتَجْلِي خَوَافِيهَا
أَعْوَامُهُ لَمْ تَكُنْ إِلاَّ ثَلَاثَةَ عَشْــرَةً ... بِمُلْقَى ٱلْهُدَى قَدْ كَانَ طَاوِيهَا
إِذْ ذَاكَ قَدْ رَضِيَ ٱلإِسْلَامَ مُتَّبِعاً ... خُطَى أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلْمَأْمُونِ قَافِيهَا

ومن المعلوم أنّ الأطفال يقتفون آثار الدين يربونهم فلا عجب اذا رأينا الغلام علياً يحذو حذو مربيه العظيم فيصلي صلاته ويتلو ما يتلقفه من فيه من كلمات التوحيد والتشهد والاستغفار وهكذا كان يصلي محمد وعلي عليهما الصلاة والسلام منذ بداءة الوحي معاً والناس طرّاً لا تعرف عن الاسلام شيئاً ولذلك كان حقاً وصدقاً ما سمع الناس من فم أمير المؤمنين ونقله الثقاة وهو « أنا عبدالله وأخو رسول الله وأنا الصديق الأكبر لا يقولها غيري الاكذاب ولقد صليت قبل الناس سبع سنين » أما الأحاديث المروية عن المصطفى عليه الصلاة والسلام عن سبق أمير المؤمنين في الاسلام فيضيق عن استيعابها المقام وقد قالها في مواطن شتى منها قوله وعلي الى جانبه والناس حولهما « هذا أول من آمن بي وصدقني وصلى معي » . وروى محمد بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده أبي رافع قال أتيت أبا ذر بالربذة أودعه (وهذا من كبار الصحابة) فلما أردت الانصراف قال لي ولأناس معي « ستكون فتنة فتقوا الله وعليكم بالشيخ علي بن أبي طالب فاتبعوه فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له « — أنت أول من آمن بي ، وأول من يصافحني يوم القيامة ، وأنت الصديق الأكبر ، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل ، وأنت يعسوب المؤمنين ، والمال يعسوب الكافرين ، وأنت أخي ، ووزيري ، وخير من أترك بعدي ، تقضي ديني ، وتنجز موعودي — اه » أقول وبعد هذا الاجمال لا أراني بحاجة الى الازدياد من اقامة البراهين على قضية كهذه يدركها المطلع على تاريخ صدر الاسلام بداهةً اذا لم يكن من المتعنتين

وكان رسول الله اذا حضرت الصلاة يخرج الى شعاب مكة ومعه علي فيصليان مستخفيين من قومهما فيها فاذا أمسيا رجعا كذلك ثمَّ انَّ أبا طالب عثر مرةً عليهما وهما يصليان في المحل المعروف بالنخلة فاستدعى ابنه علياً اليه وقال له أي بنيَّ ما هذا الذي أنت عليه فقال يا أبت آمنت بالله ورسوله وصدقت ما جاء به ودخلت معه واتبعته فقال له أبو طالب أما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه

وحدث عفيف الكندي قال كنت امرءاً تاجراً قدمت للحج وأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة فبينما أنا عنده بمكة في المسجد اذا رجل مجتمع (أي بلغ أشده) خرج من خباء قريب منه فنظر الى الشمس فلما رآها مالت توضأ فأسبغ الوضوء (أي أكمله) ثمَّ قام يصلي الى الكعبة ثمَّ خرج غلام مراهق فتوضأ ثمَّ قام الى جنبه يصلي ثمَّ جاءت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفهما ثمَّ ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة ثمَّ خرَّ الرجل ساجداً وخرَّ الغلام وخرَّت المرأة فقلت ويحك ياعباس ما هذا الدين فقال هذا دين محمد بن عبد الله أخي يزعم أن الله بعثه رسولا وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب وهذه امرأته خديجة ليس في الناس من على هذا الدين غيرهم قال عفيف بعد ان اسلم ياليتني كنت رابعهم اه وهذه القصة ثابتة ومشهورة

أما مسألة اسلام سيدتنا خديجة وان كان قد سبق اسلام سيدنا علي عليه صلوات الله أو أسلما في وقت معاً فسنذكر شيئاً عن ذلك في كلامنا عن السيدة المشار اليها في الحاشية التالية

وَقَدْ تَعَبَّدَ لِلْخَلَّاقِ قَبْلَ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ فِي إِثْرِ خَيْرِ ٱلْخَلْقِ تَجْزِيهَا
وَإِنَّ أَهْلَ ٱلْهُدَى قَدْ كَانَ أَوَّلُهَا طَـهَ وَكَانَ عَلِيُّ ٱلْبِرِّ ثَانِيهَا
ثُمَّ خَدِيجَةُ أُمُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ هَدَا م هَا ٱللهُ فَٱتَّبَعَتْ أَحْكَامَ بَارِيهَا(١)

---

(١) اشتهر عن محمد بن عبد الله ربيب شيخ قريش أبي طالب وحفيد شيخ قريش عبد المطلب منذ ترعرع الصدق والامانة وسداد الرأي وما اكتسب عليه الصلاة والسلام هذه الشهرة على حداثته الا بعد حوادث ذاعت وشاعت عنه في مكة المكرمة في مواقف وتفتها روساء قريش في تدبير الشؤون العامة التي كانت تديرها بالشورى على الطريقة التي تشبه ما نسميه نحن أبناء هذا العصر بالحكم الجمهوري . وفوق ذلك ان الفتى محمداً سافر وهو في الثانية عشرة من ربيع عمره بمعية عمه الشيخ أبي طالب الى دمشق للتجارة مع قافلة التجار القرشيين فكان له عليه الصلاة والسلام في هذه الرحلة من الحوادث الدالة على نبوته ومستقبله الباهر ما تداوله ركب القافلة عند عودتهم الى « أم القرى » فأصبح حديث القوم وسمرهم . وهكذا بات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام موضع اهتمام مواطنيه المكيين من ذلك العهد

وكان في مكة المكرمة لذلك العهد سيدة معروفة المكانة يسميها المكيون «سيدة قريش» وكانت امرأة ذكية حازمة قوية شريفة وافرة الجمال والمال يتمنى أعظم عظيم في قريش أن يتزوجها أما نسبها فهي خديجة ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي . وكان لهذه السيدة تجارة واسعة تسيرها الى الشام في كل عام فتتجر وتكسب

وحدث أن آل عبد المطلب كان قد ضعف حالهم وقلّ مالهم في أزمة القحط التي انتابت الحجاز في هاتيك الأيام فلم يرَ أبو طالب خيراً لربيبه وابن أخيه سيدنا محمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من ربيع عمره الا أن يشير عليه بأن يعرض نفسه على السيدة خديجة وهي من عمومته لتسيره في متجرها الى الشام مع من تسير من الناس . فأبى محمد أن يذلّ نفسه الشريفة الأبيّة بطلب هذه الخدمة وقال لعمه أما ان هي عرضت الأمر عليَّ فأفعل .

وكانت خديجة لا تجهل الشاب محمد وهو من عمومتها وقد سمعت عن أمانته وصدقه الشيء الكثير وطالما ودّت أن تساعده على معاشه باستخدامه في قوافلها ولكنها لم تجرأ على عرض ذلك عليه مخافة أن يرفض خدمتها اباءً وترفعاً فلما سمعت مادار بينه وبين عمه الشيخ أبي طالب أسرعت فأرسلت بطلبه حتى اذا ما حضر اليها قالت له لقد بلغني عنك من الصدق والأمانة وكرم الأخلاق ماحبب اليَّ أن أعرض عليك المسير مع قافلتي الى الشام على أن اعطيك ضعف ما اعطي لسواك فقبل محمد المسير وشكرها على هذه المنة وسار الى الشام مع قافلة السيدة خديجة التي كان زعيمها غلامها ميسرة وكان له عليه الصلاة والسلام في هذه الرحلة وقائع مدهشة مع الراهب بحيراء في الشام وظهر من أمر الغلام محمد في الطريق من المعجزات ما دهش له ميسرة الذي يصاحبه .

وكانت خديجة كما تقدمت الاشارة على اعظم نصيب من الذكاء والدهاء فلما عاد ميسرة بقافلتها نقل اليها ما راى وسمع من المعجزات التي تمت لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فتعلقت بحبه ورأته كفئاً لها لأنه يحاكيها بشرف النسب وله من جماله وامانته والكرامات التي سمعتها عنه ما يعيضها عن المال وكان عندها منه الشيء الكثير فأخذت تفكر بالاقتران به . وحدث انها حادثت بشأنه بعض اترابها ممن اشتهر عنهم معرفة الكتب النصرانية والاسرائيلية وذكرت لهم ما رواه ميسرة

ءَةً كَمَالُ جَمَالِ ٱلْبِرِّ غَاشِيهَا ... مِنْهُمْ قَدِ ٱبْتَدَأَ ٱلدِّينُ ٱلْحَنِيفُ بَدَا
يَقْضِي عِبَادَتَهُ ٱلزَّهْرَا وَيُمْضِيهَا ... وَكَانَتِ ٱلْعُرْبُ تَلْقَى ٱلْمُصْطَفَى بِتُقَى
تَقِيَّـــةٍ تَبِعَا آثَارَهُ فِيهَا ... وَخَلْفَــــهُ وَلَدٌ بَرٌّ مَعَ ٱمْرَأَةٍ
وَلَا إِلَيْهَا تَوَلَّوْا مُسْتَثْنِيهَا ... ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لِلْأَصْنَامِ سَجْدَتُهُمْ

عن معجزاته عليه الصلاة والسلام فأجمعوا على القول انه قد يكون نبيٌّ هذه الأمة فأزادها هـذا تعلقاً به وارادت بفرطذ كائها ان تنال شرف الاقتران بالرجل الذي قد يكون الهادي الامين

اما زواج سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بالسيدة خديجة فقد كان هكذا . ان خديجة قالت يوماً لمحمد وذلك بعد رجوعه من الشام بأيام ان قل لعمك ابي طالب أن يتعجل الينا بالغداة فصدع المصطفى وانبأ عمه يطلب خديجة فأسرع اليها فقالت له ادخل على عمي عمرو بن اسد واطلب منـه ان يزوجني من محمد فاستغرب ابوطالب قولها واستبعده وقال لا تهزئي بي ياخديجة فقالت وعلى وجهها سيماء الجد هي الحقيقة ياشيخ قريش فهكذا اراد الله فاستبشر ابو طالب واسرع فجمع بني هاشم ورؤساء مضر وسار بهم ومحمد بينهم الى عمرو بن أسد وكانت خديجة قد أسرَّت اليه برغبتها بزواج محمد فاستعدَّ لمقابلتهم حتى اذا ما عقد مجلس الخطبة خطب أبو طالب فقال « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئضىء معد ، (أي معدنه) وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسوَّاس حرمه وجعله لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا أحكام الناس ، ثمَّ ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل الا رجح به شرفاً ونبلاً ، وفضلاً وعقلاً ، وان كان في المال قلٌّ ، فانَّ المال ظلٌّ زائل ، وأمرٌ حائل ، وعارية مسترجعة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطرٌ جليل ، وقد خطب اليـكم رغبةً في كريمتكم خديجة بنت خويلد ، وقد يذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتي عشر أوقية ونشاً (أي عبارة عن خمساية درهم شرعي) اهـ» . فلما انتهى الشيخ أبوطالب من خطابه خطب عمرو بن أسد فقال « الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفصلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلـكم ، ولا يردُّ أحد من الناس فخركم وشرفكم ورغبتنا بالاتصال بحبلـكم مثل رغبتكم . فاشهدوا عليَّ معاشر قريش . أني قد زوجت خديجـة بنت أخي خويلد من محمد بن عبد الله ، على المهر الذي ذكر الشيخ أبوطالب » وقيل ان صاحب هذا الخطاب هو ورقة بن خويلد أخو خديجة وأن الشيخ ابو طالب قال قد أحببت أن يشركك عمها فقال عمرو بن اسد « اشهدوا عليَّ معاشر قريش أني قد انكحت محمد بن عبد الله خديجـة بنت خويلد » وهكذا تم العقد وأولم المصطفى ودخل بزوجه خديجة فكان بيتها أول بيت في الاسلام

وعند عقد هـذا الزواج المبارك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخامسة والعشرين من ربيع عمره وشهرين وبضع أيام كما كان هذا الزواج بعد عودته من الشام وهو يتجر لخديجـة بشهرين وأيام معدودة . أما السيدة خديجة فقد أختلف الرواة في عمرها عند ما تشرفت بالاقتران بأشرف الخلائق عليه الصلاة والسلام فقال بعضهم أنها كانت في الأربعين من عمرها وقال بعضهم أقل من ذلك فسموا لها ٣٦ عاماً و٣٢ و٢٨ عاماً ومنهم من جعل عمرها ٤٥ عاماً أما أنا فعلى قلة علمي ارجح انها لم تكن يوم زواجها على اكثر من اثنين وثلاثين عاماً لأن المؤرخين وصفوها بالحسن ولانها ولدت أولاداً كثيرين وانت تعلم ان المرأة تنقطع عن الحبل والولادة في الخامسة والاربعين من عمرها

فَتَنْثَنِي وَهِيَ تَسْتَثْنِي دِيَانَتَهُمْ ... وَقَلَّمَا فَقِهَتْ عَالِيَ مَرَامِيهَا
مِنْهَا أَبُو طَالِبٍ قَدْ كَانَ جَاهِلَهَا ... وَشَامَ فِيهَا ٱبْنَهُ ٱلصِّدِّيقَ صَابِيهَا
فَجَاءَهُ سَائِلاً عَنْهَا فَقَالَ لَهُ ... هِيَ ٱلْحَقِيقَةُ وَضَّاحٌ تَجَلِّيهَا
تَبِعْتُ فِيهَا خُطَى طَـهَ لِشِرْعَتِهِ ٱلْـغَرَّا وَقَدْ أَمِنَ ٱلإِعْثَارَ خَاطِيهَا

وندر من النساء من تحبل وتلد بعد هذا العمر . ولم يرو المؤرخون ان السيدة خديجة حبلت وهي عجوز بمعجزة سموية . أما ما نقل عن عائشة من قولها للمصطفى عليه الصلاة والسلام بعد ان رأته يكثر من ذكر خديجة ويبالغ في مديحها « ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين » فان قولها هذا لايحمل الا على واحد من أمرين فاما انها تشير الى عمر ضرتها عند ما ماتت او الى الغيرة الطبيعية الموجودة بين الضرائر وربما دفعها الامران الى ذلك القول الذي أغضب رسول الله .

وكانت خديجة ثيباً عند ما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت قد تزوجت قبله برجلين أولهما عتيق بن عايد فولدت له بنتاً اسمها هند وهي أم محمد بن صيفي المخزومي وثانيهما ابو هالة واسمه هند أيضاً فولدت له ولداً اسمه هالة وآخر اسمه هند فكان هنداً ابن هند وعمّر هذا وكان من اكابر صحابة رسول الله وكان يفتخر بقوله انا اكرم الناس اباً واماً واخاً واختاً ابي رسول الله لأنه زوج امي وامي خديجة واخي القاسم واختي فاطمة وكان هند هذا من كبار شيعة امير المؤمنين عليه صلوات الله واكابر انصاره ومات تحت رايته يوم الجمل وقيل مات بالطاعون في البصرة بعد موقعة الجمل التي أثارتها عائشة وطلحة والزبير على سيدنا أمير المؤمنين

وولدت خديجة لرسول الله القاسم وهو بكر أولاده وكانت ولادته قبل البعثة وبه يكنى ومات وهو رضيع وزينب ورقية وفاطمة وام كلثوم واختلف الرواة في ترتيب ولادة هاته الكرائم بنات المصطفى على ان مولدهنّ كان قبل البعثة بالاجماع وولدت له توأمين قبل البعثة ايضاً ولم يعيشا واختلف الرواة باسميهما اما بعد البعثة فولدت له عبد الله فكان آخر اولاد خديجة على انه مات رضيعاً ايضاً وهكذا لم يسلم من اولاد خديجة غير الاناث

وتوفيت خديجة في العام الذي مات فيه ابو طالب اي في السنة العاشرة للبعثة وقبل الهجرة بثلاثة أعوام ومن المؤرخين من يقول أنها ماتت قبل أبي طالب بخمسة وثلاثين يوماً ومنهم من يقول أنها ماتت بعده بثلاثة أيام ودفنت بالحجون ونزل المصطفى صلى الله عليه وسلم في حفرتها فتكون قد عاشت مع زوجها النبيّ الامين اثني وعشرين عاماً لأنه عليه الصلاة والسلام بعث رسولاً للعالمين في السابعة والثلاثين من عمره وتزوج في الخامسة والعشرين من عمره وكانت وفاتها بعد البعثة بعشر سنوات أي وهو في السابعة والاربعين من عمره

وكان المصطفى عليه الصلاة والسلام يكثر من اطراء خديجة في حياتها وبعد مماتها وطالما سمعته نساؤه يقول عنها « آمنت بي حين كذبني الناس وواستني بمالها حين حرمني الناس ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها » . ولم يتزوج المصطفى عليها في حياتها الى أن ماتت

أما اسلام خديجة فالرواة مختلفون فيه اختلافهم في كثير من حوادث التاريخ النبويّ على ان الاجماع على ان هذه السيدة الذكية الحازمة توقعت نبوّته من مقدماتها من يوم جاءتها أخبار المعجزات التي حدثت له في رحلتيه الى الشام مع راهب بحيراء ومن تظليل الغمام له وغير ذلك مما ليس هنا موضعه

فَقَالَ مَا دَامَ لِلْخَيْرَاتِ دَعْوَتُهَا فَانْشَطْ وَأَنْتَ لَهَا وَانْشُرْ عَبَادِيَهَا
كَذَا الْغُلَامُ عَلِيٌّ كَانَ أَوَّلَ مَنْ لَهَا اهْتَدَى قَلْبُهُ إِذْ رَاحَ وَاعِيهَا
وقَالَ مُفْتَخِراً إِنِّي نَشَأْتُ عَلَى مَحْضٍ مِنَ الْفِطْرَةِ الْمَحْمُودُ نَاشِيهَا(١)
فَمَا عَبَدْتُ سِوَى بَارِي الْخَلِيقَةِ عَنْ هُدًى عِبَادَةَ بِرٍّ كُنْتُ أَقْضِيهَا
وَهَاتِهِ النَّفْسُ مَا الْإِشْرَاكُ دَنَّسَهَا يَوْماً وَلَا كَانَ عَنْ بَارِيَّ مُلْهِيهَا
وَتِلْكَ نُعْمَى إِلٰهُ الْخَلْقِ خَصَّصَنِي بِهَا فَأَذْكُرُهَا شُكْراً لِمُسْدِيهَا
نَعَمْ أَبَا حَسَنٍ أَنْتَ السَّبُوقُ إِلَى الْـــهُدَى بِهِ النَّاسُ أَخْلَقُ أَنْ تُجَارِيهَا
وَأَنْتَ أَوَّلُ مَهْدِيٍّ وَمُحْتَمِلٍ مَعَ الرَّسُولِ أَذِيَّاتٍ يُلَاقِيهَا
وَأَنْتَ أَنْتَ أَخُو الْهَادِي وَصَاحِبُهُ وَشِرْعَةُ الْمُصْطَفَى صَفْوٌ تَآخِيهَا

أمير المؤمنين وظهار الدعوة

شَبَّ الْعَلِيُّ بِظِلِّ الْمُصْطَفَى وَتَبَا شِيرُ النُّبُوَّةِ لَا يَنْفَكُّ لَاقِيهَا(٢)
وَكَانَ يَصْحَبُهُ فِي صَفْوِ خَلْوَتِهِ إِلَى مَفَاوِزِ «حَرًّا» مَعَهُ يَأْوِيهَا

ومما كانت تسمعه من علماء النصارى واليهود الدين كانوا يقولون عند سماعهم هده المقدمات ان في كتبهم ما يشير الى مجيء نبي من هذه الامة وقد يكون محمد بن عبد الله وعند ما أخذ يأتيه عليه الصلاة والسلام الوحي نهيبه وكان يقصّ قصته على خديجة فتشجعه وتصدقه وكان لدلك تأثيرعظيم في نفسه حتى اذا ما جهر لها ببعثته آمنت به كما آمن ربببه سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله فكانا في الايمان متقاربين لا يستطيع الباحث أن يحكم بفصيلة السبق الى الاسلام لأحدهما دون الآخر الا كما قالوا أوحي للمصطفى صباح يوم الاثنين وصلى مع خديجة في مسائه وصلى معهما علي في صباح الثلاثاء أي ان سبق خديجة لامير المؤمنين في الاسلام ادا صحّ يكون بين عيشةٍ وضحاها

(١) وكان المرتضى عليه صلوات الله يشكر الله سبحانه دائماً لتخصيصه بنعمة الايمان منذ ولد فنشأ فلم تتدنس نفسه بالاشراك ويقول « اني ولدت على الفطرة وسبقت الى الايمان والاسلام » ومعنى قوله هذا انه كسكل انسان ولد على الفطرة ولسكنه سلم دون الناس من تأثير أبويه عليه في اتباع دينهما بل صانه الله من ذلك بكفالة ابن عمه المصطفى عليه الصلاة والسلام فغذّى نفسه منذ بدء نشأته بالاسلام والايمان وفي قوله هذا اشارة الى الحديث الشريف «كل مولود يولدعلى الفطرة وانما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه »

(٢) بعد أن تمَّ للمصطفى صلى الله عليه وسلم عشر سنوات منذ بديء به بالنبوة أخذ يدعو الى الاسلام سرّاً بعضاً من أهل ثقته فأسلم نفر من قريش على يديه وذلك في ثلاث سنوات بطولها ثمَّ نزل عليه آية « وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين

وَكَانَ يَشْهَدُ تِلْكَ ٱلْمُعْجِزَاتِ بِعَيْـــــنَيْهِ فَيَدْهَشُ مِنْ سَامِي تَبَدِّيهَا
وَكَانَ يَسْمَعُ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ إِلَى ٱلــــرَّسُولِ تُلْقَى فَتُشْجِيهِ مَثَانِيهَا
وَكَانَ يَحْضُرُ جِبْرِيلًا وَزَوْرَتَهُ مُحَمَّدًا بِوُجُوهِ ٱلْوَحْيِ يُبْدِيهَا
وَلَيْسَ فِي ٱلنَّاسِ غَيْرُ ٱلْمُرْتَضَى وَخَدِيـــجَةَ مُلِمٌّ بِذِي ٱلْحَالَاتِ دَارِيهَا
حَتَّى إِذَا مَا بَشِيرُ ٱلْوَحْيِ هَيَّأَ لِلــــهُدَى بَشِيرَ ٱلْوَرَى أَمْضَاهُ يُفْشِيهَا
وَتِلْكَ بَعْثَتُهُ ٱلزَّهْرَا عَلَيْهِ صَلَا ةُ ٱللهِ لِلْخَلْقِ عُرْبِيهَا وَعُجْمِيهَا
فَصَارَ يَدْعُو إِلَيْهَا مَنْ تَوَسَّمَ فِيــــهِ ٱلْخَيْرَ سِرًّا وَخَوْفًا ٱلشَّرَّ يُخْفِيهَا
بِذَا ثَلَاثَةُ أَعْوَامٍ قَضَى وَلَهُ قَدْ دَانَ بَعْضُ قُرَيْشٍ وَٱهْتَدُوا فِيهَا
وَبَعْدَهَا جَاءَهُ جِبْرِيلُ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يُجَاهِرَ بِٱلْإِسْلَامِ تَجْرِيهَا
وَقَالَ فَٱصْدَعْ بِأَمْرِ ٱللهِ إِنَّكَ مَبْــــعُوثٌ لِتَدْعُوَ إِلَيْهِ ٱلنَّاسَ تَهْدِيهَا
أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلدُّنْيَا بِشِرْعَتِكَ ٱلــــغَرَّا وَأَظْهِرْ لَهَا أَسْنَى مَعَانِيهَا
وَمُذْ تَبَلَّغَ أَمْرَ ٱللهِ هَمَّ بِهِ بِهِمَّةٍ مَا ٱعْتِدَا ٱلْكُفَّارِ يُثْنِيهَا
وَلَمْ يَجِدْ عَضُدًا كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى مُجَاهَرَةٍ قَدْ كَانَ خَاشِيهَا

وادع الى الله تعالى ولا تبـال المشركين » حينئذ أمرّ على اعلان دعوته لبني هاشم وهم عشيرته الاقربون الا انه تهيبهم لما أنس من شدتهم في شركهم فتربص مدة شهر فنزلت عليه آية « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » حينئذ لم يسعه الا تلبية أمر الله سبحانه وتعالى فقصد علياً عليــه صلوات الله وهاك رواية عليّ قال : « دعاني النبي اليه وقال ياعلي ان الله أمرني أن انذر عشيرتي الاقربين فضقت ذرعا وعلمت اني متى ابادرهم بهذا الامر أرى منهم ما اكره فصمتّ عليــه حتى جاءني جبريل فقال: يامحمد ان لم تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك فامتثلت أمر ربي وجئت اليك ياعلي فاصنع لنا صاع طعام واجعل عليــه رجل شاة واملأ لنا عساً من لبن واجمع لي بني عبد المطلب حتى اكلمهم وابلغهم ما امرت فبادرت لتتميم الامر ودعوتهم وهم وقتئذ أربعون رجلاً فلما اجتمعوا اليه دعاني بالطعام الذي صنعته لهم فلما وضعته تناول رسول الله حزّة من اللحم فدقها بأسنانه ثمّ ألقاها في نواحي الصحفة ثمّ قال خـذوا باسم الله فأكل القوم حتى مالهم بشيء من حاجه وما أرى الا مواضع أيديهم وأيم الله الذي نفس علي بيده ان كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما تقدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً وأيم الله ان كان الرجل الواحـد ليشرب مثله فلما أراد رســول الله ان يكلمهم بدره عمه أبو لهب قائلاً : لعلما سحركم صاحبكم فتفرقوا » اه وهكذا لم ينجم عن الاجتماع الأول أمرٌ

تفرّق بنو عبد المطلب عن رسول الله وظلّ صلى الله عليه وسلم مكموداً حزيناً حتى ا-ا

إلاَّ العليَّ فناداهُ وأخـبرهُ ... بغيةٍ حسبُ أمرِ اللهِ باغيها

وقالَ هيِّئْ لنا في الحالِ مأدبةً ... وليتقنَنَّ لها الألوانَ طاهيها

فرِجلُ شاةٍ على صاعِ الطعامِ وأعـ ... ـساسٌ لها اللبنُ النُّوقيُّ تُمليها

وادعُ الهواشمَ باسمي كي أشافِهها ... بأمرِ ربِّي باريَّ وباريها

قامَ العليُّ بأمرِ المصطفى ودعا ... إلى وليمتهِ أكرمْ بداعيها

أبناءُ هاشمٍ هم كانوا عشيرتَهُ ... ولم يكنْ فيهمِ إلاَّ الملبِّيها

وعدُّهم كانَ عندَ الأربعينَ وهمْ ... رجالةُ العُرْبِ في إحصاءِ مُحصيها

هذي عشيرةُ طـهَ بل قرابتُهُ الـ ... ـدُّنيا التي كانَ للإسلامِ راجيها

وإذ أتتهُ تلقَّاها على رحَبٍ ... بِبِشْرِهِ وانثنى صفواً يُحيِّيها

حتَّى إذا ما استوى فيها المقامُ لها ... مدَّ السِّماطَ وفيهِ ما يشهِّيها

فأقبلتْ ورسولُ اللهِ يخدمُها ... على الطعامِ ويُعنى كي يُهنِّيها

حتَّى إذا أكلتْ ذاكَ الطعامَ ومنْ ... ألبانِهِ سُقِيتْ واللهُ كافيها

ظلَّ الطعامُ كما قد كانَ وهوَ وأيـ ... ـمُ اللهِ ما كانَ يكفي مستجيفيها

وتلكَ معجزةٌ للمصطفى وبها ... قامَ العليُّ وعنهُ نحنُ نرويها

ثمَّ قد ابتدرَ القومَ الرسولُ بذكـ ... ـرى يُمنِ بعثتِهِ يُبدي خوافيها

ما جاء الغد عاد الى علي وأمره أن يصنع ما صنع في أمسه وان يدعو اليه عشيرته الاقربين ففعل فلما تكامل جمعهم لديه قدم لهم الطعام واللبن فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ثم بدرهم عليه الصلاة والسلام فقال : ان الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعهم ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعهم ما غررتكم، والله الذي لا اله الا هو، اني لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعلمون، ولتجزون بالاحسان احساناً، وبالسوء سوءاً، وانها لجنة أبداً، ولنار أبداً ، يابني عبد المطلب ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، اني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة ، يابني عبد المطلب اني لأدعوكم الى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان — شهادة أن لا اله الا الله واني رسول الله — فمن يجيبني الى هذا الامر ويوازرني على القيام به يكن أخي ووزيري وخليفتي من بعدي » فلم يجبه أحد من بني عبد المطلب الا عليّ وكان أحدثهم سناً فقال : أنا يارسول الله . فقال المصطفى اجلس . ثمَّ أعاد القول ثانياً فصمت القوم وأجاب علي أنا يارسول الله . فقال المصطفى اجلس . ثم أعاد القول ثالثاً فلم يكن في بني عبدالمطلب

وَإِذْ أَبُوْ لَهَبٍ فِيْ ٱلحَالِ قَاطِعُهُ ... وَمَوَّهَ ٱلحَقَّ بِالتَّضْلِيلِ تَمْوِيهَا
وَقَالَ يَا نَاسُ طَـٰهَ جَاءَ يَسْحَرُكُمْ ... بِذَا ٱلطَّعَامِ ٱحْذَرُوا ٱلإِضْلَالَ وَٱلتِّيهَا
هَيَّ ٱنْهَضُوا وَدَعُوهُ أَنْ يَغُشَّ نُفُو ... سَ ٱلغَيْرِ فِي هٰذِهِ ٱلدَّعْوَى وَيُصْبِيهَا
وَهٰكَذَا ٱرْفَضَّ ذَاكَ ٱلإِجْتِمَاعُ وَأَنْـ ... ـفُسُ ٱلجَمَاعَةِ دَاجِي ٱلكُفْرِ غَاشِيهَا
وَعَادَ طَـٰهَ إِلَى تَكْرَارِ دَعْوَتِهِ ... وَكَانَ حَيْدَرَةُ ٱلمِقْدَامُ رَاعِيهَا
حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ لِلْأَكْلِ ثَانِيَةً ... عَلَى ٱلخِوَانِ ٱنْثَنَى طَـٰهَ يُفَاهِيهَا
فَقَالَ: مَا جَاءَ قَبْلِيْ قَوْمَهُ أَحَدٌ ... بِمِثْلِمَا جِئْتُ مِنْ نَعْمَاءَ أُسْدِيهَا
لَكُمْ بِهَا ٱلخَيْرُ فِيْ دُنْيَا وَآخِرَةٍ ... إِذَا ٱنْضَوَيْتُمْ إِلَى زَاهِي مَغَانِيهَا
فَمَنْ يُوَازِرُنِيْ مِنْكُمْ فَذَاكَ أَخِيْ ... وَذَاكَ يَخْلُفُنِيْ فِيْ رَعْيِ نَامِيهَا
فَلَمْ يَجِدْ مِنْ لَبِيبٍ رَاحَ مُقْتَنِعاً ... بِصِدْقِ بَعْثَتِهِ أَوْ رَاحَ رَاضِيهَا
وَكُلَّمَا ٱزْدَادَ تِبْيَاناً لِبَعْثَتِهِ ٱلـ ... ـزَّهْرَا أَزَادَتْهُ تَكْذِيباً وَتَسْفِيهَا
ثُمَّ أَبُوْ لَهَبٍ نَادَاهُ وَيْلَكَ لَمْ ... يَجِيءْ فَتًى قَوْمَهُ مَا جِئْتَنَا إِيهَا
تَبَّتْ يَدَاهُ فَإِنَّ ٱلجَهْلَ تَوَّهَهُ ... وَٱلكُفْرُ فِيْ دَرَكَاتِ ٱلنَّارِ تَتْوِيهَا
وَكَرَّرَ ٱلمُصْطَفَى أَقْوَالَهُ عَلَناً ... وَقَدْ تَوَسَّعَ إِنْذَاراً وَتَنْبِيهَا
فَمَا رَأَى غَيْرَ أَلْبَابٍ مُحَجَّرَةٍ ... هَيْهَاتَ لَيْسَ يُلِينُ ٱلنُّصْحُ قَاسِيهَا
وَأَنْفُساً عَنْ كِتَابِ ٱللهِ مُعْرِضَةً ... وَٱلكُفْرُ قَدْ كَانَ وَٱلإِشْرَاكُ مُعْمِيهَا
وَأَحْجَمَتْ كُلُّهَا عَنْ فَيْضِ رَحْمَتِهِ ... مَعْ يُمْنِ دَعْوَتِهِ فَٱلكُلُّ آبِيهَا
إِلَّا ٱلعَلِيُّ فَنَادَى دُوْنَهَا: فَأَنَا ... نُعْمَاكَ يَا هَادِيَ ٱلأَكْوَانِ بَاغِيهَا

من يجيبه غير علي فقال أنا يارسول الله . حينئذ قال المصطفى عليه الصلاة والسلام : اجلس فأنت أخي ووزيري ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي . فنهض القوم غاضبين مستهزئين وهم يقولون شيخهم أبي طالب عليك ياعم أن تطيع ابنك الغلام هذا وهم يريدون سيدنا أمير المؤمنين

نقول : ومن تأمل في هذا الحديث يجد أن المرتضى قام بنصرة الدعوة من نعومة أظفاره وكان العضد الأول للمصطفى في أول عمل أتاه في سبيلها وسترى فيما يجيء من هذه القصيدة المباركة وحواشيها انه ماشى النبوّة ونصرها وخدمها الى أن بلغت أوج المجد الذي أعده لها الله عزّ وجل .

نَادَى أَنِ ٱجلِسْ ثَلَاثاً وَهُوَ يَعرِضُ دَعْـــوَاهُ عَلَى ٱلْقَوْمِ يَبْغِي مُسْتَجِيبِيهَا
حَتَّى إِذَا بَاتَ مَأْيُوساً وَمُنْزَعِجاً مِنَ ٱلْهَوَاشِمِ مُعْنِي عَنْ تَرَضِّيهَا
عَنْهَا تَوَلَّى إِلَى حَيْثُ ٱلْعَلِيُّ مُنَوِّ م هَاً بِهِ بَيْنَ ذَاكَ ٱلْجَمْعِ تَنْوِيهَا
وَكَانَ مَاسَكَهُ مِنْ طَوْقِ رَقَبَتِهِ يَقُولُ : هٰذَا لَهَـا وَٱللهِ يَحْمِيهَا
وَقَالَ : هٰذَا أَخِي ذَا وَارِثِي وَخَلِيـــفَتِي عَلَى أُمَّتِي يَحْمِي مَرَاعِيهَا
وَقَالَ فَرْضٌ عَلَيْكُمْ حُسْنُ طَاعَتِهِ بَعْـدِي وَإِمْرَتُهُ وَيْلٌ لِعَاصِيهَا
فَٱرْفَضَّ جَمْعُهُمُ وَٱلْهُزْءُ آخِذُهُمْ إِلَى ٱلْغَوَايَةِ فِي أَدْجَى دَيَاجِيهَا
وَهُمْ يَقُولُونَ: أَحْكَامُ ٱلْغُلَامِ عَلِـــيٍّ يَا أَبَا طَالِبٍ كُنْ مِنْ مُطِيعِيهَا
كَذَاكَ حَيْدَرَةٌ مَاشَى ٱلنُّبُوَّةَ مُذْ نَادَى بِهَا ٱلْمُصْطَفَى لَبَّى مُنَـادِيهَا
وَشَارَكَ ٱلْمُصْطَفَى مِنْ يَوْمِ إِنْ وَضَعَ ٱلْإِ م سَاسَ حَتَّى ٱنْتَهَتْ عَلْيَا مَبَانِيهَا
فَكَانَ أَوَّلَ أَرْبَابِ ٱلْجِهَادِ جَمِيـــعاً بَعْدَ أَحْمَدَ فِي مَلْقَى أَعَادِيهَا
وَكَانَ آخِرَ مَنْ عَانَى ٱلْمَصَائِبَ فِي سَبِيلِهَا طَالِباً رِضْوَانَ مُوحِيهَا
فَهَلْ يُبَارِيهِ فِي هٰذَا ٱلْفَخَارِ مُبَا رٍ فِي ٱلْبَرِيَّةِ مَاضِيهَا وَآتِيهَا

أمير المؤمنين والهجرة

مِنْ بَعْدِ إِنْ رَفَضَتْ طَـهَ عَشِيرَتُهُ وَلَمْ تُجِبْ دَعْوَةً قَدْ كَانَ دَاعِيهَا(١)
وَافَى قُرَيْشَ جِهَاراً بِٱلنُّبُوَّةِ يَدْ عُوهَا إِلَيْهَا وَبِٱلْأُخْرَى يُمَنِّيهَا

---

(١) لا جدال ان هجرة المصطفى مع أصحابه من مكة كرمها الله الى المدينة كانت بدء الجهاد لنشر الاسلام في العالم فهي اذن أهم الحوادث الاسلامية وهوذا نجمل خبرها هنا مع اقتصارنا في قصيدتنا على نصيب سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله منها فنقول :

أن رسول الله بدأ بتبليغ دعوته لعشيرته القربى وهم بنو هاشم حسب أمر الله فلما رفضت عشيرته قبول دعوته والقيام على نصرته عمم الدعوى في قريش فأطاعه القليلون وهزيء بدعوته الاكثرون ولم يقتصر الناس على الازدراء به بل عمدوا الى اضطهاده واضطهاد الافراد الذين تبعوه فصاروا يؤذونهم ويوقعون بهم وهموا بالمصطفى عليـه الصلاة والسلام يريدون الوقيعة به فحماه من أذاهم عمه الشيخ أبو طالب الذي كان أول نصير للاسلام . وعند ما رأى المصطفى توالي الاذى على أصحابه من كفار قريش أشار اليهم بالهجرة الى الحبشة وكانت هجرتهم هذه في رجب من السنة الثانية لاظهار الدعوة ولما وصلوا الى أرض الحبشة نزلوا بخير دار عند خير جار وظلوا هناك الى شوال حيث

فغاظها أنه أمسى يسفهها ... بدينها وهو لا ينفك لاحيها

وسب أصنامها قد كان ديدنه ... وشجب عبادها مع مستثيبيها

وحاولت أن تناويه مكابرة ... يبطلها مثلما أضحى يناويها

فلم يكن عندها شيء من الحجج الـ ... ـكبرى التي أحمد المأمون يلقيها

وإذ رأت عجزها عنه وقدرته ... مالت إليه لتؤذيه بأيديها

شأن الألى هجروا الحق المبين جها ... لة وما ملكوا إلا التراريها

وكل من ضعفت تالله حجته ... بالسب والضرب يرجو أن يقويها

تلك الجهالة والجهال ما عرفت ... إلا البذاءة في ملقى محجيها

لكن أبو طالب ما انفك ينصر أحـ ... ـمداً ويردع أعداه ويخزيها

حتى إذا مات هبت وهي طالبة ... أذية المصطفى خالته مؤذيها

بلغهم أن مشركي قريش قد أسلموا واصطلحوا مع المصطفى عليه الصلاة والسلام فأسرعوا بالعودة الى مكة وكان العائدون نحواً من ثلاث وثلاثين رجلاً فيهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعثمان بن مظعون والخبر الذي انتهى الى مهاجري الحبشة لم يكن مكذوباً ولكن بولغ فيه وحقيقته أن المصطفى عليه الصلاة والسلام خفف بدعوته ورأى المشركون ان المسلمين قد برحوا مكة فهدأت ثائرتهم على أن الذين عادوا من الحبشة بلغهم وهم في ظاهر مكة ان المشركين ما انفكوا يضطهدون المسلمين فدخلوها مستخفين

وكان بين وقت وآخر يدخل في الاسلام من فتح الله عين بصيرته من النساء والرجال وكلما سمع المشركون باسلام واحد منهم ازدادوا بغضاً للمسلمين وأذية لهم حتى اذا ما أسلم عمر بن الخطاب وكان وجيهاً في قريش ومعروفاً بشدته ازداد حقد المشركين على المسلمين . وفي الاخير اجتمع كفار قريش وأقروا على قتل محمد عليه الصلاة والسلام وقالوا لروساء بني هاشم ان صاحبكم قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا فخذوا منا دية مضاعفة ويقتله رجل من قريش وتريحونا وتريحون أنفسكم فأبى الهواشم أن يسمحوا بقتل محمد وحينئذ أقرت قريش على منابذة الهواشم ولا سيما بني عبد المطلب واخراجهم من مكة الى شعب أبي طالب ومنعهم من حضور الأسواق وان يمتنع الناس عن مناكحتهم وعن قبول صلح لهم أبداً وعن أن يرأف بهم رائف حتى بعييهم الأمر فيسلمون محمداً لأيديهم فيفتكون به وكتبوا لذلك صحيفة علقوها في الكعبة . وكان اجتماع قريش هذا في خيف بني كنانة بالأبطح بأعلى مكة وحينئذ دخل بنو هاشم وبنو عبد المطلب مؤمنهم وكافرهم الشعب أدخلهم اليه القريشيون قهراً الا أبو لهب عم المصطفى فقد كان ضد قومه مع قريش وكان ذلك والمصطفى في السادسة و الأربعين من عمره السعيد . ومكث بنو هاشم في الشعب سنتين في أشد ما يكون من البلاء

وقد نال الهواشم من النفي جهد عظيم ترك مشركيهم يسيئون معاملة مسلميهم وحينئذ لم ير المسلمون بداً من الهجرة ثانية فهاجر منهم ٨٣ رجلاً و١٨ امرأة على رأسهم جعفر بن أبي طالب

وَطَالَمَا سَفَتِ ٱلنَّاسُ ٱلتُّرَابَ عَلَيْهِ … أَوْ تَقَوَّلَ عَنْهُ ٱلْهَجْرَ مُسْفِيهَا
وَحَقَّرَتْهُ بِمَا قَالَتْ وَمَا فَعَلَتْ … عَنْهُ وَمَعْهُ وَجَارَتْ فِي تَعَدِّيهَا
وَفِي ٱلأَخِيرِ رَأَتْ أَنْ تَقْضِيَنَّ عَلَيْهِ … وَٱلْمَنِيَّةُ مِنْ دَعْوَاهُ تُنْجِيهَا
لَكِنَّهَا رَهِبَتْ فِيهِ عَشِيرَتَهُ … وَقَدْ يَعِزُّ عَلَيْهَا أَنْ تُعَادِيهَا
وَبَعْدَ أَنْ أَعْمَلَتْ فِي ذَاكَ فِكْرَتَهَا … وَكَانَ إِبْلِيسُ نَارُ ٱلشَّرِّ يُلْظِيهَا
قَرَّتْ عَلَى أَنَّ فِتْيَانَ ٱلْقَبَائِلِ تُرْدِيهِ جَمِيعاً بِضَرْبٍ مِنْ مَوَاضِيهَا
بِذَا يُوَزَّعُ فِيمَا بَيْنَهَا دَمُهُ … وَمَا ٱلْهَوَاشِمُ أَهْلٌ أَنْ تُقَاوِيهَا
فَتَرْتَضِي دِيَةً عَنْ سَفْكِ خَيْرِ دَمٍ … إِذَا رَأَتْ أَخْذَهَا بِٱلثَّأْرِ مُعْيِيهَا
تَآمَرَتْ هٰكَذَا سِرّاً عَلَيْهِ وَسَارَتْ فِتْيَةُ ٱلْقَوْمِ فِي أَسْوَا مَمَاشِيهَا

وزوجته أسماء بنت عميس وقد أضافهم نجاشي الحبشة خير ضيافة وأطلق لهم الحرية في دينهم . وسمع كفار قريش أن النجاشي أكرم مثوى المسلمين فخافوا أن يحالفهم وهو نصراني ويمدهم بقوة يأتون بها على مكة فأرسلوا له وفداً من قبلهم يغريه عليهم بدعوى أنهم يسبون سيدنا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام فما نجحوا في هذه الحيلة

أما الهواشم فبعد ان بلغ منهم الجهد مبلغه وهم في الشعب قال محمد لعمه أبي طالب ان الله سلط الأرضة على صحيفة قريش فلحست منها اسم الله سبحانه ولم يبق غير ما كتبوه من ظلم بني هاشم فصدق أبو طالب القول وسار برهط من قومه الى مكة فقابل المشركين وسار بهم الى الكعبة حيث وجدوا صحة ما روى المصطفى وكان هذا سبباً لابطال ذلك الاعتصاب ضد بني هاشم فعادوا الى مكة كرمها الله وعادت قريش الى الاختلاط بهم

وكان قد ذاع في جزيرة العرب نبأ محمد ودعوته وما هو جار في الحجاز من الاضطراب بسببه فأخذت تفد عليه الوفود فأزاد ذلك في حقد قريش على المصطفى ودينه وعلى أثر ذلك توفي أبو طالب وهو كما علمت كان النصير الأكبر للمصطفى فاشتدت قريش عليه لوفاته

وعلى أثر وفاة الشيخ أبي طالب واشتداد قريش على محمد وأصحابه بحيث صاروا يتعرضون لهم ويكثرون من اضطهادهم وكثيراً ما كان يتصدى سفهاؤهم للمصطفى عليه الصلاة والسلام فيسبونه ويؤذونه ويسفون عليه التراب حينئذ ضاق صدره عليه الصلاة والسلام فخرج الى الطائف وكان ذلك في شوال من السنة التي مات فيها ابو طالب خرج اليها ومعه زيد بن حارثة وهو طامع أن تحالفه ثقيف على الاسلام فخاب ظنه وردته أشنع رد وبالغ سفهاؤها في أذيته فعاد الى مكة مكروباً مغموماً

وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم في السنوات العشر الماضية يوافي موسم الحج في كل عام ويتبع الحجاج في منازلهم بمنى والموقف ويأتي اليهم في أسواقهم « عكاظ ومجنة وذي مجاز » وكان يعرض نفسه على الناس ويقول: « يا أيها الناس ان الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » أو يقول: « يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » كما كان عليه الصلاة والسلام يقف في منازل

فَجَاءَ جِبْرِيلُ طَـهَ مُنذِراً وَلَهُ ... يَقُولُ: دَعْ مَكَّةَ وَٱلْكُفرُ فَاشِيهَا
وَٱهجُرْ فِرَاشَكَ فَٱلْـكُفَّارُ طَالِبَةٌ ... فِيهِ حَيَاتَكَ وَٱنْظُرْ كَيفَ تَتَقِيهَا.
وَمَا دَجَا ٱللَّيلُ إِلاَّ وَٱلْجُنَاةُ غَشَوْا ... دَارَ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ بَاتُوا مُحِيطِيهَا
يَسْتَنظِرُونَ إِذَا مَا نَامَ أَنْ يَثِبُوا ... وَيُرْسِلُوهُ إِلَى ٱلْجَنَّاتِ يَاْوِيهَا
وَإِذْ رَآهُمْ رَسُولُ ٱللهِ مَالَ إِلَى ... عَلِيِّنَا مَيْلَةً حُسْنُ ٱلرَّجَا فِيهَا
وَقَالَ: نَمْ فِي فِرَاشِي غَيرَ مُكْتَرِثٍ ... إِلَى ٱلْخُطُوبِ إِذَا تَدْهَى دَوَاهِيهَا
وَٱلبَسْ ثِيَابِي وَكُنْ فِيهَا ٱلأَمِينَ عَلَى ... هٰذِي ٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِي ٱلرَّحْمٰنُ يَحْمِيهَا
وَفِي صَبَاحِكَ بَادِرْ يَا أَخِي كَرَماً ... إِلَى ٱلأَمَانَاتِ أَرْجِعْهَا لِأَهْلِيهَا

القبائل ويقول: « يا بني فلان اني رسول الله اليكم انه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الانداد وأن تؤمنوا بي وتصدّقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله عزّ وجلّ ما بعثني به » وأجمع الرواة على أن أبا لهب عمّ المصطفى كان يتبعه ويكذبه عنوة ويرميه بالحجارة ويغري الناس على الهزء بدعوته . على أنّ المصطفى لم يجد من جميع القبائل التي عرض نفسه عليها قبيلةً تنصره وتقوم بدعوته وكان جواب اكثرها بأن عشيرتك أعرف منا بك وهي لم تتبعك ثم يقولون فيما بينهم « ان قوم الرجل أعلم به أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسدقومه »

وما زال المصطفى عليه الصلاة والسلام قلقاً لفقد النصير والمساعد حتى أراد الله اظهار دينه واعزاز نبيه وانجاز موعده له فيسّر له الأعوان والانصار وذلك أنه خرج كعادته في الموسم قبل ثلاث سنوات من الهجرة يعرض نفسه على القبائل فبينما هو عند العقبة (عند يسار الطريق لقاصد منى والتي تسمى الجمرة باسمها فيقال «جمرة العقبة» وفيها الآن مسجد يقال له مسجد البيعة اشارة الى هذا الحادث العظيم الذي نرويه) اذ لقي هناك رهطاً من الخزرج وكانوا ستة رجال فقال من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج فقال أمن موالي اليهود « أي حلفاء اليهود الذين كانوا ينزلون يثرب وما جاورها وهم قريظة والنضير » قالوا نعم فجلس اليهم ودعاهم الى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الاسلام فاجابوه وصدّقوه لانهم كانوا يسمعون من جيرانهم اليهود أنّ الله سيبعث نبياً قد قرب زمانه فيجدّد مملكة اسرائيل التي تلاشت فكانوا كأنهم على استعداد لهذه الدعوة وقالوا للمصطفى لقد تركنا قومنا «وهم الاوس والخزرج» وهم يقتتلون والعداوة بينهم منذ مئة عام فان يجمعهم الله عليك فلا أعزّ منك واذا لنشير عليك أن تمكث على رسلك حتى نرجع الى قومنا ونقصّ عليهم دعوتك وموعدنا معك الحجة القادمة وهكذا تمَّ الاتفاق بينه وبينهم من غير تعاقد أو بيعة

وفي الحجة التالية أي السنة التي سبقت سنة الهجرة قدم مكة احد عشر رجلا منهم خمسة من الخزرج وهم من الستة الذين اجتمع عليهم المصطفى في الحجة الماضية وأربعة من الخزرج أيضاً واثنان من الاوس فاجتمع بهم المصطفى عند العقبة أيضاً وبايعهم على أن يمنعوه ما يمنعون به نساءهم وأبناءهم وعلى أن يرحل اليهم فبايعوه على ذلك وهذه المبايعة يقال لها العقبة الاولى ولما رجع هؤلاء الى المدينة أرسلوا الى المصطفى أن ابعث الينا رجلاً من قبلك يفقهنا ويدعو الناس بكتاب الله فبعث

كَذَاكَ أَوْصَى بِحَاجَاتٍ مُنَوَّعَةٍ ... وَصِيَّةٌ كَانَ بِالإِسْرَاعِ يُوصِيهَا
وَقَدْ مَضَى غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَجِلٍ ... مِنَ الْخُطُوبِ الَّتِي قَدْ رَاحَ غَاشِيهَا
وَقَدْ تَنَاوَلَ فِي يُمْنَاهُ أَتْرِبَةً ... وَكَانَ فَوْقَ رُؤُوسِ الْقَوْمِ ذَارِيهَا
بِهَا لَقَدْ عَمِيَتْ فَاجْتَازَ مَجْثَمَهَا ... وَسَارَ فِي هَضَبَاتِ الأَرْضِ يَطْوِيهَا
إِنَّ الْعَلِيَّ عَلَى سَامِي شَجَاعَتِهِ ... لَبَّى الأَوَامِرَ حَالاً بَاتَ مُجْرِيهَا
قَدِ ارْتَدَى بِثِيَابِ الْمُصْطَفَى وَعَلَى ... فِرَاشِهِ نَامَ هَانِيَ النَّفْسِ هَادِيهَا
وَلَمْ يَهَبْ وَثْبَةَ الْفِتْيَانِ إِنْ وَثَبَتْ ... لِقَتْلِ طَـهَ كَمَا تَرْمِي مَرَامِيهَا
وَحُبُّـهُ لِرَسُولِ اللهِ دَافِعُهُ ... إِلَى الْمَخَاطِرِ خَافِيهَا وَبَادِيهَا

اليهم رسول الله مصعب بن عمير وكان يقال له المقري وهو أول من تسمى بهذا الاسم ولما وصل هذا الى المدينة نزل على أبي أمامة أسعد بن زرارة فطفق يعلم الاوس والخزرج القرآن ويؤمهم ويؤدبهم بآداب الاسلام وكان هذا بدء اجتماع كلمتهم بعد طول الشقاق بينهم وأسلم على يد مصعب هذا سعد بن معاذ وابن عمه أسيد بن خضير وغيرهما خلق كثير ثمَّ ان مصعب خرج الى مكة مع من خرج من المسلمين الخزرجيين الى الموسم مع حجاج قومهم المشركين فاجتمع على رسول الله واخبره بمن أسلم فسرَّ بذلك ثم جاءه بمن معه من مسلمي الانصار وعلى رأسهم البراء بن معرور وكعب بن مالك وواعدهم على أن يجتمع معهم في العقبة بعد انقضاء الموسم في ليلة اليوم الذي هو يوم النفر الاول فلما كانت الليلة الموعودة حضروا الى العقبة وكان معهم أبو جابر عبد الله بن عمرو بن خزام من سادات يثرب وكان مشركاً وكانوا ٧٣ رجلاً وامرأتين فوجدوا رسول الله بانتظارهم وكان معه عباس عمه وعلي وأبو بكر على أنه عليه الصلاة والسلام أناط بسيدنا علي وأبي بكر حراسة الطريق من طرفيه وأما عمه العباس فلم يكن وقتئذٍ قد أسلم ولكنه أصرَّ على حضور المبايعة للاطمئنان على مستقبل ابن أخيه بصفته زعيم الهواشم

فلما جلس القوم بين يدي رسول الله والعباس بجانبه افتتح الكلام العباس فقال « يامعشر الخزرج (لان العرب كانت تطلق اسم الخزرج على الاوس والخزرج معاً) انَّ محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا من هو على مثل رأينا فهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده وقد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون أنكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن تدعوه » وما انتهى العباس حتى قال البراء بن معرور « انّا والله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله » ثم أخذ البراء بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « نعم والذي بعثك بالحق نمنعك مما نمنع به ازرنا (أي نسائنا) وأنفسنا فنحن والله أهل حرب وأهل الحلقة (أي السلاح) ورثناها كابراً عن كابر » وبينا البراء يكلم رسول الله واذا بأبي الهيثم بن التيهان يقول « ونقبله على مصيبة المال وقتل الاشراف » فقال العباس : اخفوا جرسكم (أي صوتكم) فان علينا عيوناً . ثم قال أبو الهيثم :

وَنَفْسُهُ نَفْسُ حُرٍّ مَا تَعِزُّ فَفِي صِيَانِ نَفْسٍ أَمِينِ ٱللّٰهِ يَفْدِيهَا
أَمَّا ٱلْجُنَاةُ فَمَا ٱنْفَكَّتْ نُفُوسُهُمْ عَلَى غَوَايَتِهَا وَٱلشَّرُّ مُغْرِيهَا
فَجَاءَهُمْ سَائِلٌ عَنْ طُولِ وَقْفَتِهِمْ وَعَنْ رُؤُوسِهِمِ وَٱلذَّرُّ عَالِيهَا
وَقَالَ : وَيْلَكُمُ طَـٰهَ لِحَاجَتِهِ فِي غَفْلَةٍ مِنْكُمُ قَدْ سَارَ يَقْضِيهَا
فَكَذَّبُوهُ وَقَالُوا : لَا يَزَالُ عَلَى ٱلْـفِرَاشِ يَغْفُو قَرِيرَ ٱلْعَيْنِ هَانِيهَا
فَلَا يَلُوحُ ضِيَاءُ ٱلْفَجْرِ إِلَّا وَرُوحُهُ تُفَارِقُ دُنْيَانَا وَتُخْلِيهَا
حَتَّى إِذَا أَصْبَحُوا أَلْفَوْا قَنِيصَتَهُمْ فَاتَتْ وَآثَارُهَا صَعْبٌ تَقَصِّيهَا

« يا رسول الله ان بيننا و بين اليهود عهوداً وانا قاطعوها فهل حسبت اذا نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا ؟ ؟ » فتبسم رسول الله وقال : « بل الدم الدم والهدم الهدم (أي تطلبون بدمي وأطلب بدمكم) وذمتي ذمتكم ورحلي مع رحلتكم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » وقال العباس على الاثر : « عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهدكم في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ويد الله فوق أيديكم لتجدنّ في نصرته ولتشدنّ من أزره » فقال الجميع : نعم . قال العباس : « اللهمَّ انك سامع شاهد وان ابن أخي قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه . اللهمَّ كن لابن أخي عليهم شهيداً » وبعد ان انتهى العباس من قوله هذا قال رسول الله : اخرجوا اليَّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم . فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس فكانوا سعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وسعد بن خيثمة والمنذر بن عمرو وعبد الله بن رواحة والبرَّاء بن معرور وأبو الهيثم بن التيهان واسيد بن حضير وعبد الله بن عمرو بن حرام وعبادة بن الصامت ورافع بن مالك كل واحد ناب عن قبيلة من قبائل الخزرج والاوس. فقال رسول الله لاولئك النقباء أنتم كفلاء على غيركم وأنا كفيل على قومي وحينئذ تقدم اسعد بن زرارة وهو أصغر أولئك النقباء وأخذ من يد النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « رويداً يا أهل يثرب انا لن نضرب اليه اكباد الابل الا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن اخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب وقتل خياركم وأن تطمكم السيوف فاما أنتم قوم تصبرون عليها اذا مستكم بقتل خياركم ومفارقة العرب فخذوه وأجركم على الله تعالى وأما أنتم تخافون من أنفسكم خيفةً فذروه فهو عذر لكم عند الله عزَّ وجلَّ » فنادى في الحال النقباء « يا سعد امط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها » وهكذا شدت عقدة العهد وتمت البيعة بين الخزرج الذين دعوا أنصار المصطفى وبينه عليه الصلاة والسلام وقال الانصار في ختام المبايعة ابسط يدك يارسول الله فبسطها فبايعه جميع الحاضرين وكان الواحد منهم يقول : « أبايعك على أن أتم عهدي بوفائي وأصدق قولي بفعلي في نصرك » ولما انتهت هذه البيعة دعيت العقبة الثانية وهكذا ارفض الاجتماع وعاد الانصار الى يثرب

وعلمت قريش بمعاهدة الخزرج محمد ومن معه من المسلمين فخافت أن يغلب عليها بواسطتهم وأخذت تبالغ باضطهاد المسلمين حتى ضيقوا عليهم ونالوا منهم وجعل البلاء يشتد عليهم حتى أصبحوا

وَقَدْ رَأَوْا فِي فِرَاشِ ٱلْمُصْطَفَى بَطَلَ ٱلْإِ م سْلَامِ رُؤْيَا أَطَارَتْ نَفْسَ رَائِيهَا

فَأَمْسَكُوهُ وَمَا هَابُوا عَشِيرَتَهُ وَإِنَّ حِرْمَتَهُ كَانُوا مُهِينِيهَا

وَسَاءَلُوهُ عَنِ ٱلْهَادِي فَقَالَ لَهُمْ لَا عِلْمَ لِي عَنْ خُطًى قَدْ رَاحَ خَاطِيهَا

طَلَبْتُمُ أَنْ يُخَلِّي مَكَّةً فَأَطَا عَكُمْ وَأَمْسَى بَعِيدَ ٱلدَّارِ نَائِيهَا

وَبَسْمَةُ ٱلْهُزْءِ كَانَتْ فَوْقَ مَبْسِمِهِ وَكَانَ وَهُوَ يُجِيبُ ٱلْقَوْمَ يُبْدِيهَا

فَجَرَّرُوهُ وَقَدْ غِيظُوا لِمَسْجِدِهِمْ وَكَانَ أَشْيَاخُهُمْ فِيهِ تَنَادِيهَا

وَبَعْدَ أَنْ حَبَسُوهُ سَاعَةً تَرَكُو هُ إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَزِيدِيهَا

وَٱللهُ أَنْقَذَ طَهَ مِنْ مَكِيدَتِهِمْ فَسَارَ فِي هِجْرَةٍ مَحْمُودٌ سَارِيهَا

وَكَانَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يُرَافِقُهُ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ إِذْ حَلَّا مَثَاوِيهَا

بين مفتون في دينه وبين معذب مضطهد وبين هارب متخفي في البلاد وشكوا أمرهم الى المصطفى صلى الله عليه وسلم واستأذنوه في الهجرة فمكث أياماً لا يأذن لهم . ثمّ قال لهم : أُريت دار هجرتكم أُريت سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرّتان . ثم خرج اليهم مسروراً فقال . قد أُخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب فمن أراد أن يخرج فليخرج اليها . فخرج المسلمون اليها نساءً ورجالاً متتابعين مستخفين . على أنه صلى الله عليه وسلم قبل هجرتهم آخى بينهم واتخذ علياً أخاً له وسنذكر هذه المواخاة والمواخاة الثانية التي آخى بها بين المهاجرين والأنصار في حاشية تجيء وبوصول المهاجرين الى يثرب أنزلهم الانصار في دورهم وآووهم وواسوهم

وبعد أن هاجر معظم المسلمين الى يثرب مكث صلى الله عليه وسلم في مكة ومعه علي بن أبي طالب الذي لم يكن يصبر على صحبته وأبو بكر وأخذ ينتظر أن يؤذن له بالهجرة ليصحبهما اليها

ولما رأت قريش أنّ المسلمين هجروا مكة وأووا يثرب عند معاهديهم الخزرج حذروا أن يخرج رسول الله اليهم وأن يجمع الناس على حربهم فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمره عليه الصلاة والسلام وكانت دار الندوة هذه في منزل قصي بن كلاب وكانوا لا يقطعون أمراً الا فيها . وبينما كانوا مجتمعين دخل عليهم ابليس في صورة شيخ عليه طيلسان من خزّ فقالوا من الشيخ ؟ قال : من أهل نجد سمع بالذي اجتمعتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً قالوا : أجل وادخل فدخل معهم . ثمَّ أخذوا يتداولون بأمر المصطفى فقال بعضهم لبعض ان هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم وانّا لا نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا أجمعوا فيه رأياً فقال قائل احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء حتى يصيبه ما أصابهم من هذا الموت . فعارضهم ذلك الشيخ النجدي قائلا : لا والله ما هذا لكم برأي فانكم لو حبستموه ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذي اغلقتموه دونه الى أصحابه فلا تأمنون أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثمَّ يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم فانتظروا رأياً آخر . فعادوا ثانية الى المشاورة فقال قائل منهم . نخرجه من بين أظهرنا فننفيه

وَظَلَّ فِي مَكَّةٍ رَبُّ ٱلْوَفَاءِ عَلِـــيٌّ كَيْ يُتِمَّ رِغَابًا كَانَ أُوْصِيهَا
وَأَقْبَلَتْ عَجَلًا أَهْلُ ٱلْوَدَائِعِ تَنْـــشُدُ ٱلْوَصِيَّ عَلَيْهَا كَيْ يُؤَدِّيهَا
تَقُولُ : أَيْنَ وَصِيُّ ٱلْمُصْطَفَى لِيُعِيْـــدَهَا إِلَيْنَا فَنَحْنُ ٱلْآنَ نَبْغِيهَا
فَيَلْتَقِيهَا عَلِيٌّ وَٱلْوَدَائِعُ فِي يَدَيْهِ وَهْوَ لَهَا فِي ٱلْحَالِ يُعْطِيهَا
لِذَاكَ أَصْبَحَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ مُشْتَهِرًا بِٱسْمِ ٱلْوَصِيِّ يُنَادِيهِ مُنَادِيهَا
ثُمَّ لَهُ ٱلْمُصْطَفَى أَوْصَى وِصَايَتَهُ بَيْنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلْأَنْصَارِ تَجْرِيهَا
وِصَايَةٌ حِكْمُهَا حِكَمُ ٱلْيَقِينِ وَمَا غَيْرُ ٱلْمُكَابِرِ مَنْ يَجْرَا وَيَنْفِيهَا
وَبَعْدَ أَنْ كَمُلَتْ أَعْمَالُ حَيْدَرَةٍ كَمَا أَرَادَ صَفِيُّ ٱللهِ مُوحِيهَا
وَلَّى إِلَى طِيبَةٍ مِنْ مَكَّةٍ هَرَبًا وَخَلَّفَ ٱلدَّارَ تَنْعِي شِرْكَ بَانِيهَا

من بلادنا فاذا خرج عنا فوالله لا نبالي أين يذهب . فاعترض النجدي قائلا : والله ما هذا برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال والله لو أطلقتموه ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب بذلك عليهم من قوله وحديثه حتى يبايعوه ثم يسير به اليكم حتى يطأكم بهم فيأخذوا أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد . فدبروا به رأياً آخر . فقال أبو جهل بن هشام: والله ان لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال الرأي أن تأخذوا من كل قبيلة شاباً جلداً حسيباً في قومه نسيباً وسطاً ويأخذ كل منهم سيفه ثم يغدون اليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضوا منا بديته فنؤديهـا . فقال النجدي : القول ما قال هذا الرجل . فتفرق القوم على ذلك

وكانت قريش في ندوتها تلك تآمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيته لا يدري من أمرها شيئاً فجاءه جبريل وقال له : لا تبت هذه الليلة في فراشك وأخبره بمكر القوم به وأنزل الله عز وجل عليه آية « واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » فلما كان الهزيع الأول من الليل أحاط بدار رسول الله صلى الله عليه وسلم شبان قريش الذين نيط بهم قتله على ما تآمرت شيوخهم وجعلوا يرصدون طلوع الفجر ليقتلوه عنوة فيذهب دمه هدراً لمشاهدة بني هاشم قتلته من جميع القبائل . فلما رآهم رسول الله محدقين بداره قال لعلي بن أبي طالب نم على فراشي واتشح بردائي هذا الحضرمي ولن يخلص اليك شيء تكرهه. ثم ان المصطفى أنبأ علياً بأنه ذاهب الى بيت أبي بكر ليختفي فيه ومنه سيهاجر مع أبي بكر الى المدينة وأوصاه أن يرد الودائع التي عنده الى أهلها وأن يدبر له ولصاحبه أبي بكر دليلاً وراحلتين وأن يعتني بأمر أهله الى آخر ما أوصاه به من المهام ثم قال له فاذا أبرمت ما أمرتك به كن على أهبة الهجرة الى الله ورسوله . وهكذا ترك المصطفى المرتضى عليهما الصلاة والسلام ممدداً في فراشه وسار نحو الباب نخرج على المشركين وأخذ حفنة من تراب وتلا قوله تعالى « يس والقرآن الحكيم الى قوله فأغشيناهم فهم لا يبصرون » وحثا التراب

مَشَى لِهُجْرَتِهِ مَشْياً عَلَى قَدَمَيْـــــهِ فِي ٱللَّيَالِي لِتَخْفِيهِ دَيَاجِيهَا

حَتَّى إِذَا مَا دَنَا مِنْ طِيبَةٍ وَجَدَ ٱلأَ نْصَارَ وَٱلصَّحْبَ قَدْ حَنَّتْ بَهَادِيهَا

كَٱلشَّمْسِ مِنْ حَوْلِهَا لِلأَلَاءِ هَالَتُهَا إِذَا ٱنْجَلَتْ وَهِيَ فِي أَزْهَى تَلَالِيهَا

وَعَانَقَ ٱلْمُصْطَفَى بِٱلْبِشْرِ حَيْدَرَةً وَفَرْحَةُ ٱلْمُلْتَقَى عَيْنَاهُ تُجْلِيهَا

ثُمَّ بَكَى إِذْ رَأَى فِي أَخْمَصَيْهِ جُرُو حاً وَهِيَ دَامِيَةٌ وَٱلسَّيْرُ مُدْمِيهَا

وَقَدْ أَمَرَّ يَدَيْهِ بَعْدَ تَفْلَتِهِ عَلَيْهِمَا فَوْقَهَا يَبْغِي يُدَاوِيهَا

فَمَا ٱشْتَكَى بَعْدَ ذَا مِنْ أَخْمَصَيْهِ وَهَا تِيكَ ٱلْجِرَاحَةُ كَانَ ٱللهُ مُبْرِيهَا

تَمَّتْ كَذَا ٱلْهِجْرَةُ ٱلْكُبْرَى وَقِصَّتُهَا تُتْلَى فَتُطْرِبُ تَالِيهَا وَمُصْغِيهَا

على رؤوسهم فأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلم يروه فلما بعد عنهم قصد منزل أبي بكر فدخل عليه وأقام فيه الى الليلة التالية حيث اصطحبه وخرجا من مكة مستخفيين الى غار خارجها فأقاما فيه ثلاثة أيام مخافة ان يتبعهما مشركو قريش

وظلّ شبان قريش بأزاء دار المصطفى الى نحو الفجر حيث أتاهم آتٍ فقال: ما تنتظرون ههنا قالوا : محمداً فقال : قد خيبكم الله والله خرج عليكم محمد بعد أن حثا على رؤوسكم التراب وانطلق لحاجته افما ترون ما بكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فاذا عليه تراب وجعلوا يتطلعون الى داخل منزل المصطفى فيرون شخصاً نائماً على فراشه يظنونه هو فيقولون انّ محمداً لنائم وما زالوا كذلك الى أن اتضح النهار فتسوروا الدار ودخلوها شاهرين سيوفهم فثار علي في وجوههم بشجاعته المعهودة فعرفوه وقالوا هو أنت ؟ فأين صاحبك ؟ فقال لا أدري وأنتم طلبتم منه أن يخرج من مكة فخرج فتولاهم الغيظ فسبوه وضربوه واستاقوه الى المسجد فحبسوه فيه ساعة ثمّ أخلوا عنه

وما كاد ينطلق عليّ حتى أسرع الى تنفيذ أوامر المصطفى واذ علم بخروجه من مكة الى الغار مع ابي بكر طفق يرسل لهما الزاد في مدة ثلاثة ايام مع عامر بن فهيرة الذي كان ينقل اليه اوامر المصطفى وفي اليوم الثالث استأجر لهما علي ثلاث أباعر ودليلا هو الاريقط بن عبدالله الليثي وارسله بهما الى المصطفى وصاحبه فسار بهما الى يثرب

واذ علمت قريش بسفر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يثرب هالها الأمر وأرسلت من يقتفي اثره ويرده الى مكة كرمها الله فما افلحت على كثرة من تبعه منها . ووصل عليه الصلاة والسلام الى يثرب بعد ثمانية ايام من خروجه من مكة فيها الايام الثلاثة التي قضاها في الغار فلقيه المسلمون من المهاجرين والأنصار بالفرح والتهليل والتكبير وحمدوا الله الذي أوصله اليهم سالماً

أما عليٌّ عليه صلوات الله فظلّ في مكة كرمها الله أياماً معدودات انفذ فيها جميع اوامر رسول الله ثمّ هرب من مكة خلسةً ماشياً على قدميه فكان يمشي في الليل ويختبيء في النهار الى ان بلغ يثرب فتلقاه المصطفى بالترحاب وعانقه وبكى لما رأى من تورم قدميه وجراحتهما لطول المسير ثمّ تفل عليه الصلاة والسلام في يديه الكريمتين وأمرّهما على قدمي المرتضى فشفيا في الحال وما عاد فشكاهما طول حياته . وهذه هي الهجرة النبوية التي دخل الاسلام فيها بدوره الجدّي العظيم

أمير المؤمنين وقاضي المسلمين

قَدْ رَحَّبَتْ يَثْرِبٌ بِٱلْمُصْطَفَى وَتَلَقَّتْهُ بِبَهْجَتِهَا ٱلْكُبْرَى أَهَالِيهَا(١)
وَآلُ هِجْرَتِهِ مَعْ آلِ نُصْرَتِهِ تَزَاحَمَتْ حَوْلَهُ وَٱلْبِشْرُ مَالِيهَا
وَٱلْبَعْضُ كَانَ يُهَنِّي بَعْضَهَا فَرَحاً ثُمَّ إِلَى ٱلْمُصْطَفَى تُسْدِي تَهَانِيهَا
وَسُرَّ أَحْمَدُ مِنْ تِلْكَ ٱلْحَفَاوَةِ فِي تِلْكَ ٱلْمَغَانِي ٱلَّتِي بِٱلْعِزِّ يَثْوِيهَا
وَلَمْ يَطِبْ لِٱسْمِهَا وَقْعٌ بِأُذْنِ رَسُو لِ ٱللهِ نَادَى: أَسَاصُنْعاً مُسَمِّيهَا(٢)

---

(١) كانت هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام من مكة كرمها الله الى المدينة المنورة في شهر ربيع اول من العام الثالث عشر لبعثته وكان معه أبو بكر والدليل على ما تقدم القول

وعند ما بلغ المصطفى قباء وهي على بضع كيلومترات من المدينة المنورة نزل على كلثوم بن الهدم وأقام هنالك أياماً بنى فيها مسجدها المعروف الى يوم الناس هذا ودعا فيها المسلمين الى صلاة يوم الجمعة وهي أول جمعة في الاسلام ووقف صلى الله عليه وسلم في الناس خطيباً وتأثر فقال: « ان الله كتب عليكم الجمعة ، في مقامي هذا . في ساعتي هذه ، في مشهدي هذا ، في عامي هــذا ، الى يوم القيامة ، من تركها من غير عذر ، أو أقامها مع امام جائر ، فلا جمع شمله ، ولا بورك في أمره ، ألا ولا صلاة له ، ولا حج له ، ألا ولا بركة له ، ولا صدقة له » .

وسار بعد ذلك الى المدينــة المنورة فلما وصل الى مكان مسجده وكان مربداً لبني النجار «وكانت منهم أمه آمنة فبنو النجار أخواله » قال : « ثامنوني به » فأجابه أخواله : لا نبغي به الا ما عند الله . فأمر به رسول الله أن يبنى مسجداً وأقام هو في دار أبي أيوب الانصاري حتى بنى مسجده الشريف بيده الشريفة وعاونه في بنائه المهاجرون والأنصار بأيديهم

أما أبو أيوب الانصاري هذا الذي أضاف المصطفى عليه الصلاة والسلام عند ما وصل الى المدينة المنورة فهو خالد بن زيد النجار الأنصاري الخزرجي شهد العقبة وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من أكبر أنصار سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله وشهد معه مواقع الجمل وصفين والنهروان وبعد ذلك غزا الروم مع المسلمين مع يزيد بن معاوية سنة خمسين للهجرة وتوفي عند مدينة القسطنطينية فدفن هناك وأمر يزيد بالخيل فجعلت تقبل وتدبر على قبره حتى خفيت آثاره قبل ذلك مخافة أن تنبشه الكفار . وقد أقام العثمانيون عند ما فتحوا القسطنطينية مسجداً عظيماً على اسمه في نهاية خليج قرن الذهب هو من أشهر مساجد تلك المدينــة وأهالي القسطنطينية من مسلمين ونصارى ويهود يحترمون اسم هذا الانصاري العظيم جد الاحترام الى اليوم ويسمونه السلطان أيوب

(٢) لا بد هنا وقد وصل المصطفى بالمسلمين الى دار هجرته وهجرتهم أن نذكر شيئاً عن المدينة المنورة فنقول: ترتفع هذه المدينة آزادها الله نوراً عن سطح البحر بنحو ٦١٩ متراً وهي واقعة على طول ٣٩ درجة و٥٥ دقيقة شرقاً وعلى عرض ٢٤ درجة و١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء وحرارتها في الصيف تصعد الى ٢٨ درجة سنتكراد في الظل وقلما تتعداها وتنزل في الشتاء

وَقَالَ وَاللهِ لَا تُدْعَى الْمَدِينَةُ بِاسْمٍ قَدْ يُشِيرُ إِلَى التَّعْيِيرِ دَاعِيهَا
فَلْيَطْلُبِ الْعَفْوَ وَالْغُفْرَانَ مِنْ كَرَمِ الرَّحْمٰنِ مَنْ بِاسْمِهَا الْمَطْرُوقِ يُسَمِّيهَا

الى عشر درجات فوق الصفر نهاراً والى خمسة تحت الصفر ليلاً وعلى هذا فهي معتدلة الطقس

واختلف المؤرخون في تاريخها القديم فقال بعضهم ان اسمها «يثرب» محرّف عن الكلمة المصرية «اتريبيس» وبنوا على هذا الزعم رأيهم من أنّ العمالقة الذين حكموا مصر ويقال أنهم من العرب هم الذين بنوها بعد ذهاب حكم مصر من أيديهم . وقال آخرون بل ان موسى عند ماخرج من مصر قاصداً فلسطين أرسل طائفةً من أصحابه لاكتشاف تلك الجهات فساروا الى تلك البقعة وبلغهم نبأ موته فاستقروا فيها وبنو البلد ودعوه بالكلمة المصرية « اتريبيس » ودليل هؤلاء كون سكان البلد والقبائل التي كانت محيطة به كان معظمهم من اليهود . واني لا أخالف الرأي الثاني من أنّ اليهود هم بناة المدينة ولكن على ما أظن أنهم لم يكونوا رسلاً لسيدنا موسى الكليم الذي كان منذ فكر بالهجرة بقومه من مصر طامعاً بأرض فلسطين حيث مثوى ابراهيم واسحق ويعقوب على أنه عليه السلام خرج بالاسرائيليين من مصر وكانوا مستعبدين فيها وقد انكسرت نفوسهم فلا يصلحون لقتال أهالي فلسطين الاشداء فتيّههم في سيناء أربعين حولاً كما تقول التوراة وكانوا في أثنائها يتحسرون على ثوم مصر وكراثها فلا غرو اذا كان قد هرب بعضهم الى البلاد العربية فنزلوا الموضع الذي بنيت فيه المدينة المنورة وأقاموا هناك كما لا يبعد أن يكون قد انضمّ اليهم فيما بعد غيرهم من اليهود الذين ضجروا من الحروب المتوالية التي انتابت مملكة اسرائيل وكيفما كان الحال في تاريخ بناء هذه المدينة التي أصبحت من أعظم المدن المقدسة في العالم فالثابت انّ تاريخ بنائها يترامى الى ١٦٠٠ عاماً قبل التاريخ المسيحي أو ١٢٢٠ عاماً قبل تاريخ الهجرة

وكان اسم هذا البلد يثرب وهو على مايقولون محرّف عن الكلمة المصرية اتريبيس كما تقدم القول وفي معنى يثرب التثريب وهو اللوم والتعيير ولذلك أنف المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يظلّ هذا الاسم عنواناً للبلد الذي آواه وأكرم مثواه فقال : « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى هي طابة هي طابة ثلاثاً » وفي رواية أخرى انه قال: « هي طيبة » وفي رواية ثالثة أنه قال : « هي طياب » قالوا: وأنما سميت يثرب على اسم أحد أولاد نوح وكان يدعى يثرب . وقالوا كانت معروفة من قبل الاسلام باسم المدينة وباسم طيبة وقالوا: انها سميت طيبة لطيب رائحتها . وقالوا أيضاً أنها سميت طيبة باسم بلد في مصر . ويدعوها المسلمون باسم «البارّة» لأنها برّت بالمصطفى ومن معه من المهاجرين وهي لا تزال تبرّ بالذين يأتونها حجاجاً لزيارة سيد المرسلين

والمدينة المنورة مبنية في وسط وادٍ شاسعٍ يمتدّ الى الجنوب وأزقتها لا تزال ضيقة ونحن على رأي الذين يقولون بوجوب تركها على ضيقها لأن معظم بيوتها أثرية معروف بالتقليد الصحيح أسماء أصحابها الأقدمين العظام من أكابر الصحابة والأنصار بحيث الذي يتشرف بزيارتها يتذكر كيفما اتجه الاشخاص الذين شادوا الدين ووطدوا مجد الاسلام والحوادث التي حدثت في ذلك العهد المجيد فأثرت على مستقبل شعوب الارض من الوجهتين الدينية والاجتماعية أعظم وأحسن تأثير . فهناك المزارات الاثرية الدينية التي تدخل الرهبة على النفوس كمزار ومسجد قباء وهو أول مسجد بني في الاسلام بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنوب الغربي للمدينة عند دخوله اليها في هجرته وفي وسط صحنه قبة أقيمت على مبرك ناقته حين قدومه اليها في هجرته من مكة . وهناك مزار

وَإِنَّهَا طِيبَةٌ طَابَتْ مَسَارِحُهَا عَرْفاً وَفَاحَتْ بِأَهْلِيهَا شَوَاذِنُهَا
وَهْيَ «ٱلْمَدِينَةُ» إِنِّيْ بِتُّ وَاطِنَهَا وَإِنَّنِيْ بِٱسْمِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ وَالِيهَا

ومسجد سيدنا حمزة وهو في شمال المدينة فيوادي أُحُد . وهذا الوادي مشهور بالواقعة التيحصلت بين المسلمين والمشركين في ١٥ شوال سنة ٣ من الهجرة وسنذكرها في المغازي النبوية وفيها استشهدسيدنا حمزة عمّ المصطفىوغيرهذا مزارات كثيرة لا متسع لذكرها هنا

على أنّ أهمّ ما في المدينة المنورة الحرم المدني علىساكنه الصلاة والسلام وهو الحرم الذي جعل هذا البلد بمصافمكة كرمها الله والقدس الشريف وأكسبه من الاحترام فينفوس القوم ما ليس بعده احترام . والحرم المدني واقع في وسط المدينة يميل الى الشرق وهيئته مستطيلة ومتوسط طوله من الشمال الى الجنوب ١١٦ متراً وربع المتر وعرضه من الشرق الى الغرب من جهة القبلة ٣٦ متراً و٣٥ سنتيمتراً ومن جهة الباب الشامي ٦٦ متراً . وينقسم في وضعه الى قسمين هما المسجد والصحن والمسجد يبتديء من قبلة عثمان وهذا القسم مغطى بقباب ترتكز على أقواس قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب وأما الصحن ويسمونه الحصوة فهو ذو شكل مستطيل يميل الى الباب الشامي ويحيط به من جهاته الثلاث ثلاث أروقة فيها أعمدة تحمل أقواساً رفعت عليها قباب تناطح الجوزاء

وفي الجهة القبلية الشرقية من الحرم المقصورة الشريفة وفي غرب هذه المقصورة الروضة الشريفة وهي مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر المصطفى سميت كذلك لقوله عليه الصلاة والسلام : « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » وهي تبلغ ٢٢ متراً طولاً في نحو ١٥ عرضاً وهذه الروضة الشريفة غاصة على الدوام بالناس لشرف مكانتها . وفي غرب الروضة الشريفة قبلة المصطفى عليه الصلاة والسلام وهي من أبدع ما صنع الصناع وهي مقامة على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة في الموضع الذي أمر المصطفى باقامة القبلة فيه وذلك يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عند ما أمره الله سبحانه بالصلاة الى الكعبة — وكان قبلها يصلي مع أصحابه الى بيت المقدس — والى غرب القبلة المنبر الشريف وكان على عهده صلى الله عليه وسلم عبارة عن جزع نخلة ثم استصنع منبراً من خشب الاثل يصعد اليه بثلاث درجات أو أربع . والمنبر اليوم من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية الجمال في دقة صناعته

أما الحرم النبوي فله خمسة أبواب وهي : باب السلام ، وباب الرحمة ، وكلاهما في الغرب . والباب المجيدي لانه تجدد على عهد السلطان عبد المجيد وهو في الشمال . وباب النساء ، وباب جبريل ويسمونه باب البقيع ، وكلاهما في الشرق

والحرم الشريف يحتوي الآن على مسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلى بيت عائشة وعلى حجرات أزواجه مع الزيادة التي أزيدت عليه . وكان يحيط بمسجده الشريف على عهده صلى الله عليه وسلم مساكن أزواجه وكانت في الجهة الجنوبية وبعض الشرقية من الحرم وأما مساكن أصحابه فكانت من الجهة الشرقية

والمقصورة الشريفة من نحاس اصفر بديعة الصنع ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود . وطول هذه المقصورة الشريفة ١٦ متراً من الشمال و١٥ من الشرق . وفي زواياها الاربع أعمدة مزوية عظيمة وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة . ويتصل بهذه المقصورة

بِذَا أَشَارَ إِلَى سَامِيْ تَمَدُّنِهِ ‌ ‌ ‌ وَأَنَّ مَبْعَثَهُ ٱلْأَسْنَى مَغَانِيهَا
وَحَسْبُهَا أَنَّهَا بَاتَتْ مَقَرَّ هُدًى ‌ ‌ ‌ يَقِ ٱلْبَرِيَّةَ فِيهَا قَرَّ هَادِيهَا

من الشمال مقصورة سيدتنا فاطمة الزهراء وطولها ١٤ متراً من الشمال والجنوب و ٧ أمتار ونصف المتر من الشرق والغرب وهذه المقصورة بنيت في موضع بيتها الذي عاشت فيه مع سيدنا علي

وفي داخل المقصورة الشريفة الحجرة الشريفة وهي المكان الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم ١٢ من شهر ربيع أول سنة ١١ للهجرة ودفن فيه لقوله صلى الله عليه وسلم «ما قبض نبيٌّ الا دفن حيث قبض» ورأسه الشريف عليه الصلاة والسلام الى الغرب . ولما توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ للهجرة دفن الى جانبه من جهة الشمال ورأسه الى قدمي رسول الله . ولما طعن عمر استأذن من عائشة أن يدفن مع صاحبيه فأذنت له ولما مات في ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة دفن الى جوارهما ورأسه محاذية لمنكبي أبي بكر . وقد أقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على شكل ذي خمسة أضلاع ارتفاعه أكثر من ستة أمتار

وبين بناء المقصورة الشريفة والشبكة النحاسية الخارجة طرقة سعتها نحو ثلاث أمتار وفي زاويتها من الجنوب كرسي موضوع عليه مصحف شريف يقال أنه أحد المصاحف الستة التي كتبها عثمان ابن عفان وهذا المصحف هدية من الحجاج بن يوسف الثقفي وسماء هذه الطرقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة وفي الجهة الشرقية منها فيما يقابل الوجه الشريف كثير من المشاكي بينها ٣١ مشكاة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ومعلقة بسلاسل من الذهب

وعلى جدار المقصورة الشريفة فيما يقابل الوجه الشريف حجر من الماس البرلنتي في حجم بيضة الحمام الصغيرة يحيط به اطار من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة ويسمونه بالكوكب الدري لشدة تألقه وهو مثبت في لوحة من الذهب ورصع محيطه بـ ٢٢٧ قطعة كبيرة من الحجارة الكريمة ويقدرون قيمة هذه الماسة وحدها بثمانماية ألف جنيه وهي هدية من السلطان أحمد الأول العثماني أهداها للحجرة الشريفة في أوائل القرن الحادي عشر الهجري وقد علق تحتها كفٌّ من الذهب المرصع بالجوهر وفي وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدري وهو هدية من السلطان مراد الرابع العثماني أهداه للحجرة الشريفة سنة ١٠٤٧ للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة من الماس البرلنتي « لا اله الا الله محمد رسول الله » وهو هدية من السلطانة عادلة كريمة السلطان محمود الثاني أهدته للحجرة الشريفة سنة ١٢٩١ هجرية. وفي هذه الحجرة شيء كثير من الحجارة الكريمة والجواهر الغالية الثمن منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس البرلنتي اسم سيدتنا فاطمة الزهراء وهي موضوعة على مقصورتها الداخلية في الجانب الشرقي. والى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم وعقود أخرى لا تقوَّم بثمن. وهناك شمعدانات ومراوح من الذهب مرصعة بالجواهر ومكانس من اللؤلؤ وقاقم ومباخر مرصعة عدا ما في خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف المجوهرة والتحف الفاخرة والاساور والاقراط والعقود الثمينة مما أهداه تقاة المسلمين والمسلمات لحجرة نبيهم برهاناً على حبهم له عليه الصلاة والسلام وقد شاع أنّ الاتحاديين في أثناء الحرب العامة سنة ١٩١٦ — ١٩١٧ قد سرقوا هذه الذخائر أو بعضها ولكنا لم نتثبت بعد من هذه الاشاعة

هذا وصف مختصر جداً للحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة على ما هو اليوم ويحسن بنا في

وَأَنَّ سُكَّانَهَا أَنْصَارُ بِعْثَتِهِ   وَفَضْلُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُرِيدِيهَا(١)
وَإِذْ أَقَامَ بِهَا مَعْ آلِ هِجْرَتِهِ   رَغْداً وَطَابَتْ بِسُكْنَاهُمْ رَوَابِيهَا
آخَى ٱلصِّحَابَ مَعَ ٱلْأَنْصَارِ مُتَّخِذاً   لِكُلِّ ذَاتٍ بِهِمْ ذَاتاً تُصَافِيهَا(٢)

هذا المقام أن نذكر ما كان عليه مسجد المصطفى وبيته عليه الصلاة والسلام على عهده فنقول : ان المقصورة الشريفة التي أجملنا وصفها بنيت مكان البيت الذي كان يسكنه مع زوجه عائشة . والمقصورة التي بجانبها بنيت في موضع البيت الذي كانت تسكنه سيدتنا فاطمة الزهراء مع زوجها أمير المؤمنين وولدهما فيه سيدانا الحسن والحسين عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام . وكان لبيت سيدتنا فاطمة شباك يطلّ على بيت أبيها المصطفى لعدم صبره على فراقها ، والذي يدرس ما كتبه المدققون عن بيت المصطفى في المدينة المنورة بتدقيق يستطيع أن يستخاص على التقريب أنَّ بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذا حجرتين وكان بابه لجهة الشام على رأي بعضهم ولجهة الغرب على رأي آخرين وقيل كان له بابان من الجهتين وكان من دون هذا البيت منازل أزواجه وكان محيطها مع بيت عائشة مبنياً باللبن وقواطعها الداخلة من الجريد المكسو بالطين والمسوح الصوفية هذا كل مايوصف به البيت الذي عاش فيه سيد الخلائق أجمعين وكان مصدر هداية العالمين عليه الصلاة والسلام وكان بجانب بيته مسجده وهو الحرم النبوي اليوم وكان وقتئذ في غاية البساطة فمنازل أصحابه المقربين اليه . .

(١) ان سكان المدينة المنورة الذين حلّ بينهم المصطفى والمسلمون المهاجرون هم حلفاؤه ويطلق عليهم اسم « الأنصار » لأنهم نصروا دعوته وهم من الشرف والمكانة في الاسلام في الطبقة الثانية بعد الصحابة من قريش بدليل قول الأنصار يوم السقيفة «منا امير ومنكم أمير» فقال لهم عمر بن الخطاب « بل نحن الامراء وأنتم الوزراء » فما اعترضوا

وهؤلاء الأنصار هم الأوس والخزرج وهما بطنان من الأزد وكانت ديارهم مأرب باليمن فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم في القرن الثاني عشر قبل الهجرة ومروا على يثرب فطابت لهم فنزلوها ضيوفاً على سكانها اليهود وكانوا من بني النضير وقريظة وقينقاع وغيرهم على أن يكونوا تحت حكمهم . وما زالوا خاضعين لمضيفيهم اليهود حتى قام عليهم ملك اسمه « القيطون » فظلمهم فاستغاثوا «الاوس والخزرج» بملوك غسان وهم مثلهم من عرب قحطان فنصرهم الغسانيون وأوقعوا بيهود يثرب وانتقل حكم البلد بذلك الى الأوس والخزرج وتداركوا اليهود في أملاكهم وأصبحت لهم عصبية عظيمة ولهم حروب مشهورة في جاهليتهم . وكانت هاتان القبيلتان « الأوس والخزرج» متشاكستين فقامت بينهما حروب سفكت فيها دماء كثيرة وظلتا متعاديتين الى أن ألف بينهما محمد عليه الصلاة والسلام عند ما بإيعاته على ما تقدم القول في حاشية سابقة

(٢) اذا كانت الأخوّة من المبادي الاساسية لأهل جميع الأديان فنها على الأظهر بين المسلمين لما علمت أولاً من اشتراكية العرب التي هي من أصل طبيعتهم والعرب هم أساس الاسلام ومصدره وبهم اقتدى المسلمون وبآدابهم تأدبوا . والقرآن الشريف وطد دعائم هاتيك الأخوّة اذ قال الله سبحانه وتعالى غير مرة « انما المؤمنون اخوة » وفي الاحاديث النبوية الشريفة شيء كثير عن تآخي المسلمين بحيث لم تجعل ميزة لواحدهم على الآخر الا بالتقوى

وعند ما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالهجرة الى المدينة المنورة جمعهم وآخى بينهم على الحقّ والمساواة فآخى بين أبي بكر وعمر وبين حمزة وزيد بن حارثة وبين عثمان وعبدالرحمن

لِذِي ٱلأُخُوَّةِ فِي عَالِي مَعَانِيهَا ... إِلَّا عَلِيًّا فَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ أَحَدًا
مِنْ عَيْنِهِ وَبِهِ سَالَتْ مَآقِيهَا ... فَجَاءَهُ سَائِلًا وَٱلدَّمْعُ مُنْبَجِسٌ
فَقَالَ: خِلْتُنَا مَاضٍ تَآخِيهَا ... وَقَالَ: أَيْنَ أَخِي حَتَّى أُخَادِنَهُ
وَعِنْدَ مَا دَعْوَتِي نَادَيْتَ: رَاضِيهَا ... أَلَمْ أُوَاخِكَ قَبْلًا عِنْدَ هِجْرَتِنَا
وَفِي ٱلْجِنَانِ إِذَا مَا رُحْتَ ثَاوِيهَا ... إِنِّي أَخُوكَ بِذِي ٱلدُّنْيَا وَأَنْتَ أَخِي
مَوْلَى وَصِيَّةِ حَقٍّ جِئْتُ أُوصِيهَا ... وَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَأَنْتَ لَهُ
وَوَسْطَ مَجْلِسِ مَكِّيهَا وَطِيبِيهَا ... وَكَانَ ذَلِكَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِهَا
عَلَى ٱلشَّدَائِدِ مَا تَدْهَى دَوَاهِيهَا ... كَذَاكَ كَانَ عَلِيٌّ لِلرَّسُولِ أَخًا
وَفَوْقَ أَنْصَارِهِ ٱلأَخْيَارِ يُعْلِيهَا ... وَكَانَ يَحْمِلُ فِي ٱلْمَيْدَانِ رَايَتَهُ
فِي نَفْسِهِ مِنْ رِغَابٍ كَانَ يَنْوِيهَا ... وَكَانَ صَاحِبَهُ يُفْضِي إِلَيْهِ بِمَا
إِلَّا وَحَيْدَرَةُ ٱلْمِقْدَامُ غَازِيهَا ... فَمَا غَزَا غَزْوَةً طَـهَ بِسُؤْدُدِهِ
إِلَّا وَحَيْدَرَةٌ مِنْ مُسْتَشَارِيهَا ... وَلَا نَدَا نَدْوَةً لِلْمُسْلِمِينَ بِهَا
إِلَّا وَحَيْدَرَةٌ قَدْ هَبَّ يُجْرِيهَا ... وَلَا أَرَادَ لِخَيْرِ ٱلدِّينِ مَسْأَلَةً
آسَاسِ دَوْلَتِهِ مُذْ هَمَّ يَبْنِيهَا ... كَذَاكَ كَانَ وَزِيرَ ٱلْمُصْطَفَى بِبِنَا
هَيْهَاتَ فَٱلشَّمْسُ لَا يَخْفَى تَلَالِيهَا ... فَقُلْ لِمَنْ رَامَ أَنْ يُخْفِي فَضِيلَتَهُ
أَهْوِنْ عَلَيْكَ ٱلثُّرَيَّا أَنْ تُدَانِيهَا ... وَقُلْ لِمَنْ رَامَ أَنْ يَدْنُو لِرُتْبَتِهِ

بن عوف وبين الزبير وابن مسعود وبين عبادة بن الحارثة وبلال وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص وبين أبي عبيدة بن الجراج وسالم مولى أبي حذيفة وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله ثمَّ قال عليه الصلاة والسلام وعليّ هـذا (وكان بجانبه) فهو أخي ووصيّ ثمَّ مال اليه عليهما الصلاة والسلام وقال: ألا ترضى أن أ كون أخاك ؟ قال أمير المؤمنين: بلى يارسول الله رضيت فقال المصطفى: فأنت أخي في الدنيا والآخرة.

وبعد أن استقرَّ برسول الله المقام في المدينة المنوَّرة آخى بين المهاجرين والأنصار لتتألف قلوب بعضهم ببعض وقال: « تآخوا في الله أخوين أخوين » فتقدموا وتآخوا فكان لكل مهاجر أخ من الانصار فجاء عليّ الى المصطفى عليهما الصلاة والسلام وعيناه دامعتان وقال: يارسول الله آخيت بين أصحابك ولم تواخ بيني وبين أحد فقال رسول الله « ياعلي أنت أخي في الدنيا والآخرة » وهكذا كما رأيت أبى المصطفى أن يقرن بعليّ أخاً غيره عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام

تكنية أمير المؤمنين بأبي تراب

أَعْيَا ٱلْجِهَادُ قُوَى ٱلصِّنْدِيدِ حَيْدَرَةٍ ... وَكَانَ فِي نُصْرَةِ ٱلإِسْلَامِ مُعْيِيهَا(١)

وَٱلنَّاسُ تَعْلَمُ كَمْ عَانَى وَجَاهَدَ فِي ... خَيْرِ ٱلنُّبُوَّةِ أَوْ فِي قَهْرِ عَادِيهَا

وَهُوَ ٱلْحَرِيصُ عَلَى تَأْيِيدِ صَاحِبِهَا ... وَنَشْرِ كُلِّ جَلِيلٍ مِنْ مَبَادِيهَا

وَذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ كَانَ ٱلْمُجِدُّ بِطَيْـبَةٍ يَرُوحُ وَيَغْدُو فِي مَمَاشِيهَا

خَارَتْ قِوَاهُ ٱلَّتِي مَا فِي ٱلْبَرِيَّةِ مَنْ ... يَحْكِيهِ فِيهَا وَلَا شَخْصٌ يُقَاوِيهَا

فَنَامَ مُعْتَمِداً عَلْيَا مَرَاحِمِ بَا ... رِيهِ ٱلَّتِي لِحُمَاةِ ٱلدِّينِ يُولِيهَا

وَقَدْ تَوَسَّدَ مَا فَوْقَ ٱلتُّرَابِ لِيُعْـطِيَ نَفْسَهُ رَاحَةً كَانَتْ تُجَافِيهَا

فَمَا غَفَا غَفْوَةً إِلَّا وَمَرَّ بِهِ ... مُحَمَّدٌ فِي مَسَاعٍ كَانَ سَاعِيهَا

وَقَدْ رَآهُ وَعَنْهُ ٱلثَّوْبُ مُنْحَسِرٌ ... رُؤْيَا تَأَثَّرَ مِنْهَا قَلْبُ رَائِيهَا

وَفَوْقَ جُثْمَانِهِ ذَرُّ ٱلتُّرَابِ فَلَمْ ... يَحْفَلْ بِهِ وَهُوَ كَارِي ٱلْعَيْنِ غَافِيهَا

فَٱسْتَعْبَرَ ٱلْمُصْطَفَى مِنْ حَالِ صَاحِبِهِ ٱلْـسُّوأَى ٱلَّتِي لَمْ يَكُنْ تَٱللهِ رَاضِيهَا

وَهَالَهُ نَوْمَةٌ قَدْ نَامَهَا وَغَـدَا ... مُلْقًى عَلَى ٱلْأَرْضِ لَا يُؤْذِيهِ جَافِيهَا

وَهُوَ ٱلْمُرَفَّهُ فِي دَارِ ٱلرَّسُولِ وَكَمْ ... بِهِ ٱعْتَنَى جُهْدَهُ مُذْ كَانَ آوِيهَا

وَكَانَ أَحْنَى عَلَى تَرْفِيهِ عِيشَتِهِ ... مِنَ ٱلرَّؤُومِ ٱلَّتِي تَرْعَى ذَرَارِيهَا

---

(١) ان تكنية سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله «بأبي تراب» اختلفت فيها الاقوال باختلاف الرواة وقد اتخذها بعض أعدائه وسيلة للوقيعة فيه فكانوا يكنونه بها وهم يريدون احتقاره كما أنّ بعض الملقين الملفقين الذين أرادوا ممالأة من كان يهمهم الحط من قدره عليه صلوات الله لفقوا فى هذه الكنية حوادث ما هي من الحقيقة فى شيء . والحقيقة أنّ سيدنا أمير المؤمنين كان يحبّ كثيراً هذه الكنية لدلالتها فى ظاهرها على الزهد الذي كان من أظهر صفاته عليه صلوات الله ولانّ ابن عمه وأخاه المصطفى قد كناه بها فى حالة كان يحلو له تذكرها لأنها كانت تذكّره بأيام شبابه التي أنفقها فى نصرة الاسلام والجهاد فى سبيله الى أن أعلى الله كلمته وذاعت فى العالمين عقيدته . كما يسرّ كلّ انسان ناجح فى عمله أن يذكر المتاعب والمصاعب التي مرّت عليه حتى فاز بالنجاح

أما قصة هذه التكنية فهي انّ سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله كان ولا سيما بعد أن وصل المسلمون المهاجرون الى المدينة المنوّرة يواصل لياليه بأنهره فى سبيل خدمة الدين الحنيف الذي تطوّع لخدمته باخلاص المسلم الصادق الايمان فكان ينفذ أوامر المصطفى ساعياً مجداً هما

فَأَيْنَ مَنْ يَصِفُ ٱلْهَادِي وَكُرْبَتَهُ ... لِحَالِ مَنْ حَبَّ فِي أَسْوَا مَرَائِيهَا

فَقَدْ رَأَيْنَا رَسُولَ ٱللهِ يَنْظُرُهُ ... وَنَظْرَةُ ٱلْحُبِّ لَا تَخْفَى مَعَانِيهَا

ثُمَّ ثَوَى قُرْبَهُ فِي خَيْرِ عَاطِفَةٍ ... رَاحَ ٱلْمُحِبُّ إِلَى ٱلْمَحْبُوبِ يُسْدِيهَا

وَٱضَ يَمْسَحُ ظَهْرَ ٱلْبَرِّ حَيْدَرَةٍ ... مِنَ ٱلتُّرَابِ وَآيُ ٱلْعَطْفِ يُبْدِيهَا

وَصَاحَ فِيهِ ٱنْتَبِهْ يَاصَاحِ أَنْتَ «أَبُو ... تُرَابٍ» ٱنْهَضْ فَحَسْبُ ٱلنَّفْسِ تُشْقِيهَا

صَحَا ٱلْعَلِيُّ وَخَيْرُ ٱلْأَنْبِيَاءِ عَلَى ... حَالٍ مِنَ ٱلْوِدِّ مَا أَحْلَى تَجَلِّيهَا

فَٱزْدَادَ فِيهِ هَوًى وَٱلْحَمْدُ فِي فَمِهِ ... حَمْدُ ٱلرِّيَاضِ لِمَاءِ ٱلْمُزْنِ يَرْوِيهَا

وَسُرَّ مِنْ كُنْيَةٍ طَابَتْ لِمَسْمَعِهِ ... وَكَانَ يَصْبُو إِلَى زَاهِي تَكَنِّيهَا

وَكَانَ آخِذُهَا ذِكْرَى مُخَلَّدَةً ... لِعَطْفَةِ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْهَادِي مُكَنِّيهَا

وَٱللهُ كَابِتُ أَغْرَاراً لَقَدْ هَزَأَتْ ... بِهَا وَأَرْذَلُ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ هَازِيهَا

وَيْلُ ٱمِّهَا حَرَّفَتْ فِي غَيِّهَا ٱلْكَلِمَ ٱلْـ ... ـغَرَّاءَ أَوْ جَهِلَتْ سَامِيَ مَرَامِيهَا

وَقَدْ أَسَاءَتْ إِلَى ٱلْهَادِي بِذَاكَ وَلَمْ ... تَفْطَنْ وَلَمْ تَكُ ذِي أَوْلَى مَسَاوِيهَا

زفاف سيدتنا فاطمة الى سيدنا أمير المؤمنين

شَبَّتْ بِحِجْرِ رَسُولِ ٱللهِ فَاطِمَةٌ ... كَمَا تُحِبُّ ٱلْمَعَالِي أَنْ تُلَاقِيهَا(١)

وَفِي حِمَى رَبَّةِ ٱلْعَلْيَا خَدِيجَةَ قَدْ ... نَشَتْ كَمَا ٱلطُّهْرُ وَٱلْآدَابُ تَشْهِيهَا

وهناك . وفى ذات يوم فى العام الأول من الهجرة بينما كان مجداً فى قضاء بعض مهام الرسالة خارت قواه بعد الجهد الكثير الذي كان ناله فتمدد على الارض ونام قرير العين . شأن العامل التعب الذي لا يهمه الا نجاح عمله حتى ولو بافناء قواه . وحدث أنّ المصطفى عليه الصلاة والسلام مرّ به وهو على تلك الحالة فهاله الامر واستعبر ولا سيما بعد أن رأى أنّ رداء المرتضى قد سقط عنه وأصاب التراب جسده الشريف فجلس عند رأسه وجعل يمسح عنه التراب وهو يقول « اجلس انما أنت أبو تراب » فصحا المرتضى على صوت المصطفى عليه الصلاة والسلام ونهض معه وسارا سوية . وكان المصطفى كثيراً ما ينادي علياً بكنية « أبي تراب » تحبباً وتلطفاً كما انّ هذه الحادثة ذاعت بين الصحابة والانصار فصاروا يكنونه « بأبي تراب » وقد كانت هذه الكنية من أحب الكنى اليه .

(١) رزق الله المصطفى البنين والبنات من سيدتنا خديجة ولكن ماسلمت غير بناته وذلك تقدير العزيز الحكيم الذي هيأ للاسلام أن تكون بركة السلالة النبوية الطاهرة من أخيه وربيبه وصنوه سيدنا علي بن أبي طالب من زواجه بسيدتنا فاطمة الزهراء على المصطفى وعليهما وعلى آل البيت الطاهرين صلاة الله وسلامه الى يوم الدين

وَنفسُهَا آنبَثَقَتْ مِنْ نَفْسِ وَالِدِهَا وَأُمِّهَا فَهْيَ تَحْكِيهِ وَتَحْكِيهَا
تَفَرَّدَتْ بِالذَّكَا وَالْعِلْمِ وَاتَّخَذَتْ مِنَ الْخَلَائِقِ وَالْآدَابِ سَامِيَهَا
وَاللهُ كَمَّلَ تَكْمِيلاً مَحَاسِنَهَا الـــزَّهْرَا فَسَافِرُهَا زَاهٍ وَخَافِيهَا
وَإِنَّهَا فِرْدَةٌ بَيْنَ النِّسَاءِ فَلَا بِنْتٌ لِحَوَّاءَ تَدْنُو مِنْ مَعَالِيهَا
وَمَا الْقَرَائِحُ تَقْوَى أَنْ تُصَوِّرَ مَا فَوْقَ الطُّرُوسِ وَإِنْ تَزْكُ مَعَازِيهَا
وَحَسْبُنَا أَنَّ طَـهَ كَانَ مُعْطِيَهَا عِنَايَةً لَمْ يَكُنْ لِلْغَيْرِ يُعْطِيهَا
وَكَانَ مُنْزِلَهَا تَاللهِ مَنْزِلَةً عَلْيَاءَ مِنْ نَفْسِهِ بِالْيُمْنِ تَأْوِيهَا
وَكَانَ يَنْظُرُهَا فِي بَيْتِهِ مَلَكاً بَادِيَ السَّنَا مَا انْشَنَتْ تُبْدِي تَشَنِّيهَا
كَانَتْ تَعِزُّ عَلَيْهِ عِزَّةً حُرِمَتْ لَهَا شَقِيقَاتُهَا مِثْلاً وَتَشْبِيهَا
وَكَانَ يَذْكُرُ فِيهَا أُمَّهَا وَبِهَا يَلْقَى خَدِيجَةَ فِي أَسْمَى مَبَادِيهَا
وَكَانَ صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ يُبْهِجُهُ مِنْ دَهْرِهِ سَاعَةً فِيهَا يُفَاهِيهَا
وَقَدْ أَزَاحَ إِلَهُ الْعَرْشِ غُمَّتَهُ بِهَا وَسَرَّى تَبَارِيحاً يُعَانِيهَا
وَنَفْسُهُ وَجَدَتْ فِي بِرِّ فَاطِمَةٍ لَدَى الْخُطُوبِ الَّتِي تَدْهَى تَعَازِيهَا
كَانَتْ تُوَاسِيهِ فِي رَاضِي تَبَسُّمِهَا وَكَانَ فِي عَطْفِهِ الْأَسْمَى يُوَاسِيهَا
مَا قَالَ فَاطِمَةٌ إِلَّا وَأَفْرَحَهُ ذِكْرُ اسْمِهَا فَهُوَ لَا يَنْفَكُّ يُسْمِيهَا

أما بنات المصطفى عليه الصلاة والسلام فأربع وهنَّ أم كلثوم ورقية وزينب وفاطمة واختلف الرواة كما سبقت الاشارة في ترتيبهنَّ حسب اعمارهنَّ اختلافاً لا موضع له هنا . وقد تزوجت أم كلثوم ورقية من ولدي عمهما أبي لهب قبل البعثة وهما عتبة وعتيبة ثم طلقاهما بعد البعثة لغلوّهما مع أبيهما بالشرك وأبوهما أبو لهب معروف بأنه كان أعدى أعداء النبوة كما هو مشهور . ثمَّ تزوجتا من عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى . أما زينب فتزوجت من أبي العاص بن الربيع

أما سيدتنا فاطمة الزهراء فمع أنَّ بعض الرواة جعلها أكبر من رقية وبعضهم جعلها أكبر من زينب فاننا ليس فقط نرجح بل نؤكد أنها كانت أصغرهنَّ جميعاً لأنها لم تتزوج الا بعد الهجرة خلافاً لشقيقاتها اللواتي تزوجن في مكة قبل البعثة والعرب من عادتهم تزويج بناتهم وهنَّ صغيرات

والذي يرجع الى تاريخ المصطفى عليه الصلاة والسلام يجد الرواة مجمعين على أنَّ سيدتنا فاطمة الزهراء كانت ذات منزلة رفيعة عند أبيها المصطفى لم تكن لشقيقاتها ولا لمخلوق آخر مثلها الا منزلة سيدنا علي بن أبي طالب الذي كان أعزَّ كل عزيز عند النبيّ العربي ولا بدَّ للباحث المدقق من ان يعمل الفكرة في السبب الذي دفع المصطفى عليه الصلاة والسلام الى تخصيص سيدتنا فاطمة

وَقَدْ أَدَلَّتْ عَلَيْهِ وَهُوَ وَالِدُهَا ... وَقَدْ تَجَنَّتْ وَمَا أَشْهَى تَجَنِّيهَا
وَكَانَ يَسْعَى إِلَى تَفْرِيحِهَا أَبَداً ... حَتَّى تَبِيتَ عَلَى هَانِي تَلَهِّيهَا
وَيَسْأَلُ اللهَ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ ... أَنْ يَصْطَفِيهَا مِنَ الأَيَّامِ صَافِيهَا
فَمَا دَعَتْهُ لِحَاجٍ وَهْيَ تَطْلُبُهَا ... إِلاَّ وَكَانَ لِمَا تَرْجُوهُ مُلَبِّيهَا
وَمَا دَعَاهَا لِغَيْرِ الإِبْتِهَاجِ بِهَا ... إِذَا تَجَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ مَخَابِيهَا
يَقُومُ إِنْ أَقْبَلَتْ كَيْمَا يُشِيرُ إِلَى ... عَالِي مَكَانَتِهَا فِي الْقَوْمِ تَنْوِيهَا
حَسْبُ النِّسَاءِ فَخَاراً أَنَّ فَاطِمَةً ... مِنَ النِّسَا وَلَهَا أَنْ تَكْثُرَ التِّيهَا
نَعَمْ فَقَدْ شَرَّفَ اللهُ النِّسَاءَ بِهَا ... وَإِنْ تَكُنَّ جَمِيعاً مِنْ حَوَاشِيهَا
وَعَمْرُكَ اللهَ مَنْ كَانَتْ كَفَاطِمَةٍ ... وَقَدْ تَنَاهَى كَمَا قُلْنَا تَعَالِيهَا
وَمَنْ أَبُوهَا خِيَارُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهَا ... وَأُمُّهَا خَيْرُ أُمٍّ فِي أَنَاسِيهَا
وَمَنْ قُرَيْشٌ وَهُمْ أَسْمَى الأَعَارِبِ أَهْلُوهَا ... وَمَجْدُهُمُ جَازَ الأَثَاوِيَّا
وَمَنْ غَدَتْ خَيْرَ أُنْثَى فِي شَمَائِلِهَا الْحَسْنَاءِ الَّتِي تُبْهِرُ الدُّنْيَا زَوَاهِيهَا

الزهراء بذلك الحب الممتاز المشفوع بالاحترام والاكرام

ان الأب وكلنا آباء ينظر الى أولاده كلهم بادىء بدء بعين واحدة لأنهم جميعاً أولاده وفلذة كبده ويساوي بينهم بعنايته بلا تفريق ولا تمييز وهذا أمر طبيعي عام تساوى فيه جميع الناس ثمَّ لا بدَّ للآباء بعد أن يترعرع بنوهم ويشبون أن يشعروا من نفوسهم بتفاوت العطف في قلوبهم نحو أولادهم على تفاوت ما يظهر من اخلاقهم فتراهم مع حبهم لجميع أولادهم يفضلون الواحد على الآخر اما لذكائه أو لأدبه أو لكرم أخلاقه أو لما يظهر من العطف على أبيه والبرّ به وفوق ذلك فقد جعل الله في أنفس الآباء عطفاً خاصاً على صغير الأولاد وعليلهم وفقيرهم من قبيل الحنو الابوي الطبيعي لان الصغير والعليل والفقير هم دائماً أبداً موضع الحنو والعطف

والذي نستفيده من مراجعة أقوال الرواة أنَّ المصطفى عليه الصلاة والسلام ما خصَّ سيدتنا فاطمة الزهراء بحبه الخاص الممتاز الا لأنها كانت صغيرة أخواتها وكانت ممتازة بالذكاء ومكارم الأخلاق ومحاسن الطباع لان مثل المصطفى وهو من العدل والفضل على أسمى مرتبة يبعد أن يميل قلبه الاقدس الى سيدتنا فاطمة ذلك الميل العظيم من غير أن تكون جديرة به وأهلاً له واذا تقرَّر لدينا أنها خليقة بذلك الميل النبوي العظيم كان لنا أن نجزم بأنها ما استحقت هذا الميل العظيم الا لانها أفضل بنات حواء في مكارم الاخلاق .

وقد أجمع المؤرخون على أن المصطفى عليه الصلاة والسلام كان لا يتنفَّث له كرب ولا يطيب له عيش الا اذا رأى سيدتنا فاطمة الزهراء وكان لا يصبر على فراقها طويلاً فيزورها كل يوم وقد يزورها

وَمَنْ تُشِعُّ شُعَاعَ ٱلشَّمْسِ جَبْهَتُهَا ... وَلَا تُلَالِيْ إِذَا لَاحَتْ تَلَالِيْهَا
وَمَنْ تُقِيمُ ٱلْمَعَالِيْ وَٱلْمَفَاخِرُ حَوْ ... لَهَا إِذَا جَلَسَتْ فِيْ صَدْرِ نَادِيْهَا
هِيَ ٱلْجَدِيرَةُ بِٱلْكُفْءِ ٱلْكَرِيْمِ لَهَا ... مَنْ بِٱلْمَفَاخِرِ وَٱلْعَلْيَا يُحَاكِيْهَا
وَٱلْعُرْبُ تَطْلُبُ أَكْفَاءً تُزَوِّجُهُمْ ... بَنَاتِهَا سُنَّةٌ تَأْبَى تَعَدِّيْهَا
وَكُلُّ عَقْدٍ بِغَيْرِ ٱلْكُفْءِ تَحْسَبُهُ ... عَاراً عَلَيْهَا لَدَى ٱلْأَقْرَانِ يُخْزِيْهَا
فَمَنْ يَلِيقُ بِبِنْتِ ٱلْمُصْطَفَى حَسَباً ... وَمَنْ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلْعَرْبَاءِ كَافِيْهَا
وَمَنْ يُنَاسِبُ طَهَ كَيْ يُصَاهِرَهُ ... وَهِيَ ٱلْمُصَاهَرَةُ ٱلْمَسْعُوْدُ مُلْفِيْهَا
غَيْرُ ٱلْعَلِيِّ رَبِيبِ ٱلْمُصْطَفَى وَلَهُ ... سَبْقُ ٱلْهِدَايَةِ مُذْ نَادَى مُنَادِيْهَا
فَإِنَّهُ بَعْدَ طَهَ خَيْرُ مَنْ وَلَدَتْ ... قُرَيْشُ مُنْذُ بَرَا ٱلْبَارِيْ ذَرَارِيْهَا
وَإِنَّهُ بَطَلُ ٱلْإِسْلَامِ تَعْرِفُهُ ... تِلْكَ ٱلْحُرُوْبُ ٱلَّتِيْ أَمْسَى مُجَلِّيْهَا
وَأَعْلَمُ ٱلنَّاسِ بِٱلشَّرْعِ ٱلْمُشَرَّفِ بَعْـ ... ـدَ ٱلْمُصْطَفَى وَأَجَلُّ ٱلنَّاسِ تَفْقِيْهَا
وَأَطْهَرُ ٱلنَّاسِ نِيَّاتٍ وَأَطْيَبُهَا ... قَلْباً إِذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ نُجَارِيْهَا
وَأَبْلَغُ ٱلنَّاسِ أَقْوَالاً وَأَفْصَحُهَا ... خِطَابَةً وَهْوَ يُنْشِيْهَا وَيُلْقِيْهَا

في اليوم الواحد غير مرة وقد حمل بنتها بجانب بيته الشريف وجعل بينهما شباكا ليطل عليهما منه كلما اشتاق لرؤياها . كما أجمعوا أيضاً على أنها كانت أدل الناس عليه وطالما وسطها أزواجه لديه عليه الصلاة والسلام يشؤونهن كما ان أصحابه كانوا يوسطونها لديه بحوائجهم

وكان المصطفى عليه الصلاة والسلام يبالغ باكرام سيدتنا فاطمة الزهراء حتى أنه على ما أجمع الرواة كان يقوم لها اذا دخلت عليه اعلاناً لقوم بعظم منزلتها عنده . كما أنه كان يستشيرها في أموره وطالما سمعه الناس يقول ان رضاءه الشريف من رضائها وغضبه من غضبها أو ما هو في هذا المعنى

واذا أردنا الاسهاب فيما قيل عن سيدتنا فاطمة الزهراء لضاق بنا مجال الكلام فقد أجمع الرواة على أنها قد كانت على أبدع مثال من الجمال وأزانت جمالها بمكارم الاخلاق وطيب الخلال كما كانت من الذكاء وسداد رأي والطهارة وانتهى في مرتبة الكمال

وبلغت سيدتنا فاطمة الزهراء الخامسة عشرة من ربيع عمرها في العام الاول للهجرة وطفق المهاجرون يتحدثون بجمالها وكمالها ويغبطون الذي سيحوز على شرف القران بها وأول من تقدم لخطبتها هو أبو بكر لقربه المعروف من المصطفى فجاءه خاطباً فردَّه عليه الصلاة والسلام رداً جميلاً بقوله اني منتظرٌ في تزويجها أمر ربي . ومن هذا الجواب النبوي ازداد اعجاب الناس بسيدة العالمين هذه التي لا يكون زواجها الا بوحيٍ من السماء . ثمَّ تقدَّم لخطبتها عمر بن الخطاب على ما هو معروف من جرأته وادلاله على المصطفى فردَّه عليه الصلاة والسلام كما ردَّ أبا بكر وحينئذ

وَأَزْهَدُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا وَأَبْعَدُ ٱلنَّاسِ عَنْ مُغْرِي مَلَاهِيهَا

وَأَرْحَبُ ٱلنَّاسِ صَدْراً بِالعُفَاةِ إِذَا وَافَتْهُ مَا فِي يَدَيْهِ كَانَ يُولِيهَا

هٰذَا ٱلعَمِيدُ ٱلْمُفَدَّى كُفْءُ فَاطِمَةٍ وَخَيْرُ نِدٍّ لَهَا مِنْ دُونِ أَهْلِيهَا

لِذٰلِكَ ٱخْتَارَهُ رَبُّ ٱلسَّمَاءِ لَهَا بَعْلاً وَأَمْسَتْ بِهِ ٱلدُّنْيَا تُهَنِّيهَا

وَقَبْلَهُ عُمَرٌ وَافَى بِإِثْرِ أَبِي بَكْرٍ وَكُلُّهُمَا قَدْ كَانَ يَبْغِيهَا

جَاءَا لِخِطْبَتِهَا طٰـهٰ فَقَالَ أَنَا مُسْتَنْظِرٌ لِٱبْنَتِي حُكْمَ ٱلقَضَا فِيهَا

كَذَاكَ رَدَّهُمَا ٱلرَّدَّ ٱلْجَمِيلَ لِأَ مِ نَّ ٱللّٰهَ لِلْمُرْتَضَى ٱلعَالِي مُهَيِّيهَا

حَتَّى إِذَا أَذِنَ ٱلبَارِي بِخِطْبَتِهَا إِلَى عَلِيٍّ سَعَى طٰـهٰ يُرَاضِيهَا

فَجَاءَهَا قَائِلاً : إِنَّ ٱلعَلِيَّ فَتَى قُرَيْشَ يَبْغِي فَتَاتِي جَاءَ رَاجِيهَا

قَالَتْ : أَتُزْوِجُنِي مِنْ مُتْرِبٍ أَبَتَا هُ وَٱلْمَدَامِعُ تَهْمِي مِنْ مَآقِيهَا

فَقَالَ : وَٱللّٰهِ لَمْ آذَنْ بِزِيجَتِكِ ٱلـــزَّهْرَاءَ إِلَّا لِأَنَّ ٱللّٰهَ رَاضِيهَا

وَمَا تَكَلَّمْتُ فِيهَا قَبْلَ أَمْرِ إِلٰـــهِي فَهْوَ لِي مِنْ سَمَاهُ كَانَ مُوحِيهَا

طفق الناس يتساءلون عن الرجل الكفء الذي سيفوز بهذه الدرَّة الغالية بأمر الله سبحانه ولم يفت أذكياءهم ان ما من كفء لفاطمة بين المهاجرين والانصار الا سيدنا علي بن أبي طالب الذي كان موضوع اعجاب المصطفى والمسلمين. وحسبنا للدلالة على ماكان لهذين النيرين « علي وفاطمة » من المكانة العليا عند المصطفى شهادة عائشة وهي معهما على ما تعلم منها كانت تقول: انها لم تر أحبّ الى رسول الله من علي وفاطمة وما نطقت الا الحق في شهادتها هذه

وفي السنة الثانية للهجرة أوحى الله لسيدنا محمد أن يزوّج ابنته الزهراء لاخيه وصنوه ووصيه سيدنا علي بن أبي طالب فصدع بامر ربه وأوعز الى أبي بكر وعمر أن يشيرا اليه بأن يتقدم لخطبتها فأجابهما لقد نبهتماني لامر كنت غافلاً عنه وسار من ساعته الى رسول الله صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلم وقال له : اتزوجني فاطمة ؟ ؟ فتبسم رسول الله تبسم الراضي وقال : وهل عندك شيء ؟ ؟ قال علي : ليس عندي غير فرسي ودرعي فاجابه المصطفى : أما فرسك فلا بدَّ لك منها وأما درعك فبعها فخرج علي وباع درعه بأربعمائة درهماً وجاء بها الى رسول الله مهراً لفاطمة

وسار المصطفى عليه الصلاة والسلام الى فاطمة الزهراء وقال لها : أيّ بنية ان ابن عمك علياً قد خطبك فماذا تقولين ؟ فبكت ثم قالت : كأنك ادخرتني يا أبت لفقير قريش فقال صلى الله عليه وسلم : والذي بعثني بالحقّ ما تكلمت في هذا حتى أذن الله لي من السماء. فقالت فاطمة حينئذ: رضيت بما رضي الله ورسوله

والذي ينظر الى هذا الزواج الذي تمّ بوحي الهيّ لا يسعه الا أن يقول كما نقول نحن ان العناية الالهية هي التي شادت دعائم هذا البيت النبوي فجملت أساسه المصطفى وعضادتيه المرتضى

قَالَتْ : إِذَنْ بُغْيَةُ ٱلْخَلَّاقِ نَافِذَةٌ ... وَقَدْ رَضِيتُ بِهَا إِنِّي أُجَرِّبُهَا
وَكَانَ أَوْعَزَ طَـهَ لِلْعَلِيِّ بِأَنْ ... يَأْتِيهِ لِلْخِطْبَةِ ٱلْمَغْبُوطُ خَاطِبُهَا
فَقَـدْ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ يُبَشِّرُهُ ... بِنِعْمَةٍ لَيْسَ إِلَّاهُ مُلَاقِيهَا
وَكَانَ مَعَهُ أَبُو حَفْصٍ يُرَافِقُهُ ... بِذِي ٱلْمُهِمَّةِ حَسْبَ ٱلْأَمْرِ يَقْضِيهَا
قَالَا : ٱلْتَمِسْ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ فَاطِمَةً ... فَمَا لِغَيْرِكَ يَا ٱبْنَ ٱلْوُدِّ مُعْطِيهَا
فَقَالَ : ذَكَّرْتُمَانِي لَا عَدِمْتُكُمَا ... بُنَيَّةً طَالَمَا قَدْ كُنْتُ نَاوِيهَا
وَسَارَ يَخْطُبُ بِنْتَ ٱلْمُصْطَفَى عَجِلًا ... فَلَمْ يَخِبْ بِرِغَابٍ كَانَ مُبْدِيهَا
كَذَا أَبُو قَاسِمٍ بِٱلْيُمْنِ زَوَّجَهَا ... مِنْـهُ وَأُمَّتُهُ تُهْـدِي تَهَانِيهَا
زُفَّتْ إِلَيْهِ بِإِجْلَالٍ وَأَحْمَدُ يَدْ ... عُو أَنْ يَزِيدَهُمَا ٱلرَّحْمٰنُ تَرْفِيهَا
جَرَى يُرَفِّيهِ فِي هٰذَا ٱلْقِرَانِ كَمَا ... مَضَى إِلَى بِنْتِهِ ٱلزَّهْرَا يُرَفِّيهَا
وَقَالَ : بَارَكَ إِلٰهُ ٱلْعَرْشِ عِقْدَهُمَا ... أَكْثِرْ ذَرَارِيهِمَا ٱلْمَحْمُودُ نَاشِيهَا
زِفَافُ سَعْدٍ بِهِ ٱلْأَمْلَاكُ قَدْ شَرِكَتْ ... أَهْلَ ٱلدُّنَا بِٱلتَّهَانِي مِنْ أَعَالِيهَا
أَيُّ ٱلْبَشَائِرِ أَسْمَى مِنْ بِشَارَةِ ذَيَّـاكَ ٱلْقِرَانِ وَهَلْ بُشْرَى تُسَامِيهَا
بَدْرُ ٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلسَّمْحَاءِ قَارَنَ شَمْسًا قَدْ أَضَاءَتْ سَنًى مِنْ صُلْبِ وَالِيهَا

وفاطمة الزهراء وهم مصدر البركة التي تدفقت على المسلمين بابنائهم الطاهرين الطيبين

ولما عزم المصطفى أن يعقد لعلي على فاطمة الزهراء جمع المهاجرين والانصار وخطب فيهم فقال : « الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، الذي خلق الخلق بقوّته ، وميزهم بحكمته ، ثمّ ان الله عزّ وجلّ جعل المصاهرة نسباً وصهراً ، وكان ربك قديراً ، ثمّ ان الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي على أربعمائة درهم فضة » وبعد هـذه الخطبة الطيبة التفت المصطفى الى المرتضى عليهما الصلاة والسلام وقال : « أرضيت يا علي ؟ » فقال علي : « الحمدلله ، وشكراً لانعمه وأياديه ، وأشهد أن لا اله الا الله ، شهادة تبلغه وترضيه ، وهذا محمد رسول الله ، زوجني ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا ما يقول واشهدوا » فقال الحاضرون : ما تقول يارسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أشهدكم اني قد زوّجته » فتقدّم حينئذ الناس من المصطفى والمرتضى يهنئون مباركين يدعون للعروسين بالرفاه والرفاء والبنين . ولا بدّ أنّ ملائكة السماء قد تهللت بهذا العقد المبارك الذي قضى به ربّ العالمين

ولما تمّ العقد على النكل الشرعي الآنف الذكر دعا رسول الله بطبق بسر « تمر » فوضع بين يديه فقال : « فانتهبوا » وتناول الحاضرون ما طاب لهم . ثمّ أولم علي عليه صلوات الله على

وَمِنْهُمَا ٱنْتَظِرَ ٱلنَّسْلُ ٱلْمُبَارَكُ تَمْـــلَأُ ٱلْأَرْضَ خَيْرَاتُهُ ٱلْكُبْرَى فَتُحْيِيهَا

فَٱللهُ كَثَّرَهُمْ وَٱللهُ طَهَّرَهُمْ ... وَٱللهُ أَوْلَاهُمْ عِزّاً وَتَوْجِيهَا

وَٱللهُ أَوْجَبَ وَافِي ٱلِاحْتِرَامِ لَهُمْ ... وَحُبَّهُمْ إِنَّ ذَا ذِكْرَى لِنَاسِيهَا

فَمَنْ يُنَاوِيهِمِ نَاوَى ٱلرِّسَالَةَ فِي ... شَخْصِ ٱلرَّسُولِ فَكَفِّرْ مَنْ يُنَاوِيهَا

وَإِنَّ عَائِشَةَ مِنْ نَفْسِهَا شَهِدَتْ ... شَهَادَةً لَمْ تَذَرْ شَكّاً لِرَاوِيهَا

قَالَتْ: عَلِيٌّ وَذَاتُ ٱلطُّهْرِ زَوْجَتُهُ ... كَانَا أَحَبَّ ٱلْوَرَى طُرّاً لِهَادِيهَا

أمير المؤمنين والغزوات النبوية

مَا جَاءَ أُمَّتَهُ يَوْماً أَخُو ثِقَةٍ ... بَرٌّ كَمَا جَاءَهَا طَـهَ يُنَادِيهَا(١)

فَقَدْ دَعَاهَا إِلَى ٱلدُّنْيَا تَصُولُ عَلَى ... جُهَّالِهَا بَيْنَ شَرْقِيهَا وَغَرْبِيهَا

فاطمة بكبش أهدي له من سعد وآصع ذرة أهدي له من جماعة الانصار فكانت وليمة طيبة لعقد طاهر

وفي الليلة التي بنى بها علي بفاطمة جاءت أم أيمن حاضنة المصطفى بها حتى قعدت في جانب البيت وقعد علي في الجانب الآخر وجاء رسول الله ووجهه يطفح سروراً وبشراً بزواج أحب الناس اليه وقال لفاطمة : ائتيني بماء فقامت فتعثرت باذيالها خجلاً وحياء وأتته بعقب فيه ماء فأخذه رسول الله ومج فيه وقال لها : تقدمي فتقدمت منه فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال : « اللهم اني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . ثم قال ائتوني بماء فعلم علي بأنه المقصود فخف الى عقب ماء فأتاه به فصنع مع علي كما صنع مع فاطمة ودعا له بما دعا لها ثم قال : « اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما في شملهما » وتلا آية « قل هو الله أحد والمعوذتين » ثم قال لعلي : « ادخل باهلك باسم الله والبركة »

وقد كان هذا الزواج المبارك في السنة الثانية للهجرة وأمير المؤمنين في الحادية والعشرين من ربيع عمره وسيدتنا فاطمة الزهراء في السادسة عشرة من ربيع عمرها على المصطفى وعليهما صلوات الله

(١) ليس من فضول القول أن نتصدى هنا الى كلمة في الغزوات النبوية التي جمعت كلمة العرب على الاسلام ومهدت لهذه الأمة سبل المجد فسلكتها وأسست مملكة لم يحلم بمثلها أكاسرة فارس وقياصرة الروم وظهر فيها النبوغ والذكاء العربيين بأجل مظاهرهما

ان المصطفى صلى الله عليه وسلم نادى يبعثته قومه مسالماً وما خطر له قط أن يستعمل الاكراه في دينه بل انه ظل لآخر عهده بهذا الوجود وهو ينادي « لا اكراه في الدين » و « لكم دينكم ولي دين » ولو لم يتصد كفار قريش ومشركوها للمصطفى ومن تبعه في دينه بالأذى والاضطهاد لظل رسول الله يدعو الى دينه بالتي هي أحسن والنتيجة بغير جدال واحدة وهي سيادة هذا الدين القيم على البلاد العربية ولكن كان لا بد من بطء انتشار الاسلام في ظلال السلام خلافاً للقتال الذي أعجل بنشره فكان الدين السائد على جزيرة العرب في سنوات معدودات وهو القتال

وَقَدْ دَعَاهَا إِلَى ٱلْأُخْرَى تَنَالُ بِهَا سَعَادَةَ ٱلْخُلْدِ فِي فِرْدَوْسِ بَارِيهَا
وَقَدْ دَعَاهَا إِلَى أَرْقَى ٱلْخَلَائِقِ وَٱلْآ مْ دَابِ دَعْوَةَ مَنْ يَبْغِي تَرَقِّيهَا
فَمَا رَأَى غَيْرَ جُهَّالٍ لَهُ طَلَبُوا ٱلْأَ ذَى وَلَمْ يَكُ أَيْمُ ٱللهِ مُؤْذِيهَا
وَلَمْ يَنَلْهُ سِوَى حَظِّ ٱلنَّصِيحِ إِهَا نَاتٍ مُنَوَّعَةٍ رَابَ تَتَالِيهَا
ثُمَّ تَمَادَتْ قُرَيْشٌ بِٱلْعَدَاوَةِ رَا مَتْ أَنْ تُمِيتَ ٱلَّذِي قَدْ رَامَ يُحْيِيهَا
وَمَا ٱكْتَفَتْ بَلْ تَعَدَّتْهُ لِمَنْ تَبِعَتْـــهُ بِٱلْأَذَى أَخْرَجَتْهَا مِنْ مَآوِيهَا
وَبَعْدَ هِجْرَةِ طَـهَ مَعْ صَحَابَتِهِ لَمْ يَنْجُ مِنْهَا وَلَمْ تَقْصُرْ تَعَدِّيهَا
تَتَبَّعَتْهُ وَهَمَّتْ أَنْ تُحَارِبَهُ فِي دَارِ هِجْرَتِهِ أَوْ فِي ضَوَاحِيهَا

الذي اختاره المشركون حكماً بينهم وبين المؤمنين وهكذا يكون اصطفى قد نزل على حكمهم تاركاً للسيف الفصل بين الحقّ والباطل وعنده النبأ اليقين

قلنا ان النتيجة في هذا النزاع الذي شجر في جزيرة العرب بين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وأعدائه المشركين واحدة وهي سيادة الدين الحنيف . وذلك لان الاسلام هو أبسط الاديان في حقيقته لا يكلف الانسان أن يعتقد بما لا يدركه بحسه ولا يقبله عقله فيلجأ الى تسلم بغير فلسفة ولا اعتراض وذلك لان كل ما يطلبه من تابعيه أن يشهدوا أن « لا اله الا الله » وكلمة التوحيد هذه هي أساس الاسلام وحقيقته الناصعة . واذا أراد أن يتوسع الانسان في تفهم الحضرة الالهية التي أوجب الاسلام لها الوحدة المطلقة علمه القرآن أنّ الله هو واحد أحد لا والد له ولا ولد ولا أول ولا آخر وهو مبدع الخلائق وهو المجزي على الخير خيراً والمجزي على الشرّ شراً وهو وحده الواجب الوجود الذي يعبد دون سواه . وتسليم الناس بهذه الصفات التي تدور حول الوحدة الالهية ليس من الصعوبة في شيء لأنهم أجمعوا أو كادوا يجمعون على أن هذا العالم له صانع أو خالق وأن هذه النفس لهي خالدة بعد مفارقتها الجسد بالموت وانها لتجزى على أعمالها ان صلحت بالجنان وان ساءت بسعير جهنم . نعم ان الناس كادوا يكونون مسلّمين بهذه الحقيقة ولكنهم اختلفوا في معرفة الله فأشرك بعضهم معه بعض مخلوقاته وبعضهم جزّأ خصائصه الالهية فجعلوها مجموع آلهة وبعضهم قال غير ذلك وكله هذيان لا يقبله العقل الا بالتسليم المطلق بغير بحث ولا جدال

ولم يعدم الناس أنبياء قالوا بالتوحيد ونادوا به منهم ابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام . على أنّ ملة سيدنا ابراهيم تجزأت بين العرب واليهود باسماعيل واسحق ورسالة موسى كانت لقومه دون سواهم ولذلك جمع سيدنا موسى بين الدين والجنسية فلم يكن للغريب نصيب من التوحيد الذي جاء به . أما النصرانية فهي على التوحيد أيضاً وما من نصراني لا يقول « لا اله الا الله » ولكن يريد النصارى أن يقولوا أنّ الاله الواحد له ثلاثة أقانيم هم الاب والابن والروح القدس وانّ هؤلاء الثلاثة هم الاله الواحد الواجب الوجود وان الاقنوم الثاني هو الذي تجسد وصار انساناً فهو نفس سيدنا عيسى عليه السلام الى آخر ما قالوا مما لا يقبله العقل البشري الا بمطلق التسليم وهذا خلا منه الاسلام فلم يجعل في اعتقاد التوحيد تعقيداً بل أطلقه على بساطته فقال « هو

وَعَمَّتْ فِي جَمِيعِ ٱلْعُرْبِ دَعْوَتَهَا ... لِقَهْرِهِ بَيْنَ قَارِيهَا وَبَادِيهَا
وَكَانَ رَأْسُ ٱلْعِدَاةِ ٱلْمُشْرِكِينَ أَبُو ... سفْيَانَ يَقْدَحُ نَارَ ٱلشَّرِّ يُلَظِّيهَا
لِذَاكَ قَدْ نَزَلَتْ آيُ ٱلْجِهَادِ عَلَى ... مُحَمَّدٍ وَهُوَ مَنْصُورٌ آلَوْا فِيهَا
وَٱللهُ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلْكُفْرَ مُحْتَكِمٌ ... فِي أَنْفُسِ ٱلْعُرْبِ وَٱلْإِشْرَاكُ مُغْوِيهَا
وَلَيْسَ مِنْ حَكَمٍ إِلَّا ٱلسُّيُوفُ بِمَا ... يَجْلُو ٱلْحَقِيقَةَ مِنْ بُطْلٍ يُغَطِّيهَا
وَمَا عَمُوا بَصَرًا لٰكِنْ بَصَائِرُهُمْ ... عَنِ ٱلْهِدَايَةِ كَانَ ٱلْغَيُّ يُعْمِيهَا
صَمُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ إِذْ نُودُوا لَهُ وَأَبَوْا ... إِلَّا ٱلْأَبَاطِيلَ تَغْشَاهُمْ دَيَاجِيهَا
وَمَا رَضُوا خَالِقًا حَقٌّ عِبَادَتُهُ ... مِنْ بَعْدِ أَنْ أَلَّهُوا ٱلْأَحْجَارَ تَأْلِيهَا
وَآذَنُوا ٱلْمُصْطَفَى حَرْبًا لَقَدْ حَسِبُوا ... أَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ تُصْلَى فِي لَوَاظِيهَا
لَعَلَّهُمْ جَهِلُوا أَنَّ ٱلْإِلٰهَ بِيُمْنَاهُ ٱلْقَوِيَّةِ مُخْزِيهِمْ وَحَامِيهَا
فَآذَنَ ٱلْمُصْطَفَى بِٱلْحَرْبِ مَنْ نَبَتُوا ... عَلَى ٱلضَّلَالَةِ تَدْهَاهُمْ مَسَاوِيهَا

الله الأحد » . وجاء به القرآن موحى به على محمد بن عبد الله وبين يديه التوراة والانجيل مصدّقاً بهما ومنادياً بهذا التوحيد البسيط المعقول والمنقول فلا عجب أن تكون له السيادة على العقول . وكان في القرآن من العدل والفضل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والحض على مكارم الاخلاق ما يهيىء للناس السعادة في هذه الحياة والارتقاء في هذا الاجتماع ؟ لذلك قلنا ونقول لو لم يخرج كفار قريش ومشركوها المصطفى لساد دين محمد بالحجة والبرهان والموعظة الحسنة بغير جدال كما فازت النصرانية من قبله ولكن قد يكون فوزه بالسلام بطيئاً كما انتشرت النصرانية قبلاً ببطء وقد يفوت ببطء انتشار الاسلام النجاح العظيم الذي صادفه العرب ليس بسيوفهم فقط بل بالعناية الالهية التي عضدتهم أولاً وأخيراً حتى تم لهم من الفتح وسعة الملك في أعوام معدودات ما لا ينتظر لقوم مثلهم على خشونتهم ولذلك كان الاجماع على أن انتصارهم ذاك كان بمعجزة سموية

ولنعد بعد هذه المقدمة الى الغزوات النبوية فان المصطفى عليه الصلاة والسلام تدرّج فيها تدرجاً فابتدأ باعلان دعوته مسالماً ثم أوجد له الله في الاوس والخزرج أنصاراً هاجر من مكة اليهم بأصحابه تخلصاً من أذى قريش فأبى القرشيون الا أن يعملوا على النكاية به فأرسلوا أولاً من يتتبع خطواته وهو فارّ الى المدينة من ظلمهم ليعيدوه الى مكة فيسجنوه أو يقتلوه ولما فشلوا في هذه الرغبة أخذوا يجمعون كلمة العرب على قتاله حينئذ أذن الله له ولأصحابه وأنصاره بمقاتلة المشركين لسببين أولهما الدفاع عن النفس بإزاء المعتدين وثانيهما الدفاع عن الدعوة بإزاء الذين تعرّضوا لها فكانوا يفتنون المهتدين بالاضطهاد والتعذيب ويصدون الآخرين عن الهدى عنوةً ويحاولون منع الداعي بتبليغ دعوته بسبه والسخر به ثم بمحاولة قتله

أما أمر الله بالقتال فقد جاء في مواضع شتى من القرآن اذ قال الله « أذن للذين يقاتلون

وَمَنْ غَدَوْا حَسَدًا مِنْهُمْ لِبَعْثَتِهِ　أَعْدَاءَهُ مِثْلَمَا بَاتُوا أَعَادِيهَا
وَحَوْلَهُ نَفَرٌ مِنْ آلِ هِجْرَتِهِ　أُسْدُ الْحُرُوبِ إِذَا نَادَى مُنَادِيهَا
يَحُوطُهُمْ حَيْطَةً أَنْصَارُ شِرْعَتِهِ　أَهْلُ اللِّقَا خَزْرَجِيهَا جَنْبَ أَوْسِيهَا
وَالْمُرْتَضَى كَانَ فِيهِمْ حِلْفَ أَحْمَدَ فِي　تِلْكَ الْمَغَازِي الَّتِي قَدْ رَاحَ يُزْكِيهَا
مَا كَانَ يَبْعُدُ عَنْهُ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ　إِلاَّ لِفَاجِئَةٍ يَبْغِي تَلاَفِيهَا
أَوْ كَيْ يُنَفِّذَ لِلْهَادِي أَوَامِرَهُ　فِي الْمُسْلِمِينَ كَمَا قَدْ شَاءَ مُوحِيهَا
وَكَانَ أَبْسَلَ صِنْدِيدٍ بِجَيْشِ رَسُوْ　لِ اللَّهِ يَفْتِكُ بِالأَعْدَا وَيُرْدِيهَا
(وَالْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُهُ)　لِأَنَّهُ فَارِسُ الْهَيْجَا مُجَلِّيهَا
وَارْجِعْ إِلَى غَزَوَاتِ الْمُصْطَفَى لِتَرَى　فَضْلَ الْعَلِيِّ صَرِيحًا فِي أَمَالِيهَا
وَإِنَّهُ قَدْ قَضَى كُلَّ الْمَغَازِي مَعَ الْـ　ـهَادِي وَجَاءَ مِنَ الآلاَءِ عَالِيهَا

بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرنّ الله من ينصره ان الله لقويّ عزيز ، الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور » آه وأنت ترى في هذه الآية المباركة ان سبب اذن الله للمسلمين بالقتال هو ظلم المشركين لهم وما ذنبهم الا قولهم « ربنا الله » فأخرجوا من ديارهم لهذا الاعتقاد . ثم ان الله سبحانه أبطل قول القائلين بعدم صلاحية القتال لنشر الدين بقوله انه لولا أن يدفع الناس بعضهم بعضاً لهدمت الصوامع والمساجد وتعطلت الصلوات وضاع ذكر الله من على وجه الارض. ثم ان الله سبحانه أبان للمؤمنين المعدّ لهم الانتصار ما يجب أن يكونوا عليه من الاخلاق الفاضلة التي جمعها بأربع كلمات فيها الخير كله وهي الصلاة والزكاة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر

وجاء في القرآن أيضاً في سبيل القتال قوله تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم — ولا تعتدوا — ان الله لا يحبّ المعتدين — واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم — والفتنة أشدّ من القتل — ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين — فان انتهوا فان الله غفور رحيم — وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله — فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين — الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » اه . وأنت ترى من هذه الآيات الكريمة ما يحق أن يصدر عن الاله الواحد العادل المؤدب القهار الرحيم لجمعها بين الدفاع عن النفس وتأديب المعتدين وابطال الفتنة والانتصار لدين الله

أمير المؤمنين في غزوة بدر الكبرى

لَاقَتْ قُرَيْشُ بِبَدْرٍ شَرَّ مَهْلَكَةٍ أَخْلِقْ بِمَنْ حَارَبَ ٱلْبَارِيَ يُلَاقِيهَا(١)
وَنَالَهَا بِقِتَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنَ ٱلْأَ م رُزْءٌ فَادِحُهَا ٱلْمُؤْذِي وَقَاسِيهَا

وفي القرآن أشباه لهذه الآيات الكريمة العادلة التي أنزلت على محمد بن عبد الله لعزة الدين وردع الظالمين المعتدين. لا جرم ان الاسلام كان ولا يزال مسالماً من سالم أهله اذ قال سبحانه وتعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم ، وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ، أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » اه . وفي هذه الآيات الكريمة تتجلى روح الاسلام السلامية العادلة بأجلى تلالئها لدى المنصفين

أما الحروب النبوية وهي التي جرت على عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام فتنقسم الى غزوات وسرايا أما الغزوات فهي التي حضرها رسول الله بنفسه وأما السرايا فهي جمع سرية وهي القطعة من الجيش وأطلقها المؤرخون على الغزوات التي أرسلها المصطفى مع أحد قواده

والغزوات النبوية سبع وعشرون غزوة حضرها المصطفى بنفسه ولكنه لم يحارب فيها الا في غزوة أحد وحضر علي المرتضى عليه صلوات الله كل هاتيك الغزوات فكان مجلي الحلبة وفارس الميدان ولم يتخلف الا عن غزوة تبوك وهي الأخيرة بأمر المصطفى عليهما الصلاة والسلام

وأهم الغزوات النبوية هي بدر الكبرى ، وأحد ، وبني النضير ، والخندق ، والحديبية وخيبر ، وفتح مكة كرمها الله ، وتبوك . وللمرتضى عليه صلوات الله في هذه الغزوات الكبرى من الأعمال العجيبة والآثار الخالدة ما نحن ذاكروه مفصلاً في هذه القصيدة المباركة ومذيلوه بالذيول الكافية ان شاء الله تعالى

(١) يحسن بنا هنا أن نجمل أنباء الغزوات النبوية قبل ذكر غزوة بدر ليلم قارىء علويتنا المباركة هذه بمجمل ما كان من أمر الجهاد الذي أفضى الى انتصار كلمة « لا اله الا الله » في العالمين فنقول .

عرف القارىء الكريم مما تقدم في المتن والحواشي عداء قريش للمصطفى ومن تبعه من المسلمين واستمرارهم على هذا العداء حتى بعد الهجرة ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع الطريق بين مكة والشام ليصادر تجارة قريش وهم أعداؤه وتلك طريقها وأنت تعلم أن قطع الطريق التجارية تورث قريشاً ذلاً وضعفاً وقد رأى هذا بعد أن استوثق من مقامه في المدينة المنورة وقضى فيها مع أصحابه نحو الحول . ففي صفر من السنة الثانية للهجرة خرج رسول الله بأصحابه وأنصاره الى « ودان » بين الفرع والابواء وتبعد عن المدينة ست مراحل وعن مكة أربع مراحل . وأراد بخروجه أن يحارب قريشاً وبني حمزة وهم فخذ من كنانة فوادعه بنو حمزة ولم يمر على قريش وعاد من غير حرب الى المدينة فأقام بقية صفر وصدراً من ربيع أول وفي مقامه في المدينة أرسل سرية بقيادة عبيدة بن الحارث فوصل الى ثنية المرة في شمال قديد من باديةمكة ولقي فيها جمعاً من قريش ولكن لم يحدث قتال بينهما . وبعث عليه الصلاة والسلام سرية أخرى بقيادة عمه حمزة بن عبد المطلب الى سيف البحر من ناحية العيص وهو مكان على ساحل البحر بطريق قريش

فَكُنْتَ تَلْقَى دِمَاهَا وَهْيَ جَارِيَةٌ عَلَى ٱلْبِطَاحِ فَيُؤْذِي ٱلْعَيْنَ قَانِيهَا
وَكَانَتِ ٱلْجُثَثُ ٱلْهَلْكَى هُنَا وَهُنَا مَنْثُورَةً وَلَقَدْ غَطَّتْ رَوَابِيهَا
وَكَانَ أَسْعَدَ أَعْدَاءِ ٱلشَّرِيعَةِ حَظّاً هَارِبٌ قَدْ تَخَفَّى عَنْ مُحِبِّيهَا
وَكَانَ فِيهَا عَلِيٌّ رَبُّ نَجْدَتِهَا يَلْقَى ٱلْأَعَادِي فَيُضْمِيهَا وَيَشْوِيهَا
وَإِنَّهَا عَرَفَتْهُ فِي مَوَاقِعِهِ ٱلْحَمْرَاءِ أَبْسَلَ مَنْ ضَحَّى أَضَاحِيهَا

التي كانوا يأخذون منها طريقهم الى الشام فلقي أبا جهل بن هشام بثلاثمائة فارس من قريش وكاد يشتبك الجمعان لولا وساطة مجدي بن عمرو الجهني الذي حال بينهما فلم يحدث قتال

وفي شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة خرج رسول الله بالمهاجرين والأنصار يريد قريشاً فلما بلغ « بواط » وهو موضع قرب جبل رضوى على مسيرة يوم من ينبع وعلى سبع مراحل من المدينة وهناك طريق تختصرها العرب الى الشام . على أن المصطفى لم يجد هناك أثراً لقريش فعاد الى المدينة ولم يلق كيداً

وفي جمادي الأولى من السنة الثانية خرج رسول الله بالمهاجرين والأنصار غازياً فنزل في موضع اسمه « العشيرة » وهو واد قرب ينبع فأقام فيه جمادي الأولى ولياليا من جمادى الثانية ووادع هنالك بني مدلج ومن حالفهم من بني ضمرة وفي أثناء اقامته في العشيرة بعث سرية بقيادة سعد ابن أبي وقاص للاستكشاف فبلغت الخرار وهو واد من مكة قرب قديد وعاد اليه ولم يلق كيداً وبعد عودته عاد رسول الله الى المدينة المنورة بغير حرب

وبعد أن أقام رسول الله في المدينة قليلاً انتهى الى سمعه الشريف أن كرز بن جابر الفهري أغار على سرح المدينة « أي رعاتها الذين يسرحون بالمواشي » فخرج في طلبه بالمهاجرين والانصار فبلغ « سفوان » وهو واد من ناحية بدر فلم يدركه وعاد الى المدينة وأقام فيها الى رمضان . وفي أثناء اقامته هذه أرسل سريّة بقيادة عبد الله بن جحش بكتاب مختوم أمره أن يفتحه بعد أن يبعد مسافة يومين عن المدينة فصدع بالأمر حتى اذا أبعد يومين فتح الكتاب واذا فيه « اذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » فمضى الى نخلة فمرت به عير لقريش وفيها عمرو بن الحضرمي وكان محالفاً لقريش وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفل عبد الله بن جحش باليوم الحرام ولا وقف عند حدّ أمر رسول الله من الترصد فقط بل هاجم عمراً ومن معه فقتل عمراً وأسر اثنين من الرجال الثلاثة الذين كانوا معه وهرب رابعهم وعاد عبد الله بالأسيرين والعير الى المدينة . فاستاء رسول الله مما كان وازداد استياؤه لما حدث من الشغب بين المسلمين إكباراً لحرب أثارها عبد الله في يوم حرام . فتلافى الله الفتنة بآية « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير ، وصدٌّ عن سبيل الله ، وكفر به ، والمسجد الحرام ، واخراج أهله منه ، أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » فلما علم المسلمون بهذه الآية الشريفة سكنت ثائرتهم ، واستلم رسول الله الاسيرين وعدّ العير غنيمةً ثمّ اقتدت قريش أسيرها

وفي يوم الاثنين لثمان خلون من شهر رمضان المبارك أو تسع من السنة الثانية للهجرة « ٥ مارس سنة ٦٢٤ مسيحية » خرج رسول الله بمن أطاع دعوته من المهاجرين والانصار

وَإِنَّهُ أَفْرَسُ ٱلْفُرْسَانِ أَعْظَمُهُمْ فَشَكَا كَمَا قَالَ بَاكِيهَا وَنَاعِيهَا
كَانَ ٱلْمُبَارِزَ فِيهَا وَٱلْمُقَاتِلَ وَٱلْـــمَنْصُورَ وَٱلرَّافِعَ ٱلْأَعْلَامِ مُرْبِيهَا
وَٱسْتَاقَ لِلْمُصْطَفَى أَسْرَى قُرَيْشٍ فَمَنْ قَضَى عَلَيْهَا وَمَنْ قَدْ كَانَ يَفْدِيهَا
وَقَدْ حَمَى أَحْمَدًا فِي وَسْطِ قُبَّتِهِ ٱلْـــعَلْيَا ٱلَّتِي كَانَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ حَامِيهَا
حِمَايَةٌ مَا لَهَا إِلَّا ٱلْعَلِيُّ وَطَــــهَ كَانَ غَايَةَ عَادِيهَا وَرَامِيهَا

وكان عددهم ٣١٤ رجلاً منهم ٨٣ من المهاجرين و٦١ من الاوس و١٧٠ من الخزرج للغزو لانه صلى الله عليه وسلم كان قد علم أنّ أبا سفيان كان خرج من مكة بثلاثين أو أربعين فارساً بقافلة من العير فذهبت الى الشام بتجارتها فأخذ يترقّب رجوعها حتى اذا ما اتصل به نبأها وهي عائدة خرج لغزوها حتى اذا ما قرب من العفراء بعث العيون الى بدر لاستطلاع خبرها . أما أبو سفيان فقد كان على حذر من محمد واصحابه فلماعاد الى الحجاز علم أن محمداً خارج الى لقائه فأرسل رسولاً من قبله الى مكة يستنفر قريش لتأمين طريقه وحماية عيرها فنفرت اليه وعام محمد بنفرتها وهو قريب من بدر فاستشار صحابته وانصاره معاً في الامر فأشاروا جميعاً بالقتال حينئذٍ قال المصطفى : «سيروا وابشروا انّ الله قد وعدني احدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الى مصارع القوم » . ثمّ ارتحل عليه الصلاة والسلام حتى اذا وصل قريباً من بدر بلغه أن أبا سفيان نجا بالعير وأن قريشاً وراء وادي بدر وهي مصرّة على البقاء هنالك لحضر الموسم الذي كان يقيمه العرب لكي لايقال انهم جبنوا فهربوا من المسلمين وقد نزلت قريش بعدوة وادي بدر الدنيا ونزل المسلمون على أول ماء من بدر ثم انتقلوا منه الى أدنى ماء من القوم وابتنى المصطفى عريشاً له أقام فيه

وفي صباح الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة «١٣ مارس سنة ٦٢٤ مسيحية» ابتدأت الحرب بالمبارزة حسب عادة العرب وخرج من المشركين ثلاثة وهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فبرز لهم ثلاثة من الانصار فقال القرشيون لا حاجة لنا بكم نحن نطلب اكفاءنا من بني عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب فكان بازاء شيبة وعبيدة بن الحارث ابن المطلب فكان بازاء عتبة وبطل الاسلام الاكبر علي بن أبي طالب فكان بازاء الوليد أما حمزة وعلي فما أمهلا أن جندلا صاحبيهما وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين متكافئتين وفي الحال هجم حمزة وعلي وأجهزا على شيبة واحتملا عبيدة وهو جريح الى صفوف المسلمين. وعلى أثر هذا البراز ابتدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب في ذلك النهار وانجلت عن قهر المشركين وقتل عدد من صناديدهم فيهم أبو جهل بن هشام وأسر المسلمون منهم نحو السبعين وهرب الباقون. فساق علي بن أبي طالب هؤلاء الاسرى الى المصطفى فأمر بسوقهم الى المدينة المنوّرة حتى اذا ما وصلوها كانت بشائر النصر قد وصلتها مع السعاة فاستقبل الناس الموكب النبوي بالتهليل والتكبير ، وأمر المصطفى بقتل اثنين من الاسرى هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لما اشتهرا به من الغلوّ في عداوة المسلمين والجهر في سب الشريعة والمصطفى ووزع الباقين على الناس وأوصى بهم خيراً فما زالوا عندهم الى أن افتدتهم قريش وبعضهم أطلق سبيلهم المصطفى بغير فدية كرماً منه وجعل فدية الذين يكتبون منهم تعليم أولاد المدينة القراءة والكتابة وكان الفراغ من هذه الغزوة في نهاية رمضان وشهد المسلمون عيد الفطر في المدينة

وَقَدْ تَصَدَّى لِأَعْدَاءِ ٱلنُّبُوَّةِ كَيْ ... يُزِيلَ عَنْ رَبِّهَا مُؤْذِي تَصَدِّيهَا
وَكَمْ أَرَادَ عِدَى ٱلْإِسْلَامِ نَكْبَتَهُ ... بِٱلْمُصْطَفَى فَخَزَى ٱلْبَارِي مُرِيدِيهَا

أمير المؤمنين في غزوة أحد

وَلِلْعَلِيِّ فِعَالُ ٱلْمَجْدِ فِي أُحُدٍ ... يَعْيَا وَيَعْجَزُ رَاوِيهَا وَمُحْصِيهَا (١)
فَكَمْ بِغَزْوَتِهَا ٱلْكُفَّارُ قَدْ نُكِبَتْ ... بِسَيْفِهِ وَهْوَ بِإِذْنِ اللهِ نَاكِبُهَا
فَلَمْ يَزَلْ مَعَ مَنْ حَوْلَيْهِ تَضْرِبُهَا ... سُيُوفُهُمْ فَتُلَاقِيهَا هَوَادِيهَا
حَتَّى ٱنْجَلَتْ هَرَباً عَنْ شَرِّ مَوْقِفِهَا ... أَمَامَهُمْ وَعَلِيُّ ٱلْقَرْمُ مُجْلِيهَا

والذي يطلع على تفصيل هذه الغزوة في المطولات يجد لسيدنا علي بن أبي طالب عليه صلوات الله القدح المعلى في الفوز فقد كان أول من افتتح القتال مع صاحبيه في البراز . ثمَّ كان في مقدمة صفوف المسلمين عند الهجوم العام وفي أثناء القتال لحظ أن المشركين قد اتخذوا قبة المصطفى غرضاً لسهامهم وأنهم يتقصدونه بالذات وهم يعتقدون أنَّ في موته عليه الصلاة والسلام موت دينه وتلاشي أتباعه فاتخذ على عاتقه حماية ابن عمه في قبته عليهما الصلاة والسلام فوقف الى جانبها متعرضاً الى النبال التي كانت تتساقط حوليه كالمطر وهو يرمي راميها بنباله فجندل عدداً كبيراً منهم ثمَّ استلَّ سيفه ذا الفقار وهاجم الناس فأبلى بهم أحسن بلاء فكان آخر من ضرب بسيفه كما كان عليه صلوات الله أول الضاربين

(١) بعد أن رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر لم يقم في المدينة سوى سبع ليالٍ وبعدها سار يريد غزوة بني سليم فبلغ ماء لهم يدعى « الكدر » فأقام عليه ثلاث ليالٍ ثم رجع الى المدينة من غير حرب وأقام فيها الى بقية شوال وذي القعدة

أما أبو سفيان فكان حينما رجع مقهوراً الى مكة المكرمة بفلول بدر نذر أن لا يمسّ رأسه من جنابة حتى يثأر لنفسه من بدر ويغزو محمداً فخرج بمئتي راكب من قريش براً بيمينه يريد المدينة فما زال مجداً حتى بلغ بني النضير على نحو بريد من المدينة وهم يهود كانوا قد حالفوا المسلمين فنزل عليهم وطلب محالفتهم على محمد فرفضوا مناصرته براً بحلفهم ولكنهم أووه واكرموا مثواه ثمَّ خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا فيها رجلين من الانصار فقتلوهما ثمَّ خرجوا راجعين. فلما بلغ المصطفى ما فعل أصحاب ابو سفيان بالنخيل وبصاحبيه خرج في طلبه حتى بلغ قرقرة الكدر فما عثر عليه وكان قد فاته وسميت هذه الغزوة بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون فيها من أزوادهم التي اكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة

ولما رجع المصطفى عليه الصلاة والسلام من غزوة السويق أقام في المدينة بقية ذي الحجة ثمَّ غزا نجداً يريد غطفان فأقام في نجد صفراً ولم يحارب وعاد الى المدينة فأقام فيها ربيع الاول وفي أواخره خرج يريد قريشاً فبلغ « بحران » وهو معدن في الحجاز بناحية « الفرع » فأقام هناك ربيع آخر وعاد بغير حرب الى المدينة المنوَّرة وفي عودته غزا بني قينقاع

وَكَادَتِ ٱلنُّصْرَةُ ٱلْكُبْرَى تَتِمُّ لِأَصْـحَابِ ٱلرَّسُولِ وَتُولِيهَا أَمَانِيهَا
لَوْلَا ٱلرُّمَاةُ ٱلَّتِي أَخْلَتْ مَوَاقِفَهَا ... مِنْ قَفْوَةِ ٱلْجَيْشِ يَبْغِي ٱلسَّلْبُ مُخْلِيهَا
إِذْ ذَاكَ عَادَتْ قُرَيْشٌ مِنْ وَرَاءِ صُفُوٍّ ... فِي ٱلْمُسْلِمِينَ وَنَالَتْهُمْ مَوَاضِيهَا
وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَرْدَتْهُ حَامِلُ رَا ... يَةِ ٱلنُّبُوَّةِ إِذْ أَلْفَتْهُ مُعْلِيهَا
وَفَاجَأَتْهُمْ تُنَادِي مَاتَ أَحْمَدُكُمْ ... بِنَبْلَةٍ لَمْ يَخِبْ تَاللهِ رَامِيهَا
وَٱلْمُسْلِمُونَ لَقَدْ ضَلُّوا سَبِيلَهُمُ ... وَضَعْضَعَتْهُمْ عِدَاهُمْ فِي مَنَاعِيهَا
وَبَيْنَمَا تَجْمَعُ ٱلْأَسْلَابَ زُمْرَتُهُمْ ... إِذَا بِهَا هَرَبَتْ وَٱلْخَوْفُ فَاشِيهَا
فَفَرَّ مَنْ فَرَّ مِنْهَا لِلْمَدِينَةِ أَوْ ... مَنْ قَدْ أَوَى فَرَقًا دَانِي ضَوَاحِيهَا

وبنو قينقاع هؤلاء قوم من اليهود كانوا عاهدوا رسول الله ولكن بعد موقعة بدر أخذت تبدر منهم بوادر تنمّ عن أنهم غير مخلصيّ العهد للمسلمين وحدث في شهر ربيع الآخر من السنة الثانية للهجرة أنّ امرأة مسلمة كانت في سوق بني قينقاع فاعتدى عليها يهودي منهم اعتداءً قبيحاً فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام الى اليهودي المعتدي وقتله فنامت عليه اليهود فقتلته فلما بلغ هذا رسول الله خرج الى غزو بني قينقاع وحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة نزلوا على حكمه في آخرها فاجلاهم من ديارهم فخرجوا الى أذرعات في الشام وسكنوها

وفي هذه الاثناء بلغ المصطفى أنّ قريشاً حدرت طريقها المعتاد وأخذت تسلك الى الشام طريق العراق فأرسل الى لقائها سارية بقيادة زيد بن حارثة فلقيهم على ماء القردة من مياه نجد فأصاب عيرهم وسارها الى المدينة أما الرجال فنجوا منه هاربين بأنفسهم

وكان رجل في المدينة يدعى كعب بن الاشرف وهو يهوديّ من طيء ثمّ من بني نبهان وأمه من بني النضير وكان وحيها في مدينة الرسول فلما انتصر المسلمون في بدر وجاءت البشائر بانتصارهم الى المدينة لم يستطع أن يكتم آلامه فطفق يقول علانية « والله لئن كان محمد أصاب قريشاً فلبطن الارض خير من ظهرها » ولما تيقن الخبر سار الى مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي وجعل يحرّض قريشاً على رسول الله بأشعاره ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر ثمّ رجع الى المدينة وطفق يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فلم ير المصطفى خيراً لهذا الزنديق من أن يبلغه أمنيته في قوله « لبطن الارض خير من ظهرها » وأرسل له بعض الانصار فقتلوه

وفي الحقيقة أن كسرة قريش في بدر كان لها صدى عظيم في الحجاز وتأثير كبير على نفوس الحجازيين وكانت قريش أعظم قبائل الحجاز تألماً منها اذ أظهرت لهم ما لم يكن في حسبانهم من استفحال أمر المسلمين فعادت فلولهم الى مكة وهي تنادي بطلب الثأر وكان بنو أمية وعلى رأسهم أبو سفيان هم رؤساء الدعوة لشنّ غارة على المصطفى عليه الصلاة والسلام يأخذون فيها بثأر قتلاهم وينقذون فيها أسراهم. واجتمع على هذه الدعوة قريش بأحابيشها ومن والاها من كنانة وأهل تهامه وساروا جميعاً لطلب الثأر وما زالوا مجدّين حتى نزلوا في موضع يقال له عينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي الذي يقابل المدينة المنوّرة

إلاَّ ٱلنَّبِيُّ وَمَعَهُ ٱلْمُرْتَضَى فَلَقَدْ ... تَوَخَّيَا وَقْفَةً سَامٍ تَوَخِّيهَا
فِيهَا لَقَدْ ثَبَتَا لِلْكَارِثَاتِ وَمَا ... هَابَا قُرَيْشاً عَلَى فَاجِي تَجَمِّيهَا
وَلَا تَشَتُّتَ أَعْوَانِ ٱلنُّبُوَّةِ إِذْ ... خَافَتْ فَفَرَّتْ فِرَاراً مِنْ أَعَادِيهَا
وَلَا جِرَاحَةَ طَـهَ عِنْدَ سَقْطَتِهِ ... فِي حُفْرَةٍ لِقُرَيْشٍ رَاحَ هَاوِيهَا
فَأَنْقَذَ ٱلْمُرْتَضَى طَـهَ وَمَالَ إِلَى ٱلْـ ... ـعِدَى ٱلَّتِي طَلَبَتْهُ فِي تَدَاعِيهَا
فَفَلَّ مَوْكِبَهَا وَٱلسَّيْفُ فِي يَدِهِ ... وَكَانَ فَارِسَهَا يُدْمِي وَمَاشِيهَا
وَٱلْأَرْضُ قَدْ مُلِئَتْ فِي يَوْمِهَا جُثَثاً ... مِنْ بَيْنِهَا تَنْدُبُ ٱلْجَرْحَى دَوَامِيهَا
وَمَنْ لَهَا كُتِبَتْ قِدَماً سَلَامَتُهَا ... مِنَ ٱلنُّفُوسِ تَوَلَّتْ فِي مَنَاحِيهَا
عَادَتْ لِمَكَّتِهَا تَاللهِ رَاضِيَةً ... مِنَ ٱلْغَنِيمَةِ أَنْ تَأْوِيَ مَآوِيهَا
حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بِٱلْخِزْيِ مَوْطِنَهَا ... نَاحَتْ وَصَاحَتْ لِتَسْتَبْكِي بَوَاكِيهَا

ولم تكن أنباء قريش بخافية عن رسول الله فقد كانت عيونه تنقل اليه أخبارها فلما انتهى اليه نبأ نزولها بقرب المدينة جمع اكابر المهاجرين والانصار واستشارهم في الامر فكان رأي اكثرهم الخروج الى قريش ومحاربتها فتغلبوا بذلك على رأي رسول الله الذي كان رأيه البقاء في المدينة حتى اذا هاجمه القرشيون بعقر داره يلقاهم برجاله على أنه صلى الله عليه وسلم امتثل أمر الاكثرية ودخل بيته ولبس لامته وخرج اليهم فوجدهم قد ندموا على غلبة رأيهم على رأيه فقالوا له ان شئت فاقعد فقال لهم « ما ينبغي لنبيّ اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل » وهكذا خرج في ألف من المهاجرين والانصار وكان خروجه في يوم الجمعة بعد الصلاة لاربع عشرة خلت من شوال في السنة الثالثة من الهجرة « ٢٩ مارس سنة ٦٢٥ مسيحية » فلما بلغ الشوط انخزل عنه عبد الله بن أبي سلول بثلث الناس ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من جبل أُحد في عدوة الوادي فجعل ظهر عسكره الى أُحد وأمر على الرماة عبد الله بن جبير واعطى لواءه الى مصعب ابن عمير وتقدم الفرسان للقاء الأعداء وترك الرماة يحمون ثغورهم

والتقى القومان ودارت رحى الحرب وكان في طليعة المسلمين الفرسان وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وأبو دجانة وسماك بن خرشة الساعدي فحسوا قريش بسيوفهم حتى كشفوهم عن العسكر وباتت هزيمتهم لا ريب فيها فلما رأى رماة المسلمين أن المشركين قد انكشفوا مالوا الى المعسكر طلباً للغنائم وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين التي كان يقودها خالد بن الوليد على المسلمين من ورائهم وأخذوهم على غرة فاختلت صفوفهم وزادها اختلالاً أنّ رجلاً من المشركين قتل مصعب بن عمير حامل اللواء النبوي وصاح انّ محمداً قد قتل فكان لصيحته تلك جزع في نفوس المسلمين زاد في اختلالهم ومكن مشركي قريش منهم فقتل بعضهم وفرّ بعضهم ولم يبق حول رسول الله الا نفر يسير في مقدمتهم بطل الاسلام الاكبر علي بن أبي طالب الذي ابى في هاتيك الشدة الا أن يكون في جانب المصطفى عليهما الصلاة والسلام وبات

وَمُذْ دَرَتْ فِئَةٌ مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ أَنَّـــــهُ سَلِيمٌ مِنَ ٱلْأَخْطَارِ نَاجِيهَا
عَادَتْ إِلَيْهِ وَسَارَتْ تَحْتَ رَايَتِهِ إِلَى مَـــدِينَتِهِ ٱلْغَنَّا لِيَثْوِيهَا
وَطِيبَةٌ قَابَلَتْهُ بِٱلْبَشَائِرِ وَٱلْأَ م فْرَاحِ مُنْشِـــدَةً فِيهَا أَغَانِيهَا
وَوَقْفَةٍ لِعَلِيٍّ كَانَ وَاقِفَهَـــا مَنْصُورَةٍ أَدْهَشَتْ وَٱللهِ رَائِيهَا
مِنْهَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْأَطْهَارُ قَدْ عَجِبَتْ وَلِلْعَلِيِّ ٱنْثَنَتْ تُهْدِي تَهَانِيهَا
وَقَالَ جِبْرِيلُ قَوْلًا نَحْنُ نُثْبِتُهُ وَحَقَّقَتْهُ ٱللَّيَالِي فِي مَجَارِيهَا
لَا سَيْفَ أَمْضَى شَبًا مِنْ ذِي ٱلْفَقَارِ فَإِنْ سُلَّتْ سُيُوفُ كُمَاةِ ٱلْحَرْبِ يَفْرِيهَا
وَلَا فَتًى كَعَلِيٍّ إِنْ تَصَاوَلَتِ ٱلْـــفِتْيَانُ كَرًّا وَفَرًّا فِي تَلَاقِيهَا

المصطفى والمرتضى يحاربان ذلك العدو المتكاثر لوحدهما والمسلمون هـاربون وكان المشركون قد حفروا حفراً قبل الموقعة ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فوقع فيها المصطفى لشقه وأصيبت رباعيته وشجَّ في وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته وكاد يدركه المشركون لولا العليُّ الذي انتشله بيده من هاتيك الحفرة هو وطلحة بن عبيد الله ثم انبرى ذلك الاسد الغضنفر سيدنا علي للمشركين الذين طلبوا رسول الله بذي الفقار وهو سيفه البتار وجعل يضرب به ذات اليمين وذات اليسار فيجندل حوليه الابطال وما زال كذلك الى أن أوقع الرعب في قلوبهم بعد أن ملأ الأرض من أشـلائهم وقد عجبت الملائكة في السموات من موقفه العجيب ذاك وهو يدفع الخطر عن رسول الله حتى صاح جبريل من السموات العلى «لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي»

أما المسلمون فانهزموا وهم موقنون أنَّ محمداً قد قتل كما صاح صائح المشركين ثمَّ نودي بهم وهم هاربون بأنَّ محمداً لا يزال سليماً فرجع خلق منهم اليه والتفوا حوله وساروا به عائدين حتى اذا ما انتهوا الى فم الشعب ملأ سيدنا علي درقته ماءً وجاء بها الى رسول الله فغسل عن وجهه الشريف الدم وصب على رأسه وبينما الرسول بالشعب ومعه علي ونفر من المسلمين واذ قصدتهم خيالة المشركين فتصدّى لها علي بن أبي طالب وأرجعها عن المصطفى عنوةً . ثمَّ ان المصطفى أراد أن يعرف ما في أنفس المشركين وان كانوا يريدون الرجعة الى مكة بعد الفوز الذي نالوه أم الاغارة على المدينة فلم يجد لهذه المهمة الصعبة الا علينا المرتضى فوجهه مستطلعاً فخرج بشجاعته المعهودة في أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وأقطوا الابل عائدين الى مكة . وانصرف المسلمون الى دفن قتلاهم وكان فيهم حمزة ابن عبد المطلب قتله وحشي ومثلت به هند زوج أبي سفيان وأم معاوية وشق قتـله على المصطفى كثيراً وعاد عليه الصلاة والسلام الى المدينة المنورة

وفي غد ذلك اليوم الذي كان شديداً على المسلمين وهو يوم الأحد ١٦ شوال للسنة الثالثة للهجرة أذن مؤذن رسول الله بطلب العدو وقد فعل ذلك ليرهب قريشاً ويعلمهم بأن موقعة أمسه ما أخارت عزيمته وأمر أن لا يخرج معه الا الذين شهدوا موقعة الامس وسار بهم على رغم جراحاته حتى بلغ حمراء الاسد وهي على ثمانية أميال من المدينة المنورة فأقام هناك الاثنين والثلاثاء والاربعاء وكان لخروجه هذا تأثير كبير لان المشركين بعد أن انصرفوا راجعين الى مكة ندموا على تركهم عن

أمير المؤمنين وغزوة بني النضير

وَفِي ٱلنَّضِيرِ عَلِيٌّ كَانَ أَبْسَلَ مَنْ ... سَلَّ ٱلظُّبَاتِ عَلَى ٱلْأَعْدَا لِيُفْنِيهَا(١)
لِذَاكَ أَمَّرَهُ طَـهَ وَسَـوَّدَهُ ... عَلَى ٱلْجُيُوشِ ٱلَّتِي سَالَتْ مَذَاكِيهَا
وَقَدْ أُقِيمَتْ لِطَـهَ قُبَّةٌ فَأَوَى ... ظِلَالَهَا وَغَدَا ٱلْإِقْبَالُ آوِيهَا
وَحَاصَرَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلظَّافِرُونَ بَنِي ٱلـنَّضِيرِ حَصْراً بِهِ تَلْقَى تَلَاشِيهَا
إِذَا بِأَعْسَرَ فِيهَا كَانَ أَنْبَغَ مَنْ ... يَرْمِي ٱلنِّبَالَ فَلَا تُخْطِي مَرَامِيهَا
تَقَصَّدَ ٱلْمُصْطَفَى فِي وَسْطِ قُبَّتِهِ ... وَبَاتَ عَنْ قَوْسِهِ بِٱلنَّبْلِ يَرْمِيهَا
فَأَسْرَعَ ٱلرَّكْبُ فِي تَحْوِيلِ قُبَّتِهِ ... فَحُوِّلَتْ حَيْثُ لَا نَبْلٌ تُفَاجِيهَا
وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي ٱلْحَصْرِ مُظْلِمَةٍ ... لَا نُورَ فِيهَا وَقَدْ أَدْجَتْ دَيَاجِيهَا
غَابَ ٱلْعَلِيُّ بِهَا عَنْ صَحْبِهِ فَشَكَتْ ... لِلْمُصْطَفَى غَيْبَةً لَمْ تَدْرِ خَافِيهَا
فَقَالَ: غَيْبَتُهُ فِي خَيْرِ مِلَّتِهِ ... مَعْ قَصْدِ نَصْرَتِهَا ٱلْمَحْمُودُ سَارِيهَا

مهاجمة المدينة المنورة وأراد أبو سفيان الرجعة فبلغه خروج محمد بأصحابه في طلبه فخاف ورجع بمن معه مكتفين بالنصر الذي نالوه في أمسهم وقصدوا مكة المكرمة وأما المصطفى فعاد الى المدينة المنورة بأصحابه يوم الخميس

(١) تدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أُحُد رهط من « عُضَل » « والقارة » وهما بطنان من خزيمة بن مدركة وأظهروا له رغبة قومهم في الاسلام وطلبوا منه أن يرسل اليهم بعض أصحابه ليفقهوهم في الدين ويعلموهم القرآن فبعث معهم ستة من أصحابه بزعامة مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى اذا بلغوا بهم محلاً يدعى « الرجيع » غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فهبت هذيل وقالت للمسلمين انا لا نريد قتالكم ولكن نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا يغدر بكم غادر فرفض القول ثلاثة منهم وقاتلوهم حتى قتلوا وأجاب الى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم في الطريق وسيق الآخران الى مكة فبيعا في سوقها وقتلا هناك قتلهما أبو سفيان

وتدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفر من السنة الرابعة للهجرة أبو برّاء عامر ابن مالك الملقب بملاعب الاسنة العامري فعرض عليه رسول الله أن يسلم فلم يسلم ولم يبعد وقال لو بعثت رجالاً من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال عليه الصلاة والسلام اني أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فبعث سريّة بقيادة المنذر بن عمرو الساعدي فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم

حَتَّى إِذَا لَاحَ نُورُ ٱلْفَجْرِ عَادَ كَمِيُّ ٱلْمُسْلِمِينَ بِآيِ ٱلنَّصْرِ يَرْوِيهَا
وَرَأْسُ غَزْوَلَ نَبَّالِ ٱلنَّضِيرِ بِيُمْنَاهُ وَبَسْمَتُهُ وَافٍ تَجَلِّيهَا
وَقَالَ : هٰذَا وَمَعَهُ تِسْعَةٌ كَمَنُوا لَنَا وَنِيَّتُهُمْ سُوءٌ لِنَاوِيهَا
وَإِذْ شَعَرْتُ بِهِمْ فَاجَأْتُ مَكْمَنَهُمْ بِبَطْشَةٍ وَهُمُ مِنْ مُسْتَحَقِّيهَا
أَخْمَدْتُ أَنْفَاسَهُمْ جَمْعًا بِضَرْبَةِ سَيْفٍ لَمْ يَكُنْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ نَابِيهَا
فَهَلَّلَ ٱلْمُصْطَفَى بُشْرًا بِصَاحِبِهِ وَقَالَ أَنْتَ كَمِيُّ ٱلْحَرْبِ غَازِيهَا
وَأَقْبَلَ ٱلْقَوْمُ نَحْوَ ٱلْمُرْتَضَى بِأَهَا زِيجِ ٱلْمَدَائِحِ يُشْجِي ٱلْقَلْبَ شَادِيهَا
وَأَكْبَرُوا هِمَّةً مِنْهُ مُمَجَّدَةً وَكَبَّرُوا لِلَّذِي قَدْ زَانَهُ فِيهَا

فقتلت السرية كلها وكانت أربعين رجلاً لم يسلم منهم الا رجل واحد يدعى عمرو بن أمية الضمري فقد نجا من القتل وأسر وآخر بقي جريحاً بين القتلى يدعى كعب بن يزيد

ثم ان عمرواً بن أمية الضمري نجا من الاسر وعاد الى المدينة وفي طريقه التقى برجلين من بني عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يكن عمرو عالماً به . فلما بلغ المدينة أخبر رسول الله بخبر القوم والقتيلين فقال : هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً. ثم قال لعمرو لقد قتلت قتيلين لأديّنهما . أي « اعطي ديتهما أو انظر فيها »

نعم فقد اهتمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلافي شرّ مقتل ذينك الرجلين وحسب حساباً لبني عامر قومهما وأسرع الى بني النضير وهم محالفوه ومحالفو بني عامر يوسطهم في تسوية ديتهما أو طلب معونتهم اذا أصرّ بنو عامر على طلب الثأر فأظهروا له الودّ والرضى على ما طلب ثمّ تركوه مستنداً الى جنب جدار من بيوتهم وخلا بعضهم ببعض وتآمروا عليه ليقتلوه بالقاء صخرة عليه من أعلى المنزل الذي كان عليه الصلاة والسلام مستنداً الى جداره وانتدبوا لذلك أحدهم لتنفيذ الغدر الذي نووه أما رسول الله فجاءه الوحي الالهي منذراً له بما ائتمر القوم فأسرع راجعاً الى المدينة وأخبر أصحابه بما نواه بنو النضير من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم وبالفعل سار اليهم في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة غازياً واستعمل بطل الاسلام الأكبر سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام على العسكر ولما وصلوا الى موطن بني النضير ضربوا عليهم الحصار وضربت قبة المصطفى وأواها وكانت من خشب عليها مسوح . وكان في بني النضير رجل أعسر مشهور برمي النبال يدعى غزول فطفق يتقصد القبة النبوية بنبله فأمر عليه الصلاة والسلام بتحويلها الى حيث لا تصلها النبال فحوّلت في الحال. وفي احدى ليالي الحصار تغيب سيدنا علي عليه صلوات الله قرب العشاء فخاف المسلمون أن يكون أصابه مكروه وأسرعوا الى رسول الله ينقلون اليه خبر غيبته فطمأن خاطرهم وقال دعوه فانه في بعض شأنكم وعند الفجر عاد ذلك الغضنفر الى المعسكر النبوي وفي يمينه رأس ذلك الملعون غزول نبال النضير الذي كان يتعمد قتل المصطفى وقال شعرت بأن هذا وتسعة من قومه خرجوا يطلبون غرّة منا ففجأتهم بسيفي فقتلتهم جميعاً فهلل المسلمون وكبروا وهم معجبون بهذه الشجاعة النادرة التي لا يأتيها الا مثل أسد الله الغالب علي بن أبي طالب عليه صلوات الله

أمير المؤمنين في غزوة الخندق

تَضَافَرَ ٱلْكُفْرُ وَٱلإِشْرَاكُ وَٱجْتَمَعَتْ ... عَلَيْهِمَا ٱلْعُرْبُ نَاشِيهَا وَفَانِيهَا(١)

وَقَدْ تَحَزَّبَتِ ٱلأَحْزَابُ طَالِبَةً ... لِلْمُسْلِمِينَ ٱلتَّلَاشِي فِي تَدَاعِيهَا

وَكَانَ أَعْظَمَهَا غَيْظاً يَهُودُ نَضِيـــرٍ إِذْ تَسَطَّوْا عَلَيْهَا فِي مَغَانِيهَا

فَأَسْرَعَتْ نَزَلَتْ أُمَّ ٱلْقُرَى وَدَعَتْ ... لِلثَّأْرِ مِنْ أُمَّةِ ٱلْهَادِي قُرَيْشِيهَا

كِلَا ٱلْعَشِيرَانِ مَوْتُورٌ وَوَاتِرُهُ ... مُحَمَّدٌ بِرَزَايَا كَانَ شَاكِيهَا

وَيَطْلُبَانِ مِنَ ٱلإِسْلَامِ ثَأْرَهُمَا ... وَأَخْذَةُ ٱلثَّأْرِ تُغْنِي عَنْ بَاغِيهَا

وَعَجَّلَتْ فَٱنْضَوَتْ غَطَفَانُ رَاضِخَةً ... إِلَيْهِمَا وَأَجَابَتْ صَوْتَ دَاعِيهَا

أما بنو النضير فقد تحرّجوا لطول الحصر وهموا أن يسلموا الى المصطفى ولكنهم توقفوا بعد أن أتاهم من منافقي أهل المدينة المنورة رسول قال لهم : اثبتوا لنأتي لنصرتكم فتربصوا حيناً فلم يبر أولئك المنافقون بوعدهم فاشتدّ بهم الخوف فطلبوا من رسول الله الصلح على أن يجلوا عن منازلهم ولهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة فصالحهم عليه الصلاة والسلام على ما طلبوا فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل وخرجوا الى خيبر ومنهم من هاجر الى الشام . وهكذا جلا بنو النضير وهم يهود من جوار المدينة المنورة

(١) خرج المصطفى عليه الصلاة والسلام من المدينة المنورة في جمادى الاولى من السنة الرابعة للهجرة يريد غزو بني محارب وثعلبة من غطفان فلما وصل الى موضع يسمى « نخل » لقي هناك جمعاً كبيراً من غطفان لم يكن للمسلمين قبل على لقائه وأدخل الله هيبة المسلمين وهم الفئة القليلة على قلوب ذلك الجمع الكبير فجبنوا عن لقائهم وفي هذه الغزوة صلى المصطفى صلاة الخوف وانصرف عائداً الى المدينة المنورة من غير أن يتعرض له أعداؤه

وكان أبو سفيان في موقعة أحد توعّد المسلمين بالعودة الى قتالهم في سوق بدر القادمة وكانت تقام في شعبان من كل عام وبلغ ذلك الوعيد المصطفى صلى الله عليه وسلم فخرج بالمسلمين الى بدر في شعبان السنة الرابعة للهجرة أما أبو سفيان فخرج بمشركي قريش لتنفيذ وعيده فلما بلغ « مجنة » وقالوا بلغ « عسفان » بلغه خروج المصطفى الى بدر فخاف سوء العاقبة وجبن عن المسير وعاد بأصحابه وهو يقول لهم « أيها الناس انه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وان عامكم هذا عام جدب فارجعوا وأنا راجع » وهكذا لم يجر قتال في غزوة بدر الثانية

وقد علمنا من غزوة بني النضير أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أجلى هذه القبيلة جزاء مكرها وحنثها في عهدها عن منازلها فأبى بعض زعمائها الا الانتقام من محمد فساروا ومعهم جماعة من بني وائل وكلهم يهود الى مكة وأخذوا يدعون قريشاً لحرب المسلمين فلبتهم ثمّ خرجوا الى غطفان فلبوهم وهكذا اجتمعت الجموع لحرب المسلمين وكان أبو سفيان بن حرب قائد الحملة الاكبر فلما

وَسلَّمتْ أمرَها في حربِها لأبي ... سُفيانَ للنَّضرِ قدْ خالَتْهُ مُمشيها

وَسارَ راكِبُها نحوَ المدينةِ في ... غزوِ الشَّريعةِ مَردُوفاً بماشيها

وَقدْ دَرَى أحمدٌ بالأمرِ فاتَّخذَ الأ ... م سبابَ كَيْ يكبتَ الأعداءُ ينكيها

بخندقٍ قامَ بسمِ اللهِ يحفرُهُ ... حيالَ طيبةَ مَنّاعٌ لِمَنْ فيها

وَقدْ رأى حفرَهُ سلمانُ قالَ وإ ... م نَّ الفرسَ فيهِ عِداها الكُثرُ تتقيها

حتّى إذا ما انتهى مِنْ حفرِ خندقِهِ ... طَـبَهَ وَعسكرُهُ أمسى مُعبّيها

وافتْ قُريشٌ بأحزابِ الأعاربِ تبـ ... ـغي مِنْ تغيُّظها منهُ تَشفّيها

وَكانَ فيها على رأسِ العِداةِ أبو ... سفيانَ نارُ الوغى والشرِّ يُوريها

فهالَها الخندقُ المحفورُ إذْ جهلتْ ... أمثالَهُ حفراً صَعْبٌ تخطّيها

وَعندَهُ وقفتْ ترمي النِّبالَ على ... جماعةِ اللهِ ما ظلَّتْ تُراميها

وَبعدَ ما طالَ في النِّضالِ موقفُها ... مِنْ غيرِ جدوى وَكادَ المكثُ يُعييها

بلغ المصطفى صلى الله عليه وسلم تحزب الاحزاب لحربه شاور أصحابه في أمرها فأجمعوا على الثبات في المدينة المنورة للقائها حتى لا ينال المسلمين ما نالهم في أحد وكان بينهم رجل حكيم يدعى سلمان الفارسي فأشار على المصطفى أن يحفر خندق حول المدينة ليقيها الأعداء وقال كذلك يفعل الفرس في حروبهم فأمر المصطفى بحفر خندق أمام المدينة المنورة وعانى المسلمون مشقة عظيمة في حفره واحكامه وكان المصطفى والمسلمون يحفرونه بأيديهم . ثمَّ جاءت قريش ومن تحزب معها على عداء المصطفى فنزلوا في مجتمع السيول من رومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف ونزلت غطفان الى جانب جبل أحد وخرج المسلمون الى لقائهم وكانوا ثلاثة آلاف وجعلوا ظهورهم الى سلع وضربوا معسكرهم هناك تاركين الخنـدق الذي احتفروه بينهم وبين أعدائهم

وما اقتصر الحال على هؤلاء الأعـداء بل تعداه الى خيانة بني قريظة الدين كانوا عاهدوا المصطفى فنكثوا العهد وانضموا الى مشركي قريش وغطفان فلما بلغ المسلمين هـذا عظم الكرب عليهم اذ راوا أعداءهم قد تألبوا عليهم من كل صوب وحدب وهكذا أقام المسلمون على اضطرابهم بضعاً وعشرين ليـلة ولم يكن بينهم وبين المشركين الا المراماة بالنبال والحصى وذلك لان أولئك المشركين لم يكن لهم عهد بالخنادق فتهيبوا الخندق الذي وجدوه محفوراً أمامهم وتربصوا عن القتال مكتفين بمراماة الحصى والنبال حتى اذا ما أعياهم الحال أقبل واحد منهم يدعى نوفل بن عبـد الله ابن المغيرة على فرس له ليوثبه الخندق مريداً بذلك تشجيع النـاس على اختراق الخندق ومهاجمة المسلمين في معسكرهم فوقع فيه واندقَّ عنق الفرس وتلقاه المسلمون بالحجارة فجعلوا يقذفونه بها فناداهم قائلاً : قتلة أحسن من هذه يامعشر العرب. فلما بلغ صوته سمع المسلمين جعل ينظر بعضهم الى بعض وبيناهم كذلك واذا بأسد الله الغالب سيدنا علي بن أبي طالب عليه صلوات الله هوى

إِذَا بِفَارِسِهَا ٱلْمِغْوَارُ نَوْفَلُ أَهْـــوَى لِلْحَفِيرَةِ لَمْ يَرْهَبْ مَهَاوِيَهَا
وَٱلْهُلْكُ قَدْ كَانَ مِنْ حَظِّ ٱلْمَطِيَّةِ وَٱلـــتَّهْشِيمُ مِنْ حَظِّ ذَا ٱلْمَغْرُورِ مَاطِيهَا

وَقَابَلَتْ بِحَصَاهَا ٱلنَّاسُ نَوْفَلَ إِذْ ... كَانَتْ عَلَى جِسْمِهِ ٱلْمَنْهُوكِ تَرْمِيهَا
وَإِذْ رَأَى نَوْفَلٌ أَنْ لَا نَجَاةَ لَهُ ... مِنَ ٱلْحَصَى لَا وَلَا يُرْجَى تَوَقِّيهَا
نَادَى أَلَا مَوْتَةٌ يَا عُرْبُ أَحْسَنُ مِنْ ... هٰذِي ٱلَّتِي كُلُّ حُرٍّ كَانَ آبِيهَا
فَلَمْ يَكُنْ غَيْرُ مَوْلَانَا ٱلْعَلِيِّ لِيُوْ ... لِيَ نَوْفَلًا بُغْيَةً قَدْ رَاحَ بَاغِيهَا
وَٱنْقَضَّ فِي سَيْفِهِ هَلْ كَانَ صَاعِقَةً ... مِنَ ٱلسَّمَاءِ قَدِ ٱنْقَضَّتْ لِرَائِيهَا
وَقَدْ حَبَى نَوْفَلًا أَسْمَى مَقَاصِدِهِ ... بِضَرْبَةٍ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا يُثَنِّيهَا
فَقَدَّ جُثْمَانَهُ قَدًّا وَعَادَ إِلَى ... أَصْحَابِهِ مُطْمَئِنَّ ٱلنَّفْسِ هَانِيهَا
وَٱلْمُشْرِكُونَ ٱسْتَشَاطَتْ مِنْ تَغَيُّظِهِمْ ... نُفُوسُهُمْ وَلَظَى ٱلْخِزْلَانِ كَاوِيهَا
فَجَاءَ عَمْرُو ٱبْنُ وُدٍّ بَعْدَهُ طَلَبًا ... لِلثَّأْرِ مُسْتَعِرَ ٱلْأَحْشَاءِ دَامِيهَا

الى قعر الخندق وضرب نوفلاً بسيفه البتار ضربةً قدته نصفين وعاد الى أصحابه وهم يصفقون طرباً أما المشركون فكبر عليهم مقتل نوفل وهو من شجعانهم وصاحوا الثار الثار . وتقدم منهم رجل مغوار قد كان أفرس الفرسان بغير جدال يدعى عمرو بن ودّ وكان وقتئذ في التسعين من عمره الا انه على شيخوخته ما كان في المشركين أقوى منه ولا أشجع واشتهر عنــه أنه ما كان يخرج الى حرب الا ويعود منصوراً وحسبك للدلالة على شجاعة وقوة هــذا الجبار العنيد أنّ عنترة بن شداد العبسي أشجع شجعان العرب المتوفي سنة ٦٠٠ مسيحية أي قبل الهجرة بنحو ١٢ سنة أكره مرة على لقائه في مبارزة فهيب موقفه وأنشد :

شربت القنا من قبل أن يشترى القنا ... ونلت المنى من كلّ أشوس عابس
فما كلّ من يشري القنا يطعن العدى ... ولا كلّ من يلقى الرجال بفارس
خرجت الى القرم الكميّ مبادراً ... وقد هجّست فى القلب مني هواجسي
وقلت لمهري والقنا يقرع القنا ... تنبه وكن مستيقظاً غير ناعس
فجاوبني مهري الكريم وقال لي ... أما من جياد الخيل كن أنت فارسي
ولما تجاذبنا السيوف وأفرغت ... ثياب المنايا كنت أول لابس
ورمحي اذا ما اهتزّ يوم كريهةٍ ... تخرّ له كل الأسود القناعس
وما هالني ياعبل فيك مهالك ... ولا راعني هول الكميّ الممارس
فدونك ياعمرو بن ودٍ ولا تحل ... فرمحي ظمآنٌ لدمّ الأشاوس

وعجز ابن ودّ عن عنترة كما عجز هــذا عنه فكانا متكافئين شجاعةً وعزماً والغريب أن عمرو بن ودّ احتفظ بقوته الفريبة حتى رأيناه شجع دون المشركين فنزل الوادي يطلب ثأر نوفل

وَكَانَ قَدْ نَاهَزَ ٱلتِّسْعِينَ وَهُوَ بِقُوَّ م ةِ ٱلشَّبَابِ ٱلَّتِي مَا مَنْ يُقَاوِيهَا
أَعْيَا ٱلسِّنِينَ وَمَا أَعْيَتْ عَزِيمَتُهُ وَلَمْ يَزَلْ بِكُرُورِ ٱلدَّهْرِ يُعْيِيهَا
وَكَانَ أَشْهَرَ مِنْ هَزَّ ٱلْمُهَنَّدَ فِي ٱلْـــحَرْبِ ٱلْعَوَانِ إِذَا نَادَى مُنَادِيهَا
وَكَانَ أَبْطَشَ بَطَّاشٍ إِذَا طَلَبَ ٱلأَ م عْدَاءَ يَوْمَ ٱلْوَغَى بِٱلسَّيْفِ يُدْمِيهَا
وَقَبْلُ عَنْتَرَةٌ قَدْ هَابَ بَرْزَتَهُ وَشِعْرُهُ فِيهِ يُنْبِي كَانَ خَاشِيهَا
وَكَانَ ذِكْرُ ٱسْمِهِ يَمْلأُ ٱلْعِدَى رَهَباً إِنْ قِيلَ عَمْرُو ٱبْنُ وِدٍّ فِي مَغَازِيهَا
وَصَاحَ يَا صَحْبَ طَــهَ وَيْلُ أُمِّكُمُ مِنِّيَ صِيَاحاً مَلا تِلْكَ ٱلأَنَاوِيهَا
مَنْ مِنْكُمُ يَبْتَغِي مَثْوَى ٱلْجِنَانِ وَقَدْ زَعَمْتُمُ أَنَّكُمْ تَثْوُونَ عَالِيهَا
وَمَنْ يُبَارِزُنِي مِنْكُمْ فَأَبْعَثُهُ إِلَى مَرَابِعِهَا ٱلزَّهْرَا لِيَثْوِيهَا
مَا بَالُكُمْ قَدْ فَرِقْتُمْ مِنْ مُبَارَزَتِي وَبُحَّ صَوْتِي لِفُرْسَانٍ أُنَادِيهَا
وَرَاحَ يَرْجُزُ لَغْوَ ٱلْقَوْلِ مُدَّعِياً بِنَفْسِــهِ يَتَخَطَّى خَطْوَهُ تِيهَا
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ حُمَاةِ ٱلدِّينِ مُجْتَرِئٌ عَلَى مُلاقَاةِ عَمْرٍو رَاحَ وَاخِيهَا

نزل عمرو بن ودّ الخنـدق وهو راكب جواده وصاح من يبارز فلما بلغ نداءه مسامع المسلمين تهيبوه لشهرته فلم يكن فيهم من يلبي نداءه غير عليّ فتقدم من المصطفى عليهما الصلاة والسلام وقال أنا له يانبيّ الله فأشفق المصطفى على عليّ وقال: أجلس فانه عمرو بن ودّ فجلس علي رغمه بانما كان عمرو يكرّر نداءه حتى جعل يوبخ المسلمين ويقول « أين جنتكم التي تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون لي رجلاً أقاتله وأبعثه الى جنتكم واذ لم يجد مجيباً جعل ينشد:

ولقد بححت من النـدا ء لجمعكم هل من مبارز
انّ الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

أما المسلمون فلم يكن فيهم من يجرأ على مبارزة كفار قريش فرجوا الا علينا المرتضى فجعل يلحّ على المصطفى عليهما الصلاة والسلام أن يأذن له بالخروج الى عمرو بن ودّ وكان المصطفى عليه السلام يتبسم ويقول « اجلس ياعلي فانه عمرو بن ودّ » وفي الأخير حرج صدر أمير المؤمنين وغلا الدم الشريف في عروته وقال « وان كان عمرواً فأنا علي بن أبي طالب » فلما سمع المسلمون من المرتضى هذا القول أكبروه وجعلوا ينظرون اليه بأعين ملؤها الاحترام والاكبار واذ ذاك أذن المصطفى لبطل الاسلام الأكبر أن يبارز بطل المشركين الأشهر وقلده بيمينه الشريفة سيفه ذا الفقار وألبسه درعه الحديدي وعممه بعمامته وقال « اللهمّ أعنه عليه ، اللهم هذا أخي وابن عمي فلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين » ثم مال الى عليّ بعطفه الأسنى وقال له: « سر على بركات الله » وفي الحال هبط سيدنا علي عليه صلوات الله الى الوادي هبوط الأسد الغضنفر لملتقي فريسته وهو مشهر ذا الفقار بيمينه حتى اذا ما دنا من عمرو بن ودّ أنشد:

إِلاَّ ٱلْعَلِيُّ ٱلَّذِي أَعْدَاؤُهُ عَرَفَت ... مِنْهُ ٱلشَّجَاعَةَ مُذْ أَمْسَى يُلَاقِيهَا

وَلَمْ يَكُنْ فِي جُمُوعِ ٱلْمُسْلِمِينَ سِوَا ... هُ أَرْوَعاً دَعْوَةَ ٱلدَّاعِي يُوَافِيهَا

فَقَالَ لِلْمُصْطَفَى : إِنِّي لَهُ فَأَبَا ... هَا ٱلْمُصْطَفَى بَرْزَةً مَا ٱلْأَمْنُ تَالِيهَا

فَكَرَّرَ ٱلْمُرْتَضَى ٱسْتِئْذَانَ صَاحِبِهِ ... بِعَزْمَةٍ مَا لِقَاءُ ٱلْمَوْتِ يُثْنِيهَا

وَكَانَ هِزَبْرُ ٱبْنِ وُدٍّ لِلْمَخَاطِرِ يَدْ ... فَعُ ٱلْعَلِيُّ فَلَمْ يَرْهَبْ تَوَخِّيهَا

وَقَالَ : شُهْرَةُ عَمْرٍو فِي شَجَاعَتِهِ ... لَا تَقْعُدَنَّ بِمِثْلِي عَنْ تَلَقِّيهَا

إِنِّي سَأَكْفِيكُمُ تَهْدِيدَهُ بِشَبَا ... سَيْفِي وَأَشْلَاؤُهُ لِلطَّيْرِ أُلْقِيهَا

وَإِذْ رَأَى ٱلْمُصْطَفَى إِصْرَارَ حَيْدَرَةٍ ... عَلَى مُبَارَزَةٍ مَا ٱنْفَكَّ يَنْوِيهَا

وَمَا سِوَاهُ عَلَيْهَا قَدْ تَجَرَّأَ مِنْ ... أَصْحَابِهِ بَلْ رَأَى مِنْهُمْ تَجَافِيهَا

أَجَازَهَا لِعَلِيٍّ وَهْوَ يَسْأَلُ أَنْ ... تَنَالَ يُمْنَاهُ عَفْواً عَوْنَ بَارِيهَا

وَذُو ٱلْفِقَارِ لَهُ أَعْطَى وَأَلْبَسَهُ ... دِرْعَ ٱلْحَدِيدِ وَعَيْنُ ٱلْعُجْبِ يُثْنِيهَا

وَبَعْدُ عَمَّمَهُ زَاهِي عَمَامَتِهِ ... فَكَانَ أَهْيَبَ مَا يُلْفَى تَزَيِّيهَا

لا تعجلنَّ فقد أتا ... ك مجيب قولك غير عاجز

ذو نيَّة وبصيرة ... والصدق منجي كل فائز

فنظر عمرو بن ود الى الشاب العليّ نظرة احتقار ولم يجبه فقال له علي « انك ياعمّ كنت عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش الى واحدة من ثلاث الا قبلتها » قال : أجل فقال علي: « فاني أدعوك أن تشهد أن لا اله الا الله وأنّ محمداً رسول الله وتسلم لربّ العالمين » فقال عمرو « يا ابن أخي أخّر عني هذه » فقال علي : « والثانية أن ترجع الى بلادك فان يك محمد صادقاً كنت أسعد الناس به وان يك كاذباً كان الذي تريده من قهره » قال عمرو : « هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً كيف وقد قدرت على ايفاء ما نذرت » قال علي: «ويلك وما هو الذي نذرته » قال عمرو : « يوم أن أفلت من بدر بعد أن جرحت نذرت أن لا يمسّ الدهن رأسي حتى أقتل محمداً فقل الثالثة يا ابن أخي » قال علي : « وأما الثالثة فهي مبارزتك » فضحك عمرو ابن ودّ بملء شدقيه حتى بانت نواجذه وقال : « ان هذه الخصلة ما كنت أظنّ أحداً من العرب يروعني بها على أني يا ابن أخي لا أحبّ أن أقتلك فان أباك الشيخ أبا طالب كان صديقي وعشيري وفي عمومتك من هو أشد منك وأنت بعد في مقتبل العمر وزهوة الشباب » فقال علي : « أما أنا فلا أكره أن أقتلك وأهرق دمك في سبيل الله » فغضب عمرو بن ودّ وقال « ويلك ماذا تقول ؟ » قال علي بفؤاد لا يرهب الموت : « أقول اني أحب أن أبارزك فانزل عن فرسك وبارزني» وفي الحال نزل عمرو بن ودّ عن فرسه وهو شعلة غضب وسلّ سيفه وعقر فرسه وضرب جبهته

وَقَالَ : هٰذَا أَخِي هٰذَا ٱبْنُ عَمِّيَ يَا   رَبَّاهُ نَصْرَتُكَ ٱلْعَلْيَا أُرَجِّيهَا
فَلَا تَذَرْ أَحْمَدًا فَرْدًا فَإِنَّكَ خَيْـــرُ ٱلْوَارِثِينَ لِذِي ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِيهَا
أَمَّا ٱلْعَلِيُّ فَقَدْ وَافَى ٱبْنَ وُدٍّ بِنَفْـــسٍ لَا تَهَابُ ٱلْمَنَايَا أَوْ تُحَاشِيهَا
وَقَالَ : مَا كُنْتَ تُدْعَى لِلثَّلَاثِ كَمَا   عَاهَدْتَ إِلَّا وَإِحْدَاهَا تُلَبِّيهَا
فَقَالَ عَمْرُو : أَجَلْ فَٱعْرِضْ عَلَيَّ أَمَا   نِيكَ ٱلثَّلَاثَ فَإِنِّيَ ٱلْآنَ وَاعِيهَا
فَقَالَ : وَحِّدْ وَآمِنْ بِٱلرِّسَالَةِ أَسْـــلِمْ قَالَ : دَعْ دَعْوَةً مَا زِلْتُ آبِيهَا
فَقَالَ : فَٱرْجِعْ إِلَى مَغْنَاكَ مُنْتَظِرًا   نَصْرَ ٱلرِّسَالَةِ إِذْ يَهْنَاكَ هَانِيهَا
أَجَابَ : كَلَّا فَلَا أُبْقِي نِسَاءَ قُرَيْـــشٍ لَاحِيَاتٍ لِذِكْرِي فِي مَخَابِيهَا
فَقَدْ نَذَرْتُ بِبَدْرٍ إِذْ هَرَبْتُ جَرِيـــحًا أَنْ أَعُودَ إِلَى ٱلْهَيْجَا فَأَصْلِيهَا
وَأَقْتُلَ ٱلْمُصْطَفَى فِي وَسْطِ مِلَّتِهِ   وَنَذْرَتِي جِئْتُ هٰذَا ٱلْيَوْمَ أُوفِيهَا
فَقَالَ حَامِي حِمَى ٱلْإِسْلَامِ وَيْلَكَ فَٱبْـــرُزْ لِي وَوَدِّعْ حَيَاةً جِئْتَ تُفْنِيهَا
إِنِّي مُجِيبُكَ لِلشَّرِّ ٱلَّذِي رَغِبْتَ   فِيـــهِ مَطَامِعُكَ ٱلْمَلْعُونُ نَاوِيهَا
أَجَابَ عَمْرُو : وَهَلْ تَبْغِي مُبَارَزَتِي   وَلَيْسَ مِنْ عَاقِلٍ فِي ٱلْعُرْبِ يَبْغِيهَا
نَادَى : نَعَمْ قَالَ أَقْصِرْ ذِي رُعُونَةُ غِـــرٍّ جَاهِلٍ مَا أَنَا تَٱللّٰهِ رَاضِيهَا
لَا أَرْتَضِي لَكَ قَتْلًا مِنْ يَدِي فَدَعِ ٱلْـــمَغْرُورَ مِنْ نَفْسِكَ ٱلْمُودِي تَشَهِّيهَا

وأقبل على علينا المرتضى فاستقبله علي بدرقته فضربها عمرو بسيفه فقدّها نصفين وشج رأسه فعاجله علي بضربة من ذي الفقار وقعت على عنقه فخرّ على الأرض مضرّجاً بدمه فأجهز عليـه وعاد الى المدينة يجرّ ذيل النصر والدم يتدفق من جبهته الشريفة . أما المسلمون فلما شهدوا من معسكرهم هلاك عمرو بن ودّ وانتصار علي بن أبي طالب أخذوا يهللون ويكبرون ويحمدون الله . أما المشركون فلما رأوا ما حلّ ببطلهم الأشهر انكسرت نفوسهم وخارت عزائمهم

وعلى أثر مقتل عمرو بن ودّ جاء المصطفى رجل يدعى نعيم بن مسعود الأشجعي وقال له اني أسلمت ولم يعلم القوم باسلامي فمرني بما تشاء فقال له عليه السلام انما أنت رجل واحد فخذّل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة فسار نعيم الى بني قريظة وكان لهم نديماً فأغراهم على مشركي قريش وغطفان قائلاً انهم غرباء لا يلبثون أن يعودوا أدراجهم الى مواطنهم وتبقون هنا وحدكم على عداء محمد في مستقبلكم فالرأي عندي اذا كنتم مصرين على عهودكم معهم أن تأخذوا رهناً من أشرافهم بأن ينصروكم كلما أراد محمد بكم شراً وما زال على هذا حتى استمالهم الى قوله . ثمّ مضى الى قريش فاجتمع بأبي سفيان ومن معـه من الزعماء وقال لهم لقد بلغني أن اليهود قد ندموا لتحزبهم معكم

وَفِي عُمُومَتِكَ ٱلْأَقْوَى فَدَعْنِي أَلْـ ... ـقِي جَمْعَهَا مُفْرَدًا حَتَّى أُلَاشِيهَا

إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَلْقَى مَثِيلَكَ مِنْ ... فِتْيَانِ قَوْمِي وَإِنْ شَطَّتْ أَمَانِيهَا

وَكَانَ فِي صُحْبَتِي قِدْمًا أَبُوكَ وَإِنِّـ ... ـي فِيكَ صُحْبَتُهُ ٱلْغَرَّا أُرَاعِيهَا

وَكَانَ يَضْحَكُ مِنْ إِقْدَامِ حَيْدَرَةٍ ... عَلَى ٱلْمَنِيَّةِ كَيْ يُلْقِيهِ فِي فِيهَا

وَكَانَ فِي عُجْبِهِ فَوْقَ ٱلْجَوَادِ يَرَى ... لِنَفْسِهِ عِزَّةً لَا عِزَّ يَحْكِيهَا

وَٱلْمُرْتَضَى صَاحَ مِنْ بَعْدِ ٱلْجِدَالِ بِهِ: ... أَقْصِرْ حَدِيثَكَ قَدْ حُمَّ ٱلْقَضَا إِنِّهَا

أَنْزِلْ إِلَيَّ وَبَارِزْنِي وَكُنْ بَطَلًا ... وَٱلْقَ ٱلْحَقَائِقَ لَا تَبْغِ ٱلتَّوَارِيهَا

فَٱنْقَضَّ عَمْرٌو وَقَدْ أَرْدَى ٱلْجَوَادَ عَلَى ... عَلِيِّنَا يَدُهُ بِٱلسَّيْفِ يُهْوِيهَا

فَقَدَّ دِرْقَتَـهُ ثُمَّ وَجْبَهَتَهُ ... قَدْ شَجَّ شَجًّا فَأَخْزَى ٱللهُ مُدْمِيهَا

إِذْ ذَاكَ أَهْوَى عَلِيٌّ فَوْقَ هَامَتِهِ ... بِضَرْبَةٍ بَلَغَتْ مِنْهُ تَمَنِّيهَا

فَكَبَّرَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلرَّاصِدُونَ لَهَا ... بُشْرًا بِنَصْرِهِمْ شُكْرًا لِجَانِيهَا

وأرسلوا الى محمد سراً يظهرون له ندمهم على مظاهرة أعدائه عليه وقالوا له أيسرك أن نرسل لك من أشراف قريش وغطفان رجالاً تضرب أعناقهم ثم نناصرك على من بقي منهم فارتضى محمد بما عرضوا وسار أيضاً بمثل هذا القول الى غطفان فأثر على هؤلاء وأولئك وأحكم الضغينة في صدورهم على بني قريظة اليهود . فلما كانت ليلة السبت من شوال السنة الخامسة للهجرة أرسل مشركو قريش وغطفان عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين الى بني قريظة فقالوا لهم أن يهبوا في صباح غد « السبت » لمهاجمة المسلمين فأجابهم بنو قريظة اننا لا نخرج الى قتال في يوم السبت وفوق هذا فإنا لا نقاتل محمداً حتى تعطونا بعض أشرافكم رهينة أن تكونوا معنا في المستقبل على المسلمين فلما عاد عكرمة وأصحابه بجواب بني قريظة هذا الى قريش وغطفان تأكد هؤلاء خبر نعيم وأرسلوا الى بني قريظة ينبئونهم بأنهم لا يعطون أحداً رهينة فتأكد بنو قريظة من جواب قريش وغطفان صدق ما قال نعيم من خذلهم في المستقبل وهكذا تقاعس هؤلاء وهؤلاء عن القتال وفرقت كلمتهم ودبّ الشقاق في صدورهم وتسرّب الرعب الى قلوبهم وبينما هم كذلك واذا بريح باردة في ليلة شاتية هبت عليهم فكفأت قدورهم وطرحت آنيتهم فزادتهم جبناً وفرقاً فهبوا مذعورين مدبرين وكان أبو سفيان أول الهاربين وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة عن صدور المسلمين وحمدوا الله رب العالمين

ثم ان رسول الله أمر بعد انصراف الأحزاب أن يتوجه المسلمون الى بني قريظة ليعاقبوهم على نكثهم عهودهم فذهب المسلمون اليهم وحاصروهم خمس وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم عليهم بقتل مقاتلتهم ونفذ الحكم فيهم . وبعد الانصراف من الاحزاب انضمّ الى صفوف المسلمين عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومي فأصبحا مجاهدين في سبيل الاسلام بعد ان كانا من ألدّ أعدائه

وَهَلَّلَ ٱلْمُصْطَفَى تَهْلِيلَ مُغْتَبِطٍ ... بِمِلَّةٍ أَهْلَكَ ٱلْبَارِي مُنَاوِنَهَا
وَقَابَلَ ٱلْمُرْتَضَى يَدْعُو وَيَحْمِدُهُ ... وَقَدْ كَفَى أُمَّةَ ٱلْإِسْلَامِ طَاغِيَهَا
وَبَعْدَ ذَا شُتِّتَ ٱلْأَحْزَابُ خَالِقُهَا ... مِنْ بَعْدِ مَا أَظْهَرَتْ لُؤْمًا تَعَادِيهَا
فَقَدْ أَسَا بَعْضُهَا بِٱلْبَعْضِ ظَنَّتَهُ ... إِسَاءَةً فَرَّقَتْ بَادِي تَجَمُّعِهَا
وَٱلرِّيحُ هَبَّتْ عَلَيْهَا وَهِيَ مُحْدِثَةٌ ... زَوَابِعًا نَسَفَتْ نَسْفًا أَثَافِيهَا
وَسَلَّمَ ٱللهُ أَنْصَارَ ٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلسَّمْحَاءِ مِنْ مِحْنَةٍ سَوْدَا تُقَاسِيهَا

أمير المؤمنين في يوم الحديبية

كَانَ ٱلرَّسُولُ كَكُلِّ ٱلْعُرْبِ مُحْتَرِمًا ... فَرِيضَةَ ٱلْحَجِّ بِٱلْإِحْرَامِ يَقْضِيهَا(١)
وَكَانَ إِذْ كَانَ فِي أُمِّ ٱلْقُرَى أَبَدًا ... يَطُوفُ بِٱلْكَعْبَةِ ٱلْغَرَّاءِ تَجْزِيهَا

وأما سلمان الفارسي الذي أشار بحفر الخندق فهو رجل من فارس وقد وقع قبل الهجرة أسيراً في يد الخزرج فاستعبدوه وبعد الهجرة أسلم وحسن اسلامه الا أنه لم يتحرر الا بعد غزوة أحد وكانت أول مشاهده غزوة الخندق وكان هذا الصحابي نبيهاً ذكياً على معرفة وسداد رأي حتى أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يستشيره ويسمع له

(١) خرج المصطفى صلى الله عليه وسلم يريد الحج ومكة المكرمة لا تزال في أيدي اعدائه وفي خروجه خطر عليه وعلى مصاحبيه من غدر ولؤم اولئك الاعداء وبالبداهة ان خروجه لم يكن الا لاهتمامه بقضاء هذه الفريضة المقدسة التي صارت فيما بعد من شروط الاسلام الخمسة اذ قال صلى الله عليه وسلم «بني الاسلام على خمس: شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلاً » وهو ذا نقص عليك بداءة تاريخ الحج من أقدم أيام العرب وكيفية قضاء هذه الفريضة المقدسة فنقول:

كان العرب يحجون الى الكعبة كرمها الله من قبل الاسلام بنحو خمسة وعشرين قرناً وبالاحرى منذ بناها ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام . ويبعد العرب في تاريخ حجهم فيقولون أن آدم عليه السلام حج الى موضع الكعبة مستغفراً عن اثمه وحجت اليه حواء زوجه مستغفرة عن اثمها وانهما تعارفا في عرفات في حديث يطول ليس هنا موضعه .

وكانت العرب يحجون الى الكعبة على اختلاف اديانهم بين موحدين على دين ابراهيم ووثنيين ومشركين وحتى من تهود منهم او تنصر وكانوا يعتبرونها بيت الله العالمين فلم تختص بها فيئة منهم دون الفيئات الاخرى. ورغماً عن شيوع الوثنية بين العرب ما عبدوا الكعبة لنفسها كما انهم لم يعبدوا الحجر الاسود الذي فيها لنفسه بل كانوا يكرمون الكعبة على اعتبار انها بيت الله والحجر الاسود على إعتبار ان سيدنا ابراهيم الخليل وضعه في الكعبة للعهد على نفسه وولده بجعل هذا البيت المعظم مثابة للناس وقد وضعه سيدنا ابراهيم في الركن الاقرب الى الباب ليكون اول حدود هذا البيت الذي جعله مصلى ومسجداً للطائفين والعاكفين والركع والساجدين الى الابد .

وَبَعْدَ هِجْرَتِهِ لَا شَيْءَ أَحْزَنَهُ كَبُعْدِهِ مَعْ ذَوِيهِ عَنْ مَغَانِيهَا
وَإِنَّهُ بَاتَ مَحْرُومًا وَأُمَّتُهُ عَنِ ٱلطَّوَافِ بِبِرٍّ مَعْ مُطِيفِيهَا

وما زال الحج عند عرب الجاهلية على ملة ابراهيم واسماعيل واجباً ومشاعر محترمة حتى عظم شأن قريش بعد واقعة الفيل وقال الناس فيهم انهم اهل الله وهو يدافع عنهم اذ ذاك تعالوا على العرب وقالوا : نحن ولاة البيت وسدنته وليس لاحد من الناس مثل منزلتنا واتفقوا على ان لا يعظموا شيئاً من الحل فتركوا الوقوف بعرفة والافاضة منها وافاضوا من جمع « المزدلفة » وقالوا لا ينبغي لاهل الحل ان يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحرم اذا جاؤوا حجاجاً وأوجبوا عليهم ان لا يطوفوا بالبيت الا في ثياب الحمس « اي المتحمسين في دينهم » فان لم يجدوا طافوا بالبيت عراة ، فدانت العرب بذلك وقد كان السعي بين الصفا والمروة من لوازم الحج في الجاهلية ، وكان لهم صنم على الصفا يسمى « اساف » وآخر على المروة يسمى « نائلة » وكانوا ينحرون عندهما هديهم . فلما جاء الاسلام امتنع المسلمون عن السعي كيلا يكونوا مثل أهل الجاهلية في وثنيتهم فنزل قوله تعالى « ان الصفا والمروة من شعائر الله » وحينئذ عاد المسلمون الى السعي بينهما

اما طريقة الحج التي يجري عليها المسلمون فهي انهم عند ما يصلون الى ميقات الاحرام يحرمون بنية الحج اي ان الرجل منهم يتجرد من مخيط الثياب ويلبس ازاراً ابيض معه رداء ونعلان اذا تيسر له ذلك والمرأة تلبس ملابسها وتكشف يديها ووجهها ان لم تخش الفتنة . ويقول الحاج او الحاجة في حالة الاحرام « اللهم اني نويت الاحرام لحج بيتك المعظم فيسره لي وتقبله مني » ومنهم من ينوي نية العمرة وهي كالحج ولكن ليس لها مدة معينة واركانها احرام ، وطواف وسعي ، ومن الحجاج من ينوي الحج والعمرة معاً . ويسن على الحاج المحرم او المعتمر حلق ما شعر تحت البطن وتقليم الاظفار وتسريح الشعر والغسل وصلاة ركعتين يبدأ الاحرام بهما

ويحرم الحاج منذ وصوله الى حد حرم مكة وهذا الحرم يحتاطها من جميع جوانبها ومسافة ما بين دائرة هذا الحرم ونقطتها المركزية التي هي الكعبة المشرفة من جهة الشمال والشرق والجنوب تبلغ خمسة عشر كيلومتراً أما من جهة الغرب فلا تتجاوز الخمس كيلومترات . وعلى حد الحرم من الجنوب مكان يسمونه « أضاه » . ومن الغرب بميل قليل الى الشمال قرية « الحديبية » التي نحن بصددها كما ترى في المتن . ومن الشرق على طريق الطائف مكان يسمى « الجوانه » . وفي هذا الحرام يتناول الأمان الانسان والحيوان حتى النبات فكل من دخله فهو آمن وكل من فيه من هذه العوالم الثلاث فهو آمن .

ثم ان الحاج يبدأ حجته بقوله « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » وعليه أن يكرر هذه التلبية من وقت الى آخر حتى اذا ما دخل مكة المكرمة يقول : « اللهم ان هذا الحرم حرمك ، والامن امنك ، والعبد عبدك . اللهم اني جئتك من بلاد بعيدة ، بذنوب كثيرة ، راجياً ان تستقبلني بمحض عفوك وكرمك ، وان تحرم جسدي على النار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » . فاذا انتهى الى الحرم يدخل من باب السلام وهو يقول : « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم انت السلام ومنك السلام ، فحينا بالسلام ، وادخلنا الجنة دار السلام ، بفضلك ياذا الجلال والاكرام » ثم يسير نحو الكعبة من جهة الشرق وهو يقول : « اللهم ان هذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك ،

وَطَالَمَا اشْتَاقَهَا شَوْقَ الْمُحِبِّ إِلَى حَبِيبِهِ وَشَكَا قَاسِيْ تَنَائِيهَا
حَتَّى إِذَا مَا النَّوَى قَدْ طَالَ سَارَ إِلَيْـــهَا زَائِراً لَمْ يَهَبْ عُدْوَى أَهَالِيهَا

اللهمّ حرّم جسمي على النار » وعند ما يقع بصره على الكعبة المعظمة يقول: « بسم الله والله أكبر (ثلاثا) لااله الا الله ، وحده لاشريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » ويدخل بعد ذلك من باب شيبة وهو يقول « ربّ أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ، وقل جاء الحقّ ، وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقاً . وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خساراً » ثمّ يتجه نحو الحجر الاسود فيستقبله ويقول : « بسم الله ، الله اكبر ، ولله الحمد ، اللهمّ اغفرلي ذنبي ، وطهرلي قلبي ، واشرح لي صدري ، وعافني برحمتك فيمن تعافي » ثمّ يستلم الحجر بيمينه ويقبله (اذا استطاع اليه وصولاً او يكتفي ان يفعل اشارة التقبيل) وينوي الطواف ويقول: « اللهمّ اني نويت طواف بيتك المعظّم سبعة اشواط لوجهك الكريم . اللهمّ يسرها لي .وتقبلها مني » ثمّ ينطلق بعد ذلك بطوافه وهو يقول « اللهمّ ، ايماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، اشهد ان لااله الا الله ، وحده لاشريك له . وأنّ محمداً عبده ورسوله . اللهمّ ان هذا البيت بيتك . والحرم حرمك . والامن امنك . وهذا مقام العائذ بك من النار . فاعذني منها ياعزيز ياغفار . اللهمّ اني اعوذ بك من الكفر . والفقر . وضيق الصدر . وعذاب القبر . ومن فتنة المحيا والممات . اللهمّ : اني أسألك العفو . والعافية . والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة . اللهمّ . اظلني تحت عرشك . يوم لاظلّ الا ظلك . واسقني بكاس نبيك محمد صلى الله عليه وسلم . شربةً هنيةً مريئةً لا أظمأ بعدها ابداً . اللهمّ اجعله حجاً مبروراً . وسعياً مشكوراً . وذنباً مغفوراً . وتجارةً لن تبور . اللهمّ . اني اعوذ بك من الشك . والشرك . والنفاق . وسوء الاخلاق . وسوء المنقلب . وسوء المنظر في المال والاهل والولد . اللهمّ . اني عبدك وابن عبدك قد اتيتك بذنوب كثيرة . اللهمّ ما كان لك منها فاغفرهلي وماكان منها لعبادك فاحمله عني » يتلو الحاج هذه الدعوات من اعماق نفسه في طريق طوافه حتى اذا ما اخذ يدنو من الحجر الاسود يقول : «ربنا آتنا في الدنيا حسنة . وفي الآخرة حسنة . وقنا عذاب النار » فاذا حاذى الحجر الاسود يقول (وهو يستلم الحجر او يسلم عليه بيمينه اذا تعذر الاستلام) « بسم الله . الله اكبر » ثمّ يدعو الله بما يشاء من الادعية السابقة او ما يحضره من غيرها .

وبعد الطواف سبعة أشواط يتوجه الحاج خلف مقام ابراهيم ويصلي ركعتين وهي سنة الطواف ويقول : « اللهمّ انك دعوت عبادك الى بيتك الحرام ، وقد جئت طائعاً لأمرك ، فاغفرلي وارحمني اللهم ، اغفر لي ، ولوالديّ ، وارحمهما كما ربياني صغيراً . اللهم ، اغفرلي ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، الاحياء منهم والأموات » ثم يقصد الحاج بعد ذلك (الملتزم) وهو يقول : « اللهمّ ، ياربّ البيت العتيق ، اعتق رقابنا ، ورقاب آبائنا وأمهاتنا ، واخواننا ، وأولادنا ، من النار . اللهمّ أحسن عاقبتنا في الامور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا ، وعذاب الآخرة . اللهمّ ، اني عبدك ، وابن عبدك ، واقف تحت بابك ، ملتزم لأعتابك ، متذلّل بين يديك ، أرجو رحمتك ، وأخشى عذابك . اللهم اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واغفر لي ذنبي » ثمّ يذهب الحاجّ الى بئر زمزم فيشرب منها هنيئاً مريئاً ثمّ يتوجه الى المسعى فاذا خرج من باب الصفا يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ،

هَانَتْ عَلَيْهِ بِلُقْيَاهَا ٱلْمَخَاطِرُ فِي هٰذِي ٱلزِّيَارَةِ أَنْ يَفْجَاهُ فَاجِيهَا
فَسَارَ مِنْ طِيبَةٍ بِٱلصَّحْبِ مُعْتَمِرَاً لِمَكَّةٍ وَفُرُوضُ ٱلْحَجِّ نَاوِيهَا

انّ الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » ثمّ يصعد على درجات الصفا ويتوجه الى الكعبة وعند ما يقع نظره عليها يقول : « بسم الله ، الله اكبر ، ولله الحمد» ثمّ يسعى الى المروة قائلاً « لا اله الا الله ، وحده لا شريك له له الملك . وله الحمد ، يحيي ويميت .وهو على كل شيء قدير ، لا اله الا الله ، ولا نعبد الا اياه ؛ مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهمّ ، اني أعوذ بك من عضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وشماتة الاعداء وزوال النعمة ، ونزول النقمة » ثمّ يهرول الحاج بين الميلين الأخضرين وهما عمودان مبنيان في جدران الحرم أحدهما بجوار باب القبلة والثاني بجوار باب علي والمسافة بينهما سبعون متراً ويقول « ربِّ اغفر .وارحم ، وتجاوز عما تعلم ، انك أنت الأعزّ الأكرم ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة. وقنا عذاب النار ، ياعزيز ياغفار ، يا ارحم الراحمين » ثمّ يدعو الحاج بمايشاء ويعدّ هذا شوطاً من السعي ويجب أن يكرره سبعاً

أما المسعى هذا فهو ما بين الصفا والمروة وطوله نحو ٤٢٠ متراً وهو شارع عمومي محاط بالبيوت والمخازن والدكاكين مما يجعله مزدحماً دائماً بالناس ولا سيما في موسم الحج

وبعد أن يسعى الحاج سبع أشواط يحلق أو يقصر ويتحلل (أي يفك احرامه) اذا كان محرماً للعمرة فقط ويظل متحللاً الى يوم التروية وهو اليوم السابق ليوم عرفة حيث يحرم للحج أما اذا كان محرماً للحج أو للحج والعمرة معاً فيظلّ محرماً لبعد عرفة بغير تحلل

ثمَّ ان الحاج يتوجه الى عرفة وله أن يبيت في منى اذا أراد ويقضي في عرفة اليوم التاسع من ذي الحجة وجزءاً من ليلة عاشره في الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل والتلبية والصلاة على النبي وآله والاكثار من تلاوة سورة الاخلاص ومن قوله « لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير » ثم عليه أن يكثر من الدعاء والتضرع الى الله بقبول حجه ، وغفران ذنبه ، وعلى الخصوص بعد العصر . ويسنّ الجمع (أي العصر مع الظهر) مع الامام بعرفة . فاذا أفاض الامام أو نائبه من عرفة فينفر معه الى المزدلفة

واعلم أن أهل السنة يكفي عندهم الوقوف بعرفة ولو لحظة واحدة من يوم تاسع ذي الحجة وليلة عاشره ولو فاته الوقوف فاته الحج من عامه فيتحلل بعمرة وعليه قضاء الحج في العام القابل ، ولو كان حجه تفلاً . وأما أهل الشيعة فلو فات الحاج منهم الوقوف بعرفة يوم تسعة ذي الحجة وليلة عاشره فانه لا يتحلل حتى يقضي حجه في عام قابل لذلك يبالغون في الاحتياط لوقوفهم فيقفون في اليومين التاسع والعاشر من ذي الحجة ولا ينزلون من عرفة الا بعد قليل من ليل الحادي عشر منه

وبعد أن ينفر الحاج الى مزدلفة يجمع فيها حصى الجمار وعددها ٤٩ حصوة ثم يسير الى منى وهناك يرمي جمرة العقبة بسبع حصوات وهو يقول « بسم الله ، الله أكبر ، رجماً للشيطان وحزبه ، اللهمّ ، تصديقاً بكتابك ، واتباعاً لسنة نبيك وخليلك عليهما الصلاة والسلام » ثمّ يذبح ان كان عليه هدي . ثمَّ يحلق أو يقصر وهو يقول « الحمد لله الذي قضى عني نسكي ؛ اللهمّ زدني ايماناً ويقيناً » وبعد هذا يحلّ للحاج كل ما حرم عليه في الاحرام الا النساء والطيب . وفي اليوم الثاني يرمي الحاج جمرة العقبة بعد الزوال . ثم يرمي الجمرة الثانية فالثالثة بسبع حصوات في كل جمرة . ويفعل مثل

وَلَمْ يَزَلْ طَاوِياً مَعَهَا ٱلْقِفَارَ إِلَى إِنْ أَقْبَلَتْ وَأَنَاخَتْ فِي ضَوَاحِيهَا
وَلَمْ يَكُنْ رَاغِباً بِٱلْحَرْبِ وَهُوَ بِأَشْـــهُرِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّتِي قَدْ حُرِّمَتْ فِيهَا
وَفِي ٱلْحُدَيْبِيَةِ ٱلْحَدْبَا ٱسْتَقَرَّ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ ٱلرَّأْيَ مِنْ كُفَّارِ أَهْلِيهَا (١)
وَهُمْ لَقَدْ فَرِقُوا مِنْ فَجْءِ حَجَّتِهِ وَمَا دَرَوْا أَنَّ حُبَّ ٱللهِ دَاعِيهَا
حَتَّى تَفَهَّمَتِ ٱلْكُفَّارُ نِيَّةَ أَصْـــحَابِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ بَانَتْ خَوَافِيهَا
بِمَنْ لَهُ بَعَثَتْ مِنْ رُسْلِهَا فَأَتَتْـــهُ وَأَنْثَنَتْ وَهْيَ لَا تُلْفِيهِ مُؤْذِيهَا

هذا في اليوم الثالث . وبعد ذلك ينزل الى مكة كرمها الله ويطوف طواف الافاضة ويسعى (اذا كان عليه سعي) ويكون يومه هذا الثالث عشر من ذي الحجة وحينئذ يتحلل من احرامه ويحل له النساء والطيب فكل ما حرم عليه في الحج

أما محرّمات الاحرام فهي : لبس المخيط . وتغطية الرأس أو ازالة شعره بنتف أو حلق ، فاذا فعل شيئاً من ذلك تعمداً أو سهواً فعليه الفدية بذبح شاة الا اذا كان ما أزيل من شعر الرأس لا يتجاوز الاثنتي عشر شعرة فعليه أن يتصدق بحفنة برّ . ويحرّم عليه أيضاً تقليم أظافره ، وعليه الفدية ان فعل الا اذا كان ظفراً أو ظفرين فعليه أن يتصدّق بمدّ أو مدين من البر . ويحرم عليه الطيب في بدنه أو ثوبه أو فراشه أو أكله أو شربه أو في عطوس أو في دهان ويجب عليه الفدية لو فعل . ويحرم عليه صيد الحيوان أو قتله أو تنفيره كما يحرم عليه قطع حشيش الحرم وشجره وعليه به فدية دم . ويحرم عليه الجماع وبه يفسد الحج

واذا فات الحاج شيء من أركان الحجّ أو العمرة أو شروطهما سهواً أو عمداً بطل حجه وعمرته وان فاته شيء من الواجبات وجب عليه فدية دم لكلّ واجب تركه ، وذلك بأن يذبح شاة في الحرم فان عجز عن الذبح صام ثلاثة أيام في الحج من وقت احرامه الى يوم النحر ، وسبعة أيام اذا رجع الى بلده . هذا اذا ترك شيئاً من واجباته قبل يوم الوقفة في عرفات أما ان تركه بعد الوقفة فعليه أن يصوم الايام العشرة بعد عودته الى وطنه . وان فاته شيء من السنن أو المندوبات فعليه أن يتصدق فقط

(١) بعد ارفضاض أمر الأحزاب استقر رسول الله بالمسلمين في المدينة المنورة الى جمادى الاولى « سنة ٦ هـ » حيث سار عليه الصلاة والسلام على بني لحيان يطالبهم أصحاب الرجيع ولما بلغ « غران » وهو واد بين أمج وعسفان وكان بنو لحيان نازلين فيه وجدهم قد عرفوا نبأه وهربوا من وجهه معتصمين برؤوس الجبال فتركهم وعاد الى المدينة

ولم تستقر المدينة برسول الله وأصحابه بضع ليال حتى انتهى اليه عليه الصلاة والسلام ان عيينه بن حصن أغار في خيل من غطفان على لقاح له في الغابة فأرسل سريّة مستعجلة بقيادة سعد بن زيد في طلب غطفان ثمّ تبعها بخيله ورجله واستنقذ بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي وأقام المسلمون بذي قرد حيث جرت مناوشة مع غطفان يوماً وليلة ثمّ عادوا قافلين الى المدينة

وبقي رسول الله في المدينة الى شعبان « سنة ٦ هـ » حيث خرج يريد بني المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنهم يتحفزون لحربه بزعامة الحارث بن ضرار فلقيهم على ماء لهم يسمى « المريسيع » من ناحية قديد الى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانكسرت خزاعة وفاز المسلمون

وَبَعْدَ طُولِ جِـدَالٍ قَامَ قَائِمُهُ ... قَدْ أَعْلَنَتْ عَلَنَاً رَاضِي تَصَافِيهَا

بِجَلْسَةٍ هَادَنَ الْهَادِي سُهَيْلَ فَتَى ... قُرَيْشَ فِيهَا وَأَرْضَى مُسْتَنَا بِيهَا

بِأَنْ يَعُودَ بِلَا حَجٍّ لِطَيْبَةَ عَوْ ... دَةً تُزِيلُ شُكُوكَ الْقَوْمِ تَقْصِيهَا

وَإِنْ بَغَى حَجَّةً فِي مُقْبِلٍ فَلَهُ ... ثَلَاثُ فِي مَكَّةٍ بِالنُّسْكِ يَقْضِيهَا

وَأَنْ تَجِيءَ جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ وَلَا ... سِلَاحَ مَعْهَا وَلَا حَجٌّ لِشَاكِيهَا

وَأَنْ يَسُودَ رُبَى الْعُرْبِ السَّلَامُ حَوْ ... لاً عَشْرَةً حَيْثُ لَا حَرْبٌ تُؤَاذِيهَا

وَإِنْ أَتَى أَحْمَدَاً مِنْ غَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّـهِ ... فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ أَوْ مَوَالِيهَا

أَعَادَهُ وَقُرَيْشٌ لَا تَرُدُّ لِأَحْـمَدٍ ... فَتًى مِنْ بَنِي الْإِسْلَامِ يَأْتِيهَا

وَأَنْ يُبَاحَ لِكُلِّ الْعُرْبِ عَقْدُ قُرَيْـشٍ ... أَوْ مُحَمَّدَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا

وَكَانَ يَكْتُبُ هَاتِيكَ الشُّرُوطَ عَلِـيٌّ ... وَالرَّسُولُ الْمُفَدَّى كَانَ يُمْلِيهَا

بأموالهم وأسروا أبناءهم ونساءهم وفيهم جويرية بنت الحارث المشار اليه فتزوجها رسول الله وقسم السبايا على المسلمين وعاد الى المدينة

وبعد أن لبث رسول الله في المدينة الى ذي القعدة « سنة ٦ هـ » خرج بالناس يريد مكة معتمراً لا يريد حرباً وساق معه الهَدي وهو ما يهدى الى الحرم من النعم وحرم عليه الصلاة والسلام بالعمرة ليأمن الناس من حربه ونزل في موضع يسمى الحُديبية . ولما بلغ قريشاً مسيره عليه الصلاة والسلام حسبته غازياً محارباً وتأهبت للذود عن مكة كرمها الله وأرسلت له بديلاً بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه الى الحديبية يسأله عن مقدمه فقال لهم اني قدمت حاجاً ولست محارباً فرجعوا الى قريش بذلك فأبت أن تصدق القول وقالت وان صح أن المسلمين قادمون للحج فانهم لا يدخلون مكة أبداً وبعثت الى المصطفى رسولاً آخر يسأله عن مقدمه فأجابه بما أجاب بديلاً فلما عاد الى قريش بجوابه لم تطمئن نفوسهم وبعثوا اليه الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش فلما رآه المصطفى عن بعد قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهَدي في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي رجع الى قريش ينبئهم بأن المسلمين قادمون للحج فجبهوه قائلين انك اعرابي لا علم لك بالسياسة فغضب الحليس وقال أعلى هذا حالفنا كم ؟؟ أيصد عن البيت من جاء معظماً له ؟؟ وتهددهم بالانتقاض عليهم ان منعوا المسلمين عن الحج فطيبت قريش خاطره وأرسلت للمصطفى عروة بن مسعود الثقفي وأمه سبيعة فتصداه وكلمه مسعود فقال أجئت قومك بأوشاب الناس لتذلهم؟ فان قريشاً قد عاهدت الله أن لا تدخل مكة عنوة أبداً فلطف به رسول الله وأكد له أنه لم يأت مكة الا لقضاء فريضة الحج فعاد الرجل بأمه الى قريش يخبرهم بما سمع

وبعد انصراف عروة استدعى المصطفى عمر بن الخطاب وأمره أن يسير الى قريش ويخبرهم عما قدم لأجله فأجابه عمر أنه يخاف قريشاً على نفسه وليس في مكة من بني عدي من يمنعه منهم

فقَالَ : بَسْمِلْ فَلَمْ يَقبَلْ بِبَسْمَلَةٍ سُهَيْلُ إِذْ قَالَ : لَا أَدْرِي مَعَانِيهَا
قَالَ ٱلرَّسُوْلُ : بِبِسْمِ ٱللهِ تَبْدَأُها فَقَطْ فَإِنَّ قُرَيْشاً ذَاكَ يُرْضِيهَا
وَٱكْتُبْ : فَذَا مِنْ رَسُوْلِ ٱللهِ أَحْمَدَ مَا عَلَيْهِ صَالَحَهَا صُلْحاً يُوَاتِيهَا
نَادَى سُهَيْلٌ : لَوْ ٱنِّي لِلرِّسَالَةِ قَدْ عَرَفْتُ مَا كُنْتُ مَعْ قَوْمِي أُنَاوِيهَا
قَالَ ٱلرَّسُوْلُ : إِذَنْ تَمْحُوْ ٱلرِّسَالَةَ يَا عَلِيُّ قَالَ : مُحَالٌ لَسْتُ مَاحِيهَا
إِنِّي أُؤَيِّدُهَا حَتَّى أَرَى عَلَنَاً كُلُّ ٱلْبَرِيَّةِ قَدْ دَانَتْ لِهَادِيهَا
فَقَالَ أَحْمَدُ : نَاوِلْنِيْ ٱلْوَثِيقَةَ كَيْ أَمْحُوْ فَإِنِّيَ ذِيْ ٱلدُّنْيَا أُمَاشِيهَا
وَمِثْلُهَا مَسْلَاقِيْ وَقْفَةٌ عَبَسَتْ لَهَا ٱلْوُجُوْهُ فَلَا تَأْبَى تَرَضِّيهَا
وَغَيْرَةُ ٱلْمُرْتَضَى لَاحَتْ بِمَوْقِفِهِ أَسْنَى مِنَ ٱلشَّمْسِ فِي أَبْهَى مَجَالِيهَا
أَمَّا ٱلرَّسُوْلُ فَنَادَى ٱلنَّاسَ قَالَ أَنَا رَسُوْلُ رَبِّي لِأَهْلِ ٱلْأَرْضِ أَهْدِيهَا

وقال ولكن ارسل عثمان بن عفان فهو من أمية وهي الآمرة في مكة اليوم فأرسل المصطفى عثمان بهذه المهمة فلما بلغ مكة لقيه ابان بن سعيد بن العاص بن أمية وأجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له ان شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله فغضبت قريش لجوابه واحتبسته عندها وبلغ المسلمين أن عثمان قد قتل فلما انتهى الخبر الى رسول الله قال لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا أصحابه الى المبايعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة على أن لا يفروا ولكن سرعان ما بلغه بطلان الاشاعة وان عثمان لا يزال سليماً وذلك بوصول رسول قريش اليه وهو سهيل بن عمرو العامري

قدم سهيل على رسول الله وأنبأه اصرار قريش على منعه من دخول مكة بأصحابه واتفق معه على أن يعود أدراجه على شروط هذه خلاصتها : أولاً أن يرجع المسلمون أدراجهم فلا يدخلون مكة في عامهم ولكن يصح لهم أن يقدموا اليها في الحجة التالية أو بعدها على شريطة أن تكون سيوف فرسانهم في القرب . وثانياً أن لا تحدث حرب بين المسلمين وقريش الى عشر سنين . وثالثاً أن من يأتي محمداً عليه الصلاة والسلام من قريش من غير اذن وليه يرده عليهم ومن يجيء قريشاً من أصحاب محمد لا يردونه ورابعاً تطلق الحرية للناس في الدخول في عقد محمد أو عقد قريش

ومما يذكر في هذا العقد أن رسول الله استدعى علياً عليهما الصلاة والسلام وطفق يمليه عليه فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فاعترضه سهيل بن عمرو قائلاً لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله لعلي : اكتب باسمك اللهم فكتب فقال النبي : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر فكتب علي ذلك بينما سهيل صاح معترضاً : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدك عن البيت ولكن اكتب باسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله فقال رسول الله لعلي وهو يبتسم : امح ياعلي كلمة رسول الله فقال علي : ما أنا بالذي يمحوها فقال رسول الله : أرني القرطاس فقدمه له فمحا بيده الشريفة كلمة رسول الله وقال : اكتب ياعلي هذا

إِنْ كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ فَالْجَهَالَةُ عَنْ تَصْدِيقِ دَعْوَتِيَ الْغَرَّاءِ تُنْشِيهَا
وَهكَذَا كُتِبَتْ تِلْكَ الشُّرُوطُ وَأَمْضَاهَا سُهَيْلٌ وَطـهَ آضَ مُمْضِيهَا
وَعَادَ أَصْحَابُ طـهَ لِلْمَدِينَةِ فِي عَهْدٍ لِنَشْرِ الْهُدَى جَهْراً يُهَيِّيهَا

أمير المؤمنين في غزوة خيبر

دَعَا الرَّسُولُ فَلَبَّى الْمُؤْمِنُونَ إِلَى تَأْدِيبِ خَيْبَرَ عَنْ مَاضِي تَعَدِّيهَا(١)
إِذْ مَالَأَتْ خِفْيَةً أَعْدَاءَ أَحْمَدَ مِنْ يَهُودِ قَيْنُقَاعَ ثُمَّ مِنْ نَضِيرِيهَا
وَقَالَ : غَزْوَتُنَا لِلَّهِ وِجْهَتُهَا لَا لِلْغَنَائِمِ فَلْيَرْجِعْ مُرَجِّيهَا

ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو. وقال بعد ذلك : أنا والله رسول الله وان كذبتموني ثمّ مال الى سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام وقال : لك مثلها تعطيها وأنت مقهور وكانت قولته تلك نبوة لما جرى بعد ذلك لأمير المؤمنين مع عمرو بن العاص في موقعة صفين على ما سيجيء . وبعد نهاية كتابة العقد وامضائه سار سهيل الى مكة وتحفز المصطفى للعودة الى المدينة

وغضب المسلمون لخيبتهم من قضاء الحج وكان أشدهم غضباً عمر بن الخطاب فعارض المصطفى بصلحه فجبهه قائلاً « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني » ثمّ ان المسلمين تحللوا من عمرتهم بنحر الهدي وحلق الرؤوس . وكان هذا الصلح في ظاهره نصر للمشركين ولكنه في الحقيقة كان نصراً للمسلمين لانهم بواسطته أمنوا جانب قريش وانصرفوا الى اذاعة الدعوة ومكاتبة الملوك ورؤساء العشائر وكانت رسل محمد اليهم تغدو وتروح وهي آمنة

(١) قال الله سبحانه وتعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » فان المسلمين ساءهم صلح الحديبية على ما في ظاهره من الحطّ من قدرهم لصدهم عن قضاء فريضة الحجّ وهم قادمون الى مكة معتمرين ومن الغبن في شروط الهدنة التي كتبت بينهم وبين المشركين لالتزام المصطفى أن يعيد لهم من يأتيه من قريش بغير اذن وليه خلافاً لقريش التي لا تسلم من يأتيها من المسلمين هارباً من عدل رسول الله . الا أن نتيجة هذه المعاهدة كانت في مصلحة الاسلام والمسلمين معاً لأنها كما سبقت الاشارة تركت رسل رسول الله في أمن فصارت تغدو وتروح بكتبه عليه الصلاة والسلام حيث تريد ولا من يعترض لها . وكان من نتائجها أيضاً أن رسول الله عند ما عاد بالمسلمين الى المدينة المنورة وهو مرتاح البال من عداء قريش انصرف همه الى مناجزة عدوّ بقرب المدينة طالما أظهر العداء للمسلمين وأثبت بأقواله وأفعاله انه ينتظر أن تدور الدائرة عليهم ليكون أول محاربيهم وذلك العدو هو أهل خيبر وهم من اليهود

وخيبر هذه هي مدينة بنيت باسم رجل من العماليق نزلها وقيل ان باني المدينة هو أخو يثرب المسمى خيبر أحد أولاد نوح وهذه المدينة تبعد عن المدينة المنورة نحواً من ٩٢ ميلا وكانت لذلك العهد وافرة العمران فيها مزارع ونخل وكان أهلها من اليهود ولغتهم العربية وسر نقمتهم على المسلمين هو انتصارهم لاخوانهم بني النضير الذين كان من أمرهم ما كان . ولذلك لم يستقر المقام برسول الله في طيبة حتى أخذ يتهيأ الى غزوة خيبر واستنفر لهذه الغزوة من صحبوه الى الحديبية من المهاجرين والأنصار

وَخَيْبَرٌ ذَاتُ يُسْرٍ وَٱلرِّيَاضُ حَوَا لَيْهَا وَأَشْجَارُهَا تَمْلَا ضَوَاحِيهَا

وَأَهْلُهَا حَسِبُوا أَنَّ ٱلْحُصُونَ وَإِنْ هُمْ يَظْلِمُونَ لَتَحْمِيهِمْ وَتَحْمِيهَا

لِذَاكَ شَادُوا بِإِسْرَافٍ حُصُونَهُمُ فَطَاوَلَتْ مَطْلِعَ ٱلشِّعْرَى مَبَانِيهَا

عَلَى حُصُونِهِمِ كَانَ ٱتِّكَالُهُمُ بِخَفْرِهِمْ ذِمَّةَ ٱلْإِسْلَامِ تَجْزِيهَا

وَمُذْ رَأَوْا قَوْمَ طَـهَ أَقْبَلَتْ قَفَلُوا أَبْوَابَهَا وَتَخَبَّوْا فِي مَخَابِيهَا

وَطَالَ حَصْرُ رَسُولِ ٱللهِ بَلْدَتَهُمْ فَلَمْ تُسَلِّمْ وَلَمْ يَخْنَعْ أَهَالِيهَا

فَقَالَ : نَفْتَحُهَا قَهْرًا بِحَوْلِكَ يَا رَبَّاهُ مَهْمَا تَمَادَتْ فِي تَعَصِّيهَا

فِي ٱلْحَالِ نَادَى أَبَا بَكْرٍ وَسَلَّمَهُ ٱلْـــــلِوَاءَ قَالَ لَهُ : فَٱقْصِدْ حَوَامِيهَا

فَسَارَ وَٱلْجَمْعُ مِنْ حَوْلَيْهِ مُطَّلِبًا فَتْحًا وَهِمَّتُهُ لَمْ يَنْبُ مَاضِيهَا

وَلَمْ يُوَفَّقْ إِلَى فَتْحٍ وَعَادَ إِلَى طَـهَ وَبُغْيَتُهُ قَدْ خَابَ بَاغِيهَا

فَأَوْفَدَ ٱلْمُصْطَفَى مِنْ بَعْدِهِ عُمَرًا وَقَالَ حَاجَتُنَا لَا شَكَّ تَقْضِيهَا

فَسَارَ فِيهَا أَبُو حَفْصٍ عَلَى عَجَلٍ وَٱرْتَدَّ عَنْهَا وَلَمْ يَبْلُغْ صَيَاصِيهَا

فَأَرْسَلَ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْحَبَّابَ يَحْسَبُهُ لِذِي ٱلْمُهِمَّةِ أَهْلًا أَنْ يُوَفِّيهَا

فَسَارَ فِي غَـدِهِ ثُمَّ ٱنْثَنَى يَوُسًا مِنْ نَصْرَةٍ رَامَ بِٱلْأَرْوَاحِ يَشْرِيهَا

فنفروا معه . وجاءه عليه الصلاة والسلام المتخلفون يريدون الخروج معه رجاء الغنيمة فجبههم مؤدباً فقال : « لا تخرجوا معي الا راغبين في الجهاد فاما الغنيمة فلا » وأمر منادياً ينادي بذلك . وكان خروجه صلى الله عليه وسلم لهذه الغزوة في ٢٠ محرم سنة ٧ هـ

وعندما وصل المصطفى صلى الله عليه وسلم الى ضواحي خيبر ضرب عليها الحصار فامتنعت فصبر عليها ثم أقر على فتحها فأعطى اللواء الى أبي بكر وبعثه بالمسلمين لاختراق الاسوار فسار أبو بكر بالمسلمين وما زالوا يقاتلون بياض يومهم فجهدوا ولم يكن فتح وعادوا في المساء الى المعسكر . وفي صباح اليوم الثاني أرسل المصطفى المسلمين بقيادة عمر بن الخطاب لاختراق أسوار خيبر فساروا وقاتلوا بياض نهارهم ولم يكن فتح وعادوا في المساء أدراجهم الى المصطفى . وفي اليوم الثالث استدعى المصطفى الحباب بن المنذر وهو من أبطال الأنصار وأعطاه رايته وأرسله بالمسلمين لاختراق هاتيك الأسوار فلم يكن حظه أفضل من حظ أبي بكر وعمر فعاد في المساء مع المسلمين وهم مجهودون ولم يكن فتح . وفي اليوم الرابع دعا المصطفى اليه سعد بن عبادة وهو من شجعان الأنصار وأعطاه رايته وأرسله في هاتيك المهمة مع المسلمين فساروا وحاربوا مستيئسين وعادوا في المساء أدراجهم على غير نتيجة . فلما رأى المصطفى عليه الصلاة والسلام أنَّ أسوار خيبر قد امتنعت على المسلمين ولم تقدفيها شجاعة

كَذَاكَ أَرْسَلَ سَعْدًا تَحْتَ رَايَتِهِ ... فَمَا عَلَى خَيْبَرٍ قَدْ كَانَ مُرْبِيهَا

فَٱسْتَاءَ طٰـهَ لِحَمْلَاتٍ لَهُ فُشِلَتْ ... عَلَى ٱلتَّوَالِي وَلَمْ يَنْجَحْ تَتَالِيهَا

وَقَالَ : إِنِّي لَأُعْطِي رَايَتِي بَطَلًا ... بِٱلنَّصْرِ فَوْقَ رُبَى ٱلْأَعْدَاءِ يُعْلِيهَا

فَتًى أَحَبَّ إِلٰهَ ٱلْعَرْشِ عَنْ وَلَهٍ ... وَقَدْ تَدَلَّهَ بِي تَٱللّٰهِ تَدْلِيهَا

يَكُرُّ كَرًّا وَلَا يَرْضَى ٱلْفِرَارَ وَيَلْـ ... ـقَى ٱلْأُسْدَ فِي غَابِهَا تَأْوِي مَآوِيهَا

عَلَى يَدَيْهِ إِلٰهُ ٱلْعَرْشِ يَفْتَحُ لِي ... هٰذِي ٱلْحُصُونَ وَإِنْ عَزَّتْ مَحَامِيهَا

وَفِي ٱلْغَدَاةِ دَعَا طٰـهَ ٱلْعَلِيَّ إِلَى ... مُهِمَّةٍ هُوَ بِسْمِ ٱللّٰهِ قَاضِيهَا

فَقِيلَ : إِنَّ عَلِيًّا يَشْتَكِي رَمَدَ ٱلْـ ... ـعَيْنِ ٱلَّتِي رُؤْيَةُ ٱلْأَنْوَارِ تُؤْذِيهَا

حَتَّى مَسَالِكُهُ يَخْشَى ٱلْعِثَارَ إِذَا ... مَا سَارَ فِيهَا فَلَا تُلْفِيهِ يَطْوِيهَا

فَقَالَ طٰـهَ : وَمَنْ يَأْتِي بِهِ وَإِذَا ... « بِسَلْمَةٍ » رَغْبَةُ ٱلْمَهْدِيِّ يُمْضِيهَا

وَجَدَّ يَطْلُبُ مَوْلَانَا أَبَا حَسَنٍ ... مِنْ وَسْطِ خَيْمَتِهِ إِذْ كَانَ لَاجِيهَا

فَأَظْهَرَ ٱلْمُرْتَضَى أَوْفَى طَوَاعِيَةٍ ... لِرُغْبَةٍ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا يُعَاصِيهَا

وَقَالَ : إِنْ يَمْنَعِ ٱللّٰهُ ٱلْهِبَاتِ فَلَا ... مُعْطٍ وَلَا مَانِعٌ إِنْ كَانَ مُعْطِيهَا

فَقَادَهُ « سَلْمَةٌ » وَهْوَ ٱلْمُعَصَّبُ عَيْـ ... ـنَيْهِ وَخَطْوَتُهُ رَيْثٌ تَخَطِّيهَا

أبو بكر وعمر والحباب وسعد وهم أكبر قواده ذكر بطل الاسلام الأكبر ذكرى يحق له عليه صلوات الله أن يتمثل عندها بقول الشاعر:

سيذكرني قومي اذا جدّ جدُّهم ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وقال عليه الصلاة والسلام : « لأدفعنّ الراية الى رجل يحبّ الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، كرّار غير فرّار » ولا نخال المسلمين جهلوا في مسائهم ذلك الرجل الذي عناه المصطفى

وفي صباح اليوم الخامس صلى رسول الله بالمسلمين صلاة الفجر ثمّ سأل عن عليّ عليهما الصلاة والسلام فقيل له أنه يشتكي عينيه فقال : ومن يأتي به ؟؟ ولم يكد يلقي هذا السؤال حتى أسرع سلمة بن الاكوع الى خيمة علي فوجده عليه صلوات الله منطرحاً على فراشه عاصباً عينيه فأبلغه رغبة المصطفى فقال : « اللهمّ لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت » ونهض من فراشه وقال « قدني اليه » فأخذ سلمة بيده وسار به الى المعسكر فلما دخل على المصطفى عليه الصلاة والسلام أنبأه بما كان من امتناع أسوار خيبر على أكابر قواده وقال: ليس لها الاك يا أبا الحسن فقال علي: « ولكني أرمد يارسول الله فلا أكاد أبصر موضع قدمي » فمدّ المصطفى يديه الكريمتين وجذب بهما رأس علي ووضعه في حجره الشريف وكشف عصابة عينيه وتفل بهما من بصاقه الشريف ودلكهما فبرئتا

وَإِذْ رَآهُ رَسُولُ ٱللهِ أَمْسَكَهُ وَقَالَ : ذَا مبلغِي رَغْبَيِ أُرَجِّيهَا
وَقَالَ: خَيْبَرُ فِي أَسْوَارِهَا ٱمْتَنَعَتْ وَأَنْتَ قَاهِرُهَا حَتْماً وَخَازِيهَا
فَسِرْ عَلَيْهَا وَأَنْتَ ٱلْيَوْمَ فَاتِحُهَا وَبِٱلْمَذَلَّةِ وَٱلْإِهْوَانِ مَانِيهَا
قَالَ ٱلْعَلِيُّ : وَلَـكِنْ مِنْ أَذَى رَمَدِي أَشْكُو وَعَيْنِيَ قَدْ سَالَتْ مَآقِيهَا
فَقَالَ أَحْمَدُ: لَا تَجْزَعْ فَرَمَدَتُكَ ٱلْـمُضْلَاءُ إِنِّيَ بِإِذْنِ ٱللهِ أُبْرِيهَا
وَرَاحَ مُسْتَقْبِلاً رَأْسَ ٱلْعَلِيِّ عَلَى ٱلْحِجْرِ ٱلشَّرِيفِ بِأَلْطَافٍ يُوَالِيهَا
ثُمَّ جَلَا بِبَنَانِ ٱللُّطْفِ غَصَبَةَ عَيْنَيْهِ وَرَمَدَتُهُ أَمْسَى يُدَاوِيهَا
وَبِٱلْبُصَاقِ ٱنْثَنَى يَجْلُو ٱلْغَمَاسَةَ عَنْهُمَا فَزَالَتْ وَكَانَ ٱلْبُرْءُ تَالِيهَا
وَبَعْدَ ذَا مَا شَكَا مِنْ رَمْدَةٍ دَهَمَتْ عَيْنَيْهِ كَلَّا وَلَمْ يَعْرِفْ تَأَذِّيهَا
وَقَالَ طَـهَ : فَسِرْ لَا تَلْتَفِتْ أَبَداً حَتَّى تُدَوِّخَ غَاوِيهَا وَعَاتِيهَا
وَعَنْ يَمِينِكَ جِبْرِيلٌ وَفِي يَدِهِ سَيْفٌ إِذَا ضَرَبَ ٱلْأَجْبَالَ يَفْرِيهَا
وَمَنْ بِيُمْنَاهُ نَفْسِي عَوْنُ غَزْوَتِكَ ٱلْـغَرَّا بِنَصْرَتِهِ ٱلْعَلْيَا يُوَشِّيهَا

باذن الله حتى كأن لم يكن فيهما رمد ولا ألم وقال علي انه لم يشك بعد ذلك بعينيه طول حياته

وبعد أن شفيت عينا أمير المؤمنين عقـد له المصطفى لواءه الأبيض وقال له : « امش ولا تلتفت » فسار عليّ يتبعه المسلمون مهللين مكبرين حتى اذا ما خطا بهم بضع خطوات وقف من غير أن يلتفت الى ورائه وصرخ بأعلى صوته : « يارسول الله علامَ أقاتل الناس ؟؟ » فأجابه المصطفى « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فاذا فعلوا ذلك ، فقد منعوا منك دماءهم ، وأموالهم ، الا بحقها ، وحسابهم على الله تعالى العالم بما تخفي سرائرهم ، أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ، فوالله لان يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم ، تتصدّق بها في سبيل الله ، ياعلي : والذي نفسي بيده ، ان معك من لا يخذلك ، هذا جبريل عليه السلام عن يمينك ، بيده سيف لوضرب به الجبال لقطعها ، فاستبشر بالرضوان والجنة ، ياعلي : انك سيد العرب وأنا سيد ولد آدم » نقول : بهذه الـكلمات الطيبة ودع المصطفى علياً عليهما الصلاة والسلام

سار الأسد الغالب علي بن أبي طالب لمهمة عجز عنها ابو بكر وعمر والحباب وسعد حتى داخل الناس اليأس من النجاح فانكسرت قلوبهم او كادت. حتى اذا ما بلغ بجيشه اسوار خيبر ركز رايته تحت الحصن واخذ يـعد جيشه للهجوم فأطلّ عليه بعض حماة الحصن وناداه احدهم بصوت جهوري فقال : من أنت ؟ قال : أنا من تعلم علي بن أبي طالب . صاح المنادي : علوتم وحقّ ما انزل على موسى. ولم يكد الصائح يتمّ كلامه الا ونزلت طائفة من شجعان الخيبريين فصمد لها المسلمون واشتبك القتال فما زال امير المؤمنين عليه الصلاة والسلام يدير دفة الحرب بمهارته وشجاعته حتى انكشف الاعداء وتباعدوا عنه . فهمّ علي باتباعهم ودخول الحصن واذا بشجاع من خيبر يدعى الحارث تصدى لسيدنا علي ودعاه للبراز فلباه

أَبْشِرْ بِرِضْوَانِ رَبِّي أَنْتَ كَاسِبُهُ ... وَبِالْجِنَانِ الَّتِي لَا شَكَّ تَثْوِيهَا
وَأَنْتَ لِلْعُرْبِ مَوْلًى مُنْجِدٌ وَأَنَا ... مَوْلَى بَنِي آدَمٍ طُرًّا وَمُهْدِيهَا
فَسَارَ حَيْدَرَةٌ سَيْرَ الْهِزَبْرِ إِلَى ... مَلْقَى الْفَرَائِسِ بِالرَّغْبَى يُمَنِّيهَا
وَبَعْدَ بِضْعِ خُطًى نَادَى الرَّسُولَ: عَلَى ... مَاذَا أُحَارِبُهَا أَوْ مَا أُقَاضِيهَا
فَقَالَ: قَاتِلْ ذَوِيهَا أَوْ تَصِيخُ إِلَى الشَّهَادَتَيْنِ وَتَرْضَى أَمْرَ بَارِيهَا
لَكَ الظَّوَاهِرُ تُبْدِيهَا فَتَقْبَلُهَا ... وَلِلْمُهَيْمِنِ مَا تُخْفِي خَوَافِيهَا
أَبْلِغْ جَمَاعَتَهَا طُرًّا فَرَائِضَنَا ... وَافْرِضْ عَلَيْهَا جَمِيعًا أَنْ تُؤَدِّيهَا
فَإِنْ أَجَابَتْكَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا حَقَنَتْ ... دِمَاءَهَا وَنَجَتْ مَعْ مَا بِأَيْدِيهَا
وَإِنْ بِكَ اللهُ آتَى هَدْيَهُ رَجُلًا ... خَيْرٌ مِنَ النِّعَمِ الْكُبْرَى تُزَكِّيهَا
كَذَا الْعَلِيُّ سَعَى وَالنَّاسُ تَتْبَعُهُ ... إِلَى الْحُصُونِ الَّتِي أَعْيَتْ مُلَاقِيهَا
ثُمَّ تَسَارَعَ فِي إِرْكَازِ رَايَتِهِ ... بِقُرْبِهَا عِنْدَ مَا أَمْسَى مُدَانِيهَا
وَصَاحَ: هَلْ مِنْكُمُ يَا آلَ خَيْبَرَ مَنْ ... يَبْغِي مُبَارَزَةً قَدْ جِئْتُ دَاعِيهَا

واشتبكا ولم يكن الا القليل حتى وقع الحارث قتيلاً فلما رأى الخيبريون المنكشفون ما كان من امر أشجع شجعانهم ولوا هاربين نحو حصنهم الحصين وفي أثناء ذلك اقبل رجل مفتول الساعدين وانقضّ على أمير المؤمنين وهو مشهر سيفه وينادي انا مرحب اخو الحارث اطالب بدمه وفاجأ أمير المؤمنين بضربة سيف تلقاها عليه صلوات الله بترسه فطرحتها من يده فمال علي واذا بجانبه باب ملقى بجانب الحصن لايقوى على حمله السبعة انفار فتناوله بيده القوية وتترس به فارتجز مرحب فقال :

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرَّب

وارتجز أمير المؤمنين فقال :

أنا الذي سمتنِ أمي حيدره ... ضرغامُ آجامٍ وليس قسوره

وما زال هذان البطلان يتبارزان بل الاسدان يتصارعان وعلي متترس بذلك الباب ومرحب لابس الدرعين ومتقلد السيفين ومتمم العمامتين من فوقهما مغفر تحته حجر مثقوب قدر البيضة حتى تمكن الاسد الهاشمي من مرحب الخيبري فضربه ضربة سيف على أمّ رأسه تلقاها مرحب بترسه فقدَّت الترس وشقت المغفر وكسرت الحجر ومزقت العمامتين وفلقت هامته حتى أخذ ذوالفقار بأضراسه فسقط ذلك البطل الخيبري على الأرض صريعاً يختبط بدمه وكان لقتله ضجة فرح في صفوف المسلمين وضجيج خوف في صفوف الخيبريين فهمّ امير المؤمنين باختراق الحصن واذا ببطل من خيبر لا يقل عن صاحبيه شجاعةً يدعى ياسر وهو أخو مرحب والحارث الذين فجع بهما أمير المؤمنين قد انقضّ عليه وهو ينادي : انا ياسر اخو مرحب والحارث اطلب بثارهما وكان يرتجز

قد علمت خيبر اني ياسر ... شاكي السلاح بطل مغاور

فصاحَ صائحُهُمْ : مَنْ أَنتَ قالَ : أَنا عَلِيٌّ نَادَى مَغَازِيكُمْ بِعَالِيهَا
ثُمَّ ٱلحُمَاةُ إِلَى لُقيَاهُ قَدْ خَرَجَتْ وَٱلمُسْلِمُونَ تَنَاءَوْا عَنْ مَرَامِيهَا
أَمَّا ٱلعَلِيُّ فَلَمْ يَجْزَعْ لِمَوْقِفِهِ وَلَمْ يَخَفْ وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ تَلَقِّيهَا
فَجَاءَهُ ٱلحَارِثُ ٱلصِّنْدِيدُ وَهُوَ بِخَيْبَرَ ٱلشُّجَاعُ ٱلَّذِي يَلْقَى أَعَادِيهَا
يَبْغِي عَلَى جَهْلَةٍ مِنْهُ مُبَارَزَةً تَٱللهِ مَا عَاقِلٌ فِي ٱلنَّاسِ يَبْغِيهَا
فَصَاوَلَ ٱلحَارِثَ ٱلغَمْرَ ٱلَّذِي بَطَشَتْ بِهِ يَمِينُ عَلِيٍّ وَهُوَ يُهْوِيهَا
وَإِذْ رَأَى ٱلخَيْبَرِيُّونَ ٱلقَتِيلَ لَوَوْا وُجُوهَهُمْ وَٱصْفِرَارُ ٱلمَوْتِ غَاشِيهَا
وَأَسْرَعُوا فِرَقاً يَأْوُونَ حِصْنَهُمُ لِهَلْكَةٍ فَاجَأَتْ رَامُوا تَوَقِّيهَا
ثُمَّ ٱنْبَرَى مَرْحَبٌ يَبْغِي مُبَارَزَةً لِأَخْذِ ثَأْرِ أَخِيهِ ٱلمُبْتَلَى فِيهَا
وَفَاجَأَ ٱلمُرْتَضَى فَجْثاً بِضَرْبَةِ سَيْفٍ طَيَّرَتْ تُرْسَهُ يَاوَيْلَ مُلْقِيهَا
وَكَانَ فِي قُرْبِهِ بَابٌ إِذَا طَلَبَتْ حِمْلَانَهُ ٱلسَّبْعَةُ ٱلأَنْفَارُ يُعْيِيهَا
فَرَامَهُ ٱلمُرْتَضَى تُرْساً وَرَدَّ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَإِلٰهُ ٱلعَرْشِ وَاقِيهَا
وَكَرَّ كَرّاً عَلَى ٱلعَادِي وَأَرْسَلَهُ لِلنَّارِ فَهُوَ وَحَقِّ ٱللهِ صَالِيهَا

فتلقاه امير المؤمنين عليه صلوات الله بضربة سيف اعجلت بروحه الى الهاوية . وحينئذ خارت عزائم الخيبريين وطلبوا منه الأمان والصلح فصالحهم على ان يبقوا في ارضهم شرطاً ان يدفعوا لرسول الله نصف غلالها وان يكونوا تحت حكم المسلمين الا اذا شاء المصطفى اجلاءهم عن بلادهم وعاد منصوراً فائزاً الى المصطفى فحمد الله على هذا النصر العظيم الذي اوتيه على يد اخيه ووصيه عليهما السلام

ولقد عظمت وقفة امير المؤمنين تلك في خيبر وقتله مرحب الذي كان الناس يضربون بشجاعته المثل وصار المسلمون يتمثلون بتلك الضربة التي ضربه بها على كثرة ما كان محتاطاً لنفسه لاتقاء مثلها وما زال الناس يتمثلون بضربة سيف امير المؤمنين هـذه خلفاً عن سلف حتى انتهت الى شعرائهم فقال احدهم

وشادنٍ أبصرته مقبلاً فقلت من وجدي به مرحبا
قدَّ فؤادي بالهوى قدُّه قدَّ عليٍ في الوغى مرحبا

وعلى ذكر هذه الحادثة اقول اني سمعتها لأول مرة من فم عظمة مولاي معز السلطنة السردار أرفع الشيخ خزعل خان سردار عربستان الذي يزين مجالسه الملوكية دائماً بذكرى نوادر امير المؤمنين وآثاره العظيمة عليه صلوات الله واستشهد عظمته بالبيتين الآتي الذكر فقلت مولاي لقد خطرت لي ابيات ارتجلتها على ذكر هذه الموقعة قال قل فقلت:

رماني الحبُّ بين يدي فتاةٍ تكبرها على قدر انكساري
أريد وصالها وتريد هجري وذنبي عندها حسن اصطباري

وَجَاءَهُ يَاسِرٌ لِلثَّأْرِ بَعْدَهُمَا ... فَكَانَ إِثْرَهُمَا فِي ٱلنَّارِ يَأْوِيهَا
وَبَعْدَ ذَا فُتِحَتْ أَسْوَارُ خَيْبَرَ فَتْحاً بِٱلْعَلِيِّ وَقَدْ دُكَّتْ رَوَاسِيهَا
وَرَدَّدَ ٱلْمُصْطَفَى شُكْرَ ٱلْعَلِيِّ وَلَا ... قَتْهُ جَمَاعَتُهُ وَٱلْحَمْدُ فِي فِيهَا

أمير المؤمنين وأبو سفيان

سِرْعَانَ مَا ٱنْتَشَرَتْ فِي ٱلْعُرْبِ دَعْوَةُ أَحْمَدَ ٱلَّتِي كَانَ بِٱلْإِخْلَاصِ دَاعِيهَا(١)
فَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا مَرَّتْ ثَمَانِيَةُ ٱلْحُؤُولِ بِٱلْهِجْرَةِ ٱلْمَغْبُوطُ سَارِيهَا
أَنَّ ٱلْأُلَى هَرَبُوا مِنْ مَكَّةٍ فَرَقاً ... مِنْ مُشْرِكِيهَا لَقَدْ أَمِنُوا مُخِيفِيهَا
وَأَنَّ رَبَّكَ أَنْمَى ٱلْمُسْلِمِينَ بِأَبْنَاءِ « ٱلْجَزِيرَةِ » عَالِيهَا وَوَاطِيهَا
وَأَنَّ قُوَّتَهُ مَعْهُمْ تُؤَيِّدُهُمْ ... وَقُوَّةُ ٱللهِ تُخْزِي مَنْ يُقَاوِيهَا
وَبَيْنَمَا شِرْعَةُ ٱلْإِسْلَامِ بَالِغَةٌ ... بِحَوْلِ رَبِّكَ مَا يُرْضِي مُرِيدِيهَا
كَذَاكَ أَعْلَامُهَا ٱلْعَلْيَاءُ قَدِ ٱنْتَشَرَتْ ... فَوْقَ ٱلرُّؤُوسِ وَهَابَتْهَا أَعَادِيهَا
وَبَيْنَمَا ٱلنَّاسُ تَخْشَى أَنْ تُغَاضِبَ أَهْلِيهَا وَتَسْعَى إِلَى مَرْضَاةِ هَادِيهَا
إِذَا بِأَصْحَابِنَا فِي مَكَّةٍ نَكَثَتْ ... عُهُودَهَا وَتَغَاضَتْ عَنْ تَآلِيهَا

فلما ضاق صدري من جفاها ... أردت أن أعرّفها اقتداري
فقلت لها احذري فتكي فقالت : ... ومني يا أخا الهيجا حذارِ
فان تك « مرحباً » لاتنس عيني ... عليك تسلّ سلاً « ذا الفقار »
فهبت لقاءها اذ ذكّرتني ... بمصرع مرحبٍ وسترت عاري
بيسمة طالبٍ عفواً وراجٍ ... رضىً قد قابلتها بالنفار
وولت وهي قائلة : بعيد ... على من ليس يكرمني مزاري

فتبسم عظمة مولاي روحي فداه وقال مازحاً « أحسنت ورب الكعبة ، ولكن لاتعامل بمثل هذه الشدة الحسان ، لتأمن الذل والهوان ، ياصاحب العمران »

(١) لما حال الحول على عمرة الحديبية المتقدمة الذكر خرج المصطفى عليه الصلاة والسلام بأصحابه الذين صدوا معه في العام الماضي ليقضوا تلك العمرة التي فاتتهم حسب المعاهدة التي كتبت وتئذ فبلغ بمن معه الحديبية في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة ومنها دخلوا مكة واذ أرادوا الطواف حول الكعبة كرمها الله خرج منها المكيون وقضى المصطفى والمسلمون طوافهم وعمرتهم وأقاموا ثلاثاً في مكة وقفلوا راجعين الى المدينة في ذي الحجة من تلك السنة ولم يعرض لهم حادث يذكر غير أنّ قريشاً كانت تحسب أنّ محمداً وأصحابه في جهد وخوار عزيمة فدهشوا عندما رأوهم

نَسَتْ فَمَاذَكَرَتْ عَهْدَ ٱلْحُدَيْبِيَةِ ٱلْـــمَشْهُورِ أَوْ قَدْ تَنَاسَتْ عَهْدَهَا تِيهَا
وَنَاصَرَتْ بَكْرَ فِي حَرْبِ ٱلْخُزَاعَةِ لَمْ تَرْهَبْ بِفَعْلَتِهَا طَـهَ مُوَالِيهَا
وَٱلْوَحْيُ أَبْلَغَ طَـهَ مَا خُزَاعَةُ فِيـــهِ مِنْ أَذَى صَاحَ أَلْقَى ٱلْيَوْمَ مُؤْذِيهَا
ثُمَّتْ أَتَتْهُ بِشَكْوَاهَا خُزَاعَةُ تَرْجُو عَوْنَهُ وَهْوَ أَسْمَى مَنْ يُشَكِّيهَا
فَطَيَّبَ ٱلْمُصْطَفَى لُطْفاً خَوَاطِرَهَا وَرَدَّهَا وَهْوَ بِٱلْكِتْمَانِ يُوصِيهَا
وَلَمْ يَعُدْ بَعْدُ مِنْ عَهْدٍ يُؤَخِّرُهُ عَنْ مَكَّةٍ وَلَهُ شَاقَتْ مَغَانِيهَا
وَكَانَ يَصْبُو إِلَيْهَا وَهْيَ مَوْطِنُهُ وَعَيْنُهُ نَحْوَهَا تُبْدِي تَرَنِّيهَا
وَلَيْسَ يَجْهَلُ أَنَّ ٱلْعُرْبَ أَجْمَعَهَا بِٱلْبِرِّ تَسْتَقْبِلُ ٱلْبَيْتَ ٱلَّذِي فِيهَا
وَأَنَّ أَصْحَابَهُ لَا شَيْءَ يُطْرِبُهُمْ مِثْلَ ٱلتَّرَبُّعِ فِي عَالِي مَبَانِيهَا
وَأَنَّ فِي فَتْحِهَا نَصْرُ ٱلْحَنِيفَةِ نَصْـــرَةً تُدَهْوِرُ فِي ٱلْخِذْلَانِ عَاصِيهَا
لِذَا تَعَجَّلَ فِي إِعْدَادِ غَزْوَتِهَا بِعَزْمَةٍ عِنْدَهُ بَسْلٌ تَوَانِيهَا
بِهَا أَسَرَّ إِلَى أَقْطَابِ أُمَّتِهِ فَٱسْتَعْجَلَتْهُ وَمَا كَانَتْ لِتُرْجِيهَا
وَقَالَ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ يَقْصِدُنَا غَداً لِتَرْضِيَةٍ أَضْحَتْ أَمَانِيهَا
وَإِذْ أَحَسَّتْ قُرَيْشٌ بِٱلْمَخَاطِرِ خَافَتْ شَرَّ مَا صَنَعَتْ فِي ٱلْأَمْسِ أَيْدِيهَا
وَأَوْفَدَتْ لِجُمُوعِ ٱلْمُسْلِمِينَ أَبَا سُفْيَانَ سَيِّدَهَا حَتَّى يُرَاضِيهَا
وَيَسْتَعِيدَ لَهَا ٱلْعَهْدَ ٱلْقَدِيمَ فَلَا تُدْهَى بِدَاهِيَةٍ صَعْبٌ تَوَقِّيهَا

أشداء أقوياء المضل تتدفق مياه الصحة من وجوههم فكان ذلك على غير ما أملوا ورجوا

وسقت الاشارة أن المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد أن صالح قريشاً في الحديبية الصلح الذي عرفناه تفرغ الى مراسلة الملوك والامراء ليدعوهم الى الاسلام وكان في جملة من راسله هرقل ملك الروم وقد بلغه عليه الصلاة والسلام أن هرقل هذا قدم أورشليم « سنة ٦٢٩ مسيحية » ليشكر الله الذي نصره على الفرس واستخلاصه منهم الخشبة المقدسة التي يزعمون أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام صلب عليها . وكان رسول المصطفى الى هرقل هو الحارث بن عمير الازدي فبينما هو في طريقه الى هرقل تصدى له شرحبيل بن عمرو الغساني وقتله فلما بلغ ذلك رسول الله اغتم وجهز سرية للاقتصاص منه وكان عددها ثلاثة آلاف مقاتل وسلم قيادتها الى زيد بن حارثة وقال للجيش فان قتل فرئيسكم جعفر بن أبي طالب فن قتل فرئيسكم عبد الله بن رواحة فخرجوا في جمادى الاولى سنة ٨ هجرية فلما نزلوا معان بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في جيش كثيف

فَهَبَّ هَبّاً أَبُو سَفيَانَ مُنتَقِياً مِنَ ٱلأَصَائِلِ عَادِيَهَا وَخَادِيَهَا
وَجَدَّ فِي ٱلسَّيْرِ يَبْغِي طِيبَةَ فَطَوَى ٱلْـقِفَارَ حَتَّى أَظَلَّتْهُ عَوَالِيهَا
فَجَازَهَا لِمَقَرِّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَمَّ ٱلْمُصْطَفَى وَمُنَاهُ قَامَ يُبْدِيهَا
فَقَالَ طَـهَ : وَهَلْ أَحْدَثْتُمْ حَدَثاً يُضِيعُ عُهْدَتَنَا ٱلْوُثْقَى وَيَنْفِيهَا
أَجَابَ كَلَّا : فَقَالَ ٱلْمُصْطَفَى : وَأَنَا عَلَى عُهُودِي كَمَا نُصَّتْ أُرَاعِيهَا

وانضمّ اليهم من عرب غسان في الشام عدد كبير فلم يرهبهم هذا ومضوا حسب أمر المصطفى بعد أن أقاموا ليلتين في معان فلما بلغوا تخوم بلقاء لقيهم جيش الروم عند قرية تسمى «مشارف» فتحاز المسلمون الى قرية تسمى «مؤتة» ثم التقى الجمان فاقتتلا ولم تكن بينهما نسبة لقلة المسلمين وكثرة جيش الروم فقتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب فعبد الله بن رواحة وحينئذ أصبح المسلمون بلا أمير فأمروا عليهم بانتخابهم « خالد بن الوليد » ومن هذه الموقعة بدأت تظهر مواهب هذا القائد العربي العظيم اذ أخذ يحارب الروم وهو يتقهقر بجيشه بانتظام فتهيب الروم اللحاق به مخافة أن يلقي بهم في الصحراء فلم يتبعوه وهكذا أنقذ السرية من الخطر الذي كان محدقاً بها ولم يتجاوز عدد قتلى المسلمين الاثني عشر شخصاً وعاد بها الى المدينة المنورة

وكان من قواعد عهد الحديبية اباحة انضمام قبائل العرب لقريش أو لمحمد فدخل بنو بكر في عهد قريش ودخلت خزاعة في عهد المصطفى وكان بين هاتين القبيلتين دماء من عهد الجاهلية فحجز بينهما الاسلام لاشتغال الناس به عما سواه . وحدث ان شخصاً من بني نفاثة احدى افخاذ بكر طفق يتغنى بهجاء رسول الله فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه فثار الشرّ بين الحيين لما كان بينهما من العداوة القديمة فطلب بنو نفاثة من شجعان قريش ان يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ففعلوا وفاجأت بكر وبعض رجال قريش خزاعة ليلاً وهم على ماء لهم يقال له الوتير فقتلوا منهم ٢٠ او ٢٣ رجلاً . واختلف الرواة في معاونة قريش لبكر في هذه الموقعة فقال بعضهم ان الذين عاونوا بكراً من القرشيين لم يشاوروا سيد قريش ابا سفيان وقال بعضهم بل شاوروه فأبى عليهم المعاونة فاتوها خفية عنه على ظن ان رسول الله سوف لا يعلم بها . ولكن الذين عاونوا بكر من قريش ندموا على فعلتهم وخافوا سوء مغبتها بعد اتيانها لانهم صاروا يدركون ان المصطفى صلى الله عليه وسلم اصبح ذا حول وطول واوفدوا زعيمهم الحارث بن هشام الى ابي سفيان فاخبروه بما كان فقال ابو سفيان « هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه وانه لشرّ والله ليغزونا محمد » وأسرع فاجتمع باشراف قريش وذاكرهم في الأمر فلم يكن منهم الا المقدر سوء العاقبة من نكث العهد مع المصطفى وقرّ رأيهم على ان يسير ابو سفيان نفسه الى المدينة ليستعطف محمداً ويعتذر منه عما أخطأت قريش ويجدّد العهد وهكذا سار ابو سفيان الى المدينة ولم يصحب غير عبده

اما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ليلة واقعة بكر وخزاعة بائتاً عند عائشة وقد حدّثت هذه فقالت : ان رسول الله قال لي في صباحها حدث في خزاعة حدث فقلت : يارسول الله أترى قريشاً يجترئون على نقض العهد الذي بينك وبينهم فقال ينقضون العهد لامر يريده الله. فقلت ألخير أم لشر ؟؟ قال : لخير. وما هي الا ايام حتى جاء وفد خزاعة يشكو الى رسول الله اعتداء بكر عليهم بمعاونة قريش فدخلوا عليه وهو صلى الله عليه وسلم في مجلسه في المدينة والناس حوله وانشد

فَقَالَ : لٰـكِنَّنِي أَرْجُو فَقَاطَعَهُ ... وَمَالَ عَنْهُ بِعَيْنِ ٱلْجَفْوِ يُغْضِيهَا
فَهَابَ صَخْرٌ أَبُو سُفْيَانَ مَوْقِفَهُ ... إِزَاءَ نَارٍ يُرَجِّي أَنْ يُطَفِّيهَا
وَجَاوَزَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلطَّيْبِيَّ فِي جَزَعٍ ... وَسَارَ فِي طِيبَةٍ يَنْحُو مَنَاحِيهَا
عَلَى رَجَاءِ لُقَى شَهْمٍ يَمُدُّ يَداً ... إِلَيْهِ أَوْمَنْ لَهُ نُعْمَى فَيُسْدِيهَا
بِهَا يَنَالُ رِضَاءَ ٱلْمُصْطَفَى كَرَماً ... عَنِ ٱلْعُمُومَةِ فِي أَسْوَا مَسَاوِيهَا

زعيمهم عمرو بن سالم يقول

يارب اني ناشدٌ محمدا ... حلف ابينا وابيه الأتلدا
انّ قريشاً اخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالقدير هجّدا ... وقتلونا ركعاً وسجّدا

فتلقاهم المصطفى بالترحاب وقال صلى الله عليه وسلم :« نُصرتَ ياعمرو بن سالم » ودمعت عيناه ثمّ قال : « لانُصرتُ ان لم انصر بني كعب مما انصر به نفسي واهل بيتي »ثم مرّت به سحابة في السماء وأرعدت فقال : « ان هذا السحاب يستهل بنصر بني كعب » ثم عكف على وفد خزاعة وكانوا اربعين فارساً فتلطف بهم ووعدهم بالنصرة واوصاهم بالكتمان واعادهم الى منازلهم .

ثمّ ان المصطفى صلى الله عليه وسلم انبأ اصحابه وانصاره فقال : « كانّـكم بابي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة وهو راجع بسخطه » وبالفعل لم تمض بضعة أيام حتى اقبل ابوسفيان على المدينة المنورة فقصد رسول الله في مسجده وقال : « لقد كنت غائباً في صلح الحديبية فامدد العهد وزدنا في المدة» فاجابه صلى الله عليه وسلم : « ألذلك جئت ياأبا سفيان ؟ » قال : « نعم » فقال المصطفى : « هل كان فيكم من حدث ؟؟ » قال ابو سفيان : « معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لانغيّر ولانبدّل »فأجابه المصطفى: «ونحن على مدتنا وصلحنا»فاعاد ابوسفيان التماسه وكرّره محاولاً ان يستدرج رسول الله الى غير ماقال بغية الاعتذار له والتفاهم معه اذا كان له علم بواقعة بكر وخزاعة فلم يتوفق الى جواب شافٍ ولم يندّ عنه ان رسول الله في نفسه شيء من قريش فتركه وانصرف وهو وجل يطلب لنفسه فرجاً من المأزق الذي كانت أمته فيه

ورأى ابو سفيان بعد خروجه من المسجد النبوي على غير نتيجة مع محمد صلى الله عليه وسلم ان يوسط لديه المقربين من اصحابه فقصد ابابكر في بيته والتمس منه ان يخاطب المصطفى في تجديد العقد وتحديد المدة فقال ابو بكر :« ان جواري في جوار رسول الله والله لو وجدت الذرّ تحاربكم لاعنتها عليكم» فعرف من هذا الجواب شيئاً مما في انفس المسلمين نحو قريش فاشتد قلقه وتركه وقصد عمر بن الخطاب في منزله وعرض عليه الوساطة لدى محمد فقال عمر : «أأنا اشفع لكم الى رسول الله ؟ فوالله ماكان من حلنا جديداً اخلقه الله وما كان مقطوعاً فلا وصله الله » فغضب ابوسفيان وقال « جزيتَ من ذي رحمٍ شراً ياأبا حفص » وانصرف وهو وجل واسرع الى عثمان بن عفان فلما دخل عليه في منزله قال : « ليس في القوم اقرب بي رحماً منك (لان كلاهما من امية كما تعلم) فزد في المدة وجدد العقد فان صاحبك (ويريد رسول الله) لايرد طلبك ابداً » فقال عثمان . « ان جواري في جوار رسول الله » ولم يزد . فخرج ابو سفيان وهو في غاية اليأس وبينما هو في اسواق المدينة ذكر علياً وماله من الدلالة على رسول الله فقال اني اسرع اليه لعله يعيننا لدى محمد

فَلَمْ يَجِدْ فِيْ أَبِيْ بَكْرٍ سِوَى كَلَفٍ ... بِالْحَرْبِ لَا يَنْثَنِيْ عَنْ سَعْرِ خَابِيْهَا
وَكَانَ أَكْثَرَ مَيْلاً لِلْوَغَى عُمَرٌ ... وَنَارُهُ لَمْ تَزَلْ يَبْغِي تَلَظِّيْهَا
كَذَاكَ عُثْمَانُ مَعْ دَانِيْ قَرَابَتِهِ ... مِنْهُ أَبَى نُصْرَةً قَدْ جَاءَ يَبْغِيهَا
فَيَمَّمَ الْمُرْتَضَى فِيْ بَيْتِهِ طَلَباً ... لِبُغْيَةٍ هُوَ أَسْمَى مَنْ يُلَبِّيْهَا(١)
وَالْمُرْتَضَى كَانَ مَغْبُوْطاً بِمَنْزِلِهِ ... مَا بَيْنَ أُسْرَتِهِ الْعَلْيَا يُوَاسِيْهَا
فِيْ حُجْرِهِ حَسَنٌ طِفْلٌ يُدَاعِبُهُ ... مُنَاهِزٌ مِنْ حُؤُوْلِ الْعُمْرِ سَادِيْهَا

وبينما سيدنا علي في بيته وبين يديه سيدنا الحسن يداعبه وبالقرب منه سيدتنا فاطمة وعلى حجرها سيدنا الحسين تناغيه واذا بأبي سفيان داخل عليهم فرحب به أمير المؤمنين عليه صلوات الله وقال اجلس فجلس أبو سفيان وقال : « ياعليّ انك أمسّ القوم بي رحماً واني قد جئت في حاجة فلا أرجعنّ كما جئت خائباً » فقال علي: «وما هي حاجتك التي قد جئت بها ؟؟» قال أبوسفيان « أن تشفع بي لدى محمد فيجدد العقد ويزيد في المدة » فقال علي عليه صلوات الله : « ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر فلا نستطيع أن نكلمه فيه » فاصفرّ وجه أبي سفيان وجلاً ويأساً والتفت الى سيدتنا فاطمة الزهراء عليها صلوات الله بذلة وانكسار وقال : « يا ابنة محمد أجيري بين الناس » فقالت : « أنا امرأة انما ذاك الى رسول الله » فلما رأى أبو سفيان من سيدتنا فاطمة هذا الردّ مع علمه أنّ المصطفى لا يردّ لها التماساً سقط في يده وأطرق الى الأرض واجماً فنبهه صوت سيدنا الحسن وهو يخاطب أباه فعاد الى سيدتنا فاطمة وقال : « هل لك يافاطمة أن تأمري ابنك هذا أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر؟ » فنظرت سيدتنا فاطمة الى سيدنا الحسن بملء عينيها وتبسمت وقالت : « والله ما يبلغ بولدي وهو صبي أن يجير بين الناس وما يجير أحد على محمد بن عبد الله » ومع هذا الردّ الذي يضيع معه كلّ أمل ازداد أبو سفيان الحاحاً فقال : « فكلمي علياً اذن يافاطمة » فقال سيدنا أمير المؤمنين « يا أبا سفيان ليس أحد من أصحاب محمد يفتات عليه بجوار » فأجابه أبو سفيان : « ولكن يا أبا الحسن أرى الأمور انسدّت عليّ فانصحني » قال عليّ : « والله لا أعلم لك شيئاً يغني عنك ولكنك سيد بني كنانة فقم أنت وأجر بين الناس ثم الحق بأرضك » قال أبو سفيان : «أوترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟» قال : « والله ما أظنه ولكن لا أجد لك غير ذلك » فنهض أبو سفيان واجماً مأيوساً وقصد المسجد النبوي حيث كان رسول الله وحوله طائفة من المسلمين فقال : « أيها الناس اني أجرت بين الناس ولا والله لا أظنّ أحداً يخفرني ويردّ جواري : فقال المصطفى « وأنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ؟» ولم يزد وبعد هذا عاد أبو سفيان أدراجه الى مكة كرمها الله حيث حدّث أصحابه بما كان فقالوا له : هل أجاز محمد جوارك قال : لا وانما قال: أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ولم يزدني . قالوا : رضيت بغير رضى وجئت بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً ولعمر الله ما جوارك بجائز وان ازالة خفارتك على المسلمين لهين وهكذا أصبحت قريش وهي تتوقع أن يغزوها محمد في مكة .

(١) خليق بنا هنا أن نصف الاسرة العلوية الطاهرة التي هي مظهر الشرف الأكبر لكلّ شريف في العرب والعجم هو شرف النبوة على صاحبها وعلى أفرادها الخير بن الصلاة والسلام . وقد

وَقُرْبَهُ قَدْ ثَوَتْ بِٱلْبِشْرِ فَاطِمَةٌ مَعْهَا ٱلْحُسَيْنُ تُنَاغِيهِ فَيُشْجِيهَا
قَرَا ٱلسَّلَامَ أَبُو سُفْيَانَ ثُمَّ جَثَا يُبْدِي رَغَائِبَهُ يَرْجُو تَقَاضِيهَا
وَقَالَ: إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمُرْتَضَى عَضُداً عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ يَكْفِينِي عَوَادِيهَا
فَكُنْ مُعِينِي عَلَى ٱسْتِرْضَاءِ أَحْمَدَ فِي تَجْدِيدِ عَهْدَتِنَا إِذْ هَمَّ يُلْغِيهَا
فَقَالَ: وَيْحَكَ طٰهٰ لَيْسَ يَرْجِعُ عَنْ إِرَادَةٍ هَمَّ بِسْمِ ٱللّٰهِ يُمْضِيهَا
فَمَالَ وَٱلْيَأْسُ فِي عَيْنَيْهِ مُرْتَسِمٌ لِبِنْتِ أَحْمَدَ يَسْتَدْعِي تَحَنِّيهَا
قَالَتْ: أَنَا مَرْأَةٌ لَا شَأْنَ لِي أَبَداً فِي مِثْلِ رَغْبَتِكَ ٱلْمَرْدُودِ سَاعِيهَا
فَقَالَ: هَلْ لَكِ أَنْ تَسْتَعْمِلِي حَسَناً لِنَجْدَةِ ٱلْعُرْبِ يَغْدُو وَهْوَ وَالِيهَا
قَالَتْ: وَهَلْ لِصَبِيٍّ أَنْ يُجِيرَ عَلَى مُحَمَّدٍ جِيرَةً ذَاعَتْ مَخَازِيهَا
فَقَالَ: فَٱسْتَعْطِفِي لُطْفاً عَلِيَّ بِقُرْبَى لَمْ يَخِبْ فِي كِرَامِ ٱلْعُرْبِ مُدْلِيهَا
فَلَمْ تُجِبْ وَجَمَتْ إِذْ ذَاكَ فَاطِمَةٌ وَهَالَهَا ذُلُّ صَخْرٍ إِذْ يُفَاهِيهَا
وَقَالَ حَيْدَرَةٌ: وَٱللّٰهِ لَيْسَ عَلَى ٱلرَّسُولِ يُفْتَاتُ مَا رَغْبَاكَ تَقْضِيهَا
فَقَالَ: فَٱنْصَحْ إِذَنْ إِنَّ ٱلْأُمُورَ قَدِ ٱنْسَدَّتْ بِوَجْهِي كَمَا أَضْحَتْ رَائِيهَا
أَجَابَ: صَعْبٌ تَلَافِي أَزْمَةٍ حَدَثَتْ وَلَا أَظُنُّكَ يَا صَخْرُ مُخَطِّيهَا
وَأَنْتَ مَا دُمْتَ رَأْسَ ٱلْعُرْبِ سَيِّدَهَا يَلْتَفُّ حَوْلَيْكَ بَادِيهَا وَقَارِيهَا
فَقُمْ أَجِرْ أَنْتَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ مُتَّكِلاً عَلَى وَجَاهَتِكَ ٱلْغَرَّاءِ تَعْمِيهَا
وَٱلْحَقْ بِمَكَّةَ لَا تَلْبَثْ بِطِيبَتِنَا مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ حَسْنَاءَ تَجْنِيهَا
فِي ٱلْحَالِ خَفَّ أَبُو سُفْيَانَ مُعْتَمِداً نَصِيحَةَ ٱلْمُرْتَضَى وَٱنْصَاعَ يُجْرِيهَا
وَلَاذَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَسْنَى وَأَحْمَدُ فِيهِ بَيْنَ نُدْوَتِهِ سِرّاً يُنَادِيهَا

مر بنا فيما تقدم أن سيدتنا فاطمة الزهراء زفت الى سيدنا علي بن أبي طالب في السنة الثانية للهجرة وفي السنة الثالثة رزقا من هذا الزواج المبارك سيدنا الحسن وعند ما ولد دعاه أمير المؤمنين «حرباً» وأرسل يبشر جده المصطفى بولده فأسرع عليه وعليهم الصلاة والسلام الى بيت فاطمة ودخله وهو يقول والفرح يتدفق من وجهه الشريف أروني المولود فقدمته سيدتنا فطمة له فاحتضنه بين يديه وقال وما سميتموه؟ قالت «حرباً» فقال بل هو « حسن » وحنكه بتمر وأعاده الى أمه بعد أن دعا له وحمد الله . وفي السنة الرابعة كان مولد سيدنا الحسين وقد سماه المصطفى بهذا الاسم كاسمي

وَقَالَ : يَانَاسُ أَصْغُوا لِي فَإِنِّيَ قَدْ أَجَرْتُ قَوْمِي قُرَيْشاً فِي مَآوِيهَا
وَلَا إِخَالُكُمْ تَنْوُونَ رَدَّ جِوَا رِي أَوْ خَفُورَ عُهُودٍ رِحْتُ رَاعِيهَا
أَجَابَهُ ٱلْمُصْطَفَى : هَلْ أَنْتَ قَائِلُ ذَا وَلَمْ يُزِدْهُ عَلَى مَا قَالَ تَسْفِيهَا
فَٱرْتَدَّ حَالاً أَبُو سُفْيَانَ مُطَّلِباً أَصْحَابَهُ بِٱلَّذِي قَدْ تَمَّ يُنْبِيهَا
وَعِنْدَ مَا حَلَّ فِي أُمِّ ٱلْقُرَى سَرَدَ ٱلْأَ خْبَارَ لِلْقَوْمِ بِٱلتَّزْوِيقِ يَرْوِيهَا
فَقَالَ : لَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْمُسْلِمِينَ رِعَا يَا قَدْ أَطَاعَتْ وَرَبُّ ٱلنَّاسِ رَاعِيهَا
وَقَدْ وَجَدْتُ ٱلْجِفَانِ أَحْمَدٍ وَذَوِيـــهِ إِنَّ جَفْوَتَهُمْ أَصْبَحْتُ خَاشِيهَا
وَكَانَ أَلْيَنَهُمْ قَوْلاً وَأَسْلَسَهُمْ أَبُو تُرَابٍ عَزِيزُ ٱلنَّفْسِ زَاكِيهَا
أَشَارَ فَضْلاً عَلِيٌّ فَٱمْتَثَلْتُ لَهُ نَصِيحَةً كُنْتُ بِٱلْإِسْرَاعِ آتِيهَا
وَقَصَّ قِصَّتَهُ مَا بَيْـــنَ أُمَّتِهِ كَمَا جَرَتْ مُبْدِياً أَخْفَى خَوَافِيهَا
فَمَا ٱطْمَأَنَّتْ إِلَى دَعْوَى إِجَارَتِهِ كَمَا رَوَاهَا رَأَتْهَا لَيْسَ تُنْجِيهَا
وَأَعْلَنَتْ فَشَلَ ٱلْمَسْعَى وَخَيْبَتَهُ وَلَازَمَتْ فَرَقاً خَافِي مَلَاجِيهَا

أمير المؤمنين في فتح مكة

لِمَكَّةَ فِي نُفُوسِ ٱلْعُرْبِ مَنْزِلَةٌ عَلْيَا تُطَأْطِي لَهَا ٱلْهَامَاتِ تَحْنِيهَا(١)
فَإِنَّ فِي رَبْعِهَا «ٱلْبَيْتُ ٱلْعَتِيقُ» مَقَـــرُّ ٱلْغُفْرِ طَالِبُهُ بِٱلْبِرِّ يَأْتِيهَا
وَإِنَّهَا مَرْجِعُ ٱلْعُرْبَانِ تَنْشِدُهَـا قَوَافِلاً مَا نَأَتْ عَنْهَا مَثَاوِيهَا

أخاه الحسن . وفي السنة الخامسة للهجرة ولدت سيدتنا فاطمة الزهراء مولوداً ثالثاً سماه المصطفى «محسن» الا أنه لم يعش . وكان المصطفى عليه الصلاة والسلام كثير الشغف بالحسنين وطالما رآه الناس يحضنهما ويداعبهما ويقول : «ان الحسن والحسين زهرة شباب الجنة»

(١) يجمل بنا هنا أن نذكر شيئاً عن مكة كرمها الله التي كانت مقراً لسيدنا ابراهيم عند ما هاجر الى جزيرة العرب مع سيدنا اسماعيل عليهما الصلاة والسلام والتي هي حاضرة قريش وما قريش الا القبيلة التي ظهر فيها المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام

ان مكة وتسمى بكة أيضاً ويطلق عليها اسم أم القرى تعظيماً لها أي أنها بالنسبة الى القرى المنتشرة في بلاد الجزيرة هي الأم واليها يرحم الناس. هي مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متراً على عرض ٢١ درجة و٣٨ دقيقة وطول ٤٠ درجة و ٩ دقائق وينتهي تاريخ بنائها الى سيدنا ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل وقد نزلا في هجرتهما في موضع الكعبة التي بنياها العبادة الله ثم عاش

كَانَتْ مَثَابَةَ إِبْرَاهِيمَ مَنْزِلَهُ مَعَ ٱبْنِهِ نَزَلَا بِٱلْيُمْنِ وَادِيهَا
وَعَمَّرَا فِي رِبَاهَا عِنْدَ زَمْزَمَ كَعْبَةً لِتَعْبُدَ فِيهَا ٱلنَّاسُ بَارِيهَا
مِنْ ذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بَاتَتْ وَهْيَ عَاصِمَةٌ لِلْعُرْبِ طُرًّا وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ثَاوِيهَا
كَانَتْ بِسُكَّانِهَا ٱلْأَمْجَادِ دَارَ عُلًى مَا فِي ٱلْجَزِيرَةِ مِنْ مِصْرٍ يُحَاكِيهَا
لِذَا دَعَاهَا ٱلْوَرَى «أُمَّ ٱلْقُرَى» وَلَعَمْرِي قَدْ أَصَابَ بِهٰذَا ٱلْإِسْمِ دَاعِيهَا
إِنَّ ٱلْقُرَى كُلَّهَا بَلْ وَٱلْمَدَائِنَ لَا تَأْبَى عَلَى مَكَّةَ ٱلْعُظْمَى تَآمِيهَا

أبناؤهما حول الكعبة في ظلال بيوت الشعر الى عهد قصي بن كلاب في نحو القرن الثاني قبل الهجرة فان قصي هذا سافر الى الشام متاجراً فشاقه ما رأى من بيوتها وعند ما عاد بنى لنفسه بيتاً من الحجر بجانب الكعبة وتبعته قريش في البناء . وهذه المدينة شرفها الله تمتد اليوم من الغرب الى الشرق على عرض ثلاثة كيلومترات طولاً في نحو كيلو متر ونصف عرضا في وادٍ يميل من الشمال الى الجنوب وينحصر بين سلسلتي جبال يكاد أن يتصل بعضها ببعض عند أبواب البلد الثلاثة أي من الشرق والغرب والجنوب . أما أسماء هذه الجبال فهي في الشمال الفلق، وقيقعان، والجبل الهندي ، ولعلع ، وكداء وهذا في أعلى مكة ومن جهته دخل المدينة المصطفى يوم الفتح . وفي الجنوب جبل أبي حديدة ، وكُدَيّ ، وكُدَيّ ، فجبل أبي قبيس ، فجبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم عامرة بالدور بعضها فوق البعض من الأعلى الى طرف الوادي وعددها اليوم نحواً من سبعة آلاف دار بين كبيرة وصغيرة أعظمها دور الاشراف الذين يتوارثون الحكم فيها من عهد بعيد جداً .

ولا تزال بعض الدور الاثرية باقية آثارها في مكة بالرغم عن اهمال الاتراك الذين كانوا يحكمونها منها دار ابن عباس في المسعى على يمين السالك الى المروة ، وآثار دار أبي سفيان في الشرق الشمالي للحرم

والحرم الشريف بين هذه الدور مائل الى الجهة الجنوبية مما يلي جبل أبي قبيس وفي هذه الجهة دار الخيزران أم الرشيد « وآثارها باقية » يتلوها شرقاً شعب بني هاشم ويسميه الناس شعب علي وهو أشهر وأعظم أنسال بني هاشم بعد المصطفى، ثم شعب المولد ، ثم شعب بني عامر ، وفي هذه الجهة كانت منازل بني عبد المطلب في الجاهلية ويسكنها اليوم كثيرون من الأشراف. أما باقي قريش فكانوا يسكنون في الجهة الاخرى من الحرم نحو الشمال ومن دونهم كانت منازل باقي أهل مكة

ويتوسط مكة طريق تقطعها من الغرب الى الشرق وهي أكبر شوارعها وهذا الشارع له أسماء مختلفة فعند بداءته من جرول يسمى حارة الباب فالشبيكة ، فاما يصل الى الحرم يسمى الشامية فاذا انعطف الى الجنوب على يمين الحرم يسمى السوق الصغيرة فجياد وهناك البوستة والتلغراف والتكية المصرية ودار الحكومة العثمانية ويسمونها الحميدية وصارت بعد استقلال الحجاز مركز الوزارة الحجازية ، والى جوارها ادارة الصحة ، فمركز قشلاق الطوبجية ، فالمطبعة الاميرية ، فاذا وصل هذا الشارع الى الصفا سمي المسعى ، فالقشيشية ، فسوق الليل ، فالقزة ، ومن هذا الموضع يخرج السائر الى باب مكة الشرقي أو باب المصلّى. وفي المدينة شوارع أخرى غير هذه ولو لم تكن باهمية هذا الشارع منها السوق ، والقراوة ، والنقى ، والسليمانية ، والجدرية ، والبراضية .

وأهالي مكة اليوم مختلفو الاجناس ففيهم عدا الاشراف والعرب الوطنيين مهاجرو الشام ومصر

وَكَانَ سُكَّانُهَا أَسْمَى الأَعَارِبِ أَقْـــدَارَاً وَأَفْضَلَهُمْ مَجْداً وَتَوْجِيهَا
أَوْلَادُ سَيِّدِنَا أُسْمَاعِيلَ نُسْبَتُهُمْ إِلَيْهِ حَسْبُ الْمَعَالِي أَنْ نُسَمِّيهَا
وَهُمْ قُرَيْشٌ وَمَا فِي الْعُرْبِ أَجْمَعِهَا مُنَافِسٌ لِقُرَيْشٍ فِي تَسَامِيهَا
وَالْعُرْبُ كَانَتْ لَهَا تَاللهِ طَائِعَةً وَلَمْ يَكُنْ آمِناً يَوْماً مُعَاصِيهَا

والعراق والمغرب والترك وجاوه والقوقاس وبخاری والهند وغيرها من البلاد الاسلاميـة وهؤلاء المهاجرون تعمدوا هذه المدينة المقدّسة بدافع التقوى أو بعامل التجارة فاستوطنوها وتناسلوا فيها ولذلك تقدر أن تقول ان مكة اكثر بلاد الله في اختلاط أجناس سكانها واختلاف أزيائهم وتنوع لهجاتهم وبلبلة ألسنتهم على أنهم جميعاً مجتمعون على كلمة « لا اله الا الله » التي وحدت بينهم

وفي مكة المكرّمة غير الحرم الشريف مزارات عظيمة الشأن من الوجهتين الدينيةوالتاريخية أهمها مولد النبي وهو في شعب بني عامر ويسـمونه شعب المولد . وهو مكان ينزل اليه بنحو متر ونصف بدرجات من الحجر يبلغ طوله نحو اثني عشر متراً في عرض ستة أمتار وفي جداره الغربي باب يدخل منه الى قبة في وسطها مقصورة من خشب داخلها رخامة قد تقعر جوفها وهي بقية الدار التي كان يسكنها عبد الله بن عبد المطلب وزوجه آمنة وولد فيها سيد العالمين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وكان قد وهبها المصطفى لابن عمه عقيل بن أبي طالب فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج فلما بنى داره المشهورة باسم « دار ابن يوسف » وكانت بجوارها ادخلها فيها . ولما حجت الخيزران أم الرشيد بحثت عن الدار التي كانت مهداً لاشرف الخلائق عليه الصلاة والسلام فلما علمت بضمها الى دار ابن يوسف اشترت تلك الدار وخربتها وفصلت منها موضع دار المصطفى واعادتها الى مثل ماكانت عليه وجعلتها مسجداً وهي لا تزال كذلك الى يوم الناس هذا

ومن هذه المزارات المباركة الدينية والتاريخية مولد سيدنا علي عليه صلوات الله وهي قريبة من مولد النبي وهي نفس الدار التي كان يسكنها الشيخ أبو طالب وولد فيها أمير المؤمنـين وهي أقل اتساعاً من دار المصطفى ولها من الاحترام في أنفس الناس الشيء الـكثير

ومن هذه المزارات المباركة الدينية والتاريخية مولد سيدتنا فاطمة الزهراء وهي دار سيدتنا خديجة وموضعها في درب الحجر وفيهـا ولدت للمصطفى كلّ أولاده وسميت « مولد فاطمة » لما علمت من الميزة التي خصها الله ورسوله بسيدة النساء هذه وهذه الدار ينزل اليها بجملة درجات توصل الى طرقة وعلى يسار هذه الطرقة شبه مصطبة مرتفعة عن الارض بنحو ثلاثين سنتمتراً ومسطحها نحو عشرة امتار طولا في أربعة عرضاً وهي اليوم مستعملة كتاباً يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف وعلى يمينها باب صغير يصعد اليه بدرجتين يدخل منه الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين وفيها ثلاثة أبواب احدها الذي عن اليسار يفتح على غرفة كانت لعبادة المصطفى وفيها كان ينزل عليه الوحي وعلى يمين الداخل اليها مكان منخفض عن الارض كان محل وضوئه والباب الذي قبالة الداخل الى الطرقة يفتح على غرفة واسعة هي غرفته صلى الله عليه وسلم مع زوجه سيدتنا خديجة . والباب الذي على اليمين يفتح على غرفة مستطيلة واسعة في وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذي ولدت فيه سيدة العالمين سيدتنا فاطمة الزهراء. ولما هاجر المصطفى عليه الصلاة والسلام الى المدينة المنورة استولى على هذه الدار ابن عمه عقيل بن أبي طالب ، ثم اشتراها منه معاوية بن أبي سفيان

فكانَ أحمدُ يرجو فتحَ مكّةَ كي تصولَ شرعتُهُ السمحا بأهليها
وكي يطهّرَ بالتوحيدِ كعبتَها فلا رجاسةُ شركٍ بعدُ تأويها
وعهدُهُ مع قريشٍ كانَ يمنعُهُ عنها وعهدتُها ما كانَ ناسيها
لكنْ قريشٌ أبتْ إلاّ خيانتَهُ ومزّقتْ عهدَها السامي بأيديها
فلمْ يعدْ مانعٌ تاللهِ يمنعُهُ عنْ حربِها فجرى في الحالِ يمضيها
وقدْ مضى مسرعاً في الأمرِ ينفذُهُ بغزوةٍ هيأَ الباري دواعيها(١)
وقدْ تسرّعَ لمْ يمهلْ قريشَ ولا أضاعَ فرصةَ فتحٍ عادَ ملفيها

فجعلها مسجداً ، وعمرت في زمن الناصر العباسي . ثم تهدّمت فأعاد عمارتها الاشرف شعبان ملك مصر ثم الملك المظفر صاحب اليمن ثم السلطان سليمان العثماني سنة ٩٣٥ للهجرة

ومن هذه المزارات المباركة الدينية التاريخية « دار الخيزران » وهي في زقاق على يسار الصاعد الى الصفا . وهي دار الارقم المخزومي التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يختبيء فيها مع من آمن معه في صدر بعثته ليقيموا الصلوات سراً . وباب هذه الدار يفتح الى الشرق ويدخل منه الى فسحة واسعة غير مسقوفة وعلى يسارها ايوان مسقوف ، وفي وسط الحائط الذي على يمينها باب يدخل منه الى غرفة واسعة كانت مسجد المسلمين ولعله أول المساجد الاسلامية

ومن هذه المزارات المباركة الدينية والتاريخية غار حراء وهو الغار الذي كان يتعبد فيه المصطفى ويصحبه اليه سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام على ماتقدم معنا في حاشية سابقة

اما مقبرة مكة المكرمة المسماة « المعلى » ففيها من القبور التاريخية العظيمة ماتطأطأ له الرؤوس خشوعاً فهناك ضريح السيدة خديجة زوج النبي ، وقبة السيدة آمنة والدة النبي ، وقبة ابي طالب والد سيدنا علي ، وقبة عبدالله بن الزبير ، وقبر جعفر المنصور الخليفة العباسي وكان قد قدم مكة حاجاً سنه ١٥٨ هـ فمات ودفن بالمعلى الا ان قبر هذا الخليفة غير معروف خلافاً للقبور العظيمة باصحابها السابق ذكرها وهناك شيء كثير من هذه القبور الاثرية

ولا بدّ لنا من الاشارة الى ان هذه المزارات المباركة الاثرية الدينية الثمينة مهملة جد الاهمال وليس فيها من دلائل العظمة شيء مما رأيناه في اوروبا من آثار عظمائهم ولا سيما في رومه حيث يعتني النصارى كلّ العناية في تفخيم المواضع الاثرية الدينية التي عندهم واعتقد ان هذا الاهمال هو من فساد الحكم التركي السابق ولابدّ للدولة الحجازية الجديدة التي استقلت سنة ١٩١٦ في اثناء الحرب الاوروبية العامة ان تهتم بهذه المزارات المقدسة وتعمل على تعزيزها بالنفائس اللائقة بها من ثريات وقناديل وغير ذلك اشارة الى مالها في النفوس من صادق الاحترام

(١) ما كان الله ليرضي لرسوله ان ينكث عهوده وهو الآمر بالوفاء بها وما كان رسول الله لينكث عهده مع قريش وهو الامين المأمون ولكن اذا اراد الله أمراً هيأ اسبابه سبحانه على كل شيء قدير وقد قال « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمضى عهد الحديبية مع قريش وهو كاره والمسلمون كارهون لكن قد صدق الله عزّ وجلّ القائل « وتلك الايام نداولها بين الناس » من في أقل من

نَادَى ٱلْأَعَارِبَ فَٱنْضَمَّتْ قَبَائِلُهَا مِنْ كُلِّ صَوْبٍ إِلَى طَـٰهَ مُنَادِيهَا
فَسَارَ مَعْهَا إِلَى «أُمِّ ٱلْقُرَى» وَلَهُ ٱلـ ـنَّصْرُ ٱلْقَرِيبُ ٱلَّذِي يَبْغِيهِ غَازِيهَا
وَفِي ٱلطَّرِيقِ رَأَى ٱلْعَبَّاسَ قَاصِدَهُ مُهَاجِراً بِذَوِيهِ وَهُوَ يَطْوِيهَا
فَقَالَ أَرْجِعْ فَإِنَّ ٱلْعُرْبَ طَالِبَةٌ دُخُولَ مَكَّةَ مَا ٱلْأَخْطَارُ تُثْنِيهَا
فَقَالَ : لَـٰكِنْ قُرَيْشٌ قَدْ تُضَعْضِعُهَا هٰذِي ٱلْجُيُوشُ ٱلَّتِي سَالَتْ مَذَاكِيهَا
دَعْنِي أَسِيرُ إِلَيْهَا ٱلْيَوْمَ أَنْصَحُهَا عَسَى تَطِيعُ وَلَا تُبْدِي تَعَصِّيهَا
فَمَا لَنَا نُدْحَةٌ عَنْهَا لِنُصْرَةِ دِيـ ـنِ ٱللهِ فَٱرْفُقْ بِهَا دَعْنِي أُدَارِيهَا
فَقَالَ: سِرْ مُسْرِعاً وَٱجْهَدْ لَعَلَّكَ بِٱلـ ـتَّسْلِيمِ لِلّٰهِ وَٱلْإِسْلَامِ تُرْضِيهَا

عامين اثنين بلغ الاسلام مكانة عالية من نفوس العرب ماكان يقدّرها له المقدّرون حتى باتت قريش وهم اعدى اعدائه يخافون سطوة اهله ويرسلون زعيمهم ابي سفيان ليسترضي رسول الله ويستغفره على ما مرّ بنا مع انهم قبل عامين كانوا يرفعون عقيرتهم منادين ان المسلمين لايدخلون مكة حتى ولو حجاجاً مسالمين فسبحان محوّل الاحوال

نعم هيأ الله لرسوله عليه الصلاة السلام سبباً لفتح مكة كرمها الله ماكان يمرّ على خاطره الشريف لانه لم يفكر قط بحنث عهده مع قريش ومبادرتهم بالعدوان بعد ان حالفهم على السلام لمدة عشرة أعوام وما ذلك السبب الا جرأة قريش نفسها على نكث عهدها بيدها ومناصرة حليفتها بكر على خزاعة حليفة المصطفى حينئذ بات المصطفى في حلّ من العهد الذي امضاه وكان له ان ينتقم من المعتدين على حلفائه ويؤدبهم أيضاً ويلقي عليهم درساً نافعاً لاينسونه ابداً وهو ان من أوجب واجبات الافراد والجماعات المحافظة على عهودهم والثبات عليها مهما تبدلت الاحوال

نكثت قريش عهدها مع رسول الله في الوقت الملائم واقرّ عليه الصلاة والسلام على محاربتها والاستيلاء على مكة التي هي حاضرة البلاد الحجازية وقبلة العرب اجمعين وكان يعلم يقيناً ان فتح مكة هو الانتصار النهائي لدين الله وللقضاء الاخير على الكفر والاشراك في شبه جزيرة العرب

وأبى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ان يتساهل مع ابي سفيان عند ماجاء يستغفره لابتجديد العهد ولا بتمديده كما كان يطلب وأسرّ الى اكابر صحابته بنيته على غزوة قريش ودخول مكة كرمها الله عنوة . وبعد ان ارتحل ابو سفيان عائداً الى مكة شمر المصطفى عن ساعد العزم وأخذ يستعد لهذه الغزوة الكبرى التي ستكون الفاصل بين الحق والباطل . وبعد ان شاور عليه الصلاة والسلام أصحابه واعدّ للحرب عدته آذن بالغزو وأمر المسلمين بالجهاد ولكن من غير ان يعلم العامة بغرضه الذي يرمي اليه حتى لايشيع الخبر فيتصل بقريش فتستعدّ للحرب . وارسل الى محالفيه من اهل البادية والى عموم المسلمين المنتشرين خارج المدينة المنورة ان يكونوا في اول رمضان من السنة الثامنة للهجرة في المدينة المنورة وما هلّ هلال رمضان حتى هبط على مدينة الرسول قبائل اسلم وغفار ومزينة واشجع وجهينة وبني أسد وبني سليم وغيرهم فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجده النبوي وخطب فيهم داعياً الى الجهاد وأوصاهم بكتمان الامر بقوله « واستعينوا على إقضاء حوائجكم

وَهٰذِهِ بَغْلَتِي تَطْوِي ٱلْفَلَاةَ بِهَا مَعَ ٱلرِّيَاحِ وَلَا تُبْطِي بِمَا طِيهَا
كَذَا ٱمْتَطَى بَغْلَةَ ٱلْهَادِي وَسَارَ بِهَا يَطْوِي ٱلْقِفَارَ مُجِدًّا فِي فَيَافِيهَا
حَتَّى إِذَا مَا دَنَا مِنْ مَكَّةٍ وَبَدَتْ لَهُ ٱلْجِبَالُ ٱلَّتِي تَغْشَى مَبَانِيهَا
رَأَى هُنَاكَ أَبَا سُفْيَانَ مَعَهُ حَكِيمٌ مَعَ بُدَيْلٍ عُيُونًا فِي مَمَاشِيهَا
قَدْ أَرْسَلَتْهَا قُرَيْشٌ لِلتَّجَسُّسِ عَنْ طه مَخَافَةً بِٱلْعَدْوَى يُفَاجِيهَا
وَبَيْنَمَا هِيَ تَسْعَى سَعْيَهَا وَجَدَتْ عَمَّ ٱلرَّسُولِ بِإِسْرَاعٍ مُوَافِيهَا
وَأَقْبَلَتْ نَحْوَهُ تَجْلُو خَبِيئَتَهُ لَعَلَّ عَنْ جَيْشِ هَادِي ٱلْخَلْقِ يُنْبِيهَا
فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا صَخْرُ فَقَدْ هَلَكَتْ قُرَيْشٌ ٱبْنُ أَخِي آتٍ لِيُفْنِيَهَا
وَأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ يَقْضِي بِهَلْكَتِهِ عَلَى ٱلْمَسَاوِي ٱلَّتِي قَدْ كُنْتَ تَأْتِيهِ
أَعِدْ رَفِيقَيْكَ حَالًا يُنْذِرَانِ قُرَيْشًا أَنْ تُسَلِّمَ وَٱلتَّسْلِيمُ يُنْجِيهَا

بالكتمان » . ثمّ دعا فقال « اللهمّ خذ العيون والاخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » ثمّ أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ارصد العيون والارصاد في الطرق المتصلة بالمدينة المنورة حتى لا يتصل نبأ غزوته بقريش فتستعدّ لدفعه ومحاربته

ولم يسلم المسلمون من منافق حاول أن يغدر بهم وهو حاطب بن أبي بلتعة فكتب كتاباً الى أهل مكة يخبرهم فيه بمسير المسلمين لغزوهم وأرسله مع امرأة فعثر عليها بعض عيون المصطفى ففتشوها وأخذوا الكتاب منها وأرسلوها والكتاب اليه عليه الصلاة والسلام فاستدعى حاطباً اليه واطلعه على سوء فعلته فاعتذر وقبل عذره لكي لا تكون فتنة تمهد عليه سياسته

وفي ٩ رمضان سنة ٨ هجرية « ١ يناير سنة ٦٣٠ مسيحية » خرج المصطفى بعشرة آلاف مقاتل يريد مكة كرّمها الله فيهم ٧٠٠ من المهاجرين وأربعة آلاف من الانصار والباقون من رجال القبائل الآنفة الذكر . وبينما كان المسلمون في طريقهم الى مكة لقيهم العباس عم النبي في مكان يدعى الجحفة وقيل ذو الحليفة وكان مهاجراً بعياله فرحب به المصطفى عليه الصلاة والسلام وقال له « هجرتك يا عم آخر هجرة كما ان نبوّتي آخر نبوّة » ولما علم العباس بالغرض السائر فيه المسلمون أرسل عياله الى المدينة ورجع معهم وطفق يقول لاصحاب رسول الله : « ان نفسي رقت لاهل مكة فوالله لئن دخلها محمد عنوة قبل أن يأتوه ويستأمنوه أهلك قريشاً » كان يقول عباس هذا لصحابة رسول الله وهم قريشيون مثله يشعرون بما يشعر نحو الامة التي هم منها فوجدهم مثله حنواً واشفاقا وفي أنفسهم نحو أبناء بجدتهم مثل الذي في نفسه ثم كاشف بذلك ابن أخيه عليه الصلاة والسلام فوجده على رغبة الرفق بقريش ولذلك لم يمنعه من المسير اليهم وتحذيرهم مغبة التمادي في عداوة المسلمين وأعطاه بغلته التي كان أهداها له دحية الكلبي ومضى بها مسرعاً لنصيحة قريش

اما القريشيون فكانوا منذ عودة ابو سفيان من المدينة المنورة على قلق واضطراب من

وَمِرَ عَلَى بَغْلَةِ ٱلْهَادِي وَرَائِي كَيْ تَصُونَ نَفْسَكَ مِنْ هُلْكٍ يُلَاقِيهَا
أَنَا أُجِيرُكَ عِنْدَ ٱلْمُصْطَفَى وَإِجَا رَتِي وَحَقِّكَ مَا طَـهَ . بِآبِيهَا
أَصغَتْ عُيُونُ قُرَيْشٍ لِلنَّصِيحَةِ وَٱلْـــعَبَّاسُ قَدْ كَانَ بِٱلْإِخْلَاصِ يُسْدِيهَا
وَعَادَ اِبْنُ حِزَامٍ مَعْ بَدِيلَ إِلَى قُرَيْشَ كَيْ يُبَلِّغَاهَا ٱلنُّصْحَ تَجْرِبَةً
وَأَرْدَفَ ٱلْغِرُّ عَبَّاسٌ وَرَاهُ أَبَا سُفْيَانَ سَارَ بِهِ فِي ٱلْأَرْضِ يَطْوِيهَا
حَتَّى إِذَا أَشْرَفَا بَعْدَ ٱلْمَسِيرِ عَلَى مَنَازِلِ جَيْشِ طَـهَ كَانَ مَالِيهَا
وَكَانَ جُنْحُ ٱلدُّجَى يَمْلَأُ ٱلْفَضَاءَ وَنَا رُ ٱلْمُسْلِمِينَ تُضِيءُ فِيهِ لَوَاطِيهَا
مَرَّا عَلَيْهَا وَمَا شَامَا مُعَارَضَةً لِأَنَّ بَغْلَةَ طَـهَ ٱلْكُلُّ دَارِيهَا
لَكِنَّمَا عُمَرٌ مَا إِنْ تَبَيَّنَ صَخْـــرًا صَاحَ إِنَّهَا أَبَا سُفْيَانِنَا إِنَّهَا
قَدْ جِئْتَنَا حَيْثُ لَا عَهْدٌ تَصُونُ بِهِ هٰذِي ٱلْحَيَاةَ ٱلَّتِي بِٱلْإِثْمِ تَقْضِيهَا

أمر محمد عليه الصلاة والسلام يتوقعون ان يغزوهم كما كانو عارفين انهم لم يعودوا اكفاء لصده عن مكة اذا قصدها غازياً فاتحاً وبينماهم كذلك اتصل بهم نبأ خروج محمد باصحابه وانصاره للغزو ولكنهم لم يعرفوا وجهته فخرج ابو سفيان وبديل ابن ورقاء وحكيم بن حزام من مكة يتجسسون اخبار المسلمين وماكادوا يصلون الى الاراك وهو من ضواحي مكة المكرمة حتى صادفهم العباس عم النبي فسلم عليهم وقال لابي سفيان وكان صديقه : ياابا سفيان هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به . فقال ابو سفيان : واصباح قريش فما الحيلة فداك أبي وأمي . فقال العباس: والله لئن ظفر بك محمد ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتيك المصطفى فاستأمنه لك وليرجع صاحباك الى مكة يشيران على أهلها بالتسليم . فقبل ابو سفيان وصاحباه رأي العباس ورجع صاحباه الى مكة وركب هو رديفاً للعباس وسارا على بغلة المصطفى وما ابعدت بهما قليلاً حتى ظهرت لهما نيران المسلمين في موضع اسمه « مر الظهران » وكان الوقت ليلاً فتقدما منها ووجدا القوم قد حطوا رحالهم واوقدوا نيرانهم وكانا كلما مرا بنار من نيران المسلمين قالوا من هذا؟ ثم يتعرفون بغلة المصطفى ويقولون انه عم النبي فلا يتعرضون له . ولما مرت البغلة بنار عمر بن الخطاب نهض لها وما ابصر أبا سفيان رديفاً للعباس حتى صاح « هذا ابو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذي قد امكن منك من غير عقد ولا عهد » وسار مسرعاً الى المصطفى يستأذن بالفتك بابي سفيان . اما العباس فلم يفته الخطر المحدق بصاحبه فاركض البغلة حتى سبقت عمر واسرع بادخال ابي سفيان على المصطفى وتبعهما عمر وهو يلهث ويقول : « يارسول الله هذا هو ابو سفيان عدو الله قد امكننا الله منه من غير عقد ولا عهد فدعني لاضرب عنقه» فقال العباس : « يارسول الله لقد اجرته » ثم جلس الى رسول الله وأخذ برأسه الشريف وقال : والله لايناجيه الليلة رجل دوني . فما أصغى عمر لقول العباس وأخذ يكد في شأن ابي سفيان . فقال العباس : مهلاً ياعمر فوالله لوكان ابو سفيان من رجال بني عدي بن كعب (ويريد قبيلة عمر) ماقلت مثل هذا ولكنك قد عرفت انه من رجال عبد مناف .

فَاعْلَمْ بِأَنِّيَ هٰذَا ٱلْيَوْمَ مُنْتَقِمٌ ... لِشِرْعَةِ ٱللّٰهِ مِنْ أَعْدَى أَعَادِيهَا
وَسَارَ يَقْصِدُ طٰـهٰ وَسْطَ خَيْمَتِهِ ... وَكَانَ سَابِقَهُ ٱلْعَبَّاسُ آتِيهَا
طَالَ ٱلْجِدَالُ وَثُمَّ قَالَ أَحْمَدُ لِلْـعَبَّاسِ: عَوِّدْ أَبَا سُفْيَانَ تَعْوِيهَا
إِلَى صَبَاحِ غَدٍ حَتَّى نَرَى فَأَنَا ... لَا أَظْلِمُ ٱلنَّاسَ يَا عَمَّاهُ تَعْمِيهَا
وَفِي غَدٍ جَاءَ عَبَّاسٌ بِصَخْرَ إِلَى ... مُحَمَّدٍ وَثِيَابُ ٱلذُّلِّ كَاسِيهَا
فَقَالَ: أَحْمَدُ آمِنْ يَا زَعِيمَ قُرَيْـشٍ قَالَ: مَسْأَلَةُ ٱلْإِيمَانِ تُرْجِيهَا
فَقَالَ مُبْتَسِماً: لَا بُدَّ تُؤْمِنُ يَوْ ... مًا إِنَّنِي مُرْسَلٌ لِلنَّاسِ أَهْدِيهَا
فَقَالَ صَخْرٌ: أَلَا تُولِي ٱلْأَمَانَ قُرَيْـشًا إِنْ دَخَلْتَ عَلَيْهَا فِي مَآوِيهَا
فَقَالَ أَحْمَدُ: مَنْ أَلْقَى ٱلسِّلَاحَ أَمِيـنٌ أَوْ بَغَى ٱلْكَعْبَةَ ٱلْعَلْيَاءَ يَأْوِيهَا
ثُمَّ أَشَارَ إِلَى ٱلْعَبَّاسِ قِفْ بِأَبِي ... سُفْيَانَ كَيْ يَعْرِضَ ٱلْأَجْنَادَ يُحْصِيهَا

فقال المصطفى اذهب به ياعباس الى رحلك فاذا اصبحت ائتني به ففعل وانصرف عمر الى مخيمه غاضباً
وعند ما اصبح الصباح غدا العباس بابي سفيان الى المصطفى فقال له عليه الصلاة والسلام « ويحك ياأبا سفيان ألم يأن لك ان تعلم انه لااله الا الله » قال ابو سفيان: « بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك للرحم لقد ظننت انه لو كان مع الله اله غيره لما اغنى عني شيئاً بعد » فقال المصطفى: « ويحك ياابا سفيان: أما آن لك تشهد أني رسول الله ؟ فقال أبو سفيان بابي أنت وأمي اما والله هذه فان في النفس منها شيئاً حتى الآن فارجئها » فتبسم رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال: « سوف تؤمن » فقال ابو سفيان: « يامحمد ادع الناس بالامان ، أرأيت ان اعتزمت قريش فكفت ايديها تأمن ؟؟ » قال المصطفى « نعم من كف يده واغلق بابه فهو آمن . ومن لجأ الى الكعبة فهو آمن » ثم قال عليه الصلاة والسلام للعباس: مر بصاحبك ابي سفيان الى مضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها «أراد بذلك ان يري زعيم اعدائه الحول الذي آتاه الله فتنكسر نفسه ولا يعود الى مامضى من لؤمه وعدائه فيغرر بقريش ويحملها على مناوأته فينالها مانال سواها من القبائل العربية التي مازالت تناوئه حتى بطش بها وابعدها عن ديارها وأمن شرها »

وفي الحقيقة ان قريشاً على ماكانت عليه من حول وطول كان من الضروري ان تنضم الى الاسلام وتقوم بنشره كما كان من الضروري ايضاً ان يحتفظ بها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لانها عشيرته واهل عصبيته وعصبية اصحابه ولا قوام للممالك الا بعصبياتها كما قرر علماء الاجتماع فان الدول تقوى بقوة عصبيتها وتضعف بضعفها . ولهذا كان هم رسول الله واصحابه ان يرضخ القرشيون للقوة الالهية القاهرة ويسلموا له بغير حرب فيدخل مكة هادياً محرراً منقذاً مؤدباً ولا يدخلها فاتحاً غازياً قاهراً مخرباً

أما العباس فسار بصاحبه ابي سفيان الى ذلك المضيق بينما كان المسلمون يستعدون للمسير الى مكة كرمها الله واخذت قبائلهم تسير في طريق ذلك الوادي وهي متحمسة لدخول البلد الذي كان قبلة

فَسَارَ صَخْرٌ مَعَ ٱلْعَبَّاسِ نَحْوَ مَضِيـــقٍ مِنْهُ طَـهَ جُنُودُ ٱللهِ يُمْشِيهَا
هُنَاكَ قَدْ وَقَفَا وَٱلْعُرْبُ سَائِرَةٌ إِلَى قُرَيْشٍ صُفُوفًا فِي تَتَالِيهَا
حَتَّى إِذَا مَرَّ بِٱلْأَنْصَارِ قَائِدُهَا سَعْدٌ وَرَايَتُهَا ٱلزَّهْرَاءُ مُعْلِيهَا
نَادَى بِصَخْرٍ : بِهَذَا ٱلْيَوْمِ كَعْبَتُكُمْ قَدِ ٱسْتُحِلَّتْ لَنَـا مَعْ قَهْرِ حَامِيهَا
وَٱلْيَوْمَ ذَلَّتْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عِزَّتِهَا عَلَى يَدَيْنَا وَقَدْ بِتْنَا مُذِلِّيهَا
فَهَالَ تَهْدِيدُ سَعْدٍ نَفْسَ صَاحِبِنَا صَخْرٍ وَبَاتَتْ وَهَوْلُ ٱلذُّلِّ غَاشِيهَا
حَتَّى إِذَا مَرَّ طَـهَ بَيْنَ كَوْكَبَةٍ خَضْرَاءَ مِنْ جُنْدِهِ بَادٍ تَسَطِّيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى بَطَلُ ٱلْإِسْلَامِ يَصْحَبُهُ فِي سَيْرِهِ صُحْبَةً تَسْمُو مَعَانِيهَا
نَادَاهُ صَخْرٌ : أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ أَحْمَدُ هَلْ تَسِيرُ نَحْوَ قُرَيْشٍ ٱلْيَوْمَ تُرْزِيهَا
أَتَسْتَحِلُّ فَدَتْكَ ٱلنَّفْسُ كَعْبَتَنَا وَهَلْ مَذَلَّتُنَا أَصْبَحْتَ بَاغِيهَا

العرب فصار قبلة المسلمين يولوا اليه وجوههم من كل الارض

وكان ابو سفيان دهشاً مما يرى من القبائل معجباً بنشاط رجالها وحماسهم وما يظهر عليهم من دلائل القوة والبأس وما زال كذلك والقبائل تمرّ من امامه حتى اقبلت الاوس والخزرج وهما الانصار وكانت رايتهم مع سعد بن عبادة فلما حاذى سعد ابا سفيان والعباس نظر اليهما بعينين ملؤهما الحقد على قريش وقال « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الكعبة ، اليوم أذلّ الله قريشاً » فاضطرب ابو سفيان لهذا القول وقال للعباس « والله ان ابن اخيك لمهلك قومه » فقال العباس « كلا فان ابن اخي اوصل لرحمه من كل انسان عرفته » وبعد قليل مرّ المصطفى بكتيبة خضراء وهو على ناقته القصواء والى يمينه سيدنا علي بن طالب وحولهما عليهما الصلاة والسلام روساء المهاجرين والانصار فاعترض المصطفى ابو سفيان صائحاً : «يا محمد لك أمرت بقتل قومك ، فقد زعم سعد انه قاتلنا ومذل كعبتنا ومذلنا ، فانشدك الله في قومك ، وانت ابرّ الناس وارحمهم واوصلهم للرحم» فتبسم المصطفى من مقالة ابي سفيان الدالة على انكسار نفسه وانخذاله ونظر اليه نظرة المشفق وبينما هو كذلك واذ تقدم من ناقته عليه الصلاة والسلام عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وقالا « يارسول الله ان ابا سفيان لم يقل الا الحق فانا لا نأمن من سعد ان تكون له صولة في قريش » حينئذ مال عليه الصلاة والسلام بوجهه الشريف الى ابي سفيان وقال « كذب سعد ياابا سفيان ، فاليوم يوم المرحمة ، اليوم اعزّ الله قريشاً ، اليوم يعظم الله الكعبة ، اليوم تكسى الكعبة » ثمّ توجه بنظره الى عليّ وأمره ان يسرع الى سعد وينزع منه اللواء ويحمله ويستلم قيادة الجيش . وحينئذ اطمأن ابو سفيان قليلاً وقال للعباس « والله ما لاحد قبل لهؤلاء ولا طاقة ياأبا الفضل فقد أصبح ملك بن أخيك عظيماً » فقال العباس « والله انها النبوّة » فقال أبو سفيان « نعم والله فما الرأي عندك يا أبا الفضل ؟؟ » فقال العباس « أسرع ياصاح الى قومك واجهد في حملهم على الخضوع والتسليم » فامتثل أبو سفيان وأسرع بجواده الى مكة كرمها الله

فَإِنَّ سَعْداً بِذِي ٱلْوَيْلَاتِ هَدَّدَنِي   وَقَالَ لِي سَائِرٌ ذَا ٱلْيَوْمَ يُجْزِيهَا

فَٱسْتَغْرَبَ ٱلْمُصْطَفَى تَهْدِيدَ صَاحِبِهِ   لِقَوْمِهِ وَهْوَ لَا يَرْضَى تَلَاشِيهَا

وَقَالَ عُثْمَانُ : لَا آمَنْ بِسَعْدٍ عَلَى   قُرَيْشَ أَبْعِدْهُ عَنْهَا فَهْوَ مُؤْذِيهَا

كَذَا ٱبْنُ عَوْفٍ لَقَدْ ثَنَّى مَقَالَةَ عُثْمَانَ   وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ مُصْغِيهَا

حَتَّى إِذَا ٱنْتَهَيَا مَالَ ٱلرَّسُولُ إِلَى   أَصْحَابِهِ بِٱلَّذِي تَبْغِي يُمَنِّيهَا

وَقَالَ : أَقْوَالُ سَعْدٍ كُلُّهَا كَذِبٌ   وَلَسْتُ أَسْمَحُ أَنْ يُجْرِيَ أُحَاشِيهَا

فَٱلْيَوْمَ يَوْمٌ بِهِ لِلنَّاسِ مَرْحَمَةٌ   فَلَا وَرَبِّكَ لَا نَسْعَى لِنُشْقِيهَا

وَٱلْيَوْمَ يَوْمٌ أَعَزَّ ٱللهُ فِيهِ قُرَيْشاً عِزَّةً   وَبِهِ أَخْزَى مُذِلِّيهَا

وَٱلْيَوْمَ عَظَّمَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ كَعْبَتَهُ   وَإِنَّنِي بِٱسْمِهِ ٱلْقُدُّوسِ كَاسِيهَا

ثُمَّ ٱنْثَنَى لِعَلِيٍّ قَالَ : لَيْسَ لَنَا   إِلَّاكَ مَنْ يَدْفَعُ ٱلْأَخْطَارَ يُقْصِيهَا

لما سار العباس بأبي سفيان الى معسكر المصطفى عاد رفيقاه بديل وحكيم بن حزام فأخبرا أهل مكة بمقدم محمد عليهم غازياً فاتحاً بجيش جرار لا تقوى قريش على صده فجزعوا لهذا النبأ وأخذوا يضربون أخماساً لأسداس فيما يفعلون لحماية مدينتهم المقدسة من المسلمين ولم يتفقوا على رأي لأن الضعف قد أخار عزائمهم وبينماهم في هذا القلق وكل طائفة منهم على رأي واذا بأبي سفيان داخل مكة وهو يصرخ بملء فيه « يامعشر قريش هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به فاستأمنوه » فأزاد صراخه في جزع القوم وكثر الشغب بينهم واختلطت نساؤهم برجالهم وكان في مقدمة النساء زوج أبي سفيان هند بنت عتبة أم معاوية فتقدمت من زوجها أبي سفيان وأخذت بلحيته وجعلت تنادي « يا آل غالب اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه ، قبح من طليعة قوم ، ودافعوا عن أنفسكم وبلدكم » فانتهرها أبو سفيان قائلاً « ويحك اسكني وادخلي بيتك » وقال للناس « ويحكم لا تغرنكم هذه المرأة من أنفسكم ، فان محمداً قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل بيته وأغلق بابه فهو آمن » فأصغت أكثر قريش لنصيحة أبي سفيان ولاذ بالكعبة من لاذ ولجأ الى بيته من لجأ ولم يبق على فكرة لقاء المسلمين وصدهم عن مكة الا العدد القليل ممن كان الغرور يملأ رؤوسهم

ولما دنت جيوش المسلمين من مكة كرمها الله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً ابن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل العرب من أسفل مكة ويغرز رايته عند أدنى البيوت وقال « لا تقاتلوا الا من قاتلكم » وأمر الزبير بن العوام أن يدخل مكة في جملة من قبائل العرب من جهة الحجون ويغرز رايته هناك وأمرهم كما أمر الأولين . وأمر أبا عبيدة بن الجراح أن يقود المشاة ويأخذ معهم بطن الوادي وأمرهم كما أمر الذين قبلهم . وهكذا انقسمت جيوش المسلمين الى ثلاث سرايا وهاجمت مكة المكرمة من أطرافها الثلاث فدخلتها من أعلاها صلحاً ومن أسفلها عنوةً اذ تصدى للمسلمين بعض قريش فقتل بعضهم خالد ابن الوليد وجيشه وفرّ الباقون

أَسْرِعْ إِلَى سَعْدَ خُذْ فِي ٱلْحَالِ رَايَتَهُ وَقُدْ جُيُوشِي وَكُنْ لِلنَّصْرِ مُخْطِيهَا
مَضَى أَبُو حَسَنٍ فِي أَمْرِ صَاحِبِهِ وَمَا . أَوَامِرُهُ إِلَّاهُ مُمْضِيهَا
وَسَارَ بِٱلرَّكْبِ طَـهَ وَهْيَ مُنْشِدَةٌ حَوْلَيْهِ عَنْ طَرَبٍ أَشْجَى أَغَانِيهَا
وَقَالَ صَخْرٌ: غَدَا مُلْكُ ٱلْأَمِينِ عَظِيـــمًا وَهْوَ قَاهِرُ أَعْدَاهُ وَمُخْزِيهَا

ثمّ ان المصطفى صلى الله عليه وسلم دخل مكة المكرمة دخول الفاتح المنصور والى يمينه ربيبه ووصيه سيدنا علي أمير المؤمنين وحولهما عليهما الصلاة والسلام أكابر الصحابة .وكان الرسول وقتئذ على ناقته القصواء وهو معتمّ بشقة برد حمراء وقد وضع رأسه الشريف على رحل ناقته تواضعاً لله عزّ وجلّ وكان دخوله بموكبه الحافل هذا من كداء وكان في دخوله يقرأ سورة الفتح ولما جاء البيت طاف به سبعاً على راحلته وكان محمد بن أبي مسلمة آخذاً بزمامها ليستلم الحجر بمحجنين في يده ثم أخذ المصطفى مفتاح الكعبة من صاحبها عثمان بن طلحة الشيبي ووقف على باب الكعبة كرمها الله والناس بين يديه جماعات وقال : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كلّ مأثرة أو دم أو مال يدّعى به فهو تحت قدمي هاتين . الا سدانة البيت وسقاية الحاج » ثمّ قال « يامعشر قريش انّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » ثمّ قال « يامعشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟؟ » فصاحت جموعهم « خيراً . أخ كريم . وابن أخ كريم » فقال عليه الصلاة والسلام « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ودخل في الاسلام في يوم الفتح هذا معظم رجالات قريش وعلى رأسهم أبو سفيان وابنه معاوية . وأطلق عليهما وعلى أمثالهما ممن أسلم معهما يوم الفتح اسم « الطلقاء »

وفي مساء يوم الفتح أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يفكر بتطهير الكعبة المكرمة من أرجاس الوثنية بازالة ما عليها وما في مسجدها من الاصنام والأنصاب قالوا وكان في الكعبة ٣٦٠ صنماً لكلّ حيّ من أحياء العرب صنم خاص . وحسن للمصطفى بعد اعمال رويته ومناجاة خالقه أن يذهب اليها في جنح الدجى ويحطم أصنامها بيديه الشريفتين فيصبح الناس ولا أثر لوثنيتهم في البيت المخصص لعبادة الله الواحد الاحد . ولم يصطف المصطفى لمعاونته في هذه المهمة المقدسة غير أخيه وصنوه ووزيره المرتضى عليهما الصلاة والسلام فخفّ الى مخيمه وكان قريباً منه ودعاه اليه وهرولا مسرعين الى الكعبة كرمها الله فطافا بها سبعاً تحت جنح الدجى ثمّ عكفا على هاتيك الاصنام فكان المصطفى يضربها بقضيب في يده فتتحطم وهي كما تعلم من الصخور والحجارة بمعجزة الهية وهو يقول « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » وكان عليّ يمترحطامها هنا وهناك ليختلط بعضها ببعض وما زالا كذلك حتى أتيا عليها كلها ولم يبق أمامهما الا الصنم الأكبر وقد كان مقره فوق سطح الكعبة وهو مثبت فيها فعمد المصطفى الى الصعود الى سطح الكعبة لتحطيمه فقال لعلي : اجلس . فجلس علي القرفصاء وصعد رسول الله على منكبيه وقال : انهض . فنهض علي متثاقلاً بعض النهوض فلما رأى رسول الله ضعفه بالرغم عما اشتهر من قوته تبسم وقال : « اجلس فانك لا تستطيع حمل ثقل النبوة » فجلس علي ونزل المصطفى من على منكبيه وفي الحال جلس القرفصاء وقال لعلي : اصعد . فامتنع علي عن الصعود احتراماً لشخص رسول الله فكرّر عليه القول : اصعد ياعلي . فصعد علي بن أبي طالب على كاهل محمد النبي العربي الامي عليهما الصلاة والسلام فنهض به .

فَقَالَ عَبَّاسُ : بَلْ هٰذِي ٱلنُّبُوَّةُ قَدْ تَعَزَّزَتْ وَتَعَالَتْ فِي مُرِيدِيهَا
أَسْرِعْ إِلَى مَكَّةٍ وَٱنْصَحْ جَمَاعَتَهَا بِأَنْ تُقَابِلَ بِٱلتَّرْحِيبِ آتِيهَا
فَجَدَّ جِدًّا أَبُو سُفْيَانَ مُبْتَغِيًا نَصِيحَةَ ٱلْقَوْمِ يَأْبَى أَنْ يُمَارِيهَا(١)
وَإِذْ أَتَى مَكَّةً نَادَى بِهَا عَلَنًا : إِنَّ ٱلْأَمِينَ عَلَى ٱلْأَبْوَابِ غَازِيهَا
وَإِنَّهُ مُعْلِنٌ فِيهَا ٱلْأَمَانَ إِذَا مَا سَالَمَتْهُ وَلَمْ تُظْهِرْ تَعَصِّيهَا
وَهٰكَذَا سَلَّمَتْ أُمُّ ٱلْقُرَى لِنَبِيِّ ٱللهِ سِلْمًا وَكَانَ ٱلْخَوْفُ فَاشِيهَا
وَهٰكَذَا فُتِحَتْ لِلْمُسْلِمِينَ حُصُونُ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱلْأُلَى هَابُوا تَدَاعِيهَا
وَمَا دَرَى أَهْلُهَا إِلَّا وَأَحْمَدُ فِي رُبُوعِهَا بِجُمُوعٍ تَاهَ مُحْصِيهَا
فَمِنْ مُشَاةٍ وَقَدْ أَنْضَتْ مَوَاضِيهَا وَمِنْ كُمَاةٍ وَقَدْ هَزَّتْ عَوَالِيهَا
وَبَيْنَهَا ٱلْمُصْطَفَى بِٱلنَّصْرِ دَاخِلُهَا وَبِٱلْخُشُوعِ وَبِٱلتَّقْوَى مُوَافِيهَا
قَدِ ٱمْتَطَى ٱلنَّاقَةَ ٱلْقَصْوَاءَ وَهْيَ بِهَا دِيُ ٱلْخَلْقِ مُطْرَبَةٌ تُبْدِي تَهَادِيهَا

وحدث علي الناس عن وقفته تلك على كاهل رسول الله فقال : لما نهض بي رسول الله خيل لي أني لو شئت لنلت أفق السماء بل لو شئت أن أتناول الثريا بيدي لفعلت . وحينما بلغ علي سطح الكعبة تناول ذلك الصنم الضخم بيديه القويتين نخلعه من الأوتاد المثبت بها وقذف به الى أرض الكعبة فتحطم وتحطمت معه الوثنية من جزيرة العرب كلها . ثم نزل عن كاهل المصطفى وسارا معاً وقد قضيا القضاء الأخير على كل كفر واشراك وعادا عليهما الصلاة والسلام الى فراشيهما . وعند الفجر أذن بلال وأسرع الناس للصلاة في الكعبة فوجدوا الأصنام قد تحطمت وصلوا صلاة الفجر وراء المصطفى . وبعد الصلاة أعاد رسول الله مفتاح الكعبة الى عثمان بن طلحة الشيبي سادنها ثانية ولا يزال مفتاح الكعبة في أعقابه الى يوم الناس هذا

وقد كان فتح مكة أعظم حادث في الاسلام أصبحت بعده قريش في مقدمة أنصاره واستعادت بالاسلام المكانة العليا التي كانت لها في الجاهلية فلا عجب اذا قلنا انه لم يمض على فتح مكة سنتان حتى دانت جزيرة العرب بالاسلام وتلاشى من ربوعها كل أثر للأديان الأخرى

(١) يحسن بنا هنا أن نذكر شيئاً من ترجمة أبي سفيان هذا فنقول : هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي المكي كان في الجاهلية تاجراً يبيع الزيت والادم ويجهز التجارة بماله وأموال قريش الى بلاد الشام والعراق . وكان من سادات قريش المعدودين وما زال كذلك الى أن قامت قيامة قريش على الهواشم وتحالفت ضدها قبيل الهجرة حينئذ انتهت اليه زعامة قريش العليا وأصبح وكلمته نافذة على الجميع وأخذ على عاتقه محاربة الاسلام والمسلمين . وكان عند الهجرة في نحو السابعة والخمسين من عمره وقد مر معنا فيما تقدم من مجمل حوادث المغازي النبوية الجهد الذي بذله أبو سفيان لاطفاء نور الله وأبى الله الا أن يتم نوره

وَرَأْسُهُ طَاعَةً لِلّهِ مُلْتَصِقٌ ... بِرَحْلِهَا وَهْوَ آيُ ٱلْفَتْحِ تَالِيهَا

تَرَى ٱلْغُزَاةَ بِغَرْزِ ٱلرَّحْلِ مُمْسِكَةً ... تُوَحِّدُ ٱللّهَ أَوْفَى ٱلنَّصْرِ مُوْلِيهَا

كَانَتْ تُكَبِّرُ تَكْبِيراً دَوَى بِفَضَا ... أُمِّ ٱلْقُرَى دَاعِياً لِلْحَقِّ أَهْلِيهَا

وَإِذْ أَتَى ٱلْكَعْبَةَ ٱلزَّهْرَاءَ طَافَ بِهَا ... سَبْعاً يُسَابِقُ فِيهَا مُسْتَطِيفِيهَا

ثُمَّ عَلَى بَابِهَا أَلْقَى خِطَابَتَهُ ... وَٱلنَّاسُ تَعْجَبُ إِعْجَاباً بِمُلْقِيهَا

فَوَحَّدَ ٱللّهَ رَبَّ ٱلْعَرْشِ نَاصِرَهُ ... عَلَى عِدَى ٱلدِّينِ إِنْسِيهَا وَجِنِّيهَا

وَقَالَ إِنَّ دَعَاوِيْ ٱلْقَوْمِ بَاطِلَةٌ ... فَلْتَعْدِلِ ٱلنَّاسُ عَنْ مَاضِيْ دَعَاوِيهَا

إِلَّا سِدَانَةُ بَيْتِ ٱللّهِ كَعْبَتِهِ ... إِنِّيْ لَتَارِكُهَا عَفْواً لِشَيْبِيهَا

كَذَا ٱلسِّقَايَةُ مُبْقِيهَا لِصَاحِبِهَا ... كَيْمَا يُلَاقِيْ بِهَا ٱلْحُجَّاجَ يَسْقِيهَا

وَيَا قُرَيْشُ دَعِيْ مَاضِيْ ٱلتَّعَاظُمِ بِٱلْآ م بَاءِ خَيْرُ عِبَادِ ٱللّهِ تَاقِيهَا

فَٱلنَّاسُ مِنْ آدَمٍ طُرّاً وَآدَمُ مِنْ ... تُرَابِ ذِي ٱلْأَرْضِ جَلَّ ٱللّهُ ذَارِيهَا

وَمَا تَظُنِّيْنَ إِنِّيْ ٱلْيَوْمَ فَاعِلُهُ ... فَأَحْسَنَتْ كُلُّهَا فِيهِ تَظَنِّيهَا

فَقَالَ: أَنْتُمْ يَا أَهْلَ ٱلْوَلَا طُلَقَا ... ٤ فَٱذْهَبُوا وَبِكُمْ نَفْسِيْ أُهَنِّيهَا

وَإِذْ رَأَتْ كَرَمَ ٱلْهَادِيْ قُرَيْشُ فَلَمْ ... يَبْطُشْ بِهَا بَلْ غَدَا لُطْفاً يُوَاسِيهَا

تَشَهَّدَتْ أَسْلَمَتْ لِلّهِ رَاضِيَةً ... بِدِينِ أَحْمَدَ غَازِيهَا وَوَالِيهَا

وَبِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلسَّمْحَاءِ قَدْ رَضِيَتْ ... دِيناً وَطَابَ لَهَا صَافِيْ تَفَيِّيهَا

وفي السنة السادسة للهجرة قصد أبو سفيان الشام للتجارة فأحبّ هرقل ملك الروم وكان وقتئذٍ في الشام أن يقف منه على ما كان يسمعه من نبأ محمد والاسلام فاستدعاه اليه وباحثه في الأمر ملياً بواسطة ترجمان وقال أبو سفيان لأصحابه بعد أن خرج من عند ملك الروم « لقد أمر ابن أبي كبشة (ويريد محمداً عليه الصلاة والسلام) وأصبح ملوك الروم يهابونه في سلطانهم » وعرف الناس من قوله هذا أن أبا سفيان فهم من حديث هرقل بأنه بات متخوفاً من الاسلام الذي ظهر في بلاد العرب . ومع ذلك ظلّ أبو سفيان هذا متمادياً بعداوة المصطفى يحارب المسلمين بجهده ويحزّب الأحزاب ضدهم الى يوم فتح مكة حيث أسلم مع بقية قريش كما تقدم

وأول شاهد أبي سفيان مع المسلمين كانت في غزوة حنين في السنة الثامنة للهجرة ولما قسمت الغنائم اعطاه المصطفى مئة بعيراً منها اشارة الى مكانته في قريش . ثمَّ اشترك أبو سفيان في يوم الطائف فأصابته نبلة في احدى عينيه ففقئت واصبح أعور . واشترك أبو سفيان في واقعة اليرموك سنة ١٣ للهجرة على عهد أبي بكر فأصابت نبلة عينه الثانية ففقأتها واصبح أعمى . وتوفي أبو سفيان في دمشق عند ولده معاوية وكان واليها سنة ٣١ للهجرة عن ٨٨ سنة ودفن فيها

وَفِيْ دُجَى ٱللَّيْلِ وَٱلأَعْرَابُ نَائِمَةٌ بِمَكَّةٍ فِيْ أَمَانٍ مِنْ غَوَاشِيْهَا(١)
دَعَا ٱلرَّسُوْلُ عَلِيّاً دَعْوَةً فَرِحَتْ لَهَا ٱلْمَلَائِكُ فِيْ أَسْمَى عَلَالِيْهَا
وَأَسْرَعَا لِفِنَاءِ ٱلْبَيْتِ وَٱعْتَزَمَا تَحْطِيْمَ أَوْثَانِهِ خِزْيَاً لِبَاغِيْهَا
كَانَتْ بِكَثْرَتِهَا تَمْلَأُ جَوَانِبَهُ وَٱلْعُرْبُ تَعْبُدُهَا زُلْفَى لِبَارِيْهَا
وَكُلُّ حَيٍّ مِنَ ٱلْعُرْبِ ٱلْكِرَامِ لَهُ هُنَاكَ دُمْيَةُ شِرْكٍ كَانَ يَتَّقِيْهَا

---

(١) ان الكعبة المعظمة وهي التي تسمى «البيت العتيق» بناها سيدنا ابراهيم وولده اسماعيل عليهما الصلاة والسلام لما هاجرا الى مكة وقد بنياها على شكل مربع زواياه الى الجهات الاربع حتى تتكسر عليها تيارات الهواء فلا يؤثر ضغط الرياح على كتلتها ، وطريقة البناء هذه هي التي اتبعها الفراعنة في بناء الاهرام المصرية فكانت موضع اعجاب أكابر مهندسي العالم في كل عصر . وما زالت الكعبة على بناء ابراهيم حتى جدّد بناءها العمالقة ثمّ جرهم . ولما آل أمر البيت الى قصي بن كلاب في القرن الثاني قبل الهجرة هدمها وأعاد بناءها فاحكمه وجعل سقفها من خشب الدوم وجزوع النخل وبنى الى جانبها دار الندوة وهي أهمّ بناء في مكة بعد الكعبة وجعلها مقراً لحكومته وموضعاً للشوراء . ثمّ قسم جهات الكعبة بين طوائف قريش فبنوا دورهم على المطاف حولها وكانت تخرج الابواب اليها . وقبل البعثة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام بنحو خمس سنوات هدم السيل الكعبة فاقتسمت قريش بناءها بين قبائلها وكان ياقوم الرومي هو مهندس بنائها بمساعدة نجار مصري فلما انتهوا الى وضع الحجر الاسود اختلفوا في أي قبائل قريش تختصّ بشرف وضعه في محله وكاد يفضي اختلافها الى حرب أهلية لولم يتدارك الأمر المصطفى وكان في الخامسة والثلاثين من عمره السعيد الشريف وكان يشتغل معهم في بنائها وكان معروفاً منهم جميعاً بكمال سيرته وعلوّ أخلاقه وصدقه حتى كانوا يدعونه «الامين» فارتضوه عليه الصلاة والسلام حكماً فأخذ رداءً وضع فيه الحجر الاسود وأمر رجال القبائل فمسكوا أطرافه ورفعوه بالحجر حتى اذا وصلوا به الى مكانه من البناء في الركن الشرقي وضعه في موضعه بيده الشريفة . وكان الحجر داخلاً في الكعبة فلما نادى عبدالله بن الزبير بنفسه خليفة وهو في مكة وأرسل يزيد بن معاوية جيشه لاخضاعه التجأ الزبير الى المسجد الحرام فضربه الحصين قائد جيش يزيد بالمنجنيقات فأصابت بعض مقذوفاتها الكعبة فهدمتها وأحرقت كسوتها مع بعض أخشابها . على ان الحصين لم يلبث انْ عاد عن مكة اذ بلغه هلاك يزيد وحينئذ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وأتى لها من اليمن بالجصّ النقي فبناها به وأدخل الحجر في البيت والصق الباب بالارض وجعل قبالته الى الغرب باباً آخر ليخرج الناس منه وجعل ارتفاعه ٢٧ ذراعاً ولما فرغ من بناء الكعبة طيبها بالمسك والعنبر داخلاً وخارجاً وكساها بالديباج وكان نجاز بنائها في ١٧ رجب سنة ٦٤ للهجرة . ولما ولي الخلافة في الشام عبد الملك بن مروان أرسل على عبد الله بن الزبير قائده الحجاج بن يوسف الثقفي فحصر مكة وفتحها وقتل بن الزبير « سنة ٧٣ هـ » وأعاد الكعبة الى ما كانت عليه على عهد المصطفى ولم يطرأ عليها بعد ذلك الا العمارة التي تغير فيها سقفها في زمن السلطان سليم العثماني « سنة ٩٦٠ هـ » ثمّ العمارة الترميمية التي حصلت في زمن السلطان احمد « سنة ١٠٢١ هـ » ثمّ العمارة التي أمر بها السلطان مراد الرابع على أثر السيل الهائل الذي حصل في سنة ١٠٣٩ هـ فاحدث فيها صدوعاً رممت بامر السلطان المذكور .

دُمًى أُقِيمَتْ وَإِبْلِيسٌ مُشَبِّهُهَا وَلَعْنَةُ ٱللهِ قَدْ غَشَّتْ مَرَائِيَهَا
حَتَّى إِذَا دَخَلَا ٱلْبَيْتَ ٱلْعَتِيقَ رَأَتْ أَصْنَامُهُ بِهِمَا هَوْلًا يُفَاجِيهَا
لَوْ أَنَّهَا نَطَقَتْ بَاحَتْ بِمَا شَهِدَتْ مِنْ جَهْلِ عُبَّادِهَا أَوْ مُسْتَثِيبِيهَا
فَبَاشَرَ ٱلْمُصْطَفَى تَحْطِيمَهَا بِقَضِيبٍ وَٱلْعَلِيُّ عَلَى ٱلْغَبْرَاءِ يُذْرِيهَا
مَا كَادَ يَهْوِي لَهَا إِلَّا وَقَدْ شَهِدَا مِنْ فَضْلِ رَبِّهِمَا ٱلْأَعْلَى تَهَاوِيَهَا

اما شكل الكعبة على التعديل الذي أحدثه الحجاج وقال انه طبق الشكل الذي كان على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو الشكل الذي لا يزال باقياً حتى الآن ، فهو شكل مربع تقريباً ، مبني بالحجارة الزرقاء الصلبة ، ويبلغ ارتفاع البناء خمسة عشر متراً ، وطول ضلعه الذي فيه الميزاب والذي قبالته ، عشرة أمتار وعشرة سنتيمترات ، وطول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثنا عشر متراً ، وباب الكعبة على ارتفاع مترين من الارض ، ويصعد اليه بدرج يحكي مدارج المنابر ، ودرجها الحالي من الخشب مصفح بالفضة ، أهداه الى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو نقال لا يوضع في مكانه منها الا اذا فتح بابها للزائرين في الاحتفالات الكبرى ، وهذه الاحتفالات لا تتجاوز ١٥ مرة في السنة ، وموضع هذا الدرج اعتيادياً بجوار قبة زمزم من جهة باب شيبة ، على أن لباب الكعبة درجاً خشبياً بسيطاً يوضع امام بابها على الدوام . وفي الركن الذي على يسار باب الكعبة الحجر الاسود ، وهو موضوع على ارتفاع متر ونصف من أرضية المكان

ويحيط بالكعبة من خارجها سور من البناء متوسط ارتفاعه ربع متر ومتوسط عرضه ثلاثون سانتيمتراً ، ويسمون هذا السور «شاذروان» ولعلهم أقاموا هذا السور حول الكعبة لوقايتها من تأثير السيول التي تنزل بكثرة من الجبال المحيطة بمكة الى الوادي الذي فيه البلد والكعبة

ويسمون زوايا الكعبة الخارجية بالاركان ، فالشمالي منها يسمونه «الركن العراقي» والغربي «الركن الشامي» والقبلي «الركن اليماني» وفيه حجر يسمونه «الحجر الاسعد» والشرقي «الركن الاسود» لان فيه الحجر الاسود وتسمية هذه الاركان ترجع الى اتجاهها

اما الحجر الاسود : فهو حجر صقيل بيضاوي ، غير منتظم ، ولونه اسود يميل الى الاحمرار ، وفيه نقط حمراء ، وتعاريج صفراء ، وهي أثر لحام القطع التي كانت تكسرت منه ، وقطره نحو ٣٠ سنتيمتراً ، ويحيط به أطار من الفضة عرضه ١٠ سنتيمترات ، والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم ، وهو ما يلتزمه الطائف في دعائه واستغاثته هناك

ويخرج من على منتصف حائط الكعبة الشمالي الغربي الميزاب «المزراب» ويسمونه «ميزاب الرحمة» وهو من بناء الحجاج وضعه على سطح الكعبة لتجري المياه منه ، وكان من النحاس فأبدله السلطان سليمان العثماني سنة ٩٥٩ هـ بآخر من الفضة ، ثم استبدل السلطان احمد العثماني هذا الميزاب بغيره من الفضة المنقوشة المزركشة بميناء زرقاء تتخللها نقوش ذهبية سنة ١٠٢١ هـ . وبعد ذلك صنع السلطان عبد المجيد العثماني سنة ١٢٧٣ ميزاباً من الذهب وأرسله الى الكعبة فوضع على سطحها وهو الموجود الآن ونقل ميزاب السلطان احمد الى الاستانة وحفظ في دار الآثار فيها

وقبالة الميزاب من الخارج «الحطيم» وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتي الكعبة الشمالية والغربية ، ويبعد عنهما مسافة مترين ، ويبلغ ارتفاعه متراً ، وسمكه متراً ونصفاً ، وهو مغلف بالرخام

رَاحَا يَقُولَانِ جَاءَ ٱلْحَقُّ يُزْهِقُ مَا   فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ بَاطِلٍ قَدْ كَانَ يُغْوِيهَا
وَكَانَ أَكْبَرُ أَصْنَامِ ٱلْأَعَارِبِ فَوْ   م قَ ٱلْكَعْبَةِ ٱلنَّائِلُ ٱلْغُفْرَانَ نَاحِيهَا
بَيْتٌ لِتَوْحِيدِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ شُيِّدَ لَا   لِلْوَثْنِ أَلَّهَهَا ٱلْجُهَّالُ تَأْلِيهَا
فَحَاذَيَاهُ وَقَالَ ٱلْمُصْطَفَى لِعَلِيٍّ   : إِنَّنِي ٱلْكَعْبَةَ ٱلشَّمَّاءَ رَاقِيهَا
أَجْلِسْ وَفِي ٱلْحَالِ كَتْفَيْهِ ٱلرَّسُولُ عَلَا   وَقَالَ: فَٱنْهَضْ لِكَيْ أَلْقَى أَعَالِيهَا

المنقوش ، ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة ٨ أمتار و٤٤ سانتيمتراً ، والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط الكعبة يسمونه «حجر اسماعيل» وكان نحو ثلاثة أمتار منه في نفس بناء الكعبة كما بناها ابراهيم الخليل وولده اسماعيل عليهما السلام والباقي كان زريبة لغنم هاجر وولدها اسماعيل ويقال انهما مدفونان في هذا الموضع

اما داخل الكعبة فشكله مربع مشطور الزاوية الشمالية ، وهي التي على يمين الداخل وبهذا الموضع باب صغير يسمونه «باب التوبة» يوصل الى سلم صغير يصعد به الى سطح الكعبة ، وفي وسط الكعبة من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القاقلي ، عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الاسود من الجهة الأخرى ، وقطر كل عامود نحو ٣٠ سانتيمتراً ، وهذه الأعمدة من وضع عبد الله بن الزبير . ويغطي سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردي عليها مربعات مكتوب فيها « الله جلّ جلاله » وهذه الكسوة هدية من السلطان عبد العزيز العثماني . وفي قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلي فيه النبي عليه الصلاة والسلام . ويحيط ببناء الكعبة من الداخل ازار من الرخام المجزّع على ارتفاع نحو مترين ، . وقد وضع في الحائط الغربي ألواح محفور عليها أسماء الذين جددوا شيئاً في الكعبة من السلاطين والامراء . وبجانب باب الكعبة من داخلها على اليسار طاولة من الخشب ، مغطاة بستارة من الحرير الاخضر ، موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة ، وهو من الاطلس الاخضر المزركش بالقصب ، يأتي اليها سنوياً من مصر مع الكسوة الشريفة ، ومعلق بسقف الكعبة عدة مصابيح ذهبية وفضية وبعضها مرصع بالاحجار الكريمة . وتفتح الكعبة في العاشر من محرم للرجال ، وفي ليلة ١١ منه للنساء ، وفي ليلة ١٢ من ربيع الاول للدعاء من غير ان يدخلها احد من الزائرين ، وفي صبيحته للرجال ، وفي مسائه للنساء ، وفي ٢٠ منه لغسل الكعبة «وكان يحضر الغسل على العهد العثماني شريف مكة والوالي وبعد استقلال الحجاز صار يحضر الغسل جلالة ملك الحجاز ووزراؤه» وفي أول جمعة من رجب للرجال ، وفي تاليه للنساء وفي صباح تاليه للرجال ، وفي مسائه للنساء ، وفي السابع عشر منه للدعاء ، وفي آخر جمعة منه كذلك ، وفي نصف ذي القعدة للرجال ، وفي تاليه للنساء ، وفي ٢٠ منه لغسل الكعبة . وفي ٢٨ منه لاحرامها «وذلك في بدء وقت الحج اما طريقة احرامها فهي انهم يحيطونها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرض المكان بعد ان يقصوا بهذا المقدار من ستار الكعبة تعجيلاً لبيعه من الحجاج . وتفتح الكعبة في موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظير أجر يأخذه سدنتها ، وتفتح في ٢٠ من ذي الحجة للغسل

ولغسل الكعبة احتفال عظيم بحضره جلالة ملك الحجاز ووزراؤه وأعيان مكة . فيدخل جلالة الملك داخل الكعبة فيصلي ركعتين ثمّ يؤتى اليه بجراول ماء من عين زمزم فيدفقها على أرضها

غَبِيًّا قُوَى ٱلْمُرْتَضَى حَمْلُ ٱلنُّبُوَّةِ فِي   شَخْصِ ٱلنَّبِيِّ وَمَا ٱلْأَثْقَالُ تُعْيِيهَا

فَقَالَ طَـهَ : فَقُمْ وَٱجْلِسْ فَإِنَّ قُوَا   مَكَ ٱلْخَائِرَاتِ حَرِيٌّ أَنْ أُدَارِيهَا

ثُمَّ جَثَا قَائِلًا: فَاصْعَدْ فَكَتْفِي أَوْ   مَى لِي أَنْ تَشِيلَكَ لَا تَرْهَبْ تَلَوِّيهَا

أَجَابَ أَكْرِمْتَ أَنْ أَعْلُوكَ قَالَ لَهُ:   لَا فَعْلَةٌ فِي رِضَى رَبِّي أُجَافِيهَا

كَذَا عَلَا كَاهِلَ ٱلْهَادِي عَلِيٌّ وَلَوْ   أَرَادَ غِشْيَ ٱلثُّرَيَّا كَانَ غَاشِيهَا

ثم يباشر غسلها مع من معه بمكانس صغيرة من الخوص معدّة لهذا الغرض ، ويسيل الماء من ثقب في عتبتها ، ثم يغسلها جلالة الملك بماء الورد ، ويضمخ أرضيتها وحيطانها على ارتفاع الايدي بالخلوق وانواع العطر كدهن الورد والمسك ، وفي اثناء ذلك يكون البخور بالندّ والعود صاعداً من جميع جهاتها ، ثمّ يقف جلالة الملك في الباب ويلقي بالمكانس وطول الواحدة ٣٠ سانتيمتراً ، على الجموع المحتشدة فيتزاحمون على تناولها والسعيد منهم من يفوز بواحدة منها للبركة

والكعبة مكسوة من الخارج ، وهي كذلك من أجل بعيد ، وأول من كساها تبع أبو كرب اسعد ملك حمير حين مر عليها راجعاً من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة ، كساها بالبرد المقصبة وعمل لها باباً ومفتاحاً . وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالجلد والقباطي زمناً طويلاً ، ثم أخذ الناس يقدمون لها هدايا من الكساوي المختلفة فيضعون بعضها فوق البعض ، ولما انتهى أمر مكة الى قصي وضع على القبائل رفادة لكسوتها سنويا واستمرّ ذلك الى بنيه ، وكان أبو ربيعة بن المغيرة قبل الاسلام يكسوها سنة وقبائل قريش تكسوها سنة ، وقد كساها النبي صلى الله عليه وسلم بالثياب اليمانية ، ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان ، ولما حجّ المهدي الخليفة العباسي سنة ١٦٠ ﻫ كان على الكعبة جملة كساوي فشكا اليه سدنتها من كثرتها فامر بانزالها تخفيفاً عن سقفها وأمر بان لا تعلق عليها سوى كسوة واحدة ، ومن هذا التاريخ صار لا يوضع عليها غير كسوة واحدة وصار سدنة الكعبة يوزعون ستار الكعبة القديمة على الحجاج بالثمن الذي يختص به سدنتها

وبالغ الخلفاء العباسيون بكسوة الكعبة وكانوا يعملونها من الحرير الاسود الذي هو شعارهم وكانوا يستصنعونها في مدينة تنيس المصرية وهي ثغر على البحر المتوسط في شمال دمياط هدمه الملك الكامل سنة ٦٢٤ ﻫ لكثرة ما كانت تهاجمه سفن الافرنج في الحروب الصليبية . ولما ضعف شأن الخلفاء العباسيين صارت كسوة الكعبة ترسل لها تارة من ملوك اليمن وأخرى من ملوك مصر الا انها ما كانت ترسل سنوياً ، ثم اختصّ بها سلاطين مصر فوقف عليها الملك الصالح بن الملك الناصر ابن قلاوون قريتي باسوس وسنديس من أعمال القليوبية فكان خراجهما مختصاً بصنع كسوة الكعبة وكانت العادة انه كلما قام على مصر ملك أو سلطان يرسل للكعبة كسوةً داخلية من الحرير الاحمر وأخرى خضراء للحجرة الشريفة النبوية في المدينة المنورة واما الكسوة الخارجية فكانت ترسلها مصر سنويا وهي من الحرير الاسود ولا تزال هذه العادة جارية في مصر حتى الآن

وكسوة الكعبة الخارجية تتألف من ثمان ستائر من الحرير الاسود يكتب عليها بالقصب في كل مكان منها « لا اله الا الله محمد رسول الله » وطول الستارة نحواً من ١٥ متراً ومتوسط عرضها ٥ أمتار وبعض سانتيمترات ، وتعلق كل ستارتين على جهة من جهات الكعبة ، فتربطان من أعلاها في حلقات من الحديد تثبتت في سقف الكعبة ، ثم تربطان الى بعضهما بواسطة عرى

فَقَالَ أَحْمَدُ: أَلْقِ ٱلآنَ أَكْبَرَ أَصْنَامِ ٱلأَعَارِبِ يَكْفِيهِمْ تَسَدِّيهَا
فَهَزَّهُ ٱلْمُرْتَضَى بِٱلْعُنْفِ هَزَّ بِهِ عِبَادَةَ ٱلْوَثَنِ هَزَّاتٍ تَلَاشِيهَا
وَمَا تَنَاوَلَهُ حَتَّى رَمَاهُ فَنَا مَ دَىٰ ٱلْمُصْطَفَى أَزْهَقَ ٱللهُ ٱلتَّوَارِيهَا
وَقَدْ تَحطَّمَ تَحْطِيمًا بِرَمْيَتِهِ وَٱللهُ بَارَكَ كَفًّا وَهْيَ تَرْمِيهَا
وَإِنَّ أَفْضَلَ أَعْمَالِ ٱلنُّبُوَّةِ تَحْطِيمُ ٱلتَّمَاثِيلِ بَلْ أَسْمَى مَآتِيهَا

وازرة وتثبتان من الاسفل في حلقات مثبتة في « الشاذروان » ثم تربط هذه الستائر بعضها عند الاركان بعرى وازرة فتصبح كالقميص على جسم الكعبة ، ثم يوضع على محيط الكعبة فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الاعلى حزام يسمونه «رنكاً» مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب «القصب» مكتوب عليه آيات قرآنية فيكون كالزنار لذلك القميص

ويتبع هذه الكسوة الشريفة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها « البرقع » وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفاتيح الكعبة ، وكسوة مقام ابراهيم الخليل ، وستارة باب منبر الحرم الشريف ، وكل هذه الاشياء تصنع من الاطلس الاسود وتزركش بالقصب وعليها آيات قرآنية

وللكسوة الشريفة مربوط مخصص في ميزانية الحكومة المصرية تقدره ٤٥٥٠ جنيهاً وتحتفل مصر احتفالاً عظيماً بارسال الكسوة مع المحمل المصري سنوياً تعطل في يومه دواوين الحكومة وكذلك تحتفل يوم رجوع المحمل . اما الكسوة القديمة فتقطع قطعاً وتباع للحجاج للبركة وذلك عند وصول الكسوة الجديدة قبيل عيد الاضحى المبارك كما سبقت الاشارة

اما مطاف الكعبة فهو على شكل دائرة بيضاوية من الشمال الى الجنوب ، وقد فرشت أرضه بالرخام من عهد عهيد ، وهو على حدود الحرم في عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومسافة ما بين آخره والكعبة من جهة الغرب والجنوب نحو ١٩ متراً ، ومن جهة الشمال والشرق نحو ١٢ متراً وفيه لصق البيت مما يلي باب الكعبة الى الشمال جزء مربع منحط عنه سعته نحو المترين من كل جهة يسمى «المعجن» وقطر دائرة المطاف من الشمال الى الجنوب نحو ٥١ متراً ومن الشرق الى الغرب نحو ٤١ متراً ، والكعبة في وسط المطاف تقريباً

واما الحرم المكي فكان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدود المطاف الآن ، وهي حدوده القديمة على عهد ابراهيم الخليل عليه السلام ، وزاد فيه عمر وعثمان مما اشترياه من الدور التي حوله ، ثم زاد فيه عبد الله بن الزبير عند ما جدد بناء الكعبة ، وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي وعمره عمارة حسنة ، ولما حج المهدي الخليفة العباسي سنة ١٦٠ هـ رأى ان الكعبة ليست في وسط المسجد فاشترى كثيراً من الدور ولا سيما التي في الجهة الشرقية القبلية وأدخلها الى المسجد . وزاد فيه أيضاً ابنه الهادي . وكانت دار الندوة عامرة بالحرم تجاه الكعبة من الجهة الشمالية الغربية . وكان ينزل فيها الخلفاء والامراء في حجهم . فهدمها المعتضد الخليفة العباسي سنة ٢٨١ هـ وجعلها مسجداً قائماً بنفسه . ولها قبلة الى الكعبة . واستمر هذا المسجد مصلّى الامام الحنفي الى سنة ٩٤٧ هـ حيث هدمه كلدي أمير جده وبناه ثانية مسجداً ذا طبقتين احداهما للامام والمصلين والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو لا يزال كذلك حتى الآن . ثم طفق سلاطين مصر يقومون

بِهِ ٱلْخَلَائِقُ قَدْ أَضْحَتْ مُوَحِّدَةً يَجْثُو إِلَى ٱللهِ بِٱلْإِخْبَاتِ جَاثِيهَا
وَقَدْ تَطَهَّرَتِ ٱلْعُرْبَانُ مِنْ رَجَسَا مِ تِ ٱلشِّرْكِ حَاضِرُهَا ٱلزَّاهِي وَآتِيهَا
وَوَقْفَةُ ٱلْمُرْتَضَى مِنْ فَوْقِ كَتْفِ رَسُو لِ ٱللهِ قَدْ أَكْسَبَتْهُ ٱلدَّهْرَ تَوْجِيهَا

أمير المؤمنين يصلح ما أفسده خالد

قَدْ شَايَعَتْ أَحْمَدَ ٱلْهَادِيْ بِشِرْعَتِهِ قَبَائِلٌ وَٱهْتَدَتْ مَا كَانَ دَارِيهَا(١)
فَأَسْلَمَتْ وَٱنْثَنَتْ عَنْ شِرْكِهَا وَأَقَرَّ مَ تْ بِٱلشَّهَادَةِ تَوْحِيداً لِبَارِيهَا

بتعمير ما يتهدم من الحرم المكي الشريف الى ان استولت على البلاد الدولة العثمانية فصار السلاطين العثمانيون يقومون بهذا الواجب المقدس

والحرم المكي من داخله على شكل مربع تقريباً وفي وسطه يميل الى الزاوية الجنوبية الكعبة المكرمة . وطول ضلع الحرم المقابل للحطيم الذي فيه باب الزيادة ١٦٤ متراً وطول الضلع الذي يقابله وهو الذي فيه باب الصف ١٦٤ متراً . وطول ضلعه الذي فيه باب السلام ١٠٨ امتار . وطول الضلع الذي يقابله وفيه باب ابراهيم ١٠٩ امتار . ويحيط بالحرم من داخله أربعة اروقة فيها ٣١١ عاموداً . تقوم عليها قباب على محيط المسجد . وابواب الحرم ثمانية في الجهة الشمالية وهي: باب الدريبة . وباب المدرسة . وباب الحكمة . وباب الزيادة . «اشارة الى ان هذه الجهة زادت في المسجد ولم تكن منه» وبجواره الى الغرب باب القطبي . وباب الباسطية . وباب الزمازمية . وباب عمرو بن العاص «وكان يسمى باب العتيق او باب السدة» . ويليه من الجانب الغربي ثلاثة ابواب وهي : باب العمرة «لان الحجاج يخرجون منه الى العمرة» وباب ابراهيم . ثمّ باب الحزورة «والحزورة اسم لسوق في الجاهلية كانت في مكان هذا الباب» . ويليه من الجهة الجنوبية سبعة ابواب وهي: باب أم هانئ «وهي زوجة هبيرة بن عمرو المخزومي وكان بيتها في موضع هذا الباب» وباب العجلة . وباب الرحمة . وباب اجياد . وباب الصفا . وباب بني مخزوم . ثمّ باب بازان . ويلي ذلك من الجهة الشرقية أربعة أبواب وهي : باب علي «ويسمى أيضاً باب بني هاشم» وباب العباس «لانه مقابل لدار العباس عم النبي» وباب النبي «لان المصطفى عليه الصلاة والسلام كان يدخل منه الى الكعبة لقربه من بيت سيدتنا خديجه» ثمّ باب السلام وهو الذي يدخل منه الحاج الى الحرم عند طواف القدوم

وفي الحرم المكي ستّ منارات ويؤذن عليها كلها في الاوقات الخمس على ان شيخ المؤذنين ويسمونه «الميقاتي» يؤذن على قبة زمزم وهي التي بناها أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي سنة ١٤٥ هـ وتحت هذه القبة بئر زمزم التي يستقي منها الحجاج ويحضرون معهم من مائها الى بلادهم للبركة

اما الاصنام التي كانت في الكعبة وأزالها المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام فقد كانت تملأ مسجد الكعبة وقد تقدم معنا تاريخ ادخالها الى الكعبة في حاشية سبقت

(١) ذاع الاسلام وشاع في جزيرة العرب بفضل الله تعالى حتى ان بعض قبائل العرب دانت بالاسلام وقامت بفرائضه وابتنت المساجد وعمرتها بالسجود والعبادة ولم يتصل نبأها برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هذه القبائل التي دانت بالاسلام قبيلة بني جذيمة وكانت نازلة بناحية « يلملم »

وَبِٱلْبَرَارَةِ قَدْ شَادَتْ مَسَاجِدَهَا لِتَعْبُدَ ٱللهَ جَهْراً فِي مَغَانِيهَا
مِنْهَا جَذِيمَةُ كَانَتْ فِي يَلَمْلَمَ قَدْ حَلَّتْ هُنَاكَ تَرَى شَتَّى مَآوِيهَا
فَبَعْدَ أَنْ سَادَ طَـهَ قَوْمَهُ وَأَوَى أُمَّ ٱلْقُرَى وَأَطَاعَتْهُ حَوَامِيهَا
إِلَى جَذِيمَةَ أَسْرَى خَالِداً بِسَرِيَّـــةٍ وَقَالَ لَهُ : فَٱذْهَبْ لِتَهْدِيهَا
وَلَمْ يَكُنْ بِقِتَالِ ٱلْقَوْمِ آمِرَهُ إِنْ لَمْ تُطِعْ بِرِضَاهَا صَوْتَ دَاعِيهَا
وَخَالِدٌ كَانَ مُنْذُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ حَا قِداً عَلَيْهَا وَلَمْ يَنْفَكَّ شَانِيهَا
فَعَمُّهُ فَاكِهٌ قَبْلاً لَقَدْ قَتَلَتْ وَإِنَّ قَاتِلَتَهُ مَا كَانَ نَاسِيهَا
وَإِنَّهُ كَانَ مَوْتُوراً وَسَارَ عَلَيْـــهَا وَهْوَ أَخْذَةُ ثَأْرِ ٱلْعَمِّ نَاوِيهَا
وَإِذْ دَرَتْ خَالِدٌ إِبْنُ ٱلْوَلِيدِ أَتَا هَا بِٱلسَّرِيَّةِ خَافَتْ شَرَّ آتِيهَا
ظَنَّتْ بِمَقْدَمِهِ حَرْباً يُرِيدُ بِهَا سَفْكَ ٱلدِّمَاءِ وَمَا كَانَتْ تُحَاشِيهَا
فَأَسْرَعَتْ لِلِقَاهُ وَهْيَ حَامِلَةٌ آلــسِّلَاحِ مُشْهِرَةٌ شَهْراً مَوَاضِيهَا
وَمُذْ دَنَا خَالِدٌ مِنْهَا بِصُحْبَتِهِ نَادَى بِدَعْوَتِهِ لِلدِّينِ تَجْرِبَهَا
قَالَ:ٱلسَّلَامَةُ فِي ٱلْإِسْلَامِ مَنْ تَبِعَ ٱلـــدِّينَ ٱلْحَنِيفَ فَلَا حَرْبٌ يُعَانِيهَا

وكانت هذه القبيلة في الجاهلية ذات حول وطول وقد وترت الناس بمن قتلت منهم ومن قتلاها الفاكه عمّ خالد بن الوليد وعوف والد عبد الرحمن بن عوف الصحابي المشهور وغيرهم من كبار رجالات قريش ولعلها ما أسرعت الى الاسلام الا لتحتمي به من الذين وترتهم

ولما دخل رسول الله مكة المكرمة ظافراً منصوراً ودخلت قريش في الاسلام أفواجاً حسن للمصطفى ان يرسل سرية لبني جذيمة والظاهر من واقعة الحال ان الموتورين من قريش هم الذين حسنوا للمصطفى ارسال هذه السرّية الى جذيمة وان غرضهم لم يفت رسول الله عليه الصلاة والسلام فأمر السرية بالمسير عليها ولكن حصر مهمتها بدعوة القبيلة الى الاسلام فقط فلم يسمح لها بمقاتلتها ولو رفضت الدعوة واختار لقيادة هذه السرية خالد بن الوليد فسار هذا بسريته على جذيمة وكان عددها ٣٥٠ رجلاً من المهاجرين والانصار وبني سليم . فلما دنت السرية من يلملم شعر بها بنو جذيمة فتهيبوا مقدمها ولم يأمنوها مع انهم مسلمون فتشكوا أسلحتهم وخرجوا الى لقائها فلما دنا منهم خالد بن الوليد قال لهم : «هل أنتم مسلمون أم كفار ؟؟ » قالوا : « نحن مسلمون قد صلينا وصدقنا برسالة محمد وبنينا المساجد في ساحتنا وأذنا فيها » قال خالد : « اذن فما بال السلاح عليكم ؟ » قالوا : « ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا ان تكونوا هم فتشككنا سلاحنا للدفاع عن أنفسنا» قال : « اذن فضعوا سلاحكم» فأطاعه بعضهم ورموا أسلحتهم وفرّ الباقون فأمر خالد بأسر من وضع سلاحه فأسروا . وبات ليلته يضرب أخماساً لاسداس للانتقام منهم لعمه الفاكه حتى اذا مالاح

قَالَتْ : حَنَانَيْكَ إِنَّا بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلسَّمْحَاءِ دِنَّا وَأَهْمَلْنَا ٱلتَّوَارِينَهَا

فَلَيْسَ فِينَا أَخُو شِرْكٍ عَشِيرَتُنَا   دَانَتْ لِأَحْمَدَ فَانِيهَا وَنَاشِيهَا

وَهُوَذَا عَمُرَتْ فِينَا مَسَاجِدُنَا   وَلِلتَّعَبُّدِ لِلْخَلَّاقِ نَاوِيهَا

نَادَى : عَلَامَ إِذَنْ هٰذِي ٱلسُّيُوفُ فَمَنْ   أَطَاعَ أَحْمَدَ يَمْشِي وَهْوَ مُلْقِيهَا

فَمَا عَصَتْ فِئَةٌ أَلْقَتْ مَوَاضِيَهَا   فَرَاحَ آسِرُهَا إِذْ فَرَّ بَاقِيهَا

وَبَاتَ فِي لَيْلَةِ ٱلْمَلْسُوعِ يُقْلِقُهُ   ذَاكَ ٱلْعِدَاءُ وَفِيهِ كَانَ مُخْفِيهَا

يُرِيدُ يَثْأَرُ ثَأْرًا مِنْ جُذَيْمَةَ لِلْـ   ـعَمِّ ٱلَّذِي أَهْلَكَتْهُ قَبْلُ أَيْدِيهَا

وَعِنْدَمَا لَاحَ نُورُ ٱلْفَجْرِ أَهْلَكَ أَسْـ   ـرَاهُ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْإِسْلَامُ مُنْجِيَهَا

وَعَادَ مُغْتَبِطًا بِٱلِٱنْتِقَامِ إِلَى   أُمِّ ٱلْقُرَى نَاشِرَ ٱلرَّايَاتِ مُعْلِيَهَا

وَمُذْ دَرَى ٱلْمُصْطَفَى بِٱلْأَمْرِ أَكْبَرَهُ   نَادَى سَرِيَّتُنَا سَاءَتْ مَآتِيهَا

إِنَّ ٱلْحُقُوقَ ٱلَّتِي ٱلْإِسْلَامُ قَدَّسَهَا   قَدْ جَارَ مَا عَرَفَ ٱلْإِنْصَافَ لَافِيهَا

وَقَالَ : رَبَّاهُ إِنِّي مِنْ جَرِيمَةِ خَا   لِدٍ بَرِيءٌ وَإِنِّي لَسْتُ رَاضِيَهَا

الفجر أمر الناس بقتل الاسرى فقتلوا جميعاً وعاد أدراجه الى مكة كأنه لم يأتي أمراً اداً

ولما انتهى الى المصطفى ما صنع خالد بن الوليد بجذيمة مع اعترافها بالاسلام كبر الامر عليه صلى الله عليه وسلم وقال « اللهمَّ اني أبرأ اليك مما صنع خالد » ثمَّ استدعى علياً وهو كما تعلم موضع ثقته وقال له : علمت ماصنع خالد بجذيمة وهم مسلمون وما لناسواك لاصلاح ما أفسد فسر اليهم بالنوق والمال فدِ قتلاهم وعوّض عليهم خسائرهم وتلطفهم بازالة الاحقاد من صدورهم فصدع عليٌّ بأمر المصطفى عليهما الصلاة والسلام وسار بالنوق والمال الى جذيمة فتلطف بها واستصفى صدورها من الاحقاد ببلاغة بيانه وودى قتلاها وعوّض عليها اضرارها وثبتها في اسلامها وعاد الى مكة فانبأ المصطفى بما فعل فقال : أحسنت وأصبت ثمَّ قام رسول الله فاستقبل القبلة شاهراً يديه وهو يقول « اللهمَّ أبرأ اليك مما صنع خالد » قال ذلك ثلاثاً مستغفراً ربه من هاتيك الجريمة التي لم يكن الله راضياً عنها ولا رضيها أحد من المسلمين حتى ان عبد الرحمن بن عوف الذي كانت قتلت جذيمة في جاهليتها اباه فانه غضب وأغلظ القول لخالد فيما فعل. غيرة للدين واحتفاظاً على زمام المسلمين

اما خالد هذا فهو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي المخزومي . كان في واقعة أحد في صفوف المشركين وأسلم بعدها . وكان في الجاهلية من أكابر الغزاة المحاربين فلما أسلم لم يهمل رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستفادة من شجاعته وبراعته الحربية وكان يسميه سيفاً من سيوف الله . وأول امرة تولاها في الاسلام كانت في فتح مكة حيث وجهه رسول الله مع سرية من المسلمين على مكة ليدخلها من أسفلها ففعل وقد وجهه رسول الله وهو في مكة الى موضع يدعى «نخلة» وفيه صنم يسمى «العزى»

ثُمَّ رَأَى ٱلْمُصْطَفَى أَنْ يُسْرِعَنَّ إِلَى جُـذَيْمَةٍ بِفَتًى تَاقٍ يُرَاضِيهَا
وَأَنْ يُلَطِّفَ بِٱلتَّعْوِيضِ مِحْنَتَهَا وَبِٱلتَّلَطُّفِ وَٱلْحُسْنَى يُوَاسِيهَا
وَمَا لَدَيْهِ حَكِيمٌ غَيْرُ حَيْدَرَةٍ لِذِي ٱلْمُهِمَّةِ بِٱلتَّدْقِيقِ يُجْرِيهَا
لِذَا دَعَا ٱلْمُرْتَضَى حَالًا وَأَوْفَدَهُ إِلَى يَلَمْلَمَ بِٱلْأَمْوَالِ وَافِيهَا
وَقَالَ: أَسْرِعْ إِلَى مَلْقَى جُذَيْمَةَ إِسْـرَاعًا فَمِحْنَتُهَا أَبْغِي تَلَافِيهَا
وَدِ ٱلْأُلَى قُتِلَتْ مِنْهَا بِغَيْرِ وَنًى فَإِنَّنَا دِيَةَ ٱلْقَتْلَى نُؤَدِّيهَا
وَٱسْتَصْفِهَا لِوَلَانَا وَهْيَ مُسْلِمَةٌ وَقُلْ لَهَا إِنَّنَا طُرًّا مَوَالِيهَا
وَقُلْ لَهَا وُحْدَةُ ٱلْإِسْلَامِ تَجْمَعُ أَهْـلِيهِ فَهُمْ أُخْوَةٌ صَفْوٌ تَآخِيهَا
وَإِنَّ جَامِعَةَ ٱلْإِسْلَامِ رَاسِخَةُ ٱلْأَ رْكَانِ خُيِّبَ مَنْ يَرْجُو تَدَاعِيهَا
أَوْفَى ٱلرَّسُولُ حَكِيمًا فِي مُهِمَّتِهِ وَإِنَّهُ مِثْلَمَا يَرْجُوهُ قَاضِيهَا
وَأَيُّ مُشْكِلَةٍ مَا حَلَّ عُقْدَتَهَا وَأَيُّ مُعْضِلَةٍ مَا دَكَّ رَاسِيهَا
إِنَّ ٱلذَّكَاءَ إِلَى عَلْيَاهُ مُنْتَسِبٌ وَبَيْنَ أَرْبَابِهِ مَا ٱنْفَكَّ ذَاكِيهَا
وَبَيْنَ أَضْلُعِهِ قَلْبٌ تَطَهَّرَ بِٱلْإِ يمَانِ عَمَّا يُضِلُّ ٱلنَّاسَ يُطْفِيهَا
سَارَ ٱلْعَلِيُّ يُدِي ٱلْقَتْلَى بِأَيْنُقِ طَـ ـهَ وَهْوَ يَطْلُبُ أَنْ يُرْضِي أَهَالِيهَا

فخرج بسريته اليها وكسر الصم وهدم البيت الذي فيه وعاد منصوراً . ثمّ وجهه على جذيمة فكان أمره معها ما كان . على ما سبق البيان

وفي السنة العاشرة للهجرة أرسل المصطفى خالداً على اليمن فلم يفلح فأرسل سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله لهذه المهمة وأمره ان يعيد خالداً في حديث سنذكره في حاشية تالية

وعند ما تولى الخلافة أبو بكر وارتدت طائفة من المسلمين عن الاسلام سار خالد لمحاربتها فجاء هناك أمراً اداً وذلك انه قتل من أهل الردة رجلاً يدعى « مالك بن نويرة » بالرغم عن توبته وشهادة شاهدين من الصحابة برجوعه الى الاسلام وبعد ان قتله جعل رأسه ثالثة الاثافي وطبخ طعامه فوق الرأس وتزوج امرأته وكانت رائعة الجمال فقوّل الناس انه لم يقتل مالكاً الا طمعاً بامرأته فغضب عمر أشدّ الغضب لهذه الجريمة وقصد أبا بكر وطلب منه ان يقتله بمالك فرفض بحجة انه متأوّل في حكمه فطلب منه ان يعزله فقال أبو بكر « لا أغمد سيفاً شهره رسول الله » وهكذا ثبت خالد على قيادة جيوش أبي بكر طول حياته ولكن لا نكران للحق أنه كان من أعظم القواد

ولما ظهر مسيلمة الكذاب مدعياً النبوة وجّه أبو بكر خالداً لمحاربته فسار اليه في « اليمامة » فبطش باتباعه . ولم يكد يتمّ مهمته حتى وجهه أبو بكر الى فتح العراق وكان ذلك سنة ١٢ للهجرة

وَفِي يَلَمْلَمَ لَاقَتْهُ جُذَيْمَةُ بِالْــــوَلَا كَذَاكَ بِهِ أَمْسَى مُلَاقِيهَا
وَقَامَ فِيهَا خَطِيبًا وَهْوَ أَخْطَبُ أَهْـــلِ الْأَرْضِ كَانَ إِلَى الْإِخْلَاصِ دَاعِيهَا
فَلَمْ يَخِبْ ظَنُّهُ فِيهَا وَقَدْ رَضِيَتْ بِالْاعْتِذَارِ الَّذِي أَبْدَى مُفَاهِيهَا
فَسَالَمَتْ مَنْ أَتَى لُطْفًا يُسَالِمُهَا وَبِالصَّفَا وَالْوَلَا لَاقَتْ مُوَافِيهَا
وَكَرَّرَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِ تَمَسُّكَهَا بِشِرْعَةِ اللهِ قَالَتْ: لَا نُخَلِّيهَا
وَبِالثَّنَا قَبِلَتْ مِنْ جُودِهِ دِيَةَ الْــقَتْلَى الَّتِي بِالسَّخَا قَدْ رَاحَ عَاطِيهَا
كَذَاكَ عَوَّضَ تَعْوِيضًا خَسَائِرَهَا حَتَّى الَّذِي خَسِرَتْهُ مِنْ أَوَانِيهَا
وَعَادَ أَدْرَاجَهُ وَالنَّاسُ مُعْجَبَةٌ بِفَضْلِهِ وَلَقَدْ حَبَّتْهُ تَوْلِيهَا
وَإِذْ أَتَى مَكَّةً وَافَى الرَّسُولَ بِمَا أَجْرَى فَأَطْرَى فِعَالًا كَانَ مُجْرِيهَا
وَقَالَ أَحْسَنْتَ صُنْعًا يَاأَبَا حَسَنٍ لَا زِلْتَ لِلْحَسَنَاتِ الزُّهْرِ تُسْدِيهَا

فسار اليها ودوخ أصحابها الفرس وأخذ منهم الجزية وكانت أول جزية جبيت في الاسلام

وكان أبو بكر وجه أبا عبيدة بن الجراح على الشام في جيش من المسلمين فعجز ابوعبيدة عن تدويخ الروم فيها فأمده ابو بكر بخالد على ان يكون تحت أمرته فدخل خالد الشام سنة ١٣ للهجرة

وعند ما مات أبو بكر وتولى عمر الخلافة كانت باكورة أعماله ان كتب الى أبي عبيدة بعزل خالد من امارة الجيوش التي يقودها فتلطف أبو عبيدة بابلاغه العزل فلم يعبأ خالد بأمر عمر ولا تكدّر منه ورضي العزل الا انه ظلّ في الشام بين غزاة المسلمين كواحد منهم يجاهد في سبيل الله ورأى أبو عبيدة انه لا يستغني عن قائد خبير مثله فظلّ يستعين به في فتوحاته وعرف هذا عمر فتغاضى عن وجوده في جيش الشام ولم يشدّد بطلبه الى المدينة. ثم انّ عمر أعرف خطأه بعزل خالد فصار يذكره في كتبه الى أبي عبيدة حيث يأمره بالمسير للفتح في اطراف الشام. واشترك خالد بنوع خاص في فتح دمشق وحمص وقنسرين وحلب وكان المجلّي في مواقع المسلمين مع الروم في هاتيك الاطراف

ثم عظم شأن خالد في نفوس العرب الذين حوله كما عظمت ثروته وصار يهب الهبات بكرم لمن حوله فلما علم بذلك عمر تهيب العاقبة وأرسل فعزله سنة ١٧ للهجرة معلناً انه لم يعزله الا ليعلم المسلمون بان ما أوتوه من النصر كان بمعونة الله لا ببراعة خالد ونبوغه الحربي فرضي خالد العزل وانزوى عن القتال وأطاع عمراً فيما أخذه من ما له بحجة انه يزيد على حقه في «الفيء» والغنائم كما أطاعه في المسير اليه الى المدينة المنورة وبعد ذلك عاد الى سوريا وأقام في حمص وتوفي فيها سنة ٢١ للهجرة وله قبر هناك يزار وبجواره مسجد يعرف الى يوم الناس هذا باسم «مسجد سيدي خالد» وانت ترى من مجمل ما سردناه من أعمال هذا الصحابي النابغة انه كان من أفراد شجعان المسلمين ولولا حقد عمر عليه لكان القائد الأكبر لجيوش المسلمين على عهده كما كان في عهد أبي بكر. اما سبب حقد عمر على خالد فقالوا انهما تصارعا في الجاهلية وكانا في مقتبل العمر فصرع خالد عمراً وكسر رجله فحقدها عليه ولم ينسها وقال غيرهم بل ان حقد عمر عليه هو لانه كان يرى في خالد شيئاً من التراخي في فروضه والله أعلم

وَٱسْتَقْبَلَ ٱلْقِبْلَةَ ٱلزَّهْرَا بِرَفْعِ يَدَيْـــــهِ   طَالِباً رَحْمَةَ ٱلْبَارِي مُرَجِّيهَا

وَقَالَ نَفْسِيَ مِمَّا جَاءَ خَالِدُ يَا   رَبِّي ثَلَاثَةَ مَرَّاتٍ أُبَرِّيهَا

أمير المؤمنين يهدي اليمانيين

بِفَتْحِ مَكَّةَ عَدْنَانٌ لَقَدْ خَضَعَتْ   حِكْماً لِأَحْمَدَ دَانِيهَا وَنَائِيهَا(١)

وَعِنْدَمَا أَسْلَمَتْ فِيهَا قُرَيْشُ غَدَا ٱلْإِ   سْلَامُ شِرْعَةَ قَارِيهَا وَبَادِيهَا

وَإِنْ تَظَلَّ بِأَطْرَافِ ٱلْحِجَازِ بَقَا   يَا مِنْ ذَوِي ٱلشِّرْكِ مَا ٱلْأَيَّامُ تُبْقِيهَا

مَا دَامَ يَعْمَلُ لِلتَّبْشِيرِ خَيْرُ بَشِيـــرٍ   نَاشِرٍ لِلْهُدَى سَامِي مَبَادِيهَا

لِذَا تَوَجَّهَ طَــهَ يُمْنَةً وَبَغَى   قَحْطَانَ فِي يَمَنٍ لِلْحَقِّ يَهْدِيهَا

فِي ذِي ٱلْمُهِمَّةِ قَدْ أَسْرَى سَرِيَّتَهُ   وَكَانَ فِي مُطْلَقِ ٱلتَّبْشِيرِ مُسْرِيهَا

---

(١) مع ان دخول المصطفى صلى الله عليه وسلم مكة وخضوع قريش له ودخولهم في الاسلام أفواجاً قد بدّل حالة جزيرة العرب تبديلاً تاماً من الوجهتين الدينية والسياسية لان الاسلام تغلب على الوثنية فيها وجمع قلوب ناسها المتشاكسة فأصبحت أمةً واحدةً مع ذلك بقيت بقايا من العرب تأبى الا محاربة المسلمين والعصيان على الاسلام منها بطون هوازن وبطون ثقيف وكلها من قيس غيلان فاجتمعت كلتها على محاربة سيدنا محمد بن عبد الله واختارت لزعامتها رجلاً يدعى مالك بن عوف النصري . فلما سمع رسول الله باجتماع هذه البطون على قتاله خرج اليها باثني عشر الفاً من المسلمين وهو أكبر عدد خرج به المصطفى غازياً . وعند ما بلغ المسلمون وادي حنين وشرعوا ينحدرون فيه وجدوا هوازن وثقيفاً كامنة في شعابه فتصادم الجمعان وكانت الغلبة للمسلمين فقتلوا من قتلوا من المشركين وغنموا ما لهم وسلاحهم وظعنهم وأسروا نساءهم وأولادهم

ورأى رسول الله عليه الصلاة والسلام ان يؤدب ثقيفاً في مواطنها فيأمن عاقبة مكرها فسار عليها وكانت تنزل الطائف وحاصرها ثم عاد منها من غير ان يفتحها وفي عودته صلى الله عليه وسلم نزل الجعرانة وهناك أتاه وفد هوازن يلتمسون منه العفو عنهم واعادة نساءهم وأولادهم وأموالهم اليهم فأشفق عليهم المصطفى وأراد أيضاً ان يكتسب قلوبهم بالحسنى فقال لهم اختاروا بين أموالكم وبين نسائكم وأولادكم فاختاروا النساء والاولاد فقال عليه الصلاة والسلام ما كان لي ولبني عبد المطلب منها أعدته اليكم واما ما كان للمسلمين فالأمر فيه لهم ولكن اذا صليت الظهر بالناس تعالوا الي مستشفعين لعلي أبلغكم رغبتكم فجاؤه بعد ان صلى بالمسلمين وقالوا «نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله في أبنائنا ونسائنا» فقال المصطفى : «اما ما كان لي ولأبناء عبد المطلب فهو لكم» فلما سمع المسلمون جواب المصطفى هذا قالوا : «ما كان لنا فهو لرسول الله» وهكذا أرجع المصطفى لهوازن نساءهم وأولادهم فلما رأوا هذا المعروف دخلوا في الاسلام أفواجاً وهم معجبون بهذا الفضل المحمدي العظيم ولا يستعبد الانسان غير الاحسان

وَخَالِدٌ بِٱسْمِ طَـهَ كَانَ قَائِدَهَا ... فَسَارَ فِيهَا إِلَى هَمْدَانَ يُمْشِيهَا
فَلَمْ يُوَفَّقْ إِلَى رُغْبَى ٱلرَّسُولِ وَمَا ... هَمْدَانُ قَدْ قَابَلَتْ صَفْواً مُوَافِيهَا
فَأَسْرَعَ ٱلْمُصْطَفَى فِي بَعْثِ حَيْدَرَةٍ ... وَقَالَ: بَعَثْتُهُ كُلُّ ٱلرَّجَا فِيهَا
وَقَالَ أَرْجِعْ إِلَيْنَا خَالِداً عَجِلاً ... فَإِنْ رَجَعْتَهُ أَمْسَيْتُ بَاغِيهَا
وَصَحْبُهُ مَنْ تَرَى مِنْهَا إِعَادَتَهُ ... أَعِدْهُ حَالاً وَأَبْقِ مَعَكَ بَاقِيهَا
فَسَارَ حَيْدَرَةٌ مَعَهُ سَرِيَّتُهُ ... إِلَى رُبَى يَمَنٍ يَنْحُو نَوَاحِيهَا
وَمُذْ رَأَى خَالِداً فِي ٱلْحَالِ أَبْلَغَهُ ... رِسَالَةَ ٱلْمُصْطَفَى إِذْ رَاحَ قَارِيهَا
فَعَادَ أَدْرَاجَهُ مَعْ بَعْضِ صُحْبَتِهِ ... لِمَكَّةٍ عَوْدَةً مَا كَانَ رَاجِيهَا

وبعد هذا الحادث وفد على المصطفى عليه الصلاة والسلام مالك بن عوف النصري زعيم ثقيف وهوازن مستغفراً تائباً فردّ عليه نساءه وأولاده وأحسن اليه بمئة من الابل فأسلم وحسن اسلامه وصار سيفاً من سيوف المسلمين وهكذا كان محمد بن عبد الله يكتسب قلوب الناس بالاحسان ويستعبدها علماً منه ان الاحسان فوق القوة القاهرة

وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجعرانه يوزع الغنائم وجه نظره الشريف الى اليمن فبعث سريّة «بقيادة خالد بن الوليد الى همدان وهي احدى قبائلها وأمره ان يدعوها الى الاسلام وان لا يحاربها الا اذا حاربته وهذه السرية أجمع المؤرخون على ذكرها اجمالاً بغير تفصيل وليس بين يدينا ما هو أصدق من رواية «البراء» وهو من الصحابة وشهدها بنفسه وهاك روايته على ما نقلها البخاري قال البراء: «بعثنا رسول الله مع خالد الى اليمن بعد رجوعه من الطائف وقسمة الغنائم في الجعرانه (سنة ٨ هجرية) ثمّ بعث علياً مكانه فقال: مر أصحاب خالد من شاء منهم ان يعقب معك فليعقب ومن شاء فليقبل قال البراء: فكنت فيمن عقب معه فغنمت أواني ذوات عدد» وروى الاسماعيلي رواية البراء هذه وزاد عليها قوله نقلاً عن البراء انه قال «فلما دنونا من القوم خرجوا الينا فصلى بنا علي وصفنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا فقرأ على اليمانيين كتاب رسول الله فأسلمت همدان جميعاً فكتب علي الى رسول الله باسلامهم فلما قرأ الكتاب خرّ ساجداً لله ثم رفع رأسه وقال السلام على همدان» اهـ وهذا الحادث من أعظم حوادث تاريخ صدر الاسلام وأعظمها في نتيجته لان قبيلة همدان اليمانية هي من القبائل الكثيرة العدد في اليمن واسلامها في يوم واحد على يد سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله له من الشأن ما كان يجب ان يسهب في تفصيله المؤرخون ولكن لسوء الحظ ان التواريخ التي اتصلنا اليها لم تفصله كما ان هذه التواريخ التي اجمعت على بعث سيدنا علي في اثر خالد وبعضها يقول ان رسول الله امر علياً وتشذ بقوله: « قيد خالداً وارسله مع من شاء من اصحابه » ما ذكرت شيئاً عن السبب الذي حمل المصطفى عليه الصلاة والسلام على عزل خالد من الامارة وارجاعه سواءاً مقيداً او حراً الى مكة كرمها الله وهذا السكوت موضع نظر للمتأمل أيضاً. كذلك رأينا بعض المؤرخين « الذين اتصلنا بتوارىخهم » يخلطون بين هذه السرية وسرية امير المؤمنين الى مذحج في السنة العاشرة للهجرة ولكنهم يعودون للقول بأنهما

وَٱلْبَعْضُ عَوْهَةٌ مَا بَيْنَ صُحْبَتِهِ ... أَبُو ٱلْحُسَيْنِ حَبِيبُ ٱلنَّاسِ تَعْوِيهَا
وَصَاحَ يَا آلَ هَمْدَانَ أَتَيْتُكُمُ ... بِشِرْعَةِ ٱللهِ فِي سَامِي مَثَانِيهَا
وَرَاحَ يَخْطُبُ فِي عَالِي مَعَانِيهَا ... وَيَكْشِفُ ٱلسِّتْرَ عَنْ زَاهِي مَغَازِيهَا
فَكَانَ يَنْثُرُ مَا بَيْنَ ٱلْوَرَى دُرَراً ... هَيْهَاتَ مَا دُرَرُ ٱلْغَوَّاصِ تَحْكِيهَا
وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِي مِنْ سَرْدِ خُطْبَتِهِ ... وَٱلنَّاسُ تَخْرُجُ بِٱلْأَنْظَارِ مُلْقِيهَا
حَتَّى تَوَلَّى ٱلْهُدَى تِلْكَ ٱلنُّفُوسَ جَمِيعاً ... وَٱلْعَلِيُّ بِآيِ ٱللهِ مُشْجِيهَا
وَأَسْرَعَتْ آمَنَتْ بِٱللهِ بَارِيهَا ... وَبِٱلرَّسُولِ وَآيُ ٱلشُّكْرِ فِي فِيهَا
وَٱسْتَقْبَلَتْ بِٱلثَّنَا وَٱلْحَمْدِ حَيْدَرَةً ... وَمَا نَسَتْ فَضْلَهُ إِذْ كَانَ مُهْدِيهَا
وَبَادَرَ ٱلْمُرْتَضَى طَهَ يُبَشِّرُهُ ... بِأَنَّ هَمْدَانَ لَبَّتْ صَوْتَ دَاعِيهَا
وَآمَنَتْ كُلُّهَا إِيمَانَ مُعْتَرِفٍ ... بِٱلْحَقِّ حَتَّى نِسَاهَا مَعْ ذَرَارِيهَا
فَخَرَّ لِلهِ طَهَ وَهُوَ يَحْمَدُهُ ... بِسَجْدَةٍ آضَ بِٱلْإِخْبَاتِ آتِيهَا

سريتان لا سرية واحدة .

واذا جازلي ان اقول شيئاً عن اهمال المؤرخين لهذا الحادث العظيم مع ذكرهم بالاسهاب ما هو اقل من ذلك شأناً من حوادث صدر التاريخ الاسلامي فني اقول بان لذلك واحداً من سببين فما ان المؤرخين ارادوا تغطية امورا تاها خالد بن الوليد في هذه السريّة اجلالاً لمقامه الصحابي الرفيع والاعمال الباهرة التي اتاها فيها بعد في الفتوحات الاسلامية واما انهم ارادوا ان يخفوا عملاً عظيماً اتاه سيدنا علي عليه صلوات الله يوم كان يهمّ الناس ان يسدلوا ستاراً كثيفاً على الاعمال العظيمة التي قام بها سيف الله الغالب عليّ بن أبي طالب عليه صلوات الله وربما كان سكوت المؤرخين للسببين معاً فاكتفوا باشارة بسيطة لذلك الحادث العظيم وهو دخول الاسلام بسرعة مدهشة الى الارجاء اليمانية بواسطة صنو المصطفى سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام وكيفما كان الحال فمن الثابت الذي لا ريب فيه ان خالداً بن الوليد سار بسريّة من المسلمين لليمن للتبشير بالاسلام ولم يفلح وان سيدنا علي تبعه بامر المصطفى واستلم قيادة السرية وافلح بادخال همدان في الاسلام فاسلمت في يوم واحد ولعمري ما هذا النجاح الا كرامة عظمى من كراماته ونعمة كبرى للاسلام يحقّ للمصطفى عندما بلغه نبأها ان يخرّ للارض ساجداً لله وهو يقول «السلام على همدان» ونحن نقول بعد كل هذه الاعوام : السلام على علي الذي هدى همدان للاسلام في ظلال السلام

وكان دخول همدان في الاسلام على يد سيدنا علي امير المؤمنين عليه صلوات الله بدء دخول الاسلام الى اليمن التي هي مهد بني قحطان وقبائلهم ترجع جميعها الى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وهذه القبائل هي حمير واشهر بطونها زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك وكهلان واشهر بطونها همدان التي نحن بصددها وانمار وطيء ومذحج وكندة ولخم وجذام والازد الذين منهم الاوس

وَقَالَ جَهْرَاً : سَلَامُ ٱللهِ عَاطِرُهُ ثُمَّ سَلَامِيْ عَلَى هَمْدَانَ أُقْرِئُهَا
وَعَادَ يَسْحَبُ ذَيْلَ ٱلنَّصْرِ حَيْدَرَةٌ لِمَكَّةَ فَتَلَقَّى شُكْرَ أَهْلِيهَا
وَبِٱلْبَشَاشَةِ لَاقَاهُ ٱلرَّسُولُ وَنَا دَى: ذَا أَخِي وَمُنَايَ فِيهِ أُلْفِيهَا

أمير المؤمنين يحطم صنم طيء

وَحَاتِمٌ قَدْ حَبَى طَيْئَاً بِشُهْرَتِهِ وَجَاهَةً لَمْ تَكُنْ لَوْلَاهُ تَجْنِيهَا (١)

والخزرج وهم انصار المصطفى وقد سبقت الاشارة اليهم وعلى ذكر همدان هذه يحلق بنا ان نذكر شيئاً عن عرب قحطان وهم جرثومة العرب وسبب هجرتهم من اليمن فنقول :

ان ملوك قحطان كانوا فكروا بالاستفادة من السيول التي تجري في وديانهم لتعينهم على الزراعة فبنوا لذلك سداً في موضع يسمى « مأرب » وصفه ياقوت فقال «كان بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل الى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج الا من جهة واحدة فكان الاوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من ماء السيول فيصير خلف السد كالبحر فكانوا اذا ارادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بابواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه اذا ارادوا» على ان هذا السد العظيم الذي يشير الى حضارة عظمى لاسلافنا العرب القدماء لما تقادم عهده تصدعت اركانه ولعل تصدعه يشير الى ان العرب الذين حدث ذلك التصدع على عهدهم لم يكونوا كاسلافهم من الهندسة فعجزوا عن تلافي الخطر وما استطاعوا تمهيد السد فنسفته المياه نسفاً في سنة ٤٢٠ قبل المسيح وفاضت مياهه الكثيرة على القرى والمزارع فاتلفتها واهلكت كثيراً من اهلها وعلى اثر هذا السيل هجر كثير من قبائل العرب البلاد اليمانية لان اراضيها ما عادت تكفيهم للمعيشة بزعامة سيدهم عمران بن عمرو سيد ولد الازد بن كهلان فقدم ثعلبة بن عمرو بن عمران مع عشيرته على الحجاز ونزل بين الثعلبية وذي قار ثم توجه نحو المدينة ونزل على اهلها اليهود وهم اجداد الاوس والخزرج . وسار حارثة بن عمرو بن عمران فتتحوا الحرم واجلوا عنه سكانه من جرهم وابناؤه يسمون « خزاعة » وعطف عمران بن عمرو نحو عمان ونزلها ويدعى ابناؤه « ازدعمان » . وسارت قبائل نصر بن الازد ونصر هذا اخو عمران ونزلوا في تهامة . وسار جفنة بن عمرو الى الشام واقام بها وبنوه هم آباء الغساسنة سموا كذلك نسبة الى غسان وهو ماء كان بنو مازن بن الازد نزلوا عليه فنسب هؤلاء اليه . وممن ترك اليمن وتشتت قبيلة لخم بن عدي بن كهلان ثم من بني الازد ومنهم نصر ابن ربيعة ابو الملوك المناذرة بالحيرة ومنهم طيء ساروا بعد مسير الازد نحو الشمال فنزلوا بين جبلي « أجأ » و «سلمى » في الشمال الشرقي من المدينة المنورة ويخترقهما وادي الدهناء وكانت الامثال تضرب في منعتهما . ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة اقامت ببادية السماوة في آخر شمال نجد وتتصل باطراف العراق . ومع ذلك بقي في اليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكانت السيادة لهم على البلاد ومنهم الملوك والاقيال

(١) هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي من قبيلة طيء في اليمن ولد على ما يلوح لنا حوالي سنة ٨٠ قبل الهجرة ومات قبلها ايضاً بسنوات غير كثيرة . ومات ابوه وهو

بِهِ تَسَامَتْ عَلَى قَحْطَانَ أَجْمَعِهَا   وَلَيْسَ مِنْ مُنْكِرٍ أَصْلاً تَسَامِيهَا
فَأَعْجَبْ لِفَرْدٍ عَلَتْ فِيهِ عَشِيرَتُهُ   قَدْراً وَمَا زَالَ لِلآبَادِ مُعْلِيهَا

غلام يترعرع فكفله جده سعد . وما زال في كفالته حتى طرده من بيته على اثر نفحة من نفحات كرمه العظيمة . وكان سعد رئيساً لقبيلة طيء ذا نوق وتجارة ولمْ نقف على انه كان ممتازاً بالكرم اما اذا قلنا كان كريماً فان العرب كلهم كرام واللئيم دخيل عليهم وليس منهم . اما عتبة ام حاتم فقد كانت ممتازة بالكرم وما زالت تنفق من اموالها على قاصديها بلا رحمة حتى خاف اخوتها عليها الاملاق فحجروا عليها وعلى هذا فيكون حاتم قد ورث الكرم عن امه ونهض به نهضة اعجز بها الاوائل والاواخر فبات مضرب الامثال

قلنا ان العرب كلهم كرام ولهم ليرثون من كل بخيل لئيم فهو ليس منهم ولا هم منه حتى لو كان ملكاً يلقب بصاحب الجلالة . ولعمري ان قوماً كالعرب من اجلى مظاهرهم الكرم لابدّ لمن يمتاز بينهم بهذه السجية المحمودة المتخلقون بها حتى اصبحت في طباعهم الطبيعية نعم لابدّ ان يكون له من الاعمال في سبيل الكرم ما لم يأت بمثله غيره من الكرام فما الذي فعله حاتم من ضروب الكرم حتى نال بها هذه الشهرة الواسعة التي دامت له كل هذا الزمان وستدوم الى الابد ؟ هذا محل حيرة المؤرخ المفكر

ان الشهرة لاتأتي عبثاً ولا تكتسب بالتضليل والتمويه ولا تظننّ ان كلة مدح من متملق تكسي الممدوح ثوباً لايبلى أبد الدهر فانك اذا ظننت هذا فقد اخطأت . فهذا عظمة مولانا السردار ارفع الشيخ خزعل خان رجل العرب الاكبر في هذا العصر اصبح حديث الناس في مشارقها ومغاربها يتحدثون عن كرمه وفضله وعدله وعلمه وحسن سياسته وبات ثناؤه ملء الافواه تسمعه حيثما كنت وكيفما اتجهت فهل تحسب انه حفظه الله قد نال هذه الشهرة صدفةً او لان بعض الشعراء اتصلوا به فرفدهم فحمدوه ؟ ؟ لا والله فلو كان الامر كذلك لكان لغيره من ملوك العرب واسرائهم مثل ماله من الذكر العاطر بين الناس فان كثيرين من الشعراء قد قصدوهم ومدحوهم ونالوا رفدهم ولكن الاعمال الباهرة المتواصلة التي يأتيها عظمة مولانا الشيخ في كلّ يوم قد ذاع امرها وشاع بين الناس فكثرت رواتها وتغنى بها الناس في كلّ صقع ومصر وبها اشتهر واصبح عند حدّ قول الشاعر

كريمٌ اذا امدحه امدحه والورى   معي واذا مالمته لمته وحدي

فبينما يروي احدهم لعظمته نادرة في الكرم يعززها آخر بنادرة في العلم فثالث بنادرة من نوادر عدله فرابع بنادرة من نوادر سياسته وكل يوم يسمعون من جدائد اعماله ما يؤيد قدائمها بمثل هذا بلغ اوج المجد والشهرة الخالدة الطيبة وما شاء الله . حتى ان حساده واعداءه ومنافسيه وليسوا بقليلين خرست افواههم امام اجماع الناس على حمده فباتوا اذا ذكر اسمه الكريم بمعرض ثناء يطأطئون رؤوسهم واجين ساكتين رغم انوفهم

وعندنا ان حاتماً لم يبلغ ما بلغه من الشهرة بالكرم الا لانه كان كعظمة مولانا السردار ارفع يواصل اعماله الطيبة مواصلةً لم تدع سبيلاً لاعدائه وحساده ومنافسيه يصلون بها الى التأثير على شهرته الطيبة الخالدة والحطّ من قدر فضله الكبير . حدّث عظمة مولانا السردار ارفع الشيخ خزعل خان في احد مجالسه الادبية جلاسه عن حاتم وكنت بينهم فقال « ذُكر حاتمٌ يوماً لمعاوية بكرمه فغضب وقال ما للناس يعجبون بكرم هذا الرجل وكل الذي انفقه في سبيل كرمه لايبلغ عطية واحدة من عطاياي الكثيرة ؟ » فتصدّى له احد جلاسه الجريئين وكان من كرام العرب فقال « ان حاتماً كان

يحسن حباً بالاحسان واما انت فتبذل الاموال لتشتري بها رضاء الناس عنك بعد ان تصديت لمحاربة ابن عم رسول الله واخيه وصنوه وعصيت خلافته وناديت بها لنفسك فهل يكون كرمك ككرم حاتم الذي كان يهب كل ما تصل اليه يده لتلبية طالب واغاثة ملهوف؟؟» قال مولانا الشيخ حفظه الله «فاطرق معاوية قليلاً ثم قال صدقت والله ان حاتماً كان كريماً »

اما حوادث الكرم الحاتمي فهي كثيرة لو اوردنا استيعاب ما انتهى الينا منها لاحتجنا الى مجلد ضخم فنجتزيء منها بالقليل للدلالة على الكثير قالوا : ان حاتماً منذ كان غلاماً يترعرع كان اذا اعطته امه غذاءه يخرج به الى الحي فيشرك ابناء الجيران به فلحظت امه ذلك وانه يكاد يضوى من الجوع فصارت تكرهه على مناولة طعامه في بيتها .

وعند ماشب حاتم رأى جده ان يستخدمه في رعي ابله فأرسله بطائفة منها يرتاد لها مرعى وبينما هو في طريقه لقيه ركب من العرب فقالوا : يافتى هل من قرى ؟ ؟ فقال حاتم متحمساً : أتسألوني عن القرى وقد ترون الابل فانزلوا . فنزل الركب وهو لا يعرفهم ونحر لهم ثلاثة من الابل فدهش الركب من هذا الكرم العجيب الذي لم يعهدوا مثله وقال احدهم: سألناك القرى ونحن نريد اللبن وكان القليل منه يكفي لارواء ظمئنا . قال حاتم: قد عرفت هذا ولكني رايت فيكم وجوهاً مختلفة والواناً متفرقة فعلمت انكم من بلاد مختلفة فاحببت ان اريكم من كرمي ماتحدثون به في بلادكم اذا عدتم اليها . فقالوا : وهل عرفت من نحن ؟ قال : لا ولكني لاحسبكم من كرام العرب قالوا : بلى والله ثم عرفوه بنفوسهم فاذا هم : عبيد بن الابرص وبشر بن أبي حازم والنابغة الذبياني نوابغ شعراء العرب . فسر حاتم لهذه الصدفة المباركة لما تعلم من حفاوة العرب بالشعراء وازداد سرور وعند ماسالوه ومن أنت ايها الامير ؟ قال : انا حاتم بن عبد الله بن سعد من طيء . فصاحوا بارك الله فيك واخذ كل منهم يمدحه بشعره . فاخذته نخوة العربي الكريم وقال لقد احببت ان احسن اليكم فاذا انتم المحسنون الي وانا اعاهد الله أن أضرب عراقيب ابلي او تقتسموها . فا وسعهم «وهم شعراء رزقهم من شعرهم » الا اقتسامها فاصاب الواحد منهم ٣٩ بعيراً ومضوا وهم يترنمون بمدح حاتم والتنويه باسمه في منازل العرب فكان هذا بدء شهرته بالكرم التي طبقت بعد ذلك الآفاق . اما حاتم فبعد أن انصرف اولئك الشعراء بابله عاد ادراجه الى منازل طيء فلما دخل على جده ابتدره قائلاً ويلك اين تركت الابل ؟ ؟ قال حاتم والسرور يتدفق من وجهه « ياجداه طوقتك بها طوق الحمامة مجد الدهر وكرماً لايزال الرجل يحمل بيت شعر آنس به علينا عوضاً عن ابلك» فعرف الجد ان حفيده اضاع الابل بكرمه فقال « ويلك أبابلي فعلت ذلك ؟ » قال « نعم » قال الجد « لا اساكنك ابداً » وهكذا طرده من بيته خوفاً من ان يبدد جميع ماله . نقول ان سعد الطائي جد حاتم قد مات منذ الف واربعمائة سنة تقريباً وسيان ما اذا كان قد مات موسراً أو معسراً فان العمر هو فترة من الزمان تنقضي على عسر او يسر ولكن ما قاله له حفيده حاتم من انه طوقه بمجد الدهر هو الصحيح لاننا بعد كل هذه المدة نذكر اليوم بكرم حفيده ولو كان مثله بالكرم لذكرناه بالاطراء الذي اختص به حفيده ولعمري ما للانسان الا ما جنى من حمد وشكران

وتزوج حاتم بشريفة غنية من كرائم العرب تدعى ماوية بنت منزر وكانت من الجمال والثروة على قسط عظيم وخطبها كثير من امراء العرب ووجودهم فردتهم لانها لم ترهم اكفاء لها وآثرت حاتماً عليهم لشهرته بكرمه وما كاد يقترن بها حتى اعمل يده في ثروتها الواسعة فجعل يوزعها على عفاته والظاهر

نها عذلته يوماً على اسرافه بكرمه فقال :

أماويّ اني لا أقول لسائل — اذا جاءيوماً حلّ في مالنا النذر
أماويّ أمّا مانع فبيّن — واما عطاء لاينهنهه الزجر
أماويّ مايغني الثراء عن الفتى — اذاحشرجت يوماًوضاق بها الصدر
أماويّ ان يصبح صداي بقفرة — من الارض لا ماء لديّ ولاخمر
تري انّ ما انفقت لم يك ضرّني — وانّ يدي مما بخلت به صفر
وقد علم الاقوام لو أنّ حاتماً — اراد ثراء المال كان له وفر

ولانعلم ان كانتزوجه ماوية قد رضختلرأيهواقرته برضاهابعد هذا القول على كرمهأملا؟
ولكن الذي نعلمه انه ظل الى آخر حياته وهو يوزع هباته على الناس فينفق كل ما تصل اليه يدهوقداتصل الى المال الوفيرفبدّده حتىنحريوماً فرسه ولم يكن يملك سواها لامرأة أتته في ليلةمظلمة والناس في قحل تشكو له جوع اولادها وانت تعلم منزلة الخيل عند العرب حتى ليفضلونهاعلىنفوسهم

وكان حاتم يامر في كل ليلة احد غلمانه ان يوقد النار على يفاع من الارض لتراها الناس وتقصد بيته للقرى وهو يقول :

أوقد فانّ الليل ليلٌ قرٌّ — عسى يرى نارك من يمرّ
ان جلبت ضيفاً فانت حرٌّ

وبالفعل كان يحرر الغلام الذي اوقد النار اذا جاءه ضيف مهتدياً بنورها ولكن الاغرب ان اولئك العبيد الذين كان يعتقهم كانوا يأبون العتق ولسانحالهم «ومن وجد الاحسانقيداً تقيدا» ولعمري الى اين يذهب اولئك العبيد العتقاء اذا تركوا خدمة أكرم كريم في العرب ؟ ؟

وقد ذكرتنيفار حاتم هذه بنور عظمة مولاي السردار ارفع الشيخ خزعلخان امير المحمرة وامير الكرم حياه الله فان عظمته استجلب النور الكهربائي من باريس سنة ١٩١١ فكان اول عهد بلاد العرب بجملتها بالكهرباء ومدّ اسلاكه في قصوره العامرة في الفيلية والكمالية فاصبحت كل قصوره تتلألأ بتلك الانوار الساطعة وأمر حفظه الله ان يقام قنديل منها بقوة الفيشمعة على سطح القصر الخزعلي العالي في الكمالية على منارة عالية فسأل بعض المقربين من عظمته عن الحكمة في ايقادهذا القنديلفيفضاءهذا العلوالشاهق فضحكعظمته وقالالا ترى الناس تأتينا ليلاً فوالله اخشى ان تضل سبيلها الينا فوضعنا لها هذا النور لتهتدي به الى منازلنافذكرتحينئذٍ ما كان يفعله حاتم من ايقاد ناره على يفاع الارض لهذا الغرض الشريف وقلت في الحضرة ارتجالاً

قد كان حاتم يوقد النيران لا — قصّاد في الليل البهيم الداجي
فإذا بشيخ المحسنين جلا دياجيه بنور الكهربا الوهاج
والله خزعل لم تدع مجداً لمحسان ولا رحوى ترام لراجي

وولدت ماوية لحاتم ولداً يدعى عديّ وابنة تدعى سفّانة فكانا من السخاء عند ظن والدها وقد ادركا الاسلام واسلما على ما سيجيء في الحاشية التالية

ولم تقتصر عظمة حاتم الطائي على سخائه فقط بل كان من الشعراء المبرزين ومن يقرأ شعره يجد فيه مبلغ عزة نفسه وتحدثه عن كرمه فيعلم من هو . وكان شجاعاً مظفراً اذا قاتل غلب ، واذا غنم أنهب ما نهب ، واذا سئل وهب ، واذا ضرب بالقداح فز ، « والضرب بالقداحمن انواع المقامرة عند العرب » واذا سابق سبق ، واذا اسر اطلق ، وكان قد اقسم ان لا يقتل وحيداً لامه « فكان

وَطَيْءٌ قَدْ نَحَتَتْ مِنْ صَخْرِهَا وَثَنًا ... لَهُ ٱلْعِبَادَةُ بِٱلْإِخْبَاتِ تُسْدِيهَا(١)

«فِلْسًا» دَعَتْهُ وَكَمْ جَاءَتْ لِمَسْجِدِهِ ٱلْـ ... ـزُّوَّارُ وَٱلْجَهْلُ لِلْإِشْرَاكِ حَادِيهَا

دَرَى بِهَا ٱلْمُصْطَفَى مِنْ بَعْدِ عَوْدَتِهِ ... مِنْ مَكَّةٍ قَالَ طَيْءٌ لَسْتُ نَاسِيهَا

وَلَا أَنَا تَارِكٌ «فِلْسًا» وَمَسْجِدَهُ ... وَلَا عِبَادَتَهُ لِلنَّاسِ مُبْقِيهَا

وَصَاحَ بِٱلْمُرْتَضَى: أَسْرِعْ أُخَيَّ إِلَى ... طَيْءٍ فَأَنْتَ بِلَا شَكٍّ مُرَبِّيهَا

وَحَطِّمِ ٱلصَّنَمَ ٱلْمَعْبُودَ لَا تَدَعِ ٱلْـ ... ـجُهَّالَ تَأْتِي إِلَيْهِ وَهْوَ يُغْوِيهَا

وَأَنْتَ أَعْدَى عَدُوٍّ قَاهِرٍ وَثَنَ ٱلْإِ ... شْرَاكِ بَلْ أَنْتَ أَسْمَى مَنْ يُلَاشِيهَا

فَأَسْرَعَ ٱلْمُرْتَضَى وَٱلنَّاسُ تَتْبَعُهُ ... وَإِنَّهَا عَرَفَتْ لِلنَّصْرِ يُمْشِيهَا

حَتَّى إِذَا صَارَ فِي طَيْءٍ فَمَا خَضَعَتْ ... لِدَعْوَةٍ كَانَ بِسْمِ ٱللهِ دَاعِيهَا

لِذَا أَثَارَ عَلَيْهَا ٱلْحَرْبَ أَشْعَلَهَا ... وَحَقَّقَ ٱلظَّنَّ إِذْ أَمْسَى مُجَلِّيهَا

فَرَاحَ يَفْتِكُ بِٱلْأَبْطَالِ يَسْحَقُهَا ... وَعَادَ بِٱلنَّهْبِ عَنْهَا وَهْوَ سَابِيهَا

وَجَاءَ طَيْئًا فَهَدَّ ٱلْبَيْتَ وَٱلصَّنَمَ ٱلْـ ... ـمَشْهُورَ فِيهِ عَلَى مَرْأَى أَهَالِيهَا

وَعَادَ بِٱلسَّبْيِ وَٱلْأَسْلَابِ عَوْدَةَ مَنْـ ... ـصُورٍ بِتَقْوَاهُ يَأْبَى ٱلْكِبْرَ وَٱلتِّيهَا

فِيهَا ثَلَاثَةُ أَسْيَافٍ قَدِ ٱشْتَهَرَتْ ... فَكَانَ لِلْمُصْطَفَى ٱلْهَادِي مُؤَدِّيهَا

وَمَعَهُ سَفَّانَةٌ بِنْتُ ٱلْمُمَجَّدِ حَا ... تِمٍ أَبَرِّ كِرَامِ ٱلْعُرْبِ سَاخِيهَا

وَٱلْمُصْطَفَى قَدْ أَبَى مِنْ أَجْلِ وَالِدِهَا ... لَهَا ٱلْإِسَارَ وَلَمْ يَقْبَلْ تَسَرِّيهَا

فَأَسْلَمَتْ وَدَعَتْ لِلْمُصْطَفَى وَغَدَتْ ... تَرْوِي مَحَامِدَهُ ٱلْغَرَّا وَتُطْرِيهَا

وَأَسْرَعَتْ لِبِلَادِ ٱلشَّامِ تَطْلُبُ أَنْ ... تَلْقَى أَخَاهَا ٱلَّذِي قَدْ كَانَ يَثْوِيهَا

اذا بارز شجاعاً ساله اذا كان له اخ ام لا فاذا عرفه وحيداً عفا عنه » وكان اذا أهلّ الشهر الاصمّ « وهو رجب" الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية» ينحر كل يوم من ايامه عشراً من الابل ويطعم الناس

وتوفي حاتم في السنة الثامنة لعام الفيل الموافقة لسنة ٥٧٩ مسيحية اي بعد ولادة رسول الله بثمان سنوات وحسبه فخراً ان المصطفى شهد له بمكارم الاخلاق كما سيجيء

(١) اخذ المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد عودته الى المدينة المنورة تتميم مهمته المقدسة بتعميم نشر دعوته ومحاربة كل اثر للاشراك والكفر في بلاد العرب وقد اتصل بمسامعه الشريفة أن في طيء في محلة آل حاتم الطائي الكريم الآنف الذكر صنم يسمى الفلس وله بيت يعبده الناس فيه

قَدْ كَانَ مَعْ وُفْدِ طَيٍّءٍ وَهُوَ يَقْصِدُ طَــــهَ   فِي رُبَى طِيبَةٍ صَفْوَاً يُمَاشِيهَا
لَـكِنَّهُ فَرَّ مِنْ إِخْوَانِهِ هَرَبَاً   مِنَ ٱلْهِدَايَةِ مُذْ وَافَتْ عَوَالِيهَا
رَوَتْ لَهُ أُخْتُهُ طَيْئاً وَنَكْبَتَهَا   قَالَتْ: أَبُوْ حَسَنٍ قَدْ رَاحَ غَازِيهَا
وَحَدَّثَتْهُ بِمَـا فِيْ طِيبَةٍ وَبِهَا   * مَجْدِ أَحْمَدَ وَٱلْإِسْلَامِ غَاشِيهَا
قَالَتْ: فَأَسْرِعْ إِلَيْهَا مُسْلِمَاً وَتَقَـــرَّبْ   بِالتَّوَدُّدِ مِنْ أَعْتَابِ وَالِيهَا
تَفْـزِ بِدُنْيَاكَ فَخْرَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَفِي ٱلْأُ   خْرَى مَثُوبَتُهُمْ طُوْبَى لِقَانِيهَا
أَصْغَى عَدِيٌّ أَخُوْهَا لِلنَّصِيحَةِ إِصْـــغَاءً   وَسَـارَ بِلَا بُطْءٍ لِيُجْزِيهَا
فَرَحَّبَ ٱلْمُصْطَفَى لُطْفَاً بِصَاحِبِ طَيٍّ   * وَٱبْنِ حَاتِمِهَا أَسْمَى مَوَالِيهَا

فصمم عليه الصلاة والسلام على تحطيم الصنم وهدم البيت الذي فيه ولم يجد لهذه المهمة العظيمة سوى أمير المؤمنين الامام علي عليه صلوات الله فوجهه بسرية فيها نحو مئة وخمسين رجلاً فاغار على احياء من العرب في طريقه وبشرها بالاسلام وكان الفوز رفيقه حتى اذا ماوصل بسريته الى محلة آل حاتم هاجها عند مطلع الفجر وتغلب على اهلها ودكّ بيت الصنم وحطم ذلك الصنم تحطيماً ووجد في خزانته ثلاثة سيوف وثلاثة دروع وكانت هذه السيوف اثرية لها شهرة عند العرب وتسمى رسوب والمخذم واليماني فغنمها مع ما غنم عليه صلوات الله من النعم وسبى النساء وكانت فيهن سفّانة ابنة حاتم الطائي وسار بالسبي والغنائم عائداً الى المدينة المنورة حيث قدمها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختص المصطفى نفسه الشريفة بهاتيك السيوف . ووزع الغنائم والسبي على المسلمين الا سفانة ابنة حاتم الطائي فقد تقدمت منه وكانت جذلة ذات وقار وعقل وقالت « يامحمد ارأيت ان تخلي عني ولا تشمت بي احياء العرب فاني ابنة سيد قومي وكان ابي يحمي الذمار ، ويفكّ العاني ، ويشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويقري الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط انا ابنة حاتم طيء . فقال المصطفى : هذه مكارم الاخلاق حقاً خلوا عنها فان اباها كان يحب مكارم الاخلاق وان الله يحب مكارم الاخلاق . فشكرت سفّانة نعمة المصطفى ودعت فقالت « شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، واصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك الى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة من كريم الا وجعلك سبباً لردها عليه » فتبسم لها الرسول وانصرف وظلت سفّانة في حظيرة المسجد فمرّ بها المصطفى والمرتضى في اليوم التالي فاشار اليها المرتضى ان تكلم المصطفى فتصدت له وقالت منّ عليّ منّ الله عليك قال « قد فعلت فلا تعجلي حتى تجدي ثقة يبلغك بلادك » ثمّ تركها ومضى بعد ان اوصى بها خيراً . وبعد ايام قدم المدينة رهط من طيء وبلغها خبره فاسرعت الى المصطفى في مسجده واخبرته بقدوم قومها وثقتها بهم فكساها واعطاها نفقة وركوباً فسلمت ودعت وانصرفت الى اخيها عدي بن حاتم وكان يومئذ في الشام هرباً من الاسلام فلما انتهت اليه قال لها : ماترين في هذا الرجل ؟ قالت : ارى والله ان تلحق به سريعاً فان يك نبياً فللسابق اليه فضيلة وان يك ملكاً فلن تزال في عزّ اليمن وانت انت فقال : والله هذا هو الرأي وسار لساعته الى المدينة المنورة واسلم وحسن اسلامه واكرم المصطفى مثواه

أمير المؤمنين في غزوة تبوك

سُبْحَانَكَ ٱللهُ وَٱلتَّسْبِيحُ أَصْبَحَ فِي جَزِيرَةِ ٱلْعُرْبِ فِي أَفْوَاهِ أَهْلِيهَا(١)

وَقَدْ غَدَتْ دَوْلَةُ ٱلْإِشْرَاكِ دَائِلَةً مِنْهَا وَأَصْنَامُهَا هُدَّتْ مَبَانِيهَا

فَبَعْدَ تِسْعَةِ أَعْوَامٍ لِهِجْرَةِ طَـهَ دَانَتِ ٱلْعُرْبُ بِٱلْإِسْلَامِ تَجْزِيهَا

وَأَصْبَحَتْ أُمَّةً كُبْرَى مُوَحَّدَةَ ٱلْأَمْيَالِ تَارِكَةً مَاضِيَ تَعَادِيهَا

وَرَايَةُ ٱلدِّينِ أَمْسَتْ وَهْيَ عَالِيَةٌ فِيهَا وَلَا أَمْنَ إِلَّا فِي تَفَيِّيهَا

وَٱلرُّومُ فِي ٱلشَّامِ خَافَتْ نَهْضَةَ ٱلْعَرَبِ ٱلْكُبْرَى وَقَدْ أَكْثَرَتْ فِيهَا تَظَنِّيهَا

وَقَدَّرَتْ أَنَّ طَـهَ قَدْ يُثِيرُ عَلَيْـــهَا ٱلْحَرْبَ إِنْ لَمْ تُسَارِعْ فِي تَوَقِّيهَا

وَأَنْ تُفَاجِئَهُ بِٱلْحَرْبِ غَازِيَةً مِنْ قَبْلِمَا ٱلْعُرْبُ بِٱلْعُدْوَى تُفَاجِيهَا

وَٱلْمُصْطَفَى قَدْ دَرَى مَا فِي نُفُوسِ جُمُوعِ ٱلرُّومِ مِنْ نِيَّةٍ سَوْدَاءَ تَنْوِيهَا

فَقَالَ إِنِّيَ بِسْمِ ٱللهِ أَسْبِقُهَا لِلْحَرْبِ إِنِّي أَوْلَى أَنْ أُلَاقِيهَا

وَٱللهُ يَنْصُرُ دِينًا رُحْتُ نَاشِرَهُ وَٱللهُ يَكْبِتُ أَعْدَاهُ وَيُخْزِيهَا

وَصَاحَ فِي ٱلنَّاسِ يَدْعُو لِلْمَسِيرِ عَلَى ٱلْأَرْوَامِ فِي ٱلشَّامِ فَٱنْصَاعَتْ لِدَاعِيهَا

وَلَمْ تُعَارِضْ سِوَى أَهْلِ ٱلنِّفَاقِ فَقَالَتْ : مَا مُحَارَبَةُ ٱلْأَرْوَامِ نَبْغِيهَا

تَشَاءَمَتْ بِٱنْكِسَارِ ٱلْمُصْطَفَى وَغَدَتْ تُحَذِّرُ ٱلنَّاسَ مِنْ حَرْبٍ يُلَظِّيهَا

---

(١) واقام المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد عودته من مكة المكرمة في المدينة المنورة الى رجب من السنة التاسعة للهجرة وفيه أمر المسلمين ان يتجهزوا لغزو الروم انتقاماً لزيد بن حارثة ومن اصيب معه في « مؤتة » كما تقدم في حاشية سابقة ويسمي المسلمون الجيش الذي خرج في هذه الغزوة بجيش العسرة لان التأهب لها كان في زمن عسرة لشدة الحرّ والجدب في البلاد وفوق ذلك فان المسلمين تهيبوا المسير على الروم وصار يقول المنافقون منهم الذين كانوا يظهرون الاسلام ويكتمون الكفر ان محاربة الروم لا تشبه محاربة العرب بعضهم لبعض واخذوا يتشاءمون بالانكسار ويثبط بعضهم عزائم بعض . ولم يفت المصطفى ما كان يتهامس به هؤلاء من التشاؤم مع اظهار الارتياح اليه فرأى صلى الله عليه وسلم ان الضرورة تقضي بابقاء سيدنا علي امير المؤمنين على المدينة وهي الغزوة الوحيدة التي لم يصحبه فيها . نعم ان المصطفى لم يرَ بداً من تخلف سيدنا امير المؤمنين عن هذه الغزوة لانه الكفء الوحيد لادارة زمام المملكة الاسلامية التي كانت قد امتدت لاكثر جهات جزيرة العرب على كثرة ما في العرب من المسلمين ولا سيما انه كان يعلم بانه سائر الى محاربة الروم وهو يدرك ان

وَلَمْ يَكُنْ ما أَشَاعَتْ مِنْ تَشَائُمِهَا ... نَصِيحَةً لِعِبَادِ ٱللهِ تُسْدِيهَا

لٰكِنْ أَرَادَتْ بِهَا تَٱللهِ مَفْسَدَةً ... لِلنَّاسِ كَيْمَا عَنِ ٱلْقِتَالِ تُثْنِيهَا

لِأَنَّهَا قَدْ أَسَرَّتْ لِلْحَنِيفِيَّةِ ٱلْـ ... ـسَّمْحَاءِ نِيَّةَ سُوءٍ فِي مَطَاوِيهَا

وَكَانَ يَعْرِفُ طَهَ مَا تُخَبِّئُهُ ... صُدُورُهَا مَا ٱخْتَفَتْ عَنْهُ خَوَافِيهَا

لِذَاكَ أَبْقَى عَلِيًّا فِي ٱلْمَدِينَةِ يَرْ ... عَى مُلْكَهُ وَأَهَالِيهِ يُرَاعِيهَا

وَمَا سِوَاهُ لِأَرْبَابِ ٱلنِّفَاقِ إِذَا ... غَابَ ٱلرَّسُولُ وَجَدَّتْ فِي مَسَاوِيهَا

وَسَارَ يَطْلُبُ أَرْضَ ٱلشَّامِ يَنْشُدُهَا ... بِرَكْبِهِ لَمْ يَهَبْ تَقْتَالَ رُومِيهَا

وَمَا غَزَا ٱلْمُصْطَفَى غَزْوًا بِغَيْرِ عَلِـ ... ـيٍّ ٱلْمُرْتَضَى قَاهِرِ ٱلْكُفَّارِ نَاكِيهَا

وَلَا تَسَعَّرَ فِي عَهْدِ ٱلْجِهَادِ لَظَى ٱلْـ ... ـهَيْجَاءِ إِلَّا عَلِيٌّ كَانَ صَالِيهَا

وَلَمْ يَكُنْ رَاضِيًا ذَا ٱلْيَوْمَ قَعْدَتَهُ ... عَنِ ٱلْكَرِيهَةِ إِلَّا طَوْعَ رَاضِيهَا

فَشَنَّعَ ٱلْقَوْمُ قَالُوا: قَدْ تَخَفَّفَ مِنْـ ... ـهُ ٱلْمُصْطَفَى وَلَهُ قَدْ رَامَ تَعْوِيهَا

هَمَّ ٱلْعَلِيُّ ٱلَّذِي قَالُوا فَخَفَّ إِلَى ٱلْـ ... ـسِّلَاحِ فِي عَزْمَةٍ لَمْ يَخْبُ وَارِيهَا

وَسَارَ مُتَّبِعَ ٱلرُّكْبَانِ قَاصِدَهَا ... فَوْقَ ٱلْمُطَهَّمِ وَٱلْآثَارَ قَافِيهَا

دوات الروم لا يستخف بها فذا لم تصب غزوته النجاح فقد ينتقض عليه المنافقون وكثير هم

على ان المصطفى ما كاد يبعد بغزاة المسلمين من المدينة المنورة حتى طفق اولئك المنافقون الفجار يلغطون باستخلاف سيدنا علي عليه صلوات الله عن الغزوة ويرجفون قائلين «ما خلفه المصطفى الا استثقالاً له وتخففاً منه» ولعلهم ارادوا من قولهم هذا ان يوغروا صدره الشريف على المصطفى ويحدثوا شقاقاً بذلك بين المسلمين فينالون مأربهم الشرير من تضييع المجهودات المحمدية الناجحة

ولما انتهى الى المسامع الحيدرية الشريفة صدى لغط الناس هذا اغتاظ عليه صلوات الله وشك سلاحه وركب جواده واسرع مقتفياً آثار المصطفى وجيشه فوجدهم منيخين في موضع يسمى « الجرف » فدخل على محمد والعرق يتصبب من جسمه الشريف والغضب بادٍ على وجهه النير وقال: «يا نبي الله لقد زعم المنافقون انك ما خلفتني في المدينة الا لانك استثقلتني واردت ان تتخفف مني» فتبسم المصطفى وقال «كذبوا كما كذبوا عني فقالوا اني ساحر، واني كاهن، واني كذاب، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي فرجع فاخلفني في اهلي واهلك ياعلي ألا يرضيك ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي» فاستبشر علي بما سمع وعاد ادراجه الى المدينة المنورة يدير امر المملكة الاسلامية العظمى

وانتهى المصطفى بجيشه الجرار الى موضع يسمى « تبوك » وهناك جاءه يحنة « ولعله يوحنا » ابن رؤبة صاحب « ايله » فصالح رسول الله على الجزية واتاه ايضاً اهل « جرباء » وأهل « اذرح » فاعطوه الجزية وبعث صلى الله عليه وسلم وهو في « تبوك » خالد بن الوليد في سرية

حَتَّى رَآهَا بِأَرْضِ ٱلْجُرْفِ نَازِلَةً فَحَلَّ فِيهَا وَلَاقَاهُ مُلَاقِيهَا
وَقَابَلَ ٱلْمُصْطَفَى يَشْكُو إِلَيْهِ لَغَا ٱلْـــفُجَّارِ يَرْوِي لَهُ إِرْجَافَ هَاذِيهَا
وَقَالَ: عَطْفاً نَبِيَّ ٱللهِ تَخْذِلُنِي أَنَا ٱبْنُ عَمِّكَ قَالَ ٱلْمُصْطَفَى: إِيهَا
لَئِنْ تَمَنَّتْ عَلَيْكَ ٱلْعُرْبُ قَوْلَتَهَا فَمَا نَسِيتُ لَهَا مَاضِي تَمَنِّيهَا
أَلَمْ تَقُلْ إِنَّنِي ٱلسَّحَّارُ أَسْحَرُهَا وَإِنَّنِي كَاهِنُ ٱلْأَصْنَامِ أَرْقِيهَا
وَإِنَّنِي كَاذِبٌ بِٱلْمَيْنِ أَخْدَعُهَا وَإِنَّنِي بِأَبَاطِيلِي أُمَارِيهَا
تَأَسَّ بِي وَٱصْطَبِرْ مَا أَنْتَ مِنِّيَ إِلاَّ مِثْلُ هٰرُونَ مِنْ مُوسَى فَتِهْ تِيهَا
خَلَا ٱلنُّبُوَّةِ مَا بَعْدِي يَقُومُ نَبِـــيٌّ فِي ٱلْبَرِيَّةِ يَرْعَاهَا وَيَهْدِيهَا
أَرْجِعْ إِلَى طِيبَةٍ إِنِّي تَرَكْتُكَ لِلَّـــذِينَ خَلَّفْتُهُمْ مِنْ عِتْرَتِي فِيهَا
فَطَابَ نَفْساً عَلِيٌّ وَٱنْثَنَى فَرِحاً لِطِيبَةٍ وَهُوَ وَالِيهَا وَقَاضِيهَا
وَغَزْوَةُ ٱلْمُصْطَفَى كَانَتْ مُوَفَّقَةً وَنَصْرَةُ ٱللهِ قَدْ كَانَتْ تُوَسِّيهَا
وَفِي تَبُوكَ لَقَدْ كَانَتْ وَقَائِعُهَا لِذَا بِهَا كَاتِبُ ٱلتَّارِيخِ يُسْمِيهَا
وَإِنَّمَا غَزَوَاتُ ٱلْمُصْطَفَى خُتِمَتْ بِهَا وَقَدْ كَانَ بِٱلْإِسْعَادِ مُنْهِيهَا

أمير المؤمنين في حجة أبي بكر

وَآذَنَ ٱلْمُصْطَفَى فِي عَامِ تِسْعَةٍ أَنْ تَمْضِيَ لِحَجَّتِهَا ٱلْحُجَّاجُ تَأْتِيهَا(١)
وَقَالَ يَسْعَى أَبُو بَكْرٍ بِرُفْقَتِهَا فَهْوَ ٱلْأَمِيرُ عَلَيْهَا وَهْوَ حَامِيهَا
كَذَاكَ سَارَ أَبُو بَكْرٍ لِحَجَّتِهِ بِٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْأُلَى كَانُوا مُرِيدِيهَا
فَجَازَ طِيبَةَ يَبْغِي مَكَّةً لِفَرِيـــضَةٍ يَنَالُ رِضَاءَ ٱللهِ قَاضِيهَا

الى « اكيدر تومة » فذهب اليه وحاربه واسره وجاء به الى المصطفى صلى الله عليه وسلم فعفا عنه وصالحه على الجزية واعاده الى بلده

وبعد ان اقام المصطفى عليه الصلاة والسلام بضع عشرة ليلة في تبوك عاد الى المدينة المنورة وكانت هذه الغزوة آخر غزواته

(١) في ذي القعدة من السنة التاسعة للهجرة أذن المصطفى لمن يريد الحج بالحج وسمّى أبا بكر اميراً للحج فخرج بالحجاج في اول ذي الحجة قاصداً مكة المكرمة وكان عددهم نحو الثلاثمائة

وَبَعْدَ غَيْبَتِهِ أَوْحَى لِأَحْمَدَ آ م يَاتِ ٱلْبَرَاءَةِ وَٱلْإِنْذَارِ مُوْحِيهَا
فَقِيلَ لِلْمُصْطَفَى : فَٱبْعَثْ بِهَا لِأَبِي بَكْرٍ فَيُعْلِنُهَا لِلنَّاسِ يُفْشِيهَا
فَقَالَ: كَلَّا فَمَا غَيْرُ ٱلْعَلِيِّ يُبَلِّغُ ٱلْبَرَاءَةَ أَوْ يُنْبِي مَثَانِيهَا
ثُمَّ دَعَا ٱلْمُرْتَضَى فِي ٱلْحَالِ أَبْلَغَهُ آيَ ٱلْبَرَاءَةِ كَيْ يَمْضِي يُؤَدِّيهَا
وَقَالَ أَسْرِعْ عَلَى ٱلْقَصْوَاءِ فِي طَلَبِ ٱلْـحُجَّاجِ آثَارُهَا كُنْ صَاحِ قَافِيهَا
وَٱدْخُلْ بِهَا مَكَّةً وَٱقْضِ ٱلْمَنَاسِكَ مَعْـهَا مُسْتَثِيبًا بِهَا ٱلْخَلَّاقَ نَاوِيهَا
وَبَعْدَ ذَلِكَ أَعْلِنْ صَاحِ أَنَّ عُهُوْ دِي لِلْأَعَارِبِ قَدْ أَضْحَتْ مُلْغِيهَا
وَأَنَّ نَفْسِيَ مِنْ تِلْكَ ٱلْعُهُوْدِ كَمَا قَدْ شَاءَ رَبِّيْ وَأَوْحَى لِيْ أُبَرِّيهَا
كَذَا ٱمْتَطَى ٱلنَّاقَةَ ٱلْقَصْوَاءَ حَيْدَرَةٌ وَرَاحَ يَتْبَعُ ٱلْحُجَّاجَ يَبْغِيهَا
وَقَدْ تَلَاقَى بِهَا فِيْ قُرْبِ مَكَّةَ إِذْ كَانَتْ تَجِدُّ إِلَيْهَا فِيْ مَسَاعِيهَا
فِيْ ٱلْحَالِ أَنْبَا أَبَا بَكْرٍ مُصَاحِبَهَا أَسْرَارَ جَيْئَتِهِ مَا كَانَ مُخْفِيهَا
وَصَاحَبَ ٱلنَّاسَ فِيْ كُلِّ ٱلْفُرُوْضِ وَكَا نَتْ مِثْلَمَا شَاءَ رَبُّ ٱلْبَيْتِ تُجْرِيهَا
حَتَّى إِذَا مَا أَفَاضَتْ وَٱنْتَهَتْ لِمِنًى ٱلْـحُجَّاجُ أَوْقَفَهَا صَوْتٌ يُنَادِيهَا
صَوْتُ ٱلْعَلِيِّ ٱلَّذِي مِنْ فَوْقِ نَاقَتِهِ وَافَى بِمَا أَمَرَ ٱلْهَادِيْ يُفَاهِيهَا

وبعد ذهاب الحجاج بثلاثة ايام اوحى الله الى رسوله بالبراءة من عهوده مع المشركين فبشر بها اصحابه فقال له قائلهم : « لو بعثت بهـا الى أبي بكر فيبلغها للناس » فأجاب صلى الله عليه وسلم « لايؤدي عني الا رجل من أهل بيتي » ثمّ دعا علياً عليهما الصلاة والسلام وقال اخرج على ناقتي القصواء وتبع الحجـاج وادخل معهم مكة فاقض مناسك الحج حتى اذا ما أفاضوا الى منى يوم النحر فاذن بالناس وابلغهم البراءة كما اوحيت لي» فصدع المرتضى بامر المصطفى وامتطى النـاقة القصواء وسار في اثر الحجاج ولتقى بهم بالقرب من مكة فدخلها معهم وبعد ان قضوا فريضة الحج وأفاضوا الى منى يوم العيد الاكبر وعندالجمرةالاولى تقـدّم عليه صلوات الله على ناقة المصطفى «القصواء» وصاح بالناس خطيباً فقال « ايها الناس لايدخل الجنة الا مؤمن ، ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالكعبة عريان. ومن كان له مع رسول الله عهد فله عهد اربعة اشهر من يومنا هذا ثم لا عهد له ، ومن لا عهد له فعهده الى انقضاء المحرم » وعرف المشركون من خطـاب امير المؤمنين هذا ما كانوا يجهلونه من اضمحلال الاشراك نهائياً وزوال شوكته من عموم جزيرة العرب

ومما تجب الاشارة اليه هنا هو ان المشركين في ذلك العام قصدوا مكة محرمين للحج حسب عادتهم ناسين او متناسين بان مكة وكعبتها كرمهما الله قد باتا بايدي المسلمين فاختلطوا بحجاج

فَقَالَ يَا نَاسُ أَصْغُوا لَيْسَ يَدْخُلُ فِي الْـجِنَانِ إِلاَّ أَخُو الإِيمَانِ يَثْوِيهَا
وَبَعْدَ ذَا الْعَامِ لاَ حَجٌّ لِمُشْرِكِكُمْ أَصْلاً وَمَكَّةُ تَأْبَى أَنْ يُوَافِيهَا
وَلاَ يَطُوفُ بِبَيْتِ اللهِ مِنْ عَبَدَتِهِ بَعْدَ حَجَّتِنَا ذَا الْعَامَ عَارِيهَا
وَمَنْ لَهُ مَعَنَا عَهْدٌ فَأَرْبَعَةٌ مِنَ الشُّهُورِ نُرَاعِي عَهْدَهُ فِيهَا
وَمَنْ يَكُنْ دُونَ عَهْدٍ عَهْدُنَا مَعَهُ حَتَّى الْمُحَرَّمِ ثُمَّ الْحَرْبُ نُصْلِيهَا
بِذَاكَ أَنْذَرَ أَصْحَابَ الْغَوَايَةِ وَالإِشْرَاكِ أَنْ لَيْسَ مِنْ سِلْمٍ يُوَاتِيهَا
وَمَا اخْتَفَى بِأُنَاسٍ هَدَّدَتْهُ وَنَا دَى: مَاسِوَى شِرْعَةِ الإِسْلاَمِ تُنْجِيهَا
وَعَادَ يَصْطَحِبُ الْحُجَّاجَ مَعْهُ أَبُو بَكْرٍ وَطِيبَةُ قَدْ سُرَّتْ بِآتِيهَا
وَأَدْرَكَ النَّاسُ أَنَّ الْمُرْتَضَى لَمُبَلِّـغُ الرَّغَابِ الَّتِي يَسِينُ يُلْقِيهَا
وَفِي الأَخَصِّ إِذَا كَانَتْ مُقَدَّسَةً وَكَانَ جِبْرِيلُ بِالتَّنْزِيلِ مُمْلِيهَا

أمير المؤمنين يهدي مذحج

بَيْنَ الرَّسُولُ عَلَى مَحْمُودِ عَادَتِهِ مَا بَيْنَ صُحْبَتِهِ فِي وَسْطِ نَادِيهَا (١)
فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ فِي ابْتِدَا رَمَضَا نَ وَهُوَ بِالصَّوْمِ إِذْ صَامَتْ يُهَنِّيهَا
نَادَى مَخَالِفُ قَحْطَانٍ أَوَدُّ لَهَا هِـدَايَةً وَحَرِيٌّ أَنْ نُوَاخِيهَا
وَكُلُّنَا عَرَبٌ سِيَّانِ مَنْ قَطَنَتْ هُنَا وَفِي يَمَنٍ أَوْ مَا يُنَاحِيهَا

المسلمين وهم يكبرون تكبير المشركين وكان من اولئك المشركين اناس يتعرون وراء المسجد الحرام ويطوفون بالكعبة عراة الابدان رجالاً ونساءً وكان يقول هؤلاء العراة اننا لا نطوف بالكعبة ونعبد الله بثياب اذنبنا فيها كما كان يرى بعضهم بانهم يعرّون من ذنوبهم كما تعروا من ثيابهم ومن اغرب احوال هؤلاء العراة ان امرأة منهم طافت بالبيت عريانة ويدها على قبلها وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

ولمنع عادة التعرّي التي كانت شائعة بين المشركين في حجهم وعبادتهم نزلت آية « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد قل من حرّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق» الآية

وبعد ذلك رجع المرتضى وابو بكر بالحجاج الى المدينة المنورة وعرف الناس انه لا يبلغ رغائب المصطفى الا المرتضى عليهما الصلاة والسلام ولا سيما اذا كانت تنزيلاً ووحياً

(١) ان فوز سيدنا امير المؤمنين عليه صلوات الله في هداية همدان اليمانية بعد ان عجز خالد عن هدايتها كان له صدى عظيم بين المسلمين وعموم العرب فتحدّث به الناس ولذلك عند ما أقرّ

وَجَدْنَا يَعْرُبُ ٱلْمَشْهُورُ يَجْمَعُنَا   فِي خَيْرِ جَامِعَةٍ لَسْنَا نُجَزِّئُهَا

وَٱلْعُرْبُ فِي يَمَنٍ إِلاَّ أَبُو حَسَنٍ   مَا إِنْ لَهَا مِنْ دُعَاةِ ٱلدِّينِ يَهْدِيهَا

وَإِنَّنِي ٱلْيَوْمَ بِسْمِ ٱللهِ مُرْسِلُهُ   لِمَذْحِجٍ وَهْوَ كِفْءٌ أَنْ يُلَاقِيهَا

وَمَالَ صَلَّى عَلَيْهِ ٱللهُ نَحْوَ أَخِيــــهِ قَالَ: سِرْ عَجِلاً وَٱقْصِدْ مَثَاوِيهَا

فَهَبَّ حَيْدَرَةٌ فِي ٱلْحَالِ يَطْلُبُ أَبْـــطَالَ ٱلرِّجَالِ وَلِلْمَسْرَى يُهَيِّئُهَا

وَبَعْدَ مَا ٱجْتَمَعَتْ جَمْعاً سَرِيَّتُهُ   وَٱلْخَيْلُ مِنْ تَحْتِهَا تُبْدِي تَهَادِيهَا

وَافَى ٱلرَّسُولَ لِكَيْ يَلْقَى أَوَامِرَهُ   عِنْدَ ٱلْوَدَاعِ وَبِٱلتَّدْقِيقِ يُجْرِيهَا

فَقَالَ يَمِّمْ بِلَا بُطْءٍ مَوَاطِنَ مَذْ   حِجٍ وَكُنْ لِهُدَى ٱلْإِسْلَامِ دَاعِيهَا

وَلَا تُقَاتِلْ إِذَا مَا سَالَمَتْكَ وَقَا   تِلْهَا إِذَا رَغِبَتْ بِٱلْحَرْبِ تُلْظِيهَا

وَعَمَّمَ ٱلْمُصْطَفَى يُمْناً أَبَا حَسَنٍ   وَرَاحَ يَدْعُو لَهُ بِٱلنَّصْرِ تَجْرِيهَا

مَضَى إِلَى مَذْحِجٍ بِٱلْيُمْنِ حَيْدَرَةٌ   وَحَوْلَهُ ٱلرَّكْبُ تَمْشِيهِ وَيُمْشِيهَا

حَتَّى إِذَا مَا دَنَا مِنْ أَرْضِهَا بَعَثَ ٱلْـــرِّجَالَ تَطْلُبُ غُنْماً مِنْ بَوَادِيهَا

غَابَتْ وَبَعْدَ قَلِيلٍ نَحْوَهُ رَجَعَتْ   بِوُلْدِهَا وَنِسَاهَا مَعْ مَوَاشِيهَا

ثُمَّ رِجَالَتُهَا وَافَتْ مُحَارِبَةً   فَكَانَ بِٱلْحَرْبِ مُخْذِيهَا وَمُصْمِيهَا

فَأَدْبَرَتْ وَهْيَ مِنْ حَوْلَيْهِ هَارِبَةٌ   تَرْجُو سَلَامَتَهَا مِنْ بَطْشِ غَازِيهَا

وَأَرْسَلَتْ رُؤَسَاهَا لِلْعَلِيِّ فَجَا   ءَتْهُ وَإِسْلَامُهَا تُبْدِيهِ مِنْ فِيهَا

فَأَكْرَمَ ٱلْمُرْتَضَى لُطْفاً وِفَادَتَهَا   وَفِي تَعَطُّفِهِ أَمْسَى يُدَارِيهَا

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على ارسال سرية لبني مذحج في اليمن لم يجد كفئاً لها غير هذا الرجل العظيم فاستدعاه اليه وأمره بالمسير على رأس ثلاثمائة فارس الى مذحج وعممه بيده الشريفة وقال: « امض ولا تلتفت فاذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك » فسار المرتضى بهذه السرية في رمضان سنة عشرة للهجرة فلما وصل الى منازل مذحج فرّق خيله في ضواحيها فاتوا بنهب وغنائم واطفال ونساء ونعم وشاء وغير ذلك وجعل على الغنائم ابن الحصيب فقبل على المرتضى رجال من مذحج يرمونه بالنبل والحجارة فدعاهم الى الاسلام فابوا فصفّ رجاله ودفع لواءه الى مسعود بن سنان ثمّ حمل عليهم فقتل منهم عشرين رجلاً وفرّ الباقون وتفرقوا فكفّ عن طلبهم واكتفى انه حلّ في بلدهم فجاءه نفر من روسائهم خاضعين فاسلموا وقالوا نحن على من ورائنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حقّ الله ففعل عليه صلوات الله ثمّ قسم الغنائم اخماساً خصّ الخمس منها لله واقرع عليها وقسم

وَفِي بَلاَغَتِهِ قَدْ رَاحَ يَنْشُرُ آ م يَاتِ ٱلشَّرِيعَةِ تَبْشِيراً وَيَنْشِيهَا
ثُمَّ ٱلغَنَائِمُ بِٱلإِنْصَافِ خَمَّسَهَا وَخَصَّ بِٱللهِ رَبِّ ٱلعَرْشِ خَامِسَهَا
وَبَيْنَمَا هُوَ فِي سَامِي مُهِمَّتِهِ كَمَا يُحِبُّ رَسُولُ ٱللهِ يُمْضِيهَا
وَإِذْ تَلَقَّى نَبَا حَجِّ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ وَافَى رُبَى مَكَّةٍ بِٱلطُّهْرِ يَأْوِيهَا
فَخَفَّ يَنْوِي قَضَاءَ ٱلحَجِّ مُطَّلِباً أُمَّ ٱلقُرَى مَعَهُ هَدْيٌ يُضَحِّيهَا
وَفِي حِمَى ٱلكَعْبَةِ ٱلزَّهْرَاءِ يَمَّمَ طَـهَ مُحْرِماً فَرَآهُ مُحْرِماً فِيهَا
هُنَاكَ حَدَّثَهُ عَمَّا أَتَمَّ بِمَذْ حِجٍ وَقَالَ غَدَا ٱلإِسْلاَمُ فَاشِيهَا
فَكَرَّرَ ٱلمُصْطَفَى شُكْرَانَ صَاحِبِهِ عَلَى ٱلفِعَالِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَ مُجْرِيهَا
وَقَالَ مَا يَمَنٌ وَٱللهِ نَاسِيَةٌ لَكَ ٱلمَسَاعِي ٱلَّتِي قَدْ رُحْتَ سَاعِيهَا
وَمَا هِدَايَةُ قَحْطَانٍ بِجُمْلَتِهَا إِلاَّ بِفَضْلِكَ يَا خِلِّي فَتِهْ تِيهَا

وصاية المصطفى للمرتضى

هَبَّ ٱلرَّسُولُ يُرِيدُ ٱلحَجَّ يَطْلُبُهُ فِي عَشْرَةٍ مِنْ حُؤُولِ ٱلنَّاسِ هِجْرِيهَا(١)
فَسَارَتِ ٱلنَّاسُ تَبْغِي ٱلحَجَّ صُحْبَتَهُ وَمَا تَخَلَّفَ مِنْهَا غَيْرُ ضَاوِيهَا
فِيهَا ٱلنِّسَاءُ وَفِيهَا ٱلوِلْدُ تَحْمِلُهَا ٱلـ ـنُّوقُ ٱلَّتِي لَيْسَ طُولُ ٱلسَّيْرِ يُضْنِيهَا

الباقي في إصحابه . وبلغ علياً وهو في مذحج ان رسول الله خرج الى الحج بجموع من المسلمين وهي حجة الوداع فتبعه الى مكة بعد ان كلل الله سريته بهذا الفوز الباهر ودخل مكة محرماً للحج مهلاً على ما أهلّ المصطفى عليهما الصلاة والسلام فقابله الرسول بالفرح وحمد الله على نعمائه

(١) صحت عزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضاء فريضة الحج في السنة العاشرة للهجرة ليودع في بيت الله المسلمين ويبلغهم بلاغه الاخير لانه ما كان يجهل ان مهمته المقدسة قد تمت وانه يوشك ان يسير الى لقاء ربه عز وجلّ وكان خروجه من المدينة المنورة في يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة سنة ١٠ للهجرة وكان معه عدد كبير من المسلمين قالوا يتجاوز المئة الف وصحب في حجته هذه سيدتنا فاطمة الزهراء وولديها الحسن والحسين ونساءه وعمه العباس وكل من كان لديه من آل عبد المطلب الا سيدنا علي الذي كان في مذحج كما تقدم وقد صحبه أيضاً أكابر الصحابة والانصار وعند ما دخل مكة استقبل القبلة ولبّى قائلاً « لبيك اللهمّ لبيك ، لاشريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك ، لبيك اله الخلق لبيك ، حقاً تعبداً ورقاً » وكان الناس معه يزيدون في هذه التلبية أو ينقصون على ما يشاؤون فلم يمنعهم وكانوا يلبون سراً فجاءه جبريل عليه السلام وأمره أن يأمر

أَمَّا ٱلرِّجَالُ فَقَدْ كَانَتْ مُسَارِعَةً مَعَهُ فَرَاكِبُهَا فِي جَنْبِ مَاشِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى كَانَ يَسْعَى فَوْقَ نَاقَتِهِ ٱلْـ ـقَصْوَى بِحُجَّاجِهِ ٱلْأَخْيَارِ يُخْطِيْهَا
قَدْ أَحْرَمُوا وَأَتَوْا أُمَّ ٱلْقُرَى لِقَضَا ءِ ٱلْوَاجِبَاتِ ٱلَّتِي ٱلْحُجَّاجُ تَقْضِيْهَا
وَعِنْدَ مَا بَلَغُوا بِٱلْبِرِّ كَعْبَتَهَا طَافُوا بِهَا أَكْرَمَ ٱلْبَارِي مُطِيْفِيْهَا
وَأَقْبَلَ ٱلْمُرْتَضَى مِنْ مَذْحِجٍ لِرُبَا هَا بَعْدَ أَنْ عَقَدُوا خَيْرَ ٱلْحِبَى فِيْهَا
هُنَاكَ بَشَّرَ طَـهَ وَٱلْحَجِيْجَ بِإِسْـ ـلَامِ ٱلْأُلَى سَارَ لِلْإِسْلَامِ يَهْدِيْهَا
وَبَعْدَ مَا ٱلْحَجُّ قَدْ تَمَّتْ مَنَاسِكُهُ وَٱلنَّاسُ نَالَتْ بِهِ رِضْوَانَ بَارِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى أَسْمَعَ ٱلْحُجَّاجَ خُطْبَتَهُ ٱلْـ ـغَرَّا ٱلَّتِي كَانَ لِلتَّوْدِيْعِ مُلْقِيْهَا
وَضَحَّتِ ٱلنَّاسُ فِي تِلْكَ ٱلرُّبُوعِ فِدَى آثَامِهَا وَلَقَدْ تَابَتْ أَضَاحِيْهَا
أَفَاضَ أَحْمَدُ مِنْ حَجِّ ٱلْوَدَاعِ وَمَعْـ ـهُ ٱلنَّاسُ قَدْ رَجِعَتْ تَبْغِي مَثَاوِيْهَا
وَأُمَّةُ ٱلْمُصْطَفَى كَانَتْ بِإِمْرَتِهِ تَسِيْرُ فِي سُبْلِهَا تَطْوِي مَطَاوِيْهَا

أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فأمرهم بذلك فملأوا فضاء مكة بالتلبية . وهكذا صار رفع الاصوات بالتلبية من شعار الحج . وبعد أن دخل المصطفى مكة بقومه وفد عليه أمير المؤمنين عائداً من مذحج محرما سائقاً معه الهدي وبعد أن قضى عليه الصلاة والسلام يوم عرفة ركب ناقته القصواء وأتى بالناس بطن الوادي نخطب على راحلته خطبة الوداع الشهيرة ذكر فيها تحريم الدماء والاموال والاعراض ، ومنع ربا الجاهلية « أي ما كان من ربا في الجاهلية لا يطالب به في الاسلام وأنت تعلم أن الاسلام حرم الربا بتاتاً » ووضع الدماء في الجاهلية «أي ان الموتورين في الجاهلية لا يحق لهم أخذ الثأر من واتريهم بعد ان اسلموا» وبهذا صالح قبائل العرب وازال من صدورهم الاحقاد ، واوصى صلى الله عليه وسلم بالنساء خيراً ، وامر الناس ان يعتصموا بكتاب الله ، وقال ان من اعتصم بكتاب الله لا يضل ، واشهد الله سبحانه على انه بلغ الناس ما أمر به واستشهدهم على ذلك فشهدوا ، ثم أمر الناس ان يبلغ شاهدهم غائبهم بما شهد وما سمع ، ثم ان المصطفى صلى الله عليه وسلم حرّم على المسلمين دماءهم ، وأبلغهم ان كل ما يخالف القرآن من عوائد الجاهلية قد داسه بقدميه الشريفتين اشارة الى انه بات ملغياً ، وبينما كان المصطفى عليه الصلاة والسلام على ظهر ناقته القصواء في موقفه العظيم ذلك نزلت عليه آية « اليوم اتممت عليكم نعمتي ، واكملت لكم دينكم » فتلاها والناقة من تحته يكاد يندق عضدها من ثقل الوحي وكانت هذه الآية الشريفة آخر الاحكام التي اوحيت لمحمد بن عبد الله صلى الله علية وسلم

ثم انصرف المصطفى عليه الصلاة والسلام الى المنحر بمنى فنحر هديه وكانت ٦٣ بدنة على عدد عمره الشريف وامر علياً ان ينحر هديه وأمره ان يقسم لحوم الهدي وجلودها بين الناس وقال : « وخذ لنا جذبة من بعير واجعلها في قدر واحدة حتى نأكل من لحمها ونشرب من مرقها » ففعل المرتضي ما أمره به . واخبر المصطفى ان منى كلها منحر وان فجاج مكة كلها منحر . ثم ركب

حَتَّى إِذَا نَزَلَتْ لِلإِسْتِرَاحَةِ فِي   «غَدِيرِ خَمٍّ» وَكَانَ السَّيْرُ مُعْيِيهَا(١)

نَادَى الرَّسُولُ إِلَيْهِ مِنْ صَحَابَتِهِ   رُؤُوسَهَا وَهُوَ يَبْغِي أَنْ يُفَاهِيهَا

حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ جَمْعاً بِحَضْرَتِهِ الْـ   ـعَلْيَا وَطِيبُهَا حَاذَى قُرَيْشِيهَا

نَادَى أَنَا بَشَرٌ يَا نَاسُ مِثْلُكُمُ   وَكُلُّنَا لِلْمَنَايَا لَا نُحَاشِيهَا

وَإِنَّ دَعْوَةَ رَبِّي لِي لَقَدْ قَرُبَتْ   وَبِالرِّضَى بِالْقَضَا إِنِّي أُلَبِّيهَا

وَسَوْفَ يَسْأَلُكُمْ عَنِّي وَيَسْأَلُنِي   عَنْكُمْ إِلٰهُ جُمُوعِ الْخَلْقِ ذَارِيهَا

فَمَا تَقُولُونَ عَنِّي عِنْدَ رَبِّكُمُ   وَعَنْ فِعَالِيَ الَّتِي قَدْ كُنْتُ آتِيهَا

قَالُوا : فَنَشْهَدُ قَدْ بَلَّغْتَ دَعْوَتَكَ الْـ   ـغَرَّا الْخَلَائِقَ عُرْبَهَا وَعُجْمِيهَا

وَقَدْ جَهَدْتَ كَمَا يَرْضَى الإِلٰهُ لِهٰـ   ـذَا الدِّينِ لَمْ تَأْلُنَا نُصْحاً وَتَنْبِيهَا

فَاللهُ يَجْزِيكَ خَيْراً يَا مُبَشِّرَنَا   وَذِي شَهَادَتُنَا كُلٌّ يُذَكِّيهَا

فَقَالَ أَحْمَدُ : هَلَّا تَشْهَدُونَ بِأَ   نَّ اللهَ ذَارِي الْبَرَايَا وَهُوَ مُفْنِيهَا

وَإِنَّنِي لَرَسُولُ اللهِ جِئْتُكُمُ   بِمُنْزَلِ الآيِ وَالرَّحْمٰنُ مُوحِيهَا

وَإِنَّ جَنَّتَهُ حَقٌّ وَحَشْرَكُمُ   حَقٌّ وَنِيرَانُهُ حَقٌّ يُلَظِّيهَا

وَإِنَّمَا السَّاعَةُ الْكُبْرَى لَآتِيَةٌ   لَا رَيْبَ فِيهَا وَمَوْتَى النَّاسِ تَأْتِيهَا

قَالُوا : بَلَى قَدْ شَهِدْنَا قَالَ أَحْمَدُ : يَا   رَبَّاهُ فَاشْهَدْ وَوَالَى الْقَوْلَ تَجْرِيهَا

فَحَضَّ حَضّاً عَلَى حِفْظِ الشَّرِيعَةِ فِي   سَامِي أَوَامِرِهَا أَوْ فِي نَوَاهِيهَا

وَبَعْدَ ذٰلِكَ قَدْ وَصَّى بِعِتْرَتِهِ   خَيْراً وَعِتْرَتُهُ فَرْضٌ تَوَلِّيهَا

قاصداً مكة والناس تتعبد فطاف طواف الافاضة وبعد ان طاف بالبيت سبعاً وقف في « الملتزم » بين ركن الحجر وباب الكعبة فدعا الله سبحانه والصق صدره الشريف ووجهه بالملتزم ثم انطلق الى المدينة المنورة والحجاج تتبعه

(١) وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً بالحجاج انتهى الى مكان يقال له « غديرخم » وهو بقرب موضع يسمى رابغ وهناك حط الرحال وجمع المصطفى اكابر صحابته وامير المؤمنين الى يمينه وخطب فيهم فقال : « ايها النـاس انما انا بشر مثلكم ، يوشك ان يأتيني رسول ربي فاجيب ، واني مسئول ، وانكم مسئولون فما انتم قائلون ؟ ؟ » فاجابه اصحابه قائلين « نشهد انك قد بلّغت ، وجهدت ، ونصحت فجزاك الله خيراً » فقال صلى الله عليه وسلم « أليس تشهدون ان لااله الا الله واني عبده ورسوله ، وان جنته حق ، وناره حق ، وان الموت حق ، وان البعث

وَقَالَ : هَلاَّ أَنَا أَوْلَى وَأَجْدَرُ مِنْ نُفُوسِكُمْ بِكُمُ هَلْ تُوهِبُونَهَا
قَالُوا : نَعَمْ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ وَمُحَمَّـــــدٌ إِجَابَتُهُمْ ذِي رَاحَ رَاضِيهَا
وَمَالَ لِلْمُرْتَضَى ٱلثَّاوِي بِجَانِبِهِ وَكَانَ يَمْسِكُ يُمْنَاهُ وَيُعْلِيهَا
وَقَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ عَلِيٌّ لَهُ مَوْلًى وَرُغْبَايَ ذِي بِٱلْجَهْرِ أُبْدِيهَا
ثُمَّ تَوَجَّــهَ لِلَّهِ ٱلْقَدِيرِ بِوَجْــــهِهِ وَأَصْحَابُهُ تُصْغِي لِهَادِيهَا
وَقَالَ : لَاهُمَّ مَنْ وَالَى عَلِيَّكَ وَا لِهِ وَأَعْـدَاؤُهُ أَنْتَ ٱلْمُعَادِيهَا
أَحْبِبْ مُحِبِّيهِ وَٱبْغَضْ مُبْغِضِيهِ وَمَنْ سَعَتْ إِلَى فَضْلِهِ وَفِّقْ مَسَاعِيهَا
وَٱنْصُرْ بِحَوْلِكَ قَوْماً عَنْ تُقًى نَصَرَتْ رَايَاتِهِ وَٱلْأُلَى بِٱلصِّدْقِ تُوَلِّيهَا
وَٱخْذِلْ بِعَـدْلِكَ يَارَبَّاهُ أَنْفُسَ مَنْ نَوَتْ لَهُ ٱلْخَذْلَةَ ٱلسُّوءَى مَطَاوِيهَا
أَعِنْهُ لَاهُمَّ فِي سَامِي مَقَاصِدِهِ أَعِنْ مُعِينِيهِ رَبِّي مَعْ مُعِينِيهَا
وَٱلْحَقُّ رَبِّي أَدِرْهُ كَيْفَ دَارَ لِيَنْـــــصُرَ ٱلشَّرِيعَةَ أَوْ يُخْزِيَ أَعَادِيهَا
وَمَا ٱنْتَهَى ٱلْمُصْطَفَى مِنْ غُرِّ أَدْعِيَةٍ قَدْ كَانَ لِلَّهِ بِٱلْإِخْبَاتِ يُزْجِيهَا
حَتَّى رَأَى فِي وُجُوهِ ٱلنَّاسِ وَاضِحَةً إِشَارَةَ ٱلطَّاعَةِ ٱلْمَحْمُودُ مُولِيهَا
وَتَابَعَتْ بَعْدَ ذَا صَحْبُ ٱلرَّسُولِ خُطَا هَا لِلْمَدِينَةِ إِذْ حَلَّتْ مَغَانِيهَا
وَسَارَتِ ٱلرَّكْبُ فِي قَوْلِ ٱلرَّسُولِ لِأَطْـرَافِ ٱلْجَزِيرَةِ تَرْوِيهِ لِأَهْلِيهَا

حق ، وان الساعة آتية لاريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ » قالوا : « بلى نشهد بذلك » قال المصطفى : « اللهمّ اشهد » ثم ان المصطفى أخذ يحض على التمسك بكتاب الله فاسهب ، ثم وصّى باهل بيته خيراً فاطال ، ثم سأل الناس فقال « ألست اولى بكم من انفسكم ؟ » فاجابوا جميعهم بنعم مصدقين معترفين فرفع حينئذ المصطفى يمين المرتضى وكان الى جانبه وقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهمّ والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، واحبب من احبه ، وابغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، واعن من أعانه ، واخذل من خذله ، وأدر الحق من حيث دار » فسمعت الصحابة هذا واحنت رؤوسها خضوعاً لقول المصطفى وكان ذلك اليوم السعيد هو الثامن عشر من ذي الحجة وقد اتخذه محبو سيدنا امير المؤمنين يوم عيد وبركة من كل عام

ثم ان المصطفى سار بالحجاج قاصداً المدينة المنورة حيث حلّ فيها وذاعت خطبته هذه بين المسلمين وتناقلها العرب في جميع الاقطار وعرفوا منها المنزلة الممتازة لسيدنا امير المؤمنين عليه صلوات الله

غير ان الناس تتفاوت رغباتهم ومطامعهم كما يختلفون بعواطفهم حتى يستحيل على الفرد الواحد مهما علت صفاته وعظم شأنه ان يرضيهم جميعاً ولا سيما سيدنا امير المؤمنين الذي كان كثيرون من

تَقُولُ لِلمُرتَضَى أَوصَى ٱلرَّسُولُ عَلَى غَدِيرِ خمٍّ بِذَا أَوْلَاهُ تَجوِيهَا
وَمَا مَضَتْ مُدَّةٌ حَتَّى ٱلوَصِيَّةُ شَا عَتْ فِي ٱلأَعَارِبِ فِي سَامِي مَعَانِيهَا
وَبِٱلرِّضَى قَابَلَ ٱلنَّاسُ ٱلوَصِيَّةَ مِنْ دُونِ ٱعْتِرَاضٍ وَقَدْ كَانُوا مُطِيعِيهَا
قَالُوا: إِرَادَةُ طَـهَ مِنْ إِرَادَةِ بَا رِيهِ فَلَا مُسْلِمٌ بَرٌّ يُنَاوِيهَا
إِلَّا أُنَاسٌ أَكَنَّتْ بُغْضَةً لِعَلِـيٍّ مَا نَسَتْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ غَازِيهَا
فَٱسْتَعْظَمَتْ أَمْرَهَا تِيكَ ٱلوَصِيَّةِ لَمْ تَرْغَبْ بِهَا كَذَّبَتْ مَنْ رَاحَ يَرْوِيهَا
أَوْ أَنَّهَا حَسَداً كَانَتْ تُؤَوِّلُ هَا تِيكَ ٱلوَصِيَّةَ أَوْ تَسْعَى لِتُخْفِيهَا
وَٱلنَّاسُ إِذْ كَثُرَتْ شَتَّى مَطَامِعِهَا لَا ٱلأَنْبِيَاءُ وَلَا ٱلأَمْلَاكُ تُرْضِيهَا
فَكَيْفَ تَرْضَى عَلَى ٱلمَوْلَى أَبِي حَسَنٍ وَكَانَ مُكْبِتَ عَاصِيهَا وَعَاتِيهَا
كَمَا نَرَى ٱلحَارِثَ ٱلفِهْرِيَّ تُغْضِبُهُ وَصِيَّةُ ٱلمُصْطَفَى يَعْنِي لِيَنْفِيهَا
مَا حَدَّثُوهُ بِهَا حَتَّى ٱمْتَطَى عَجَلاً جَوَادَهُ وَسَعَى فِي ٱلأَرْضِ يَطْوِيهَا
وَإِذْ أَتَى طِيبَةً أَلْفَى ٱلرَّسُولَ بِهَا فِي ٱلمَسْجِدِ ٱلنَّبَوِيِّ ٱلنَّاسَ يُفْتِيهَا
فَجَاءَهُ غَاضِباً فِي زِيِّ مُشْتَبِهٍ وَسَائِلٍ عَنْ أُمُورٍ لَيْسَ يَدْرِيهَا
نَادَى: أَأَحْمَدُ قَدْ أَمَرْتَنَا فَأَطَعْـنَا خَمْسَةً مَا سَمِعْنَا قَبْلُ سَادِيهَا
هِيَ ٱلشَّهَادَةُ بِٱلتَّوْحِيدِ ثُمَّ بِأَنَّـكَ ٱلرَّسُولُ شَهِدْنَاهَا وَنَحْكِيهَا
وَأَنْ نُصَلِّيَ مِرَاراً خَمْسَةً وَلَنَحْـنُ ٱلْيَوْمَ كُلٌّ فَتًى مِنَّا يُصَلِّيهَا

العرب لايحبونه ليس لانه لم يكن اهلاً لحبهم على كمالاته المشهورة واخلاقه العالية بل لانه كان قاهرهم وواترهم في الحروب التي أثارها المصطفى لنصرة الاسلام عليهم فهؤلاء بطبيعة الحال عزّ عليهم ان يكون عليّ مولاهم كما ان رسول الله مولاهم . كما ان كثيرين منهم أبوا هذه السيادة لسيدنا عليّ حسداً من عندانفسهم والحسد آفة الانسان ومصدر كثير من الشرور التي نشاهدها في العالم . ومن الذين لم يرضوا بوصية المصطفى للمرتضى عليهما الصلاة والسلام رجل يدعى الحارث بن النعمان الفهري ولا نعلم ان كان هذا الرجل من اعداء امير المؤمنين لانه واتره وقاهر قومه او من حساده فركب جواده وأسرع بطلب المصطفى عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة ليتثبت الخبر من فمه الطاهر وعند مادخل المدينة المنورة قصد المسجد النبوي الشريف رأسا ودخل على المصطفى فوجده جالساً بين اصحابه فجثا بين يديه وقال « يامحمد انك امرتنا ان نشهد أنّ لااله الا الله وانك رسول الله فقبلنا ذلك منك . وانك امرتنا أن نصلي في اليوم والليلة خمس صلوات . ونصوم شهر رمضان ،

وأن نصوم وصمنا بالتقى رمضا   نا والزكاة وها إنا نزكيها

وأن نحج وها حجاً جنا قصدت   ربوع مكة من أقصى مثاوِنها

وقلت هذي شروط الدين فاتبعو   ها قولة كلنا قد بات واعيها

فما اكتفيت بذا بل جئتنا بوصيـة   مجددة بالأمس توصيها

فقد رفعت بضبعي ابن عمك رفـعة   وحقك لا جاه يوازيها

وقلت «من كنت مولاه العلي له   مولى» المقالة ذي قد أسمعونيها

فقل لنا جهرة هل ذي المقالة من   أوضاع نفسك أم باريك موحيها

فقال أحمد: بل من عند ربي ما   مني ألية حق رحت آليها

والله والله الإله ألقاها إلـي   مثلما كنت بين الناس ملقيها

والحارث اغتاظ من قول الرسول وولى   في خطى ليس يدري كيف يخطيها

وقال: إن تك حقاً يا إلهي قو   له الرسول وحقاً أنت باغيها

أرسل علينا جميعاً من سمائك أحـجاراً   وعذب نفوساً رمت تشقيها

وما أتم خزاه الله قولته   في باب مسجد طه وهو تاليها

إلا الحجارة من عالي السماء عليـه   الله سبحانه قد كان راميها

فمات حالاً وتلك الحق معجزة   بها أطاع رسول الله رائيها

وأيقنت أمة الهادي بأن عليـنا   لقد فاق كل الناس توجيها

أمير المؤمنين في مرض المصطفى ووفاته

عل الرسول فعل الدين واشتكت الـ   ـدنيا السقام التي قد راح شاكيها(1)

ونزكي اموالنا، ونحج البيت. فقبلنا ذلك منك. ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك علي ففضلته، وقلت من كنت مولاه فعلي مولاه. فهل كان هذا الشيء منك او من الله ؟؟» فحمرت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «والله الذي لا إله الا هو، انه من الله وليس مني» قال ذلك ثلاثاً. فغضب الحارث ونهض وهو يقول: «اللهم ان كان ما يقول محمد حقاً فارسل علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم» ووالله ما كاد يبلغ الحارث هذا باب المسجد حتى رماه الله بحجر من السماء فوقع على رأسه وخرج من دبره فمات وانزل الله قوله «سأل سائل بعذاب واقع للكافرين» الآية وصدق الله العظيم

(1) انتهينا هنا الى النقاط الخلافية في تاريخ صدر الاسلام وهي النقاط التي اقامت المسلمين

وَقَالَ: خُيِّرْتُ مَا بَيْنَ الْخُلُودِ بِذِي الدُّنْيَا وَخَيْرَاتِهَا مَعْ كُلِّ مَا فِيهَا
وَبَيْنَ جَنَّةِ رَبِّي إِذْ أَفُوزُ بِأَنْوَارِ الْمُهَيْمِنِ فِي سَامِي عَلَالِيهَا
فَاخْتَرْتُ جِيرَةَ رَبِّي عَنْ مُجَاوَرَةِ الدُّنْيَا وَجَنَّتُهُ الْخَضْرَاءُ أُثْوِيهَا
بِذَاكَ أَنْبَأَ عَنْ دَانِي مَنِيَّتِهِ وَإِنَّهُ لَمُلَبٍّ صَوْتَ دَاعِيهَا
وَعِنْدَمَا اسْتَحْكَمَتْ فِي الْجِسْمِ عِلَّتُهُ وَاسْتَفْحَلَتْ وَلَقَدْ أَعْيَتْ مُدَاوِيهَا

واتهدتهم في جميع ادوار تاريخهم الى يوم الناس هذا ولعلّ خلافهم عليها سيدوم الى يوم يبعثون .
وليس لمثلي ان يخوض هذه النقاط الخلافية التي تفاقم أمرها ويأمن الدثار ولا سيما بعد ان صار لها شبه شكل ديني ودخلت في عداد الاعتقادات الاسلامية وبسببها تشعبت مذاهب القوم ويستحيل عليّ ان ارضي قرّاء علويتي هذه وحواشيها الضافية الا اذا تساهلوا معي وترفقوا بي وتلطفوا بنظرهم اليّ كرجل أحبَّ امير المؤمنين واكبَّ على مطالعة كل ما يتعلق بشخصه الاقدس في التواريخ المختلفة وتحسنت نيته وخلصت طويته وصلحت هويته وانصرفت للخير رغبته ألا واني اقول اني فيما اكتبه في هذه الحاشية وما ساكتبه بعدها ليس هوى أو رأي خاص لي أرجح به رواية على أخرى بل عليّ ان انقل كلام المؤرخين واترك الحكم للقارئين فاقول :

بعد ان رجع المصطفى من حجة الوداع الى المدينة المنورة بشهرين اخذ يشتكي المرض وصار يحدث الناس عن قرب وفاته وقال انه خيّر بين الخلود ونعم الدنيا وبين الآخرة وجوار ربه فخار الآخرة وجوار ربه ولعمري ان النبيّ الامين الذي ارسله الله يهدي الناس الى التوحيد ويعلمهم مكارم الاخلاق ويعدّ لهم الخلود في جنان النعيم لحريٌّ بان يكون مؤثراً لنفسه الطاهرة نعيما احبه للناس من الخلود على هذه الدنيا وجميع مافيها

ولما اشتدّ المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته باثني عشر يوماً كان في بيت زوجه ميمونه فجمع نساءه في بيتها وطلب منهن ان يسمحن له بان يمرّض في بيت عائشة فسمحن وهكذا انتقل الى بيت عائشة وكان جسمه من الضعف بحالة يعجز معها عن المشي على قدميه فتوكأ على كتفي سيدنا علي وعمه العباس فأوصلاه الى بيت عائشة

ويوم الاربعاء السابق ليوم وفاته بستة ايام شعر عليه الصلاة والسلام بدنوّ أجله فطلب علياً اليه فاسرعت زوجه عائشة واستدعت أباها ابا بكر وكذلك فعلت زوجه حفصة فاستدعت اباها عمر فلما رأى الثلاثة بحضرته قال صلى الله عليه وسلم : « انصرفوا فان تكن لي حاجة ابعث اليكم » فانصرفوا وفي يوم الخميس اجتمع الاصحاب والانصار بحضرته فنادى عليه الصلاة والسلام في ذلك اليوم قال: « أئتوني باللوح والدواة اكتب لكم مالا تضلوا من بعدي » فتنازع الحاضرون بين من يريد تلبية طلبه ومن يعارض فيها وكان أول المعارضين عمر بن الخطاب فقال دعوا رسول الله انه يتألم وعندكم القرآن واذ رأى رسول الله النزاع قال « أخرجوا ولا ينبغي عند نبي ان يتنازع » فقالوا فيما بينهم: « ما شأنه أهجر ؟ استفهموه » فذهبوا يعيدون عليه فقال « دعوني فما انا فيه خير مما تدعوني اليه » ثم أوصى فقال: « اخرجوا المشركين من جزيرة العرب. واجيزوا الوفد بنحو ما كنت اجيزهم » وهاتان الروايتان منقولتان عن ابن عباس نقلها كل المؤرخين السنيين فضلاً عن مؤرخي الشيعة فهما ولا جدال صحيحتان فما كان يريد ان يقول المصطفى لسيدنا علي عند ما طلبه اليه ؟ ؟ ولماذا عند ما رأى ابا بكر وعمر معه داخلان

نَادَى ٱلرَّسُوْلُ عَلِيًّا كَيْ يُخَاطِبَهُ ... بِرَغْبَةٍ لَمْ يَكُنْ إِلَّاهُ يَدْرِيهَا
فَأَرْسَلَتْ لِأَبِيْ بَكْرٍ بُنَيَّتُهُ ... بِطَلْبَةِ ٱلْمُصْطَفَى فِي ٱلْحَالِ تُفْشِيهَا
وَأَرْسَلَتْ حَفْصَةٌ أَيْضًا إِلَى عُمَرٍ ... بِهَا وَتَطْلِبُ مِنْـهُ أَنْ يُوَافِيهَا
فَمَا رَأَى ٱلْمُصْطَفَى إِلَّا بِحَضْرَتِهِ ... مَعَ ٱلْعَلِيِّ صِحَابًا لَيْسَ دَاعِيهَا
فَقَالَ : مَا ٱلْآنَ يَاصَحْبِي أُرِيدُكُمُ ... وَلَيْسَ مِنْ حَاجَةٍ فِي ٱلْحَالِ أُسْدِيهَا
وَلَمْ يَبُحْ لَهُمُ عَمَّا لَهُ طَلَبَ ٱلْـعَلِيِّ بَلْ ظَلَّ رُغْبَاهُ مُخَبِّيهَا
وَفِيْ ٱلْخَمِيْسِ وَيَا يَوْمَ ٱلْخَمِيْسِ وَكَمْ ... مِنْ أَدْمُعٍ عِنْدَهُ قَدْ سَالَ هَامِيهَا
فِيهِ عَلَى ٱلْمُصْطَفَى ٱشْتَدَّتْ وَيَالَهَفِيْ ... ٱلْآمُهُ شِـدَّةً أَضْحَى يُعَانِيهَا
فَقَالَ يَانَاسُ هَاتُوا ٱللَّوْحَ وَٱطَّلِبُوْا ... لِيَ ٱلدَّوَاةَ بِهَـا فَلْيَأْتِ دَاوِيهَا

عليه صرفهم جميعاً ولم يفه ببنت شفة ؟ ؟ وفي حادثة الخميس تقول : ما الذي كان يريد ان يكتب المصطفى في اللوح الذي طلبه ؟ ولماذا تعرّض عمر لمنع ايصال اللوح والدواة اليه وهو يقول « ان رسول الله غلبه الوجع وعندكم القرآن » ولماذا ارتفعت اصوات الناس لمعارضة عمر حتى امر المصطفى بخروج النـاس من عنده ؟ ؟ وما هو غرض المصطفى؟ وما الذي كان يريد ان يسطره على اللوح لكي لا يضلّ الناس من بعده؟ ولماذا لم يرد عمر ما اراد رسول الله؟؟ والله اني لفي ارتياب من هذا

ثمّ انّ ابا بكر قد صلى في الناس من مساء الخميس الذي كان يذكره ابن عباس فيبكي وهو ذلك الخميس الذي لم يؤتَ في صباحه بلوح وقرطاس الى رسول الله ليسطر مايؤمن بعده امتـه الاختلاف الى صباح الاثنين الذي توفي فيه صلى الله عليه وسلم هذا اذا صحت رواية الذين قالوا ان ابا بكر صلى في الناس سبعة عشرة مرة . وصلاة أبي بكر في الناس قد حصلت فعلاً فهي حقيقية لاريب فيها. ولـكن موضع الخلاف هو في الذي أمر ابا بكر ان يؤمّ الجماعة في الصلاة فمن الناس من يقول ان المصطفى عليه الصلاة والسلام هو الذي أمره بذلك وعلى هذا القول أهل السنة ومنهم من يقول بل عائشة هي التي أصدرت الامر الى ابي بكر باقامـة الصلاة في الناس اما من عند نفسهـا مباشرةً أو بادلالها على رسول الله وعلى هذا القول أهل الشيعة . ويزيد بعضهم على ان المصطفى أمر أبا بكر باقامة الصلاة وعارضت في ذلك عائشة مقترحة ان يقيمها عمر وعللوا هذه المعارضة بخوف عائشة ان يتشاءم الناس من أبي بكر اذ يرونه يصلي بهم ونبيهم يحتضر . وهذا قرأته في كتب أهل السنة . ويجوز لمتطفل ضعيف الفكر قليل العلم ان يتساءل اولاً لماذا كان رسول الله بالرغم عما في جسمه الشريف من الضعف والعياء يتحامل للخروج الى المسجد وابو بكر يصلي في الناس بامره ؟ أكان راغباً عليه الصلاة والسلام بامامة الجماعة بعد ان اوجد من ينوب عنه فيها ؟ اولغرض آخر ؟ مع انه على ما في كتب السنة ايضاً بينما كان مرةً يجرّ نفسه للخروج الى المسجد اغمي عليه ثلاثة مرات. ثانياً اذا كانت انابة المصطفى لابي بكر بامامة المسلمين عنه في الصلاة دليلاً على استخلافه لولاية المسلمين من بعده لماذا عارضت بها عائشة ؟ . ثالثاً ألا يصحّ لابله مثلي ان يخطر له ان ما خطر لعائشة من تشاؤم المسلمين

كَيْمَا أُسَطِّرُ يَا أَهْلَ ٱلْوَلَا لَكُمُ ... مَا تَأْمَنُونَ بِهِ مِنْ بَعْدِيَ ٱلْتِّيْهَا

فَعَارَضَ ٱلْمُصْطَفَى فِيْ سُؤْلِهِ عُمَرٌ ... جَهْراً وَرَغْبَتُهُ مَا شَاءَ يُمْضِيْهَا

وَقَالَ: إِنَّ رَسُوْلَ ٱللهِ تَغْلِبُهُ ... ٱلْآلَامُ لَا تَكُوْنُوْا مُسْتَزِيْدِيْهَا

وَعِنْدَكُمْ لِلْهُدَى ٱلْقُرْآنُ فَٱتَّبِعُوْا ... آيَاتِهِ لَا يَضِلُّ ٱلرَّأْيَ وَاعِيْهَا

وَبَعْدَ ذَا ٱرْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ صَحْبِ رَسُوْ ... لِ ٱللهِ حَتَّى دَوَى فِيْ ٱلدَّارِ دَاوِيْهَا

فَقَالَ أَحْمَدُ: مَا جَازَ ٱلْنِّزَاعُ أَمَا ... مَ ٱلْأَنْبِيَا تُقْيَةً ذُوْ ٱلدِّيْنِ يَتَّقِيْهَا

هِيَّ ٱخْرُجُوْا وَدَعُوْنِيْ هَانِئاً بِفِرَا ... شِيْ فِيْ صَفَا خَلْوَةٍ أَصْبَحْتُ رَاجِيْهَا

وَقَالَتِ ٱلنَّاسُ: مَا لِلْمُصْطَفَى هَجَرَ ٱلْأَ ... صْحَابَ مَا عَادَ يَرْضَى أَنْ يُوَصِّيْهَا

وَأَسْرَعَتْ نَحْوَهُ فِيْ ٱلْحَالِ تَسْأَلُهُ ... عَنْ رَغْبَةٍ صَدْرُهُ قَدْ كَانَ يُخْفِيْهَا

من أبي بكر اذا أمّ الناس في الصلاة ورسول الله يحتضر قد خطر مثله على بال المصطفى لو اناط هذه المهمة بعليّ بن أبي طالب عليهما الصلاة والسلام فاشفق على علي كما اشفقت عائشة على أبيها ان يتشاءم الناس منه لو أمهم ورسول الله يحتضر؟؟ رابعاً هل هذه الانابة التي اختص بها أبو بكر اكبر قيمة من وصاية المصطفى للمرتضى في « غدير خمّ » ؟ واعود فاقول ان رجلاً قليل العلم ضعيف النظر مستفسراً مستفتياً غير جازم ولا مرجّح رأياً او قاطع حكماً او على حدّ قول الشاعر

وكم من منكرٍ قولاً صحيحاً ... وآفته من الفكر السقيم

نعم ان رجلاً هذا حاله مثلي لاخلق بالقاري الكريم ان يرحب صدره بالاغضاء عما اشتبه عليه من هذه الروايات وان تطلب له الهداية من الهادي القدير لا ان تتوجه عليه خصومة المخاصمين وعدل العاذلين ومن اقرّ بجهله حرم عذله وحقّ على المنصفين عذره على اني لا اجهل بانني عرّضت نفسي للوم فلا استهدف له طالما الناس على اختلاف وانا لا استطيع على ضعفي وجهلي ان اوفق بينهم

ثمّ ان المصطفى صلى الله عليه وسلم أصبح صباح الاثنين وهو أحسن حالاً واوفر صحة فاطمئنّ عليه اصحابه حتى انّ أبا بكر جاءه واستأذنه بالمسير الى بيته بالسنح وهي احدى ضواحي المدينة وتبعد عنها نحو نصف فرسخ ولعل بقية اصحابه فعلوا فعله عدا سيدنا علي الذي ماترك خدمة المصطفى وتمريضه عليهما الصلاة والسلام الى ان ذهبت نفسه لخالقها مارة بين صدره ونحره . وفي ضحى ذلك اليوم عاودته العلة فاشتدّت وتمت ارادة الله باختيار رسوله الى جواره فمات صلى الله عليه وسلم على صدر المرتضى راضياً مرضياً واسرع امير المؤمنين ومعه اعيان بني هاشم الى الاهتمام بتجهيزه واقبلت الصحابة فغصّ المسجد النبوي بهم واشهر عمر سيفه وجعل يتهدد ويتوعد كل من يقول ان رسول الله قد مات الى ان جاءه أبو بكر فخطب في الناس فقال « ايها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات » وتلا آية « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات اوقتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً . وسيجزي الله الشاكرين » فرجع عمر بقول ابي بكر هذا الى رشده وقال « فكأنّي لم اسمع بهذه الآية في كتاب الله تعالى قبل الآن

فَقَالَ: مَا أُضِعْتُ فِيهِ ٱلْآنَ أَفْضَلُ مِنْ ... مَسَائِلٍ جِئْتُمُونِي تَسْأَلُونِيهَا

وَفِي أَوَاخِرِ أَيَّامِ ٱلرَّسُولِ أَبُو ... بَكْرٍ إِمَامَةُ طَـهَ كَانَ رَاعِيهَا

بِأَمْرِ عَائِشَةٍ أَوْ أَمْرِهِ ٱخْتَلَفَتْ ... فِي ذَا ٱلْجَمَاعَةُ سُنِّيُّهَا وَشِيعِيُّهَا

لَكِنْ رَأَيْنَا رَسُولَ ٱللهِ يَحْمِلُ نَفْـ ... ـسَهُ ٱلَّتِي كَادَتِ ٱلْأَمْرَاضُ تُوهِيهَا

إِلَى ٱلصَّلَاةِ فَهَلْ قَدْ كَانَ يَرْغَبُ أَنْ ... يَلِيَ ٱلْإِمَامَةَ أَمْ يَبْغِي تَوَلِّيهَا

وَهَلْ صَلَاةُ أَبِي بَكْرٍ تُشِيرُ إِلَى ... أَنَّ ٱلرَّسُولَ مُوَلِّيهِ أَهَالِيهَا

ذَا لَسْتُ أَدْرِكُهُ إِنَّ ٱلْحَقِيقَةَ فِيـ ... ـهِ فَوْقَ تَقْدِيرِ عَقْلِي لَسْتُ أَدْرِيهَا

وَإِنَّنِي عَارِفٌ جَهْلِي وَمُعْتَرِفٌ ... بِهِ فَلَا أَدَّعِي بِٱلْعِلْمِ تَمْوِيهَا

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعَيْنُ نُورَ ٱلشَّمْسِ عَنْ رَمَدٍ ... وَنُورُهَا ٱلْمُبْهِجُ ٱلْأَكْوَانَ يُؤْذِيهَا

لما نزل بنا فانا لله وانا اليه راجعون وصلوات الله وسلامه على رسوله وعند الله نحتسب رسوله » فلما رأى ابو بكر ان ذكر تلك الآية خففت من حزع عمر والمسلمين استتلى خطابه فقال « قال الله تعالى لمحمد : انك ميت وانهم ميتون. وقال تعالى : كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون . وقال سبحانه : كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربك ذي الجلال والاكرام. وقال عزّ وجل : كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيامة » فكانت تلاوة هذه الآيات الشريفة معزية للناس عن خطيبهم بنبيهم عليه الصلاة والسلام وبينما كان الناس في المسجد وهذا حالهم كان علي والعباس وبقية الهواشم حول المصطفى وهو مسجى على سرير الموت وهم يقومون بالواجبات الاخيرة نحوه

وكانت وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين من شهر ربيع الاول سنة ١١ هجرية واختلف الناس في تعيين اي الاثانين كان ؟؟ فقيل لليلتين خلتا من الشهر وقيل لاثنتي عشرة خلت من الشهر . وقيل لثلاث عشرة منه ويكون يوم ١٣ ربيع اول من سنة ١١ هجرية حسب رأي هؤلاء موافقاً ليوم ٨ يونيو سنة ٦٣٢ مسيحية. وكنا ذكرنا ان ولادته عليه الصلاة والسلام كانت في يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الاول لاول عام من حادثة الفيل ولاربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان الموافق ليوم العشرين من افريل سنة ٥٧١ مسيحية وعلى ذلك فيكون عمره السعيد صلى الله عليه وسلم ٦١ سنة شمسية الا تسعة واربعين يوماً والله اعلم؟

اما غسل المصطفى وتكفينه ودفنه فقد كان بمباشرة سيدنا علي امير المؤمنين وتحت اشرافه فهو الذي غسله وهو الذي كفنه وهو الذي انزله في حفرته واكثر الرواة قالوا بأحاديث شتى ثابتة بان المصطفى كان أوصى علياً بذلك ومما يؤيد صحة هذه الاحاديث ماعرفناه من تعلق المصطفى بالمرتضى في حياته وما سمعناه من فمه الشريف عنه فلا عجب اذا اناط به تولي أمره في مماته لعلمه انه لاياتي امراً الا وللشرع فيه رضى وبالاجمال ان المرتضى كان كل شيء في ذلك اليوم

توفي المصطفى صلى الله عليه وسلم ضحى يوم الاثنين وقد زاغت الشمس وحفرت حفرته الشريفة في الموضع الذي توفي فيه في بيته الملاصق للمسجد النبوي الذي اختصه بسكنى زوجه عائشة

وَقَدْ يَكُونُ ٱلَّذِي تَلْقَاهُ ذَا بَصَرٍ ... أَعْمَى ٱلْبَصِيرَةِ وَٱلتَّضْلِيلُ مُعْمِينَهَا
وَلَا يُكَلِّفُ نَفْساً فَوْقَ طَاقَتِهَا ... إِلَّا ٱلَّذِي رَامَ بِٱلْإِعْنَاتِ يُعْنِينَهَا
وَصَحَّ أَحْمَدُ فِي ٱلْإِثْنَيْنِ وَٱنْصَرَفَتْ ... أَصْحَابُهُ وَأَوَتْ صَفْواً مَآوِيهَا
إِلَّا ٱلْعَلِيُّ فَلَمْ يَتْرُكْ مُلَازَمَةَ ٱلْـ ... ـهَادِي وَصُحْبَتُهُ مَا كَانَ مُخْلِينَهَا
فَكَانَ فِي قُرْبِهِ بِرّاً يُمَرِّضُهُ ... بِنَفْسِهِ وَمُنَاهُ كَانَ يُجْرِينَهَا
وَفِي ٱلضُّحَى ٱشْتَدَّ دَاءُ ٱلْمُصْطَفَى وَبِنَفْـ ... ـسِهِ مَضَى لِجِنَانِ ٱلْخُلْدِ يُثْوِينَهَا
فَأَعْوَلَتْ جَزَعاً نِسْوَانُهُ وَبَنَا ... تُهُ وَمَا كَانَ أَشْجَى مِنْ تَدَاعِيهَا
وَصَاحَ فِي ٱلنَّاسِ نَاعِيهِ وَرَدَّدَتِ ٱلْـ ... ـصِّيَاحَ وَٱلدَّمْعُ يَهْمِي مِنْ مَآقِيهَا
فِي ٱلْأَرْضِ فَاجِعَةٌ ذَاعَتْ مَنَاعِيهَا ... وَفِي ٱلسَّمَا فَرْحَةٌ شَاعَتْ تَهَانِيهَا

وبعد ان غسله المرتضى بمعاونة عمه العباس ونفر ممن طلبوا شرف هذه المعاونة وكفنه بثلاثة اكفان اسجاه على فراشه بجوار حفرته ووقف بجانبه عليهما الصلاة والسلام وقال يرثيه : ·

« بابي أنت وامي . يارسول الله . لقد انقطع بموتك مالم ينقطع بموت غيرك من النبوة . الانباء، واخبار السماء . وخصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك . وعممت حتى صار الناس فيك سواء ولولا انك أمرت بالصبر . ونهيت عن الجزع . لانفدنا عليك ماء الشؤون . ولكان الداء مماطلاً والكمد محالفاً . وقلاً لك . ولكنه ما لايملك رده. ولا يستطاع دفعه . بابي أنت وامي أذكرنا عند ربك . واجعلنا من بالك » آه

وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى على فراشه بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء وبياض يوم الثلاثاء وفي يوم الثلاثاء هذا جاء ابو بكر وعمر والمهاجرون والانصار وبقية المسلمين رجالاً ونساءً واولاداً لزيارة المصطفى وتوديعه فكان يدخل الفوج منهم بعد الفوج على قدر ماتسع الحجرة النبوية فيجدون المرتضى عند رأسه والحسن والحسين عند رجليه وعمه العباس ونفر من بني عبد المطلب حوله . وعند ما دخلوا على المصطفى لم يكن امامٌ يؤمهم فكبر كلٌّ منهم اربع تكبيرات ارسالاً ثم قال ابو بكر وعمر: السلام عليك يارسول الله . ثم قالا : اللهمَّ نشهد انه قد بلّغ ما انزل اليه . ونصح لامته . وجاهد في سبيل الله . حتى اعزَّ الله دينه . وتمت كلمه . فجعلنا الهنا ممن تبع القول الذي انزل معه . واجمع بيننا وبينه حتى تعرّفه بنا وتعرّفنا به . فانه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً . لا نبتغي بالايمان به بدلاً . ولا نشتري به ثمناً ابداً » فامّن الناس على ما قالا

وفي ليلة الاربعاء ألحد رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره ونزل معه في قبره علي بن أبي طالب والفضل بن عباس وقثم اخوه وشقران مولاهم وكان ثمَّ حاضراً اوس بن خولي فسأل علياً ان يسمح له بالنزول معه فسمح وهناك ودعوا خير الخلق الوداع الاخير ثم خرجوا فهالوا عليه التراب

بقي لنا ان نسأل لماذا ابقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى على فراشه هذه المدة الطويلة اي بين ضحى الاثنين وليلة الاربعاء ؟ أكان ذلك كاحتجاج من المرتضى الذي كان صاحب

مُحَمَّدٌ مَاتَ وَالأَمْلاكُ قَدْ بَهِجَتْ بِرُوحِهِ مُذْ ثَوَتْ فِي قُرْبِ مُبْدِيهَا
وَثَابَ لِلَّهِ مَحْمُودَ الفِعَالِ وَقَدْ أَدَّى الرِّسَالَةَ فَاسْتَوْفَتْ تَأَدِّيهَا
وَأَكْمَلَ الدِّينَ حَتَّى لا انْتِقَاصَ بِأَحْكَامٍ لَهُ كَانَ بِالأَحْكَامِ مُنْشِيهَا
وَرَاحَ مِنْ حَوْلِ رَبِّ العَرْشِ خَيْرَ شَفِيعٍ لِلأُلَى حَفِظُوا سَامِي مَبَادِيهَا
وَمَنْ أَطَاعُوا وَلَمْ يَعْصُوا أَوَامِرَهَا وَمَا تَعَدَّوْا بِتَقْوَاهُمْ نَوَاهِيهَا
وَقَابَلَ المُرْتَضَى وَقْعَ القَضَا بِشُجُونٍ لَيْسَ يُدْرِكُهَا إِلاَّ مُعَانِيهَا
وَقَالَ وَالحُزْنُ قَدْ أَمْسَى مُسَاوِرَهُ وَنَفْسُهُ لا تَرَى شَيْئاً يُعَزِّيهَا
بِوَالِدِيَّ رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ وَبِالنَّفْسِ الَّتِي عَنْكَ لا سَلْوَى تُسَلِّيهَا
بِمَوْتِكَ انْقَطَعَتْ عَنَّا النُّبُوَّةُ وَالأَنْبَاءُ ظَاهِرُهَا الزَّاهِي وَخَافِيهَا

الكلمة العليا في الغسل والتجهيز على اصحاب رسول الله وانصاره الذين اشتغلوا عن وفاة المصطفى بامر الخلافة كما يقول بعضهم ؟ ام كان نظراً بعيداً من سيدنا امير المؤمنين عليه وعلى المصطفى وآلهما الصلاة والسلام فأراد أن لا يعجل بدفن المصطفى في غيبة اصحابه وانصاره حتى لا تكون هنالك فتنة فينقم المسلمون على الذين شغلتهم انفسهم عن واجب وداع المصطفى كما يرى آخرون ؟ ان الجواب على هذا ليس من الامور السهلة لتشعب الرواة والاخبار والذي نعرفه هو ان المهاجرين والانصار « عدا الهواشم » عند ما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة للمداولة بامر الخلافة على اثر وفاة المصطفى جاء العباس بن عبد المطلب وابو سفيان بن حرب وغيرهما من رجالات قريش الى علي وهو يعتني بتجهيز المصطفى عليهما الصلاة والسلام وعرضوا عليه أن يبايعوه فوجه علي اليهم نظرة من يقول أنحن في موقف بيعة أم في مأتم اعظم خلق الله وكعادته من حضور ذهنه وتجلده على ملم الخطوب الجسام قال ارتجالاً :

« ايها الناس : شقوا امواج الفتن بسفن النجاة ، وعرجوا عن طريق المنافرة ، وضعوا تيجان المفاخرة ، أفلح من نهض بجناح ، او استسلم فاراح ، هذا ماء آجن ، ولقمة يغص بها آكلها ، ومجتني الثمرة لغير وقت اينـاعها ، كالزارع بغير أرضه ، فإن أقل يقولوا احرص على الملك ، وان أسكت يقولوا جزع من الموت ، هيهات بعد اللتيا والتي ، والله لابن ابي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي امه ، بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الارشية في الطوى البعيدة » اهـ

والناظر الى ماوراء هذه الكلمات العلوية يعلم ان علياً عليه صلوات الله فوق الموضع الذي وضعه فيه أصحابه عند ما عرضوا عليه البيعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى على فراش الموت فما عليٌّ بالذي يرهب الموت ، ولا بالذي يحرص على الملك ، ولا بالذي يجني الثمرة قبل وقت ابناعها ، وفوق ذلك فقد كان يعلم اشياء لو علمها اصحابه ومريدوه لاضطربوا ولعل هذه الاشياء هي التي حملته على السكوت عما فعل اصحاب السقيفة وعلى ابقاء رسول الله بغير دفن حتى يفرغ اصحاب السقيفة من مهمتهم ويأتونه للقيام باقدس واجب وهو دفن المصطفى عليه الصلاة والسلام والله سبحانه اعلم

فَلَا تُرَدَّدُ أَخْبَارُ ٱلسَّمَاءِ وَلَا نَفُوزُ بَعْدُ بِهَا إِذْ غَابَ رَاوِيهَا
خُصِّصْتَ حَتَّى غَدَتْ تَاللهِ أَنْفُسُنَا مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ مَا ٱلْأَرْزَاءُ تُؤْذِيهَا
وَقَدْ عَمَمْتَ فَكُلُّ ٱلنَّاسِ مُكْرَبَةٌ حُزْنًا عَلَيْكَ يُزِيدُ ٱلْكَرْبَ بَاكِيهَا
وَٱللهِ لَوْلَمْ تَكُنْ بِٱلصَّبْرِ آمِرَنَا وَوَقْفَةُ ٱلْجَزَعِ ٱلْمُؤْذِيِّ نَاهِيهَا
لَاسْتَنْفَدَتْ دَمْعَهَا ٱلْمَذْخُورَ أَعْيُنُنَا عَلَيْكَ حَتَّى يُرَوِّي ٱلْأَرْضَ هَامِيهَا
وَٱلدَّاءُ مَاطَلَنَا وَٱلْغَمُّ حَالَفَنَا وَمَا لِعِيشَتِنَا بِشْرٌ يُمَاشِيهَا
وَإِنَّ لَوْعَتَنَا قِلًّا عَلَيْكَ وَهَا نُفُوسُنَا بَلَغَتْ فِيهَا تَلَاشِيهَا
لَـٰكِنْ إِرَادَةُ رَبِّي لَيْسَ يُمْلَكُ رَدُّ م هَا وَطُوبَى لِمَنْ كَانُوا مُطِيعِيهَا
لَا يُسْتَطَاعُ لَهَا دَفْعٌ إِذَا نَفَذَتْ وَلَيْسَ فِي ٱلنَّاسِ طُرًّا مَنْ يُقَاوِيهَا

وعلينا ونحن مشتغلون بمصاب الاسلام الاكبر بالنبي الامين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ان نرجع الى شخصه الاقدس فنذكر من احواله وشخصيته وما تمَّ على عهده اجمالاً مايكون فيه الاتمام لمباحث كتابنا هذا الذي احببنا ان نجمل فيه تاريخ صدر الاسلام فنقول :

« نسب رسول الله »

تقدَّم معنا في حاشيةٍ سابقةٍ ذكر النسب النبوي الشريف في كلامنا على قريش فلا نعيد هنا ذكر شرف هذه النبعة الطاهرة التي ابتدأت من اسماعيل بن ابراهيم حتى انتهت الى المصطفى عليه الصلاة والسلام ويكون النسب النبوي الشريف هكذا: محمد . بن عبدالله . بن عبد المطلب . بن هاشم ابن عبد مناف . بن قصي . بن كلاب . بن مرة . بن كعب . بن لؤي . بن غالب . بن فهر . ابن مالك . بن النضر . بن كنانة . بن خزيمة . بن مدركة . بن الياس . بن مضر . بن نزار ابن معد . بن عدنان . هذا هو المجمع عليه في نسب المصطفى عليه الصلاة والسلام كما ان لاجدال ولا خلاف في انتهاء نسب عدنان الى اسماعيل بن ابراهيم وان تعذَّر على علماء الانساب حفظ النسب بين عدنان واسماعيل وغاية ماقالوا انَّ اسماعيل هو الجدُّ الحادي والثلاثون للمصطفى عليهما الصلاة والسلام وما من ريبةٍ في ذلك ولا نزاع

« ازواج المصطفى »

واما ازواج المصطفى فاولاهنَّ سيدتنا خديجة ولم يتزوج صلى الله عليه وسلم في حياتها عليها وقد ذكرنا خلاصة ترجمتها الزاهرة فيما مضى

وسوده بنت زمعه . وهي من بني النجار لانها بنت أخي سلمى بنت عمرو بن زيد ام عبد المطلب وكانت قبله عند السكران ابن عمها وهاجر بها الى أرض الحبشة في الهجرة الثانية ثم رجع بها الى مكة فمات عنها وهي اول ازواجه صلى الله عليه وسلم بعد سيدتنا خديجة وكان عقده عليها في رمضان الشهر الذي ماتت فيه سيدتنا خديجة

وعائشة بنت أبي بكر . وسوف نأتي على ترجمتها تفصيلاً في حاشية تجيء

فِدَى حَيَاتِكَ أُمِّي سَيِّدِي وَأَبِي ... وَمُهْجَتِي وَنَوَاكَ الْيَوْمَ مُدْمِيهَا
وَعِنْدَ رَبِّكَ فَاذْكُرْنَا وَأُمَّتَنَا ... حَاشَاكَ لَسْتَ بِنَاسِينَا وَنَاسِيهَا
وَبَيْنَمَا الْمُرْتَضَى يَرْثِي الرَّسُولَ وَيَبْـ ... ـكِيهِ وَلَوْعَتُهُ مَا الدَّمْعُ يُطْفِيهَا
كَانَتْ تَغَصُّ رِحَابُ الْمَسْجِدِ النَّبَوِ ... يِّ بِالْحَزَانَى وَهَوْلُ الْخَطْبِ غَاشِيهَا
كَانَتْ مُبَلْبَلَةَ الْأَفْكَارِ تَيَّهَهَا ... مَنْعَى الْمُفَدَّى رَسُولِ اللَّهِ تَنْبِيهَا
وَجَاءَهَا عُمَرٌ وَالسَّيْفُ فِي يَدِهِ ... يُكَذِّبُ النَّاسَ فِي مُشْجِي مَسَاعِيهَا
يَقُولُ: مَا مَاتَ طَهَ إِنَّ مَوْتَتَهُ ... أَهْلُ النِّفَاقِ لِضَرِّ الدِّينِ تَبْغِيهَا
تَاللَّهِ هَامَ الْأُلَى تَنْعِي مُحَمَّدَنَا ... تَقُولُ مَاتَ نَبِيُّ اللَّهِ أَفْرِيهَا
مَا مَاتَ أَحْمَدُ كَلَّا لَا يَمُوتُ وَلَنْ ... يَمُوتَ شَوَّهْتُمُ الْإِسْلَامَ تَشْوِيهَا

وحفصة بنت عمر بن الخطاب. وهي شقيقة عبد الله بن عمر واسنّ منه وامها زينب اخت عثمان بن مظعون وكانت قبل المصطفى تحت خنيس بن حذافة فتوفي عنها جريحاً بغزوة بدر الكبرى. تزوجها المصطفى على رأس ثلاثين شهراً للهجرة وكانت ولادتها قبل النبوّة بخمس سنوات وماتت في المدينة المنورة في شعبان سنة ٤٥ للهجرة ولها من العمر ٦٣ سنة ودفنت في البقيع وطلقها المصطفى ثم استرجعها بامر جبريل عليهما الصلاة والسلام في حديث طويل ليس هنا محله .

وزينب بنت خزيمة. وهي اخت ميمونة مربية المصطفى لامها وكانت تدعى في الجاهلية ام المساكين لرأفتها واحسانها اليهم وكانت قبل المصطفى تحت الطفيل بن الحارث فقتل يوم بدر شهيداً فتزوجها عليه الصلاة والسلام على رأس احد وثلاثين شهراً للهجرة وتوفيت زينب بعد زواجها بثمانية اشهر ودفنت في البقيع عن ثلاثين عاماً ولم يمت من ازواجه في حياته صلى الله عليه وسلم الا زينب هذه وسيدتنا خديجة وريحانة .

وام سلمة . واسمها هند وكانت قبل زواجها بالمصطفى عند ابي سلمة عبد الله بن عبد الاسد وابو سلمة هذا هو ابن عمة المصطفى المساة برّة بنت عبد المطلب وهو ايضاً اخو المصطفى بالرضاعة وكان ابو سلمة وزوجه ام سلمة اول من هاجرا الى الحبشة ولما مات ابو سلمة تزوجها المصطفى وكفل بناتها الاربع وماتت على عهد يزيد بن معاوية وكان عمرها ٨٤ سنة في المدينة ودفنت في البقيع

وزينب بنت جحش . وكان اسمها برّة فسماها زينب وكانت قبل المصطفى عند زيد بن حارثة ثم طلقها فلما انقضت عدتها تزوجها عليه الصلاة والسلام ولزواجها هذا حديث طويل نزلت فيه آية من السماء وتوفيت سنة ٢٠ للهجرة في المدينة المنورة ودفنت في البقيع ولها من العمر ٥٣ سنة

وجويرية .وهي من بني المصطلق سبيت في غزوتهم ووقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها على تسع اواق فأدى المصطفى عنها ذلك وتزوجها وكان اسمها برّة فسماها المصطفى جويرية تصغير جارية لما اشرنا من حديث سبيها وعتقها وكانت عند زواجها في العشرين من عمرها وتوفيت في المدينة المنورة سنة ٥٦ هـ ولها من العمر ٧٠ سنة ودفنت في البقيع

بِمِثْلِ ذَا عُمَرٌ قَدْ كَانَ مُطَّلِباً ... لِمَنْ نَعَى خَيْرَ خَلْقِ ٱللهِ تَسْفِيهَا
وَبَيْنَمَا كَانَ فِي بَادِيْ تَضَعْضُعِهِ ... وَرَوْعَةُ ٱلْخَطْبِ نَالَتْهُ بِأَيْدِيهَا
وَإِذْ بَدَا بَيْنَ هَاتِيكَ ٱلْجُمُوعِ أَبُو ... بَكْرٍ وَصَاحَ بِهِ : يَاصَاحِبِي إِيهَا
مَا ٱلْمُصْطَفَى مَا أَعَزَّ ٱللهُ سُؤْدُدَهُ ... بَيْنَ ٱلْخَلَائِقِ إِلَّا مِنْ أَنَاسِيهَا
وَإِنَّهُ لَرَسُولٌ قَبْلَهُ رُسُلٌ ... خَلَتْ وَلَيْسَ بِبَاقٍ غَيْرُ ذَارِيهَا
مَنْ كَانَ يَعْبُدُهُ خَابَتْ عِبَادَتُهُ ... وَإِنَّ عُبَّادَهُ سَاءَتْ مَسَاعِيهَا
أَمَّا ٱلأُلَى عَبَدُوا ٱللهَ ٱلْكَرِيمَ فَهُمْ ... عَلَى هُدًى لَمْ يَضِلُّوا عَنْ مَرَامِيهَا
فَقُلْ لِمَنْ جَزِعُوا مِنْ مَوْتِ أَحْمَدَ قَدْ ... ضَلَلْتُمُ سُبُلاً قَدْ كَانَ هَادِيَهَا
وَنَحْنُ مُحْتَسِبُوهُ عِنْدَ خَالِقِهِ ... وَقَدْ تَبَوَّأَ فِي ٱلْجَنَّاتِ عَالِيهَا

وريحانة بنت يزيد. وهي من بني النضير وقيل من بني قريظة وكانت قبل المصطفى عند رجل من بني قريظة يقال له الحكم ووقعت في سبي بني قريظة فكانت صفي رسول الله فخيرها بين الاسلام ودينها وهو اليهودية فاختارت الاسلام فاعتقها وزوجها . وطلقها المصطفى ثم راجعها وماتت مرجعه في حجة الوداع في المدينة المنورة ودفنت في البقيع

وهنالك ازواج اخرى خطبهن عليه الصلاة والسلام أو عقد عليهن ثم فارقهن او طلقهن ولم يدخل عليهن لا فائدة من الاسهاب باسمائهن

واما سراري المصطفى فقد كن اربعاً وهن ماريا القبطية اهداها له المقوقس وهي ام ولده ابراهيم وجارية وهبتها له زينب بنت جحش وزليخة القرظية وريحانة

« اولاد المصطفى »

ولم تلد له من نسائه صلى الله عليه وسلم غير سيدتنا خديجة وقد تقدم معنا ذكر اولاده منها وولدت له سريته ماريا القبطية ولداً ذكراً في ذي الحجة من السنة الثامنة للهجرة وعق عنه بكبشين في اليوم السابع لمولده وحلق رأس الغلام وتصدق بزنة شعره فضة ودعاه ابراهيم ودفعه لام بردة خولة بنت المنذر بن زيد الانصاري زوجة البراء بن أوس لترضعه وتربيه على انه لم يعش فمات في سنة عشر وله من العمر سنة وعشرة اشهر ولما احتضر جاء المصطفى صلى الله عليه وسلم فوجده في حضن امه يحتضر فأخذه الى حجره وقال « يا ابراهيم انا لن نغني عنك من الله شيئاً » ثم ذرفت عيناه الشريفتان بالدموع وقال « انا بك يا ابراهيم لمحزونون. تبكي العين. ويحزن القلب. ولا نقول ما يسخط الرب. ولولا انه وعد صادق. وموعود جامع. فان الآخر منا يتبع الاول. وجدنا عليك يا ابراهيم وجداً شديداً ما وجدناه » ولما نزل الموت بابراهيم اخذ المصطفى يبكي فقال عبد الرحمن ابن عوف : او لم تكن نهيت عن البكاء ؟ قل صلى الله عليه وسلم « لا ولكني نهيت عن صوتين احمقين وصوتين آخرين صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان. وصوت عند نغمة لهو. وهذه رحمة مني لابراهيم » بذلك عرف المسلمون كيف يستقبلون مصائبهم بالصبر وبدون

عَلَيْهِ أَعْطَرُ تَسْلِيمَاتِ مُرْسِلِهِ | عَلَيْهِ مِنْ صَلَوَاتِ ٱللهِ ذَاكِيهَا
وَرَاحَ يَسْرِدُ آيَات تُشِيرُ إِلَى | وَفَاةِ طـٰـهَ وَيَسْتَقْصِي مَعَانِيهَا
نَادَى لَهَا عُمَرٌ : مَا كُنْتُ ذَاكِرُهَا | كَأَنَّنِي قَبْلُ لَمْ أَسْمَعْ مَثَانِيهَا
وَخَطْبُ أَحْمَدَ مَا أَنْسَى أَبَا حَسَنٍ | فُرُوضَهُ فَٱنْثَنَى بِٱلْحَزْمِ يَقْضِيهَا
فَهْوَ ٱلَّذِي غَسَلَ ٱلْهَادِي وَكَفَّنَهُ | وَصِيَّةٌ كَانَ قَبْلاً مِنْهُ أُوصِيهَا
وَبَيْنَمَا ٱلْمُرْتَضَى فِي ذَاكَ مُشْتَغِلٌ | وَنَفْسُهُ بَلَغَتْ حُزْناً تَرَاقِيهَا
وَلَا يَرَى وَرَسُولُ ٱللهِ مُنْبَسِطٌ | عَلَى ٱلثَّرَى غَيْرَ أَشْجَانٍ يُقَاسِيهَا
إِذَا بِصَخْرٍ مَعَ ٱلْعَبَّاسِ مَعْ نَفَرٍ | مِنْ خِيرَةِ ٱلْعُرْبِ مَكِّيهَا وَطِيبِيهَا
وَافَتْ إِلَيْهِ بِأَنْبَاءِ ٱلسَّقِيفَةِ تُنْـبِيهِ | بِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ مَكِينِيهَا
نَادَتْهُ : أَسْرِعْ تَقَبَّلْ صَاحِ بَيْعَتَنَا | فَإِنَّنَا بِٱلرِّضَى بِتْنَا مُبِيعِيهَا
فَٱسْتَغْرَبَ ٱلْمُرْتَضَى ٱلْأَنْبَاءَ أَنْكَرَهَا | وَإِنْ يَكُنْ وَاثِقاً مِنْ صِدْقِ مُنْبِيهَا

جزع . ودفن ابراهيم في البقيع عليه وعلى المصطفى الصلاة والسلام

«كتاب المصطفى»

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم امياً لايقرأ ولا يكتب وكان يستخدم لكتابته كثيرين في مقدمتهم سيدنا علي امير المؤمنين ومنهم ابو بكر وعمر وعثمان وعامر بن فهيرة وعبد الله بن الارقم وكان هذا يكتب الرسائل للملوك وكان في اغلب الاوقات يكتب الوحي وكثير غير هؤلاء وبعد فتح مكة كرمها الله عند ما اسلمت قريش صار من كتابه ابو سفيان وولداه يزيد ومعاوية

« شعراء المصطفى »

ولقد أيد المصطفى سنة ملوك العرب وامرائهم في اجازة الشعراء والعناية بهم واكرام منزلتهم ومن الشعراء الذين تشرفوا بالالياذ بحضرته النبوية وكانوا يمدحونه ويناضلون عنه بشعرهم ويهجون كفار قريش حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم

« اشهر الحوادث التي تمت في حياة المصطفى »

ولد المصطفى عليه الصلاة والسلام في عام الفيل في مكة المكرمة وفي السنة الثالثة لمولده الشريف شُقَّ صدره الطاهر عند ظئره حليمة . وفي السنة الرابعة لولادته المباركة ولد ابو بكر بن ابي قحافة . وفي السنة السادسة كانت وفاة امه آمنة . وفي هذه السنة ولد عثمان بن عفان . وفي السنة السابعة لولادته استقلَّ بكفالته جده عبد المطلب . وفيها اصابه رمد شديد . وفي السنة الثامنة لولادته توفي جده عبد المطلب وكفله عمه ابو طالب . وفي هذه السنة مات كسرى انو شروان وفي السنة العاشرة لولادته كانت حرب الفجار الاولى . وفي السنة الثانية عشرة لولادته كانت حرب الفجار الثانية . وفي هذه السنة سافر مع عمه الى الشام . وفي سنة ١٣ لولادته ولد عمر بن الخطاب . وفي سنة ١٤

وَبَيْعَةُ ٱلصَّحْبِ حُبًّا بِٱلسَّلَامَةِ مِنْ   إِثَارَةِ ٱلشَّرِّ أَمْسَى وَهْوَ آبِيهَا

وَلَا يَهُونُ عَلَى مَنْ شَادَ أَضْرِحَةَ ٱلْإِ   سْلَامِ أَنْ يَرْتَضِي يَوْمًا تَدَاعِيهَا

وَوَاجَهَ ٱلنَّاسَ بِٱلْقَوْلِ ٱلصَّرِيحِ وَإِنْ   لَمْ يُرْضِهَا نَفْسُهُ قَدْ كَانَ مُرْضِيهَا

فَقَالَ: مِنْ دُونِنَا أَمْوَاجُ ذِي ٱلْفِتَنِ ٱلْـ   ـكُبْرَى وَقَدْ يُغْرِقُ ٱلدُّنْيَا تَتَالِيهَا

فَجَاهِدُوا وَعَسَى نَجْتَازُهَا بِمَرَا   كِبِ ٱلنَّجَاةِ ٱلَّتِي بِٱلسِّلْمِ نُرْسِيهَا

وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقٍ لَا سَلَامَةَ فِيـ   ـهَا لِلْأُلَى بِٱلْعِدَى رَامُوا تَخَطِّيهَا

تَاجُ ٱلْمُبَاهَاةِ يَا صَحْبِي ضَعُوهُ فَمَا   نَرْضَى لِأَنْفُسِنَا يَوْمًا تَبَاهِيهَا

وَلَيْسَ يُفْلِحُ إِلَّا نَاهِضٌ بِجَنَا   حٍ وَٱلْمُلُوكُ لَتَقْوَى فِي مُعِينِيهَا

أَوْ مَنْ غَدَا لِلْقَضَا مُسْتَسْلِمًا فَيُرِيـ   ـحُ ٱلنَّفْسَ مِنْ فِتْنَةٍ صَعْبٌ تَلَافِيهَا

وَتِلْكَ نَهْلَةُ مَاءٍ آجِنٍ لِعَجُو   لٍ رَامَ يَنْهَلُهَا فِي ٱلنَّاسِ ظَامِيهَا

لولادته كانت حرب الفجار الثالثة وحلف الفضول. وفي سنة ١٧ لولادته كان سفره الى اليمن للتجارة مع عميه الزبير والعباس ابني عبد المطلب . وفي سنة ٢٥ لولادته كان سفره الى الشام مع ميسرة غلام خديجة . وفي هذه السنة تزوج بخديجة . وفي سنة ٣٠ لولادته ولد سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام وكانت ولادته في الكعبة . وفي سنة ٣٤ لولادته ولد معاوية بن ابي سفيان ومعاذ بن جبل وفي سنة ٣٥ لولادته هدمت قريش الكعبة وبنتها

وابتدأت نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم في السنة السابعة والثلاثين من عمره السعيد ففي هذه السنة صار يرى الضوء والنور ويسمع الاصوات . وفي سنة ٣٨ لولادته كان ابتداء نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم في اليقظة ويحسب المؤرخون هذه السنة السنة الاولى من النبوة . وفي السنة الثالثة للنبوة توفي ورقة بن نوفل . وفي السنة الرابعة للنبوة كان اظهار الدعوة . وفي السنة الخامسة للنبوة ولدت عائشة بنت أبي بكر . وفي هذه السنة كانت الهجرة الاولى الى ارض الحبشة . وفي السنة السادسة للنبوة اسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . وفي السنة السابعة للنبوة تعاهدت قريش على عداء بني هاشم وبني المطلب . وفي السنة العاشرة للنبوة مات ابو طالب وخديجة . وفي هذه السنة تزوج المصطفى سوده بنت زمعة وعقد له على عائشة بنت ابي بكر وهي بنت سبع سنين . وفي سنة ١١ للنبوة كان ابتداء اسلام الانصار . وفي سنة ١٢ للنبوة كان الاسراء والمعراج . وفي هذه السنة وقعت بيعة العقبة الاولى . وفي سنة ١٣ للنبوة كانت بيعة العقبة الثانية او الكبرى . وفي سنة ١٤ للنبوة كانت الهجرة الكبرى للمدينة ومنها يبتدىء التاريخ الهجري الذي يعتمد عليه المسلمون في تواريخهم

وفي السنة الاولى للهجرة حلَّ المسلمون في المدينة المنورة على الرحب والسعة ضيافة الاوس والخزرج وهم الانصار . وفي هذه السنة كان بناء المسجد النبوي في المدينة ومسجد قباء والمؤاخاة

وَلُقْمَةٌ لِآكُولٍ غَيْرُ سَائِغَةٍ بِهَا يَغَصُّ فَمَا ذُو ٱلرَّأْيِ شَاهِيهَا
هَلْ يَسْتَفِيدُ مِنَ ٱلْأَثْمَارِ إِنْ قُطِفَتْ قَبْلَ ٱلنُّضُوجِ مِنَ ٱلْأَشْجَارِ جَانِيهَا
أَوْ زَارِعٌ زَرْعُهُ فِي أَرْضِ صَاحِبِهِ وَٱلنَّاسُ إِنْ زَرَعَتْ تَزْرَعْ أَرَاضِيهَا
فَإِنْ أَقُلْ قِيلَ عَنْ حِرْصٍ مَقَالَتُهُ عَلَى ٱلتَّمَلُّكِ تَالِيهَا وَمُمْلِيهَا
وَإِنْ سَكَتُّ لَقَالُوا كَانَ ذَا جَزَعٍ مِنَ ٱلْمَنِيَّةِ أَمْسَى وَهْوَ خَاشِيهَا
هَيْهَاتَ بَعْدَ ٱللُّتَيَّا وَٱلَّتِي وَمُعَا نَاةِ ٱلشَّدَائِدِ قَاسِيهَا وَحَامِيهَا
أَنْ تَمْسِيَنَّ ٱلْمَنَايَا وَهْيَ مُرْهِبَةٌ مِثْلِي إِذَا أَرْهَبَتْ غَيْرِي فَوَاجِيهَا
لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ تَاللّٰهِ آنَسُ بِالْـ ـمَوْتِ ٱلَّذِي ٱلنَّاسُ تَخْشَاهُ وَيُفْنِيهَا
مِنَ ٱلرَّضِيعِ بِثَدْيِ ٱلْأُمِّ يَرْضَعُهُ وَقَدْ أَوَى حِجْرَهَا يَلْقَى تَحَنِّيهَا
لٰكِنْ بِصَدْرِيَ عِلْمٌ لَوْ أَبَنْتُ خَوَا فِيهِ ٱضْطَرَبْتُمْ مِنْهَا لَسْتُ أُبْدِيهَا

بين المهاجرين والانصار . وفي السنة الثانية للهجرة ابتدأت الغزوات النبوية فكانت فيها غزوة الابواء. وغزوة ودان . وفي هذه السنة بنى المصطفى بعائشة بنت ابي بكر وهي في التاسعة من عمرها وفيها شرع الآذان . وفيها سار حمزة بن عبد المطلب لاعتراض عير قريش . وفيها سار عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب الى بطن رابغ لاعتراض عير قريش ايضاً . وفيها سار سعد بن أبي وقاص الى الخرار لهذا الغرض . وفي هذه السنة تزوج سيدنا علي بسيدتنا فاطمة عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام . وفيها ايضاً كنى المصطفى علياً بكنية « أبي تراب » . وفيها ايضاً كانت غزوة بواط وغزوة العشيرة وسرية عبد الله بن جحش الى بطن نخلة . وفيها ايضاً كان تحويل القبلة .وفرض صوم رمضان . وتمّ غزوة بدر الكبرى . وفي هذه السنة ايضاً توفيت رقية بنت المصطفى . وفيها فرضت زكاة عيد الفطر . وفيها شرعت صلاة عيد الفطر . وفيها فرضت زكاة الاموال . وفيها كانت غزوة قرقرة الكدر وسرية سالم بن عمير ثم غزوتا بني قينقاع والسويق. وفي هذه السنة شرعت التضحية وصلاة عيد الاضحى .

وفي السنة الثالثة للهجرة كانت سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الاشرف . وفيها تزوج عثمان بن عفان بام كلثوم بنت المصطفى . وفي هذه السنة كانت غزوتا غطفان ونجران . وسرية زيد بن حارثة الى قردة . وفي هذه السنة ايضاً تزوج المصطفى عليه الصلاة والسلام حفصة ابنة عمر بن الخطاب وزينب بنت خزيمة . وفي هذه السنة ولد سيدنا الحسن عليه وعلى والديه والمصطفى صلاة الله وسلامه . وفي هذه السنة ايضاً كانت غزوتا احد وحمراء الاسد .

وفي السنة الرابعة للهجرة كانت سرية ابي مسلمة الى قطن وسرية عبد الله بن انيس الى عرنة وسرية القرّاء الى بئر معونة وسرية عمرو بن امية الصخري الى مكة . وفي هذه السنة كانت غزوات بني النضير وذات الرقاع وبدر الصغرى . وفي هذه السنة ولد سيدنا الحسين عليه وعلى اخيه ووالديه والمصطفى

وَقَدْ أَجَالَ بُعَيْدَ ٱلْقَوْلِ نَاظِرَهُ بِصَحْبِهِ يَبْتَغِي ٱسْتِجْلَاءَ خَافِيهَا
وَإِنَّهَا أَدْرَكَتْ مِنْ وَقْعِ نَظْرَتِهِ بِأَنَّهُ فِي رَجَاهَا لَا يُوَاتِيهَا
بِأَنَّهُ نَاظِرٌ مَا لَيْسَ تَنْظُرُهُ مِنَ ٱلْمَخَاطِرِ خَافِيهَا وَبَادِيهَا
وَظَلَّ أَحْمَدُ مُسْجًى فَوْقَ فَرْشَتِهِ وَٱلنَّاسُ تُشْغِلُهَا عَنْهُ أَمَانِيهَا
حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ آمَالَهَا رَجِعَتْ إِلَيْهِ تَنْدُبُهُ مَعْ هَاشِمِيِّيهَا
صَلَّتْ عَلَيْهِ زَرَافَاتٍ بِغَيْرِ إِمَا مٍ فِي صُفُوفٍ أَلِيمُ ٱلْخَطْبِ مُشْجِيهَا
وَلَيْلَةَ ٱلْأَرْبَعَا عِنْدَ ٱلْعِشَا دَفَنَ ٱلْـــعَلِيُّ طَــهَ وَلَمْ يَحْفَلْ بِدَاجِيهَا

الصلاة والسلام . وفي هذه السنة ماتت زينب بنت خزيمة زوج المصطفى وفيهـا تزوج المصطفى صلى الله عليه وسلم ام سلمة .وفي هذه السنة كان تحريم الخمر مبدئياً

وفي السنة الخـامسة للهجرة كانت غزوات دومة الجندل والمريسيع والخندق وبني قريظة . وفي هذه السنة تزوج المصطفى جويرية وزينب بنت جحش . وفي هذه السـنة نزلت آية الحجاب وفيها ايضاً فرض الحج على المسلمين .

وفي السنة السادسة للهجرة كانت سرية محمد بن مسلمة الى القرطاء وسرية عكاشة الى الغمر وسرية محمد بن مسلمة ايضاً الى ذي القصة . وسرية عبيدة بن الجراح الى مصارع اصحاب محمد بن مسلمة وسرية زيد بن حارثة الى بني سليم بالجموم وسرية زيد بن حارثة الى العيص . وسرية زيد هذا الى الطرف . وسريته ايضاً الى وادي القرى وسريته ايضاً الى ام قرفه . وسرية عبد الله بن عتيك لقتل ابي رافع . وعبد الله بن رواحة الى اسير بن رزام اليهودي بخيبر . وفي هذه السنة كانت غزوات بني لحيان والغابة والحديبيـة . وفي هذه السنة كان تحريم الخمر تماماً . وفيها تزوج المصطفى بام حبيبة

وفي سنة ٧ للهجرة اتخذ المصطفى الخاتم وصار يختم به رسائله . وفي هذه السـنة ارسل المصطفى رسله الى الملوك . وفيها كانت غزوة خيبر . وفيها كانت سرية عمر بن الخطاب الى طائفة من هوازن . وسرية ابن ابي العوجاء الى بني سليم وفيها ايضاً كانت عمرة القضاء . وفي هذه السنة تزوج ميمونة.

وفي سنة ٨ للهجرة كان فتح مكة وتلا الفتح غزوة الطائف وغزوة حنين وسرايا كثـيرة أهمها سرية خالد بن الوليد الى جذيمة وتلافي سيدنا علي امرها . وفي هذه السنة كان اتخاذ المنبر الشريف للخطابة . وفيها كانت ولادة ولده ابراهيم عليهما الصلاة والسلام من ماريا القبطية . وفي هذه السنة اخذت تفد الوفود على المصطفى واولها وفد هوازن . وفيها ماتت زينب بنت رسول الله . وفي هذه السنة اسلمت همدان كلها بدعوة سيدنا علي في يوم واحد

وفي سنة ٩ للهجرة كانت بعثة سيدنا علي الى طيء ودك معالم بت صنمها فلس . وفي هذه السنة كانت غزوة تبوك . وسرية خالد بن الوليد الى اكيدر . وفي هذه السنة ماتت ام كلثوم .وفي هذه السنة كانت حجة ابي بكر ومسير سيدنا علي لابلاغ « البراءة » وفي هذه السنة كانت عدة سرايا

وفي سنة ١٠ للهجرة كانت بعثة سيدنا علي الى اليمن . وفيها حجة الوداع وفيها اوصى المصطفى للمرتضى عليهما الصلاة والسلام في غدير خم . وكانت فيها سرايا كثيرة وندمس فيها وفود كثـيرة

بِنَفْسِهِ أَنْزَلَ الْجُثْمَانَ أَوْصَلَهُ ... إِلَى الْحَفِيرَةِ فَاعْتَزَّتْ بِثَاوِيهَا
ثُمَّ تَنَهَّدَ مَحْزُونًا وَأَرْسَلَ مِنْ ... أَنْفَاسِهِ زَفْرَةً مَا النَّارُ تَحْكِيهَا
وَأَرْسَلَتْ عَيْنُهُ فَيَّاضَ أَدْمُعِهَا ... تَسْقِي حَفِيرَتَهُ الْعُظْمَى وَتَرْوِيهَا
وَلَوْ تَقَسَّمَ خَطْبُ الْمُصْطَفَى قِسَمًا ... لَكَانَ مِنْ حَظِّهِ وَاللهِ وَافِيهَا

أمير المؤمنين في خلافة أبي بكر

وَبَيْنَمَا الْمُرْتَضَى لَاهٍ بِفَجْعَتِهِ ... بِالْمُصْطَفَى لَا يَرَى الدُّنْيَا تُوَازِيهَا(١)
وَالْمُصْطَفَى فِي فِرَاشِ الْمَوْتِ تَنْدُبُهُ ... نَوَادِبُ الْعُرْبِ فِي مُشْجِي تَدَاعِيهَا

وفي سنة ١١ للهجرة كانت وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام على نحو ماتقدم

« صفات المصطفى »

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من كمال الجمال ما يعجز عن تصويره القلم وتعيا عن تصوّره المخيلة وهنذا نصفه على ماوصفه واصفوه ومعاشروه قالوا: كان فخماً مفخماً يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر وفي وجهه الشريف تدوير ، واسع الجبين ، ازج الحاجبين ، بينهما عرق يدرّه الغضب أقنى العرنين ، ادعج العينين ، اكحلهما ، أهدب الاشفار ، أسيل الخدين ، خليع الفم أشنبه ، مفلج الاسنان ، كثّ اللحية ، وكان شيب لحيته في عنفقته وصدغيه متفرقاً ، وكان عنقه كجيد دمية وكان جسمه الشريف بادناً ذو لحم متماسك ، عريض الصدر ، بعيد مابين المنكبين والركبتين ، موصول ما بين اللبة بشعر يجري كالخيط ، عاري الثديين والبطن ، اشعر الذراعين والمناكب واعالي الصدر ، طويل الزندين ، عظيم الذراعين ، رحب الراحة لينها ، سائل الاصابع ، شثن الكفين والقدمين ، مربوع القامة ، متهادي المشية ، يمشي هوناً برفق ووقار شأن اصحاب الهمم العالية ، ولونه البياض مشرب بحمرة ، وكان عليه الصلاة والسلام اذا التفت التفت جميعاً ولا يلوي عنقه ، وكان فصيح اللهجة ينطق بجوامع الكلم ويعطي كل حرف من حروف كلامه حقها من اللفظ ، وكان اذا اشار فاشارته بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث قارب يمناه من يسراه وضرب بابهام اليمنى على اليسرى ، وربما حرك رأسه الشريف ، او عضّ شفته ، او ضرب بيده على فخذه ، او نكت الارض بعوده ، ذلك حسب مواضيع حديثه الشريف ، واذا اشتدّ وجده اكثر من مسّ لحيته الطاهرة ، واذا اشتدّ غمّه مسح بيده على رأسه ولحيته ، وتنفس الصعداء وقال « حسبي الله ونعم الوكيل » وكان معظم ضحكه التبسم وكان غالباً يمشي منتعلاً وطالما مشى حافياً ، وبالاجمال كان أجمل انسان خلق وسيخلق على ظهر البسيطة عليه الصلاة والسلام

(١) عند ما ابتدأت علة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي انتهت بموته أمر اسامة بن زيد ابن حارثة وهو في الثامنة عشرة من عمره ان يسير بسرية الى موضع يسمى « أبنى » بضم الهمزة وفتح النون وهو موضع بين عسقلان والرملة وقيل بل قرية عند « مؤتة » وكان قد قتل هناك أبوه زيد بن حارثة وقال له « سر لاخذ ثأر ابيك » وأمر عليه الصلاة والسلام ان يصحب هذه السرية اكابر الصحابة وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن ابي وقاص وغيرهم فتقمقم

وَقَبْلُ أَنْ يَتَوَارَى فِي حَفِيرَتِهِ جُثْمَانُهُ وَبِعَفْوِ ٱللهِ يَأْوِيهَا
وَقَبْلَمَا حُفِرَتْ قَدْ كَانَ يَجْمَعُ أَقْـــطَابَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلْأَنْصَارِ نَادِيهَا
وَلَمْ يَـكُنْ هَاشِمِيٌّ بَيْنَهَا فَـكَا مَ نَّ ٱلْأَمْرَ لَمْ يُعْنِ يَوْماً هَاشِمِيِّيهَا
وَفِي سَقِيفَةِ سَعْدٍ كَانَ مَجْلِسُهَا وَفِي مَضَائِقِهَا ٱسْتَوْفَتْ تَجَمُّعِيهَا
هُنَالِكَ قَدْ نَظَرَتْ فِيمَنْ سَيَخْلُفُ طه فِي ٱلْإِمَامَةِ تُرْضِيهِ وَيُرْضِيهَا
وَبَعْدَ عُنْفِ جِدَالٍ طَالَ وَٱنْقَسَمَتْ فِيهِ مَطَامِعُ طَيِّبِيهَا وَمَكِّيِّهَا
وَقَدْ تَمَادَتْ بِهِ حَتَّى ٱلْوَعِيدِ مَعَ ٱلـــتَّهْدِيدِ مُعْلِنَةً فِيهِ تَعَادِيهَا

هؤلاء من المسير في سرية يقودها غلام كاسامة لايتجاوز الثامنة عشرةمن عمره وعلم المصطفى بتقمقمهم فخرج الى المسجد وهو معصوب الرأس فخطب في الناس فحمد الله واثنى عليه وقال « اما بعد ايها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟؟ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله وايم الله انه كان خليقاً بالامارة وان ابنه من بعده لخليق بالامارة وانه كان لمن أحب الناس الي وانهما مظنة لكل خير فاستوصوا به خيراً فانه من خياركم » ونزل بعد ذلك المصطفى راجعاً الى بيته حيث اوى فراشه وهو عليل.اما اصحاب رسول الله فما ارادوا الابتعاد عن المدينة ورسول الله عليل بالرغم عن الحاحه بتسييرها غير مرة ولرغبة المصطفى في سير هذه السرية وهو عليل وفيها اكابر اصحابه تحت امارة شاب في مقتبل عمره ولتسكع هذه السرية عن المسير آراء مختلفة واقاويل عديدة نكتفي بالاشارة اليها هنا تاركين القاريء اللبيب حكمه فيها وغاية القول ان السرية ظلت في المدينة المنورة بالرغم عن الحاح المصطفى بتسييرها الى ان توفي صلى الله عليه وسلم

وعند مانعي النعاة المصطفى الى اصحاب رسول الله وانصاره اجتمعوا اجزعين في المسجد وجاءهم عمر وهو اشدهم جزعاً فاشهر سيفه وهو يقول انه لم يمت ثم تبعه أبو بكر فخطب في الناس وسرد الآيات المشيرة الى موته فسكن روعة عمر ومن كان هنالك من المتضعضعين مثله. ثم ان اكابر الصحابة والانصار تركوا المسجد وساروا الى سقيفة بني ساعدة حيث كان يثوي سعد بن عبادة وكان مريضاً . وقيل بل ان الانصار عند تاكدهم وفاة المصطفى اجتمعوا في تلك السقيفة للنظر في امر الخلافة فنمي خبرهم الى ابي بكر وعمر فصحبا نفراً من قريش وساروا الى هاتيك السقيفة ولما تكامل الجمع قام خطيب من الانصار فاثنى على الله ما هو اهله ثم قال « اما بعد فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وانتم يامعشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة منكم تريدون ان تختزلونا من أهلنا وتستبدون بدوننا »
ومن هذا الخطاب المقتضب الذي نقله مؤرخو السنة يظهر لعقلي الضعيف السخيف ان الانصار لم يكونوا البادئين بالاجتماع بل انهم ما اجتمعوا الا بعد أن علموا أن المهاجرين يعملون للخلافة بينهم هذا ما استفدته من قول خطيب الانصار هذا الذي لما انتهى وقف ابو بكر وقال « اما بعد فما ذكرتم من خير فانتم له أهل ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحي من قريش هم اوسط العرب نسباً ودارا ولدتنا العرب كلها فليس منها قبيلة الا لقريش منها ولادة ودار . وكنا معاشر المهاجرين اول الناس اسلاماً ونحن عشيرة محمد صلى الله عليه وسلم واقاربه وذوو رحمه فنحن أهل النبوة وأهل الخلافة » وبعد

وَفِي الأَخِيرِ تَرَاضَتْ أَنْ يَكُونَ أَبُو ... بَكْرٍ أَمِيراً لَهَا سَمَّتْهُ وَالِيهَا
بِذِي الوَلَايَةِ فِي الإِثْنَيْنِ يَوْمَ وَفَا ... ةِ المُصْطَفَى عَلَناً نَادَى مُنَادِيهَا
وَفِي صَبَاحِ الثَّلَاثَا وَسْطَ مَسْجِدِ طَـ ... ـهَ تَمَّتِ البَيْعَةُ الكُبْرَى لِبَاغِيهَا
بِهَا تَسَمَّى أَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةَ طَـ ... ـهَ وَهْيَ تَسْمِيَةٌ سَامٍ تَسَمِّيهَا
وَلَمْ يُبَايِعْ عَلِيٌّ بِالخِلَافَةِ مَنْ ... سَمَّوْا خِلَافَتَهُ مَا كَانَ رَاضِيهَا
وَهُوَّذَا نَحْنُ نَرْوِي لِلْمَلَا بِأَمَا ... نَةٍ وَصِحَّةِ نَقْلٍ رَأْيَهُ فِيهَا
فَقَالَ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَقَمَّصَهَا ... وَلَيْسَ يَجْهَلُ حَقِّي فِي تَوَلِّيهَا

ذلك اخذ ابو بكر يسرد الآيات التي نزلت في قريش والانصار والاحاديث التي حدث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء وهؤلاء ثمّ وجه ابو بكر خطابه لسعد فقال : لقد علمت ياسعد ان رسول الله قال وانت قاعد بين يديه : انّ قريشاً هم ولاة هذا الامر . أليس الامر كذلك ؟ فقال سعد صدقت . فقال ابو بكر : فنحن الامراء وانتم الوزراء وقد قال رسول الله « الائمة من قريش » وانتم يامعشر الانصار اخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين وانتم احق بالرضاء بقضاء الله وقد رضيت لهذا الامر احد هذين الرجلين واخذ بيد عمر ويد ابي عبيدة بن الجراح وكانا الى جانبيه فقال عمر وابو عبيدة « بل لا ينبغي لاحد ان يكون فوقك يا ابا بكر » فقام ضجيج بين الانصار وهم يريدونها لانفسهم فكانوا يقولون منا أمير ومنكم أمير وسادالهرج بينهم وبين المهاجرين مدةً حتى كاد ان يستفحل ويؤول الى مالا تحمد مغبته ولكن في الاخير رضيت اكثريتهم بخلافة ابي بكر وبايعته . ومما يجب ان لايذهب عن الفكر ان هذا الاجتماع خلا من الهواشم وان المهاجرين والانصار في أثناء شجارهم على الخلافة ماذكروا حقَّ الهواشم فيه ولا سيما سيدنا علي عليه صلوات الله فهل كانوا مبدئياً متفقين على ان لاتكون الخلافة في بني هاشم لكي لايجتمع شرف النبوة وشرف الملك لهم كما يقول بعض النقاد ؟ ؟ هذا لانحير عليه جواباً . ومما نذكره ان سعد بن عبادة وهو زعيم الانصار وكان الاجتماع في سقيفته ابى الرضاء ببيعة أبي بكر وغضب عمر واراد ان يبطش به لحال الناس دون رغبته . ثم حاول ابو بكر ان يكرهه على البيعة بعد ذلك فاصرَّ على على اباته واقام مدةً لايحضر اجتماعاتهم ولا يصلي في المسجد ولا يسلم على من لقي منهم حتى اذا كان بعرفة يقف ناحية عنهم وكان يلحّ عمر على ابي بكر ان يكرهه على البيعة بالسيف فيأبى ابو بكر ذلك مخافة الفتنة ولما ولي الخلافة عمر هجر سعد المدينة وسار الى دمشق ومات فيها سنة ١٥ للهجرة

وبعد ان تمت البيعة لابي بكر في سقيفة سعد في نفس يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الناس الى بيوتهم . وفي صباح الثلاثاء ورسول الله مسجى على فراشه اجتمع الناس « عدا الهواشم » في المسجد النبوي وفي اجتماعهم ذاك كانت البيعة الكبرى اذ بايع الناس ابا بكر بدعوة عمر . ثمّ انهم انصرفوا الى وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة عليه فقصدوه في حجرته زرافات يصلون عليه بغير امام كما تقدم

وبعد دفن المصطفى عليه الصلاة والسلام انصرف ابو بكر وعمر الى تدبير امر الامة فكان

وَعَالِمٌ أَنَّنِي مِنْهَا أَحُلُّ مَحَلَّ ٱلْقُطْبِ عِنْدَ ٱلرَّحَى فِي عُرْفِ رَاحِيهَا
وَٱلسَّيْلُ مُنْحَدِرٌ عَنِّي وَلَيْسَ لِطَيْرِ ٱلْأُفْقِ نَيْلُ مَحَلِّي فِي تَعَالِيهَا
وَإِنَّنِي مُسْدِلٌ دُونَ ٱلْخِلَافَةِ ثَوْبَ ٱلزُّهْدِ إِنِّي بِهِ كُنْتُ ٱلْمُغَطِّيهَا
وَقَدْ طَوَيْتُ لِوَجْهِ ٱللهِ كَشْحِيَ عَنْهَا وَٱلشُّرُورُ بِذَا قَدْ كُنْتُ طَاوِيهَا
وَكُنْتُ بَيْنَ مُرِيدٍ صَوْلَةً بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ صَابِرٍ نَفْسِي أُهَدِّيهَا
وَيَهْرَمُ ٱلْكَهْلُ حَتْماً صَوْلَتِي وَتُشِيبُ ٱلطِّفْلَ شَيْباً إِذَا تَدْهَى دَوَاهِيهَا
وَٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُتَّقِي بَارِيهِ يَكْدَحُ حَتَّى ٱلْحَشْرَ يَوْمَ يُلَاقِي رَبَّهُ فِيهَا

اهتمامهم منصرفاً قبل كل شيء الى ارغام الهواشم ومن شايعهم من المهاجرين والانصار على مبايعة ابي بكر فارغماهم جميعاً على البيعة فبايعوا الا علياً . ثم اهتما بمحاوبة اهل الردة وارجاعها الى الاسلام فافلحا.
وظلَّ الناس يلغطون ببيعة ابي بكر وينتقدونها سراً وجهراً حتى اضطرَّ عمر أن يصعد المنبر في مسجد المدينة ويقول : « فلا يغرنَّ امرءٌ أن يقول ان بيعة أبي بكر كانت فلتة ، فلقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها » وكان قد سبق له ان قال على اثر بيعة ابي بكر : « ان بيعة ابي بكر كانت فلتة وقى الله شرها فمن عاد الى مثلها فاقتلوه » وذاع هذا القول عنه وتداوله الناس وفي قوله هذا كفاية لقوم ينصفون
أما سيدنا علي عليه صلوات الله فأبى البيعة كما انه أبى مماشاة الذين انتصروا له واشاروا عليه باعلان العداء لابي بكر وانزوى في بيته يعنى بجمع القرآن وترتيب آياته الشريفة ومازال كذلك الى ان توفيت زوجه فاطمة الزهراء عليهما الصلاة والسلام حينئذٍ بايع أبا بكر . ورايه عليه صلوات الله في بيعة ابي بكر صريح ظاهر في كثير من خطبه ورسائله المنشورة في « نهج البلاغة » ونكتفي هنا بما قاله في خطبته الشقشقية قال : « اما والله لقد تقمصها ابن ابي قحافة ، وانه ليعلم انَّ محلي منها محلُّ القطب من الرحى ، فسدلت دونها ثوباً ، وطويت عنها كشحاً ، وطفقت ارتئي بين ان اصول بيد جذَّاء ، أو اصبر على طخية عمياء ، يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير ، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه ، فرأيت ان الصبر على هاتا احجى ، فصبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا ، أرى تراثي نهباً » أهو قول المرتضى خير ما يختم به هذا المقال

وانا لندع بعد هذا ما اختلف فيه الرواة عما جرى على سيدنا علي وسيدتنا فاطمة عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام فجميعه مما يؤلم ذكره ولا يحسن الآن نشره وانَّ بعضه لو كان صحيحاً لكان من الكبائر التي لاتغتفر والله سبحانه اعلم

على ان سيدتنا فاطمة الزهراء ماتت مكروبةً حزينةً غاضبةً بعد وفاة ابيها صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلم بستين أو سبعين يوماً وقيل ستة اشهر وازاد وفاتهـا المرتضى زهداً بالخلافة فغدا الى ابي بكر وهو في المسجد فبايعه . واستقبل ابو بكر واصحابه بيعة سيدنا علي بالسرور والاغتباط وقال ابو بكر وهو آخذ بيد علي « انَّ عصابةً انت منها يا أبا الحسن لمعصومة ، وان امةً انت فيها لمرحومة ولقد اصبحت عزيزاً علينا ، كريماً لدينا ، نخاف الله اذا سخطت ، ونرجوه اذا رضيت ، ولولا اني شدهت ، لما اجبت الى مادعيت اليه ، ولكني خفت الفرقة ، واستئثار الانصار بالامر على قريش ،

لـٰكِنْ رَأَيْتُ جَمِيلَ ٱلصَّبْرِ أَحْمَدَ عُقْـــبَى وَٱلْخُصُومَةَ أَوْلَى أَنْ أُحَاشِيَهَا
لِذَا صَبَرْتُ وَفِي ٱلْحَلْقِ ٱلشَّجَا وَقَذَىً ... فِي ٱلْعَيْنِ يَطْرِفُهَا حَتَّى يُؤَذِّيهَا
أَرَى تُرَاثِيَ مَنْهُوبَاً وَإِنِّي صَا ... بِرٌ بِعَيْنِيَ وَلٰكِنْ كُنْتُ أُغْضِيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى لَمْ يُبَايِعْ بِٱلْخِلَافَةِ فِي ... حَيَـاةِ فَاطِمَةَ ٱلزَّهْرَا لِوَالِيهَا
حَتَّى إِذَا مَا قَضَتْ غَمَّاً أَنَالَ أَبَا ... بَكْرٍ مُنَاهُ ٱلَّتِي قَدْ كَانَ عَاشِيهَا
وَقَالَتِ ٱلنَّاسُ أَقْوَالاً بِهَا وَبِمَنْ ... دَعَا إِلَيْهَا وَآتِيهَا وَمُمْضِيهَا

واعجلت عن حضورك ومشاورتك ، ولو كنت حاضراً لبايعتك ، ولم اعدل بك ؛ ولقد حطّ الله عن ظهرك ما اثقل كاهلي به ، وما اسدّ من ينظر الله اليه بالكفاية ، وانا اليك لمحتاجون ، وبفضلك عالمون ، والى رأيك وهديك في جميع الاحوال راغبون ، وعلى حمايتك وحفيظتك معوّلون » فتبسم ابو الحسن عليه صلوات الله لهذا الاعتذار الذي جهر به ابو بكر في المسجد وانصرف الى بيته متشاغلاً بحزنه بوفاة رسول الله وفاطمة الزهراء عليهم الصلاة والسلام وعاكفاً على عهد الله ينظر فيه ويجمع ما تفرّق منه رجاء ثواب معدّ لمن اخلص لله عمله وسلم لعلمه ومشيئته امره

« ترجمة ابي بكر »

كان يدعى ابو بكر في الجاهلية عبد اللات وقيل عبد العزّى فسماه المصطفى صلى الله عليه وسلم عبد الله . فهو عبد الله بن ابي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ويجتمع مع رسول الله في مرّة بن كعب . وامه امّ الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم اسلمت بعد اسلامه . وقد دعي ابو بكر باسم « عتيق » لان رسول الله قال له انت « عتيق النار » وقيل بل امه سمته « عتيقاً » لانها ما كان يعيش لها ولد فلما ولد سمته عتيقاً اي « عتيق الموت » ويلقب باسم « الصديق » لان المصطفى عند ما عرج ورجع الى مكة فاخبر الناس فلم يصدقوه وقصدوا ابا بكر قائلين : ان صاحبك يزعم كذا وكذا فقال لهم « ان قال ذلك فقد صدق . اني لاصدقه بما هو أبعد من ذلك . اصدقه بخبر السماء في غدوةٍ أو روحةٍ » فلقب من ذلك الوقت بالصديق

كان ابو بكر في أول أمره بزّازاً . وكان وجيهاً في قريش . وكان عالماً بانساب العرب ولا سيما قريش . وكان من السابقين بالاسلام اسلم في حال دعوة المصطفى له . وصار من دعاة الاسلام فدعا اليه كثيرين واسلموا بواسطته منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وطلحة بن عبيد الله . وكان ملازماً المصطفى منذ أسلم لايمنع عنه ماله . ورافق النبي في غزواته كلها . وفي خلافة أبي بكر قامت فتنة اهل الردّة فاطفأها . وظهر الاسود العنسي ومسيلمة الكذاب وسجاح المتنبئة وطليحة الاسدي فحاربهم واخزاهم وابطل دعوتهم وكلهم ادعوا النبوّة . وارسل خالد بن الوليد الى العراق من ادناه وعياض بن غنم من اعلاه . فسار خالد ووقعت له واقعة الحفير المشهورة قرب الموضع الذي بنيت فيه البصرة وانتصر فيها على جيوش الفرس بعد ان قتل رئيسهم هرمز . ثمّ قصد الحيرة فصالحه اهلها على الجزية . ثمّ سار الى الانبار وصالح اهلها على ما صالح به أهل الحيرة . وسار الى عين التمر فالتقت به جيوش العجم فهزمهم وسبى من كان

دَوَتْ هُنَا وَهُنَا حَتَّى رَأَى عُمَرٌ أَنْ لَيْسَ سَهْلاً وَقَدْ ذَاعَتْ تَعَاشِيْهَا
لِذَاكَ رَدَّ ٱلصَّدَى فِي قَوْمِهِ وَدَعَا هَا « فَلْتَةً » قَالَ: فَلْيُقْتَلْ مُشَنِّيْهَا
وَقَالَ: كَانَتْ وَلٰكِنَّ ٱلْإِلٰهَ وَقَى ٱلْعِبَادَ مِنْ شَرِّهَا حَمْداً لِوَاقِيْهَا
لِلّٰهِ أَنْتَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ لَاقَيْتَ مِنْ نُوَبِ ٱلْأَيَّامِ قَاسِيْهَا
وَقَدْ تَنَاسَيْتَ أَرْزَاءً مُنِيتَ بِهَا بِفَضْلِ تَقْوَاكَ لٰكِنْ لَسْتَ نَاسِيْهَا
وَقَدْ صَبَرْتَ عَلَى ٱلْأَحْدَاثِ صَبْرَ كَرِيـــمٍ صَادِقِ ٱلْعَزْمِ مُسْتَجْلٍ غَوَاشِيْهَا

فيها وأسر الأسرى وفي جملتهم نصير ابو موسى فاتح الاندلس. ثمَّ سار الى دومة الجندل واخذها عنوةً . وما زال ينتقل فاتحاً منصوراً من بلد الى بلد حتى وصل الى تخوم الشام. فاجتمعت عليه الروم وعرب باديتها فنصره الله عليهم ثمَّ رجع الى الحيرة ومنها الى مكة لاداء فريضة الحج . اما عياض بن غنم فانه اخترق بفتوحاته بلاد كردستان وارمينيا ثمَّ انضمَّ الى جيوش ابي عبيده في الشام كما سبقت الاشارة في ترجمة خالد

وانشأ ابو بكر بيت المال للمسلمين بعد ان كثر الفيء وجعل على القضاء عمر بن الخطاب بل كان عمر في الحقيقة وزيره ومشيره وعيبة سره وكان خالد بن الوليد قائد جيوشه

وكان تقياً ورعاً سخياً صالحاً كثير التواضع كثير التقشف كثير الزهد كثير الكرم وكان يقول دائماً « وليت عليكم ولست بخيركم فعينوني واذا رايتموني استقمت فاتبعوني . واذا رايتموني زغت فقوّموني » وتزوج ابو بكر في الجاهلية مرأةً تدعى قتيلة بنت عبد العزّى بن عامر بن لؤي فولدت له ابنه عبد الله وابنته اسماء وتزوج ايضاً في الجاهلية مرأةً تدعى ام رومان واسمها دعد وهي بنت عامر بن عميرة الكنانية فولدت له ابنه عبد الرحمن وابنته عائشة زوج المصطفى . وتزوج في الاسلام امرأةً تدعى اسماء وهي بنت عميس وكانت قبله عند جعفر بن ابي طالب فولدت له ابنه محمد . وتزوج ايضاً في الاسلام حبيبة وقيل ام حبيبة بنت خرجة بن زيد الانصاري وكان يسكنها بالسنح « من ضواحي المدينة المنورة » وولدت له هذه بعد وفاته ابنه ام كلثوم

واختلف الناس في وفاته فقيل انه توفي على اثر سم يقتل بعد تناوله سنة وقيل بل اغتسل في يوم بارد فحمّ خمسة عشر يوماً لايخرج الى الصلاة وهذا أصحّ وأمر عمراً أن يصلي بالمسلمين في مدة مرضه وكانت آخر كلماته وهو يحضر « اللهمَّ توفني مسلماً والحقني بالصالحين » وكانت وفاته بين المغرب والعشاء ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الاخرة سنة ١٣ هجرية اما مولده فكان بعد الفيل ثلاث سنوات وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة اشهر وعشرة ايام وقيل عشرين يوماً وقبل وفاته اوصى بالخلافة الى عمر على ماسيجيء

اما صورة ابي بكر على ماصوّره المؤرخون فقد كان ابيض البشرة خفيف العارضين محني القامة لايتمسك ازاره معروق الوجه نحيفاً اقنى الانف غائر العينين

« ترجمة سعد بن عبادة »

اما سعد بن عبادة الذي اجتمع المهاجرون والانصار في سقيفته يوم وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام وكان في نية الانصار مبايعته بالخلافة يومئذٍ فهو سعد بن عبادة الانصاري الصحابي الخزرجي الساعدي سيد الخزرج وزعيمها الاكبر وكان نقيب بني ساعدة وصاحب راية الانصار في المشاهد

وَسِرْتَ نَحْوَ أَبِي بَكْرٍ تَرُومُ تَلَا فِي فِتْنَةٍ خَيْرُ مَا يُلْفَى تَلَافِيهَا
بَايَعْتَهُ بَيْعَةً قَدْ كَانَ يَنْشُدُهَا وَبَعْثُهَا مَنْ غَدَا بِالْبُشْرِ يَشْرِيهَا
وَقَدْ طَلَبْتَ بِهَا لِلدِّينِ عِزَّتَهُ الـ ـقُعْسَا الَّتِي كُنْتَ قَبْلَ النَّاسِ جَانِيهَا
وَإِنْ تَنَافَسَ أَرْبَابُ الْجِهَادِ بِهَا فَأَنْتَ أَوَّلُهَا لَا مِنْ أَوَالِيهَا

أمير المؤمنين في وفاة فاطمة الزهراء

عَرِّجْ عَلَى طِيبَةٍ وَانْزِلْ مَغَانِيهَا وَسَائِلِ النَّاسَ شَاكِيهَا وَبَاكِيهَا
لَعَلَّ يَلْقَاكَ فِيهَا مَنْ يُجِيبُكَ عَنْ تِلْكَ الشُّجُونِ الَّتِي عَمَّتْ أَهَالِيهَا
أَلَا تَرَى النَّاسَ فِي خَافِي مَنَازِلِهَا إِلْفَ الْهُمُومِ بِهَا تُفْضِي لِبَارِيهَا
وَكُلُّ خِلٍّ يُسِرُّ الْكَرْبَ يَنْفُثُهُ لِصَحْبِهِ وَبِهِ هَمْسًا يُنَاجِيهَا
أَصِخْ لَعَلَّكَ تَدْرِي مَا يُضَعْضِعُ سُكَّـ ـانَ الْمَدِينَةِ مَكِّيهَا وَطِيبِيهَا
أَوْ عَلَّ صُفْرَةَ هَاتِيكَ الْوُجُوهِ بِهَا غِنًى عَنِ الْقَوْلِ أَنْ تُبْدِيهِ مِنْ فِيهَا
نَعَمْ لَقَدْ جَزِعَتْ مِنْ مِحْنَةٍ دَهَمَتْ بِإِثْرِ أُخْرَى فَأَنْسَتْهَا تَهَنِّيهَا
فِي أَمْسِهَا رُزِئَتْ رُزْءًا يُهَادِنُهَا وَالْيَوْمَ إِبْنَتُهُ الْأَقْدَارُ تَنْعِيهَا
وَهَالَهَا أَنَّ بِنْتَ الْمُصْطَفَى ذَهَبَتْ غَضْبَى إِلَيْهِ فَتَشْكُو وَهُوَ مُشْكِيهَا
وَمَنْ بِحَقِّكَ لَا يَعْنَى بِفَاطِمَةٍ وَمَنْ بِكُلِّ عَزِيزٍ لَيْسَ يَفْدِيهَا

النبوية كلها. وكان مشهوراً بالكرم وكذلك كان آباؤه من قبله . ومن نوادر كرمه انه كان يبعث الى رسول الله جفنةً مملوءةً ثريداً ولحماً في كل يوم منذ حلَّ المصطفى في المدينة المنورة الى ان سار الى لقاء ربه في جنانه ولم يبايع ابا بكر كما تقدم القول وقاطع المسلمين على عهده ولما تولى عمر الخلافة ابى الاقامة في المدينة فهجرها وخرج الى الشام وما زال هناك الى ان توفي في حوران من بلاد الشام في سنة ١٥ للهجرة

(١) ان انفجاع سيدة نساء العالمين سيدتنا فاطمة الزهراء على ابيها وعليها وعلى آلهما الصلاة والسلام كان على قدر حبه النبوي لكمالاتها وطهرها وقداستها فكلاهما كان عظيماً والذي أزاد «السيدة» لجعةً وابعد عن قلبها الطاهر مواطن التعزية هو خروج الخلافة من بيتها وحرمان زوجها منها مع انها كانت تحسب انها حقٌّ موروثٌ شرعيٌّ لسيدنا عليٍّ لا خلاف عليه ولا جدال فيه . ونحن نمسك القلم عما روى الرواة وكتب الكتاب وسطر المؤرخون عن مسعى سيدتنا فاطمة الزهراء لارجاع الخلافة الى زوجها وما اتيت في سبيل ذلك من الدلال لان ذكر بعضه لا كله مما يؤلم القلوب ويجرح

وَكَيفَ قَدْ أَصْبَحَتْ مِنْ بَعْدِ مَا عَلِمَتْ ... بِأَنَّ لِلْمَوْتِ كَانَ ٱلْحُزْنُ حَادِيَهَا
وَأَنَّهَا لَقَضَتْ عَنْ لَوْعَةٍ وَأَسًى ... قَدْ أَوْهَيَاهَا فَمَا أَجْدَى تَدَاوِيهَا
وَأَنَّهَا ٱحْتَرَقَتْ فِي نَارِ زَفْرَتِهَا ... وَلَمْ يَكُنْ دَمْعُهَا ٱلْهَامِي مُطَفِّيَهَا
وَأَنَّهَا غَرِقَتْ فِي سَيْلِ أَدْمُعِهَا ... وَمَا ٱلزَّفِيرُ مِنَ ٱلتَّغْرِيقِ مُنْجِيهَا
وَأَنَّهَا قَدْ غَدَتْ فِي قُرْبِ وَالِدِهَا ... تَأْوِي ٱلْجِنَانَ ٱلَّتِي ٱلْأَبْرَارُ تَأْوِيهَا
أَجَلْ فَبِنْتُ رَسُولِ ٱللهِ مَا صَبَرَتْ ... عَلَى ٱللَّيَالِي ٱلَّتِي أَدْجَتْ دَيَاجِيهَا
وَمَا ٱسْتَطَاعَ عَلِيٌّ مَعْ بَلَاغَتِهِ ... بِسَرْدِ آيِ ٱلتَّأَسِّي أَنْ يُؤَسِّيَهَا
وَلَمْ تَزَلْ كَارِثَاتُ ٱلدَّهْرِ تُنْحِلُهَا ... وَلِلْمَنِيَّةِ بِالْإِسْرَاعِ تُمْشِيهَا
حَتَّى قَضَى ٱللهُ أَنْ تَقْضِي بِكُرْبَتِهَا ... حَزِينَةَ ٱلنَّفْسِ كَانَ ٱلْيَأْسُ غَاشِيَهَا
بِذِمَّةِ ٱللهِ ذَاتِ ٱلطُّهْرِ فَاطِمَةً ... وَٱللهُ فِي رَحَبَاتِ ٱلْخُلْدِ مُثْوِيهَا
لَئِنْ قَضَتْ وَهِيَ يَا لَلهِ سَاخِطَةٌ ... فَالْمُصْطَفَى فِي ٱلسَّمَا ٱلْعَلْيَا يُرَاضِيهَا
وَإِنْ تَكُنْ حُرِمَتْ فِي ٱلْأَرْضِ تَسْلِيَةً ... فَفِي ٱلْجِنَانِ تُلَاقِي مَا يُسَلِّيهَا
لٰكِنَّهَا تَرَكَتْ مِنْ بَعْدِهَا ٱلْحَسَنَيْـ ... ـنِ يَبْكِيَانِ عَلَى وَافِي تَحَنِّيهَا
وَغَادَرَتْ بَعْلَهَا يَبْكِي لِفُرْقَتِهَا ... أَمْنًا وَيُمْنًا وَتَوْجِيهًا وَتَرْفِيهَا
وَخَطْبُهَا ضَاعَفَ ٱلْحُزْنَ ٱلْمُبَرِّحَ فِي ... نَفْسِ ٱلْعَلِيِّ ٱلَّذِي مَا ٱنْفَكَّ يَرْثِيهَا
وَبَعْدَ مَا أُودِعَتْ فِي وَسْطِ حُفْرَتِهَا ... لِرَحْمَةِ ٱللهِ وَٱلْإِجْلَالُ غَاشِيهَا

العواطف وحسبنا ان نحيل القاريء الكريم الى كتب التاريخ ليستخلص منها ما اغضينا عن ذكره ونحن آسفون . وكل مانقوله هنا ان سيدتنا فاطمة كانت تخرج الى الانصار مستخفية تحت جنح الظلام تستنصرهم لزوجها عليهما الصلاة والسلام فكانوا يقولون لها لولا انبايعنا أبا بكر لما تأخرنا عن بيعة علي ولكن سبق السيف العزل ومما لاجدال فيه ان المسألة لم تكن سبق بالبيعة ومسابقة الى الخلافة ولكن تفرّق في كلمة الجماعة رجحت معها الفيئة التي كان بجانبها عمر بن الخطاب المعروف بشدّته وهيبته فقد قبض بيده الحديدية على زمام الحالة واشتدَّ على المهاجرين والانصار لجمع كلمتهم راضين ومكرهين على بيعة ابي بكر وهكذا تمَّ الفوز له

. اما سيدتنا فاطمه الزهراء فاثرت على صحتها الشريفة وفاة ابيها عليهما الصلاة والسلام اولاً وضياع الخلافة من يد زوجها ثانياً والشدة التي لقيتها من عمر بن الخطاب ثالثاً ولم يكن لها مايسليها ويعزّيها وما زالت اليفة حزنٍ وكربٍ وهمٍّ وغمٍّ حتى تسلطت الامراض على جسدها الطاهر فماتت

تَطَلُّعَ ٱلْمُرْتَضَى ٱسْتِطْلَاعَ ذِي لَهَفٍ إِلَى ٱلتُّرَابِ ٱلَّذِي أَمْسَى مُغَطِّيهَا
ثُمَّ إِلَى تُرْبَةِ ٱلْهَادِي تَوَجَّهَ فِي أَلِيمِ أَحْزَانِهِ مَا ٱسْطَاعَ يُخْفِيهَا
وَقَالَ: يَا أَحْمَدُ ٱلْهَادِي عَلَيْكَ سَلَا مِي مَعْ سَلَامِ ٱلَّتِي تَهْوَى تَلَاقِيهَا
هٰذِي ٱلَّتِي لَحِقَتْ عُلْيَاكَ مُسْرِعَةً وَفِي جِوَارِكَ حَلَّتْ كَيْ تُوَاسِيهَا
قَلَّ ٱصْطِبَارِيَ قِلًا عَنْ صَفِيَّتِكَ ٱلـ ـزَّهْرَا وَنَفْسِيَ هٰذَا ٱلْخَطْبُ مُوهِيهَا
لٰكِنْ بِفُرْقَتِكَ ٱلْعُظْمَى وَجَدْتُ لِنَفْـ ـسِي فِي ٱلْمُصِيبَةِ هٰذِي مَا يُسَلِّيهَا
مَا بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي إِنَّ نَفْسَكَ قَدْ فَاضَتْ وَلَبَّتْ نِدَا رَبٍّ يُنَادِيهَا
وَفِي حَفِيرَتِكَ ٱلْعَلْيَا دَفَنْتُكَ مَحْـ ـزُونًا وَلَوْعَةُ نَفْسِي أَنْتَ تَدْرِيهَا
لِلّٰهِ نَحْنُ وَنَحْنُ ٱلرَّاجِعُونَ إِلَيْـ ـهِ رَجْعَةً لَيْسَ مِنَّا مَنْ يُعَاصِيهَا
إِنَّ ٱلْوَدِيعَةَ مِنِّي ٱلْيَوْمَ قَدْ أُخِذَتْ وَٱسْتُرْجِعَتْ لَمْ تَكُ ٱلْأَقْدَارُ تُرْجِيهَا
وَإِنَّ حُزْنِيَ بَاقٍ سَرْمَدًا أَبَدًا بِهِ طِوَالُ ٱللَّيَالِي أُضْتُ أُحْيِيهَا
حَتَّى يَخَارُ لِيَ ٱللّٰهُ ٱلرَّحِيمُ دِيَا رًا أَنْتَ يَا خَيْرَ خَلْقِ ٱللّٰهِ تَثْوِيهَا
وَإِنَّ إِبْنَتَكَ ٱلزَّهْرَاءَ تُخْبِرُكَ ٱلْأَ م خْبَارَ عَنْ حَالِنَا ٱلسُّوءَى وَتَرْوِيهَا
وَسَوْفَ تَعْلَمُ مِنْهَا أَنَّ أُمَّتَكَ ٱلْـ ـحَرْبَا عَلَى هَضْمِهَا أَمْسَى تَجَمُّعُهَا
فَأَحْفِهَا كَرَمًا مِنْكَ ٱلسُّؤَالَ وَكُنْ مُسْتَخْبِرًا حَالَنَا مِنْهَا فَتَحْكِيهَا
هٰذَا وَلَمْ يَطُلِ ٱلْعَهْدُ ٱلْمَجِيدُ بِنَا عَهْدُ ٱلنُّبُوَّةِ فِي سَامِي تَجَلِّيهَا
وَٱلذِّكْرُ مِنْكَ ٱلَّذِي يَحْلُو تَذَكُّرُهُ مَا أَخْلَقَتْهُ ٱللَّيَالِي فِي تَتَالِيهَا

بعد وفاة المصطفى بستين يوماً وقيل سبعين يوماً وقيل ستة اشهر والاجماع على انها ماتت وهي غضبة غير راضية على ماجرى. وروى بعضهم ان أبا بكر إجتهد كثيراً ليسترضيها فما رضيت وماتت وهي معلنه بان حقوق زوجها عليهما الصلاة والسلام قد غصبت ونهبت

وعند ما استأثرت رحمة الله بنفسها الطاهرة على صدر سيدنا علي زوجها اسرع بتجهيزها ودفنها في حجرتها في بيتها المتاوح لبيت رسول الله في جوار المسجد النبوي الآن وقد سبق لنا وصف تربتها الشريفة في حاشية سابقة . وبعد ان تمّ دفنها وقف علي عليه صلوات الله على قبرها الطاهر وقال : « السلام عليك يارسول الله ، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك . والسريعة اللحاق بك . قلّ يارسول الله عن صفيتك صبري . ورقّ عنها تجلدي . الا ان لي في التأسي بعظيم فرقتك . وفادح مصيبتك . موضع تعزٍّ . فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك .

ثُمَّ سَلَامٌ عَلَى رُوحَيْكُمَا عَطِرٌ   أَتْلُوهُ مَا فِي ٱلسَّمَا لَالَتْ دَرَارِيهَا
سَلَامُ غَيْرِ بَغِيضٍ لَا وَلَا سَئِمٍ   مُوَدِّعٍ زَهِدَ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
إِنِ ٱنْصَرَفْتُ فَلَيْسَ ٱلْإِنْصِرَافُ مَلًا   لَا وَٱلْمَلَالَةُ مِثْلِي لَا يُدَانِيهَا
وَإِنْ أَقَمْتُ فَمَا عَنْ سُوءِ ظَنِّيَ بِاللهِ ٱلْمُعَزِّي ٱلْحَزَانَى فِي تَعَازِيهَا
وَلَا بِمَا وَعَدَ ٱللهُ ٱلْأُلَى صَبَرُوا   عَلَى ٱلْمَصَائِبِ دَاهِيهَا وَقَاسِيهَا
بِذَا لَقَدْ وَدَّعَ ٱلْمَحْزُونُ حَيْدَرَةٌ   بِنْتَ ٱلرَّسُولِ ٱلَّتِي يَبْكِي تَنَائِيهَا
وَٱلْحُزْنُ أَشْغَلَهُ عَمَّا أَهَمَّ سِوَا   هُ مِنْ مَطَامِعِ دُنْيَا خَابَ رَاجِيهَا

أمير المؤمنين وخلافة عمر

مَا طَالَ عَهْدُ أَبِي بَكْرٍ بِإِمْرَتِهِ   وَلَا خِلَافَتُهُ ٱمْتَدَّتْ لَيَالِيهَا (١)
وَإِذْ أَحَسَّ بِأَنَّ ٱلْمَوْتَ مُعَجِّلُهُ   وَأَنَّ سَاعَاتِهِ تَخْذِي ثَوَانِيهَا
أَوْصَى بِهَا لِأَبِي حَفْصٍ وَسَطَّرَهَا   تِيكَ ٱلْوَصِيَّةَ عُثْمَانٌ لِمُمْلِيهَا
ثُمَّ دَعَا عُمَرًا أَسْدَى نَصِيحَتَهُ   إِلَيْهِ قَالَ: ٱلرَّعَايَا كُنْ مُدَارِيهَا

فانّا لله وانا اليه راجعون . فلقد استرجعت الوديعة . واخذت الرهينة . اماحزني فسرمد. واما ليلي فسهد . الى ان يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم . وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها . فاحفها السؤال . واستخبرها الحال . هذا ولم يطل العهد . ولم يخلق منك الذكر . والسلام عليكما . سلام مودّعٍ لا قالٍ ولا سئمٍ . فإن انصرف فلا عن ملالة . وان أقم فليس عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين » اه

وكان للمرتضى عليه صلوات الله في موت فاطمة مايزيد زهده في الدنيا وما فيها فسار الى ابي بكر وبايعه وانحلت المشكلة التي كانت تقلق الخواطر في ذلك الحين .

(١) ان المؤرخ المدقّق بسير الدولة الاسلامية في عهد ابي بكر يجد بكل صراحة انَّ عمراً ابن الخطاب كان مستشار ابي بكر الاكبر في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ فلا عجب اذا عهد اليه أبو بكر بالخلافة عند ما حضرته الوفاة وهذا الذي كانت تنتظره صحابة رسول الله على ماسترى في قصة هذا العهد على اننا نستطيع ان نقول ان عهد ابي بكر لعمر قد صار سابقة ارتكن عليها المسلمون في الخلافة على نحو مافعل بنو امية في الشام والعباسيون في العراق والفاطميون في المغرب ومصر وليس لي ان اتوسع في هذا الموضوع البادي الخطر ولكن هل يتسامح معي قرّاء علويتي المباركة فاسأل عما انا مشتبه به فاقول : هل عهد ابو بكر لعمر بالخلافة لانه وجده الاكفأ لها ؟ أو انه رأى في ترك الخلافة لاجتهاد الصحابة خطر شقاق احبَّ ان يتلافاه ؟ الله اعلم

وَبَعْدَ ذَا سَارَ عَبْدٌ بِالْوَصِيَّةِ كَيْ ... يُذِيعَهَا قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مُوَصِّيهَا

وَسَارَ مَعَهُ أَبُو حَفْصٍ لِيَجْمَعَ أَنْـ ... ـصَارَ ٱلنُّبُوَّةِ جَمْعاً مَعْ صَحَابِيهَا

حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ فِي قُرْبِ دَارِ أَبِي ... بَكْرٍ وَلَمْ تَدْرِ مَا دَاعِي تَنَادِيهَا

نَادَى بِهَا عُمَرٌ: إِنَّ ٱلْخَلِيفَةَ قَدْ ... أَوْصَى وَصِيَّتَهُ صَغْياً لِقَارِيهَا

وَرَاحَ عَبْدُ أَبِي بَكْرٍ يُذِيعُ عَلَى ٱلنَّـ ... ـاسِ ٱلْوَصِيَّةَ فِي أَجْلَى مَعَانِيهَا

فَصَاحَتِ ٱلنَّاسُ سَمْعاً لِلْخَلِيفَةِ صَيْـ ... ـحَةً دَوَى فِي ٱلْفَضَا إِذْ ذَاكَ دَاوِيهَا

ثُمَّ ٱلْخَلِيفَةُ مِنْ مِنْفَاذِ غُرْفَتِهِ ... قَدْ شَارَفَ ٱلنَّاسَ يَبْغِي أَنْ يُفَاهِيهَا

وَقَالَ: هَلَّا رَضِيتُمْ مَنْ عَهِدْتُ لَهُ ... وَلَيْسَ مِنِّيَ أَخَا قُرْبَى أُرَاعِيهَا

عَهِدْتُ فِيكُمْ مِنْ بَعْدِي إِلَى عُمَرٍ ... بِذِي ٱلْخِلَافَةِ هَلْ بِتُّمْ مُطِيعِيهَا

قَالُوا: نَعَمْ فَٱنْثَنَى عَنْهُمْ لِفَرْشَتِهِ ... مُعَالِجاً سَكَرَاتِ ٱلْمَوْتِ غَاشِيهَا

فَجَاءَهُ ٱبْنُ عَوْفٍ قَائِلاً: عُمَرٌ ... ذُو غِلْظَةٍ فَهْوَ قَاسِي ٱلنَّفْسِ جَافِيهَا

فَكَيْفَ وَلَّيْتَهُ أَمْرَ ٱلرَّعِيَّةِ نَا ... دَى: لَا تَخَفْهَا وَلَا تَرْهَبْ تَمَادِيهَا

قَدْ كَانَ يَغْلُظُ إِنْ أَبْدِي ٱللُّيُونَةَ أَوْ ... يَلِينُ إِنْ غِلْظَةٌ لِلنَّاسِ أُبْدِيهَا

لما عرف أبو بكر ان الموت نازل به لامحالة استدعي اليه عثمان بن عفان وكان يستكتبه غالباً وقال له اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماعهد أبو بكر بن ابي قحافة عثمان اما بعد » ولم ينته ابو بكر الى هذه الكلمة حتى اغمي عليه فسرع عثمان من عند نفسه وكتب وابو بكر مغمى عليه « فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب لم آلكم خيراً » واخد بعد ذلك يرقب أبا بكر الى ان أفق فقال اقرأ علي ما كتبت فقرأ ما كتبه حتى الذي كان من عند نفسه فكبّر ابو بكر وقل اراك خفت ان يختلف الناس ان متّ في غيبتي . قل نعم . قل جزاك الله عن الاسلام واهله خيراً . ولي هنا ان اسأل هل كان عثمان مجتهداً فكتب اسم عمر في العهد وابو بكر في غشيته أم كان مضطلعاً على سرّ هذا العهد ؟ . ثمَّ انَّ ابا بكر اتمَّ املاء العهد فكانت صورته هكذا « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماعهد ابو بكر بن ابي قحافة عثمان ، اما بعد فاني قد استخلفت عليكم عمر ابن الخطاب ولم آلكم خيراً . حيث أجلت رأيي . واعملت فكري . فرأيت ان هذا الامر لا يصلح آخره . الا بما يصلح به اوله . ولا يحتمله الا افضل العرب مقدرةً . واملكهم لنفسه . واشدّهم في حال الشدة . واسلسهم في حال اللين . واعلمهم برأي ذوي الرأي . لا يتشاغل بما لا يعنيه . ولا يحزن لما لم ينزل به . ولا يستحي من التعلم . ولا يتحير عند البديهة . قويّ على الامور . ولا يجوز بشيء منها حدّهُ وعدواناً ولا تقصيراً . يرصد لما هو آتٍ عتاده من الحذر » اه

وبعد ان تمت كتابة العهد استدعى ابو بكر عمراً فلما مثل بين يديه قل له : « اني قد

فَسَارَ مُقْتَنِعًا أَوْ غَيْرَ مُقْتَنِعٍ   بِحَالَةٍ لَيْسَ غَيْرُ ٱللهِ يَدْرِيهَا
فَجَاءَهُ طَلْحَةٌ وَٱلنَّارُ تَقْدَحُ مِنْ   عَيْنَيْهِ مَا كَانَ غَيْرُ ٱلْحِقْدِ مُلْظِيهَا
وَقَالَ : مَا أَنْتَ عِنْدَ ٱللهِ مُعْتَذِرٌ   بِهِ غَدًا إِنَّ جِنَانَ ٱلْخُلْدِ تَأْتِيهَا
وَقَدْ تَرَكْتَ لَنَا فَظًّا فَأَنْفُسُنَا   تَخْشَاهُ فَٱشْفِقْ عَلَيْهَا مِنْ مُخَشِّيهَا
إِنَّ ٱلْقُلُوبَ لَفِي قَاسِي غَلَاظَتِهِ   لَابُدَّ تَنْفَضُّ عَنْهُ وَٱلْقِلَا فِيهَا
فَقَالَ : وَيْلَكَ هَلْ بِٱللهِ تُرْهِبُنِي   وَفَعْلَتِي هَلْ عَلَيَّ ٱلْيَوْمَ تَنْعِيهَا
فَإِنْ يَقُلْ خَالِقِي مَا أَنْتَ قَائِلُهُ   أَقُلْ عَلَى أُمَّتِي وَلَّيْتُ ذَاكِيهَا
فَسَارَ هٰذَا وَمَنْ يَدْرِي خَبِيئَةَ صَدْ   رِهِ ٱلَّتِي كَانَ عَنْ كُرْهٍ مُخَبِّيهَا
كَذَا ٱلْخِلَافَةُ بَاتَتْ فِي يَدَيْ عُمَرٍ   مِنْ قَبْلُ أَنْ يَتَوَفَّى ٱللهُ رَاعِيهَا
وَبَعْدَ مَوْتِ أَبِي بَكْرٍ وَلَحْدَتِهِ   بِقُرْبِ طٰهَ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ مُوصِيهَا
تَسَابَقَتْ أُمَّةُ ٱلْهَادِي لِمَسْجِدِهِ   إِطَاعَةً لِأَبِي حَفْصٍ مُنَادِيهَا
هُنَاكَ قَامَ خَطِيبًا بَيْنَهَا فَدَعَا   هَا أَنْ تُطِيعَ فَمَا أَبْدَتْ تَعَصِّيهَا
وَنَالَ بَيْعَتَهَا طُرًّا وَلَمْ يَكُ مَوْ   لَانَا ٱلْعَلِيُّ لِذَاكَ ٱلْعَهْدِ آبِيهَا

استخلفتك على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاوصيك بتقوى الله » ثمَّ قال : « ياعمر انَّ لله حقاً بالليل ولا يقبله في النهار . وحقــاً في النهار لايقبله في الليل . وانه لايقبل نافلة حتىَّ تؤدَّى الفريضة . ألم ترَ ياعمر انما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحقَّ وثقله عليهم . وحقٌّ لميزان لايوضع فيه غداً الاَّ حقٌّ أن يكون ثقيلاً . ألم ترَ ياعمر انما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتبـاعهم الباطل وخفَّته عليهم . وحقٌّ لميزان أن لا يوضع فيه الاَّ باطلٌ أن يكون خفيفاً . ألم ترَ ياعمر انما نزلت آية الرخاء مع آية الشدَّة . وآية الشدة مع آية الرخاء ؟ . ليكون المؤمن راغباً راهباً ، لايرغب رغبةً يتمنى فيها على الله ماليس له . ولا يرهب رهبةً يلقي فيها بيديه . ألم ترَ ياعمر انما ذكر الله أهل النار باسوأ أعمالهم فاذا ذكرتهم قلت اني لا أرجو أن اكون منهم . وانه ذكر أهل الجنة بأحسن اعمالهم لانَّه تجاوز لهم عمَّا كان من سيء . فاذا ذكرتهم قلت : أين عملي من اعمالهم ؟ . فان حفظت وصيتي فلا يكوننَّ غائب أحبَّ اليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه » اه

وبعد ان اوصى ابو بكر عمراً بمـا تقدم ارسل عهده مع غلام له يحرسه عمر ليقرأه على الناس فخرج عمر بالغلام ومعه العهد فجمع المسلمين حيال بيت أبي بكر وقرأ الغلام العهد بينما كان يقول لهم عمر انصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله فانَّه لم يألكم نصحاً . فلما انتهت تلاوة العهد قال الناس سمعنا واطعنا فلما سمع ابو بكر وهو على فراشه صياح الناس بقولهم سمعنا واطعنا تحامل

لَـكِنَّمَا هَمَسَتْ تُقَادُ عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ بِآذَانِ مَنْ كَانَتْ تُنَاجِيهَا
وَسَارَ فِي ٱلنَّاسِ قَوْلٌ لَا جَوَابَ لَهُ هَلِ ٱلْخِلَافَةُ إِرْثٌ كَيْ يُلَجِّيهَا
وَكَانَ يُدْعَى أَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةَ طـٰـهَ فِي خِلَافَتِهِ مِنْ كُلِّ أَهْلِيهَا
وَإِذْ قَضَى وَتَوَلَّى بَعْـدَهُ عُمَرٌ قَدْ حَارَتِ ٱلنَّاسُ فِي تَلْقِيبِ وَالِيهَا
ثَنَّتْ بِتَلْقِيبِهِ لَفْظَ ٱلْخَلِيفَةِ لَـٰكِنْ ثِنْيَةُ ٱللَّفْظِ مَا طَابَتْ لِوَاعِيهَا
فَٱسْتَحْسَنَتْ بَعْدَهَا تَلْقِيبَهُ بِأَمِيـرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِهِ يَدْعُوهُ دَاعِيهَا
فَكَانَ أَوَّلَ مَدْعُوٍّ بِهِ وَغَـدَتْ مِنْ بَعْدِهِ ٱلْخُلَفَا يَتْلُوا أَسَامِيهَا
وَرَأْيُ حَيْدَرَةٍ فِي ذِي ٱلْخِلَافَةِ يُلْـفِيهِ بِخُطْبَتِهِ ٱلْغَـرَّاءِ قَارِيهَا
فَقَالَ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ قُبَيْلَ وَفَاتِهِ إِلَى عُمَرٍ قَدْ رَاحَ مُولِيهَا
فَاعْجَبْ لَهُ وَهُوَ حَيٌّ كَانَ يَطْلُبُ أَنْ يُقَالَ مِنْهَا وَيَشْكُو مِنْ تَوَلِّيهَا
حَتَّى إِذَا مَا قَضَى أَمْسَى مُوَرِّثَهَا لِآخَرٍ بَعْـدَهُ يَهْوَى تَدَرِّيهَا
لَشَدَّ مَا ٱقْتَسَمَا دُونَ ٱلصَّحَابَةِ ضَرْعَيْهَا وَقَدْ رَوِيَا مِنْ دَرِّ أَثْدِيهَا
وَبَعْدُ صَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشُنَتْ جُرُوحُهَا غَلُظَتْ قَدْ خَابَ آسِيهَا
مِنْهَا لَيَـكْثُرُ قَوْلُ ٱلْاِعْتِذَارِ وَيَكْـثُرُ ٱلْعِثَارُ كَمَا يَخْشَى ٱلْوَرَى فِيهَا

على نفسه واخرج راسه من شرفة بيته وقال « أترضون بمن استخلفت عليكم ؟ فني لم استخلف عليكم ذا قرابة . واني قد استخلفت عليكم عمراً . فاسمعوا له وأطيعوا . فاني والله ما آلوت من جهد الرأي » فاجابوه سمعنا وأطعنا .

اما اكابر الصحابة فما راق لهم استخلاف عمر فسار عبدالرحمن بن عوف اليه وقال له : ان عمراً لذو غلظة وقد استخلفته علينـا فقال أبو بكر : ذاك لانـه يراني رقيقاً ، ولو قد أفضي الامر اليه لترك كثيراً مما هو عليه ، وقد رمقته اذا انا غضبت على رجل اراني الرضى عنه ، واذا ألنت له أراني الشدّة عليه فخرج ابن عوف والله يعلم ما في نفسه . فدخل طلحة على أبي بكر وقال : ما انت قائل لربك غداً يا أبا بكر وقد ولّيت علينا فظاً غليظاً تفرق منه النفوس وتنفضّ عنه القلوب . فقال ابو بكر اسندوني وكان مستلقيـاً على ظهره فاسندوه فجلس وقال لطلحة : أبالله تخوّفني ؟ واذا قال لي الله ذلك قلت ولّيت عليهم خير أهلك . فخرج طلحة وفي نفسه مالا يعلمه الا الله اما سيدنا علي عليه صلوات الله فانـه لم يدخل في هذا الامر ولم يكن له فيه رأي

وبعد وفاة ابي بكر دفنه عمر بجوار رسول الله وجعل رأسه عند منكبيه صلى الله عليه وسلم وخرج بعد ذلك الى المسجد فخطب في الناس واخذ يبعهم فلم يتخلف الناس عنهـا وبالبداهة فيهم

كَالنَّاقَةِ ٱلصَّعْبَةِ ٱلْهَوْجَاءِ لَيْسَ أَمِيـــناً مِنْ مُفَاجَأَةِ ٱلأَخْطَارِ مَاطِنُهَا
إِنْ رَامَ يُشْنِقُهَا لَا شَكَّ يَخْرِمُ أَنْـــفَهَا وَتُؤْذِيهِ إِنْ أَمْسَى مُوَاتِيهَا
وَعَمْرُكَ ٱللهَ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ مُنِيَتْ بِهَا فَمَا هِيَ تَدْرِي كَيْفَ تَمْشِيهَا
فَمِنْ شِمَاسٍ إِلَى خَبْطٍ بِعَيْدَ تَلَوُّ نٍ وَسُوءِ ٱعْتِرَاضٍ فِي تَخَطِّيهَا
وَهٰذِهِ مُحْنَتِي مَعْ هَوْلِ شِدَّتِهَا وَطُولِ مُدَّتِهَا بِالصَّبْرِ أُجْلِيهَا
ذَا قَوْلُ حَيْدَرَةَ فِي أَمْرَةِ عُمَرٍ قَدْ كَانَ آخِذَهَا مِنْ كَفِّ مُعْطِيهَا
لٰكِنَّهُ كَانَ أَسْمَى هِمَّةً وَتُقًى أَنْ يَبْخَسَ ٱلنَّاسَ شَيْئاً مِنْ مَآتِيهَا
فَقَالَ فِي عُمَرٍ أَيْضاً مَقَالَةَ حَـــقٍّ مِثْلُهُ لَيْسَ يَرْضَى أَنْ يُوَارِيهَا
فَقَالَ: لِلّٰهِ أَرْضٌ أَنْبَتَتْ عُمَراً فَقَدْ رَأَيْنَاهُ سُبْلَ ٱلْخَيْرِ يَأْتِيهَا
فَإِنَّمَا ٱلأَوَدُ ٱلْمُعْوَجُّ قَوَّمَهُ وَكَانَ لِلْعِلَلِ ٱلشَّتَّى مُدَاوِيهَا
وَسُنَّةُ ٱلْمُصْطَفَى حَقّاً أَقَامَ وَلٰـــكِنْ خَلَّفَ ٱلْفِتْنَةَ ٱلْكُبْرَى وَمُوْرِيهَا
وَسَارَ وَهْوَ نَقِيُّ ٱلثَّوْبِ غَيْرُ كَثِيـــرِ ٱلْعَيْبِ مُتْرِكاً بَلْوَى نُعَانِيهَا
وَكَانَ مُجْتَنِباً خَيْرَ ٱلْخِلَافَةِ سَا بِقاً شُرُوراً تَعَالَى صَوْتُ شَاكِيهَا
بِحَقِّ خَالِقِهِ قَدْ كَانَ خَائِفَهُ وَإِنَّ طَاعَتَهُ أَمْسَى مُؤَدِّيهَا

الراضون وفيهم المتظاهرون بالرضاء وهم كارهون وكان في جملة المبايعين سيدنا عليّ عليه صلوات الله ولم يعد سمع عمر ما كان يتهامس به بعضهم عن عهد أبي بكر له فتجاهله

ثمَّ ان الناس صاروا يسمون عمراً خليفة خليفة رسول الله لانَّ أبا بكر كانوا يسمونه خليفة رسول الله وكأنهم اعتبروا عمراً خليفة أبي بكر . ثمَّ انهم استثقلوا هذه التسمية فسموا عمراً « أمير المؤمنين » فكان أول من لقب بهذا اللقب

اما رأي سيدنا علي عليه صلوات الله باستخلاف ابي بكر لعمر فقد أبانه باحدى خطبه اذ قال:

« حتى مضى الاوَّل لسبيله ، فأدلى بها الى ابن الخطاب بعده ، فياعجباً بين هو يستقيلها في حياته ، اذ عقدها لآخر بعد وفاته ، لشدَّ ماتشطَّرا ضرعيها، فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ، ويخشن مسُّها ، ويكثر العثار فيها ، والاعتذار منها فصاحبها كراكب الصعبة ، ان اشنق لها خرم ، وان اسلس لها تقحَّم . فمني الناس لعمر الله بخبطٍ وشماس . وتلوُّنٍ واعتراض . فصبرت على طول المدَّة وشدة المحنة » اه

واشار المرتضى بقوله هذا الى ما كان يقوله ابو بكر في حياته مراراً وتكراراً « أقيلوني منها » وهو يعجب كيف كان يطلب في حياته الاستقالة من الخلافة ثمَّ يعهد بها الى غيره على عهدته

وَخَلَّفَ ٱلنَّاسَ لَمَّا مَاتَ فِي طُرُقٍ   تَشَعَّبَتْ أَتْعَبَتْ تَاللهِ مَاشِيَهَا

مَا إِنْ بِهَا ٱلْمُهْتَدِي مُسْتَيقِنٌ وَكَذَا   مَنْ ضَلَّ مَا زَالَ فِيهَا يَشْتَكِي ٱلتِّيهَا

بِذَا أَشَارَ عَلِيٌّ لِلْخِلَافَةِ فِي   عَهْدٍ بِهِ عُمَرٌ قَدْ كَانَ كَاسِيهَا

وَكَيْفَ أَمَّنَهَا حَيًّا وَخَلَّفَهَا   مِنْ بَعْدِهِ لِصُرُوفِ ٱلدَّهْرِ تُشْقِيهَا

فَكَانَ مُنْصِفَهُ فِي حُكْمِهِ وَفِعًا   لَهُ ٱلْحِسَانُ بِخَيْرِ ٱلْمَدْحِ مُبْدِيهَا

أمير المؤمنين في خلافة عمر

كَانَ ٱلْعَلِيُّ لِذَاكَ ٱلْعَهْدِ مُلْتَزِمًا   شَرِيعَةَ ٱلْمُصْطَفَى يُبْدِي خَوَافِيهَا(١)

يُفْتِي بِهَا بَيْنَ أَهْلِيهَا ٱلأُلَى عَرَفُو   هُ أَوْسَعَ ٱلنَّاسِ فِي ٱلأَحْكَامِ تَفْقِيهَا

وَكَانَ يَقْصِدُهُ فِي كُلِّ مُعْضِلَةٍ   بَدَتْ لَهُ عُمَرٌ يَدْعُوهُ مُفْتِيهَا

وَذَاتَ يَوْمٍ أَبُو حَفْصٍ لَقَدْ نَزَلَتْ   بِهِ مُلِمَّةُ سُوءٍ رَامَ يَتَّقِيهَا

وَلَمْ يَجِدْ ذَا حِجًى مِنْ صَحْبِهِ وَمُشِيـ   ـرِيهِ بِصَائِبِ آرَاءٍ يُجَلِّيهَا

قَالَتْ : وَهَلْ مَفْزَعٌ إِلَّاكَ يَا عُمَرُ   إِنْ تَدْهَمِ ٱلنَّاسَ فِي يَوْمٍ دَوَاهِيهَا

فَقَالَ: لَا تَكْتُمُوا ٱلرَّأْيَ ٱلسَّدِيدَ فَمَا ٱلْـ   ـعُرُوشُ تُدْعَمُ إِلَّا فِي مُشِيرِيهَا

بعدمماته أيم الله انّ في ذلك لعجباً

على ان مولانا العلي عليه صلوات الله هو أسمى وأعلى ندراً وهمة ان يبخس الناس أشياءهم واذا كان يرى حقه قد غصب اولاً وثانياً وثالثاً فان ذلك لم يمنعه عن ان يقول في عمر بن الخطاب وعهده كلمة حق فقال : « لله بلاد فلان (واجمع مفسرو نهج البلاغة على انّ فلاناً هذا هو عمر بن الخطاب كما انّ في المقال ما يشير اليه) فقد قوّم الأود ، وداوى العمد ، واقام السنة ، وخلّف الفتنة ، ذهب نقيّ الثوب ، قليل العيب ، اصاب خيرها ، (ويريد الخلافة) وسبق شرّها ، أدّى الى الله طاعته ، واتّقاه بحقه ، رحل وتركهم (اي المسلمين) في طرق متشعبة ، لا يهتدي بها الضال ، ولا يستعين المهتدي » اهـ ولعمر الحق قد انصف امير المؤمنين عمراً في حكمه ولم يأخذ عليه الا تركه الناس من بعده على ما تركهم عليه مما كثرت منه الشكوى وعمت فيه البلوى على ماسترى

(١) من المعلوم ان النزاع كان شديداً بين القائلين بخلافة سيدنا علي عليه صلوات الله وانها غصبت منه اولاً وثانياً وثالثاً وبين الذين لم ينكروا انه كان الافضل والاخلق بها مع اجازة ولاية المفضول بحضور الافضل واننا لانتعرض لاقوال هؤلاء وهؤلاء على كثرتها ولكننا نقول ان هذين الفريقين ولك ان تسميهم اهل السنة وأهل الشيعة بحثوا طويلاً وتجادلوا ملياً في موقف سيدنا علي بإزاء الخلفاء الثلاثة الذين تقدموه ولكل فريق من ذينك الفريقين استنتاجات استنتجوها لتأييد

فَلَمْ يَكُنْ مِنْ ذَوِيهِ رَبُّ مَشْوَرَةٍ ... يُزِيحُ نَازِلَةً قَدْ رَاحَ خَاشِيهَا
فَقَالَ : أَعْلَمُ مَعْكُمْ بِٱلْخَبِيرِ بِهَا ... وَبِٱبْنِ نَجْدَتِهَا مُجْلِي دَيَاجِيهَا
قَالُوا : لَعَلَّ ٱلَّذِي تَعْنِيهِ حَيْدَرَةٌ ... فَإِنَّ آرَاءَهُ مَا مَنْ يُخَطِّيهَا
أَجَابَ : مَا مِثْلُهُ مِنْ حُرَّةٍ طَفَحَتْ ... وَمَا سِوَاهُ لَهُ ٱلْحَاجَاتُ أُسْدِيهَا
قَالُوا : أَلَا فَٱدْعُهُ حَالًا لِمَجْلِسِكَ ٱلْــــعَالِي وَدَعْوَتُكَ ٱلْعَلْيَا يُلَبِّيهَا
أَجَابَ : إِنَّ هُنَا شَمْخَ ٱلْقَرَابَةِ مِنْ ... طَـهَ وَإِثْرَةَ عِلْمٍ قَدْ تُوَازِيهَا
يُؤْتَى وَهَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِيْ وَسَاحَتُهُ ... أَخْلَقُ بِنَا أَنْ نُرَاعِيهِ وَنَأْتِيهَا
هُبُّوا إِلَيْهِ فَهَبُّوا وَٱلْخَلِيفَةُ مِنْــــهُمْ لِلَّذِي فَاقَ كُلَّ ٱلنَّاسِ تَجْوِيهَا

رأيهم . على ان مالا ريب فيه ان سيدنا امير المؤمنين عليه صلوات الله كان ابل غايه واسمى قدراً من ان يضيع مصلحة الاســلام حباً بمصلحته مع انه على ما هو صريح من خطبه وكتبه والاقوال المأثورة عنه انه كان ثابت عند القول بانّ حقه في الخلافة قد غصب ونهب . وخليق بنا معاشر العرب ونحن على ابواب نهضةٍ جديدةٍ نسأل الله ان تـكون مباركة ان تمتثل بهذا الامام الاكبر فلا ينقم صاحب حقّ وقد سلب منه على الامة ويعمد الى الاضرار بها انتقاماً لحقه المغصوب لما تعلم ان الافراد تفتدي الجمــاعات نفوسها ولـكن لايجوز ان تذهب الجماعات فداءً للافراد

وكان سيدنا علي عليه صلوات الله في عهد ابي بكر ملازماً بيته يعنى بجمع ما تفرّق من كتاب الله وافتاء المسلمين بما يشكل عليهم من امور دينهم ولا يبخل على الخليفة بالنصح والارشــاد اذا استنصحه واسترشد برشده وقد فعل . وكذلك كان في عهد عمر فقد كان لا يألوه نصحاً وارشاداً ووعظاً وتنبيهاً وكان عمر أعرف الناس بقدر امير المؤمنين وعلمه واحرصهم على اكرامه وتمجيده والتنويه باسمه تدلك على ذلك القصة التالية :

حدّث المحدثون ان عمراً نزلت به يوماً نازلةٌ فقام لها وقعد وترنّح لها وتقطّر وقال لمن عنده : يامعشر الحـاضرين ماتقولون في هذا الامر ؟ فقالوا يا امير المؤمنين أنت المفزع والمنزع فغضب وقال : يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً . ثم قال : أما والله إني وايّاكم لنعلم ابن نجدتها والخبير بها . قالوا : كأنّك أردتَ ابن ابى طالب . قال : وانّى يـعدل بي عنه ؟ وهل طفحت حرّةٌ مثله ؟ قالوا : فلو دعوت به يا امير المؤمنين . قال : هيهات ان هنــاك شمخاً من هاشمٍ واثرةً من علمٍ ولحمةً من رسول الله يـؤتى ولا يأتي فامضوا بنـا اليه . فاقصفوا نحوه وافضوا اليه فألفوه في حائطٍ له عليه تبـّان وهو يتركل على مسحاته ويقرأ أيحسب الانسان ان يترك سدىً الى آخر السورة وكانت دموعه تهمي على خديه وأجهش الناس لبكائه فبكوا ثمّ سكت فسكتوا فسأله عمرُ عن تلك الواقعة فأصدر جوابها . فقــال عمر : اما والله لقد ارادك الحقّ ولـكن أبى قومك . فقال امير المؤمنين عليه صلوات الله : يا أبا حفص خفض عليك من هنا ومن هنا انّ يوم الفصل كان ميقاتاً . فوضع عمر احدى يديه على الاخرى واطرق الى الارض وخرج كأنه ينظر في رماد . اهـ

حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَوْا مِنْ دَارِهِ دَخَلُوهَا بِٱحْتِرَامٍ لِمَنْ بِٱلْمَجْدِ يَثْوِيهَا
أَلْفَوْهُ مُؤْتَزِراً تُبَّانَهُ وَبِخَلْوَةٍ بِهَا ٱلْعِزَّةَ ٱلْعَلْيَا يُنَاجِيهَا
وَكَانَ يَتْلُو تُقًى آيَ ٱلتَّزَهُّدِ كَيْ يُرَوِّضَ ٱلنَّفْسَ تَرْوِيضاً فَيُشْجِيهَا
وَكَانَ يَبْكِي فَأَبْكَاهُمْ وَيَطْلُبُ ٱلرِّضَى لِأُمَّتِهِ مِنْ فَضْلِ بَارِيهَا
حَتَّى إِذَا كَفْكَفَ ٱلدَّمْعَ ٱلْهَطُولَ وَكَفْكَفُوا ٱلدُّمُوعَ ٱلَّتِي فَاضَتْ مَجَارِيهَا
أَبْدَى لَهُ عُمَرٌ خَافِي مَشَاكِلِهِ وَقَالَ: مَا ٱلرَّأْيُ قُلْ لِي كَيْ أُدَارِيهَا
فَرَاحَ يُبْدِي عَلِيٌّ مِنْ زَكَانَتِهِ ٱلرَّأْيَ ٱلسَّدِيدَ لِيَجْلُوهَا وَيَتَّقِيهَا
فَأَدْهَشَ ٱلنَّاسَ ذَيَّاكَ ٱلذَّكَاءُ وَلَمْ تَجْهَلْهُ مِنْ قَبْلُ أَنْ أَمْسَى مَفَاهِيهَا

نقول ومن هذه الموقعة تعلم كيف كان عمر يحترم امير المؤمنين عليه صلوات الله ويقدر قدر فضله وعلمه وكيف كان امير المؤمنين حاضر الذهن سديد الرأي يحلّ المشاكل التي تعرض له بالسرعة التي حلها لعمر وهو واقف بين يديه وما هذا بكثير على سيدنا علي على ماعرف الناس من علمه وفضله

وكان عمر على ماعلم الناس شديداً سريع الغضب كثير الصخب وهذا مجمع عليه لا اختلاف فيه وكانت الصحابة والانصار تتقيه وتخشاه الاسيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله فقد كان وحده يتصدّى له ويعترضه وكيف لا يكون كذلك وهو الذي ماكان يرهب في الحق لومة لائم . وحدث في ذات يوم ان عمراً استدعى امرأة حاملاً لتأدية شهادة أمامه فجهضت فرقاً من هيبته وشدته فأمر باخراجها من حضرته وبقي بوجل من مسؤلية اجهاضها امام الله والشريعة فاستفتى في ذلك أكابر الصحابة فقالوا لاحرج عليك في شدّتك وانما أنت مربٍّ . وكان في ذلك المجلس سيدناأمير المؤمنين عليه صلوات الله فغضب للشريعة غضبةً « هاشميةً » وقال: حنانيك ياعمر فان كان أصحابك بما قالوا قد راقبوك فقد غشوك وان كان جهد رأيهم فقد أخطئوا . والحقيقة انّك مذنب في هذه الشدة التي سببت هذا الضرر وعليك تحرير رقبة كفارة عن ذنبك فرجع عمر الى حكمه وأمر بتحرير رقبة وقال « لولا عليّ لهلك عمر » وكان عمر يكرر هذا القول في كل موطن يتصدّى له فيه سيدنا عليّ عليه صلوات الله للمحافظة على حقوق الله كما هو مشهور

وماكان سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله يبخل على عمر بنصائحه الرشيدة وآرائه السديدة سواء في سياسة الأمة أو في حروبه مع الروم والفرس على ماهو مشهور ومعلوم

وقصارى القول انّ أمير المؤمنين كان يخلص النصيحة لعمر حباً بمصلحة الاسلام والمسلمين وماكانت تشغله عن المصلحة العامة مصلحته الخاصة التي ضاعت فهل فيما نحن معاشر العرب من ينحو نحوه ويتأثر خطواته اذا ضاعت مجهوداته وبُخس حقه في هذا العصر ؟

« ترجمة عمر بن الخطاب »

هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في لؤي .

وَقَالَ لِلْمُرْتَضَى رَبُّ ٱلذَّكَا عُمَرٌ   مَقَالَةً قَالَ قَبْلاً مَا يُضَاهِيهَا
أَرَادَكَ ٱلْحَقُّ لٰكِنَّ ٱلْأَنَامَ أَبَتْ   تِلْكَ ٱلْإِرَادَةَ نَادَى ٱلْمُرْتَضَى: إِنَّهَا
خَفِّضْ عَلَيْكَ أَبَا حَفْصٍ بِحَقِّكَ مِنْ   هُنَا وَمِنْ هٰهُنَا ٱلْأَقْوَالُ تُلْقِيهَا
فَإِنَّمَا كَانَ يَوْمُ ٱلْفَصْلِ عِنْدِيَ مِيــقَاتاً وَأَحْوَالُهُ أَدْرِي خَوَافِيهَا
فَدَقَّ كَفّاً بِكَفٍّ سَاهِياً عُمَرٌ   بِنَظْرَةٍ لِلثَّرَى قَدْ رَاحَ مُلْقِيهَا
وَسَارَ تَتْبَعُهُ أَصْحَابُهُ وَعَلِــيٌّ عَادَ لِلْخَلْوَةِ ٱلْمَحْمُودُ رَاضِيهَا
وَتِلْكَ مَوْقِعَةٌ مَا بَيْنَ حَيْدَرَةٍ   وَبَيْنَهُ مَا خَلَتْ مِمَّا يُدَانِيهَا
كَذَاكَ كَانَ عَلِيٌّ وَحْدَهُ يَتَصَــدَّى لِلْخَلِيفَةِ تَذْكِيراً وَتَنْبِيهَا

وأما أمه فهي حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وكان مولده في مكة في عام ١٣ بعد الفيل فهو أصغر من رسول الله بـ ١٣ سنة . وأسلم عمر بعد جماعةٍ من الناس وبعد ان كان أشدَّ الناس على المسلمين وكان سبب اسلامه أن أخته وبعلها أسلما سرّاً من عمر فدخل اليهما خباب بن الارت يعلمهما الدين خفيةً فوشى بهم واشٍ الى عمر فجاء دار أخته غاضباً فتوارى خباب منه داخل البيت فقال عمر : ماهذه الهينمة عندكم ؟ قالت أخته : ماعدا حديثاً تحدثناه بيننا . قال : أراكما قد صبوتما . قال صهره أرأيت ان كان هو الحق ؟ فوثب عليه عمر فوطئه وطئاً شديداً فجاءت أخته فدفعته عنه فنفحها بيده فدمى وجهها ثم ندم ورقَّ وجلس واجماً . فخرج اليه خباب فقال : أبشر ياعمر فاني أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله لك الليلة قد استجيبت فانه لم يزل يدعو منذ الليلة « اللهمَّ أعزَّ الاسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » قال عمر صدقت ياصاح وانطلق لساعته وهو متقلد سيفه الى دار الارقم بن الارقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفون بها ورسول الله معهم وكان وقتئذٍ على الباب حمزة وطلحة وأناس من المسلمين فوجل القوم من عمر الا حمزة فانه قال قد جاءنا عمر فان يرد الله به خيراً يهده وان يرد غير ذلك كان قتله علينا هيناً . وكان رسول الله عندئذ في غرفته مختلياً يناجي ربه فسمع كلامهم وخرج وأخذ بمجامع ثوب عمر وحمائل سيفه وقال « ماأنت بمنته ياعمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهمَّ هذا عمر اللهمَّ اعزَّ الاسلام بعمر » فقال عمر في الحال « أشهد أنَّ لااله الاالله وأنَّ محمداً رسول الله » ففرح المصطفى والمسلمون باسلامه فرحاً كثيراً

وكان عمر شديداً غليظاً بقدر ماكان غيوراً حازماً يدلك على غلظته معارضته رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبيه وله مع المصطفى كثير مثلها ولكن المصطفى كان يتسامح معه لما يعلمه من غيرته وحسن نيته . وتعرف شدَّته من معارضته رسول الله يوم طلب اللوح والدواة ليكتب مايؤمن الناس الضلال بعده . وقد ظهرت شدَّته على أشدها في مجتمع السقيفة حيث أراد أن يقتل سعداً وهو زعيم الانصار على ماعلمت لانه أبى بيعة أبي بكر ولولا أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف لقتله . وكان في عهد أبي بكر هو المنصرف بشؤون الخلافة بشدته واعتذر

وَهُوَ ٱلَّذِي دَوَّنَ ٱلتَّارِيخُ شِدَّتَهُ   وَقَالَ: كَانَتْ وُجُوهُ ٱلْعُرْبِ تَتْقِيهَا
فَكَانَتِ ٱلنَّاسُ تَخْشَاهُ وَتَرْهَبُ صَخْـبَةً   لَهُ كَانَ لَا يَنْفَكُّ سَاخِيهَا
وَقَدْ دَعَا حَامِلًا يَوْمًا لِحَضْرَتِهِ   يَبْغِي ٱلشَّهَادَةَ مِنْهَا كَيْ تُؤَدِّيهَا
فَأَجْهَضَتْ فَرَقًا مِنْهُ وَأَنْزَلَتِ ٱلْـ   ـجَنِينَ خَوْفًا فَنَادَى مَنْ يُنَحِّيهَا
وَسَارَ مُسْتَفْتِيًا جَمْعَ ٱلصَّحَابَةِ فِي   جِنَايَةٍ قَالَ عَمْدًا لَسْتُ جَانِيهَا
فَأَجْمَعَتْ وَقَضَتْ أَنْ لَا قِصَاصَ عَلَيْـ   ـهِ إِنَّهُ لِرَعَايَاهُ مُرَبِّيهَا
إِلَّا ٱلْعَلِيُّ فَنَادَاهُ بِلَا رَهَبٍ   إِنَّ ٱلصَّحَابَةَ قَدْ سَاءَتْ فَتَاوِيهَا
فَإِنْ تُرَاقِبْكَ فِيهَا فَهْيَ خَادِعَةٌ   أَوْ كَانَ ذَا عِلْمُهَا إِنِّي مُخَطِّيهَا

عنه أبو بكر بأنه كان يشتدُّ عند مايرى أبا بكر يلين للناس ويلين عند ماكان يشتدّ . وكان في مدة خلافته لايجرأ أحد من زعماء الصحابة والانصار على مواجهته ومخالفة رأيه الا سيدنا عليّ أمير المؤمنين ولم يذكر المؤرخون ان غيره من أكابر الصحابة والانصار قوي على مناهضته أو جري على مخالفة أوامره . ومن شدته انه حجر عليهم جميعاً في المدينة المنورة فما كان يسمح لاحدهم بمبارحتها الا من كان موضع ثقته منهم فاستخدمه في حروبه أو ولاه الحكم على بلاده ورعاياه

وفي عهد عمر امتدَّت الفتوحات الاسلامية امتداداً عظيماً ونصر الله المسلمين على مملكتي الروم والفرس بسرعة هائلة فأصبحت دولة الخلافة واسعة السلطان عظيمة الجاه . وكان عمر قابضاً عليها بيده الحديدية يسيرها على الروح الاسلامية التي بثها محمد بن عبد الله بوحي من الله

وكان عمر تقياً ورعاً زاهداً غيرمفرّط في أحكام الشريعة الا انه كان يتوسَّع في هاتيك الاحكام على ماتقتضي به مصلحة الدولة بعد أن اتسعت ودانت لها مصر والشام واليمن والعراق وفارس أومعظمها

واجمال القول ان عمراً الذي كان في الجاهلية يرعى الابل وينقل عليها متاجره الى الشام ومصر وفارس قد برهن على اقتدار عجيب في السياسة والرئاسة والكفاءة النادرة في توسيع سلطان المسلمين الى أبعد مدى كان ينتظر في السنوات العشر التي تربَّع بها على عرش الخلافة

وتزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جمح من قريش فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الاكبر وحفصة التي تزوجها رسول الله . وتزوج في الجاهلية أيضاً مليكة ابنة جرول من خزاعة فأولدها عبيد الله وقد فارقها في هدنة الحديبية . وتزوج قريبة ابنة أبي أمية وفرقها. وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة . وتزوج جميلة بنت قيس من الانصار فولدت له عاصماً وطلقها . وتزوج أم كلثوم بنت سيدنا عليّ فولدت له زيداً ورقية ومات عنها . وتزوَّج لهيَّة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الاصغر . وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو . وخطب أم كلثوم ابنة أبي بكر التي ولدت له بعيد وفاته وهي صغيرة وأرسل فيها الى أختها عائشة زوجة رسول الله وكانت تربيها عندها فقالت الامر اليك ثمّ خاطبت الفتاة أم كلثوم بذلك فقالت لاحاجة لي فيه فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين ؟ فقالت نعم انه خشن العيش شديد على النساء

عَلَيْكَ تَحْرِيرُ عَبْدٍ كَيْ تُكَفِّرَ عَنْ جِنَايَةٍ أَنْتَ عِنْدَ ٱلشَّرْعِ آتِيهَا
فَلَمْ يَسَعْ عُمَراً إِلاَّ ٱلْخُضُوعُ لِأَحْكَامِ ٱلشَّرِيعَةِ نَادَى: أَنْتَ قَاضِيهَا
وَقَالَ لَوْلَا عَلِيٌّ مَا نَجَا عُمَرٌ مِنَ ٱلْهَلَاكِ وَأَتْلَى ٱلْقَوْلَ تَأْوِيهَا
نَعَمْ فَإِنَّ عَلِيّاً فِي ٱلشَّرِيعَةِ لَا يَبْغِي سِوَى مُرْتَضَى ٱلرَّحْمٰنِ مُوحِيهَا
وَلَا يَهَابُ عَظِيماً فِي أَوَامِرِهَا وَلَا يُمَارِي وَجِيهاً فِي نَوَاهِيهَا
وَكَانَ يَعْرِفُ قَدْرَ ٱلْمُرْتَضَى عُمَرٌ مُنَوِّهاً بِٱسْمِهِ فِي ٱلْخَلْقِ تَنْوِيهَا
وَهْوَ ٱلْمُشِيرُ عَلَيْهِ فِي مُعَالَجَةِ ٱلصِّعَابِ مِنْ بَعْدِ أَنْ تُعْيِي مُشِيرِيهَا
وَكَانَ مُتَّبِعاً آرَاءَهُ بِحُرُوبِ ٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ لَمَّا رَاحَ صَالِيهَا
وَلَمْ يَكُنْ عُمَرٌ يَوْماً لِيُنْكِرَ آلَاءَ ٱلْعَلِيِّ ٱلَّتِي ٱلتَّارِيخُ يُنْشِيهَا

فأرسلت عائشة الي عمرو بن العاص فأخبرته بذلك فقال اكفيك عمراً وسار اليه فقال له ياأمير المؤمنين بلغني خبر أعيذك بالله منه قال ماهو ؟ قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر قال نعم أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني ؟ قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين عائشة في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك ولا نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها ان خالفتك في شيء فسطوت بها فكنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير مايحق عليك قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب تعلق بها بنسب من رسول الله فاقتنع عمر وتزوج بأم كلثوم . وكذلك خطب عمر أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت « يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً »

وكان عمر مشهوراً بعدله وفضله وكمالاته شهرةً لايختلف فيها اثنان الا انه مع ماعرف عن حزمه وسداد رأيه عجز عن ضمان راحة المسلمين من بعده كما ضمنها في حياته فترك الامر شورى من بعده عرضةً للقضاء والقدر والباحثون المدققون في التاريخ مازالوا في حيرة من هذا الامر او انهم كانوا ولا يزالون يتحاشون الخوض فيه بحرية يتعذر على المؤرخين الاستمساك بها من غير ان يتعرضوا الى ما لايحبون من الغمز واللمز وعندي على ضعف رأيي وقلة علمي ان عمراً الذي طالما لحظ توسع معاوية في الشام وعجز عن استخلاصها منه كما فعل مع غيره من العمال مافاته ان هذا الداهية الاموي سينصر بعده عثماناً بن عفان وهو اموي مثله ومن عمومته تحقيقاً لمطامع امية التي كانت لها الزعامة في قريش على عهد الجاهلية وهي تصبو الى استعادتها في الاسلام نعم مافاته هذا كما لم يفته حق بني هاشم في الخلافة ولاسيما زعيمهم الاعظم سيدنا امير المؤمنين فحار في أمره ولم يجد وسيلةً للخلاص من هذا المأزق الا بترك الخلافة لشورى حصرها في الستة الباقين من العشرة الذين مات رسول الله وهو راض عنهم تاركاً لهم ان يدبروا امرهم بانفسهم وهذا كان غاية اجتهاده على انه لم يكن اجتهاداً صحيحاً لما حدث على اثره من الثورات والفتن على ماسنبين ذلك فيما يجيء

أمير المؤمنين والتاريخ الهجري

وَلَمْ تَكُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْإِسْلَامِ ذَاكِرَةً تَارِيخَ أَعْمَالِهَا إِمَّا تُسَمِّيهَا(١)

وَلَا رَسَائِلُهَا كَانَتْ تُؤَرَّخُ كَيْ يَدْرِي لَهَا زَمَنَ ٱلْإِرْسَالِ قَارِيهَا

كَذَاكَ كَانَتْ تَحَارِيرُ ٱلْخَلِيفَةِ مَا ٱلْـ ـعُمَّالُ أَوَّلُهَا تَدْرِي وَثَانِيهَا

وَقَدْ يُحَرَّرُ فِي أُخْرَى رَسَائِلِهِ مَا فِيهِ يَنْسَخُ أُولَاهَا وَيُلْغِيهَا

كَانَتْ تَحَارُ بِهَا ٱلْعُمَّالُ جَاهِلَةً أَيَّ ٱلْأَوَامِرِ يَبْغِيهَا لِتُجْرِيهَا

وَٱلْأَشْعَرِيُّ بِذَا أَفْضَى إِلَى عُمَرٍ وَقَالَ كُتْبُكَ تَتْرَى حَارَ تَالِيهَا

وَمَا لَهَا زَمَنٌ فِيهِ تُؤَرِّخُهَا كَيْمَا نُلِمُّ بِبَادِيهَا وَتَالِيهَا

فَذَاكَرَ ٱلْقَوْمَ فِي تَارِيخِهِ عُمَرٌ يُرِيدُ فَتْوَى حَصِيفُ ٱلرَّأْيِ يُفْتِيهَا

فَكَانَ مِنْهَا ٱلَّتِي رَامَتْ مُتَابَعَةَ ٱلْأَ مِ عُجَامِ قَالَتْ بِهِ إِنَّا نُمَاشِيهَا

وَمَنْ أَشَارَتْ بِتَارِيخِ ٱلْيَهُودِ وَقَا لَتْ نَحْنُ فِيهِ خَلِيقٌ أَنْ نُجَارِيهَا

وَمَنْ أَشَارَتْ بِعَامِ ٱلْفِيلِ قَائِلَةً قُرَيْشٌ ٱتَّخَذَتْهُ قَبْلُ هَادِيهَا

---

(١) لم يهتم المسلمون بأمر التاريخ حتى عهد عمر بن الخطاب فكانت كتب المصطفى عليه الصلاة والسلام وكتب أبي بكر وعمر نفسه كما كانت كتب عمال الدولة الاسلامية وكتب المسلمين بعضهم لبعض غفلاً من تاريخ كتابتها ومازال الحال كذلك الى السنة السابعة عشرة للهجرة وكان الناس اذا جرى بينهم ذكر ولادة أحدهم أو موقعة من مواقعهم جعلوا تاريخها من عام الفيل الذي هو عام مولد رسول الله أو من حرب الفجار أو من بناء الكعبة الى مثل ذلك من الحوادث التي كانت مشهورة بينهم . وأول من انتبه الى وجوب ايجاد تاريخ ثابت يرجعون اليه في تاريخ كتبهم ووقائعهم هو ابوموسى الاشعري عامل عمر على البصرة فانه كتب الى عمر يقول « تأتينا كتبك وليس لها تاريخ نعرف منه موعد صدورها فيشتبه علينا قديمها من جديدها وناسخها من منسوخها فهلاً اتخذت لها تاريخاً يزيل عنا الاشكال وتنتظم معه الاحوال؟؟ » فلما انتهى هذا الكتاب الى عمر انتبه لسدّ هذه الثلمة وجمع أعيان الصحابة والانصار وعرض عليهم طلب ابوموسى وسألهم أيّ تاريخ نتبع ؟ فقال قوم منهم ان الاولى أن نتبع تاريخ الفرس وقال آخرون بل نتبع تاريخ اليهود وقال غيرهم بل الاولى بنا أن نتبع تاريخ الفيل الذي كنا نستعمله في جاهليتنا فاعترضهم أمير المؤمنين عليه صلوات الله وقال : « بل نتبع تاريخ هجرتنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله فانه بدء مجد ديننا الحنيف» فوافق عمر والحاضرون على قوله وحسبوا السنين التي مرّت عليهم منذ هجرتهم الى ذلك العهد فاذا هي سبعة عشر حولاً فدعوا عامهم العام ١٧ للهجرة . ثم تباحثوا في الشهر الذي تبتديء منه سنتهم الهجرية فقال بعضهم رمضان لانه أكرم الشهور عند الله وفيه نزل القرآن وقال آخرون

فَصَاحَ حَيْدَرَةٌ كَلَّا وَأُمَّتُنَا لَهَا ٱلْمَزَايَا ٱلَّتِي ٱلتَّارِيخُ يُسْنِيهَا
وَهُجْرَةُ ٱلْمُصْطَفَى مِنْهَا مَفَاخِرُنَا تَبْدَا فَحَقٌّ لَنَا تَدْوِينُهَا فِيهَا
فَقَالَتِ ٱلنَّاسُ: نِعْمَ ٱلرَّأْيُ رَأْيُكَ يَا عَلِيُّ زَادَكَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ تَجْوِيهَا
وَإِنَّهَا مِنْ حَكِيمٍ حِكْمَةٌ بَلَغَتْ مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلأَغْرَاضِ عَالِيهَا
وَسَارَتِ ٱلنَّاسُ مِنْ ذَاكَ ٱلزَّمَانِ عَلَى تَارِيخِ هُجْرَتِهَا تُحْصِي مَآتِيهَا

أمير المؤمنين في خلافة عثمان

وَبَيْنَمَا عُمَرٌ يَوْمًا بِمَسْجِدِ طَـهَ لِلصَّلَاةِ وَمَا صَلَّى مُصَلِّيهَا(١)
إِذْ خَرَّ مُلْقًى وَمَطْعُونًا بِسِتِّ جِرَاحَاتٍ يُهَدِّدُهُ بِٱلْمَوْتِ دَامِيهَا
وَكَانَ طَاعِنَهُ مَوْلَى ٱلْمُغِيرَةِ إِيثَارًا لِأُمَّتِهِ إِذْ رَاحَ غَازِيهَا

بل المحرم أولى أن يكون بدء السنة الهجرية اذ فيه ينصرف الناس من حجهم فخليق أن يحسبوه بدء سنتهم فتفقوا على ذلك . ومن ذلك العهد أخذ المسلمون يؤرخون كتبهم ووقائهم الهامة على الحساب الهجري . وكان العرب منذ جاهليتهم يتمشون على القمر ويحسبون شهورهم على سيره فتبدأ عند اهلاله وتنتهي عند تمام محاقه فظلوا كذلك بعد الاسلام الى يوم الناس هذا

أما عام الفيل الذي كانت قريش تؤرخ منه حوادثها فقصته ان ابرهة ملك الحبشة قدم الحجاز ونزل مكة ومعه خلق كثير وكانوا يركبون الفيلة فارسل الله عليهم طيراً أبابيل فأهلكتهم وهكذا بمعجزة سموية سلط الله يده من ذلك الغازي الذي كان قادماً لتهديمه وقد أشار الله سبحانه الى هذا الحادث في قرآنه الشريف . ولما هلك صاحب الفيل وقومه عزت قريش وهابتهم الناس كلهم .وفي عام الفيل هذا ولد المصطفى صلى الله عليه وعلى اله وسلم على قول أكثر المؤرخين .

(١) بلغ ملك المسلمين من السعة ماشاء الله أن يبلغ في أقرب ما يكون من الزمن على عهد عمر بن الخطاب وذلك بفضل الله وعونه واخلاص المسلمين في دينهم وعدلهم في فتحهم وحكمهم حتى دانت لهم الشام والحجاز وفارس وعجزت عن لقائهم دولتا الروم والفرس وجيء الى المدينة المنورة بغلمان من الفرس كانوا سبياً فاستعبدوهم منهم فيروز الملقب بأبي لؤلؤة وكان هذا غلاماً للمغيرة بن شعبة وكان يبيح له العمل لقاء درهمين في كل يوم يدفعهما خراجاً له فجاء أبو لؤلؤة هذا يوماً الى عمر وهو يطوف في أسواق المدينة وقال له أعنّي على المغيرة بن شعبة فان عليّ خراجاً كثيراً قال : وكم خراجك ؟ قال درهمان في كل يوم قال عمر : وما هي صناعتك؟ قال نجار ونقاش وحداد قال : فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الاعمال وقد بلغني عنك انك لو أردت لعملت رحاً تطحن بالريح قال : نعم قال: فاعمل لي رحاً قال : ان عشت لاعملن لك رحاً يتحدث بها من في المشرق والمغرب وانصرف فقال عمر . لقد توعدني العبد

جرى هذا الحديث بين عمر وأبي لؤلؤة قبل أربعة أيام من مقتله فما اهتمّ عمر بتهديد الغلام

لِأَنَّهُ فَارِسِيٌّ شَامَ دَوْلَتَهُ ... قَدْ جَاسَتِ ٱلْعُرْبُ دَانِيهَا وَقَاصِيهَا

وَبَدَّدَ ٱللهُ كِسْرَاهُ وَسُؤْدُدَهُ ٱلْـ ... ـعَالِي وَنِيرَانَهُ مَعْ مُسْتَشِيبِيهَا

وَدَانَتِ ٱلْفُرْسُ قَارِيهَا وَبَادِيهَا ... لِلْمُسْلِمِينَ ٱلأُلَى حَلُّوا مَغَانِيهَا

فَهَالَهُ مَا رَأَى مِنْ ذُلِّ أُمَّتِهِ ... وَهَمَّ يَبْغِي ٱنْتِقَامًا مِنْ مُذِلِّيهَا

وَلَمْ يَجِدْ ثَأْرَهُ مِنْ أُمَّةٍ خَضَدَتْ ... مَعَزَّةَ ٱلْفُرْسِ إِلَّا عِنْدَ رَاعِيهَا

وَأَنْفَذَ ٱلنِّيَّةَ ٱلسَّوْدَاءَ فِي عُمَرٍ ... مَعْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ مَا كَانَ مُزْجِيهَا

وَسَارَتِ ٱلنَّاسُ بِٱلْمَجْرُوحِ طَالِبَةً ... شِفَا ٱلْجُرُوحِ وَوَافَى مَنْ يُدَاوِيهَا

ولا احتاط لنفسه منه وقيل ان كعب الاحبار اليهودي جاء عمراً وأنبأه بأنه سيموت بعد ثلاثة أيام على ما يتراأى له في التوراة في اليوم التالي لحادثته مع أبي لؤلؤة وانه كرر عليه ذلك في اليومين السابقين لمقتله واني لاستبعد هذه الرواية لان عمر على ما كان عليه من الشدة والهيبة لا يبعد من أن يتحمل من كعب الاحبار انذاره بالموت اليوم بعد اليوم وهو لا يشكو ألماً كما ان أولاد عمر لا يبعد من أن لا يتخذوا كعب الاحبار كشريك مع الذين تآمروا على عمر أو عارف بتلك المؤامرة التي أفضت الى قتله فيقتلونه مع من قتلوا ممن اشتبهوا بهم

وظاهر السبب الذي حمل أبا لؤلؤة الفارسي على تهديد عمر ثمَّ الفتك به هو تظلمه اليه من ثقل الخراج الذي كان يدفعه لسيده المغيرة وردّ عمر له بقوله ان ذلك الخراج ليس بكثير ولو كان أبو لؤلؤة ناقماً من تحمل ذلك الخراج حقيقةً لكان الأولى أن يقتل المغيرة الذي يتقاضاه منه لانه عدوّه المباشر ومستبعده لا من عمر وهو حاكم المسلمين الاكبر وامامهم الاعظم ولا بدَّ أن يكون هنالك دافع له على الجريمة غير دافع الانتقام من سبب بسيط كهذا

على ان قد شاع بين المسلمين بعد أن جُرح عمر ان الجريمة كانت على أثر مؤامرة اذ روى عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر بأنه رأى جفينة والهرمزان وأبا لؤلؤة يتهامسون فلما وقعت عيونهم عليه اضطربوا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فلما روى عبد الرحمن هذه الرواية جيء له بالخنجر الذي قتل به عمر فقال هو نفس الخنجر الذي سقط من أيدي أولئك المتآمرين وأنت تعلم أن الثلاثة الذين ذكرهم عبد الرحمن بن أبي بكر هم من الفرس فاذا صحت الرواية وهي صحيحة بشاهد الخنجر يكون أولئك الثلاثة قد تآمروا على قتل عمر وان المنفذ لهاتيك الجريمة كان أبو لؤلؤة فما الداعي لهذه الجريمة ياترى ؟؟

ان المسلمين على شهادة عبد الرحمن بن أبي بكر اتهموا هؤلاء الثلاثة غير انهم لم يتمهلوا لاستطلاع طلع سرّهم في جريمتهم ففي حال طعن عمر في المسجد تبع أبا لؤلؤة رجل من التيم فقتله وأخذ الخنجر من يده وبعد وفاة عمر أسرع ابنه عبيد الله الى الهرمزان وجفنة وقتلهما وهكذا قتل الثلاثة من غير أن يسألوا عن جريمتهم والسبب الذي دفعهم اليها ولذلك بقيت سرّاً في ضمير الايام

والذي أراه هو ان الاثنين من هؤلاء الثلاثة وهما أبو لؤلؤة والهرمزان مجوسيان من أهل فارس وثالثهم جفنة كان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبي وقاص الى المدينة ليعلم بها الناس

فَلَمْ يُفِدْهُ ٱلتَّدَاوِي وَٱلطَّبِيبُ لَقَدْ نَادَى: جُرُوحُكَ لَيْسَ ٱلطِّبُّ مُبْرِئَهَا
وَبَيْنَمَا عُمَرٌ فِي شَرِّ حَالَتِهِ وَسَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ تُفْنِيهِ وَيُفْنِيهَا
أَوْصَى بِشُورَى لِتَعْيِينِ ٱلْخَلِيفَةِ مُحْتَاطاً لِحَادِثَةٍ تَخْشَى طَوَارِئَهَا
وَبِٱلْبَقِيَّةِ مِنْ صَحْبِ ٱلرِّسَالَةِ نَا طَ ٱلسُّدَّةَ ٱلْمُبْتَغَى سَامِي تَرَقِّيهَا
سَعْدٌ عَلِيٌّ وَعُثْمَانٌ وَطَلْحَةُ وَٱلزُّبَيْرُ كَانَ ٱبْنُ عَوْفٍ صَاحِ سَادِيَهَا
مِنْ صُحْبَةٍ عَشَرَةٍ مَاتَ ٱلرَّسُولُ وَقَدْ أَرْضَتْهُ كُلٌّ ٱلرِّضَى جُلَّى مَسَاعِيهَا
لَهَا دَعَا عُمَرٌ وَٱلْعَهْدُ أَبْلَغَهَا ثُمَّ نَصَائِحُهُ قَدْ رَاحَ يُلْقِيهَا

الكتابة فلا يبعد أن يكون هؤلاء الناس قد ثارت ثائرتهم على عمر فتآمروا على قتله لانه رئيس الامة العربية التي دوخت قومهم الفرس وأخضعتهم لسلطانها فتكون الجريمة سياسية محضاً

ومما يذكر عن هذه الجريمة ان صهيب الذي كان وقتئذٍ نائب الخليفة الموقت قبض على عبيد الله ابن عمر قاتل الهرمزان وجفنة وسجنه لان اقدامه على قتلهما لمجرد رؤية عبد الرحمن بن أبي بكر أنهما يساران أبا لؤلؤة ومن غير اذن ولي الامر افتئات على الشرع ما كان عدل المسلمين يرضاه حتى ولو كان القتيل خليفتهم . فلما بويع عثمان بالخلافة جلس في المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر وقال لمن حوله من اكابر المهاجرين والانصار اشيروا في هذا الذي فتق في الاسلام مافتق فاختلف الناس فيما بينهم وذهب الكثيرون منهم أن يطلق سراحه بحجة انه منتقم لابيه الا سيدنا علي عليه صلوات الله فقد كان لا يعرف في في شرع الله كبيراً ولا صغيراً ولا عربياً ولا اعجمياً فقال : انه قاتل وأرى ان تقتله فقال : بعض المهاجرين قُتل عمر بالامس ويقتل اليوم ابنه وقال عمرو بن العاص : يا امير المؤمنين انَّ الله قد اعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان انما كان هذا الحدث ولا سلطان لك فقال عثمان : انا وليّ المسلمين وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي وهكذا دفع الدية عثمان واطلق سبيل عبيد الله بن عمر . وأنت ترى في هذه القضية التي عرضت على عثمان في بدء حكمه انّ علياً عليه صلوات الله كان يرى أن تظلّ للشرع هيبته في النفوس بتنفيذه على كبار المسلمين قبل صغارهم ليلزم كلُّ رجلٍ منهم حدَّه . وان المهاجرين ما استطاعوا ان يعارضوه فيما رأى الا انهم اكبروا ان يقتل الخليفة في يوم وان يقتل احد اولاده في اليوم التالي فكان دفاعهم عن القاتل من قبيل الشفقة عليه واما فتوى عمرو بن العاص فلم تكن صحيحة لان السلطان الحقيقي على الناس ليس لشخص الحاكم بل للشريعة التي قام للسهر على تنفيذها فاذا مات الحاكم او قتل لا تموت الشريعة بل تظلّ حيةً وعلى الحاكم الجديد ان ان ينفذ حدَّها على المجرمين ولو كان اجرامهم سابقاً لعهد حكمه والا للزم كلّ حاكم ان يصدر عفواً عاماً عن جميع المجرمين الذين اجرموا قبل ولايته ولم يفصل في أمرهم اذا صحت فتوى ابن العاص وعندي ان عثمان لم يفته فساد ماذهب اليه عمرو بن العاص وانما استعمل حقه كوليّ المسلمين بالعفو عن القاتل والاكتفاء بالدية التي دفعها من جيبه مؤيداً بذلك قول سيدنا عليّ بان الشرع يعتبر عبيد الله قاتلاً وجب عليه الحدّ ولكنه راعى الظروف التي حدثت فيها الجريمة وموقفه في بدء عهده بالخلافة

اما حادثة القتل فقد كانت هكذا : فانَّ عمراً بن الخطاب خرج الى الصلاة في المسجد

وَلَمْ يَكُنْ طَلْحَةٌ فِي طِيبَةٍ وَلِذَا ... قَالَ ٱنْظُرُوهُ ثَلَاثاً وَهُوَ يَأْتِينَهَا
ثُمَّتَ أَبَاطَلْحَةٍ نَادَى وَقَالَ لَهُ : ... صَحَابَةُ ٱلْمُصْطَفَى رَاقِبْ مَثَاوِينَهَا
وَلَا تَدَعْ قَبْلَ أَنْ تَقْضِي مُهِمَّتَهَا ... شَخْصاً يَزُورُ حِمَاهَا أَوْ يُنَاجِينَهَا
أُوصِ ٱلْخَلِيفَةَ بِالْعُرْبِ ٱلْكِرَامِ فَهُمْ ... إِسُّ ٱلْحَنِيفَةِ مُذْ شِيدَتْ مَبَانِينَهَا
أُوصِ ٱلْخَلِيفَةَ بِٱلْأَنْصَارِ مُحْسِنَهَا ... يَحْنُو عَلَيْهِ وَيَعْفُو عَنْ مُسِيئِينَهَا
وَبَعْدُ أَوْصَى صُهَيْباً أَنْ يَؤُمَّ عِبَا ... دَ ٱللهِ حَتَّى تُوَلِّيْ ٱلنَّاسُ وَالِينَهَا
وَقَالَ : عَوِّهِ بِدَارِ بَعْدَ دَفْنِيَ أَصْـــحَابَ ٱلْمَشُورَةِ يَا ٱبْنَ ٱلْوِدِ تَعْوِينَهَا

النبوي صباح الاحد لست ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ٢٤ للهجرة وقد استوت الناس صفوفاً للصلاة حتى اذا ماتقدم النـاس ليؤمهم وسجد ابتدره ابو لؤلؤة من ورائه بخنجر مسموم طعنه به ست طعنات كانت الثلاث الاولى في ظهره فالتفت ليرى طاعنه فعاجله بثلاث مثلها في صدره وكانت الطعنة الاخيرة في سرّته وهي التي فتكت به وقضت عليه وجرح ابو لؤلؤة معه بعض من كانوا في القرب منه

وعند ماجرح عمر أمر عبد الرحمن بن عوف وكان بجانبه ان يصلي بالناس واحتمله ابنه عبد الله وبعض المسـلمين الى داره وجيء له بطبيب يداوي جروحه فلما كشف عليهـا قال يا أمير المؤمنين وصّ ومال الى من حوله وقال انه لايشفى لجـاءه بعض المقربين منه وطلبوا منه ان يوصي بالخلافة اسوةً بابي بكر فتردّد وقال : لو كان ابو عبيدة حياً استخلفته لان رسول الله كان يسميه « امين هذه الامة » فقال بعضهم الا تستخلف ابنك عبد الله ؟ قال عمر قاتلك الله والله ما اردت هذا كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته ألا أرب لنا في اموركم ماحمدتهـا فأرغب فيها لاحد من اهلي بشيء ان كان خيراً فقد اصبنا منه وان كان شراً فشرعنا الى عمر فحسب آل عمر ان يحاسب رجل واحد ويسـأل عن امر امة محمد وقد كنت اريد ان اولي رجلاً امركم هو احراكم بان يحملـكم على الحقّ واعني به علياً ثمَّ رأيت ان لا اتحمل امركم حياً وميتاً عليـكم هؤلاء الرهط الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم من أهل الجنة ومات وهو عنهم راضٍ وهم علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص خالا رسول الله والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله فيختاروا منهم رجلاً فاذا اتفقوا على اختيار احدهم واليه فأوصه بالعرب فهم أس الخلافة وبالأنصار أن يحسن لمحسنهم ويعفو عن مسيئهم وأحسنوا موازرته واعينوه

ثمَّ انَّ عمراً دعا خمسة ممن اشار اليهم لان سادسهم وهو طلحة كان غائباً فلما اجتمعوا لديه قال لهم : اني نظرت فوجدتـكم روساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الامر الا فيـكم وقد قبض رسول الله وهو عنـكم راضٍ واني لا اخاف الناس عليـكم ان استقمتم ولـكن اخاف عليـكم اختلافكم فيما بينـكم فيختلف الناس واني لممهلـكم ثلاثة ايام بعد دفني تختارون فيها واحداً منـكم وانظروا طلحة فهو آتيـكم . ثمَّ قال لابي طلحة المقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت واحد ولا تدع احداً يختلط بهم حتى يختاروا رجلا منهم .

ثمَّ وجه عمر بصره الى صهيب وقال له صلِّ بالناس ثلاثة ايام وادخل علياً وعثمان وسعد

وَأَمْنَعَ مُوَاصَلَةً مَعَهَا تَؤُولُ إِلَى ... مُنَافَسَاتٍ أَنَا مَا زِلْتُ خَاشِيهَا
حَتَّى تقرَّ عَلَى فَرْدٍ تُبَايِعُهُ ... مِنْهَا وَيَنْهَضُ لِلأَحْكَامِ يُجْرِيهَا
فَإِنْ تَنَكَّبَ فَرْدٌ عَنْ جَمَاعَتِهَا ... فَاقْتُلْهُ مَا دَامَ يَأْبَى أَنْ يُمَاشِيهَا
وَإِنْ تَجَنَّبَ إِثْنَانِ ٱلْجَمَاعَةَ حَكِّـمْ ... فِيهِمَا ٱلسَّيْفَ كَيْ يَعْتَزَّ بَاقِيهَا
وَإِنْ هِيَ ٱنْقَسَمَتْ حَكِّمْ لَهَا وَلَدِي ... وَنَفِّذِ ٱلْحُكْمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ تُجْرِيهَا
وَبَعْدَ ذَاكَ ٱبْنَهُ ٱسْتَدْعَى وَقَالَ: أَعَبْـدَ ... ٱللَّهِ رَاقِبْ بِذِي ٱلشُّورَى مُشِيرِيهَا
فَإِنْ هِيَ ٱخْتَلَفَتْ كُنْ حَيْثُ أَكْثَرُهَا ... أُجْبُرْ عَلَى رَأْيِهَا ٱلأَعْلَى أَقَلِّيهَا

وابن عوف والزبير وطلحة اذا حضر واحضر معهم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء وقم على رؤوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وابى واحداً فاشدخ رأسه بالسيف وان اتفق اربعة فرضوا رجلاً منهم وابى اثنان فاضرب رأسيهما فان انقسموا نصفين فرضي ثلاثة رجلا ورضي الثلاثة الآخرون رجلاً فحكم ولدي عبد الله بن عمر

ثمَّ استدعى عمر ولده عبد الله وقال له اقم مع الرهط وارقب شوراهم واعنهم على الاتفاق على رجل منهم وساعد صهيب على قتل واحد او اثنين منهم ان اختلفا عن الجماعة وان انقسموا قسمين فكن مع القسم الذي فيه عبد الرحمن ابن عوف . واعلم ان ليس لك من الامر شيء ولا أرضى ان تدخل في هذا الامر

وتوفي عمر ليلة الاربعاء لثلاث ليالٍ بقين من ذي الحجة ودفن في سحر الاربعاء بجوار المصطفى وابي بكر وكان وهو على فراش الموت قد ارسل واستأذن عائشة بان يدفن مع صاحبيه في تلك الحجرة التي كانت حجرتهـا على عهد المصطفى صلى الله عليه وآله فاذنت . وكانت مدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة اشهر واربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هجرية الى ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هجرية وكان عمره حين قتل ٦٣ سنة وهو العمر الذي عاشه المصطفى وابو بكر

أما المملكة الاسلامية التي مات عنها عمر فقد كانت تقسم الى عشر أمارات وهي : أمارة مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي . وأمارة الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي . وأمارة صنعاء وأميرها يعلي بن منية حليف بني نوفل . وأمارة نجد وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة وأمارة البحرين وما يتبعها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي « وهذه الامارات الخمس في الجزيرة العربية » وأمارة الكوفة وما يتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي . وأمارة البصرة ونواحيها وأميرها أبو موسى عبد الله بن قيس الاشعري « وكلتا الامارتان في العراق » وأمارة دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان . وأمارة حمص وأميرها عمير بن سعد « وكلتاهما في سوريا » وأمارة مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمي . وكانت عاصمة الخلافة المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام وكان الخليفة يقيم فيها واليه مرجع الامور كلها فهو الذي يولي ويعزل ويصدر الاحكام ويسير الجيوش واليه ينتهي الخراج

وعند ما دفن عمر جمع أبو طلحة المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة عدا طلحة الذي كان غائباً وأدخل معهم عبد الله بن عمر ووقف على حراستهم فكثر بينهم اللجاج

وَإِنْ هِيَ ٱنْقَسَمَتْ كُنْ عِنْدَ قِسْمَتِهَا مَعَ ٱبْنِ عَوْفٍ وَمَالِي مَنْ يُمَالِيهَا
وَلَا تَغُرَّكَ أَمْجَادُ ٱلْخِلَافَةِ يَا بُنَيَّ يَوْماً فَتَنْشَاهَا وَتَبْغِيهَا
فَلَسْتَ صَاحِبَهَا كَلَّا وَلَسْتَ لَهَا أَهْلاً وَأَوْزَارُهَا مَا أَنْتَ شَالِيهَا
يَكْفِي ٱلَّذِي نَالَنِي مِنْهَا وَخَيْرُ بَنِيَّ مَنْ إِذَا مَا دَنَتْ مِنْهُ يُجَافِيهَا
وَظَلَّ يَأْمُرُ وَٱلْأَبْصَارُ شَاخِصَةٌ وَنَفْسُهُ لَفَظَتْ وَٱلنُّصْحُ فِي فِيهَا
وَبَعْدَ مَوْتِ أَبِي حَفْصٍ قَدِ ٱجْتَمَعَتْ صَحَابَةُ ٱلْمُصْطَفَى طَوْعاً لِدَاعِيهَا
وَكَانَ ثَمَّ ٱضْطِرَابٌ فِي مَبَاحِثِهَا وَكَانَ قِيلٌ وَقَالٌ فِي تَنَاجِيهَا

واستحال الاتفاق فهددهم المقداد ان توانوا عن البتّ في الامر في ثلاثة أيام كما أوصى عمر ولحلّ الاشكال تقدم عبد الرحمن بن عوف وخلع نفسه من كلّ حقٍ بالخلافة وطلب ان يحكموه فكان أول راضٍ بالتحكيم عثمان وتبعه الآخرون الا سيدنا علي عليه صلوات الله فقد ظلّ ساكتاً فقال له ابن عوف ماتقول ياأبا الحسن ؟ قال : أعطني ميثاقاً لتؤثرنّ الحقّ ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألوا الامة فاعطاه ميثاقه : فرضي بان يكون في الامر حكماً . وحينئذٍ خرج والامر في عنقه الى الناس يتلمس رغبتهم فوجدهم متحيزين لعثمان فعاد الى بيت المسور فخلا بالزبير وسعد فوجد ضلعهما مع علي فقال لايقوم بعد ابي بكر وعمر احد يرضي عنه الناس . ثمّ انصرف الى علي فناجاه طويلاً ولا يعلم احد مادار بينهما كل ذلك كان في سواد الليل حتى اذا ما آذن الفجر خرجوا الى الصلاة في المسجد وبعد الصلاة دعا عبد الرحمن بن عوف اكابر المهاجرين والانصار والامراء ووجه خطابه الى عليّ قائلاً : عليك عهد الله وميثاقة لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده . فغضب أمير المؤمنين وقال بل اعمل بسنة الله ورسوله ومبلغ علمي وطاقتي . فاعرض عنه بن عوف الى عثمان وقال له ماقال لعلي فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة وتاثر سيدنا علي عليه صلوات الله وسار قليلاً وهو يقول: «سيبلغ الكتاب اجله» ثمّ رجع يشق الناس وبايع عثمان وتقدم الناس فبايعوه وكانت بيعته يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ ﻫ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤ ﻫ

لاجرم انّ بيعة عثمان كانت بتأثير بني أمية وان عبد الرحمن بن عوف ما اشترط على سيدنا عليّ أن يعمل بسنة الخليفتين الا وهو يعلم انه لايفعل ولكن أراد أن يعرض الامر على علي وهو لايجهل ان الامر له ولكن كما قال عليه صلوات الله « سيبلغ الكتاب أجله »

هذا وان المرتضى عليه صلوات الله عند ما سار لمبايعة عثمان بن عفان بالخلافة قال لاصحاب الشورى « لقد علمتم أني أحقُّ بها من غيري ، ووالله لاسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور الا عليّ خاصة ، التماساً لأجر ذلك وفضله . وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه » اه وفي هذه الكلمات الجامعة المختصرة أبان ما في نفسه الشريفة من الزهد والورع وايثار مصلحة المسلمين على مصلحة نفسه فحقّ له في ذلك حمد الحامدين وشكر الشاكرين الى يوم الدين ولاسيما على قوله ان تسليمه عليه صلوات الله بما أرادوا منحصر ببقاء الظلم مقتصراً عليه لايتجاوزه الى سواه من المسلمين فهل من

وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهَا إِلاَّ ٱلْمُطَالِبُ بِٱلْـــعَرْشِ ٱلَّذِي زَهْوُهُ قَدْ كَانَ مُغْرِيهَا
وَفِي ٱلأَخِيرِ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّلاَمَةَ فِي ٱلـــتَّحْكِيمِ وَهْوَ مِنَ ٱلأَرْزَاءِ مُنْجِيهَا
وَٱسْتَسْلَمَتْ لِٱبْنِ عَوْفٍ بَعْدَ مَا ٱقْتَنَعَتْ أَنَّ ٱلْمُحَالَ لَأَدْنَى مِنْ تَرَاضِيهَا
وَبَعْدَ مَا قَالَ جَهْراً قَدْ تَرَكْتُ حُقُوقِي بِٱلْخِلاَفَةِ إِنِّي زَاهِدٌ فِيهَا
أَمَّا ٱبْنُ عَوْفٍ فَمُذْ بَاتَ ٱلْمُحَكَّمَ فِي أَصْحَابِهِ وَهْوَ نَاءٍ عَنْ تَرَجِّيهَا
تَتَبَّعَ ٱلنَّاسَ يَسْتَجْلِي غَوَامِضَ مَا تَخْفِي ٱلصُّدُورُ ٱلَّتِي شَطَّتْ أَمَانِيهَا
وَلَمْ يَكُنْ جَاهِلاً مَا فِي أُمَيَّةَ مِنْ مَنَازِعٍ لِلْعُلَى كَانَتْ تُخَفِّيهَا
كَانَتْ سِيَادَتُهَا فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تُغْـــرِيهَا بِنَيْلِ مَقَامَاتٍ تُضَاهِيهَا

فضل فوق فضل أبو الحسنين الذي تناسى حقه ولم ينس حقوق المسلمين ؟؟

« العشرة الذين مات رسول الله وهو راضٍ عنهم »

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من أصحابه اختصهم لمشورته وتدبير أمر امته ومات وهو عنهم راضٍ وكان هولاء أعوانه وحواريوه وعيبة سره وموضع ثقته وهم زعماء الامة بغير جدال أولهم وأفضلهم بالاجماع سيدنا علي بن أبي طالب عليه صلوات الله الذي آخاه دون سائر المسلمين وقال : من كنت مولاه كان عليٌّ مولاه وقال له : انك مني كهارون من موسى الا النبوَّة . وأبو بكر بن أبي قحافة . وعمر بن الخطاب . وعثمان بن عفان . وعبد الرحمن بن عوف . وأبو عبيدة بن الجرَّاح . وخالد بن الوليد . وطلحة بن عبيد الله . والزبير بن العوَّام . وسعد بن أبي وقاص . ويحلق بنا بعد أن حصر عمر عند موته الخلافة في الستة الذين بقوا منهم دون سائر المسلمين حتى أولاده اعترافاً منه بميزتهم أن ننشر تراجمهم تتمياً لمباحث علويتنا المباركة هذه التي ترمي الى تلخيص تاريخ صدر الاسلام في حواشيها وتراجم نوابغ الرجال الذين ظهروا في ذلك العهد الانور

ولقد سبق لنا نشر تراجم أبي بكر وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد . وسنأتي على تراجم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في مواضعها من هذه القصيدة المباركة كلٌّ في موضعه وننشر هنـا تراجم ابو عبيدة بن الجراح وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص لان ليس لنا رجعة اليهم فيما بعد فنقول :

« ترجمة أبي عبيدة بن الجراح »

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك القرشي الصحابي يلتقي مع رسول لله صلى الله عليه وآله في فهر . وامه امّ غنيمة بنت جابر . اسلم في بدء الدعوة فهو من المسلمين السابقين وكان بطلاً مجرباً خبيراً مجلياً وكان يسميه المصطفى « امين الامة » وكان ابو عبيدة كثير الشغف برسول الله يداوم صحبته ولا يريد مفارقته حتى ان الرسول في السنة الثانية للهجرة اراد ان يرسله في سريّة للغزو فتجهز ولما دنا موعد المسير اخذ يبكي صبابة الى المصطفى فاشفق على هذه العواطف الشريفة التي كان يبديها نحوه وردَّه وبعث مكانه عبد الله

وَكَانَ فِي ٱلشَّامِ مَنْ يَعْنَى وَيَجْهَدُ فِي ... إِنْجَادِ عِتْرَتِهِ مَاضِيْ تَوَلِّيهَا
وَكَانَ فِي طِيبَةٍ قَوْمٌ تُعَاوِنُهُ ... عَلَى مُنَاهُ ٱلَّتِي مَا ٱنفَكَّ يَنْوِيهَا
وَكَانَ عُثْمَانُ مِنْ تِلْكَ ٱلْعَشِيرَةِ قَدْ ... يُنِيلُهَا مَا تَوَجَّتْ مِنْ تَعَلِّيهَا
لِذَاكَ أَلْفَى ٱبْنُ عَوْفٍ أَنَّ رَغْبَتَهَا ... بِهِ مُحَالٌ عَلَيْهِ أَنْ يُقَاوِيهَا
فَعَادَ أَدْرَاجَهُ إِذْ مَدَّ رَاحَتَهُ ... مُبَايِعاً لِٱبْنِ عَفَّانٍ مُوَالِيهَا
وَبَايَعَ ٱلنَّاسُ عُثْمَاناً كَمَا طَلَبَتْ ... امَيَّةُ ٱلْعُرْبِ مَكِّيهَا وَشَامِيهَا

ابن جحش . ثم كانت لابي عبيدة سرية الى ذي القصة في السنة السادسة للهجرة في اربعين رجلاً فغزوا وغنموا . وفي غزوة السلاسل كان ابو عبيدة في الذين اوسلهم المصطفى الى عمرو بن العاص يشجعونه قبل وقوع الغزوة لانه خاف الاقدام في اوض جذام في مسيره ليدعو الى الاسلام . وشهد ابو عبيدة غزوة بدر وقتل اباه فيها بيده وكان في صفوف كفار قريش . وشهد بعدها كل المشاهد النبوية

وفي خلافة ابي بكر توجه ابو عبيدة لفتح الشام وكان قائداً لجيوش المسلمين السائرين لفتح حمص واذ تعذر عليه فتح الشام وحده امدّه ابو بكر بخالد بن الوليد على ما تقدم في ترجمة خالد . واشتهر في اثناء فتوح الشام عدل ابي عبيدة وحلمه ورعايته لاهل البلاد المنزّوة خلافاً لخالد الذي اشتهر بشدته فلما حصر المسلمون دمشق تقدم اهاليها من ابي عبيدة بالتسليم فدخلها صلحاً ودخلها خالد من الطرف الثاني عنوةً واختلافها بينهما على ذلك اختلافاً كاد يفضي الى النزاع مع انَّ خالداً كان يومئذ تابعاً لابي عبيدة وليس له صفة رسمية في جيش المسلمين لعزل عمر له على ما سبقت الاشارة ولم ينته الاشكال بينهما الا بطلب ابي عبيدة ان يحكم عمر في الاختلاف الذي حدث بينهما . وفتوحات الشام كلها كانت بقيادة ابي عبيدة او تحت اشرافه وكان خالد معاوناً له واظهر ابو عبيدة من حسن السياسة مع السوريين ما حببهم بالتسليم لحكم المسلمين بحيث كانت المواقع التي جرت تجري مع جيش الروم وحده لا يساعدهم فيها مساعد من الاهالي وذلك لثقتهم بالعرب الفاتحين وعدل ابي عبيدة هذا فضل كبير لهذا الصحابي العظيم الذي يدعى بحق من مشاهير رجال السياسية والحرب اما خالد فكان يفضله في البراعة الحربية ولكن كان دونه بمراحل بحسن السياسة لذلك نقل عن عمر عند موته انه قال : لو كان ابو عبيدة حياً لما رجحت غيره للخلافة

وتوفي ابو عبيدة بالطاعون في غور بيسان عند قرية تسمى عمياً وقبره هناك لا يزال قائماً الى الآن وهو موضع احترام الناس وكانت وفاته سنة ١٨ للهجرة عن ٥٨ سنة قضاها بالجهاد في سبيل الاسلام واعلاء كلمته واسمه سيظلُّ خالداً في ربوع الشام معروفاً بالثناء على مروءته وفضله وحلمه وعطفه ومكارم اخلاقه الى يوم يبعثون

« ترجمة عبد الرحمن بن عوف »

هو عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري يرجع بنسبه الى زهرة أخي قصي ولدا مرة بن كلاب ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمرة وكان اسلامه بواسطة ابي بكر فكان من المسلمين الاولين السابقين وهاجر الهجرتين هجرة الحبشة وهجرة المدينة وشهد بدراً وأحد والمشاهد كلها وفي يوم احد جرح ٢١ جرحاً وسلمه الله على ان بعض النبل اصابت رجله فكان يعرج وسقطت ثنيتاه فكان أهتم . وكان رسول الله يحبّه كثيراً لما يشاهد من غيرته ومروءته

فِي عَهْدِهِ ٱسْتَقْبَلَتْ مَجْداً لَقَدْ فَقِدَتْــــهُ فِي ٱلْحَنِيفَةِ مُذْ سَادَتْ مَبَادِيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى مَا تَعَدَّى ٱلْإِحْتِجَاجَ عَلَى شُورَى قَدِ ٱنْحَرَفَتْ عَنْهَا مَوَالِيهَا
وَكَانَ مُنْتَظِراً تِلْكَ ٱلنَّتِيجَةَ لَمْ تَفُتْهُ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَبْدُو خَوَافِيهَا
لٰكِنَّهُ ٱعْتَادَ أَنْ يَلْقَى ٱلْحَوَادِثَ بِٱلــــتَّرْحَابِ مَهْمَا تَنَاهَتْ فِي مَسَاوِيهَا
يَقُولُ يَانَفْسُ صَبْراً أَجْمِلِي جَزَعَا دَعِي ٱلتَّقَادِيرَ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا
وَمَــدَّ نَحْوَ ٱبْنِ عَفَّانٍ يَدَيْهِ وَلَمْ يُبْطِي بِبَيْعَتِهِ أَعْظِمْ بِمُعْطِيهَا

وبعثه بسرية الى دومة الجندل على بني كلاب وقبل ذهابه عممه بيده الشريفة وسدلها بين كتفيه وقال له : ان فتح الله عليك فتزوج ابنة شريفهم فسار متوكلاً على الله وانتصر وتزوج تماضر بنت الاجنع ابن ثعلبة اميرهم . وفي غزوة تبوك ميّز رسول الله ابن عوف على سائر اصحابه وفيهم ابو بكر وعمر وعثمان . وامره ان يصلي في الناس وادركه مرةً وهو يصلي بالناس فصلى خلفه وما اتخذ الناس صلاته هذه بامر المصطفى حجةً على حقه بامامة المسلمين ولـكن حسبوها عطفاً من المصطفى عليه وتشريفاً لمقامه

وعند ما توفي المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام لزم الحياد في كل ماجرى في السقيفة وبايع مع المبايعين ولم ينبث ببنت شفه وانصرف من ذلك اليوم الى تجارته في المدينــة وكان موفقاً فيها ميسوراً ولم يدخل في حرب ولا في عمل من اعمال المسلمين الا من خير يسديه او نصيحة يؤدّيها وكذلك فعل عند ما اوصى ابو بكر بالخلافة لعمر فكان على رأس المبايعين وكان عمر يحبه ويحترمه كثيراً ويثق به ثقة لا تحدّ يدلك على ذلك قوله لولده عبدالله وهو يوصي قبيل وفاته اذا انقسم هؤلاء الستة فـكان ثلاثة في جانب وثلاثة في جانب فكن في الجانب الذي فيه ابن عوف وما ذلك الا لاعتقاد عمر بعدالته ونزهته

وكان عبد الرحمن بن عوف زاهداً بممالات الدولة حتى بالخلافة نفسها يدلك على ذلك تنازله عن حقوقه فيها بالشورى التي عينها عمر لاختيار الخليفة مع انه جعله من اصحاب الحقّ فيها وكان تنازله عن حقوقه سبباً لحلّ المشكلة التي هي أحسن وقد وثقت منه الصحابة وجعلته حكماً بينها . وأراد ابن عوف بعد ان اصبح الامر في عنقه ان يتثبت من رأي الناس في الخليفة الذي يرضونه فخرج اليهم واخذ يتطلع سرّهم فوجد بني امية قد لعبوا دورهم واستمالوا الناس الى عثمان فرجع الى اصحابه واسرّ الى ابن أبي وقاص بان الناس لا يجتمعون على واحد ثمّ خلا بسيدنا علي طويلاً قبل بزوغ الفجر ولم يذكر احد من المؤرخين مادار بينهما ولـكن الراجح انه اطلعه على مايجول في صدور الناس مبيناً له اضطراره الى مبايعة عثمان وقد استنتجت هذا من سكوت سيدنا علي امير المؤمنين عليه صلوات الله عن عبد الرحمن بن عوف فلم يقل فيه كلمة لوم لا تصريحاً ولا تلميحاً لمبايعته عثمان عند ذكر الشورى ويكفي هذا للاعتقاد بنزاهة هذا الصحابي الـكبير وطهارة ذيله من كلما جرى

وفي عهد عثمان انصرف عبد الرحمن بن عوف الى تجارته فنمت نمواً عظيماً ولم يتطلع الى وظيفة ولا عمل عملاً في دولته الا أنه ما كان راضياً عما جرى في عهده وهو أول من اجترأ عليه فقسم ابل الصدقة بين الناس بعد أن وهبها عثمان لبعض أولاد الحـكم وكان همه الاتفاق على المعوزين من ماله فـكان يتصدّق بالسبعمائة راحلة واكثر للفقراء باحمالها واقتابها ومما يؤثر عنه ورعه وتقواه وتواضعه

وتوفي عبد الرحمن بن عوف في سنة ٣٢ هجرية في اواخر ايام عثمان وكان سعد بن أبي

وَهٰكَذَا صَارَ عُثْمَانُ ٱلْخَلِيفَةَ فِي ٱلْأَ م عَزَابِ آمِرِهَا ٱلْأَسْنَى وَنَاهِيهَا
وَقَالَ فِي تِلْكُمُ ٱلشُّورَى أَبُو حَسَنٍ مَقَالَةً لَا يَضِلُّ ٱلْحَقَّ وَاعِيهَا
لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلنَّاسَ مَائِلَةٌ إِلَى ٱبْنِ عَفَّانَ إِذْ شَامَتْهُ مُرْضِيهَا
فِيهَا أَبَانَ خَفَايَا نَفْسِهِ وَتَفَا نِيهَا لِخَيْرِ ٱلرَّعَايَا مَعْ تَعَالِيهَا
فَقَالَ: لَمْ تَجْهَلُوا أَنِّيَ بِبَيْعَتِكُمْ أَوْلَى وَلٰكِنَّكُمْ مَا بِعْتُمُونِيهَا
وَهَا أُسَلِّمُ وَٱسْمُ ٱللّٰهِ مَا سَلِمَتْ هٰذِي ٱلرَّعِيَّةُ مِنْ حَيْفٍ يُنَاجِيهَا

وقاص ممن حملوا جنازته وسيدنا علي بن ابي طالب من مشيعيه ودفنوه في البقيع وبعد دفنه قال سيدنا علي عليه صلوات الله « اذهب يا ابن عوف ادركت صفوها وسبقت كدرها » فكان قوله هذا من جملة ما يؤثر عنه من انبائه بالغيب . وخلف ابن عوف مالاً عظيماً من ذهب ومتاع وماشية وغير ذلك واوصى بصدقات كثيرة من بعده

« ترجمة سعد بن ابي وقاص »

هو اسحاق سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري المكي المدني اسلم بدعوة ابي بكر وعمره ١٧ سنة وهو اول من رمى النبل في الجهاد وكان من المهاجرين الاولين وسماه المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام « فارس الاسلام » وشهد جميع المشاهد النبوية واشترك في فتح الشام فكان على رأس الجيش الذي فتح الحيرة سنة ١٢ هجرية ثمَّ سار بجيش كبير على القادسية وفتحها . وبعد ذلك ارسله عمر الى المدائن في العراق فدخل بابل ومن هناك ارسل سرايا من جيشه لفتح العراق وفارس ثمَّ سار الى مدائن كسرى ففتحها وصلى صلاة الفتح في ايوان كسرى الشهير وكانت اول جمعة اقيمت في العراق وذلك في صفر سنة ١٦ للهجرة وغنمت جيوشه غنائم كثيرة من الفرس . وسعد هذا هو الذي مصر الكوفة والبصرة وحول معسكره من المدائن الى الكوفة وبنى الناس له قصراً فخماً فيها اطلق عليه اسم « قصر سعد »

ولم يسلم سعد ممن سعى اليه الى عمر فعزله كما فعل مع غيره من عماله فانَّ عمراً لم يبق على امير او عامل امداً طويلاً الا على اثنين فقط اولهما ابو عبيدة بن الجراح فقد ابقاه على امارة جيشه في الشام حتى مات ومعاوية فقد ابقاه في الشام رغم ما انتهى اليه عنه والظاهر انه كان يرى نفسه عاجزاً عن عزله وكان عزل سعد عن امارة العراق في سنة ٢٠ للهجرة

وكان سعد في الشورى من انصار سيدنا علي قال ذلك لعبد الرحمن بن عوف صراحةً عند مناجاته في الامر . وعند ما تمَّ الامر لعثمان عزل امير الكوفة المغيرة بن شعبة واعاد سعداً اليها وذلك سنة ٢٤ للهجرة وظلَّ في امارة الكوفة في صدر خلافة عثمان على أحسن حال حتى اذا ما بدأ الامويون يتوسعون بتسلطهم على عمالات الخلافة فلم يكن سعد من مماثيهم وكيف يكون كذلك وهو على ما تعلم من اكابر الصحابة المتلقين الاسلام من فم المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام ؟؟ فنووا له ما نووه لامثاله من مخالفيهم وكان مع سعد عبد الله بن مسعود على الخراج وكان موضع ثقة الامويين فطفق هذان يتنافسان ويتصادمان وحدث ان سعداً استدان من بيت المال مالاً قرضاً حسناً فجاءه عبد الله ابن مسعود وهو في عسرة يتقاضاه الدين مستمهله فما امهله وشدَّد عليه النكير حتى انه استعان ببعض

وَمَا تَخَصَّصَ بِيْ ذَا ٱلظُّلْمُ فَادِحُهُ   وَٱلنَّاسُ تَرْتَعُ فِيْ عَدْلٍ بِهَنِيْهَا

وَإِنَّمَا كَانَ تَسْلِيْمِيْ لِمَثُوبَةٍ   قَدْ بِتُّ مِنْ فَيْضِ جُوْدِ ٱللهِ رَاجِيْهَا

وَلِلزَّهَادَةِ فِيْمَا ٱلنَّاسُ رَاغِبَةٌ   بِهِ وَمِنْ أَجْلِهِ تُبْدِيْ تَفَانِيْهَا

نَعَمْ عَلَى نَفْسِهِ قَدْ كَانَ يُؤْثِرُ أُمَّـــةَ   ٱلرَّسُوْلِ عَلِيٌّ كَيْ يُؤَاسِيْهَا

وَهُوَ ٱلْخَلِيْقُ بِحَمْدِ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِهَا   إِنْ أَنْصَفَتْ نَظَمَتْ فِيْهِ أَغَانِيْهَا

أمير المؤمنين في مقتل عثمان

وَمُذْ تَبَوَّأَ عُثْمَانٌ خِلَافَتَـهُ   وَجَازَ سُلْطَانُهُ قَاصِيْ أَرَاضِيْهَا(١)

بَدَتْ أُمَيَّةُ بِٱسْتِقْبَالِ سُؤْدُدِهَا   مَعَ ٱلزَّمَانِ ٱلَّذِيْ أَضْحَى مُوَاتِيْهَا

وَبَعْدَ بِضْعَةِ أَعْـوَامٍ لَقَدْ قَبَضَتْ   عَلَى ٱلْخِلَافَةِ وَٱغْتَالَتْ نَوَاصِيْهَا

اصحابه على اكراهه على دفع ماعليه واضطرّ سعد على عظم مقامه في الاسلام ان يوسط الناس لاقناع ابن مسعود باستنظاره ورفع الامر الى عثمان فما كان منه الا ان عزل سعداً من الامارة وابقى ابن مسعود في عمله . فكبر هذا على سعد بن ابي وقاص وقدم المدينة فلزم بيته وآلى على نفسه ان لايدخل بشيء فيما بعد من شؤون المسلمين وصدق في حلفه فما دخل في فتنة عثمان ولا تعرّض لها بخير ولا بشرّ . حتى اذا ماانتهت الفتنة بمقتل عثمان وبويع سيدنا علي عليه صلوات الله بالخلافة استدعاه للبيعة فجاءه وقال « لقد آليت على نفسي ان لاادخل بامر من امور المسلمين ولذلك لاابايع حتى يبايع الناس لاكون كواحد من سوادهم ولكن والله ماعليك فيَّ من بأس » فخلى عنه وعند مابايع المسلمون جاءه وبايعه وانصرف لمنزله فلم يتداخل في أمر من أمور الخلافة في ماكان بعد ذلك

وكان سعد حليماً غير شديد كريماً سخياً مهاب الدعوة فصيح اللسان صادق العزيمة وعاش الى سنة ٥١ هجرية وقيل ٥٥ وتوفي في المدينة ودفن في العقيق وله من العمر ٧٤ سنة

(١) يظهر لي على قلة علمي وزهادة بضاعتي ان عثمان بن عفان كان طيب القلب جداً حسن الطوية سهل القياد لين العريكة وانه على ما اشتهر من مزاياه الصالحة في صحبته لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم انه لو لم يكن اموياً ولو لم تكن امية طامحة الى استعادة مكانتها في الاسلام وعلى رأسها معاوية وهو من الدهاء على ماعلم الناس لما ترك عمر الامر وهو يحتضر على فراش الموت في ذمة الرهط الباقين من العشرة الذين توفي رسول الله وهو راضٍ عنهم ولما خطر لعثمان ان يصل يوماً الى الخلافة ويتولى أمرها فعثمان مظلوم لافي خلعه وقتله فقط بل وفي ولايته على المسلمين وهم في صدر الاسلام يعرفون حلاله وحرامه ومتأدبون بآدابه العالية وفيهم خلق كثير قد عرفوا رسول الله وصحبوه وتلقوا آيات الله من فمه وتفقهوا على يديه

تولىّ عثمان الخلافة وهو لايجهل ضعفه وقوة من حوله من امية التي مهدت له الصعاب حتى بلغ ذروة المجد وتربع على دست الحكم فما امهل ان استناه لاصحابه الامويين واللائذين بهم فسلمهم

وَبَاتَ عُثْمَانُ مَزْوِيّاً بِمَنْزِلِهِ   وَصَارَ مِرْوَانُ رَاعِيهَا وَقَاضِيهَا
كَذَا أُمَيَّةُ صَالَتْ دُونَهُ وَقَدِ   اسْتَصْفَتْ لِأَنْفُسِهَا خَيْرَاتِ أَهْلِيهَا
وَاسْتَأْثَرَتْ بِعُمَالَاتِ الْجُيُوشِ وَأَعْمَالِ الْبِلَادِ   وَمَا دَرَّتْ مَوَاشِيهَا
فَضَجَّتِ النَّاسُ بَادِيهَا وَحَاضِرُهَا   تَنْعِي عَلَيْهَا وَقَدْ جَارَتْ مَآتِيهَا
وَأَكْثَرَتْ بَعْدَ ذَا نَقْدَ الْخِلَافَةِ حَتَّى   أَصْبَحَتْ هَدَفاً يَرْمِيهِ قَالِيهَا
وَرَاجَعَتْهَا تُرِيدُ الْعَدْلَ شَاكِيَةً   عُمَّالَهَا فَتَأَبَّتْ أَنْ تُشَكِّيهَا
وَكَانَ فِيهَا أَبُو ذَرٍّ يُجَاهِرُ فِي   نَقْدِ الْخِلَافَةِ لَا يُخْفِي مَسَاوِيهَا

قياد الخلافة واكتفى انه صاحبها . والامويون على ماهو معروف كانوا في الجاهلية كابناء عمهم الهواشم أهل حول وطول في قريش ولكن لما ظهر المصطفى عليه الصلاة والسلام بدعوته وابت قريش التصديق بها وانقلبت عليه تضطهده وتكذبه وتحقره انتقلت بالتحقير والاضطهاد الى الهواشم حتى انها تحالفت ضدهم وابعدتهم عن مكة وفيهم المصدق بالدعوة والمكذب لها والشديد عليها كابي لهب عم المصطفى واغتنم الامويون هذه الفرصة وتوسعوا في جاههم وباتت لهم الزعامة المطلقة على قريش كلها يدلك على هذا ان أبا سفيان والد معاوية كان زعيم القوم وهو الذي كان يحرضهم على محاربة المصطفى والمسلمين قهراً للاسلام ودكاً لمعالمه وماكان ذلك منه لكراهته للاسلام وتمسكه بالكفر والاشراك فقط بل رغبة ان يقضي نهائياً على جاه الهواشم استئثاراً بالسلطة لامية وحدها . وانت تعلم ان الذين دخلوا الاسلام من امية قبل فتح مكة المكرمة كانوا افراداً قلائل على رأسهم عثمان بن عفان . وان المصطفى في يوم الحديبية اذ أراد ان يرسل عمراً بن الخطاب الى قريش ليتفاهم معهم قال اني اخاف على نفسي ان ذهبت اذ لا اجدلي ناصراً فيها فيقتلونني مع انه من اعيان قريش وقال بل ارسل عثمان وله من قومه مايضمن سلامته وهكذا كان

وكان اسلام الامويين قهراً يوم فتح مكة فهم قد أسلموا لا عن اقتناع بالاسلام والنبوة بل خضوعاً للقوة القاهرة وحسبك ان أبا سفيان مع خوفه من جيش المصطفى وهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم قادم لفتح مكة ومع انه قدم على المصطفى في معسكره بنصيحة صاحبه العباس ومع انه رأى بعينيه عظمة الاسلام مع ذلك أبى ان يصغي لدعوة رسول الله ويشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله وقال له ارجئها فان في النفس منها شيء على انه ما امهل يوم الفتح ان اسلم مع ولديه يزيد ومعاوية لكي لا تفقد امية مكانها بل ان قريشاً لم تسلم كلها في ذلك اليوم الا برغبة الاحتفاظ بمنزلتها في العرب بعد ان رأت ان رسول الله قد تغلب عليها بمن جاءبهم من مختلف القبائل العربية المسلمة

ثم ان معاوية تولى الشام على اثر فتحها واخذ يوطد له فيها مركزاً دائماً بالرغم عن انه عامل لعمر وعمر ماكان ينام عن عماله وماكان يبقي على واحد منهم اذا علم عنه بعض ماكان يبلغه عن معاوية من الترف وجمع المال والظهور بمظاهر العظمة ولا يتأتى ان يكون عمر قد اغفل أمر معاوية شذوذاً بل بالعكس لابد انه فكر كثيراً بعزله ولكنه لم يقدم عليه حذراً من حدوث ما لاتأمن مغبته لو هو عزله . وبالرغم عن ان الاخبار في ذلك قليلة وقدها ،جة عن مداراة الناس

فكانَ يمشي بأسواقِ المدينةِ والآ م ياتُ عن ظُلمِ الظُلاّمِ يرويها
يقولُ آيةَ تبشيرِ الأُلى كفروا بالنارِ قد كانَ لا ينفكُّ تاليها
ثمَّ يردِّدُ آياتِ الأُلى كنزوا الأ موالَ أو منعوا عنها عوافيها
ضجَّتْ أُميةُ منهُ والخليفةُ إذْ قد كانَ يُؤذيهِ ما قد كانَ يُؤذيها
وما استطاعَ ابنُ عفّانٍ بهاميةِ الأ موالِ إسكاتَهُ إذْ راحَ يُسديها
بلْ زادَهُ جرأةً إذ كانَ يشجبُهُ يقولُ تلكَ حقوقُ اللهِ أقضيها
وفي الأخيرِ رأى عثمانُ شِرَّتَهُ قدِ استطالتْ ويخشى من تماديها

للامويين في خلافتهم التي استطالت على الخلافة بعد عهد قصير وبالرغم عن ذلك بقي عندنا مايشير الى عدم رضاء عمر عن معاوية فقال الرواة ان عمراً ذهب الى الشام في رحلته الثانية وهو على ماتعلم من زهده في معيشته فاستقبله معاوية بعظمة ملوك الروم وهو على الخر يرذون في الخر ثيـاب فاعرض عنه عمر فتبعه معتذراً فقال ان القوم في الشام اعتادوا على مظاهر العظمة في ملوكهم فليس لي ان اغير ما اعتادوا قالوا ان عمراً قبل عذر معاوية واقول انا انه ماقبل العذر الا وهو مضطر

وعندي ان الناس عند ما ناجاهم ابن عوف فوجدهم شيعة عثمان ما كانوا كذلك الا ولامية وبالاحرى معاوية يد في الميل الى عثمان ومما يستلفت الانظار ان المؤرخين لم يقولوا عن ابن عوف انه وجد في الناس من يميل الى غير عثمان من اكابر الصحابة كالزبير وطلحة وسعد وفي هذا دلالة واضحة على ان الناس كانوا يعرفون الحق لسيدنا علي عليه صلوات الله وانهم ما مالوا عنه لسواه على رغبة فيه بل بدافع من بني امية اما دافع رغبة كسب او تهيب مغبة شر

ثمَّ رأينا الزبير وسعداً عند مارجع ابن عوف الى اصحابه في جانب علي ولذلك قال ابن عوف لا أرى القوم سيجتمعون على خليفة وقد صدق

وما كاد عثمان كما سبق القول يستلم لعمومته الامويين حتى اخذت الشكوى تتعالى من هنا ومن هنا ليس لانه اسرع فابدل عمال الخلافة بالامويين او مواليهم وشيعتهم بل لأن الذين ولاهم لم يكونوا من النزاهة والعدل والاستقامة وحسن السيرة على ماعهد المسلمون بولاتهم وحكامهم وتحولت شكايات الناس الى تقمقم وموجدة عند ماراوا انهم يرفعون شكاويهم الى الخلافة فلا ينظر فيها الا اذا اكره على ذلك اكراهاً خلافاً لما عهدوا في زمن عمر وازدادوا حقداً وموجدة عند ماراوا اموال الامة وأشياءها تتسرب الى جيوب الامويين واشياعهم وهي على ماتعلم كانت مشتركة بينهم يقتسمونها على السوية على عهد النبوة وفي عهدي ابي بكر وعمر فكان هذا اسوأ ما أثر عليهم وحملهم على اعلان غضبهم على الامويين وعلى الخليفة عثمان الذي استبدوا بالخلافة تحت ظلاله وكانوا يقولون اما ان الخليفة على رأيهم وهو الذي يمهدلهم سبل الاندفاع ليسلكوها واما انه على غير رأيهم ولكنه يعجز عن صدهم لضعفه وعلى الحالين هو غير كفء للخلافة وعليه ان يخلع نفسه منها

وسبق لنا القول ان الناس لم يزالوا يذكرون حق علي في الخلافة فاصبحوا يتشيعون له في طعنهم على عثمان وينوهون باسمه في كل زمان ومكان ويرجعون اليه في الشكوى فيجدونه مثلهم ناقماً

فَرَاحَ مُبْعِدُهُ لِلشَّامِ يَحْسِبُ قَدْ يَكُفُّ شِرَّتَهُ عَنْهُ مُعَاوِيهَا
لَكِنْ أَبُو ذَرٍّ لَاقَى فِي الشَّامِ أُمَيَّةَ عَلَى نَحْوِ مَا قَدْ كَانَ يَدْرِيهَا
رَأَى جَمَاعَتَهَا فِي مِثْلِمَا عُمَرُ لَمَّا تَجَوَّلَ فِيهَا كَانَ رَائِيهَا
فَنَادَ لِلنَّاسِ فِي الأَسْوَاقِ يَنْشُرُ مِنْ آيِ الْكِتَابِ الَّتِي رَامُوهُ يَطْوِيهَا
وَلَمْ يُفِدْ مَعَهُ مَسْعَى مُعَاوِيَةٍ إِذْ أَنَّ ذِمَّتَهُ مَا اسْطَاعَ يَشْرِيهَا
وَرَامَ قَتْلَتَهُ لَكِنَّ قَتْلَةَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ الأَدَانِي كَانَ خَاشِيهَا
فَرَاحَ يَشْكُو مَا آتِيهِ لِصَاحِبِهِ وَقَالَ شِرَّتُهُ صَعْبٌ تَلَافِيهَا

على ماينقمون وغير راض، كما انهم ليسوا براضين ولهذا كان عثمان يتهم سيدنا علياً بتحريش الناس ضده ولا اعتقد انه لم يكن عارفاً بحقيقة الاسباب التي حملت الناس على النشوذ عليه والنهوض في وجهه ولكنه مع ذلك لم يكن لضعفه بمستطيع ان يعمل عملاً مع عمومته الامويين فيكف اذاهم عن الناس ويكتسب بذلك رضاء الناس

وكان على رأس المشنعين بعثمان ومن حوله من الامويين رجل من اكابر الصحابة القرشيين يدعى ابو ذر فقد عرف الناس هذا الرجل من اقدم اصحاب المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام وانه صادق امين غيور على الاسلام فكانوا يحترمونه ويكرمونه . وقد أبى هذا الرجل الا الجهر عما في نفسه من انكار تساهل عثمان مع الامويين وذلك عند ما اعطى عثمان بيوت اموال المسلمين الى مروان بن الحكم واختص ابن ثابت بشيء منها فصار ابو ذر يتجول في شوارع المدينة المنورة وهو ينادي « بشر الكافرين بعذاب اليم » ويشفع هذا بتلاوة قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » وكان ينقل الناس الى عثمان نبأ أبي ذر وهو يتغاضى حتى استفحل الامر في المدينة فارسل له رسولاً يقول له انته عما أنت فاعل فتجيبه قائلاً : أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى ؟ وعيب من ترك امر الله تعالى ؟ فوالله لا ن ارضي الله بسخط عثمان احب الي وخير لي من ان أسخط الله برضاء عثمان. فغضب جوابه عثمان واحفظه ولكنه تصابر وتماسك الى ان قال عثمان يوماً في المسجد والناس حوله وفيهم ابو ذر ايجوز للامام ان يأخذ من مال المسلمين شيئاً قرضاً فاذا أيسر قضى ؟ فقال كعب الاحبار لا بأس بذلك فانتهره ابو ذر قائلاً أتعلمنا ديننا يا ابن اليهوديين ؟ فغضب عثمان وقال تدكثر اداك لي وتولك باصحابي يا ابا ذر فالحق بالشام ولا تقم بعد اليوم بجواري . وبالفعل أرسله الى معاوية في الشام فجعل ابو ذر في الشام ينكر على معاوية اشياء يفعلها جهراً في الاسواق وهو يكرر الآيات فبعث اليه معاوية ليسكته ثلاثمائة ديناراً فقال ابو ذر لرسوله ان كان هذا المال من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا اقبلها وان كان صلة فلا حاجة لي فيه ورده عليه فعلم معاوية ان الرجل فوق ان يبيع ذمته بالمال فتهيبه وبقي ابو ذر على حاله من تجوله في الاسواق وهو يجهر بما يجهر به من التشنيع على الامويين فكان يقول : لقد حدثت اعمال ما اعرفها والله ماهي في كتاب الله ولا سنة نبيه والله والله لأرى حقاً يطفأ وباطلا يحيا وصادقاً مكذباً واثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه ونحو ذلك

فَاسْمَحْ بِإِرْجَاعِهِ أَوْ مُرْ فَأَقْتُلُهُ ... فَإِنَّهُ مُقْلِقُ الدُّنْيَا مُدَسِّيهَا
فَقَالَ عُثْمَانُ أَرْجِعْهُ بِغَيْرِ تَوَا ... نٍ إِنَّ قَتْلَتَهُ مَا الْخَيْرُ تَالِيهَا
فَكَانَ مَرْجِعَهُ بَيْنَ الْجُنُودِ بِلَا ... كَرَامَةٍ هُوَ أَوْلَى أَنْ يُلَاقِيهَا
هُنَاكَ أَنْذَرَهُ عُثْمَانُ أَنْ يَدَعَ الْـ ... ـتَّمْوِيهَ فِي الْقَوْلِ نَادَى: لَيْسَ تَمْوِيهَا
ذِكْرُ الْمَثَانِي الَّتِي الرَّحْمٰنُ أَنْزَلَهَا ... إِنِّي أُرَدِّدُهَا ذِكْرَى لِنَاسِيهَا
وَعَادَ فِي طَيْبَةٍ يَرْغِي وَيَزْبِدُ تَشْـ ... ـنِيعاً لِأَعْمَالِهِ الْكُبْرَى وَتَسْفِيهَا
فَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ تَجْفُوْ مَجَالِسَهُ ... وَأَنْ تُقَاطِعَهُ سِرّاً وَتَجْرِيهَا

ثمّ انّ معاوية بنى قصره في دمشق المعروف بالخضراء فجاءه ابو ذر وقال ان كان ما بنيت من مال الله فهو الخيانة وان كان من مالك فهو الاسراف فضاق صدر معاوية عن احتماله وخاف على الشام من فلتات لسانه فاستدعاه اليه وقال له : ياعدوّ الله وعدوّ رسوله لقد ازعجت الناس بما تقول والله لو كنت قاتل رجل من اصحاب محمد من غير اذن امير المؤمنين عثمان لقتلتك ولكني استأذن فيك فاغلظ له ابو ذرّ في الجواب فامر بسجنه وكتب الى عثمان فاجابه ان احمل جندباً بن جنادة « اسم ابي ذر » اليّ على اخشن مركب فوجّه به كذلك الى المدينة فلما دخل على عثمان وقد انهكه السفر حتى سقط لحم فخذيه أمره عثمان بالمسير الى الربذة « بجوار البصرة » ليعيش منفياً فيها وامر الناس ان يتجنبوا محادثته ومخالطته

اما سيدنا علي عليه صلوات فقد اكبر معاملة ابي ذرّ على هذا الوجه من الشدّة لالسبب سوى انه غاضب لله ناقد اعمال الامويين فما عيء بمنع عثمان عن مخالطته وسار لوداعه وهو ذاهب الى المنفى وكان معه الحسنان واخوه عقيل وعمار وكان مروان بن الحكم يرافق أبا ذر ليمنع الناس عن مكالمته فاراد الحسن مخاطبته فمنعه مروان فتقدم سيدنا علي غاضباً من مروان وضرب بالسوط بين اذني بعيره وقال لمروان تنحّ لحاك الله الى النار فتنحى وظل سيدنا علي ومن معه يلاطفون ابا ذرّ الى ان ابعدوا عن المدينة وحينئذ خاطب سيدنا علي جندباً وهو يودعه فقال

« يا ابا ذرّ غضبت لله فارج من غضبت له ، ان القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك في ايديهم ماخافوك عليه ، واهرب منهم بما خفتهم عليه ، فما احوجهم الى مامنعتهم، وما اغناك عما منعوك ، وستعلم من الرابح غداً ، والاكثر حسداً ، ولو انّ السموات والارضين كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً ، لا يؤنسنك الا الحقّ ، ولا يوحشنك الا الباطل ، فلو قبلت دنياهم لاحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك » اه

ثمّ انّ سيدنا علي عليه صلوات الله مال الى ولديه وقال ودعا عمكما والى اخيه وقال ودع اخاك فودعه كلّ منهم بكلمات طيبة مؤثرة فبكى ابو ذر وكان شيخاً كبيراً وقال : رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة اذا رايتكم ذكرت بكم رسول الله ومالي في المدينة سكن ولا شجن غيركم اني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام فسيرني الى بلد ليس لي فيه نصير ولا دافع الا الله والله لا اريد الا الله صاحباً وما اخشى مع الله وحشة . ثمّ صافح ابو ذر مودعيه فصافحوه وعادوا الى

فمَا أَطَاعَتْ وَلَا عَنهُ قَدِ امْتَنَعَتْ — وَظَلَّ يَهْجُوهُ فِي ضَافِي نَوَادِيهَا
لِذَا نَفَاهُ لِيَنْجُوْ مِنْ مَلَامَتِهِ — إِلَى حِمَى الرَّبَذَةِ الْمُشْقِيِّ ثَاوِيهَا
وَعِنْدَ مَا سَارَ لِلْمَنْفَى التَّقِيُّ أَبُو — ذَرٍّ بِجُنْدِ ابْنِ عَفَّانَ يُمَاشِيهَا
سَعَى لِتَوْدِيعِهِ الْمَوْلَى أَبُو حَسَنٍ — وَابْنَاهُ مِنْ طِيبَةٍ حَتَّى عَوَالِيهَا
وَإِذْ دَنَا مَوْعِدُ التَّفْرِيقِ وَدَّعَهُ — بِخُطْبَةٍ قَرَّطَ الْآذَانَ دُرِّيهَا
فَقَالَ بُشْرَى أَبَا ذَرٍّ فَغَضْبَتُكَ الْـكُبْرَى لِرَبِّكَ لَمْ تَنْفَكَّ تُبْدِيهَا

المدينة . امامروان فاكبرانتهار سيدنا علي له وقامت قيامته الا انه ظلّ امام هذا السيد العظيم مقهوراً مخذولا في حديث يطول لا محلّ له هنا . واما ابو ذرّ فقد مات في الربذة بعد نفيه ببضع سنوات وكان ابو ذر رجل اسمر ضربٌ من الرجال خفيف العارضين في ظهره انحناء ولم اقف على ترجمته اكثر من انه كان كثير الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وقد شهد عنه علي فقال قال رسول الله « ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذرّ »

ومن قصة نفي أبي ذرّ الى الشام فالربذة والكلمات التي ودعه بها سيدنا علي عليه صلوات الله عرفنا انّ حكم عثمان لم يكن على مايريد المسلمون الاولون الذين تلقوا آداب الاسلام وتفقهوا في شريعته على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فانّ أبا ذر من السابقين في الاسلام وغضبته على عثمان وعماله لها محلها من الاعتبار وسيدنا امير المؤمنين لا يجرأ مسلم صادق الايمان على الطعن في صدقه او انتقاصه بذمّ واقراره ابا ذر على رأيه في خلافة عثمان وعمالها لا يمكن اغفال وجاهته عند الباحثين المدققين . ومن ثمّ فقد كان اجماع في المسلمين على الشكوى من عمال عثمان وقد اتفق هذا الاجماع على رأي أبي ذر وعلي فاذا كانت لا تجتمع الجماعة على باطل واذا كان سيدنا علي اسمى من ان يؤيد باطلاً او يحارب حقاً واذا اضفنا الى هذا وذاك انكار عائشة وطلحة والزبير اعمال عمال عثمان ايضاً وجهرهم بالتشنيع بحكمه على ماهو ثابت صريح في كتب التاريخ على اختلافها حتى التي وضعت لارضاء بني أمية ظهر لنا انّ الشكوى من خلافة عثمان في محلها ولكننا نعود فنقول ان عثمان لاذنب له في كل ماجرى في خلافته الاضعفه واستسلامه الى الامويين ولا سيما مروان بن الحكم الذي كان وزيره وصاحب ختمه والمسيطر على خلافته ومعاوية داهية الامويين الذي كان وهو حاكم الشام لا ينفكّ يعمل الى غرض معين ظهر فيما بعد وهو استئثاره بالخلافة لنفسه ولبنيه من بعده

وبعد فان الخلافة ماتعرضت للاخطار التي تعرّضت لها الا لانّهم جعلوها مشاعاً بلا قاعدة في قريش في يوم السقيفة على أثر وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام ولو انهم اقروها في بيت معين لما طمع بها الطامعون فمرقوا لاجلها شيعاً فكان من امرها ماعلم لان مافي كل وقت يقوم «مستبد عادل » كعمر يضبط الامور كما ضبطها ويمنع النفوس من ادراك مطامعها . وعندي واعود فاقول على جهلي وقلة علمي ان وجوه مهاجري قريش من يوم السقيفة دخل على نفوسهم طمع الوصول الى الخلافة ان لم يكن عاجلاً فآجلاً فاذا توفق عمر الى الحجر على بعضهم في المدينة وهو يقول « خير لكم ان لا تروا الدنيا ولا تراكم » فما كلّ خليفة يستطيع ان يقول هذا القول ويستطيع ان ينفذه اذا هو قاله . وعلى هذا فتكون الثورة التي افضت الى قتل عثمان قد كانت بداءة اسبابها

فَاطْلُبْ مُكَافَأَةً مِمَّنْ غَضِبْتَ لَهُ سُبْحَانَهُ فَهْوَ يَابُشْرَاكَ مُسْدِيهَا
وَٱلنَّاسُ مِنْكَ عَلَى دُنْيَا تَلَذُّ بِهَا خَافَتْ وَكَمْ غَرَّتِ ٱلدُّنْيَا أَهَالِيهَا
وَخِفْتَ مِنْهَا عَلَى دِينٍ تَدِينُ بِهِ وَقَدْ أَبَيْتَ لَهُ يَاصَاحِ تَشْوِيهَا
فَاهْرُبْ بِمَاخِفْتَ مِنْهَا يَاأُخَيَّ عَلَيْهِ وَٱتْرُكْ مَالَهُ خَافَتْ بِأَيْدِيهَا
مَا كَانَ أَحْوجَهَا تَٱللهِ لَوْ رَشَدَتْ إِلَى ٱلَّذِي عَنْهُ قَدْأَخْبَبْتَ تُنْهِيهَا
وَأَنْتَ عَمَّا عَلَيْكَ ٱلْيَوْمَ قَدْ مَنَعَتْ مَا كَانَ أَغْنَاكَ مَا ٱلدُّنْيَا تُرَجِّيهَا

من عمل اهل السقيفة والله سبحانه وتعالى اعلم

ثمَّ ان استخلاف ابي بكر عمراً قد اوجد للثورة سبباً آخر فقد تمَّ الاستخلاف بمجرد اجتهاد الامام ومن غير ان يتقيد بشورى فصارهمّ الذين يحسبون انفسهم اولياء عهد الخلافة التزلف للخليفة والتسابق لكسب رضاه ولعلَّ هذا السبب هو الذي اعان عمر على تنفيذ رغبته بحبس من حبس في المدينة من وجوه قريش ولكن لايبعد ان يكون اوجد شيئاً من التحاسد بين الذين كان عمر عنهم راضٍ والذين لم يكن راضياً عنهم وبالاحرى بين الذين استعملهم وبين الذين اهمل امرهم ولا جرم انَّ الشورى التي جعلها عمر مبدءاً جديداً للاستخلاف كانت سبباً ثالثاً للثورة فانَّ عمراً بمطلق اجتهاده حصر المرشحين للخلافة بالستة الباقين من العشرة الذين مات رسول الله وهو راضٍ عنهم فجاء لعمله شبه مصوّغ ولا بدَّ ان الناس تساءلوا همساً ان لم يكن جهراً اذا أراد عثمان ان ينحو نحوه فمن يحصر الخلافة ؟ وقد لايموت الاّ والذين حصر عمر فيهم الشورى قد تداركهم الموت الا واحد أو اثنين منهم فيكون له عذر ان يرجع الى قاعدة ابي بكر فيستخلف ولا اظنهم كانوا يعتقدون انه سيستخلف غير واحد من بني أمية لما أظهر من الميل الشديد الى ابناء عشيرته الامويين والظاهر ان هذا كان عندهم عند حدّ اليقين ولذلك كانوا شديدي القلق من استسلامه للامويين وتسليمه زمام الخلافة لهم كأنَّه يهيئوهم الى الاستئثار بالخلافة دون جميع قريش فيكون ما أباه ابو بكر وعمر على الهواشم وهم أهل رسول الله وعشيرته وورثاؤه الشرعيون قد صار للامويين وليس لهم يد بيضاء في نشر الاسلام بل بالعكس كانوا على رأس محاربيه والمجاهدين في سبيل محوه

فمن هذه الاسباب التي سردناها يسهل على القاريء اللبيب ان يفهم شيئاً من حقيقة مادفع الناس الى التقمقم على خلافة عثمان والرغبة عنها وتفرّق كلمة وجوه قريش اذ راح كلٌّ منهم يعمل لنفسه فيجمع الاموال ويحزب الاحزاب انتظاراً ليوم الذي تخلو فيه الخلافة من واليها فينهض للمطالبة بها

هذا ما كان من أمر وجوه قريش اما المسلمون فقد كانوا مسلمين قبل كلّ شيء وكانوا ينظرون الى الخلافة كامامة دينية ويهمهم ان يكون صاحبها متشبهاً برسول الله الذي بعثه فيما بينهم ولا سيما بالمساواة بين الناس بالفيء والغنائم والوظائف وكانت لعهد عثمان ادرّ مالاً واعظم نفعاً واكثر وجاهة مما كانت على عهد النبوّة وكانوا يرون انفسهم متساوين في الحقوق لايفضل قريشيهم سائر العرب ولا عربيهم سائر المسلمين فلما رأوا عثمان يميز الامويين بوظائفه وخيرات خلافته حتى اترت بطونهم ثارت ثائرتهم وانصرفوا الى البحث في الخلافة وان هي شرعاً وهم راغبون بارجاعها الى صاحبها الشرعي وهو سيدنا عليّ لما عهدوه من استعداده الى ارجاع الحكم فيها لما كان عليه على عهد المصطفى

غَداً سَتَعْلَمُ مَنْ رَبُّ ٱلرِّبَاحِ وَمَنْ هُوَ ٱلْحَسُودُ وَعُقْبَى ٱلدَّارِ تَدْرِيهَا
لَوْ كَانَتِ ٱلأَرْضُ رَتْقاً وَٱلسَّمَاءُ عَلَى عَبْدٍ وَبَيْنَهُمَا قَدْ تَاهَ تَتْيِيهَا
ثُمَّ ٱتَّقَى ٱللهَ حَقّاً فَهُوَ يُخْرِجُهُ مِنْ ضِيقَةٍ كَانَ لَا يَرْجُو تَخَطِّيهَا
لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا ٱلْحَقُّ تَتْبَعُهُ وَٱسْتَوْحِشَنَّ أَخَا ٱلدِّينِ ٱلتَّرَارِيهَا
لَوْ كُنْتَ تَقْبَلُ دُنْيَاهَا وَتَقْرِضُ مِنْـــهَا أَمَّنَتْكَ وَهَامَتْ فِيكَ تَوْلِيهَا
وَكَانَ يُصْغِي أَبُو ذَرٍّ لِخُطْبَةِ مَوْ لَانَا ٱلْعَلِيِّ وَيَسْتَقْصِي مَعَانِيهَا

عليه وعلى آله الصلاة والسلام وكان هذا سبباً لايجاد فئة من الناس تنادي بحق سيدنا عليّ الضائع وتطلب ان يعاد اليه وهي أساس الشيعة

ويجب ان لاننسى ان الناس يعملون بطبيعة سنة البقاء لمصالحهم فكان كثيرون منهم ينظرون الى المستقبل وقد فتهم الخير من حاضرهم وانقسموا بذلك شيعاً فكانت شيعة تتحزب الى طلحة لان طلحة اتصل بها واخرى الى الزبير لانها عرفته وغيرها الى غيره من وجوه قريش ممن تحسب انه سيفوز بالخلافة وكل شيعة من هاته الشيع كانت تؤمل ان يكون حظها على عهد صاحبها لو هو تولى الخلافة مانااله الامويون وشيعتهم على عهد عثمان على ان اشياع سيدنا علي كانوا شاذين عن هذه القاعدة لانهم يعرفونه لايحابي بالوجوه ولا يشتري الدنيا بالآخرة ولا يعرف في الحق صاحباً محاذياً او عدواً مخالفاً وهذا ثابت ومعروف ولذلك لايصعب علينا ان نقول ان شيعة علي ماتشيعت له الا وهي على اعتقاد انه على الحقّ ولها تنصر الله ورسوله في انتصارها له وبالبداهة ان هذه الشيع كان نموها في العراق ومصر اكثر من الشام التي كانت خضعة لمعاوية وهو على ماتعلم من يده الحديدية ذات القفاز المخملي الناعم فهناك لم يكن من يجرأ على المجاهرة بعداء الامويين اما رهبة من معاويتهم او توقعاً للخير منه في الحال على ما عرف من سخائه او في الاستقبال عند ما يصبح الخليفة

ويظهر ان الامويين بعد ان تقادم عهد عثمان بالخلافة ماعادوا يكترثون لنقد الناقدين ونقمة الناقمين فازدادوا تمادياً وازداد الناس تقمقماً وكان الخليفة عثمان في المدينة لايسمع لهم شكوى او ان سمعها لايعمل على مايزيلها فاخذوا يفكرون بعمل جدّي يقومون به لاكراه خليفتهم على سماع شكاويهم والعدل في حكمه معهم وجعلوا يتكاتبون في ذلك بين سائر الامصار الاسلامية ويريد ان ان يقنعنا المؤرخون وآخرهم الشيخ محمد الخضري المصري في عصرنا هذا بان الذين كانوا يتكاتبون للتحريض على عثمان هم فئات قليلة وانهم كانوا يفتئتون على عمال عثمان افتئاتاً فقالوا ان أهل كلّ مصر كانوا اذ انتهت اليهم كتب الشكوى من عمال عثمان في الامصار الاخرى يحمدون الله ان ليس حال مصرهم كحال تلك الامصار واني لا اريد ان امرّ على هذه النقطة من غير ان ابحث فيها على قلة علمي مع اني لا اجهل كيف كانت تكتب التواريخ حتى قام اناس من أهل النقد علقوا عليها بما سموه « بفلسفة التاريخ ونقده »

اذا صحّت رواية هؤلاء المؤرخين بان الناقين على عمال عثمان كانوا افراداً قلاقل وانهم كانوا يكذبون بما يشيعونه عن مفاسدهم لاغراض خاصة يرمون اليها فهل كان يتعذر على عمال عثمان اظهار كذبهم ومنع الناس عن الاغترار بهم ؟ ؟ نعم لم يكن في ذلك الزمان تيلغراف ولا تليفون

حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَى نَادَى بَقِيتَأَ بَا ٱلْـحُسَيْنِ لِلنَّاسِ فِي ٱلْبَلْوَى تُوَاسِيهَا
وَقَالَ أَنْتُمْ آلَ ٱلْبَيْتِ رَحْمَةُ رَبِّي لِلْخَلَائِقِ جَلَّ ٱللّٰهُ مُولِيهَا
لَوْلَاكُمْ لَمْ أَجِدْ مِنْ وَحْشَةٍ لِمَدِينَةِ ٱلرَّسُولِ ٱلَّتِي عُثْمَانُ يَثْوِيهَا
بِذَاكَ وَدَّعَهُ ثُمَّ تَوَجَّهَ لِلْمَنْفَى لِيَحْيَا بَعِيدَ ٱلدَّارِ نَائِيهَا
وَنَفْيُهُ قَدْ أَزَادَ ٱلْمُسْلِمِينَ عَلَى أُمَيَّةٍ حِقْدَهُمْ بَاتُوا مُلِيمِيهَا
وَمِثْلُهَا كَمْ أَتَتْ مِنْ فَعْلَةٍ نَفَرَتْ مِنْهَا نُفُوسُ ٱلأُلَى كَانُوا مُحِبِّيهَا

ولا بريد منظم ولا سكك حديدية ولا طيارات تقرّب الابعاد وتصل الناس بعضهم ببعض بالسرعة التي توصلهم بها اليوم ولكن الناس كانوا في بقعة متجاورة متلاصقة هي عبارة عن الحجاز واليمن ونجد والعراق والشام وفلسطين ومصر وكانوا يتنقلون في اطرافها للتجارة وفوق ذلك كان حجاجهم يجتمعون سنوياً في مكة المكرمة فيتعارفون ويتآلفون ثمّ يعود كلّ فريق منهم لبلده فاذا صحت رواية المدافعين عن الأمويين عن كذب ما كان يرويه الناقمون على عمال عثمان للزم ان يظهر كذبهم للملأ ان لم يكن بين عشية وضحاها فقل بين سنة وأخرى وهذا لم يحصل بل الذي ينظر الى ما بين سطور التاريخ كان يجد عداد الناقين على عثمان ينمو عددهم يوماً بعد يوم وسنة بعد اخرى حتى اذا ما كان الحول الرابع والثلاثين للهجرة كان الخطب قد استفحل وبلغ الحزام الطبيين وكانت الشكوى بالاكثر من مروان بن الحكم المتصرف بشؤون الخلافة فعلاً فسمه ماتشاء وزيراً او مسيطراً او حاكماً بأمره او « دكتاتور » كما يقول الافرنج في عصرنا الحاضر

والظاهر ان عثمان ما كانت تصل اليه كل شكاوي الناس بل كان الكثير منها يخفيه عنه مروان بن الحكم والقليل الذي يصله كان يسهل على مروان ان يقنعه بانه كذب وافتراء من اعداء الامويين والحاسدين لهم على النعمة التي ظفروا بها على عهده وكان عثمان لطيبة قلبه كثير الثقة بمروان فيصدقه فيما يقول كما ان ان معاوية كان يتابع كتبه لعثمان مشنعاً باعداء الامويين المنبثين في العراق ومصر فيصدقه ايضاً ومثل معاوية ما كان يصعب عليه ان يؤثر على رجل طيب القلب طاهر السريرة حسن النية كعثمان بن عفان

وقد استفحل امر نفر من القرشيين النازلين في الكوفة اولاً فما وجد مروان لحلّ مشكلتهم الا يبعثهم الى الشام بامر عثمان على امل ان يتولاهم معاوية بحكمته فاستقبلهم هذا الداهية بالبشاشة والاكرام وادرّ عليهم الخير الكثير ولكن لم يجده هذا نفعاً وظلوا على نقد خلافة عثمان ينعون على عماله عملهم فخاف ان يفسدوا عليه أهل الشام فكتب بذلك الى عثمان فامره ان يوجههم الى حمص فارسلهم اليها فكانوا في حمص على نحو ما كانوا في الشام فشدّد عليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد امير حمص فظهروا الرضوخ فامنهم واعادهم الى الكوفة فعادوا اشدّ مما كانوا نقمةً على الامويين

وكان سيدنا علي عليه صلوات الله لا ينفك يجتمع بعثمان ويسدي اليه النصيحة اثر النصيحة ويحذره عقبى الاستسلام الى اصحابه ويشرح له شكايات الناس ومظالمهم ويطلب منه ان يكشفها وكان يلين له طوراً ويغلظ تارةً اما عثمان فكان يحسب ان كل ما كان يقوله له سيدنا علي ليس من النصيحة في شيء وان هو الا من تأثير حقده عليه لانه فاز بالخلافة دونه واجمع المؤرخون بعضهم صراحةً

وَإِنَّهُمْ آخَذُوا عُثْمَانَ وَهُوَ وَلِيُّ ٱلْأَمْرِ فِي كُلِّ سُوءٍ مِنْ مَسَاوِيهَا
وَسَادَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَا نَجَاةَ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ عَمَّ فِي ٱلْأَمْصَارِ شَاكِنُهَا
إِلَّا بِعُزْلَةِ عُثْمَانَ زَعِيمِ أُمَيَّةٍ وَكَانَتْ بِهِ تَجْرِي تَسَلُّطُهَا
وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ لَا يَأْلُو ٱلْخَلِيفَةَ إِذْ شَادَاً وَنُصْحَاً وَإِنْذَارَاً وَتَأْبِينُهَا
وَقَدْ تَوَقَّعَ أَحْدَاثَ ٱلزَّمَانِ لَهُ وَأَنَّهُ سَوْفَ يَعْيَا عَنْ تَوَقِّيهَا
وَكَانَ كُلٌّ ٱلَّذِي قَدْ شَامَ بَارِقَهُ ٱلْعَلِيُّ فِي سُحُبٍ سَحَّتْ هَوَامِيهَا

وبعضهم ضمناً ان عثمان لو أصغى الى نصائح علي لما كان تلافي الشرّ صعباً عليه

وعند ما كثرت شكاوي الناس الى عثمان من عماله واصحابه الامويين رأى ان يرسل رسله الى اطراف الخلافة فيقفون بنفوسهم على مبلغ هاتيك الشكاوي من الحقيقة فسير محمد بن مسلمة الى الكوفة واسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمار بن ياسر الى مصر وآخرين مثلهم من اكابر قريش الى الجهات ليستطلعوا طلع الحالة وكان ذلك في بدء سنة ٣٥ للهجرة فعادوا اليه جميعاً منكرين على الناس شكاياتهم ولم يتخلف عنهم الا عمار فانه بقي في مصر وانضمّ الى الناقمين الشاكين ونحن لا نريد ان نعتقد ان هؤلاء الزعماء مالوا مع الهوى ولكن يسبق الى اعتقادنا ان عمال عثمان تناولوهم واقاموا بينهم وبين الشاكين سداً فلم يصلوا اليهم وماهذا بعزيز على الحكام اذا ارادوا ان يخفوا الحقائق على المحققين كما اننا نرى في تخلف عمار بمصر برهاناً على انه كان يعتقد بان عودته الى المدينة بالنبأ اليقين قد يعود عليه بالضرر ولا نفع منه للمسلمين

عاد هؤلاء الى عثمان ينكرون كل شكوى للناس ويحمدون عمال عثمان ولكن الشكاوي لم تنقطع بل ظلت ترد على عثمان تترى وكان سيدنا علي عليه صلوات الله لا ينقطع عن نصحه وتنبيهه الى الخطر المحدق به وبالخلافة رغماً عما كان يراه منه من سوء الظن باخلاصه فاحرج بذلك عثمان فارسل هذا الى عماله ان يقدموا عليه في موسم الحج فجاءه منهم عبد الله بن عامر اميرالبصرة ومعاوية امير الشام وعبد الله بن سعد بن ابي سرح امير مصر فجمعهم وضمّ اليهم سعيد بن العاص امير الكوفة وكان في المدينة وعمرو بن العاص فاتح مصر وسألهم عما يشكو الناس منه فانكروا عليه كلّ شكاية وقالوا له أما ارسلت روّادك فجاؤك بالنبأ اليقين ؟ وكل ما عدا ذلك فهو فرية وكذب فسألهم عن مداواة الداء قبل ان يستفحل فما كان منهم الا من اوجب استعمال الشدّة فمن قائل بقتل الشاكين ومن قائل ان يرجع الى الشدّة التي كان يجري عليها عمر فهزّ عثمان راسه وقال « ان الفتنة لدائرة وطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها » وفي قوله هذا ما يفيد انه كان بينهم مغلوباً على أمره يشعر من نفسه انه العوبة بايديهم لاحول له ولا طول وبعد ذلك اعادهم الى عمالاتهم من غير ان يفعل شيئاً يرضي به الشاكين فيطفيء نار الفتنة ومما يذكر ان معاوية لم يفته حرج الحالة فطلب الى عثمان ان يسير معه الى الشام فيحميه من اعدائه فأبى قائلاً انه لا يدع جوار رسول الله فعرض عليه ان يرسل له جيشاً من الشام يحميه فقال لا أضيق على أهل المدينة بهم ولا بدّ ان عثمان قد حذر الامرين وتوقع من ورائهما الفتنة التي كان شديد الخوف منها فقد يفضي مسيره الى الشام ان يجتمع الناس في المدينة ويخلعوه ويولوا سواه وفي قبوله بجيش الشام يحميه ما ان يهاج الناس المدينة بحجة اخراج

وَقَدْ تَسَعَّرَتِ ٱلنِّيرَانُ وَٱلْتَهَبَتْ ... وَرَاحَ مُعْتَرِفاً بِٱلْعَجْزِ مُطْفِيهَا
فَفِتْنَةٌ فِي ضِفَافِ ٱلنِّيلِ قَائِمَةٌ ... وَفِي ٱلْعِرَاقَيْنِ أُخْرَى لَاحَ خَافِيهَا
وَفِي ٱلشَّآمِ أَمَانٍ بَاتَ صَائِدُهَا ... مُعَكِّراً مِنْ مِيَاهِ ٱلْمُلْكِ صَافِيَهَا
وَفِي بَقِيَّةِ أَمْلَاكِ ٱلْخِلَافَةِ أَخْطَارٌ مُهَدِّدَةٌ صَعْبٌ تَحَامِيهَا
وَفِي ٱلشِّفَاهِ وَفِي ٱلْآذَانِ وَشْوَشَةٌ ... بِٱلشَّرِّ تُنْبِي كَانَ ٱلْخَوْفُ يُكْمِيهَا
مِنْهَا ٱلصَّحَابَةُ وَٱلْأَنْصَارُ فِي شَغَبٍ ... بَاتَتْ وَمَا خَابَ فِي ٱلْبَلْوَى تَظَنِّيهَا

جيش الشام منها فيمضي الامر الى خلعه وهو ما كان يرضى الخلع كما عرفنا ذلك منه عندما تضيق الناس عليه الحصار وطلبوا منه ان يخلع نفسه فقال انه لا يخلع ثوباً كساه الله به

اما اولئك الشاكون فقد كان صبرهم قد عيل فهمّوا بالفتنة بعد خروج امرائهم الى المدينة بدعوة عثمان ولكن لم يتيسّر ذلك لهم الا من في الكوفة فقد خرجوا بحجة انهم يستعينون بعثمان على اميرهم سعيد بن العاص وما كادوا يصلون الى الجرعة حتى وجدوا سعيداً قادماً عليهم فردّوه كرهاً الى المدينة ورجعوا متمسكين بأبي موسى الاشعري وكتبوا بذلك الى عثمان فاقرّهم على ما فعلوا تلافياً للفتنة

وتراسل بعد هذا اهل الكوفة والبصرة ومصر على أن يرسلوا وفوداً منهم الى عثمان «يأمرون بالحق وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن اشياء ينكرونها عليه » فلما علم عثمان بمقدم هؤلاء الوفود استشار من حوله من الاعيان في أمرهم فاشاروا عليه ان يقتلهم فلم يفعل مخافة ان يوري زند الفتنة بيده وهو الامر الذي كان منه على اشدّ الحذر تخالفهم واحضر الوفد اليه وسمع شكاياتهم الواحدة بعد الاخرى واخذ يفندها لهم واحدةً واحدةً لا بانكارها أو اثبات صحة احتهاده فيها بل بالاستشهاد بان قد اجرى مثلها المصطفى صلى الله عليه وسلم او عمر او ابو بكر وكان فيما قاله شيء من المغالطة على نحو ما نأتي ببعضه للاستشهاد . فاجاب عثمان عن حجة الناس عليه بانه ولى الاحداث بان المصطفى سبق له تولية اسامة بن زيد وهو حدث ووجه المغالطة في الامر هو الفرق بين اسامة الذي كان موضع اعجاب المصطفى بكمالاته وبين الذين ولاهم عثمان وقد ثبت عليهم ماثبت من عدم كفاءتهم للحكم واسترسالهم في اهوائهم . واحتجّ عن اعطائه امواله الى بني امية بان ما اعطاه لهم هو من ماله الخاص الذي اصابه من الفيء بصفته خليفة المسلمين وانه حرٌّ فيه وانه كان يولي الناس الاعطيات الكبيرة على عهد المصطفى الى آخر ماقال ووجه المغالطة في هذا هو انه كان يعطي امواله على عهد المصطفى للفقراء لا لبني امية وان ما كان يعطيه هو من صلب ماله لا من مال الفيء الذي اختصه لنفسه وهو للمسلمين وما كان يفعل مثل ذلك ابو بكر وعمر بل المأثور عنهما انهما كانا لا ينالان من اموال المسلمين الا مايسدّ حاجتهما وحاجة عيالهما وفات عثمان ايضاً وجه شكوى المسلمين من تخصيص بني امية بالاموال الوفيرة او هو تجاهله وحقيقة تلك الشكوى هي انه باعطائه الاموال الى بني أمية وبتسليمه الى عهدتهم المملكة الاسلامية يحكمونها كان يعمل على تحويل الخلافة الاسلامية التي اسسها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لتكون اشتراكية عاملة على اسعاد اهلها على السوية على أبدع نظام عرفه البشر الى « ملك عضوض » لا يمتاز بشيء عن الممالك الدنيوية المعروفة واحقية شكوى السلف الصالح هذه ظهرت بكل جلاء ووضوح فيما بعد عند ما نهض معاوية لمحاربة سيدنا علي

هِيَ الْكُمَاةُ الَّتِي احْتَجَّتْ بِحُجَّتِهَا   وَأَقْبَلَتْ لِلْعِدَا وَالْحِقْدُ حَادِيهَا

وَافَتْ إِلَى طِيبَةِ الْفَيْحَاءِ ثَائِرَةً   عَلَى ابْنِ عَفَّانَ مِنْ نَائِي بَوَادِيهَا

كَانَتْ وُفُوداً مِنَ الأَمْصَارِ قَادِمَةً   عَلَيْهِ تُبْدِي لَهُ مُخْزِي شَكَاوِيهَا

مُضْرِيُّهَا كَانَ مُغْتَاظاً يُسَابِقُ بَصْرِيَّهَا   وَفَاتَهُمَا بِالسَّبْقِ كُوفِيُّهَا

وَإِذْ رَأَى جَمْعَهَا عُثْمَانُ مُحْتَشِداً   خَافَ الْقَضَاءَ الَّذِي يَتْلُوْ تَنَادِيهَا

وَسَارَ يَطْلُبُهَا فِي وَسْطِ مَسْجِدِ طَـهَ   بِالتَّلَطُّفِ يَبْغِي أَنْ يُرَاشِيَهَا

عليه صلوات الله ثم استئثاره بالخلافة لنفسه وحصرها في بني امية فلم تبق تلك الخلافة على ما اوجدها الله على يد رسوله النبي العربي الامي لاسعاد البشرية على اسمى وافضل مباديء الشعبية « الديموقراطية » التي بعد ١٣٠٠ سنة اخذت تتطلبها وتسعى اليها ارق واعظم شعوب الارض

وفي الاخير انصرفت الوفود من المدينة وهي غير راضية عن عثمان بل ومأيوسة من اعادة الخلافة الى العهد الذي كانت عليه في ظلال رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو مايعلمون من احكام الشريعة الاسلامية السمحاء وعند ماعادوا الى بلادهم وأبلغوا جماعتهم ماكان من أمر عثمان معهم ازدادوا غضباً وأخذوا يتحفزون الى عمل حاسم يضع حداً لتمادي أمية في الحكم مستفيدة قوة من ضعف عثمان بن عفان

أما الشكاوي التي كان الناس يتمسكون بها على عثمان فهي كثيرة اهمها انه أوطأ بني أمية رقاب الناس وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع . وافتتحت أرمينيا في أيامه فأخذ الخمس كله ووهبه الى مروان . وطلب منه عبدالله بن خالد بن أسيد صلة فاعطاه أربعمائة ألف درهماً . وأعاد الحكم بن أبي العاص الى العمل بعد أن صرفه رسول الله ولم يستخدمه أبو بكر وعمر وما كفاه هذا بل نفحه مئة ألف درهماً . وأقطع الحارث بن الحكم موضع سوق يسمى نهرز وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدق به على المسلمين . وأقطع مروان بن الحكم « فدك » وقد كانت سيدتنا فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها عليه الصلاة والسلام تارة بالميراث وأخرى بالنحلة فدفعها ابو بكر وعمر عنها . وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم الا عن بني أمية فاباحها لهم . وأعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ماأفاء الله عليه من فتح أفريقيا بالمغرب « من طرابلس الغرب الى طنجة » من من غير أن يشرك فيه أحد من المسلمين . وأعطى أبا سفيان بن حرب والد معاوية مائتي ألف درهماً من بيت المال في اليوم الذي وهب مروان المئة ألف درهم وقد زوجه ابنته أم أبان فجاءه زيد بن الارقم صاحب المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى فقال عثمان أتبكي ان وصلت رحمي ؟ قال لا ولكن أبكي لاني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت تنفقه في سبيل الله في حياة رسول الله ولو أعطيت مروان مئة درهم لكان كثيراً ولو أعطيت أبا سفيان درهماً واحداً لكان أكثر وكلاهما حاربا الاسلام ماشاء الله فقال عثمان الق المفاتيح يابن أرقم فانا سنجد غيرك . وأتاه أبو موسى الاشعري بأموال العراق فقسمها كلها في بني أمية وغير ذلك كثير . ولم يكن هذا وحده سبب نقمة الناس على عثمان بل هنالك أمور أخرى منها تحجبه عن رعاياه وتهاونه في اقامة الحدود ورد المظالم وكف الايدي العادية وأنت تعلم ان أكثر تلك الايدي العادية كانت أيدي بني أمية ومن شايعهم

وَقَدْ عَلَا مِنْبَرَ ٱلْهَادِي وَبَسْمَلَ وَٱسْـــتَهْدَى وَآيَةَ بَيْنَ ٱلْجَمْعِ تَأْبِينُهَا
وَقَالَ: تُبْتُ إِلَى رَبِّي وَعُدْتُ إِلَى رَعِيَّتِي مُقْسِماً أَنْ لَا أُرَائِيهَا
وَلَمْ يَزَلْ خَاطِباً فِيهَا يُجَامِلُهَا حَتَّى هَمَتْ فِي ٱلْبُكَا مَعَهُ مَآقِيهَا
لٰكِنَّهُ لَمْ يَكَدْ يَأْوِي لِمَنْزِلِهِ حَتَّى رَأَتْ بَعْدَهُ مَرْوَانَ لَاحِيهَا
فَجَاءَهَا غَاضِباً يَلْحُو تَجَمْهُرَهَا وَرَاحَ بِٱللَّوْمِ وَٱلتَّعْنِيفِ يُؤْذِيهَا
فَأَذْهَبَتْ مِنْ نُفُوسِ ٱلْقَوْمِ قَسْوَتُهُ مَا نَالَ عُثْمَانُ مِنْ بَادِي تَحَنِّيهَا

وفي حجة سنة ٣٥ هجرية خرج أهل مصر في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم نحو الالف وكان أميرهم الاكبر الدافقي بن حريب المكي وكان معهم ابن السوداء ولم يعلنوا انهم خارجون للثورة بل أظهروا للناس انهم سائرون للحج . وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم نحو الالف وكان أميرهم عمرو بن الاصم وادعوا انهم يريدون الحج ايضاً وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعددهم نحو الالف وعليهم أربعة أمراء وأميرهم الاكبر حرقوص بن زهير السعدي وتظاهروا برغبة الحج ايضاً . لا جرم ان خروج هؤلاء الثائرين للمدينة وهم يتظاهرون برغبة الحج وجهل عمال عثمان بحقيقة نواياهم مما يوجب العجب من دهاء منظمي هذه الثورة وبراعتهم في تكتم نياتهم . وقد بلغ ثائرو هذه الامصار الثلاثة ضواحي المدينة المنورة في زمن متقارب وفي هذا أيضاً من البراعة والدهاء مافيه ونزلوا في موضع يسمى « ذاخشب » وأرسلوا من قبلهم روّاداً قصدوا أكابر الصحابة وفي مقدمتهم سيدنا عليّ وطلحة والزبير وأنبأوهم انهم ماقدموا المدينة للاعتداء على شخص الخليفة ولا لاحداث حدث في الاسلام ولكن لاكراه الخليفة على اقالة عماله الذين طالما شكوهم لعثمان ولم يشكهم وعادوا من غير ان يجدوا مشجعاً لهم ولعلهم كانو يطلبون قبل كل شيء اقصاء مروان بن الحكم عن الخلافة على نوع خاص على اعتبار انه السبب الاكبر لكل ماكان يجري في الخلافة

وأرسل الثائرون من يرود أمر المدينة ويطلع طلع أهلها فعادوا اليهم يذيعونهم ان الناس في المدينة لايعلمون عن مقدمهم شيئاً فاقبلوا على المدينة ودخلوها فتهيب عثمان قدومهم وأسرع بنفسه الى منزل سيدنا علي عليه صلوات الله فدخل عليه وقال : ياابن عم إن قرابتي قريبة ولي عليك حق وقد جاء من ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحي ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك وأحب منك أن تركب اليهم فتردهم عني فان في خروجهم عليّ وهناً لامري وجرأة عليّ فقال عليّ : على أي شيء أردهم ؟ قال عثمان : على أن أصير الى ماأشرت به ورأيته لي . قال علي : اني قد كلمتك مرة بعد أخرى وأنت تعد وترجع وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد اذ أطعتهم وعصيتني قال عثمان : ولكن الآن آليت ان أطيعك فقال حبذا لو صدقت وأسرع فركب الى القوم ومعه ثلاثون رجلاً من خيار المهاجرين والانصار فكان من المهاجرين سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل وأبو جهم العدوي وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وكان من الانصار أبو أسيد الساعدي وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب ابن مالك وغيرهم فأتوا الثائرين وكلمهم علي ومحمد بن مسلمة فسمعوا منهما وهموا بالرجوع بأصحابهم يطلبون مصر ورجع سيدنا عليّ عليه صلوات الله مع من معه الى المدينة وقابل عثمان وأشار عليه ان يتكلم

وَأَيْقَنَتْ أَنَّ إِصْلَاحَ ٱلْخِلَافَةِ لَا يُنَالُ مَادَامَ مَرْوَانٌ مُنَاحِبَهَا
وَأَنَّ عُثْمَانَ لَا يَنْفَكُّ مُعْتَمِداً عَلَى وِزَارَتِهِ هَيْهَاتَ يُقْصِيهَا
فَهَاجَمَتْ بَيْتَهُ حَالاً وَقَدْ بَلَغَ ٱلسَّيْلُ ٱلزُّبَى وَطِلَابُ ٱلْعَدْلِ يُغْرِيهَا

بكلام يسمعه الناس منه ليسكنوا الى مايبدهم به من النزوع الى الاصلاح وقال له . ان البلاد قد تمخضت عليك ولا آمن أن يجيء الشر من جهة أخرى فتقول لي ياعلي اركب اليهم فان لم أفعل تقول قد قطع رحمي واستخف بحقي فقبل عثمان النصيحة وارسل فاستدعى زعماء الثائرين فقدموا الى المسجد وخرج اليهم عثمان فخطب خطبته نزع فيها مايشكى منه ووعد بالتوبة فرق الناس وبكوا حتى خضلوا لحاهم وبكى هو أيضاً فلما نزل وعاد الى بيته وجد هناك مروان وسعداً ونفراً من بني أمية لم يحضروا خطبته بل سمعوا بها ونقموها فقال مروان أأتكلم يا أمير المؤمنين أم أسكت ؟ فقالت نائلة امرأة عثمان وكانت حاضرة بل تسكت فأنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله انه وقد قال مقالة لاينبغي له أن ينزع عنها فشجبها مروان فشجبته وتشاتما ثم عاد مروان فقال لعثمان : بأبي أنت وأمي وددت لو ان مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع فكنت أنا أول من رضي بها وأعان عليها لكنك والأسفاه قلت ماقلت حين أعطى الخطة الذليلة الذليل والله لاقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها مازدت على أن جرأت الناس عليك وما زال مروان يغري عثمان بالرجوع عن وعده مبيناً له انه هو الذي أطمع الناس بضعفه حتى اقتنع وسمح له أن يخرج الى الناس وينقض قوله فخرج مروان وقال لهم بغلظة : مابالكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب شاهت الوجوه أتريدون أن تنزعوا ملكنا من ايدينا اعزبوا عنا وان والله رمتمونا لتمرن عليكم ماحلاً ولتملن بكم مالا يسركم ولا تحمدوا فيه غب رأيكم ارجعوا الى منازلكم فانا والله غير مغلوبين على مافي أيدينا اه فلما سمع الناس من فم مروان غير ماسمعوا من عثمان رجعوا وهم يسبونهما كليهما . ولما بلغ علياً عليه صلوات الله ماكان من مروان اسرع الى عثمان فوبخه لانقياده الى مروان وانذره بسوء العقبى واعلمه بانه سوف لايعود الى معاتبته ابداً وانصرف وبعد انصرافه دخلت عليه امرأته نائلة فحضته على الاصغاء لسيدنا علي والاعراض عن مروان فندم على ماكان منه وارسل ثانية الى علي يستقدمه فرفض ان يجيء اليه فسار اليه عثمان تحت جنح الظلام فقال له علي عليه صلوات الله ماهذا ياعثمان ؟ ابعد ماتكلمت على منبر رسول الله واعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك فخرج مروان الى الناس يشتمهم على بابك ؟ والآن تريد مني ان اعود فأراضي الناس فهل تظن ان باستطاعتي ان اراضيهم لا والله وهكذا انصرف عثمان من دار علي وهو مأيوس

وفي صباح اليوم التالي خرج عثمان الى المسجد ليصلي بالناس وخطب فيهم بعد الصلاة فقال ان الناس قد رجعوا بعدان علموا ان مابلغهم عن امامهم كان باطلاً فما امهل عمرو بن العاص ان عارضه قائلاً : اتق الله ياعثمان فانك قد ركبت اموراً وركبناها معك فتب الى الله نتب معك فناداه عثمان قائلاً وانك هناك يا ابن النابغة قلت والله جيتك مد عزلتك عن العمل . فلما سمع عمرو بن العاص قول عثمان خرج من المسجد وهو اشد نقمة على عثمان من كل الناقمين عليه وسار لساعته الى قصره في فلسطين فاقام فيه بعد ان بذر في صدور الناس من الحقد على عثمان مابذر

وما امهل الثائرون ان عادوا بعد خروجهم من المدينة فاعترضهم علي عليه صلوات الله رغبة تلافي الشر وكان معه محمد بن مسلمة وقال لهم ماسبب عودتكم ؟ وهو يظن انهم عائدون للانتقام

وَحَاصَرَتْهُ بُغَتْ مِنْهُ ٱلتَّنَازُلَ أَرْ بَعِينَ يَوْمًا طِوَالًا مَعْ لَيَالِيهَا
وَكَانَ مُمْتَنِعًا أَنْ يَسْتَقِيلَ وَيَعْـــرَى مِنْ ثِيَابٍ فَخَارٍ آضَ كَاسِيهَا
وَبَعْدَ أَنْ طَالَ عَهْدُ ٱلْحَصْرِ أَرْسَلَ عُثْـــمَانُ عَلِيًّا إِلَيْهَا كَيْ يُرَاضِيَهَا

لا نقسهم مما اسمعهم مروان في امسهم فأخرجوا صيحفةً في انبوبة رصاص وقالوا وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من ابل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة يامرفيها بجلد عبد الرحمن ابن عويس وعمرو بن الحق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم فاغتاظ سيدنا علي عليه صلوات من هذه الفعلة التي كانت موقظة الشر وسار ومعه محمد بن مسلمة الى عثمان فدخلا عليه وكان عنده مروان ولخبراه برجعة الثائرين الى المدينة وطلبا منه ان يأذن بدخول المصريين منهم عليه فقال مروان بل انا اخرج فاكلمهم فقال عثمان اسكت فضَّ الله فاك ما أنت وهذا الامر اخرج عني فخرج فقصَّ علي ما كان من امر الانبوب الذي مسكه المصريون مع ساعيه واخرج له الانبوب من جيبه فتناوله عثمان ونظر الى الكتاب الذي فيه واقسم بالله انه ماكتبه ولا ارسله فقال علي أليس هذا الختم ختمك والساعي من عمالك والراحلة من نوق الصدقة قال نعم ولكني ما كتبت الكتاب ولا أمرت به فقال محمد بن مسلمة : صدق والله هذا من عمل مروان فقال علي ان الاولى لتلافي الشرّ ان تسمح للمصريين بالدخول عليك وتتلطف بهم لعلك تستميل قلوبهم قال فليدخلوا فارسل علي احد السعاة يطلبهم فحضر منهم بعض وجوههم فلم يسلموا عليه بالخلافة وذكر بن عديس ماقعل عبد الله ابن سعد عامله على مصر بالمسلمين واهل الذمة وكيف استأثر بالغنائم وقال ومثل هذا يشكو اهل الكوفة والبصرة وغيرها من الامصار وقد قدمنا المدينة ونحن نريد ان نحملك على الحق فردَّنا علي وضمن لنا نزوعك الى الحق وماكدنا نهمُّ بالمودة حتى رأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك . فحلف عثمان انه ماكتبه وقال علي ومحمد انه لصادق فقال المصريون ومن كتبه ? فقال عثمان لا أدري قالوا فمن يجرأ عليك ويبعث غلامك وجمل من الصدقة وينقش على خاتمك ويبعث الى عاملك بهذه الامور العظيمة وانت لاتعلم ?قال عثمان لا اعلم والله قالوا ما انت الا صادق او كاذب فان كنت كاذباً فقد حقّ عليك الخلع لما أمرت به من قتلنا والتنكيل بنا بغير حقّ وان كنت صادقاً فالواجب ان تخلع نفسك لضعفك عن هذا الامر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغي لنا ان نترك هذا الامر بيد من من تقطع الامور دونه لضعفه وغفلته فاخلع نفسك منه كما خلعك الله فقال عثمان لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله ولكن اتوب وانزع قالوا لوكان هذا اول ذنب تبت منه قبلنا ولكن رايناك تتوب ثمَّ تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك او نقتلك او تلحق ارواحنا بالله تعالى وان منعك اصحابك واهلك قاتلناهم حتى نخلص اليك فقال عثمان اما ان ابرأ من خلافة رسول الله فلقتل أحبُّ اليَّ من ذلك واما قولكم تقاتلون من منعني فاني لا آمر احداً ان يقاتلكم فمن قاتلكم فبغير امري وكثر بعد ذلك الجدال بين عثمان والمصريين فنهض سيدنا علي واخرج المصريين حتى اذا ما اصبحوا خارجاً حاول ان يلطف من شنآنهم فما استطاع الى ذلك سبيلا فتركهم ومضى الى بيته وهو آسف مما جرى ويتوقع الشرَّ مما هو آت

اما الثائرون فانهم يئسوا من الاصلاح وحصروا عثمان في الحال فيجد مشيروه خيراً من ان يكتبوا الى الاجناد يستنجدونهم على الثائرين على انهم اشاروا على عثمان أيضاً ان يعود الى سيدنا علي عليه صلوات الله كي يستخدم نفوذه على الثائرين وبفضل مساعيه يطاولونهم الى ان تصل النجدات المطلوبة ففعل وارسل الى علي ان يتوسط بينه وبين الثائرين ويردهم عنه على ان يعطيهم مايطلبونه

وَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ ٱلْمَوْتَ مِنْ يَدِهَا   فَٱحْقُنْ دَمِي وَٱصْرِفْهَا عَنْ تَعَدِّيهَا
فَقَالَ: وَٱللّٰهِ يَا عُثْمَانُ مَا قَصَدَتْ   لَكَ ٱلْهَلَاكَ وَلَا ذَا مِنْ مَرَامِيهَا
وَإِنَّمَا هِيَ تَبْغِي ٱلْعَدْلَ مِنْكَ فَإِنْ   عَدَلْتَ وُقِّيتَ أَسْوَاءً تُلَاقِيهَا

فقال سيدنا علي انهم لا يقبلون التعلل وقد كان من امري معهم ما كان وهكذا ارد الرسول ولم يفته عليه صلوات الله ان عثمان وبالأحرى مشيريه في هذه المرة يريدون المطاولة فاعاد عثمان رسوله الى علي وهو ملحف عليه ان يأتيه فما امتنع وجاءه فقال له : قد ترى ما كان من الناس ولست آمنهم على دمي فاردد هم عني فاني اعطيهم مايريدون من الحق من نفسي وغيري فقال سيدنا علي : ان الناس احوج الى عدلك منهم الى قتلك ولا يرضون الا بالرضى وقد كنت اعطيتهم اولاً عهداً فلم تف به فلا تعوزني هذه المرة فاني معطيهم عليك الحق فقال عثمان : اعطهم فوالله لأفين لهم فخرج علي الى الناس وقال لهم : انما طلبتم الحق وقد اعطيتموه وقد زعم عثمان انه منصفكم من نفسه وانا الضمين فقال الناس قبلنا فاستوثق منه لنا فانا لا نرضى بقول دون فعل فتركهم سيدنا علي وعاد الى عثمان فانبأه بان الناس ماعادوا يقنعون بمجرد الوعد بل يطلبون العمل . فقال عثمان اني لا أستطيع ان ارد ما كرهوا في يوم واحد فاضرب بيني وبينهم أجلاً . فقال علي : اما ما كان في المدينة فلا أجل فيه وما غاب فاجله وصول أمرك اليه قال نعم فأجلني فيما في المدينة ثلاثة ايام فاجابه الى ذلك وكتب تعهد على نفسه على رد كل مظلمة وعزل كل عامل كرهوه فخرج علي الى الثائرين وبشرهم بما كان فاستبشروا وخففوا الحصار واقاموا ينتظرون التنفيذ

اما عثمان وبالاحرى بطانته فجعلوا يعدون عدتهم للقتال ومضت الايام الثلاثة ولم يفعل شيئاً فاغتاظ الثائرون وشددوا الحصار عليه فاشرف عليهم من منزله وخاطبهم متلطفاً بهم يسألهم الرفق به وبهم وهم يقولون اخلع نفسك فيقول لا اخلع سربالاً البسنيه الله

ولما مضت ثمان عشرة ليلة من الحصار قدم المدينة ركبان من الامصار فاخبروا خبر من تهيأ اليهم من الجنود الذين اعدهم عمال عثمان لنجدته حسب طلبه فلما انتهى ذلك الى الثائرين اشتدت عزيمتهم على حل المشكلة قبل ان تصل جنود الامصار فحالوا بين عثمان والناس ومنعوه كل شيء حتى الماء وهم ينادون بأعلى أصواتهم انهم لا يريدون قتله ولكن خلعه . أما عثمان فكان مصراً على البقاء في خلافته وأرسل سراً الى علي وطلحة والزبير وأزواج النبي يطلب منهم اسعافه بالماء فكان أول من لباه سيدنا علي عليه صلوات الله فجاء في الغلس فقال أيها الناس ان الذي تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة فان الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي فقالوا : لا والله ولا نعمة عين فرمى بعمامته بالدار وأمر بالماء وأدخله على عثمان عنوة ثم جاءت أم حبيبة زوج النبي بالماء لعثمان فما استطاعت توصيله اليه . أما عائشة زوج النبي فكانت من اشد الناس على عثمان تغري الناس به وتنعي عليه عمله وتسميه نعثلاً فلما وصلها رسوله يطلب منها أن تمده بالماء علمت أن الثورة قد استفحلت فأحبت الخروج الى مكة حتى لا تحضر الفاجعة واستدعت أخاها محمد ابن أبي بكر وطلبت منه أن يصحبها فأبى فخرجت وحدها الى مكة قبيل سفر الحجاج

وكان طلحة لا يتحاشى الظهور بعداوته لعثمان فيؤلب عليه الناس ويشدد عزائمهم خلافاً للزبير الذي كان ملازماً بيته لكنه كان اذا أتى اليه الثائرون يحسن لهم عملهم . وكان عبد الله ابن عباس ملازماً باب عثمان لا يفارقه فلما آن ميقات الحج وعثمان محصور ولاه أمارة الحج فقال الأفضل عندي

شَكَتْ إِلَيْكَ مِرَاراً وَهِيَ صَابِرَةٌ وَلَمْ تَكُنْ مِثْلَمَا تَرْجُو مُشَكِّيهَا
أَخْرَجْتَهَا وَهِيَ هَذَا ٱلْيَوْمَ قَدْ خَرَجَتْ عَلَيْكَ إِنِّيَ عَلَيْكَ ٱلْحَقَّ مُعْطِيهَا
أَجَابَ عُثْمَانُ: عِدْهَا بِٱلَّذِي طَلَبَتْ وَعُوْدَ صِدْقٍ أُرِيدُ ٱلْآنَ أُوْفِيهَا

أن أبقى على جهاد هؤلاء الناس فأقسم عليه أن يسير فسار

ولما رأى الثائرون أن موسم الحجّ قد دنا وأن عمال عثمان قد وجهوا الجنود عليهم عمدوا الى حلّ المشكلة بقتل عثمان ونمي ذلك الى سيدنا علي فأسرع حالاً وأرسل ولديه الحسن والحسين وقال الزما بابه وموتا دونه أو تمناه وكذلك قدم لحماية عثمان من القتل محمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن أبي وقاص وعبد الله بن الزبير وغيرهم من أبناء الصحابة فوقفوا بباب عثمان ومنعوا الثائرين من الدخول وبينماهم يجالدونهم خرج عثمان الى أبناء الصحابة فزجرهم وأدخلهم داره وأغلق الباب عليهم دون الثائرين فقام رجل من أسلم يقال له تيار بن عياض وكان من الصحابة فنادى عثمان فخرج اليه وبينما هو يناشده أن يخلع نفسه اذ رماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله فصاح المصريون قائلين ادفع الينا القاتل لنقتله به قال ما أنا لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي فلما سمعوا جوابه ثاروا وهاجوا الباب فدخل عثمان وأقفله وجلس الى المصحف يقرأ فيه أما الثائرون فاذ تعذر عليهم فتح الباب جاؤا بنار فأحرقوه والسقيفة التي فوقه وبينماهم كذلك خرج اليهم من دار عثمان أولاد الصحابة على رأسهم الحسن والحسين ليردوا الناس وكان معهم مروان بن الحكم فتعرض له رجل من بني الليث يدعى « البياع » فضرب مروان على رقبته فأثبت سيفه وقطع أحد علباويه فعاش بعد ذلك أوقص ولو لم تنجده مرضعته فاطمة أم ابراهيم بن عدي وتأخذه جريحاً الى بيته لذففوا عليه . ولقي المغيرة بن الأخنس بن شريف رجلاً فقتله واقتحم الناس بعد ذلك الدار فتصدى لهم الحسن والحسين ومن معهما من أولاد الصحابة فمنعوهم فما كان منهم الا أن اقتحموا الدار من دار عمرو بن حزم التي بجوارها حتى ملأوها وندبوا منهم رجلاً ليعرض على عثمان ان يخلع نفسه فدخل عليه وهو في غرفته مكب على قراءة القرآن فقال له اخلعها وندعك فقال ويحك والله لست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة فخرج عنه ولم ينله بسوء. فأدخلوا عليه رجلاً من بني ليث فآخر فكان يجيب عثمان كلاً منهما بما يرضيه ولكنه يأبى أن يخلع نفسه فيخرج ولا يناله بسوء . وكان آخر من دخل عليه محمد بن أبي بكر فقال له عثمان ويلك أعلى الله تغضب هل لي اليك حرم الا حقه أخذته منك « اشارة الى أنه عزله من أمارة مصر » فأمسك محمد بلحية عثمان وقال قد أخزاك الله يا نعثل فقال لست بنعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين فقال محمد ما أغنى عنك معاوية ولا مروان وفلان وفلان فقال عثمان يا ابن أخي ما كان أبوك « ويريد أبا بكر » ليقبض عليها . فقال محمد لو رآك أبي تعمل هذه الاعمال أنكرها عليك والذي أريد بك أشدّ من قبضي على لحيتك . فقال عثمان استنصر الله عليك وأستعين به فتركه محمد وخرج وهو يقول تصاغر أمامي فتركته . وفي حال خروجه هجم على عثمان قتيرة وسودان بن حمران والغافقي فضربه الغافقي بحديدة معه فسال دمه على المصحف وجاء سودان ليضربه بالسيف فأكبت عليه امرأته نائلة لتمنعه وتلقت السيف بيدها فنفح أصابعها فأطنّ أصابع يدها وولت وثنّى على عثمان فقتله . ودخل غلمة لعثمان لينصروه فضرب أحدهم رقبة سودان فقتله ووثب قتيرة على الغلام فقتله وانتهبوا ما في البيت وخرجوا وأغلقوه على القتلى الثلاثة عثمان والغلام وسودان وبخروجهم وثب أحد غلمان عثمان

قَالَ ٱلْعَلِيُّ: وَلٰكِنْ مَا صَدَقْتَ لَهَا قَبْلاً فَإِيَّاكَ تَنْوِي انْ تُدَاجِنَهَا
وَسَارَ يُبْلِغُهَا وَعْدَ ٱلْخَلِيفَةِ يَسْتَرْضِي قُلُوباً طَوَتْ ضِغْناً مَطَاوِنُهَا
وَٱلْمُرْتَضَى خَيْرُ مَنْ دَاوَى ٱلنُّفُوسَ مِرَا ضاً بِٱلْعِدَا وَهُوَ طَبٌّ أَنْ يُدَاوِنُهَا

على قتيرة فقتله وكان قتل عثمان يوم الجمعة لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ

وبقي عثمان ثلاثة أيام قتيلاً مضرجاً بدمه لايجرأ أحد على دفنه ثم ان حكيم بن حزام القرشي وجبير بن مطعم كلما علياً أن يأذن بدفنه فأذن وحسن لهم أن يدفن ليلاً تلافياً للشر وسار بجنازته الحسن والحسين والزبير ومروان بن الحكم وحذيفة ودفن في حش كوكب خارج البقيع وصلى عليه جبير بن مطعم وكانت ولايته ١٢ عاماً الا ١١ يوماً

وقد أفصح سيدنا أمير المؤمنين عن رأيه الأعلى في قتل عثمان وقتلته بما لم يبق معه مقال لقائل فقال: «لو أمرت به لكنت قاتلاً، أو نهيت عنه لكنت ناصراً، غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير مني، وأنا جامع لكم أمره، استأثر فأساء الاثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع، في المستأثر والجازع» اه

«كلمة الى الشيخ محمد الخضري»

رأت ادارة الجامعة المصرية أن تلقي محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية على طلبتها فانتدبت لذلك حضرة الاستاذ الشيخ محمد الخضري ففعل وطبع محاضراته ووزعها على الناس . وبالطبع ان ادارة الجامعة عند ماوثقت بعلم الشيخ وأناطت به اطلاع تلاميذ الجامعة وهم زهرة الشبيبة المصرية على تاريخ الامم الاسلامية وما فيه من العبر أرادت منه أن يكون صادعاً بالحق متوخياً مافيه مصلحة المسلمين والظاهر ان الشيخ كان عارفاً بالمهمة التي انتدب اليها يقدرها حق قدرها

وقد رأينا في محاضرات الشيخ الخضري اقوالاً كثيرة لايقولها الا بنو أمية وأنصارهم فقلنا ماكان أحرى بالشيخ لو كان في أيام معاوية بن أبي سفيان ومن تبعه من الخلفاء الامويين فيلقي من حواليهم محاضراته على الناس فيرضيهم بها أما الآن وقد مرت على الدولة الاموية نحو ألف وثلاثمائة عاماً فنا اوكد لحضرة الاستاذ الفاضل بأن مافي الناس من يرضيهم قوله اذا لم يكن مدعوماً بالحق مؤيداً بالبرهان الاشهب

لم يذكر الشيخ الخضري في محاضراته ماكان في «غدير خم» ولم يلتفت حق الالتفات الى الاسباب التي دعت حملة أسامة بن زيد على الامتناع عن الخروج بأمر المصطفى عليه الصلاة والسلام للغزو ولا قال لنا شيئاً عن عمر عند مامنع أن يؤتى للمصطفى باللوح والدواة وهو على فراش الموت واعتذر ماشاء الاعتذار عما كان في السقيفة وكل هذا نغتفره له لاعتقادنا أنه ملبس ثوبه الديني ولو قال جهرة في محاضراته ان المسألة سياسية بحتة لاعلاقة لها بالدين وغلط الذين ألبسوها ثوبها الديني . ولكن الذي لانعذره عليه هو تصغيره أمر الخوارج الذين خرجوا على عثمان وذهابه مع الذاهبين الى تكذيبهم ونسبته حركتهم ضمناً بل قل صراحة الى الصحابة ولاسيما سيدنا علي أمير المؤمنين عليه صلوات الله ولومه ضمناً أو صراحة أمير المؤمنين والصحابة الآخرين لانهم كانوا يعيبون عثمان وعماله لتجاوزهم الحدود الاسلامية في سياسة الرعية وتمتعهم بخيراتها ولومه عثمان لانه لم يستعمل الشدة مع الذين وتفوا بوجهه يطالبون منه الرجوع الى الحق كما أشار عليه عماله كل هذا وأمثاله كثير في محاضراته المشار اليها وقع منا

وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَهَا بِاللُّطْفِ يَعْطِفُهَا عَمَّا تُحَاوِلُ مِنْ شَرٍّ وَيُثْنِيهَا
وَبِالْمَوَاعِيدِ يُطْفِي نَارَ حِدَّتِهَا وَبِالْمَوَاعِظِ وَالْآيَاتِ يَهْدِيهَا
حَتَّى اسْتَنَامَتْ إِلَيْهِ فِي رَغَائِبِهَا بِشَرْطِ أَنَّ ابْنَ عَفَّانٍ يُجَارِيهَا

موضع الدهشة والاستغراب حتى خلنا انه أمويٌّ في القرن الاول للهجرة يتكلم لا لأحد علماء القرن الرابع عشر الهجري . ولعمري اذا هان على الناس سماع كلمة في أيٍّ كان من السلف فما فيهم مؤمن يرضى أن ينال نائل من سيدنا عليّ بن أبي طالب عليه صلوات الله في هـذا العصر حيث لا مؤثر سياسي يحملهم على الاعضاء وهم متألمون

اننا بكل احترام نتقدم من حضرة الاستاذ الشيخ محمد الخضري ببيان منزلة سيدنا علي بن أبي طالب عليه صلوات الله من أنفس المسلمين أما منزلته عند الله ورسوله فهو أدرى بها مني لأنه مسلم صحيح الايمان يعرف فوق ما أعرف أنا من حقيقتها ولا أريد أن أجادله في هذا الأمر الا من الوجهة التاريخية الدنيوية فأقول : ان الاستاذ يعلم ما فعلت السياسة لتنفير المسلمين من سيدنا علي وحسنيه عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام ولا يعزب عن علمه الواسع كيف كان الناس يسبون سيدنا عليّ على عهد الأمويين من على المنابر وفي مجالسهم وذلك صريح ثابت لا جدال فيه ولا يجهل الاستاذ حفظه الله ما كان ينال شيعة سيدنا عليّ ومحبيه من اضطهاد الامويين وعمالهم وما بذل من الهبات والجهود لوضع الأحاديث وتصنيفها لتحقير سيدنا عليّ أو ايصال غيره من الصحابة الى مرتبته العليا. وفي الأخير يعلم الاستاذ ولا يجهل أن مساعي بني أمية هذه قد نجحت نجاحاً باهراً حتى كنت لا تجد في المسلمين من يسمي أولاده علياً أو حسناً أو حسيناً وقد انتشرت فيهم أسماء معاوية ويزيد وعبد الملك ومروان بعضهم لتشبعه من روح الكره لآل البيت الطاهر وبعضهم خوف الاتهام بتشيعه لهم حتى روى أحد الرواة أنه لم يجد في الشام كلها في نحو سنة ٨٠ للهجرة من سمى أولاده بأسماء آل البيت الشريفة سوى رجل واحد عثر به في برية الشام فاستغرب أمره وظنه متشيعاً فسأله كيف رضي أن يسمي أولاده علياً وحسناً وحسيناً فقال : اني ما سميتهم بهـذه الأسماء الا لأستبيح سبهم وانتهارهم فكأني أسب أولئك الذين لهم هذه الأسماء فتأمل .

نعم هذا ما فعله بنو أمية في مدى حكمهم وقد بلغ المئة عاماً . على أنَّ هذا لم يمنع الناس أن يكونوا متشيعين سراً لسيدنا عليّ وولديه وأولادهما رغم تلك السياسة القاهرة الضاغطة فنال من شعر الأمويون بهم على هذا المذهب ما نالهم من الشرّ على ما هو معلوم . ثمَّ ان آل البيت الطاهر وشيعتهم لم يسلموا على عهد العباسيين من الاضطهاد والتنكيل أيضاً لمطالبتهم بالخلافة وحسبانها من حقّ الطالبيين دون سواهم فما استطاع العباسيون على طول عهدهم بالخلافة ودخول الأتراك فيها من قتل هاتيك الروح الشريفة روح التشيع لوصي المصطفى ووزيره وأفضل وأكمل رجل في الاسلام بعد المصطفى عليهما الصلاة والسلام. ثمَّ دارت الأفلاك وتحوّلت الأحوال وتلاشت القوى الضاغطة على العقول وأطلقت للناس الحرية في اعتقادها فرجعت الى ما كانت عليه من احترام أهل البيت الطاهر وتقديسهم فما عدت تجد واحداً يخلو بيته من اسم محمد أو علي أو حسن أو حسين كما ما عدت ترى شخصاً واحدا يدعى باسم معاوية أو يزيد أو عبد الملك أو مروان . وهذا الانقلاب وحـده يكفي للاعتقاد بأن لآل البيت الطاهر مكانة عند الناس منبثقة من مكانة المصطفى وأن المكانتين متلازمتان لا انفكاك لاحداهما عن الاخرى سيان ذلك في نظر العامة أو الخاصة فالعامة تنظر الى مكانة أهل البيت من

وَأَمْهَلَتْهُ ثَلَاثاً كَيْ يُقِيلَ بِهَا عُمَّالَهُ كَانَ ذَا أَقْصَى تَوَخِّيهَا
مَرَّتْ وَلَمْ يُجْرِ عُثْمَانُ الإِقَالَةَ بَلْ لَوْ رَامَهَا لَمْ يَكُنْ مَرْوَانُ مُمْضِيهَا
لِذَاكَ شَدَّتْ عَلَيْهِ شِدَّةً جَزِعَتْ لَهَا النُّفُوسُ وَجَدَّتْ فِي تَحَرِّيهَا

الجهة الدينية فقط والخاصة من جهتي الدين والعلم بالتاريخ حتى صار كثيرون من علماء السنة الذين لا بدَّ لهم من اقرار ماجرى في صدر الاسلام والدفاع عنه أن يجهروا بجواز ولاية المفضول بحضور الفاضل وأن يعلنوا عند ذكر الحوادث التي نحن بصددها قولهم : « اننا لا نظن بصحابة رسول الله الا خيراً » وما ذكرنا هذا لحضرة الاستاذ لأنه لا يعرفه ولكن لأنا نشكو من تطرفه بالتشيع للأمويين ما ساقه الى تقرير كل ما كتب للدفاع عن دعوى بني أمية لحقائق راهنة لاتقبل الجدل حتى زلق به القلم الى توجيه ما كنا نريد أن ننزه قلمه عنه الى شخص سيدنا علي عليه صلوات الله حتى لرأيناه يتهم هذا السيد الأروع الجليل بمقتل عثمان بشبه صراحة ان لم نقل بصراحة

وبعد فهل يعتقد حضرة المؤرخ الكبير الشيخ محمد الخضري اعتقاداً صحيحاً ان سيدنا علي مابذل فوق الجهد ليرجع عثمان عما يساق اليه من الشطط بأيدي أصحابه الامويين ؟ وهل يعتقد اعتقاداً صحيحاً ان سيدنا علي الذي طالما عارض عمر أعلى شدَّته غيرة على الشريعة السمحاء وكان عمر يسمع له ويقول « لولا علي لهلك عمر » يسهل عليه أن يرى الامويين يسيطرون في ظلال عثمان على المسلمين ويتمتعون بخيرات الخلافة الاسلامية ويسكت ؟؟ وهل يعتقد أن سيدنا علي ما بذل جهده ليمنع الفتنة مراراً وتكراراً وانه لم يتوسط باخلاص بين عثمان والثائرين لذلك وكان عثمان يقتنع من نصائحه الصادقة ويعد بالاصلاح ثمَّ يعترض الامر ويفسده مروان؟ اذا كان يعتقد الشيخ الخضري ان هذا لم يحصل ولذلك لم يذكره في كتابه لتبرير سيدنا علي من قتل عثمان فما أحراه أن يرجع الى التاريخ وان كان يعتقده قد حصل ولكن لم يكن عليٌّ مخلصاً فيه فكان يجب أن يذكره في كتابه ويقيم البراهين على عدم اخلاص سيدنا علي بنصائحه لنعرف كيف نقيم الحجة لاقناعه باخلاص الامام وفي الاخير اذا كان الشيخ الخضري يعتقد ما كتبه في محاضراته بأن عمال عثمان ما كانوا مخطئين وان الثائرين قد ظلموهم وظلموا صاحبهم عثمان وان سيدنا علي وغيره من كبار الصحابة كطلحة والزبير حتى عبد الرحمن بن عوف الذي كان متجنباً الخلافة وعمالاتها وكان أول من تجرأ على عثمان فمدَّ يده الى ابل الصدقة التي ما كادت تصل الى عثمان حتى وهبها لبعض ولد الحكم فأخذها وقسمها بين الناس احتجاجاً على الهبة واعتراضاً عليها فاذا كان مبلغ علمه بالتاريخ ان هؤلاء الصحابة وبقية الناس كانوا مخطئين بتخطئة عثمان فيما يفعل ولا يرضاه الشرع الاسلامي فأقول بكل أسف انه قد بعد عن الحقيقة وأأسف أن يحلَّ تلامذة الجامعة المصرية في القرن الرابع عشر للهجرة محاضراته في محل الاعتبار كأنها حقيقة واقعية لا ريب فيها ولا باطل يعتورها

وأراد الشيخ محمد الخضري حسب اجتهاده أن يصمر المسألة في نظر المسلمين لقصد حسن طبعاً وهو جمع كلمتهم بعد أن بعدوا عن هاتيك المواقع مهدا العهد الطويل وبعد أن لم يبق في الناس من يهمه التسلح بها فقال « من الغريب أن تبقى هذه الحادثة سبباً دائماً لتفريق كلمة المسلمين ففي بعض الاحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والاسنة وفي بعض الاحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك الا لأنَّ المسألة ألبست ثوب الدين وكلٌّ حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه الى غرض من الاغراض. ولو نظرنا الى المسألة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه قومٌ من

تَفَاقَمَ ٱلْخَطْبُ حَتَّى قَدْ تَعَذَّرَ دَفْـــعُ ٱلْـكَارِثَاتِ ٱلَّتِي حَلَّتْ بِوَادِيهَا
فَأَنجَدَ ٱلْمُرْتَضَى عُثْمَانَ بِٱلْحَسَنَيْـــنِ قَائِلًا : فَٱحْمِيَاهُ مِنْ تَصَدِّيهَا
أَوْ تُقْتَلَا دُونَهُ لَا تَرْهَبَا خَطَراً مِنَ ٱلرَّزَايَا ٱلَّتِي فَحَّتْ أَفَاعِيهَا

رعيته بعضهم سوء القصد « كذا » والبعض الآخر تابع لهم ثمّ قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الاسلام ثمّ نحكم بأنهم اخطئوا خطئاً عظيماً ثمّ ذهبوا الى من له الحق أن يدينهم ولم يبق،منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أونبين الصواب له لخطئه وغاية الأمر ان الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة ممـا كان فلعاقل همه أن يتعلم ويفهم لاان يحقد على قوم لم تبق منهم باقية » انتهى قوله

ونحن نشكر للشيخ محمد الخضري حسن قصده في هذا القول ونقرّ على ان على المسلمين اليوم أن لايحقدوا على ما كان بل ان يستفيدوا منه العبرة ويعودوا الى جمع كلمتهم بعد تفريقها ولا تتعرض الى تجريده المسألة من ثوبها الديني كل هـذا نحن به مع الشيخ الخضري ولـكن نخالفه فيما عداه نخالفه في أنّ الناس غضبوا على عثمان عن سوء قصد والغاضبون الحقيقيون هم سيدنا علي وأبوذر وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعائشة ونحوهم من زعماء المهـاجرين والانصار وما غضبوا على عثمان الا لانه أغضب الشريعة فان كان المراد من البحث في الموضوع هو العبرة فعلينا أن نظهر الحقيقة ليعتبر الناس بها فنقول لهم مثلاً « ان عثمان مع انه زوج ابنتي رسول الله ومع انه ثالث الخلفاء الراشدين ومع انه من السابقين الى الاسلام مع ذلك كله عندما أخطأ الى الشريعة باستسلامه الى الامويين وتوزيعه عليهم اموال المسلمين وعمالات المسلمين لم يتسامح معه المسلمون بل وقفوا في وجهه وثاروا عليه وحصروه وطلبوا منه أن يصلح ولما لم يستطع الاصلاح طلبوا منه أن يستقيل ولما أبى الاستقالة قتلوه » سماذا قلنا هذا القول نكون قد قلنا الحقيقة وألقينا على الملوك والناس درساً من أشرف الدروس الشعبية « الديموقراطية » الاسلامية التي يفتخر المسلمون انها من اصول دينهم الحنيف ولا سيما اذ يرون الاوربيين يعملون بها بعد ألف وثلاثمائة عاماً وبعد أن بلغوا من الرقي العلمي والعملي مابلغوا وفي اعطائنا هذا الدرس للمسلمين وملوك المسلمين نكون قدوصلنا الى الغاية الصحيحة التي ينشدها الشيخ محمد الخضري وكل من يهتمّ بخير المسلمين ويتمنى لهم أن يعودوا الى ماضيهم المجيد وقد يكون هذا القول اذا اقتنع به المسلمين اليوم وسيلة لجمع كلمتهم بعدفرقتها كل هذه الاعوام الطوال فقد يجتمعون على حبّ محمد وآل محمد عليهم الصلاة والسلام ولـكن من المحال ان يجتمعوا على قول يحطّ من أقدار آل البيت الطاهر والله سبحانه أعلم

« ترجمة عثمان »

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي يجتمع برسول الله بعبد مناف . وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . ولد في السنة الخامسة من ميلاد المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأسلم على يد أبي بكر وزوجه المصطفى ابنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها الى الحبشة ثم رجع الى مكة قبـل هجرة المدينـة وهاجر مع المهاجرين الى المدينة وحضر المشاهد مع المصطفى الا بدراً حيث كان يمرّض زوجه رقية التي توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له الرسول في غنائم بدر ثمّ زوّجه ابنتـه الثانية أمّ كلثوم ولذلك دعي « ذو النورين » وفي يوم الحديبية أراد المصطفى أن يرسل عمراً

لٰكِنَّهُ ٱلْقَدَرُ ٱلْمَحْتُومُ حُمَّ وَقَدْ   قَضَى ٱبْنُ عَفَّانَ مَقْتُولاً بِأَيْدِيهَا
وَٱسْتَحْكَمَتْ فِتْنَةٌ كَانَتْ أُمَيَّةُ فِي   كُلِّ ٱلْإِمَارَاتِ تُورِيهَا وَتُذْكِيهَا
وَقَالَ فِي قَتْلِ عُثْمَانٍ أَبُو حَسَنٍ   مَقَالَةً أَظْهَرَتْ آرَاءَهُ فِيهَا

ليتفاهم مع المشركين فخاف قائلاً ليس لي من ينصرني فابعث بعثمان اليها وقومه هم السائدون فيها فأرسل عثمان بهذه المهمة على نحو ما تقدم في يوم الحديبية وفي غزوة تبوك أنفق عثمان كثيراً من ماله واشترى بئر رومة بماله أيضاً ثم تصدق بها على المسلمين وكان في جملة كتاب الوحي وأخلص لأبي بكر في خلافته فكان أمينه وكاتبه وبيده كتب عهده لعمر على ما تقدم . وكان وفياً لعمر يكتب له . وولي الخلافة بعد مقتل عمر على نحو ما تقدم معنا أيضاً .

وفي عهد عثمان كانت مغازي أهل الكوفة الري وأذربيجان. وسير سلمان بن ربيعة الباهلي على أرمينيا بعد انتقاضها فأيد بها حكم الخلافة وفتحت أيضاً طبرستان وهي مصر واسع على شاطيء بحر الخزر . وفي سنة ٣٢ هـ أوغل عبد الرحمن الباهلي في بلاد الخزر ولم يكن نجاحه كبيراً . وثارت الفرس على عهده وانتقضت على حكمه فطوعها جيش البصرة . وكان معاوية بعهده يغزو الروم فبلغ عمورية وتوسع في أرمينيا حتى تفليس وفي هذا العهد صنع معاوية السفن الحربية وأنزل فيها المسلمين وكان عمر من قبل يمنعه من ذلك ففتح قبرس وهذا أول عهد المسلمين بالحرب البحرية وأمر عثمان أن يكون جند المسلمين في البحر متطوعين بملء ارادتهم وكان أميرال أسطول معاوية عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فكان يغزو كثيراً . وهذا أول أميرال عربي مسلم خاض البحار للحرب والغزو. ثم ان عمرواً بن العاص عاد في أيامه الى مصر وصنع أسطولاً بحرياً أيضاً ثم عزله عثمان ثانية وعين لمصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح ولما جاء قسطنطين ملك الروم باسطول فيه ستمائة سفينة حربيــة يريد فتح الثغور المصرية سار اليه ابن أبي سرح بأسطوله وقدم معاوية بأسطوله وحاربا اسطول الروم في البحر وتغلبا عليه وقهراه واستوليا على كثير من سفن الروم وسميت هــذه الموقعة بموقعة أم الصواري وهكذا أصبحت الخلافة الاسلامية في عهد عثمان دولة بحرية ولم يكن لها عهد في البحار قبل ذلك

ولم تكن أيام عثمان هادئة فان البلاد انتقضت عليه فحاربها وأعادها الى الطاعة ثم ثار عليه العرب وانتهت ثورتهم بمقتله على نحو ما تقدم وكانت أعوام خلافته اثنتي عشر عاماً الا ١٢ يوماً

وتزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله فولدت له عبد الله ولم يعش وتزوج في المدينة أختها أم كلثوم . وتزوج فاختة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبد الله الأصغر فلم يعش . وتزوج أم عمر بنت جندب الروبي فولدت له عمراً وخالداً واباناً وعمرواً ومريم . وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأم سـعيد . وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفرارية فولدت له عبد الملك ومات . وتزوج رملة بنت شيبة من بني عبد مناف فولدت له عائشة وأم ابان وأم عمرو . وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم

أما عمال عثمان في عام مقتله فهم : عبد الله بن الحضرمي على مكة . والقاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف . ويعلى بن منبه على صنعاء . وعبد الله بن عامر على البصرة . ومعاوية بن أبي سفيان على الشام . وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد على حمص « وكان مرجعه الى معاوية » . وحبيب بن مسلمة الفهري على قنسرين وحلب . وأبو الأعور السلمي على الأردن . وعلقمة بن حكيم الكناني

فَقَالَ : لَوْ أَنَّنِي يَوْماً بِقَتْلَتِهِ أَمَرْتُ مَنْ قَتَلُوهُ كُنْتُ جَانِيهَا
أَوْ كُنْتُ نَاصِرَهُ لَوْ كُنْتُ زَاجِرَ ثُوَّ م ارِ عَلَيْهِ تَعَدَّتْ أَوْ مُنَهْنِهَهَا
مَا بِٱسْتِطَاعَةِ أَنْصَارِ ٱلْقَتِيلِ رُمَا هَاةِ ٱلأَلَى خَذَلَتْهُ فِي تَزَوُّبِهَا

على فلسطين . وأبو موسى الأشعري على الكوفة « وعلى خراجها جابر المازني وعلى حربها القعقاع بن عمرو » وجرير بن عبد الله البجيلي على قرقسيا . والأشعث بن قيس الكندي على آذربيجان وعتبة بن النهاس على حلوان . ومالك بن حبيب على الماه . والنسير على همدان . وسعيد بن قيس على الري . والسائب الأقرع على أصبهان . وكان على مصر عبد الله بن سعد ولكن الثورة أفضت الى تغلب محمد بن أبي حذيفة عليها وكان له على بيت المال بمصر عقبة بنت عامر وعلى القضاء زيد بن ثابت

أما صورة عثمان : فقد كان ربعة ليس بالقصير ولا بالطويل . حسن الوجه . بوجنتيه نكات جدري . أقنى مشرف الأنف . رقيق البشرة . عظيم اللحية طويلها . أسمر اللون . كثير الشعر . له جمة أسفل أذنيه . ضخم الكراديس . بعيد المنكبين . أصلع الرأس

« مصحف عثمان »

والمعروف بين الناس أن القرآن الشريف هو من جمع عثمان بن عفان ولذلك يسمونه مصحف عثمان والحقيقة في هذا الأمر هو أن سيدنا علي انصرف الى جمع القرآن بعد وفاة المصطفى عليهما الصلاة والسلام وكانت حفصة بنت عمر زوج المصطفى تجمع هي أيضاً ما تفرق من الكتاب الكريم وتم ترتيبه وتنئذ والأمر بيد أبي بكر وصار الناس يتناسخونه فلما كان عهد عثمان حدث لغط بين الأمصار فيقولون مصحف فلان خير من مصحف فلان أو مصحف الشام مثلاً خير من مصحف العراق فخاف عثمان أن يفضي الحال الى ادخال شيء من التحريف على الكتاب الكريم فطلب الصحف التي كانت عند أبي بكر واستكتب منها عشر نسخ وأرسلها الى الجهات وأمر باحراق كل ما عداها وهكذا حفظ القرآن الشريف بغير تغيير ولا تبديل ولا خطأ واطلق عليه اسم «مصحف عثمان » ولا نعلم ما فعل الله بهذه المصاحف العشرة الا أنهم يقولون ان أحدها موجود في المكتبة القيصرية في موسكو وله صورة أخذت بالفوتوغراف باسم الحكومة المصرية وهي موجودة في المكتبة السلطانية في القاهرة . وفي مكتبة السلطنة المصرية أيضاً يوجد مصحف آخر يقولون انه أحد هاتيك المصاحف العشرة . ويوجد في خزينة الآثار النبوية في القسطنطينية مصحف ثالث يقولون انه من هاتيك المصاحف . ويقولون أن المصحف الشريف الذي سبق لنا ذكره في الحجرة الشريفة النبوية في المدينة المنورة هو منها والله أعلم

« ترجمة مروان بن الحكم »

أما ترجمة مروان بن الحكم الذي هو رأس هذه الفتنة فهو مروان بن الحكم بن العاص بن أمية الاموي القرشي وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكناني ولد في السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم مع من أسلم من كفار ومشركي قريش يوم الفتح وهم الذين سماهم المصطفى صلى الله عليه وسلم يومئذ « الطلقاء » وأطلق المسلمون عليهم اسم « المؤلفة قلوبهم » والحكم هذا هو عم عثمان بن عفان وسار بعد الفتح الى المدينة فاقام فيها مدة ثم طرده رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فسار الى الطائف بولده وفيهم مروان وهو غلام يترعرع وسكنها أما سبب طرد النبي الحكم بن العاص فذلك لانه كان يحتال ويستخفي ويسمع مايسره رسول الله الى أكابر الصحابة ويفشيه في

وَلَا ٱلْأُلَى خَذَلَتْهُ أَنْ تُفَاخِرَهَا   أَنْصَارُهُ مَا تَمَادَتْ فِي تَبَاهِيهَا
وَإِنَّنِي مُجْمِلٌ أَمْرَ ٱلْفَجِيعَةِ فِي   مَقَالَةٍ لَيْسَ مِنْ بُطْلٍ يُغَشِّيهَا
قَدْ كَانَ مُسْتَأْثِرًا بِالْأَمْرِ صَاحِبُنَا .   وَإِنَّ أَثْرَتَهُ سَاءَتْ مَآتِيهَا

مشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين وكان يقلد المصطفى في مشيته مستهزئاً وأنت تعلم انه عليه الصلاة والسلام كان يتكفأ في مشيته وكان يفعل الحكم ذلك عن حسد وشنآن فالتفت رسول الله ووجده على هذه الحالة فقال له كذلك فلتكن يا حكم ومن ذلك الوقت أصبح الحكم يرتعش ويختلج وبعد أن وقف رسول الله على سوء خبيئته نفاه الى الطائف فظلّ فيها ولم يسمح أبو بكر وعمر له بالخروج منها حتى اذا تولى الامر عثمان قدم المدينة مع ولده فاختص عثمان كبيرهم مروان للكتابة فما زال حوله حتى تغلب عليه وأصبح الآمر الناهي في خلافته وكان عمره لا يزيد عن ٢٢ عاماً

وكان مروان داهيةً حيالاً خبيثاً فاختصه معاوية بصداقته واتفق معه على السيطرة على الخلافة الاسلامية في عهد عثمان بن عفان وهكذا كان ويدلك على اقتدار هذا الرجل ما رأيت من جرئته من الكتاب الذي كتبه وختمه بختم عثمان وأرسله الى عامل مصر وفيه ما فيه من الامور ذات المسئولية الكبرى والنتائج المخيفة من غير أن يعرف عثمان هذا والناس في بحران ثورتهم

وعند ما قتل عثمان أصيب مروان بضربة سيف على ما تقدم فقطعت احدى علباويه وأصبح بعدها أوقص على ان مروان هذا زيادةً في جرئته لم يشأ أن يهرب الى معاوية مع من هرب من بني أمية بعد مقتل عثمان بل ظلّ هناك وكان مع المبايعين للامام عليّ على انه ما أمهل أن نكث بيعته وانضمّ الى عائشة والزبير وطلحة ومن معهما من أصحاب الجمل وصحبهم الى البصرة . وفي واقعة الجمل وقع مروان أسيراً في يد سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله فتقدم منه ولداه الحسن والحسين مستشفعين به فخلى سبيله فعرضا عليه أن يأتي ويبايعه فقال « أولم يبايعني بعد قتل عثمان ، لا حاجة لي في بيعته ، انها كف يهودية ، لو بايعني بيده لغدر بسبته ، أما انّ له امرةً كلعقة الكلب أنفه ، وهو أبو الاكبش الاربعة ، وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر » وهذا أيضاً مما كان عليه صلوات الله ينبيء به عما يجري في المستقبل اذ بالفعل تولى مروان الخلافة أجلاً يسيراً على ماسترى ثمّ تولاها بعده أحفاده الاربعة الواحد بعد الآخر وهم أولاد ابنه عبد الملك الوليد وسليمان ويزيد وهشام وكان من أمر الامة في عهدهم ما لم يخرج عن أخبار أمير المؤمنين عليه صلوات الله

وبعد أن أطلق سيدنا علي عليه صلوات الله مروان خرج الى الشام فانضمّ الى صاحبه معاوية وحضر معه حرب صفين وبعد مقتل سيدنا عليّ وتنازل سيدنا الحسن عن الخلافة الى معاوية ولّى هذا على المدينة صاحبنا مروان ثمّ جمع له الى المدينة مكة والطائف ثمّ غضب عليه فعزله وولى سعيد ابن العاص مكانه فسار مروان الى الشام غضبً ولقي معاوية وأغلظ له القول وهدّده بأولاده وأنذره بالتملك على الخلافة وأقام في دمشق وهو ايس على ولاء مع معاوية

ولما أصرّ معاوية على أخذ بيعة الناس لابنه يزيد على حياته كبر هذا على مروان وهو كما تعلم شريكه في استخلاص الخلافة لبني أمية من عهد عثمان ولذلك هجر دمشق وأقام في المدينة المنورة وفي نفسه ما فيها على معاوية . وتوفي معاوية سنة ٦٠ هجرية وخلفه ابنه يزيد فظلّ مروان في المدينة أيضاً على عهده وما زال كذلك الى أواخر سنة ٦٣ هجرية حيث ثار أهالي المدينة وانتقضوا على يزيد بن معاوية وكان أول عمل عملوه أنهم حصروا الامويين في دار مروان ثمّ أطلقوا سراحهم على

وَٱلنَّاسُ قَدْ جَزِعَتْ مِنْ سُوءِ أَثَرَتِهِ فَأَتْبَعَتْهَا بِأَسْوَاءِ تُحَاكِيهَا
وَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ فِي مُسْتَأْثِرٍ وَجَزُوعٍ أَوْرَثَانَا مِنَ ٱلْأَرْزَاءِ قَاسِيَهَا
وَٱلْقَوْلُ قَوْلُ عَلِيٍّ وَهُوَ أَعْرَفُ بِٱلْأُمُورِ مِنْ كُلِّ مَنْ يَرْوِي أَمَالِيهَا

أن يرتحلوا عن المدينة وأن يقسموا أن لايمالئوا عليهم يزيد ولا غيره من أعدائهم ففعلوا وكان في جملة الذين خرجوا من المدينة من الامويين مروان وابنه عبد الملك . وانجلت الثورة عن خضوع المدنيين ليزيد . ويزيد هذا هو صاحب الجريمة المشهورة ألا وهي قتل سيد الشهداء سيدنا الحسين عليه وعلى أبيه وجده وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام

وفي ١٤ ربيع أول سنة ٦٤ هـ « ١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣ مسيحية » توفي يزيد بن معاوية فخلفه ابنه معاوية الثاني بعهد منه وماكاد معاوية الثاني وهو لم يكن يتجاوز من العمر ٢١ سنة يتربع على دست الخلافة حتى رأى الناس حوله على حزبين أحدهما مع عبد الله بن الزبير الذى كان قد نادى بنفسه في الحجاز خليفةً للمسلمين والثاني مع مروان بن الحكم ابن عمه . وذلك لان مروان صعب عليه أولاً ولاية يزيد فاحتملها مكرهاً منزوياً في المدينة ولكنه لم يحتمل ولاية معاوية الثاني فهمّ أن يترك الشام ليحلق بالمدينة فقيل له بل الاولى أن تظلّ هنا فان معاوية لا يعيش لضعف جسمه وكثرة أمراضه وأنت زعيم الامويين فأصغى وقام على رأس حزبه الكبير ينظر الى مايكون

غير ان معاوية الثاني لضعف جسمه وتأثير الامراض عليه لم يطق حال الشام وانقسام الناس فيها كما لم يتحمل الذين يدلون عليه والذين يكيدون له فاستدعي يوماً الناس بعد قليل من خلافته الى المسجد الاموي ووقف فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال « أما بعد فاني قد ضعفت من أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستةً مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ونزل عن المنبر نافضاً ردنيه من أمر لم يكن كفئاً له ودخل بيته منزوياً بأمراضه ولم يطل انزواؤه فمات بعد ثلاثة أشهر وعلى أثر وفاته اجتمع أهل الشام على بيعة مروان وبايعوه وكان ذلك لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤ للهجرة

وكان زعيم المتشيعين لعبد الله بن الزبير الذي نادى بنفسه خليفة منذ تولى الخلافة معاوية الثاني رجل اسمه الضحاك وكان يكتفي باقلاق راحة معاوية الثاني وهو يعلم انه لايعيش فلما رأى مروان أصبح خليفة المسلمين هاجمه بين الجابية والمرج ودام القتال بينهما عشرين ليلةً وانتهى بقتل الضحاك وانخذال أصحابه وكان هذا في محرم سنة ٦٥ للهجرة وبعد ذلك انصرف مروان الى أمصار سوريا وأخضعها بالسيف ثم سار بجنده الى مصر ففتحها كل ذلك في مدى تسعة أشهر .

وكان الناس عند ما بايعوا مروان بايعوا بولاية العهد خالداً بن يزيد بن معاوية وهو صغير . فلما استتبّ الامر لمروان في الشام ومصر حدثته نفسه أن يبايع لولديه عبد الملك وعبدالعزيز ويخلع خالداً بن يزيد ولهذا السبب تزوّج أم خالد ليسيطر على ولدها خالد وهو ولي عهده ويمنعه من معارضته في خلعه وبيعة ولديه وهكذا فعل . أما أمّ خالد فغضبت لابنها وضيعة حقه بالخلافة وكتمت ما في نفسها أياماً الى ذات ليلة حيث جاءها مروان لينام عندها فقامت عليه مع جواريها وهو نائم وجعلن الوسائد والبرادع عليه وجلسن فوقها حتى خنقنه وذلك في دمشق في شهر رمضان سنة ٦٥ للهجرة وهو ابن ٦٣ سنة وهكذا انتهت حياة هذا الرجل الذي لعب أكبر دور في عهد عثمان وفاز بالخلافة لنفسه في آخر الزمان

خلافة أمير المؤمنين

مَا مَاتَ عُثْمَانُ إِلاَّ وَٱلصِّيَاحُ دَوَى ... بَيْنَ ٱلأَعَارِبِ أَعْطُوا ٱلْقَوْسَ بَارِيهَا(١)

إِنَّا نَرُومُ إِمَاماً عَالِماً فَقِهاً ... وَعَى ٱلشَّرِيعَةَ وَٱسْتَقْصَى مَعَانِيهَا

وَحَاكِماً عَادِلاً لِلْحَقِّ مُنْتَصِراً ... بِهِ تَنَالُ رَعَايَاهُ تَسَاوِيهَا

وَسَيِّداً مَا تَعَالَى عَنْ رَعِيَّتِهِ ... فَإِنْ أَتَتْهُ تُفَاهِيهِ يُفَاهِيهَا

وَآمِراً إِشْتِرَاكِيّاً كَمَا نَزَلَتْ ... آيُ ٱلْهُدَى وَكَمَا قَدْ شَاءَ مُوحِيهَا

نَخْتَارُ مَنْ لَا يُحَابِي بَيْنَ أُمَّتِهِ ... إِذَا تَنَازَعَ سُفْلِيهَا وَعُلْوِيهَا

نَخْتَارُ مَنْ لَا يَرَى تَمْيِيزَ عِتْرَتِهِ ... عَنِ ٱلرَّعِيَّةِ أَوْ يَوْماً يُحَابِيهَا

نَخْتَارُ مَنْ تَعْرِفُ ٱلْهَيْجَاءُ كَرَّتَهُ ... وَمَنْ يَصُولُ عَلَى ٱلأَعْدَا وَيُنْكِيهَا

نَخْتَارُ مَنْ يَزْدَرِي ٱلأَمْوَالَ يَحْقِرُهَا ... زُهْداً وَيَبْذِلُهَا بِرّاً لِعَافِيهَا

نَخْتَارُ مَنْ بِفُرُوضِ ٱلدِّينِ مُضْطَلِعاً ... مِنْ بَدْئِهَا مُفْضِياً فِيهَا لِخَامِيهَا

---

(١) لابدَّ من ارسال نظرة صادقة تخترق اعماق مافي فؤاد سيدنا عليّ عليه صلوات الله ساعة بلغه نبأ قتل عثمان ليسهل علينا تفصيل بيعته وكيفية قبوله الخلافة . فان سيدنا علي عليه صلوات الله على ماتشهد أعداؤه قبل أصدقائه ومبغضوه قبل محبيه لم يكن من رجال الدنيا المتمسكين بزخارفها المتولعين ببهرجتها بل ما كانت عنده على ماقيها من جاه ومجد ويسر وترف انساوي عفطة عنز كما قال . واذا كان قد نادى بالخلافة لنفسه وشدَّد على الذين حرموه منها بعد وفاة المصطفى عليهما الصلاة والسلام فقد كان ذلك منه لثلاثة أمور أولها اعتقاده انها من حقه الشرعي وقد غصبت منه وثانيها اعتقاده انه أقدر على تمشية الامور على سنن ابن عمه المصطفى من سواه وثالثاً لان سيدتنا فاطمة الزهراء كانت تأبى أن ترى في زعامة المسلمين بعد أبيها غير زوجها عليهم الصلاة والسلام . ولكن وفاة سيدتنا فاطمة وانتقال الخلافة من أبي بكر الى عمر الى عثمان وحصول ماقد حصل في عهد عثمان من القلاقل والفتن ومرور الايام باحداثها والاعوام بصروفها كل ذلك جعل حكيماً زاهداً عابداً مثل سيدنا أمير المؤمنين غير راغب بالولاية يتمنَّى لو خلص من متاعبها على شرط أن يخلص من التبعة التي في عنقه نحو الاسلام والمسلمين أمام الله سبحانه ولم يكن يرهب سواه ان هو أصرَّ على رفضها "

قد لا يدرك كنه مانقوله الذين لايعرفون ماهي التقية وما هو الصلاح وماهي التبعة وماهو الضمير الحي وفي الاخير من هو عليّ بن أبي طالب على حقيقته قداسة نفسه وطهارة وجدانه وصحة عقيدته ومتانة ايمانه ولذلك نقول جازمين غير وجلين ولا مترددين انَّ سيدنا علي عليه صلوات الله عند ماسمع بمقتل عثمان لم يدخل على نفسه الشريفة مادخل على نفوس غيره من الناس من مختلف المؤثرات فما أكبر الخطب كما أكبره الامويون لان عثمان ولو انه خليفة المسلمين ماخرج عن حدّ أنه واحد منهم . تلك

نَخْتَارُ مَنْ كَانَ لِلْهَادِي ٱلرَّسُولِ أَخًا   تِلْكَ ٱلْأُخُوَّةُ أَخْلَقُ أَنْ نُرَاعِيَهَا
نَخْتَارُ خَيْرًا وَصِيَّ ٱلْمُصْطَفَى لِعِبَا   دِ ٱللهِ مَا غَيْرُهُ لِلْحَقِّ يُمْشِيهَا
نَخْتَارُ وَٱلْأَمْرُ شُورَى زَوْجَ فَاطِمَةٍ   إِلَى ٱلْخِلَافَةِ تُسْمِيهِ وَيُسْمِيهَا
خِرْنَا ٱلَّذِي رَبُّهُ قَدْ خَارَهُ وَرَسُو   لُهُ وَخِيرَتُهُ هُبُّوا لِتُمْضِيهَا
فَلْنَسْرِعَنَّ بَنِي ٱلْإِسْلَامِ أَجْمَعَنَا   لِنُسْكِنَ ٱلدَّارَ بِٱلْإِجْلَالِ بَانِيهَا
كَذَاكَ كَانَتْ جُمُوعُ ٱلْمُسْلِمِينَ تُنَا   دِي بَعْضُهَا ٱلْبَعْضَ مَا أَحْلَى تَنَادِيهَا
وَبِٱلتَّهَالِيلِ أَمَّتْ دَارَ حَيْدَرَةٍ   بِمَا لَدَيْهَا مِنَ ٱلْآمَالِ تُزْجِيهَا
وَإِنَّ أَصْوَاتَ خَلْقِ ٱللهِ مَا ٱجْتَمَعَتْ   إِلَّا عَلَى ٱلْحَقِّ تُعْلِيهِ فَيُعْلِيهَا
وَزُمْرَةٌ مِنْ وُجُوهِ ٱلْقَوْمِ قَدْ دَخَلَتْ   عَلَى ٱلْعَلِيِّ وَحَيَّاهُ مُحَيِّيهَا
فِيهَا ٱلزُّبَيْرُ وَفِيهَا طَلْحَةٌ وَسِوَى   هٰذَيْنِ مِمَّنْ سَمَوْا فِي ٱلْعُرْبِ تَوْجِيهَا
قَالَتْ: مَمَالِكُنَا ذَا ٱلْيَوْمَ شَاغِرَةٌ   وَأَنْتَ صِهْرُ نَبِيِّ ٱللهِ تَحْمِيهَا

مبادىء الاشتراكية الاسلامية وقد قتل قبله عمر وهو خليفة . ولا صغر الخطب في نظره كما صغر في نظر غيره من أعداء عثمان لانه كحكيم حازم بعيد النظر ما فاته ضرر الفوضى التي فشت في المسلمين حتى انتهت بمقتل عثمان وطالما جاهد ليتلافى هاتيك الفوضى بما بذل من النصح لعثمان ولم يفلح . ولا شمت بمقتله كما شمت كثيرون لانه في الحقيقة لم يكن عدواً لشخص عثمان وحاشا لنفسه العلوية الطاهرة أن تخبىء عداوةً وحقداً لعثمان أو غيره من الذين كانوا يظهرون له العداوة أو يحقدون عليه . واجمال القول أنه كان عند تلك الواقعة ينظر الى المصلحة الاسلامية وهو في عقر بيته ويفكر في ماسيعقبها من الاخطار وعلى الأخص في مسؤليته الشخصية أمام ربه ودينه وابن عمه المصطفى والمسلمين

أما الثائرون فعند ما فصلوا في أمر عثمان على ما لم يكونوا يريدونه لاننا لا نزال على رأينا بأنهم كانوا يفضلون أن يستقيل عثمان ولا يغمسوا أيديهم بدمه وما قتلوه الا بعد أن يئسوا من استقالته وخافوا أن تدهمهم الجيوش التي أرسل يطلبها من عماله فتنكل بهم وتبقى الخلافة على الحال التي كانوا يرونها مخالفة للشرع وعلى رأيهم كان أكابر الصحابة والانصار نعم عند ما فصلوا في أمر عثمان بقتله طفقوا ينادون باسم سيدنا علي عليه صلوات الله جهراً ويصفونه بما عرف به من العلم والفضل والزهد والسابقة والقرابة والشجاعة وغير ذلك من حميد الصفات التي حلاّه الله بها فجعلته المنفرد العلم لا ندّ له بمحامده وأخلاقه الفاضلة وكانوا ينوهون باسمه جهرةً حتى ملأوا بأصواتهم آفاق المدينة المنورة وما كان منهم من يرضى أن يكون خليفة المسلمين سوى وصيّ الرسول الامين

أما كبار المهاجرين فقد كان على رأسهم ثلاثة هم بقية العشرة الذين مات رسول الله وهو عنهم راض وهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وكان سعد هذا غاضباً على عثمان أشدّ الغضب وقد آلى على نفسه أن لا يدخل قطعاً بشؤون المسلمين ولذلك كان على حيدةٍ تامةٍ خلافاً

بَادِرْ لِنَجْدَتِنَا وَٱقْبَلْ إِمَارَتَنَا　　فَضْلاً وَإِنَّا إِلَى عُلْيَاكَ نُهْدِيهَا
فَقَالَ : لا حَاجَةٌ لِيَ فِي إِمَارَتِكُمْ　　وَلا أَنَا بَعْدَ هٰذَا ٱلْيَوْمِ بَاغِيهَا
قَالَتْ : نُحَاذِرُ أَنْ نَرْضَى سِوَاكَ لَهَا　　وَمَنْ سِوَاكَ مِنَ ٱلْأَرْزَاءِ يُنْجِينَا
وَأَنْتَ أَسْبَقُ كُلِّ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ إِيمَانٍ　　سَابِقَةٌ أَكْرِمْ بِآتِيهَا
وَأَنْتَ أَقْرَبُ قُرْبَى لِلرَّسُولِ وَنَحْنُ　　أُسْرَةُ ٱلْمُصْطَفَى طُرًّا نُوَالِيهَا
نَادَاهُمُ : يَمِّمُوا غَيْرِي فَإِنِّيَ قَدْ　　زَهِدْتُ فِيهَا وَامُّوا مُسْتَحِبِّيهَا
إِنَّا لَمُسْتَقْبِلُونَ أَمْرٍ مَصَاعِبُهُ　　لَهَا وُجُوهٌ تُغَشِّيهَا طَوَارِيهَا
فَلا تَقُومُ لَهَا هٰذِي ٱلْقُلُوبُ وَلا ٱلْعُقُولُ تَثْبُتُ فِي مَلْقَى تَمَاسِيهَا
آفَاقُكُمْ قَدْ أَغَامَتْ وَهْيَ مُمْطِرَةٌ　　بُرُوقُهَا مَا ٱخْتَفَى عَنِّيَ تَلَوِّيهَا
وَقَدْ تَنَكَّرَتِ ٱلسُّبْلُ ٱلَّتِي وَضَحَتْ　　تَنَكُّرًا يُورِثُ ٱلْإِضْلَالَ وَٱلتِّيهَا
فَإِنْ أَجِبْتُ فَإِنِّي رَاكِبٌ بِكُمْ　　طُرُقاً بِعِلْمِي يُجَافِيهَا مُجَافِيهَا

للزبير وطلحة فانهما كانا على رغبة شديدة بالخلافة يتمنى كلٌّ واحدٍ منهما لو تكون نصيبه ولكن ما فتئا أنّ دون وصولهما اليها وقتئذ خرط القتاد لان الناس بعد أن مرّ عليهم ما مرَّ من الاحداث لم يعودوا ينصرفون عن علي اليهما مهما كان الحال وأوعى بالناس هم أهل المدينة وفيهم أكابر الصحابة والانصار وجماعة الثائرين النازلين فيها

وكان المقرّر لدى الناس أن الكلمة الاولى والأخيرة في الخلافة هي لأهل المدينة المنورة أنفسهم دون سواهم فقد رأينا أبا بكر قد أصبح خليفةً في حال بيعة أهل المدينة له وكتب بذلك الى الامصار التي كانت خاضعة لرسول الله فمن رضي بيعته أقرّه ومن عصاها حاربه وكذلك عمر أصبح خليفةً منذ قريب عهد أبي بكر له على أهل المدينة من غير أن يهتمّ بمن في بقية الامصار وكذلك كان الحال في ولاية عثمان فان عبد الرحمن بن عوف عند ما فوّض من أصحابه الخمسة ان يكون الحكم بينهم خرج ليسأل أهل المدينة رأيهم بالذي يريدونه للخلافة وما خطر له قط أن يرجع في الامر الى أهالي الامصار . وحسب هذه السوابق ما كان في المدينة المنوّرة من يشك بأن لامصار المسلمين الاخرى أدنى حقّ أو رأي بانتخاب أو تعيين الخليفة . وبطبيعة الحال ما كسب أهالي المدينة هذا الحقّ الا لان رؤساء المهاجرين والانصار كان أكثرهم فيها وهم على التحقيق أهل الحلّ والعقد في مصالح المسلمين

وعند ما انجلت الثورة عن مقتل عثمان أسرع زعماء بني أمية وأكابر المنتمين اليهم الى الاختفاء من وجه الثائرين فبعضهم لزموا بيوتهم والبعض هربوا الى الشام ملتجئين الى معاوية زعيمهم وكان في وقت الحصار قد ترك المدينة أناس منهم أيضاً ومع ذلك كان معظم رؤساء المهاجرين والانصار الاقدمين في المدينة كما سبق القول خلافاً لما زعم الشيخ محمد الخضري في محاضراته من أن أكثرهم

وَلَسْتُ أُصغي إِلى قَوْلٍ وَمَعْتَبَةٍ ... مَا دمتُ أَحكامَ رَبِّ ٱلْعَرْشِ أُجرِيهَا

وَإِنْ تَرَكْتُم عَلِيّاً مِنْ وِلاَيَتِكُم ... فَإِنَّنِي وَاحِدٌ مِنْ بَيْنِ أَهْلِيهَا

وَقَدْ أَكُونُ وَأَيمُ ٱللهِ أَكْثَرَكُم ... سَمْعاً وَطَوْعاً وَإِخْلَاصاً لِوَالِيهَا

وَإِنْ أَكُونَ وَزِيراً فِي إِمَارَتِهِ ... خَيْرٌ لَكُمْ فَدَعُونِي مِنْ تَوَلِّيهَا

وَمَا ٱنْتَهَى مِنْ مَقَالِ ٱلرَّفْضِ حَيْدَرَةٌ ... وَعَزْمَةُ ٱلصِّدْقِ وَٱلتَّصْمِيمِ يُبْدِيهَا

حَتَّى عَرَتْ سَامِعِيهِ دَهْشَةٌ وَإِلَيْـــــهِ ... وَجَّهُوا نَظَرَاتِ ٱلْيَأْسِ تَوْجِيهَا

قَالُوا: وَلَيْسَ لَهَا إِلاَّ أَبُو حَسَنٍ ... يُجْرِي سَفِينَتَهَا أَمْناً وَيُرْسِيهَا

إِنَّا نُنَاشِدُكَ ٱللهَ ٱلْمُهَيْمِنَ أَنْ ... تُعِيدَ لِلشِّرْعَةِ ٱلسَّمْحَا تَلَالِيهَا

وَأَنْ تَمُدَّ يَداً بَيْضَا لِأُمَّتِنَا ... بِهَا تَعُودُ إِلَى مَاضِي تَصَافِيهَا

أَلَا تَرَى يَامُفَدَّى شَرَّ مَوْقِفِهَا ... وَمَا غَدَتْ فِيهِ مِنْ بَلْوَى تُعَانِيهَا

أَلَا تَرَى ٱلْمُلْكَ وَٱلْإِسْلَامَ فِي خَطَرٍ ... دَانٍ وَنَكْبَتُهُ صَعْبٌ تَلَافِيهَا

كان خارج المدينة وهو وهم ينفيه التاريخ بكل صراحة

ولقد تشعبت الروايات في كيف كانت بيعة سيدنا علي عليه صلوات الله ولم يكن تشعبها لعدم امكان الوصول الى حقيقتها فان الذين حفظوا الوقائع التي قبلها ما كان يتعذر عليهم حفظها ولكن لانّ الناس في صدر الاسلام كان يهمهم ارضاءً لمعاوية والامويين أن يزيدوا وينقصوا فيها على ما تقتضيه المصلحة أو تريده « القوة القاهرة » فانتهى الينا من متضارب الروايات ما يحار في تمحيصه اللبيب أما نحن فنرى أن أصحّ الروايات التي يرتاح اليها الضمير هي رواية سيدنا علي عليه صلوات الله نفسه عن هاتيك البيعة فانه أولاً ما من مسلم صادق الايمان يشكّ بصدقه وثانياً أنه كان يخاطب بأقواله الكريمة التي نعتمد عليها لنعرف حقيقة كيفية بيعته منها الذين حضروها فلا يتأتى أن يخاطبهم بما لم يكن كأنه كان وهو يريد أن يحججهم به ومثل سيدنا علي أسمى قدراً وأعظم نزاهةً من أن يقول ما لم يكن أو تنطق شفتاه بغير الحق فقد قال عليه صلوات الله في خطبته الشقشقية بعد أن ذكر ولاية أبي بكر وعمر وعثمان ما نصه « فما راعني الا والناس كعرف الضبع اليّ ينثالون عليّ من كل جانب ، حتى لقد وطئ الحسنان ، وشقّ عطفاي ، مجتمعين حولي كربيضة الغنم » أي أنه عليه صلوات الله في حال قتل عثمان فاجأه الناس من كل صوبٍ وحدبٍ يريدون بيعته . وقد كرّر مثل هذا القول في غير موضع من خطبه ورسائله الشريفة . ثمّ روى لنا عليه صلوات الله كيف كان قبوله الخلافة على التماس القوم والحاحهم فقال « أما والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ، ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها ، ولسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز » وفي هذه الكلمات ومثلها أيضاً أبان الاسباب التي حملته على قبول رجاء

أَلا تَرى ٱلْفِتْنَةَ ٱلْهَوْجَاءَ تُحْرِقُنَا نِيرَانُهَا لَعَنَ ٱلْبَارِي مُلَظِّيهَا
أَلا تَخَافُ إِلهاً أَنْتَ تَعْبُدُهُ فِي أُمَّةٍ بِكَ قَدْ نَاطَتْ أَمَانِيهَا
وَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَصَاخَ لَهُمْ سَمْعاً وَدَعْوَتُهُمْ أَمْسَى مُلَبِّيهَا
وَقَالَ: لَوْلا حُضُورُ ٱلْحَاضِرِينَ وَنَصْـرُ ٱلنَّاصِرِينَ لَهَا مِنْ مُسْتَهِينِيهَا
وَمَا عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ ٱللهُ يَأْخُذُ مِنْ مَوَاثِقٍ خَيْرُهَا سَعْياً مُوَفِّيهَا
أَنْ لا تَقَرَّ عَلَى كَظَّاتِ ظَالِمِ قَوْ مٍ أَوْ سَغَابَةِ مَظْلُومٍ يُقَاسِيهَا
لَكُنْتُ أَلْقَيْتُ أَحْبَالَ ٱلْخِلافَةِ مَا طَالَتْ عَلَى مَنْكِبَيْهَا غَيْرَ شَالِيهَا

الناس والتماسهم وهي اولاً وجاعة حجتهم عليه بأنهم ينصرونه على الحق ، وثانياً انه كان يرى بان الله قد اوجب على العلماء ان لا يتغافلوا عن ظلم الظالم ومظلمة المظلوم وان هذين السببين هما اللذان حملاه على قبول الخلافة ولولاهما لكان بلا شك قد تخلى عن الخلافة اخيراً كما تخلت عنه اولاً

ثم ان علياً عليه صلوات الله كتب الى معاوية على اثر بيعته مانصه « اما بعد فان الناس قد قتلوا عثمان عن غير مشورة مني وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع فاذا أتاك كتابي فبايع لي واوفد الي اشراف اهل الشام قبلك » ولا يمكن ان يكتب سيدنا امير المؤمنين ان الناس بايعوه عن مشورة واجماع الى معاوية وهو اعلم الناس بما في صدره من الضغن ان لم يكن حقيقة راهنة لا جدال فيها كما اننا لم نر في اجوبة معاوية لامير المؤمنين على مافيها من لغو وجرءة وافتئات ما انكر عليه صحة بيعته او ان الناس ما اجمعوا عليها

وليس أمامنا سوى قول طلحة والزبير انهما بايعا بلسانيهما ولم يكونا راضيين عن البيعة في قلبيهما وهذا نحن مصدقوه عنهما مثبتوه لهما فان كلاً منهما كان يشتهي الخلافة لنفسه عاملاً لاجلها في سره ولكنهما لم يجرءا على طلبها جهرة بعد ان قتل عثمان بازاء اجماع المسلمين على سيدنا علي وانثيالهم اليه من كل صوب وحدب فرضيا بالامر الواقع وتقدما الناس بعرض الخلافة على علي لانهما ادركا ان الثورة التي نفخا في ضرامها طويلاً لا يمكن ان يطفئها الا سيدنا علي ورأيا ايضاً بظهورهما امامه بمظهر الراغب ببيعته مايوصلهما الى بعض مطامعهما من الولاية على البصرة والكوفة بدليل حيثهما اليه بعد بيعته يطالبانه بهذين المصرين وهما يمتنان عليه بالبيعة

ولا يجب ان ننسى في هذا المقام ان اهالي المدينة وهم اصحاب وانصار المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام واولادهم انهم كانوا في اثناء الثورة من رأي الثائرين لانهم لو لم يكونوا كذلك لوقفوا في وجوههم وحاربوهم وانت تعلم ان الثائرين الذين قدموا المدينة كانوا في نحو ثلاثة آلاف مقاتل وقيل في نصف هذا العدد كما تعلم ان اهالي المدينة وضواحيها كان فيهم من رجال القتال اضعاف هذا العدد فلو لم يكونوا على رأي الثائرين لما اثروهم على عليهم بل سنعلم فيما بعد أن عبدان الصحابة مع أعراب البادية انضموا الى الثائرين أيضاً. وثانياً ان اهالي المدينة كانوا على رأي الثائرين في بيعة سيدنا علي ولو لم يكونوا على رأيهم لما مشوا معهم الى علي يعرضون عليه البيعة

وعلى هذا فالثابت المقرر عندنا على اختلاف الروايات ان الناس اجتمعوا وتشاوروا واجمعوا على بيعة سيدنا علي وكان على رأسهم طلحة والزبير وان سيدنا علي مافيل التماسهم ورضي بخلافتهم

وَكُنْتُ آخِرَهَا مِنْ كَأْسِ أَوَّلِهَا أُسْقِي فَخَمْرَتُهَا يُؤْذِي تَحَسِّيهَا
وَإِنَّ دُنْيَاكُمُ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ عَفِيطِ عَنْزٍ تَرَعَّتْ فِي مَرَاعِيهَا
وَمَا أَتَمَّ عَلِيٌّ سَرْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى ٱلْوُجُوهِ ٱلَّتِي حَازَتْ تَرَجِّيهَا
حَتَّى عَلَى فَضْلِهِ أَثْنَتْ وَصَاحَ أَمِيـ ـرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَمِيدَ ٱلْعُرْبِ مُثْنِيهَا
أَمْدِدْ يَمِينَكَ فَضْلاً كَيْ نُبَايِعَهَا وَٱظْفَرْ بِبَيْعَةِ إِخْلَاصٍ نُؤَدِّيهَا
فَقَالَ: فِي عُقْرِ دَارِيْ لَسْتُ أَقْبَلُ مِنْـ ـكُمْ بَيْعَةً خَفِيَّةً يَا مُسْتَبِيعِيهَا
وَإِنَّمَا ٱلْمَسْجِدُ ٱلْمَبْرُورُ مَوْضِعُهَا وَٱلنَّاسُ تَشْهَدُ عَاطِيهَا وَمُعْطِيهَا

الا بعامل الاخلاص لدينه وملته وعلى نية ان يعيد الحال الى ماكانت عليه على عهد المصطفى او يروح ضحيةً للدين الحنيف الذي طالما جاهد في سبيله لذلك ما أصغى الى من حوله من الناصحين الذين ارادوا ان يداري ويراشي الناس لتطمئن به الخلافة . وقد اعان الناس عند ما ندموا يلحون عليه بقبول البيعة بذلك وهاك ماجرى :

سار القوم الى سيدنا علي عليه صلوات الله على اثر مقتل عثمان وهو يستعيذ بالله من شرّ ما كان ودخل عليه زعماؤهم وفيهم طلحة والزبير وغيرهما من وجوه المهاجرين والأنصار وزعماء الثائرين وفاجئوه بقولهم « لابدّ للناس من امام وانت اماما » فانتهرهم سيدنا علي وقال « لاحاجة لي في أمركم » فقال طلحة والزبير يستحيل ان نعدل عنك لسواك بل ليس لهذا الامر غيرك وانت اسبق الناس الى الاسلام واقربهم قرابةً الى رسول الله فقال عليه صلوات الله « دعوني والتمسوا غيري ، فانا مستقبلون أمراً له وجوه والوان ولا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول . وانّ الآفاق قد أغامت ، والحجة قد تنكرت ، واعلموا اني ان اجبتكم ركبت بكم ما اعلم ، ولم اصغ الى قول القائل وعتب العاتب ، وان تركتموني فانا كاحدكم ، ولعلي اسمعكم واطوعكم لمن وليتموه امركم وان اكون لكم وزيراً ، خير لكم مني اميراً » فقالوا ننشدك الله ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى الاسلام ؟ ألا ترى الفتنة ؟ ألا تخاف الله ؟ وما زالوا به حتى اصاخ الى طلبهم وقال لهم بصراحته المعهودة وبلاغته المشهورة « أما والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء ان لايقارّوا على كظة ظالم أو سغب مظلوم ، لالقيت حبلها على غاربها ، ولسقيت آخرها بكأس أولها ، ولالفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز » فقالوا بورك فيك يا أمير المؤمنين فامدد يدك لنبايعك . فنظر اليهم نظرة المعاتب وقال عليه صلوات الله بعد ان استخار الله واستعان به « ففي المسجد فانّ بيعتي لاتكون خفيةً ولا تكون الا في المسجد » فساروا به الى المسجد وهم فرحون متهللون يهللون ويكبرون حتى اذا مادخله علا المنبر فحمد الله واثنى عليه وقال : « ذمتي بما اقول رهينة ، وانا به زعيم ، انّ من صرّحت له العبر عما بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحّم الشبهات ، الا وانّ بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيّكم صلى الله عليه وآله ، والذي بعثه بالحق لتبلبلنّ بلبلةً ، ولتغربلنّ غربلةً ، ولتساطنّ سوط القدر ، حتى يعود اسفلكم اعلاكم واعلاكم اسفلكم ، وليسبقنّ سابقون كانوا قصروا ، وليقصرنّ

فَأَسْرَعُوا بِالْعَلِيِّ الْمُرْتَضَى وَأَهَا زِيجُ السُّرُورِ يُغَنِّيهَا مُغَنِّيهَا
وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ تَبْدِي بَشَائِرَهَا مِنْ بَعْدِ أَنْ بَلَغَتْ فِيهِ تَمَنِّيهَا
حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَتْ لِلْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ بَايَعَتْهُ وَمَا ضَنَّتْ بِأَيْدِيهَا
وَهٰكَذَا صَارَ مَوْلَانَا الْعَلِيُّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَادَ الْعُرْبَ حَامِيهَا
وَسُرَّتِ الْخَلْقُ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ بِهِ وَفَاضَتْ عَلَى الدُّنْيَا تَهَانِيهَا
أَمَّا أُمَيَّةُ فَاغْتَاظَتْ لِخَيْبَتِهَا وَأَصْبَحَتْ وَهِيَ سَكْرَى فِي تَشَاجِيهَا

سباقون كانوا سبقوا ، والله ما كتمت وسمةً ، ولا كذبت كذبةً ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ، ألا وانّ الخطايا خيلٌ شمس . حمل عليها اهلها ، وخلعت لجمها ، فتقحمت بهم في النار ، ألا وانّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها اهلها واعطوا ازمتها فاوردتهم الجنة ، حقٌّ وباطلٌ ، ولكل أهلٌ فلئن أمر الباطل لقديماً فعل ، ولئن قلّ الحقّ فربما ولعل ، ولقلّما ادبر شيءٌ فأقبل ، شغل من الجنة والنار امامه . لساعٍ سريعٌ نجا ، وطالبٌ بطيءٌ رجا ، ومقصرٌ في النار هوى . اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هي الجادة ، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة ، ومنها منفذ السنة ، واليها مصير العاقبة . هلك من ادّعى . وخاب من افترى . من أبدى صفحته للحق هلك . وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره . لا يهلك على التقوى سنخ أصل . ولا يظمأ عليها زرع قوم . فاستتروا في بيوتكم . واصلحوا ذات بينكم . والتوبة من ورائكم . ولا يحمد حامد الا ربه . ولا يلم لائم الا نفسه » اه وبعد ان انتهى المرتضى عليه صلوات الله من سرد هذه الجواهر المنثورة على الناس نزل عن المنبر فاقبلوا عليه يبايعونه وعلى رأسهم طلحة والزبير فقال لهما تواضعاً وتلطفاً بل انا ابايعكما قالا كلا فاننا مبايعاك وكان اول المبايعين طلحة بيده الشلاء فتشاءم الناس منها وقالوا ان اول يدٍ قدمت اليه كانت شلاء ثمّ ثنى الزبير وتبعهما الناس وبعد ذلك طلب سعد بن ابي وقاص لجيء به فقيل له بايع فقال « لقد آلوت ان لا ادخل بامر من امور المسلمين فامهلني ريثما يبايعك الناس ولا بأس عليك مني » فتركه وكذلك فعل عبد الله بن عمر فانه طلب المهلة الى بعد بيعة الناس وكفله سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله

وبعد ان تمت البيعة خطب سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله فقال : « انّ الله سبحانه انزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر . فخذوا نهج الخير تهتدوا . واصرفوا عن سمت الشر تقصدوا . الفرائض الفرائض ادوها الى الله تؤدكم الى الجنة . انّ الله حرّم حراماً غير مجهول . وأحلّ حلالاً غير مدخول . وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها . وشدّ بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق . ولا يحلّ أذى المسلم الا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة احدكم وهو الموت . فانّ الناس امامكم وانّ الساعة تحدوكم من خلفكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر باولكم آخركم . اتقوا الله في عباده وبلاده . فانكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم . واطيعوا الله ولا تعصوه . واذا رايتم الخير فخذوا به . واذا رايتم الشرّ فاعرضوا عنه » اه

وبعد ان اكمل امير المؤمنين عليه صلوات الله خطبته خرج من المسجد يتبعه الناس وعلى وجوههم سمات الفرح وتوزعوا في المدينة وهم يهنئون بعضهم بعضاً باعطاء القوس باريها واسكان الدار بانيها

خطط أمير المؤمنين في خلافته

سَنَّ ٱلشَّرِيعَةَ طَـهَ مِثْلَمَا نَزَلَتْ ... عَدْلاً وَبِرّاً وَإِحْسَاناً وَتَنْزِيهَا(١)

وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي رِسَالَتِهِ ... «وَصِيُّهُ» رَاقِبٌ أَعْمَالَهُ فِيهَا

وَقَدْ نَشَا مَعَهَا فِي ظِلِّ أَحْمَدِهَا ... وَأَرْضَعَتْهُ ٱلْهُدَى مِنْ دَرِّ أَثْدِيهَا

وَقَدْ تَفَقَّهَ فِيهَا فَهْوَ عَالِمُهَا ... وَقَدْ تَبَحَّرَ فِيهَا فَهْوَ فَالِيهَا

وَقَدْ تَشَبَّعَ مِنْ رُوحِ ٱلشَّرِيعَةِ حَـتَّى ... لَمْ يَفُتْهُ دَقِيقٌ مِنْ مَعَانِيهَا

وَمَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلرَّاشِدِينَ عَلَيْـهِمُ ... كَانَ يَقْرُبُ مِنْ عُلْيَاهُ تَفْقِيهَا

وَطَالَمَا نَوَّهَ ٱلْهَادِي بِعِلْمِ عَلِـيٍّ ... مَعْ زَكَاتِهِ فِي ٱلنَّاسِ تَنْوِيهَا

بِذَا ٱلصَّحَابَةُ وَٱلأَنْصَارُ قَدْ شَهِدَتْ ... شَهَادَةً كُلُّ ذِي دِينٍ يُزَكِّيهَا

فَإِنْ يَقُلْ قَدَرَ عِلْمِي قَدْ حَكَمْتُ فَمَا ... أَحْكَامُهُ غَيْرُ آيِ ٱللهِ يُبْدِيهَا

وَٱلْمُرْتَضَى خَيْرُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ وَأَدَّ ... ى ٱلْوَاجِبَاتِ ٱلَّتِي ٱلإِسْلَامُ يَقْضِيهَا

وَكَانَ مُسْتَمْسِكاً بِالشَّرْعِ مُقْتَفِياً ... فِيهِ خُطَى ٱلْمُصْطَفَى يَأْبَى تَخَطِّيهَا

وَكَانَ لِلْحَقِّ سَيْفُ ٱللهِ فِي يَدِهِ ... بِهِ ٱلأَبَاطِيلُ لَا يَنْفَكُّ يُفْلِيهَا

وَلَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ ٱلدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا ... إِلاَّ مَتَاعَ غُرُورٍ فَهْوَ قَالِيهَا

---

(١) لابدّ لمؤرخ الحوادث التي نحن بصددها اذا كان ناقداً حصيفاً نزيهاً من البحث عن ظروفها وملابساتها لا الاكتفاء بروايات الرواة المختلفة واصدار الحكم عليها كما لابدّ له من ارسال رائد طرفه الى الاشخاص القائمين بها واحوالهم النفسية اذا اراد ان يتجنب الخطل في احكامه

فقد تولى سيدنا علي عليه صلوات الله الخلافة والناس على غير ما كانوا عليه في زمن النبوّة يوم كانوا مسلمين بكل معنى الاسلام يطلبون الآخرة ويجاهدون في سبيلها ويزدرون بالدنيا و زخارفها وملاهيها وتعودوا في ايام عثمان بن عفان ما لم يعرفوه من قبل وهو التفاوت بين المسلمين في الوظائف والحقوق والاموال ونسوا ان الاسلام قد ساوى بين الجميع وان المسلم لا يفضل اخاه المسلم الا بالتقوى وان من كان من اقرباء النبوة او ذا وجاهة في قريش او سابقة في اسلام اوجهاد لا ميزة له على اخوانه المسلمين عرباً كانوا او عجماً احراراً او عبيداً نعم كلّ هذا نسيه المسلمون بعد ان رأوا في عهد عثمان ان الامويين قد نالوا من المنافع في خلافته ما كان يحسدهم عليه سائر الناس وان الذين كانوا يتزلفون اليهم فازوا بربح ووجاهة لم يفز بمثلهما من كان بعيداً عنهم غير متصل بهم

اما سيدنا علي عليه صلوات الله فظلّ وحده كما كان على عهد المصطفى لا يعرف الا الشريعة التي رضع لبنها منذ نعومة اظفاره وتربى على يديها وتأدب بآدابها العالية ولم يفته التبدل الذي

وَمُذْ عَلَا ٱلْعَرْشَ نَادَى بِٱلرُّجُوعِ إِلَى ... مَوَاطِنِ ٱلشَّرْعِ رُجْعَى هَمَّ يُجْرِيهَا

فَمَا تَلَفَّتَ حَوْلَيْهِ لِيَنْظُرَ حَا ... لاً لَمْ تَكُنْ مِثْلَمَا ٱلإِسْلَامُ يَبْغِيهَا

وَلَا رَنَا لِلأُلَى كَانَتْ مَطَامِعُهَا ... بِٱلْمُلْكِ وَاسِعَةً لَا شَيْءَ يَكْفِيهَا

وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ هٰذَا غَفْلَةً وَغَبًا ... وَلَا خَفَايَا ٱلْوَرَى قَدْ كَانَ غَابِيهَا

وَهْوَ ٱلَّذِي كَانَ فِي وَافِي فِرَاسَتِهِ ... أَحْدَاثُ مَا تَلِدُ ٱلأَيَّامُ يُنْبِيهَا

وَإِنَّمَا كَانَ يَهْزَا بِٱلْمَصَاعِبِ فِي ... جَنْبِ ٱلشَّرِيعَةِ إِمَّا رَاحَ يُمْضِيهَا

وَعِنْدَهُ أَنْ يُرَاضِيَ ٱللهَ أَفْضَلُ مِنْ ... إِسْخَاطِهِ وَرَعَايَاهُ يُرَاضِيهَا

يَقُولُ: يَا نَاسُ أَصْغُوا لِي فَأَنْصَحُكُمْ ... نَصِيحَةً خَيْرُكُمْ مَنْ رَاحَ وَاعِيهَا

فَإِنَّ بَيْعَتَكُمْ إِيَّايَ لَمْ تَكُ فَلْـــتَةً ... وَلَا كُنْتُ فِي ذَا ٱلْعَهْدِ بَاغِيهَا

أَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِكُمْ ... إِرَادَةً لَمْ أَكُنْ أَصْلاً مُجَارِيهَا

وَمَا أَنَا مِثْلُكُمْ إِنِّي أُرِيدُكُمُ ... للهِ نِيَّةُ صِدْقٍ ظَلْتُ نَاوِيهَا

فَبَادِرُوا وَأَعِينُونِي بِبِرِّكُمُ ... عَلَى نُفُوسِكُمُ كَيْمَا أُوَاسِيهَا

يَا نَاسُ إِنِّيَ لِلْمَظْلُومِ أُنْصِفُهُ ... فَلَا يُرَدِّدُ تَشْهَاقًا وَتَأْوِيهَا

وَأَسْحَبُ ٱلظَّالِمَ ٱلْعَاتِيَ وَأُورِدُهُ ... مَنَاهِلَ ٱلْحَقِّ كُرْهًا وَهْوَ آبِيهَا

عَلَى مَنَاهِجِ هَادِي ٱلْخَلْقِ حَامِلُكُمْ ... وَخَيْرُكُمْ يَا عِبَادَ ٱللهِ قَارِيهَا

حدث في المسلمين بل كان على تمام معرفته ولذلك بات زاهداً بولاية المسلمين راغباً عن خلافتهم بعد ان كان يطالب بها وهو متحقق بأنَّ حقه فيها صريح وقد اخذوه منه عنوةً وظلماً وكان متأكداً بانه لو تولاها لما استقام له الامر فيها ولذلك رفضها عند ما عرضت عليه بعد مقتل عثمان وقال خير ان اكون وزيراً من ان اكون أميراً لان الوزير عليه اعطاء الرأي والمسئولية امام الله واقعة على الخليفة وقد يستحقُّ الناس بهذه المسؤولية الا الذين آمنوا واتقوا الله وفازوا بطلب رضاه . وفي يقيني انَّ سيدنا علي ما قبل الخلافة التي عرضت عليه بالحاح الا بدافع واحد وهو مسئوليته امام الله لو هو اصرَّ على رفضها بعد ان وضعها اعيان الصحابة والانصار في عنقه معلنين ان ليس لها سواه لا تنتشل الامة من المصائب التي تتهددها . هذه هي الحقيقة لا ما قاله الشيخ الخضري في محاضراته وهذا نصه «كانت الكلمة في المدينة اذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء الغالين (وقد سبق له تحقرهم ما شاء) الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم اليق من علي بالخلافة فكلموه في البيعة له فامتنع قليلا ثمَّ اجاب الى ذلك » لا يا حضرة الشيخ ليس هذا هو الصحيح فانَّ الذين كلموا سيدنا علي بالخلافة كانوا وجوه المهاجرين والانصار مع زعماء المصريين وفي نظر المؤرخ النزيه انَّ كلَّ من كان في

وَإِنَّنِي مُنفِذٌ فِيكُمْ أَوامِرَهُ … إِنِ ٱسْتَقَمْتُمْ لِيَ، حَتَّى اجْرِّيهَا

وَمَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ ٱللهِ ظَلَّ كَمَا … لَوْ كَانَ حَيًّا بِهِ وُجِّهْتُ تَوْجِيهَا

فَٱمْضُوا مُضِيًّا إِلَى مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ … تَقْوًى وَبِرًّا وَخَيْرُ ٱلْخَلْقِ تَاقِيهَا

وَعِنْدَ مَا عَنْهُ تُنْهَوْنَ ٱنْتَهُوا وَقِفُوا … بِطَاعَةٍ فَازَ بِٱلنُّعْمَى مُؤَدِّيهَا

لَا تَعْجَلُوا فِي أُمُورٍ عَنكُمُ خَفِيَتْ … حَتَّى أُبَيِّنَ بِٱلْإِفْصَاحِ خَافِيهَا

فَإِنَّ لِيَ ٱلْعُذْرَ عَمَّا تُنكِرُونَ وَلَا … أُمْضِي أُمُورًا كِتَابُ ٱللهِ يَنْفِيهَا

وَمِنكُمُ ٱلْيَوْمَ مَنْ دُنْيَا هُمُ غَمَرَتْـ … ـهُمْ فَٱنْكَفَوْا أَوْسَعَ ٱلْأَقْوَامِ تَرْفِيهَا

قَوْمٌ لَقَدْ فَجَّرُوا ٱلْأَنْهَارَ وَٱتَّخَذُوا ٱلْـ … ـعَقَارَ سُكْنَى أَطَابَتْ نَفْسَ غَانِيهَا

قَدِ ٱمْتَطَوْا صَهَوَاتِ ٱلْخَيْلِ عَنْ بَطَرٍ … وَسَاكَنُوا ٱلْغِيدَ وَٱسْتَحْلَوْا تَصَبِّيهَا

فَإِنْ مَنَعْتُهُمُ حَالًا تَلَذُّهُمُ … وَعِيشَةً مَا رَسُولُ ٱللهِ رَاضِيهَا

وَسِرْتُ فِيهِمْ إِلَى مَا يَعْلَمُونَ مِنَ ٱلْـ … ـحُقُوقِ وَهْيَ ٱلَّتِي أَنْبِي تَخَطِّيهَا

عَدُّوا ٱسْتِيفَاءَهُمْ عَمَّا إِلَيْهِ مَضَوْا … عَارًا وَمَا كَانَ مِنْهُمْ غَيْرُ نَابِيهَا

وَٱسْتَنْكَرُوا عَنَتًا فَتْوَى حَكَمْتُ بِهَا … وَأَضْمَرُوا ٱلْحِقْدَ وَٱلْبَغْضَا لِمُفْتِيهَا

قَالُوا أَبُو حَسَنٍ قَدْ هَمَّ يَحْرِمُنَا … حُقُوقَنَا قَوْلَةً أَبْغِي تَحَاشِيهَا

فَأَيُّمَا رَجُلٌ مِنكُمْ بِصُحْبَةِ طَـ … ـهَ قَدْ أَدَلَّ وَوَافَى وَهُوَ يُدْلِيهَا

المدينة كانوا على رأي الثائرين وان سيدنا علي ما امتنع عن قبول الخلافة « قليلاً » بل امتنع طويلاً ولو لم يخيفوه من الله ويستنزلوا شفقته على المسلمين أن تتأكلهم الفوضى ولو لم تكن نفسه الشريفة تدفعه الى نجدة الناس وهم في اشدّ المحنة لما رضي بخلافتهم كما جهر صراحةً امامهم وما ذلك لانها ليست من حقه ولا لان الذين يعرضونها عليه ليسوا أهل الحق بالبيعة ولا لعدم كفائته بسياسة البلاد وجدارته بتمشية الامور كلا لا هذا ولا ذاك ولكن لانه عليه صلوات الله كان يعلم حق العلم بما عرض على الناس فبدّل احوالهم تبديلاً لا يرضاه عالمٌ حكيمٌ صالحٌ مثله وانَّ ارجاعهم الى ماضي حالهم في عهد النبوة من المصاعب والاهوال مالم يكن ليخفى عليه وقد جهر بهذا على اثر بيعته وصارح الناس به فقال : « لم تكن بيعتكم اياي فلتةً ، وليس أمري وامركم واحداً ، اني أريدكم لله ، وأنتم تريدونني لانفسكم ، ايُّها الناس ، أعينوني على أنفسكم ، وأيم الله لأُنصفنَّ المظلوم من ظالمه ، ولاقودنَّ الظالم من خزامته حتى أورده منهل الحق وان كان كارهاً » وقال : « اني حاملكم على منهج نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ومنفّذ فيكم ما أمرت به ان استقمتم لي ، وبالله المستعان ، ألا انَّ موضعي من رسول الله بعد وفاته كموضعي منه ايام حياته ، فامضوا الى ماتؤمرون به ، وقفوا عند ماتنهون عنه ،

يَرَى عَلَى غَيْرِهِ فَضْلاً بِهَا وَعُلَى لِنَفْسِهِ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُكَافِيهَا

فَإِنَّمَا فَضْلُهُ عِنْدَ ٱلْمُهَيْمِنِ وَهْــوَ بِٱلَّذِي تَكْسِبُ ٱلْأَقْوَامُ يَجْزِيهَا

وَأَيُّمَا رَجُلٌ لَبَّى ٱلْإِلَهَ وَهَا دِي ٱلْخَلْقِ تَلْبِيَةً تَهْدِي مُلَبِّيهَا

وَدَانَ مَعْنَا بِدِينِ ٱللهِ مُعْتَلِنَاً وَلَاءَ أُمَّتِنَا مَعْ حَرْبِ عَادِيهَا

وَٱسْتَقْبَلَ ٱلْقِبْلَةَ ٱلْعَلْيَاءَ قِبْلَتَنَا بِخَشْيَةِ ٱللهِ يَابُشْرَى لِخَاشِيهَا

فَإِنَّهُ بَاتَ بِٱلْإِسْلَامِ مُشْتَرِكَاً مَعْنَا شَرَاكَةَ حَقٍّ لَسْتُ خَابِيهَا

لَهُ ٱلْحُقُوقُ ٱلَّتِي ٱلْإِسْلَامُ وَاضِعُهَا كَمَا ٱلْحُدُودُ ٱلَّتِي سُنَّتْ يُرَاعِيهَا

أَنْتُمْ عِبَادَ ٱلَّذِي أَبْرَاكُمُ وَكَذَا ٱلْأَ مْوَالُ امْوَالُهُ فِيكُمْ أُجَزِّيهَا

وَإِنَّنِي لَمُسَاوٍ بَيْنَ أُمَّتِهِ طـــهَ وَٱلْمُهَيْمِنُ قَدْ أَمْضَى تَسَاوِيهَا

وَٱلْمُتَّقُونَ لَهُمْ خَيْرُ ٱلْجَزَاءِ غَدَاً فِي جَنَّةِ ٱلْخُلْدِ مَا أَثْوَوْا مَثَاوِيهَا

لَمْ يَجْعَلِ ٱللهُ هٰذِي ٱلدَّارَ مَثْوَبَةَ ٱلْأَ بْرَارِ حَتَّى يُرَجِّيهَا مُرَجِّيهَا

بِذَا أَبُو حَسَنٍ نَادَى بِخُطَّتِهِ فِي قَوْمِهِ عِنْدَ مَا قَدْ بَاتَ رَاعِيهَا

وَصَارَحَ ٱلْقَوْمَ أَنْ لَا مِيزَةَ أَبَدَاً فِي حُكْمِهِ بَيْنَ عُرْبِهَا وَعُجْمِيهَا

وَإِنَّهُ لِحُدُودِ ٱلشَّرْعِ مُرْجِعُهَا وَإِنَّهُ لِرِضَاءِ ٱللهِ مُمْشِيهَا

ولا تعجلوا في أمر حتى ابينه لكم ، فإن لنا عن كل أمر تنكرونه عذراً » وقال ايضاً : « ألا ليقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا ، فاتخذوا العقار ، وفجروا الانهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الرقيقة ، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً اذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم الى حقوقهم التي يعلمون ، فينقمون ذلك ويستنكرون ، ويقولون حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا ألا وأيما رجل من المهاجرين والانصار من اصحاب رسول الله ، يرى ان الفضل له على سواه لصحبته ، فإن الفضل النير غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله ، وأيما رجل استجاب لله وللرسول ، فصدق ملتنا ، ودخل في دينا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لاحد على أحد ، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء ، وافضل الثواب ، لم يجعل الله الدنيا للمتقين اجراً ولا ثواباً ، وما عند الله خير للابرار »

نقول هذه هي الخطط التي وضعها سيدنا علي لنفسه في خلافته ولم يكن فيها مبتدعاً مجتهداً ولكن مقلداً لرسول الله عليهما الصلاة والسلام وهي الخطط التي يقرها الشرع وتنطبق على احكام القرآن الشريف وذا كان المسلمون قد أبوا السير عليها فما الذنب ذنبه ووالله لو كان علي يريد الدنيا لما وقع السير فيها ولا كان عاجزاً عن مراضاة الناس عليها ولكن هيهات هيهات ما أبو الحسن بائع أخراه بدنياه ولا هو راض للمسلمين الا ما يرضاه الله ورسول الله

أول مشاكل خلافة أمير المؤمنين

مَا تَمَّتِ ٱلْبَيْعَةُ ٱلْكُبْرَى لِحَيْدَرَةٍ   وَٱلنَّاسُ فِي ثَوْرَةٍ صَعْبٌ تَلَافِيهَا(١)

وَلَمْ يَكَدْ يَعْمَلُ ٱلرَّأْيَ ٱلسَّدِيدَ بِهَا   كَيْمَا عَلَى خَيْرِ مَا يُرْجَى يُهَدِّيهَا

حَتَّى أَتَتْهُ انَاسٌ مِنْ صَحَابَةِ طَـــهَ   وَهْيَ تَطْلُبُ أَحْكَامًا يُجَرِّيهَا

عَلَى ٱلأُلَى قَتَلَتْ عُثْمَانَ قَائِلَةً   نَبْغِي ٱلْقِصَاصَ ٱلَّذِي حَتْمًا يُرَبِّيهَا

فَهَلْ أَرَادَ بِذَا إِحْرَاجَ مَوْقِفِهِ   يَا هَلْ تَرَى أَمْ أَرَادَ ٱلْعَدْلَ آتِيهَا

عَنْهَا تَرَى نَدَّ أَنَّ ٱلنَّـاسَ ثَائِرَةٌ   وَذُو ٱلرَّشَادِ عَلَيْهِ أَنْ يُدَارِيهَا

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ أَدْرَى بِٱلْمَصَاعِبِ مِنْـــهَا   وَهْوَ مُفْتَكِرٌ فِيمَا يُجَلِّيهَا

لِذَا تَلَطَّفَ إِذْ أَصْغَى لِمَطْلَبِهَا   وَرَاحَ بِٱلْعَطْفِ وَٱلْحُسْنَى يُفَاهِيهَا

فَقَالَ: يَا أُخْوَتَاهُ لَسْتُ أَجْهَلُ حَا   لاً قَدْ وَفَدْتُمْ عَلَيَّ تُعْلِمُونِيهَا

---

(١) انّ اول مشكلة عرضت على سيدنا علي امير المؤمنين عليه صلوات الله في خلافته هي مشكلة الثائرين الذين باتوا في الحقيقة بعد مقتل عثمان اصحاب الحلّ والعقد في المدينة المنورة فكان من همّ الخليفة قبل كلّ شيء وهو عليه صوات الله على ماعلم من اصالة الرأي ان يعنى بتفريق جموعهم فيعيد اهالي الامصار الى امصارها ويستعيد النظام رويداً رويداً بعد الفوضى التي احدثتها الثورة وهذا لايتأتى له الا اذا عاونه وجهاء المسلمين الذين حوله من المهاجرين والانصار وعمال الامارات الاسلامية . وبعد ذلك لابدّ ان ينظر في مقتل عثمان وتوقيع القصاص على القتلة اذا كان في ذلك مصلحة الخلافة والمسلمين لان القصاص الشرعي لم توجده الشريعة السمحاء وعموم الشرائع المنزلة والموضوعة للانتقام بل للتأديب حباً بالمصلحة العامة فاذا امضي في سبيل الانتقام وكان في امضائه اضرار بالمصلحة العامة خرج عن حدّه الشرعي وانتج الحكم على ضعف راي ممضيه وقائله .ولذلك ترى في القرآن العزيز الرحمة مصاحبة العدل لقد أمر بهما الله سبحانه عباده معاً وقال ما يلخص بأن الرحمة اقرب للتقوى اذا كان في العدل تقية . كما نرى جميع الشرائع تترك للملك حقّ العفو عن المجرمين لما قدمنا من تفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة فتلافي الفتنة مثلاً افضل بكثير من اقتصاص لقتيل من قاتله اذا كان القصاص مفضياً الى فتنة وهذا من الامور البديهية التي لاتحتاج الى اسهاب في البحث

ومن المعلوم ان للقوّة الشأن الاول في اجراء احكام الشريعة فالضعيف مثلاً يعجز عن اجراء احكام الشرع على القوي المعتز بقوّته ومن ذلك أمر الثورات التي تحدث في العالم وهي قديمة فيه فان الثائرين اذا ما فازوا بثورتهم يكون فوزهم نتيجة ثورتهم سواءً اذا كانت ثورتهم على حقّ أو على باطل ولذلك اعتاد الملوك ومن حولهم من اولياء الامور ان يعملوا على اطفاء نيران الثورات بالعفو العام حتى ولو تغلبوا على الثائرين لانهم لا يجهلون ان التشديد على الثائرين قد يعدّهم الى العودة الى الثورة متى رأوا من نفوسهم قوة عليها

لٰكِنَّمَا شَوْكَةُ ٱلثُّوَّارِ قَائِمَةٌ   فَكَيْفَ لِيَ ٱلْيَوْمَ قُولُوا أَنْ أُقَاوِمَهَا

وَإِنَّهَا مَلَكَتْنَا وَهِيَ ظَافِرَةٌ   بِنَا فَصَبْراً إِلَى أَنْ تَمْلِكُونَهَا

ثَارَتْ وَعِبْدَانُكُمْ مَعَهَا بِشِرْكَةِ أَعْـــرَابِ ٱلْبَوَادِي ٱلَّتِي وَافَتْ تُمَالِئُهَا

وَإِنَّهَا بَيْنَكُمْ بَاتَتْ تَسُومُكُمُ   مَا تَبْتَغِي كُلُّكُمْ بِتُّمْ مُطِيعِيهَا

فَهَلْ تَرَوْنَ لَدَيَّ ٱلْيَوْمَ مَوْضِعَ قُدْ م رَةٍ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مَعْ تَجَمُّعِهَا

وَٱلْأَمْرُ ذَا جَاهِلِيٌّ لَيْسَ تَعْرِفُهُ   شَرِيعَةُ ٱلْمُصْطَفَى فِي عُرْفِ أَهْلِيهَا

أَلَا ٱعْلَمُوا أَنَّ لِلثُّوَّارِ ثَوْرَةَ أَفْـــكَارٍ مُرُورُ ٱللَّيَالِي قَدْ يُلَاشِيهَا

وَإِنَّ لِلنَّاسِ فِي مَشْهُودِ فِتْنَتِهَا   أَمْراً مُحَرِّكُهُ حَتْماً يُجَزِّئُهَا

فَفِرْقَةٌ رَأْيُهَا مَعَكُمْ تُوَافِقُكُمْ   عَلَى ٱلْقِصَاصِ بِهِ نَادَى مُنَادِيهَا

لاجرم انَّ هذا مما يطبق على الثورة التي قامت في المدينة المنورة وانجلت عن قتل عثمان فان الثائرين تغلبوا على الخليفة في عاصمته فحصروه في داره واعلنوا مراراً وتكراراً انهم لايريدون قتله ولكن اقالته من خلافته والظاهر انهم لم يكونوا يملكون حقَّ عزله وخلعه لما تعلم من انَّ الخلافة الاسلامية وقتئذٍ لم يكن لها نظام ثابت يعين الذين يولون الخليفة والذين يملكون حقَّ خلعه أو عزله والذين تحقّ لهم الخلافة دون سواهم بل كان ذلك كله يتعلق اجتهاد اكابر الصحابة وكانوا ينفذونه بما يملكون من قوة واذا تحقق لنا هذا وهو محقق لاريب فيه كان في تعيين المجرمين الذين اجلبوا على عثمان ومبلغ استحقاقهم للقصاص الشرعي نظرٌ هذا على فرض ان الخليفة الجديد استطاع ان يملك ناصيتهم ويجري فيهم القصاص . اذ انَّ الشرع الشريف بل وعموم الشرائع الالهية والموضوعة تحكم على القاتل بالقتل ولكنها تنظر قبل كل شيء الى نية القاتل « والاعمال بالنيات » فما سواءٌ قتل امرءٍ لأخذ ماله او للاثار منه او لايّ سبب من الاسباب الخصوصية وقتل امرءٍ رأى قاتلوه ان وجوده مضرٌّ بالجماعة لما بيده من السلطة العامة ولا سيما اذا حاولوا اصلاحه وبالاكثر اذا عرضوا عليه الاستقالة والحّوا بها وكان يرفضها وفوق ذلك اذا ارسل يستدعي انصاراً له يحاربهم بهم ليظلّ في دسته متمكناً من نواصي الامة . وفي تواريخ الثورات في جميع شعوب الارض وفي الخلافة الاسلامية نفسها شيء كثير من هذا فطالما ثار الناس على الخلفاء والملوك وقتلوهم اوخلعوهم وكان البعض ممن يخلفونهم يدني الثائرين منه ويتترَّسهم والبعض ينكل بهم تنكيلاً اذا رأى نفسه متمكناً من نواصيهم مخافة ان يفعلوا معه مافعلوه مع سلفه . والعبرة كل العبرة بالقوة فهي التي تفعل فعلها في الثورات وفي غير الثورات بل وفي كل شيء نقول هذا كنظرة اجمالية ونحن لانرى الثائرين قد أحسنوا الصنيع بقتل عثمان ولا نقرهم على عملهم بل بالعكس نشجب كل ثورة وكل اعتداء شخصي على الحياة

والعد الآن الى مولانا أمير المؤمنين عليه صلوات الله فقد رأيناه يرفض الخلافة عند ماعرضت عليه على اثر مقتل عثمان لما يعلمه من المشاكل التي تحيط بها وقال خير لكم ان اكون وزيراً من اكون أميراً ثمَّ رأيناه يقبلها لانه رأى نفسه مسئولاً امام الله والمصطفى ودينه عن المسلمين في فوضاهم

وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى عَدْلاً مُنَابَذَةَ الـ ... ثُوَّارِ تَطْلِبُ مِنَّا أَنْ نُوَاتِيَهَا

وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى هٰذَا وَذَاكَ وَلَا ... نَدْرِي لَهَا وَجْهَةً مِنْ بَعْدُ تَمْشِيهَا

فَالصَّبْرُ أَوْلَى اصْبِرُوا حَتَّى الزَّمَانُ يُهَدِّ ... ىءُ النُّفُوسَ الَّتِي شَطَّتْ مَرَامِيهَا

وَرَيْثَمَا تَقَعُ الْأَلْبَابُ مَوْقِعَهَا ... وَتَسْتَمِرُّ عَلَى حَالٍ نُوَخِّيهَا

إِذْ ذَاكَ تُؤْخَذُ بِالْحُسْنَى الْحُقُوقُ عَلَى ... سَمَاحَةٍ دُونَ أَهْوَالٍ نُعَانِيهَا

أَلَا اهْدَأُوا وَانْظُرُوا مَاذَا يَجِيءُ بِهِ ... أَمْرِي فَمَا أَنَا مُغْضِي الْعَيْنِ غَافِيهَا

وَجَانِبُوا فَعْلَةً تُفْضِي نَتِيجَتُهَا ... إِلَى التَّضَعْضُعِ مَا ذُو الرَّأْيِ يَأْتِيهَا

وَقَدْ يَكُونُ بِهَا إِسْقَاطُ مُنَّتِنَا ... أَوْ ذِلَّةٌ إِنْ فَعَلْتُمْ تُورِثُونِيهَا

مَا اسْتَمْسَكَ الْأَمْرُ إِنِّي سَوْفَ أُمْسِكُهُ ... وَكُلُّ جَائِحَةٍ عَنْهُ سَأَزْوِيهَا

أَمَّا إِذَا اسْتَفْحَلَتْ تَاللهِ عِلَّتُهُ ... فَالْكَيُّ آخِرُ مَا أُلْفِيهِ يُشْفِيهَا

وَقَوْلَةُ الْمُرْتَضَى هٰذِي لَتُنْبِئُنَا ... بِنِيَّةٍ لِصَلَاحِ النَّاسِ يَنْوِيهَا

على انه ما كان يجهل ان الامر لم يكن في يده وقتئذٍ بل في أيدي الثائرين الذين ملكوا ناصية القوّة . واخذ ككل عاقل مدبر حازم يعالج الامر بالتي هي أحسن وبينما هو كذلك ولم يمرّ عليه يوم أو يومان وهو على دست الخلافة واذا ببعض الصحابة قد جاؤوه ولا نعرف ان كانوا حسني النية أو سيئيها ولكن الذي نعلمه انهم لم يكونوا مقدرين الحالة حقّ قدرها وعرضوا عليه معاقبة الذين اجلبوا على عثمان فنظر اليهم المرتضى عليه صلوات الله بعين ملؤها الودّ والعطف واجابهم بصراحةٍ واخلاصٍ وسداد رأي قال :

«يا اخوتاه اني لست أجهل ماتعلمون ، ولكن كيف لي بقوةٍ ، والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم ، يملكوننا ولا نملكهم ، وهاهم هؤلاء ، قد ثارت معهم عبدانكم ، والتفّت اليهم اعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ماشاؤا ، وهل ترون موضعاً لقدرة على شيءٍ تريدونه ؟ ، وانّ هذا الامر امر جاهلية ، وانّ لهؤلاء القوم مادّةً ، انّ الناس من هذا الامر اذا حرك على امور : فرقةٌ ترى ماترون ، وفرقةٌ ترى ما لاترون ، وفرقةٌ لاترى هذا ولا ذاك ، فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحةً ، فاهدأوا عني ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ، ولا تفعلوا فعلةً ، تضعضع قوّةً ، وتسقط منّةً ، وتورثوها وذلةً ، وسأمسك الامر ما استمسك ، واذا لم أجد بدّاً فآخر الدواء الكيّ » اه

والذي يتدبر كلمات سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله والحكمة تتدفق من كل حرف من حروفها يظهر له اولاً ان الثوار كانوا قابضين على زمام الحالة ، وانهم ليسوا نفراً من الامصار فقط بل كان معهم عبدان صحابة المصطفى وانصاره وبالطبع ماانضمّ عبدان هؤلاء الى الثائرين الا برضاء ساداتهم وثانياً قد كان معهم عدد ليس بقليل من عربان بادية الحجاز ولهم نصيبهم من الحول والطول

وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْحَقِّ مُتَّرِكاً ... فَوْضَى تَعُمُّ بِلاَ ٱسْتُثْنَا مَسَاوِيْهَا

وَلَمْ يَكُنْ رَاضِياً إِهْمَالَ عِلَّتِهَا ... لٰكِنَّهُ كَانَ يَرْجُوْ أَنْ يُدَاوِيْهَا

مَتَى ٱسْتَقَرَّتْ أُمُورُ ٱلنَّاسِ وَٱنْطَفَأَتْ ... نَارُ ٱلْعِدَا كَانَ يَعْنَى كَيْ يُطَفِّيْهَا

بِحِكْمَةٍ تُرْتَجَى مِنْ مِثْلِهِ فَإِذَا ٱسْـــتَعْصَتْ عَلَيْهِ بِنَارِ ٱلْحَزْمِ يَكْوِيْهَا

وَمَا لِحَيْدَرَةٍ إِبْلاَغُ أَنْفُسٍ أَرْ ... بَابِ ٱلْمَطَامِعِ إِنْ جَارَتْ أَمَانِيْهَا

أسباب الانتقاض على أمير المؤمنين

تَقْوَى وَزُهْدٌ وَبِرٌّ ذِي صِفَاتُ أَمِيْـــرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ لِكُلِّ ٱلنَّاسِ يَبْغِيْهَا(١)

ثُمَّ ٱلْعَدَالَةُ فِي ٱلْأَحْكَامِ بَيْنَ جَمِيْـــعِ ٱلنَّاسِ لَا يَرْتَضِي أَصْلاً تَخَطِّيْهَا

• وثالثاً أن أهالي المدينة وهم بالطبع اكابر الصحابة والانصار ووجوه المسلمين ما كانوا مجمعين على رأي ففرقه تحبذ عمل الثائرين فلا ترضى الاقتصاص منهم وفرقة على العكس تطلب الاقتصاص منهم لانهم عارضوا مصالحها واضروا بها بثورتهم وفرقة على الحياد وهذه الفرقة لا احد يعلم الى أي الفرقتين تنضوي اذا حرك سيدنا أمير المؤمنين ساكناً في الامر بمثل هذه السرعة. ثمّ عرفنا ان سيدنا أمير المؤمنين كان في نيته ان ينظر في المشكلة متى هدأت الاحوال وانطفأت نار الثورة بحيث يعطي كلّ ذي حق حقه بالحسنى من غير تعرّض الى ما يضيع قوةً ويورث ذلاً وخواراً . هذا كان عزمه عليه صلوات الله وختم كلامه بقوله اه سيمسك الامر ما استمسك الا اذا اضطر فيمضي عزمه بالشدة فان آخر الدواء الكي

لاجرم ان سيدنا علي قد أصاب القول وصرّح عما في نفسه بغير رياء واظهر الحالة لاصحابه كما هي بغير مداجاة ولو كان من حوله مخلصين لما جرى من الشدائد ما جرى بعد ذلك ولكن قدّر فكان ولله الامر من قبل ومن بعد

(١) انّ المؤرخ الناقد اذا أجال نظرةً صادقةً الى الاسباب الحقيقية التي عجلت بانتقاض الناس على خلافة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه صلوات الله يظهر له انها غير ما كتبه كثيرون فيها من نقاد التاريخ والباحثين فيه ومدهبة لحيرة الذين حاروا منهم بالتوفيق بين ما اشتهر عن سيدنا علي من اصالة الرأي ومضاء العزيمة وبعد الهمة وغزارة الحكمة وسعة العلم وبين التشويش الذي رافق خلافته منذ تولاها الى اليوم الذي فيه قتله عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله . وعندي على قلة علمي ان ما من انسان في الوجود كان في طوقه ان يعمل خيراً مما عمل سيدنا أمير المؤمنين اللهمّ اذا كان مقيداً بقيود الشريعة السمحاء مصرّاً على اجراء احكامها في المسلمين في الظروف التي تولى فيها هذا السيد العظيم الخلافة فالظروف اذن هي التي أوجدت ذلك الاضطراب لا شخص الامام الاعظم ولا سوء تدبيره كما يطعن عليه اعداؤه عليه صلوات الله

لاجرم لو تولى سيدنا علي الخلافة على أثر وفاة رسول الله لما حدث في خلافته حادث مما سيمرّ بنا واذا كان ليس لنا أن نسكت عن شيء لم يجمع مما هو بمحظور علينا ان نشير اليه لنبسط أمام القارئ اللبيب الحقيقة التي طالما لمسها المتلمسون

ثُمَّ ٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ بِأَنْـــوَاعِ ٱلْحُقُوقِ مُصِرٌّ أَنْ يُجَرِّبَهَا
فَمَا ٱلْهَوَاشِمُ أَسْمَى مِنْ قُرَيْشَ وَلَا ٱلْأَ م عْرَابُ يَفْضُلُهَا قَدْرًا صِحَابَتُهَا
وَلَا ٱلْأَعَاجِمُ مُذْ دَانَتْ لِشِرْعَةِ أَحْـــمَدٍ يُنَافِسُهَا فِي ٱلنَّاسِ عُرْبُهَا
وَمَا هُنَالِكَ تَمْيِيزٌ وَلَا رُتَبٌ   لَدَى أَبِي حَسَنٍ لِلنَّاسِ يُعْطِيهَا
هٰذِي خُلَاصَةُ رَأْيِ ٱلْمُرْتَضَى بِإِمَا   مَةٍ يُقِيمُ حُدُودَ ٱلشَّرْعِ وَالِيهَا
وَمُذْ تَرَبَّعَ فِي دَسْتِ ٱلْخِلَافَةِ أَعْـــلَنَ ٱلرَّغِيبَةَ ذِي مَا كَانَ مُخْفِيهَا
وَٱلْمُسْلِمُونَ لَقَدْ فَاتُوا بَدَاوَتَهُمْ   مِنْ عَهْدِ عُثْمَانَ وَٱجْتَازُوا فَيَافِيهَا
تَعَوَّدَتْ رَفَلَاتِ ٱلْعَيْشِ أَنْفُسُهُمْ   حَتَّى تَنَاسَتْ بِإِسْرَاعٍ تَبَدِّيهَا
فَقَلَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرْضَى ٱلْخُشُونَةَ فِي   عَيْشٍ تَعَوَّدَ فِيهِ قَبْلُ تَرَفِيهَا
وَإِذْرَأَوْا ٱلْمُرْتَضَى لَاشَكَّ مَرْجِعُهُمْ   إِلَى بَدَاوَتِهِمْ وَٱلْكُلُّ آبِيهَا

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اقام دعوته على دعامة الدين والتفّ حوله النـاس وهم يطلبون ثواب الآخرة لا يهمهم شيء من زخارف الدنيا فكانوا الفئة القليلة الظافرة بقوة الهية على الفئة الكثيرة . ولما تمّ النصر للاسلام ودخل الناس فيه افواجاً بعد فتح مكة المكرمة لم تكن قلوب « الطلقاء والمؤلفة قلوبهم » متشبعة من روح الاسلام كقلوب المهاجرين والانصار ولذلك كثر عدد المنافقين بين المسلمين وهم الذين اظهروا الاسلام بألسنتهم خضوعاً للقوة وانطوت قلوبهم على الكفر والاشراك . وقد ظهرت نيات هؤلاء السيئة للاسلام على عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك على ما مرّ بنا اذ تقاعس عنها كثيرون وقام كثيرون يرجفون بسوء نتائجها تثبيطاً لعزائم المسلمين عن الجهاد . كما ظهر خبث نوايا هؤلاء ايضاً بعـد وفاة المصطفى اذ ارتدّ كثيرون منهم فحاربهم أبو بكر واعادهم الى الاسلام بالسيف لما تعلم من حكم الشرع على المرتدّ

وظلّ هؤلاء المنافقون منتشرين بين المسلمين في عهد عمر وليس لهم سمة معلومة تميزهم عن المخلصين الصادقين في الايمان فكان بالطبع تأثيرهم كبيراً في ذلك الوسط الاسلامي. وأراد الله سبحانه أن يجعل عهد عمر فتحاً ونمواً للاسلام فاتسعت الدولة الاسلامية وكثر الألى دخلوا في الاسلام من الفرس والروم والأرمن والسريان وغيرهم فزاد هذا النمو بالطبع عدد المنافقين بين المسلمين أو على الأقل قل ان كثيرين ممن أسلموا من الروم والفرس والسريان والأرمن لم يكونوا واقفين على حقائق الشريعة الاسلامية السمحاء وآدابها العالية ومبادئها الراقية فكان لانضمامهم الى الجماعة تحت لواء الاسلام تأثيره ولا سيما لأن الاسلام يساوي بين تابعيه مساواةً لا تمييز فيها لمسلم على مسلم لا بجنس ولا بسابقة ولا بمال ولا بحسب ولا بعصبية ولا بأي شيء آخر

ثمّ انتقلت الخلافة الى عثمان بن عفان وعلى عهده كانت الكلمة العليا لبني أمية وهؤلاء من الطلقاء المؤلفة قلوبهم وقد أسلموا « الا زعيمهم عثمان » يوم فتح مكة المكرمة فلا ينتظر منهم بعد أن استضعفوا زعيمهم عثمان وحكموا باسمه المملكة الاسلامية أن يدققوا في اجراء الاحكام

تَقَمَّصُوا وَتَوَلَّوْا عَنْ خِلَافَتِهِ ... وَصَارَ هَمُّهُمُ الْأَسْنَى تَدَاعِيهَا
إِلَّا الْأُلَى عَصَمَ الْبَارِي نُفُوسَهُمُ ... فَاسْتَمْسَكَتْ بِنُصُوصِ الشَّرْعِ تَتَّقِيهَا
فَكَانَ ذَا بَدْءَ عَهْدِ الْإِنْقِلَابِ عَلَى ... إِمَامَةٍ سُنَنُ الْهَادِي تُغَشِّيهَا
وَمَا تَقَادَمَ فِيهَا عَهْدُ حَيْدَرَةٍ ... بَلْ أَنَّهُ مِثْلَمَا نَدْرِي مُمَسِّيهَا
بَلْ لَمْ يَكُنْ حَتْمُهَا نِسْيَانُ عَهْدِ رَسُو ... لِ اللهِ وَهُوَ عَلَى هٰذَا مُرَبِّيهَا
كَذَاكَ لَمْ نَنْسَ مَا لِلْمُرْتَضَى بِنُفُو ... سِ الْعُرْبِ مِنْ غُصَّةٍ كَانَتْ تُخَبِّيهَا

الشرعية ويطبقوا قوانينها على أنفسهم أولاً وعلى المسلمين ثانياً بل كان هذا لا يلائم مطامعهم اذ من الثابت أنهم كانوا يعملون في عهد عثمان على استبقاء الخلافة في بيتهم أو على الأقل أن يصبحوا اذا لم يتوفقوا الى استبقاء الخلافة في بيتهم في حالة من الوجاهة والثروة والنفوذ تجعل الخليفة رهن اشارتهم كائناً من كان فجعلوا يتناولون من اموال المسلمين باسم هبات من عثمان مايستطيعون نيله وكانوا يحزبون الاحزاب ممن تسهل استمالته اليهم بالاموال والمنافع سواء من العرب او من الاعاجم الذين دانوا بالاسلام والناس تسعة اعشارهم اذا لم نقل كلهم عبيد منافعهم

ثم ان الناس الذين قلنا انهم عبيد منافعهم ليس كلهم ينظرون الى منافعهم الدنيوية بل منهم من كانوا ينظرون الى منافعهم الأخروية الآجلة ويفضلونها على المنافع الدنيوية العاجلة ومثل هؤلاء كانوا كثيرين في ذلك الزمان لجدة الاسلام وقرب العهد بالمصطفى وانتشار الكثيرين بينهم ممن صحبوه صلى الله عليه وسلم ورووا انباءه وحدثوا بأحاديثه الباهرة وهؤلاء هم الذين نعوا على عمال عثمان أعمالهم وكانوا غير راضين عما كان يجري في الخلافة على عهده وانضم الى هؤلاء المحرومون من المنافع التي فاز بها الامويون واصحابهم بدافع الحسد والغيرة

وعلى هذا لنا ان نقول ان سيدنا علي عليه صلوات الله قد تولى الخلافة والناس لم يبقوا على ما كانوا عليه في عهد النبوة وعهدي ابي بكر وعمر يعملون اعمالهم ووجهتهم الآخرة زاهدين بالدنيا وزخرفها بل تعوّدوا شيئاً آخر وهو انّ في الخلافة منافع قد يختصّ بها من كان من عشيرة الخليفة أو اتصل به وبالمتوجهين بخلافته . ونستطيع ان نقول ان هذا التحوّل في الافكار كاد يكون عاماً في المسلمين يوم قتل عثمان الا من عصم الله

ولا بدّ لنا من نظرية اخرى معقولة واحسبها واقعية وهي ان العرب الذين غلبهم الاسلام على أمرهم واشير الى بعضهم باسم « المنافقين » والى البعض باسم « المؤلفة قلوبهم » كانوا على اشدّ الكره لرسول الله ولوصيه عليهما الصلاة والسلام وانما القوة القاهرة كانت تحملهم على اخفاء هذا الكره في صدورهم لعلمهم بما يتبع اظهاره من التنكيل بهم . وهذا الكره أمر طبيعي لاغرابة فيه اذ ما من مغلوب يحبّ غالبه المنتصر عليه . ويدلك على هذا الكره ما كان من أمر الحكم أبي مروان الذي كان يتنصت احاديث المصطفى ويشيعها بين المسلمين للاضرار بالاسلام وبطبيعة الحال ما كان يشيعها الا بين الذين يرضون سماعها من شركائه بكراهة رسول الله وامثال هذا ما كانوا قليلين

واذا كان هؤلاء المنافقون يكرهون رسول الله لانه تغلب عليهم فبالاولى كانوا يكرهون اصحابه وانصاره الذين كانوا سيوفه المشهرة وقد شهروها حربهم وقهرهم بها باذن الله . وبالبداهة

فَهَلْ نَسَتْ أَمْسَهَا إِذْ كَانَ قَاهِرَهَا ... بِذِي ٱلْفَقَارِ وَمُذْمِيهَا وَمُضْمِيهَا

وَلَيْسَ فِيهَا سِوَى ٱلْمَوْتُورِ مَاتَ أَبُو ... هُ أَوْ أَخُوهُ وَهٰذَا ٱلْقَرْمُ مُرْدِيهَا

وَٱلْعُرْبُ ثَارَاتُهَا لَا تَنْتَهِي أَبَداً ... وَٱلْأَخْذُ بِٱلثَّأْرِ مِنْ أَسْمَى مَبَادِيهَا

وَٱلشِّرْكُ مَا زَالَ يُغْرِي أَكْثَرِيَّتَهَا ... عَلَى كَرَاهَةِ مَاحِيهِ وَغَازِيهَا

وَبَعْدَ هٰذَا وَهٰذَا مَا أُمَيَّةُ تُغْـ ... ـضِي عَنْ مَطَامِعِهَا أَوْ عَنْ أَمَانِيهَا

وَكَانَ عُمَّالُ أَمْصَارِ ٱلْخِلَافَةِ شِيْـ ... ـعَةً لَهَا أَوْ أُنَاساً مِنْ مُحِبِّيهَا

بِهِمْ فَشَتْ بَيْنَ كُلِّ ٱلنَّاسِ سَطْوَتُهَا ... وَسَطْوَةُ ٱلْحُكْمِ تُغْنِي مَنْ يُقَاوِيهَا

كَذَاكَ كَانَتْ جَمَاعَاتُ ٱلْعِدَاةِ يُنَا ... جِي بَعْضُهَا ٱلْبَعْضَ كَيْ تُبْدِي تَعَصِّيهَا

كَانَتْ بِثَارَاتِ عُثْمَانَ تَصِيحُ وَفِي ... فُؤَادِهَا غَيْرُ مَا تُبْدِيهِ مِنْ فِيهَا

وَإِنَّمَا دَمُـهُ فِي عُنْقِهَا وَلَئِنْ ... لَاقَى مَنِيَّتَهُ مِنْ غَيْرِ أَيْدِيهَا

كان هذا الكره لاصحاب رسول الله وانصاره يتفاوت بتفاوت اعمالهم الحربية. واذا عرفنا أنّ سيدنا علي كان في المغازي النبوية وان ماي اولئك المنافقين من لا يذكر انه عليه صلوات الله قاتل أباه أو أخاه أو عمه أو خاله أو ابنه كان من الصعب جداً ان ينسوا الثأر على مانعلم من « ثارات العرب » وان تصفو قلوبهم الى من كان المجلي في الحروب التي اشتعلت بين المسلمين والمشركين الاّ الذين عصمهم الاسلام فعرفوا أنّ علياً كان سيف الله وقد اشهره سبحانه على المشركين والكافرين لنصرة دينه واعلاء راية شريعته في العالمين . واذا كان هؤلاء الناقمون على سيدنا علي وهم ليسوا بقليلين عاجزين عن الاثار لانفسهم منه فما كان يصعب عليهم ان يلبوا دعوة كلّ من ينادي بعداوته ولا سيما بعد أن اصبح خليفة المسلمين وهم لا يطيقون لو أنّ الحكم لهم ان يروا قهرهم والمنكل بهم صاحب الحكم فيهم . وعندي أنّ هذا الكره الذي كان متأصلاً في صدورهم هو الذي اقعدهم عن نصرة أمير المؤمنين لما دعتهم اليه اسيدتنا فاطمة الزهراء عليهما وعلى المصطفى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام

وبعد هذا البيان سهل علينا ان نفهم لماذا تسارع لقوم الى الارفضاض من حول سيدنا علي عليه صلوات الله من يوم تربعه على دست الخلافة ومجاهرته بما جهر به من عزمه على المساواة بين الناس واعادتهم الى عهدهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنهم من كانوا يكرهونه ويحقدون عليه . ومنهم من توسموا خيبتهم بمطامعهم في خلافته . ومنهم من عزّ عليهم أن يرجعوا الى خشونة العيش بعد أن ترفهوا وبطروا . وكان وراء هؤلاء جميعاً بنو أمية واصحابهم . وما كان ينتظر منهم ان يرضوا بخلافة سيدنا عليّ ويخضعون لها وهم موقنون انه سيفتتح اعماله بالضرب على ايديهم جميعاً وتنحيتهم عن كلما كسبوه من مال وجاه وسلطان على عهد عثمان . فقل لي يارعاك الله هل كان باستطاعة انسان مهما عظمت قدرته وتعالت ميزته ومهما تسامى في علمه وفضله ومهما قويت ارادته واتسعت حكمته ان يرضي هؤلاء الجماعات وحاله معهم حال علي التي ذكرناها وايمانه بالله ماعرفنا ؟ ؟ لا والله . وقد كان سيدنا علي عارفاً بما ينتظره من المصاعب ولكنه اقدم على قبول الخلافة بعد الاحجام وهو موقن أنّ

رؤساء اعداء امير المؤمنين

لِكُلِّ مُجْتَمِعٍ فِي أَيِّمَا عَمَلٍ ... نَاسٌ تَذِيعُ بِهِ ذَيْعاً أَسَامِيهَا(١)

وَلَيْسَ مِنْ ثَوْرَةٍ إِلَّا لَهَا زُعَمَا ... تَنفُخُ ٱلنَّارَ عُدْوَاناً وَتُلْظِيهَا

وَلَا تُسَاقُ سَوَادُ ٱلنَّاسِ ثَائِرَةً ... إِلَّا إِذَا أَحْكَمَ ٱلتَّدْبِيرَ دَاعِيهَا

فَرَاحَ يَخْلُقُ أَسْبَاباً لِفِتْنَتِهِ ... تُثِيرُ ثَائِرَةَ ٱلْبَغْضَا وَتُسْنِيهَا

وَإِنَّ أَعْدَاءَ مَوْلَانَا أَبِي حَسَنٍ ... مِنْ يَوْمِ امْرَتِهِ أَبْدَتْ تَعَصِّيهَا

طَوْعاً لِأَرْبَعَةٍ كَانُوا ٱلرُّؤُوسَ لَهَا ... وَكَانَ حَوْلَهُمُ جَهْراً تَجَمُّعُهَا

فَطَلْحَةٌ وَٱلزُّبَيْرُ ٱلطَّامِعَانِ بِخَيْرَاتِ ٱلْخِلَافَةِ وَٱسْتِقْطَاعِ أَرْضِيهَا

يَلِيهِمَا فِي تَحَدِّيهَا مُعَاوِيَةٌ ... وَكَانَ دُونَهُمَا يَبْغِي تَوَلِّيهَا

تَلِيهِ عَائِشَةٌ وَٱلنَّاسُ تَجْهَلُ حَتَّى ٱلْيَوْمَ مَا كَانَ لِلْعُدْوَانِ حَادِيهَا

وَكَانَ عُثْمَانُ فِي ٱلشَّنْآنِ حِجَّتَهَا ... يُدْلِي بِهَا لِخِدَاعِ ٱلنَّاسِ مُدْلِيهَا

هذا القبول هو جهاد جديد في سبيل الاسلام مما أن يعيد حالته الى ما كانت على عهد المصطفى عليهما الصلاة والسلام واما أن يموت شهيداً في سبيله وهو تفان له حقه من الاجلال والاعتبار

(١) لابدَّ لكل مجتمع في أي عمل كان من اناس تذيع اسماؤهم فيه وتديكونون هم دعاته أو مسيروه وكذلك حال الثورات فنها لاتتم بغير زعماء يدعون اليها ويحسنون للناس ركوب المخاطر فيها بما يختلقونه من الاسباب المبررة لها . والثورة التي قمت من اليوم الاول الذي تولى فيه سيدنا علي عليه صلوات الله الخلافة ذاع فيها بين الناس اسماء زعمائها فاذا هم معاوية بن أبي سفيان امير الشام وطلحة والزبير وهما من اكابر الصحابة وعائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فان هؤلاء الاربعة قاموا ينادون بها ويدعون الناس اليها وكانت حجتهم الظاهرة لعصيانهم الخليفة هي المطالبة بدم عثمان وقد اتهموا به سيدنا علي ظلماً وعدواناً واما الاسباب الحقيقية التي دعتهم الى الثورة فقد كانت غير ذلك اذ عرفنا وعرف الناس ان معاوية كان يطمح ببصره الى الخلافة وحوله بنو امية . وطلحة والزبير كلٌّ منهما كان يرجو الخلافة لنفسه ولما لم ينالا ها طمحا الى امارتي الكوفة والبصرة ليشبعا مطامعهما من خيرات ذينك المصرين ولكي يكيدا فيهما للخليفة . واما عائشة فحتى الآن يجهل الناس حقيقة غرضها من النهوض بالثورة فقالوا انها كانت تكرهه عليه صلوات الله لانه من احمائها على القاعدة العامة في النساء وهي كرههن لاحمائهن ولكن هذا الكره مهما تعاظم ما كان يدعو مثل عائشة لتترك خباءها وتقف على رأس الثائرين في وجه احب الناس لزوجها المصطفى عليه صلوات الله فما الذي دعاها ياترى لركوب هذا المركب الخشن ؟ لا اعلم تالله حقيقته ولا وجدت في المؤرخين من أبدى له سبباً يقنعني. على ان هؤلاء الزعماء لم يجدوا أسباباً يقنعون الناس بها على الاقدام على عصيان سيدنا علي في خلافته ومحاربته

عداء عائشة لأمير المؤمنين

فَهلْ نَسَتْ لَحيَهَا عُثمَانَ عَائِشَةٌ	عَلى رُؤُوسِ ٱلْمَـلا لَوْمًا وَتَسفِيـهَا
وَطَالَمَا أَعْلَنَتْ أَنْ لَا ٱنطِبَاقَ عَلى	حُكمِ ٱلشَّرِيعَةِ أَعْمَالٌ يُجرّيهَا
وَكَمْ صِحَابُ رَسُولِ ٱللهِ قَدْ سَمِعَتْ	مِنْهَا مَلَامَتَـهُ سِرًّا وَتَجرِيهَا
وَكَمْ دَعَتْ وُجهَاءَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى	إِزْجَاعِهِ عَنْ أُمُورٍ كَانَ يَأْتِيهَا
وَكَمْ بِأَقْوَالِهَا ٱلثُّوَّارُ قَدْ شَجعَتْ	لَمَّا تَكَاثَرَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ رَاوِيهَا
وَلَمْ تَدَعْ طِيبَةً إِلاَّ عَلى ثِقَـةٍ	بِأَنَّ بُغْيَتَهَا ٱلثُّـوَّارُ تُمْضِيـهَا
مَا بَالُهَا خَذَلَتْ عُثْمَانَ وَهْوَ عَلى	شَفِيرِ هَاوِيَةٍ لَا شَكَّ هَاوِيهَا

غير المطالبة بدم عثمان كما سبق القول بعد جعله في عنقه وما كانوا يجهلون براءة سيدنا علي من دم عثمان ولكنهم لتهموه به عن ظلم وعدوان ووجدوا النفوس مهيأة لقبول الدعوة ضد سيدنا علي لما اسلفنا من كره بعضهم له وعدم معرفة بعضهم ولا سيما الاعاجم لقدره ومكانته العليا وا اثر البعض بنفوذ حكامهم عليهم وكانوا من أمية او من اصحاب الامويين

(١) سبقت الاشارة عن حيرة الناس في أمر عائشة ودخولها في مضايق الثورة ضد سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله حتى كانت من زعماء الثائرين الاربعة الذين اشتهرت اسماؤهم في عداوته وشنآنه وكانوا السبب الاكبر في تألب الناس عليه وحل عهد خلافته عهد تشويش واضطراب وحروب داخلية افضت في الاخير الى سفك دمه الاقدس من يد اثيم رافقت اللعنات روحه الى ابد الابيد هي لعنات الله وملائكته ورسله والناس اجمعين

نعم حار النقاد في ثورة عائشة زوج المصطفى عليه الصلاة والسلام وابنة ابي بكر لركوبها هذا المركب الخشن فجعلوا ينقبون في ثنايا التاريخ ويقلبون حوادث حياتها مع المصطفى لعلهم يجدون سبباً مقنعاً لحملها على الحقد على سيدنا علي عليه صلوات الله الى درجة ان تؤلب الناس عليه من ساعة انتهاء نبأ بيعته الى سمعها وهي في مكة المكرمة فذكروا بعض حوادث لا بدّ ان تحدث بينها وبين سيدتنا الزهراء بصفتها ابنة زوجها او بين سيدنا علي بصفته من احمائها واحبّ الناس الى زوجها المصطفى واكثرهم ادلالاً عليه فما ذكروا غير تافه الحوادث وبسائطها مما لا يدعو الى شنآن مستمرّ حتى بين حامة النساء فكيف بخاصتهنّ كعائشة وقد دخلت بيت المصطفى في التاسعة من عمرها وتربت على يديه؟ حتى انّ سيدنا علي عليه صلوات الله هو ايضاً كان في حيرة من أمرها فقال « وما لنا الى عائشة من ذنب الا انا ادخلناها في حيزنا » وما هذا بدعب كما تعلم فكأنه يقول اننا لا ذنب لنا اليها حتى تجاهر بعداوتنا وتدعو الناس الى محاربتنا

وقال بعض نقاد المؤرخين ان عائشة كانت ترجو في تحريضها على عثمان ان يخلعه الثائرون أو يقتلوه ويتولى الخلافة طلحة بن عبيد الله لترجع الخلافة الى بيتها وعللوا ذلك بقولهم ان الامويين عند ما اعادوا بالخلافة الى عصبية الجاهلية تنبهت بقية العصبيات في قريش فقام طلحة وعائشة يتعاونان

وَلَمْ تُحَرِّكْ يَدَاً بَيْضَاءَ تُنْقِذُهُ ... بِهَا وَعَنْهُ صُرُوفُ ٱلدَّهْرِ تُجْلِيهَا

بَلْ أَسْرَعَتْ بِخُطَاهَا وَهِيَ قَائِلَةٌ: ... دَعِ ٱلتَّقَادِيرَ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا

وَلَازَمَتْ مَكَّةً كَانَتْ تُرَاقِبُ مِنْـــــهَا فِتْنَةً لَمْ تُخَيِّبْ ظَنَّ مُوْرِيهَا

فَمَا لَهَا أَكْبَرَتْ قَاسِي نَتِيجَتِهَا ... وَلَمْ تَجُزْ رَغْبَةً كَانَتْ تُوَخِّيهَا

لَعَلَّهَا طَلَبَتْ لِلْأَمْرِ طَلْحَتَهَا ... إِذْ كَانَ فِي ٱلْعَرَبِ ٱلْعَرْبَاءِ تِيمِيهَا

وَإِذْ تَوَلَّاهُ عَنْ حَقٍّ أَبُو حَسَنٍ ... وَخَابَ فِيمَنْ أَرَادَتْهُ تَمَنِّيهَا

بَكَتْ عَلَى مَنْ نَعَتْ أَعْمَالَهُ وَسَعَتْ ... لِقَتْلِهِ بِالَّذِي أَبْدَتْهُ مِنْ فِيهَا

لِكَيْ تُضَعْضِعَ حُكْمَ ٱلْبَرِّ حَيْدَرَةٍ ... بِفِتْنَةٍ تَتَلَظَّى مِنْ تَبَاكِيهَا

أَوْ إِنَّهَا رَهِبَتْ حُكْمَ ٱلْعَلِيِّ بِشِدَّ ... ةِ ٱلشَّرِيعَةِ إِذْ تَبْغِي تَرَاخِيهَا

فَلَمْ تَجِدْ غَيْرَ إِبْدَاءِ ٱلْعَدَاءِ لَهُ ... وَسِيلَةً مِنْ قَضَاءِ ٱلْعَدْلِ تُنْجِيهَا

أَوْ إِنَّهَا كَنَّةٌ فِي صَدْرِهَا لِبَنِي ... أَحْمَائِهَا بُغْضَةٌ تَأْبَى تَحَامِيهَا

وَهِيَ ٱلَّتِي دَفَعَتْهَا لِٱعْتِلَانِ عَدَا ٱلْـــــوَصِيِّ عَفْوَاً وَلَمْ يَنْظُرْ تَعَدِّيهَا

وَٱلْمُرْتَضَى قَالَ فِي شَنَآنِ عَائِشَةٍ ... لَهُ وَقَدْ شَنِئَتْ مَنْ لَيْسَ شَانِيهَا

سِوَى ٱنْضِوَاهَا إِلَيْنَا مَا لَنَـا أَبَدَاً ... ذَنْبٌ إِلَيْهَا إِلَى ٱلْعُدْوَى يُهَيِّيهَا

وَٱلنَّاسُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهَا وَإِلَى ... ذَا ٱلْيَوْمِ مَا مِنْهُمُ يَدْرِي خَوَافِيهَا

على استعادة الخلافة الى عشيرة بني تيم التي منها أبو بكر وطلحة بحجة انّ اول الخلفاء كان أبو بكر وانّ طلحة كان أحد الستة الذين حكم عمر باحقيتهم بالخلافة بجعلها شورى بينهم وانت تعلم انّ ابا بكر هو بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة واما طلحة فهو ابن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة فيكون أبو بكر ابن عمّ عبيد الله والد طلحة ويجمعهما كليهما تيم. وقد تكون هذه الحجة معقولة ولكن هل كانت عائشة يا هل ترى واثقةً من امكان فوز طلحة بالخلافة مع وجود سيدنا علي عليه صلوات الله ؟ ومن ثمّ اذا كانت فكرة العصبية الجاهلية قد اعادها الامويون الى نفوس المسلمين اما كانت الثورة على عثمان التي اثارتها تلك العصبية كافية لاقناع عائشة وطلحة قبل غيرهما بأنها بدعة غير مضمونة النجاح ؟ وفي الاخير هل وجد طلحة وعائشة في بني تيم ومن حولهم من الانصار الذين يميلون لهم وهم أهل الكوفة على ما نعلم الكفاءة الكافية للتغلب على الامويين وهم مسيطرون على كل بلاد الخلافة بما نشروا فيها من العمال المخلصين لهم عدا عن اهل الشام الذين كانوا شيعةً لهم ؟ فضلاً عن المواثم واعتزازهم بالمصطفى والمرتضى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام وتمجّدهم بالنبوّة واحترام عموم المسلمين لهم احتراماً دينياً يوجب على كل متدين منهم ان

تَاللهِ مَا خَيْبَةٌ حَاقَتْ بِطَلْحَتِهَا تَكْفِي إِلَى ٱلْجَهْرِ بِٱلْبَغْضَاءِ تَجْزِيهَا
وَلَا ٱلْعَدَاوَةُ لِلْأَحْمَاءِ مُوصِلَةٌ إِلَى مُخَاطَرَةٍ صَعْبٌ تَخَطِّيهَا
لٰكِنْ أَرَادَتْ رُكُوبَ ٱلصَّعْبِ مُعْرِضَةً عَنْ نَاصِحِيهَا وَمَنْ بَاتُوا مُلِيمِيهَا
وَٱسْتَهْدَفَتْ لِسِهَامِ ٱللَّوْمِ رَاضِيَةً فَهَلْ يُلَامُ لَعَمْرُ ٱلْحَقِّ رَامِيهَا

عداء طلحة والزبير لأمير المؤمنين

فِي عَهْدِ عُثْمَانَ جَدَّتْ صَحْبُ أَحْمَدَ فِي ٱسْتِصْفَاءِ قَوْمٍ عَلَى ٱلدُّنْيَا تَمَالِيهَا(١)
فَكَانَ فِي ٱلْكُوفَةِ ٱلزَّهْرَاءِ طَلْحَةُ مَنْظُورَاً لَهُ صُحْبَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِيهَا
وَكَانَ فِي ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّا ٱلزُّبَيْرُ لَهُ صَحْبٌ يُنَادِي بِهِ جَهْرَاً مُنَادِيهَا
كِلَاهُمَا كَانَ يُحْصِي مِنْ أَحِبَّتِهِ فِي مِصْرِهِ عِدَّةً لِلْحَرْبِ شَاكِيهَا
وَإِنَّهُ إِنْ بَغَى نَيْلَ ٱلْخِلَافَةِ أَلْفَاهَا لِبُغْيَتِهِ تُنْضِي مَوَاضِيهَا
وَمُذْ هُمَا رَأَيَا أَنَّ ٱلْخِلَافَةَ صَارَتْ لِلْعَلِيِّ وَخَابَا فِي تَوَلِّيهَا

يكون شيعةً لهم . اقول اذا كان مبلغ اجتهاد عائشة وطلحة ينتهي الى هذا الحدّ فلاعجب اذا كانت خيبتهما قريبة سريعة وهكذا كان

ويقول بعض نقاد التاريخ ان عائشة حصلت في أيام عثمان على حول وطول على المسلمين فكانوا يرحمون اليهافتروي لهم الاحاديث عن زوجها المصطفى عليه الصلاة والسلام وبواسطتها صار لها نفوذ عظيم عليهم وكان الامويون قد تركوا لهاهده المبرة اضعافاً لشأن سيدنا علي ونفوذه بين المسلمين وانها عند ماعلمت بولاية سيدنا علي ايقنت بان نفوذها سيتلاشى بجانبه كما يتلاشى نور القمر اذا بزغت الشمس فنهضت لمحاربته احتفاظاً بمكانتها وهذا القول ايضاً لايخرج عن حدود العقل ولكنه اضعف من القول المتقدم وداك عندي هو الاقوى والله اعلم

(١) ليس في عداء الزبير وطلحة لسيدنا أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام مايدعو الى العجب فانهما صارا يطمعان بالخلافة منذ جعلها عمر شورى في الستة الذين هم من العشرة الحاصلين على رضوان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم والطمع في رؤوس الرجال . ويجب ان نعلم انَّ طلحة غير الزبير ولكلٍّ منهما وجهةٌ دونَّ طلحة من يوم السقيفة ظهر بتشيعه لابي بكر لانه تيميٌّ مثله وقد علمت انه نقم على ابي بكر عندما عهد بالخلافة الى عمر دونه فدخل عليه وهو على فراش الموت وقال له ماقال كما ذكرنا في حاشيةٍ سبقت . اما الزبير فهو من قصي وعمتُّ للهواشم من طرف امه وهي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم وهي عمة المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام ولذلك كان يحسب من بني هاشم أو على الاقلّ شيعةً لهم وقد روى الثقاة ان القوم عند مابايعوا ابا بكر يوم السقيفة غضب الزبير للافتئات على ابن خاله سيدنا علي عليه صلوات الله وخلا ومعه أبو سفيان وجماعة من المهاجرين

سارًا إِلَيْهِ وَقَالَا وَلِّنَا فَلَنَا   حُقُوقُنَا إِنَّنَا نَبْغِي تَقَاضِيَهَا
وَفَوْقَ ذَا إِنَّنَا نَبْغِي مُكَافَأَةً   عَلَى ٱلْإِمَامَةِ إِذْ جِئْنَاكَ نُهْدِيهَا
فَخَيَّبَ ٱلْمُرْتَضَى فِي ٱلْحَالِ مَسْأَلَةَ ٱلْإِ   ثْنَيْنِ قَالَ: ٱرْجِئَاهَا لَسْتُ مُعْطِيهَا
مَا رَدَّهَا ٱلْمُرْتَضَى إِلَّا وَكَانَ يَرَى   مَصَالِحَ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا تُنَافِيهَا
وَكَانَ يَعْرِفُ رُغْبَى صَاحِبَيْهِ وَمَا   أَرْضُ ٱلْعِرَاقَيْنِ أَيْمُ ٱللهِ تَكْفِيهَا
وَفَوْقَ هٰذَا هَلِ ٱلْمَوْلَى أَبُو حَسَنٍ   بِٱلْمُلْكِ يَرْشُو ٱلرَّعَايَا أَوْ يُرَاشِيهَا
لِذَا ٱسْتَمَالَهُمَا عَفْوًا مُعَاوِيَةٌ   إِلَيْهِ بُغْيَةَ غُنْمٍ كَانَ يَبْغِيهَا
وَافَتْهُمَا رُقْعَةٌ مِنْهُ بِبَيْعَةِ أَهْـ   ـلِ ٱلشَّامِ بَيْعَةَ مَكْرٍ رَاحَ يُسْدِيهَا
قَالَ ٱلزُّبَيْرُ لَهَا وَهُوَ ٱلْأَسَنُّ وَفِيـ   ـمَا بَعْدُ طَلْحَةُ بِٱلْإِقْبَالِ حَامِيهَا
وَقَالَ: دُونَكُمَا أَرْضَ ٱلْعِرَاقِ فَأُمَّـ   ـاهَا وَأَمْرُكُمَا لَا شَكَّ يُرْضِيهَا
وَإِنَّ بَيْعَتَهَا تُدْنِيكُمَا لِحِمَى   خِلَافَةِ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْعَلْيَا وَتُدْنِيهَا
وَمِنْ عَجَائِبِ هٰذَا ٱلدَّهْرِ مِثْلُهُمَا   يُغْرَى بِهَا وَعَلِيٌّ ٱلْقَرْمُ رَاعِيهَا

بعباس وعلي وحملا يحرضانهما على طلب الخلافة ولو بالسيف فأبيا لا فرقاً ولا عن خوار عزيمة ولكن خوف الفرقة والفتنة . ثمّ ان الزبير لم يبايع ابا بكر الا مكرهاً وكان من الذين رفضوا بيعته ولاذوا ببيت سيدتنا فطمة الزهراء عليها السلام فجاءهم عمر والسيف مشهر بيده واستاقهم لبيعة أبي بكر وهم كارهون في حديث طويل لا فائدة من سرده . وكان يقول سيدنا علي عليه صلوات الله « ما زال الزبير منا حتى كبر ابنه عبد الله فقصاه عنا » وأنت تعلم ان عبدالله بن الزبير امه اسماء بنت أبي بكر اخت عائشة وان عائشة هي التي ربته وكانت تكنى به فتدعى « امّ عبد الله » فلابدّ أن عائشة هي التي غرست في صدر عبد الله بن الزبير كراهة سيدنا علي وهو الذي حوّل اباه عن سيدنا علي بعد أن تجدّد في نفسه الطموح الى الخلافة على أثر عهد عمر بشوراه . هذا كلّ ما يقال عن الزبير وما في نفسه نحو الخلافة لا نفس الخليفة فاين هو من طلحة الذي كان حشعاً للمال طالباً للدنيا يحسب نفسه كولي عهد للخلافة بعد أبي بكر لانه من ارومته وكلاهما تيميّ فانه لم يكن ساعةً واحدةً منذ بويع ابو بكر بالخلافة في جانب سيدنا علي عليه صلوات الله او من محبيه

وقد كان طلحة والزبير على رأس معارضي عثمان في استسلامه الى الامويين وطالما انتقداه ونصحاه كما كان يفعل علي وابو ذرّ وعبد الرحمن بن عوف وعائشة وغيرهم من اكابر المهاجرين والانصار . ولما اشتدت الفتنة واستفحل امر الثائرين صار طلحة والزبير دون من ذكرنا على رأس المحرضين على قتل عثمان حتى رووا ان عثمان كان يقول وهو محصور « ويل على ابن الحضرمية (يريد طلحة) اعطيته كذا وكذا بهاراً ذهباً وهو يروم دمي يحرّض الناس على قتلي اللهمّ لا تمتعه به ولقّه عواقب

لَوْلَا مَوَاقِفُ شُورَى سَنَّهَا عُمَرٌ مَا كَانَ مِثْلُهُمَا يَرْجُو تَدَرِّيهَا
نَعَمْ لَقَدْ شَجَعَا مِنْ رُقْعَةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِمَا وَرَأَيَا كُلَّ ٱلْمُنَى فِيهَا
وَأَسْرَعَا لِرُبَى أُمِّ ٱلْقُرَى وَقَدِ ٱنْضَمَّا لِعَائِشَةٍ مَعْ مَنْ يُوَالِيهَا
وَأَلْفَا عُصْبَةً رَاحَتْ تَنُوحُ عَلَى عُثْمَانَ مُعْلِيَةً فِيهِ تَدَعِّيهَا
وَفِيهِمَا ٱلْمُرْتَضَى قَدْ قَالَ قَوْلَةَ حَقٍّ مَا مُرُورُ لَيَالِي ٱلدَّهْرِ يُنْسِيهَا
فَقَالَ : وَٱللّٰهِ مَا هُمْ مُنْكَراً نَكَرُوا عَلَيَّ أَوْ بِدْعَةً كَانُوا مُزِيلِيهَا
وَلَا هُمُ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمُ عَدَالَةً حَبَّذَا لَوْ قَاسَمُونِيهَا
قَدْ أَوْهَمُونِيَ بِعُثْمَانَ وَقَتْلَتِهِ جَرِيمَةً هُمُ لَا يَعْدُونَ آتِيهَا
فَإِنْ تَوَلَّوْهُ دُونِي أَنَّ طَلَبَتَهُمْ عَلَيْهِمُ أَنْ يَكُونُوا مُسْتَجِيبِيهَا
وَإِنْ أَكُنْ مَعَهُمْ فِيهَا مُشَارِكَهُمْ فَشِرْكَةُ ٱلشُّرَكَا عَدْلٌ تَسَاوِيهَا
وَإِنَّ حِصَّتَهُمْ مِنْهَا لَمُوقِعَةٌ عَلَيْهِمِ ٱلْحَقَّ فِي دَعْوَى مُدَاعِيهَا
فَلْيَعْدِلُوا بَدْءَ ذِي بَدْءٍ بِحُكْمِهِمِ عَلَى نُفُوسِهِمِ وَٱلْإِثْمُ غَاشِيهَا

بغيه » وروى مؤرخو تلك الفتنة ان طلحة كان يوم قتل عثمان مقنعاً بثوب قد استتر به عن اعين الناس وكان يرمي دار عثمان بالسهام ورووا ايضاً انه لما امتنع على الذين حصروه الدخول من باب الدار حملهم طلحة الى دار بعض الانصار فصعدهم الى سطحها وتسوروا منها على عثمان داره فقتلوه

اما الزبير فكان في وقت الفتنة ملازماً داره حتى اذا ماجاءه بعض روساء الثائرين كان يحرضهم على خلع عثمان او قتله مشنعاً باعماله حتى اذا ماجاء يوم القتل خرج الى الثائرين وطفق يقول لهم جهرةً اقتلوا عثمان فقد بدل دينكم فقالوا له ان ابنك عبد الله على بابه يحامي عنه فقال ما اكره ان يقتل عثمان ولو بدىء بابني ان عثمان لجيفة على الصراط غداً

والذي يؤيد هذه الروايات وغيرها مثلها مما لم نذكر هو اولاً ان عثمان كان يستعين في ضيقه في حصره سيدنا علي عليه صلوات الله ولم يستعن بطلحة والزبير وهذا يكفي وحده للدلالة على انه كان واثقاً من اخلاص سيدنا امير المؤمنين له وسوء نية طلحة والزبير نحوه وثانياً ان مروان ابن الحكم في موقعة الجمل قتل طلحة وهو يقول انه مثئر منه لعثمان لانه قاتله ولو لم يهرب الزبير من تلك الموقعة وظفر به مروان لما تأخر عن قتله كما قتل طلحة وسترى تفصيل هذا عند كلامنا على موقعة الجمل ثالثاً وهو الاثبت من كل ماتقدم ان سيدنا علي عليه صلوات الله عندما بلغه نكث طلحة والزبير بيعته وتأليبهما الناس عليه بدعوى مطالبته بدم عثمان بعد أن فارقاه الى مكة بحجة الحج قال « والله ما انكروا علي منكراً ، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً ، وانهم ليطلبون حقاً هم تركوه ، ودماً هم سفكوه ، ولئن كنت شريكهم فيه فان لهم نصيبهم منه ، وان كانوا ولوه دوني فما الطلبة الا قبلهم ، وان

وَقَدْ أَبَى ٱلْمُرْتَضَى إِلاَّ مُصَارَحَةَ ٱلْأَ م ثْنَيْنِ فِي خُطْبَةٍ مَامَانَ مُلْقِيهَا
فَقَالَ: أَقْبَلْتُمُ إِقْبَالَ مُطْفِلَةٍ عُوْذٍ عَلَى وُلْدِهِنَّ كَيْ تُرَانِيهَا
وَقُلْتُمُ ٱلْبَيْعَةَ ٱلْكُبْرَى لِصَاحِبِهَا وَكُنْتُمُ عَلَنَا جَهْراً مُبِيعِيهَا
وَإِنَّ كَفِّي عَنْكُمْ قَدْ قَبَضْتُ فَكُنْــتُمْ بَاسِطِيهَا وَلَمْ تَبْسُطْ لِخَازِنِهَا
نَازَعْتُكُمْ نَزْعَةً آلاَ بِي يَدِي فَجَذَبْــتُمْ أَنَامِلَهَا كُنْتُمْ مَشُوقِيهَا
رَبَّاهُ إِنَّهُمَا ظُلْماً لَقَدْ قَطَعَا نِي دُونَ مَعْتَبَةٍ أَخْشَى تَجَلِّيهَا
وَهَاهُمَا يَبْعَثِيَ ٱلزَّهْرَاءُ قَدْ نَكَثَا هَا مُسْرِعِينَ إِلَى مَلْقَى مُبِيحِيهَا
عَلَيَّ قَدْ أَلَّبَا لَمْ يَرْهَبَا حَرَجاً مَعَاشِرَ ٱلنَّاسِ فَٱسْتَعْصَى مُوَالِيهَا
فَٱحْلُلْ إِلَهِيَ مِنْ عُلْيَاكَ مَاعَقَدَا هُ تِلْكَ بُغْيَةُ حَتَّى جِئْتُ بَاغِيهَا
وَمَا هُمَا أَبْرَمَاهُ لَسْتَ تُحْكِمُهُ لِتَطْمَئِنَّ ٱلرَّعَايَا مِنْ مُضِلِّيهَا

اول عدلهم للحكم على انفسهم ، وانَّ معي لبصيرتي ، مالبَّست ولا لبِّس عليَّ ، وانها للفئة الباغية فيها الحما والحمة ، والشبهة المغدفة ، وانَّ الامر لواضح وقد زاح الباطل عن نصابه ، وانقطع لسانه عن شغبه ، وايم الله لا فرطنَّ لهم حوضاً أنا ماتحه ، لا يصدرون عنه بريّ ولا يعبّون بعده في حسيٍ » وهذا يكفي للاقتناع بان طلحة والزبير كانا في مقدمة الناقمين على عثمان المؤلبين عليه ينعون عليه عمله الا انهما كانا في الوقت نفسه يتمنيان ان يترك الخلافة استقالةً اوخلعاً أو قتلاً ليفوزا به وهنا يفترقان لانهما في خلع عثمان او قتله كانا متفقين اما في الولاية فكانا مختلفين لان كلاً منهما كان يطلبها لنفسه ولا يرضاها لصاحبه واذا كان المرض مرض كما يقال فقد كان غرضهما بالخلافة ماسيهما سيدنا أمير المؤمنين وحقه المقدس فيها

وعند ماأظهر طلحة والزبير ماكانا يخفيانه من مطامعهما ونكثا بيعة سيدنا علي جهرةً لانه لم يبلغهما ماكانا يرجوانه من المطامع دون الخلافة بعد أن أزعجهما الثورة على التجني عليها قال سيدنا أمير المؤمنين وفي قوله عليه صلوات الله فصل الخطاب واصفاً اقبالهما عليه على رأس الناس لبيعته ثم انصرافهما عنه ناكثين بيعتهما مانصه :

« فأقبلتم اليَّ اقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون : البيعة البيعة ، قبضت كفي فبسطتموها ، ونازعتكم يدي فجذبتموها ، اللهمَّ انهما قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي وألبّا الناس عليَّ ، فاحلل ما عقدا ، ولا تحكم لهما ماأبرما ، وأرهما المساءة فيما أملا وعملا ، ولقد استثبتهما قبل القتال واستأنيت بهما امام الوقاع ، فغمطا النعمة وردّا العافيه » اهـ

وقصارى القول ان طلحة والزبير كان كلٌّ منهما طامعاً بالخلافة لنفسه حتى اذا ما خابا منها ورضيا بما دونها من المطامع فلما رأيا انهما لا يبلغانها وأمير المؤمنين عليه صلوات الله على سدة الخلافة نهضا بعصيانه بدعوى المطالبة بدم عثمان ودعيا الناس الى حربه وكان من زعمه محاربيه

وَمَا هُمَا أَمَّلَاهُ عَامِلَانِ لَهُ ... تُرِي مَسَاءَتَهُ مَنْ لَيْسَ رَائِيهَا
إِنِّي ٱسْتَشَبْتُهُمَا قَبْلَ ٱلْقِتَالِ فَمَا ... ثَابَا وَحَرْبُهُمَا مَا زِلْتُ مُرْجِيهَا
وَنَعْمَتِي غَمَطَاهَا فِي عِنَادِهِمَا ... قَدْ كُنْتُ مِنْ فَضْلِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ مُعْطِيهَا

عداء معاوية لأمير المؤمنين

أَمَّا مُعَاوِيَةٌ وَٱلشَّامُ طُعْمَتُهُ ... وَبَيْنَ جَنْبَيْهِ آمَالٌ يُوَخِّيهَا(١)
فَلَا سَبِيلَ إِلَى ٱسْتِرْضَائِهِ أَبَداً ... لِبَيْعَةِ ٱلْمُرْتَضَى حَتَّى يُؤَدِّيهَا
فَٱلْمُرْتَضَى قَاتِلٌ جِدّاً لَهُ وَأَخاً ... لَمَّا ٱنْبَرَى لِعِدَاةِ ٱلدِّينِ يُرْدِيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى قَاهِرٌ أَيْضاً أَبَاهُ بِهَا ... تِيكَ ٱلْحُرُوبِ فَسَلْ إِنْ شِئْتَ بَدْرِيهَا
فَكَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْهُ كِفَايَتُهَا ... وَٱلْخَوْفُ مِنْ عَدْلِهِ قَدْ كَانَ غَاشِيهَا
وَلَمْ يَكُنْ جَاهِلاً مَعْ ذَا حَقِيقَةَ حَا ... لِ كُلِّ ذِي بَصَرٍ فِي ٱلنَّاسِ رَائِيهَا
بِأَنَّ لَا ٱلْمُرْتَضَى يَرْضَى إِمَارَتَهُ ... فِي ٱلشَّامِ كَلَّا وَلَا ٱلْإِسْلَامُ رَاضِيهَا
وَلَا هُوَ ٱلْمُكْتَفِي بِٱلشَّامِ يُقْنِعُهُ ... مِنْهَا ٱلتَّنَعُّمُ فِي هَانِي مَغَانِيهَا

---

(١) أما معاوية بن أبي سفيان أمير الشام فعداوته للمرتضى يدرك سرّه القاري اللبيب بالبداهة بعد الذي قدمناه من مشاكل الخلافة على عهد عثمان بن عفان وكل ما يقال فيه هو ان هذا الرجل كان أقدر رجالات الامويين بل كان داهية المسلمين في ذلك الحين وعندي انه هو الذي أوجد في صدور بني أمية فكرة استعادة المجد الذي كان لهم في الجاهلية وقد بدأ عمله ان توسع في الشام واستفحل أمره على عهد عمر فيها حتى لم يستطع عزله مع ما عرف عن شدة عمر على عماله وعزله بعضهم ولم يأتوا بعض ما أتى معاوية في الشام والذي يعرف عمر بن الخطاب وسهره على عماله وإباءه عليهم الترف واقتناء الاموال وتحزيب الاحزاب وسكوته عن معاوية وقد فعل هذا جميعه لا يسعه الا القول بأن عمر كان يدرك حقّ الادراك بأنّ عزل معاوية عن الشام ليس من الهنات الهينات . ومن الغريب ان هذه النظرية البسيطة التي يدركها كل واقف على تاريخ صدر الاسلام ممن بانبائه قد فاتت حضرة الشيخ محمد الخضري في محاضراته فجعل بقاء معاوية في الشام على عهد عمر شاهداً على كفاءة الرجل ورضاء عمر عنه فتأمل . ولا أكون مبالغاً اذا قلت أنّ عمر لم يترك عند مقتله الامر شورى للستة الا حذراً من معاوية واستفحال أمره وقد أدرك بثاقب رأيه بأنه لو عهد بالخلافة الى واحدٍ وكان الواحد غير عثمان لأثار معاوية الفتنة من ذلك الزمان . مع ان الايام أظهرت ان ترك عمر الامر للستة هو الذي سبب كل هذه المتاعب التي نحن بصددها وهو الذي مهد لمعاوية طريق الفوز بالخلافة فقبض على خناقها وأورثها للامويين واني لمعتقد اعتقاداً راسخاً ان القوم ما أجمعوا على عثمان عند الشورى العمرية الا

وَهُوَ ٱلزَّعِيمُ ٱلْمُرَجَّى مِنْ أُمَيَّةَ كَيْ ... يُعِيدَ سُلْطَتَهَا ٱلْعَلْيَا وَيُسْنِيهَا
وَحَوْلَهُ عُصْبَةٌ تَبْكِي وَتَنْدُبُ عُثْمَاناً ... وَإِنْ سَكَتَتْ يَسْعَى لِيُبْكِيهَا
وَكَانَ مَنْ تَطْلِبُ ٱلدُّنْيَا تُمَالِئُهُ ... عَلَى هَوَاهُ كَمَا أَضْحَى يُمَالِيهَا
وَلَمْ تَكُنْ تُرْفَةُ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ... لِلْمُرْتَضَى كَيْ بِهَا يُرْضِي مُحِبِّيهَا
وَفِيهِ أَقْوَالُهُ تَتْرَى وَنَنْظِمُ مِنْهَا ... مَا يُشِيرُ إِلَى مَنْثُورِ بَاقِيهَا
فَقَالَ: يَا ٱبْنَ أَبِي سِفْيَانَ قَدْكَ فَخَفْ ... رَبَّ ٱلشَّرِيعَةِ وَٱسْتَعْصِمْ بِهَادِيهَا
فَٱللّٰهُ قَدْ جَعَلَ ٱلدُّنْيَا بِزُخْرُفِهَا ... لِمَا يَلِيهَا فَلَا يَخْدَعْكَ زَاهِيهَا
كَمَا ٱبْتَلَى أَهْلَهَا فِيهَا لِيَعْلَمَ مَنْ ... أَعْمَالُهَا مُحْسِنِيهَا مِنْ مُسِيئِيهَا
وَمَا خُلِقْنَا لِذِي ٱلدُّنْيَا لِنَطْلُبَهَا ... لِنَفْسِهَا وَنُقَضِّي ٱلْعُمْرَ تَرْفِيهَا
وَإِنَّمَا قَدْ وُجِدْنَا فِي مَحَابِجِهَا ... لِنُبْتَلَى بِرَزَايَاهَا وَنُخْلِيهَا
وَلَا أُمِرْنَا بِسَعْيٍ دَائِمٍ لِمَلَذَّاتِ ٱلْحَيَاةِ ... فَنُمْسِي مُسْتَلِذِّيهَا
بِكَ ٱلْإِلٰهُ ٱبْتَلَانَا وَٱبْتَلَاكَ بِنَا ... عَافَانِيَ ٱللّٰهُ مِنْ بَلْوَى أُرَانِيهَا
فَقَدْ غَدَوْتَ عَلَى ٱلدُّنْيَا لِتَطْلُبَ نُعْمَاهَا ... وَنَفْسُكَ شَطَّتْ فِي تَشَهِّيهَا

بتأثير معاوية ونفوذه على الناس كما سبق القول وان عثمان لم يستسلم للامويين حتى استحكمت الفوضى في بلاد المسلمين الا بتأثير معاوية أيضاً . واجمال القول ان معاوية كان من الدهاء على أعظم جانب وكان يستحل كل أمر للفوز بغرضه وكان يعرف كيف يستجلب الناس اليه بالهبات والمواعيد ولا عجب اذا التفوا من حوله والناس لا يزالون ناساً يعبدون منافعهم ويسعون وراء مصلحتهم

هذه حال معاوية بن أبي سفيان مع سيدنا علي أمير المؤمنين عليه صلوات الله من وجهة طمعه بالخلافة اما من الوجهة النفسية الشخصية فقد كان معاوية شخصياً اعدى عدو لامير المؤمنين لانه واتره باخيه حنظلة وخاله الوليد وجده عتبة قتلهم عليه صلوات الله بيمينه القاهرة عندما كانوا يحاربون رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفوف المشركين ولم يخرج معاوية عن كونه احد العرب الموتورين باعز الناس اليه وهم الاخ والخال والجد فلا عجب اذا كان في نفسه من الحقد على قاتلهم ما لا يمحوه كرور الايام فكيف يرضى ان يخضع لهذا القاتل ويطاطيء له رأسه اذا ما أحس ان باستطاعته مقاومة سلطانه وضعضعة اركان خلافته ؟ ؟

ومن تدبر حال معاوية وظروفه ومطامعه واستعداده على حوله وسلطانه وتمكنه من أهل الشام وكثيرين من كبار العرب وعلى توسعه بالعطاء والمنع يظهر له جلياً ان المستحيل اقرب من رضائه ببيعة سيدنا علي عليه صلوات الله وانه سيحارب البيعة العلوية جهده وما وجد الى الحرب سبيلا

وما كان معاوية وحده في الشام كفؤاً لمناوأة سيدنا أمير المؤمنين ومكانته العالية في نفوس

لَهَا تَأَوَّلْتَ آيَاتِ الْكِتَابِ عَلَى ... مَا تَشْتَهِيهِ فَحَالَتْ عَنْ مَعَانِيهَا

طَلَبْتَنِي بِالَّذِي لَمْ أَجْنِهِ بِيَدِي ... وَلَا لِسَانِي فَقُلْتَ الْكِذْبَ تَمْوِيهَا

عَصَبْتَ مَعْ مَنْ بِأَرْضِ الشَّامِ مَا ثَمَّةَ ... بِي لَمْ أَكُنْ وَاسْمُ رَبِّ الْخَلْقِ جَانِيهَا

وَرَاحَ عَالِمُكُمْ يُغْرِي الْجَهُولَ بِعُدْ ... م وَإِنِّي فَقُبِّحَتِ الْغُرْوَى وَمُغْرِيهَا

نَازِعْ قِيَادَكَ شَيْطَانًا يُخَادِعُهُ ... إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَسْتَغْوِي مُطِيعِيهَا

وَاصْرِفْ بِوَجْهِكَ لِلْأُخْرَى وَنَحْنُ لَهَا ... نَسْعَى وَقَدْ بَلَغَ الْإِسْعَادَ سَاعِيهَا

وَاحْذَرْ لَعَمْرُكَ أَنْ تُمْنَى بِقَارِعَةٍ ... تَلْقَى الْأُصُولَ وَأَسْرِعْ أَنْ تُلَاشِيهَا

أُولِي أَلِيَّةَ صِدْقٍ غَيْرَ فَاجِرَةٍ ... بِاللهِ يَا ابْنَ أَبِي سُفْيَانَ أُبْلِيهَا

لَئِنْ تُجَمِّعُنَا الْأَقْدَارُ أَنْزِلُ فِي ... ذُرَاكَ مُسْتَمْكِنًا مِنْ ضَيْعِ أَهْلِيهَا

حَتَّى الْمُهَيْمِنُ يَقْضِي بَيْنَنَا نَصَفًا ... وَالنَّاسُ يَكْفِيهِمُ طُغْيَانَ طَاغِيهَا

مَا فَاجَأَ الْمُرْتَضَى فِي ذَا مُعَاوِيَةً ... تَحَدِّيًا لِيُثِيرَ الْحَرْبَ يُورِيهَا

وَلَا أَرَادَ بِذَاكَ الْإِنْتِقَامَ لَهَا م ... شِيمٍ وَقَدْ عَمَّ مِنْ عُثْمَانَ شَاكِيهَا

لَكِنْ بَوَادِرُ شَرٍّ مِنْهُ قَدْ بَدَرَتْ ... وَلَمْ يَفُتْ عِلْمَهُ مَا قَدْ يُتَالِيهَا

وَمَا الْعَلِيُّ لِيَرْضَى فِي خِلَافَتِهِ ... أَنْ لَا تَعُودَ رَعَايَاهُ لِمَاضِيهَا

المسلمين لاتقاوم لولاعمال عثمان وكلهم من الامويين أو من المتشيعين لهم وهم مسيطرون على البلاد الاسلامية يسيرون الناس على مايريدون شأن الحكام مع المحكومين في كل زمان ومكان

* وقد نشرنا في حاشية سبقت الكتاب المختصر الذي ارسله سيدنا علي عليه صلوات الله الى معاوية يطلب منه ان يبايع وان يرسل اشراف الشام الى المدينة المنورة للبيعة وهذا الكتاب يدل على ان سيدنا علي لم يفاجيء معاوية بالعزل خلافاً لما يزعم بعض رواة التاريخ وتابعهم الشيخ الخضري وبنى عليه ما بنى من ملامة سيدنا أمير المؤمنين لتعجله بالعزل اذ لم يكن فيه مايشير الى العزل . واما معاوية فقد كان جوابه انه شجب البيعة وارسل الى طلحة والزبير يطمعهما بالخلافة على ما سترى حينئذٍ رأى سيدنا علي بحكمته ان الاغضاء عن معاوية أو تجاهل أمره اسى من الحكمة في شيء وما من فائدة من مجاملة رجل لا يقنع بشيء دون الخلافة فكتب له الكتاب التالي بعد أن فرغ عليه صبره وهاك نصه :

« أما بعد فإن الله سبحانه جعل الدنيا لما بعدها ، وابتلى فيها اهلها ، ليعلم أيهم أحسن عملاً ، ولسنا للدنيا خلقنا ، ولا بالسعي فيها أمرنا ، وانما وضعنا فيها لنبتلى فيها ، وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي ، فجعل أحدنا حجةً على الآخر ، فعدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن ، وطلبتني بما لم تجن يدي ولساني ، وعصبته أنت وأهل الشام بي ، وألب عالمكم جاهلكم ، وقائمكم قاعدكم ،

فَلَا تَمُوتُ ذِئَابُ ٱلْغَابِ جَائِعَةً　　وَلَا ٱلْخِرَافُ ذِئَابُ ٱلْغَابِ تُفْنِيهَا

وَلَا يَنَامُ وَمِنْ حَوْلَيْهِ تُنْصَبُ أَشْرَاكُ ٱلْمَكَائِدِ سَاهِيَ ٱلْعَيْنِ غَافِيهَا

وَإِنَّهُ لَمُدَاوٍ دَاءَ أُمَّتِهِ　　بِطِبِّهِ وَٱلشِّفَا مِنْ عِنْدِ بَارِيهَا

وَإِنْ تَلُمْهُ أُنَاسٌ فِي سِيَاسَتِهِ　　إِلَى ٱلْمَلَامَةِ كَانَ ٱلْجَهْلُ دَاعِيهَا

ابتداء النزاع بين معاوية وأمير المؤمنين

تُسْعُونَ يَوْماً لَقَدْ مَرَّتْ لِمَقْتَلِ عُثْمَانَ تُعِدُّ لِذِي ٱلدُّنْيَا عَوَادِيهَا(١)

بِهَا ٱلْخِلَافَةُ قَدْ بَاتَتْ مُهَدَّدَةً　　بِثَوْرَةٍ خَابَ مَنْ يَرْجُو تَوَقِّيهَا

فَقَدْ تَلَقَّى ٱبْنُ هِنْدٍ نَعْيَ صَاحِبِهِ　　وَقَالَ: قَتَلَتْهُ مَا ٱلسِّلْمُ تَالِيهَا

وَمَا أَنَا تَارِكٌ ثَأْرَ ٱبْنِ عَمِّيَ بَلْ　　عِدَاتُهُ بِشَبَا سَيْفِيَ أُلَاشِيهَا

وَصَاحَ فِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلشَّامِيِّ: وَا كَرَبِي　　لِقَتْلَةٍ كَانَ عُثْمَانٌ مُعَانِيهَا

فتق الله في نفسك ، ونازع الشيطان قيادك ، واصرف الى الآخرة وجهك ، فهي طريقنا وطريقك ، واحذر يصيبك الله منه بعاجل قارعة تمس الأصل وتقطع الدابر ، فني اولي لك بالله الية غير فاجرة ، لئن جمعتنا واياك جوامع الاقدار ، لا أزال بباحتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين »

ولا ضرورة الى الاشارة بان معاوية كان قد تسلح بقتله بدم عثمان وقد عصبه بسيدنا علي ليحمل الناس على عدائه ويسوقهم الى قتاله وأوّل آيات القرآن على هواه وكان ما كان ....

(١) لم يكن معاوية يجاهل أمر الثورة القائمة على عثمان ولا اعتقد انه لم يكن مستطيعاً ان يكشف عنه او على القليل ان يجاهد لدفع الاذى عنه ولكنه لم يفعل ولعله رأى مصلحته بترك الامور للاقدار تتصرف فيها كيف تشاء . وظلّ معاوية يترقب أنباء المدينة حتى ورده كتاب مروان بن الحكم ينعي له به عثمان وهاك نصه : « وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوة العزم ، وصلاح النية ، ومنّ عليك بمعرفة الحقّ واتباعه ، فاني كتبت اليك هذا الكتاب بعد قتل عثمان أمير المؤمنين عليه السلام ، وأيّ قتلة قُتل ؟ نحر كما ينحر البعير الكبير عند اليأس من ان ينوء بالحمل ، بعد أن نُقبت صفحته بطيّ الراحل ، وسير الهجير ، واني معلمك بخبره غير مقصر ولا مطيل ، انّ القوم استطالوا مدّته ، واستقلوا ناصره ، واستضعفوه في بدنه ، واملوا بقتله بسط ايديهم فيما كان قبضه عنهم ، واعصوصبوا عليه ، فظلّ محاصراً قد منع من صلاة الجماعة ، وردّ المظالم ، والنظر في امور الرعية ، حتى كأنّه هو فاعلٌ لما فعلوه ، فلما دام ذلك اشرف عليهم ، فخوّفهم الله وناشدهم ، وذكرهم مواعيد رسول الله ، وقوله فيه ، فلم يجحدوا فضله ولم ينكروه ، ثمّ رموه بأباطيل اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعة الى قتله ، فاظهر لهم التوبة مما كرهوا ، ووعدهم الرجعة الى ما احبوا ، فلم يقبلوا ذلك ، ونهبوا داره ، وانتهكوا حرمته ، ووثبوا عليه فسفكوا دمه ، وانقشعوا عنه انقشاع سحابة قد افرغت ماءها ، منكفئين قبل ابن أبي طالب ، انكفاء الجراد أبصر المرعى ،

وَنَكْبَةٌ دَهَمَتْ ذَا ٱلْيَوْمَ أُمَّتَنَا هَيْهَاتِ مَا نَكَبَاتُ ٱلدَّهْرِ تَحْكِيهَا
فَٱبْكُوا مَعِي يَاذَوِي ٱلتَّقْوَى خَلِيفَتَكُمْ مُضَرَّجاً بِدِمَاهُ غَائِصاً فِيهَا
وَذَا قَمِيصُ ٱبْنِ عَفَّانٍ وَذَا دَمُهُ عَلَيْهِ أَفْعَالُ مَنْ أَرْدَوْهُ يَنْعِيهَا
وَذِي أَصَابِعُ ذَاتِ ٱلصَّوْنِ نَائِلَةٍ أَمَامَكُمْ كَانَ سَيْفُ ٱلظُّلْمِ فَارِيهَا
وَكَانَ يَبْكِي لِيَسْتَبْكِي ٱلْعُيُونَ عَلَى عُثْمَانَ وَٱلنَّارُ فِي ٱلأَلْبَابِ يُلْظِيهَا
حِقْداً عَلَى مَعْشَرِ ٱلثُّوَّارِ ثُمَّ يُنَا دِي ٱلنَّاسَ لِلثَّأْرِ شَامِيهَا وَمَكِّيهَا
ثُمَّ يَقُولُ : وَلَوْلَا حَضُّ حَيْدَرَةٍ عَلَى ٱلْجَرِيمَةِ مَا ٱلثُّوَّارُ تُمْضِيهَا
فَٱلثَّأْرُ عِنْدَ عَلِيٍّ وَهْوَ قَاتِلُهُ وَحَرْبُهُ كُلُّ ذِي دِينٍ يُوَخِّيهَا
بِمِثْلِ ذَا كَانَ يَسْتَهْوِي ٱلنُّفُوسَ إِلَى عَدَاوَةِ ٱلْمُرْتَضَى ظُلْماً وَيُغْرِيهَا
بِذَاكَ أَشْعَلَ نَارَ ٱلْحِقْدِ أَلْهَبَهَا فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ كَيْ تُبْدِي تَعَصِّيهَا
لِإِمْرَةِ ٱلْمُرْتَضَى كَيْمَا تُعَارِضُ بَيْـ ـعَةً تَحِقُّ لَهُ شَرْعاً وَتُلْغِيهَا
وَمَا ٱكْتَفَى بِأَهَالِي ٱلشَّامِ أَفْسَدَهَا عَلَى خِلَافَتِهِ حَتَّى تُنَاوِيهَا

فأخلق ببني أمية ان يكونوا من هذا الامر بمجرى العيوق، ان لم يثأره ثائر ، فان شئت أبا عبد الرحمن ان تكونه فكنه والسلام » اه

فلما انتهى هذا الكتاب الى معاوية شمر عن ساعد العزم طالباً الامر لنفسه متلمحاً بطلب دم عثمان واعدّ للامر عدته بنفسه ووضع له الخطط التي حسبها موصلةً لغرضه وكان اول مافعله ان خرج الى المسجد فنعى للناس عثمان واكبر أمر الجريمة التي افضت الى قتله وبكى فاستبكى الناس ثمّ عطف عليهم واستمالهم الى ممالئته بالمطالبة بدم عثمان فعاهدوه على ذلك غاضبين على القتلة . ثمّ جيء الى معاوية بقميص عثمان وهو مغموس بدمه واصابع نائلة التي بترت عند ماتلقت ضربة سيف قاتله فملأ المنبر وأعانهما على أهل الشام فازدادوا حقداً على قاتليه ورغبةً في المطالبة بدمه وكان يقول ان دم عثمان معصوب بعنق ابن ابي طالب الذي حضّ القتلة على قتله رغبةً في نيل الخلافة لنفسه

وبادر معاوية فارسل الى عمال الامصار وهم على ماعامت اما من الامويين واما من اشياعهم يحضهم على افساد الناس ومنعهم من بيعة علي وانهاضهم الى المطالبة بدمه المعصوب بعنق ابن ابي طالب على زعمه فقام عمال الامصار بما أشار معاوية مستعملين بذلك نفوذهم كحكام

ولم يفت معاوية ان مساعيه لايكون لها التأثير الذي يريده مالم يكن له مناصرون في المدينة المنورة وهي عاصمة الخلافة وفيها أهل الحلّ والعقد ورأى ان افضل من يستعين بهم على سيدنا علي عليه صلوات الله فيها الزبير وطلحة لما لهما من الحول والطول لانهما من العشرة المشهود لهم بالجنة ومن الستة الذين ادخلهما عمر في الشورى فصار لهم حقّ بالخلافة فكتب الى الزبير كتاباً هذا نصه:

بَل ٱسْتَطَالَ إِلَى ٱلأَمْصَارِ شَجَّعَهَا ... عَلَى ٱلْعَصَاوَةِ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا
وَإِنَّ أَعْوَانَهُ سَارَتْ مُوَزَّعَةً ... عَلَى ٱلْمَمَالِكِ شَرْقِيهَا وَغَرْبِيهَا
كَانَتْ تُنَادِي بِثَارَاتِ ٱلْقَتِيلِ وَتَسْـ ... ـتَبْكِي ٱلْعُيُونَ عَلَيْهِ فِي تَبَاكِيهَا
ثُمَّ تَقُولُ: عَلِيٌّ كَانَ قَاتِلَهُ ... حُبًّا بِإِمْرَتِهِ يَبْغِي تَوَلِّيهَا
وَإِنَّ قَتْلَةَ عُثْمَانٍ بِذِمَّتِهِ ... وَمِنْهُ لَا مِنْ سِوَاهُ نَحْنُ نَبْغِيهَا
وَٱلنَّاسُ هَيْهَاتِ تَعْنَى بِٱلْحَقَائِقِ فِي ٱلأَ ... قْوَالِ إِنْ أَحْسَنَ ٱلتَّلْفِيقَ رَاوِيهَا
فَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ أَنْ تَسْتَنِيمَ إِلَى ... خَدِيعَةٍ سَمِعَتْهَا مِنْ مَفَاهِيهَا
وَأَنْ تَهُبَّ إِلَى ثَأْرِ ٱلْخَلِيفَةِ مَعْ ... أُمَيَّةٍ وَشَنِيعُ ٱلْقَتْلِ مُوذِيهَا

« الى الزبير بن العوام من معاوية بن أبي سفيان سلامٌ عليك ، اما بعد فانك الزبير بن العوام ابن أبي خديجة ، وابن عمة رسول الله ، وحواريه ، وسلفه ، وصهر أبي بكر ، وفارس المسلمين ، وانت الباذل في الله مهجته بمكه عند صيحة الشيطان ، بعثك المنبعث ، فخرجت كالثعبان المنسلخ ، بالسيف المنصلت ، تخبط خبط الجمل الوديع ، كلّ ذلك قوة ايمان ، وصدق يقين ، وسبقت لك من رسول الله البشارة بالجنة ، وجعلك عمر أحد المستخلفين على الامة ، واعلم يا أبا عبد الله ، انَّ الرعية اصبحت كالغنم المتفرقة لغيبة الراعي ، فسارع رحمك الله الى حقن الدماء ، ولمّ الشعث ، وجمع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، قبل تفاقم الامر ، وانتشار الامة ، فقد اصبح الناس على شفا جرف هار ، عما قليل ينهار ، ان لم يرأب ، فشمر لتأليف الامة ، وابتغ الى ربك سبيلاً ، فقد احكمت الامر من قبلي لك ولصاحبك (ويريد طلحة) على ان الامر للمقدم ثمَّ لصاحبه من بعده ، جعلك الله من أئمة الهدى ، وبغاة الخير والتقوى والسلام » اه

وكتب الى طلحة كتاباً هذا نصه : « من معاوية بن أبي سفيان الى طلحة بن عبيد الله سلامٌ عليك ، أمَّا بعد فانك اقلُّ قريش في قريش وتراً ، مع صباحة وجهك ، وسماحة كفك ، وفصاحة لسانك ، فانت بازاء من تقدمك ، في السابقة ، وخامس المبشرين بالجنة ، ولك يوم أحد وشرفه وفضله ، فسارع رحمك الله الى ماتقلدك الرعية من أمرها ، مما لا يسعك التخلف عنه ، ولا يرضي الله منك الا بالقيام به ، فقد أحكمت لك الامر قبلي ، وأما الزبير فغير متقدّم عليك بفضل ، وايكما قدّم صاحبه فالمقدّم الامام والامر من بعده للمقدّم له ، سلك الله بك قصد المهتدين ، ووهب لك رشد الموفقين والسلام » اه

وما اكتفى معاوية بهذين الكتابين بل كتب كتباً اخرى الى وجهاء الامويين في المدينة وباقي الامصار تشير مبانيها الى مافي نفس الرجل من الاطماع الى الخلافة وهاك نص كتابه الى مروان بن الحكم « أما بعد فقد وصل اليَّ كتابك بشرح خبر أمير المؤمنين ، وما ركبوه به ، ونالوه منه ، جهلاً بالله ، وجرأةً عليه ، واستخفافاً بحقه ، ولأماني لوّح الشيطان بها في شرك الباطل ، ليدهدههم في اهويات الفتن ، ووهدات الضلال ، ولعمري لقد صدق عليهم ابليس ظنه ، ولقد قصبهم بانشوطة فخه ، فعلى رسلك أبا عبد الله يمشي الهوينا ويكون اولاً ، واذا قرأت كتابي هذا فكن كالفهد

وَأَنْ تُعَاصِيَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّـــاً مِثْلَمَا قَدْ قَضَى بَغْيَاً مُعَصِّيهَا
كَذَا مُعَاوِيَةٌ مَا فَاتَ طَلْحَةَ وَٱلـــزُّبَيْرَ مَنَّاهُمَا ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِيهَا
بِرُقْعَةٍ قَالَ فِيهَا: بَيْعَتِي لَـكُمَا وَٱلشَّامُ طَوْعُـكُمَا فِي ٱلْحَالِ تُعْطِيهَا
فَعَجِّلَا وَٱطْلِبَاهَا فِي ٱلْعِرَاقِ فَمَا بِهَا يَضَنُّ عَلَى زَعْمِي عِرَاقِيهَا
وَلِلْعَلِيِّ لَقَـدْ أَوْفَى رِسَالَتَهُ يَقُولُ: مَالَكَ وَٱلثُّوَّارُ تَحْمِيهَا
فَأَسْرِعْ إِلَيْنَا بِهَا أَوْ أَنْتَ حَامِلُهَا عَلَى ٱلْجَرِيمَةِ فَٱسْتَنْظِرْ تَوَالِيهَا

لا يصطاد الا غيلةً ، ولا يتشازر الا عن حيلةٍ ، وكالثعلب لا يفلت الا روغاناً ، واخفِ نفسك منهم اخفاء القنفذ رأسه عند لمس الاكفّ ، وامتهن نفسك امتهان من ييأس القوم نصره وانتصاره وابحث عن امورهم بحث الدجاجة عن حب الدخن عند قناسها ، وانغل الحجاز فاني منغل الشام والسلام » اه

وكتب الى سعيد بن العاص وهو كما تعلم اموي وكان أمير الكوفة كتاباً وهذا نصه :
« أما بعد فان كتاب مروان ورد عليّ من ساعة وقعت النازلة ، يقبل به البرد بسير المطيّ الوجيف ، تتوجس توجس الحية الذكر خوف ضربة الفأس وقبضة الحاوي ، ومروان الرائد لا يكذب أهله ، فعلام الافكاك يا ابن العاص ، ولات حين مناص ؟ ، ذلك انكم يابني امية عما قليل تسألون أدنى العيش من أبعد المسافة ، فينكركم من كان منكم عارفاً ، ويصدّ عنكم من كان لكم واصلاً ، متفرقين في الشعاب ، تتمنون لمظة المعاش ، انّ امير المؤمنين (ويريد به عثمان) عتب عليه فيكم ، وقتل في سبيلكم ، ففيم القعود عن نصرته ، والطلب بدمه ! ، وانتم بنو ابيه ذوو رحمه واقربوه وطلاب ثاره ، أصبحتم متمسكين بشظف معاشٍ زهيد ، عمّا قليل ينزع منكم ، عند التخاذل وضعف القوى ، فاذا قرأت كتابي هذا فدبّ دبيب البرء في الجسد النحيف ، وسر سير النجوم تحت الغمام ، واحصد حصد الذرة في الصيف لانجحارها في الصرد ، فقد ايدتكم باسد رأي والسلام » اه

وكتب الى عبد الله بن عامر ما نصه « أما بعد فانّ المنبر مركب ذلول ، سهل الرياضة ، لا ينازعك اللجام ، وهيهات ذلك الا بعد ركوب اثباج المهالك ، واقتحام امواج المعاطب ، وكأني بكم يابني امية شعاراً يركّ كالاوارك تقودها الحداة ، أو كرخم الخندمة تذرف خوف العقاب ، فثب الآن رحمك الله قبل أن يستشري الفساد ، ويدبّ السوط جديداً ، والجرح لمّا يندمل ، ومن قبل استضراء الاسد والتقاء لحييه على فريسته ، وساور الامر مساورة الذئب الاطلس كسيرة القطيع ، ونازل الرأي ، وانصب الشرك ، وارم عن تمكن وضع الهناء مواضع النقب ، واجعل اكبر عدتك الحذر ، واحدّ سلاحك التحريض ، واغضِ عن العوراء ، وسامح اللجوج ، واستعطف الشارد ، ولاين الاشوس ، وقوّ عزم المريد ، وبادر العقبة ، وازحف زحف الحية ، واسبق قبل ان تسبق ، وقم قبل ان يقام لك ، واعلم انك غير متروك ولا مهمل ، فني لكم ناصح امين والسلام » اه

وكتب الى الوليد بن عقبة ما نصه: « يا ابن عقبة ، كنّ الجيش ، وطيب العيش ، اطيب من سفع سموم الجوزاء عند اعتدال الشمس في افقها ، ان عثمان اخاك اصبح بعيداً منك ، فاطلب لنفسك ظلاً تستكنّ به ، اني أراك على التراب رقوداً ، وكيف بالرقاد بك ، لارقاد لك ، فلو قد استتبّ هذا الأمر لمريده ، ألفيت كشريد النعام ، يفزع من ظلّ الطائر ، وعن قليل تشرب الرنق »

وَإِنَّ أُمْرَتَكَ ٱلْعَلْيَا أُقَاوِمُهَا   وَلَنْ أَزَالَ مَدَى ٱلْأَيَّامِ عَاصِيهَا
وَإِنَّنِي مُنْذِرٌ مِنْكَ ٱلشَّهِيدَ وَلَا   تَرَى أُمَيَّةُ إِلَّا أَنْتَ عَادِيهَا
وَإِذْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى هٰذَا وَذَاكَ وَمَا ٱلْـ   ـحُسْنَى بِمُجْدِيَةٍ نَفْعًا لِوَاخِيهَا
وَقَدْ تَعَذَّرَ بِٱلْمَعْرُوفِ دَمْلُ دَمَا   مِيلِ ٱلْخِلَافَةِ نَادَى صِرْتُ أَكْوِيهَا
وَآذَنَ ٱلنَّاسَ بِٱلْحَرْبِ ٱلْعَوَانِ عَلَى   أَهْلِ ٱلشَّآمِ وَمَنْ وَالَى مُعَاوِيهَا
وَقَالَ: قَلَّبْتُ بَطْنَ ٱلْأَمْرِ مُفْتَكِرًا   لِظَهْرِهِ بِخَوَافِيهِ أُجَلِّيهَا

وتستشعر الخوف ، اراك فسيح الصدر ، مسترخي اللبّ ، رخو الحزام ، قليل الاكترات ، وعن قليل يجتثّ اصلك والسلام » اه

وكتب الى يعلى بن أمية مانصه : « حاطك الله بكلاءته ، وايدك بتوفيقه ، كتبت اليك هذه صبيحة ورد عليّ كتاب مروان يخبر قتل أمير المؤمنين ، وشرح الحال فيه ، وان أمير المؤمنين طال به العمر حتى نقصت قواه ، وثقلت نهضته ، وظهرت الرعشة في اعضائه ، فلما رأى ذلك اقوام لم يكونوا عنده موضعاً للامامة والامانة وتقليد الولاية ، وثبوا له ، واكبوا عليه ، فكان أعظم مانقموا عليه ، وعابوه به ، ولايتك اليمن ، وطول مدتك عليها ، ثم ترامى بهم الامر حالاً بعد حال ، حتى ذبحوه ذبح النطيحة مبادراً بها الفوت ، وهو مع ذلك صائم ، معانق المصحف ، يتلو كتاب الله فيه ، عظمت مصيبة الاسلام بصهر رسول الله ، والامام المقتول على غير جرم سفكوا دمه ، وانتهكوا حرمته ، وأنت تعلم انّ بيعته في اعناقنا ، وطلب ثاره لازم لنا ، فلا خير في دنيا تعدل بنا عن الحقّ ، ولا في امرة توردنا النار ، وانّ الله حلّ ثناؤه لا يرضى بالتعذير في دينه ، فشمر لدخول العراق ، فامّا الشام فقد كفيتك اهلها ، واحكمت امرها ، وقد كتبت الى طلحة بن عبيد الله ان يلقاك بمكة ، حتى يجتمع رايكما على اظهار الدعوة ، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم ، وكتبت الى عبد الله بن عامر يمهد لكم العراق ، حزونة عقابها ، واعلم يا ابن امية ان القوم قاصدوك باديء بدء لاستنزاف ماحوته يداك من المال ، فاعلم ذلك واعمل على حسبه ان شاء الله والسلام » اه

اقول وما نشرت كتب معاوية هذه ومثلها كثير مما كتبه الى زعماء الامويين وانصارهم صبيحة ورود نعي عثمان اليه الا لبيان فساد زعم الزاعمين بانّ سيدنا علي عليه صلوات الله تعجل بمقاطعة معاوية وانه لو سالمه لأمن شره حتى ان جناب الشيخ محمد الخضري في محاضراته التي وضعها بعد هذه الحوادث بالف وثلاثمائة سنة وقع في هذا الخطأ ولامه عليه صلوات الله على تلك المقاطعة وكان من رأيه ان سيدنا علي كان من الواجب ان يقتصّ من الثائرين صبيحة يوم بيعته وان يسالم معاوية والامويين ويقرّهم على مايديهم من الامارات وبعض حالهم ما تقرأه في كتب معاوية فتأمل...

على ان سيدنا علي عليه صلوات الله مع مايعلم من خوافي معاوية وما يكنه صدره من المطامع البعيدة ارسل اليه يعلمه بيعته بجواب سبق لنا نشره في حاشية سابقة فكان جواب معاوية له انه يأبى بيعته وانه يعصب فيه دم عثمان أو يسلمه الثائرين الى آخر ماقال وكرر الكتابة الى الزبير في معنى ماكتبه له ولطلحة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم الى عبد الله الزبير أمير المؤمنين من معوية بن أبي سفيان سلام

وَقَدْ حُرِمْتُ لَذِيذَ ٱلنَّوْمِ مِنْ قَلَقِي   وَفِيهِ كَمْ مِنْ لَيَالٍ كُنْتُ مُحْيِيهَا
فَمَا وَجَدْتُ سِوَى هَوْلِ ٱلْقِتَالِ لِأَعْـــدَاءِ ٱلْحَنِيفَةِ أَوْ عِصْيَانِ هَادِيهَا
وَإِنَّ نَارَ ٱلْوَغَى عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ   نَارِ ٱلْجَحِيمِ ٱلَّتِي أَخْشَى تَلَظِّيهَا
وَإِنَّ مَوْتَاتِ ذِي ٱلدُّنْيَا لَأَهْوَنُ مِنْ   مَوْتَاتِ آخِرَةٍ مَا زِلْتُ أَتَّقِيهَا
كَذَاكَ أَفْتَى بِحَرْبِ ٱلشَّامِ حَيْدَرَةٌ   فَتْوَى أَخُو ٱلرَّأْيِ وَٱلتَّفْكِيرِ يُفْتِيهَا
فَقَابَلَتْهَا عِبَادُ ٱللهِ رَاضِيَةً   وَلَمْ يَكُنْ غَيْرُ مَا يُرْضِيهِ يُرْضِيهَا

مسير طلحة والزبير بعائشة الى البصرة

وَبَيْنَمَا يَتَهَيَّا ٱلْمُرْتَضَى لِجِهَا   دِ ٱلشَّامِ مِنْ بَعْدِ مَا أَبْدَتْ تَعَصِّيهَا(١)

عليك، أما بعد، فاني قد بايعت لك أهل الشام فاجابوا، واستوثقوا كما يستوثق الحلب، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك اليهما ابن ابي طالب، فانه لاشيء بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فاظهرا الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس الى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير، اظفركما الله وخذل مناويكما » اه. وافلحت هذه الدسيسة من معاوية اذ لم يشكّ الزبير وطلحة بصدقه في بيعتهما ونشطا الى مناوأة سيدنا علي عليه صلوات الله بعد أن خيبهما بولاية الكوفة والبصرة وسارا الى مكه المكرمة وانضما الى عائشة وتبعهما مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير واخذوا يستعدون الى المسير الى العراق لاخذ بيعة اهلها ومحاربة علي بهم تنفيذاً لدسيسة معاوية المشار اليها

وسبق القول أن سيدنا علي عليه صلوات الله كتب الى معاوية يعلمه بأنّ الناس في المدينة بايعوه محميب ويطلب بيعته فاجابه انه لا يبايعه الا اذا سلمه قتلة عثمان وما من يجهل الغرض الذي رمى اليه معاوية بطلبه هذا بل هو بديهيٌّ يحكم به كل ذي المام بحوادث صدر الاسلام فانّ معاويه ماكان يجهل غلبة الثائرين على المدينة وان علياً لو مالأ معاوية وسلمه قتلة عثمان أو اراد ان يجري القصاص عليهم لثار الثائرون عليه كما ثاروا على عثمان وهكذا يكون قد افسد عليه امره من أهون الطرق على انّ سيدا علي لم تفته الدسيسة فحاشاها وأجاب معاوية بان بايع وطع ثمّ تقدم من الخليفة مطالباً بدم عثمان لان العاصي لا ينظر في دعواه فكان جوابه هذا سبباً لعصب معاوية دم عثمان بسيدنا علي وكان يقول انه ماحمى القتلة الا لانه هو الذي دفعهم الى القتل وبعد أخذ ورد بين سيدنا علي ومعاوية وظهور مساعي معاوية ضد الخلافة لم يرَ سيدنا علي عليه صلوات الله الا استعمال الحزم وقد لم السيل الزبى فجهر برأيه في المسجد النبويّ خطيباً فقال: « وقد تلبت هذا الامر ببطنه وظهره، حتى منعني النوم، فما وجدتني يسعني الا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله، فكانت معالجة القتال، أهون عليّ من معالجة العقاب، وموتات الدنيا أهون عليّ من موتات الآخرة » واخذ عليه صلوات الله يستعد لحرب معاوية في الشام ولسان حاله يقول:

السيف أصدق انباءً من الكتب   في حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعب

(١) تقدم لنا القول ان عائشة كانت أشدّ الناس على عثمان ونزيد هنا انها ما زالت تغري

وَإِذْ تَلَقَّى نَبَا عِصْيَانِ عَائِشَةٍ بِمَكَّةٍ مَعَ قَوْمٍ مِنْ مُرِيدِيهَا
وَكَانَ مَعَهَا ٱلزُّبَيْرَانِ ٱللَّذَانِ أَرَا دَا فِتْنَةَ ٱلْقَوْمِ وَٱسْتَغْوَا مُطِيعِيهَا
وَكَانَ مَرْوَانُ مَا بَيْنَ ٱلْعِصَابَةِ يَحْـــدُوهَا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ ٱلْهَوْجَا وَيُنْخِيهَا
وَٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ ٱلَّذِي مَازَالَ مُلْتَزِمَا رِكَابَهَا مَا تُنَاجِيهِ يُنَاجِيهَا
وَفِرْقَةٌ غَرِيَتْ بِٱلْإِنْتِصَارِ إِلَى عُثْمَانَ سَارَتْ عَلَى مَسْرَى مُسَيِّرِيهَا

الناس بعدائه والانتقاض عليه حتى أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين اليها هذا ثوب رسول الله لم يبل وعثمان قد أبلى سنته .
قالوا ان عائشة هي أول من سمى عثمان نعثلاً والنعثل الكثير شعر اللحية والجسد وقد كان عثمان كذلك كما علمت وكانت تقول اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً . وقد سبق لنا القول ان عائشة تركت المدينة والفتنة على اشدها وهي لاتشك أنّ عثمان مقتول واقامت في مكة تنتظر هذه النتيجة التي كانت تتوقعها والظاهر انها لم تكن تتوقع ان يتولى سيدنا علي الخلافة وكانت تنتظرها لطلحة فقد روى المؤرخون ان عائشة عند مابلغها وهي بمكة نبأ مقتل عثمان قالت : بعداً لنعثل وسحقاً ايه ذا الاصبع (تريد به طلحة وقد شلت اصبعه يوم أحد) إيه يا شبل ايه يا ابن عم لكأني انظر الى اصبعه (الشلاء) وهو يأخذ البيعة حثوا له الابل ودعدوها . واقبلت مسرعة الى المدينة وهي تقول . ايه ذا الاصبع لله ابوك اما انهم وجدوا طلحة لها كفؤاً ؟ وما أسرعت بالسفر الا وهي تظن ان الناس يتاخرون بالبيعة فتأتي المدينة وتعمل على مبايعة طلحة وما كان اشد خيبة املها عند ما انتهت الى «شراف» وهي في ضواحي مكة فهناك استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي وكان قادماً من المدينة فقالت له : ماعندك ؟ قال : قتل عثمان . قالت بلهف : ثم مادا ؟ . قال : ثم حارت بهم الامور الى خير محار بايعوا علياً . فاصفرّ وجه عائشة كمداً وحزناً وصاحت : لوددت انّ السماء انطبقت على الارض ان تم هذا ويحك انظر مادا تقول . قال : هو ماقلت لك يا امّ المؤمنين فولولت فقال لها : ماشأنك يا امّ المؤمنين والله ما اعرف بين لابتيها أحداً اولى بها من علي ولا أحق ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته فلماذا تكرهين ولايته ؟ ؟ فما ردّت له جواباً وامرت بالجمال برد ركابها الى مكة وعادت وهي تخاطب نفسها فتقول : قتلوا ابن عفان مظلوماً . فقال لها قيس بن أبي حازم وكان ركابها ألم اسمعك تقولين بعداً لنعثل وسحقاً وقد عهدتك من قبل اشدّ الناس عليه واقبحهم فيه قولاً قالت : لقد كان ذلك ولكن نظرت في أمره فرأيتهم استتابوه حتى اذا تركوه كالفضة البيضاء اتوه صائماً محرماً في شهر حرام فقتلوه

وعند ما استقرّت عائشة في منزلها في مكة جعلت تنوح وتندب عثمن وتشدد النكير على قاتليه ولا تكتم اسفها على اخصائها فتقول : تعسوا تعسوا لا يردّون الامر في تيم « وهذا على ما أظن هو بيت القصيد من انقلابها » واذ كان لعائشة بين الناس مكانة ممتازة لما هو مشهور عن حب المصطفى لها عليه وعلى آله الصلاة والسلام ولانها كانت تكثر من تحديث الناس باحاديثه النبوية التفّ الناس من حولها وبكوا لبكائها وأخذوا معها يطالبون بدم عثمان

ثمّ انّ طلحة والزبير عند مايئسا وهما في المدينة من علي واقرّا على الانتقاض عليه كتبا

وَهٰكَذَا عِصْبَةُ ٱلْعَاصِينَ قَدْ جَمَعَتْ ... جُمُوعَهَا وَبِهَا جَدَّتْ حَوَادِيهَا
إِلَى رُبَى ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّاءِ تَرْغَبُ فِي ... إِعْلَانِ ثَوْرَتِهَا ٱلْكُبْرَى بِأَرْضِيهَا
وَقَدْ تَقَدَّمَتِ ٱلرُّكْبَانَ عَائِشَةٌ ... وَٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهَا تَشْدُو أَغَانِيهَا
كَرَايَةِ ٱلْحَرْبِ كَانَتْ ضِمْنَ هَوْدَجِهَا ... وَٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ فَتَاهَا كَانَ مُعْلِيهَا
وَكَانَ هَوْدَجُهَا يَسْعَى بِهِ جَمَلٌ ... قَدْ بَاعَهُ عُرَنِيٌّ مِنْ حَوَاشِيهَا

لعائشة يحضانها على تخذيل الناس عن بيعة علي وأرسلا لها كتاباً مع ربيبها عبد الله بن الزبير فازدادت به جرأة وطفقت تذيع دعوتها بمطالبة علي بدم عثمان والتف من حولها الامويون والمتشيعون لهم وهم الذين اسماهم المؤرخون « عثمانية » فرصة انقلابها هذا فتناسوا لها نقمتها على عثمان وتحريضها الناس عليه بغية الانتفاع بنفوذها على محاربة سيدنا علي بن أبي طالب . وهكذا اصبحت عائشة في مكة زعيمة المطالبين بدم عثمان وموضع اهتمام معاوية ومروان واصحابهما الامويين في تنفيذ الخطط التي وضعوها لمحاربة سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله

اما طلحة والزبير بعد أن تمت بيعة سيدنا علي انتظرا اياماً في داريهما وهما يتوقعان ان يكونا منه كما كان مروان من عثمان فيستبدان بالخلافة دونه فخاب فألهما ورأيا امير المؤمنين مشتغلاً برتق الفتق واصلاح الفاسد برأيه وحكمته وانه مصمم تصميماً قاطعاً على معاملة المسلمين بالمساواة التي يقضي بها الشرع فلا يميزهما عن غيرهما بشيء ولا بحق فنقما ذلك عليه . ولا بد ان الذين جاؤه يغرونه بالاقتصاص من قتلة عثمان كان بينهم طلحة والزبير أو انهما صاحبا هاتيك الفكرة ارادا بها ان يوقعاه بمشكلة لا يستغني بها عن التماس معونتهما فما فازا بأربهما بل رأياه يقضي الامور بسديد رأيه بغير مشورتهما فتأكدا حينئذ انهما في دولته غير بالغين أرباً . فما عتما ان توجها بآمالهما الى الابتعاد عن المدينة فيكون الزبير اميراً للبصرة وله فيها شيعة وطلحة أميراً للكوفة وله فيها شيعة فاتفقا على الذهاب الى سيدنا علي ومطالبته بهاتين الامارتين لنفسيهما وبالفعل ذهبا اليه يلتمسهما بعد ولايته ببضع ايام وطلبا منه أن يوليهما البصرة والكوفة فقال سأنظر في هذا الامر فامهلاه اياماً ثم عادا اليه فوجداه غير مباغهما سؤلهما فذكراه بمعاونتهما له على بلوغ الخلافة وتمننا عليه بذلك فردهما ولا رضي ان يرشوهما ببلاد المسلمين فحقدا عليه وأغضبهما رده وخرجا ناقمين . وبينما هما كذلك وردت عليهما تحارير معاوية ببيعته لهما واخذ مروان وغيره من الامويين يجتمعون عليهما فكان ذلك مشدداً عزيمتهما على الخروج على سيدنا علي عليه صلوات الله ولم يكونا جاهلين أمر عائشة في مكة واستلامها زعامة المطالبين بدم عثمان فيها فاقرا على الانضمام اليها واذ كان رحيلهما الى مكة لا يكون بغير اذن سيدنا علي عليه صلوات الله سارا اليه فاستأذناه بالخروج فانقطعا عنه مدة ثم جاءاه فاستأذناه بالخروج الى مكة قصد العمرة فلم يقه ما في نفسيهما وقال والله ما العمرة تريدان فحلفا له انهما لا يريدان غير العمرة فقال لهما ما العمرة تريدان وانما تريدان الغدرة ونكث البيعة فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث بيعته يريدان وما بغيتهما غير العمرة فقال عليه صلوات الله فاعيدا البيعة ثانية فعاداها باشد ما يكون من الايمان والمواثيق فاذن لهما كل هذا والناس بين يديه وهو في المسجد النبوي وبعد ماخرجا التفت الى من حوله وقال : والله لا ترونهما الا في فتنة يقتتلان فيها قالوا يا امير

أُفٍّ لَهُ جَمَلاً أُفٍّ لِسَائِقِهِ ... فَإِنَّهُ سَائِقُ ٱلأَرْزَاءِ مُفْشِيهَا

يَالَيْتَنَا مَاعَرَفْنَا ذَٰلِكَ ٱلْجَمَلَ ٱلْـ ... ـمَشْئُومَ فِي خَطَوَاتٍ رَاحَ خَاطِيهَا

وَبَيْنَمَا ٱلنَّاسُ مَعَهُ وَهُوَ قَائِدُهَا ... تَسِيرُ فِي فَلَوَاتِ ٱلأَرْضِ تَطْوِيهَا

مَرَّتْ عَلَى عَيْنِ مَاءٍ وَٱلْكِلَابُ بِهَا ... نَبَّاحَةٌ فَعَوَى فِي ٱلْحَالِ عَاوِيهَا

وَصَاحَ صَائِحُهَا ذِي مَاءُ حَوْأَبَ فَلْـ ... ـنَشْرَبْ وَهَذِي ظَوَامِي ٱلْعِيسِ نَسْقِيهَا

وَمَادَوَتْ «حَوْأَبٌ» فِي اذْنِ عَائِشَةٍ ... حَتَّى أَعَادَتْ إِلَيْهَا ذِكْرَ مَاضِيهَا

المؤمنين ثم بردهما عليك قال بل ادعهما ليقضي الله امراً كان مفعولاً . ومن هذا القول العلوي تعلم انه عليه صلوات الله لم يكن جاهلاً امرهما وأمر الذين يكيدون له معهما ولكنه أبى ان يأخذهما على مايعلم من سرهما ويجهل الناس حتى لايعطي لاعدائه حجةً عليه تؤيد حجتهم الاولى وهي اتهامه بدم عثمان. لاجرم انَّ علياً عليه صلوات الله لو قبض على طلحة والزبير عند ماجاءاه مستأذنين للعمرة وحجر عليهما لامتلأت ارجاء بلاد الخلافة بصياح الامويين قائلين انَّ علياً قتل في الامس عثمان وحجر اليوم على طلحة والزبير ليستبدَّ بالخلافة ويكون لقولهم هذا تأثير عظيم في الصدور لانَّ الناس يجلون طلحة والزبير ويعرفون لهما المكانة العالية في العالم الاسلامي وهكذا يرى المدقق الحكيم مبلغ حكمة سيدنا أمير المؤمنين بعدم التعرض لحرية هذين الصحابيين والاكتفاء باستعادة بيعتهما امام المسلمين في المسجد النبوي

وعند ماخرج طلحة والزبير من المدينة الى مكة جعلا يقولان لكل من يلقيانه في طريقهما ان ليس لعلي في عنقهما بيعة وانما بايعاه مكرهين واتصل قولهما هذا بسيدنا علي من القادمين على المدينة فقال عليه صلوات الله « ابعدهما الله ، واغرب دارهما ، اما والله لقد علمت انهما سيقتلان نفسيهما أخبث مقتل ، ويأتيان من وردا عليه باشأم يوم ، والله ما العمرة يريدان ، ولقد اتياني بوجهي فاجرين ، ورجعا بوجهي غادرين ناكثين ، والله لايلقياني بعد اليوم الا في كتيبة خشناء يقتلان فيها نفسيهما ، فبعداً لهما وسحقاً »

وعند ما انتهى طلحة والزبير الى مكة اسرعا الى منزل عائشة واخذوا يدبرون أمر المسير الى العراق حسب اشارة معاوية وانضمَّ اليهم مروان بن الحكم وقد ترك المدينة فراراً ويعلي بن أمية حاكم اليمن وجاء معه ببعض رجالات اليمن وذاع نبأ مسير عائشة الى البصرة فاكبره اهالي مكة لانهم ما انتظروها ان تدخل في الفتنة بصورة جدية . وكان في مكة وقتئذٍ أم سلمة وهي احدى أزواج المصطفى فسارت اليها غير مرة واكثرت لها النصيحة وذكرتها بمكانة سيدنا علي عند المصطفى عليهما الصلاة والسلام وباحاديثه الكثيرة التي تشير الى موقفها الحرج الذي وقفته والواجب ان تتحاشاه فما سمعت لها نصيحة وكانت تقول انها خرجة تغشني

وعند ماصحت عزيمة هؤلاء العصاة على السفر طلبوا لهودج عائشة بعيراً أيداً فجاءهم يعلي ابن أمية ببعيره المسمى عسكر وكان عظيم الخلق شديداً فلما رأته عائشة اعجبها وانشأ الجمال يحدثها بشدته وقوته ويسميه في اثناء حديثه عسكراً فلما تكررت لفظة « عسكر » على لسان الجمال تشاءمت من الجمل واسترجعت وقالت ردوه لاحاجة لي به فتقدم منها عبد الله بن الزبير وهو ربيبها وادلَّ

عَادَتْ إِلَى عَهْدِهَا فِي طِيبَةٍ بِحِمَى طَـــهَ وَجِيرَتُهُ ٱلْغَرَّاءُ تُؤْوِيهَا
وَقَوْلَةٌ نَسِيَـتْهَا كَانَ قَائِلَهَا لَهَا فَقَالَتْ : نَعَمْ ذَكَّرْتُمُونِيهَا
فَإِنَّهُ كَانَ يَوْمًا بَيْنَ نِسْوَتِهِ عَطْفًا يُؤَانِسُهَا صَفْوًا يُفَاهِيهَا
وَإِذْ بِهِ قَالَ مَنْ مِنْـكُنَّ تَنْبَحُهُ كِلَابُ حَوْأَبَ فِي ضَافِي مَجَارِيهَا
فَٱسْتَغْرَبَتْ قَوْلَةَ ٱلْهَادِي نِسَاهُ وَلَمْ تَدْرِي ٱلَّتِي بَيْنَهُنَّ كَانَ يَعْنِيهَا
ثُمَّ رَنَا ٱلْمُصْطَفَى عَطْفًا لِعَائِشَةٍ وَقَالَ : إِيَّاكِ مِنْهَا أَنْ تَكُونِيهَا

الناس عليها وسألها عن سبب رفضها ركوب « عسكر » على شدته وقوته فقالت ان رسول الله كان ذكرلها جملاً بهذا الاسم ونهاها عن ركوبه وامرته أن يطلب لها جملاً غيره فمضى في هذه المهمة فوجد في اسواق مكة رحلاً من عرنية ومعه جمل احمر شديد القوى فاعترضه واشترى منه جمله بعد أن أخبره انه لعائشة امّ المؤمنين وسأله ان كان يعرف طريق البصرة فيكون دليلهم فيها فقال نعم وكان دليلهم . ولما عرض جمل العرني على عائشة رضيته مطيةً لهودجها فرفع عليه الهودج وكان موشحاً بجلود النمر ووضعوا فوقه دروع الحديد والرفارف المزركشة ودخلت فيه عائشة وانزلت الستائر وسار في مقدمة الناس وكان رايتهم ولم يكن لهم راية سواه ولذلك دعاهم الناس « اصحاب الجمل » وكان ذلك العرني دليل القوم ماسكاً زمام الجمل وكانت عائشة فيه هي الآمرة الناهية

وكان يعلي بن امية أمير اليمن الذي هبط مكة بعد وصول كتاب معاوية اليه وقد سبق لنا نشره هو الذي يجهز الناس للرحيل وجاءهم بستماية بعير وستماية الف درهم ومن هذا وحده تعلم كيف كان عمال عثمان يحكمون الناس ويتسلطون على أموالهم

وسار المنادون في اسواق مكة وهم ينادون : « انعائشة امّ المؤمنين ، وطلحة ، والزبير ، شاخصون الى البصرة، فمن أراد اعزاز الاسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بثأر عثمان ، وليس له مركب وجهاز فليات » فقبل الناس على النداء بين مكيين ومدنيين فكانوا ستماية راكب وصار يتبعهم الناس حتى بلغوا التسعماية ثمّ انضمت اليهم رجال القبائل في طريقهم فبلغوا نحواً من ثلاثة آلاف

ولما خرج اصحاب الجمل من مكة والجمل رايتهم وقائدهم أذن مروان بن الحكم في الناس ثمّ أقبل على طلحة والزبير وقال على ايكما أسلم بالامارة واؤذن بالصلاة فقال عبد الله بن الزبير وهل لها غير أبي وقال محمد بن طلحة وهل لها غير أبي وابتدأت بينهما الفتنة فتداركتها عائشة من وسط هودجها واستدعت مروان اليها وقالت له أتريد ان تفرّق أمرنا ؟ فليصلّ بالناس ابني عبدالله « وتريد به ابن اختها عبد الله بن الزبير » فكان يصلي بالناس

وما زال اصحاب الجمل سائرين في طريقهم حتى انتهوا الى « الحوأب » وهو ماء لبني عامر ابن صعصعة فاخذت الكلاب تنبح وكانت كثيرة فنفرت صعاب الابل وقال قائل بقرب هودج عائشة « ألا ترون ما أكثر كلاب الحوأب وما أشد نباحها ؟ » وما كادت ترنّ هذه الكلمات في اذن عائشة وهي في هودجها حتى اصفرّ وجهها وقفّ الشعر في رأسها وارتجفت اعصابها وصاحت واسها اكلاب الحوأب ! ! ردّوني ردوني وما زالت تصيح حتى اناخ الحادي جملها ووقف الركب وجاءها الزبير وولده عبدالله وطلحة ومروان ويعلي بن أمية وغيرهم يسألونها عما نالها فقالت ردوني ردوني اني للهيئة فقد

تَذَكَّرَتْ وَهْيَ فِي وَسْطِ ٱلنَّبِيحِ مَقَا ... لَ ٱلْمُصْطَفَى فَبَكَتْ وَٱلذِّكْرُ مُشْجِيهَا

وَٱسْتَرْجَعَتْ حَزَناً كَانَتْ تَقُولُ: أَنَا ... لُهَيَّةٌ وَٱنْثَنَتْ تَشْكُو تَلَهِّيهَا

وَأَسْرَعَتْ فَأَنَاخَتْ وَهْيَ غَاضِبَةٌ ... بَعِيرَهَا وَٱلْبُكَا يَمْلَا مَآقِيهَا

وَأَعْلَنَتْ أَنَّهَـــا لَا بُدَّ رَاجِعَةٌ ... عَنْ رَكْبِهَا فَهْيَ تَأْبَى أَنْ تُمَاشِيهَا

رَاحَتْ تَقُولُ: أَنَا تَٱللهِ صَاحِبَةُ ٱلْـــ ... ـمَاءِ ٱلَّتِي كَانَ خَيْرُ ٱلْخَلْقِ يَبْغِيهَا

رُدُّوا بَعِيرِي وَرُدُّونِي عَلَيْهِ إِلَى ... خِدْرِي فَنَفْسِيَ مَا قَدْ كَانَ يَكْفِيهَا

كان رسول الله بين نسائه في ذات يوم فطلب أن يغسل رأســه فجئته بماء وجعلت اصبه على رأسه وأخذت ام سلمة تحيس له وبينما نحن لكذلك رفع رأسه الشريف وهو مبتلّ بالماء وقال عليه الصلاة والسلام : ياليت شعري ايتكنّ صاحبة الجمل الاذنب تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط ؟ . فرفعت ام سلمى يدها وقالت اعوذ بالله ورسوله من ذلك وامتنعت انا عن صبّ الماء وقلت قولها واذا بالمصطفى عليه عليه الصلاة والسلام يضرب بيمناه على ظهري ويقول: اياك أن تكونيها ثم قال ثانيةً : يابنت ابي امية اياك ان تكونيها ياحميراء قالت عائشة فاصفرّ وجهي وجزعت ولكن تجلدت وقلت اعوذ بالله ان اكونها يارسول الله فتبسم وهزّ رأسه الشريف وعدنا الى غسله . وما اتمت عائشة سرد قصتها حتى استرسلت بالنواح والبكاء وهي تقول ردوني الى بيتي فقد صدق رسول الله فانا صاحبة الجمل الاذنب وهوذا كلاب الحوأب تنبحني وقد نكبت عن الصراط فخذ القوم يشجعونها على المسير وهي ترفض الى ان اعياهم حالها وخافوا ان هي عادت ادراجها ان تفشل حملتهم وتضيع مجهوداتهم وتخيب آمالهم ويدماهم في حيرتهم تلك واذا بعبد الله بن الزبير يناديها ويقول: ويلنا يا اماه (وكان عبد الله يدعو عائشة امه وهي كما تعلم خالته) فقد ادركتنا خيل ابن ابي طالب فجزعت لهذا النبأ ورضيت بالمسير وهكذا استأنف القوم المسير في طريقهم

ولما انتهى أصحاب الجمل الى « حفر أبي موسى » قريباً من البصرة أناخوا فيه وبلغ نبأهم عثمان بن حنيف وكان عامل عليّ على البصرة فجزع من مقدمهم وأرسل لهم أبا الاسود الدؤلي يعلم له علمهم فسار اليهم حتى اذا ما بلغ منزلهم قصد خباء عائشة وكان في وسط القوم وسألها عن سبب مجيئها ومن معها ؟ فقالت اني مطالبــة بدم عثمان فقال ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد قالت نعم فانهم مع عليّ بن أبي طالب في المدينة وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم ؟ فقال أبو الاسود ما أنت من السوط والسيف ?? انمــا أنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقد أمرك أن تقرّي في بيتك وتتلي كتاب ربك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهنّ الطلب بالدماء ، وان علياً لأولى بعثمان منك ، وأمس رحماً فانهما ابناء عبد مناف . فقالت عائشة لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت اليه أتظنّ ياأبا الاسود أنّ أحداً يقدم على قتالي ؟ فتبسم أبو الاسود وقال أما والله لتقاتلنّ قتالاً أهونه الشديد . وتركها وسار غاضباً الى الزبير فقال له : ياأبا عبد الله عهد الناس بك وأنت يوم بويع أبو بكر آخذ بقائم سيفك تقول : لا أحــد أولى بهذا الامر من ابن أبي طالب واين هذا المقام من ذاك ؟ فقال الزبير ولكننا نطالب بدم عثمان فقال أبو الاسود أنت وصاحبك (ويريد طلحة) وليتماه في بلغنا ؟ فتلعثم لسان

وَٱلْتَفَّ أَصْحَابُهَا مِنْ حَوْلِهَا وَلَقَدْ   هَابُوا تَرَدُّدَهَا رَامُوا تَرَضِّيَهَا
وَعَالَجُوا أَنْ تُوَاتِيَهُمْ بِزُخْرُفِ مَا   قَالُوا وَظَلَّتْ عَلَى جَافِي تَأَبِّيهَا
فَلَمْ يَكُنْ غَيْرُ أَنْ قَالُوا ٱلْعَلِيُّ أَتَى   بِخَيْلِهِ مَا عَنِ ٱلتَّنْكِيبِ يُثْنِيهَا
خَافَتْ عَلِيًّا وَوَاتَتْهُمْ بِمَا طَلَبُوا   وَٱسْتَأْنَفَتْ مَعَهُمْ كُرْهًا تَخَطِّيَهَا
حَتَّى إِذَا بَلَغَ ٱلرُّكْبَانُ بَصْرَةَ أَلْــ   ـقَوْا ٱلذُّعْرَ فِي أَهْلِهَا كَانُوا مُثِيرِيهَا
وَبَعْدَ أَنْ فَتَنُوا ٱلْأَهْلِينَ وَٱقْتَتَلُوا   مَعَهُمْ قَدِ ٱسْتَلَمُوا شَتَّى مَلَاجِيهَا

الزبير وقال: فانطلق الى طلحة واسمع مايقول فعرف أبو الاسود انّ الزبير سيق الى الفتنة على غير ارادته فهو مغلوب على أمره فتركه ومضى الى طلحة فوجده سادراً في غيه مصرّاً على الحرب والفتنة فعاد الى البصرة وأخبر عثمان بن حنيف بما رأى وسمع وقال انها الحرب فتأهب لها

أما عثمان بن حنيف فحار في أمره وطفق يضرب أخماساً لاسداس فما وجد له مخرجاً وذاكر في الامر أعيان البصرة فوجدهم مفترقين فمنهم من يقول انّ أصحاب الجمل على الحقّ وفيهم عائشة وطلحة والزبير ومكانتهم من الاسلام والمصطفى لايقدح فيها قادح ومنهم من كانوا يقولون ان هؤلاء جاؤنا بعد أن بايعوا علياً ماكثين فعلينا أن نردّهم ومنهم من كانوا يقولون مالنا ولهؤلاء قدموا علينا يفتنوننا ويبلوننا فاذا كانوا يطلبون دم عثمان فان قتلة عثمان عندهم لماذا لم يقتلوهم واذا كانوا يريدوننا لنشاركهم بطلب قتلته فمالنا بذلك أرب واذ رأى أميرهم عثمان بن حنيف منهم الفرقة انكسر قلبه

ثمّ انّ عائشة وطلحة والزبير أمروا أصحابهم باقتحام البصرة فساروا اليها حتى اذا مابلغوا المربد دخلوا من أعلاه ولقيهم عثمان بأصحابه وانقسم البصريون قسمين قسمٌ من شيعة سيدنا عليّ وقفوا بجانب أميرهم عثمان بن حنيف وقسم كانوا من شيعة أصحاب الجمل فانضموا اليهم وخطب طلحة في الناس فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان وفضله وما استحلّ منه ودعا الى الطلب بدمه وحثهم عليه . ثمّ تبعه الزبير فقال قول طلحة . وكان البصريون يسمعون الخطابين وفيهم من يقول صدقاً وبرّاً ومنهم من يقول فجراً وغدراً وأمراً بالباطل فقد بايعا علياً ثمّ جاءا يتنهضاننا لمحاربته وكثر اللغط والهرج. وحينئذٍ تقدّمت عائشة وهي في هودجها على جملها وقالت بصوتها الجهير « كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ، فننظر في ذلك ، فنجده برّاً تقياً وفياً ، ونجدهم فجرةً غدرةً كذبةً ، وهم يحاولون غير مايظهرون ، فلما قووا كاثروه ، واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام ، والشهر الحرام ، والبلد الحرام ، بلا ترة ولا عذر ، ألا انّما ينبغي لاينبغي لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان ، واقامة كتاب الله » فأزاد خطاب عائشة الشعب بين البصريين ثمّ اشتبك القتال بينهم وانضمّ أصحاب الجمل الى من تشيع لهم من البصريين فكاثروا أصحاب عثمان بن حنيف وتغلبوا عليهم ودخلوا البصرة عنوةً في حديث يطول وكان قد لجأ عثمان بن حنيف الى بيته فأرسلوا بطلبه فاقتحموا بيته وضربوه وأهانوه ونتفوا لحيته وشاربيه وحاجبيه وأشفار عينيه وامتنعوا عن قتله اكراماً لصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك جرى بأمر عائشة وحمل أصحاب الجمل على بيت المال في البصرة عبد الرحمن بن أبي بكر . على ان البصريين لم يرضخوا لتغلب أصحاب الجمل عليهم فنهضوا اليهم وحاربوهم بموقعة كبرى قتل فيها خلق كثير وكانت هذه الموقعة

دَرَى ٱلْإِمَامُ بِذَا فَٱخْتَارَ طَلْبَةَ مَنْ حَلُّوا ٱلْعِرَاقَ وَأَثْوَوْا فِي ضَوَاحِيهَا
وَأَرْجَأَ ٱلشَّامَ حَتَّى يَسْتَتِبَّ لَهُ أَمْرُ ٱلْعِرَاقِ وَمِنْ ثَمَّ يُوَافِيهَا

مسير أمير المؤمنين الى البصرة

سَهْلٌ عَلَى ٱلنَّاسِ أَنْ تُبْدِيَ مَلَامَتَهَا عَلَى ٱلْفِعَالِ ٱلَّتِي ٱلْحُكَّامُ تُجْرِيهَا(١)
وَتُصْدِرَ ٱلْحُكْمَ فِي تَسْفِيهِهَا وَحَرِ مٍ يٌّ أَنْ نَخُصَّ بِذَاكَ ٱلْحُكْمِ تَسْفِيهَا
فَكَمْ جَهُولٍ رَأَى سَيْرَ ٱلْإِمَامِ إِلَى صَحَابَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَلْعُونِ يُرْزِيهَا
تَسَرُّعًا وَرَأَى إِهْمَالَ فِتْنَتِهَا أَوْلَى وَأَحْكَمَ وَٱلْأَقْدَارُ تُطْفِيهَا
وَلَوْ تَدَبَّرَتِ ٱللُّوَّامُ خَافِيَةَ ٱلْأَ مْرِ ٱلَّتِي ٱلْمُرْتَضَى قَدْ كَانَ دَارِيهَا
لَٱسْتَصْوَبَتْ عَزْمَةً كَانَتْ سَلَامَةُ أَطْـــرَافِ ٱلْعِرَاقَيْنِ فِيهَا مِنْ عَيُوثِيهَا
عَزِيمَةٌ مَا لَهَا إِلَّا أَبُو حَسَنٍ عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ وَٱلْأَخْطَارِ يُمْضِيهَا

لخمس ليالٍ بقين من شهر ربيع الاخر سنة ٣٦ للهجرة وانجلت عن تغلب أصحاب الجمل فهرب من ظلوا على ولاء سيدنا علي عليه صلوات الله يقصدونه وبايع طلحة والزبير وعائشة المستضعفون. وبعد أن تم فوز أصحاب الجمل على البصريين أرسلوا يبشرون به معاوية في الشام وأصحابهم في المدينة المنورة وأرسلت عائشة الى أبي موسى الاشعري أمير الكوفة تطلب منه الانضمام اليها وتهيئة الرجال لنجدتها على محاربة سيدنا علي والطلب بدم عثمان فما أجابها وأصر على التزام الحياد في هذه الفتنة

(١) عند ما سمع سيدنا أمير المؤمنين نبأ أصحاب الجمل وقصدهم البصرة صحت عزيمته على اللحوق بهم ومقاتلتهم قبل المسير الى الشام ومقاتلتها لان ماخطر لمعاوية بدهائه لم يفت حكمة سيدنا أمير المؤمنين وسداد رأيه وهو ان القوم في الشام قد حملهم معاوية على العصيان وكان من أمرهم ما كان فالعجلة في حرب الشام كالتمهل ماوراء ذلك من ضرر وأما القوم في العراق فانهم ماز الوا على الطاعة وان عائشة وطلحة والزبير وبقية العصابة ماقصدوا بلادهم الا ليستميلوهم الى رأيهم ويشدوا أزرهم بهم فالمصلحة تقضي بالحيلولة بينهم وبين ما يطلبون وهي لعمر الحق نظرة صادقة من سياسي حكيم يعرف من أين تؤكل الكتف . وكان يريد سيدنا أمير المؤمنين أن يظفر بأصحاب الجمل وهم في الطريق فيقاتلهم قبل أن يدخلوا البصرة ويعيدهم أدراجهم خائبين فلم يتوفق الى ذلك لاختلاف الناس حوله في أمر غزوته فمنهم من كان يقول له : دع القوم وما يصنعون فان أطاعوك سرت بهم على نهج الشريعة السمحاء وان عصوك كان لك عذر عند ربك بمهاجمتهم . ومنهم من كان يشير عليه أن يبقى في المدينة المنورة ويرسل سرية وراء أصحاب الجمل تحاربهم . ومنهم من كانوا يقولون له الامر أمرك ونحن طوع رضاك . أما سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله فما أعجبه الا المسير وراء أصحاب الجمل صاربا بكل رأي يخالف رأيه هذا عرض الحائط . والظاهر أنه كان قد سئم تفرقة الكلمة واضطراب حبل الامة وتضارب الآراء واختلاف المنافقين بالاوفياء

نَادَى بِغَيْرِ وَنًى فِي ٱلنَّاسِ فَٱجْتَمَعَتْ   حَوْلَيْهِ رَاكِبُهَا ٱلْغَازِي وَمَاشِيهَا

وَمَا تَوَانَى سِوَى أَهْلِ ٱلنِّفَاقِ فَلَمْ   تَحْفَلْ بِدَعْوَةِ حَقٍّ رَاحَ دَاعِيهَا

وَقَالَ بَعْضُهُمُ : دَعْ حَرْبَ طَلْحَةَ وَٱلـ   ـزُّبَيْرِ وَٱلرَّأْيُ عِنْدِي فِي تَلَافِيهَا

فَقَالَ: وَٱللهِ لَا أَحْكِي ٱلضِّبَاعَ بِإِهْـ   ـمَالِ ٱلْمَكَائِدِ مَعْ مَغْرَى مُكِيدِيهَا

إِنَّ ٱلضِّبَاعَ عَلَى ٱللَّدْمِ ٱلطَّوِيلِ تَنَا   مُ شَرَّ نَوْمَتِهَا وَٱللَّدْمُ هَادِيهَا

حَتَّى تَرَى رَاصِدِيهَا ثَمَّ تَخْتِلُهُمْ   لَهَا وَقَدْ أَسَرُوهَا فِي مَخَابِيهَا

لَكِنَّنِي أَضْرِبُ ٱلْمُسْتَدْبِرِينَ عَنِ ٱلْـ   ـحَقِّ ٱلَّذِينَ أَذَاعُوا ٱلْبُطْلَ تَمْوِيهَا

بِٱلْمُقْبِلِينَ إِلَى ٱلْحَقِّ ٱلَّذِينَ بِهِمْ   أَلْقَى أَعَادِيهِ مَنْصُوراً وَأُفْنِيهَا

وَبِٱلسَّمِيعِ ٱلْمُطِيعِ ٱلْمُهْتَدِي بِهُدَى   مُحَمَّدٍ إِنَّنِي أَلْقَى مُرِيبِيهَا

حَتَّى ٱلْمَنَايَا تُلَاقِينِي بِسَمْتِهَا   يَوْماً كَمَا بِٱبْتِسَامَاتِي أُلَاقِيهَا

حَسْبِي فَوَٱللهِ أَنِّي لَمْ أَزَلْ أَتَشَـ   ـكَّى مِنْ ضِيَاعِ حُقُوقِي أَوْ مُضِيعِيهَا

مِنْ يَوْمِ قَدْ قَبَضَ ٱللهُ ٱلرَّسُولَ إِلَى   يَوْمِ ٱلْعُصَاةِ ٱلَّتِي أَصْبَحْتُ غَازِيهَا

وَعِنْدَ مَا آنَ مِيقَاتُ ٱلْمَسِيرِ دَعَا   أَبُو ٱلْحُسَيْنِ ٱلرَّعَايَا كَيْ يُفَاهِيهَا

مُوَدِّعاً مُنْصِحاً عَنْ سِرِّ رِحْلَتِهِ   مُجَلِّياً كُلَّ لَبْثٍ قَدْ يُغَشِّيهَا

فَقَالَ : عَائِشَةٌ سَارَتْ بِعُصْبَتِهَا   إِلَى ٱلْعِرَاقِ لِتَسْتَغْوِي أَهَالِيهَا

وَطَلْحَةٌ سَارَ مَعْهَا وَٱلزُّبَيْرُ وَكُـ   ـلٌّ مِنْهُمَا أُمَّةَ ٱلْإِسْلَامِ شَانِيهَا

فقال : « والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم ، حتى يصل اليها طالبها ، ويختلها راصدها ، ولكني أضرب بالمقبل الى الحق ، المدبر عنه ، وبالسامع المطيع ، العاصي المريب ، أبداً . حتى يأتي عليَّ يومي ، فوالله مازلت مدفوعاً عن حقي ، مستأثراً عليَّ ، منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، حتى يوم الناس هذا » اه لاجرم انَّ سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله قد أصاب ، لباب الصواب ، وقال مافيه فصل الخطاب ، بحسبه التغاب عليه ، والتلاعب بحقوقه ، وكفاه يرضى بما يرضى به الناس وهم متعنتون ، وما أن يسيدهم الى الحقّ ، أو يدعهم والباطل

وعلى ذكر الضبع التي قال سيدنا عليّ انه لايكون مثلها مخدوعاً نقول : ان العرب تضرب بها المثل في الحمق فتقول « أحمق من الضبع » وزعموا أنَّ صائد الضبع يدخل عليها وجارها وهو يقول : أطرقي أم طريق ، خامري أمَّ عامر ، ويكرر ذلك عليها فتلجأ الى أقصى مغارها فتنقبض فيقول الصائد : أمّ عامر ليست في وجارها ، أم عامر نائمة ، ولا يزال يكرر ذلك على سبيل اللدم

صِهْرٌ لَهَا ذَا وَذَا أَدْنَى عُمُومَتِهَا   قُرْبَى فَسَارَا بِهَا لِلْحَرْبِ تُلْظِيهَا

وَٱللهِ لَوْ ظَفِرُوا يَوْمًا بِطَلْبَتِهِمْ   وَٱلْمُسْتَحِيلُ لَأَدْنَى مِنْ تَلَقِّيهَا

لَٱسْتَحْكَمَتْ فِتْنَةٌ شَعْوَاءُ بَيْنَهُمُ   فِي ٱلْحَالِ نِيرَانُهَا تُعْيِي مُطَفِّيهَا

فِيهَا ٱلزُّبَيْرَانِ كُلٌّ جِيدَ صَاحِبِهِ   يَفْرِي بِضَرْبَةِ سَيْفٍ لَا يُثَنِّيهَا

وَٱللهِ إِنَّ ٱلَّتِي سَارَتْ عَلَى ٱلْجَمَلِ ٱلْـ   ـمَشْئُومِ وَهُوَ بِهَا ٱلْآرَاضُ يَطْوِيهَا

فَلَا تَحُلُّ وَقَدْ سَارَتْ وَتَقْطَعُ عِقْـ   ـدَةً وَشَوْطًا بِلَا إِسْخَاطِ بَارِيهَا

حَتَّى تَرَاهَا بِمَنْ مَعْهَا لَقَدْ وَرَدَتْ   مَوَارِدَ ٱلْهُلْكِ تَهْوِي فِي مَهَاوِيهَا

وَصَحْبُهَا سَوْفَ يَفْنَى ثُلْثُهَا وَيَفِـ   ـرُّ ٱلثُّلْثُ عَنْهَا وَيَرْجُو ٱلْعَفْوَ بَاقِيهَا

وَهِيَ ٱلَّتِي فِي تَجَرِّيهَا لَتَنْبَحُهَا   كِلَابُ حَوْأَبَ إِنْذَارًا وَتَنْبِيهَا

كَذَا ٱلزُّبَيْرَانِ قَدْ جَاءَا بِعِلْمِهِمَا   خَطِيئَةً لَيْسَ مِنْ غَفْرٍ لِجَانِيهَا

وَرُبَّ صَاحِبِ عِلْمٍ فِي جَهَالَتِهِ   قَضَى وَمَا عِلْمُهُ عَنْهُ مُجَلِّيهَا

وَحَسْبُنَا ٱللهُ هٰذِي فِتْنَةٌ سُعِرَتْ   لٰكِنْ أَنَا فِئَةٌ مَبْرُورَةٌ فِيهَا

فَأَيْنَ يَا نَاسُ جَمْعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَهْـ   ـلُ ٱلْإِحْتِسَابِ فَإِنِّي ٱلْيَوْمَ دَاعِيهَا

مَالِي وَمَا لِقُرَيْشٍ كُنْتُ قَاتِلَهَا   فِي ٱلْأَمْسِ كَافِرَةً مَا كُنْتُ مُبْقِيهَا

وَٱلْيَوْمَ أَقْتُلُهَا عَدْلًا وَقَدْ فُتِنَتْ   أَوْ إِنْ تَتُوبَ وَتَنْأَى عَنْ مَسَاوِيهَا

وَعِنْدَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ خَطِيئَتُنَا   دُخُولُهَا بَيْنَنَا مَا إِنْ نُمَحِّيهَا

وهو ما يقال الأطفال حتى ياموا الى أن تطمئن فمدّ يديها ورجليها وتستلقي ، فيدخل عليها ويوثقها وهو يقول لها : ابشري أمّ عامر ، بشاء هزلي، وحوادعطلي ، يقول هذا وهو يشدّ عراقيبها وهي صابرة صامتة ولو شاءت لقتلته.

وبعد أن أعدّ سيدنا علي عليه صلوات الله عدته لخروج الى البصرة صلى في الناس في المسجد النبويّ وعلا المنبر فصح عن سرّ رحلته فحمد الله وأثنى عليه وقال « أيها الناس ، ان عائشة سارت الى البصرة ، ومعها طلحة والزبير ، وكلٌّ منهما يرى الامر له دون صاحبه ، أمّا طلحة فابن عمها ، وأما الزبير فختنها ، وانهم لو ظفروا بما أرادوا ، ولن ينالوا ذلك أبداً ، ليضربنّ أحدهما عنق صاحبه، بعد تنازع شديد ، والله أنّ راكبة الجمل الاحمر ، ما تقطع عقبة ، ولا تحلّ عقدةً ، الا في معصية الله وسخطه ، حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة ، أي والله ، ليقتلنّ ثلثهم ، وليهربنّ ثلثهم ، وليتوبنّ ثلثهم ، وانها التي تنبحها كلاب الحوأب ، وانهما ليعلمان انهما مخطئان ، وربّ عالمٍ قتله جهله ومعه علمه لا ينفعه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد قامت الفتنة ،

لَأُبْقِرَنَّ وَأَيْمُ ٱللهِ بَاطِلَهَا   حَتَّى ٱلْحَقِيقَةُ مِنْ أَحْشَاهُ أُبْدِيهَا
فَقُلْ غَدًا لِقُرَيْشٍ فَلْيَضِجَّ ضَجِيجُهَا   وَإِنِّي كَمَا تَهْوَى مُلَاقِيهَا
كَذَاكَ جَيْشُ ٱلْوَصِيِّ ٱلْمُرْتَضَى قَصَدَ ٱلْـ   ـعِرَاقَ كَيْمَا مِنَ ٱلْإِفْسَادِ يُنْجِيهَا
تَقَدَّمَ ٱلنَّاسَ غَازِي ٱلْكَافِرِينَ إِمَا   مُ ٱلْمُسْلِمِينَ بِحَوْلِ ٱللهِ يُخْطِيهَا
وَحَوْلَهُ حَسَنَاهُ مَعَ مُحَمَّدِهِ   كَوَاكِبٌ نُورُهُ ٱلْوَهَّاجُ يُسْنِيهَا
وَفِي ٱلطَّرِيقِ تَلَقَّى عَنْ رَعِيَّتِهِ   أَنْبَاءَ عَادِلِهَا ٱلتَّاقِي وَبَاغِيهَا
وَعَنْ مَمَالِكِهِ أَنْبَاءَ خَاضِعِهَا   إِلَى خِلَافَتِهِ ٱلْكُبْرَى وَعَاصِيهَا
كَانَتْ بِهَا ٱلرُّسُلُ تَأْتِيهِ مُتَابَعَةً   فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ بِٱلْيُمْنِ يَطْوِيهَا
وَقَابَلَتْهُ وُفُودُ ٱلْعُرْبِ طَالِبَةً   مِنْهُ إِلَى حَيْثُ يَبْغِي أَنْ يُمَاشِيهَا
وَلَوْ يَشَا سَاقَ مِنْهَا تَحْتَ أُمْرَتِهِ ٱلْـ   ـصُّفُوفَ يَمْلَا بِهَا تِلْكَ ٱلْأَتَاوِيهَا
لَـٰكِنْ أَبَى وَهْوَ خَاشٍ مِنْ تَنَافُرِهَا   أَنْ يَسْتَعِينَ بِبَادِيهَا وَقَارِيهَا
فَكَانَ يُرْجِعُهَا عَنْهُ وَيُثْنِي عَلَى   إِطَاعَةٍ لِوَلِيِّ ٱلْأَمْرِ تُسْدِيهَا
وَمَعْهُ أَصْحَابُهُ كَانَتْ كِفَايَتُهُ   وَكَانَ فِي نَفْسِهِ ٱلْكُبْرَى يُوَازِيهَا
وَهَلْ أَبُو حَسَنٍ فِي ٱلْحَرْبِ يَنْتَظِرُ ٱلْأَ   صْحَابَ فِي ٱلنَّصْرِ إِنْ ثَارَتْ لَوَاظِيهَا
وَهَلْ إِذَا ٱشْتَبَكَتْ فِيهَا ٱلرِّجَالُ وَحَـ   ـقَّ ٱلْقَتْلُ وَٱلضَّرْبُ إِلَّاهُ مُجَلِّيهَا
وَلَمْ يَزَلْ ضَارِبًا فِي ٱلْبِيدِ يَقْطَعُهَا   وَخَيْلُهُ يَمْلَأُ ٱلْآفَاقَ مُهْبِيهَا

فيها الفئة الباقية ، أين المحتسبون ؟ ، أين المؤمنون ؟ ، مالي ولقريش ، أما والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلنّهم مفتونين ، ومالنا الى عائشة من ذنب الا انّا قد أدخلناها في حيزنا ، والله لأبقرنّ الباطل حتى يظهر الحقّ من خاصرته ، فقل لقريش : فلتضجّ ضجيجها » اه فهلل الناس وكبروا لخطابه وهم متحفزون للمسير تحت رايته المنصورة

وكان خروج المرتضى عليه صلوات الله الى البصرة في آخر شهر ربيع الآخر سنة ٣٦ للهجرة خرج ومعه أولاده الحسن والحسين ومحمد (ابن الحنفيه) ومن والاه من المهاجرين والانصار وأتقياء المسلمين وبلغ عدد ركبه نحو التسعمائة

وكانت وفود العرب تفد عليه مقدمة الطاعة وتطلب الانضمام اليه والسير معه فيحمد لها طاعتها واخلاصها ويعيدها ادراجها وذلك لانّه عليه صلوات الله لم يكن خارجاً للغزو والفتح ولكن لتأديب طائفة من المسلمين عصت عليه وردّها الى الطاعة فرأى بنظره البعيد ورأيه السديد انه لو صحب

حَتَّى إِلَى ٱلرَّبَذَةِ ٱلرَّكْبُ ٱنْتَهَتْ فَثَوَتْ   فِي ظِلِّ حَيْدَرَةِ ٱلْغَازِي ضَوَاحِيهَا
وَلَمْ تَكُ ٱلْبَصْرَةُ ٱلْغَنَّا لَتَبْعُدُ عَنْـــهَا   غَيْرَ بِضْعَةِ أَمْيَالٍ لِمَاشِيهَا

مدد الكوفيين لامير المؤمنين

لَمَّا ٱسْتَقَرَّ إِمَامُ ٱلْمُسْلِمِينَ بِرَبْـــذَةٍ   وَأَنْصَارُهُ قَدْ خَيَّمَتْ فِيهَا(١)
رَأَى بَدَاءَةَ ذِي بَدْءٍ مُخَاطَبَةَ ٱلْأَ   مْ صْحَابِ فِي ٱلْكُوفَةِ الزَّهْرَا بِنَادِيهَا
أَوْفَى لَهَا رُسْلَهُ كَيْمَا تُخَبِّرُهَا   عَنْ حُسْنِ رَغْبَتِهِ حَتَّى تُمَالِيهَا
كَذَاكَ أَوْفَى بِلَا بِطْءٍ أَوَامِرَهُ   إِلَى ٱبْنِ قَيْسٍ أَبِي مُوسَى لِيُمْضِيَهَا

العريان في خروجه لما أمن استفحال الخطب ولتعذر عليه حفظ النظام بين أصحابه وعدم الاختلاف في المهمة التي هو خارج اليها وهي اعادة السلام الى المسلمين واستئصال الفتنة وتأديب مثيريها

وكان عليه صلوات الله يتلقى في طريقه أنباء الممالك الاسلامية عاصيها وطائعها حتى اذا مابلغ الربذة علم بأنَّ أصحاب الجمل دخلوا البصرة محاربين بعد أن قاتلهم البصريون فقام في الربذة أياما موجهاً بصره نحو الكوفة لعلمه انَّ أهلها من أخلص المخلصين لخلافته

(١) عند ما نزل سيدنا علي عليه صلوات في الربذة وبلغه ما فعل اصحاب الجمل في البصرة من اعتدائهم على الناس ودخولهم البلد محاربين رأى بداءة ذي بدءٍ أن يستنفر اليه أهل الكوفة وهم مخلصون له مطيعون خلافته مبايعون له فكتب اليهم الكتاب التالي « من عبدالله علي أمير المؤمنين الى أهل الكوفة ، جبهة الانصار ، وسنام العرب ؛ أما بعد ؛ فاني اخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه ، انَّ الناس طعنوا عليه ، فكنت رجلاً من المهاجرين اكثر استعتابه ، واقلَّ عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف ، وارفق حدائهما العنيف ؛ وكان من عائشة فيه فلتة غضب ، اتيح له قوم فقتلوه ؛ وبايعني الناس غير مكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين ، واعلموا أنَّ دار الهجرة قلعت باهلها وقلعوا بها ، وجاشت جيش المرجل ، وقامت الفتنة على القطب ؛ فاسرعوا الى اميركم ، وبادروا جهاد عدوكم » ... [illegible] ... ولالذين انصاراً ، انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله لعلكم تفلحون » اه

وكتب عليه صلوات الله الى ابي موسى الاشعري » وكان قد تولى امارة الكوفة في آخر ايام عثمان بطلب الكوفيين واقره سيدنا علي على امارتها لقول الاشتر له ان الناس فيها تريده » الكتاب التالي « من عبد الله علي أمير المؤمنين ، الى عبد الله بن قيس ؛ اما بعد فقد بعثت اليك هاشم ابن عتبة ، لتشخص اليَّ من قبلك من المسلمين ؛ ليتوجهوا الى قوم نكثوا بيعتي ، وقتلوا شيعتي ، واحدثوا في الاسلام هذا الحدث العظيم ، فاشخص بالناس اليَّ معه حين يقدم عليك ، فاني لم أولك المصر الذي أنت فيه ، ولم اقرّك عليه ، الاَّ لتكون من اعواني على الحقّ وانصاري على هذا الامر والسلام » اه

تقول ارسل سيدنا علي عليه صلوات الله هذين الكتابين الى أبي موسى الاشعري وأهل الكوفة مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو لايشكّ انَّ أبا موسى سينهض الى تلبيته بالطاعة الواجبة له عليه صلوات الله كخليفة المسلمين وكريب المصطفى وابن عمه وصهره اما ابو موسى فلم

وَكَانَ مِنْ عَهْدِ عُثْمَانٍ أَوَاخِرِهِ ... كَمَا أَبُو حَسَنٍ أَبْقَاهُ وَالِيهَا
وَالأَشْعَرِيُّ لَقَدْ لَاقَى بِأَخْشَنِ مَا ... يُلْفَى الأَوَامِرَ نَادَى لَسْتُ مُجْرِيهَا
وَقَالَ: بَيْعَةُ عُثْمَانٍ لَفِي عُنُقِ آلِ عَلِيٍّ ... مَابَالُهُ قَدْ رَاحَ نَاسِيهَا

يكن عند ظنّ سيدنا علي فحبس الكتاب الذي كتبه للكوفيين واخشن الجواب لهاشم قائلاً : اذا كان يريد عليٌّ الصلح فأنا معه واذا كان يريد الحرب فأنا مخالفه وانّ بيعة عثمان هي في عنق علي وعنقي فلنبدأ أولاً بقتلة عثمان ثمّ ننظر في غيره واذ الحف عليه تهدده بالسجن والقتل وهكذا أظهر أبو موسى ابتعاده عن نصرة الامام ورغبته بمشاكسته فكتب هاشم الى سيدنا أمير المؤمنين يقول « اني قدمت بكتابك على امرئ مشاق ، بعيد الردّ ، ظاهر الغلّ والشنآن ، فتهددني بالسجن ، وخوفني بالقتل » فلما انتهى جواب هاشم الى سيدنا علي لام الاشتر الذي كان قد اشار عليه بالابقاء على أبي موسى أميراً للكوفة وبعث الى الكوفة ابنه الحسن عليه السلام ومعه عمار بن ياسر وزيد بن صوحان وقيس بن سعد بن عبادة وامرهم ان يعزلوا ابا موسى عن امارة الكوفة وصحبهم الى الكوفيين بالكتاب التالي « من عبد الله علي أمير المؤمنين ، الى من بالكوفة من المسلمين ، اما بعد فاني خرجت مخرجي هذا ، اما ظالماً واما مظلوماً ، واما باغياً واما مبغياً عليّ ، فانشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا الا نفر اليّ ، فان كنت مظلوماً اعانني ، وان كنت ظالماً استعتبني ، والسلام » اه

ولما بلغ سيدنا الحسن عليه السلام باصحابه الكوفة دعوا الناس الى المسجد فحضروا وفيهم ابو موسى الاشعري اميرهم فعلا المنبر سيدنا الحسن خطيباً فحمد الله واثنى عليه وقال: « ايها الناس انا جئنا كم ندعوكم الى الله ، والى كتابه وسنة رسوله ، والى افقه من تفقه من المسلمين ، واعدل من تعدلون ، وافضل من تفضلون ، واوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم تجهله السنة ، ولم تقعد به السابقة ، الى من قربه الله ورسوله قرابتين ، قرابة الدين ، وقرابة الرحم ، الى من سبق الناس الى كل مأثرة ، الى من أعان الله به رسوله والناس متخاذلون ، فقرب منه وهم متباعدون ، وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون ، الى من لم ترد له ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسالكم النصر ، ويدعوكم الى الحق ، ويامركم بالمسير اليه لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا راية بيعته ، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ، ومثلوا بعماله ، وانتهبوا بيت ماله ، فاشخصوا اليه رحمكم الله ، فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون » وبعد هذا الخطاب تلا عليهم كتاب سيدنا علي عليه صلوات الله فكان للكتاب والخطاب تاثيرهما في نفوس الناس مما لم يخف على ابي موسى فعلا المنبر خطيباً فقال « الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ، فجمعنا بعد الفرقة ، وجعلنا اخواناً متحابين بعد العداوة ، وحرّم علينا دماءنا وأموالنا ، قال الله سبحانه : (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) وقال تعالى : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها) فاتقوا الله عباد الله ، وضعوا أسلحتكم ، وكفوا عن قتال اخوانكم ، أما بعد يا أهل الكوفة ، ان تطيعوا الله بادئاً وتطيعوني ثانياً ، تكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، يأوي اليكم المضطرّ ، ويأمن فيكم الخائف ، ان علياً انما يستنفركم لجهاد أمكم عائشة وطلحة والزبير حواري رسول الله ومن معهم من المسلمين ، وأنا أعلم بهذه الفتن ، انها اذا أقبلت شبهت ، واذا أدبرت أسفرت ، اني أخاف عليكم أن يلتقي غاران منكم فيقتتلا ، ثمّ يتركا كالاحلاس الملقاة بنجوة من الارض ، ثمّ يبقى رجرجة من الناس ، لا يأمرون بمعروف ،

وَإِنِّي لَسْتُ مِطْوَاعًا لِرَغْبَتِهِ ... وَلَا بِكُوفَتِنَا نَاسٌ تُوَخِّيهَا

لٰكِنْ إِذَا كَانَ يَبْغِي ٱلصُّلْحَ يَنْشُدُهُ ... فَٱلنَّاسُ مَعَهُ وَإِنِّي فِي أَوَالِيهَا

كَذَاكَ رَدَّ سُعَاةَ ٱلْمُرْتَضَى بِخُشُو ... نَةٍ فَعَادَتْ بِلَا جَدْوَى لِمُوفِيهَا

فَأَوْفَدَ ٱلْمُرْتَضَى مِنْ بَعْدِهَا حَسَنًا ... بِسُلْطَةٍ مَا أَبُو مُوسَى يُنَاوِيهَا

فَسَارَ وَٱسْتَنْفَرَ ٱلْأَصْحَابَ مُعْتَمِدًا ... عَلَى نُفُوذِ أَبِيهِ فِي تَجَمِّيهَا

وَأَجْلَبَ ٱلرَّجْلَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدَاوَةِ وَٱلْـ ... ـقُرَى وَأَبْعَدَ مَنْ كَانُوا مُعِيقِيهَا

وَعَنْ إِمَارَتِهَا نَحَّى ٱلْأَمِيرَ أَبَا ... مُوسَى وَأَقْصَاهُ عَنْ سُكْنَى مَثَاوِيهَا

وَكَانَ سُكَّانُهَا أَنْصَارَ بَيْعَةِ مَوْ ... لَانَا أَبِي حَسَنٍ ٱلسَّامِي مُرِيدِيهَا

سَارَتْ جُمُوعًا تُنَادِي بِٱسْمِ حَيْدَرَةٍ ... عَلَى خُطَى حَسَنٍ ٱلْقُدَّامِ مُخْطِيهَا

ولا ينهون عن منكر ، انها قد جاءتكم فتنة كافرة لايدرى من أين تؤتى ، تترك الحليم حيراناً ، كأني أسمع رسول الله يذكر الفتن فيقول : أنت فيها نائماً خيرٌ منك قاعداً ، وأنت فيها جالساً خيرٌ منك قائماً ، وأنت فيها قائماً خيرٌ منك ساعياً ، فثلّموا سيوفكم ، وقصّفوا رماحكم ، وانصلوا سهامكم ، وقطّعوا أوتاركم ، وخلوا قريشاً ترتق فتقها ، وترأب صدعها ، فان فعلت فلأنفسها ما فعلت ، وان أبت فعلى أنفسها ماجنت ، سمها في أديمها ، استنصحوني ولاتستغشوني ، وأطيعوني ولا تعصوني ، يتبين لكم رشدكم ، ويصلى هذه الفتنة من جناها» اهـ

قال الراوي كان ابو موسى يخطب في الناس وهم ينظرون اليه شزراً ولولا الذي رأوه من رصانة وسعة صدر سيدنا الحسن وعمار بن ياسر لمزقوه اربا لانهم لم يكونوا يوماً راضين عن عمال عثمان وقد عرفت كيف اكرهوه على عزل عامله عليهم سعيد بن العاص كما رأيت ثوارهم في المدينة يشتركون بالثورة ضد عثمان مع المصريين والبصريين . وماكاد ينتهي من خطابه حتى ابتدره سيدنا الحسن بآدابه العالية الخليقة بمن يكون جده المصطفى واباه المرتضى وامه فاطمة الزهراء عليهم الصلاة والسلام وقال لابي موسى «علام ياعم تثبط الناس عنا فوالله لانريد الا الاصلاح وما مثل أمير المؤمنين يخاف منه على شيء» قال أبو موسى صدقت بأبي وأمي ولكن المستشار مؤتمن واني أوردت ماسمعته عن المصطفى عليه الصلاة والسلام عن الفتنة . فغضب عمار وقال ايها الناس انه قال رسول الله ذلك لابي موسى خاصةً . فعترضه رجل من تميم وتقدم الناس فانتصروا لعمار وطفق أبو موسى يكفّ الناس عن الفتنة وبينما هم كذلك واذا برسول يحمل كتابين من عائشة احدهما لابي موسى خاصه والثاني لاهل الكوفة فقرأهما على الناس فاذا بهما تطلب من الكوفيين وأميرهم ان يقعدوا عن نصرة علي اذا لم يرغبوا بالنهوض معها للمطالبة بدم عثمان فقال زيد بن صوحان وكان من أصحاب علي : انظروا ايها الناس الى هذه المرأة أمرت أن تقر في بيتها وامرنا نحن أن نقاتل حتى لاتكون فتنة فأمرتنا بما أمرت به وركبت ما أمرنا به . فعترضه رجل يدعى شبث بن ربعي قائلاً : وما أنت وذاك أيها العماني الاحمق سرقت أمس بجلولاء فقطعت يدك وسببت ام المؤمنين ؟ فرفع زيد يده المقطوعة الى

وَقَبْلَمَا وَصَلَتْ أَنْبَا ٱلْوَصِيُّ بِمَا   تَعُدُّ كَانَتْ كَمَا أَنْبَا لِمُحْصِيهَا

وَقَابَلَتْهُ بِذِي قَارٍ وَكَانَ مَضَى   بِصَحْبِهِ نَحْوَهَا أَثْوَوْا صَيَاصِيَهَا

فَٱسْتَقْبَلَ ٱلْقَوْمَ بِٱلتَّرْحَابِ حَيْدَرَةٌ   وَرَاحَ يُطْرِي وَقَدْ لَبَّتْ تَدَاعِيَهَا

فَقَالَ: أَهْلًا بِكُمْ أَبْنَاءَ كُوفَةَ فِيكُمْ نُصْرَةُ ٱلدِّينِ أَنِّي آضَ يَبْغِيهَا

قَاتَلْتُمُ قَوْمَ كِسْرَى وَٱنْتَصَرْتُمْ فِي   قِتَالِهَا وَغَنِمْتُمْ مَا بِأَيْدِيهَا

مَنَعْتُمُ بِٱسْمِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ حَوْزَتَكُمْ   أَعَنْتُمُ ٱلنَّاسَ فِي مَلْقَى أَعَادِيهَا

وَقَدْ دَعَوْتُكُمُ دَعْوَى لِأَشْهَدَكُمْ   مَعَنَا ٱلْأُلَى ٱلْبَصْرَةُ ٱلْغَنَّاءُ تَأْوِيهَا

فَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنْهَا ٱلْإِنْصِيَاعَ فَذَا   تَٱللَّهِ بُغْيَتُنَا ٱلْكُبْرَى نُرَجِّيهَا

وَإِنْ تَلُجَّ فَبِٱلْحُسْنَى نُعَالِجُ أَمْ   رَاضًا شَكَتْ وَبَكَتْ مِنْهَا لِنَشْفِيهَا

وَإِنْ هِيَ ٱبْتَدَأَتْ بِٱلظُّلْمِ نَدْفَعُهَا   بِمِثْلِهِ وَإِذَا أَرْغَتْ نُرَاشِيهَا

وَلَسْتُ أَتْرُكُ مَا فِيهِ ٱلصَّلَاحُ وَلَا   أَرْضَى ٱلْمَفَاسِدَ مَا رَاحُوا مُعِيشِيهَا

ابي موسى وقال: أترد الفرات عن أمواجه دع عنك مالست تدركه ثم قرأ قوله تعالى (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) ثمَّ أمال وجهه الى الناس وقال: سيروا الى أمير المؤمنين وصراط سيد المرسلين وانفروا أجمعين. وتلا زيداً سيدنا الحسن عليه السلام فصاح: ايها الناس، احيبوا دعوة امامكم، وسيروا الى اخوانكم، فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه، والله لأن يليه أولو النهى، أمثل في الآجلة، وخير في العاقبة، فاجيبوا دعوتنا، وأعينونا على أمرنا، اجابكم الله» وما كاد سيدنا الحسن ينتهي من دعوته حتى نهض عبد خير فقال: يا أبا موسى اخبرني عن هذين الرجلين (ويريد طلحة والزبير) ألم يبايعا علياً؟ قال: بلى قال: أفأحدث عليٌّ حدثاً يحلُّ به نقض بيعته؟ قال أبو موسى لا أدري. قال: لادريت ولا اتيت اذا كنت لاتدري فنحن تاركوك حتى تدري. ثمَّ مال الى الناس وقال: هلموا الى امير المؤمنين فهناك الناس يطلبون نصرة الحق على الباطل وهكذا كان الاجماع ضد أبي موسى فنزل عن المنبر وخفَّ الى بيته مخذولاً

وأرسل سيدنا الحسن رسولاً الى سيدنا علي على المصطفى وعليهما الصلاة والسلام ينبئه عما كان من أبي موسى فنادى الاشتر وكان بصحبته وقال له: أنت شفعت في أبي موسى ان اقره على الكوفة فاذهب فاصلح ما أفسدت فاسرع الاشتر الى الكوفة ووصلها باسرع ما يمكن وجعل يمرّ بالناس ويقول اتبعوني الى القصر فيتبعونه حتى اذا ما انتهى الى قصر الامارة دخل على أبي موسى وقال له: اخرج من قصرنا لا امَّ لك اخرج الله نفسك فوالله انك لمن المنافقين قديماً. فاصفرَّ وجه أبي موسى وسأله أن يمهله عشية ذلك اليوم فامهله على أن لا يبيت بعدها في قصر الامارة. وحاول الكوفيون ان يقتحموا القصر وينتهبوا ما فيه من متاع أبي موسى فمنعهم وقال اني قد أخرجته وعزلته عنكم وهذا حسبنا وحسبكم فكفَّ الناس عنه

بِنَا أَبُو حَسَنٍ عَنْ كُنْهِ رِحْلَتِهِ أَمَاطَ كُلَّ لِثَامٍ قَدْ يُغَشِّيهَا
إِذَا بِهِ لَا يُرِيدُ ٱلْإِعْتِدَاءَ عَلَى ٱلْعَاصِينَ لٰكِنَّهُ وَافَى يُرَبِّيهَا

مقابلة أمير المؤمنين لطلحة والزبير

وَجَدَّتِ ٱلصُّلَحَا فِي ٱلصُّلْحِ تَنْشُدُهُ لِلْمُسْلِمِينَ فَلَمْ تَنْجَحْ مَسَاعِيهَا(١)
كَانَتْ تَرَى عِنْدَ مَوْلَانَا أَبِي حَسَنٍ سَمَاحَةً وَلَدَى أَعْدَائِهِ تِيهَا
حَتَّى إِذَا يَئِسَتْ مِنْ مَنْعِ أُمَّةِ طٰهَ مِنْ مَوَاقِفِ شَرٍّ كَانَ آتِيهَا
لَاذَتْ بِحَيْدَرَةٍ حَامِي ٱلْحِمَى فِئَةٌ مِنْهَا وَأُخْرَى تَوَلَّتْ فِي بَرَارِيهَا
وَأَسْرَعَتْ لِلْوَغَى جُنْدُ ٱلْخِلَافَةِ قُبْلَ ٱلْبَصْرَةِ ٱلْمُبْتَلِي بِٱلشَّرِّ ثَاوِيهَا
وَخَيَّمَتْ بِإِزَاءِ ٱلْمُعْتَدِينَ ذَوِي ٱلْكَيْدِ قَهْرًا وَأَثْوَتْ فِي ضَوَاحِيهَا
وَأَشْفَقَ ٱلْمُرْتَضَى أَنْ يُهْرِقَنَّ دِمَاءَ ٱلْمُسْلِمِينَ بِلَا عُذْرٍ وَيُمْنِيهَا
فَرَاسَلَ ٱلنَّاسَ يَدْعُوهَا لِطَاعَتِهِ بِٱسْمِ ٱلْكِتَابِ وَبِٱلنُّعْمَى يُمَنِّيهَا
فَمَا ٱرْعَوَتْ وَعَلَى ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي رَغِبَتْ فِيهِ أَصَرَّتْ وَظَلَّتْ فِي تَرَغِّيهَا
وَلَا تَعَجَّلَهَا بِٱلْحَرْبِ حَيْدَرَةٌ بِحِلْمِهِ بَلْ أَبَى يَبْغِي تَلَافِيهَا
وَبَادَرَ ٱلْقَوْمَ فَرْدًا أَعْزَلًا وَصِحَا بُهُ بِفِعْلَتِهِ تُبْدِي تَحَزِّيهَا

وفي اليوم التالي اعلن الاشتر دعوة الجهاد تحت راية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه صلوات الله فلبوه فسار بهم سيدنا الحسن وعمار بن ياسر الى « ذي قار » حيث كان يثوي جيش سيدنا علي وكان عليه صلوات الله انبأ اصحابه قائلا : سيأتيكم من الكوفة اثنا عشر الف رجل فكان كما قال لهم وبلغ عدد الكوفيين الذين انجدوا الخليفة هذا العدد بتمامه كما كان محصيهم وما هذه هي المرة الاولى التي انبأ بها سيدنا علي عليه صلوات الله بما سيكون وصدق

(١) لم يكن سيدنا علي عليه صلوات في خروجه الى البصرة يريد البطش والانتقام ولكن التأديب واعادة النظام ولذلك كان يتأنى كثيراً في قتال اصحاب الجمل ويتمنى لو توفق الى حل مشكلتهم من غير أن يلجأ الى تحكيم السيف وكان كثيرون من رؤساء المسلمين والعلماء على مثل نيته الطاهرة وجهدوا في صرف المشكلة باقناع عائشة بالعودة الى خدرها وترك السياسة والحرب للرجال واقناع طلحة والزبير بالرجوع عما اقدما عليه ولاسيما ان بيعة سيدنا علي في عنقيهما فلم يفلحوا ومن هؤلاء من اقبلوا بعشائرهم على سيدنا علي ينصرونه ومنهم من ضربوا في الفلوات الشاسعة ابتعاداً عن فتنة شجرت بين المسلمين وما استحلوها

واذ أعيت الحيل سيدنا علي عليه صلوات الله ولم يبق في قوس اصطباره منزع سار باصحابه

وَكَانَ يَسْعَى بِهِ رَكْضاً مُطَهَّمُهُ ... بِطَلْبَةٍ تَحْمُدُ ٱلدُّنْيَا مُؤَرِّخِيهَا
حَتَّى إِذَا مَا دَنَا مِنْ مَبْرَكِ ٱلْجَمَلِ ٱلَّـ ... ـذِي ٱلْعِدَاةُ حَوَالَيْهِ تَجَمِّيهَا
نَادَى ٱلزُّبَيْرَ وَنَادَى طَلْحَةَ عَلَناً ... أَنْ أَقْبِلَا حَسْبُ أَهْلِ ٱلدِّينِ نَغْوِيهَا
فَأَقْبَلَا وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا طَمَعٌ ... أَعْمَى بَصِيرَتَهُ عَمَّا يُدَانِيهَا
وَقَدْ تَدَرَّعَ وَٱشْتَكَّ ٱلسِّلَاحَ وَوَا ... مِ فَاهُ بِشِدَّتِهِ مَا كَانَ مُكْمِيهَا
مَا سَلَّمَا عِنْدَ مَا مِنْ جَاهِهِ دَنَوَا ... وَلَا عُيُونُهُمَا هَابَتْ مُلَاقِيهَا
أَمَّا ٱلْإِمَامُ فَعَيْنُ ٱلْعَتْبِ أَرْسَلَ مِنْـ ... ـهَا نَظْرَةً ذُو ٱلْحِجَى يَدْرِي مَعَانِيهَا
وَقَالَ : أَعْدَدْتُمَا لِلْحَرْبِ عِدَّتَهَا ... يَا صَاحِبَيَّ عَلَى بَادِي مَسَاوِيهَا
فَهَلْ لِرَبِّكُمَا أَعْدَدْتُمَا حُجَجاً ... لِعُصْبَةٍ سُقْتُمَاهَا قَدْ تُبَرِّيهَا
أَمَا ٱلشَّرِيعَةُ آخَتْ بَيْنَ أُمَّتِنَا ... أَمَا حَرِيٌّ بِنَا نَرْعَى تَآخِيهَا
أَمَا خَلِيقٌ بِنَا تَحْرِيمُ سَفْكِ دِمَا ... ءِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَنَكْفِيهِمْ مُرِيقِيهَا
بِٱللّٰهِ هَلْ حَدَثٌ مِنِّيَ أَحَلَّ دَمِي ... أَمِ ٱلْمَحَارِمُ قَدْ بِتُّمْ مُحِلِّيهَا
فَقَالَ طَلْحَةُ : أَلَّبْتَ ٱلْعُصَاةَ عَلَى ... عُثْمَانَ لَوْلَاكَ لَمْ يَفْقَمْ تَعَصِّيهَا
وَثَأْرُهُ مِنْكَ نَحْنُ ٱلْيَوْمَ نَطْلُبُهُ ... مَادُمْتَ تَأْوِي أَعَادِيهِ وَتَحْمِيهَا
فَقَهْقَهَ ٱلْمُرْتَضَى سُخْراً بِقَوْلَتِهِ ... وَقَالَ : شَوَّهْتَ صَاحِ ٱلْحَقَّ تَشْوِيهَا
هَلْ أَنْتَ يَا طَلْحُ قَدْ وَافَيْتَ تَطْلُبُ ثَا ... رَاتِ ٱبْنِ عَفَّانَ تَسْتَقْضِي مُدِينِيهَا

من ذي قار يريد البصرة وعلم أصحاب الجمل بمقدمه فخرجوا الى لقائه وعسكروا حيال البصرة ولم يبق الا أن يشتبك الجيشان ويحكم السيف في هذا الخلاف

وأراد سيدنا علي عليه صلوات الله بدافع حميته الدينية وغيرته الاسلامية ان يرمي آخر سهم في كنانته في سبيل الصلح فرك حواده وهو اعزل من السلاح وانطلق نحو معسكر اصحاب الجمل اما اصحابه فدهشوا لمسيره نحو أعدائه على هذه الحال وهم يعلمون ان اقصى ما يتمنونه قتله وحاولوا ان يرجعوه عن رغبته فما استطاعوا لذلك سبيلاً . اما اصحاب الجمل فعندما رأوا علياً مقبلاً عليهم تهيبوه وفرقوا لمقدمه وهم لا يجهلون مبلغ شجاعة أبي الحسنين عليه صلوات الله حتى اذا ما دنا منهم وصار صوته مسموعاً من معسكرهم نادى الزبير وطلحة أن يقبلا اليه فما امتنعا عن تلبيته وبادراه وهما مدججان بالسلاح على جواديهما حتى اذا ما دنوا منه صاح بهم قائلاً لقد اعددتما للحرب عدتها ولكن هل اعددتما لها عذراً تعتذران به عند الله ؟ وهل أتيت ذنباً أو أحدثت حدثاً أحل دمي ؟ أما قال

فَلَعنةُ ٱللهِ تَغشَى قَاتِلِيهِ وَأَخـشَى أَنْ يَنالَكَ قِسطٌ مِنْ غَوَاشِيهَا

يَاطَلْحُ قَدْ جِئْتَنَا مَكْراً بِعِرْسِ رَسُوْ   لِ ٱللهِ عِدَّةَ حَرْبٍ رُحْتَ شَاكِيهَا

وَجُزْتَ عِرْسَكَ فِيْ ضَافِي مَنَازِلِهَا   أَمِينَةً تَتَهَنَّا فِيْ تَظَلِّيهَا

يَاطَلْحُ قُلْ لِيْ أَمَا بَايَعْتَنِيْ فَعَلَى   مَ تَنكُثُ ٱلبَيعَةَ ٱلمَحمُوْدُ مُعْطِيهَا

فَقَالَ طَلْحَةُ لَاخَاشٍ وَلَا خَجِلٌ   مَقَالَةً قَدْ أَسَا مُسْتَعْذِراً فِيهَا

بَايَعْتُكَ ٱلأَمْسَ وَٱلأَسْيَافُ مُشْهَرَةٌ   مَافَوْقَ رَأْسِي مِنْ أَيْدِيْ مُبِيعِيهَا

وَإِذْ رَأَى ٱلمُرْتَضَى أَنَّ ٱلنَّصِيحَةَ مَعْـ   ـهُ غَيْرُ مُجْدِيَةٍ نَفْعاً لِمُسْدِيهَا

أَمَالَ أَلحَاظَهُ عَنْهُ وَسَدَّدَهَا   إِلَى ٱلزُّبَيْرِ فَلَمْ تُخْطِئْ مَرَامِيهَا

وَقَالَ: إِنَّ مَرَدَّ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِهَا   إِلَى ٱلإِلٰهِ ٱلَّذِيْ يَدْرِيْ خَوَافِيهَا

وَهْوَ ٱلَّذِيْ يَتَوَلَّى أَمْرَهَا نَصَفاً   عَلَى صَنَائِعِهَا ٱلشَّتَّى يُكَافِيهَا

وَسَوْفَ تَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ مُسْعِدُهَا   إِنْ أَحْسَنَتْ وَإِذَا أَخْطَتْ فَمُشْقِيهَا

وَقَدْ دَعَوْتُكَ هٰذَا ٱليَوْمَ أُذْكِرُكَ ٱلْـ   ـمَاضِي فَقَدْ تَحْسُنُ ٱلذِّكْرَى لِنَاسِيهَا

مَقَالَةَ ٱلمُصْطَفَى إِذْ قَالَهَا لِكِلَيْـ   ـنَا هَلْ لَبِثْتَ نَظِيرِيْ صَاحِ وَاعِيهَا

فَقَالَ: كَلَّا فَقُلْهَا عَلَّ أَذْكُرُهَا   قَالَ ٱلعَلِيُّ: أَصِخْ سَمْعاً لِأَرْوِيهَا

فِيْ ذَاتِ يَوْمٍ لَقَدْ أَلْفَاكَ مُعْتَنِقِيْ   عِنَاقَ ذِيْ مِقَةٍ يَهْوَى تَبَقِّيهَا

فَقَالَ: هَلْ أَنْتَ تَهْوَى صَاحِبِيْ وَأَخِي   وَهَلْ حُقُوقُ وَلَاهُ أَنْتَ مُوْفِيهَا

الله في كتابه العزيز « انما المؤمنون اخوة » فعلامَ تثيران هذه الفتنة ؟ فقال طلحة بلا خشية ولا وجل انناجئنا نطالبك بدم عثمان فطرااليه سيدنا علي بن أبي طالب بعين العاتب هل انت ياطلحة تطالب بدم عثمان وهو لايعدوك قال بل دم عثمان في عنقك مادمت تحمي قتلته فقال ويلك أأتيت بعرس رسول الله عدة حرب وتركت عرسك في بيتها ؟ أما بايعتني ياطلحة علام!؟ فقال طلحة قدكان ذلك والسيوف مشهرة على عنقي . فعرف سيدنا علي من حديث طلحة انه لا يرعوي عن غية فتركه وارسل نظرةً صادقة الى الزبير وقال: انما دعوتك لاذكرك حديثاً قاله لي ولك رسول الله صلى الله عليه وآله لعلك ناسيه. قال قل لعلّي اذكره. قال علي اتذكر يوم رآك رسول الله معتنقي فقال لك اتحبه ؟ قلت وما لي لا أحبه وهو أخي وابن خالي؟ فقال اما انك ستحاربه وأنت ظالم له. فاطرق الزبير هنيهة كمن يفكر ثمّ حوقل واسترجع وقال: أذكرتني يا أبا الحسن ماانسانيه الدهر وقد ندمت على ما فعلت فوالله لا احارب قوماً انت تحميهم قال هذا الزبير وثنى عنان جواده راجعاً الى معسكر اصحاب الجمل وهو يدمدم فلقيه طلحة وهو

فَقُلْتَ : مَالِيَ لَا أَهْوَاهُ وَهْوَ أَخِي ... هُــوَ ٱبْنُ خَالِيَ قُرْبَاهُ أُهَاوِيهَا
نَادَى : فَإِنَّكَ قَاتِلُــهُ وَظَالِمُهُ ... غَداً وَمَا زَادَ عَمَّا قَالَ تَنْبِيهَا
وَمَا ٱنْتَهَى ٱلْمُرْتَضَى مِنْ سَرْدِ قِصَّتِهِ ... عَلَى ٱلزُّبَيْرِ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ صَاغِيهَا
حَتَّى ٱرْعَوَى مُزْجِعاً يُؤْذِي أَصَابِعَهُ ... مِنَ ٱلنَّدَامَةِ تَعْضِيضاً وَيُدْمِيهَا
يَقُولُ : أَذْكَرْتَنِي مَا ٱلدَّهْرُ صَرَّفَهُ ... عَنْ فِكَرِي يَا وَصِيَّ ٱلْمُصْطَفَى إِيهَا
قَدِ ٱرْعَوَيْتُ فَوَٱللهِ ٱلْعَظِيمِ يَمِيـــناً لَا أُحَارِبُ قَوْماً أَنْتَ حَامِيهَا
وَعَادَ أَدْرَاجَــهُ يَبْغِي جَمَاعَتَهُ ... لِكَيْ بِتَوْبَتِهِ ٱلْحَسْنَاءِ يُنْبِيهَا
وَعَوْدُهُ نَحْوَهَا بِٱلْيَأْسِ حَيَّرَهَا ... فَلَا تَسَلْ كَيْفَ لَاقَى مُسْتَحِيرِيهَا
وَطَلْحَةٌ عَادَ مَعَهُ وَهْوَ مُمْتَعِضٌ ... مِنْهُ زِنَادُ ٱلْوَغَى لِلنَّاسِ يُورِيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى عَادَ مَسْرُورَ ٱلْفُؤَادِ إِلَى ... أَصْحَابِهِ طَالِبــاً هَانِيَ مَثَاوِيهَا

حرج موقف الزبير

قَدْ هَالَ عَائِشَةً عَوْدُ ٱلزُّبَيْرِ عَنِ ٱلْـــقِتَالِ وَٱكْتَأَبَتْ مِنْهُ حَوَاشِيهَا(١)

يحرق الارم على سيدنا علي بعد الذي رأى من ندم صاحبه الزبير . ولما وصلا الى معسكر الجمل لقيهما زعماء القوم يستخبران منهما خبر علي فقال طلحة انه فتن صاحبكم وقال الزبير على البداهة

نادى عليٌّ بأمرٍ لست أنكره ... وكان عمرو أبيك الخير مذ حين
فقلت حسبك من عذلٍ أبا حسنٍ ... بعض الذي قلت منذ اليوم يكفيني
ترك الامور التي تخشى مغبتها ... والله أمثل في الدنيا وفي الدين
فاخترتُ عاراً على نارٍ مؤججةٍ ... أنَّى يقوم لها خلقٌ من الطين

ودمفرّت وجوه القوم وعلموا ان الزبير قد ندم على ما فعل ولم يعد على رأيهم في محاربة سيدنا أمير المؤمنين وأخذوا يضربون أخماساً لاسداس لتلافي هذا الخطر الذي فوجئوا به

أما سيدنا علي عليه صلوات الله فقد عاد الى أصحابه وهو مسرورٌ منشرح الصدر فقالوا له يا أمير المؤمنين تبرز الى طلحة والزبير حاسراً وهما شاكا السلاح وأنت تعرف مبلغ حقدهما عليك ؟ فتبسم عليه صلوات الله وقال : « انهما ليسا بقاتليَّ ، انما يقتلني رجل خامل الذكر ، ضئيل النسب ، غيلةً ، في غير ماحرب ، ولا معركة رجال ، ويل أمه انه أشقى البشر ، ليودنَّ أنَّ أمه هبلت به ، أما انه وأحمر ثمود لمقرونان في قرنٍ »

(١) ماشاع بين أعيان أصحاب الجمل رجوع الزبير عن حرب علي حتى سقطوا في أيديهم لما علموه من سوء تأثير رجعته على الناس وهم يبرّرون به وبطلحة وعائشة محاربتهم لسيدنا علي وازدحموا

وَخَافَتِ ٱلنَّاسُ خُذْلَاناً بِزَوْرَتِهِ   عَنْهَا يُشَتِّتُ تَشْتِيتاً تَجَمُّعَهَا

وَهَاجَمَتْهُ لِتَغْوِيهِ وَتُرْجِعُهُ   عَنْ تَوْبَةٍ قَدْ نَوَاهَا لَا يُخَلِّيهَا

فَلَمْ تَدَعْ حُجَّةً مِمَّا تَخَالُ بِهَا ٱلْإِ   قْنَاعَ إِلَّا بِهَا جَاءَتْهُ تُدْلِيهَا

حَتَّى إِذَا عَجِزَتْ عَنْهُ وَعَزْمَتُهُ   عَلَى ٱلْإِنَابَةِ أَوْهَتْ عَزْمَ مُثْنِيهَا

وَافَاهُ يَلْحُوهُ عَبْدُ ٱللهِ وَهْوَ فَتَا   هُ بِٱسْمِ خَالَتِهِ مَعْ مَنْ يُوَالِيهَا

فَقَالَ: يَا أَبَتِ أَوْرَيْتَ فِتْنَتَنَا   حَتَّى إِذَا ٱشْتَعَلَتْ حَاوَلْتَ تُطْفِيهَا

أَهِبْتَ رَايَاتِ صَحْبِ ٱلْمُرْتَضَى فَجَبُنْـ   ـتَ أَمْ تَهَيَّبْتَ أَنْ تَلْقَى قَوَارِيهَا

أَمْ قَدْ رَشَاكَ عَلِيٌّ كَيْ تُشَتِّتَ أَعْـ   ـدَاهُ فَيَتْبَعُهَا بِٱلسَّيْفِ يُفْنِيهَا

وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا نَبْغِي بِفِتْنَتِنَا   إِلَّا ٱلْخِلَافَةَ إِذْ نُلْفِيكَ رَاعِيهَا

قَالَ ٱلزُّبَيْرُ: أَعَبْدَ ٱللهِ وَيْلَكَ تُغْـ   ـرِينِي بِحَرْبٍ لَقَدْ أَمْسَيْتُ آبِيهَا

فَلَا تَخَوَّفْتُ أَصْحَابَ ٱلْعَلِيِّ وَلَا   طَمِعْتُ بِٱلرَّشْوَةِ ٱلْمَلْعُونِ عَاطِيهَا

لٰكِنْ تَذَكَّرْتُ عَهْدِي فِي صَحَابَةِ طَـ   ـهَ وَٱلْحُقُوقَ ٱلَّتِي حَقِّي أُرَاعِيهَا

حُقُوقُ هَاشِمَ أَخْوَالِي وَأَحْمَدَ وَٱلْـ   ـعَلِيِّ وَاضِحَةٌ صَعْبٌ تَعَاشِيهَا

وَيْلِي أَمَا ٱلْمُرْتَضَى أَوْلَى ٱلْبَرِيَّةِ بِي   إِنْ تَطْلُبِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلدُّنْيَا مُحِبِّيهَا

وَمَا ٱنْتِفَاعِي بِنِي ٱلدُّنْيَا إِذَا هِيَ عَـ   ـنِّيَ لَاقَى تُبْعِدُ ٱلْأُخْرَى وَتُقْصِيهَا

فَثِقْ بُنَيَّ لَقَدْ عَادَ ٱلصَّلَاحُ إِلَى   نَفْسِي فَمَا عُدْتُ بِٱلْإِفْسَادِ أُمْنِيهَا

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِيناً لَسْتُ تَارِكَهَا   مَا بَرَّ بِٱلْأَيْمُنِ ٱلزَّهْرَاءِ آلِيهَا

حوله يقنعونه بالرجوع عن عزمه بما أوتوا من زلاقة لسان وقوة بيان فلم يفلحوا وفي الاخير لم يروا من يقيلهم بعيتهم بالتأثير على افكاره غير ولده عبد الله الذي كان متسلطاً عليه فستدعته عائشة وطلبت منه أن يذهب الى أبيه ويقنعه بالبقاء مع حملتها فسرع اليه وقال له: ماهذا يا أبتاه أتراك هبت سيوف أصحاب علي أو خفت شجاعته؟ أم تراه رشاك بامارة لتشتت هذه الجموع التي عززت بها فجمعتها للقتال فتفر من وجهه فيعمل سيفه برقابها؟ قال الزبير: لا يا بني ليس هذا ولا ذاك ولا علي ممن يرشو ولا أنا ممن يخاف لقاء المنون ولكن هي حقوق أخوالي بني هاشم وحقوق محمد بن عبد الله وعلي بن أبي طالب مقدسة لدى المسلمين فلا نستطيع تجاهلها واني لقد خفت الآخرة وعلمت ان الدنيا لا تغني عن الآخرة شيئاً فتبت من خطائي وأقسمت أن لا أحارب علياً ولا قومه بجميعهم. فقال

أَنْ لَا أُحَارِبَ قَوْمًا كَانَ حَيْدَرَةٌ زَعِيمَهَا وَهْوَ لِلنِّضَالِ مُمْشِيهَا
فَرَاحَ يَضْحَكُ عَبْدُ ٱللهِ ضِحْكَةَ مَقْـــهُوْرٍ وَقَالَ: أَبِي خُوِّشِيتَ تَسْفِيهَا
يَأْبَى أَبُو حَسَنٍ إِنْصَافَنَا فَيُسَا مِ وِيِنَا بِأُمَّتِنَا حَتَّى أَدَانِيهَا
وَلِلْبَدَاوَةِ يَبْغِيْ أَنْ يُرَجِّعَنَا أَدْرَاجَنَا تَارِكِي ٱلدُّنْيَا لِأَهْلِيهَا
وَإِنَّ أَحْوَالَهُ ذِيْ غَيْرُ صَالِحَةٍ لَنَا وَأَنْتَ رَعَاكَ ٱللهُ تَدْرِيهَا
أَشْفِقْ عَلَيْنَا وَلَا تَتْرُكْ جَمَاعَتَنَا فِيْ شَرِّ مَوْقِفِهَا ٱلْأَرْيَاحُ تَذْرِيهَا
وَعَنْ يَمِيْنِكَ كَفِّرْ إِذْ رَجِعْتَ بِهَا كَفَّارَةً يُصْبِحُ ٱلْإِسْلَامُ رَاضِيهَا
وَلَا تَبِتْ مُضْغَةً ٱلْأَفْوَاهِ فِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلْـــعَرْبَا يَلُوْكُ بِمَا قَدْ جِئْتَ لَاكِيهَا
تُمْسِيْ نِسَاءُ قُرَيْشٍ وَهْيَ قَائِلَةٌ إِنَّ ٱلزُّبَيْرَ جَبَانٌ فِيْ نَوَادِيهَا
وَبَعْدَ أَنْ لَجَّ عَبْدُ ٱللهِ صَاحَ أَبُوْ هُ إِنَّ عَزْمَتِيَ ٱلْغَـــرَّا أُوَرِّيهَا
وَإِنَّ عَبْدِيَ مَكْحُوْلٌ أُحَرِّرُهُ كَفَّارَةً لِيَمِيْنٍ عُدْتُ مُكْرِيهَا
وَإِنَّنِيْ نَازِلٌ لِلْحَرْبِ مُبْتَدِئٌ بِهَا لِتَعْلَمَ أَنِّيْ لَسْتُ خَاشِيهَا
وَكَيْ أُحَقِّقَ رُغْبَى أَنْتَ طَالِبُهَا لٰكِنْ أُظُنُّكَ يَا ٱبْنِي لَسْتَ مُلْفِيهَا
فَقَالَ: دَعْ عَنْكَ سُوْءَ ٱلظَّنِّ يَا أَبَتِيْ فَصَحْبُنَا لَمْ يَسُؤْ يَوْمًا تَظَنِّيهَا
وَسِرْ لِحَرْبِ عَلِيٍّ مُسْرِعًا مَعَنَا وَنَلْ نَصِيبَكَ إِنْ كُنْتَ ٱلْمُجَلِّيهَا
وَذَاكَ كُلُّ ٱلَّذِيْ تَبْغِيهِ أُمِّيَ إِذْ عَلَيْكَ كَانَ بِلَا شَكٍّ تَرَكِّيهَا

ياأبتاه أترى من مصلحتنا أن يظل علي خليفة المسلمين وهو مساوينا مع أداني الناس ويأبى علينا أن يميزنا بفيء أو امارة مع اننا ما أيقظنا هذه الفتنة الا لتكون أنت الخليفة ونحن عمالها وهكذا مازال عبد الله يغري أباه ويتملقه ويقول له كفر عن يمينك بتحرير رقبة وسر معنا الى قتال عدونا وعدوك ولا تجعلنا مضغة بأفواه الناس وأحدوثة لنساء قريش فيقول قد جبن الزبير حتى أثرت عليه هيبة ابن أبي طالب ورجاله وفي مثل هذا الآن تأثرة نخوته فقال ان عبدي مكحول حر كفارة عن يمين ارجئ تنفيذها وسأسير معكم وابتدئ القتال حتى لا يقال اني جبنت عن حرب ابن خالي أبي الحسن ولكن ياولدي لا أظنكم بقتال ابن ابي طالب بناجحين فقال عبد الله دع عنك سوء الظن وننا نفر من كل من يسيء ظنه بنتيجة هذا القتال ان تكون لنا واقم معنا وهذا ما تتمناه امي (ويريد عائشة) التي تتوكأ عليك في فتنتها فقال اني على ماتريد عائشة وتريد أنت ولا حول ولا قوة الا بالله

لَمْ تَطْمَئِنَّ إِلَى وَعْدِ ٱلزُّبَيْرِ صِحَا ... بُهُ وَزَوْرَتُهُ عَنْهَا لَتُوذِيهَا (١)

لِذَا رَأَتْ أَنَّ حُسْنَ ٱلرَّأْيِ صَائِبَهُ ... أَنْ تَبْدَأَ ٱلْحَرْبَ حَالًا لَا تُرَجِّيهَا

وَتُعْلِنُ ٱلنَّاسَ بِٱلنِّضَالِ عَائِشَةٌ ... وَبِٱلْأَحَادِيثِ عَنْ طَـٰهَ تُنَخِّيهَا

وَبِٱلْمَثُوبَةِ فِي ٱلْجَنَّاتِ تُطْمِعُهَا ... وَبِٱلتَّوَسُّعِ فِي ٱلْإِرْغَادِ تُغْرِيهَا

وَبِٱبْنِ عَفَّانَ كَانَتْ تَسْتَثِيرُ عَلَى ... أَبِي ٱلْحُسَيْنِ مِنَ ٱلْأَحْقَادِ قَاسِيهَا

وَكَانَ ثَمَّ دُعَاةٌ لِلصَّلَاحِ تُرِيـ ... ـدُ ٱلسِّلْمَ لَكِنَّمَا خَابَتْ مَسَاعِيهَا

وَثَارَتِ ٱلْفِتْنَةُ ٱلْهَوْجَاءُ تَحْرِقُ فِي ... نِيرَانِهَا كُلَّ مَنْ قَدْ رَاحَ صَالِيهَا

وَقَدْ تَقَدَّمَتِ ٱلْعَاصِينَ عَائِشَةٌ ... كَأَنَّهَا رَايَةٌ فِي كَفِّ مُعْلِيهَا

وَكَانَ هَوْدَجُهَا يَسْعَى بِهِ جَمَلٌ ... بِهِ دَعَا هَاتِفُ ٱلْمَأْسَاةِ دَاعِيهَا

يَقُودُهُ كُلُّ ذِي جَاهٍ وَذِي حَسَبٍ ... مِنَ ٱلْأَعَارِبِ مَكِّيهَا وَبَصْرِيهَا

وَكَانَ مُفْتَتَحَ ٱلنِّضَالِ صَاحِبُنَا ٱلـ ... ـزُّبَيْرُ يَبْغِي ٱلْمَنَايَا لَا يُحَاشِيهَا

أَرْجَا ٱلْيَمِينَ ٱلَّتِي قَدْ كَانَ حَالِفَهَا ... لَوْلَا ٱبْنُهُ لَمْ يَكُنْ وَٱللهِ مُرْجِيهَا

مِنْ غَيْرِ أَسْلِحَةٍ قَدْ كَرَّ كَرَّتَهُ ... عَلَى رِجَالِ عَلِيٍّ غَيْرَ خَاشِيهَا

---

(١) كان كثيرون من زعماء العرب حول عائشة وطلحة والزبير يثبطون عزائمهم عن متابعة الفتنة حقناً لدماء المسلمين ويقنعونهم بمصالحة سيدنا عليّ والرجوع الى طاعته فلم يفلحوا وبينما كان هؤلاء يجدّون في مساعيهم السلمية ويرسلون رسلهم الى سيدنا عليّ فيقول لهم قوله المشهور وهو اني ما جئت للحرب ولكن للصلاح كان اصحاب الجمل يتحفزون للحرب وهم يعتقدون انهم منصورون على جيش أمير المؤمنين عليه صلوات الله لا لانهم اشجع منه واصبر على مكاره الحرب ولا لان من عندهم من الناس اعظم حولاً وطولاً من رجال امير المؤمنين بل لاعتقادهم بأنَّ ما في المسلمين من يجرأ على الوقوف في وجه عائشة بصفتها احبّ ازواج النبي عليه الصلاة والسلام اليه وبصفتها امرأة لما تعلم من امتناع العرب عن محاربة النساء ولهذا الغرض احتمل المصرة عائشة في الحرب وجعلوا جمالها رايتهم

فلما تقدم سيدنا علي عليه صلوات الله من معسكر اصحاب الجمل ودعا طلحة والزبير اليه وخاطبهم بما خاطبهم به كما تقدم القول وعاد الزبير وهو تائب عن العصيان معرض عن حرب امير المؤمنين راغباً عن قتال اصحابه ذاكراً انذار المصطفى له وتعب الناس في اقناعه للبقاء معهم حتى جاءه ابنه عبد الله واغراه بالرجوع عن عزيمته وتقديم الكفارة عن يمينه لكي لا يقول الناس قد جبن حينئذٍ صحت عزيمة أصحاب الجمل على البدء بالقتال مخافة ان يعود الزبير الى توبته فيكون سبباً لتفرق الناس

كَيْ لَا يُقَالَ لَقَدْ خَارَتْ عَزَائِمُهُ ... كَمَا لَهُ قَالَ عَبْدُ ٱللهِ تَجْرِبَهَا

وَإِذْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى أَنْ لَا سِلَاحَ مَعَ ٱلـ ... ـزُّبَيْرِ فِي ٱلْهَجْمَةِ ٱلْمَقْتُولُ آتِيهَا

نَادَى بِأَصْحَابِهِ عَنْهُ ٱفْرِجُوا كَرَمًا ... فَإِنَّهُ مُحْرَجٌ لِلْحَرْبِ يُغْضِيهَا

فَمَا تَصَدَّى لَهُ مِنْ صَحْبِهِ أَحَدٌ ... لِأَنَّهَا عَرَفَتْهُ غَيْرَ رَامِيهَا

فَأَقْبَلَتْ بَعْدَهُ أَصْحَابُ عَائِشَةٍ ... إِلَى ٱلْقِتَالِ وَشَدَّتْ فِي تَدَاعِيهَا

فَقَابَلَتْهَا صَنَادِيدُ ٱلْخِلَافَةِ بِالْأَ ... سْيَافِ تَطْلُبُ ان تُفْنِي مُلِدِّيهَا

يَقُودُهَا ٱلْقَاهِرُ ٱلْأَسْمَى أَبُو حَسَنٍ ... وَحَسْبُهَا أَنَّهُ لِلنَّصْرِ مُمْشِيهَا

وَهٰكَذَا ٱشْتَبَكَ ٱلْجَمْعَانِ وَٱبْتَسَمَتْ ... بِيضُ ٱلظُّبَى وَبَنُو ٱلْإِيمَانِ فِي فِيهَا

وَٱلْمُصْطَفَى فِي ٱلسَّمَا يَشْكُو لِخَالِقِهِ ... مَانَالَ أُمَّتَهُ مِنْ مُسْتَخِينِيهَا

انتصار أمير المؤمنين في موقعة الجمل

وَطَالَتِ ٱلْحَرْبُ أَيَّامًا مُسَاجَلَةً ... وَٱلنَّاسُ فِيهَا لَقَدْ أَبْدَتْ تَفَانِيهَا(١)

وَكَانَ حَيْدَرَةٌ فِيهَا ٱلْمُبَارِزُ وَٱلْـ ... ـبَطَّاشُ يَضْرِبُهَا بِٱلسَّيْفِ يُدْمِيهَا

يَهُزُّ هَزًّا وَيَهْوِي ذَا ٱلْفَقَارِ عَلَى ... هَامَاتِهَا فِي تَدَاعِيهَا فَيَفْرِيهَا

عن جملها اقتداءاً به . وبالفعل كان الزبير هو مفتتح القتال ليذهب عن نفوس ولده واصحاب الجمل ماتهموه به من أنَّ نكوله عن حرب امير المؤمنين هو لجبنه فذعل سنان رمحه، وحمل على عسكر علي عليه صلوات الله، فلما رآه سيدنا أمير المؤمنين كاراً على عسكره برمح لاسنان له عرف على البداهة انه محرجٌ على خوض غمرات الحرب وانه لايزال عند يمينه فنادى بأصحابه ان افرجوا عنه فانه محرج. وهكذا دنا الزبير من معسكر الخليفة اولاً وثانياً وثالثاً وعاد الى اصحاب الجمل ولم يصب بشرٍّ وفي المرة الثالثة عند مارجع الى اصحاب الجمل كرر انشاد أبياته التي سبق لنا نشرها فلما سمعها اصحاب الجمل عرفوا انه فارٌّ من الحرب غير ثابت معهم على الاصطلاء بنارها فأسرعوا الى اشعال نار القتال وهاجموا معسكر سيدنا امير المؤمنين فلقيهم عليه صلوات الله بأصحابه واشتبك القتال بين المسلمين ذلك القتال الذي تألم له المصطفى عليه الصلاة والسلام في السماء فشكا الى خالقه من جور أهل النفاق الذين احدثوا بين المسلمين هذا الشقاق

(١) لما عاد الزبير الى اصحاب الجمل وهو ينشد ابياته تقدم منه طلحة وسار به بين الناس وهو يقول « ان علياً ان يظهر فهو مفنيكم يا أهل البصرة ، فاحموا حقيقتكم منه؟ فانه لا يبقي حرمة الا انتهكها ، ولا حريماً الا هتكه ، ولا ذرية الا قتلها ، ولا ذوات خدر الا سباهن ، فقاتلوا مقاتلة من يذب عن حريمه ، ويختار الموت على الفضيحة يراها في اهله » الى مثل ذلك من الاقوال

بِنَفْسِهِ وَهْوَ فَرْدٌ كَانَ يَهْجُمُ مَا ... بَيْنَ ٱلصُّفُوفِ وَيَسْتَقْصِي هَوَادِيهَا
كَأَنَّمَا صَعَقَاتُ ٱللهِ يَحْمِلُهَا ... عَلَى ٱلْعِدَى فَهْيَ تَفْنَى فِي تَلَقِّيهَا
لِلَّهِ دَرُّ عَلِيٍّ وَهْوَ خَائِضُ هَا ... تِيكَ ٱلْمَعَامِعِ لَا يَخْشَى دَوَاهِيهَا
أَعَادَ ذِكْرَ مَغَازِي ٱلْمُصْطَفَى وَعَلِيٌّ ... كَانَ فِيهَا مُجَلِّيهَا مُصَلِّيهَا
ذِكْرَى لَتَفْرَقُ أَرْبَابُ ٱلنِّفَاقِ لَهَا ... عَادَتْ إِلَى ذِهْنِ مَنْ يَبْغِي تَنَاسِيهَا
فِي وَقْعَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلسَّوْدَا ٱلَّتِي تَرَكَتْ ... أَصْحَابَهُ وَبَلَاءُ ٱللهِ دَاهِيهَا
وَقَدْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى ... إِنْهَاءِ مَجْزَرَةٍ إِنْ شَاءَ يُنْهِيهَا
إِلَّا إِذَا ٱلْجَمَلُ ٱلْمُغْوِي ٱلْعُصَاةَ هَوَى ... فَإِنَّهَا تَتَصَبَّاهُ وَيُرْدِيهَا
كَانَتْ حَوَالَيْهِ تَفْنَى وَهْيَ صَابِرَةٌ ... عَلَى ٱلرَّزَايَا ٱلَّتِي رَاحَتْ تُلَاقِيهَا
كَمْ فِرْقَةٍ قَدْ تَلَاشَتْ عِنْدَ مَوْقِفِهِ ... بِأَثْرِ أُخْرَى وَمَا هَابَتْ تَلَاشِيهَا

التي كانوا يختلقونها ليخيفوا بها البصريين ليثبوا على معسكر المرتضى ويثبتوا على قتاله وهكذا استاقوا الناس الى مهاجمة معسكر سيدنا امير المؤمنين واخذوا يرشقون اصحابه بنبالهم فكأنها صبيب المطر

اما سيدنا امير المؤمنين عليه صلوات الله فمهل عن مقابلة الشر بمثله الى آن رأى نبال العصاة تترامى على اصحابه وجيء له ببعض القتلى منهم فاستسلم لقضاء الله ونزل على مانزل عليه القوم من تحكيم السيف واعطى رايته الى ابنه محمد بن الحنفية وقال « تزول الجبال ولا تزل ، عض على ناجذك ، اعر الله جمجمتك ، تد في الارض قدمك ، ارم ببصرك اقصى القوم ، وغض بصرك ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه »

فهيب محمد وهو غلام يافع موقفه وتوقف قليلاً فقال له ابوه امير المؤمنين : احمل يا محمد . فقال أما ترى يا أبتاه السهام كأنها شآبيب المطر ؟ فدفعه في صدره وقال ادركك عرق من امك . ثم اخذ منه الراية فهزها وقال :

اطعن بها طعن أبيك تحمد ... لا خير في حرب اذا لم توقد
بالمشرفي والقنا المسدد

ثم حمل عليه صلوات الله فحمل الناس خلفه فطحن عسكر البصرة واعاد للناس ذكر مواقفه العظيمة في الغزوات النبوية وهو المجلي والمصلي فيها على مايعلم الثقلان

وبقيت الحرب أياماً حول الجمل وكان كلما قتل قوم من اصحاب عائشة قد تقدم عن جانبها آخرون وكانت عائشة في هودجها تتمثل بالمصطفى عليه الصلاة والسلام يوم كان يخرج لغزو الكفار والمشركين لنصرة الدين وشتان بين الموقفين حتى انها مرةً بل غير مرة اخذت كفاً من حصى فحصبت بها اصحاب سيدنا علي عليه صلوات الله وهي تصيح بصوتها الجهوري شاهت الوجوه كما صنع رسول الله يوم حنين فما عدمت قائلاً يقول بقربها «وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى» فاظفر رعت الله الى أي احد لم

حَتَّى تَظُنَّ بِهَا تِيكَ ٱلنُّفُوسِ عِبَا دَةً لَهُ تَتَرَجَّى خُلْدَهَا فِيهَا

وَإِذْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى أَنَّ ٱلْجَهَالَةَ تُمْـــشِي ٱلنَّاسَ حَتَّى مَنَايَاهَا وَتُزْجِيهَا

نَادَى بِأَصْحَابِهِ : فَٱرْمُوا نِبَالَكُمُ ... عَلَيْهِ حَتَّى تُغَشِّيهِ رَوَامِيهَا

فَسَدَّدَتْ نَحْوَهُ أَقْوَاسَهَا وَرَمَتْ ... نِبَالَهَا لَمْ يَكُنْ يُخْطِيهِ رَامِيهَا

حَتَّى غَدَا جِسْمُهُ ٱلْمَرْمِي كَقُنْفُذَةٍ ... لَاقَتْ بِأَشْوَاكِهَا ٱلْكُبْرَى مُفَاجِيهَا

ثُمَّ تَقَدَّمَ مِنْهُ ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنْ ... حَوْلِهِ عِصْبَتُهُ تُبْدِي تَرَاغِيهَا

وَٱلْحَرْبُ قَائِمَةٌ فِيهَا تُبَاعُ نُفُو ... سُ ٱلنَّاسِ مُرْخَصَةً وَٱلْمَوْتُ يَشْرِيهَا

صَاحَ ٱلْعَلِيُّ ٱعْقِرُوهُ وَٱنْشَطُوا لِنَقِيْ ... فِي ٱلْحَالِ عَائِشَةً مِمَّا يُؤَاذِيهَا

فِي ٱلْحَالِ كَانَ مُجِيبٌ عِنْدَ دَعْوَةِ مَوْ ... لَانَا ٱلْعَلِيِّ بِلَا بُطْءٍ مُلَبِّيهَا

وَبَادَرَ ٱلْجَمَلَ ٱلْمَلْعُونَ أَهْلَكَهُ ... بِضَرْبَةِ ٱلسَّيْفِ عَاشَتْ كَفُّ مُهْوِيهَا

اجتهادعائشة حتى حسبت انها تحارب سيدنا علي وقومه كما كان المصطفى يحارب ابا سفيان وقومه على ان الذيقال « الله رمى » بقربها هو الذي صدتها المقال ورمية الله سبحانه هي الصادقة بغير جدال

وفي اليوم الثالث للموقعة اصبح القومان على القتال فزحف سيدنا علي نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والانصار وحوله بنوه حسن وحسين ومحمد فدفع رايته الى محمد وقال « اقدم بها حتى تركزها في عين الجمل ولا تقفنّ دونه » فتقدم محمد فرشقته نبال العصاة فقال لاصحابه رويداً حتى تنفد سهامهم فلم يبق لهم الا رشقة أو رشقتان واذ رأى أمير المؤمنين وهو يرقب الحملة تباطئها ارسل الى محمد يستحثه وأمره بالمناجزة فلما ابطأ عليه جاء بنفسه من خلفه فوضع يده اليسرى على منكبه الايمن وقال له أقدم لا امَّ لك ثم ادركته عليه صلوات الله الرقة على ولده فتناول الراية بيسراه واشهر ذا الفقار بيمناه وحمل فغاص في عسكر الجمل فاهلك خلقاً كثيراً منهم وعاد وقد انحنى سيفه وهو يقطر دماً فاقامه بركبته وهو يزئر زئرة الاسد فقال له بنوه واصحابه والاشتر وعمار نحن نكفيك يا أمير المؤمنين فما أجاب أحداً منهم ولا ردَّ اليهم بصره وعاد ثانيةً لوحده فدخل وسط عسكر الجمل وجعل يضربهم بذي الفقار وهم ينفضون من حوله فرقين خائفين جزعين حتى خضب الارض بدماء القتلى ثمَّ رجع وقد انحنى سيفه وقامه بركبته فاعصوصب به اصحابه فناشدوه الله في نفسه وفي الاسلام وقالوا ان تصب يذهب الدين فامسك ونحن نكفيك فقال : والله لا أريد بما ترون الاوجه الله والدار الآخرة . ثمَّ مال الى ابنه محمد وقال هكذا تصنع يابن الحنفية فقال الناس من ذا يستطيع ماتستطيعه ياأمير المؤمنين ؟؟

وهكذا دامت الحرب بضعة أيام قتل فيها خلقٌ كثير من الفريقين ولما رأى سيدنا علي ان الموت عند الجمل وانه مادام قائماً فالحرب لاتطفأ نارها وضع سيفه على عاتقه الشريف وعطف نحوه وامر اصحابه بذلك فتبعوه وكان زمام الجمل قد افضى الى بني ضبة بعد ان تداوله خلقٌ كثيرٌ للدفاع

أَقْعَى وَعَجَّ عَجِيجاً وَهُوَ يَضْرِبُ بِالْـــجُرَانِ أَرْضاً نَجِيعُ الدَّمِ رَاوِيهَا
وَإِذْ رَأَتْ هُلْكَهُ أَنْصَارُ عَائِشَةٍ تَهَارَبَتْ فِرَقاً تَبْغِي مَخَابِيهَا
حَتَّى لَتَحْسَبُهَا سِرْبَ الْجَرَادِ إِذَا طَارَتْ وَكَانَ هُبُوبُ الرِّيحِ ذَارِيهَا
وَأَمَرَ الْمُرْتَضَى أَنْ لَا يُسَاءَ إِلَى الْـــجَرْحَى وَأَنْ يَتَوَلَّاهَا مُؤَاسِيهَا
وَلَا تُتَبَّعَ مَنْ فَرَّتْ مُرَجِّيَةً سَلَامَةً وَأَوَتْ خَوْفاً مَآوِيهَا
وَأَنْ تُصَانَ فَلَا تُفْجَا مَنَازِلُهَا بِدَاخِلِيهَا لِيَلْقَى الْأَمْنَ ثَاوِيهَا
وَقَالَ : إِنْ هِيَ إِلَّا فِرْقَةٌ سَلِمَتْ مُذْ أَسْلَمَتْ وَكِتَابُ اللهِ حَامِيهَا
وَإِنْ تَخَطَّتْ حُدُودَ الشَّرْعِ جَاهِلَةً فَاللهُ يَغْفِرُ مَاضِيهَا بِآتِيهَا .

عنه فقتلوا دونه حتى اذا ما انتهى الامام واصحابه الى الجمل اشتبكوا بالقتال مع اصحابه ولا سيما بني ضبة الآخذين بخطامه وكان من واجبهم ان يموتوا دونه فستمرّ القتال فيهم وخلص علي عليه صلوات الله في جماعة من النخع وهمدان الى الجمل فقال لرجل من النخع اسمه بجير : دونك الجمل يابجير. فبادر هذا وضرب الجمل بسيفه ضربةً نجلاء فوقع لجنبه وضرب الارض بجرانه وعجّ عجيجاً لم يسمع باشد منه فما هو ان صرع الجمل حتى فرت الرجال كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب فصاح سيدنا أمير المؤمنين ان تقوا عائشةً من الهلاك وأمر اخاها محمد بن أبي بكر وكان في اصحابه ان يتولى أمر أخته عائشة وينقلها بهودجها الى البصرة ففعل وسار بها الى دار عبدالله بن خلف وكانت أعظم دور البصرة وامر عليه صلوات الله بالجمل ان يحرق ثمّ يذرّى في الريح وقال « لعنه الله من دابة فما اشبهه بعجل بني اسرائيل » ثمّ قرأ قوله تعالى « وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليمّ نسفاً » الآية

وبعد أن رأى سيدنا أمير المؤمنين ماحوله من جرحى أصحاب الجمل وأن اصحابهم قد فروا وتفرقوا أيدي سبا أمر المنادي أن ينادي في أصحابه أن لايتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يدخلوا دور المسلمين فينهبونها ويسبون مخدراتها وكان أمره هذا مؤيداً لما كرر قوله به عليه صلوات الله وهو انه سائر لتأديب عصاة المسلمين لا للتنكيل بأمة سيد المرسلين فهو مؤدب ومربي لا غزي وفتح فأعجب الناس بأمره وخضعوا لمشيئته

ولما انهزم اصحاب الجمل ركب علي على البغلة الشهباء التي كان يركبها رسول الله عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام وكانت عنده وسار في القتلى يستعرضهم فمرّ بكعب بن سور قاضي البصرة وهو قتيل فقال اجلسوه فاجلسوه فقال له « ويل امك ياكعب بن سور لقد كان لك علم لو نفعك ولكن الشيطان أضلك وأغواك فعجلك الى النار ارسلره . ثمّ مرّ بطلحة بن عبيد الله قتيلاً (وسنذكر كيفية قتله فيما بعد) فقال اجلسوه فاجلسوه فقال له عليه صلوات الله (أعزز عليّ أبا محمد أن اراك معفراً تحت نجوم السماء ، وفي بطن هذا الوادي ، أبعد جهادك في الله ، وذبّك عن رسول الله ، تعرض نفسك الى ماتعرضت اليه ؟ » وبينما علي يقول هذا واذا رجل وقف أمامه وقال اشهد يا أمير المؤمنين لقد مررت عليه بعد ان اصابه السهم وهو جريح فصاح بي فقال: من اصحاب من أنت ؟ فقلت: من اصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فقال: امدد يدك لابايع لامير المؤمنين فمددت اليه يدي

وَصَاحَ بِٱبْنِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدٍ ٱلْـــزَمْ خِدْرَ عَائِشَةَ كُنْ أَنْتَ آوِيهَا
وَبَعْدَ أَنْ تَقَلُّوا بِٱلْعَطْفِ هَوْدَجَهَا وَضَيْعَةُ ٱلنَّصْرِ فِي ٱلنَّيْضَالِ تُشْجِيهَا
نَادَى ٱلْوَصِيُّ: ٱحْرِقُوا هٰذَا ٱلْبَعِيرَ وَذُرُّوا فِي ٱلرِّيَاحِ بَقَايَاهُ لِتَسْفِيهَا
عَلَيْهِ لَعْنَةُ رَبِّي قَدْ تَشَبَّهَ بِٱلْــعِجْلِ ٱلَّذِي قَدْ غَوَى أَسْرَائِيلَ تَشْبِيهَا
وَسَارَ لِلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّا فَوَاصَلَهَا مُسَالِمًا وَٱعْتَنَى فَضْلًا بِأَهْلِيهَا
أَلْفَى هُنَالِكَ أَمْوَالًا فَخَصَّصَهَا بِنَاصِرِيهِ بِهَا أَغْنَى مُفِيئِيهَا
وَأَعْلَنَ ٱلْعَفْوَ عَمَّنْ قَدْ عَصَاهُ وَمَنْ مَالَا ٱلْعِدَاةَ ٱلَّتِي قَدْ رَاحَ مُخْزِيهَا
وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِبَادِ ٱللهِ مُنْتَقِمًا وَقَدْ أَطَاعَتْ وَعَدَّتْ عَنْ تَعَصِّيهَا

مصير الزبير بن العوام

فَرَّ ٱلزُّبَيْرُ مِنَ ٱلنِّيرَانِ خَلَّفَهَا لِقَوْمِ أَحْمَدَ تَقْلِيهَا وَتَشْوِيهَا (١)

فايبي لك فقال علي « أبى الله ان يبقى طلحة ربه الا وبيعتي في عنقه » ثم مر بعبدالله بن خلف الخزاعي وكان عليه صلوات الله قتله بيده مبارزةً وكان رئيس أهل البصرة فقال اجلسوه فاجلسوه فقال: « الويل لك يا ابن خلف لقد عاينت أمراً عظيماً » وهكذا كان كلما مر عليه صلوات الله بوجيه من القتلى يقول كلمته فيه حتى اذا مابلغ البصرة دخل بيت المال فلما رأى كثرة مافيه قال مراراً « يا بيضاء ويا صفراء غري غيري » ثم صعّد نظره في هاتيك الاموال وقال اقسموها بين اصحابي خمسماية خمسماية فقسمت بينهم فما نقصت درهماً ولا زادت درهماً كانه عليه صلوات الله كان يعرف مبلغها ومقدارها وكانت ستة آلاف الف درهم وكان اصحاب سيدنا علي اثني عشر الفاً . وبعد ان توزعت الاموال بين الناس قدم اعرابي لم يحضر وقعة الجمل وقال يا أمير المؤمنين كنت شاهداً معك بقلبي وان غاب عنك جسمي فاعطني من الفيء شيئاً فدفع اليه الذي اخذه لنفسه وهو خمسمائة درهماً ولم يصب من الفيء شيئاً

ثمّ طلب الناس من سيدنا علي عليه صلوات الله ان يقسم بينهم أهل البصرة فيكونون رقيقاً وسبياً لهم فقال « لا » فقالوا فكيف تحلّ لنا دماءهم وتحرم علينا سبيهم ؟ فقال: « كيف يحلّ لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة واسلام ؟ اما ما اجلب به القوم في معسكرهم عليكم فهو لكم مغنم ، واما ماوارت الدور ، واغلقت عليه الابواب ، فهو لاهله ولا نصيب لكم في شيء منه » فلما اكثروا عليه والحوا أراد ان يقنعهم بصواب حكمه فقال : « فاقرعوا على عائشة اذن لادفعها الى من تصيبه القرعة » فقالوا نستغفر الله يا أمير المؤمنين ان تسبى زوج رسول الله . فتبسم سيدنا علي عليه صلوات الله وقال وكذلك النساء المسلمات وهن جميعاً بنات رسول الله. فاقتنع القوم بحكمه وانصرفوا

(١) فرّ الزبير من واقعة الجمل قبيل اشتباك الفريقين في القتال حاسباً فراره هو الغنيمة لانه ذكر في كلام سيدنا علي له وفيما ذكره من حديث المصطفى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام ماجدّد في نفسه العواطف الدينية والانسانية معاً واذ كان ذا ضمير حيٍّ ووجدانٍ صحيح تجسم

وَقَدْ تَنَدَّمَ عَمَّا جَرَّ مِنْ إِحَنٍ ... عَلَى ٱلْخِلَافَةِ مَا سَهْلٌ تَلَافِيهَا

وَكَانَ إِذْ غَادَرَ ٱلْمَيْدَانَ مُكْتَئِباً ... عَلَى ٱلشُّرُورِ ٱلَّتِي قَدْ فَاتَهُ فِيهَا

وَسَارَ فِي فَلَوَاتِ ٱلْأَرْضِ مُخْتَفِياً ... عَنِ ٱلْأَنَامِ فَلَا يَرْنُوهُ رَائِيهَا

جَرَى بِهِ خَبَباً يَسْعَى مُطَهَّمُهُ ... يَعْلُو ٱلْجِبَالَ وَيَهْوِي فِي مَهَاوِيهَا

حَتَّى إِذَا حَلَّ فِي وَادِي ٱلسِّبَاعِ رَأَى ... أَنَّ ٱلْهَنَا عِنْدَهَا فِي قَعْرِ وَادِيهَا

هُنَاكَ لَا أُمْرَةٌ تُغْرِي ٱلطَّمُوعَ وَلَا ... نَاسٌ تُخَطِّيهِ قَصْراً فِي مَمَاشِيهَا

امام عينيه الشرُّ الذي اقدم عليه فرأى انه في تلك الفتنة مسيء قبل كل شي الى الاسلام ومن ثمَّ الى رسول الله ووصيه عليهما الصلاة والسلام ومن ثمَّ الى المسلمين ومن ثمَّ الى اخواله الهواشم فكبر ذلك عليه وعاد الى هداه واذ كان يعرف أنَّ تلافي الفتنة ليس في طوقه ولا أمر العصاة في يده فيصرفهم عن عصيانهم اكتفى بوعد سيدنا علي أمير المؤمنين بأن لا يخوض غمار الحرب وعزَّز وعده بصادق الايمان على انه لم يحنث بيمينه ولم ينكث عهده برضائه ولكن أرغم عليه بالحاح ابنه عبد الله ان يظلَّ بين العصاة حتى لا يقال انه فرَّ من القتال جبناً لان الجبن عند العرب داعية الذلّ والخزلان بل هو العيب الكبير الذي لا يرضاه من كان ذا مكانة فيهم كالزبير فنصل سنان رمحه وبرز للقتال مفرداً متعرضاً لنبال أنصار الخلافة وربما كان يتمنى في خروجه ذاك ان تصيبه نبلةٌ فتقتله كفارةً عن الذنب الذي جناه بعصيان أمير المؤمنين ووصي رسول رب العالمين وما هذا ببعيد عن مثل الزبير واخلاصه لدينه ونبيه وآل بيته هذا هو اعتقادنا فيه بل اعتقاد أمير المؤمنين نفسه الذي كان يقول « مازال الزبير منا حتى نبغ ابنه عبد الله فصرفه عنا »

وبعد ان فرَّ الزبير من الموقعة وفي حالةٍ من الندم واليأس يدركها من يتصور حالته وهو فارٌّ ووراؤه المسلمون يقتتلون فتنةً كان يحب ان لا تكون لو خلصت النوايا وعدمت المطامع وانصرفت النفوس الى المصلحة العامة اخذ يتنقل بجواده بين الجبال والوديان حتى انتهى الى موضع يدعى « وادي السباع » فنزل فيه

وكان في وادي السباع جمعٌ من بني تميم زعيمهم الاحنف بن قيس وكانوا هناك معتزلين الفتنة التي شجرت بين المسلمين آسفين لحدوثها وبينما الاحنف جالس في مجلسه والناس حوله واذا بوافد عليه من قومه ينبئه بوصول الزبير فاراً من القتال فحوقل ذلك الامير واسترجع وقال بصوت عال « ما اصنع بالزبير وقد لفَّ غارين من المسلمين حتى اخذت السيوف منهما مأخذها انسلَّ وتركهم أما انه لحقيق بالقتل قتله الله » ومن امعن النظر في قول الاحنف هذا ظهر له مبلغ الكمد الذي كان يشعر به لحدوث هذه الفتنة وانه كان يعتقد أن الزبير هو في مقدمة الذين كانوا مثيريها

وكان في جملة الناس الملتفين على الاحنف في مجلسه ذلك رجل يدعى عمرو بن جرموز وكان قاتلاً فتاكاً فلما سمع كلمات الاحنف حدثته نفسه ان ينتقم للمسلمين من الزبير فاسرَّ ذلك في نفسه وأعدَّ له عدته

اما الزبير فقد بلغه مقال الاحنف فيه فخاف على نفسه القتل وبادر فامتطى جواده طالباً الفرار وما كاد يبعد قليلاً حتى رأى فارساً يتبع خطواته ولما دنا منه وقف وقال : ما شأنك ؟ قال عمرو ابن جرموز وكان هو المقتفي خطواته : جئت لاسألك عن امر الناس الذين تركتهم وراءك قال

كَانَتْ تَمِيمٌ بِتِلْكَ ٱلْأَرْضِ نَازِلَةً ۝ وَٱلْأَحْنَفُ ٱلْمُجْتَبَى ٱبْنُ ٱلْقَيْسِ رَاعِيهَا
وَلَمْ تَكُنْ عَنْ قِتَالِ ٱلْقَوْمِ رَاضِيَةً ۝ فَحَايَدَتْهَا وَقَرَّتْ فِي مَثَاوِيهَا
وَبَيْنَمَا ٱلْأَحْنَفُ ٱلْمِقْدَامُ مُجْتَمِعٌ ۝ بِصَحْبِهِ بِٱلَّذِي يَجْرِي يُفَاهِيهَا
وَإِذْ دَرَى بِمُوَافَاةِ ٱلزُّبَيْرِ إِلَى ٱلْـوَادِي وَقَدْ تَرَكَ ٱلْفَوْضَى لِأَهْلِيهَا
نَادَى: وَمَاذَا أَنَا بِٱللهِ أَفْعَلُ بِٱلـزُّبَيْرِ مُشْقِي عِبَادِ ٱللهِ مُؤْذِيهَا
قَدْ لَفَّ غَارَيْنِ مِنْ أَخْيَارِ أُمَّتِنَا ۝ بِفِتْنَةٍ نَارُهَا تُعْيِي مُطْفِيهَا

الزبير: اني تركتهم قياماً في الركب يضرب بعضهم وجه بعض بالسيف. فسار بن جرموز معه وكلٌّ منهما يتقي الآخر على أنَّ ابن جرموز كان بين حين وآخر يعود فيسأله عن الناس وما هم فيه من الحرب وما زالا سائرين الى ان حضرتهما الصلاة فقال الزبير: ياهذا انا نريد أن نصلي فقال ابن جرموز: وانا اريد ذلك قال الزبير: فتؤمنني واؤمنك. قال نعم. وهكذا نزلا عن جواديهما عند نبع ماء واخذا يتوضآن ثمَّ مال الزبير الى الصلاة فما كاد يسجد سجدته الأولى حتى شدَّ عليه عمرو بن جرموز بسيفه فاحتزَّ رأسه واخذ خاتمه وسيفه وحثا على جثمانه التراب ورجع على الفور الى الاحنف ابن قيس فاخبره بما فعل وهو يحسب انه قد أحسن صنعاً. فقال الاحنف: والله ما أدري أسأت أم أحسنت؟ اذهب الى علي بن ابي طالب أمير المؤمنين ومفتي المسلمين واخبره بما صنعت فاسرع عمرو ابن جرموز على جواده وخاتم الزبير وسيفه معه قاصداً أمير المؤمنين عليه صلوات الله

سار ابن جرموز قاصداً البصرة وهو يعلم أنَّ أمير المؤمنين مخيمٌ في ضواحيها يحارب العصاة على ما كان أخبره الزبير وكان يملل نفسه ببعيد الآمال فيحسب انَّ سيدنا علي سيلقاه بصدره الرحب وثغره الباش ويطلق لسانه على بلاغته المشهورة بالثناء على همته ونجدته ويغدق عليه من الخيرات الشيء الكثير لانَّه قتل كبيراً من عصاة خلافته وربما عال نفسه في الحصول على امارة في مصر من امصار المسلمين مكافأةً على صنيعه هذا وما زال يطوي به جواده الارض وهو محلق في سماء الخيال طامعاً ببعيد الآمال حتى دنا من البصرة فعلم من الناس بانجلاء موقعة الجمل عن نصر سيدنا أمير المؤمنين ودخوله البصرة ظافراً غانماً فازدادت مطامعه بالمكافأة قائلاً في نفسه: كم سيكون أمير المؤمنين مغتبطاً مسروراً بعد انتصاره على أصحاب الجمل عندما سيقف على بشرى مقتل الزبير الذي ما فرَّ الا لاثارة فتنة اخرى على خلافته؟ وبهذه النية دخل ابن جرموز البصرة وقصد رأساً سيدنا أمير المؤمنين في دار الامارة فالفاه في مجلسه يعمل لاصلاح الفاسد ومداواة المعتل والعمل على مافيه خير المسلمين فسلم عليه بالامارة ووضع بين يديه خاتم الزبير وسيفه وقصَّ عليه أمره معه لم يخف عنه شيئاً كل ذلك وأمير المؤمنين عليه صلوات الله يصغي وعيناه تحدقان بسيف الزبير الملقى امامه حتى اذا ما انتهى ابن جرموز من سرد قصته صعَّد اليه بصره وقال له: أنت قتلته؟ قال: نعم. قال أمير المؤمنين: « والله ما كان ابن صفية جباناً، ولا لئيماً، ولكن الحين ومصارع السوء » وصمت قليلاً ثمَّ قال: ناولني هذا السيف. فاسرع بن جرموز بالتقاط السيف وتقديمه الى سيدنا علي فتناوله بيده الشريفة واخذ يهزُّه مراراً وقال: « هذا سيف الزبير وطالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله » فقال ابن جرموز وقد بدأ يفهم ان مطامعه بعيدة التحقيق: اين الجائزة يا أمير المؤمنين وقد قتلت

حَتَّى إِذَا ٱحْتَكَمَتْ بِيضُ ٱلظُّبَى بِرِقَا ... بِ ٱلنَّاسِ بَالِغَةً مِنْهَا تَمَنِّيهَا

وَلَّى عَلَى وَجْهِهِ مِنْ بَيْنِهَا هَرَبًا ... وَخَلَّفَ ٱلدَّارَ تَنْعِي خَطْبَ بَانِيهَا

أَحْرَى بِهِ ٱلْقَتْلُ فَلْيَشْرَبْ ثُمَالَتَهَا ... تِلْكَ ٱلْخُمُورَ ٱلَّتِي قَدْ كَانَ سَاقِيهَا

وَكَانَ عَمْرُو ٱبْنُ جَرْمُوزٍ بِحَضْرَتِهِ ... يُصْغِي لِقَوْلَتِهِ إِذْ رَاحَ مُلْقِيهَا

فَهَبَّ مُقْتَفِيًا آثَارَ صَاحِبِنَا ... بِذِي ٱلسِّبَاعِ كَانَ ٱللهُ قَافِيهَا

وَصَحَّ مَنْ رَاحَ يَرْوِي لِلزُّبَيْرِ مَقَا ... لَةَ ٱبْنِ قَيْسٍ وَأَنَّ ٱلْقَتْلَ تَالِيهَا

اعدى اعداء خلافتك ؟ فتبسم عليه صلوات الله وقال أتطلب الجائزة يا ابن جرموز وقد قتلت الزبير حواري رسول الله؟؟ والله لولا دخوله في الفتنة حتى اهدر الشرع دمه لقتلتك به ولكن جائزتك هي التي اعدها الله لقاتله فقد سمعت رسول الله يقول « بشر قاتل ابن صفية بالنار » فلما رأى ابن جرموز ان جائزته هي تبشيره بالنار وانه لولا الشرع واحلاله دماء العصاة على الخلافة لكان مقتولاً بالزبير هرول هارباً ناقماً راعشاً من الغنيمة بالسلامة وفي نفسه من العداء لسيدنا علي ما فيها ثمَّ خرج على أمير المؤمنين مع أهل النهر لضيعة مطامعه وخيبة آماله فقتله عليه صلوات الله معهم

هكذا ختمت حياة الزبير بن العوام الذي صرعته مصارع الحين كما قال سيدنا أمير المؤمنين والذي يستلفت النظر في هذه القصة هو كمال سيدنا أمير المؤمنين في اخلاقه العالية ذلك الكمال الذي رفعه عن الحقد والضغينة وحب الانتقام من رجل اقلّ مايقال فيه انه كان من زعماء الدين ألَّبوا الناس عليه وحملوه على أن يفتتح عهد خلافته بسفك دماء المسلمين . لاجرم ان هذا العلو في الاخلاق الفاضلة لايكون الا في نفس من علا الناس بقداسته وطهارته وايمانه كالامام الاعظم أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب عليه صلوات الله ولو كان غيره في موقفه لما امهل ان صفق طرباً لمن وافاه يبشره بهلاك اعدى عداة خلافته ولكان انعم على قاتله بالهيل والهيامان وضمه الى من حوله من الانصار والاعوان ولكن حاشا لامير المؤمنين ان يكون كذلك . انه عليه صلوات الله كان كعميد للمسلمين ينظر الى جمهورهم نظر الأب الى البنين فهو لايحقد على العاصي ولا يحفظ في صدره ضغينةً على المعادي بل يطلب للجميع الصلاح والاصلاح شأن الأب المربي . انه ما كتم اسفه لمصرع الزبير ولا نسي خدمات هذا الصحابي الكبير للاسلام على عهد المصطفى عليهما الصلاة والسلام فأنساه فضله هذا اساءته الاخيرة لخلافته ولا عجب في ذلك وهو يعرف معنى قول الله « الحسنات تذهبن السيئات » وابى الا ان يهزَّ سيف الزبير ويذكر لصاحبه مواقفه في الغزوات النبوية كما ابت عليه نفسه الشريفة ان يكتم قاتله بأنَّ جزاءه النار وانه لولا أن يهدر الشرع دماء العاصين على الخلافة لقتله بالزبير . وبذلك كان سيدنا علي بن ابي طالب افضل قدوة للامراء المسلمين في معاملة رعاياهم فلا يحقدون عليهم ولا يمكرون بهم ولا يكيدون لهم احياءً وامواتاً

وأقول هنا والشيء بالشيء يذكر ان هذه القصة كنت سمعتها من فم عظمة مولاي السردار ارفع الشيخ خزعل خان للمرة الاولى في سنة ١٩١١ ميلادية ففي تلك السنة كنت في المعية السنية في المحمرة وحدث فيها حادث يحسن بنا تلخيصه للتاريخ لما فيه من العبرة البالغة وهو

في خلال سنة ١٩١٠ عين الاتحاديون الذين كانوا مسيطرين على الدولة العثمانية رجلاً

فَهَابَ مَثْوَاهُ فِي تِلْكَ ٱلْقِفَارِ وَلَمْ ... يَأْمَنْ عَلَى نَفْسِهِ إِنْ ظَلَّ آوِيهَا
وَسَارَ عَنْهَا وَرَجْوَاهُ ٱلنَّجَاةُ وَأَرْ ... ضُ ٱللهِ وَاسِعَةٌ فِي وَجْهِ طَاوِيهَا
وَمَا خَطَا خَطَوَاتٍ فِي تَهَرُّبِهِ ... إِلَّا رَأَى خَلْفَهُ شَخْصاً يُسَائِيهَا
حَتَّى إِذَا ٱلْتَقَيَا قَالَ ٱلزُّبَيْرُ: وَمَا ... تَبْغِي فَبُغْيَتُكَ ٱلْحُسْنَى أُلَبِّيهَا
أَجَابَ عَمْرٌو: لَقَدْ وَافَيْتُ أَسْأَلُ عَنْ ... أَهْلِ ٱلْحَنِيفَةِ قَالَ: ٱلْحَرْبُ تُفْنِيهَا
وَبَعْدَ طُولِ حَدِيثٍ تَطْمَئِنُّ لَهُ ... نَفْسُ ٱلزُّبَيْرِ ٱلَّتِي خَافَتْ مُمَاشِيهَا

منهم يدعى سليمان نظيف والياً لولاية البصرة وهي كما تعلم على حدود المحمرة ومرّ هذا الوالي بمصر فاجتمعت به وذكرت له فساد السياسة التركية مع العرب وامرائهم ووجوب تبديلها بسياسة انفع للاتراك والعرب ولا سيما في العراق واليمن وذلك بمسالمة الامراء المجاورين وانصاف اهالي المدن الخاضعين للحكم العثماني مباشرةً وقلت انها السياسة الوحيدة التي يرجى من ورائها تجديد مجد الدولة العثمانية كما يحب العرب والاتراك معاً فاظهر ذلك الوالي حسن النية في سماع نصائحي التي هي نتيجة درس واختبار طويلين وسار الى البصرة وبالفعل سار عليها وتودّد الى عظمة مولاي السردار أرفع الشيخ خزعل خان وساكن الجنان الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت أجمل تودّد وكانت أجمل مظاهر سياسته تلك ان الامان قد استتب في ولاية البصرة لانّ الاشقياء الذين كانوا يغتنمون فرصة غضب هذين الاميرين العظيمين وهما صاحبا الحول في هاتيك الاطراف من سوء سياسة الولاة الاتراك فيعوثون في البلاد فساداً قد تهيبوا هذا الوفاق لعلمهم ان الدولة العثمانية اذا كانت تعجز عن تأديبهم فالاميران لا يعجزان وهكذا بقي سليمان نظيف والياً في البصرة ثمانية أشهر والولاية على أحسن ما يكون من الأمن لا بفضل تدابيره ولا بسطوة دولته ولكن بنفوذ الاميرين الجليلين المشار اليهما وهما في الحقيقة صاحبا الحول والطول وكان من حسن حظ العرب توثّق عرى الوداد بينهما حتى كانا كأخوين متضامنين

غير ان الطبع غلاب والاتحاديون لم تكن سياستهم في الدولة العثمانية سياسة تأمين وتعمير بل سياسة ضغط وتوسع فصعب علي سليمان نظيف بل وعلى الوزارة الاتحادية في الاستانة نفسها ان يكون الامر في سواحل العراق بيد هذين الاميرين العظيمين وكانا على اتحاد تام فحدثتهم نفوسهم الشريرة بالاعتداء عليهما وبالفعل انقلب سليمان نظيف بين عشية وضحاها على الاميرين وابتدأ العدوان ضد امارة المحمرة في حديث يطول وكانت نتيجة اعتدائه هذا ان تحوّلت هذه السياسة الاتحادية الحرقاء الى مشكلة دولية حملت الدولة الانكليزية لوقية على الظهور بمظهرها الحقيقي وهو المحاماة عن حقوق امراء العرب واسرعت الوزارة الاتحادية لاخفاء خزلانها بعزل سليمان نظيف عن البصرة وكان لي في هذا الحادث يد معروفة لاني ذهبت وتنشذ الى بغداد وقابلت ناظم باشا الذي ارسله الاتحاديون الى العراق لاكراه ناسها على الاستسلام لادارة الاتحاديين القاهرة وهي ترك لغتهم وجنسيتهم العربية الشريفة بالقسر فحدثت ناظم باشا عن فساد سياسة سليمان نظيف وما ستجرّ على الدولة من المشاكل وأنا أحسبه عاقلاً نزيهاً وذا هو شرّ من أصحابه واذ لم يقنع من قولي ارسلت التيلغرافات العديدة لطلعت بك وشوكت باشا زعيمي الاتحاديين في وزارتهم وقتئذ . وعلى اثر جهادي هذا واخلاصي اعتدى ناظم باشا على حريتي واخرجني من بغداد باستبداد التركي المشؤوم في حديث غريب ليس هنا محله

عَلَيْهِمَا حَانَ مِيقَاتُ ٱلصَّلَاةِ فَنَا   دَاهُ ٱلزُّبَيْرُ : هَلُمَّ كَيْ نُصَلِّيَهَا
وَقَالَ : تُؤْمِنُنِي يَاعَمْرُو قَالَ : بَلَى   وَعَجَّلَتْ كُلُّ نَفْسٍ فِي تَوَضِّيهَا
وَإِذْ جَثَا أَبُ عَبْدِ ٱللهِ عَاجَلَهُ   عَمْرٌو بِضَرْبَةِ سَيْفٍ رَاحَ مُهْوِيهَا
وَٱجْتَثَّ رَقَبَتَهُ وَٱحْتَازَ خَاتَمَهُ   وَسَيْفَهُ وَٱنْثَنَى فِي زَهْوِهِ تِيهَا
وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنِّي ٱنْتَقَمْتُ لِأُمَّـةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَهْلَكْتُ طَاغِيهَا
وَعَادَ لِلْأَحْنَفِ ٱلْمُغْرِيِّ يُخْبِرُهُ   بِفَعْلَةٍ فِي سَبِيلِ ٱلدِّينِ آتِيهَا

اذكر انني بعد عودي من بغداد الى المحمرة المحمية كنت مرة في حضرة عظمة مولاي السردار ارفع الشيخ خزعل خان في مجلسه العامر باهل العلم والفضل واذ ذكر ذاكر سليمان نظيف وعزله وارتحاله عن البصرة مخذولاً فقال عظمته حفظه الله تعالى لا تذكروه بشر فقد فعل ما فعل تنفيذاً لرغبات الدولة التي ائتمنته على مصالحها واذا كان عمله قد جر عليه أو على دولته الضرر فما الذنب عليه بل على الوزارة التي عملت برأيه أو حملته على السير على ما ارتأت واني لست بحاقد عليه انها مشادة بين العرب والاتراك فهم يحاولون ان يستعبدونا ونحن نحاول ان لا نكون عبيداً لهم : وعجب الحاضرون بهذه الاخلاق الفاضلة المزدانة بها تلك النفس العالية نفس الحضرة السنية الخزعلية فقال روحي فداه لا تتعجبوا فإني انا من أبي الحسن عليه السلام الم تسمعوا بما قاله يوم قتل الزبير بن العوام وجاءه قاتله يستجيزه وقص علينا قصة الزبير. ثم قال حفظه الله : ألا ان من يريد ان يتمم مكارم الاخلاق فليتربَّ على يدي سيدنا أمير المؤمنين وليتأدب بأدبه فازددنا اعجاباً بهذا الامير العظيم بارك الله فيه وقلت في الحال مرتجلاً :

الله أكبر ياميرُ فأنت أفضـل من تسوَّد في الاعارب أو حكم
وأبرُّ من تبع العليَّ مقلداً   أحكامه ومردداً عنه الحكم
لاعرو ان أضحت بك العرب الكرا   م بعزةٍ قعساء تحسدها العجم
فلقد حلمت عن العدى حتى لقـا   ل أن تنال وقد همت بني بذم
وكذاك كان المرتضى لعداته   وكذا يكون الحد حقاً والكرم

« ترجمة الزبير »

هو أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي فيجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصي . وأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام . أسلم الزبير وهو في الخامسة عشرة من عمره وكان اسلامه بعد أبي بكر بقليل وهاجر الى الحبشة أولاً والى المدينة ثانياً . وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة الذين خصهم عمر بالشورى. وقد شهد الزبير المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أول من سل سيفاً للجهاد في الاسلام . وآخى الرسول بينه وبين سلمة بن سلامة من الانصار . وكان يدعى الزبير حواري رسول الله والحواري معناه الخاصة أو الخلص تقول فلان خالصة فلان وخلصانه وحواريه وسبب تلقيه بهذا اللقب الشريف هو انه في يوم الاحزاب في غزوة الخندق لبى دعوة الرسول اذ انتدب ثلاثاً من يأتيه بنبأ القوم فكان الزبير ملبيه فيها فقال ان لكل نبي حواري وحواريَّ الزبير . وكان الزبير مع عمرو بن العاص يوم فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب. وقد كان

فقالَ : لَمْ أدرِ إنْ كُنتَ المُسيءَ بها ... أمِ المُجيدَ صَنيعاً في تَوَلّيها
فاقصُدْ حِمى المُرتَضى واستَفْتِهِ عَجِلاً ... فَما لأُمَّتِنا إلاّهُ يُفتيها
فَسارَ لِلبصرةِ الغَنّاءِ يَضرِبُ في الـ ... ـبَيدا مُطَهَّمُهُ يَطوي فَيافيها
حَتّى إذا ما انتَهى لِلحَضرةِ العَلَويَّـ ... ـةِ الّتي لا تُحابي مَنْ يُواليها
سَيفَ الزُّبيرِ لَقدْ ألقى وَخاتَمَهُ ... أمامَها بهما يَرجو تَرَضّيها
وَقالَ : أهلَكْتُهُ أبغي رِضاءَ إلـ ... ـهي وَالخِلافَةُ عاشَتْ بعدَ عادِيها

الزبير أشد الصحابة تمسكاً بالولاء لبني هاشم على عهد الرسول لانهم أخواله وكانوا يحسبونه واحداً منهم

وكان الزبير أشدّ الناس كدراً لضياع الخلافة من سيدنا عليّ في يوم السقيفة ولم يبايع أبا بكر الا وهو مكره اذ لجأ وتتذر الى بيت سيدتنا فاطمة وجاء عمر والسيف مشهر بيده واستاقه قهراً الى أبي بكر حتى بايعه والقصة مشهورة وكان يصحب فاطمة الزهراء عليها السلام لاستنهاض المهاجرين والانصار لنكث بيعة أبي بكر ومبايعة عليّ وأحاديثه في الانتصار لأمير المؤمنين عليه صلوات الله كثيرة أجمع المؤرخون على صحتها

وعند ما عاد عبد الرحمن بن عوف يوم الشورى من مشاورة الناس وأنبأ الزبير بوجوب مبايعة عثمان أنكر عليه ذلك ونادى ليس لها الا علي بن أبي طالب عليه صلوات الله . ولم ينقلب الزبير على سيدنا علي الا بعد أن كبر ابنه عبد الله فاثر عليه وأبعد قلبه عن موالاته طمعاً بالخلافة على ما سترى في ترجمة عبد الله هذا

وكان الزبير شديداً على عثمان يغري الناس بقتله كما كان بقية وجوه الصحابة والانصار وكان في مقدمة من بايعوا سيدنا علي بايعه بعد طلحة ثمّ كان في مقدمة المنقلبين عليه على ما سبقت الاشارة وتلا ذلك مسيره مع أصحاب الجمل لحربه ففراره الى ان قتل غيلة كما تقدم القول وكان مقتله وهو في السابعة والستين من عمره . وكان الزبير اسمر اللون ربعة في القوام معتدل اللحم خفيف اللحية اسود الشعر فصيح اللسان

اما مدينة الزبير التي دعيت باسمه فهي تبعد ثمانية اميال عن البصرة وقد بنيت على الارض التي جرت عليها موقعة الجمل وكان في موضع هذه المدينة قبر الزبير ولم نجد فيما بين أيدينا من التواريخ كيفية نقل رفته من وادي السباع الى هذا الموضع ولا اسماء الذين نقلوها ولكن قبر الزبير كان هناك من عهد عهيد وكان متهدماً وكان بجواره حان تنزل فيه القوافل وهي سائرة من البصرة الى الشام وبنيت بجواره بضعة بيوت من الآجر وسوق صغيرة من قبل سنة ١٠٠٠ للهجرة

وعند ما ظهر الشيخ احمد عبد الوهاب الشهير في نجد بدعوته وايده الامراء آل سعود ترك نجداً كثيرون من ذوي البيوتات النجدية الكريمة منهم آل زهير وآل سام وآل ثاجب وآل قداع وآل مشري وآل منديل وسكنوا في هذا الموضع ودعوه على اسم الزبير وابتنوا بجوار قبر الزبير مسجداً للصلاة واخذ الناس يتبعونهم ويجاورونهم فكبرت بهم المدينة واشتهرت بتجارة الخيل يستوردونها من نجد ويرسلونها بطريق البصرة أو الكويت الى بومباي لتباع في أسواق الهند ويبلغ عدد سكان هذه المدينة الآن نحو عشرة آلاف نسمة وكان الحكم فيها لآل زهير ظلوا يحكمونها الى منذ اربعين سنة

فَأَنكَرَ ٱلْمُرْتَضَى هذِي ٱلْجِنَايَةَ إِنــــكَاراً عَلَى عَمْرِو ٱلْجَرْمُوزِ جَانِيهَا
وَقَالَ: وَٱللهِ مَا كَانَ ٱلزُّبَيْرُ إِذَا خَاضَ ٱلرِّجَالُ غِمَارَ ٱلْحَرْبِ كَاعِيهَا
لٰكِنَّمَا ٱلْحَيْنُ مَعْ سُوءِ ٱلْمَصَارِعِ يَرْمِي ٱلْمَرْءَ فِي نَكْبَةٍ صَعْبٍ تَوَقِّيهَا
ثُمَّتْ تَنَاوَلَ ذَاكَ ٱلسَّيْفَ فِي يَدِهِ وَهَزَّهُ هَزَّةً قَدْ كَانَ رَاضِيهَا
وَقَالَ: يَاطَالَمَا جَلَّى ٱلزُّبَيْرُ بِهِ عَنِ ٱلرِّسَالَةِ خَطْباً كَانَ فَاجِيهَا

وكان آخر حكامها منهم المرحوم سليمان الزهير الشهير . ثمّ تسلطت عليها الدولة العثمانية بعدان تسلطت على البصرة واستخلصت حكم هذا البلد من آل سعدون وجعلته اقصبةً تابعة للبصرة الا انها ابقت الزعامة فيها لاهلها العرب وكان حاكمها الاخير على ما اعهده منذ اعوام صاحب السعادة عبد الكريم آل مشري

وليس في الزبير وضواحيها زراعة لعدم وجود الماء هنــاك ولذلك عمد كثيرون من اشراف الزبيريين الى الانتقال الى البصرة فأصبحت اكثر العائلات الكريمة التي اشرنا اليها ساكنة البصرة اليوم ولــكن ظلّ لها اقرباء وعلائق عقارية ومالية في الزبير

« ترجمة عبد الله بن الزبير »

هو عبد الله بن الزبير بن العوام وامه اسماء بنت أبي بكر اخت عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم لابيها وعند ماهاجرت امه الى المدينة مع زوج ابيها ام رومان واختها عائشة كانت حاملاً به فولدته في « قباء » فكان أول مولود للمهاجرين وجاءت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته في حجره فدعا بتمرة فمضغها ثمّ تفل في فيه فكان اول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ثمّ حنكه بتلك التمرة ودعا له وبارك . وكان فرح المسلمين بمولد عبد الله كبيراً لان اليهود كانوا يقولون ان المسلمين سوف لايلد لهم ولد . وقد دعاه رسول الله عبد الله وكناه بكنية جده « ابي بكر »

وكان الزبير شديد الشغف بولده عبد الله كما كان المسلمون يحبونه لسبب الآنف ذكره وعند مابلغ السابعة من عمره ارسله ابوه الزبير الى المصطفى ليبايعه فتبسم صلى الله عليه وسلم وقبل بيعته

ثمّ ان عائشة اذ لم يرزقها الله ولداً انصرفت الى تربية ابن اختها عبد الله بن الزبير والعناية به وكانت تحبه حباً جماً وقالت عائشة للمصطفى يوماً وقد يئست من الولد بماذا اكنى وليس لي ولد فقال عليه الصلاة والسلام بابن اختك عبد الله فصارت تكنى « بام عبد الله »

وشبّ الزبير بين يدي خالته فاثرت على اميالها وابعدته عن ولاء سيدنا علي عليه صلوات الله مع موادّة بني هاشم حتى اذا مابلغ الشباب صار يؤثر على ابيه ويبعده عن عليّ وبني هاشم . ودخل على نفس عبد الله بن الزبير الطمع بالخلافة من يوم حصر عمر حقّ ولايتها بالستة وابوه احدهم فكان يحلم بان يكون ابوه الخليفة وفي ايام عثمان كان عبد الله بن الزبير من اشدّ الناس على عثمان يقدح به ويحرش الناس عليه . حتى اذا ماقتل عثمان وخاب فأل خالته بولاية طلحة اسرع الى مكة وانضمّ اليها قبل مسير أبيه وطلحة اليها . ورافق عائشة واصحاب الجمل الى البصرة وكان في مدة حملة الجمل هو الذي يصلي بالناس بامر عائشة كما تقدم . كما كان عبد الله هذا هو الوسيط الوحيد بين الناس وعائشة فهو الذي احضر لها جمل العرني لتركبه وهو الذي هددها بجيش سيدنا علي عند « الحوأب » حتى حملها على استئناف المسير بعد ان عزمت على الرجوع تائبة نادمة . وكما كان هوالذي اثر

فَقَالَ عَمْرٌو أَجِزْنِي وَٱلصَّنِيعَةُ قَدْ ... جَلَّتْ بِجَائِزَةٍ كُبْرَى تُوَازِنُهَا

قَالَ ٱلْوَصِيُّ : أَتَرْجُو أَنْ أُجِيزَ عَلَى ... صَنِيعَةِ ٱلشَّرِّ وَٱلْآثَامِ مُسْدِيهَا

فَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ يُنْذِرُ مَنْ ... يُرْدِي ٱلزُّبَيْرَ بِنَارِ ٱلْخُلْدِ يَصْلِيهَا

كَذَاكَ قَدْ رَدَّ عَمْراً خَائِباً يَئِساً ... مِنَ ٱلْأَمَانِي ٱلَّتِي قَدْ كَانَ رَاجِيهَا

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِيهَا دِمَاءُ ذَوِيـ ... ـهَا ٱلشَّرْعُ مُهْدِرُهَا مُعْفٍ مُرِيقِيهَا

لَمَا نَجَا عَمْرٌو مِنْ عَدْلِ ٱلْإِمَامِ وَإِنْ ... نَجَّى ٱلْإِمَامَةَ مِمَّنْ كَانَ شَانِيهَا

على ابيه الزبير ليحنث باليمين التي حلفها لسيدنا علي ان لا يحاربه . وعند ما اظفر الله سيدنا علي باصحاب الجمل عرض عبدالله هذا ان يبايعه عليه صلوات الله بواسطة محمد بن أبي بكر فرفض بيعته لعلمه بانه غير صادق بها وعفا عنه فهرب الى الشام وانضمّ الى معاوية وحضر معه موقعة صفين الشهيرة

وبعد مقتل سيدنا علي عليه صلوات الله ورضاء سيدنا الحسن ببيعة معاوية ذهب عبد الله بن الزبير الى المدينة واقام فيها وكان معاوية يغدق عليه نعمه شأنه مع اعاظم رجال قريش ووجوه الانصار على ان عبد الله بن الزبير كان في جملة الذين انقلبوا على معاوية عند ما ارسل يطلب منه ومن امثاله من كبار ابناء الصحابة والانصار الرضاء ببيعة ابنه يزيد فرأى معاوية بعد ان استوثق من أهل الشام والعراق لابنه ان يسير بنفسه الى المدينة ليستعمل نفوذه عليهم ويحملهم على الرضى بيزيد وقبل وصوله الى المدينة اسرع سيدنا الحسين عليه السلام وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير هذا الى مكة وهم مصممون على رفض البيعة ليزيد ومقاومتها مهما كانت الحالة . وكان معاوية يهمه بيعة هؤلاء قبل كل من في المدينة لانهم كانوا وتنثني اكبر واوجه اولاد المهاجرين فلما وصل المدينة بخيله ورجله وهيله وهيلمانه وسمع أنّ هؤلاء الزعماء الثلاثة قد تركوها وساروا الى مكة كرمها الله تبعهم اليها وهو يتظاهر انه يريد النسك والحج فلما بلغها استدعاهم اليه وطلب منهم البيعة لابنه يزيد وعللهم بان يكونوا في ولايته اصحاب الحل والعقد فلم يجب سيدنا الحسين وقال عبد الله بن الزبير ان الاولى ان تتركها شاغرة كما تركها رسول الله فيختار الناس لها من يشاؤون أو ان تعهد بها الى رجل ليس من بني ابيك كابي بكر أو ان تجعلها في ستة نفر ليس فيهم احد من ولدك ولا بني ابيك كما فعل عمر فحاول معاوية ان يستدرجهم بالوعود الى موافقته على بيعة يزيد فما افلح معهم وأصرّوا على اباء البيعة فقال: احببت ان اتقدم اليكم ، انه قد أعذر من أنذر ، اني كنت أخطب فيقوم اليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فاحمل ذلك واصفح ، واني قائم بمقالة ، فاقسم بالله لئن ردّ عليّ احدٌ منكم كلمةً في مقامي هذا ، لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقينّ رجلٌ الاّ على نفسه . وبعد ان اتمّ كلماته هذه دعا بصاحب عسكره بحضرتهم وقال : أقم على رأس كلّ رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجلٌ منهم يردّ عليّ كلمةً بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما ثمّ قال : وهذا انا ذاهب الى المسجد فسقهم اليه . وبالفعل خرج معاوية الى المسجد وكان غاصاً بالناس بدعوة معاوية واستيق اليه سيدنا الحسين وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وقام على رأس كلّ منهم رجلان مشهران سيفيهما . وعلا معاوية المنبر فحمد الله واثنى عليه وقال : « انّ هؤلاء الرهط ، (واشار الى الثلاثة) سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتزّ امر دونهم ، ولا يقضى

وَمَا اكْتَفَى أَنْ يُجَافِيهِ وَيُزْعِجهُ ... مَعَ الْبِشَارَةِ بِالنِّيرَانِ يَثْوِيهَا
وَالْمُرْتَضَى كَانَ أَسْمَى هِمَّةً وَتُقَى ... مِنْ أَنْ يُوَاتِيَ عَلَى الْآثَامِ مُجْزِيهَا
وَإِنْ تَكُنْ خَدَمَتْهُ فِي سِيَاسَتِهِ ... وَضَعْضَعَتْ عَزْمَ مَنْ أَمْسَى يُنَاوِيهَا

الا عن مشورتهم، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله » فلم يكن في الناس الا المبايع لانهم لو أرادوا ان لا يبايعوا لما استطاعوا الى ذلك سبيلا ولانهم راوا سادأتهم والسيوف مشهرة على رؤوسهم فهيبوا وتقهم وبعد أن اكره هؤلاء الثلاثة على البيعة عادوا الى المدينة وفي نفوسهم ما فيها على الحق المغصوب والامر المسلوب

وعند ما مرض معاوية مرض الموت دعا اليه ابنه يزيد فأوصاه وصيته وأهمها ان يكرم أهل الحجاز ويبرهم وان يمالىء أهل العراق بحيث اذا طلبوا منه في كل يوم أن يعزل عاملاً فليفعل وأن يتصم بأهل الشام ويتخذهم بطانته ثم قال : ولست اخاف ان ينازعك في الخلافة سوى اربعة اولهم الحسين بن علي وهذا سوف لا يدعه اهل العراق فاذا ظفرت به فلا تتعرض له بسوء لقرابته من رسول الله . والثاني عبد الله بن عمر وهذا وقذته العبادة فاذا رأى الناس قد بايعوك بايع . والثالث عبد الرحمن ابن أبي بكر وهذا ليس له همة سوى في اللهو والنساء فيصنع ما يصنع الناس . والرابع عبد الله ابن الزبير وهذا سيجثم لك جثوم الاسد ويروغك مراوغة الثعلب فان هو فعلها فظفرت به فقطعه ارباً ارباً آه وترى من هذا ان معاوية لم يكن يحسب حساباً الا لسيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير

وعندما توفي معاوية في هلال رجب سنة ٦٠ للهجرة « ٧ افريل سنة ٦٨٠ ميلادية » نادى ابنه يزيد بنفسه خليفة للمسلمين فبايعه الناس في دمشق ثم كتب الى الامصار فبايعته وكان همه الاعظم أن يأخذ بيعة النفر الذين ذكرناهم فكتب بذلك الى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان عامل أبيه على المدينة ما نصه « أما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير أخذاً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » فلما ورد نعي معاوية على المدينة المنورة وهم الوليد بن عتبة بالعمل حسبما أمره يزيد أسرع عبد الله ابن الزبير الى مكة وقال للناس : اني عائذ بالبيت . ولم يكن يصلي مع الناس أو يفيض في الحج بافاضتهم . وفعل مثل ذلك سيدنا الحسين فخرج باولاده ونسائه وأولاد ونساء أخيه الحسن الى مكة وبايع عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ليزيد بعد أن بايع الناس

وعند ما أقبل سيدنا الحسين على مكة أقبلت الناس عليه وفيهم عبد الله بن الزبير وكان هذا يعلم يقيناً ان أهل الحجاز لا يبايعونه مادام الحسين موجوداً فكتم ما في نفسه واتضع لصاحبه . حتى اذا ما دعا العراقيون سيدنا الحسين اليهم ليبايعوه واباهم وسار اليهم أخذ عبد الله بن الزبير يترقب سير الحوادث وهو ينوي أن يعلن الدعوة لنفسه سواء ظفر الحسين على معاوية بمعاونة العراقيين أو خذل . فلما انتهى الى عبد الله بن الزبير نبأ فاجعة المسلمين الكبرى بمقتل سيدنا الحسين عليه السلام دعا الناس الى بيعته فبايعه الحجازيون وكان سبق ذلك عصيان أهل المدينة وأرسل يزيد بن معاوية مسلماً ابن عقبة لقتالهم فسار اليهم وحاربهم وانتهك حرمة مدينة الرسول وأخضعهم بالسيف . وعلى أثر ذلك سار بأمر يزيد الى مكة لاخضاع عبد الله بن الزبير اللائذ بالبيت العتيق فنتهى الى مكة لاربع بقين من المحرم سنة ٦٤ هـ فصمد له عبد الله بن الزبير وطال القتال ورمى رجال يزيد مكة كرمها الله والبيت العتيق بالمجانيق وما زال القتال مشتبكاً حتى ورد على مكة نعي يزيد وقد مات لاربع عشرة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤ للهجرة « ١٠ نوفمبر ٦٨٣ ميلادية » فوقف القتال وارتد جيش الشام

وَكَانَ يَرْفِضُ عَوْناً لِلْخِلاَفَةِ لاَ ... تَرْضَى ٱلشَّرِيعَةُ عَنْهُ مِنْ مُعِينِيهَا
وَهُوَ ٱلَّذِي قَدْ تَوَلاَّهَا لِيَخْدِمَ شَرْ ... عَ ٱلْمُصْطَفَى لاَ لإِطْمَاعٍ يُوَخِّيهَا

مصير طلحة بن عبد الله

أَعْمَالُ طَلْحَةَ فِي قَتْلِ ٱلْخَلِيفَةِ عُثْـ ... ـمَانٍ أُمَيَّةُ لَمْ تَجْهَلْ خَوَافِيهَا(١)
فَإِنَّهَا عَرَفَتْ مَاضِي عَدَاوَتِهِ ... لَهُ وَكَانَ عَلَى ٱلأَشْهَادِ يُبْدِيهَا
وَطَالَمَا كَانَ يَسْتَهْوِي ٱلنُّفُوسَ إِلَى ... عِصْيَانِهِ عَلَناً بِٱلْقَتْلِ يُغْرِيهَا
فَهَوَّشَ ٱلنَّاسَ تَهْوِيشاً وَأَلَّبَهَا ... عَلَيْهِ حَتَّى تَمَادَتْ فِي تَعَصِّيهَا
وَعِنْدَمَا ٱسْتَفْحَلَتْ إِذْ ذَاكَ فِتْنَتُهَا ... وَخَابَ مَسْعَى ٱلأُلَى رَامُوا تَلاَفِيهَا
قَدْ كَانَ طَلْحَةُ فِي بَابِ ٱلْخَلِيفَةِ مَشْـ ... ـمُولاً بِشَمْلَتِهِ مُسْتَخْفِياً فِيهَا

أدراجه وظلّ عبد الله بن الزبير ولي الامر في مكة كرمها الله وكل الحجاز

وخلف يزيد ابنه معاوية الثاني وهذا لم تطل مدته فاعتزل ومات وخلفه مروان بن الحكم كما مرّ معنا في ترجمة مروان وهذا قاتل الضحاك وغلبه وكان هو ادمع عبد الله بن الزبير ومات ولا يزال عبد الله بن الزبير ولي أمر المسلمين في الحجاز . ولما مات مروان خلفه ابنه عبد الملك بن مروان وهذا رأى الحجاز والعراق منتقضتين عليه فقرّ رأيه على ان يبدأ بمحاربة العراق ثمّ يذهب الى اخضاع الحجاز فلم يفلح بحربها وامتدّت سلطة عبد الله بن الزبير الى العراق . ثم ان عبد الملك سار بنفسه الى العراق وحاربها وأخضعها ووجه وهو في الكوفة حملةً على الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي وذلك سنة ٧٢ للهجرة وبوصوله الى مكة حصرها ورماها بالمجانيق ولم يزل كذلك حتى أضنى أهل مكة الحصار وضرب المجانيق فتفرقوا عن عبد الله بن الزبير وخرجوا بالامان الى الحجاج فأمنهم ودخل مكة فاعتصم عبد الله ابن الزبير بالبيت العتيق فما رعى له الحجاج حرمةً وضرب الكعبة بالمنجنيق واجتازها عنوةً ودخل على عبد الله ابن الزبير وهو معتصم بالكعبة وقتله أشنع قتلة وكان في الثانية والسبعين من عمره اذ كان مولده في السنة الاولى من الهجرة كما سبق القول وأما خلافته فدامت تسع سنين اذ كانت بيعته سنة ٦٤ للهجرة

(١) مرّ بنا فيما تقدم أنّ طلحة كان في مقدمة الناقمين على عثمان الناعين عليه وعلى عماله أعمالهم وكان يغري الثائرين بقتله ويدعوهم اليه حتى انه في يوم مقتله كان مشتملاً بشملته اخفاءً لشخصه وكان يرمي دار عثمان بنبله مع رماتها ولما تعذر على الثائرين دخول دار عثمان لتصدي الحسن والحسين وبقية أبناء الصحابة الى منعهم سار بهم الى دار مجاورة لدار عثمان وأصعدهم الى سطحها وبذلك دخلوا دار عثمان وقتلوه . وكان الامويون يعرفون هذا كله ولا سيما مروان بن الحكم الاّ انهم ما كانوا في الحقيقة مطالبين بدم عثمان بل كانوا يطلبون الخلافة ولذلك وجهوا خصومتهم على أمير المؤمنين عليه صلوات الله واتهموه ظلماً بالتحريض على عثمان وحماية قتلته والذين ثاروا عليه من العقاب ولو تولاها أيّ كان من غير بني أمية لكانت نغمتهم واحدة باتخاذ دم عثمان حجةً لهم يحتجون بها عليه

وَكَانَ فِي زُمْرَةِ ٱلثُّوَّارِ حِينَ رَمَتْ ... دَارَ ٱبْنِ عَفَّانَ بِٱلأَنْبَالِ يَرْمِيهَا
وَصَارَ يَطْلُبُ مِنْهَا قَتْلَهُ وَبِهِ ... قَدْ كَانَ رَغْمَ نَوَاهِي ٱلشَّرْعِ يُفْتِيهَا
حَتَّى إِذَا هَاجَمَتْ دَارَ ٱلْخِلَافَةِ تَبْـ ... ـغِي قَتْلَ صَاحِبِهَا صَبْرًا بِأَيْدِيهَا
وَحَالَ دُونَ مُنَاهَا مَوْقِفُ ٱلْحَسَنَيْـ ... ـنِ مَعْ بَنِي ٱلصَّحْبِ إِذْ صَدُّوا تَعَدِّيهَا
وَافَى بِهَا طَلْحَةٌ دَارَ ٱلْخَلِيفَةِ مِنْ ... سَطْحٍ بِجِيرَتِهَا ٱلدُّنْيَا يُحَاذِيهَا
أُمَيَّةٌ عَرَفَتْ هٰذِي ٱلْفِعَالَ لَهُ ... لٰكِنَّهَا أَظْهَرَتْ عَنْهَا تَغَاضِيهَا
لَمَّا رَأَتْهُ عَلَى عُدْوَانِ حَيْدَرَةٍ ... مُصَمِّمًا وَهْوَ فِي هٰذَا مُوَاهِيهَا
وَكَانَ يَعْرِفُ مَرْوَانٌ حِكَايَتَهُ ... وَكَانَ مَعْ طَلَبِ ٱلثَّارَاتِ يُخْفِيهَا
وَكَانَ مَعْ مَنْ سَعَوْا سَعْيًا بِعَائِشَةٍ ... لِوَقْعَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلسَّوْدَاءِ يُزْجِيهَا
وَعِنْدَ مَا نَصَرَ ٱللهُ ٱلْعَلِيَّ وَأَعْـ ... ـدَاهُ قَدِ ٱنْخَذَلَتْ وَٱللهُ مُخْزِيهَا

ليضعفوا أمره ويؤلبوا الناس عليه توصلاً الى الخلافة . ولهـذا لا عجب اذا أغضوا عن طلحة والزبير وغيرهما ممن تألبوا على عثمان وتناسوا لهم حملاتهم الشديدة على ذلك الخليفة المقتول أو تجاهلوا ذلك بعـد أن انضموا اليهم وأصبحوا في صفوفهم

الا ان مروان بن الحكم يختلف عن سائر الامويين بأنه هو السبب المباشر لقتل عثمان واذا كان الثائرون على عثمان نقموا عليه لأجل عمـاله فجلّ نقمتهم كانت على مروان الذي كان هو الخليفة « غير الرسمي » المتصرف بشؤون الخلافة بينما كان عثمان عاكفاً على الصلاة والصوم وتلاوة القرآن العزيز ولم يكن له من الامر غير الاسم. ولهذا كان ضمير مروان يوبخه ويؤنبه كلّ ما ذكر عثمان وطيبة قلبه وانّه قتل بجريرته وكان كمرائي يرغب من صميم قلبه أن يثأر له من قاتليه الاصليين وعلى رأسهم طلحة والزبير

وما زال مروان بن الحكم يحارب مع اصحاب الجمل الى أن تشتت شملهم وامتلأت الارض من دماء قتلاهم حتى اذا ما تفرّقوا بعد هلاك الجمل أيدي سبأ ورأى انه مكرهٌ على الفرار كما فر من بقي حياً من اصحابه ولـكن عزّ عليه أن يترك ميدان القتال وطلحة وهو عدوّه الاكبر حيّ فقال لا أطلب ثار عثمان من طلحة بعد اليوم وانتحى له بسهم أصاب ساقه وقطع أكحله وكان طلحة قبل سهم مروان قد اصيب بجروح كثيرة وهو ثابت على القتال يشجع النفر القليل الذين ثبتوا معه على حرب أنصار الخليفة فلما أصابه سهم مروان وقع من فوق جواده الى الارض وتركه الذين ظلوا معه وولوا هاربين يطلبون السلامة لأنفسهم من بطش سيدنا أمير المؤمنين

وحمل طلحة بعضٌ من الجرحى الـكثيرين الذين حوله وهو يقول « ما رأيت كاليوم دم شيخ قريشي أضيع من دمي » وبينما كان طلحة يجود بروحه ودماؤه تسيل من جسده وشرّها دم أكحله حيث أصابه سهم مروان واذا باعرابيّ مرّ به فقال له من أصحاب من أنت؟ فقال من أصحاب علي عليه صلوات الله فقال اقرأ أمير المؤمنين السلام وأبلغه توبتي وندمي على ما كان مني وامدد

مَرْوَانُ نَادَى: وَثَأْرِيَ لَسْتُ تَارِكَهُ ... وَنَسْأَتِي لَسْتُ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ مُنْسِيهَا
لَأَقْتُلَنَّ بِعُثْمَانٍ وَإِنْ طَلَبَ ٱلـ ... نَّاسِ سِوَى طَلْحَةَ كِذْبًا وَتَمْوِيهَا
فَإِنَّهُ دُونَ كُلِّ ٱلنَّاسِ قَاتِلُهُ ... وَٱلنَّفْسُ فِي قَتْلِهِ تُلْفِي تَشَفِّيهَا
وَبَيْنَمَا طَلْحَةٌ بَاقٍ لِحَرْبِ رِجَا ... لِ ٱلْمُرْتَضَى مَعْ بَقَايَا ٱلنَّاسِ يُنْخِيهَا
وَقَدْ مَلَتْ جِسْمَهُ نَبْلُ ٱلْخِلَافَةِ وَٱلْـ ... جِرَاحُ مِنْ دَمِهِ سَالَتْ مَجَارِيهَا
وَإِذْ رَمَى طَلْحَةَ مَرْوَانُ رَمْيَةَ مَوْ ... تُورٍ تَشَفَّى بِهَا تَٱللّٰهِ رَامِيهَا
فَرَاحَ طَلْحَةُ يَشْكُو مِنْ جِرَاحَتِهِ ... وَقَدْ دَرَى لَيْسَ غَيْرُ ٱلْمَوْتِ تَالِيهَا
وَبَيْنَمَا هُوَ مَافَوْقَ ٱلتُّرَابِ يُعَا ... نِي سَكْرَةَ ٱلْمَوْتِ مَعْ جَرْحَى تُعَانِيهَا

يدك لابايع لامير المؤمنين ثانية فمدّ اليه يده فبايعه وتركه الاعرابي ومضى أما طلحة فزفر وتأوّه وقال اللهمّ خذ لابن عفان مني وقفى. ثم مرّ معنا في حاشية سابقة كيف مرّ أمير المؤمنين بجثته وهو قتيل مضرّج بدمه وما قاله عندها وهكذا انتهت حياة هذا الصحابي الكبير

« ترجمة طلحة »

هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة ويجتمع برسول الله بمرّة. وأمه تدعى الصعبة بنت الحضرمي وكانت قبل أن يتزوجها أبوه عبيد الله زوجاً لابي سفيان بن حرب والد معاوية فطلقها ثمّ تبعتها نفسه فقال يتشوّق اليها قصيدةً مطلعها

اني وصعبة فيما أرى ... بعيدان والودّ ودّ قريب

وطلحة أحد الصحابة العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة الذين ترك عمر الامر شورى بينهم . وكان يلقب بطلحة الخير . وطلحة الفياض . وطلحة من السابقين الى الاسلام أسلم على يد ابن عم أبيه أبي بكر قبل اظهار الدعوة وهاجر الى المدينة مع نساء أبي بكر وعياله . ولم يحضر طلحة موقعة بدر فانّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أرسله يومئذ مع سعيد بن زيد ليتجسس عير قريش على انه شهد أغلب المشاهد النبوية

وأهم مواقف طلحة كانت في غزوة أحد وفيها شلّت أصبعه وقد روى طلحة بنفسه ماجرى له في أحد قال: «انى مالك بن زهير الجشمي بسهم يريد رسول الله وكانت رميته لاتخطيء فاتقيت السهم بيدي عن وجه رسول الله فأصاب خنصري فشلّ » ولذلك كانوا يسمونه « أبا أصبع » كما رأينا عائشة تدعوه . وروى الثقاة ان طلحة عند مااتقى السهم وأصاب أصبعه قال آه فقال رسول الله « لو قال بسم الله لدخل الجنة والناس ينظرون ، من أحبّ أن ينظر الى رجل يمشي في الدنيا، وهو من هل الجنة، فلينظر الى طلحة بن عبيد الله » وانّ سيدنا عليّ عليه صلوات الله وهو على ماعلمت من انصافه لاعدائه قبل أصدقائه ذكر ذاكرٌ بحضرته بعد موقعة الجمل طلحة بسوء فزبره وقال: «انك لم تشهد يوم أحد وعظم غنائه عن الاسلام مع مكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله» . فقال قائلٌ وما كان غناؤه وبلاؤه يرحمه الله يوم أحد ؟ فقال عليه صلوات الله « نعم يرحمه الله لقد رأيته وانه يترس بنفسه دون رسول الله وان السيوف لتغشاه والنبل من كل ناحية وما هو الا جنةٌ لرسول

لَاقَى فَتىً قُرْبَهُ يَمْشِي فَقَالَ: أَخَا ٱلأ ... م غُرَابٍ بَادِرْ عَزِيزاً فِي قُرَيْشِيِّهَا
فَجَاءَهُ ٱلعَرَبِيُّ ٱلشَّهْمُ يَسْأَلُهُ ... عَنِ ٱلرَّغَابِ ٱلَّتِي يَرْجُوْ لِيَقْضِيهَا
فَقَالَ: هَلْ أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ حَيْدَرَةٍ ... أَجَابَ: أَمْرَتُهُ إِنِّي مُوَالِيهَا
فَقَالَ: مَا نَفْسُ شَيْخٍ فِي ٱلأَعَارِبِ قَدْ ... ضَاعَتْ كَنَفْسِي وَإِنِّي كُنْتُ مُرْدِيهَا
هَلْ أَنْتَ تَعْرِفُنِي يَاصَاحِ قَالَ: بَلَى ... يَاطَلْحَ ذِي ٱلْحَرْبُ مَا إِلَّاكَ مُلْظِيهَا
فَقَالَ: أَبْلِغْ عَلِيّاً تَوْبَتِي عَلَناً ... وَٱطْلُبْ لِيَ ٱلْعَفْوَ مِنْ عَلْيَاهُ تَجْزِيهَا
وَٱمْدُدْ يَداً كَيْ أُثَنِّيَ ٱلآنَ بَيْعَتَهُ ... بِهَا مُبَايَعَةً لِلّٰهِ أُعْطِيهَا
فَمَدَّهَا وَتَلَقَّى مِنْـــــهُ بَيْعَتَهُ ... وَسَارَ نَحْوَ عَلِيٍّ كَيْ يُؤَدِّيهَا

الله يقيه بنفسه » وهكذا كان علينا عليه صلوات الله لايبخس الناس أشياءهم ولو كانوا عداته ولا سيما أكابر الصحابة الذين أيدوا الاسلام ونشروا دعوته

ولم يحضر طلحة مجتمع السقيفة عند ما بويع ابن عمه أبو بكر الا انه لم يتأخر عن البيعة . وبواسطة قرابته من أبي بكر كان يطمع أن ينال الخلافة ويعد نفسه لها يدلك على ذلك دخوله على أبي بكر وهو يجود بنفسه يعاتبه على بيعة عمر كما تقدم القول في حاشية سبقت . والظاهر ان عمر كان يحسب لطلحة حساباً فاتخذه موضع شوراه وميزه بعطاء قلوا وكان طلحة على عهد عمر يخلي بخاصته ويتحادثون بالخلافة بعد عمر على أن يبايعوه بها وبلغ ذلك عمر فخطب في الناس محذراً مغبة العودة الى ماجرى في وقت بيعة أبي بكر قائلاً « انها فلتة ولكن وقى الله شرها »

وكان طلحة غائباً عن المدينة عند ما قتل عمر فلم يحضر شورى الستة وتداليها يوم بيعة عثمان فلما علم بها داخله الهم والغم وكان في مقدمة الناقمين عليه ولكن ما تأخر عن بيعته ويظهر لي انه عرف بأن فوز عثمان كان بفضل مابذل معاوية من المال في تحزيب الاحزاب فأراد أن يحذو حذوه ودليلي على ذلك انه باع من عثمان أرضاً بسبعمائة ألف درهم فحملها اليه فقال طلحة «ان رجلاً يبيت وهذا المال عنده وفي بيته لا يدري مايطرقه من أمر الله لغرير بالله » وبالفعل شرع في تلك الليلة يوزعها مع رسله في شوارع المدينة المنورة على الناس حتى أصبح الصباح وما عنده درهم واحد . قال راوي هذا الخبر وهو حسن البصري فعل هذا طلحة ثم جاءنا يطلب الدينار والدرهم . وعلى مثل هذه الرواية وما عرفناه بعد من نقمته على سيدنا علي لانه ساوى بينه وبين المسلمين بالعطاء لا نفسر توزيعه المال على الناس الا لاكتساب قلوبهم يوم يعلن البيعة لنفسه والله أعلم

أما ظهوره بالعداء لعثمان فهو مالا ريب فيه وقد تضافرت عليه الروايات وأهمها في نظرنا شهادة أمير المؤمنين الذي لايتشكك مؤمن في صدقها وقد شهد عليه صلوات الله غير مرة بكل صراحة بأن طلحة كان أشد الناس على عثمان ومن هاتيك الشهادات نذكر أبينها وأصرحها قوله عند مابلغه ان طلحة نكث بيعته ونهض يطالب بدم عثمان على شعار السيوف « قد كنت وما أهدد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب ، وأنا على ماقد وعدني ربي من النصر ، والله مااستعجل (طلحة) متجرداً للطلب بدم عثمان ، الا خوفاً من أن يطالب بدمه لانه مظنته ، ولم يكن في القوم أحرص عليه منه

وبَعْدَ ذَا طَلْحَةٌ أَبْدَى تَأَوُّهَ مَأْ يُوسٍ وَمُهْجَتُهُ بَادٍ تَعَسُّفُهَا
وَصَاحَ: خُذْ لِآبْنِ عَفَّانٍ بِعَدْلِكَ يَا رَبَّاهُ مِنِّيَ حُقُوقًا أَنْتَ رَاضِيهَا
وَلَمْ يَزَلْ جُرْحُهُ آلنَّغَّارُ يُنْهِكُهُ حَتَّى قَضَى لَاهِبَ آلْأَحْشَاءِ ذَاكِيهَا

مصير عائشة أم المؤمنين

بِهَلْكَةِ آلجَمَلِ آلمَلْعُونِ صَاحَ عَلِيٌّ تِلْكَ عَائِشَةٌ إِنِّي لَحَامِيهَا
بِهَا إِلَى آلْبَصْرَةِ آلغَنَّاءِ آذْهَبُوا وَأَحِلُّوهَا هُنَالِكَ فِي أَضْفَى مَبَانِيهَا
وَكَانَ لِآبْنِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدَهَا تِيكَ آلْأَوَامِرُ بِآلتَّشْدِيدِ مُعْطِيهَا
مَعَ آبْنِ يَاسِرَ كَيْ فِيهَا يُعَاوِنَهُ فَلَبَّيَاهَا عَلَى أَسْمَى مَعَانِيهَا

فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلتبس الامر، ويقع الشك، ووالله ماصنع في أمر عثمان واحدةً من ثلاث، لئن كان ابن عفان ظالماً كما كان يزعم، لقد كان ينبغي له أن يوازر قاتليه، وأن ينابذ ناصريه، ولئن كان مظلوماً، لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهنهين عنه، والمعذرين فيه، ولئن كان في شك من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركن جانباً، ويدع الناس معه، فما فعل واحدةً من الثلاث، وجاء بأمر لم يعرف بابه، ولم تسلم معاذيره » اه وفي هذا كفاية

ثمَّ رأينا في سياق مانحن فيه كيف بايع طلحة قبل كل الناس سيدنا علي وكيف نكث بيعته وكيف ألّب الناس عليه وكيف سار الى البصرة وكيف قُتل. ومما تجب الاشارة اليه هنا هو ان اشتراك طلحة والزبير في نقمتهما على عثمان وعدائهما لسيدنا عليّ قد جعل اسميهما مصطحبين ولذلك أطلق عليهما اسم « الزبيرين » فحيثما وجدت هذا الاسم فاعلم انما يراد به طلحة والزبير

وقتل طلحة بين من قتل مع الجمل وله من العمر ٧٥ سنة ودفن في موضع الموقعة وهو الى الشمال الشرقي من بلد الزبير على مسافة يسيرة ومدفنه معروف هناك الى اليوم ويسمونه «قبر طلحة الخير»

(١) لما قتل الجمل لعنه الله في موقعة الجمل على ماتقدم في حاشية سبقت أمر سيدنا علي عليه صلوات الله أن يحتفظ الناس بالهودج وفيه عائشة ثمَّ أمر محمد بن أبي بكر وهو أخوها علي ماتعلم وعمار بن ياسر بان يسرعا الى الهودج وينظرا في أمر عائشة وراحتها ويحملانها الى البصرة ففعلا ونقلا الهودج بعائشة وهي صاخبة باكية وأنزلاها في دار عبد الله بن خلف وكانت أعظم دور البصرة وطفقا بأمر أمير المؤمنين يتعهدان راحتها. وزارها سيدنا أمير المؤمنين مغضياً عن كلما كان منها اجلالاً لحبّ المصطفى لها وأسمعته في زيارته لها من قوارص الكلم ماوسعه حلمه شأنه عليه صلوات الله مع المستضعفين والنساء ثم ان أمير المؤمنين أمر برجوع عائشة الى المدينة المنوّرة وجهزها بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع ونحو ذلك مما يوفر لها الراحة في سفرها وسمح لها أن تصحب من أصحابها الذين أتوا معها من أحب الرجوع الى المدينة واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ليكنَّ في صحبتها ويسهرن على راحتها وجعل موكبها تحت اشراف وقيادة أخيها محمد بن أبي بكر

وأسرعا مثلما شاء العلي بها ... إلى ربى البصرة الغنّا لتأوبها
وقد ثوت دار عبد الله أعظم ذو ... را البصرة الرحب تهنا في مغانيها
حتى إذا ما أتى تلك المدينة مو ... لانا ولاقى بحسن الصفح أهليها
وافى إليها كريماً صافحاً فتلقـ ... ـته على غير ما يرضي محبيها
ولم يكن مهملاً ترفيه عيشتها ... ولا اتقاها بلوم مع مليميها
وبعد بضعة أيام لمكة قد ... أعادها بجلال مع حواشيها
وكان معها أخوها رأس موكبها ... وهو المريد لها رغداً وترفيها
وأربعون فتاة في ركائبها ... تسعى بخدمتها كيما تواسيها
وللوداع أتى المولى أبو حسن ... بصحبه كرماً منه يحييها
فأكبرت بعد ذياك العداء له ... هذي الأيادي التي قد راح يسديها
وأعلنت شكرها بين الألى معه ... لنعمة لم تكن ترجو تلقيها
قالت: بني تصافوا لا عتاب ولا ... ملام أمتنا أبغي تصافيها

وفي يوم السبت غرة رجب سنة ٣٦ للهجرة خرجت عائشة من البصرة راجعة الى الحجاز وخرج سيدنا علي ووجوه الناس لوداعها وقبل أن يتحرك هودجها قالت « يابنيّ ، لايعتب بعضنا على بعض ، انه والله ما كان بيني وبين علي في القديم ، الا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وانه على معتبتي لمن الاخيار » فقال سيدنا علي عليه صلوات الله « صدقت والله ، ماكان بيني وبينها الا ذاك ، وانها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة » وسارت عائشة من البصرة قاصدةً مكة كرمها الله حتى اذا ما بلغتها بقيت الى الحج فحجت ثمّ استأنفت مسيرها الى المدينة فستقرّت في يثرب وهي تقول « مكانك تحمدي أو تستريحي »

وأجمع المؤرخون أن عائشة منذ حرب الجمل استسلمت الى اليأس والحزن والفجيعة فكانت تكثر من النوح والبكاء تائبةً عما فعلت نادمةً أشد الندم زاهدةً بالدنيا راغبةً عن أهلها متمنيةً الموت وكانت تقول ليتها رزقت عشرة أولاد وفقدتهم ولا كانت حرب الجمل أو ليتها ماتت قبل عشرين عاماً فلا رأت موقعة الجمل ولا حضرتها . وعند ما بلغ عائشة بن مقتل سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله اشتدّ جزعها وتفاقم الخطب عليها فأخذت تكثر من تعداد فضائله وتطريه وتندبه وقد تجسمت أمام عينيها كمالاته الباهرة وصفاته الزاهرة وما زالت كذلك الى أن روّحها الموت من شقائها فسارت الى ربها رهينة عفوه وغفره في سنة ٥٧ للهجرة

« ترجمة عائشة »

انّ عائشةً هي بنت أبي بكر وقد ذكرنا نسبه فيما تقدم وأمها أم رومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن سبيع بن دهمان بن الحارث بن تميم بن مالك بن كنانة .

وَلَيْسَ بَيْنَ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَبَيْـ ـنِي مِنْ مُنَازَعَةٍ مَا ٱلدَّهْرُ مَاحِيهَا

وَلَمْ تَكُنْ بَيْنَنَا إِلاَّ مُنَافَرَةٌ تَكُونُ بَيْنَ ٱلْحَمَى فَرْضٌ تَنَاسِيهَا

وَٱلْمُرْتَضَى خَيْرُ مَنْ يُرْجَى لِمَعْتَبَتِي وَإِنَّهُ مِنْ خِيَارِ ٱلنَّاسِ تَاقِيهَا

وَقَالَ حَيْدَرَةٌ : وَٱللهِ قَدْ صَدَقَتْ بِقَوْلِهَا فَعَلَيْنَا أَنْ نُدَارِيهَا

وَوَاصَلَتْ بَعْدَ ذَاكَ ٱلسَّيْرَ عَائِشَةٌ بِرَكْبِهَا فِي صَيَاصِي ٱلْأَرْضِ تَطْوِيهَا

سَارَتْ مُبَلْبَلَةَ ٱلْأَفْكَارِ يَصْحَبُهَا بِلْبَالُهَا أَبَدًا تَلْحُو تَجَنِّيهَا

تَبْكِي وَتَنْدُبُ مَا قَدْ كَانَ نَادِمَةً نَدَامَةً كَالَّتِي تُنْمَى لِكُسْعِيهَا

وَبَعْدَ مَا بَلَغَتْ أُمُّ ٱلْقُرَى لَبِثَتْ لِمَوْعِدِ ٱلْحَجِّ فِي ضَافِي مَثَاوِيهَا

ثُمَّ ٱنْثَنَتْ بِجَوَاهَا لِلْمَدِينَةِ لَا شَيْءٌ عَلَى شَرِّ مَا جَاءَتْ يُعَزِّيهَا

فَمَا رَقَا دَمْعُهَا يَوْمًا بِتَوْبَتِهَا عَمَّا جَنَتْهُ وَلَا جَفَّتْ مَآقِيهَا

وَقَتْلَةُ ٱلْمُرْتَضَى أَنْمَتْ نَدَامَتَهَا وَأَحْرَمَتْهَا ٱلتَّكَرِّيَ فِي لَيَالِيهَا

عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في مكة وهي بنت سبع سنين وبنى عليها في المدينة وهي بنت تسع سنين وكان ذلك في شوال على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة . وكانت فقيهة راوية للشعر ذات حظ من رسول الله وميل ظاهر اليها وكانت أجرأ نسائه وأدلهن عليه وما زالت تزداد جرأة ودلالاً حتى كان منها في أمره في قصة مارية ما كان من الحديث الذي أسره الى زوجه حفصة بنت عمر وأدى الى تظاهرهما عليه وأنزل الله فيهما قرآناً يتلى في المحاريب يتضمن وعيداً غليظاً عقيب تصريح بوقوع الذنب وصغو القلب وخلاصة هذه القصة هي : ان رسول الله كان يوماً عند زوجه حفصة بنت عمر فاستأذنته هـذه لزيارة ضرتها عائشة فأذن لها ثم عادت فوجدت سريته مارية القبطية بين يديه في بيتها فغضبت فأسر اليها انه سيهجر مارية فأفشت سره الى عائشة واتفقت الثنتان على مقاطعته وأفضى ذلك الى غضبه عليهما ثم رضائه عليه الصلاة والسلام عنهما الى آخر ما كان

وجرءة عائشة وادلالها على المصطفى قد أثرا أعظم تأثير على السياسة الاسلامية العامة منذ خلافة أبي بكر وقد أشار الى ذلك المؤرخون الناقدون تصريحاً وتلميحاً مما مررنا على بعضه في الحواشي السابقة وغاية ما نقوله هنا ان عائشة تربت على يدي المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام فأزادت تربيتها هذه ذكاءها نمواً وظهوراً فكانت ذات دهاء واقتدار عجيبين يعرفهما كل باحث في تاريخ صدر الاسلام . وصار لها تأثير عظيم حتى على كبار المهاجرين والانصار لانهم كانوا يوسطونها لدى رسول الله في حوائجهم فاستعملت نفوذها في كل مهمة سياسية دخلت فيها

وبعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم أخذت تروي عنه الاحاديث فأصبح لرأيها نفوذ عظيم وتأثير كبير على نفوس المسلمين وباتت في المدينة المنورة مقصد القصاد للافتاء مزاحمة في ذلك أكابر صحابة من المهاجرين والانصار مزاحمة جعلت لها مكانة ممتازة بينهم

وَطَالَمَا قَدْ تَمَنَّتْ لَوْ قَضَتْ وَمَضَتْ … لِرَبِّهَا قَبْلَ أَنْ سَاءَتْ مَسَاعِيهَا

أَوْ لَيْتَهَا عَشْرَةٌ مِنْ وُلْدِهَا وَلَدَتْ … وَٱلدَّهْرُ فِيهِمْ جَمِيعًا كَانَ رَازِيهَا

وَلَمْ تَكُنْ مَعَ أَعْدَاءِ ٱلْعَلِيِّ إِلَى … شَرِّ ٱلْمَسَاعِي ٱلَّتِي رَامَتْ تُمَاشِيهَا

وَطَالَمَا ذَكَرَتْ جَهْرًا فَضَائِلَ مَوْ … لَانَا ٱلْعَلِيِّ ٱلْمُفَدَّى وَهْيَ تُطْرِيهَا

حَزِينَةً لَمْ تَزَلْ فِي بَيْتِهَا تَتَمَنَّـ … ـى ٱلْمَوْتَ مَا غَيْرُهُ قَدْ كَانَ يُرْضِيهَا

حَتَّى تَوَلَّتْ إِلَى دَارِ ٱلْخُلُودِ فَجَا … زَتْ فِي ثَوَا ٱلْقَبْرِ آلَامًا تُعَانِيهَا

لِسَبْعَةٍ بَعْدَ خَمْسِينٍ لِهِجْرَةِ طَـ … ـهَ بِٱلْمَنِيَّةِ قَدْ لَاقَتْ تَمَنِّيهَا

مراقبة معاوية لموقعة الجمل

وَكَانَ يَرْقُبُ عَنْ بُعْدٍ مُعَاوِيَةٌ … حَوَادِثَ ٱلْجَمَلِ ٱلشَّتَّى وَيَدْرِيهَا(١)

وَهْوَ ٱلَّذِي بِدَهَاهُ كَانَ أَوْجَدَهَا … وَهْوَ ٱلَّذِي كَانَ قَدْ أَغْوَى مُثِيرِيهَا

وَكَانَ يَطْمَعُ أَنْ تَكْفِيهِ عَائِشَةٌ … مَوَاقِفًا مَعَ عَلِيٍّ كَانَ خَاشِيهَا

فَخَابَ ظَنًّا كَمَا خَابَتْ وَمَنْ مَعَهَا … زَوْجُ ٱلرَّسُولِ بِآمَالٍ تُرَجِّيهَا

وَأَطْفَأَ ٱلْفِتْنَةَ ٱلْهَوْجَاءَ حَيْدَرَةٌ … بِقُدْرَةِ ٱللهِ فَٱنْزَاحَتْ عَوَادِيهَا

وفي عهد عمر بن الخطاب لم يكن لها غير رواية الحديث والافتاء على انها أظهرت اقتدارها على أشده في عهد عثمان اذ انقلبت عليه مع المنقلبين على نحو ما أشرنا اليه في حاشية سبقت. ثمّ أعلنت العداء لسيدنا علي عليه صلوات الله وكان من أمرها معه في يوم الجمل ما كان وقد ذكرنا أسبابه

ولم تسلم عائشة على عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام من تقذف القاذفين فاتهموها بصفوان ابن المعطل السلمي فأنزل الله براءتها في قرآنٍ يتلى وينقل وجلد قاذفوها الحدّ . ولم تحمل عائشة ولا ولدت وتطييباً لخاطرها كناها المصطفى بابن اختها أسماء عبدالله بن الزبير فصارت تدعى «أمّ عبد الله» . ومات المصطفى عنها وهي دون العشرين من عمرها .

وتوفيت عائشة في ١٧ رمضان من عام ٥٧ للهجرة في عهد معاوية في المدينة المنوّرة ودفنت في البقيع فرتاحت من آلامها النفسية التي كانت تعانيها ليلاً ونهاراً منذ حرب الجمل الى يوم وفاتها وكان عمرها عند وفاتها ٦٤ سنة

(١) كان معاوية صاحب الرأي الاول في مسير طلحة والزبير الى العراق فهو رأس فتنة الجمل وكان يرقب عن بعد أنباء هاتيك الفتنة ويستطلع أخبارها فيقف عليها أولاً فأولاً من اصحابه الذين كانوا يأتونه بها طمعاً بهباته فعرف كلّ ما جرى وأهمه خيبة ظنه بعائشة التي كان يرجو أن تكفيه بنفوذها هول مقاتلة سيدنا علي عليه صلوات الله

فَمَنْ أَطَاعَتْ عَلِيًّا مِنْ جَمَاعَتِهَا   قَدِ ٱطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ وَهْوَ رَافِيهَا
وَأَسْرَعَتْ هَرَبًا تَبْغِي مُعَاوِيَةً   مِنْهَا ٱلأُلَى لَمْ تَزَلْ تَنْوِي تَعَصِّيهَا
فَٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ وَمَرْوَانٌ وَغَيْرُهُمَا   مِنَ ٱلْعُصَاةِ ٱلَّتِي شَطَّتْ مَرَامِيهَا
سَارَتْ إِلَى ٱلشَّامِ تَرْوِي شَرَّ مَا شَهِدَتْ   فِي حَرْبِ حَيْدَرَةٍ وَٱلْخَوْفُ فَاشِيهَا
فَهَابَ إِبْنُ أَبِي سُفْيَانَ مَوْقِفَهُ   وَشَامَ أَطْمَاعَهُ ٱلأَقْدَارُ تُنْئِيهَا
وَحَارَ فِي أَمْرِهِ لَمَّا رَأَى ٱلْخُطَطَ ٱلْـ   ـسُّوءَى ٱلَّتِي خَطَّهَا ضَاعَ ٱلرَّجَا فِيهَا
لٰكِنَّمَا نَفْسُهُ ظَلَّتْ تُحَدِّثُهُ   بِنَيْلِ أَطْمَاعِهِ أَوْ مَا يُدَانِيهَا
فَرَاحَ يَعْنَى بِلَا بُطْءٍ بِعَسْكَرِهِ   وَيَسْتَزِيدُ لَهَا مِمَّا يُقَوِّيهَا
وَيَسْتَمِيلُ إِلَيْهِ مِنْ قُرَيْشَ رُؤُو   سَهَا ٱلأُلَى كَانَ مَا تَبْغِيهِ يُولِيهَا
وَبِٱلَّذِي هِيَ تَرْجُوهُ مِنَ ٱلرُّتَبِ ٱلْـ   ـعَلْيَا ٱلَّتِي تَتَشَهَّاهَا يُمَنِّيهَا
فَأَصْبَحَتْ حَوْلَهُ فِي ٱلشَّامِ طَائِفَةٌ   مِنْهَا تُؤَيِّدُهُ سِرًّا وَتَجْرِيهَا
بِهَا ٱسْتَعَزَّتْ وَعَادَتْ نَفْسُهُ لِمُنَا   هَا بَعْدَ مَا ٱلْيَأْسُ أَمْسَى وَهْوَ مُوهِيهَا

أما سيدنا علي بن أبي طالب عليه صلوات الله فانه كما رأينا قد أصدر عفواً عاماً عن الثائرين بعد موقعة الجمل وسبق وأوصى أصحابه أن لا يتتبعوا الهاربين ولا يجهزوا على الجرحى فبرهن في هذا : أولاً على انه كان ولا يزال يعتبر نفسه من المسلمين بمنزلة الاب من أولاده فهو مؤدب عصاتهم وثائريهم لا منتقم منهم ولا طامع بما في أيديهم . وثانياً على انه السياسي الذي يضع الامور في مواضعها فيعفو ويحلم عند المقدرة ويشتد في التأديب حتى لا يظن به أعداؤه العجز . وثالثاً على انه ما كان يرهب الذين نجوا من زعماء الثائرين أن ينضووا الى من وراءهم في الشام اعتماداً على الله سبحانه وعلى الحق الذي له وهو صريح لا يقبل التأويل ولذلك لم ينكل بهم بل تركهم أحراراً

أما زعماء الثائرين الذين نجوا من القتل في موقعة الجمل فكان المشهور فيهم مروان بن الحكم وعبدالله ابن الزبير وهذان أقاما مدة في البصرة وعرضا بواسطة المقربين من سيدنا الامام الأعظم أن يعودا الى بيعته فرفض قائلاً لو بايعاني كل يوم لما أمهلا أن ينكثا بيعتي كما فعلا وعرف هذان من جواب سيدنا أمير المؤمنين انه عليه صلوات الله لا يركن اليهما وعرفا من نفسيهما ان فراسته فيهما صادقة فانتهزا الفرصة وأسرعا بالهرب الى الشام وكذلك فعل غيرهما من زعماء أصحاب الجمل ولاذوا جميعاً بمعاوية

أما معاوية فالظاهر لنا انه لم يتوقع انتصار عائشة وأصحابها على سيدنا علي عليه صلوات الله بعد أن تبعهم ولكنه كان يظن عند مادبر أمر الحملة على العراق ان الامام يعتمد على حقه ونفوذه وعماله في ذلك الصقع ويلزم المدينة المنورة فيسهل على أصحاب الجمل استمالة العراقيين بحجة المطالبة بدم عثمان وبتأثير نفوذ عائشة وطلحة والزبير على المسلمين واذا اعترض هؤلاء الخوارج معترض من أصحاب علي تغلبوا عليه بحد السيف كما فعلوا في البصرة عند ماقدموا اليها . وربما كان هذا رأي عائشة

وَٱزْدَادَ فِي غَيِّهِ مِمَّا إِلَيْهِ تَرَا ... مَى مِنْ مُمَالَأَةِ ٱلْأَمْصَارِ قَاصِيهَا

كَانَتْ نَوَادِبُ عُثْمَانٍ تَجُولُ عَلَيْـ ... ـهَا بِٱسْمِهِ وَهْيَ بِٱلشَّنَآنِ تُغْرِيهَا

كَانَتْ تُنَادِي جِهَاراً: إِنَّ قَتْلَتَهُ ... تَمَّتْ بِأَمْرِ عَلِيٍّ وَهْوَ رَاضِيهَا

وَإِنَّ مَنْ قَتَلَتْهُ قَدْ أَوَتْ لِظِلَا ... مِ لِهِ فَأَمَّنَهَا مِمَّا يُؤَذِّيهَا

فَلَمْ يَنَلْهَا قِصَاصٌ وَهْيَ قَاتِلَةٌ ... عَمْداً وَلَيْسَ لَهَا عُذْرٌ يُبَرِّيهَا

بِمِثْلِ ذَا سَدَلَتْ فَوْقَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي ... قَتْلِ ٱلْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ ٱلتَّوَارِيهَا

بِهَا مُعَاوِيَةٌ صَحَّتْ عَزِيمَتُهُ ... عَلَى مُوَاصَلَةِ ٱلْعُدْوَانِ يُمْضِيهَا

فَلَا مَقَامُ عَلِيٍّ فِي ٱلْخِلَافَةِ أَوْ ... مَصَالِحُ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا لَتُثْنِيهَا

وَلَا ٱلسَّلَامَةُ لِلْإِسْلَامِ وَهْوَ لَقَدْ ... أَمْسَى عَلَى خَطَرٍ قَدْ كَانَ يَبْغِيهَا

قَدْ كَانَ يَطْلُبُ أَنْ يَرْقَى ٱلْخِلَافَةَ أَوْ ... تَنْدَكُّ أَرْكَانُهَا مَا فَوْقَ رَاقِيهَا

ثُمَّ ٱلزُّبَيْرَانِ مَاتَا كَانَ مَوْتُهُمَا ... مُزِيدَ أَطْمَاعِهِ فِيهَا وَمُنْمِيهَا

فَمَا خَلِيقٌ بِهَا إِلَّاهُ بَعْدَهُمَا ... وَبَعْدَ سَعْدٍ وَقَدْ أَمْسَى مُجَافِيهَا

وأصحابها بل أبعد هؤلاء في ظنهم الى أن حسبوا أنَّ المسلمين لا يجرأون على محاربة عائشة بصفتها زوج المصطفى المحبوبة بدليل ما قالته الى أبي الاسود الدؤلي عند ما أرسله عثمان بن حنيف عامل أمير المؤمنين على البصرة ليستطلع طلع مسيرها فساء فألها وخابت في ظنها

ومما جرى ما ليس بالحسبان ووقف الناس في وجوه أصحاب الجمل انتصاراً للخليفة الشرعي وتقديراً لمكانته الرفيعة في الاسلام بصفته ابن عم المصطفى وربيبه وصهره زوج أحب بناته اليه وأخيه ووصيه عليهما الصلاة والسلام سقط أصحاب الجمل في أيديهم ولكنهم أصروا على القتال ولما انجلت الموقعة عن انتصار الخليفة ومقتل طلحة والزبير وهلاك أصحاب الجمل وسارت الانباء في ذلك الى معاوية هاله الامر وعرف بعده ان الفوز على خلافة سيدنا علي ليس من الهنات الهينات فأخذ يضرب أخماساً لاسداس بما أوتي من الدهاء ليخرج من هذه المعمعة على شيء من مطامعه البعيدة وهو مقتنع كل الاقتناع أن لا سبيل الى الاتفاق مع الامام الذي يأبى الا اعادة المسلمين الى عهد النبوة على ما يرضى عنه الشرع . ولهذا أخذ يستدني أكابر القرشيين ويغدق عليهم الاموال ويمنيهم بالوعود فاجتمعت لديه طائفة منهم ممن همتهم الدنيا . وفي الوقت نفسه كانت نوادب عثمان تجول في الامصار منادية بثارات عثمان متهمة سيدنا علي بدمه وحماية قاتليه فتفسد عليه الاهلين وذوي بأسه وكان نجاحها يزيد معاوية شجاعة في مواصلة العداء لسيدنا علي والاصرار على عصيانه وغرضه من هذا كله معروف وهو الاستيلاء على الخلافة . ومما أزاد معاوية أملاً بنيل الخلافة هو مقتل طلحة والزبير لانه بعدهما وبعد ابن أبي وقاص سعد وهو بقية العشرة المشهود لهم بالجنة زاهداً بالخلافة وكان مادونه

إِذَا أَزَاحَ عَلِيّاً عَنْ مَعَالِمِهَا فَيَنْثَنِيْ دُوْنَ شَكٍّ وَهْوَ وَالِيْهَا
هٰذَا ٱلَّذِيْ كَانَ فِيْ نَفْسِ ٱبْنِ هِنْدَ عَلَى قَاصِيْ مَطَامِعِهَا وَهْوَ ٱلْمُقَوِّيْهَا

أمير المؤمنين ومعاوية

مِنْ بَعْدِ مَاقَدْ تَلَاشَتْ فِتْنَةُ ٱلْجَمَلِ ٱلْـمَلْعُوْنِ وَٱلنَّاسُ عَدَّتْ عَنْ تَعَادِيْهَا(١)
وَقَدْ أَعَادَ صَفَاءَ ٱلسِّلْمِ حَيْدَرَةٌ إِلَى رُبَى ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّا وَأَهْلِيْهَا
أَنْضَى إِلَى ٱلْكُوْفَةِ ٱلْخَضْرَا ٱلْإِمَامُ خُطَاهُ وَٱنْثَنَى بِٱلْهَنَا وَٱلْيُمْنِ ثَاوِيْهَا
وَقَدْ أَطَاعَتْ عُلَاهُ غَيْرَ نَاكِثَةٍ أَهْلُ ٱلْعِرَاقَيْنِ نَائِيْهَا وَدَانِيْهَا
إِذْ ذَاكَ هَمَّ بِأَهْلِ ٱلشَّامِ يَطْلُبُ مِنْـهَا أَنْ تُبَايِعَهُ أَوْ أَنْ يُنَاوِيْهَا
أَوْفَى لِذَاكَ جَرِيْراً نَحْوَهَا بِرِسَالَةٍ لَقَدْ كَانَ بِٱلْإِخْلَاصِ مُمْلِيْهَا
كَانَتْ بِإِسْمِ ٱبْنِ صَخْرٍ وَٱلْوَصِيُّ عَلِيْـمٌ عَارِفٌ أَنَّهُ حَتْماً مُعْصِيْهَا

من الوظائف لم يعد امامه من يستطيع أن يقول انه أليق من معاوية للخلافة من شيوخ قريش هذا اذا تغلب على سيدنا عليّ عليه صلوات الله واستلبها من يده

(١) بعد أن أقام سيدنا أمير المؤمنين حيناً في البصرة رتق فيها الفتق الذي فتقته أصحاب الجمل وأعاد اليها الامان وأمّن أهلها من العدوان ولىّ أمرها عبد الله بن عباس وأقبل عليه صلوات الله الى الكوفة وكان كما سبقت الاشارة على ثقة من ولاء أهلها فضلاً عن اخلاص الذين نصروه منهم في موقعة الجمل فاستقبله الكوفيون بالاجلال والاحترام وتألبوا من حوله يتمنون رضاءه ولو بتضحية ارواحهم . وما كاد يستقرّ في الكوفة حتى أخذ يراسل عمال عثمان في أطراف العراق وفارس يطلب بيعتهم فلباه أكثرهم وكان في مقدمتهم جرير بن عبد الله البجلي وهو عامل عثمان على همدان فانه ما كاد يتلقى كتاب أمير المؤمنين حتى دعا أهل همدان لمبايعته فلبوه . ثم سار جرير الى الكوفة وبايع سيدنا عليّ وبينما هو في الكوفة صحت عزيمة أمير المؤمنين على بعث من يأتمنه الى معاوية يطلب بيعته وذكر ذلك لاصحابه فقال جرير : ابعثني ياأمير المؤمنين اليه فانه لم يزل لي محضاً الودّ فاني آتيه فأدعوه على أن يسلم لك هذا الامر ويجتمع معك على الحق على أن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمالك ماعمل بطاعة الله واتبع ما في كتاب الله كما وأرجو أن أعدّ أهل الشام الى طاعتك وولايتك فجلهم قومي وأهل بلادي وقد رجوت أن لا يعصوني . فقال الاشتر وكان في المجلس لاتبعثه ياأمير المؤمنين ولا تصدقه فوالله اني لأظنّ هواه هواهم ونيته نيتهم فقال أمير المؤمنين دعه حتى ننظر ما يرجع به الينا وبالفعل كتب عليه صلوات الله كتاباً الى معاوية هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين ، أما بعد ، فانّ بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لانّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد ان يختار ، ولا للغائب أن يردّ ، وانما الشورى للمهاجرين والانصار ، اذا اجتمعوا على رجل ، وسموه اماماً ، كان

وَكُلُّهَا حِكَمٌ مَسْرُودَةٌ وَمَوَا عِظٌ … وَآيَاتُ إِرْشَادٍ لِقَارِيهَا

قَالَ ٱلْإِمَامُ عَلِيٌّ بَعْدَ بَسْمَلَةٍ … غَرًّا وَحَمْدَلَةٍ تَحْلُو لِتَالِيهَا

وَبَعْدَ حُسْنِ صَلَاةٍ قَدْ زَكَتْ وَصَفَتْ … عَلَى مُحَمَّدَ خَيْرِ ٱلْخَلْقِ هَادِيهَا

أَمَا وَإِعْلَانُ أَقْطَابِ ٱلْمَدِينَةِ بَيْـ … ـعَتِي ٱلَّتِي جَرَّهَتْهَا قَبْلُ تَجْرِيهَا

لَأَنْتَ مُلْتَزِمٌ شَرْعًا بِهَا مَعَ أَهْـ … ـلِ ٱلشَّامِ مُؤْمِنِهَا ٱلتَّاقِي وَذِمِّيهَا

لِأَنَّ مَنْ بَايَعُونِي بِٱلْخِلَافَةِ بَا … يَعُوا ٱلْأُلَى سَلَفُونِي فِي تَوَلِّيهَا

وَبَايَعُونِي عَلَى مَا بُويِعُوا قَبْلِي … عَلَيْهِ مِنْ وَاجِبَاتٍ رُحْتُ أُجْرِيهَا

فَلَمْ تَكُنْ خِيَرَةٌ لِلشَّاهِدِينَ وَلَا … رَدٌّ لِمَنْ غَابَ إِنْ كَانُوا مُرِدِّيهَا

وَإِنَّمَا خُصَّتِ ٱلشُّورَى بِمَنْ هَجَرَتْ … أُمَّ ٱلْقُرَى لِنَبِيِّ ٱللهِ مُنْجِيهَا

وَبِٱلْأُلَى نَصَرَتْهُ فِي مُحَارَبَةِ ٱلْـ … ـكُفَّارِ وَٱسْتَنْزَلَتْهُ فِي مَغَانِيهَا

فَإِنْ هِيَ ٱجْتَمَعَتْ جَمْعًا عَلَى رَجُلٍ … يَلِي ٱلْإِمَامَةَ أَمْسَى وَهْوَ وَالِيهَا

وَإِنَّ رَبَّكَ رَاضٍ عَنْ وِلَايَتِهِ … وَكُلُّ ذِي تَقِيَةٍ حَسْنَاءَ رَاضِيهَا

ذلك لله رضى ، فان أبى قاتلوه على اتباع سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، ويصليه جهنم وساءت مصيراً ، وأنَّ طلحة والزبير بايعاني ، ثمَّ نقضا بيعتي ، فكان نقضهما كردتهما ، فجاهدتهما على ذلك ، حتى جاء الحقُّ ، وظهر أمر الله ، وهم كارهون ، فدخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإنَّ أحبَّ الامور اليَّ منك العافية ، الا أن تتعرض للبلاء ، فان تعرضت له قاتلتك ، واستعنت بالله عليك ، وقد أكثرت في قتلة عثمان ، فأدخل فيما دخل فيه الناس ، ثمَّ حاكم القوم اليَّ أحملك واياهم على كتاب الله ، فأما تلك التي تريدها ، فخدعة الصبي عن اللبن ، ولعمري ، لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم انك من الطلقاء الذين لا تحلُّ لهم الخلافة ، ولا تعرض فيهم الشورى ، وقد أرسلت اليك جرير بن عبد الله البجلي ، وهو من أهل الايمان والهجرة ، فبايع ولا قوَّة الا بالله ، آه»

ثمَّ ان سيدنا علي استدعى جرير اليه وسلمه الكتاب الآنف الذكر وقال له : انَّ حولي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، من أهل الرأي والدين من قد رأيت ، وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله فيك انك من خير ذي يمن ، ائت معاوية بهذا الكتاب ، فان دخل فيما دخل فيه المسلمون فنعمَّا ، والا فانبذ اليه ، واعلمه اني لا أرضى به أميراً ، وانَّ العامة لا ترضى به خليفةً . فتناول جرير كتاب أمير المؤمنين عليه صلوات الله ووعده انه سيبذل ما وسعه لاقناعه بالطاعة وسار برسالة أمير المؤمنين متوجهاً الى الشام

وعندما بلغ جرير دمشق استقبله معاوية بحفاوة والاكرام على ما هو معروف عن دهائه وتحوله

وَإِنْ تَفَرَّدَ عَنْ إِجْمَاعِهَا رَجُلٌ ... بِطَعْنٍ أَوْ بِرُغْبَى كَانَ يَبْغِيهَا
رَدَّتْهُ لِلْحَقِّ بِالْبُرْهَانِ نَاصِحَةً ... وَإِنْ أَبَاهُ عَلَيْهَا فَهُوَ عَادِيهَا
وَقَاتَلَتْهُ إِلَى أَنْ يَسْلُكَنَّ سَبِيـ ... ـلَ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي مَا ضَلَّ مَاشِيهَا
وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَلَّاهُ مُنْتَصِفَاً ... مَا قَدْ تَوَلَّى وَرُشْدُ الرَّأْيِ مُولِيهَا
وَإِنَّهُ سَوْفَ يُصْلِيهِ جَهَنَّمَ إِذْ ... سَاءَتْ مَصِيرَاً لِمَنْ قَدْ رَاحَ يَصْلِيهَا
إِنَّ الزُّبَيْرَ وَمَعَهُ طَلْحَةٌ نَقَضَا ... لِي بَيْعَةً بَايَعَاهَا مَعْ مُبَيْعِيهَا
وَنَقْضُهَا مِنْهُمَا مِثْلُ ارْتِدَادِهِمَا ... عَنِ الْحَنِيفَةِ فِي أَحْكَامِ قَاضِيهَا
لِذَاكَ جَاهَدْتُ قَهْرَاً فِي قِتَالِهِمَا ... بِعَزْمَةٍ أَنْتَ قَبْلُ النَّاسِ تَدْرِيهَا
حَتَّى تَغَلَّبَ أَمْرُ اللهِ وَانْتَصَرَتْ ... حُقُوقُهُ وَاخْزَوَتْ خِزْيَاً أَعَادِيهَا
فَادْخُلْ مُعَاوِيَةٌ فِيمَا الْعِبَادُ بِحَـ ... ـقٍّ فِيهِ دَاخِلَةٌ وَاتْبَعْ مَخَاطِيهَا
فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا أَرْجُوهُ عَافِيَةٌ ... تَهْنَا بِهَا وَتُبَاهِي فِي تَكَسِّيهَا
إِلَّا إِذَا كُنْتَ تَخْتَارُ الْخِصَامَ وَلَا ... تَبْغِي السَّلَامَ لِأَطْمَاعٍ تُرَجِّيهَا

كتاب أمير المؤمنين فقرأه بامعان ثمّ ذكر له جرير الشيء الكثير لاقناعه بالطاعة لامير المؤمنين وحضه على الدخول فيما دخل فيه المسلمون . فلم يكن لمعاوية ان يبتّ في مجاوبته رأياً فاكتفى أن تلطف بجرير وقال له انظر وتنظر واستطلع رأي أهل الشام وأعاقه عنده بين التسويف والمماطلة ريثما يستوثق من أمره وتفتق له حيلته مايخرجه من حيرته

«كلمة في الخلافة»

ويخلق بنا هنا أن نرسل نظرة الى كتاب أميرالمؤمنين هذا الذي أرسله الى معاوية وفيه من التصريح في أمر الخلافة مااتخذه فيما بعدبعض العلماءكاساس لاختيار الخليفة فنقول :

ان حقّ سيدنا علي عليه صلوات الله بالخلافة صريحٌ لايقبل الجدل سواءٌ بصفته أخا رسول الله وربيبه ووصيّه وزوج أحبّ بناته اليه سيدتنافاطمة الزهراء ووالد أولادها الذين هم ابناء رسول الله عليهم جميعاً الصلاة والسلام أو بصفته أول من أسلم وأعظم من نصر الاسلام وأعلم من تفقه وأفتى في الشريعة وأتقى وأزهد وأبرّ المسلمين . على انه عليه صلوات الله لم يذكر حقه هذا لمعاوية مع انه ذكره في مواضع شتى من خطبه وكتبه لعلمه بأنّ معاوية غير راض به ولا خاضع له بل ذكر له أموراً يرضاها ويعتقدها تسهيلاً لاقناعه بالحقّ الذي ينكره وفي ذلك من النظر البعيد والرأي السديد ما يخلق صدوره عن أرشد رشيد أنجبه الاسلام وهو سيدنا امير المؤمنين عليه صلوات الله

اكتفى سيدنا علي عليه صلوات الله أن يحجّ معاوية بما هو معترف به فقال له ان الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان بايعوني فتلزمك بيعتي فكأنّه يقول له ما دمت تعتقد انّ بيعة هؤلاء الخلفاء الثلاثة

فَلَيْسَ لِي غَيْرُ هٰذَا ٱلسَّيْفِ مِنْ حَكَمٍ   وَٱللّٰهُ عَوْنِيَ فِي بَلْوَى أُعَانِيهَا

يَا صَاحِ فِي قَاتِلِي عُثْمَانَ تُكْثِرُ إِكْـ   ـثَاراً حَقِيقَتُهُ ٱلْبُطْلَانُ غَاشِيهَا

أَطِعْ كَمَا قَدْ أَطَاعَ ٱلنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ   خِلَافَتِي فَهْيَ لَمْ تَظْلِمْ مُطِيعِيهَا

وَحَاكِمِ ٱلْقَوْمَ وَٱرْجِ ٱلْإِنْتِصَافَ إِلَى   شَرِيعَةِ ٱللّٰهِ إِذْ بِٱلْعَدْلِ أُمْضِيهَا

أَمَّا ٱلَّتِي أَنْتَ تَبْغِيهَا وَتَنْشُدُهَا   فَرَغْبَةٌ مَا ٱخْتَفَتْ عَنِّي خَوَافِيهَا

كَخِدْعَةِ ٱلصَّبِيِّ عَنْ ثَدْيِ ٱلظُّؤُورِ وَقَدْ   أَبَتْ رَضَاعَتَهُ إِذْ رَاحَ شَاهِيهَا

لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَيْنِ ٱلْعَقْلِ دُونَ هَوًى   وَأَعْيُنُ ٱلْعَقْلِ مَا ٱلْبُطْلَانُ يُعْمِيهَا

وَجَدْتَنِي مِنْ دَمِ ٱلْمَقْتُولِ أَبْرَأَ عُرْ   بِ ٱلْأَرْضِ طُرّاً قُرَيْشِيهَا وَعَامِيهَا

وَٱعْلَمْ بِأَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِنَا ٱلطُّلَقَا   وَهْيَ ٱلَّتِي حَرَمَتْ مَعْنًى تَكَافِيهَا

فَلَا يَحِلُّ لَهَا عَرْشُ ٱلْخِلَافَةِ وَٱلـ   ـشُّورَى إِذَا طُلِبَتْ مِنْ مُسْتَحِقِّيهَا

وَهَا جَرِيرٌ إِلَيْكَ ٱلْيَوْمَ أَبْعَثُهُ   كَيْمَا لَهُ بَيْعَتِي ٱلْكُبْرَى تُؤَدِّيهَا

بَايِعْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِرَبِّكَ وَٱعْـ   ـلَمْ إِنَّهُ لِلَّذِي يَتْقِيهِ يُولِيهَا

لٰـكِنْ مُعَاوِيَةٌ لَاقَى جَرِيرَ بِشُو   شَا لَمْ يُجِبْهُ فِيمَا جَاءَ تَجْبِيهَا

صحيحة فعليك أن تعتقد بصحة بيعتي فتبايع

ثمّ قال سيدنا أمير المؤمنين انّ ليس للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّ وانما الشورى للمهاجرين والانصار وأراد بهذا عليه صلوات الله أن يقول لمعاوية مادام الناس قد قبلوا وانت منهم ببيعة المهاجرين والانصار لاولئك الخلفاء الثلاثة وما تركوا للذين شهدوا بيعتهم من سائر المسلمين حق الخيرة ولمن غابوا حق الردّ فلا يجوز لك طالما بايعني هؤلاء المهاجرون والانصار ان تختار في البيعة أو تردّ يعني

ثمّ انّ سيدنا علي عليه صلوات الله صرّح لمعاوية بأنّ الذي يبايعه المهاجرون والانصار يكون لله فيه رضى لانّ كلّ أمر لا يكون الا بسماح من الله وعلى هذا فخارج على الخليفة الذي يبايعه المهاجرون والانصار على هؤلاء ان يردّوه بالحجة فان أبى كان عليهم أن يقاتلوه

ثمّ ذكر عليه صلوات الله انّ حكم الخارج على الخليفة كحكم المرتدّ عن الاسلام يجب قتاله وحسب هذا الحكم الشرعي قاتل الامام الاعظم طلحة والزبير ومن معهما من أصحاب الجمل

ثمّ تبرّأ عليه صلوات الله من قتل عثمان وقال له انك لو طرحت بين العقل الى كيفية قتله لاعترفت أنت بنفسك ببراءتي منها . اما مسألة النظر في قتلة عثمان والاقتصاص منهم فقد صرح له عليه صلوات الله ان دعواه بها في حال عصيانه على الخلافة غير مشروعة ولا مسموعة فمن الواجب عليه أن يطيع خليفته ثمّ يحاكم القوم اليه فيحمله واياهم على كتاب الله وفي هذا الجواب الحجة البالغة

ثمّ ذكر له عليه صلوات الله انه من الطلقاء وهم كفار قريش ومشركوهم الذين أسلموا بعد

وَرَاحَ يُمْطِلُهُ مَطْلاً وَرَغْبَتُهُ ... بِبَيْعَةِ ٱلْمُرْتَضَى قَدْ كَانَ يُزْجِيهَا
وَكَانَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ وَصُرُو ... فُ ٱلدَّهْرِ يَرْهَبُ أَنْ يَدْهَاهُ دَاهِيهَا

معاوية وعمرو بن العاص

مَا ٱنْفَكَّ فِي هَمِّهِ يَعْنَى مُعَاوِيَةٌ ... وَحَالُهُ مَعَ عَلِيٍّ غَيْرُ رَاضِيهَا(١)
فَكَانَ يَعْلَمُ مَا يَلْقَاهُ مِنْ خَطَرٍ ... فِي حَرْبِهِ إِذْ سَعَى كَيْمَا يُلَظِّيهَا

فتح مكة فعفا عنهم رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال ان هؤلاء الطلقاء لا تحقّ لهم الخلافة ولا تعرض فيهم الشورى وهنا تحديد يجب الانتباه اليه في مسألة الخلافة فاذا كانت لا تجوز للطلقاء من قريش فكيف تسامح المسلمون بها لمن لم يكن قرشياً بل ولم يكن عربياً ؟

هـذا ماعنّ لنا تسطيره ذيلاً لكتاب أمير المؤمنين عليه صلوات الله لمعاوية علماً منا انه لايخلو من فائدةٍ لمستفيد أو ذكرى لناسٍ والله وليّ الهداية

(١) لم يكن أشدّ حيرةً وارتباكاً من معاوية في تلك الايام العصيبة التي تلت تهرأصحاب الجمل وانتصار سيدنا علي عليه الصلاة والسلام وكان شديد التردّد لا يعرف كيف يتدبّر في أمره بالرغم عن اطاعة أهل الشام له وكثرة الانباء التي تاتيه من الامصار مشجعةً له على العصيان وبينما هو في حيرته وتردّده جاءه اخوه عتبة بن أبي سفيان وقال له : استعن بعمرو بن العاص فانّه من قد علمت في دهائه ورأيه وقد اعتزل عثمان في حياته وهو لأمرك اشدّ اعتزالاً الا ان تثمن له دينه فسيبيعك فانه صاحب دنيا . فقال اصبت يا اخي فقد أذكرتني بداهية العرب هذا وكنت ناسيه واسرع فكتب الى عمرو بن العاص الكتاب التالي : أما بعد ، فانـه كان من أمر علي وطلحة والزبير ماقد بلغك ، وقد سقط الينا مروان بن الحكم ، وعبد الله بن الزبير ، في نفرٍ من أهل البصرة ، وقدم علينا جرير بن عبد الله البجلي في بيعة علي ، وقد حبست نفسي عليك ، فاقبل اذاكرك اموراً لاتعدم صلاح مغبتها ، ان شاء الله . اهـ

وقد علمنا مما مضى من حواشي كتابنا هذا كيف ترك عمرو بن العاص المدينة قبيل مقتل عثمان وسيره الى القدس وانزوائه في دارٍ كانت له في تلك المدينة المقدسة على انه كان كثير الاهتمام بانباء الخلافة يتطلع الى مايجري فيها وكانت جواسيسه تحمل اليه انباءها فعرف منها كل ما كان بغير زيادة ولا نقصان وما جهل حيرة معاوية وخوار عزائم الامويين بعد انتصار سيدنا علي على اصحاب الجمل وكان يعلم من نفسه انه اذا انضمّ الى معاوية قد يفوزان على أمير المؤمنين بدهائهما الا انه ما كان يرى في ذلك مايرضي ضميره ودينه كما انه ماكان يرى لدى سيدنا علي عليه صلوات الله مايبلغه مطامعه في دنياه لعلمه أنّ اباالحسنين لايماليه على رغباته ولا يرضى له الا ما يرضى عنه الشرع

وبينما كان عمرو بن العاص في حيرته لايدري ان كان يظلّ على عزلته أو يخرج منها الى معاوية لنيل مطامعه واذ وافى اليه رسول معاوية ومعه كتابه فجدّد الطمع في نفسه واستدعى ولديه عبد الله ومحمد اليه واطلعهما على كتاب معاوية وطلب رأيهما فيما يفعل . فقال ابنه عبد الله أرى انّ رسول الله صلى الله عليه وآله قبض وهو عنك راضٍ ، والخليفتان بعده ماتا وهما راضيان

وَكَانَ لَا يَرْتَجِي نَفْعاً بِدَوْلَتِهِ   لِنَفْسِهِ إِنْ غَدَا يَوْماً مُوَالِيهَا
وَإِنَّهُ لَمُضِيعٌ فِي خِلَافَتِهِ   مَآرِباً يَشْتَهِيهَا لَا يُخَلِّيهَا
وَكَانَ مُعْتَمَدُ الْمَوْلَى أَبِي حَسَنٍ   يَدْعُوهُ لِلطَّاعَةِ الْمَغْبُوطُ مُسْدِيهَا
يُلِحُّ لَحّاً عَلَيْهِ أَنْ يُجِيبَ أَمِيـرَ الْمُؤْمِنِينَ   وَنَارُ الْحِقْدِ يُطْفِيهَا
وَبَيْنَمَا كَانَ فِي بَادِي تَرَدُّدِهِ   فِي الْأَمْرِ لَمْ يَدْرِ أَيُّ السُّبْلِ يَمْشِيهَا
وَإِذْ أُشِيرَ إِلَيْهِ أَنْ يَعُودَ إِلَى ابْـنِ الْعَاصِ   فَهْوَ الَّذِي الْبَلْوَى يُجَلِّيهَا
فَإِنَّهُ بِالدُّهَا مَا مَنْ يُشَاكِلُهُ   وَإِنَّهُ يَطْلُبُ الدُّنْيَا وَيَبْغِيهَا
فَهَمَّ فِي الْحَالِ يَدْعُوهُ لِحَضْرَتِهِ   بِرُقْعَةٍ كَانَ بِالْإِسْرَاعِ مُوفِيهَا
وَكَانَ فَاتِحُ مِصْرٍ ذُو الدَّهَاءِ لَدَى   عُثْمَانَ فِي حَالَةٍ لَبْسٌ خَوَافِيهَا

عنك ، وقتل عثمان وانت عنه غائب ، فقرَّ في منزلك ، فلست مجمولاً خليفةً ، ولاتزيد على ان تسكون حاشيةً لمعاوية ، على دنيا قليلة أوشكتما ان تهلكا وتتركاها ، فتتساويا في عقابها. وقال ابنه محمد : أرى انك شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، وان تصرّم هذا الامر وأنت عليه عاقل ، تصاغر أمرك ، فالحق بجماعة أهل الشام ، وكن يداً من أيديها ، طالباً بدم عثمان ، فانه سيقوم بذلك بني أمية . فقال عمرو : أما أنت ياعبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني . وأنت يامحمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي . وانا ناظر مايقرُّ عليه رأيي . وصرفهما وبقي بياض يومه وسواد ليلته وهو يفكر ضارباً اخماساً لاسداس تتنازعه عوامل الدين والدنيا وهي كما رأيت متضاربة . وما زال في حيرته وتردّده حتى اختلط عقله فدعا غلامه وردان وكان داهيةً مارداً وقال : ارحل ياوردان . احطط ياوردان. وكرر ذلك ثلاثاً . فقال له وردان خلطت أبا عبدالله أما انك ان شئت انبأتك بما في قلبك . قال هات ويحك . قال اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك وقلت ان علياً معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوضٌ عن الدنيا . وانّ معاويةً معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض عن الآخرة وانت واقف بينهما . فتبسم عمرو بن العاص وقال قاتلك الله ما أخطأت ما في قلبي فما ترى ياوردان؟ قال أرى ان تقيم في بيتك فان ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم وان ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك . فصمت عمرو تليلاً ثمّ رفع رأسه وقال بل أسير الى معاوية . وأمر في الحال بشدّ الرحال الى الشام

وعند مابلغ عمرو بن العاص الشام استقبله معاوية بالاكرام وانزله على الرحب والسعة وبالغ في اكرامه . وعرف عمرو من حفاوة معاوية به شدة حاجته اليه فبعده من نفسه وكايد كلٌّ واحدٍ منهما صاحبه وما زالا كذلك الى ذات يوم حيث جاءه معاوية وقال أبا عبد الله طرقتنا في ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها ورد ولا صدر . قال وما ذاك ؟ قال اولها انّ محمداً بن أبي حذيفة كسر سجن مصر فخرج هو واصحابه وهو من آفات هذا الدين . وثانيها ان قيصر ملك الروم زحف بجماعته على الشام . وثالثها ان علياً في الكوفة تهيأ لمسير الينا . فتبسم عمرو تبسم من لا يعبأ بالاخطار وقد اعتاد مفاجأة الاقدار وقال اما ابن أبي حذيفة فما يتعاظمك من رجل خرج في اشباهه ان تبعث اليه رجلاً يقتله أو

يُرِيدُ مِنْهَا رِغَابَاً غَيْرَ بَالِغِهَا ۞ وَكَانَ يُظْهِرُهَا آنَاً وَيُخْفِيهَا

فَعِنْدَ مَا ثَارَتِ ٱلثُّوَّارُ نَاقِمَةً ۞ عَلَى ٱبْنِ عَفَّانَ لَمْ يَنْكُرْ تَدَاعِيهَا

وَكَانَ يُظْهِرُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ نُصْرَتَهُ ۞ وَبِٱلْخَفَاءِ عَلَيْهِ كَانَ يَنْعِيهَا

حَتَّى إِذَا بَلَغَ ٱلسَّيْلُ ٱلزُّبَى وَتَيَقَّنَ ۞ ٱلْمُصِيبَةَ مَا ٱلأَقْدَارُ تُنْشِيهَا

عَنِ ٱلْمَدِينَةِ قَدْ وَلَّى وَخَلَّفَ عُثْمَانَاً ۞ لِأَعْدَائِهِ مَا بَيْنَ أَيْدِيهَا

وَسَارَ لِلْقُدْسِ فِيهِ كَانَ يَمْلِكُ دَا ۞ رَاً فَخْمَةً وَأَوَى ضَافِي مَبَانِيهَا

وَكَانَ يُرْسِي عَلَى حَسْبِ ٱلْهَوَا سُفُنَ ٱلأَ ۞ طْمَاعِ حَتَّى إِذَا مَاهَبَّ يُجْرِيهَا

وَكَانَ يَسْمَعُ أَنْبَاءَ ٱلْخِلَافَةِ مِنْ ۞ سُعَاتِهِ ٱلْكُثْرِ تَأْتِيهِ فَتَرْوِيهَا

مِنْهَا دَرَى قَتْلَ عُثْمَانٍ وَكَيْفَ جَرَى ۞ فَقَالَ: قَتَلْتُهُ مَا كُنْتُ آبِيهَا

ياتيك به وان قاتل لم يضرك . واما قيصر فاهدِ له الوصائف وآنية الذهب والفضة وسله الوداعة فانه اليها سريع واما علي فلا والله يامعاوية مايسوّى بينك وبينه في شيء من الاشياء وان له في الحرب حظاً ماهو لاحدٍ من قريش . وانه لصاحب ماهو فيه الا أن تظلمه . قال معاوية ولكن انت تعلم انه شقّ عصا المسلمين ، وقتل الخليفة ، واظهر الفتنة ، وفرّق الجماعة ، وقطع الرحم . فقال عمرو خفف عنك يامعاوية ما انت وعلي حملا بعير ، ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه ، ووالله ما أنت بكفء لحربه ، ولكني قد تعودّت من الله احساناً وبلاءً جميلاً ، فما تجعل لي ان شايعتك على حربه وأنت تعلم مافي ذلك من الغرر والخطر ؟ قال معاوية احتكم عليّ واني لراضٍ . قال عمرو : أتجعل مصراً طعمةً لي ? فتلكأ عليه معاوية وقال يا أباعبدالله اني اكره لك ان تتحدّث العرب عنك انك انما دخلت في هذا الامر لغرض الدنيا . قال عمرو : اذن فدعني عنك أما أنت تريد بحرب علي الدنيا أيضاً ?? . فقال معاوية اني لوشئت ان امنيك واخدعك لفعلت . قال عمرو : لا لعمر الله ما مثلي يخدع لأنا أكيس من ذلك . وما زالا يتشادّان حتى وعد معاوية عمراً بمصر واقسم على ذلك فعاهده عمرو على ان يناصره على سيدنا عليّ وهكذا اتفقا لامرٍ يريده الله

« ترجمة عمرو بن العاص »

هو أبو عبدالله (ويكنى أبو محمد أيضاً وهو اسم ثاني أولاده) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن حصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وكان أبوه العاص بن وائل احد المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله والمكاشفين له بالعداوة والأذى وفيه وفي اصحابه نزل قوله تعالى « انا كفيناك المستهزئين » وابوه هذا لقبه المسلمون (بالابتر) لانه قال لقريش « سيموت هذا الابتر غداً (ويريد رسول الله) فينقطع ذكره » لانه عليه الصلاة والسلام لم يكن له ولد ذكر يعقب منه فأنزل الله قوله « انّ شانئك هو الابتر » وكان عمرو بن العاص كأبيه يؤذي رسول الله بمكة ويشتمه ويضع في طريقه الحجارة يوم كان عليه الصلاة والسلام يخرج من منزله ليلاً فيطوف بالكعبة فكان عمرو بن العاص يضع في طريقه الحجارة

وَبَيْعَةُ ٱلْمُرْتَضَى مِنْهَا تَلَقَّفَهَا ... مَعْ مَا جَرَى بَعْدُ مِنْ عِصْيَانِ عَاصِيهَا
وَلَمْ تَفُتْهُ رِغَابُ ٱلصَّائِحِينَ بِثَا ... رَاتِ ٱبْنِ عَفَّانَ خَافِيهَا وَبَادِيهَا
وَحَمْلَةُ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَلْعُونِ إِذْ خَرَجَتْ ... عَلَى ٱلْخَلِيفَةِ أَيْضاً كَانَ يَدْرِيهَا
وَظَلَّ فِي كُلِّ هٰذَا وَهُوَ مُعْتَزِلٌ ... حَوَادِثَ ٱلدَّهْرِ يَأْبَى أَنْ يُمَاشِيهَا
حَتَّى إِذَا مَا تَلَاشَتْ فِتْنَةُ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَـلْعُونِ ... وَٱنْخَذَلَتْ فِيهَا أَهَالِيهَا
أَمْسَى يُفَكِّرُ فِي أَمْرٍ يُوَصِّلُهُ ... إِلَى مَطَامِعِهِ مَا كَانَ نَاسِيهَا
وَبَيْنَمَا هُوَ فِي هٰذَا أَتَتْهُ رِسَا ... لَةُ ٱبْنِ هِنْدٍ فَلَمْ يَغْفُلْ مَعَانِيهَا
مِنْهَا دَرَى أَنَّهُ أَمْسَى بِحِيرَتِهِ ... مُضَعْضَعَ ٱلرَّأْيِ يَسْعَى فِي دَيَاجِيهَا
مَعَهُ أُمَيَّةُ قَدْ خَارَتْ عَزِيمَتُهَا ... وَمَا لَهَا غَيْرُهُ شَخْصٌ يُقَوِّيهَا

ليعتز بها . وكان عمرو بن العاص في القوم الذين خرجوا الى زينب ابنة رسول الله عند ماخرجت مهاجرةً من مكة الى المدينة فروّعوها وقرعوا هودجها بكعوب الرماح حتى أجهضت جنيناً ميتاً من أبي العاص بن الربيع بعلها فلما انتهى صنيع هؤلاء الى سمع رسول الله نال منه وشقّ عليه مشقةً شديدةً ولعنهم . وكان عمرو بن العاص يهجو رسول الله هجاءً شديداً ويعلمه صبيان مكة فينشدونه فكان هؤلاء الصبيان يصيحون برسول الله اذا مرّ بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء واذ علم المصطفى عليه الصلاة والسلام هذا قال وهو يصلي في الكعبة « اللهمّ انّ عمراً بن العاص هجاني ولست بشاعر فالعنه بعدد ماهجاني » . وفي ذات يوم بينما كان رسول الله ساجداً يصلي في فناء الكعبة عمد عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وعمرو بن العاص الى سلاجل فرفعوه بأيديهم ووضعوه على رأسه الشريف فصبر عليه الصلاة والسلام ولم يرفع رأسه وبكى في سجوده ودعا عليهم فجاءت ابنته فاطمة الزهراء وهي باكية فحتضنت ذلك السلاجل ورفعته والقته وقامت على رأس أبيها عليهما الصلاة والسلام تبكي فرفع رأسه الشريف وقال « اللهمّ عليك بقريش » قالها ثلاثاً ثمّ قال رافعاً صوته « أني مظلوم فانتصر » قالها ثلاثاً ثمّ قام فدخل منزله وكان ذلك بعد موت عمه أبي طالب بشهرين . ولشهرة عمرو بن العاص بعداوة المصطفى عليه الصلاة والسلام اوفدته قريش الى النجاشي ملك الحبشة ليزهده في الاسلام فيطرد عن بلاده من هاجر اليها من المسلمين فسار الى الحبشة وقام بمهمته جهده ولكن ما أصغى النجاشي الى قوله وظلّ على اكرام المسلمين .

انّ الاسلام يجبّ ماقبله فان عمراً بن العاص مازال عدواً للاسلام والمسلمين يحارب رسول الله مع الكفار والمشركين الى ان هداه الله للايمان وقد حدّث هو نفسه عن اسلامه وهذه روايته قال : لما انصرفنا من غزوة الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني فقلت لهم والله اني لأرى أمر محمد يعلو الامور علوّاً منكراً واني قد رأيت رأياً فما ترون فيه ؟ فقالوا مارأيت ؟ فقلت أرى ان نلحق بالنجاشي فنكون عنده فان ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشي فان نكون تحت يديه أحبّ الينا من ان نكون تحت يدي محمد اما اذا ظهر قومنا على محمد فنحن

وَإِنَّهُ إِنْ سَعَى مَعَهَا يُؤَيِّدُهَا حَتَّى تَفُوزَ بِآمَالٍ تُوَخِّيهَا
فَقَدْ يَنَالُ بِهَا قَاصِيَ مَطَامِعِهِ وَمَا ٱلْعَلِيُّ إِذَا وَافَاهُ يُعْطِيهَا
وَكَانَ أَبْنَاهُ مَعَهُ فَٱسْتَشَارَهُمَا بِدَعْوَةٍ لَيْسَ يَدْرِي مَا يُتَالِيهَا
قَالَ ٱلْكَبِيرُ: فَحَاذِرْ مِنْ مُعَاوِيَةٍ وَدَعْوَةٍ لَا يُرِيدُ ٱلْحَقَّ دَاعِيهَا
أَرْضَيْتَ أَحْمَدَ وَٱلصِّدِّيقَ مَعْ عُمَرٍ حَتَّى قَضَوْا بِفِعَالٍ كُنْتَ آتِيهَا
وَإِنَّ قَتْلَةَ عُثْمَانٍ لَأَنْتَ بَرِيءٌ مِنْ شَرَاكَةِ بَاغِيهَا وَجَانِيهَا
وَلَسْتَ تَطْمَعُ فِي نَيْلِ ٱلْخِلَافَةِ بَلْ هَيْهَاتَ يَا أَبَتَاهُ أَنْ تُدَانِيهَا
فَإِنْ يَفُزْ بِتَوَلِّيهَا مُعَاوِيَةٌ فَلَسْتُ أُلْفِيكَ إِلَّا مِنْ مَوَالِيهَا
وَإِنَّنِي مُشْفِقٌ أَنْ تَتْرُكَاهَا سَرِيعاً حَامِلَيْنِ إِلَى ٱلْأُخْرَى مَسَاوِيهَا

من قد عرفوا قالوا انا على رأيك فقلت فاجمعوا مانهدي له وكان أحبَّ ماياتيه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فوالله انا لفي الحبشة موضع اكرام وحفاوة النجاشي الذي سرّ من هديتنا واذ قدم عمرو بن امية الضمري وكان بعثه رسول الله عليه الصلاة والسلام في شأن جعفر بن أبي طالب واصحابه فقلت لاصحابي هذا عمرو بن أمية لو قد دخلت على النجاشي على ماتعلمون من ادلالي عليه وسألته اياه فاعطانيه فضربت عنقه فاذا فعلت ذلك رأت قريش اني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد . فاستحسن اصحابي عزيمتي ودخلت على النجاشي وسجدت بين يديه فرحب بي كعادته معي فقلت له انّ الرجل الذي اتاك من الحجاز هو رسول عدوّ لنا فاعطنيه لاقتله فانّه قد أصاب من اشرافنا وخيارنا . فغضب النجاشي وضرب انفه باصبعه ضربةً شديدةً هي اشارة الغضب عند القوم قال عمرو بن العاص : فوالله اذ رأيت هذا وددت لو انشقت الارض ودخلتها فرقاً منه. ثمّ قلت ايها الملك والله لو ظننت انك تكره هذا ما سألتكه . فقال النجاشي ويل أمّك اتسألني أن اعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ فقلت أيها الملك اكذلك هو ؟ فقال أي والله أطعني ويحك واتبعه فانه والله لعلى حقّ وليظهرنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قال عمرو بن العاص : فلما سمعت هذا من فم النجاشي صبوت الى الاسلام وعدت الى اصحابي فاخبرتهم بالامر واسرعت الى المدينة فلما اتيتها قصدت خالد بن الوليد وكان صديقي واسررت اليه بما في نفسي فسار معي الى رسول الله صلى الله عليه وآله فلما دخلت عليه قلت يارسول الله أبايعك على أن تغفرلي ماتقدّم من ذنبي ولم اذكر ماتأخر فقال بايع ياعمرو فان الاسلام يجبّ ماقبله وانّ الهجرة تجبّ ماقبلها فبايعته واسلمت اه هذه رواية عمرو بن العاص عن اسلامه وكان اسلامه سنة ثمان من الهجرة وعرف المصطفى مكانته من الشجاعة والدهاء فاستدناه منه وارسله بسرية الى ذوات السلاسل من بلاد قضاعة على رأس ثلاثمائة مقاتل وكانت ام العاص بن وائل من (بلى) فبعث رسول الله عمراً الى ارض (بلى) وعذرة ليتالف اهلها ويدعوهم الى الاسلام فسار حتى اذا كان على ماء أرض جذام يقال له السلاسل وبها سميت تلك

وَقَالَ ثَانِيهِمَا : كَلاَّ فَعَزْلَتُهُ تُفْضِي إِلَى حِطَّةٍ فَرْضٌ تَحَاشِيهَا
فَلْيَلْحَقَنَّ بِأَرْضِ ٱلشَّامِ مُضْطَلِباً أَسْمَى ٱلْمُنَى وَٱلْمَعَالِي مِنْ مُعَاوِيهَا
فَقَالَ عَمْرٌو : فَعَبْدُ ٱللهِ يَطْلُبُنِي لِلدِّينِ طَلْبَةَ حَقٍّ كُنْتُ وَاعِيهَا
لٰكِنَّمَا رَغْبَةُ ٱلدُّنْيَا يَجُولُ بِهَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا مَازِلْتُ شَاهِيهَا
وَبَعْدَ أَنْ طَالَ فِي هٰذَا تَفَكُّرُهُ أَنْضَى خُطَاهُ إِلَى ٱلدُّنْيَا يُمَالِيهَا
وَسَارَ لِلشَّامِ يَسْتَرْشِي مُعَاوِيَةً يَقُولُ :خَاطِبُ ذَاتِ ٱلْحُسْنِ يُحْلِيهَا
وَمَا ٱرْتَضَى غَيْرَ مِصْرٍ رَشْوَةً لِيُمَا لِيهِ عَلَى شَهَوَاتٍ كَانَ شَاهِيهَا
وَمِصْرُ تُطْمِعُ أَرْبَابَ ٱلْمَطَامِعِ بِٱلْـ ـخَيْرِ ٱلْوَفِيرِ ٱلَّذِي يُلْفَى بِوَادِيهَا

السرية (ذات السلاسل) خاف فكتب الى رسول الله يستنجده فامدَّه بجيش فيه مئتا فارس فيهم أهل الشرف والسوابق من المهاجرين والانصار منهم أبو بكر وعمر وامَّر عليهم ابو عبيدة بن الجرَّاح فلما قدموا على عمرو بن العاص قال هذا انا أميركم وانما انتم مددي فقال ابو عبيدة بل أنا أمير من معي وأنت أمير من معك فأبى عمرو ذلك فقال أبو عبيدة لقد أمرني المصطفى ان اطاوعك ولا اخالفك فان خالفتني اطعتك قال عمرو اني اخالفك فسلم اليه ابو عبيدة بالامارة وصلى خلفه في الجيش كله وانتهت الحملة بنصرة المسلمين

ثمَّ ان رسول الله ولى عمراً بن العاص على عمان وظلَّ في ولايته حتى قُبض عليه الصلاة والسلام ثمَّ عمل عمرو لابي بكر في مدة خلافته . وعند مافتحت سوريا وفلسطين على عهدعمر بن الخطاب كان عمرو بين القواد الفاتحين تحت امرة ابي عبيدة بن الجراح وبعد الفتح ولى عمر على دمشق وبعلبك معاوية وعلى فلسطين والاردن اخاه يزيد بن ابي سفيان ولم تطل ايام يزيد فمات فولى عمر مكانه عمراً بن العاص ثمَّ جمع عمر فلسطين والاردن لولاية معاوية وارسل عمراً بن العاص لفتح مصر ففتحها ولم يزل عليها حتى مات عمر وخلفه عثمان فثبته عليها اربع سنوات ثمَّ عزله عنها وولاها عبد الله بن سعد بن ابي سرح العامري فكان هذا بدء الشر بين عمرو بن العاص وعثمان على ان عمراً كان على ماعرف عن دهائه يداري مافي نفسه فيظهر الود ويخفي البغضاء والحقد

وقد عرفنا مما تقدم كيف ترك عمرو بن العاص عثمان بين يدي قاتليه وارتحل عن المدينة الى داره في القدس . وكيف اظهر الشماتة عند ماسمع بمقتل عثمان . وكيف ارتحل الى معاوية واتفق معه . وسنذكر ماكان منه في حرب صفين فيما يجيء ان شاء الله

وقد برَّ معاوية بعهده فاطلق يد عمرو بن العاص في مصر فسار اليها فتحاً وكانت خاضعة لسيدنا علي وكان يحكمها من قبله محمد بن أبي بكر فحاربه ودخلها عنوة ثم ظفر به فأحرقه بجوف حمار وقام بهذا الاثم الفظيع معاوية بن حديج . ولما بلغ ذلك عائشة في المدينة ازداد كرهها وعمها وجزعت جزعاً شديداً وصارت تلعن معاوية وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج عقب كل صلاة وضمت عيال اخيها محمد اليها

وسنأتي فيما بعد على ذكر المؤامرة التي دبرت لقتل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وسيدنا امير المؤمنين عليه صلوات الله في موضعها

وَعَمْرُو فَاتِحُهَا وَهُوَ ٱلْخَبِيرُ بِهَا ۞ فَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ إِنْ بَاتَ بَاغِيهَا
وَمَا مُعَاوِيَةٌ لَوْلَا تَحَوُّجُهُ ۞ إِلَى مُعِينٍ كَعَمْرٍو كَانَ يُولِيهَا
وَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ مَالِكَهَا ۞ لِذَا بِهَا نَفْسُ عَمْرٍو رَاحَ شَارِيهَا
وَكَمْ أَتَى ٱلشَّامَ كَٱبْنِ ٱلْعَاصِ ذُو جَشَعٍ ۞ فَنَالَ شَهْوَتَهُ أَوْ مَا يُوَازِيهَا
وَفِي ٱلْخِلَافَةِ مَا يُغْرِي ٱلطَّمُوعَ بِهَا ۞ إِلَّا إِذَا خَافَ رَبَّ ٱلْعَرْشِ حَامِيهَا

معاوية يعلن العصيان

كفٌّ تُصَافِحُ كَفًّا وَهْيَ طَامِعَةٌ ۞ بِمِصْرَ نَارُ ٱلْوَغَى وَٱلظُّلْمِ تُورِيهَا (١)
وَحِلْفُ شَرٍّ بِهِ تَمَّتْ مُحَالَفَةٌ ۞ ضِدَّ ٱلْخِلَافَةِ مَا ٱلْإِسْلَامُ رَاضِيهَا
قَدْ فَازَ عَمْرٌو بِوَعْدٍ مِنْ مُعَاوِيَةٍ ۞ بِأَنْ يَعُودَ لِمِصْرٍ وَهْوَ وَالِيهَا

وما زال عمرو بن العاص والياً لمصر متمتعاً بخيراتها ولم يكن لمعاوية فيها غير الاسم الى ان توفي سنة ٤٣ للهجرة عن تسعين عاما ودفن في المقطم من ناحية السفح

وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وقادتهم وحكمائهم المحنكين وكان شاعراً حسن الشعر وله حكمٌ مأثورة وكان اظهر مظاهره الدهاء حتى إن عمر بن الخطاب كان كلما استضعف رجلاً في عقله ورأيه يقول اشهد ان خالقك وخالق عمرو واحد يريد انَّه سبحانه خالق الاضداد

اما امُّ عمرو بن العاص فهي سلمى وتلقب (بالنابغة) وهي بنت حرملة من بني جلان بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار أصابها سباً فشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة ثمَّ اعتقها فصارت بغياً فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب وامية بن خلف الجمحي وهشام بن المغيرة المخزومي وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل السهمي في طهر واحد فولدت عمراً فادّعاه كلهم فحكمت امه فيه فقالت هو من العاص بن وائل فقيل لها ابو سفيان اشرف نسباً فقالت ان العاص بن وائل كثير النفقة عليَّ وابو سفيان شحيح قالوا ولكنَّ عمراً كان اقرب شبهاً بابي سفيان وكان الناس كثيراً مايهجون عمراً بامه ويقدحون بنسبه ويعيبونه فيه

(١) شعر معاوية بعد ان استوثق من معونة عمرو بن العاص بكفائته لمقاومة سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله فصحت عزيمته على اعلان العداء فأمر منادياً ينادي الصلاة الجامعة فلما اجتمع الناس وفيهم جرير بن عبد الله البجلي رسول الخليفة علا معاوية المنبر وقال : الحمد لله الذي جعل الدعائم للاسلام اركاناً ، والشرائع للايمان برهاناً ، يتوقد فيه في الارض المقدسة ، جعلها الله محل الانبياء والصالحين من عباده ، فأحلهم أرض الشام ، ورضيهم لها ، كما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ، ومناصحتهم خلفاءه والقوّام بأمره ، والذابين عن دينه وحرماته ، ثمَّ جعلهم لهذه الامة نظاماً ، وفي سبيل الخيرات اعلاماً ، يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم الفة المؤمنين ، وبالله نستعين ، على ماتشعَّب من أمر المسلمين بعد الالتئام ، وتباعد بعد القرب ، اللهمَّ انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون اراقة دمائنا ، واخافة سبلنا ، وقد علم الله انا لا نريد

لِقَاءَ تَعْضِيدِ رُغْبَى كَانَ صَاحِبُهُ ... مَهْمَا تَعَارَضَتِ ٱلْأَحْدَاثُ يَنُوبُهَا

وَلَمْ يَكُنْ قَطُّ مَغْبُونَاً مُعَاوِيَةٌ ... بِصَفْقَةٍ كَانَ بِالتَّوْفِيقِ جَانِبُهَا

أَلَا يَهُونُ عَلَيْهِ بِٱلْخِلَافَةِ أَنْ ... يُعْطِيَ بِغَيْرِ وَنَى مِصْراً لِرَاجِيهَا

هٰذَا إِذَا لَمْ يَخُنْهُ بَعْدَ نَصْرَتِهِ ... خِيَانَةً كَانَ عَمْرٌو مِنْهُ خَاشِيهَا

وَكَانَ يَعْرِفُ عَمْراً فِي حَقِيقَتِهِ ... تَٱللّٰهِ صَاحِبُهُ يَدْرِي خَوَافِيهَا

وَإِنَّهُ وَاحِدٌ فَذٌّ يُقَابِلُ بِٱلْـــدَّهَا ٱلْأُلُوفَ وَلَا يَخْشَى تَجَنِّيهَا

لِذَا اسْتَعَزَّ بِهِ عِزّاً مُعَاوِيَةٌ ... وَلَمْ يَعُدْ يَرْهَبِ ٱلْأَخْطَارَ دَاهِيهَا

وَرَدَّ رَدّاً جَرِيراً قَائِلاً عَلَناً : ... مَا أَمْرَةُ ٱلْمُرْتَضَى يَاصَاحِ أَدْرِيهَا

وَقُلْ لَهُ مَا أَنَا رَاضٍ بِأَمْرَتِهِ ... وَلَسْتُ وَٱللّٰهِ أُحْصَى مِنْ مُطِيعِيهَا

كَذَاكَ عَادَ جَرِيرٌ خَائِباً خَجِلاً ... بِخَيْبَةِ ٱلسَّعْيِ يَشْكُو مِنْ مُخَيِّبِيهَا

لهم عقاباً ، ولا نهتك لهم حجاباً ، ولا نوطئهم زلقاً ، غير ان الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ، ماجاوب الصدى ، وسقط الندى ، وعرف الهوى ، حملهم على ذلك البغي والحسد فنستعين الله عليهم ، ايها الناس ، قد علمتم اني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان ، عليكم ، اني لم أقم رجلاً منكم على خزايته قط ، واني ولي عثمان ، وقد قتل مظلوماً ، والله تعالى يقول : (ومن قتل مظلوماً ، فقد جعلنا لوليه سلطاناً ، فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً) وأنا أحب ان تعلموني ذات انفسكم في قتل عثمان » اه وما كاد ينتهي معاوية من خطابه الذي على مارأيت بين سطوره من الدهاء والمكر حتى نادى الناس بالمطالبة بدم عثمان وبايعوا معاوية على ذلك واوثقوا له على أن يبذلوا بين يديه اموالهم وأنفسهم حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله . ثم انصرف معاوية فانصرف الناس حتى اذا ماخلا في قصره استدعى اليه جريراً وقال له لقد طال مكوثك عندنا واعملت الفكرة طويلاً فرايتني لايسعني الا المطالبة بدم عثمان وانا وليه فارجع الى صاحبك واخبره اني لا ابايعه ولا اطيعه وكذلك أهل الشام أو يدفع لنا قتلة عثمان فنقتلهم به وهذا كتاب مني اليه فحمله له فحاول جرير كثيراً ان يثنيه عن عزمه فما افلح وهكذا عاد خائباً الى الكوفة يخبر أمير المؤمنين بكل مارأى وسمع بعد طول غيبته عنه

اما الكتاب الذي حمله جرير الى سيدنا علي عليه صلوات الله فهذا نصه « من معاوية بن صخر الى علي بن أبي طالب ، اما بعد ، فلعمري ، لو بايعك القوم الذين بايعوك وانت بريء من دم عثمان ، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان ، ولكنك اغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الانصار ، فاطاعك الجاهل ، وقوي بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام الا قتالك ، حتى تدفع اليهم قتلة عثمان ، فان فعلت كانت (الخلافة) شورى بين المسلمين ، ولعمري ليست حجتك علي ، كحجتك على طلحة والزبير ، لانهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ،

ثُمَّ ٱنبَرَى بِٱلدَّهَا يُغْرِي مُعَاوِيَةً أَصْحَابُهُ وَبِمَا تَرْضَى يُمَنِّيهَا
يَقُولُ: أَصْبَحْتُ يَاأُخْوَانُ مُلْتَزِمًا حَرْبَ ٱلْخِلَافَةِ أَبْغِي أَنْ أُقَاوِيهَا
فَقَدْ حَمَتْ قَاتِلِي عُثْمَانَ فَهْيَ إِذًا مَسْئُولَةٌ عَنْ دِمَاءٍ أَضْتُ أُجْرِيهَا
بِمِثْلِ ذَا كَانَ يَسْتَهْوِي ٱلشَّآمَ إِلَى ٱلْـ ـعِصْيَانِ وَٱلْحَرْبِ يُغْشِيهَا وَيُزْجِيهَا
فَٱسْتَسْلَمَتْ وَبَكَتْ مَعَهُ قَتِيلَ بَنِي أُمَيَّةٍ لَيْتَ يَدْرِي ٱلْحَقَّ بَاكِيهَا
صَاحَتْ بِثَارَاتِ عُثْمَانَ تُرِيدُ عَلِيًّا مِثْلَمَا بُلِّغَتْ مِنْ مُسْتَشَارِيهَا
وَبَايَعَتْ بِٱسْمِ أَخْذِ ٱلثَّأْرِ مُقْدِمَةً عَلَى ٱلصِّعَابِ ٱلَّتِي تَخْشَى مُعَاوِيهَا
وَٱلشَّامُ بُؤْرَةُ شَرٍّ أَصْبَحَتْ وَبِهَا سُكَّانُهَا قَدْ تَمَادَتْ فِي تَرَاغِيهَا
فِيهَا عِدَا ٱلْمُرْتَضَى ظُلْمًا قَدِ ٱجْتَمَعَتْ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَحَدْبٍ فِي تَفَعِّيهَا
هُنَاكَ دَاهِيَةُ ٱلدُّنْيَا مُعَاوِيَةٌ يَرْمِي ٱلْخِلَافَةَ كَيْ يَصْطَادَ بَازِيهَا
مَاهَمُّهُ دَمُ عُثْمَانَ وَمَنْ سَفَكَتْـ ـهُ أَصْبَحَتْ عِنْدَهُ إِذْ رَاحَ آوِيهَا
وَلَا قَمِيصُ ٱبْنِ عَفَّانَ ٱلْمُلَطَّخُ بِٱلْـ ـدَّمِ ٱلَّذِي أَهْرَقَتْهُ فِي تَعَصِّيهَا

لأنَّ أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام ، فاما شرفك في الاسلام ، وقرابتك من النبيّ عليه الصلاة والسلام ، وموضعك من قريش ، فلست ادفعه ، والسلام » اه

وانا نعود فنقول إن معاوية ما كان يهمه في الحقيقة قتل عثمان ولا كان يشجيه قيصه الملطخ بالدم واصابع نائلة التي قـدَّت يوم مقتله . ولكنها ذريعة كان يتذرع بها للوصول الى الخلافة ، ووسيلة يتوسل بها لتأليب الناس على سيدنا علي عليه صلوات الله توصلاً لخلعه عن الخلافة واستئثاره بها

أما أهل الشام فهم صنفان صنف من خالصة العرب وقد التفوا حول معاوية طمعاً بالاستفادة من كرمه الجمّ الحاتمي والوصول الى مايحلمون به من الرتب العالية لو هو تولى الخلافة . وصنف من عامة العرب وسواد أهل الشام وهم خاضعون لمعاوية من عهد بعيد وقد ملك قيادهم وسيطر عليهم فما كان لهم الا ان يرضوا بما يرضى وان يسيروا وراءه كيف سار وهكذا استفحل أمر معاوية واصبح خطراً على سلامة المسلمين وباتت الحرب بمساعيه ضد أمير المؤمنين على قاب قوسين

أما بيعة أهل الشام لمعاوية يومئذ فقد كانت على الطلب بدم عثمان وعلى أن يكون أميراً لا يطمع في الخلافة بل يترك أمرها شورى . قالوا وكان في المسجد يومئذ اربعمائة رجل من المهاجرين والانصار ممن صحبوا المصطفى عليه الصلاة والسلام على رأسهم عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبيد الله بن عمر ومروان بن الحكم ونحوهم فاعجب لهذا العدد الكبير الذي انضوى لمعاوية طمعاً بالدنيا وكانت لاتزال هذه الدنيا غرّارة باهلها ولا حول ولا قوة الا بالله

« ترجمة جرير »

هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلبة بن جشم بن عويف بن حرب

وَلَا أَصَابِعُ ذَاتِ ٱلْخِدْرِ نَائِلَةً   وَإِنْ هِيَ ٱنْتَثَرَتْ مِنْ قَدْرِ مَاضِيهَا
لٰكِنَّ نَفْسَ ٱبْنِ حَرْبٍ فِي شَرَاهَتِهَا   لَا شَيْءَ عَنْ طَلَبِ ٱلثَّارَاتِ يُثْنِيهَا
وَلَمْ تَكُنْ تَطْلُبُ ٱلثَّارَاتِ مُلْحِفَةً   إِلَّا لِتُبْلِغَهَا أَقْصَى أَمَانِيهَا
فَتَرْتَقِي سِدَّةَ ٱلدِّينِ ٱلْحَنِيفِ بِثَا   رَاتٍ تُنَادِي بِهَا فِي ٱلنَّاسِ تَمْوِيهَا
وَٱلْتَفَّ مِنْ حَوْلِهَا مَنْ كَانَ يَضْطَلِبُ ٱلـ   ـدُّنْيَا وَأَغْرَتْهُ بِٱلسُّوءِ مَلَاهِيهَا
مِنْ كُلِّ مُرْتَقِبِ ٱلْعَلْيَاءِ ذِي وَلَعٍ   بِهَا وَمَا هَمُّهُ إِلَّا تَرَقِّيهَا

مسير أمير المؤمنين الى الشام

وَبَعْدَ عَوْدِ جَرِيرٍ لِلْإِمَامِ بِأَنْـ   ـبَاءِ ٱلشَّآمِ وَمَا يَنْوِي مُعَاوِيهَا (١)
أَبَى أَبُو حَسَنٍ إِلَّا مُرَاسَلَةَ ٱلْـ   ـعَاصِي ٱبْنِ صَخْرٍ بِآيِ ٱلنُّصْحِ يُسْدِيهَا
طَالَتْ وَلٰكِنَّهَا مَا أَثْمَرَتْ ثَمَرًا   فِي أَنْفُسٍ طَوَتِ ٱلْبَغْضَا مَطَاوِيهَا

ابن علي بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر من كهلان قدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم في رمضان سنة عشر للهجرة فبايعه واسلم وكان جرير صبيح الوجه جميلاً . قال رسول الله فيه « كان على وجهه مسحة ملك » وكان عمر يقول جرير يوسف هذه الامة . وكان طوالاً ينقل في ذروة البعير من طوله . وكانت نعله ذراعاً . وكان يخضب لحيته بالزعفران من الليل ويغسلها اذا اصبح فتخرج كالتبر واستعمله عمر وعثمان بعده وآخر عمل له كان في همذان استعمله عليها عثمان وقدمنا كيف انه بايع سيدنا علي وحمل اهل همذان على بيعته بعد انتهاء موقعة الجمل . ثمّ عرفنا كيف وجهه المرتضى عليه صلوات الله الى معاوية في الشام بعد ان عرض هو عليه ذلك بناءً على ثقته بنفوذه هناك

ولما عاد جرير بالفشل والخيبة اتهمه اصحاب سيدنا علي بممالئة معاوية وانه ما أطال المكوث في الشام وطاول في مخابرة معاوية الا ليكتسب هذا الوقت الكافي ليعدّ عدّته للعصيان والظاهر انّ سيدنا علي عليه صلوات الله داخله الشك باخلاصه فأهمل شأنه فاعتزله ولم يحضر حرب صفين على انه اعتزل معاوية ايضاً وأقام في الجزيرة في العراق ملتزماً بيته حتى توفي بالسراة من أعمال العراق سنة ٤٤ للهجرة في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة

(١) قدم سيدنا علي عليه صلوات الله من البصرة الى الكوفة بعد موقعة الجمل لاثنتي عشرة ليلة من شهر رجب سنة ٣٦ للهجرة . فدخل الكوفة ومعه اشراف الناس من أهل البصرة وغيرهم فاستقبله أهل الكوفة بالتكبير والتهليل وفيهم قرّاؤهم واشرافهم ودعوا له بالبركة ونزل في الرحبة ثمّ دخل المسجد الاعظم فصلى فيه ركعتين وصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على رسوله وقال: « أما بعد ، يا أهل الكوفة ، فانّ لكم في الاسلام فضلاً ، ما لم تبدّلوا وتغيّروا ، دعوتكم الى الحقّ فاجبتم ، وبدأتم بالمنكر فغيّرتم ، الا انّ فضلكم فيما بينكم وبين الله ، فأمّا الاحكام والقسم ، فانتم اسوة غيركم ممن اجابكم ، ودخل فيما دخلتم فيه ، ألا انّ أخوف ما أخاف عليكم ، اتباع

وَكَانَ يَطْلُبُ فِيهَا ٱلسِّلْمَ حَيْدَرَةٌ مِمَّنْ يَجِدُّ وَرَاءَ ٱلْحَرْبِ يَنْوِيهَا
كَيْمَا يُشَيِّدُ لَهُ مُلْكاً عَلَى اسُسِ ٱلْــخِلَافَةِ ٱلْمُشْتَهَى مِنْهُ تَدَاعِيهَا
وَكَانَ يَسْمَعُ أَعْمَالَ ٱلْعُصَاةِ أَبُو ٱلْــحُسَيْنِ مِنْ فَمِ رَاوِيهَا وَشَاكِيهَا
فَيَسْتَعِيذُ بِبَارِيهِ وَيَنْشُدُ مَنْ حَوْلَيْهِ مِنْ صَحْبِهِ لِلْحَرْبِ يُنْخِيهَا
فَلَا يَرَى غَيْرَ آرَاءٍ يُشَتِّتُهَا ٱلْــخُوُوزُ مَا إِنْ تُلَبِّي صَوْتَ دَاعِيهَا
وَظَلَّ فِي ذَا شُهُوراً وَهُوَ مُضْطَبِرٌ عَلَى عِدَاهُ ٱلَّتِي وَالَتْ تَعَدِّيهَا
وَقَدْ تَمَادَتْ فَلَا صُقْعٌ وَلَا بَلَدٌ لَمْ تَفْشُ فِي أَهْلِهِ شَتَّى مَسَاوِيهَا
وَلَمْ يَعُدْ لِعَلِيٍّ أَنْ يَخْتَارَ سِوَى حَرْبٍ بِنِيرَانِهَا يَكْوِي مُلَظِّيهَا
فَأَعْلَنَ ٱلْحَرْبَ مُضْطَرّاً وَحُمَّ قَضَا ءُ ٱللهِ أَنْ تُزْعِجَ ٱلدُّنْيَا تَمَاسِيهَا
كَيْمَا يُرَبِّي بِهَا أَهْلَ ٱلشَّآمِ وَقَدْ جَارَتْ بِمَا أَظْهَرَتْهُ مِنْ تَعَصِّيهَا

الهوى ، وطول الامل ، أمَّا اتباع الهوى فيصدُّ عن الحقّ ، وأمَّا طول الامل ، فينسي الآخرة ، ألا انَّ الدنيا قد رحلت مدبرةً ، وانَّ الآخرة قد رحلت مقبلةً ، ولكلٍّ واحدةٍ منها بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ، الحمد لله الذي نصر وليه ، وخذل عدوَّه ، وأعزَّ الصادق المحقَّ ، وأذلَّ الناكث المبطل ، عليكم بتقوى الله ، وطاعة من أطاع الله من أهل بيت نبيكم ، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه ، من المستحلين المدعين ، القائلين الينا ، يتفضلون بفضلنا ، ويجاحدونا أمرنا ، وينازعونا حقنا ، ويدافعونا عنه ، فقد ذاقوا وبال ما اجترحوا ، فسوف يلقون غياً ، الا انه قد قعد عن نصرتي رجالٌ منكم ، وانا عليهم عاتب زارٍ ، فاهجروهم ، وأسمعوهم ما يكرهون ، حتى يعتبوا ، ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة » وعند ما انتهى امير المؤمنين من خطابه تقدم اليه وجوه الذين قعدوا عن نصرته فاعتذروا فقبل اعذارهم ورضي عنهم بعد أن أكثر من عتابهم ولومهم

وقد سبقت الاشارة بانه عليه صلوات الله ما كاد يستقرّ به المقام في الكوفة حتى انصرف الى دعوة امراء العراق وفارس الى الطاعة فلبوه واطاعوه وبايعوه ثمَّ انصرف الى مخاطبة معاوية ومخابرته فارسل له جريراً كما تقدم وكانت نتيجة رسالته ما اوابنا من التسويف والمماطلة ثمَّ رجوع جرير الى امير المؤمنين بالخيبة والفشل وتلا ذلك مراسلات كثيرة بين سيدنا عليّ ومعاوية لم تنجم عن خير وقد تمادى معاوية مع سيدنا علي في رسائله تمادياً ما اوجدت في العلماء والمؤرخين من رضيه له حتى ولا الذين يتشيعون الى الامويين واني لاعرض عن كل ذلك وانزّه هذه العلوية المباركة عن نشر هاتيك الرسائل واكتفي بالاشارة اليها ولا حول ولا قوَّة الا بالله

وقد صبر سيدنا علي عليه صلوات الله على معاوية أشهراً معدودة حاول فيها جهده ان يستميله الى الحقّ ويحوّله عن الباطل فما أحدث مساعيه نفعاً وظلَّ معاوية واعوانه يعيثون فساداً في ممالك الخلافة فيحملون الناس باسم ثار عثمان على كره سيدنا علي ونكث بيعته حتى اذا ما استفحل الخطب وتفاقم

ذَا بَعْدُ أَنْ ضَاعَ مَسْعَاهُ بِعَوْدَتِهَا إِلَى ٱلْهُدَى وَأَطَاعَتْ مُسْتَضِلِّيهَا

كَذَاكَ قَدْ سَارَ يَبْغِي ٱلشَّامَ حَيْدَرَةٌ يُرِيدُ تَطْوِيعَ عَاصِيهَا وَبَاغِيهَا

وَحَوْلَهُ مِنْ كُمَاةِ ٱلْحَرْبِ طَائِفَةٌ يَفُوتُ قَافِزُهَا فِي ٱلسَّيْرِ مَاشِيهَا

وَكَانَ مَسْعَاهُ مَا بَيْنَ ٱلْفُرَاتِ وَدَجْلَةَ يَجِدُّ بِتِلْكَ ٱلْأَرْضِ يَطْوِيهَا

وَكَانَ عِنْدَ مَوَاقِيتِ ٱلصَّلَاةِ يُنَادِي ٱلنَّاسَ عَنْ وَرَعٍ كَيْمَا تُصَلِّيهَا

وَمَرَّةً لَمْ يَجِدْ أَرْضاً مُلَائِمَةً إِلَى ٱلصَّلَاةِ بِوَقْتِ ٱلْعَصْرِ يَقْضِيهَا (١)

فَجَدَّ حَتَّى ٱنْتَهَى وَقْتَ ٱلْغُرُوبِ إِلَى أَرْضٍ أَرَادَ يُصَلِّي عَصْرَهُ فِيهَا

وَإِذْ دَعَا قَدْ أَعَادَ ٱللهُ خَالِقُهُ ٱلشَّمْسَ ٱلْمُضِيئَةَ فِي أَسْنَى تَلَالِيهَا

ظَلَّتْ تُلَالِي حَتَّى مَا ٱلصَّلَاةُ كَمَا يَرْضَى ٱلْإِلٰهُ ٱنْتَهَى مِنْهَا مُصَلِّيهَا

الخطر لم يرَ سيدنا امير المؤمنين غير تحكيم السيف لاعادة السلام الى بلاد الخلافة فنادى بالجهاد على أهل الشام فلباه اكثر اهل العراق وتقاعس الاقلون ممن تاكلهم الترف وخارت منهم العزائم وكان خروجه عليه صلوات الله من الكوفة في أوائل ذي الحجة سنة ٣٦ للهجرة

سار المرتضى باصحابه الى النخلة وهي احدى ضواحي الكوفة وهناك رتب صفوفهم وركب في مقدمتهم ودعا فقال « اللهمّ ، اني اعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الاهل والمال والولد ، اللهمّ انت الصاحب في السفر ، وأنت الخليفة في الاهل ، ولا يجمعهما غيرك ، لان المستخلف لا يكون مستصحباً ، والمستصحب لا يكون مستخلفاً » (نقول : وابتداء هذا الكلام روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قفاه امير المؤمنين عليه صلوات الله بابلغ كلام وتممه باحسن تتمة من قوله ولا يجمعهما غيرك الى آخر ما قال فجاد واعجز لان من يستصحب لا يكون مستخلفاً لاستحالة وجود الشيء الواحد في مكانين بالنظر الى الجسم البشري واما الله جلت قدرته فذاته القدسية ليست مكانية بل هو جلّ جلاله موجود في كل زمان ومكان فيحيط علمه وقضاؤه وقدره وعنايته بالمستصحبين والمستخلفين معاً فهو سبحانه المرجوّ لنصرة السائرين لنصره وحماية المستخلفين من الاهل والولد)

وقد ولى سيدنا علي عليه صلوات الله على الكوفة عند خروجه منها حبيب بن مالك فقال له وهو آخذ بعنان دابته عند رحيله : اتخرج يا أمير المؤمنين بالمسلمين فيصيبوا اجر الجهاد بالقتال وتخلفني بالكوفة لحشر الرجال ? فقال : لن يصيبوا من الاجر شيئاً ، الا كنت شريكهم فيه ، وأنت ههنا اعظم غناء عنهم ، منك لو كنت معهم » وعند ماقطع سيدنا علي بر حاله النهر أمر مناديه فنادى بالصلاة فتقدم عليه صلوات الله فصلى ركعتين حتى اذا قضى الصلاة اقبل على الناس بوجهه فقال : « ايها الناس ألا من كان مشيعاً أو مقيماً فليتمّ الصلاة ، فانّا قوم سفر ، ألا ومن صحبنا فلا يصومنّ المفروض ، والصلاة المفروضة ركعتان . » وبعد هذا سار أمير المؤمنين بركبه قصداً الشام لحرب معاوية

(١) روى عمر بن عبد الله بن يعلى بن مرّة الثقفي عن ابيه عن عبد خير قال كنت مع علي أسير في ارض بابل في سيره الى صفين وحضرت صلاة العصر فجعلنا لا نأتي مكاناً الا رأيناه اقبح

غَابَتْ وَقَدْ عَادَتِ ٱلدُّنْيَا لِظُلْمَتِهَا ... وَبَاتَ صَحْبُ عَلِيٍّ فِي دَيَاجِيهَا
وَتِلْكَ مُعْجِزَةٌ كُبْرَى لِحَيْدَرَةٍ ... ذَاعَتْ وَشَاعَتْ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ تَحْكِيهَا
ثُمَّ عَلَى كَرْبَلَاءَ مَرَّ حَيْدَرَةٌ ... فَأَوْقَفَ ٱلنَّاسَ حِيناً فِي بَرَارِيهَا (١)
نَادَى: ٱلرِّحَالُ هُنَا تَثْوِي بِكَرْبَتِهَا ... هُنَا ٱلدِّمَاءُ عِدَاةُ ٱللهِ تُمْنِيهَا
مَا كَرْبَلَاءُ سِوَى كَرْبٍ وَمَعْهُ بَلَا ... لِلْآلِ سَوْفَ تَثْوِي فِي مَثَاوِيهَا
بِذَاكَ أَنْبَأَ عَنْ خَطْبِ ٱلْحُسَيْنِ وَكَمْ ... مِنَ ٱلْحَوَادِثِ قَدْ شِمْنَاهُ يُنْبِيهَا
وَعِنْدَ مَا بَلَغَتْ سَابَاطَ حَمْلَتُهُ ... حَلَّتْ بِأَمْرِ عَلِيٍّ فِي ضَوَاحِيهَا (٢)
وَأَقْبَلَتْ نَحْوَ مَوْلَانَا أَبِي حَسَنٍ ... مِنْهَا ٱلدَّهَاقِينُ فِي أَجْلَى تَصَافِيهَا
عَلَيْهِ قَدْ عَرَضَتْ شَاهِيَ ٱلْمَآكِلِ مَعْ ... ضَافِي ٱلْمَنَازِلِ نَادَى: لَسْتُ رَاضِيهَا

من الآخر حتى اتينا على مكان أحسن ما رأينا وكادت الشمس تغيب فنزل على فنزل الناس معه فدعا الله فرجعت الشمس كمقدارها من صلاة العصر فصلينا العصر وغابت الشمس فاكبرنا معجزةً صنعها الله سبحانه بكرامته عليه صلوات الله

(١) روى سعيد بن حكيم العبسي عن الحسن بن كثير عن ابيه انَّ علياً عليه صلوات الله اتى كربلاء في طريقه الى صفين فوقف فيها قليلاً فقيل له يا امير المؤمنين هذه كربلاء فقال ذات كربٍ وبلاء ثم اومأ بيده الى مكان فقال ههنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم ثمَّ اومأ بيده الى مكانٍ آخر فقال ههنا مراق دمائهم ثمَّ مضى الى ساباط وكان هذا من جملة أنبائه بالغيب التي اختصه الله بها وقد أشار بها الى مصرع سيد الشهداء الحسين عليه وعلى أبيه وجده وآل البيت الصلاة والسلام

(٢) ولما مرَّ سيدنا علي بساباط وهي بالقرب من الانبار استقبله بنو خشوشة وهم دهاقينها فنزلوا عن خيولهم وتقدموا منه ومعهم براذين قد اوقفوها في طريقه فقال عليه صلوات الله ما هذه الدواب التي معكم ؟ وما أردتم بهذا الذي صنعتم ؟ ويريد نزولهم عن خيولهم في ملاقاته قالوا امَّا هذا الذي صنعنا فهو منا نعظم به الامراء واما هذه البراذين فهدية لك وقد صنعنا للمسلمين طعاماً وهيأنا لدوابكم علفاً كثيراً فقال عليه صلوات الله أمَّا هذا الذي زعمتم انه فيكم خلق تعظمون به امراءكم فوالله لا ينفع به للامراء وانكم لتشقُّون به على انفسكم وابدانكم فلا تعودوا له . وامَّا دوابكم هذه فان احببتم ان آخذها منكم واحسبها لكم من خراجكم اخذناها منكم . وأمَّا طعامكم الذي صنعتم لنا فانا نكره ان نأكل من أموالكم الا بثمن . قالوا يا أمير المؤمنين نحن نقوّمه ثمَّ نقبل ثمنه قال اذن لا تقوّمونه بثمنه نحن نكتفي بما هو دونه . قالوا يا امير المؤمنين فانَّ لنا من العرب موالي ومعارف أتمنعنا ان نهدي لهم وتمنعهم ان يقبلوا منا ؟ فقال كلّ العرب لكم موالي وليس ينبغي لاحد من المسلمين ان يقبل هديتكم وان غصبكم احد فاعلمونا قالوا يا امير المؤمنين انا نحب أن تقبل هديتنا وكرامتنا قال ويحكم فنحن اغنى منكم وتركهم وسار

يقول من يتدبر هذه القصة تتجلى له صفات امير المؤمنين العالية ومباديه السامية مما لم تبلغ

فَمَا عَلَيْكُمْ أَيْمُ ٱللهِ تَكْلِفَةٌ   لَنَا وَكُلِّفْتُكُمْ إِنِّي احَاشِيهَا
وَحَمْلَةُ ٱلْمُرْتَضَى مَرَّتْ بِفَجْوَةِ أَرْ   ضٍ لَمْ تَجِدْ عِنْدَهَا مَاءً تُرَوِّيهَا (١)
وَقَدْرَأَتْ صَخْرَةً ضِرْساً كَرَابِضَةِ ٱلْـــعَنْزِ ٱلْمُقِيمَةِ فِي ضَافِي مَرَاعِيهَا

حدّه ديموقراطية هذه الايام التي يتغنى بها المتغنون فقد نصح سيدنا امير المؤمنين دهاقين الفرس ان يعدلوا عن النزول عن خيولهم اكراماً للامراء اذا مروا بهم أو استقبلوهم ولسان حاله يقول بالتساوي بين الناس حتى لايكلف احدهم مشقة لاكرام الآخر بما ليس وراءه فائدة لمستفيد . وامتنع عن قبول هديتهم الا بثمنها وذلك غاية العدل لامير يقود جيشاً محارباً سائراً للقتال . وعند ما احتجوا بقولهم ان بعض العرب لهم اصدقاء يريدون ان يهادوهم اجابهم امير المؤمنين بل ان كل العرب اصدقاؤكم لا بعضهم مشيراً الى ان وجود العرب الفاتحين بارضهم لايمنع ان يجعل الغالبين والمغلوبين بحكم الاصدقاء .
لا جرم ان الديموقراطية الحقيقية التي هي من أجلى المبادىء الاسلامية قد تجلت في كلمات سيدنا علي بن أبي طالب المسجدية التي خاطب بها دهاقين الفرس وهي التي يوجبها الاسلام على تابعيه من الحكام اللهم اذا كان القائم على تنفيذها تقي صالح عارف باحكام الله كسيدنا علي امير المؤمنين عليه صلوات الله

ويخلق بنا في هذا المقام أن نذكر اعترافاً بالحق واقراراً بالفضل ماشهدناه شهادة عيان ونحن في خدمة مولانا صاحب العظمة الشيخ خزعل خان أدامه الله مدى الدوران فطالما رآه الناس وهو يتجول على يخته الملوكي في شط العرب ونهري بهمشير وقارون ينادي بالناس الذين يتجولون على بلايمهم فيتكلفون الوقوف لأخذ سلامه وتقديم الاحترام لشخصه الملوكي أن اجلسوا يا أولادي ولا تتكلفوا هذه المشقة فما أنا الا أبوكم وصاحبكم وشهدت هذا بنفسي وأنا بين يدي عظمته الملوكية فأثنيت على هذا العطف واللطف فقال حفظه الله : هذا ماتلقيناه عن سيدنا علي أمير المؤمنين عليه صلوات الله وذكر لي قصة دهاقين ساباط وقال بدعته المحمودة المشهورة ومن أكون أنا بجانب أمير المؤمنين الذي أبدى مثل هذا العطف لأولئك الدهاقين؟؟ وذكرت هذا العطف واللطف الخزعلي وأنا معجب لكثيرين من أهالي العراق فحدثوني أمثال ذلك عن عظمته الشيء الكثير وألفيتهم أكثر اعجاباً مني بأخلاقه الفاضلة التي تركته في أرفع مقام من الاحترام في عيون العرب والاعجام

كذلك كنت بخدمة عظمته الملوكية سنة ١٩١١ فصحبني اعز الله به الاسلام الى الاهواز وكان خارجاً الى لقاء البختيارية الذين اعتدوا عامئذ على حدود امارته المحمية فعند ما حل في الاهواز واخذت تفد عليه رجال القبائل للحرب اخذت ايضاً ترد عليه الهدايا من القبائل المجاورة من قمح وارز وغنم ودجاج وسمن فكان لايقبل شيئاً منها الا بثمنه على انه حفظه الله كان يدفع للذين يهادونه اضعاف اثمان هداياهم فكانوا يتأبون عن قبولها وهم يقولون ان ارواحهم واموالهم هي وقف لخدمته فيقول لهم لا والله فان سيدنا علي ما قبل الهدايا بغير ثمنها عند ماسار الى صفين . شهدت هذا بنفسي وعرف العراقيون اكثر منه عن عظمته الملوكية في جميع حروبه وهم يذكرونها لعظمته بالاعجاب

ولقد كنت اعجب من هذه الاخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة التي خص الله سبحانه بها هذا الامير العربي العظيم الذي تتبع تعاليم سيدنا علي عليه صلوات الله وتأدب بأدبه العلوي فبارك الله فيه واكبت حساده واعاديه وأعز به أصحابه ومريديه

(١) روى سعيد التيمي المعروف بعقيصاء قال كنا مع علي عليه صلوات الله في مسيره الى الشام حتى اذا كنا في السواد عطش الناس واحتاجوا الى الماء فنطلق بنا سيدنا علي حتى أتى الى

فَجَدَّ حَيْدَرَةٌ جِدّاً لِمَرْبَضِهَا حَتَّى غَدَا مَعَ مَنْ مَعَهُ مُلَاقِيهَا
وَصَاحَ هُبُّوا لَهَا يَاصَحْبُ وَاقْتَلِعُو هَا وَاشْرَبُوا مِنْ مِيَاهِ النَّبْعِ صَافِيهَا
فَبَادَرُوهَا بِأَيْدِيهِمْ كَمَا أَمَرَ الْـ ـمَوْلَى أَبُو حَسَنٍ رَاحُوا مُزِيحِيهَا
فَفَجَّرَ اللهُ عَيْناً تَحْتَ مَرْبَضِهَا وَأَسْرَعُوا وَتَسَقَّوْا مِنْ مَجَارِيهَا
وَأَكْفَأُوا فَوْقَهَا فِي الْحَالِ صَخْرَتَهَا وَوَاصَلُوا السَّيْرَ يَطْوُونَ الْأَتَاوِيهَا
وَكَانَ بِالْقُرْبِ دَيْرٌ يَمَّمُوهُ وَقَصُّـ ـوا قِصَّةَ الْعَيْنِ لِاسْتِجْلَاءِ خَافِيهَا
فَقَالَ صَاحِبُهُ: تَاللهِ مَابُنِيَتْ عِمَارَةُ الدَّيْرِ إِلَّا كَيْ تُجَرِّيهَا
وَلَيْسَ غَيْرُ نَبِيٍّ أَوْ وَصِيِّ نَبِـ ـيٍّ مِنْ خَلَائِقِ رَبِّ الْعَرْشِ يُجْرِيهَا
فَأَكْبَرُوا عِنْدَ هٰذَا الْقَوْلِ مُعْجِزَةً كَانَ الْخَلِيفَةُ بِاسْمِ اللهِ آتِيهَا
ثُمَّ مَضَى الْمُرْتَضَى بِالصَّحْبِ يَسْلُكُ فِي طَرِيقِهِ آمِناً فِي سَيْرِهِ التِّيهَا
حَتَّى إِلَى الرِّقَّةِ الْمَعْرُوفِ مَوْضِعُهَا عَلَى الْفُرَاتِ انْتَهَى أَثْوَى ضَوَاحِيهَا(١)
وَأَهْلُهَا لَمْ تَكُنْ طَوْعَ الْخِلَافَةِ كَا نَتْ مَعَ مُعَاوِيَةٍ تُبْدِي تَعَصِّيهَا
فَكَانَ مَنْزِلُهُ عِنْدَ الْبَلِيخِ عَلَى الْـ ـفُرَاتِ يَقْرُبُ مِنْهَا لَا يُقَاصِيهَا

صخرة ضرس في الارض كأنها رابضة عنز فأمرنا فقلعناها فخرج لنا من تحتها ماء فشرب الناس وزاد عن حاجتهم ثمّ أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى اذا مضوا قليلاً قال عليه صلوات الله أمنكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه ؟ قالوا نعم يا أمير المؤمنين . قال فانطلقوا اليه فانطلق منا رجال ركباناً ومشاةً فاقتصصنا الطريق اليه حتى انتهينا الى المكان الذي حسبنا أنه فيه فطلبناه فلم نجد للماء أثراً حتى اذا عجزنا انطلقنا الى دير قريب منا فسألناهم أين هذا الماء الذي شربنا منه منذ قليل ؟ قالوا ليس قربنا ماء فقلنا بلى فقد شربنا منه. قالوا أأنتم شربتم منه ؟ قلنا نعم . فقال صاحب الدير مابني ديرنا هذا الا بذلك الماء وما استخرجه الا نبيّ أو وصيّ نبيّ فأكبروا ما سمعوا وعلموا ان الماء خرج لسقيهم بكراماته عليه صلوات الله وعادوا فحدثوا أمير المؤمنين عليه صلوات الله بما كان فحمد الله الذي خصه بكرامته وعنايته حمداً كثيراً

(٢) انّ الرقة بلد صغير على الفرات معروف لا يزال عامراً الى يوم الناس هذا . وكان أهله عند ما انتهى اليه أمير المؤمنين عليه صلوات الله شيعةً لمعاوية وذلك أن سماك بن معاوية الاسدي كان قد ورق سيدنا علي في نحو مئتي رجل من بني أسد وترك الكوفة وجاء الى الرقة ونزلها ودخل في طاعة معاوية ثمّ تبعه أناس من بني أسد فبلغوا السبعماية . فلما وصل أمير المؤمنين الى الرقة امتنع هؤلاء به فأبى سيدنا علي أن يحاربهم ونزل في القرب من الرقة في موضع يسمى البليخ على الفرات أيضاً وجعله معسكراً له

وَجَاءَهُ رَاهِبٌ ثُمَّ .وَأَخْبَرَهُ ... بِمَا تُخَبِّي ٱلنَّصَارَى فِي مَخَابِيهَا(٢)

فَقَالَ أَصْحَابُ عِيسَى سَطَّرَتْ قِدَمًا ... أُسْطُورَةً تُدْهِشُ ٱلدُّنْيَا أَمَالِيهَا

مَحْفُوظَةً قَدْ وَرِثْنَاهَا تُخَبِّرُ عَنْ ... رِسَالَةِ ٱلْمُصْطَفَى خَافِي مَعَانِيهَا

وَعَنْ حُدُوثِ شُرُورٍ بَيْنَ أُمَّتِهِ ... مِنْ بَعْدِ مَوْتَتِهِ صَعْبٌ تَلَافِيهَا

وَعَنْ مُرُورِ تَقِيٍّ مِنْ صَحَابَتِهِ ... عَلَى ٱلْفُرَاتِ ٱلْهُدَى يَعْنِي لِيُفْشِيهَا

وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْهَادِيَ وَدَانَ لَهُ ... لَفَازَ بِٱلْجَنَّةِ ٱلْمَغْبُوطُ ثَاوِيهَا

وَإِنَّ نُصْرَةَ ذَيَّاكَ ٱلتَّقِيِّ لَفَرْ ... ضٌ وَٱلشَّهَادَةُ مَعْهُ ٱللهُ رَاضِيهَا

وَقَالَ لِلْمُرْتَضَى : مَوْلَايَ إِنِّيَ رَا ... غِبٌ بِصُحْبَتِكَ ٱلْعَلْيَا مُوَرِّخُهَا

مَاعِشْتُ أَتْرُكُهَا حَتَّى أُصَابَ بِمَا ... بِهِ تُصَابُ بِحَرْبٍ رُحْتَ تُلْظِيهَا

وَقَوْلَةُ ٱلرَّاهِبِ ٱلتَّقِيْ وَصُحْبَتُهُ ... أَبْكَتْ عَلِيًّا وَأَشْجَتْهُ مَغَازِيهَا

وَقَالَ :أَحْمَدُ رَبِّي فَهُوَ ذَاكِرُنِي ... ذِكْرَى غَدَتْ كُتُبُ ٱلْأَبْرَارِ تَرْوِيهَا

---

(٣) بعد أن نزل سيدنا علي البليخ جاءه راهب من صومعة قريبة منها وقال له عندنا كتاب ورثناه عن آبائنا كتبه أصحاب عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام أتحب أن أعرضه عليك ؟ قال نعم . فقرأ الراهب الكتاب فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، الذي قضى فيما قضى ، وسطر فيما كتب ، أنه باعث في الاميين رسولاً منهم ، يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدلهم على سبيل الله ، لا فظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الاسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح ، أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل نشز ، وفي كل صعود وهبوط ، تذل ألسنتهم بالتكبير والتهليل والتسبيح ، وينصره الله على من ناواه ، فإذا توفاه الله ، اختلفت أمته من بعده ، ثم اجتمعت فلبثت ما شاء الله ، ثم اختلفت ، فيمر رجل من أمته بشاطىء هذا الفرات ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويقضي بالحق ، ولا يركس الحكم ، الدنيا أهون عليه من الرماد ، في يوم عصفت به الريح ، والموت أهون عليه من شرب الماء على الظمآن ، يخاف الله في السر ، وينصح له في العلانية ، لا يخاف في الله لومة لائم ، فمن أدرك ذلك النبي ، من أهل هذه البلاد فآمن به ، كان ثوابه رضواني والجنة ، ومن أدرك ذلك العبد الصالح ، فلينصره ، فإن القتل معه شهادة » اه . وبعد ان تلا الراهب على سيدنا علي الكتاب قال له : وأنا مصاحبك فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك . فبكى عليه صلوات الله ثم قال : الحمد لله الذي لم أكن عنده منسياً ، الحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار . ثم ان الراهب ظل مع سيدنا علي لا يفارقه وكان يتغدى معه ويتعشى حتى أصيب يوم صفين . فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم . قال سيدنا علي : اطلبوا الراهب فطلبوه فإذا هو قتيل . فصلى عليه أمير المؤمنين واستغفر له مراراً وقال : هذا منا أهل البيت . لا جرم ان من أخلص لآل البيت الطاهر فهو منهم ويحشر معهم

مسير معاوية للقاء جيش أمير المؤمنين

قَدْ كَانَ يَقْظَانَ يَسْتَنْبِي مُعَاوِيَةٌ ، حَوَادِثَ المُرْتَضَى يَعْنَى لِيَدْرِيَهَا (١)
وَكَانَ يَرْشُوا الَّذِي يَأْتِي إِلَيْهِ بِهَا مِنَ الجَوَاسِيسِ عُرْبِيهَا وَعُجْمِيهَا
وَكَانَ يَرْجِعُ فِي كُلِّ الأُمُورِ إِلَى عَمْرٍو وَآرَاؤُهُ كَانَتْ تُمَشِّيهَا
وَعِنْدَ مَاشَاعَ فِي أَرْضِ الشَّامِ مَسِيـرُ المُرْتَضَى نَحْوَهَا لِلْفَتْحِ يَبْغِيهَا
نَادَى مُعَاوِيَةٌ عَمْرٌو : سَرَاعٍ إِلَى لِقَائِهِ فِي طَرِيقٍ رَاحَ يَمْشِيهَا
وَلَا تَدَعْهُ يُوَافِي الشَّامَ يَقْرُبُهَا بَلْ لَا تَدَعْهُ بِمَنْ مَعَهُ يُدَانِيهَا
وَسِرْ بِنَفْسِكَ فِي رَأْسِ الجُنُودِ وَلَا تَدَعْ قِيَادَتَهَا كُنْ أَنْتَ رَاعِيهَا
وَلَا تَغِبْ عَنْهُ غَيْبًا بِالمُكَايَدَةِ الـمَنْصُورُ بَيْنَكُمَا تَاللهِ رَاضِيهَا
فَإِنَّ حَيْدَرَةً صَعْبُ المَرَاسِ وَلَا تَهُونُ حَرْبٌ عَوَانٌ هَمَّ يُلْظِيهَا
وَخَافَتِ النَّاسُ مِنْ مَلْقَى أَبِي حَسَنٍ لَمَّا دَرَتْ أَنَّهُ بِالْجَيْشِ آتِيهَا
فَرَاحَ يَخْطُبُ عَمْرٌو فِي المَجَالِسِ كَيْ يَجْلُوَ مَخَاوِفَهَا عَنْهَا وَيُقْصِيهَا

---

(١) كان معاوية منذ جاءه عمرو بن العاص الى دمشق وعاهده على مناوأة سيدنا علي عليه صلوات الله شديد الركون اليه عظيم الثقة به لعلمه أنه أدهى دهاة العرب وكان لا يبرم أمرا دون مشورته ولا يجري عملاً الا باشارته ولم يفت معاوية خطر موقفه في عصيان سيدنا علي عليه صلوات الله ولذلك كان دائم السهر على تفسم أخباره والوقوف على ما يجريه في الكوفة وكان له قوم يتجسسون معسكر الخلافه في الكوفة ويأتونه بصحيح الاخبار طمعاً بهباته .

وعند ما عرف معاوية أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سائر اليه بخيله ورجله وقد خرج من الكوفة فعلاً سقط في يده وأسرع الى عمرو بن العاص يستشيره فقال له هذا : ما دام عليّ سائر اليك بنفسه فعليك أن تسير اليه بنفسك لكي لا يعدم جيشك سداد رأيك ولا عدوّك مكيدتك وعليك أن لا تدعه يصل الى الشام فيحاربك فيها بل اسرع اليه واعترضه في طريقه وحاربه بعيداً عنها . ومن نصيحة عمرو هذه يظهر لنا أن فاتح مصر كان مقدّراً سيدنا أمير المؤمنين حقّ قدره عارفاً أن الانتصار عليه ليس من الهينات وأن محاربته عليه صلوات الله تحتاج الى مكايدة واضلة رويّة . ثمّ أنّ عمراً على ما يظهر كان يدرك حقّ الادراك أن انتصار أمير المؤمنين على معاوية من الامور الممكنة القريبة الوقوع ولذلك أشار على معاوية أن يعترضه بطريقه ويحول دون وصوله الى الشام مقدّراً أنه اذا انتصر على معاوية يستطيع هذا أن يعود بفلول جيشه الى الشام ويعتصم بها حرباً أخرى خلافاً لما لو جرت الحرب في الشام وتمت النصرة لسيدنا علي حينئذٍ يدخل الشام منصوراً كما دخل البصرة ويفسد امر معاوية نهائياً . وفي الأخير نظنّ أنّ اعتماد عمرو بن

فَقَالَ : إِنَّ عَلِيّاً بَاتَ أَضْعَفَ مِنْ   أَنْ يَغْلِبَ ٱلشَّامَ أَوْ يَلْقَى أَهَالِيَهَا
وَإِنَّ أَصْحَابَهُ خَارَتْ عَزَائِمُهَا   وَعَادَ أَهْوَنُ شَيْءٍ أَنْ نُلَاشِيَهَا
وَشَتَّتَ ٱلدَّهْرُ آهَالَ ٱلْعِرَاقِ فَأَمْـــسَتْ يَسْتَحِيلُ وَلَا يُرْجَى تَجَمُّعُهَا
وَأَصْبَحَتْ مَالَهَا مِنْ شَوْكَةٍ وَقُوَى   وَفَلَّتِ ٱلْغِيَرُ ٱلْكُثْرَى مَوَاضِيَهَا
وَغَزْوَةُ ٱلْجَمَلِ ٱلْكُبْرَى مُضَيِّعَةٌ   رِجَالَهَا بَيْنَ كُوفِيهَا وَبَصْرِيهَا
وَإِنَّ حَيْدَرَةً آتٍ بِشِرْذِمَةٍ   قَلِيلَةٍ إِنَّنَا لَاشَــكَّ نُرْدِيهَا
يَانَاسُ ثَارَاتُ عُثْمَانَ لَنَطْلُبُهَا   وَمَا ٱلتَّقِيُّ أَخُو ٱلْإِيمَانِ نَاسِيهَا
أَللّٰهُ أَللّٰهُ فِي صَوْنِ ٱلْحُقُوقِ فَلَا   تُضَاعُ مِنَّا وَمَا كُنَّا مُضِيعِيهَا
وَفِي دِمَائِكُمْ مِنْ أَنْ تُطَلَّ سُدَىً   أَوْ أَنْ تَنَامُوا عَلَى عُدْوَى مُطِلِّيهَا
بِمِثْلِ ذَا كَانَ عَمْرٌو يَسْتَثِيرُ نُفُو   سَ ٱلنَّاسِ يَدْفَعُهَا لِلْحَرْبِ يُغْرِيهَا
حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ تِلْكَ ٱلْجُمُوعُ لَدَيْــــهِ سَاقَهَا لِلْوَغَى ظُلْماً مُعَاوِيهَا
وَكَانَ يَصْحَبُهَا عَمْرٌو فَجَازَ بِهَا   حَمَاةَ مَعْ حَلَبٍ مَعْماً يُتَالِيهَا
حَتَّى ٱنْتَهَتْ وَأَنَاخَتْ فِي ٱلْفُرَاتِ عَلَى   ضِفَافِهِ وَتَدَانَتْ مِنْ أَعَادِيهَا

العاص في هـذه الحرب قد كان بالاكثر على المكايدة لعلمه أنَّ أمير المؤمنين بعيدٌ من الكيد يتحاشي الختل والخديعة لما عرف عن صحة دينه وصدقه في عبادته أما عمرو ومعاوية فكانا لا يتحاشيان كل عمل يفضي الى النصر . ولقد أصغي معاوية الى نصيحه عمرو وأقرَّ على المسير مع جيشه يقوده بنفسه

أما أهل الشام فلم يدع بينهم نبأ سير سيدنا علي لمحاربتهم حتى تولاهم الفرق لما سمعوه من صحابة المصطفى وأنصاره عن مواقفه العظيمة في الغزوات النبوية حتى كان يجول على ألسنتهم قول جبريل من السماء له « لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي » وكانوا يضربون بشجاعته الأمثال وأزادهم فرقاً من بطشه ماسمعوه من الائه بأصحاب الجمل من أفواه الذين نجوا بأنفسهم وقصدوا الشام . وفوق هذا كانوا يرهبون أهل العراق لما اشتهر عنهم من البسالة في حروبهم . ولذلك خارت عزائمهم وصاروا لا يخفون مخاوفهم فهمَّ هذا معاوية وعمرو بن العاص فأخذ عمرو على عاتقه تبديد ما تسطى على نفوس أهل الشام من الخوف فطفق يخطب في مجالسهم فيقول انَّ علياً أمسى بغير حول ولا طول وانَّ اصحابه تولاهم الخور وتفرقت كلمتهم وانَّ أهل العراق قد تفرَّق جمعهم ووهنت شوكتهم وفلَّ حدُّهم وأنَّ أهل البصرة مخالفون لعلي بعد ان قتل منهم الخلق الكثير وقد فنت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل وانما سار علي في شرذمة قليلة سهل لقاؤه قريب خذله والانتصار عليها . وكان يتبع هذا الهذيان في تضعيف سيدنا علي والاستهانة بحملته باستثارة حميتهم ونخوتهم بذكر مقتل عثمان فيقول : وقد قتل خليفتكم والله الله في حقكم أن تضيعوه وفي دمكم أن تطلّوه . وهكذا نجح

موضع موقعة صفين وتاريخها

وَفِي ٱلْفُرَاتِ ٱلْتَقَى ٱلْقَوْمَانِ وَٱصْطَدَمَا ‌ ‌ وَٱلْحَرْبُ بَيْنَهُمَا فَحَتْ أَفَاعِيهَا (١)
فِي فَجْوَةٍ بِٱسْمِ صِفِّينٍ لَقَدْ عُرِفَتْ ‌ ‌ بِٱلْقُرْبِ مِنْ رِقَّةٍ أَوْ مَا يُنَاجِيهَا
وَإِنْ هِيَ ٱنْدَرَسَتْ مَازَالَ ذَاكِرُهَا ‌ ‌ يَبْكِي ٱلدِّمَاءَ ٱلَّتِي رَوَّتْ أَرَاضِيهَا
وَأُمَّةُ ٱلْمُصْطَفَى ٱلشَّنْآنُ فَرَّقَهَا ‌ ‌ حَتَّى تَعَادَى عُرَاقِيهَا وَشَامِيهَا
وَكَانَ مَهْبَطُهَا لِلْحَرْبِ حِجَّةَ سِتٍّ وَٱلثَّلَاثِينَ فِي تَارِيخِ هِجْرَتِهَا

ابتداء موقعة صفين

وَأَمَرَ ٱلْمُرْتَضَى أَنْ لَا تُبَادَأَ أَعْـدَاهُ ٱلْعِدَا قَبْلَ أَنْ تُبْدِيَ تَعَدِّيهَا (٢)

هذا الداهية عمرو بن العاص من جمع أهل الشام وتبديد الخوف من نفوسهم فعادوا واجتمعوا حول معاوية فسار بهم مجتازاً حماة لحلب حتى بلغ الفرات فعسكر على ضفافه بالقرب عن معسكر سيدنا علي عليه صلوات الله في موضع الرقة بقرب صفين

(١) وجرت الموقعة بين سيدنا علي ومعاوية في موضع يسمى صفين على الفرات وهذا الموضع قريب من بلد «الرقة» أو من قرية «جرابلس» وهي قريبة من الرقة على ان هذا الموضع لم يعرف الا بهذه الموقعة المحزنة ولم يكن معروفاً قبلها ولا صار له شأن بعدها . وقد يكون اسم صفين مشتق من صفن الرجل أي صف قدميه فكأنهم يريدون الموضع الذي صفت فيه اقدام الرجال أو ربما أخذوا هذا الاسم من صافن القوم الماء أي اقتسموه بالحصص لان بدء موقعة صفين كانت على الماء اذ منع رجال معاوية رجال علي من الاستقاء فضربوهم وغلبوهم حتى اذا ما تغلبوا على الماء أمر سيدنا علي ان يسمحوا لرجال معاوية المغلوبين ان يستقوا كرماً منه وفضلاً . هذا اذا اعتبرنا ان اسم صفين وضعه المسلمون في اثناء تلك الموقعة أو بعدها اما اذا كان هذا الاسم قد اطلق على ذلك الموضع قبل الموقعة فقد تكون تسميته مشتقة من صافن على تقدير أن الناس كانوا يستقون منه بالمحاصة أو قد يكون هذا الاسم محرفاً عن السريانية أو الفارسية لان قبل الاسلام كانت هاتيك الاطراف في حكم السريان فالفرس والله أعلم

وقد اطلق القوم على هذه الموقعة اسم هذا الموضع فعرفت بموقعة صفين كما عرفت موقعة سيدنا علي مع عائشة والزبير وطلحة في البصرة باسم موقعة الجمل نسبة الى الجمل الذي كان يحمل هودج عائشة وقد تفانى الناس من حوله

اما تاريخ موقعة صفين فقد كان ابتداؤها في اواخر ذي الحجة سنة ٣٦ ﻫ وفي محرم سنة ٣٧ تهادن القوم لانه شهر حرام وعادت الحرب فاشتدت ثانية في شهر صفر سنة ٣٧ على ما سترى

(٢) عند ما اصبح جيشا سيدنا علي ومعاوية متجاورين على ساحل الفرات اخذا يتحفزان للقتال . واول ما كان من أمرهما ان أبا الاعور السلمي وكان على مقدمة جيش معاوية اخذ يناوش مقدمة الجيش العلوي فكان ثمّ قتال غير ذي شأن وكان على مقدمة جيش سيدنا علي الاشتر النخعي

وَكَانَ يَرْغَبُ فِي عَوْدِ ٱلسَّلَامِ إِلَى ... أَهْلِ ٱلْحَنِيفَةِ مَعْ مَاضِي تَآخِيهَا

وَكَانَ فَاتِحَةَ ٱلنِّيضَالِ مَنْعُ رِجَا ... لِ ٱلشَّامِ عَنْ صَحْبِهِ ٱلْأَمْوَاهَ تَسْقِيهَا

فَقَاتَلَتْهَا وَفَازَتْ بِٱلْمِيَاهِ فَنَا ... دَى ٱلْمُرْتَضَى فَٱتْرُكُوا وِرْداً لِظَامِيهَا

أَبْدَى بِذَٰلِكَ مِنْ فَيَّاضِ رَحْمَتِهِ ... عَلَى أَعَادِيهِ مَا يَكْفِي لِيَهْدِيهَا

وَرَامَ مِنْ فَوْقِ ذَا حَقْنَ ٱلدِّمَا وَرَعاً ... بِدَعْوَةٍ رَاحَ لِلتَّوْفِيقِ دَاعِيهَا

وَأَرْسَلَ ٱلرُّسْلَ لِلْأَعْدَاءِ تَنْشُدُهَا ... لِلسِّلْمِ كَانَ بِذَا فَضْلاً مُوَافِيهَا

فَلَمْ يُفِدْ سَعْيُهَا سِلْماً وَقَدْ رَجَعَتْ ... إِلَى أَبِي حَسَنٍ تَنْعِي مَسَاعِيهَا

فَلَمْ يَعُدْ غَيْرُ تَحْكِيمِ ٱلسُّيُوفِ فَخَا ... رَ ٱللهَ حَيْدَرَةٌ فِي شَهْرِ مَاضِيهَا

على انّ ابا الاعور بعد ان كرّر مناوشاته ليعجم عود الجيش العلوي عاد الى معسكر معاوية العام وفي عوده استولى على «قناصرين» وهو الموضع الذي كان يستقي منه الجيشان الماء فلما بلغ ذلك الاشتر هجم على أبي الاعور باربعة آلاف مقاتل واجلاه عن الماء فما كان من معاوية الا ان هجم بقضه وقضيضه على الاشتر فهيبه وانسحب الى معسكر سيدنا علي تاركاً الماء لمعاوية فمنع هذا الورد عن الجيش العلوي . اما سيدنا علي عليه صلوات الله فلما رجع اليه الاشتر ينبئه بتغلب معاوية على الماء اقدم بجيشه الجرار وكان يربو على مئة الف مقاتل الى موضع صفين وتقدمت طلائع هذا الجيش العظيم من جيش معاوية واخذت ترميه بنبالها فلقيها جيش معاوية بالمثل واشتبك القتال هوياً وانتهى بانتصار العلويين على أهل الشام فاستولوا على الشريعة وقال قائلهم انا نعامل اعداءنا بما عاملونا به فنمنعهم الماء وعرضوا ذلك على سيدنا امير المؤمنين فقال « خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا الى معسكركم ، وخلوا بين أهل الشام وبين الماء ، فانّ الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم» فترك العلويون حسب أمر خليفتهم عليه صلوات الله الماء حراً فصار العراقيون والشاميون يستقون منه أحراراً ولا يؤذي احدهم صاحبه وكانت تلك منةً من أمير المؤمنين أبي معاوية وعمرو بن العاص ان يعترف بها ويعرف لصنو المصطفى واخيه فضله وعطفه . على انّ المرتضى عليه صلوات الله مالبث بعد هذا ان اعلن بين اصحابه « لقد خلينا الماء لاهل الشام ، لاننا لا نفعل فعل الجاهلية ، وسنعرض عليهم كتاب الله ، وندعوهم الى الهدى ، فان أجابوا والاّ ففي حدّ السيف مايغني ، ان شاء الله » كذلك كان يرمي سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله الى الساعة الاخيرة الى تلافي الشرّ بالتي هي احسن وبالفعل كتب الى معاوية الكتاب التالي :

« من عبد الله علي أمير المؤمنين الى معاوية ومن قبله من قريش ، سلام عليكم ، واني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، أما بعد ، فانّ لله عباداً آمنوا بالتنزيل ، وعرفوا التأويل ، وفقهوا في الدين ، وبين الله فضلهم في القرآن الحكيم ، وأنتم في ذلك الزمان ، أعداء للرسول ، تكذبون بالكتاب ، مجمعون على محاربة المسلمين ، من ثقفتم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه ، حتى أراد الله تعالى اعزاز دينه ، واظهار أمره ، فدخلت العرب في الدين افواجاً ، واسلمت له هذه الامة طوعاً وكرهاً ، فكنتم ممن دخل في هذا الدين ، اما رغبةً ، واما رهبةً ، على حين

كَذَاكَ سُلَّتْ سُيُوفُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنَ ٱلْأَغْمَادِ وَٱنْجَلَتِ ٱلْفُرْسَانُ تُنْضِيهَا
وَثَارَتِ ٱلْحَرْبُ تَفْنِي ٱلْمُؤْمِنِينَ عَوَا دِيهَا فَوَيْلٌ لِمَنْ كَانُوا مُثِيرِيهَا
فِي شَهْرِ حِجَّةَ قَدْ كَانَتْ مَوَاقِعُهَا ٱلْـــشَّعْوَا سِجَالاً فَفَشَّتْهُ دَوَاهِيهَا
فَلَمْ تَكُنْ نُصْرَةٌ تُنْهِي ٱلْمَجِيعَةَ أَوْ رَأْيٌ سَدِيدٌ لِأَهْلِ ٱلْخَيْرِ يُنْهِيهَا

هدنة محرم سنة ٣٧ هجرية

وَلَا يَجُوزُ لَدَى ٱلْعُرْبِ ٱلْقِتَالُ بِأَشْــــهُرِ ٱلْحَرَامِ فَتَأْبَى خَوْضَهُ فِيهَا(١)

فاز أهل السبق بسبقهم ، وفاز المهاجرون الاولون بفضلهم ، ولا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين ، ولا فضائلهم في الاسلام ، أن ينازعهم الامر الذي هم أهله واولى به ، فيحارب ويظلم ، ولا ينبغي لمن كان له عقل ، أن يجهل قدره ، ويعدو طوره ، ويشقي نفسه بالتماس ما ليس بأهله ، فانَّ أولى الناس بأمر هذه الامة قديماً وحديثاً ، أقربها من الرسول ، وأعلمها بالكتاب ، وأفقهها في الدين ، أولهم اسلاماً ، وافضلهم جهاداً ، واشدَّهم بما تحمله الائمة من أمر الامة اضطلاعاً ، فاتقوا الله الذي اليه ترجعون ، ولا تلبسوا الحقَّ بالباطل ، وتكتموا الحقَّ وانتم تعلمون ، واعلموا انَّ خيار عباد الله ، هم الذين يعملون بما يعلمون ، وانَّ شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم ، فانَّ للعالم بعلمه فضلاً ، انَّ الجاهل لا يزداد بمنازعته العالم الاَّ جهلاً ، ألا واني ادعوكم الى كتاب الله ، وسنة نبيه ، وحقن دماء هذه الامة ، فان قبلتم اصبتم رشدكم ،واهتديتم لحظكم ، وان ابيتم الا الفرقة ، وشقَّ عصا هذه الامة ، لم تزدادوا من الله الا بعداً ، ولا يزداد الربُّ الا سخطاً ، والسلام » اه

سار رسول أمير المؤمنين سيده علي بن أبي طالب بهذا الكتاب وفيه ما فيه من الصراحة التي يوجبها الاسلام وتقضي بها الحكمة ويدعو اليها صاحب السلام حتى اذا ما دفعه الى معاوية بن أبي سفيان تلاه هذا مثنى وثلاث واستدعى عمراً بن العاص واطلعه عليه فما اثرت نصائحه ومواعظه على عواطفهما ولا ثناهما عن عزمهما واقرَّا على مجاوبته ببيت واحد من الشعر وهو

ليس بيني وبين قيس عتابٌ غير طعن الكلى وضرب الرقاب

فلما عاد رسول أمير المؤمنين اليه بهذا الجواب الجاف المشير الى تصميم اعدائه على حربه استعاذ بالله واسترجع وتألم لما سيصيب المسلمين وتوجع وتلا آية « لا تهدِ من احببت، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » وامر الناس ان يتهيأوا للمسير الى القتال فاطاعوا فرَّ بهم على الفرات وسبقته مقدمته الى لقاء مقدمة أهل الشام وابتدأ القتال بين القومين وكان أهل الشام البادئين لان سيدنا علي أمر مقدمته ان لا تبادىء القوم القتال وكان قتالهم تراميـاً بالسهام فطعناً بالرماح فتضارباً بالسيوف ويتخلل ذلك مبارزات بين الابطال وقضوا في ذلك ما بقي من شهر ذي الحجة سنة ٣٦ وكان القتال بينهما سجالاً لم يسفر عن فصل لاحد الفريقين

(١) كان بدء القتال في صفين في اواخر ذي الحجة وهو كما تعلم من الاشهر الحرم المحرَّم فيها القتال ولكن معاوية واصحابه لم يعبأوا بالتحريم فابتدأوا فيه الحرب وما كان لاصحاب سيدنا علي

كَانَتْ تُحَرِّمُهُ كَيْمَا تَجِيُّ إِلَى ... أُمِّ ٱلْقُرَى وَفُرُوضُ ٱلْحَجِّ تَقْضِيهَا
كَذَا ٱلشَّرِيعَةُ قَدْ نَصَّتْ بِحُرْمَتِهِ ... بِمُنْزَلِ ٱلْآيِ فِي أَجْلَى نَوَاهِيهَا
لَكِنْ مُعَاوِيَةٌ مَا كَانَ يَعْبَأُ بِٱلْـــنُّصُوصِ بَلْ كَانَ بِٱلتَّأْوِيلِ يَلْوِيهَا
بَادَا بِذِي ٱلْحِجَّةِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ رِجَا ... لَ ٱلْمُرْتَضَى ٱلْحَرْبَ فِي صِفِّينَ تَجْرِيهَا
فَقَابَلَتْهُ دِفَاعًا وَهْيَ مُكْرَهَةٌ ... عَنْ نَفْسِهَا وَبِهَا لَاقَتْ مُبَادِيهَا

عليه صلوات الله الا الدفاع عن انفسهم فتلقوا ضرباتهم بمثلها والشرّ بالشرّ والبادي أظلم على ان الحرب كانت سجالاً فلما انسلخ ذوالحجة ودخل محرّم نادى سيدنا علي بتوقيف القتال على امل تهو المشكلة بالصلح بعدان ظهرت قواته الكبرى امام معاوية بأعظم مظاهرها واوفى له رسله في ذلك فكان جوابه واحداً « وهو أن يسلم له قتلة عثمان ليقتلهم به ويترك الامر شورى » وهكذا انتهى شهر محرّم بطوله والرسل تغدو وتروح بين معاوية وأمير المؤمنين على غير جدوى لانّ معاوية كان مصراً على رفض الطاعة لامير المؤمنين ويطمع اذا تخلى عن الخلافة ان ينال بدهائه بيعة المسلمين وعرف الناس بعد ذلك انّ لا بدّ من استئناف القتال ليحكم السيف في هذا الخصام

« الاشهر الحرم »

ذكرنا في حاشية سبقت عناية العرب بالحجّ الى البيت الحرام منذ الجاهلية واذ كانت معيشة العرب وقتئذ على الغزو والحرب وكان بعضهم اعداء لبعض راوا بضرورة الحال ضرورة تحريم القتال في زمن الحج حتى لاتتعطل الناس عنه وهو فرض دينيّ عند جميعهم فحرموا الشهر الذي يكون فيه الحجّ وهو ذو الحجة والشهر الذي يسير فيه الناس الى الحجّ وهو ذو القعدة والشهر الذي يعودون فيه الى منازلهم وبلادهم وهو محرّم ليكون الحجاج آمنين في هذه الاشهر الثلاثة على نفوسهم عند قضاء الفريضة وعلى منازلهم وبلادهم اذا تركوها للحج وهذه الاشهر الثلاث الحرم من أسمائها ما يدلّ على هذا التحريم فأشاروا بذي القعدة الى قعود الناس عن الحرب وبذي الحجة الى انه الشهر الذي تقام فيه فريضة الحج وبمحرّم الى انه الشهر الذي يحترم فيه الناس بعضهم بعضاً فيحرمون فيه القتال . وكان العرب ايضاً يحرّمون شهر رجب فيسمونه الاصمّ أي الذي لايسمع فيه صوت قرقعة سلاح أو أنّة جريح أو حشرجة قتيل . والسبب في تحريم هذا الشهر هو لانهم كانوا يرصدونه لابتياع حوائجهم والقيام بشؤونهم الخاصة قبل مسيرهم الى الحجّ

والناس في اختلاف في تعيين هذا الشهر فكانت مضر تعرفه بالشهر الذي يتقدم شعبان اما ربيعة فكانت تعتبر رمضان رجباً وتحرّم فيه القتال لذلك يقولون رجب مضر ورجب ربيعة لتبيين وقت كلّ منهما . ويطلق العرب كلمة الفرد على رجب اشارة لعزلته عن الاشهر الحرم الاخرى . وربما كانوا يستعملون رجب لقضاء العمرة ويسمونها الحج الاصغر أو الحج الرجبي

ومعنى تحريم هذه الاشهر عند العرب انهم كانوا يحترمونها ويلقون السلاح فيها ويتركون الغزو الذي كانت عليه معايشهم . وكانت هذه الشهور هدنة عامة عند العرب جميعهم حتى لايحول القتال دون قضاء فريضة الحج . وكانوا يستقبحون الحروب الاربعة التي ثارت فيها فسموها بالفجار (بكسر الفاء) اشارة الى ان الذين حاربوا فيها قد فجروا وفسقوا وداسوا واميس القوم وقد قال في ذلك شاعرهم خداش بن زهير العامري

وَٱلْإِثْمُ فِيمَا يُحِلُّ ٱلْمُحَرَّمَاتِ بِلَا ... شَكٍّ عَلَى هَامِ مَنْ رَاحُوا مُحِلِّيهَا
وَفِي ٱلْمُحَرَّمِ نُودِيْ بِٱلْمُوَادَعَةِ ٱلْـ ... ـحُسْنَى فَكَانَتْ كَمَا نَادَى مُنَادِيهَا
وَعَادَتِ ٱلنَّاسُ وَٱلتَّحْرِيمُ مُمْسِكُهَا ... عَنِ ٱلْقِتَالِ إِلَى ضَافِي مَآوِيهَا
وَبَادَرَ ٱلْمُرْتَضَى حِلْمَاً مُعَاوِيَةً ... بِدَعْوَةِ ٱلسِّلْمِ وَافَاهُ يُثَنِّيهَا
أَوْفَى بِهَا رُسْلَهُ حُبّاً بِحَقْنِ دِمَا ... ءِ ٱلْمُسْلِمِينَ فَمَا أَلْفَتْهُ مُصْغِيهَا

فلا توعدني بالفجار فانه ... أحلّ ببطحاء الحجون المخازيا

وقد اقرّ الاسلام الحرمة في الاشهر الحرُم على اثر ماحدث في سرية عبد الله بن جحش الى نخلة وقد اشرنا اليها في حاشية سبقت فان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعث عبد الله هذا الى نخلة واعطاه كتاباً وأمره ان لايفتحه الا بعد مسيرة يومين فلما فتحه وجد فيه « امضِ حتى تنزل بنخلة فأتنا من اخبار قريش بما اتصل اليك منهم » فسار باصحابه وكانوا ثمانية حتى نزلوا « نخلة » فمرّ بهم عمرو بن الحضرمي بنفرٍ من قريش ومعهم تجارة وكان ذلك في آخر يوم من شهر رجب الاصم فقتلوا ابن الحضرمي واسروا رجلاً من قومه وساقوا العير الى المدينة فانكر رسول الله على عبد الله فعلته وقال « والله ما امرتكم بقتال في الشهر الحرام » ولما بلغ قريشاً فعلة عبدالله في الشهر الحرام استقبحوها هم ايضاً واقبل قوم منهم على المصطفى محتجين قائلين « أيحلُّ القتال في الشهر الحرام ؟ ؟ » فنزلت حينئذٍ آية « يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله » ثمّ نزل بعدذلك قوله تعالى « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وهكذا ايدالله تحريم القتال في الاشهر الحرم فلا يحارب فيها المسلمون الاّ مدافعين لقوله تعالى: الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم

« تحريم النسيء »

وكانت العرب تنسيء الشهور أي تؤخرها فتحلّ القتال في شهرٍ حرامٍ وتحرّمه في شهرٍ ثانٍ وقد اختلف الباحثون في فهم هذا التأخير الذي نزلت فيه آية التحريم فقال بعضهم ان العرب كانوا يؤخرون سنتهم كل اربع سنوات شهراً ليوفقوا بين الدورة القمرية والدورة الشمسية رغبةً منهم في جعل موسم الحج في زمنٍ ثابتٍ . وقال آخرون بل هو تلاعب منهم يريدون به أن يحلوا الحرم حتى لاتمرّ عليهم ثلاثة أشهر متتالية وهم ممتنعون عن القتال الذي كان عليه مدار تعيشهم . وكان يتولى منهم النسيء قوم من بني كنانة يطلق عليهم اسم « النسائين » أو « القلامس » فكان يقوم احد هؤلاء اذا صدر الحجاج من منى فيقول : « انا الذي لا أعاب ولا أخاب ولا يردُّ لي قضاء » فيقول الناس : صدقت أنسئنا شهراً فيحلّ لهم المحرم ويحرّم عليهم صفر من السنة التالية وكان هؤلاء يفتخرون بهذا الحق وقال فيه شاعرهم عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفتخر بالنسأة على العرب

لقد علمت معدٌّ انّ قومي ... كرامُ الناس انّ لهم كراما
فأيُّ الناس فاتونا بوترٍ ... وايُّ الناس لم نعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معدٍّ ... شهورَ الحلّ نجعلها حراما

مَرَّ ٱلْمُحَرَّمُ فِي تِلْكَ ٱلْمُسَاوَمَةِ ٱلْمَحْمُودُ رَاغِبُهَا ٱلْمَذْمُومُ آبِيهَا
وَٱلنَّاسُ قَدْ سَئِمَتْ طُولَ ٱلْجِدَالِ بِلَا جَدْوَى وَعَادَتْ إِلَى مَاضِي تَجَالِيهَا
وَهٰكَذَا ضَاعَتِ ٱلْآمَالُ ثَانِيَةً بِٱلصُّلْحِ وَٱلسِّلْمِ مَا أَشْقَى مُضِيعِيهَا

عودة الحرب في صفر

وَحَرْبُ صِفِّينَ فِي أَهْوَالِهَا ٱسْتَعَرَتْ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْإِعْنَاتُ يُورِيهَا(١)
كَانَتْ بِدَايَتُهَا مُنْذُ ٱبْتِدَا صَفَرٍ بَيْنَ ٱلْقَبِيلَيْنِ فِي تَالِي تَلَظِّيهَا

والذي نراه ان النسيء لم يكن عملية حسابية يريدون بها جعل الحج في زمن ثابت كما ذهب بعضهم ولو كانت كذلك لوجب ان يزاد شهر في كل سنة رابعة يستغرق تقريباً الفرق بين الدورتين الشمسية والقمرية كما يفعل اليهود في شهورهم فهم يماشون القمر ويحسبون دورته شهراً ولكنهم في كل سنة رابعة يزيدون على شهورها شهراً فتكون ثلاثة عشر شهراً ويسمونه آداراً ثانياً فيكون فيها آداران لا آدار واحد فلو صح زعم هؤلاء لكان من الواجب ان يكون للعرب شهر مزاد في كل سنة رابعة يسمونه محرماً ثانياً لا أن يؤخروا تحريم محرم الى صفر كما كانوا يفعلون . ومما يؤيد رأينا هذا آية تحريم النسيء وهي « انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله » ومن هذه الآية الكريمة يظهر سبب النسيء بكل صراحة وهو تحليل ما حرمه الله من القتال في الشهر الحرام فقال سبحانه وتعالى انه زيادة في الكفر وحاشا لله سبحانه وتعالى ان يجعل من الكفر رغبة قوم ارادوا جعل الحج في زمن ثابت لو ارادوه والله سبحانه أعلم

(١) لما فشلت المساعي السلمية التي بذلها سيدنا علي أمير المؤمنين عليه صلوات الله وكانت عن محض حلم ودافع تقوى في فرصة موادعة المحرم لم يبق فرار من استئناف القتال فنصرف ليلة أول صفر كل من الفريقين يتحفز للقتال ويستعد له جهده

أما سيدنا أمير المؤمنين فقد اصبح ودعا بالصلاة الجامعة فجتمع الناس فصلى بهم وبعد ان انهت الصلاة ناداهم قائلاً : « أيها الناس ، لا تقاتلوا الاعداء حتى يقاتلوكم ، فأنتم بحمد الله على حجة ، وتركـكم قتالهم حجة أخرى ، فاذا هزمتموهم ، فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، واذا وصلتم الى رحال القوم ، فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ، ولا تهيجوا امرأة ، وان شتمت نساؤهم اعراضكم ، وسبين امراءكم وصلحاءكم ، فنهن ضعاف القوى والانفس ، عباد الله ، اتقوا الله ، وغضوا الابصار ، واخفضوا الاصوات ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمناضلة والمعانقة والمكادمة والملازمة ، فثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين » ثم رفع أمير المؤمنين يديه الى السماء ودعا فقال : « اللهم الهمهم الصبر ، وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر » ثم انه عليه صلوات الله جعل الاشتر على خيل الكوفة . وسهل بن حنيف على جند البصرة . وعمار بن ياسر على رجال الكوفة . وقيس بن سعد

وَلَمْ تَكُنْ حَرْبُهَا إِلاَّ مُنَاوَشَةً ... مَا بَيْنَ بَعْضِ الأَعَادِي دُونَ بَاقِيهَا
ثُمَّ مُبَارَزَةً بَيْنَ الْمُقَاتِلَةِ الأَ ... م بِطَالِ مَا أَنْتَجَتْ نَصْراً مَقَارِبُهَا
وَفِي مَسَا سَابِعِ الأَيَّامِ وَافَى أَمِيـ ... ـرُ الْمُؤْمِنِينَ رَعَايَاهُ يُمَسِّيهَا
وَقَالَ: أَحْمَدُ رَبَّ النَّاسِ وَهُوَ بِهَا ... أَدْرَى وَرَغْبَتُهُ الْعُلْيَا لِيُمْضِيَهَا
فَلَيْسَ يُبْرَمُ مَا قَدْ كَانَ نَاقِضَهُ ... مِنَ الشُّؤُونِ الَّتِي الدُّنْيَا تُلاَقِيهَا
وَلَيْسَ يُنْقَضُ مَا قَدْ كَانَ مُبْرِمَهُ ... مِنَ الأُمُورِ الَّتِي قَدْ شَاءَ يُجْرِيهَا
لَوْ شَاءَ مَا اثْنَانِ فِي دُنْيَاهُمَا اخْتَلَفَا ... وَلاَ شَكَتْ أُمَّةٌ مُؤْذِي تَجَزِّيهَا
وَلاَ تَحَدَّى أَخَا فَضْلٍ وَمَكْرُمَةٍ ... مَفْضُولُهُ جَاحِدَ الآلاَءِ نَاسِيهَا

على رجالة البصرة . وسلم راية الحرب الى هاشم بن عتبة المرقال . وجعل على قرآء الكوفة والبصرة مسعر بن فدكي .

وأما معاوية بن أبي سفيان فاصبح فجمع أصحابه وانصاره فصلى بهم ثمَّ انه جعل على ميمنته ابن ذي الكلاع الحميري. وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري . وعلى مقدمته أبا الاعور السلمي وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص . وعلى رجالة دمشق مسلم بن عقبة المري . وعلى الناس كلهم الضحاك بن قيس

واذ كان رجال سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله قد أمروا أن لا يبادئوا أعداءهم القتال ظلوا في معسكرهم متحفزين للقاء اعدائهم لو هم هاجموهم على أن أهل الشام ما تأخروا عن الابتداء بالقتال فبايع رجال منهم على الموت وعقلوا انفسهم بعمائمهم فكانوا خمسة صفوف وهاجوا معسكر أمير المؤمنين في صبيحة أول صفر الخير وكانوا بقيادة حبيب بن مسلمة فخرجت للقائهم طائفة من رجال الخلافة من أهل الكوفة بقيادة الاشتر واشتبكوا بالقتال يومهم بطوله وكان القتال شديداً ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض

وفي صباح يوم ٢ صفر خرج لقتال أبو الاعور السلمي بطائفة من أهل الشام فخرج للقائهم هاشم بن عتبة بطائفة من جنود الخلافة وقتلوا معظم يومهم ثمَّ تفرقوا وكانت الحرب سجالا بينهم فيها نصر لاحد الفريقين

وفي صباح يوم ٣ صفر الخير خرج عمار بن ياسر بطائفة من جنود الخلافة فخرج للقائه عمرو بن العاص بطائفة من أهل الشام فلما رأى عمار عمراً خارجاً لقتاله نادى بمن معه قائلاً « يا أهل العراق أتريدون أن تنظروا الى من عادى الله ورسوله وجاهدهما ، وبغى على المسلمين ، وظاهر المشركين ، فلما رأى الله يعزّ دينه ، ويظهر رسوله ، أتى النبيَّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، وهو فيما نرى راهب غير راغب ، ثمَّ قبض النبيُّ ، فما زال والله بعده معروفاً بعداوة المسلم ، واتباع المجرم ، فدونكموه فاثبتوا له وقاتلوه » ثم مال عمار لزياد بن النضر وهو على الخيل وقال له : أحمل على أهل الشام . فحمل زياد وقاتله الناس وصبروا له . فحمل عمار فزال عمراً بن العاص عن موضعه . ثمَّ انَّ زياداً بارز عمراً بن معاوية من بني المنتفق وكان أخاه من أمه فلما التقيا تعارفا فانصرف كلٌّ منهما عن صاحبه

وهُوَذا غيرُ الأقدارِ تدفعُنا ... معَ العِدَى لِمَهاوٍ لا نُحاشِيها

وَنَحنُ مِن رَبِّنا الوافي الجَلالِ بمَسْمَعٍ ... وَمَرأى أمانيهِ نُجارِيها

فلوْ يَشا النِّقمةَ الكُبرى لَعجَّلَها ... وكانَ عَن رَحمةٍ بالنَّاسِ مُرجِيها

وكانَ مِن فَضلِهِ التَّغييرُ يُحدِثُهُ ... في المُعضِلاتِ الَّتي تدجُو دَياجِيها

حتَّى يَرى الظَّالمُ الكذَّابُ كِذبَتَهُ ... لاحتْ لَدى النَّاسِ مَهما شاءَ يُكمِيها

وإنَّما الحقُّ حقٌّ لا يَضيعُ ولَوْ ... في أُمَّةٍ أصبحتْ تَهوَى التَّرائيها

واللهُ قَدْ جعلَ الدُّنيا دِيارَةَ أعْـ ... ـمالٍ يَفوزُ الأُلى قدْ أحسَنوا فِيها

نَعَمْ وقدْ جعلَ الأُخرى دِيارَ قرا ... رٍ نَحنُ نَغبطُ فِيها مُستَثيبِيها

إنَّ النُّفوسَ الَّتي قدْ أحسنَتْ فلَها الـ ... ـحُسنى جَزاءً وفاقَ مِن مُجازِيها

وإنْ أساءتْ لَها السُّوءى جزاءً مَسا ... وِيها الَّتي خالِقُ الأكوانِ مُحصِيها

ألا وإنَّكُمُ لاقُو عِداتِكُمُ ... غداً وخيرُكُمُ تَقوى مُغادِيها

وتراجع الناس ولم يكن ثمة فصل في الحرب

وفي صباح يوم ٤ صفر الخير خرج محمد بن سيدنا علي (ابن الحنفية) بطائفة من رجال الخلافة فخرج للقائه عبيدالله بن عمر بطائفة من أهل الشام (وكان هذا من رجال معاوية وسبب انضوائه الى معاوية هو انه كان ناقماً على سيدنا علي عليه صلوات الله لانه عندما قتل الدين اتهموا بمقتل أبيه عمر بن الخطاب طلب سيدنا علي من عثمان أن يجري عليه الحد على ما تقدمت الاشارة الى ذلك في حاشية سابقة) واشتبك الفريقان وكانا عظيمين بقتال هائل مخيف كثر فيه القتلى والجرحى على غير جدوى فطلب عبيدالله محمداً الى المبارزة فسرع اليه فلما رأى سيدنا علي عليه صلوات الله تقدم ابنه محمد لمبارزة عبيدالله بن عمر أسرع على جواده فرد ابنه وتقدم للمبارزة عوضاً عنه فخاف عبيدالله من بطش سيدنا أمير المؤمنين وفر من وجهه وهكذا انتهى القتال في ذلك اليوم

وفي صباح يوم ٥ صفر الخير خرج عبدالله بن عباس بطائفة من جنود الخلافة فخرج اليه بعض أهل الشام بزعامة الوليد بن عقبة واستمر القتال وعم الويل وفي اثناء الحرب تقدم الوليد من عبدالله بن عباس وسبه وسب معه بني عبد المطلب فغضب عبد الله غضبة هاشمية وطلبه للبراز فجبن الوليد عن لقائه شأن الجبان الذي يطلق لسانه بالسب ويضن بجسمه عن الضرب وانصرف من امامه فازداد غضبه وهاجم جمع الشام واعمل بهم سيفه وهو غضب لبني أبيه فأبلى فيهم بلاء عظيماً

وفي صباح يوم ٦ صفر الخير هجم من جيش أمير المؤمنين قيس بن سعد الانصاري بطائفة من المقاتلة فلقيه ابن ذي الكلاع الحميري بطائفة من أصحاب معاوية فكان القتال بينهما شديداً سجالاً ثم افترقا وقد انسلخ النهار من غير فصل

وفي صباح يوم ٧ صفر الخير جرى القتال بين طلائع القومين وعلى اصحاب الخلافة الاشتر

تَهَجَّدُوا وَاسْجُدُوا لِلّهِ لَيْلَتَكُمْ وَالآيَ فَاتْلُوا تُقَوِّيكُمْ مَثَانِيهَا
وَالنَّصْرُ فَاطْلُبُوهُ مِنْ إِلٰهِكُمْ أَخْلِقْ بِهِ طَلْبَةً التَّاقِينَ يُولِيهَا
وَالْقَوْا الْعِدَى بِنُفُوسٍ مِلْؤُهَا ثِقَةٌ بِاللّهِ كَيْ تَكْفُوهَا عَنْ تَعَزِّيهَا
بِذَا أَبُو حَسَنٍ أَنْبَا الصِّحَابَ بِهَجْــمَةٍ بِهَا حَرْبُ أَهْلِ الشَّامِ يُنْهِيهَا
وَلَمْ تَكَدْ تَبْلُغُ الأَصْحَابَ دَعْوَتُهُ حَتَّى اسْتَجَابَتْ وَقَرَّتْ أَنْ تُلَبِّيهَا
وَكَبَّرَتْ بِحَمَاسٍ وَهِيَ صَائِحَةٌ تَقُولُ نَصْرَةُ رَبِّ الْعَرْشِ نَبْغِيهَا
وَفِي الصَّبَاحِ لَقَدْ شَدَّتْ بِغَيْرِ وَنًى عَلَى الْعِدَى وَعَلِيٌّ الْقَرْمُ هَادِيهَا
فَقَابَلَتْهَا جُيُوشُ الشَّامِ وَاسْتَعَرَتْ حَرْبٌ مَلَتْ أُفْقَ صِفِّينٍ سَوَافِيهَا
دَامَتْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِشِدَّتِهَا الْـــقُصْوَى وَأَنْهُرُهَا تَتْلُو لَيَالِيهَا
وَالنَّاسُ تُهْرَقُ مَعْصُومَ الدِّمَاءِ فَتَجْــرِي لِلْفُرَاتِ الَّذِي قَدْ كَانَ يَسْقِيهَا
وَغَشَّتِ الأَرْضَ قَتْلَى الْمُسْلِمِينَ وَجَرْ حَاهُمْ وَلَا مَنْ يُدَاوِي أَوْ يُوَارِيهَا

وعلى اصحاب معاوية حبيب بن مسلمة ودام القتال بينهما الى الظهر ثمَّ افترق الفريقان من غير جدوى منتجة . حينئذٍ رأى سيدنا علي عليه صلوات الله انَّ هذه المطاولة في حرب الطلائع لا تنهي حرباً ولا تفصل في المشكلة فقال لمن حوله « حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم باجمعنا ؟؟ » واخذ يفكر بهجوم عام ويعدُّ له عدَّته بفكره النير

وبعد ان صلى أمير المؤمنين بالناس صلاة العشاء في ليلة الاربعاء (٨ صفر الخير) قام فيهم خطيباً فقال : « الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض ، وما أبرم لم ينقضه الناقضون ، ولو شاء ما اختلف اثنان من خلقه ، ولا اختلفت الامة في شيء ، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله ، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الاقدار ، فنحن بمرأى من ربنا ومسمع ، فلو شاء عجل النقمة ، وكان من التغيير ، حتى يكذب الظالم ، ويعلم الحقُّ أين مصيره ، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة دار القرار ، ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، ألا وانَّكم لاقو القوم غداً ، فأطيلوا الليلة القيام ، واكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله النصر والصبر ، والقوا أعداءكم بالجدّ والحزم ، وكونوا صادقين » اه فكبر القوم ملبين وأسرعوا الى تعهد سلاحهم فمرَّ بهم كعب بن جعيل وشهد استعدادهم للحرب فقال

أصبحت الامة في أمرٍ عجب والملك مجموعٌ غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب انَّ غداً تهلك أعلام العرب

وقضى أمير المؤمنين ليلته وهو يصلي آونةً ويتعهد ابطال الرجال اخرى حتى اذا ما لاح الفجر صلىَّ بالناس وخرج بهم الى القتال بهجوم عام . وما رأت معاوية وعمرو بن العاص استعداد سيدنا امير المؤمنين عليه صلوات الله للهجوم العام فعلا في تلك الليلة مثله واخذا يتعهدان اصحابهما ويستحثانهم

وَكَانَ حَيْدَرَةٌ فِي صَحْبِهِ أَسَدًا ... تَتْلُوهُ أُسْدٌ تُمَلِّي عَنْ رَائِنِهَا

وَكَانَ يَلْقَى أَعَادِيهِ بِصَارِمِهِ ... فَيَنْثُرُ الْهَامَ صِيَالًا وَيَذْرِيهَا

وَذُو الْفَقَارِ وَلَا سَيْفٌ يُعَادِلُهُ ... إِنْ جَازَ مِنْ كَفِّهِ الْعَلْيَا هَوَادِيهَا

وَلَا فَتًى كَعَلِيٍّ وَالْعَلِيُّ فَتَى الْإِ ... سْلَامِ مَا تَطْلُبُ الْعَلْيَا مُكَافِيهَا

وَمَنْ يُنَاوِي قُرَيْشًا وَهِيَ مُشْرِكَةٌ ... فَعِنْدَ فِتْنَتِهَا أَيْضًا يُنَاوِيهَا

وَمَا عَجِيبٌ إِذَا أَمْسَتْ بِبَطْشَتِهِ ... مَقْهُورَةً مَا سِوَى التَّسْلِيمِ يُنْجِيهَا

أَجَلْ فَإِنَّ عَلِيًّا فَازَ وَانْتَصَرَتْ ... جُيُوشُهُ وَإِلَهُ الْعَرْشِ حَامِيهَا

وَلَمْ يَعُدْ مِنْ سَبِيلٍ لِلنَّجَاةِ لَدَى الْأَ ... عْدَاءِ إِنْ طَلَبَتْ خَوْفًا مَنَاجِيهَا

إِلَّا مُكَايَدَةً يَسْعَى مُعَاوِيَةٌ ... بِهَا وَمَا غَيْرُ ابْنِ الْعَاصِ يُنْشِيهَا

على القتال . وعند الفجر أمر معاوية جيوشه بان يصطفوا للقتال . ثمّ اشتبك القومان بقتال مخيف سالت فيه الدماء انهاراً وغطت جثث القتلى الارض وافترقا عند المساء وكلٌّ غير غالب

وفي صباح الخميس ٩ صفر الخير صلى علي عليه صلوات الله بالناس غلساً وخرج بهم الى أهل الشام وكان على ميمنته عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعلى ميسرته عبد الله بن عباس والناس على راياتهم ومراكزهم وكان في قلب الجيش من معه من انصار المصطفى عليه الصلاة والسلام من أهل المدينة وعدد من خزاعة وكنانة . واما معاوية فقد رفع في ذلك اليوم قبةً عظيمةً وألقى عليها الثياب وبايعه أكثر أهل الشام على الموت واحاط بقبته خيل دمشق . وزحف عبد الله بن بديل اولاً على جيش معاوية فلقيه حبيب بن مسلمة فلم يزل يحوزه ويكشف خيله حتى اضطرّهم الى التقهقر حيث قبة معاوية في ظهر ذلك اليوم فنادى عبد الله بن بديل باصحابه قائلاً « ألا انّ معاوية ادّعى ما ليس له ، ونازع الحقّ اهله ، وعاند من ليس مثله ، وجادل بالباطل ليدحض به الحقّ ، وصال عليكم بالاعراب والاحزاب ، الذين قد زينت لهم الضلالة ، وزرع في قلوبهم حبّ الفتنة ، ولبّس عليهم الامر ، وزادهم رجساً الى رجسهم ، فقاتلوا الطغام الجفاة ولا تخشوهم ، قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » ثمّ طفق يحمسهم بمثل هذا الكلام . وتبعه زيد بن قيس الارحبي فخطب ايضاً يحرّض الناس بكلامه المشجع على مداومة القتال وهكذا ظلّ رجال علي يداومون ملاصقة رجال معاوية المتقهقرين المغلوبين . ولما رأى معاوية انكشاف اصحابه ودنوّهم من قبته امدّهم بمدد كبير كشف أهل العراق وردّهم ادراجهم فلما رأى سيدنا علي انكشاف جيشه خرج بنفسه مدداً له فنشط خروجه عليه صلوات الله عزائم القوم فستمرّ القتال على اشده وكان يومئذ ما تشيب له الاطفال من ضرب الاسنة ورمي النبال ودام الحال على هذا المنوال وعمّ النكال في ثلاثة ايام بين الاهم والنبال لم ينقطع فيها النضال وكان ثمّ مجزرة هائلة انتثرت فيها رؤوس الرجال وتجندلت من ورائها الابطال وكان فيها سيدنا علي عليه صلوات الله فوق جواده يرقب الموقعة بنفسه ويتعهد صفوف جيشه بشخصه متنقلاً ذات اليمين وذات الشمال فما كان يرى ثلمةً في جيشه الا سدّها بسيفه البتار وهيك ضربت ذي الفقار . حتى اذا

أمير المؤمنين يطلب مبارزة معاوية

وَحَرْبُ صِفِّينَ مَازَالَتْ بِشِدَّتِهَا ... وَنَارُهَا تَأْكُلُ ٱلأَبْطَالَ تُفْنِيهَا (١)

فَاسْتَشْهَدَتْ فِئَةٌ مِنْ خَيْرِ صَحْبِ رَسُو ... لِ ٱللهِ دُونَ عَلِيٍّ ٱلْمُرْتَضَى فِيهَا

فَهَالَ حَيْدَرَةً قَتْلَى بِلَا عَدَدٍ ... أَطْمَاعُ إِبْنِ أَبِي سُفْيَانَ تُرْدِيهَا

وَكَانَ يَفْجَعُهُ ٱسْتِشْهَادُهَا عَبَثاً ... فَجِيعَةً صَاحِبُ ٱلْإِيمَانِ يَدْرِيهَا

وَإِذْ دَرَى أَنَّ عَمَّاراً قَضَى وَمَضَى ... فِي حَوْمَةِ ٱلْحَرْبِ أَمْسَى مِنْ أَضَاحِيهَا

بَكَاهُ حُزْناً عَلَى وَافِي صَدَاقَتِهِ ... لِدِينِهِ وَٱنْبَرَى فِي ٱلنَّاسِ يَنْعِيهَا

وَكَانَ عَمَّارُ خَيْرَ ٱلْمُسْلِمِينَ جِهَا ... داً وَٱلصَّحَابَةِ مَكِّيهَا وَطِيبِيهَا

وَقَالَ أَحْمَدُ فِيهِ كُلَّ مَحْمَدَةٍ ... حَسْنَاءَ مَازَالَتِ ٱلأَقْوَامُ تَرْوِيهَا

ما ايقن معاوية بالانكسار مال الى صاحبه عمرو بن العاص وكان عنده اكبر مستشار واخذا يتداولان بحيلة تنقذهما من الانخذال والعار وتوصلهما الى ما يحلمان به من بعيد الاوطار

(١) كثرت القتلى في ذلك اليوم من الجانبين حتى غشت اشلاؤها أرض صفين وكان سيدنا علي عليه صلوات الله حزيناً على هذه النفوس المسلمة البريئة التي تستشهد ظلماً وعدواناً لا لسبب سوى لطمع معاوية بالخلافة وازاده حزناً مقتل عمار بن ياسر وهو من اكابر الصحابة وقد كان عزيزاً عليه كما كان عزيزاً على المصطفى عليهما الصلاة والسلام فقال حتى متى هذه المجزرة ؟ قال هذا وساق جواده طالباً معسكر معاوية مع نفر من أبطال اصحابه وحمل حملة شعواء على أهل الشام فنقض صفوفهم نقضاً وشتت جموعهم تشتيتاً وقال

أقتلهم ولا أرى معاويه ... ألجاحظ العين العظيم الحاويه

ثم نادى معاوية للمبارزة ثلاً على م يقتل الناس بيننا هلم احاكمك الى الله ، فأينا قتل صاحبه ، استقامت له الامور

اما معاوية فلما رأى هجوم سيدنا علي عليه صلوات الله على معسكره وانتقاض صفوف جيشه نهيب موقفه وولى الى اخريات الناس حيث رأى عمراً بن العاص فسأله أن يعينه برأيه لتلافي الشر وبينما هما كذلك واذ جاءهما من اصحابهما من اخبرهما بطلب علي معاوية للبراز فقال عمرو ابن العاص : لقد انصفك والله فاخرج اليه واقتله ونل الخلافة قال هذا وبسمة الهزء على شفتيه . فصاح معاوية ويلك ما انصفتني انك لتعلم ان علياً لم يبرز اليه أحد الا قتله فقال عمرو ولكن لايحسن بك وانت ضع نفسك في موضعه وتزاحمه على خلافته ان تترك مبارزته جبناً تكسب به سبة الابد . فغضب معاوية وقال ويل امك لقد طمعت بالخلافة من بعدي تتطلب أن أهلك لتنالها والله لا ابارزه ابداً

وبعد أن رأى سيدنا علي عليه صلوات الله أن معاوية قد جبن عن الخروج اليه عاد فاعمل سيفه فيمن لقيه من أهل الشام فخضب الارض بدمائهم على ما عهد الملا من شجاعته وبطشه

وَإِنَّ أَعْمَالَهُ فِي ٱلدِّينِ بَاهِرَةٌ ... مَحْمُودَةٌ تُطْرِبُ ٱلدُّنْيَا أَمَالِيهَا
وَإِنَّ قَتْلَتَهُ تَاللهِ فَاجِعَةٌ ... وَمَا فَجَائِعُ صِفِّينٍ تُحَاكِيهَا
نَادَى لَهَا ٱلْمُرْتَضَى وَٱلْحُزْنُ مَالِكُهُ ... حَتَّى مَتَى يَا تَرَى صَحْبِيَ أُضَحِّيهَا
وَسَاقَ نَحْوَ ٱلْعِدَى حَالاً مُطَهَّمَهُ ... بِسُرْعَةٍ طَالِباً مَلْقَى مَعَاوِيهَا
وَعِنْدَمَا ٱلْمُرْتَضَى وَافَى مُعَسْكَرَ أَهْـ ... ـلِ ٱلشَّامِ خَافَتْ وَوَلَّتْ عَنْ مَثَاوِيهَا
وَصَاحَ أَيْنَ ٱبْنُ حَرْبٍ كَيْ أُحَاكِمَهُ ... إِلَى عَدَالَةِ رَبِّي وَهُوَ آبِيهَا
عَلَى مَ تُقْتَلُ فِي ٱلْمَيْدَانِ أُمَّتُنَا ... ظُلْماً وَنَحْنُ زِنَادُ ٱلشَّرِّ نُورِيهَا
إِلَيَّ فَابْرُزْ مُعَاوِيَ دُونَ أُمَّتِنَا ... فَمَنْ يَفُزْ مِنْ كِلَيْنَا كَانَ وَالِيهَا
فَهَابَ دَعْوَةَ مَوْلَانَا أَبِي حَسَنٍ ... إِلَى ٱلْبِرَازِ ٱبْنُ صَخْرٍ رَاحَ خَاشِيهَا

« ترجمة عمار بن ياسر »

اما عمار بن ياسر الذي الجع مقتله سيدنا علي أمير المؤمنين وعموم المسلمين فهاك ترجمته مع قصة قتله

هو عمار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسي المذحجي يكنى أبا اليقظان وكان حليف بني مخزوم . كان ياسر والد عمار قحطانياً عربياً من عنس في مذحج اما ابنه عمار فكان مولى لبني مخزوم لانّ اباه ياسراً قدم مكة مع اخوين له يقال لهما مالك والحارث في طلب اخ لهم رابع فرجع الحارث ومالك الى اليمن وأقام ياسر في مكة فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فزوّجه ابو حذيفة أمةً يقال لها « سميّة » فأولدها عماراً فاعتقه أبو حذيفة فمن ههنا كان عمار مولى بني مخزوم على أنّ اباه عربيٌّ قحطانيٌّ لاغشّ فيه .

وكان عمار بن ياسر ممن سبقوا الى الاسلام قبل الهجرة فشدّدت عليه قريش وعذبته حتى اضطرّ ان يجحد اسلامه بلسانه مع اطمئنان قلبه بالايمان فنزل فيه قوله تعالى « الاّ من اكره وقلبه مطمئنٌّ بالايمان » . وقد هاجر عمار الى ارض الحبشة ثمّ الى المدينة المنورة فكان من المهاجرين الاولين . وشهد بدراً والمشاهد كلها وأبلى بلاءً حسناً فيها ثمّ شهد اليمامة وقطعت اذنه فيها . وكان عمار آدم طوالاً يضطرب في مشيته اشهل العينين بعيد مابين المنكبين شائب اللحية لا يخضبها بالحناء . وكان يقول انه ترب رسول الله في سنه لم يكن اقرب اليه عليه الصلاة والسلام بالعمر منه . وكان يقول عنه المصطفى « ان عماراً ملىء ايماناً الى أخمص قدميه » وكان عليه الصلاة والسلام يقول « من أبغض عماراً ابغضه الله فما زلت أحبه من يومئذٍ » وسئل المصطفى يوماً اذا اختلف الناس من بعدك وقامت الفتنة فيمن تأمرنا ان نتبع ؟ قال عليكم بابن سمية (اي عمار) فانه لن يفارق الحقّ حتى يموت .

وعندما شرع المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام ببناء المسجد الجامع في المدينة المنوّرة كان المسلمون ينقلون اللبن لبنة بعد لبنة الا عمار فقد كان ينقل لبنتين بعد لبنتين لحماسه في دينه وزيادة رغبته في الاجر وما زال مجداً في ذلك حتى غشي عليه من شدة التعب فرآه رسول الله

وَمَا رَأَى فِي سِوَى ٱبْنِ ٱلْعَاصِ مِنْ عَضُدٍ   عَنْهُ ٱلْكَوَارِثُ وَٱلْأَخْطَارُ يُدْرِئُهَا
فَجَاءَهُ مُسْتَشِيرًا وَٱلْقُنُوطُ قَدِ ٱسْتَوْلَى عَلَى نَفْسِهِ   وَٱلْحُزْنُ بَارِزُهَا
فَقَالَ عَمْرٌو سَدَادُ ٱلرَّأْيِ عِنْدِيَ أَنْ   تَلْقَى عَلِيًّا وَهَٰذِي ٱلْحَرْبُ نُنْهِيهَا

وجعل يمسح التراب عن رأسه بيده الشريفة ويقول « ويحك يا ابن سمية ، الناس ينقلون لبنة لبنة وانت تنقل لبنتين لبنتين ، رغبة في الاجر ، وأنت مع ذلك تقتلك الفئة الباغية » وذاع قول المصطفى هذا بعمار بين المسلمين وحفظوه كما حفظوا الاقوال الشريفة النبوية الاخرى التي قالها له وكانوا بعد ان افترقوا يعرفون الحقّ في الفرقة التي يكون معها عمار ويقولون لاتقتله الا « الفئة الباغية »

وظلّ عمار يجاهد في سبيل الاسلام فكانت له يد بيضاء في فتوحات الشام والعراق على عهدي ابي بكر وعمر ثمّ استعمله عمر بن الخطاب على الكوفة وارسل معه عبد الله بن مسعود مستشاراً ووزيراً وكتب الى أهل الكوفة يقول « اما بعد فاني بعثت اليكم عماراً اميراً ، وعبد الله بن مسعود وزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب محمد، فاسمعوا لهما، واقتدوا بهما، فاني قد آثرتكم بهم على نفسي»

وكان عمار من اشدّ الناقين على عثمان لاينفكّ ينعي عليه عمل عماله وجعله الخلافة طعمة لبني أمية ولشدته هذه حمل غلمان عثمان عليه ونالوا منه من الضرب الموجع الشيء الكثير حتى انفتق له فتق في بطنه وزعموا انهم كسروا ضلعاً من اضلاعه وكان ضربه هذا سبباً لانقلاب بني مخزوم وهو من مواليهم على ماتقدم على عثمان ومجاهرتهم بعدائه

وكان عمار في عهد سيدنا علي عليه صلوات الله من سيوفه المشهرة فسار معه الى قتال الجمل وقد رأينا مسيره مع سيدنا الحسن الى الكوفة عندما أبى أبو موسى الاشعري مناصرة امير المؤمنين كما تقدم في حاشية سابقة وأبلى أفضل بلاء واحسنه في حرب الجمل

وفي حرب صفين كان عمار بن ياسر في مقدمة قوّاد سيدنا علي ومن اكابر المحاربين معه على شيخوخته لانه كما سبق القول كان ترب المصطفى بالسنّ فيكون عمره يومئذ بين ٩٤ و٩٥ سنة ومع ذلك كان من القوّة مايدعو الى الدهش بدليل ما رواه المؤرخون من آيات البسالة التي أبداها في تلك الحرب وكان آخر امره انه في يوم ٩ صفر الخير سنة ٣٧ للهجرة وموقعة صفين على اشدّها خرج على الناس فقال « اللهمّ ، انك تعلم ، اني لو اعلم أنّ رضاك في ان اقذف نفسي في هذا البحر (واراد الفرات الذي يجري بقربه) لفعلته ، اللهمّ ، انك تعلم ، اني لو اعلم ، انّ رضاك في ان اضع ظبة سيفي في بطني ، ثمّ انحني عليها حتى تخرج من ظهري ، لفعلته، واني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم عملاً هو أرضى لك منه لفعلته، ايها الناس ، اني لأرى قوماً ليضربونكم ضرباً يرتاب منه المبطلون ، وايم الله ، لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ، لعلمت انا على الحقّ ، وانهم على الباطل ، » ثمّ قال « من يبتغي منكم رضوان الله وربه ، ولا يرجع الى مال ولا ولد ، فليصحبني » فتته عصابة من الانطال ملبية نداءه متحمسة بحماسه فقال لهم « أقصدوا بنا هؤلاء القوم ، الذين يطلبون دم عثمان ، والله ما ارادوا الطلب بدمه ، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستحبوها ، وعلموا أنّ الحقّ لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه منها ، ولم يكن لهم سابقة يستحقون بها طاعة الناس ، والولاية عليهم ، فخدعوا اتباعهم ، وقالوا امامنا قتل مظلوماً ، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً ، فبلغوا ماترون ، فلولا هذا ماتبعهم من الناس رجلان ، اللهمّ ، ان تنصرنا فطالما نصرت ، وان تجعل لهم الامر ، وادّخر لهم

فَابْرُزْ لَهُ بَرْزَةً تَقْضِي عَلَيْهِ بِهَا وَتَسْتَبِدُّ بِذِي ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِيهَا
أَجَابَ وَيْلَكَ هَلْ يَلْقَى أَبَا حَسَنٍ مِثْلِي وَلُقْيَتُهُ ٱلْإِهْلَاكُ تَالِيهَا
تُرِيدُ لِي مَوْتَةً شَنْعَا تَنَالُ بِهَا بَعْدِي ٱلْخِلَافَةَ لٰكِنِّي أُجَافِيهَا
وَقَدْ تَبَسَّمَ عَمْرٌو وَٱبْتِسَامَتُهُ لِقَوْلِهِ قَالَهَا لَهْواً وَتَفْكِيهَا
وَعَادَ حَيْدَرَةٌ مِنْ بَعْدِ صَيْحَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ إِبْنُ حَرْبٍ مَنْ يُلَبِّيهَا
وَأَعْمَلَ ٱلسَّيْفَ فِي ٱلْأَعْدَاءِ جَنْدَلَهَا قَتْلَى وَفَرَّقَ تَفْرِيقاً تَجَمِّيهَا

بما أحدثوا في عبادك العذاب الاليم » قال عمار هذا في اصحابه ومضى بهم الى المعمعة فكان لا يمر بوادٍ من اودية صفين الا وتبعه من كان فيها من اصحاب محمد عليه الصلاة والسلام حتى اذا ما انتهى الى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو مرقل وكان صاحب راية سيدنا علي وكان أعور فقال له « ياهاشم أعوراً وجبناً ؟ لا خير في أعور لا يغشى البأس ، اركب ياهاشم ، فركب ومضى معه وهو يقول:

أعور يبغي أهله محلاً قد عالج الحياة حتى ملاً
لابدَّ ان يفل أو يُفلاً يتلهم بذي الكعوب تلاً

وعمار يقول : « تقدم ياهاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت اطراف الاسل ، وقد فتحت ابواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم التقي الاحبة ، محمداً وحزبه » وهكذا انقضَّ عمار واصحابه على الاعداء والموقعة على اشدها فلقي عمراً بن العاص بوجهه يحارب فناداه قائلاً « ويلك ياعمرو ، بعت دينك بمصر ، تباً لك » فقال عمرو : ولكن اطلب بدم عثمان . قال عمار « أشهد على علمي فيك ، انك لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله ، وانك ان لم تقتل اليوم تمت غداً ، فانظر اذا أعطي الناس على قدر نياتهم مانيتك ، لقد قاتلت صاحب هذه الراية (ويريد علياً) ثلاثاً وهو مع رسول الله وهذه الرابعة ماهي ابرُّ واتقى » قال هذا عمار وانبرى للقتال بقلب كأنه قُدَّ من الصخر الاصم فما زال يبري بالناس عاملاً السيف برقابهم حتى قتل خلقاً كثيراً على انه اصيب بجروح كثيرة خرت معها قواه فوقع على الارض مضرَّجاً بدمه بضربة سيف ضربه بها أبو الغارية واحتزَّ رأسه ابن السكسكي

ومن غريب أمر الناس في موقعة صفين انهم كانوا عند ما ينتهي القتال يختلط بعضهم ببعض ويتحادثون كاخوان متصافين كأن مايقومون به من القتال ليس بالامر الكبير وروى عبد الرحمن السلمي من مقاتلة الخلافة قال « لما قتل عمار دخلت عسكر معاوية لارى هل بلغ منهم قتل عمار مابلغ منا فاذا أرى معاوية وعمراً بن العاص وعبد الله بن عمرو على خيولهم يتحدثون فدنوت منهم بجوادي لاسمع حديثهم فسمعت عبد الله بن عمرو يقول لابيه يا أبت قتلتم عماراً في يومكم هذا وقد قال رسول الله فيه ما قال قال عمرو وما قال ؟ فروى عبد الله لابيه قول رسول الله بعمار يوم بناء المسجد في المدينة فال عمرو بن العاص الى معاوية وقال أما تسمع مايقول عبدالله ؟ فهزَّ معاوية كتفيه استخفافاً وقال أنحن قتلنا عماراً ؟ انما قتله من جاء به

وعاش أبو الغارية قاتل عمار بن ياسر الى زمن الحجاج بن يوسف الثقفي ودخل هذا يوماً على الحجاج وهو يحكم العراق بشدته وظلمه وحوله اصحابه فاكرمه وسأله قائلاً هل أنت قاتل عمار بن

مؤامرة معاوية وعمرو بن العاص

رأى معاوية أن الأمور على ... ما لا يحب فأحرى أن يداريها (١)
رأى جيوش أمير المؤمنين تكا ... د تبلغ النصر منه في مغازيها
رأى حواليه أبطال الوغى جثثاً ... والطير نائلة منها تغذيها
رأى الجموع التي وافى بها سئمت ... هول القتال فعدت عن تداعيها
رأى أبا حسن قد جاء يطلبه ... إلى مبارزة يلقى الردى فيها
وفي الأخير رأى أن الهزيمة قد ... حلت بأصحابه صعب تلافيها
وإنه مشرف في شر موقفه ... على ضياع أمان كان راجيها
فصاح واليأس يطويه وينشره ... يا عمرو خذ بيدي حاشا تخليها

ياسر ؟ قال نعم فتبسم الحجاج وقال لاصحابه من سره ان ينظر الى عظيم الباع يوم القيامة فلينظر الى هذا الذي قتل ابن سمية . ثم ان أبا الغادية سال الحجاج حاجة له فلم يجبه اليها فقال نوطيء لهم الدنيا ولا يعطونا منها ويزعم اني عظيم الباع يوم القيامة فضحك الحجاج حتى استلقى وقال : «أجل والله، من ضرسه مثل أحد ، وفخذه مثل جبل ورقان ، ومجلسه مثل المدينة والربذة ، انه لعظيم الباع يوم القيامة ، والله ، لو أن عماراً ، قتله أهل الأرض كلهم ، لدخلوا كلهم النار »

(١) ان التجاء معاوية وعمرو بن العاص الى المؤامرة والخديعة قد كان على اثر ليلة الهرير وهي الليلة العظيمة التي اشتد فيها القتال وما ادراك ما ليلة الهرير ها نحن نذكرها اجمالاً والتفصيل يحتاج الى مجلد كبير

غلس علي عليه صلوات الله غداة الجمعة عاشر صفر الخير سنة ٣٧ هجرية فصلى بالناس ثم زحف بعسكره على أهل الشام وكانت الحرب قد اكلت من الفريقين ولكنها في أهل الشام أشد نكاية واعظم وقعاً . وكان انلال من الحرب على كثرة ضحاياها قد نال مناله من النفوس وكان على مقدمة جيش الخلافة في الهيجاء الاشتر النخعي فسار على فرس كميت وهو مدجج بالسلاح وبيده الرمح فجعل يضرب رؤوس أهل العراق بقنته ويقول سووا صفوفكم رحمكم الله حتى اذا عدل الصفوف والرايات استقبلهم بوجهه وحمد الله واثنى عليه وقال : الحمد لله الذي جعل فينا ابن عم نبيه ، اقدم المسلمين هجرة ، واولهم اسلاماً ، وانه لسيف من سيوف الله ، صبه الله على اعدائه ، فانظروا اذا حمي الوطيس ، وثار القتام ، وتكسر المران ، وجالت الخيل بالابطال ، فلا أسمع الا غمغمة وهمهمة ، وتبعوني وكونوا في أثري . قال الاشتر هذا ومال نحو معسكر أهل الشام فتبعته الصفوف وهي تهزأ بالحتوف ، وبلوا اعظم بلاء باصحاب معاوية وكانت موقعة عظمى كثرت فيها الضحايا حتى قدروا القتلى والجرحى يومئذ بنحو سبعين الفاً وقد دامت الموقعة ذلك اليوم بطوله وكل الليل وهي ليلة الهرير وكان سيدنا علي في قلب الجيش والاشتر على الميمنة وابن عباس على

فَقَالَ عَمْرٌو : أَرَى أَهْلَ ٱلشَّامِ لَقَدْ   خَارَتْ عَزَائِمُهَا مَا أَنْ تُقَوِّيهَا
وَأَنَّ صَحْبَكَ يَا ٱبْنَ ٱلْوُدِّ عَاجِزَةٌ   عَنْ صَحْبِ حَيْدَرَةٍ مَا أَنْ تُكَافِيهَا
وَلَمْ تَكُنْ فِي لِقَاكَ ٱلْيَوْمَ نِيَّتُهُ   كَنِيَّةٍ أَنْتَ فِي لُقْيَاهُ تَنْوِيهَا
فَإِنَّهُ تَارِكُ ٱلدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا   وَأَنْتَ تَطْمَعُ فِي كَهَانِي مَلَاهِيهَا
وَفَوْقَ هٰذَا فَأَبْطَالُ ٱلْعِرَاقِ إِذَا   بِهَا ظَفِرْتَ لَهَابَتْ أَنْ تُؤَاذِيهَا
لِذَاكَ عَنْ نَفْسِهَا وَافَتْ مُدَافِعَةً   بِحَرْبِهَا وَلِذَا تُبْدِي تَفَانِيهَا
لَكِنَّمَا ٱلشَّامُ لَا تَخْشَى ٱلْوَصِيَّ إِذَا   مَا سَادَ فِيهَا وَأَمْسَى وَهْوَ رَاعِيهَا
لِحُسْنِ مَا ذَاعَ عَنْ سَامِي فَضَائِلِهِ   بَيْنَ ٱلْبَرِيَّةِ عُرْبِيهَا وَرُومِيهَا
وَخَيْرُ مَشْوَرَةٍ عِنْدِي أَشُورُ بِهَا   عَلَيْكَ وَٱلْفَوْزُ مَضْمُونٌ لِمُجْرِيهَا
أَنْ تَطْرَحَنَّ إِلَى ٱلْأَعْدَاءِ مَسْأَلَةً   وَٱللهِ تَعْجَزُ عَنْ إِدْرَاكِ خَافِيهَا
تَدْعُو لِفُرْقَتِهَا سِيَّانِ إِنْ قَبِلَتْـهَا أَوْ أَبَتْهَا وَفِي ٱلْحَالَيْنِ تُغْوِيهَا
فَقَالَ : عَجِّلْ بِهَا وَٱلْوَقْتُ دَارِكُهَا   رَكْبُ ٱلْعِرَاقِ قَدِ ٱسْتَاقَتْ مَهَارِيهَا
وَأَوْشَكَتْ أَنْ تَحُوزَ ٱلنَّصْرَ أَبْهَرَهُ   بِوَقْعَةٍ أَبْتَغِي حَتْمًا تَوَقِّيهَا

الميسرة . ولما انجلت الموقعة عن نصر عظيم لجيش الخلافة وقد ولّى من بقي سليماً من جيش معاوية هاربين وقف في القوم خطيباً سيدنا علي عليه صلوات الله وكان قد بدأ الهزيع الثالث من ليلة الهرير فحمد الله واثنى عليه وقال «ايها الناس، قد بلغ بكم وبعدوكم الامر ما قد رأيتم ، ولم يبق من أهل الشام الا آخر نفس ، وان الامور اذا اقبلت أعتبر آخرها باولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين ، حتى بلغنا منهم ما بلغنا ، وانا غادٍ عليهم بالغداة ، احاكمهم الى الله » فهلل الناس وكبروا ودعوا لامير المؤمنين وقد اشتد نشاطهم الى غزوة الغد وهم موقنون ان الحرب تنتهي فيها والنصر الاخير بات على قيد خطوات منهم

لا جرم ان تفوّق جيش أمير المؤمنين على جيش معاوية قد بدأ باسنى مظاهره حتى أيقن معاوية بالقهر والانخذال وأزاد بلباله تقدم الامام الاعظم سيدنا علي منه يريد مبارزته ففرّ من وجهه مختفياً في أقصى معسكره ولم يعد له الا الالتجاء الى دهاء عمرو بن العاص عسى ان يعينه برأيه على حيلة تخرجه بجيشه من المأزق الحرج الذي بات فيه بجاءه والخوف يملأ نفسه وقال : ياعمرو ان غداً لمصبحنا عليٌّ بالفصل ولا أرى الا القهر والذلّ فماترى ؟ فتبسم عمرو بدهائه المشهور وقال : انّ رجالك لا يقومون لرجاله ، ولستَ مثله ، هو يقاتلك على أمر ، وأنت تقاتله على غيره ، أنت تريد البقاء ، وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك ان ظفرتَ بهم ، وأهل الشام لا يخافون

فَقَالَ عَمْرٌو : وَلٰكِنْ مِصْرُ إِنِّي لَا   أَزَالُ أَطْمَعُ أَنْ أَثْوِيْ بِوَادِيهَا
وَلَمْ أَزَلْ أَشْتَهِي ٱلنِّيلَ ٱلسَّعِيدَ وَخَيْمَتِيْ   أُقِيمَتْ عَلَيْهِ لَسْتُ نَاسِيهَا
فَقَالَ : وَٱللّٰهِ مَا إِلَّاكَ يَحْكُمُهَا   وَمَا لِغَيْرِكَ يَا ٱبْنَ ٱلْعَاصِ مُعْطِيهَا
فَهَاتِ رَأْيًا بِهِ صَحْبُ ٱلْخِلَافَةِ عَنْ   نَفْسِي وَعَنْ عَسْكَرِي فِي ٱلْحَالِ يُقْصِيهَا
أَوْ تَسْطُوَنَّ عَلَى جَيْشِي وَتَقْهَرُنِي   وَإِنَّنِي بِتُّ أَخْشَى مِنْ تَسَطِّيهَا
فَقَالَ : حَسْبُكَ لَا تَجْزَعْ مُعَاوِيَةً   فَمَكْرُ عَمْرِكَ بِالْأَعْدَاءِ يُوهِيهَا
أَسْرِعْ إِلَى نُسَخِ ٱلْقُرْآنِ دُونَ وَنًى   وَقُلْ لِصَحْبِكَ بِٱلْأَرْمَاحِ تُعْلِيهَا
بِهَا تُقَابِلُ أَصْحَابَ ٱلْوَصِيِّ وَكُنْ   جَهْرًا إِلَى حُكْمِهِ ٱلْقُدْسِيِّ دَاعِيهَا
بِذَا تَفُوزُ بِمَبْغَاكَ ٱلَّذِي عَجَزَتْ   سُيُوفُ صَحْبِكَ عَنْهُ مَعْ عَوَالِيهَا
وَإِنَّهَا حِيلَةٌ قَدْ كُنْتُ مُعْدِدَهَا   لِوَقْتِ حَاجَتِكَ ٱلْقُصْوَى وَمُزْجِيهَا
فَٱنْهَضْ لَهَا وَٱذْكُرَنْ مِصْرًا وَخِصْبَ أَرَا   ضِيهَا وَلَا تَنْسَيَنْ فَضْلَ ٱبْنِ عَاصِيهَا
فَقَالَ دَاهِيَةُ ٱلْعُرْبَانِ : إِنَّكَ حَيَّـــةٌ   أَجَابَ : وَلٰكِنْ أَنْتَ حَاوِيهَا
وَهَبَّ لِلْمَكْرِ عَمْرٌو مَعْ مُعَاوِيَةٍ   بِحِيلَةٍ لَمْ يَكُنْ إِبْلِيسُ رَاصِيهَا

علياً ان ظفر بهم . قل وماك وما الحيلة ؟ قل لا تجزع يامعاوية فقد أعددتها من قبل ولكن هل عزمت عزماً لارجوع بعده على ان تعطيني مصر ؟ فان نفسي لم تزل تنزع الى خيمتي التي نصبتها بجوار النيل . قل معاوية لقد سبق واتفقنا على هذا وقسماً بالله لست ناكثاً عهدي فامددني برايك قبل فوات الوقت . قل عمرو وهو مطمئن البال يهزأ بمعاوية والمخاوف التي تساوره وقال : الق الى القوم امراً ان قبلوه اختلفوا وان ردّوه اختلفوا وفي الحالين تفرق كلمتهم وتنتصر عليهم . قال معاوية وما هو روحي فداك ؟ قال : وزع نسخ القرآن على جنودك فتعليهـا في صباح الغد على رماحها في وجوه رجال معاوية وارسل معهم من يدعوهم الى تحكيم كتـاب الله في هذا الخلاف . وانك بالغ في هذا حاجتك لامحالة . واني لم أزل أوخر هذا الامر لوقت حاجتك اليه . ولكني اعود فاذكرك بمصر وانا فاتحها واحق الناس بالتمتع بخيراتها . ولما سمع معاوية حيلة عمرو بن العاص صفق لها طرباً . وقال صدقت ورب الكعبة انها لحيلة ماخطرت على بال ابليس وانها لناجحة باذن الله وانك لحاكم مصر وصاحبهـا وانت لحية ياعمرو فضحك عمرو بن العـاص وقال ولكن لسوء الحظ انك انت الحاوي

هكذا اتفق معاوية وعمرو بن العاص على الاحتيال على سيدنا علي عليه صلوات الله باسم القرآن واسرعا بدعوة قوادهما اذانباهم بها وآمراهم بتنفيذها فاسرعوا الى ذلك كما سترى . .

رفع المصاحف وطلب التحكيم

وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي ٱلدَّهْرِ قَاتِمَةٍ لَيْلَاءَ عَمَّتْ بِلَا ٱسْتِثْنَا كَوَادِيهَا(١)
فِيهَا لَقَدْ هَرَّتِ ٱلنَّاسُ ٱلْقِتَالَ هَرِيـــرًا وَهِيَ تَطْلُبُ أَنْ تُجْلَى دَيَاجِيهَا
حَتَّى إِذَا لَاحَ نُورُ ٱلْفَجْرِ صَاحَ عَلِـــيٌّ أَسْرِعُوا فَٱلْعِدَى فُلَّتْ مَوَاضِيهَا
قَدْ أَدْبَرَتْ عَنْكُمْ وَٱلْخَوْفُ سَائِدُهَا يَدُوسُ عَاثِرَهَا ٱلْمَجْرُوحَ كَاعِيهَا
وَٱللهُ مُؤْتِيكُمْ ذَا ٱلْيَوْمَ نَصْرَتَهُ وَلَا مَرَدٌّ لِنُعْمَى كَانَ مُؤْتِيهَا
فَأَسْرَعَ ٱلنَّاسُ لِٱسْتِئْنَافِ هَجْمَتِهِمْ وَكُلُّهُمْ مُطْمَئِنُّ ٱلنَّفْسِ هَادِيهَا
فَشَاهَدُوا فَوْقَ أَرْمَاحِ ٱلْعِدَى نُسَخَ ٱلْـــقُرْآنِ كَانَتْ مَعَ ٱلتَّكْبِيرِ تُعْلِيهَا
وَمَنْ يَصِيحُ بِهِمْ يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ ٱلْأَ م جَوَادِ حَتَّى مَتَى ٱلْبَلْوَى نُعَانِيهَا
أَللهَ أَللهَ فِي أَوْلَادِكُمْ وَنِسَا كُمْ مِنْ مَوَاقِفِ إِهْوَانٍ تُلَاقِيهَا
إِذَا فَنِيتُمْ فَإِنَّ ٱلْفُرْسَ غَازِيَةٌ دِيَارَكُمْ وَجُمُوعُ ٱلرُّومِ تَسْبِيهَا
وَٱلتُّرْكُ تُسْرِعُ فِي ٱسْتِئْصَالِ شَأْفَتِكُمْ وَأَكْبَرُ ٱلشَّرِّ فِي مَغْزَى مَغُولِيهَا
أَللهَ أَللهَ فِي ٱلدِّينِ ٱلْحَنِيفِ إِذَا أَنْصَارُهُ كَانَ هٰذَا ٱلشَّرُّ مُفْنِيهَا
هٰذِي مَثَانِي إِلٰهِ ٱلْعَرْشِ بَيْنَكُمُ وَبَيْنَنَا مِثْلَنَا كُونُوا مُطِيعِيهَا
وَإِنَّهَا ٱلْيَوْمَ تَدْعُونَا لِطَاعَتِهَا دَعْوَى وَأَفْضَلُنَا تَقْوَى يُلَبِّيهَا
وَإِذْ وَعَتْ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِي صِحَابُ عَلِـــيٍّ وَٱلْمَصَاحِفُ تُعْلَى فِي أَيَادِيهَا

---

(١) عند ما أصبح صباح السبت ١١ صفر اخير اصطفّ اصحاب الخلافة للقتال وما كادوا يمضون اليه حتى راوا اشباه الرايات امام أهل الشام في وسط الفيلق فجعلوا يحدقون بها فعرفوا انها المصاحف في اطراف الرماح وهي عظام مصاحف العسكر وراوا بينها ثلاثة رماح شدت الى بعضها وعليها مصحف المسجد الاعظم وكان يرفعه عشرة من الجنود وكان عدد المصاحف التي رفعها يومئذ أهل الشام نيف وخمسمائة مصحفاً ولا بدّ لنا من القول ان المسلمين الاولين كانوا يحرصون على استصحاب مصاحفهم معهم في حروبهم وفي جميع اسفارهم فلا عجب اذا وجد في جيش معاوية خمسمئة مصحفاً وقد قدره المقدرون بنيف ومئة الف مقاتل

وبينما كان اصحاب سيدنا علي ينظرون الى هاتيك المصاحف وقد اعليت فوق الرماح تقدم من رجال معاوية الطفيل بن أدهم وكان حيال وسط جيش سيدنا علي وابو شريح الجذامي حيال الميمنة وورقاء بن المعمر حيال الميسرة ونادوا بملء اصواتهم بحيث يسمع اصحاب سيدنا علي قاطبة

قَالَتْ بِقَوْلَتِهِ عَنْ خَشْيَةٍ وَتُقًى ... وَرَدَّدَتْهَا وَلَمْ تَفْقَهْ مَغَازِيَهَا
وَقَدْ تَقَسَّمَتِ ٱلْآرَاءُ قِسْمَتَهَا ... فِيهَا كَمَا شَاءَ مُوحِيهَا وَمُفْشِيهَا
فَفِرْقَةٌ قَدْ رَأَتْ حُكْمَ ٱلْكِتَابِ وَأُخْرَى خَالَفَتْهَا ... تَقُولُ ٱلْحَرْبُ نَبْغِيهَا
بِذَاكَ حَابِلُهَا قَدْ بَاتَ مُخْتَلِطاً ... بِنَابِلٍ مُمْنِياً بِٱلْعَجْزِ سَادِيَهَا
وَصَاحَ حَيْدَرَةٌ : رَبَّاهُ إِنَّكَ أَدْ ... رَى بِٱلْأَعَادِي وَمَا تَطْوِي مَطَاوِيهَا
وَإِنَّهَا لَمْ تُرِدْ أَصْلاً كِتَابَكَ أَوْ ... تَبْغِي هِدَايَتَهُ وَٱلشَّرُّ غَاوِيهَا
فَٱحْكُمْ إِلَٰهِي فِيمَا بَيْنَنَا وَلَأَنْـ ... ـتَ ٱلْحَاكِمُ ٱلْعَدْلُ قَدْ نُزِّهْتَ تَنْزِيهَا
عَمَّا تُكِيدُ ٱلْعِدَى لِي فِي مَصَاحِفِهَا ... وَقَطُّ مَا تَبِعَتْ سَامِي مَبَادِيهَا

مذاكرة أمير المؤمنين أصحابه بالتحكيم

ثُمَّ ٱنْثَنَى لِكِبَارِ ٱلْقَوْمِ حَيْدَرَةٌ ... يُرِيدُ مِنْهَا بِذِي ٱلدَّعْوَى تَرَوِّيهَا (١)
فَمَا أَصَرَّتْ عَلَى ٱلتَّحْكِيمِ مُجْمِعَةً ... وَلَا عَلَى ٱلْحَرْبِ شَدَّتْ كَيْ يُجَارِيهَا
ثُمَّ رَأَى ٱلنَّاسَ حَوْلَيْهِ قَدِ ٱجْتَمَعَتْ ... وَصَيْحَةُ ٱلسِّلْمِ تَعْلُو مِنْ نَوَاحِيهَا

« يامعشر العرب ، الله الله في النساء والبنات والابناء ، من الروم والاتراك وأهل فارس غداً ، اذا فنيتم ، الله الله في دينكم ، هذا كتاب الله بيننا وبينكم » وما كادت تدوي هذه الكلمات في آذان أصحاب سيدنا علي حتى اختلط حابلهم بنابلهم واختلت صفوفهم وانقسموا فرقاً بعضهم رأوا عدالة الطلب فنادوا بالتحكيم وبعضهم أبوا الا مداومة القتال وحدث ماقدره عمرو بن العاص من تفريق كلمة العلويين بحيلته فقال سيدنا علي حينئذٍ « اللهمّ ، انك تعلم ، انهم ما الكتاب يريدون ، فحكم بيننا وبينهم انك انت الحكم ، الحق المبين »

(١) فاز عمرو بن العاص بمكيدته ونال معاوية بغيته ودبّ الانقسام دبيبه في اصحاب سيدنا علي أمير المؤمنين فقال عدي بن حاتم الطائي يا أمير المؤمنين انه لم يصب منا عصبة الا وقد اصيب من أعدائنا مثلها وكلٌّ مقروح ولكنا أمثل بقيةً منهم وقد جزع القوم وليس بعد الجزع الا ما تحبّ فناجزهم . وأيد كلامه الاشتر النخعي فقال يا أمير المؤمنين انّ معاويةً لاخلف له من رجاله ولكن بحمد الله لك الخلف ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا نصرك فاقرع الحديد بالحديد واستعن بالله الحميد . ونهض عمرو بن الحمق فقال يا أمير المؤمنين انا والله ما أجبناك ولا نصرناك على الباطل ولا أجبنا الا الله ولا طلبنا الا الحقّ ولو دعانا غيرك الى ما دعوتنا اليه لاستشرى فيه اللجاج وطالت فيه النجوى وقد بلغ الحقّ مقطعه وليس لنا معك راي . فاعترض هؤلاء الاشعث وقد كان وجهه الغضب وقال يا أمير المؤمنين أنّا لك اليوم على ما كنا عليه أمس وليس آخر أمرنا كأوله وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر على أهل الشام مني ومع ذلك

فَأَمَّهَا كَرَمًا كَيْمَا يُشَافِهَهَا   بِمَا لَهُ ٱجْتَمَعَتْ لَا كَيْ يُمَارِيَهَا

وَقَالَ : إِنِّيَ يَاقَوْمِي أَحَقُّكُمُ   بِآيِ رَبِّيَ إِنْ نَادَى مُنَادِيهَا

لٰكِنْ دُعَاةُ كِتَابِ ٱللهِ قَدْ طَلَبَتْ   بِمَا دَعَتْ أَنْ تُرَاشِيَ مُسْتَجِيبِيهَا

إِنِّي لَأَعْرَفُ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ بِهَا   وَبِٱلَّذِي تَبْتَغِيهِ فِي مَرَامِيهَا

صَحِبْتُهَا طِفْلَةً مِنْ يَوْمِ نَشْأَتِهَا   حَتَّى أَشَابَتْ لَيَالِيهَا نَوَاصِيهَا

يَاقَوْمِ دَعْوَتُهَا حَقٌّ ارِيدَ بِهِ   بُطْلٌ يُغَشِّي عَلَى أَبْصَارِ مُصْغِيهَا

بَلْ كَيْ تُخَادِعَكُمْ تُوهِيْ عَزَائِمَكُمْ   تُكِيدَكُمْ بَعْدَ أَنْ أَعْيَا تَلَطِّيهَا

أَهْلَ ٱلْجِهَادِ أَعِيرُونِي سَوَاعِدَكُمْ   سُوَيْعَةً فِيهَا وَٱللهِ أُفْنِيهَا

قَدِ ٱنْتَهَى ٱلْحَقُّ يَاقَوْمِي بِمَقْطَعِهِ   إِلَى ٱلْعِدَاةِ ٱلَّتِي جَارَتْ لِيُرْدِيهَا

فَأَيِّدُوهُ أَعِيرُوهُ جَمَاجِمَكُمْ   لِيَجْلُوَنَّ عَنِ ٱلدُّنْيَا ٱلتَّرَارِيهَا

وَكَانَ حَيْدَرَةٌ يُلْقِي خِطَابَتَهُ   بِغَيْرَةٍ تَأْسُرُ ٱلْأَلْبَابَ تَسْبِيهَا

فَلَمْ تُؤَثِّرْ عَلَى ٱلسُّمَّاعِ وَا أَسَفَ ٱلْإِ م   سْلَامِ تَاللهِ لَمْ تُدْرِكْ مَعَانِيهَا

وَصَاحَ عِشْرُونَ أَلْفًا مِنْ جَمَاعَتِهِ   بِهِ : أَلَا أَبْلِغِ ٱلْأَعْدَا أَمَانِيهَا

أَلَا أَجِبْهَا إِلَى حُكْمِ ٱلْكِتَابِ وَحَا   شَا آيَهُ أَنْ نُعَادِيَ مَنْ يُصَافِيهَا

اقول أجب القوم الى كتاب الله عزّ وجلّ فانّك احقّ بهمنهموقدأحبّ الناس البقاء وكرهوا القتال

أصغى سيدنا أمير المؤمنين الى ما قال اصحابه بصدر رحب حتى اذا ما ابدى كلٌّ منهم ما عنده أرسل اليهم نظرةً تخترق مكنونات صدورهم وقال : ايها الناس ، اني أحقّ من اجاب الى كتاب الله ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن ابي معيط وابن ابي سرح وابن مسلمة (وهؤلاء كانوا الباقين من زعماء أهل الشام) ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ، اني اعرف بهم منكم ، صحبتهم صغاراً ورجالاً ، فكانوا شرّ صغار وشرّ رجال ، ويحكم انها كلمة حق يراد بها باطل ، انهم ما رفعوا المصاحف وهم يعرفونها ويعملون بها ، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة ، اعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعةً واحدة ، فقد بلغ الحقّ مقطعه ، ولم يبق الا ان يقطع دابر الذين ظلموا » وما كاد ينتهي أمير المؤمنين من كلماته الدرية التي برهن بها على انه ادرك حقّ الادراك سر مكيدة عمرو ابن العاص ومعاوية وانه يرى انّ ساعة النصر قد دنت حتى دوت اصوات عشرين الفاً من رجاله ايلت نحوه بزعامة مسعر بن فدكي وزيد بن الحصين وعصابة من القراء الذي صاروا خوارج فيما بعد وطفقوا ينادون بملء اصواتهم « يا أمير المؤمنين ، يا علي ، أجب القوم الى كتاب الله ، اذ دعيت اليه ، والاّ قتلناك كما قتلنا بن عفان ، فوالله لنفعلنّها ان لم تجبهم » فخرج سيدنا علي

أَجِبْ وَإِلاَّ فَإِنَّا قَاتِلُوكَ كَقِتْلَةِ ٱبْنِ عَفَّانَ هَا إِنَّا نُثَنِّيهَا
وَبَعْدَ ذَاكَ أَلَحَّتْ فِي مُوَادَعَةِ ٱلْعِدَى وَمَا قَبِلَتْ إِلاَّ تَوَخِّيهَا
وَقَدْ أَصَمَّتْ وَمَا أَصْغَتْ مَسَامِعُهَا عَنْ بَيِّنَاتِ عَلِيٍّ وَهُوَ يُبْدِيهَا
وَهِيَ ٱلْخَوَارِجُ فِيمَا بَعْدُ قَدْ خَرَجَتْ عَلَى ٱلَّذِي أَكْرَهَتْهُ أَنْ يُهَابِيهَا

الشغب في جيش أمير المؤمنين

وَبَيْنَمَا عَنَتاً كَانَتْ تُغَاضِبُهُ وَكَانَ فِي حِلْمِهِ ٱلسَّامِي يُرَاضِيهَا
كَانَتْ طَلَائِعُهُ تَلْقَى أَعَادِيَهُ وَبِٱلْخَسَائِرِ وَٱلْأَرْزَاءِ تُمْنِيهَا

اليهم وطفق يلاطفهم ويتملقهم في مثل قوله « ويحكم ، أنا أول من دعا الى كتاب الله ، واول من أجاب اليه ، وليس يحلّ لي ولا يسعني في ديني ، أن أدعى الى كتاب الله فلا أقبله ، اني انما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن ، فانهم قدعصوا الله فيما أمرهم ، ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ، ولكني قد اعلمتكم انهم قد كادوكم ، وانهم ليس العمل بالقرآن يريدون » على ان هؤلاء أصرّوا على طلبهم وماكانت هذه الكلمات وامثالها من فم الحضرة المقدسة الحيدرية لتثنيهم عن طلبهم فاخذوا يحاورونه مصرّين على أجابة أهل الشام وترك الخصام وتحكيم القرآن

(١) عند ما خرج سيدنا أمير المؤمنين لملاقاة اولئك الالوف المؤلفة الطالبة اجابة أهل الشام الى ما طلبوه من تحكيم القرآن خرج الاشتر بطائفة من أبطال العراق قاصداً نهو الحرب على شفار السيوف معتقداً ان أهل الشام خارت عزائمهم فلا يلبثون ان يسلموا اليه ويدينوا قهراً الى أمير المؤمنين على انه ماكاد يدنو من اصحاب معاوية الا وتبعه بعض اصحابه ينبئه بأن طالبي الصلح والنزول على ماعرضه أهل الشام من تحكيم القرآن قد استفحل أمرهم حتى انهم يتهددون سيدنا أمير المؤمنين بالقتل وانه عليه صلوات الله قد رحب بهم صدره كثيراً وتلطف بهم جهده ونثر عليهم من مواعظه الشيء الكثير وما ارعووا فحوقل واسترجع وتردّد في أمر هجومه وبينما هو في تردّده جاء يزيد بن هاني من قبل أمير المؤمنين يدعوه اليه فلما انتهى اليه أخبره بحرج موقف سيدنا علي مع الناس وانه يدعوه الى الرجوع فقال الاشتر ارجع لامير المؤمنين وقل له : ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك ان تزيلني عن موقفي اني قد رجوت الفتح فلا تعجلني فرجع يزيد الى أمير المؤمنين واخبره بقول الاشتر فلما علمه الناس ازدادوا هرجاً ومرجاً وقالوا يا علي والله ما نراك الا أمرته بالقتال قال أرايتموني ناجيت رسولي سراً ؟ أما كلمته علانيةً اما مكم وانتم تسمعون ؟ قالوا فابعث اليه فليأتك والا فوالله اعتزلناك وقتلناك فقال امير المؤمنين ويحك يا يزيد اسرع الى الاشتر وقل له ان يقبل اليّ فان الفتنة قد وقعت فسرع يزيد الى الاشتر فاذا هو قد اعمل السيف برقاب أهل الشام ولاحت الغلبة لرجال أمير المؤمنين فخبره بامر المرتضى وانبأه نبأ الفتنة فقال الاشتر أبرفع المصاحف ثارت فتنتهم ؟ قال يزيد نعم قال الاشتر أما والله لقد ظننت انها حين رفعت ستوقع خلافاً وفرقة بين رجالنا انها مشورة ابن النابغة ثمّ قال لابن هاني ويحك الا ترى الى الفتح ؟ الا ترى الى ما يلقى اعداؤنا ؟ الا ترى الى ما يصنع الله لنا ؟ أينبغي ان ندع هذا وننصرف عنه ؟ فقال له يزيد أتحبّ انك ظفرت ههنا

يَقُودُهَا الأَشْتَرُ الغَازِي المُلَقَّبُ بالـكَبْشِ العِرَاقِيِّ لِلتَّغْلِيبِ يُمشِيهَا
وَإِذْ دَرَى ذَا بإلحافِ الخَوَارِجِ مَعْ تَشْدِيدِهَا عَادَ يَبْغِي أَنْ يُرَضِّيهَا
بِهَا لَقَدْ صَاحَ : يَا أَهْلَ المَذَلَّةِ وَالإِ م هَانِ يَا مَنْ أَبَتْ إِلاَّ تَرَاخِيهَا
أَمُذْ عَلَتْ رَايَةُ النَّصْرِ الأَكِيدِ عَلَى صَحْبِ الوَصِيِّ وَهَابَ القَهْرَ عَادِيهَا

وان أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يفرج عنه ويسلم الى عدوّه ؟ قال الاشتر سبحان الله ، لا والله ، لا أحبّ ذلك ، ولا حول ولا قوة الا بالله . وثنى عنان جواده وعاد ادراجه فتبعه اصحابه وكلهم آسفون على فوت النصر الذي لاحت لاعينهم بشائره وكاد يتمّ لهم

وعند ما بلغ الاشتر موقف أمير المؤمنين وجده بين الناس على مثل ما حدثه يزيد بن هاني‌ء وهم يتهددونه بالاعتزال عنه وبقتله ايضاً فصاح بهم والغضب آخذ منه مأخذه « يا أهل الذل والوهن ، أحين علوتم القوم ، وظنوا انكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم الى مافيها ، وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وتركوا سنة من انزلت عليه ، فلا تجيبوهم ، امهلوني فواقاً ، فاني قد أحسست بالفتح » . فاجابوه بلسان واحد لانمهلك كلا لانمهلك . قال فامهلوني عدوة الفرس ، فاني قد طمعت بالنصر . قالوا اذن ندخل معك في خطيئتك . فازداد كرب الاشتر وغيظه وقال حدثوني عنكم ، وقد قتل اماثلكم ، وبقي اراذلكم ، متى كنتم محقين ؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام ؟ فأنتم الآن حين امسكتم عن قتالهم مبطلون . أم انتم الآن في امساككم عن القتال محقون ؟ فقتلاكم اذن الذين لاتنكرون فضلهم ، وانهم خير منكم في النار ، قالوا دعنا منك يا اشتر قاتلناهم في الله ، وندع قتالهم في الله ، انا لسنا نطيعك فاجتنبنا . فقال خدعتم والله فانخدعتم ، ودعيتم الى وضع الحرب فأجبتم ، يا اصحاب الجباه السود ، كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا ، وشوقاً الى لقاء الله ، فلا أرى فراركم الا الى الدنيا من الموت ، الا فقبحاً لكم يا أشباه النيب الجلّالة ، ما أنتم برائين بعدها عزّاً أبداً ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون . وكان القوم والاشتر يخاطبهم بهذه الكلمات وهم يقاطعونه ويصفرون له ويمتهنونه ثمّ سبوه وسبهم وضربوا بسياطهم وجه دابته

واذ رأى سيدنا أمير المؤمنين ان الخطب قد استفحل صاح بالناس فكفوا وقال الاشتر : يا أمير المؤمنين احمل الصفّ على الصفّ تصرع القوم . فصاح الناس قائلين انّ أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن . فقال الاشتر ان كان امير المؤمنين قد قبل ورضي فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين . فصاح الناس بملء أصواتهم : قد رضي أمير المؤمنين ، قد قبل أمير المؤمنين

كل هذا جرى وسيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله ساكت واجم مطرق الى الارض لاينبث ببنت شفة ثمّ رفع رأسه الشريف وارسل نظرة الى الناس أهاب بهم فسكتوا فقال « ايها الناس : انّ أمري لم يزل معكم على ما أحبّ ، الى ان أخذت منكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، وأخذت من عدوّكم فلم تترك ، وانها فيهم أنكى وانهك ، الا انّي كنت أمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً ، فأصبحت منهياً ، وقد احببتم البقاء ، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون » وما انتهى سيدنا أمير المؤمنين من خطابه النفيس الدالّ على الآلام التي تشعر بها نفسه الطاهرة من فرقة الناس واختلافهم . الا وعاد الناس الى الجدال بين موافق على التحكيم وقائل باستئناف القتال والهرج آخذ مأخذه منهم حتى بات جمع كبير منهم من استحيل

وَقَدْ تَلَجَّتْ أَعَادِيكُمْ إِلَى نُسَخِ الْقُرْآنِ حَاسِبَةً فِيهَا مَنَاجِيهَا
وَقَدْ دَعَتْكُمْ لِآيَاتٍ مُطَهَّرَةٍ وَاللهِ لَمْ تَنحُ فِي يَوْمٍ نَوَاحِيهَا
خُدِعتُمْ بِالَّذِي قَالَتْ وَخَدْعَتُهَا قَبِلْتُمُوهَا كَمَا يَهْوَى مُعَاوِيهَا
وَاللهِ قَدْ تَرَكَتْ آيَ الْكِتَابِ وَسُنَّةَ النَّبِيِّ فَكَلَّا لَا نُلَاحِيهَا

« ترجمة الاشتر »

هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن خزيمة بن سعد بن مالك بن النخع ابن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أدد . أدرك الاسلام على عهد المصطفى فأسلم وحسن اسلامه وأخلص لرسول الله فكسب رضاءه وثقته وفي الحديث انهم ذكروا الاشتر امام المصطفى يوماً فقال « انه المؤمن » مشيراً بذلك الى قوة ايمانه وصحة عقيدته

وكان الاشتر أشهر أنصار سيدنا عليّ وأعوانه والقائلين بخلافته منذ وفاة المصطفى حتى قالوا انه كان لا يرى شرعية الخلافة لغير سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله . ولذلك يجعلونه أقدم وأعظم المتشيعين وأفضل من دافع عن حقوق وصيّ النبيّ الامين

وكان الاشتر في المسلمين الذين فتحوا العراق وفارس فأقام في الكوفة وبقي فيها وكان هناك في مدّة عثمان وكان مجاهراً بعداوة عثمان والنقمة على عماله الامويين . واتفق في أواخر أيام عثمان ان الوليد بن عقبة عامله على الكوفة كان يجهر بشرب الخمر واتيان المحرمات وكانت أعماله هذه بدء شكوى الكوفيين من عثمان فأخذوا يكتبون له عن أحوال عامله ويطلبون منه عزله وكان الاشتر زعيم هؤلاء الشاكين ولم ير عثمان بداً من ارضائهم بعزله فعزله وولى بدله سعيد بن العاص فلما قدم هذا الكوفة رأى من حسن السياسة أن يتألف من في تلك المدينة من العرب فجعل يكثر من دعوتهم الى مجالسه ومسامرتهم والعمل على اكتساب قلوبهم وهم لا ينفكون ناقمين غير راضين عما يجري في الخلافة وفي ذات ليلة بينما كان وجهاء قريش في الكوفة يسمرون في دار الامارة عند سعيد بن العاص قال هذا ان سواد العراق بستان لقريش عامةً ولبني أمية خاصةً فغضب الاشتر لقوله وقال أتزعم ان السواد الذي أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ ولم يكد يتم كلامه حتى انتهره صاحب الشرطة قائلاً ويلك يا أشتر أتردُّ على الامير مقالته ؟ وأغلظ له في الكلام فازداد الاشتر غضباً ومال الى من كان حوله من النخع وغيرهم من أشراف العرب المقيمين في الكوفة وقال ألا تسمعون ؟ فأخذتهم نخوة العرب ووثبوا على صاحب الشرطة بحضرة سعيد ووطئوه بأرجلهم وطئاً عنيفاً وجروه من رجله فغضب سعيد من هذه الموقعة وامتنع عن مسامرتهم وازدادوا هم كراهةً لعثمان وعماله وطفقوا يجهرون بسبهم والتشنيع بأعمالهم حتى استفحل أمرهم فأرسل سعيد يشكوهم الى عثمان فكتب هذا اليه يأمره بإبعادهم الى الشام فلما انتهى الى سعيد بن العاص أمر عثمان استدعى اليه الاشتر ومالك بن كعب الارحبي والاسود بن يزيد النخعي وعلقمة بن قيس النخعي وصعصعة بن صوحان العبدلي ومن نحا نحوهم بعداوة عثمان من العرب النازلين في الكوفة فلما اجتمعوا اليه قال لهم « انكم قوم من العرب ، ذوو اسنان (أي شيوخ) وألسنة ، وقد أدركتم بالاسلام شرفاً ، وغلبتم الامم وحزتم مواريثهم ، وقد بلغني انكم ذممتم قريشاً ، ونقمتم على الولاة فيها ، ولولا قريش لكنتم أذلة ، ان أئمتكم جنتكم ، ان أئمتكم ليصبرون لكم على الجور ،

يَاصَحْبَنَا أَمْهِلُونِي قَدْ شَعَرْتُ بِقُرْ بِ ٱلنَّصْرِ أَعْدَاؤُكُمْ حَانَتْ مَخَازِيهَا
وَكَانَ أَشْتَرُنَا يَتْلُوْ مَقَالَتَهُ وَٱلنَّاسُ يَصْخَبُ دَانِيهَا وَقَاصِيهَا
وَطَالَمَا قَاطَعَتْهُ غَيْرَ رَاضِيَةٍ عَنْهَا تُصَغِّرُ تَصْغِيراً لِتَالِيهَا

ويحتملون فيكم العتاب ، والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم الخسف ، ولا يحملكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم ، وبعد وفاتكم » فجبهوه وردوا قوله وأغلظوا له وهو يحاول أن يحملهم على الخضوع فيأبون فلم ير الا أن ينفذ أمر عثمان فنفاهم الى الشام

ولما بلغ الاشتر وأصحابه الشام أكرم معاوية مثواهم وتلطف بهم وأغدق عليهم الخير وهو يريد أن يتألفهم فما أفلح وظلوا يشنعون بعثمان وعماله في مجالسه وبين الناس حتى أعجزه أمرهم فكتب الى عثمان يستأذنه بارجاعهم الى الكوفة حتى لا يفسدوا عليه أهل الشام فأذن له بذلك فأرسلهم بطريق حمص وكتب الى عاملها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ان يعوقهم عنده ويشدد عليهم فاستقبلهم عبد الرحمن بوجه عابس وقال لهم « يابني الشيطان ، لا مرحباً بكم ، ولا أهلاً ، قد رجع الشيطان محسوراً ، وأنتم بعد في بساط ضلالكم وغيكم ، خزى الله عبد الرحمن (ويريد نفسه) ان لم يؤذكم يامعشر من لا أدري أعرب هم أم عجم ؟ أتراكم تقولون لي ماقلتم لمعاوية ؟؟ أنا ابن خالد بن الوليد ، أنا ابن من عجمته العاجمات ، أنا ابن فقي عين الردة ، والله ياأشتر ويا ابن صوحان ويا جميكم ، لأطيرن بكم طيرة بعيدة المهوى ، ان بلغني عنكم ما أكره » وبعد هذا أمر أن يقيموا في دار وأن يجري عليهم رزقهم بالتقتير وكان كلما ركب أمشاهم في ركابه أذلاء فهيبوا شدته وصبروا على أذاه وطفقوا يظهرون له التوبة فصدقهم وكتب الى عثمان يستأذنه بارجاعهم الى الكوفة وانه كبح جماحهم وأكرههم على الطاعة فأطاعوا . فأذن عثمان بر جوعهم فرجعوا اليها وكان أول عمل أتوه فيها ان ساروا بأهل الكوفة الى المدينة يطلبون خلعه واشتركوا فعلاً بحصاره فقتله على ما مر بنا في حاشية سابقة

وكان الاشتر اول المنادين بعد مقتل عثمان بخلافة سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله وأقرب المقربين اليه وكان الامير يعتمد عليه ويثق باخلاصه ويستشيره بمهام الخلافة ويحترمه غاية الاحترام . وحدث ان سيدنا علي ولى على الحجاز واليمن والعراق بعض أبناء عمه العباس فقال الاشتر علناً في أحد مجالسه « ها علي قد استعمل أبناء عمه على عمالات المسلمين فلماذا قتلنا الشيخ (ويريد عثمان) بالامس ؟! » فبلغ قوله هذا مسامع الحضرة المقدسة الحيدرية فاستدعاه اليه وقال له : « بلغني يامالك انك قلت كيت وكيت وللك الحق والله فيما قلت ولكن هل وليت حسناً أو حسيناً أو أحداً من أولاد أخي جعفر أو أخي عقيلاً أو أحد أولاده عملاً من أعمال المسلمين ؟ اللهم لا . وانما وليت أولاد عمي العباس لاني سمعت عمي العباس رحمه الله يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمرة مراراً فقال له « ياعم ان الامارة ان طلبتها وكلت اليها وان طلبتك أعنت عليها » وقد رأيت بنيه في أيام عمر وعثمان يجدون في أنفسهم ان ولي غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يول أحد منهم فأحببت أن أصل رحمهم وأزيل ما كان في أنفسهم . وبعد فان علمت احداً من أبناء الطلقاء هو خير منهم فأتني به » فلما سمع الاشتر اعتذار أمير المؤمنين عذره على عمله واعتذر عما قال فقال امير المؤمنين : لا تعتذر فان النصيحة اخلاص في الصداقة . ومن هذه القصة يتضح لنا ما كان عليه الاشتر من الاخلاص والصراحة في قوله وعمله

حَتَّى إِذَامَا ٱنْتَهَى مِنْ سَرْدِهَا بَدَرَتْـــهُ بِٱلصُّرَاخِ وَهَجْرُ ٱلْقَوْلِ فِي فِيهَا
قَالَتْ: فَلَا، مَهْلَةً تَخْطِي خَطِيئَتَكَ ٱلْـــكُبْرَى بِهَا فَلْيَخَفْ بَارِيهِ مُخْطِيهَا
فَاغْتَاظَ مَالِكُ مِنْ هٰذَا ٱلْجَوَابِ وَأَنْــــلَى صَحْبَهُ ٱلْقَوْلَ تَأْنِيباً وَتَأْنِيبُهَا

والاشتر هو الذي أشار على سيدنا علي عليه صلوات الله بالابقاء على أبي موسى الاشعري في امارة الكوفة عند بيعته وقبل الامام مشورته لثقته به وللمه انه أخبر الناس بأهل الكوفة فلما حل أمير المؤمنين الربذة عند ماسار لحرب الجمل وارسل يستنصر بأهل الكوفة واظهر ابو موسى التراخي في نصرته على ماتقدم القول في حاشية سبقت نادى سيدنا علي الاشتر وقال له معاتباً هذا صاحبك الذي اشرت ان نبقيه على الكوفة فغضب الاشتر وسار على الفور الى الكوفة وعزل أبا موسى وجاء بمقاتلة الكوفة لحرب الجمل على ماوأينا

وقد أبلى الاشتر في حرب الجمل اعظم بلاء ومن مواقعه انه بارز عبد الله بن الزبير وكلاهما على ظهر جواده وتماسكا متصارعين وارتميا الى الارض فكان الاشتر فوق عبد الله بن الزبير فجعل عبد الله يصرخ من تحته

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

ولشدة اختلاط الناس وثوران النقع ما فهم اصحاب الجمل قوله ولو قال اقتلوني والاشتر لقتلوهما وقتلتهما معاً على ان عبد الله بن الزبير أفلت بعد جهاد كثير من تحت الاشتر لان هذا كعادته كان يخرج الى الحرب بعد ان يمتنع عن الاكل ثلاثة ايام

وبعد نهاية وقعة الجمل زار الاشتر عائشة فقالت له يامالك أنت الذي صنعت بابن اختي ماصنعت ؟ قال نعم ولولا اني كنت طاوياً ثلاثة أيام لارحت امة محمد منه . فقالت أما علمت أن رسول الله قال « لايحل دم المسلم الا باحدى امور ثلاث : كفر بعد ايمان أو زنى بعد احصان أو قتل نفس بغير حق » فقال الاشتر على بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا ام المؤمنين وأيم الله ماخانني سيفي قبلها ولقد أقسمت ان لايخونني بعدها ثم قال على البداهة

أعايش لولا انني كنت طاوياً	ثلاثاً لالفيت ابن اختك هالكا
غداة ينادي والرجال تحوزه	باضعف صوت اقتلوني ومالكا
فلم يعرفوه اذ دعاهم وغمه	خدب عليه في العجاجة باركا
فنجاه مني اكله وشبابه	واني شيخ لم أكن متماسكا
وقالت على أي الخصال صرعته	بقتل أتى أم ردة لا أبالكا
أم المحصن الزاني الذي حل قتله	فقلت لها لابد من بعض ذلكا

فقطبت عائشة وجهها وقالت احمد الله الذي انقذ عبد الله لاسماء واني عند ماسمعت انه خرج لمبارزتك صحت « واثكل اسماء »

وقد رأينا كيف كان الاشتر من اعاظم القواد الذين صحبوا سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله الى صفين واشرنا الى بعض مواقعه العظيمة فيها ونقول ان سيدنا أمير المؤمنين بعد أن رجع الى الكوفة وكان ما كان من امر التحكيم على ماسيمر بنا أناط بالاشتر عمالة الجزائر فكان مقامه في « نصيبين » وارسل محمد بن أبي بكر اميراً على مصر فلم يقو محمد على حكم البلاد لكثرة الدسائس التي كان يدسها معاوية وعمرو بن العاص له فارسل يشكو امره الى سيدنا علي فما رأى عليه صلوات

وَقَالَ أَنجَابُكُمْ مَاتَتْ وَوَا أَسَفَا ۝ أَيُّ خَيْرٍ لَيُرْجَى مِنْ بَوَاقِيهَا
يَاوَيْحَكُمْ أَخْبِرُونِي عَنْ مَوَاقِفِكُمْ ۝ مَتَى بِحَقِّكُمُ كُنتُمْ مُحِلِّيهَا
أَأَمْسِ كُنتُمْ عَلَى حَقٍّ بِقَتْلَةِ أَهْلِ الشَّامِ وَالْيَوْمَ مَاعُدْتُمْ مُحِقِّيهَا

الله لضبط حكم مصر الا الاشتر عامله على الجزيرة فكتب اليه يقول « اما بعد ، فانك ممن استظهر به على اقامة الدين ، وأقمع به نخوة الاثيم ، وأسدُّ به الثغر المخوف ، وقد كنتُ ولَّيتُ محمداً بن أبي بكر مصر ، فخرجت عليه خوارج وهو غلامٌ حدث السنّ ، ليس بذي تجربة للحروب ، فأقدم عليَّ لننظر فيما ينبغي ، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من اصحابك والسلام » فلما وصل هذا الكتاب الى يد الاشتر اسرع الى الكوفة وتباحثا ملياً في أمر مصر ومطامع عمرو بن العاص ومعاوية فيها وقرّ رأياهما على أن يخرج الاشتر الى مصر وهكذا سار متوجهاً اليها

وكان لمعاوية في الشام العيون والارصاد في الكوفة فبادروه بنبأ تعيين الاشتر لمصر وخروجه اليها فعظم ذلك عليه ودعا واحداً من اعوانه وكان من موالي آل عمر وطلب منه أن يستعمل دهاءه في اغتيال الاشتر بحيلة فسار الرجل الى الميناء التي كان يقصدها المسافرون من العراق الى مصر على البحر الاحمر لانهم كانوا يقصدون مصر براً واقام فيها الى ان وصل الاشتر فتقرّب منه بما ذكره له من فضل سيدنا علي وبني هاشم وذمّ الامويين حتى وثق به واطمأنّ اليه فاحتال ان دسّ له السمّ في شرابه فمات وكان ذلك في اليوم الثالث لوصوله الى الميناء التي كان يقصدمنها مصر على السفن ثمّ اختفى الرجل فلم يعثر عليه اصحاب الاشتر

وكانت وفاة الاشتر سنة ٣٩ للهجرة ولما بلغ سيدنا علي نعيه أكبر المصاب فيه وجزع عليه وقال « انا لله وانا اليه راجعون ، والحمد لله ربّ العالمين ، اللهمّ اني احتسبه عندك فانّ موته من مصائب الدهر » قل هذا وبكى ثمّ قال « رحم الله مالكاً ، فقد وفى بعهده ، وقضى نحبه ، ولقي ربه ، وقد وطنا انفسنا أن نصبر على كلّ مصيبةٍ ، بعدمصابنا برسول الله، فانها من اعظم المصيبات » اه

وعلى ذكر الاشتر هذا يخلق بنا ان ننشر عهد سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله اليه عند ما ولاه مصر وفي هذا العهد من ضروب السياسة وفنون الحكمة في سياسة الرعية ما يخلق به ان يكتب على الواح بماء الذهب ويعلق على جدران دور الحكام ليتأدبوا بأدبه ويعملوا به لتسعد الرعية وتعمر البلاد وهو وحده يشهد لسيدنا أمير المؤمنين بأنه افضل من حكم الناس وخير من جاء للحكم بالقسطاس واحكم من سطر السياسة الحكيمة على صفحات القرطاس وهاك العهد

العهد العلوي العظيم

﴿ وهو افضل ما كتب في سياسة الرعية على الخطط الديموقراطية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به أمير المؤمنين عبد الله علي بن أبي طالب ، مالك بن الحارث الاشتر النخعي ، في عهده اليه ، حين ولاه مصر ، جباية خراجها ، وجهاد عدوّها ، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها أمره بتقوى الله وايثار طاعته ، واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا

قَالُوا : فَفِي ٱللهِ عَادَيْنَا ٱلشَّامَ وَنَحْنُ ٱلآنَ فِي ٱللهِ صَفْوَ ٱلْوِدِّ نُصْفِيهَا
لَسْنَا نُطِيعُكَ دَعْنَا مِنْكَ وَٱجْتَنِبَنْ جَمَاعَةً لَسْتَ أَهْلاً أَنْ تُدَانِيهَا
فَٱشْتَدَّ غَيْظُ فَتَى ٱلْهَيْجَاءِ وَهُوَ يَرَى هَا تَرْفُضُ ٱلنُّصْرَةَ ٱلْعُظْمَى وَتَقْصِيهَا

يسعد أحد الا باتباعها ، ولا يشقى الا مع جحودها واضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فانه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره ، واعزاز من أعزه .

وأمره أن يكسر نفسه عند الشهوات ، ويزعها عند الجمحات ، فان النفس أمارة بالسوء الا ما رحم الله.

ثم اعلم يا مالك : اني قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ، وان الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من امور الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وانما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده ، فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هواك ، وشح بنفسك ، على ما لا يحل لك ، فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحبت أو كرهت ، واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم اكلهم ، فانهم صنفان : اما أخ لك في الدين ، أو نظير لك في الخلق ، يفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك ، مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فانك فوقهم ، ووالي الامر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك ، وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم .

ولا تنصبن نفسك لحرب الله ، فانه لايدي لك بنقمته ، ولا غنى لك عن عفوه ورحمته ، ولا تندمن على عفو ، ولا تبجحن بعقوبة ، ولا تسرعن الى بادرة وجدت منها مندوحة ، ولا تقولن اني مؤمر آمر فأطاع ، فان ذلك ادغال في القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرب من الغير ، واذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة ، فانظر الى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك ، على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فان ذلك يطامن اليك من طماحك ، ويكف عنك من غربك ، ويفيء اليك بما عزب عنك من عقلك .

اياك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه في جبروته ، فان الله يذل كل جبار ، ويهين كل مختال.

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فانك ألا تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحض حجته ، وكان لله حرباً له حتى ينزع ويتوب ، وليس شيء أدعى الى تغيير نعمة الله ، وتعجيل نقمته ، من اقامة على ظلم ، فان الله سميع دعوة المضطهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد .

وليكن أحب الامور اليك ، أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، واجمعها لرضى الرعية ، فان سخط العامة ، يجحف برضى الخاصة ، وان سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة ، وليس أحد من الرعية اثقل على الوالي مؤونة في الرخاء ، واقل معونة له في البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالالحاف ، واقل شكراً عند الاعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة ، وانما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للاعداء ، العامة من الامة ، فليكن صغوك لهم ، وميلك معهم .

وليكن أبعد رعيتك منك ، واشنؤهم عندك ، أطلبهم لمعايب الناس ، فان في الناس عيوباً

وَأَكْثَرَ اللَّوْمَ وَالتَّعْنِيفَ وَاحْتَدَمَ الْـجِدَالُ مَعَ مَنْ تُلَاحِي مَنْ يُلَاحِيهَا
وَأُوقِظَتْ فِتْنَةٌ شَعْوَاءُ وَالْتَهَبَتْ نِيرَانُهَا وَعَلِيٌّ هَمُّ يُطْفِيهَا
فَصَاحَ بِالْقَوْمِ لَا تُعْطُوا نُفُوسَكُمُ أَهْوَاءَهَا حَسْبُهَا مُؤْذِي تَلَاحِيهَا

الوالي أحق من سترها ، فلا تكشفن عمّا غاب عنك منها ، فانما عليك تطهير ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت ، يستر الله منك ما تحبّ ستره من رعيتك.

أطلق عن الناس عقدة كلّ حقد ، واقطع عنك سبب كل وتر ، وتغاب عن كلّ ما لا يصح لك ، ولا تعجلنّ الى تصديق ساعٍ ، فانّ الساعي غاشّ وان تشبه بالناصحين.

ولا تدخلنّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ، ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الامور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فانّ البخل والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظن بالله.

انّ شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانةً ، فانهم اعوان الائمة ، واخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ، ولا آثماً على اثمه ، أولئك أخفّ عليك مؤونةً ، وأحسن لك معونةً ، وأحنى عليك عطفاً ، واقلّ لغيرك الفاً ، فاتخذ اولئك خاصةً لخلواتك وحفلاتك ، ثمّ ليكن آثرهم عندك ، أقولهم بمرّ الحقّ لك ، وأقلّهم مساعدة فيما يكون منك ، مما كره الله لاوليائه ، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع.

والصق بأهل الورع والصدق ، ثمّ رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله ، فان كثرة الاطراء تحدث الزهو ، وتدني من العزّة.

ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، فانّ في ذلك تزهيداً لاهل الاحسان في الاحسان ، وتدريباً لاهل الاساءة ، والزم كلاً منهم ما ألزم نفسه ، واعلم أنه ليس شيء بادعى الى حسن ظن راع برعيته ، من احسانه اليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم ، وترك استكراهه اياهم ، على ما ليس قبلهم ، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك ، فانّ حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً ، وانّ أحقّ من حسن ظنك به ، لمن حسن بلاؤك عنده ، وانّ من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقض سنةً صالحةً عمل بها صدور هذه الامة ، واجتمعت بها الالفة ، وصلحت عليها الرعية ، ولا تحدثنّ سنةً تضر بشيء من ماضي تلك السنن ، فيكون الأجر لمن سنها ، والوزر عليك بما نقضت منها . وأكثر مدارسة العلماء ، ومناقشة الحكماء ، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، واقامة ما استقام به الناس قبلك.

واعلم انّ الرعية طبقات ، لا يصلح بعضها الا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار واهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة ، وكلّ قد سمى الله سهمه ، ووضع على حده فريضه في كتابه ، أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله ، عهداً منه عندنا محفوظ .

فالجنود باذن الله حصون الرعية ، وزين الولاة ، عزّ الدين وسبل الامن ، وليس تقوم الرعية الا بهم ، ثمّ لا قوام للجنود الا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به في جهاد عدوهم ،

فَقَالَ مَالِكُ : بَادِرْ بِٱلصُّفُوفِ أَمِيـــرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى ٱلأَعْدَا لِتُرْدِيَهَا
فَصَاحَتِ ٱلنَّاسُ: رَاضِيْ ٱلْمُرْتَضَى بِحُكُومَةٍ كِتَابُ إِلٰهِ ٱلْعَرْشِ قَاضِيهَا
ثُمَّ تَوَالَى صِيَاحُ ٱلنَّاسِ : إِنَّ أَمِيــرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱرْتَضَاهَا لَاتُؤَنِّبَنْهَا

ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم، ثمّ لاقوام لهذين الصنفين الا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب ، لما يحكمون المعاقد ، ويجمعون من المنافع ، ويؤتمنون عليه من خواص الامور وعوامها ، ولا قوام لهم جميعاً الا بالتجار وذوي الصناعات ، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ، ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بأيديهم، مالا يبلغه رفق غيرهم ، ثمّ الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم، وفي الله لكل سعة، ولكلّ على الوالي حقّ بقدر ما يصلحه ، وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك، الا بالاهتمام والاستعانة بالله، وتوطين نفسه على لزوم الحقّ والصبر عليه ، فيما خفّ عليه أو ثقل ، فولِّ من جنودك ، أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولامامك ، وأنقاهم جيباً ، وأفضلهم حلماً ، ممن يبطئ عن الغضب، ويستريح الى العذر ، ويرأف بالضعفاء ، وينبو على الاقوياء ، وممن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف .

ثمّ الصق بذوي الاحساب ، وأهل البيوتات الصالحة، والسوابق الحسنة ، ثمّ أهل النجدة والشجاعة ، والسخاء والسماحة ، فنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف ، ثمّ تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمنّ في نفسك شيء قويتهم به ، ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وان قلّ ، فانه داعية لهم الى بذل النصيحة لك ، وحسن الظنّ بك ، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها ، فانّ لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه .

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته ، وأفضل عليهم من جدته، بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم، حتى يكون همهم هماً واحداً في جهاد العدوّ ، فان عطفك عليهم، يعطف قلوبهم عليك.

وانّ أفضل قرّة عين الولاة ، استقامة العدل في البلاد ، وظهور مودّة الرعية ، وانه لا تظهر مودّتهم الا بسلامة صدورهم ، ولا تصحّ نصيحتهم الا بحيطتهم على ولاة أمورهم، وقلة استثقال دولهم ، وترك استبطاء انقطاع مدتهم ، فافسح في آمالهم ، وواصل في حسن الثناء عليهم ، وتعديد ما أبلى ذوي البلاء منهم ، فانّ كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزّ الشجاع ، وتحرّض الناكل ان شاء الله ، ثمّ اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضيفنّ بلاء امرئ الى غيره ، ولا تقصرنّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرئ الى ان تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرئ الى ان تستصغر من بلائه ما كان عظيماً .

واردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ، ويشتبه عليك من الامور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحبّ ارشادهم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) فالردّ الى الله، الاخذ بمحكم كتابه، والردّ الى الرسول، الاخذ بسنته الجامعة غير المفرّقة.

ثمّ اختر للحكم بين الناس، أفضل رعيتك في نفسك، ممن لا تضيق به الامور ، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع،

وَكَانَ حَيْدَرَةٌ وَسْطَ ٱلْمَشَاغِبِ فِيْ ... جَالٍ مِنَ ٱلْهَمِّ هَالَتْ قَلْبَ رَائِيهَا
فَلَمْ يَفُهْ وَهُوَ سَاهٍ سَاكِتٌ يَتَرَ ... وَّى بِالْحُكُومَةِ يُلْفِي ٱلْمَكْرَ غَاشِيَهَا
حَتَّى إِذَا خَفَتَتْ صَيْحَاتُهَا نَهَضَ ٱلْإِ ... مَامُ يَخْطُبُ فِيهَا وَهُوَ رَائِيهَا

ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرُّماً بمراجعة الخصم ، واصبرهم على تكشف الامور، واصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه اطراء، ولا يستميله اغراء ، وأولئك قليل ، ثم أكثر تعاهد قضائه ، وافسح له في البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته الى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ، ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك، فانظر في ذلك نظراً بليغاً ، فان هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الاشرار، يعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا.

ثمَّ انظر في أمور عمالك، فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محاباةً واثرةً، فانهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء، من أهل البيوتات الصالحة ، والقدم في الاسلام المتقدمة ، فانهم أكرم أخلاقاً ، وأصحُّ أعراضاً ، وأقلُّ في المطامع اشرافاً ، وأبلغ في عواقب الامور نظراً ، ثمَّ أسبغ عليهم الارزاق ، فانَّ ذلك قوةٌ لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك، أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فان تعاهدك في السرّ لامورهم ، حدوة لهم على استعمال الامانة ، والرفق بالرعية، وتحفظ من الاعوان، فان أحد منهم بسط يده الى خيانة، اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتفيت بذلك شاهداً، فبسطت عليه العقوبة في بدنه ، وأخذته بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ، ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التهمة .

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فانَّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم ، لانَّ الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الارض، أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لانَّ ذلك لا يدرك الا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره الا قليلاً ، فان شكوا ثقلاً أو علةً ، أو انقطاع شرب أو بالة، أو احالة أرض اغتمرها غرق، أو اجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلنَّ عليك شيء خففت به المؤونة عنهم ، فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك ، وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم ، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم ، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك لهم ، والثقة منهم ، بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم ، فربما حدث من الامور ما اذا عوَّلت فيه عليهم من بعد، احتملوه طيبة أنفسهم به ، فانَّ العمران محتمل ما حملته ، وانما يؤتى خراب الارض من اعواز أهلها ، وانما يعوز أهلها اشراف أنفس الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر .

ثمَّ انظر في حال كتَّابك ، فولِّ على أمورك خيرهم ، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكايدك وأسرارك ، بأجمعهم لوجوه صالح الاخلاق، ممن لا تبطره الكرامة ، فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأٍ ، ولا تقصر به الغفلة عن ايراد مكاتبات عمالك عليك ، واصدار جواباتها على الصواب عنك، فيما يأخذ لك ويعطي منك ، ولا يضعف عقداً اعتقده لك ، ولا يعجز عن اطلاق ما عقد

فقَالَ : يَاقَوْمِ أَمْرِي لَمْ يَزَلْ مَعَكُمْ ‏ كَمَا أُحِبُّ بِكُمْ نَفْسِي أُهَنِّيهَا
إِلَى مَوَاقِفِنَا ذَا الْيَوْمَ حَيْثُ رَأَيْنَا الْحَرْبَ قَدْ أَكْثَرَتْ فِيكُمْ أَضَاحِيهَا
وَإِنْ تَكُنْ أَخَذَتْ ذِي الْحَرْبُ مِنْكُمْ لَكِنْ فِي عِدَاتِكُمْ أَرْبَى تَقَصِّيهَا

عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الامور ، فانّ الجاهل بقدر نفسه ، يكون بقدر غيره أجهل ، ثمّ لا يكن اختيارك اياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ، فان الرجال يتعرّفون لفراسات الولاة بتصنعهم ، وحسن خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والامانة شيء ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك ، فاعمد لاحسنهم كان في العامة أثراً ، وأعرفهم بالامانة وجهاً ، فانّ ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره ، واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم ، لا يقهره كبيرها ، ولا يتشتت عليه كثيرها ، ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته .

ثمّ استوص بالتجار وذوي الصناعات ، وأوص بهم خيراً ، المقيم منهم ، والمضطرب بماله ، والمترفق ببدنه ، فانهم مواد المنافع ، وأسباب المرافق ، وجلابها من المباعد والمطارح ، في برّك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ، ولا يجترؤن عليها ، فانهم سلم لا تخاف بائقته ، وصلح لا تخشى غائلته ، وتفقد أمورهم بحضرتك ، وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أنّ في كثير منهم ضيقاً فاحشاً ، وشحاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً في البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة ، وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار ، فانّ رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه ، وليكن البيع بيعاً سمحاً ، بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع ، فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه ، فنكل به ، وعاقبه من غير اسراف .

ثمّ الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، والمساكين والمحتاجين ، وأهل البؤسى والزّمنى ، فان في هذه الطبقة قانعاً ومعترّاً ، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك ، وقسماً من غلات صوافي الاسلام في كل بلد ، فانّ للاقصى منهم مثل الذي للأدنى ، وكلّ قد استرعيت حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطر ، فانّك لا تعذر بتضييع التافه ، لاحكامك الكثير المهم ، فلا تشخص همك عنهم ، ولا تصعر خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون ، وتحقره الرجال ، ففرّغ لاولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع ، فليرفع اليك أمورهم ، ثمّ اعمل فيهم بالاعذار الى الله يوم تلقاه ، فان هؤلاء من بين الرعية أحوج الى الانصاف من غيرهم ، وكلّ ، فاعذر الى الله في تأدية حقه اليه ، وتعهد أهل اليتم ، وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ، ولا ينصب للمسألة نفسه ، وذلك على الولاة ثقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة ، فصبروا أنفسهم ، ووثقوا بصدق موعد الله لهم .

واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عاماً ، فتتواضع فيه لله الذي خلقك ، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في غير موطن ، (لن تقدّس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القويّ غير متتعتع) ، ثم احتمل الخرق منهم والعيّ ، ونحّ عنهم الضيق والأنف ، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ، ويوجب ثواب طاعته ، وأعط ما أعطيت هنيئاً ، وامنع في اجمال واعذار .

قَدْ أَنْهَكْتُهَا وَأَنْكَتُّ فِي جَمَاعَتِهَا ... وَخَلَّفْتُهَا يَخَافُ ٱلْقَهْرَ طَاغِيهَا
أَنَا عَلِيٌّكُمْ قَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيـــرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... وَآمَالِي أُجَرِّيهَا
فَصِرْتُ ذَا ٱلْيَوْمَ مَأْمُوراً أُنَفِّذُ أَطْـــمَاعاً لَكُمْ ... وَأَمَانِيكُمْ أُوَاتِيهَا
إِنَّ ٱلْبَقَاءَ لَقَدْ أَحْبَبْتُمُ وَأَنَا ... مَا عُدْتُ أَمْنَعُ عَنْ رُغْبَى مُحِبِّيهَا

ثمّ أمور من أمورك لا بدّ لك من مباشرتها ، منها اجابة عمالك بما يعيا عنه كتّابك ، ومنها اصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك ، بما تحرج به صدور أعوانك ، وأمض لكل يوم عمله ، فانّ لكل يوم مافيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت ، وأجزل تلك الاقسام ، وان كانت كلها لله ، اذا صلحت فيها النية ، وسلمت منها الرعية .

وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك ، اقامة فرائضه التي هي له خاصة ، فاعط الله من بدنك ، في ليلك ونهارك ، ووفّ ما تقرّبت به الى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص ، بالغاً من بدنك ما بلغ ، واذا قمت في صلاتك للناس ، فلا تكوننّ منفراً ولا مضيعاً ، فانّ في الناس من به العلة ، وله الحاجة ، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهني الى اليمن كيف أصلي بهم ؟ فقال (صلّ بهم كصلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رحيماً) .

وأما بعد هذا ، فلا تطولنّ احتجابك عن رعيتك ، فانّ احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق ، وقلة علم بالامور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، ويقبح الحسن ، ويحسن القبيح ، ويشاب الحقّ بالباطل ، وانما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الامور ، وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، وانما أنت أحد رجلين ، اما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ، ففيم احتجابك ، من واجب حقّ تعطيه ، أو فعل كريم تسديه ، أو مبتلى بالمنع ، فما أسرع كفّ الناس عن مسألتك ، اذا أيسوا من بذلك ، مع انّ أكثر حاجات الناس اليك ، مما لا مؤونة فيه عليك ، من شكاة مظلمة ، أو طلب انصاف في معاملة .

ثمّ انّ للوالي خاصة وبطانة ، فيهم استئثار وتطاول ، وقلة انصاف في معاملة ، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الاحوال ، ولا تقطعنّ لاحد من حاشيتك وخاصتك قطيعة ، ولا يطمعنّ منك في اعتقاد عقدة تضرّ بمن يليها من الناس ، في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم ، فيكون مهنأ ذلك لهم دونك ، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة .

والزم الحقّ من لزمه من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه ، فانّ مغبة ذلك محمودة .

وان ظنت الرعية بك حيفاً فاصحر لهم بعذرك ، واعدل عنك ظنونهم باصحارك ، فانّ في ذلك رياضة منك لنفسك ، ورفقاً برعيتك ، واعذاراً تبلغ به حاجتك ، من تقويمهم على الحق .

ولا تدفعنّ صلحاً دعاك اليه عدوّك ولله فيه رضى ، فانّ في الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوّك بعد صلحه ، فانّ العدوّ ربما قارب ليتغفل ، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظنّ ، وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبسته منك ذمّة ، فحط عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالامانة ، واجعل نفسك جنّة دون ما أعطيت ، فانه

وَلَمْ يَزِدْ فَوْقَ هٰذَا ٱلْمُرْتَضَى فَكَفَى بِهِ ٱلْخُصُومَةَ بَاغِيهَا وَآبِيهَا
وَأَبْدَتِ ٱلْقَوْمُ آرَاءً مُنَوَّعَةً هَيْهَاتَ مَا جُلِيَتْ عَنْهَا غَوَاشِيهَا
نَمَّتْ عَلَى فِرْقَةٍ بِٱلرَّأْيِ مُفْضِيَةٍ إِلَى بُلُوغِ ٱلْعِدَى أَقْصَى أَمَانِيهَا

ليس من فرائض الله شيء الناس أشدّ عليه اجتماعاً، مع تفرّق أهوائهم، وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين، لما استوبلوا من عواقب الغدر، فلا تغدر بذمتك، ولا تخيسنّ بعهدك، ولا تختلنّ عدوّك، فانه لا يجتريء على الله الا جاهل شقي، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون الى منعته، ويستفيضون الى جواره، فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه، ولا تعقد عقداً تجوّز فيه العلل، ولا تعولنّ على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق، فانّ صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه، وفضل عاقبته، خير من غدر تخاف تبعته، وأن تحيط بك من الله طلبة، لا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك.

اياك والدماء وسفكها بغير حلها، فانه ليس شيء أدعى لنقمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى لزوال نعمة، وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه مبتديء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوينّ سلطانك بسفك دم حرام، فانّ ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله ولا عندي، في قتل العمد، لانّ فيه قود البدن، وان ابتليت بخطأ، وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بعقوبة، فانّ في الوكزة فما فوقها مقتلة، فلا تطمحنّ بك نخوة سلطانك، عن ان تؤدي الى أولياء المقتول حقهم.

واياك والاعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحبّ الاطراء، فانّ ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه، ليمحق ما يكون من احسان المحسنين.

واياك والمنّ على رعيتك باحسانك، أو التزيد فيما كان من فعلك، أو ان تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فانّ المنّ يبطل الاحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله تعالى (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون).

واياك والعجلة بالامور قبل أوانها، أو التسقط فيها عند امكانها، أو اللجاجة فيها اذا تنكرت، أو الوهن عنها اذا استوضحت، فضع كل أمر موضعه، وأوقع كل أمر موقعه.

واياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة، والتغابي عمّا تعنى به ممّا قد وضح للعيون، فانه مأخوذ منك لغيرك، وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الامور، وينتصف منك للمظلوم، املك حمية أنفك، وسورة حدّك، وسطوة يدك، وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك، بكفّ البادرة، وتأخير السطوة، حتى يسكن غضبك، فتملك الاختيار، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك، بذكر المعاد الى ربك.

والواجب عليك أن تتذكّر ما مضى لمن تقدّمك، من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله، أو فريضة في كتاب الله، فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت اليك في عهدي هذا، واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك، لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك الى هواها.

وأنا أسأل الله، بسعة رحمته، وعظيم قدرته، على اعطاء كل رغبة، أن يوفقني واياك لما فيه رضاه، من الاقامة على العذر الواضح اليه، والى خلقه، مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في

الرضاء بالتحكيم

وَبَيْنَمَا ٱلنَّاسُ فِي هٰذَا ٱلتَّضَارُبِ بِالْآ م رَاءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرْفَضَّ نَادِيهَا (١)

وَإِذْ بِصَائِحِ أَهْلِ ٱلشَّامِ يَطْلُبُهَا   إِلَى ٱلْحُكُومَةِ يَسْتَهْوِي مُرِيدِيهَا

بِرُقْعَةٍ كَانَ مُوفِيهَا مُعَاوِيَةٌ   إِلَى ٱلْوَصِيِّ يُرِيدُ ٱلْكَيْدَ مُوفِيهَا

يَقُولُ: بَادِرْ عَلِيُّ لِلْحُكُومَةِ كَيْ   نَكْفِي ٱلْبَرِيَّةَ أَهْوَالًا تُعَانِيهَا

وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَنْ يَتْقِي أَوَامِرَ بَا   رِيهِ أَلَيْسَ حَرِيٌّ أَنْ تُوَاتِيهَا

وَأَنْتَ مِثْلِيَ مَسْئُولٌ وَحَقِّكَ عَنْ   هٰذِي ٱلدِّمَاءِ ٱلَّتِي بِٱلظُّلْمِ نُمْنِيهَا

أَسْرِعْ إِلَى دَعْوَةٍ قَدْ جِئْتُ أَنْشُدُهَا   فَٱلصَّفْوُ مَا بَيْنَنَا لَا شَكَّ تَالِيهَا

وَٱقْبَلْ قَبُولِي أَحْكَامَ ٱلشَّرِيعَةِ وَهْـ   ـيَ ٱلْعَدْلُ إِنْ كُنْتَ حَقًّا مِنْ أَهَالِيهَا

وَعِنْدَ مَا كَانَ يَقْرَا ٱلْمُرْتَضَى عَلَنًا   تِلْكَ ٱلرِّسَالَةَ يَسْتَجْلِي خَوَافِيهَا

كَانَتْ صَحَابَتُهُ تُرْغِي وَتُزْبِدُ مِنْ   حَوْلِهِ قَائِلَةً: مَا ٱلْحَرْبُ نَبْغِيهَا

وَقَدْ أَصَرَّتْ بِلَا فِكْرٍ عَلَى طَلَبِ ٱلتَّـ   ـحْكِيمِ لَمْ يَكُ مَنْ يُثْنِي مُصِرِّيهَا

وَقَدْ تَغَلَّبَ رَأْيُ ٱلْقَائِلِينَ بِهُدْ   نَةِ ٱلشَّآمِ عَلَى مَنْ لَيْسَ رَائِيهَا

فَحَوْقَلَ ٱلْمُرْتَضَى وَٱلنَّاسُ تُكْرِهُهُ   عَلَى مُسَايَرَةِ ٱلْأَعْدَاءِ تَكْرِيهَا

وَخَطَّ أَسْطُرَهُ فِيهَا يُجِيبُ عِدَا   هُ لِلْحُكُومَةِ كُرْهًا وَهْوَ آبِيهَا

البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنا لله وإنا إليه راجعون، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً والسلام اه

(١) وبينما كان الشغب على أشده بين أصحاب سيدنا علي عليه صلوات الله وإذ برسول من قبل معاوية قدم عليه برقعة منه فيها يقول «أما بعد، فإن هذا الأمر قد طال بيننا وبينك، وكل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه، ولن يعطي واحد منا الطاعة للآخر، وقد قتل فيما بيننا بشر كثير، وأنا أتخوف أن يكون ما بقي أشد مما مضى، وإنا سوف نسأل عن هذه المواطن، ولا يحاسب غيري وغيرك، وقد دعوتك إلى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر، وبراءة وصلاح للأمة، وحقن للدماء، وألفة للدين، وذهاب للضغائن والفتن، وذلك أن نحكم بيني وبينك حكمين مرضيين، أحدهما من أصحابي، والآخر من أصحابك، فيحكمان بيننا بما أنزل الله، فهو خير لي ولك، وأقطع لهذه الفتن، فاتق الله فيما دعيت إليه، وارض بحكم القرآن، إن كنت من أهله، والسلام» اه

فَقَالَ: يَا ٱبْنَ أَبِي سُفْيَانَ أَفْضَلُ مَا ٱلإِ ... م نْسَانُ يَشْغَلُ فِيهِ ٱلنَّفْسَ يُزْرِيهَا
هَوَى ٱتِّبَاعُ ٱلَّذِي يَحْلُو وَيَحْسُنُ مِن ... خَيْرِ ٱلْفِعَالِ بِهِ يَعْنَا لِيَأْتِيَهَا
بِهَا لَقَدْ يَتَبَدَّى فَضْلُهُ وَعُيُو ... بُهُ وَإِنْ كَثُرَتْ حَتْماً تُوَارِيهَا
وَٱلْبَغْيِ وَٱلزُّورُ فَٱعْلَمْ يُزْرِيَانِ بِدِيـ ... ـنِهِ وَدُنْيَاهُ وَٱلْآثَامُ يَجْنِيهَا
حَذَارِ دُنْيَاكَ مَا مِنْهَا وَصَلْتَ إِلَيْـ ... ـهِ مَا بِهِ فَرَحٌ وَٱزْهَدْ مَلَاهِيهَا
وَقَدْ عَلِمْتَ مُنَاكَ ٱلْكُثْرَ ضَائِعَةً ... وَبَعْدَ يَوْمِكَ أَبْعِدْ أَنْ تُلَاقِيهَا
وَإِنَّ قَوْماً بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ قَدْ طَلَبَتْ ... أَمْراً وَطَلَبْتُهَا هَيْهَاتَ تُلْفِيهَا
لَهُ تَأَوَّلَتِ ٱلْكِذْبَ ٱلصُّرَاحَ عَلَى ٱلْـ ... ـبَارِي وَآيَاتِهِ قُلْ جَلَّ مُوحِيهَا
وَٱللهُ أَكْذَبَهَا وَٱلْبُطْلُ مَتَّعَهَا ... هَوْناً بِمَا شَهِيَتْهُ مِنْ أَمَانِيهَا
فَٱضْطَرَّهَا لِعَذَابَاتِ ٱلْجَحِيمِ وَيَا ... وَيْلٌ لِمَنْ فِي مَسَاوِيهِ يُلَاقِيهَا
فَٱحْذَرْ مَوَاقِفَ يَوْمٍ لَا ٱغْتِبَاطَ بِهِ ... إِلَّا لِمَنْ حُمِدَتْ أَعْمَالُهُ فِيهَا
إِذْ ذَاكَ يَنْدَمُ مَنْ أَلْقَى ٱلْقِيَادَ إِلَى ٱلـ ... ـشَّيْطَانِ يُنْفِذُ أَغْرَاضاً يُوَخِّيهَا
إِذِ ٱطْمَأَنَّ إِلَى ٱلدُّنْيَا وَغَرَّ بِهَا ... وَبَاتَ مُزْدَرِيَ ٱلْأُخْرَى وَنَاسِيهَا
لِحُكْمِ آيَاتِ رَبِّي قَدْ دَعَوْتَ وَأَدْ ... رِي لَسْتَ مِنْ أَهْلِهَا بَلْ لَسْتَ تَبْغِيهَا
فَٱللهُ سُبْحَانَهُ عَوْنِي عَلَيْكَ وَمَا ... مَعُونَةُ ٱللهِ غَيْرُ ٱلْبَرِّ يَقْنِيهَا
وَمَا أَجَبْنَاكَ كَلَّا يَا مُعَاوِيَةُ ... بَلْ آيَةٌ عَنْ تُقًى بِتْنَا مُجِيبِيهَا

قرأ المرتضى عليه صلوات الله كتاب معاوية سهراً على الناس فازدادت به اصراراً على طلب التحكيم وأرغت وأزبدت على من لا يريده حتى تغلب رأي الذين يريدونه على رأي الذين يرفضونه حينئذ حوقل عليه صلوات الله واسترجع وكتب الى معاوية هذا الجواب « من عبد الله علي أمير المؤمنين الى معاوية بن أبي سفيان ، اما بعد ، فان أفضل ما شغل به المؤمن نفسه ، اتباع ما حسن به فعله ، واستوجب فضله ، وسلم من عيبه ، وان البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه ، فاحذر الدنيا فانه لا فرح في شيء وصلت اليه منها ، ولقد علمت انك غير مدرك ما تغنى فواته ، وقد اقام قوم أمراً بغير الحق ، وتأولوه على الله جل وعز ، فأكذبهم ، ومتعهم قليلاً ثم اضطرهم الى عذاب غليظ ، فاحذر يوماً يغتبط فيه من حمد عاقبة عمله ، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ، وغرته الدنيا واطمأن اليها ، ثم انك قد دعوتني الى حكم القرآن ، وقد علمت انك لست من أهله ، ولا حكمه تريد ، والله المستعان ، وقد أجبنا القرآن الى حكمه ، ولسنا اياك أجبنا ،

وَمَنْ أَبَى حُكْمَ آيِ ٱللهِ ضَلَّ وَمَنْ ... بِهِ ٱرْتَضَى فَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّاسِ تَاقِيهَا
وَبَعْدَ ذَاكَ بَدَا حُسْنُ ٱلتَّفَاهُمِ مَا ... بَيْنَ ٱلْخُصُومِ عِرَاقِيهَا وَشَامِيهَا
وَقَدْ أَنَابَتْ لِتَنْفِيذِ ٱلْحُكُومَةِ عَنْـــهَا نَوْبَةٌ ... قَالَتِ ٱلْقُرْآنَ يَهْدِيهَا

تعيين الحكمين

وَفِي ٱلْمُوَادَعَةِ ٱلْكُبْرَى تَوَسَّطَ أَشْـــعَثٌ ... لِتَجْرِيَ صَفَاءً فِي مَجَارِيهَا (١)
فَكَانَ يُظْهِرُ إِخْلَاصاً لِحَيْدَرَةٍ ... وَإِنَّ أُمْرَتَهُ يَبْغِي تَعَالِيهَا
فَجَاءَهُ قَائِلاً آذِنْ فَأَذْهَبُ لِٱسْـــتِفْسَارِ ... نِيَّاتِ أَهْلِ ٱلشَّامِ أُنْتِيهَا
فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ سِرْ يَا صَاحِ فَٱنْصَرَفَ ٱلْوَ ... سِيطُ نَحْوَ ٱلْأَعَادِي فِي مَثَاوِيهَا
لَاقَى مُعَاوِيَةً فِيهَا وَأَنْبَأَ وَٱسْـــتَنْبَأَ ... وَجَاءَ ذَوِيهِ وَهُوَ مُنْبِيهَا
أَنَّ ٱلشَّآمَ تُوَلِّي أَمْرَهَا نَفَراً ... مِنْهَا لِتَخْتَارَ فِي ٱلتَّحْكِيمِ قَاضِيهَا
كَذَاكَ نَحْنُ نُوَلِّي مِثْلَهَا نَفَراً ... وَخِيرَةُ ٱلْحَكَمِ ٱلْمَنْشُودِ نُعْطِيهَا

ومن لم يرضَ بحكم القرآن فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ، والسلام » آه

وعلى أثر هذا الكتاب والجواب تفاهم الفريقان على اختيار نواب عنهم يتذاكرون بتعيين الحكمين للوصول الى الصلح على ماسترى..

(١) عند ما تمّ التفاهم بين سيدنا علي ومعاوية وأقرّ أصحابهما على التحكيم تقدم الاشعث من أمير المؤمنين عليه صلوات الله وكان من جهة أصحابه وقال له : يا أمير المؤمنين ، ما أرى الناس الاّ قد رضوا ، وسرّهم أن يجيبوا القوم الى ما دعوهم اليـه من حكم القرآن ، فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد،ونظرت فيما يسأل . قال : آته ان شئت . فسار الاشعث الى معاوية وهو في معسكره وسأله قائلاً : لماذا رفعتم هذه المصاحف ؟ قال معاوية : لنرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به، فابعثوا رجلاً منكم ترضون به،ونبعث منا رجلاً،ونأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله،ولا يعدوانه،ثم نتبع ما اتفقا عليه . فقال الاشعث : هذا هو الحق،ولكن ألا ترى أن نعتمد على قوم من فقهائنا،يختارون من ينوب عنا،وتفعلون أنتم كذلك ؟ قال معاوية : لا بأس بهذا . فعاد الاشعث الى أمير المؤمنين وأنبأه بما كان من أمره مع معاوية فلم يعارض وسمى أصحاب سيدنا علي نفراً من فقهائهم وأرسلوا الى معاوية فسمى هو أيضاً نفراً من فقهاء أصحابه وأطلق على هؤلاء وأولئك اسم القرّاء أي الذين يقرأون القرآن ويعلمون بأحكامه واجتمع هؤلاء القراء عراقيهم وشاميهم بين الصفوف ومعهم المصحف الشريف فنظروا فيه وتدارسوا وتعهدوا على احياء ما أحيا القرآن واماتة ما أمات القرآن وأقسموا على المصحف الشريف ورجع كلّ فريق من هؤلاء القراء الى صاحبه

أما قراء الشام فنادوا بعمرو بن العاص حكماً عنهم فرضيه معاوية بل قيل انّ معاوية كان الموعز اليهم به وكان ذلك في حال وصولهم الى معاوية كأنهم متفقون عليه من قبل وطار خبره في الحال الى

وَقَالَ ذِي ٱلْفِكْرَةُ ٱلْحَسْنَاءُ صَالِحَةٌ ... لِذِي ٱلْحُكُومَةِ أَخْلَقُ أَنْ نُوَاتِيَهَا
فَلَمْ يُعَارِضْ عَلِيٌّ فِكْرَةً بَدَرَتْ ... مِنِ ٱبْنِ صَخْرٍ وَنَادَاهُ : أُجَارِيهَا
وَبَعْدَ ذَا صَحْبُهُ مَعْ صَحْبِ صَاحِبِهِ ... سَمَّتْ بِغَيْرٍ وَنَى جَهْرَاً مُنَابِيهَا
دَعَوْا ٱلْمُنَابِينَ بِٱلْقُرَّاءِ إِنَّهُمُ ... كَانُوا خِيَارَ ٱلْوَرَى عِلْماً وَتَفْقِيهَا
وَعِنْدَ مَا ظَهَرُوا بَيْنَ ٱلصُّفُوفِ تَلَا ... آيَ ٱلْكِتَابِ مَعَ ٱلْإِخْبَاتِ تَالِيهَا
وَبَعْدَ ذَلِكَ سَمَّتْ عَمْرَوَ نَائِبَهَا ... جَمَاعَةُ ٱلشَّامِ لِٱسْتِرْضَا مُعَاوِيهَا
وَٱلْأَشْعَرِيُّ أَنَابَتْهُ صِحَابُ عَلِيٍّ ... وَهْوَ قَدْ كَانَ عَنْ جَفْوٍ مُنَابِيهَا

أميرالمؤمنين. وأما قراء العراق فانهم عندما بلغوا مجلس أمير المؤمنين عليه صلوات الله نادوا باسم أبي موسى بن قيس الاشعري حكماً ينوب عنهم . فقال علي : اني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه فقال الاشعث وزيد بن الحصين ومسعر بن فدكي في عصابة من القرّاء انّا لا نرضى الاّ به فانّه قدكان حذرنا مما وقعنا فيه . فقال علي انّه ليس لي برضى وقد فارقني وخذل الناس عني وهرب مني حتى أمنته بعد خمسة أشهر (وذلك بعد انتهاء موقعة الجمل وذهاب سيدنا علي من البصرة الى الكوفة) ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك . قالوا والله ما نبالي أكنت أنت أو ابن عباس ولا نريد الاّ رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ليس الى واحد منكما أدنى من الآخر . قال علي فاني أجعل الاشتر . فقال الاشعث وهل سعر الارض علينا الاّ الاشتر ؟ وهل نحن الا في حكم الاشتر ؟ قال علي وما حكمه ؟ قال الاشعث . حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد . فتبسم سيدنا أمير المؤمنين وقال : انّ معاوية لم يكن ليضع لهذا الامر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص وأنّه لا يصلح للقرشي الاّ مثله فعليكم بعبدالله بن العباس فارموه به ، فانّ عمراً لا يعقد عقدةً الاّ حلها عبد الله ، ولا يحلّ عقدةً ، الاّ عقدها ، ولا يبرم أمراً الا نقضه ، ولا ينقض أمراً الاّ أبرمه . فقال الاشعث لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة ، ولكن نجعل رجلاً من أهل اليمن اذ جعلوا رجلاً من مضر . فقال علي اني أخاف أن يُخدع يمنيكم فان عمراً ليس من الله في شيء ، اذا كان له في أمر هوى . فقال الاشعث والله لئن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن أحبّ الينا من ان يكون بعض ما نحبّ في حكمهما وهما مضريان . فقال أمير المؤمنين عليه صلوات الله وهو يجيل عينيه الكريمتين فيمن حوله من القراء قد أبيتم الا أبا موسى الاشعري ؟ قالوا نعم . قال فاصنعوا ما شئتم. فاعترضهم الاشتر وقال يا أمير المؤمنين ألزّني عمرو بن العاص فوالذي لا اله غيره لئن ملأت عيني منه لأقتلنه . وقال الاحنف بن قيس : يا أمير المؤمنين انك رميت بحجر الأرض ، ومن حارب الله ورسوله ، وانف الاسلام ، واني تدعجنت هذا الرجل ، (ويريد أبا موسى) وحلبت اشطره ، فوجدته كليل الشفرة ، قريب المقعر ، وانه لا يصلح لهؤلاء القوم الا رجل يدنو منهم حتى يكون في اكفهم ، ويتباعد عنهم حتى يكون بمنزلة النجم منهم ، فان شئت ان تجعلني حكماً فاجعلني ، وان شئت ان تجعلني ثانياً او ثالثاً ، فان عمراً لا يعقد عقدةً الا حللتها ، ولا يحلّ عقدةً الا عقدت لك اشدّ منها . فعرض سيدنا علي

قَدْ كَانَ مُعْتَزِلاً صِفِّينَ مُبْتَعِداً ... عَنْ حَرْبِهَا تَارِكاً كُلَّ الأُلَى فِيهَا
وَمَا نَسِينَا لَهُ مَاضِيْ فَعَائِلِهِ ... فِي كُوفَةٍ عِنْدَ مَا قَدْ كَانَ وَالِيهَا
وَمَا خِلَافَةُ مَوْلَانَا أَبِي حَسَنٍ ... يَوْماً لَقَدْ حَسِبَتْهُ مِنْ مُعِينِيهَا
وَمَا انْتَقَتْهُ صِحَابُ الْمُرْتَضَى لِسِوَى ابْـتِعَادِهِ ... فِي هَوَاهُ عَنْ مُنِيبِيهَا
فِيهِ لَقَدْ رَغِبَتْ دُونَ الأَعَارِبِ إِذْ ... كَانَ ابْنُ قَيْسٍ أَبُو مُوسَى يَمَانِيهَا
وَمَا أَرَادَتْ قُرَيْشِيٌّ الصِّحَابِ لِهَـــذَا ... الأَمْرِ أَوْ هَاشِمِيهَا أَوْ عِرَاقِيهَا
وَذَاكَ يَكْفِي لِتِبْيَانِ التَّخَاذُلِ فِي ... صَحْبِ الْعَلِيِّ وَيُنْبِي عَنْ تَجَزِّيهَا

هذا على القراء فأبوه وقالوا لا يكون حكمنا الا ابا موسى . فقال سيدنا أمير المؤمنين موجهاً خطابه الى الاشتر وحنيف بن قيس : ان القوم أتوني بعبد الله بن قيس مبرنساً فقالوا ابعث هذا رضينا به والله بالغ أمره . قال عليه صلوات الله هذا ومال للقراء قائلاً : ائتوني بصاحبكم

وكان أبو موسى معتزلاً القتال منزوياً باحدى جهات الشام فبعثوا اليه رسولاً فأسرع الى صفين فأعلمه سيدنا علي وقوع اختيار أصحابه عليه وطلب منه أن يكون عند ظنهم به فأقسم أن يكون صادقاً مخلصاً لا يحكم الا بما يحكم به القرآن

ومن تأمل هذا عرف حال أصحاب سيدنا علي وما كانوا عليه من شتات الرأي فلا عجب اذا وقع اختيارهم على رجل أقل ما يقال فيه أنه كان معتزلهم وهم يقاتلون ، كما لا بدّ لنا من الاشارة الى أن القوم كانوا يحاولون أن لا يدعوا السلطان في قريش وكانت فكرتهم هذه هي التي أوجدت في نفوسهم الرغبة بأبي موسى كما نقول ان هؤلاء الذين أصروا على اختيار أبي موسى الاشعري لهذه المهمة هم زعماء الخوارج الذين خرجوا فيما بعد على أمير المؤمنين بحجة أنه رضي بالتحكيم ورضي بأبي موسى الاشعري حكماً مع أنهم هم الذين أكرهوه على كل ذلك اكراهاً والامر لله من قبل ومن بعد

« ترجمة الاشعث »

هو ابو محمد معدي كرب الملقب بالاشعث بن قيس بن معدي كرب بن معوية بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن الحارث بن معاوية بن الحارث الاصغر بن معوية بن الحارث الاكبر بن معوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن ثور بن عفير الكندي الصحابي . وامه كبشة بنت يزيد بن شرحبيل بن يزيد بن امرىء القيس بن عمرو مقصور الملك

عرفنا الاشعث في الجاهلية شجاعاً نبيلاً وحدث انّ بني مراد قتلوا قيساً أبا الاشعث في بعض حروبهم فخرج الاشعث لطلب ثار أبيه وخرجت معه كندة فخضوا اعداءهم بني مراد ووقعوا على بني الحارث بن كعب فدارت الدائرة عليهم واسر الاشعث وافتدى نفسه ادكن غنيا بثلاثة آلاف بعيراً وهي فدية عظيمة لم يفد بها عربي قبله ولا بعده فقال في ذلك عمرو بن معدي كرب الزبيدي

فكان فداؤه ألفي بعيرٍ ... وألفاً من طريفات وتلد

وحدث ان كندة قدموا حجاجاً قبل الهجرة فعرض رسول الله نفسه عليهم كما كانت عادته عليه الصلاة والسلام يعرض نفسه على القبائل فدفعه بنو وليعة من بني عمرو بن معوية ولم يقبلوه فما

أَمَا عَلِيٌّ فَلَاقَى ٱلنَّاسَ مُخْتَلِنَا أَنَّ ٱلنِّيَابَةَ مَالَاقَتْ مُكَافِيهَا
وَصَاحَ وَٱلْغَيْظُ يَبْدُو مِنْ جَوَارِحِهِ بِصَحْبِهِ وَهْيَ تَمْشِي فِي غَوَاسِيهَا
هَلَّا ذَكَرْتُمْ أَبَا مُوسَى وَخَذْلَتَهُ لِأَمْرِيْ عَلَنَا مَا كَانَ يُخْفِيهَا
نَسِيتُمُ فِعْلَهُ فِي وَقْعَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْـ ـمَلْعُونِ إِذْ كَانَ عَنِّي ٱلنَّاسَ يُقْصِيهَا
وَفَرَّ مِنِّي شُهُوراً خَمْسَةً وَأَتَا نِي خَاضِعاً بَعْدَ مَا قَدْ هَلَّ سَادِيهَا
وَفَوْقَ ذَا فَهْوَ لَاحَزْمٌ لَهُ وَذَكَا كَيْ يُلَاقِيَ مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ ذَاكِيهَا
وَذَا مُعَاوِيَةٌ قَدْ خَارَ دَاهِيَةَ ٱلْأَ م غرابِ عَمْراً لِيُرْضِيهِ وَيُؤْذِيهَا
وَلَيْسَ يَكْفَاهُ رَأْياً وَحُسْنَ دَهاً إِنْ تَذْكُرِ ٱلنَّاسُ فِي يَوْمٍ دَوَاهِيهَا

هاجر الى المدينة المنوّرة وتمهدّت دعوته وجاءته وفود العرب كان فيهم وفد كندة وفيهم بنو وليعة فاسلموا فاطعمهم رسول الله طعمةً من صدقات حضرموت . وكان قد استعمل المصطفى على حضرموت زياد بن لبيد البياضي الانصاري فدفعها زياد اليهم فأبوا أخذها وقالوا لاظهر لنا فابعث بها الى بلادنا على ظهر من عندك فأبى زياد وحدث بينهم وبينه شرٌّ كاد يكون حرباً . فرجع قوم منهم الى رسول الله وكتب زياد اليه عليه الصلاة والسلام بما جرى فقال المصطفى لبني وليعة «لتنتهنَّ يابني وليعة ، أو لأبعثنَّ عليكم رجلاً عديل نفسي ، يقتل مقاتلكم ، ويسبي ذراريكم » وكان في مجلس المصطفى وقتئذ عمر بن الخطاب وقد روى هذه الحادثة فقال « فما تمنيت الامارة الا يومئذٍ وجعلت انصب له صدري ، رجاء ان يقول هو هذا ، فاخذ بيد علي عليهما الصلاة والسلام وقال : هو هذا » ثمَّ كتب لهم رسول الله كتاباً الى زياد بحسم المشكلة . وكان في جملة وفد كندة الاشعث فأسلم معهم

وعند ما توفي المصطفى صلى الله عليه وسلم وطار الخبر الى قبائل العرب ارتدت بنو وليعة عن الاسلام وتحنَّت بغاياهم وخضبن أيديهنَّ شماتة بموته فأمَّر أبو بكر زياداً على حضرموت وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقتهم فبايعوه الا بني وليعة فلما خرج ليأخذ الصدقات من بني عمرو بن معاوية أخذ ناقةً لغلام منهم يعرف بشيطان بن حجر فمنعه الغلام عنها وقال له خذ غيرها فأبى زياد ذلك وجدَّ فستغاث شيطان باخيه العداء بن حجر وانتهى الخلاف الى اعلان بنو وليعة ردتهم ومحاربة زياداً واصحابه فقتل خلق كثير وكانت الغلبة للمسلمين واستغاث بنو وليعة بالاشعث فقال لا اغيثكم الا اذا ملكتموني عليكم فملكوه وتوّجوه كما تتوّج ملوك قحطان فخرج الى زياد في جمع كثيف واستنجد زياد بابي بكر فكتب هذا الى مهاجر بن أبي أمية وكان عامله على صنعاء يأمره بنجدة زياد فاسرع الى حضرموت وانجد زياداً وحزب الاشعث واصحابه وقهرهم ولجأ الاشعث ومن سلم من اصحابه الى الحصن المعروف « بالنجير » فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى جاعوا وضعفوا فنزل الاشعث ليلاً الى زياد ومهاجر وسألهما الأمان على نفسه مع عشرة من اصحابه حتى يقدما بهم على أبي بكر فاعطياه الامان له ولمن طلب فسلمهما الحصن فدخلاه بالمسلمين وقالوا للاشعث اعزل اصحابك العشرة فعزلهم وقتلوا الباقين وكانوا ثمانمائة وقطعوا أيدي النساء اللواتي أظهرن الشماتة بموت رسول الله وحملوا الاشعث الى ابي بكر مصفداً بالحديد مع اصحابه العشرة

إلاَّ ٱبْنُ عبَّاسَ عَبْدُ ٱللهِ فهْوَ إلى ٱبْـــنِ ٱلعَاصِ كفءٌ بآرَاءِ يُجَلِّيهَا
فَإنْ رَمَيْتُمْ بِهِ عمْرًا رَأَيْتُمْ دَبْــسَاءَ تَتَبَّعُهَا لِلصَّـيْدِ بَازِيهَا
فَقَالَتِ ٱلنَّاسُ : لَانَرْضَى لِأُمَّتِنَا تَحْكِيمَ إثْنَيْنِ فِيهَا مِنْ قُرَيْشِيهَا
كَذَاكَ بَاتَ أَبُو مُوسَى مُمَثِّلَ صَحْـــبِ ٱلْمُرْتَضَى كَانَ قَاصِيَ ٱلدَّارِ نَائِيهَا
فأَرْسَلَتْ نَحْوَهُ رُوَّادَهَا فَأَتَتْ بِهِ إلَيْهَا وَآلَى أَنْ يُوَالِيهَا

فعفا عنه وعنهم . وأراد أبو بكر في اكرام الاشعث وتأليف قلبه فازوجه اخته أم فروة بنت أبي قحافة وكانت عمياء فولدت له محمداً واسماعيل واسحاق قالوا وخرج الاشعث يوم بنائه على ام فروة الى أسواق المدينة فما مرّ بذات أربع الا عقرها وقال لصاحبها هذه وليمة البناء وثمنها في مالي ودفع اثمانها الى أربابها . وقال ابو جعفر محمد بن جرير في تاريخه وكان المسلمون يلعنون الاشعث ويلعنه الكافرون ايضاً وتلعنه سبايا قومه وسماه نساء قومه « عرف النار » وهم اسم للغادر عندهم

واعتمد أبو بكر على الاشعث في حروبه وكذلك عمر بن الخطاب لانه كان باسلاً شجاعاً فشهد وقعة اليرموك في الشام ومواقع القادسية والعراق والمدائن وجلولاء ونهاوند وأبلى فيها البلاء الحسن وذلك على عهد عمر بن الخطاب

وعند ما أفضت الخلافة الى عثمان ولاّه آذربيجان وكان له من خراجها ألف درهم سنوياً ثمّ عزله عنها بعد سنوات وكان قد اثرى فانتقل الى الكوفة وسكنها على انه ظلّ على ولاء الامويين فلم يشترك في ثورة الكوفيين ضد عثمان ولا اشترك في حرب الجمل بل تثاقل عنها . وقد انضمّ الى سيدنا أمير المؤمنين عند ما دخل الكوفة بعد حرب الجمل واصبح من رجاله واشترك معه في حرب صفين وكان له في استخلاص الماء من رجال معاوية شجاعة وعزيمة محمودتان كما حارب رجال معاوية بعد ذلك باخلاص حتى اذا ما رفعت المصاحف كان على رأس القائلين بضرورة اجابة أهل الشام الى التحكيم وعرض نفسه للوساطة بين سيدنا أمير المؤمنين ومعاوية وهو الذي اوجد فكرة تعيين أبي موسى الاشعري حكماً عن أهل الشام وكان على رأس القائلين به وذلك لانه يمانيّ مثله على انه كان في مقدمة النادمين على هذا الخطأ العظيم الذي ارتكبه اصحاب سيدنا علي بانتخاب أبي موسى واكراه سيدنا علي عليه صلوات الله على قبوله وحضر الاشعث اجتماع دومة الجندل ثم عاد بعد ظهور حيلة عمرو بن العاص الى الكوفة وهو ناقم على أهل الشام وعلى التحكيم وعلى كل ما جرى وقتئذ فجرّ ما جرّ من القلاقل والفتن على المسلمين فبرهن على انه كان من المنافقين أولاً وأخيراً .

ومما يذكر أن سيدنا أمير المؤمنين بينما كان مرةً في المسجد يخطب في موقعة صفين وأمر الخوارج يقلق خاطره الشريف ويزعجه إذا انزعاج قام رجل من أصحابه وقال له نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين أسدّ . فصفق عليه صلوات الله باحدى يديه على الاخرى وقال « هذا جزاء من ترك العقدة » وأراد بقوله الشريف بالذي ترك العقدة جماعة المشاغبين الذين أصروا على قبول التحكيم ورفضوا قبول نصحه . وكان في المسجد الاشعث فحسب أن أمير المؤمنين عليه صلوات الله أراد بقوله نفسه بأنه هو الذي ترك العقدة فنال جزاءه وصاح : « يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك » فغضب عليه صلوات الله وخفض اليه بصره وقال: « ما يدريك ما علي مما لي عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ، حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرةً ،

صحيفة الهدنة

وَبَعْدَ ذَلِكَ قُرَّاءُ ٱلْعِرَاقِ وَقُرَّاءُ ٱلشَّآمِ تَوَلَّتْ فِي تَنَادِيهَا
وَضْعَ ٱلشُّرُوطِ ٱلَّتِي تُفْضِي بِأُمَّتِهَا إِلَى مُهَادَنَةٍ كَانَتْ تُرَجِّيهَا
حَتَّى إِذَامَا ٱنْتَهَتْ مِنْ بَحْثِهَا كَتَبَتْ صَحِيفَةَ ٱلْعَهْدِ فَٱسْتَوْفَتْ مَعَانِيهَا
كَانَتْ خُلَاصَتُهَا أَنْ يَحْكُمَ ٱلْحَكَمَا نِ وَفْقَ آيِ ٱلْهُدَى أَوْ مَا يُجَارِيهَا
وَأَنْ يَكُونَ مَدَى ٱلتَّحْكِيمِ دَوْرَةَ عَا مٍ لَا تَقَاتُلَ مَا بَيْنَ ٱلْمَلَا فِيهَا
وَإِنَّهَا هُدْنَةٌ فِيهَا أَمَانُ جَمِيـعِ ٱلنَّاسِ فِي كُلِّ مَأْوًى مِنْ مَآوِيهَا

والاسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك ولاحسبك ، وان امرأ دلّ على قومه السيف ، وساق اليهم الحتف ، لحريّ أن يمقته الأقرب ، ولا يأمنه الأبعد » ولعمري ما جبه سيدنا أمير المؤمنين الاشعث على ما يعهد الناس من حلمه الا لضيق صدره الشريف من نفاقه الذي ابتدأ بالتحكيم وانتهى بشرّ الخوارج العظام

وتزوج الاشعث في سنة ٣٩ هـ احدى كرائم الحسن عليه السلام وتوفي في الكوفة سنة ٤٢هـ

(١) بعد أن تمّ اختيار الحكمين شرع القرّاء بتسطير صحيفة الهدنة والموادعة فبحثوا في ذلك طويلاً وقرّ رأيهم في الاخير على أن تكون صورتها هكذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ماتقاضى عليه علي أمير المؤمنين، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله ، قضية علي على أهل العراق ، ومن كان من شيعته ، من شاهد وغائب ، وقضية معاوية على أهل الشام ، ومن كان من شيعته من شاهد وغائب ، اننا رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ، فانه لايجمع بيننا الا ذلك ، وانا جعلنا كتاب الله سبحانه حكماً بيننا فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته الى خاتمته ، نحيي ما أحيا القرآن ، ونميت ما أمات القرآن ، على ذلك تقاضينا ، وبه تراضينا ، وان علياً وشيعته ، رضوا ان يبعثوا عبد الله بن قيس ناظراً ومحاكماً ، ورضي معاوية وشيعته ان يبعثوا عمراً بن العاص ناظراً ومحاكماً ، على انهم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب اماماً ، فيما بعثا اليه ، لايعدوانه الى غيره ، ما وجداه فيه مسطوراً ، وما لم يجداه مسمى في الكتاب ، ردّاه الى سنة رسول الله الجامعة ، لايتعمدان لها خلافاً ، ولا يتبعان هوىً ، ولا يدخلان في شبهة ، وقد أخذ عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص ، على علي ومعاوية ، عهد الله وميثاقه ، بالرضاء بما يحكمان به من كتاب الله وسنة نبيه ، وليس لهما أن ينقضا ذلك ، ولا يخالفاه الى غيره ، وانهما آمنان في حكمهما ، على دمائهما وأموالهما وأهلهما ، ما لم يعدوا الحقّ ، رضي بذلك راضٍ ، أو أنكره منكر ، وانّ الامة انصار لهما ، على مايقضيان به من العدل ، فان توفي أحد الحكمين ، قبل انقضاء الحكومة ، فأمير شيعته واصحابه ، يختارون مكانه رجلاً ، لا يألون عن أهل المعدلة والاقساط ، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق ، والحكم بكتاب الله

وَفِي ٱلصَّحِيفَةِ قَدْ سَمُّوا ٱلْعَلِيَّ أَمِيـرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَا آلُوهُ تَوْجِيهَا
حَتَّى إِذَا مَا تَلَقَّاهَا مُعَاوِيَةٌ نَادَى : إِمَارَتُهُ مَا كُنْتُ أُذْرِيهَا
بَلْ تَكْتُبُونَ ٱسْمَهُ وَٱسْمِي كَمَا وُجِدَا صِرْفًا وَمِنْ بَعْدِ ذَا يَاصَحْبُ أُمْضِيهَا
وَسَارَ عَمْرٌو بِهَا يَأْتِيكَ ٱلصَّحِيفَةِ نَحْـوَ ٱلْمُرْتَضَى طَالِبًا تَحْوِيرَ مَا فِيهَا
وَقَالَ مَا إِمْرَةُ ٱلْإِسْلَامِ نَعْرِفُهَا أَصْلًا عَلَيْكَ فَكَلَّا لَسْتَ رَاعِيهَا
فَقَالَ حَيْدَرَةٌ : فَامْحُوا ٱلْإِمَارَةَ لَـكِنَّ ٱلْمُهَيْمِنَ عَنِّي لَيْسَ مَاحِيهَا
وَقَالَ : قَدْ صَدَقَ ٱلْهَادِي بِقَوْلَتِهِ لِي : سَوْفَ تَلْقَى رَزَايَا بِتَّ لَاقِيهَا
وَقِصَّةُ ٱلْمُصْطَفَى يَوْمَ ٱلْحُدَيْبِيَةِ ٱلْـمَشْهُورِ قَدْ رَاحَ بِٱلْأَشْجَانِ يَرْوِيهَا
فَقَالَ : قَدْ أَنْكَرَتْ كُفَّارُ مَكَّةَ أَنَّـهُ ٱلرَّسُولُ وَآلَى أَنْ يُرَاضِيهَا

وسنة رسوله ، وله مثل شرط صاحبه ، وان مات أحد الاميرين قبل القضاء ، فلشيعته أن يولوا مكانه رجلاً يرضون عدله ، وقد وقعت هذه القضية ، ومعهما الامن والتفاوض ، ووضع السلاح والسلام والموادعة ، وعلى الحكمين عهد الله وميثاقه ، أن لا يألوا اجتهاداً ، ولا يتعمدا جوراً ، ولا يدخلا في شبهة ، ولا يعدوا حكم الكتاب ، فإن لم يقبلا ، برئت الامة من حكمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة ، وقد وجبت القضية ، على ما قد سمي في هذا الكتاب ، من مواقع الشروط ، على الحكمين والاميرين والفريقين ، والله اقرب شهيداً ، وأدنى حفيظاً ، والناس آمنون على انفسهم وأهلهم وأموالهم ، الى انقضاء مدة الاجل ، والسلاح موضوع ، والسبل مخلاة ، والشاهد والغائب من الفريقين سواء في الأمن ، وللحكمين أن ينزلا منزلاً عدلاً ، بين أهل العراق والشام ، لا يحضرهما فيه الا من أحبا عن ملأ منهما وتراض ، وان المسلمين قد أجلوا هذين القاضيين ، الى انسلاخ شهر رمضان (سنة ٣٧ هـ) ، فإن رأيا تعجيل الحكومة فيما وجها اليه عجلاها ، وان أرادا تأخيرها بعد شهر رمضان الى انقضاء الموسم (موسم الحج) فذلك اليهما ، وان هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه ، الى انقضاء الموسم ، فالمسلمون على أمرهم الاول في الحرب ، ولا شرط بين الفريقين ، وعلى الامة عهد الله وميثاقه ، على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب ، وهم يد على من أراد فيه الحاداً وظلماً ، أو حاول له نقضاً » اهـ وكان تاريخ هذه الصحيفة لليلة بقيت من صفر الخير سنة ٣٧ هـ وبعد الانتهاء من وضعها على صورتها المشار اليها نسخوها نسختين سار باحداها اصحاب سيدنا علي اليه ليمضيها ويشهد الشهود ثم يعطوها الى معاوية وسار اصحاب معاوية بالنسخة ليمضيها ويشهد عليها الشهود ثم يعطوها الى سيدنا علي

ولما انتهت نسخة الصحيفة الى يد معاوية وكان بجانبه عمرو بن العاص انكرا ان يلقب سيدنا علي بها فاتحتها بلقب « أمير المؤمنين » وقال معاوية : بئس الرجل أنا ان اقررت ان علياً أمير المؤمنين ثم قاتلته . وقال عمرو بل نكتب اسمه واسم ابيه انما هو أمير أهل العراق واما اميرنا فلا . قال هذا واحتمل الصحيفة وسار بها الى سيدنا علي عليه صلوات الله في خيمته وقال له انا لا نرضى بهذه الصحيفة ما لم تمح منها عن اسمك لقب « أمير المؤمنين » فاننا لو عرفناك اميراً للمؤمنين لما

قُلْتُ أَعْجَبُ إِنْ أُنْسَاهَا نَكِرَتْ ... إِمَارَتِي وَحَرِيٌّ أَنْ أُدَارِيهَا
إِنْ أَمْحُهَا مَا أُمِحَتْ عَنِّي وَرَبِّكُمُ ... لَاشَكَّ رَغْمَ عِدَاةِ الْحَقِّ مُبْقِيهَا
لِي أُسْوَةٌ بِرَسُولِ اللهِ لَسْتُ سِوَى ... رَدِيفِهِ وَبِهِ نَفْسِي أُعَزِّيهَا
فَقَالَ عَمْرٌو : وَيَا سُبْحَانَ رَبِّيَ قَدْ ... شَبَّهْتَنَا بِدُعَاةِ الْكُفْرِ تَشْبِيهَا
فَقَالَ حَيْدَرَةٌ : خَفِّضْ عَلَيْكَ مَتَى الْـ ... ـكُفَّارُ لَمْ تَكُ قُلْ لِي مِنْ مَوَالِيهَا
بَلْ قُلْ مَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْحَنِيفِيَّةِ الْـ ... ـسَّمْحَاءِ تَعْنَى بِهَا مَا كُنْتَ شَانِيهَا
فَاغْتَاظَ عَمْرٌو وَنَادَى: مَا مَجَالِسُكَ الْـ ... ـسُّوأَى عَلَى إِثْرِ يَوْمِي ذَا أُخَطِّيهَا
وَعَادَ أَدْرَاجَهُ بَيْنَا الْعَلِيُّ يُنَا ... جِي اللهَ أَنْ يَقْهَرَ الْأَعْدَا وَيُخْزِيهَا
وَهٰكَذَا أُمْضِيَتْ تِلْكَ الصَّحِيفَةُ مِنْ ... كِلَا الْفَرِيقَيْنِ كَيْ تَجْرِي مَجَارِيهَا
فَكَانَ مُسْتَبْشِرًا فِيهَا مُعَاوِيَةٌ ... إِذْ أَنْقَذَتْهُ مِنَ الْبَلْوَى أَمَانِيهَا
أَمَّا الْعَلِيُّ فَأَمْسَى وَهْوَ مُكْتَئِبٌ ... مِمَّا تَجُرُّ عَلَيْهِ مِنْ مَسَاوِيهَا

قالتناك : فتبسم سيدنا علي عليه صلوات الله وقال امحوا كلمة «أمير المؤمنين» ولكن الله سبحانه لا يمحوها عني فقال الاحنف كلا يا أمير المؤمنين لا تمح هذا اللقب عنك فاني أتخوف ان محوته ان لا يرجع اليك أبداً فلا تمحه . فقال عليه صلوات الله لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وعلى آله اذ قال لي يوم الحديبية ستلقى مثلها وقص على الناس كيف انكر المشركون على المصطفى لقب «رسول الله» يومئذ وطلبوا منه محوه وكيف ابى سيدنا علي وكان يكتب الصحيفة محوه وقد سبق لنا تفصيل ذلك في حاشية سبقت ثم قال المرتضى ان ذلك الكتاب أنا كتبته بيننا وبين المشركين واليوم اكتبه الى ابنائه كما كتبه رسول الله الى آبائهم شبهاً ومثلاً . فقال عمرو بن العاص: سبحان الله اتشبهنا بالكفار ونحن مسلمون ؟ فقال علي: يا ابن النابغة ومتى لم تكن للكافرين ولياً وللمسلمين عدواً . فنهض عمرو بن العاص وهو غاضب وقال : والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم . فقال سيدنا علي أما والله اني لأرجو ان يظهر الله عليك وعلى اصحابك

وما كاد يخرج معاوية حتى تولى الحماس الحاضرين فنضوا سيوفهم وقالوا : يا أمير المؤمنين مرنا بما شئت . فقال لهم سهل بن حنيف : ايها الناس اتهموا رأيكم فقد شهدنا صلح رسول الله يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا ثم لم نر في ذلك الصلح الا خيراً .

وبعد أن محي بأمر سيدنا علي لقب «أمير المؤمنين» عن اسمه الشريف وقّع على الصحيفة بخاتمه المبارك وسار القراء بنسختيها الى معاوية فوقع عليها بخاتمه . وكان ختم سيدنا علي من اعلاها وفيه « محمد رسول الله » وختم معاوية من اسفلها وفيه « محمد رسول الله » ايضاً ..

تأثير الحكومة على الناس

مِنْ بَعْدِ إِمْضَاءِ هَاتِيكَ ٱلصَّحِيفَةِ مَا ... بَيْنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ فِي أَجْلَى مَبَانِيهَا(١)
رَاحَتْ صِحَابُ ٱبْنِ حَرْبٍ وَهْيَ مُوْقِنَةٌ ... بِفَوْزِهَا تَتَهَادَى فِي تَهَانِيهَا
وَكَانَ أَعْظَمَهَا بُشْرًا مُعَاوِيَةٌ ... يَرَى رَغَائِبَهُ ٱلْأَيَّامُ تُدْنِيهَا
مَادَامَ دَاهِيَةُ ٱلْأَعْرَابِ صَاحِبَهُ ... رَبُّ ٱلْحُكُومَةِ يَدْرِي كَيْفَ يُجْرِيهَا
لٰكِنَّمَا شَعَرَتْ صَحْبُ ٱلْعَلِيِّ بِسُوْ ... ءِ ٱلْإِخْتِيَارِ وَفَاتَ ٱلْقَوْسَ رَامِيهَا

---

(١) بعد أن تمت كتابة صحيفة الهدنة وامضاها سيدنا علي ومعاوية حملها الاشعث وبعض اناس وساروا بها على النـاس يعرضونها عليهم فرضيها أهل الشام فلم يكن فيهم من يعترض لتقتها باقتدار عمرو بن العـاص ودهائه ولشدة ارتكانها عليه . ثم ساروا بها الى أهل العراق يعرضونها عليهم فقبلها بعضهم وأنكرها البعض وكان في مقدمة المنكرين فرقة عنزة وكانت في نحـو أربعة آلاف مقاتل فصاح فتيان منهم لاحكم الا لله وحملت عنزة بالسيوف على أهل الشام فلقيها هؤلاء واشتبك القتال وانجلى عن بعض القتلى والجرحى . وعند ما وصل الاشعث الى بني مراد من اصحاب علي عرض عليهم الصحيفة فقال صالح بن شفيق وكان من زعمائهم

ما لعليٍّ في الدماء قد حكم ... لو قاتل الاحزاب يوما ما ظلم

ثم قالوا: لاحكم الا لله يا اشعث ولو كره المشركون . ثم مر على رايات بني راسب فقرأ الصحيفة عليهم فقال رجل منهم : « لاحكم الا لله ، لانرضى ، ولا نحكم الرجال في دين الله » . ثم مر على رايات تميم وهو يقرأوها فقال زعيم منهم « لاحكم الا لله ، سبحانه يقضي بالحق وهو خير الفاصلين » وخرج عروة بن أذينة أخو مرداس بن أذينة التميمي فقال : « أتحكمون الرجال في أمر الله ؟ لاحكم الا لله ، فأين قتلانا يا أشعث ؟ » ثم شد بسيفه ليضرب به الاشعث فخطئه وضرب عجز دابته ضربة خفيفة فصاح به الناس : املك يدك . فكف . ورجع الاشعث ومن معه الى سيدنا علي فقالوا : يا أمير المؤمنين انا عرضنا الحكومة على صفوف أهل الشام فقالوا جميعاً رضينا وعرضناها على أهل العراق فارتضاها اكثرهم وانكرها قليل منهم وقالوا « لاحكم الا لله » فل بالراضين على الغاضبين حتى نقتلهم . فقال علي عليه صلوات الله ما دام الغاضبون راية أو رايتين وتفرأ من الناس فلندعهم وشأنهم . وما كاد عليه صلوات الله ينتهي من كلامه الا وراعه نداء الناس من كل صوب وحدب « لاحكم الا لله ، الحكم لله يا علي لا لك ، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله ، ان الله قد أمضى حكمه في معاوية واصحابه ، أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا ، وقد كنا أخطأنا وزللنا حين رضينا بالتحكيم ، وقد بان لنا زللنا وخطؤنا ، فرجعنا الى الله وتبنا ، فارجع أنت يا علي كما رجعنا ، وتب الى الله كما تبنا ، والا برئنا منك » فقال علي عليه صلوات الله « ويحكم أبعد الرضاء والميثـاق والعهد نرجع ؟ أليس الله تعالى قد قال (أوفوا بالعقود) ؟ وقال (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمـان بعد توكيدها) وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ؟ وهكذا أبى سيدنا علي أن يحنث بعهده ويغدر بايمانه وأبى الخوارج الا تحليل التحكيم والطعن فيه . فبريء

فَأَصْبَحَتْ تَتَنَاجَى بِالْمَخَاوِفِ مِنْ   سُوءِ ٱلْمَصِيرِ وَلَا تُلْفِي ٱلْمُنَجِّيهَا
وَلِلْعَلِيِّ مَضَتْ تُبْدِي مَخَاوِفَهَا   مِنِ ٱبْنِ قَيْسٍ ٱلَّذِي قَدْ صَارَ قَاضِيهَا
صَاحَتْ مُجَاهِرَةً لَاحُكْمَ إِلَّا لِرَ   ـبِّ ٱلْعَرْشِ هَيَّ إِلَى ٱلْهَيْجَاءِ نُلْغِيهَا
فَقَالَ حَيْدَرَةٌ : لَا أَرْتَضِي نَكَلًا   عَنْ عِهْدَةٍ أَنْتُمُ كُنْتُمْ مُسِيغِيهَا
وَٱللَّهُ آمِرُ أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ فَلَا   نَعْدُو أَوَامِرَهُ لَابُدَّ نُوفِيهَا
فَسَارِعُوا لِدِينِكُمْ وَٱرْقُبُوا سُفُنَ ٱلْأَ   ـقْدَارِ مَاخِرَةً تَبْغِي مَرَافِيهَا
وَبَعْدَ ذَا رَحَلَتْ أَجْنَادُ كُلِّ فَرِيــ   ــقٍ فِي صَحَابَةِ مَوْلَاهَا لِأَرْضِيهَا
فَسَارَ لِلْكُوفَةِ ٱلْغَنَّا أَبُو حَسَنٍ   وَلِلشَّامِ بِلَا بُطْءٍ مُعَاوِيهَا
وَكَانَ هٰذَا يُرَاعِي صَحْبَهُ وَيُرَا   شِيهَا وَبِٱلْمَالِ وَٱلْأَقْطَاعِ يَرْشِيهَا
وَذَاكَ يَقْصِدُ إِرْجَاعَ ٱلْعِبَادِ إِلَى   عَهْدِ ٱلنُّبُوَّةِ فِي أَبْهَى مَجَالِيهَا

هؤلاء من سيدنا علي وبريء عليه صلوات الله منهم واستفحل الشر

ثم ان محمداً بن جريش تقدم من سيدنا علي وقال : أما الى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل؟ والله إني لا خاف ان يورث ذلاً . فقال عليه صلوات الله : أبعد ان كتبناه ننقضه ؟ ان هذا لا يحل ، ولعمري قد فعلت ما فعلت ، لما بدا فيكم من الخور والفشل عن الحرب . وبينما الناس في هذا البحران تقدمت همدان من سيدنا علي وقال زعيمها سعيد بن قيس : ها أنا ذا وقومي لا نرد لك أمراً يا أمير المؤمنين ، فقل ما شئت نعمله . فقال عليه صلوات : أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة ، لازلتهم عن عسكرهم ، أو تنفرد سالفي ، ولكن كتب ما كتب فانصرفوا راشدين

على ان سيدنا علي عليه صلوات الله مهما اتصف به من الحلم وسعة الصدر والتجمل لدى ترادف الاحداث ضاق صدره وعيل صبره من قوم أكرهوه على صلح لم ير فيه مصلحة المسلمين وعلى تحكيم من ليس بثقة ولا مقتدر وجاؤوه في الاخير يلحون ويلحفون بان ينكث عهده وينقض وعده فغضب لله وشريعته ورسوله وضميره وتولاه الجزع والهم وخرج الى الناس خطيباً فقال : ان هؤلاء القوم ، لم يكونوا لينيبوا الى الحق ، ولاليجيبوا الى كلمة سواء ، حتى يرموا بالمناسر ، تتبعها العساكر ، وحتى يرجموا بالكتائب ، تقفوها الجلائب ، وحتى يجر ببلادهم الخميس يتلوه الخميس ، وحتى يرعوا الخيول في نواحي أرضهم ، وباحياء مشاربهم ومسارحهم ، وحتى تشن عليهم الغارات من كل فج ، وحتى يلقاهم قوم صدق صبر ، لا يزيدهم هلاك من هلك ، من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله ، الا جداً في طاعة الله ، وحرصاً على لقاء الله ، ولقد كنا مع رسول الله نقتل آباءنا وابناءنا واخوالنا وأعمامنا ، لايزيدنا ذلك الا ايماناً وتسليماً ، ومضياً على أمض الألم ، وجهداً على جهاد العدو ، والاستقلال بمبارزة الاقران ، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان ، تصاول الفحلين يتخالسان نفسيهما ايهما يسقي صاحبه كأس المنون ، فمرة لنا ومرة لعدونا منا ، فلما رآنا الله صدقاً صبراً ، أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل علينا النصر ، ولعمري لو كنا نأتي ، مثل الذي

لِمَا ٱلْخَوَارِجُ كَانَتْ مِنْ نَصِيبِ عَلِيٍّ فِي خِلَافَةٍ تَبْغِي تَدَاعِيهَا
فَبَاتَ يَجْهَدُ فِي تَأْلِيفِهَا عَبَثاً بِلُطْفِهِ فَيَرَى لَا شَيْءَ يُرْضِيهَا
وَمَنْ أَرَادَ رِضَاءَ ٱللهِ يَتْعَبُ مَعْ عِبَادِهِ وَلَيَعْيَا عَنْ تَرَضِّيهَا

الحكمان

وَدُومَةُ ٱلْجَنْدَلِ ٱلْحِصْنُ ٱلْحَصِينُ غَدَا أُحْدُوثَةَ ٱلنَّاسِ فِي شَتَّى مَثَاوِيهَا(١)
كَانَتْ عُيُونُ عِبَادِ ٱللهِ تَرْقُبُهُ لَمَّا غَدَتْ فِي مَغَانِيهِ أَمَانِيهَا
فَإِنَّمَا حَكَمَاهَا فِيهِ قَدْ نَزَلَا لِخَلْوَةٍ وَضَعَتْ فِيهَا تَرَجِّيهَا
هُنَالِكَ ٱلْأَشْعَرِيُّ ٱلشَّيْخُ يَصْحَبُهُ عَمْرٌو مُصَاحَبَةً تُخْشَى تَوَالِيهَا
وَهَا هُمَا ٱنْزَوَيَا حَوْلاً لِمُعْضِلَةٍ أَعْيَتْ مَشَاكِلُهَا ٱلْكُثْرَى مُحِلِّيهَا

أتيتم ، ما قام الدين ، ولا عزّ الاسلام» اه

وبعد ان القى سيدنا أمير المؤمنين هذا الخطاب على اصحابه أمرهم التحفز للعودة الى الكوفة وسرعان ما عاد بهم اليها وهم بين خوارج ناقمين عليه ، ومطيعين يتفانون في سبيل رضاه . وكذلك فعل معاوية الا ان قومه كانوا طواعية له يأتمرون بامره وينتهون بنهيه ولا يتوخون غير رضاه . فجاء بهم الشام ولا هم له ولهم الا ان يفوز صاحبه عمرو بن العاص بخديعة ابي موسى الاشعري وما كان ذلك باعتقاده بعيد المنال أو في حكم المحال .

على ان الناس قبل أن يعودوا الى مواطنهم اسرعوا الى دفن موتاهم واحتملوا جرحاهم ومما يسترعي الانظار انهم جميعاً كانوا متصافين ولم يفرق بينهم الا ان بعضهم شيعة معاوية وبعضهم شيعة أمير المؤمنين

(١) سار أبو موسى عبد الله بن قيس الاشعري وعمرو بن العاص الى «دومة الجندل» وهي حصن للمسلمين يبعد عن المدينة المنورة نحواً من ١٥ مرحلة وعن الكوفة نحواً من عشر مراحل اختاراه لخلوتهما وأرسل سيدنا أمير المؤمنين مع أبي موسى أربعمائة مقاتلاً بقيادة شريح بن هاني الحارثي وأرسل معاوية مع عمرو بن العاص أربعمائة مقاتلاً أيضاً فأوصلوهما الى حصن «دومة الجندل» وتركوهما فيه . وقبل أن يترك رجال أمير المؤمنين صاحبهم أبا موسى تقدم منه شريح بن هاني وأخذ بيده وقال : ياأبا موسى ، انك قد نصبت لأمر عظيم ، لا يجبر صدعه ، ولا تستقال فتنه ، ومهما تقول من شيء عليك أو لك ، يثبت حقه ، ويرى صحته ، وان كان باطلاً ، وانه لا بقاء لأهل العراق اذا ملكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشام ان ملكهم علي ، وقد كانت منك تثبيطة أيام الكوفة والجمل ، فان تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقيناً ، والرجاء منك يأساً ، وأنشده شعراً :

أبا موسى رميت بشر خصم فلا تضع العراق فدتك نفسي
وأعط الحق شامهم وخذه فليس اليوم ذا مهل كأمس
وان غداً يجيء بما عليه يحكم الدهر من سعد ونحس
ولا يخدعك عمرو ان عمراً عدو الحق مطلع كل شمس

وَبَاتَ دَاهِيَةُ ٱلْأَعْرَابِ يَلْعَبُ بِٱلْـــعَجُوزِ أَلْعَابَ مَكْرٍ كَانَ رَاصِنَهَا

وَإِنَّ عَمْرًا عَلَى عِلْمِ ٱلْعِبَادِ بِهِ مُدَرَّهُ ٱلْأَشْعَرِيِّ ٱلْغَمْرَ تَدْرِنُهَا

هُنَاكَ كُنْتَ تَرَى عَمْرًا يُبَالِغُ فِي إِكْرَامِ صَاحِبِهِ يَحْبُوهُ تَجْوِنُهَا

فَبِٱلتَّجِلَّةِ وَٱلْإِكْرَامِ مَقْدَمَهُ يَلْقَى إِذَا جَاءَهُ مَكْرًا وَتَمْوِنُهَا

وَكَانَ يُعْلِي مَعَ ٱلْإِجْلَالِ مَجْلِسَهُ يَقُولُ: صُحْبَتُكَ ٱلْهَادِي لَأَتْقِنُهَا

وَكَانَ يَخْلُقُ آثَارًا لَهُ حُمِدَتْ مَا كَانَ يَعْهَدُهَا كِذْبًا وَيُطْرِنُهَا

وَكَانَ بِٱلْمَدْحِ يُغْرِيهِ وَيَخْدَعُهُ بِلَا ٱنْقِطَاعٍ وَآيُ ٱلْحَمْدِ يُسْدِنُهَا

وَكَانَ يَنْعَتُهُ نَعْتًا بِأَفْضَلِ أَنْـــوَاعِ ٱلنُّعُوتِ لِيَسْتَهْوِيهِ زَاهِنُهَا

وَلَمْ يَزَلْ بِأَبِي مُوسَى يَكِيدُ لَهُ كَيْدًا وَأَمْيَالُهُ مَكْرًا يُرَانِنُهَا

حَتَّى تَمَلَّكَهُ وَٱحْتَالَ حِيلَتَهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْرِي مَغَازِنُهَا

فَرَامَ بَادِيءَ بَدْءٍ أَنْ يُجَرِّرَهُ إِلَى جَمَاعَتِهِ كَيْمَا يُمَاشِنُهَا

له خُدَعٌ يحار العقل منها مموَّهة مزخرفة بلبس

فلا تجعل معاوية بن حرب كشيخ في الحوادث غير نكس

هداه الله للاسلام فرداً سوى عرس النبي وأي عرس

وتقدم منه عبد الله بن عباس وكان يصحب الاربعمائة ويصلي بهم بالنيابة عن سيدنا علي عليه صلوات الله وقال له . يا أبا موسى ، انَّ الناس لم يرضوا بك ، ويجتمعوا عليك ، لفضل لا تشارك فيه ، وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك ، ولكن أهل العراق أبوا الا أن يكون الحكم يمانياً ، ورأوا أنَّ معظم أهل الشام يمانيين ، وأيم الله أني لا أظنّ ذلك شراً لك ولنا ، فانَّه قد ضُمَّ اليك داهية العرب ، وليس في معاوية خلة يستحقُّ بها الخلافة ، فان تقذف بحقك على باطله ، تدرك حاجتك منه ، وان يطمع باطله في حقك ، يدرك حاجته منك ، واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليق الاسلام ، وأنَّ أباه رأس الأحزاب ، وأنَّه يدَّعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة ، فان زعم لك أنَّ عمر وعثمان استعملاه ، فلقد صدق ، استعمله عمر وهو المراقب عليه ، بمنزلة الطبيب ، يحميه ما يشتهي ، ويؤخره ما يكره ، ثمَّ استعمله عثمان برأي عمر ، وما أكثر من استعملاه ممن لم يدَّعِ الخلافة ، واعلم أنَّ لعمرو مع كلّ شيء يسرُّك ، خبئاً يسوءك ، ومهما نسيت ، فلا تنس أنَّ علياً بايعه القوم ، الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وأنها بيعة هدى ، وانَّه لم يقاتل الا العاصين والناكثين » فقال أبو موسى : رحمك الله ، والله ما لي امام غير علي واني لواقف عند ما رأى ، وانَّ حقَّ الله أحبُّ اليَّ من رضاء معاوية وأهل الشام ، وما أنت وأنا الا بالله . ثمَّ مال الى شريح وقال : ولكن ما ينبغي لقوم اتهموني ، أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً ، أو أجرَّ اليهم حقاً ....!!

فَخَابَ سَعْياً وَلَيْسَ ٱلأَشْعَرِيُّ بتَا ... رِكٍ عَلِيّاً لِيَسْتَصفِي مُعَاوِيَهَا
وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلشُّورَى شِعَارُ أَبِي ... مُوسَى يَقُولُ : لِمَاذَا لَا نُشَنِّيهَا
فَنَخْلَعُ ٱلرَّجُلَيْنِ ٱلقَائِمَيْنِ بِأَمْـــرِ ٱلمُسْلِمِينَ وَنُعْطِي ٱلقَوْسَ بَارِيَهَا
مَنْ تَرْتَضِيهِ جُمُوعُ ٱلمُسْلِمِينَ إِذَا ... مَا نَالَ سَامِي ٱلتَّسَمِّي مِنْ مُشِيرِيهَا
وَكَانَ عَمْرُوٌ يُنَاوِيهِ بِفِكْرَتِهِ ... ذِي وَهُوَ يَأْبَى إِبَاءً أَنْ يُخَلِّيهَا
وَبَعْدَ طُولِ جِدَالٍ كَانَ بَيْنَهُمَا ... مِنْ غَيْرِ جَدْوَى لِإِبْنِ ٱلعَاصِ يَجْنِيهَا

أما أصحاب معاوية فانهم ودعوا عمراً بن العاص من غير أن يكلموه كأنهم كانوا على ثقة من أمره غير أنه عند ما ودع معاوية قبل ارتحاله عن صفين قال له هذا « ياعمرو : ان أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لا يريده ، ونحن بك راضون ، وقد ضم اليك رجل ، طويل اللسان ، كليل المدية ، وله بعد حظ من دين ، فاذا قال فدعه يقل ، ثم قل فأوجز ، واقطع المفصل ، ولا تلقه بكل رأيك ، واعلم أن خبء الرأي زيادة في العقل ، فان خوفك بأهل العراق ، فخوفه بأهل الشام ، وان خوفك بعلي ، فخوفه بمعاوية ، وان خوفك بمصر ، فخوفه باليمن ، وان أتاك بالتفصيل فأته بالمجمل . فتبسم عمرو تبسم الهازيء وقال : خفف عنك يامعاوية ، فأنت وعلي اليوم رجلا قريش ، ولم تنل في حربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت ، ذكرت أن لعبد الله ديناً ، وصاحب الدين منصور ، وأيم الله لأفنين علله ، ولأستخرجن خبأه ، ولكن اذا جاءني بالايمان والهجرة ومناقب علي ما عسيت أن أقول ؟؟ . قال معاوية : قل ما ترى . فقال عمرو وهل تدعني وما أرى ؟ قال بلى. قال عمرو فاسكت اذن. وتركه وخرج مغضباً كأنه كره أن يوصيه ثقة منه بنفسه . وقال عمرو بن العاص وهو خارج من حضرة معاوية لبعض أصحابه : انما أراد معاوية أن يصغر أمر أبي موسى لانه علم أني خادعه غداً فأحب أن يقول أن عمراً لم يخدع أريباً فكدته بالخلاف عليه وأنشد:

يشجعني معاوية ابن حرب ... كأني للحوادث مستكين
واني عن معاوية غني ... بحمد الله والله المعين
فقلت له ولم أردد عليه ... مقالته وللشاكي أنين
ترى أهل العراق يذب عنهم ... وعن جيرانهم رجل مهين
فلو جهلوه لم يجهل علي ... وغث القول يحمله السمين
ولكن خطبه فيهم عظيم ... وفضل المرء فيهم مستبين
فان أظفر فلم أظفر بوغد ... وان يظفر فقد قطع الوتين

وعند ما خلا عمرو بن العاص بعبد الله بن قيس الأشعري تجرد لخداعه وانصرف الى استهوائه وطفق يحمد سبقه للاسلام وصحة دينه وذكاءه وتقاه ويخلق له من الاعمال الباهرة في سبيل الدين ما أتاه وما لم يأته وكان يجلسه في صدر المجلس ويجلس بين يديه ويبالغ بتجلته واحترامه واكرامه وما زال كذلك حتى خدعه وكسب ثقته وفاز بوده .

وكان أبو موسى هذا كثير التشيع الى عمر بن الخطاب معجباً بأعماله متوفراً على حمد

وَقَالَ : هَيَّ بِنَا يَاصَاحِ نُمْضِيهَا ... أَبْدَى أَخِيرًا لَهُ ٱسْتِحْسَانَ فِكْرَتِهِ

إِلَيْهِ فِي خُدْعَةٍ قَدْ رَاحَ نَاوِيهَا ... أَعْيَا فَوَافَقَهُ عِيًّا وَثَمَّ لَضَى

ثُمَّ شُورَاكَ قَدْ أَصْبَحْتُ بَاغِيهَا ... وَقَالَ: إِنِّي أَرْضَى ٱلْخَلْعَ أَحْكُمُ فِيهِ

إِرْضَاءِ صَحْبِيَ فِي إِغْضَابِ بَارِيهَا ... وَإِنَّ إِرْضَاءَ رَبِّ ٱلْعَرْشِ أَفْضَلُ مِنْ

عَبْدَ ٱللهِ مُسْتَرْسِلًا فِيمَا يُضَاهِيهَا ... وَكَانَ عَمْرٌو بِذِي ٱلْأَقْوَالِ يَخْدَعُ

مآتيه وكان رأيه انّ خير حل لهذه المشكلة أن يتولى الخلافة عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو يعتقد انه سرّ ابيه فيجدّد للمسلمين عهده وان لا سبيل للوصول الى هذا الا بخلع علي ومعاوية وترك الخلافة شورى كما تركها عمر بن الخطاب للستة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

فكان أبو موسى كلما اجتمع بعمرو بن العاص يقول له : هل لك في أمر هو للامة صلاح ولصلحاء الناس رضىً ان تولي عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة ولا هذه الفرقة ؟ وكان عمرو يجيبه قائلاً : فأين أنت يا أبا موسى من معاوية . فيقاطعه أبو موسى قائلاً: لاتذكر صاحبك ألا تراني أعرض عن ذكر صاحبي . فيقول عمرو ألست تعلم أنّ عثمان قتل مظلوماً فيقول أبو موسى: بلى. فيقول عمرو ما يمنعك اذن من معاوية وهو وليّ عثمان وقد قال الله تعالى (من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً) . ثمّ كان عمرو بن العاص يسهب بشرح هذه الآية الكريمة فيفسرها على هوى معاوية فيفسر سلطان ولي المظلوم بالاستيلاء على وظيفته فيقول له ان الله في كتابه الكريم قد ولّى معاوية الخلافة التي كانت لعثمان وقتل عنها وهذا أغرب ما سمع بتأويل القرآن وقد نوّه بهذا التفسير الفاسد سيدنا علي في غير موضع من خطبه الغراء. ثمّ كان يقول: انّ بيت معاوية من قريش ما قد علمت . فان خشيت الناس ان تقول ولّى معاوية وليس له سابقة فانّ لك حجةً أن تقول وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه، الحسن السياسة، الحسن التدبير، وهو أخو امّ حبيبة امّ المؤمنين، زوج النبي عليه الصلاة والسلام، وقد صحبه وهو أحد الصحابة، واعلم يا أباموسى ان هو ولي الامر اكرمك كرامة لم يكرمك أحد قطّ مثلها . فيقول أبوموسى : اتق الله يا ابن العاص أمّا ماذكرت من شرف معاوية فان هذا الامر ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان أحقّ الناس بهذا الامر أبرهة ابن الصباح انما هو لأهل الدين والفضل. مع اني لو كنت اعطيه لافضل وأشرف قريش لاعطيته علياً ابن أبي طالب . واما قولك ان معاوية وليّ عثمان فوله هذا الأمر فاني لم أكن أوليه اياه لنسبته من عثمان وأدع المهاجرين الاولين . وأمّا تعريضك لي بالامرة والسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليته وما كنت ارتشي في الله وان شئت واقتني على سنة عمر بن الخطاب بالرجوع الى شوراه . بهذا وامثاله كان يدور الجدال بين عمرو بن العاص وابي موسى الاشعري بين جدران دومة الجندل. وعلى مثل هذه الحوادث قد مضت الايام والاسابيع فالاشهر من غير أن يلين عود لابي موسى اذ كان صلب الرأي لا يرضى ان تحلّ هذه المشكلة الا على طريقته وهي خلع علي ومعاوية معاً وترك الامر شورى لاعيان قريش كما تركه عمر للستة شورى بينهم

وبعد ان عجز عمرو بدهائه المشهور عن زحزحة أبي موسى عن رأيه اخذ يتظاهر باقتناعه وتمسكه به وحتى لايدع لابي موسى سبباً للشكّ طفق هو ايضاً يذكر محاسن الشورى على طريقة

حَتَّى ٱسْتَنَامَ إِلَى مَا كَانَ يَسْرُدُهُ ... مِنْهَا وَمَا خَالَهُ هَزْأً بِهِ فِيهَا
وَهٰكَذَا ٱتَّفَقَا أَنْ يَتْرُكَا عَلَنَاً ... خِلَافَةَ ٱلْمُصْطَفَى شُورَى لِأَهْلِيهَا
وَيَخْلَعَا جَهْرَةً عَنْهَا مُعَاوِيَةً ... وَٱلْمُرْتَضَى خَلْعَةً مَا ٱلْعَدْلُ رَاضِيهَا

اعلان حكم الحكمين

مَرَّتْ عَلَى هُدْنَةِ ٱلْإِسْلَامِ مِدَّتُهَا ... وَٱلنَّاسُ تَسْتَطْلِعُ ٱلْأَخْبَارَ مُنْبِيهَا(١)
وَلَمْ تَكُنْ تَتَرَجَّى أَنْ يَسُودَ عَلَى ... رُبُوعِهَا ٱلسِّلْمُ أَوْ تَصْفُو لَيَالِيهَا
لِعِلْمِهَا أَنَّ فِي أَرْضِ ٱلشَّامِ أَنَا ... سٌ لَا تَرُومُ سِوَى تَأْمِيرِ وَالِيهَا
وَمَا ٱلْوَصِيُّ بِرَاضٍ أَنْ يُضِيعَ حُقُو ... قَهُ وَيُغْضِي عَلَى مَسْعَى مُضِيعِيهَا

عمر ويطري عبد الله بن عمر ويذكر له ما سيكون من أمر ادارة الخلافة وتنظيمها بعد خلع علي ومعاوية وشرع يذكر اسماء اعيان قريش الذين سيكون من حقهم الدخول في الشورى الى آخر ما كان يفيض فيه ويجيد لاكتساب ثقة صاحبه عبد الله الذي فرح فرحاً عظيماً بكسبه عمراً بن العاص الى رأيه وحسب نفسه انه قد قام بأفضل خدمة للاسلام والمسلمين

واما عمرو بن العاص فقد كان يضحك في سره من سلامة نية أبي موسى الاشعري حتى وثق به وحسبه يوافقه على خلع معاوية ويساعده على تسليم زمام الخلافة لعبد الله بن عمر بن الخطاب حسبةً لله تعالى من غير ان يتفق معه على أخذ ولاية مصر لنفسه

(١) لم تكن دومة الجندل سجناً لعمرو بن العاص وابي موسى الأشعري ولا صومعةً انزويا فيها فلا يقابلان أحداً بل كان يقصدهما الناس بين حين وآخر وعرفنا من الذين زاروهما المغيرة ابن شعبة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهم وكانوا يجتمعون بهما ويحادثونهما على ان هؤلاء الزوار كان منهم مَن هواه مع معاوية كالمغيرة وكان معتزل القتال ومنهم مَن كان يطلبها لنفسه كعبد الله بن الزبير ومنهم مَن كان هوى بعض الناس معه كعبد الله بن عمر بن الخطاب ومع ان اختلاط الناس بالحكمين مما يؤثر على آرائهما مع ذلك فأحسب ان مسألة التحكيم ابتدأت بالحيلة وانتهت بالحيلة فلم يؤثر عليها مؤثر ما وخلاصة ما في الأمر ان الاشعث الذي كان يشجع الناس على قبول التحكيم لم يكن قط مخلصاً بطريقته لا في صحبة علي ولا ضده وان أبا موسى كان متشبعاً حكم عمر بن الخطاب وكل عمل ينمى اليه فمنذ دعي الى الحكومة وضع نصب عينيه شيئاً واحداً وهو ترك الامر شورى في قريش كما تركها عمر ولبلاهته لم يفرق بين حالة الناس عند وفاة عمر وحالتهم بعد موقعة صفين وان الناس اذا قبلوا بالستة الذين حصر فيهم عمر الخلافة فذلك لانهم من اصحاب رسول الله الذين جاهدوا معه ولان معاوية والأمويين كانوا وراءهم يكرهونهم على ذلك الرضا ولكن هيهات ان يقبلوا بغيرهم فلا تفترق كلمتهم ولا سيما اذا كان المزاحم على الخلافة معاوية وهو كما نعلم من الطلقاء وهم مشركو قريش الذين ظلوا يحاربون رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ان نصره عليهم بدخوله مكة المكرمة عنوةً وهو ته اخيراً ان معاويةً لا يتخلى عن الخلافة سواء حكم الحكمان بتخليه عنها

وَقَلَّ مَنْ ظَنَّ خَيْراً فِي ٱلْحُكُومَةِ مَا ... دَامَ ٱبْنُ قَيْسٍ مَعَ ٱبْنِ ٱلْعَاصِ مُجْرِيَهَا

وَعِنْدَ مَا حَانَ نُطْقُ ٱلْحُكْمِ وَٱلسَّنَةُ ٱلْـ ... ـمَضْرُوبَةُ ٱلْوَعْدِ قَدْ وَافَتْ مُحِيلِيهَا

وَافَتْ وُفُودُ عَلِيٍّ دُومَةً وَوُفُو ... دُ ٱلشَّامِ وَٱلضِّغْنُ بَادٍ مِنْ مَآقِيهَا

« وَٱلْعَيْنُ تَعْرِفُ مِنْ عَيْنَيْ مُحَدِّثِهَا ... إِنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا »

وَعِنْدَ مَا عَقَدَتْ تِلْكَ ٱلْوُفُودُ حِبَا ... هَا وَٱسْتَقَرَّ بِهَا لِلْحُكْمِ نَادِيهَا

وَافَى إِلَيْهَا أَبُو مُوسَى بِمَظْهَرِ مَنْ ... حُقُوقُ شَرْعِ إِلٰهِ ٱلْعَرْشِ مُوفِيهَا

وَكَانَ يَتْبَعُهُ عَمْرٌو بِمِشْيَةِ مُخْـ ... ـتَالٍ فَخُورٍ يُجِيدُ ٱلدَّلَّ وَٱلتِّيهَا

فَٱسْتَقْبَلَ ٱلْحَكَمَيْنِ ٱلنَّاسُ مُبْشِرَةً ... وَقَدْ حَفِي بِهِمَا بِٱلصَّفْوِ حَافِيهَا

وَقَالَ عَمْرٌو : أَبَا مُوسَى فِدَاكَ أَبِي ... مِنْ سَيِّدٍ بَلَغَ ٱلْجَوْزَاءَ تَوْجِيهَا

لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ ٱللهِ قَبْلِي ثُـ ... ـمَّ فُقْتَنِي بِسِنِيِّ ٱلْعُمْرِ طَاوِيهَا

أو لم يحكما . أمّا عمرو بن العاص وهو أبو حيلة التحكيم وامّها فكان هواه معروفاً وهو عامل على تنفيذه كيفما كانت الحالة

ولقد عرفنا انّ الايام انقضت بعضها تلو البعض وعمرو بن العاص يروغ من أبي موسى روغان الثعلب وهذا لايتحوّل عن رأيه وفي الاخير تظاهر عمرو بالاقتناع برأي أبي موسى والنزول على حكمه وارسل الحكمان في رمضان سنة ٣٧هـ الى سيدنا علي ومعاوية يطلبان منهما ان ينتدبا من يحضر من قبلهما الى دومة الجندل لسماع الحكم فاوفد سيدنا علي اربعمائة مقاتلاً بقيادة شريح بن هانيء الحارثي ومعه عبد الله بن عباس يصلي بهم وصحبهم الاشعث أيضاً وارسل معاوية اربعمائة مقاتلاً ايضاً بقيادة يزيد بن أسد القسري فلما بلغ الفريقان دومة الجندل خرج اليهم الحكمان أبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص فقال هذا لابي موسى كعادته من خداعه تكلم ياعبد الله فأنت مقدم عليّ وقد صحبت رسول الله قبلي فأنت اكبر مني سناً وقدراً ثمّ اتكلم أنا فتقدم عبد الله بن عباس من أبي موسى وقد رأى من عيني عمرو بن العاص الخديعة وقال له : ويحك والله ، اني لا ظنه خدعك ، ان كنتما اتفقتما على أمر ، فقدمه قبلك ليتكلم به ، ثمّ تكلم أنت بعده ، فانّه رجل غدّار ، ولا آمن ان يكون قد اعطاك الرضى فيما بينك وبينه ، فاذا قمت في الناس خالفك . فجبهه أبو موسى قائلاً : ايهاً عنك انا قد اتفقنا وتركه واقبل على الناس ، فحمد الله واثنى عليه ، ثمّ قال : ايها الناس ، انا قد نظرنا في أمر هذه الامة ، فلم نر شيئاً هو أصلح لأمرها ، وألمّ لشعثها ، من أن لا تتباين أمورها ، وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي ، على خلع علي ومعاوية ، وان نستقبل هذا الامر ، فيكون شورى بين المسلمين ، يولون أمورهم من أحبوا ، واني قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أموركم ، وولوا من رايتموه لهذا الامر أهلاً . وتنحى بعد هذا القول الاخرق فقبل عمرو بن العاص وهو يتهادى تهادي المنتصر ، وحمد الله واثنى عليه ثمّ قال : انّ هذا قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا اخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت

لَكَ ٱلتَّقَدُّمُ فِي ٱلْقَوْلِ ٱلَّذِي أُذُنُ ٱلْأَ ... م سَلاَمٍ تُصْغِي إِلَيْهِ كُنْ مُنَاجِيَهَا
وَزُخْرُفُ ٱلْقَوْلِ غَرَّ ٱلْأَشْعَرِيَّ فَلَمْ ... يَفْطَنْ لِحِيلَةِ عَمْرٍو كَيْ يُحَاشِيَهَا
وَوَاجَهَ ٱلنَّاسَ بِٱلْحَمْدِ ٱلْوَفِيرِ عَلَى ٱلْـ ... ـرَّبِّ ٱلْقَدِيرِ إِلٰهِ ٱلنَّاسِ ذَارِيهَا
ثُمَّتْ عَلَى ٱلْمُصْطَفَى صَلَّى صَلاَةَ أَمِيـ ... ـنٍ مُسْلِمٍ كُلُّ ذِي تَقْوَى يُصَلِّيهَا
وَقَالَ: يَانَاسُ بِتْنَا نَاظِرِينَ مَلِيًّـ ... ـا فِي أُمُورِكُمُ كَيْمَا نُوَاسِيهَا
فَلَمْ نَرَ ٱلْخَيْرَ فِي ٱسْتِصْلاَحِ أُمَّتِكُمْ ... مِنْ بَعْدِ أَنْ عَاثَهَا بِٱلشَّرِّ عَائِثُهَا
وَكَيْ نَلُمَّ بِصَافِي وُدِّهَا شَعَثًا ... بِهَا فَفَرَّقَ تَفْرِيقًا مُحِبِّيهَا
إِلَّا بِخَلْعِ عَلِيٍّ مَعْ مُعَاوِيَةٍ ... خَلْعًا بِهِ ٱلشِّرْعَةُ ٱلسَّمْحَاءُ نُرْضِيهَا
وَٱلْأَمْرُ نُبْقِيهِ شُورَى بَيْنَ أُمَّتِنَا ... لِتَنْتَقِي مِنْ قُرَيْشٍ مَنْ يُمَالِيهَا
ذَا مَا عَلَيْهِ لَقَدْ تَمَّ ٱلْوِفَاقُ مَعَ ٱبْـ ... ـنِ ٱلْعَاصِ أُعْلِنُهُ فِي ٱلنَّاسِ تَجْرِيهَا

صاحبي معاوية في الخلافة ، فانه وليّ عثمان ، والطالب بدمه ، واحقّ الناس بمقامه . وما كاد يفوه عمرو بن العاص بهذه الكلمات حتى نزلت على سمع ابي موسى كالصاعقة فامتقع لونه وارتجفت اعصابه وصاح بملء فمه : مالك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت ، انما مثلك مثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث ، وان تركته يلهث. فقال عمرو وهو يتبسم تبسم الساخر بيلاهته: انما مثلك مثل الحمار ، يحمل اسفاراً. وبينما كان أبو موسى وعمرو بن العاص يتلاحيان كان الهرج والمرج قد ساد الناس فتقدم شريح بن هانيء من عمرو بن العاص وقنعه بالسوط وحمل عبد الله بن عمرو بن العاص على شريح فقنعه بالسوط وقام الناس فحجزوا بينهما فجعل شريح يقول اخطأت اذ لم اضرب عمراً بالسيف بدل السوط اتى الدهر ما أتى. واغتنم فرصة الهرج عمرو بن العاص وابو موسى فهربا من بين الناس مختفيين وصاح في الناس سعد بن قيس الهمداني وكان من اصحاب سيدنا علي عليه صلوات الله فقال : والله لو اجتمع الحكمان على هدى ، ما زادا بأعلى مما نحن عليه ، وما ضلالهما بلازم لنا ، وما رجعا الا بما بدأا به ، وانّا اليوم لعلى ما كنا عليه أمس . فعترضه يزيد بن أسد القسري وهو أمير أصحاب معاوية فقال : يا أهل العراق ، اتقوا الله ، فإنّ أهون ما تردّونا واياكم اليه الحرب ، ما كنا عليه بالأمس ، وهو الفناء ، وقد شخصت الأبصار الى الصلح ، واشرفت الانفس على الهلاك ، وأصبح كلّ امرىء يبكي على قتيل ، ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم ، وكرهتم آخره ؟ انه ليس لكم وحدكم الرضى . فجبهه أهل العراق وسفهوه وقال شاعرهم

لا ليت من يرضى من الناس كلهم ... بعمرو وعبد الله في لجة البحر
رضينا بحكم الله لا حكم غيره ... وبالله رباً والنبي وبالذكر
وبالاصلع الهادي عليٍّ امامنا ... رضينا بهذا الشيخ في العسر واليسر
رضينا به حياً وميتاً وانه ... امام الهدى في الحكم والنهي والأمر

وإنني خالع معه معاوية ... والمرتضى خلعة كونوا مريديها
ولتختر الناس من ترضى لأمرتها ... كفئاً كريماً يرقيها ويهنيها
وما انتهت قولة المخدوع وهو بها ... يجد ما كان يدري الهزل يغنيها
حتى تصدى له عمرو بلا خجل ... يشوه الحق بالتضليل تشويها
وقال : يا ناس هذا قال قولته ... وكنتم سامعيها وهو تاليها
فيها لقد خلع اليعسوب صاحبه ... عن الخلافة أضحى منه مخليها
وإنني قد خلعت اليوم حيدرة ... معه وخلعته بالعدل ناتيها
لكنني مثبت جهراً معاوية ... فوق الخلافة تعليه ويعليها
هذا ولي ابن عفان وربك أعـ ... ـطاه الولاية فهو منه عاطيها
وإنه بالدم المهدور يطلب أعـ ... ـداه التي قتلته في تعصيها
لذا بإمرته قد كان أجدر من ... كل الورى فهو بسم الله راقيها
وأحدثا الشغب القولان واضطربت ... معاشر الناس من معنى مكيديها

فمن قال لا قلنا بلى ان أمره ... لأفضل ما نعطاه في ليلة القدر
وما لابن هند بيعة في رقابنا ... وما بيننا غير المثقفة السمر
وضرب يزيل الهام عن مستقره ... وهيهات هيهات الرضى آخر الدهر
أبت لي أشياخ الأراقم سبة ... أسب بها حتى أغيب في القبر

وهكذا انصرف أهل العراق للعراق وأهل الشام للشام وفي النفوس ما فيها من الأحقاد والأضغان وأيقنت الناس أن لا صلح ولا سلام

« ترجمة أبي موسى الاشعري »

هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حصار بن حرب بن عامر بن عمر بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر . وأمه بنت أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. قدم على رسول الله وأسلم وهو عليه الصلاة والسلام في مكة قبل هجرة الحبشة والأكثرون على أن أبا موسى لم يهاجر الى الحبشة بل أسلم وعاد الى اليمن ولم يزل فيها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على المصطفى فوافق يوم قدومهم قدوم أهل السفينتين جعفر بن أبي طالب وأصحابه من الحبشة فوافوا رسول الله في خيبر فظن قوم أن أبا موسى قدم من الحبشة مع جعفر . وصحب أبو موسى المصطفى مدة ثم ولاه عليه الصلاة والسلام عدناً والساحل بجوارها (لحج وأبين وما جاورهما) . وولاه أبو بكر زبيداً من مخاليف اليمن . وفي عهد عمر بن الخطاب كان أبو موسى مع فاتحي الشام وشهد خطبة عمر في الجابية ووفاة عمر بن الجراح ثم ان عمر ولى أبا موسى على البصرة سنة ١٧ هـ لما عزل المغيرة عنها وبأمره فتح أبو موسى

وَهَالَ صَحْبَ عَلِيٍّ أَنْ يَفُوزَ بِعَبْدِ ٱللّٰهِ عَمْرٌو فَيُغْوِيهِ وَيُخْزِيهَا
وَٱغْتَاظَ غَيْظاً أَبُو مُوسَى لِخِزْيَتِهِ أَمَامَ أَصْحَابِهِ وَٱلْحِقْدُ فَاشِيهَا
وَقَالَ : مَالَكَ يَا عَمْرُو غَدَرْتَ بِنَا وَقَدْ فَجَرْتَ فَلَا لَاقَيْتَ تَرْفِيهَا
ثُمَّ تَبَادَلَ هٰذَانِ ٱلسِّبَابَ . بِأَقْــوَالِ ٱلْبَذَاءَةِ كَانَ ٱلْحِقْدُ يُمْلِيهَا
وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ عَمْرٍو شَرِيحُ بِضَرْ بَاتِ ٱلسِّيَاطِ يُؤَذِّيهِ تَتَالِيهَا
كَذَاكَ صَحْبُ عَلِيٍّ بِٱلْعَجُوزِ لَقَدْ هَمَّتْ تُرِيدُ بِهِ أَسْوَا مَآتِيهَا
فَلَمْ تَنَلْهُ ٱخْتَفَى عَنْهَا وَسَارَ إِلَى أُمِّ ٱلْقُرَى خِلْسَةً إِذْ رَاحَ لَاجِيهَا
وَعَادَ كُلُّ فَرِيقٍ نَحْوَ مَوْطِنِهِ وَفِي ٱلنُّفُوسِ حَزَازَتٌ تُلَظِّيهَا
وَأُيْقِنَ ٱلنَّاسُ أَنْ لَا سِلْمَ يُرْفِهُهَا وَٱلْحَرْبُ بَالِغَةٌ مِنْهَا أَمَانِيهَا

نصيبين في تلك السنة وفتح بأمره أيضاً الأهواز واصبهان سنة ٢٣ ه وعاد الى البصرة فظلّ فيها الى صدرٍ من خلافة عثمان حيث عزله هذا الخليفة وولّى على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز سنة ٢٩ ه فغضب وسار الى الكوفة فسكنها وفي نفسه ما فيها على عثمان وعماله

وبقي الاشعري في الكوفة الى أواخر أيام عثمان حيث هبّ الكوفيون لمناوأة عثمان وأكثروا من الشكوى على واليه عليهم سعيد بن العاص فطلبه عثمان اليه مع من طلب من الولاة ثمّ أعاده الى الكوفة فأبى أهلها قبوله وأعادوه الى عثمان ونادوا بأبي موسى والياً عليهم وذلك لما أنسوه فيه من الانصراف الى الصلاة والعلم بالكتاب ولشرف صحبته لرسول الله وقتل عثمان والكوفة بولاية ابي موسى وبويع سيدنا علي خليفةً للمسلمين فأخذ عليه صلوات الله ينظر في أمر العمال ويستبدل الذين كثرت منهم الشكوى فاصرّ الأشتر على ابقاء ابي موسى على ولاية الكوفة محسناً الظنّ به شاهداً باستقامته وعدله فوافقه سيدنا علي على ذلك . ولما خرج اصحاب الجمل الى البصرة وتغلبوا عليها وبطشوا بطشتهم بعامل سيدنا علي عليها كتبوا الى أبي موسى أن ينضمّ اليهم مع أهل الكوفة فأبى وأعلن حياده متعهدا أن لا يكون ضدّهم وقال جهراً انها فتنة يتحاشاها فلما تبع سيدنا علي أصحاب الجمل ووصل الى الربذة كان عليه صلوات الله متأكداً أنّ أهل الكوفة شيعة له وأنّ أبا موسى من الامناء لبيعته فكتب اليه يطلب المدد فرفض وكان بعد ذلك ما مرّ بنا تفصيله من ذهاب الاشتر الى الكوفة وطرده أبا موسى منها فخرج أبو موسى الى داخلية العراق وظلّ خمسة أشهر مقاطعاً سيدنا علي ثمّ عاد اليه تائباً وبايعه ومضى بعد ذلك الى الشام فأقام في احدى قراها في موضع سموه «عرض» وما عرفت أين موقعه وظلّ هناك الى أن انتهت موقعة صفين بالتحكيم واختاره الناس حكماً عن أهل العراق وكان من أمره في التحكيم ما قد رأينا

وبعد فشله في التحكيم وظهور خديعته فرّ الى مكة غضباً على عمرو بن العاص وعلى نفسه وعلى كلّ ما حوله وكان يزعم أنه اراد نصيحة الامة وظلّ في هاتيك المدينة المقدسة الى أن مات واختلف الناس في سنة موته فقالوا انها سنة ٤٢ ه وقالوا سنة ٥٠ والله أعلم .

معاوية بعد نبأ التحكيم

خِدَاعُ عَمْرٍو خِفَافُ ٱلطَّيْرِ قَدْ حَمَلَتْـــهُ لِٱبْنِ حَرْبٍ سَرِيعاً فِي خَوَافِيهَا (١)
أَوِ ٱلْخَدِيعَةُ كَانَ ٱلرِّيحُ نَاقِلَهَا ... إِلَى مَسَامِعِهِ حَالاً وَرَاوِيهَا
فَأَعْلَنَ ٱلنَّاسَ خَلْعَ ٱلْمُرْتَضَى وَدَعَا ... هَا كَيْ تُبَايِعَهُ جَهْراً بِأَيْدِيهَا
وَإِنَّ دَعْوَتَهُ أَلِفَتْ بِأَنْفُسِ آ ... هَالِ ٱلشَّآمِ هَوىً وَافَتْ تُلَبِّيهَا
وَعَادَ عَمْرٌو إِلَيْهَا وَهُوَ مُنْتَصِرٌ ... فَٱسْتَقْبَلَتْهُ بِآيِ ٱلْمَدْحِ تُسْدِيهَا
وَحَلَّ أَسْمَى مَحَلٍّ عِنْدَ صَاحِبِهِ ... وَبَاتَ مِنْهُ قَرِيرَ ٱلْعَيْنِ هَانِيهَا
لٰكِنَّ بَيْعَةَ إِبْنِ ٱلصَّخْرِ قَدْ قَصُرَتْ ... عَلَى ٱلشَّآمِ وَمَا جَازَتْ أَهَالِيهَا
وَإِنَّمَا كَانَ يَرْجُو فَتْحَ مَمْلَكَةِ ٱلْإِ ... سْلَامِ بِالسَّيْفِ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا
فَوَاصَلَ ٱلْعَزْمَ فِي تَحْقِيقِ رُغْبَتِهِ ... وَمِثْلُهُ لَمْ يَكُنْ وَٱللّٰهِ مُزْجِيهَا
إِذْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ ٱلنَّاسَ تُوجَدُ فِي ... ظِلَالِهِ تَرِفَةً يَحْلُو تَفَيِّيهَا
لِذَا تُفَضِّلُهُ عَمَّنْ يُحَاوِلُ أَنْ ... يَعُودَ مَعْهَا إِلَى قَاسِي تَبَدِّيهَا
وَلَمْ يَكُنْ جَاهِلاً مَا فِي ٱلْعِرَاقِ مِنَ ٱلْـ ... ـشِّقَاقِ وَٱلنَّاسُ يُوهِيهَا تَجَزِّيهَا

وابو موسى هذا هو الذي به عمر بن الخطاب الى وجوب تأريخ كتبه وذلك عند ماتولى البصرة سنة ١٧ هـ فكان تنبيهه هذا سبباً لوضع التاريخ الهجري على ما تقدم القول في حاشية سبقت

وكان أبو موسى قصيراً خفيف اللحم حسن الصوت جيد القراءة الا أنه كان فائل الرأي على بساطة تسهل معها خديعته على ما رأينا من أمره في التحكيم سامحه الله

(١) هرب عمرو بن العاص من بين الناس واختفى عن العيون والأرصاد في احدى غرف دومة الجندل مطمئناً الى نجاحه مرتاحاً الى عمله وأخذ القرطاس فكتب الى معاوية

أتتك الخلافة مزفوفةً ... هنيئاً مريئاً تقرُّ العيونا
تزفُّ اليك زفاف العروس ... بأهون من طعنك الدارعينا
وما الأشعريُّ بصلد الزناد ... ولا خامل الذكر في الاشعرينا
ولكن أتيحت له حيَّة ... يظلُّ الشجاع لها مستكينا
فقالوا وقلت وكنتُ امرءاً ... أحججه بالخصم حتى يلينا
فخذها ابن هندٍ على بعدها ... فقد دافع الله ما يحذرونا
وقد صرف الله عن شامكم ... عدواً مبيناً وحرباً زبونا

وما انتهت أشعار عمرو بن العاص الى معاوية حتى طار فرحاً وسروراً بها وازداد فرحاً عندما

وَإِنَّهُ مَعَ عَمْرٍو بِٱخْتِيَالِهِمَا قَدْ يَظْفَرَانِ بِذِي ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
وَيَبْلُغُ ٱلأُمْرَةَ ٱلعُلْيَا بِسُؤْدُدِهَا مَهْمَا ٱلْمَصَاعِبُ حَالَتْ دُونَ بَاغِيهَا
وَبَاتَ يَطْمَعُ فِي نَهْبِ ٱلْخِلَافَةِ أَقْطَاعاً وَكَانَ ٱخْتِلَافُ ٱلنَّاسِ مُغْنِيهَا

أمير المؤمنين بعد نبأ التحكيم

أَمَّا ٱلإِمَامُ فَلَمْ يَجْهَلْ مَكِيدَةَ عَمْرٍو وَكَانَ مُنْتَظِراً كَيْداً يُحَاكِيهَا(١)
وَكَانَ أَدْرَى ٱلْوَرَى بِٱلأَشْعَرِيِّ وَمَا فِي نَفْسِهِ مِنْ خُوَارٍ كَانَ مُوهِيهَا
فَمُذْ تَبَلَّغَ مَا قَدْ كَانَ مِنْ نَبَإِ ٱلتَّحْكِيمِ وَٱلْحِيلَةِ ٱلسُّوءَى وَمُجْرِيهَا
وَافَى إِلَى ٱلنَّاسِ فِي سَامِي عَزِيمَتِهِ وَٱلنَّاسُ تَعْرِفُهُ مَاهَمَّ يُمْضِيهَا

اطلع على نتيجة التحكيم وأسرع فدعا الناس الى مبايعته فبايعه أهل الشام خليفةً واستقرّ حكمه فيهم لا يتعداهم وأخذ يفكر بتوسيع أمره في بلاد الخلافة رويداً رويداً اتكالاً على سعة حيلته وتساهله مع الناس وعلى نفرة الناس من حكم سيدنا أمير المؤمنين الذي يأبى الا ارجاعهم الى القرآن وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام وكان اتكاله بالأكثر على ما عرفه يقيناً من اختلاف أهل العراق فيما بينهم مما يضعف أمرهم أمامه وما كان في ذلك فائل الرأي طائش الحساب

وبعد قليل وصل عمرو بن العاص الى الشام فاستقبله معاوية بغاية التجلة والاكرام وأحله المحل اللائق به من الاجلال والاحترام

(١) هرب أبو موسى الأشعري من ايدي اصحاب سيدنا علي وهو موقن بأنهم قاتلوه لا محالة لو ظفروا به وقصد رأساً مكة معتصماً بالكعبة كرمها الله محتمياً بها وهو على اشد الندم والغيظ وكان يقول لمن يصادفه : والله لقد حذرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكني اطمأننت اليه وظننت انه لا يؤثر شيئاً على نصيحة الامة . ونحن بدورنا نقول لا ندري والله ما هي نصيحة الامة التي ارادها ابو موسى باخلاء الخلافة من امير المؤمنين عليه صلوات الله وهو من الأمة على ما نعلم ويعلم في محل القطب من الرحى كما نجهل ما كان يريد بترك الأمر شورى بين قوم كلٌّ منهم يريدها لنفسه وما فيهم باجماع الائمة من يعادل سيدنا امير المؤمنين بوجه من الوجوه ولكن قدّر فكان

ولما انتهى نبأ ما كان من امر التحكيم وخديعة ابي موسى الاشعري الى سيدنا امير المؤمنين عليه صلوات الله لم يقع منه في موقع الغرابة لأنه كان مقدراً هذه النتيجة السوداء المحزنة وخرج الى الناس في المسجد فملأ المنبر خطيباً فقال : «الحمد لله ، وان اتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجليل ، واشهد انّ لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، ليس معه اله غيره ، وانّ محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله ، اما بعد ، فانّ معصية الناصح الشفيق ، العالم المجرّب ، تورث الحسرة ، وتعقب الندامة ، وقد كنت امرتكم في هذه الحكومة امري ، ونخلت لكم مخزون رأيي ، لو كان يطاع لقصير امر ، فأبيتم عليّ اباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقدحه ، فكنت أنا واياكم كما قال اخو هوازن

وَقَالَ لِلّٰهِ حَمْدِي فَاحْمَدُوهُ مَعِيْ وَإِنْ أَرَتْنَا لَيَالِيْنَا كَوَادِيهَا
وَإِنَّنِي شَاهِدٌ أَنْ لَا إِلٰهَ سِوَا هُ لِلْخَلَائِقِ أُنْسِيهَا وَجِنِّيهَا
وَإِنَّ أَحْمَدَ خَيْرَ الْخَلْقِ أَجْمَعِهَا رَسُولُهُ الْمُصْطَفَى لِلنَّاسِ يَهْدِيهَا
صَلَّى الْإِلٰهُ عَلَيْهِ كُلَّمَا سَطَعَتْ شَمْسٌ عَلَى أَرْضِنَا تُجْلِي دَيَاجِيهَا
وَبَعْدُ يَاصَحْبَنَا فَالدَّهْرُ ذُوْ غِيَرٍ فَإِنْ أَتَاهَا فَأَبْعِدْ أَنْ نُحَاشِيهَا
وَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّدْسِ الشَّفِيقِ أَخِي الْـــنُّصْحِ الْمُجَرَّبِ لَمْ تُؤْمَنْ مَخَاشِيهَا
فَتُورِثُ الْحَسَرَاتِ الْكُثْرَ صَاحِبَهَا وَتُعْقِبُ النَّدَمَ الْمَوْفُورَ آتِيهَا
وَفِي الْحُكُومَةِ أَمْرِي قَدْ أَمَرْتُكُمُ إِذْ كُنْتُ أَعْرِفُ خَافِيهَا كَبَادِيهَا
وَقَدْ نَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي فِيـــهَا مُوصِلاً حَالَهَا الْمُشْجِي بِآتِيهَا
لٰكِنْ عَرَفْنَا «قَصِيراً» لَا يُطَاعُ لَهُ أَمْرٌ إِذَا ذَكَرَ الْأَمْثَالَ نَاسِيهَا
وَقَدْ أَبَيْتُمْ وَيَاذُلَّاهُ مَشْوَرَتِي إِبَاءَةً لَيْسَ مِنْ شَرٍّ يُوَازِيهَا

امرتكم امري بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح الا ضحى الغد

الا أنّ هذين الرجلين ، اللذين اخترتموهما ، قد نبذا حكم الكتاب ، وأحيا ما أمات ، واتبع كلٌّ منهما هواه ، وحكم بغير حجة ولا بينة ولا سنة ماضية ، واختلفا فيما حكما ، فكلاهما لم يرشد الله ، فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، واصبحوا في معسكركم » اه وعند ما نزل أمير المؤمنين عن المنبر اعترضه الناس بين متقمقم يلومه على الحكومة وهو غير ملوم ومتفان بالانتصار له يطلب منه أن يسرع بالهجوم

« قصة قصير »

استشهد سيدنا علي عليه صلوات الله بالمثل المشهور «لو كان يطاع لقصير أمر» فحسن لنا أن نسرد قصة قصير هذا فنقول :

كان في سنة ٢١٥ مسيحية ملك على الحيرة يدعى جذيمة بن مالك الازدي وكان ذكياً شجاعاً انتصر في حروب كثيرة وكان أبرص ولكن الناس تأدباً كانوا يلقبونه بالأبرش أو الوضاح وكان جذيمة يأنف من منادمة الناس منفرداً بنفسه وكان سلوته الوحيدة ابن أخته رقاش ويدعى عمرو ففقد خلسةً وجزع عليه أشدّ الجزع وبعد مدة عثر بعمرو هذا رجلان من بني القين فأتيا به الى جذيمة ففرح فرحاً عظيماً وخيرهما في المكافأة فاختارا منادمته ما عاش وعاشا فنادمهما أربعين سنة وسُرَّ من صحبتهما ولم يفرّق بينه وبينهما الا الموت وضربت الناس بهما المثل في دوام الصحبة فقالوا « كندماني جذيمة » وقال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً مضمناً هذا المثل

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا
فلما تفرّقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلةً معا

خَالَفْتُمُونِي جُفَـاةً فِي تَتَبُّعِهَا نَابَذْتُمُونِي عُصَاةً فِي تَحَـدِّيهَا
حَتَّى قَدِ ٱرْتَابَ رَيْباً فِي نَصِيحَتِهِ نَصِيحُكُمْ فَهُوَ يَأْبَى أَنْ يُثَنِّيهَا
وَزَنْدُ فِكْرَتِهِ مَا عَادَ يَقْدَحُ نِيـــرَانَ ٱلرَّوِيَّةِ فَالْعُصْيَانُ مُطْفِيهَا
وَكُنْتُ مَعَكُمْ كَمَا كَانَتْ هَوَازِنُ مَعْ نَصِيحِهَا إِذْ عَصَتْهُ فِي مَخَاطِيهَا
وَهَاهُمَا حَكَمَا كُمْ كَانَ حُكْمُهُمَا مُخَالِفاً آيَ رَبِّي لَا يُرَانِيهَا
هُمَا لَقَدْ نَبَذَا أَحْكَامَ شَرْعِهِمَا ٱلْأَغَرِّ لَمْ يُرْسِيَاهَا فِي مَرَاسِيهَا
وَأَحْيَيَا مَا أَمَاتَ ٱلشَّرْعُ مِنْ بِدَعٍ وَمَوَّتَا سُنَناً وَٱلشَّرْعُ مُحْيِيهَا
وَكَانَ كُلُّهُمَا وَٱللهِ مُتَّبِعاً هَوَاهُ وَٱلنَّفْسُ تُغْوِي مَنْ يُهَاوِيهَا
قَضَى بِلَا حُجَّةٍ زَهْرَاءَ وَاضِحَةٍ وَسُنَّةٍ لِرَسُولِ ٱللهِ نَدْرِيهَا

وكان على عهد جذيمة ملك من العماليق يدعى عمرو بن الطرب وكان يملك الجزيرة وأعالي الفرات ومشارق الشام وكانت عاصمته « تدمر » فزحف اليه جذيمة وناصبه الحرب حتى قتله وخلفت جذيمة على الحيرة ابنته زينب الملقبة «بالزباء» وكانت وافرة الجمال وافية الذكاء كاملة الاحتيال وما كادت تستلم زمام الملك حتى أقامت فيه من معالم الاصلاح ما جعلها مضرب الامثال . وكانت وهي مجدّة وراء سياسة مملكتها عاملة على رقيها تفكر بالانتقام لأبيها من الأبرش قاتله واذ رأت أنّ اخذه عنوةً بحرب يتعذّر عليها عمدت الى الحيلة فطفقت تحسن مخاطبته وتكثر من مراسلته بحجة تأييد السلم بين بلاديهما حتى اذا ما شعرت من كتبه انه بات على ثقة منها أرسلت تخطبه لنفسها وتدعوه اليها ليقترنا ويضما مملكتيهما الى مملكة واحدة . فلما انتهى كتاب الزباء الى جذيمة الأبرش ارتاح اليه وشاور بما فيه من أمر زواجها أهل خاصته فوافقوه عليه الا وزيره قصير بن سعد اللخمي. وكان هذا في الأصل من عبيد جذيمة ولما ظهر عليه من الذكاء وحسن الرأي حرّره واستوزره فانّ قصيراً هذا خالف أصحاب جذيمة وما فات سداد رأيه ما في نفس الزباء من سيده وقال: « الرأي ان تكتب الى الزباء أن تحضر اليك فان كانت صادقة النية لبت الطلب وأما أنت يامولاي فاياك ان تذهب اليها وتقع في حبالتها وقد وترتها بقتل أبيها فأبى جذيمة الاصغاء اليه وقد خالف مشيريه وأزاده تشجيعاً على اجابتها ابن اخته عمرو بن عدي . فهزّ قصير كتفيه وقال «لا يطاع لقصير أمر »

وصحت عزيمة جذيمة على الذهاب الى الزباء فاستخلف عمراً بن أخته على ملكه وسار بخاصته الى تدمر وفيهم قصير وما كاد يدنو منها حتى أرسلت الزباء وفوداً من قبلها لاستقباله ومعهم الهدايا فقال جذيمة لقصير ما رأيك في هؤلاء القادمين علينا ?? فقال : اعلم أنّ هؤلاء هم جنود الزباء فان ساروا أمامك فلا تخفهم وسر معهم وان أحاطوا بك فاعلم أنهم غادرون فاهرب على جوادك وما هو الا القليل حتى وصل رجال الزباء فأحاطوا بجذيمة وتمت قصير المكيدة فأدبر راجعاً الى الحيرة

ولما بلغ جذيمة تدمر سار به أصحاب الزباء الى قصرها وعند ما أدخلوه عليها بادرته جواريها فأخذن بضبعيه وأجلسنه على النطع وقطعن راهشيه ومددن ذراعيه على طست كي لا يضيع شيء من

إِذَا قَدِ ٱخْتَلَفَا فِيمَا قَدِ ٱحْتَكَمَا	فِي أَمْرِكُمْ لِمَنِ فَسَلْ تَوَرِّخِيهَا
كِلَاهُمَا ٱللّٰهُ لَمْ يَرْشُدْ فَقَدْ غَوِيَا	غَوَايَةً نَحْنُ نَمْشِي فِي غَوَاشِيهَا
فَلِلْجِهَادِ ٱسْتَعِدُّوا وَٱلْعُصَاةُ لَتَأْ	بَى أَنْ يَكُونَ سِوَى ٱلنِّيضَالِ قَاضِيهَا
وَكَانَ يَخْطُبُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ حَيْدَرَةٌ	وَنَغْمَةُ ٱلْخِزْلِ فِي خَافِي مَطَاوِيهَا
لَقَدْ أَسَاءَتْ إِلَيْهِ أَمْسِ وَٱنْصَرَفَتْ	إِلَى عَدَاوَتِهِ ذَا ٱلْيَوْمَ تُبْدِيهَا
عَلَيْهِ قَدْ خَرَجَتْ ظُلْمَاً تُؤَاخِذُهُ	بِرَغْبَةٍ قَدْ أَصَرَّتْ أَنْ تُجَرِّيهَا
مَا ٱسْطَاعَ تَحْوِيلَهَا عَنْ شَرِّ رَغْبَتِهَا	بِأَمْسِهَا عِنْدَ مَا وَافَى يُفَاهِيهَا
وَٱلْيَوْمَ تَنْقِمُ مِنْهُ فِي نَتِيجَتِهَا	بَغْيَاً وَشَرُّهَا صَعْبٌ تَلَافِيهَا
كَذَا ٱلْخِلَافَةُ بَاتَتْ فِي مَتَاعِبِهَا	بِحَالَةٍ لَمْ تَكُنْ تُرْضِي مُحِبِّيهَا

دمه وما زال دمه يسيل حتى فاضت روحه وجمعت الزباء دمه في ربعة (وعاء العطر) وحفظته في خزائنها . وفي خلال مقتل جذيمة على هذا الشكل كان رجال الزباء أوقعوا برجاله فأهلكوهم

أما قصير فعند ما بلغ الحيرة أخبر الناس بما ينتظر من الكيد لجذيمة فاجتمعوا وملكوا ابن اخته عمراً بن عدي عليهم وكان قصير يحرض عمراً على الأخذ بثأر خاله جذيمة الا أن عمراً كان يهاب الاقدام على ذلك لما سمعه من حيطة الزباء لنفسها وكثرة ما لديها من قوة فعمد قصير الى الحيلة وجدع أنفه وصلم أذنيه وسار الى الزباء وهو يظهر الحقد على عمرو بن عدي مدعياً أنه هو الذي فعل به ما فعل انتقاماً لخاله بحجة أنه هو الذي أشار عليه بالمسير الى الزباء فلما رأت هذه قصيراً على ما ذكرنا وسمعت قوله انطلت عليها حيلته وأنزلته في قصرها وأكرمت مثواه وجعلته موضع شوراها فاغتنم الفرصة واطلع على دخائلها في قصرها وعرف فيه نفقاً متصلاً بخارج الصور فأسر ما عرف بنفسه ثم ادعى انه يملك أموالاً وفيرة في الحيرة واستأذن أن يسير اليها ليأتي بها فأذنت له فخرج الى الحيرة واطلع عمراً بن عدي على سر النفق وجاء بألفي فارس شاكي السلاح وجعلهم في غرائر (أي اكياس كبيرة) وحمل كل غرارتين على جمل وجعل عمراً حادي تلك الجمال ومضى بها الى تدمر حتى اذا ما دخلها أسرع قصير الى الزباء وقال لها أبشري فقد جئتك بما صأى وصمت أي الابل والذهب فاصعدي الى أعلى سور القصر لتنظريها فصعدت وأرسلت طرفها الى المدينة فرأت الجمال تكاد تسوخ أقدامها في الأرض من ثقل أحمالها وبينما كانت تنظر اليها واذا بها قد انيخت وخرجت الرجال من غرائرها وجعلت تعمل السيف بأهل المدينة

وكان قصير عند ما بلغ تدمر سار بعمرو بن عدي الى باب النفق الخارجي وادخله فيه وقال اسرع الى داخل القصر وقف عند باب النفق الآخر حتى اذا ما جاءت الزباء لتدخل النفق وتهرب استقبلها بسيفك وانتقم منها لخالك ففعل . وبالفعل عند ما رأت الزباء المكيدة أسرعت الى النفق لتهرب فوجدت عمراً في وجهها مشهراً سيفه فأسرعت الى خاتم مسموم بأصبعها فامتصته وقالت « بيدي لا بيد عمرو » ووقعت ساقطة عند قدميه تجود بنفسها فأجهز عليها واستحوز على أموالها ودك معالم

فَفِي ٱلْعِرَاقَيْنِ قَدْ هَبَّ ٱلْخَوَارِجُ لِلْـحَرْبِ ٱلْعَوَانِ فَلَمْ تَهْدَأْ سَوَافِيهَا
وَفِي ٱلشَّآمِ ٱبْنُ حَرْبٍ بَاتَ يَطْمَعُ فِي أَرْضِ ٱلْخِلَافَةِ طُرًّا فَهُوَ غَازِيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ يَلْقَى ٱلْكَارِثَاتِ بِعَزْمٍ لَا يُفَلُّ فَتَلْقَاهُ تَمَاسِيهَا
وَصَحْبُهُ ٱنْصَرَفَتْ لِلْحَرْبِ تَنْصُرُهُ عَلَى ٱللَّيَالِي ٱلَّتِي أَدْجَتْ دَيَاجِيهَا

أمير المؤمنين ومؤلهوه

أَتَى ٱلْوَصِيُّ فِعَالًا فَوْقَ طَاقَةِ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ مَا مِنْهُمُ تَٱللهِ يَأْتِيهَا(١)
هِيَ ٱلْخَوَارِقُ قَدْ أَضْحَى عَلَى يَدِهِ ٱلرَّحْمٰنُ خَالِقُهُ لِلنَّاسِ يُجَلِّيهَا
فَكَانَ بِٱلْآتِيَاتِ ٱلْوَاقِعَاتِ يُنَبِّي ٱلنَّاسَ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَجْرِي وَيُنْبِيهَا
وَبِٱلْبَوَاهِرِ مِنْ نُصْحٍ وَمِنْ حِكَمٍ يُزِينُ أَقْوَالَهُ ٱلْغَرَّا وَيُحَلِّيهَا

قصرها . وكان ذلك سنة ٢٧٢ مسيحية أي بعد أربع سنوات من قتل خاله ومات عمرو سنة ٢٨٨ مسيحية.

هذا خلاصة ما أورده العرب عن الزباء أما مؤرخو الافرنج فيدعون الزباء ملكة تدمر ويقولون انها حاربت الرومان وانتصرت عليهم غير مرة الى أن انتصر عليها الامبراطور الروماني « اورليان » فأسرها ونقلها الى رومه وماتت فيها

« ابيات دريد بن الصمة »

اما البيت الذي استشهد به سيدنا علي امير المؤمنين عليه صلوات الله فهو من قصيدة حماسية منسوبة لدريد بن الصمة شاعر هوازن وهاك بعضها :

نصحت لعارض واصحاب عارض ورهط بني السوداء والقوم شهدي
علانية ظنوا بألفي مدحج سراتهم في الفارسي المسرد
امرتهم امري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح الا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد ارى غوايتهم او انني غير مهتدي
وما انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

(١) لا جرم أنّ ما أتى أمير المؤمنين عليه صلوات الله من الخوارق التي يعجز عن اتيانها البشر قد جعل في أنفس معاصريه ومشاهدي كمالاته ومعجزاته شكاً في حقيقته فذهب قوم الى أنه نبيّ ولكن ما يصنعون بقول المصطفى عليه الصلاة والسلام وهو « لا نبيّ بعدي » ؟ وقال غيرهم ان الجوهر الالهي حلّ في بدنه على نحو ما قال النصارى في عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام وغلا آخرون فقالوا انما هو الاله الواحد الخالق الرازق تنزه الله عما كفروا وقد روى الرواة الثقاة عن هؤلاء الكفرة الذين الهوا المرتضى وعبدوه روايات شتى وأجمعوا على أنه عليه صلوات الله عند ما عجز عن اعادتهم الى الهدى احرقهم بالنار ليلاشي بدعتهم ويبيد كفرهم

ولقد عرف المصطفى بما كشف الله عن بصيرته لمعرفة الغيب ما سيكون لابن عمه واخيه

وَأَوْقَفَ ٱلشَّمْسَ عَنْ مَرْئِيِّ دَوْرَتِهَا أَوِ ٱسْتَضَاءَ بِأَنْوَارٍ تُحَاكِيهَا
وَبَجْسَ ٱلْمَاءَ مِنْ صَخْرٍ وَمِنْهُ سَقَى جُيُوشَهُ وَٱرْتَوَتْ مِنْهُ مَوَاشِيهَا
وَبِٱلْكَمَالِ تَجَلَّى إِذْ تَنَزَّهَ عَنْ نَقَائِصِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِجْمَاعِ تَنْزِيهَا
لِذَا غَلَتْ فِئَةٌ فِيهِ بِقَوْلَتِهَا وَأَلَّهَتْهُ مَعَاذَ ٱللهِ تَأْلِيهَا
وَنَبَّأَ ٱلْمُصْطَفَى مِنْ قَبْلُ حَيْدَرَةً بِأَمْرِهَا وَهُوَ خَاشٍ مِنْ تَغَالِيهَا
فَقَالَ: يَهْلِكُ مَنْ يَغْلُوْ بِحُبِّكَ أَوْ يَغْلُو بِبُغْضِكَ وَٱلنِّيرَانُ يَثْوِيهَا
لَوْلَا ٱلْمَخَافَةُ مِنْ قَوْمٍ تَقُولُ كَمَا قَالَ ٱلنَّصَارَى بِعِيسَى فِيكَ تَجْرِيهَا
لَقُلْتُ فِيكَ مَقَالًا يَسْتَثِيرُ هَوَى ٱلنُّفُوسِ نَحْوَكَ مِنْ أَقْصَى مَطَاوِيهَا
وَلِلتَّبَرُّكِ تَقْنِي ٱلنَّاسُ أَتْرِبَةً مِنْ تَحْتِ نَعْلِكَ إِذْ فِي ٱلسَّيْرِ تُذْرِيهَا
وَكَانَ مَا قَالَ طَهَ وَٱنْجَلَتْ فِئَةٌ وَحُبُّ حَيْدَرَةٍ بِٱلشِّرْكِ مُغْوِيهَا
فَأَلَّهَتْهُ وَضَلَّتْ فِي مَحَبَّتِهِ عَنِ ٱلْهِدَايَةِ وَٱجْتَازَتْ مَثَاوِيهَا
أَجَلْ فَقَدْ كَانَ عَبْدُ ٱللهِ إِبْنُ سَبَا لِلشِّرْكِ قَائِدَهَا جَهْرًا وَمُغْرِيهَا
وَذَاتَ يَوْمٍ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَا فِي ذِرْوَةِ ٱلْمِنْبَرِ ٱلْكُوفِيِّ عَالِيهَا
وَرَاحَ يَنْثُرُ هَاتِيكَ ٱلْجَوَاهِرَ مِنْ فِيهِ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي زَاهِي تَلَالِيهَا
وَأَعْيُنُ ٱلنَّاسِ لَا تَنْفَكُّ تَحْدُجُهُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَحَدْبٍ وَهُوَ مَالِيهَا
كَذَاكَ آذَانُهَا تُصْغِي لِحِكْمَتِهِ ٱلْـغَرَّا ٱلَّتِي كَانَ بِٱلْإِخْلَاصِ يُلْقِيهَا
وَبَيْنَمَا هُوَ فِي غَرَّاءِ خُطْبَتِهِ مُسْتَرْسِلًا يَقْرَعُ ٱلْأَسْمَاعَ يُشْجِيهَا

ووصيه وصنوه المرتضى عليهما الصلاة والسلام من الشأن العجيب عند النـاس فنبهه الى ذلك وقال « يهلك فيك رجلان محب غال ومبغض قال » وقال له مرة « والذي نفسي بيده لولا اني اشفق ان يقول طوائف من امتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمر بملأ من الناس الا اخذوا التراب من تحت قدميك للبركة »

- أما قصة اولئك الذين ألهوا المرتضى فاول من جهر بهذا الكفر منهم هو عبد الله بن سبأ وتبعه نفر من الناس قالوا كانوا مرة في المسجد الجامع في الكوفة فعلا المرتضى عليه صلوات الله المنبر خطيباً وبينما هو يخطب في الناس قاطعه عبد الله وطفق يصيح أنت أنت ولا يزيد فقـال له المرتضى ويلك من أنا؟ فقال عبد الله أنت الله فأمر أمير المؤمنين بالقبض عليه مع شيعته وزجهم في

وَإِذْ دَوَى صَوْتُ عَبْدِ ٱللهِ وَهُوَ يُنَا   دِي : أَنْتَ أَنْتَ فَنَادَى ٱلْمُرْتَضَى إِنَّهَا

وَقَالَ : وَيْلَكَ يَاذَا مَنْ أَكُونُ أَنَا   أَجَابَ : أَنْتَ إِلٰهُ ٱلْخَلْقِ بَارِيهَا

فَأَظْلَمَ ٱلنُّورُ فِي عَيْنَيْ أَبِي حَسَنٍ   غَيْظاً وَسَفَّهَ مُبْدِي ٱلشِّرْكِ تَسْفِيهَا

وَقَالَ : هَيَّ ٱمْسُكُوهُ مَعْ جَمَاعَتِهِ   فَإِنَّهُمْ شَوَّهُوا ٱلْإِيمَانَ تَشْوِيهَا

حَتَّى إِذَا حَبَسُوهُمْ رَاحَ يُقْنِعُهُمْ   بِأَنَّهُ مِنْ عِبَادِ ٱللهِ يَحْكِيهَا

فَلَمْ يُفِدْ وَعْظُهُ فِيهِمْ وَلَا قَنِعُوا   بِأَنَّهُ فِي ٱلْبَرَايَا مِنْ أَنَاسِيهَا

فَهَالَهُ أَمْرُهُمْ هَوْلاً وَدَعْوَتُهُمْ   لِلْكُفْرِ أَصْبَحَ يَخْشَى مِنْ تَفَشِّيهَا

وَقَالَ : هَيَّ ٱحْرِقُوهُمْ إِنَّ أَنْفُسَهُمْ   إِبْلِيسُ بِٱلْكُفْرِ وَٱلْإِشْرَاكِ طَاغِيهَا

وَطَهِّرُوا ٱلْأَرْضَ مِنْ طُغْيَانِهِمْ فَقَدِ ٱرْ   تَدُّوا عَنِ ٱلشِّرْعَةِ ٱلسَّمْحَا وَمُوحِيهَا

وَأَعْلَنُوا ٱلْكُفْرَ وَٱلْكُفَّارُ لَيْسَ لَهَا   إِلَّا لَظَى ٱلنَّارِ فِي ٱلدَّارَيْنِ تَصْلِيهَا

فَبَادَرَتْ حَفَرَتْ أَعْوَانُ حَيْدَرَةٍ   حَفِيرَةً أَلْهَبَتْ نِيرَانَهَا . فِيهَا

وَأَوْصَلَتْهَا بِأُخْرَى لِلدُّخَانِ وَيَا   سِرْعَانَ مَا بَاتَتِ ٱلْكُفَّارُ تَأْوِيهَا

فَجَاءَهَا وَهْيَ فِي وَسْطِ ٱلدُّخَانِ يُنَا   دِي أَنْ تَتُوبَ فَمَا لَبَّتْ مُنَادِيهَا

فَقَالَ : هَيَّ ٱنْقُلُوهَا لِلسَّعِيرِ فَمَا ٱرْ   عَوَتْ وَلَا كَانَ ذَا ٱلدُّخَانُ كَافِيهَا

فَأَرْسَلُوهَا إِلَى ٱلنِّيرَانِ تَحْرِقُهَا   فَلَمْ تَهِبْهَا وَظَلَّتْ فِي تَعَصِّيهَا

كَانَتْ تَقُولُ جِهَاراً : لَا يُعَذِّبُ بِٱلـ   ـنِّيرَانِ إِلَّا إِلٰهُ ٱلنَّارِ ذَارِيهَا

السجن وهو مغتاظ ثمّ أسرع الى سجنهم فلقيهم فيه وطفق يقنعهم بانه انسان مثلهم وعبد من عبيد الله يحاكيهم ووضع خده على التراب وقال لهم ويلكم انما أنا عبد من عبيد الله فاتقوا الله وارجعوا الى الاسلام فاصروا على الكفر واستمروا على طغيانهم وهم يصيحون بل أنت الهنا وخالقنا ورازقنا، وعند ما أعيته الحيل معهم هاب ان تتفشى دعوتهم في الناس فأمر فحفرت لهم حفرتان تتصلان بعضهما بسرب وأمر ان توقد النيران باحداهما وان يوضع أولئك الكفرة في الاخرى ليؤذيهم دخانها فيرتدعون فلما صاروا في حفرة الدخان استتابهم وتوعدهم فأبوا وأصروا على الكفر فأمر بزجهم في حفرة النار وعند ما بلغوها صاحوا « الآن ظهر لنا ظهوراً بيناً انك أنت الاله لان ابن عمك الذي أرسلته قال لا يعذب بالنار الا ربّ النار » وكان هذا آخر كلامهم واحترقوا

وروى بعضهم ان زعيم هذه الفئة الضالة عبد الله بن سبأ أظهر التوبة وتوسط له بعض الناس لدى أمير المؤمنين فعفا عنه ونفاه من الكوفة الى المدائن وظلّ فيها مخفياً كفره حتى قتل أمير المؤمنين

إنَّ ابنَ عمِّكَ طه كانَ أنبأنا بذا   ونبّهنا من قبلُ تنبيها

وقد أصرّت على طغيانها ومضت   فيه وما اتّعظت حتى تلاشيها

أمير المؤمنين وصاحب الحلوى

وافى أبا حسنٍ يوماً أخو طمعٍ   يشري ولاهُ بحلوى رامَ يهديها(١)

وكانَ يطلبُ من تلك المصانعةِ السـ   ـسوءى من المرتضى رُغبى يُرجّيها

وافاهُ في ظلمةِ الليلِ البهيمِ وقد   كانَ الأميرُ يناجي ربَّهُ فيها

فبادرَ البابَ يستجلي خبيئةَ ها   تيكَ الزيارةِ والإبهامُ غاشيها

وإذ بشخصٍ وفي يمناهُ يحملُ حلـ   ـواهُ فسلّمَ وهو منهُ يُدنيها

فصاحَ : واعجبي من طارقٍ بظلا   مِ الليلِ داراً بها قد قرَّ آويها

وفي يديهِ لنا ملفوفةٌ بوعا   ءٍ كانَ فيهِ عن الرائي مغطّيها

معجونةٌ عجنت فيما إخالُ بريـ   ـقِ الصلِّ أو قيئهِ أفٍّ لطاهيها

وقالَ : هل ذي زكاةٌ أم لنا صلةٌ   أم في عطا صدقاتِ البرِّ تعطيها

محرّمٌ ذا علينا نحنُ آلُ رسو   لِ اللهِ هيهاتَ ما كنّا محلّيها

ناداهُ : لا ذا ولا ذا ذي هديةُ من   يرجو رضاكَ بها ذا سؤلُ مهديها

فهبّلَ المرتضى ربَّ الهديةِ نا   دى إنها خدعةٌ يا صاحِ تأتيها

وافيتَ تخدعني عن دينِ ربّي با   ذا في هديةِ مطماعٍ يزجّيها

عليه صلوات الله فلما بلغه نبأ قتله قال والله لو جئتمونا بدماغه في سبعين صرّة لعلمنا انه لم يمت ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه فلو اجتمع حول عبدالله بن سبأ هذا بالمدائن جماعة على هذا الكفر وكانت لهم دعوة تبعها كثيرون وبقيت فيهم زمناً طويلاً

(١) خطر لاحد ذوي المطامع الراغبين عن الحق المقدمين على الباطل ان يتقرّب من سيدنا أمير المؤمنين بحلوى يكتسب بها رضاه فيسعفه بحاجة له واذ كان يعرف أنّ عمله غير شرعي أتاه في ظلمة الليل محتملاً في وعاء حلوى ضخم وسار بها الى منزل أمير المؤمنين عليه صلوات الله فقرع الباب والناس نيام فخرج بنفسه الشريفة الى الباب فوجده وهو مستغرب تلك الزيارة في جنح الظلام وقد روى سيدنا علي نفسه ما كان بينه وبين صاحب الحلوى فقال : «أعجب من طارق طرقنا بملفوفة في وعائها ومعجونة شنئتها كأنما عجنت بريق حيّة أو قيئها . فقلت : أصلةٌ أم زكاةٌ أم صدقةٌ ، فذلك محرّم علينا

هَلْ أَنْتَ مُخْتَبِطٌ أَمْ أَنْتَ تَهْجُرُ مَحْمُوْمًا أَمِ الجِنَّةُ الكُبْرَى تُوَاخِيهَا
وَاللهِ لَوْ كُنْتُ أُعطَى مَا تُقِلُّ أَقَا لِيمُ البَرِيَّةِ شَرْقِيهَا وَغَرْبِيهَا
عَلَى مُعَاصَاةِ رَبِّي بِاغْتِصَابِ نُمَيْلَةٍ جُلَيْبَ شَعِيرٍ كُنْتُ آبِيهَا
أَهْوِنْ بِدُنْيَا كُمُ يَانَاسُ فِي نَظَرِي مَهْمَا تَغَالَى المُغَالِي فِي تَغَنِّيهَا
إِنِّي لَأَحْسَبُهَا مِثْلَ الوُرَيْقَةِ فِي فَمِ الجَرَادَةِ أَسْرَعَ أَنْ تُلَاشِيهَا
مَا لِلْعَلِيِّ وَلَذَّاتٍ تَزُولُ وَلَا تَبْقَى وَنُعْمَى كُرُورُ الدَّهْرِ يُفْنِيهَا
أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ السُّبَاتِ لِعَقْلِي أَوْ خُطَى زَلَلٍ قَدْ ضَلَّ خَاطِيهَا
وَأَسْتَعِينُ بِهِ وَهُوَ المُعِينُ عَلَى حُقُوقِ دِينِي وَأَرْجُو أَنْ أُوَفِّيهَا
قَدْ قَالَ هٰذَا لِذِي الحَلْوَى وَعَادَ إِلَى صَفَاءِ خَلْوَتِهِ طُوبَى لِرَاضِيهَا
وَسَارَ رَاشِيهِ بِالحَلْوَى وَخَيْبَةُ مَسْعَاهُ بِرَشْوَتِهِ الخِزْلَانُ تَالِيهَا

أمير المؤمنين وأخوه عقيل

فِي ذَاتِ يَوْمٍ أَتَى رَبْعَ الأَمِيرِ عَقِيلٌ طَالِبًا مِنْهُ جَدْوَى كَانَ يَبْغِيهَا(١)
نَادَاهُ: أَنْتَ شَقِيقِي وَالعِيَالُ عَلَى طَوًى وَمَنْ يَا تُرَى إِلَّاكَ يَكْفِيهَا
فَقَالَ: أَبْشِرْ عَطَائِي يَا أُخَيَّ أَنَا أُعْطِيكَهُ وَالعَطَايَا قَدْرَ مُعْطِيهَا
وَلَا تَجُودُ يَدٌ إِلَّا بِمَا وَجَدَتْ مَهْمَا يَعِزُّ عَلَيْهَا قَدْرُ عَافِيهَا

آل البيت ، فقال لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية . فقلت هبلتك الهبول ، أعن دين الله أتيتني لتخدعني ، ؟ أمختبط ؟ أم ذو جنة ؟ أم تهجر ؟ والله لو أعطيت الاقاليم السبعة بما في تحت أفلاكها على أن أعصى الله ، في نملة أسلبها جلب شعيرة ، ما فعلته ، وان دنياكم عندي ، لأهون من ورقة ، في فم جرادة تقضمها ، ما لعلي ولنعيم يفنى ، ولذة لا تبقى ، نعوذ بالله من سبات العقل ، وقبح الزلل ، وبه نستعين » آه قال أمير المؤمنين هذا وعاد الى داخل داره مستأنفاً مناجاة ربه على عادته ورجع صاحب الحلوى بحلواه يتعثر بأذيال الفشل وقد ضاع رجاه

(١) ان أعظم ما صرف الناس عن سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله من بدء خلافته الى نهايتها هو عدم محاباته الناس في توزيع الأموال عليهم والعدل في قسمتها بينهم على السوية كما ان اعظم الاسباب التي مكنت معاوية من مناهضة سيدنا علي اولاً وفوزه بالخلافة ثانياً هو توزيعه الاموال بغير حساب على كل من كان يرجو نفعه أو يخاف شره . وكان سيدنا علي مقيداً نفسه بأوامر القرآن الشريف وسنة ابن عمه رسول الله عليهما الصلاة والسلام ومن جملتها المساواة في العطاء بين عموم المسلمين

قَالَ: هَيْهَاتَ يَكْفِينِي عَطَاؤُكَ وَالـ   دُّنْيَا تُسَاقُ لِأَيْدِي هَاشِمِيِّيهَا
فَافْتَحْ خِزَانَةَ بَيْتِ الْمَالِ عَنْ كَرَمٍ   إِلَى عُفَاتِهِمِ مِثْلِي لِتُغْنِيَهَا
وَلَا تَدَعْ صِبْيَتِي فِي شَرِّ مَتْرَبَةٍ   فِي عَهْدِ عَمٍّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
قَالَ الْوَصِيُّ: فَجِئْنِي لِلصَّلَاةِ يَوْ   مَ الْجُمْعَةِ الظُّهْرَ صَلِّ مَعْ مُصَلِّيهَا
وَبَعْدَ ذَالِكَ أَرَى تَحْقِيقَ مَسْأَلَةٍ   قَدْ جِئْتَ تَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أُقَضِّيهَا
أَبَى عَقِيلٌ وَوَافَى لِلصَّلَاةِ مَعَ الـ   نَّاسِ الَّتِي أَقْبَلَتْ طَوْعاً لِدَاعِيهَا
وَالْمُرْتَضَى أَمَّهَا بِرّاً كَعَادَتِهِ   وَقَامَ فِيهَا خَطِيباً لَا يُدَاجِيهَا

شريفهم ومشروفهم قديمهم في الايمان وحديثهم لانه كان يعرف قدر الاية العظيمة التي نزلت على محمد ابن عبد الله وهي « انما المؤمنون اخوة » وكان يدرك حقّ الادراك وهو امام المتشرعين انّ من شروط الاخوّة المساواة في الحقوق ولا تكون أخوّة حيث لايكون تساوي . وكان يدخل في هذا التساوي جميع المسلمين حتى اولاده واخوته وابناء عمه وفي اعتقاده ان آل البيت الطاهر وآل بيت النبوّة لايجوز ان يكونوا عالة على المسلمين أو على بيت مال المسلمين كما أنه عليه صلوات الله كان يرى أنّ من كان ذا فضل في المسلمين أو جهاد في سبيل الاسلام فانّ جزاءه على ربه في يوم الدين

وحدث انّ عقيلاً وهو اخ شقيق لامير المؤمنين كان كثير العيال وقد مال الى الترف شأن أكثر المسلمين الذين مالوا اليه بعد ان اتسعت المملكة الاسلامية وتوفّرت أسباب الترف للمسلمين فيها وبعد أن استنّ الامويون على عهد عثمان سنة التوسعة على ذويهم ومحبيهم بدعوى انهم آل البيت المالك فقصد سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله يسترفده في أواخر سنة ٣٨ للهجرة على ما أرجّح مدعياً انه كثير العيال وانّ عطاءه من بيت مال المسلمين لا يكفيه بينما خيرات الخلافة تساق الى اخيه وهو امير المؤمنين فتلطف به سيدنا علي وقال له : انّ بيت المال ، هو للمسلمين وليس لي ، وما انا الا واحد من المسلمين ، فانظرني ريثما اقبض عطائي فعطيك بعضه . فغضب عقيل والحف بالسؤال وقال : لست اسألك ان ترفدني من عطائك وهو لا يكاد يكفيك ولكن أعطني من بيت مال المسلمين ونحن احقّ به من سوادهم . فتبسم عليه صلوات الله وقال : أقم الى يوم الجمعة والقني في الجامع فظنّ عقيل انه بعد صلاة الجماعة سيحقق سؤله ويفتح له خزائن بيت المال فيوسّع عليه منها وانصرف على أن يعود اليه في اليوم الموعود

وفي يوم الجمعة امتلأ جامع الكوفة بالمصلين واقيمت الصلاة وعند نهايتها علا سيدنا أمير المؤمنين المنبر كعادته يخطب في الناس مرهباً مرغباً بفصاحته المشهورة وبلاغته المأثورة تخلب الاسماع واشجى النفوس بما نثر من درر الكلام ثمّ نزل عن المنبر فستدعى اليه أخاه عقيلاً وكان بين المصلين وقال له : ما تقول في من خان هؤلاء أجمعين ؟ قال عقيل : بئس الرجل هو . فضحك أمير المؤمنين وقال : فأنت تطلب مني أن اخونهم واميزك عنهم بالعطاء . فاستاء عقيل وتركه ومضى

ثمّ انّ عقيلاً صبر مدةً على القصد ونفسه تطمع بالتوسعة في الرزق وكان يتألم مما هو فيه من خشن العيش مع عياله فرجع الى اخيه أمير المؤمنين ملحفاً بالسؤال طامعاً بالنوال ففرض عليه عطاءه ثانية فأباه وهو لا يرى فيه ما يلعه مطامعه فضلاً عما يورث أخاه من الضيق لو أخذ عطاءه وسار

فَكَانَ يَأْمُرُهَا بِالْبِرِّ يَطْلُبُهُ … مِنْهَا وَعَنْ مُنْهَيَاتِ الشَّرْعِ يَنْهِيهَا

حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَتْ تِلْكَ الصَّلَاةُ دَعَا … عَقِيلَ دَعْوَى فَظَنَّ الْمَالَ نَائِلَهَا

فَقَالَ: يَا ابْنَ أَبِي مَاذَا تَقُولُ عَنْ … يَخُونُ هٰذِي الرَّعَايَا أَوْ يُحَابِيهَا

أَجَابَ: إِنَّ أَشَرَّ النَّاسِ خَائِنُهَا … إِنَّ الْخِيَانَةَ تُزْرِي قَدْرَ آتِيهَا

فَقَالَ: إِنَّكَ قَدْ وَافَيْتَ تُلْزِمُنِي … خِيَانَةً صَاحِبُ التَّقْوَى يُحَاشِيهَا

فَسَارَ عَنْهُ عَقِيلٌ غَيْرَ مُقْتَنِعٍ … بِحُجَّةٍ لَمْ تَنَلْ جَدْوَى لِرَاجِيهَا

وَعَادَ ثَانِيَةً مَعْ وُلْدِهِ لِأَمِيـ … ـرِ الْمُؤْمِنِينَ يُنَادِي أَنْتَ كَافِيهَا

فَقَالَ: جِئْنِي مَسَاءً يَا عَقِيلُ فَقَدْ … يَنَالُ مَبْغَاهُ مِنْ قَوْمٍ مُمَسِّيهَا

فَجَاءَهُ بَعْدَ أَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فَلَا … قَاهُ الْوَصِيُّ سَمُوحَ النَّفْسِ رَاضِيهَا

وَقَالَ: دُونَكَ يَا صَاحِ الْعَطِيَّةُ خُذْ … هَا تِلْكَ غَايَةُ مَا فِي الطَّوْقِ أُعْطِيهَا

فَمَدَّ يُمْنَاهُ حَتَّى مَا تَنَاوَلَهَا … أَلْقَى بِهَا الْأَرْضَ يَشْكُو لَذْعَ حَامِيهَا

وَصَاحَ: مَالَكَ تَكْوِينِي أَخِيَّ وَذِي … حَدِيدَةٌ مَا ابْتَغَى رِفْدِي مُحَمِّيهَا

فَقَالَ حَيْدَرَةٌ: أَلْفَيْكَ مُشْتَكِيًا … نَارًا بِدُنْيَاكَ سَهْلٌ أَنْ تُطَفِّيهَا

غاضباً مغتاظاً فجمع صبيته وجاء بهم الى اخيه أمير المؤمنين والبؤس والضرُّ ظاهران عليهم فلما رأى عليه صلوات الله الحاف عقيل قال جئني في المساء لادفع اليك شيئاً فتركه وعاد باولاده وفي المساء عاد الى أخيه وفي حال وصوله له مدَّ أمير المؤمنين شيئاً في يده وقال: دونك هذا. فاهوى عقيل على العطية يحرص عليها وقد غلبه الجشع ولم تكد تلمسها يده حتى خار كما يخور الثور تحت يد جازره لانها كانت حديدة محماة بالنار. فضحك أمير المؤمنين وقال: ثكلتك امك أتخور من حديدة أوقدتها نار الدنيا؟ فكيف بك وبي غداً ان سلكنا في سلاسل جهنم ؟ . ثمَّ قال له ليس لك عندي الا ما ترى . فغضب عقيل وانصرف عنه وسرعان ما ارتحل بعياله الى الشام يطلب رفه العيش في ظلّ معاوية

وعندما بلغ عقيل الشام استقبله معاوية بالتجلة والاكرام شأنه مع كل الذين كانوا يقصدونه من أشراف قريش ليعزّز سلطانه بهم ويتخذ التفافهم حوليه حجةً على رضاء المسلمين بخلافته وكراهتهم لخلافة سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله . وأمر له يوم قدومه بمئة الف درهم وقال له رفّه بها عيالك ولك مثلها كلما نفدت . ثمَّ قال له وهو يحسب انه امتلك نفسه بعطائه : يا أبا يزيد ، أأنا خير أم عليّ ؟ . وكان عقيل حريّاً بديه الجواب فقال : وجدت علياً أنظر لنفسه منه لي ، ووجدتك أنظر لي منك لنفسك . فتحمل معاوية هذا الجواب وكان همّه الا تسخطه قريش فيما يجبهونه به تعرضاً لعداء سيدنا علي وحده ولعلمه انَّ قريشاً بأجمعها تعتبره مغتصباً الخلافة فهو مضطرٌّ الى مداراتها والصبر عليها حتى لا تجتمع كلمتها ضده وتنضم الى سيدنا علي وتحاربه تحت راية الخلافة .

فَكَيْفَ لَوْ أَنَّنَا سِرْنَا غَداً لِرُبَى ... جَهَنَّمٍ مِثْلَمَا تَهْوَى لِتَأْوِيهَا
فَيَا أَخِي لَيْسَ عِنْدِي فَوْقَ حَقِّكَ مِنْ ... عَطِيَّةٍ مِثْلَمَا تَرْجُوْ أُؤَدِّيهَا
فَسِرْ لِأَهْلِكَ وَاقْصُدْ فِي حَوَائِجِهَا ... وَلَا تَرُمْ تَرْفَةً تَخْشَى مَسَاوِيهَا
فَسَارَ عَنْهُ عَقِيلٌ وَهوَ مُكْتَئِبٌ ... يَأْبَى عَلَيْهِ فَعَالَ الْبِرِّ يَنْعِيهَا
وَيَمَّمَ الشَّامَ يَرْجُوْ فِي مَرَابِعِهَا ... يُسْراً وَمَا الْيُسْرُ نَاءٍ عَنْ مَثَاوِيهَا
مَا دَامَ فِيهَا مُعَاوِيهَا يَجُودُ بِمَا ... لِلْمُسْلِمِينَ كَفَيْضِ السُّحْبِ هَامِيهَا
وَكَانَ يَلْقَى قُرَيْشاً بِالنُّضَارِ يُرَجِّـ ... ـي أَنْ يُحَوِّلَهَا عَنْ نَصْرِ عَالِيهَا
وَطَالَمَا خَدَعَ الْمَالُ النُّفُوسَ نَشَطْـ ... ـنَ فِي تَوَخِّيهِ عَنْ أَحْكَامِ بَارِيهَا
وَلَمْ يَخِبْ بِابْنِ حَرْبٍ ظَنُّ صَاحِبِنَا ... فَقَدْ رَأَى عِنْدَهُ يُسْراً وَتَرْفِيهَا
حَبَاهُ مِئَةَ أَلْفٍ مِنْ دَرَاهِمِهِ ... بَدَاءَةً قَالَ فَاشْكُرْ بِرَّ مُوْلِيهَا
أَنْفِقْ بِغَيْرِ حِسَابٍ غَيْرَ مُقْتَصِدٍ ... مِنْهَا وَزِدْ مَعَ مَنْ تَهْوَاهُ تَرْفِيهَا
وَقَالَ: هَلْ أَنَا خَيْرٌ يَا عَقِيلُ أَمِ الْـ ... ـعَلِيُّ لِلنَّاسِ إِنْ تُزْجِي أَمَانِيهَا
نَادَى عَقِيلٌ: أَخِي وَاللهِ يَرْتَقِبُ الْـ ... ـجَنَّاتِ يَطْلُبُ أَنْ يَثْوِيَ أَعَالِيهَا

وظلّ عقيل في الشام يتنعم بأموال المسلمين التي كان يغدقها معاوية عليه استجلاباً لرضائه وكان كثيرون من قريش عائشون في الشام بكرم معاوية مثله وفي ذات يوم بينما كان معاوية في مجلسه ووجوه الناس حوله وفيهم عقيل. خطر لمعاوية أن يلقي كلمة يحطّ بها من قدر سيدنا علي ويرفع نفسه فقال : هذا أبو يزيد بينكم ، لولا علمه أني خير له من أخيه ، لما أقام عندنا وتركه . فغضب عقيل لهذا التعريض بأخيه وقال : انّ أخي خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي ، وقد آثرت دنياي ، اسأل الله خاتمة خير . فخجل معاوية وسكت .

على أنّ مسير عقيل الى معاوية واقامته عنده قد ترك سبيلاً لاعداء سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله أن يطعنوا بحكمه وينالوا منه ويختلقوا لارتحاله عنه أسباباً مختلفة كقول بعضهم انه تركه ومضى لانه ألفاه على غير الحق . وقول آخرين ان عقيلاً ترك أخاه ومضى لانه رأى معاوية أفضل منه وأحقّ بالخلافة . ونحو ذلك من الاقوال التي أرادوا بنشرها بين الناس تنفيرهم عنه. وأنت تعلم أنّ الناس يصدّقون كل ما يسمعون من غير تحقيق ولا تدقيق وقد اتصل لغط هؤلاء الاعداء بأمير المؤمنين فعزّ عليه أن ينال أعداؤه منه ويحوّلوا فضيلته في عدم تمييزه أخاه عن سائر المسلمين الى نقيصة فيه فصعد المنبر في صلاة الجمعة خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال:

« والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً ، أو أجرّ في الأغلال مصفّداً ، أحبّ اليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد ، وغاصباً لشيء من الحطام ، وكيف أظلم

وَأَنْتَ تَرْتَقِبُ ٱلدُّنْيَا لِلَذَّتِهَا ... وَتَبْتَغِي بِٱلْعَطَايَا كَسْبَ أَهْلِيهَا

وَمَا تَعَلَّمَ مِنْ هٰذَا مُعَاوِيَةٌ ... أَنْ يَقْصِرَ ٱلْقَوْلَةَ ٱلْمَذْمُومَ حَاكِيهَا

فَقَالَ فِي ذَاتِ يَوْمٍ وَهْوَ مُجْتَمِعٌ ... بِصَحْبِهِ كَانَ عَنْ صَفْوٍ يُنَادِيهَا

لَوْلَمْ يَجِدْنِي عَقِيلٌ مِنْ أَخِيهِ لَهُ ... خَيْرًا لَمَا جِيرَتِي قَدْ رَاحَ رَاضِيهَا

أَرَادَ فِي ذَاكَ أَنْ يُزْرِي بِقَدْرِ عَلِيٍّ ... ثُمَّ مِيزَتُهُ عَنْهُ يُجَلِّيهَا

وَكَانَ ثَمَّ عَقِيلٌ عِنْدَهُ فَأَبَى ... وَقِيعَةً بِأَخِيهِ هَمَّ يَتْقِيهَا

وَصَاحَ: إِنَّكَ خَيْرٌ مِنْ أَخِي لِيَ فِي ... دُنْيَايَ مَا دُمْتُ دُونَ ٱلدِّينِ بَاغِيهَا

وَإِنَّهُ ٱلْخَيْرُ فِي دِينِي وَأَسْأَلُ رَ ... بَّ ٱلْعَرْشِ خَاتِمَةً حَسْنَا أُلَاقِيهَا

هٰذَا عَقِيلٌ وَذِي تَاللهِ قِصَّتُهُ ... قَدْ شَوَّهَتْهَا ٱلْعِدَى بِٱلْكِذْبِ تَشْوِيهَا

قَالُوا: أَبُو حَسَنٍ أَضْحَتْ خِلَافَتُهُ ... مَا إِنْ لَهَا فِي ٱلْبَرَايَا مَنْ يُوَالِيهَا

حَتَّى أَخُوهُ عَقِيلٌ قَدْ عَصَاهُ بِهَا ... وَسَارَ لِلشَّامِ يَسْتَصْفِي مُعَاوِيَهْ

فَفَاظَهُ مِنْ أَعَادِيهِ رِوَايَتُهَا ... ٱلْكِذْبَ ٱلصُّرَاحَ وَلَمْ تَرْهَبْ تَمَنِّيهَا

وَوَاجَهَ ٱلنَّاسَ مِنْ أَعْلَى ٱلْمَنَابِرِ فِي ... هٰذِي ٱلْحَقِيقَةِ بَادِيهَا وَخَافِيهَا

بِخُطْبَةٍ تَخْلُبُ ٱلْأَسْمَاعَ مُعْرِبَةٍ ... عَنِ ٱلنَّزَاهَةِ فِي أَسْمَى مَعَانِيهَا

أحداً لنفس يسرع الى البلى تقولها ، ويطول في الثرى حلولها ، والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعاً ، ورأيت صبيانه شعث الشعور ، غبر الألوان ، من فقرهم ، كأنما سودت وجوههم بالعظلم ، وعاودني مؤكداً ، وكرر علي القول مردداً ، فأصغيت اليه سمعي ، فظن أني أبيعه ديني وأتبع قياده ، مفارقاً طريقي ، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها ، وكاد يحترق من ميسمها ، فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها انسانها للعبه ، وتجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه ، أتئن من الأذى ولا أئن من لظى ؟ » اه

قال هذا أمير المؤمنين عليه صلوات الله ونزل عن المنبر وهو مرتاح الضمير اذ شفى نفوس [illegible] بحقيقة ما كانوا عليه مختلفين . أما الناس فلما وعوا هذا القول الصراح وفيه فصل الخطاب ، [illegible] الى رشدهم في قصة عقيل ، وابتعدوا عن الظن والتأويل ، وتركوا ما كانوا فيه من قال وقيل ، وانصرفوا معجبين ، من عدل أمير المؤمنين ، وإبائه خيانة المسلمين ، ولو بمساعدة اخيه وهو من الأقربين الأدنين

وقد تقع في موقع القراءة قصة عقيل مع سيدنا علي هذه عند الناس في هذه الأيام فتحدث من سيدنا أمير المؤمنين الذي أبى مساعدة اخيه من بيت مال المسلمين وكان مطالباً بصرف [illegible]

فَقَالَ وَهُوَ أَمِيرُ ٱلْقَوْلِ مُبْدِعُهُ ... وَٱلنَّاسُ تَخْدَعُ بِٱلْأَنْظَارِ رَاعِيهَا
لَئِنْ عَلَى حَسَكِ ٱلسَّعْدَانِ شَائِكِهِ ... أَبِيتُ يَاقَوْمِ لَيَلَاتِي فَأُحْيِيهَا
اوأَنْ اجَرَّرَ فِي ٱلْأَغْلَالِ مُحْتَمِلاً ... أَثْقَالَهَا كَجُنَاةِ ٱلنَّاسِ أَخْكِيهَا
أَحَبُّ لِي مِنْ لُقَى رَبِّي وَأَحْمَدَ فِي ... يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فِي حَالٍ أُحَاشِيهَا
حَالُ ٱلظَّلُومِ غُصُوبُ ٱلْمَالِ حَالُ فَتَى ... كَانَ ٱلْأَمِينَ فَخَانَ ٱلْعَهْدَ تَجْزِيهَا
وَكَيْفَ تَظْلُمُ نَفْسِي ٱلنَّاسَ وَهْيَ إِلَى آلْـ ... ـقُنُوْلِ لِلتُّرْبِ تُمْشِيْنِي وَأَمْشِيهَا
وَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً فِي خَصَاصَتِهِ ... مِنْ بُرِّكُمْ يَرْتَجِي صَاعاً يُمَلِّيهَا
وَحَوْلَهُ صِبْيَةٌ شُعْثُ ٱلشُّعُوْرِ بِأَلْـ ... ـوَانٍ غَدَتْ غُبْراً وَٱلْجُوعُ مُكْبِيهَا
كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ تِلْكَ ٱلْوُجُوهُ بِعِظْـ ... ـلِمٍ وَكَانَتْ تُضِي قَبْلاً بَوَادِيهَا
وَلَحَّ مُسْتَجْدِياً لَحّاً وَعَاوَدَنِي ... فِي حَاجَةٍ يَبْتَغِي مِنِّي تَقَاضِيهَا
وَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَنْ صَغَيْتُ لَهُ ... صَغْياً بِعَاطِفَةِ ٱلْإِشْفَاقِ أُبْدِيهَا

يستطيع ان يعطيه منه ما يشاء على نحو ما كان يفعل عثمان مع الامويين وعلى نحو ما يعهدون بالملوك والامراء في سائر ازمنة التاريخ القديم ولكن الذين يعرفون نصوص الشريعة الاسلامية التي تقضي بان يكون الخليفة أميناً على بيت المال غير متصرف فيه والتي لا ترضى بتمييز مسلم على آخر سواء في ذلك الشريف والمشروف والقريب والبعيد ويضيف الى هذا معرفة اخلاق أمير المؤمنين ورغبته الاكيدة بان يكون بنو هاشم قدوة الناس في الزهد وخضد العيش يتحول عجبه هذا الى اعجاب بذلك الامام العظيم الذي أخذ على عاتقه التشريف تنفيذ نصوص الشريعة وانه عليه صلوات الله كان يرى ان لا تنفذ الشريعة بين الناس الا اذا نفذها على نفسه وابنائه واخوانه ليكونوا قدوةً لغيرهم .وحاشا لله ان يجيز أمير المؤمنين لنفسه ما كان ينكره على عثمان وان اجازه معاوية ومن تبعه من الخلفاء

« ترجمة عقيل »

هو عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وامه فاطمة بنت أسد بن هاشم فهو اخ شقيق لسيدنا علي أمير المؤمنين عليه صلوات الله وابن عمّ المصطفى عليه الصلاة والسلام وكان لفاطمة بنت اسد من ابي طالب بن عبد المطلب اربعة أولاد ذكور بين الواحد والآخر عشر سنوات أكبرهم طالب والثاني عقيل والثالث جعفر والرابع سيدنا علي فهو أصغرهم ويكبره عقيل بحسب الترجمة عشرين سنة . ولابي طالب من غير فاطمة اولاد آخرون سبق لنا ذكرهم في حاشية سبقت

وكان ابو طالب كثير الشغف بعقيل يدلك على ذلك قوله لأخيه العباس وابن اخيه المصطفى عليه الصلاة والسلام عندما قصداه ليأخذا منه بعض اولاده فيخففون عنه مؤونتهم في سنة الغلاء كما تقدمت الاشارة « دعوا لي عقيلاً وخذوا من تشاؤون » وقد اشار المصطفى الى هذا بقوله لعقيل: « يا ابا يزيد اني احبك حبين ، حباً لقرابتك مني ، وحباً لما كنت اعلم من حب عمي اياك »

فظنَّ أنّيَ بالإلحاح متَّبعٌ ... قيادَهُ وطريقُ الإثم خاطيها
وأنَّ أحكامَ ديني بتُّ بائعها ... لَهُ وباتَ كما قد شاء شاريها
ولم يكن ليَ إلاَّ أن حميتُ لَهُ ... حديدةً منهُ قد سارعتُ أُدنيها
أردتُها عبرةً كبرى مؤثرةً ... لهُ إذا ما اكتوى من مسّ دافيها
وكاد ميسمُها الناريُّ يحرقُ يمــناهُ فبادرني يشكو تلظّيها
وضجَّ من ألمٍ قاسٍ تألَّمَهُ ... ضجيجَ من فيهِ آلامٌ يُعانيها
ناديتهُ ثكلتكَ الثاكلاتُ عقيــلُ من فتىً راهبًا النيرانَ خاشيها
فهل تئنُّ أنينًا من حديدةِ إنسانٍ أرادَ بها لهوًا وتفكيهًا
وأنتَ تسحبُني قهرًا لنارِ جهنَّــمَ وربُّكَ للظلاَّم مُوريها
أمن أذىً أنتَ في هذا الأنين ولا ... أئنُّ من سعرةِ النيرانِ أُصليها
فتلكَ يا ناسُ حالي معْ عقيلٍ أخي ... على الملا جهرةً أضحتْ رواويها
وما أتمَّ الإمامُ البرُّ خطبتَهُ ... حتّى اهتدى وأوى للحقّ واعيها
نادت: عدالةَ مولانا أبي حسنٍ ... ما الظلمُ يقربُ منها أو يناجيها
ومن يُساوي الرعايا في إمارتِهِ ... فزادهُ اللهُ تعزيزًا وتوجيها
تلكَ اشتراكيةُ الإسلامِ ليسَ لها ... إلاَّ أبو حسنٍ انفضالُ يجريها

والمصطفى عليه الصلاة والسلام كان أحرص عباد الله جميعاً على صلة رحمه وأحفظ الناس لجميل الحسنين اليه وعلى رأسهم أبو طالب فلا غرو اذا كان حبه الشريف لعقيل مضاعفاً

وكان يكنى عقيل بابنه يزيد كما كان كثير العيال وقد رأينا يسوقهم الى أخيه أمير المؤمنين عليه صلوات الله ليستنزل شفقته عليهم فيحسن اليهم من بيت مال المسلمين

وكان عقيل من كفار قريش مع آل جميع بني هاشم قبل الهجرة وتأخرت هجرته الى المدينة فهاجر اليها مسلماً قبيل غزوة الحديبية وشهد غزوة مؤتة مع اخيه جعفر وظل في المدينة كل مدة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وخرج الى الكوفة بعد موقعة صفين واقام فيها ولم يشهد شيئاً من حروبه مع اخيه سيدنا علي ثم خرج الى معاوية عندما رأى أخاه عليه صلوات الله يأبى ان يميزه عن غيره من المسلمين بالعطاء على ما تقدم القول

وانصرف عقيل عن معاوية عائداً الى المدينة المنورة توفي فيها داره المعروفة في يوم الناس هذا باسم « دار عقيل » وسكنها الى آخر عمره

وكان عقيل حافظاً راوية للانساب واخبار العرب بل كان اعلم الناس في عهده وكان الناس

أمير المؤمنين والربيع بن زياد

كَانَ ٱلرَّبِيعُ فَتَى ٱلإِسْلَامِ يَنْصُرُهُ ... بِسَيْفِهِ مَادَعَا لِلْحَرْبِ دَاعِيهَا (١)
وَكَانَ مِنْ وُجَهَاءِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَمِنْ ... عُمَّالِ دَوْلَتِهِمْ بِٱلْعِزِّ يُرْضِيهَا
وَبَيْنَمَا كَانَ فِي حَرْبِ ٱلْخَوَارِجِ فِي ... ظِلِّ ٱلْوَصِيِّ يُلَاقِيهَا وَيُرْدِيهَا
مَرَّتْ بِجُبْهَتِهِ نَشَّابَةٌ جَرَحَتْـهَا وَٱلْجِرَاحَةُ قَدْ أَعْيَتْ مُدَاوِيهَا
كَانَتْ تُعَاوِدُهُ آلَامُهَا أَبَدَاً ... آنَاً فَآنَاً وَلَا يَنْفَكُّ يَشْكِيهَا
فَعَادَهُ ٱلْمُرْتَضَى يَوْمَاً بِعَطْفَتِهِ ... مُخَفِّفَاً عَنْهُ أَسْقَامَاً يُعَانِيهَا
وَقَالَ: مَابِكَ قُلْ لِي كَيْفَ أَنْتَ فَنَا ... دَاهُ ٱلرَّبِيعُ: بِحَالٍ لَسْتُ رَاضِيهَا
أَوْ كُنْتُ أَعْمَى وَأَشْفَى لَأَرْتَضِيتُ عَمَى ... عَيْنِي وَآلَامُ جُرْحِي لَا أُقَاسِيهَا
فَقَالَ: مَا قِيمَةُ ٱلْإِبْصَارِ عِنْدَكَ حَـتَّى أَضْتَ تَبْذِلُهُ نَادَى بِهِ: إِنَّهَا
أَوِ ٱلْعَوَالِمُ لِي أَفْدِي بِهَا بَصَرِي ... إِنِّي بِهِ هٰذِهِ ٱلْآلَامُ أَفْدِيهَا
فَقَالَ: مَثُوبَةُ ٱلْبَارِي بِقَدْرِ مُصَا ... بِ ٱلْمَرْءِ فَٱصْبِرْ بِتَقْوَى كَيْ تُلَاقِيهَا
ثُمَّ ٱلْأَمِيرُ أَجَالَ ٱلطَّرْفَ رَدَّدَهُ ... بِٱلدَّارِ إِذْ شَمَخَتْ شَمْخَاً مَبَانِيهَا

يقصدونه فيخبرهم باخبار الجاهلية غثها وثمينها على ان الناس كانوا يكرهونه لسرده مساويهم وكان سريع البادرة في الجواب قوي الحجة في الجدل فصيحاً مليساناً . وكان من عادته ان يخرج كل يوم الى المسجد الجامع في المدينة المنورة فيصلي مع المصلين ثم يبسط سجادته ويجلس الى الناس فيحدثهم بانباء الجدود وانسابهم وفقد بصره في آخر عمره وتوفي عام ٥٠ للهجرة في خلافة معاوية وله من العمر ٩٦ سنة

(١) زعم الشريف الرضي جامع كتاب نهج البلاغة ان أمير المؤمنين عليه صلوات الله عاد العلاء ابن زياد الحارثي وهو من اصحابه ولم نقف على رجل بهذا الاسم بين الذين اشتهروا بصحبته عليه صلوات الله ولكنا نعرف رجلاً آخر يدعى الربيع بن زياد الحارثي فلعله هو وترجمة هذا هي انه الربيع بن زياد بن انس بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن أدد وهو الذي افتتح بعض خراسان على عهد عمر وقال فيه هذا الخليفة «دلوني على رجل اذا كان في القوم أميراً فكأنه ليس بأمير واذا كان في القوم ليس بأمير فكأنه الامير بعينه » وهذا خير ما يمدح به رجل وكان خيراً متواضعاً ومن نوادره مع عمر ما نقله عن لسانه قال : كنت عاملاً لابي موسى على البحرين فكتب اليه عمر بالقدوم عليه هو وعماله فلما قدمنا المدينة اتيت « يرفا » حاجب عمر فقلت يا صاح جئتك مسترشداً وابن سبيل فقل لي أي الهيئات أحب الى أمير المؤمنين ان يرى عليها عماله فأومأ الي بالخشونة فاتخذت خفين مطرقين ولبست جبة صوف ولبست عمامتي على رأسي ثم دخلت مع بقية العمال على عمر فصففنا بين يديه وصعد

فَقَالَ : مَا تَبْتَغِي مِنْهَا بِزَائِلَةِ آلـــدُّنْيَا عَلَى وُسْعِهَا مَادُمْتَ مُخْلِيهَا
وَأَنْتَ أَحْوَجُ فِي ٱلْأُخْرَى لَهَا سَكَنَاً رَحْباً وَفِي ظِلِّ رَبِّ ٱلْعَرْشِ تَأْوِيهَا
بَلَى بِهَا تَبْلُغُ ٱلْأُخْرَى بِطَرْفَيْهَا إِنْ شِئْتَ فَٱعْمَلْ عَلَى مَثْوَى مَغَانِيهَا
أَنْ تُطْلِعَنَّ حُقُوقَ ٱلنَّاسِ مَطْلِعَهَا مِنْ ذِي ٱلدِّيَارِ فَتُرْضِي مُسْتَحِقِّيهَا
وَأَنْ تُوَاصِلَ فِيهَا بِٱلْوَلَا رَحِمَاً وَأَنْ تُلَاقِيَ بِهَا ٱلْأَضْيَافَ تَقْرِيهَا
صَاحَ ٱلرَّبِيعُ : جَزَاكَ ٱللهُ حَيْدَرَةٌ خَيْرَاً عَنِ ٱلنَّاسِ إِذْ لِلْخَيْرِ تَهْدِيهَا
قَدْ عِدْتَنِي فَبِكَ ٱلْآلَامُ قَدْ شُفِيَتْ فَمَا أَنَا بَعْدَ هٰذَا ٱلْيَوْمِ شَاكِيهَا
وَأَنْتَ مَهَّدْتَ لِلْأُخْرَى أَمَامِي سُبْـــلَاً صِرْتُ بِٱلْبِرِّ وَٱلْإِحْسَانِ أَمْشِيهَا
وَقَالَ : فَٱنْصَحْ أَخِي إِنِّي إِلَيْكَ لَأَشْـــكُوهُ وَقَدْ قَاطَعَ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِيهَا
فَقَالَ : هَيَّ ٱطْلِبُوهُ مَامُقَاطَعَةُ آلـــدُّنْيَا بِمُكْسِبَةِ ٱلْأُخْرَى لِبَاغِيهَا
فَجَاءَ عَاصِمٌ فِي وَاهِي عَبَاءَتِهِ وَكَانَ عَنْ رَغْبَةٍ بِٱلزُّهْدِ كَاسِيهَا
نَادَى بِهِ ٱلْمُرْتَضَى بَعْدَ ٱلسَّلَامِ: لِمَا ذَا ٱلْيَوْمَ نَفْسَكَ عَنْ جَهْلٍ تُعَادِيهَا

بصره فينا وصوب فلم تأخذ عينه احداً غيري فدعاني وقال من أنت ؟ قلت الربيع بن زياد الحارثي قال وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت البحرين. قال كم ترزق ؟ قلت الفاً. قال ذلك كثير فما تصنع به ؟ قلت اتقوت منه شيئاً واعود بباقيه على أقرب لي فما فضل منهم فعلى فقراء المسلمين قال لا بأس ارجع إلى موضعك فرجعت الى موضعي من الصف فصعد عمر فينا بصره ثانية وصوب فلم تقع عينه الا عليَّ فدعاني اليه ثانية وقال كم سنك ؟ قلت خمس واربعون فقال الآن حيث استحكمت فعد الى مكانك فعدت ثم دعا عمر بالطعام واصحابي حديثو عهد بلين العيش فأتى بخبز يابس واكسار بعير فجعل اصحابي يعافون ذلك وجعلت آكل فاجيد وانا انظر الى عمر فاذا هو يلحظني من بينهم ثم سبقت مني كلمة تمنيت لها اني سخت في الارض فقلت يا أمير المؤمنين ان الناس يحتاجون الى صلاحك فلو عمدت الى طعام ألين من هذا فزجرني ثم قال كيف قلت ؟ فقلت يا أمير المؤمنين ان تنظر الى قوتك من الطحين فيخبز قبل ارادتك اياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتى بالخبز لينا وباللحم غريضا فسكن من غربه وقال ياربيع اننا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من سبائك وصناب ولكني رأيت الله نعى على قوم شهواتهم فقال « اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » ثم امر أبا موسى باقراري في عمالي وان يستبدل باصحابي اه وظل الربيع عملاً على البحرين الى ولاية عثمان حيث استبدله مع بقية عمال الخلافة بالامويين وشيعتهم وفي خلافة أمير المؤمنين عليه صلوات الله ظهر الربيع من الاخلاص له الشيء الكثير وتولى بعض اعماله وحارب معه الخوارج فجرح في احدى المواقع بجبهته بنشابة فظل جرحه نغاراً فكان يعاوده حيناً بعد حين وتوفي على عهد معاوية وهو معمر

وعند ما عاده أمير المؤمنين قال كيف تجدك يا عبد الرحمن ؟ قال اجدني يا أمير المؤمنين

قَدِ اسْتَهامَ بِكَ الشَّيطانُ وَهوَ وَأَيْـمُ اللهِ يَلعَبُ بِالأَهفَاءِ يُغوِيها
أَمَا رَحِمتَ الأُلَى حَوْلَيكَ مِن وَلَدٍ   فَرُحتَ فِي عِيشَةِ الزُّهَّادِ تُؤذِيها
وَهَلْ حَسِبتَ بِأَنَّ اللهَ حَلَّلَ هٰـذِي الطَّيِّباتِ وَيَأبَى أَنْ نُوافِيها
لَأَنتَ أَهوَنُ مِن هٰذا عَلَيهِ فَفُزْ   بِنِعمَةِ اللهِ وَانعَمْ فِي تَعاطِيها
فَقالَ عاصِمُ: لٰكِنْ يا خَلِيفَتَنا   أَرَاكَ لَذَّاتِ ذِي الدُّنيا تُحاشِيها
فَأَنتَ تَأكُلُ مِن خَشْفِ الطَّعامِ وَتَلْـبَسُ الخَشانَ الَّتِي يُؤذِي تَكَسِّيها
فَقالَ: وَيحَكَ إِنِّي لَستُ مِثلَكَ أَصْـلاً فِي الفُرُوضِ الَّتِي ذُو الدِّينِ يُمضِيها
عَلَى أَئِمَّتِنا تَقدِيرُ أَنفُسِها   قَدْرَ الضِّعافِ كَذا يَقضِي مُوَلِّيها
كَي يَأْتَسِي الفُقَراءُ المُعدِمُونَ بِها   إِذا انجَلَتْ وَجَلالُ الفَقرِ غاشِيها
بِنِعمَةِ اللهِ حَدِّثْ صاحِ قَومَكَ وَاظْـهِرْها وَهَيهاتِ أَنْ تَبقَى لِمُخفِيها
وَالطَّيِّباتُ الَّتِي الرَّحمٰنُ أَنعَمَ إِنْـعاماً عَلَينا بِها فَسَلْ تُجافِيها
بِذاكَ نَزَلَتِ الآياتُ وَهيَ هُدًى   لِلمُسلِمِينَ إِذا باتُوا مُطِيعِيها
بِذا ارعَوَى عاصِمٌ عَن غَيِّهِ وَقَضَى   أَيَّامَهُ بَعدَ ذا رَغْداً وَتَرفِيها
كَذاكَ حَيدَرَةٌ كانَتْ مَجالِسُهُ   عِلماً وَهَدْياً وَإِرشاداً وَتَفقِيها
فَإِنْ رَأَى النَّاسَ وَالأَسقامُ تُزعِجُها   فَفِي مَواعِظِهِ الغَرَّا يُؤاسِيها

لو كان لا يذهب مابي الا بذهاب بصري لتمنيت ذهابه قال وما قيمة بصرك عندك ؟ قال لو كانت لي الدنيا لفديته بها قال لا جرم ليعطينك الله على قدر ذلك ان الله يعطي على قدر الألم والمصيبة وعنده تضعيف كثير فلطفت كلمات الامير الحكيمة هذه من آلام الربيع فحمد الله على بلواه وتجلد ثم أجال أمير المؤمنين بصره في دار الربيع فوجدها ذات سعة ورياش ثمين فقال ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا ، وانت اليها في الآخرة كنت أحوج ؟؟ وبلى ان شئت بلغت بها الآخرة تقري بها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها فاذا أنت قد بلغت بها الآخرة فكان لهذه الكلمات موقعها الطيب من نفس الربيع فشكر وحمد ثم قال يا أمير المؤمنين ألا أشكو اليك عاصم بن زياد أخي ؟ قال ماله ؟ قال لبس العباء وترك الملاء وغم أهله وأحزن ولده فقال عليه صلوات الله ادعوا لي عاصماً فلما أتاه عبس في وجهه وقال ويحك ياعاصم ترى الله أباح لك اللذات وهو يكره ما أخذت منها لأنت أهون على الله من ذلك اما سمعته يقول « واما بنعمة ربك فحدث » وقوله « يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واعملوا صالحاً » قال عاصم فلمَ أقصرت يا أمير

وَإِنْ رَأَى نِعَمَ ٱلْبَارِي تُحِيطُ بِهَا   فَبِٱلْمَبَرَّاتِ لَا يَنْفَكُّ يَغْرِيهَا

وَإِنْ رَآهَا أَسَاءَتْ فَهْمَ مَانَزَلَتْ   بِهِ سَمَاحَةُ شَرْعِ ٱللهِ يُنَبِّهَا

كَانَ ٱلْإِمَامُ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَبًا   لَهَا عَلَى سِنَّةِ ٱلْهَادِي يُرَبِّيهَا

أمير المؤمنين ومادحوه

فِي ذَاتِ يَوْمٍ أَتَى دَارَ ٱلْوَصِيِّ جَمَا   عَةٌ تُمَلِّقُهُ وَصْفاً وَتَشْبِيهَا (١)

وَٱسْتَرْسَلَتْ بِٱلثَّنَا وَٱلْحَمْدِ ذَاكِرَةً   آثَارَهُ وَمَضَتْ بِٱلْمَدْحِ تُطْرِيهَا

ظَنَّتْ وَقَدْ أَثِمَتْ فِي ٱلظَّنِّ أَنَّ عَلِيًّـا   يَرْتَضِي عَنْ ثَنَا يُسْدِيهِ مُثْنِيهَا

فَاغْتَاظَ مِنْهَا وَبِٱلتَّوْبِيخِ بَادَرَهَا   بِخُطْبَةٍ قَدْ تَسَامَتْ فِي مَعَانِيهَا

وَقَالَ : أَحْمَدُ رَبِّي وَٱلصَّلَاةُ عَلَى   طَـهَ وَيَاصَحْبَنَا جُوزُوا ٱلتَّرَاهِيهَا

مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ ٱللهُ ٱلْعَظِيمُ بِعَيْـنَيْهِ   وَأَكْبَرَهُ قَدْراً وَتَوْجِيهَا

وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ وَدَرَى   بِأَنَّ قُوَّاتِهِ مَا مَنْ يُقَاوِيهَا

أَنْ يَصْغُرَنَّ سِوَاهُ مِنْ خَلَائِقِهِ   لَدَيْهِ سِيَّانِ أَنْسِيهَا وَجِنِّيهَا

يُمْسِي كَذَٰلِكَ مَنْ نَعْمَاءُ خَالِقِهِ   عَلَيْهِ قَدْ عَظُمَتْ حَمْداً لِمُسْدِيهَا

وَٱللهِ مَاعَظُمَتْ نُعْمَى عَلَى أَحَدٍ   إِلَّا وَأَعْظَمُ مِنْهَا حَقُّ مُعْطِيهَا

وَإِنَّ أَسْخَفَ حَالَاتِ ٱلْوُلَاةِ وَقَدْ   سَادَتْ رَعِيَّتَهَا كَيْمَا تُرَاعِيهَا

المؤمنين على لبس الخشن وأكل الجشب ؟؟ قال انّ الله تعالى فرض على ائمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره وما انصرف علي عليه صلوات الله حتى نزع عنهم العباء ولبس الملاء وعاش بالرغد والرفه بعد ذلك

(١) فلتخرس شفاه المتملقين للحكام ، ولتنكسر ايدي المنافقين المخادعين الاقلام، ولينطق بالحق كلّ ذي شفة ولسان ، وليخطّ كلمات الصدق كلّ ذي فصاحة وبيان ، ذلك ما يأمر به المرتضى صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام ، وذلك ما جاء به الاسلام .

ظنّ أناس « وكلّ الظنّ اثم لابعضه » أنّ أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب ، مثل غيره من ذوي المراتب ، يرضيه المدح والثناء ، ويعجبه الحمد والاطراء ، فاسترسلوا بحضرته بالغو من القول الهراء ، بغير حياء ، فجابهم بما عرف عنه من الدهاء والذكاء ، مبيناً لهم كراهته للحمد والاطراء حتى ولو كان حقيقة غير مراء ، وما كفاه هذا حتى شفعه بنصائح ومواعظ يدرك مغازيها الالباء ، مبيناً لهم انه يودّ سمع الحقائق من رعاياه، سالمةً من الخداع والرياء . ولعمرى انّ خطابه

أَنْ تَحْسِبَ ٱلنَّاسُ حُبَّ ٱلْفَخْرِ نَزْعَتَهَا ... وَٱلْكِبْرَ شِيمَتَهَا وَٱلْمَدْحَ يُرْضِيهَا

كَرِهْتُ مِنْكُمْ أَنْ جَالَتْ ظُنُونُكُمُ ... بِي جَوْلَةً مَا أَنَا تَٱللَّهِ رَاضِيهَا

ظَنَنْتُمُونِيَ مُغْرًى بِٱلثَّنَاءِ وَبِٱلْإِ ... طْرَاءِ زَهْوًا وَشَرُّ ٱلنَّاسِ زَاهِيهَا

كَلَّا فَلَسْتُ بِحَمْدِ ٱللَّهِ مَوْضِعَهَا ... تِلْكَ ٱلظُّنُونُ وَأَعْجِبْ مِنْ تَظَنِّيهَا

حَتَّى وَلَوْ كُنْتُ أَهْوَى أَنْ تُقَالَ لِيَ ٱلْـ ... ـمَدَائِحُ ٱلزُّهْرُ فِي سَامِي مَعَانِيهَا

لَكُنْتُ تَارِكَهَا لِلَّهِ وَهْوَ بِهَا ... أَوْلَى مِنَ ٱلنَّاسِ مَا تَسْمُو مَعَالِيهَا

وَٱلْكِبْرِيَاءُ لَهُ سُبْحَانَهُ وَلَهُ ... عَلَى ٱلْبَرِيَّةِ آيُ ٱلْحَمْدِ تُسْدِيهَا

وَرُبَّمَا ٱسْتَحْلَتِ ٱلنَّاسُ ٱلثَّنَاءَ عَلَى ... أَثَرِ ٱلْبَلَاءِ نَعَمْ هٰذَا يُعَزِّيهَا

لَا تَحْمَدُونِي وَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ لِإِخْـ ... ـرَاجِي إِلَيْكُمْ نَفْسِي طَوْعَ بَارِيهَا

مِنْ بَاقِيَاتِ حُقُوقٍ بِتُّ أَبْذُلُهَا ... مَعَ ٱلْفُرُوضِ ٱلَّتِي مَا زِلْتُ أَقْضِيهَا

كَلَّا وَلَا تُسْمِعُونِي مَا جَبَابِرَةُ ٱلـ ... ـدُّنْيَا بِهِ تَتَرَضَّى عَنْ مَفَاهِيهَا

كَلَّا وَلَا تَتَّقُونِي كَٱتِّقَائِكُمُ ... أَهْلَ ٱلْبَوَادِرِ خَوْفًا مِنْ تَعَدِّيهَا

وَلَا مُصَانَعَةً أَبْغِي ٱخْتِلَاطَكُمُ ... بِي لَيْسَ يُنْصِفُنِي تَٱللَّهِ آتِيهَا

لَا تَحْسَبُوا أَنَّنِي أَبْغِي لِنَفْسِيَ إِعْـ ... ـظَامًا وَمَا ٱلْكِبْرُ أَرْضَى أَنْ يُدَانِيهَا

وَلَا تَظُنُّوا بِيَ ٱسْتِثْقَالَ قَوْلَةِ حَـ ... ـقٍّ يَنْتَغِي ٱلنُّصْحَ وَٱلْإِرْشَادَ مُبْدِيهَا

وَمَنْ تَثَاقَلَ مِنْ حَقٍّ يُقَالُ لَهُ ... أَوِ ٱلْعَدَالَةِ مِنْ رَاجٍ يُرَجِّيهَا

هذا لحريّ بان يكون قبلة انظار الحاكمين ، وشرعة الملوك والسلاطين ، وفيه الديمواقراطية الحقيقية التي يتغنى بها المتغنون ، وينشدها دعاتها الراشدون ، قال عليه صلوات الله : « ان من حق من عظم جلال الله سبحانه في نفسه ، وجلّ موضعه في قلبه ، أن يصغر عنده لعظم ذلك كلّ ما سواه ، وان أحقّ من كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه ، ولطف احسانه اليه ، فانه لم تعظم نعمة الله على أحد ، الاّ اذا ازداد حقّ الله عليه عظماً ، وانّ من أسخف حالات الولاة ، عند صالح الناس ، أن يظنّ بهم حبّ الفخر ، ويوضع أمرهم على الكبر ، وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحبّ الاطراء ، واستماع الثناء ، ولست بحمد الله كذلك ، ولو كنت أحبّ أن يقال ذلك ، لتركته انحطاطاً لله سبحانه ، عن تناول ما هو أحقّ به ، من العظمة والكبرياء ، وربما استحلى الناس الثناء ، بعد البلاء ، فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء ، لاخراجي نفسي الى الله سبحانه واليكم ، من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها ، وفرائض لابدّ من امضائها ، فلا تكلموني بما

لَاشَكَّ يَسْتَثْقِلُ ٱلْأَعْمَالَ يُنْفِذُهَا　　بِٱلْحَقِّ وَٱلْعَدْلِ كَيْ يُرْضِي مُرِيدِيهَا
فَلَا تَكُفُّوا صِحَابِي عَنْ مَقَالَةِ حَقٍّ　　أَوْ مَشُورَةِ عَدْلٍ تَسْمَعُونِيهَا
فَمَا أَنَا فَوْقَ أَنْ أُخْطِي وَلَسْتُ أَمِينًا　　مِنْ فِعَالِيَ ٱلَّتِي فِي ٱلْحُكْمِ أُجْرِيهَا
إِلَّا إِذَا عَصَمَ ٱلْخَلَّاقُ نَفْسِيَ مِنْ　　زَلَّاتِهَا وَنَهَاهَا عَنْ تَشَهِّيهَا
وَإِنَّمَا أَنْتُمُ مِثْلِي عَبِيدُ إِلٰهٍ　　وَاحِدٍ مَالِكِ ٱلدُّنْيَا بِمَا فِيهَا
وَإِنَّهُ مَالِكٌ مَا لَيْسَ نَمْلُكُ مِنْ　　نُفُوسِنَا مِثْلَمَا يَبْغِي يُمَشِّيهَا
سُبْحَانَهُ مِنْ لَيَالِيَ ٱلشِّرْكِ أَخْرَجَهَا　　إِلَى ٱلْهُدَى وَبِهِ أَجْلَى دَيَاجِيهَا

اغارة معاوية على بلاد الخلافة

بَيْنَا ٱلْخَلِيفَةُ مُشْتَغِلٌ بِٱلْخَوَارِجِ لَا　　تَنْفَكُّ تُبْدِي لَهُ ظُلْمًا تَعَصِّيهَا (١)
وَٱلنَّاسُ حَوْلَيْهِ شَتَّى لَيْسَ يَجْمَعُهَا　　رَأْيٌ عَلَى نَصْرَةِ لِلدِّينِ تَأْتِيهَا
كَانَ ٱبْنُ حَرْبٍ بِأَرْضِ ٱلشَّامِ يَرْقُبُ أَحْوَالَ ٱلْإِمَامِ وَيَسْتَقْصِي خَوَافِيهَا
فَلَمْ يَفُتْهُ دَقِيقٌ مِنْ تَضَعْضُعِهَا　　وَلَمْ يَفُتْهُ أَلِيمٌ مِنْ دَوَاهِيهَا
وَكَانَ يَعْرِفُ مَا ٱلتَّحْكِيمُ أَوْرَثَهَا　　مِنَ ٱلصِّعَابِ وَمَا سَهْلٌ تَلَافِيهَا

تكلم به الجبابرة ، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة ، ولا تخالطوني بالمصانعة ، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي ، ولا التماس اعظام لنفسي ، فانه من استثقل الحق أن يقال له ، أو العدل ان يعرض عليه ، كان العمل بهما أثقل عليه ، فلا تكفوا عن مقالة بحق ، أو مشورة بعدل ، فاني لست في نفسي بفوق أن أخطيء ، ولا آمن ذلك من فعلي ، الا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني ، فانما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره ، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا ، وأخرجنا مما كنا فيه ، الى ما صلحنا عليه ، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى واعطانا البصيرة بعد العمى » اه

(١) اتماماً للعرض المقصود من حواشي هذه العلوية المباركة نأتي هنا على خلاصة ما فعله معاوية بعد التحكيم للتسطي على املاك الخلافة الاسلامية مصراً بعد مصر وبدءاً بعد بدء فنقول :

« حديث مصر »

ان اول ما عمل معاوية في سبيل اغتصاب امصار الخلافة هو الديار المصرية اذ قد علمنا أن عمراً بن العاص ما رضي أن ينصر معاوية الا بعد أن وعده بولاية مصر وما وسعه الا أن يبادر للبر بوعده لانه وجد نفسه في كل يوم محتاجاً الى عمرو طالما سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله في الكوفة قابضاً على زمام الخلافة راغباً بالقضاء على عصيان معاوية وأصحابه

وكانت مصر في اواخر ايام عثمان في يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح أحد بني عامر بن

بِهَا غدَتْ صَحْبُ مَوْلاَنَا أَبِي حَسَنٍ فَصَائِلاً وَتَمَادَتْ فِي تَعَادِيهَا
وَلَمْ تَعُدْ طَوْعَهُ إِنْ رَامَ يَفْجَأُهُ بِغَارَةٍ كَانَ لاَ يَنْفَكُّ يَنْوِيهَا
خَارَتْ عَزَائِمُهَا عَنْ نَصْرِهِ وَغَدَتْ وَمَا خِطَابَتُهُ فِيهَا تُقَوِّيهَا
وَطَالَمَا قَامَ فِيهَا يَسْتَثِيرُ بِهَا مِنْ رُوحِهِ نَخْوَةً لِلْحَرْبِ تَصْرِيهَا
فَكَانَ تَصْوِيتُهُ فِيهَا كَصَرْخَةِ طَوَّ افِ الْجِبَالِ وَقَدْ ضَاعَتْ بِوَادِيهَا
دَرَى مُعَاوِيَةٌ ذَا كُلَّهُ فَنَوَى تَقْوِيضَ أُمْرَتِهِ مَا عَادَ خَاشِيهَا
وَاخْتَارَ فُرْصَةَ ذَاكَ الإِنْقِسَامِ وَبِالْـــغُزَاةِ أَمْلاَكُهَا أَمْسَى مُفَاجِيهَا

لؤي . وكان زعيم المتآمرين على عثمان في مصر هو محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فلما خرج المصريون بثورتهم الى المدينة هجم ابن أبي حذيفة على عامل عثمان وخلعه من ولايته وطرده من مصر فنزل على تخومها مما يلي فلسطين منتظراً ما يكون من أمر عثمان فلما بلغه مقتله فرَّ الى معاوية معتصماً به لعلمه بنقمة المسلمين على العمال الامويين وولى سيدنا علي على مصر قيس ابن سعد بن عبادة فسار الى مصر بنفر من أهله ودخلها من غير ان يعارضه معارض وبايع معظم الناس علياً بواسطته وكان ذلك في اواخر صفر سنة ٣٦ للهجرة . واعتزل البيعة قليلون من شيعة عثمان

وبعد ان انتهت وقعة الجمل وتفرَّغ سيدنا علي لمحاربة معاوية في الشام خاف هذا أن يأتيه سيدنا علي من العراق وقيس بن سعد من مصر فأخذ يكاتب قيساً بالانضمام اليه في المطالبة بدم عثمان ويغريه ان يملكه العراقين ويملك أهل بيته الحجاز فأبى قيس مماشته على ما يحبُّ على انه لم يكاشفه العداوة جهرةً بل ظلَّ معه بين مباعد ومقارب فما كان من معاوية الاَّ ان اذاع بين أهل الشام أنَّ قيساً بن سعد عامل علي على مصر قد صالح معاوية وطارت الانباء بذلك الى الكوفة فاتصلت بسيدنا علي فأوجس منه شراً وشكَّ باخلاصه ثم ازداد شكاً به بما كان يراه في كتب قيس من الالحاح بترك المعتزلين في مصر وشأنهم من غير ان يتعرَّض الى اكراههم على بيعته واشار عليه بعض اصحابه لدى هذه الشكوك ان يعزل قيساً ويولي في موضعه محمداً بن أبي بكر لانَّ هذا كان طامعاً في مصر منذ قتل عثمان ولان المشير بتوليته كان عبد الله بن جعفر وهو أخو محمد بن أبي بكر لامه فرضي سيدنا علي بتوليته وارسله الى مصر فما عارضه قيس لانه كان زوج عمته بنت أبي قحافة المسماة « قريبة » وسلمه حكم الديار المصرية وسار الى المدينة ناقماً على سيدنا علي . ولكنه ما عتم ان عذر سيدنا علي وسار مع سهل بن حنيف الى الكوفة طائعين راضيين وشهدا معه موقعة صفين

واول عمل اتاه محمد بن أبي بكر في مصر انه كتب الى المعتزلين منهم وهم الذين ما كانوا اطوع علي ولا معاوية ان بايعوا أو اخرجوا من مصر فكتبوا له يرجوته ان يمهلهم ريثما تنتهي المشكلة فأصرَّ عليهم فامتنعوا فتركهم وهو يحذرهم وهم يحذرونه فلما انجلت موقعة صفين عن التحكيم وتقل معاوية الى الشام وعلي الى الكوفة اجترئوا على محمد بن أبي بكر واظهروا له العداء فارسل عليهم قوةً من جنوده اولاً وثانياً فقهروها واشتدَّ بذلك ساعدهم ومالت الناس اليهم مطالبةً بدم عثمان وكان على رأسهم رجل يدعى معاوية بن حديج بن الكاسك فجعل يدعو الى المطالبة بدم عثمان وانضم اليه كثيرون

فَكَانَ مِفْتَاحَ ٱلْحَرْبِ ٱلْعَوَانِ بِمِصْرٍ إِذْ تَمَلَّكَ إِبْنُ ٱلْعَاصِ وَادِيْهَا
وَقَدْ تَسَطَّى عَلَيْهَا عَنْوَةً وَقَضَى إِذْ ذَاكَ مُحْتَرِقًا بِٱلنَّارِ وَالِيْهَا
وَمِنْ تَمَلُّكِ مِصْرٍ ظَنَّ إِبْنُ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّ ٱلْمُنَى سَهْلٌ تَوَلِّيْهَا
وَأَنَّ كُلَّ ٱلَّذِي يَرْجُوهُ يَبْلُغُهُ مِنَ ٱلْخِلَافَةِ فِي أَقْصَى أَرَاضِيْهَا
وَقَالَ : مَوْتَةُ عَمَّارٍ وَأَشْتَرَ قَدْ جَزَّتْ يَدَيْهَا وَفَلَّتْ عَزْمَ حَامِيْهَا
وَقَهْرُ أَصْحَابِهَا فِي مِصْرَ خَلْفَهَا رَهْنَ ٱلْقَضَا فَهْيَ تَدْنُو مِنْ تَدَاعِيْهَا
وَقَالَ : غَزْوَةُ مِصْرٍ طَالَمَا نَجَحَتْ فَفِي رِبَى ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَا أُثَنِّيْهَا

من المصريين وهكذا فسدت مصر على محمد بن أبي بكر وارسل يستنجد بسيدنا علي فقال عليه صلوات الله ما لمصر الا أحد اثنين صاحبنا الذي عزلناه في الامس قيس بن سعد بن عبادة أو مالك بن الحارث بن الاشتر وكان سعد وقتئذ قائداً لشرطة سيدنا علي في الكوفة والاشتر عاملاً له على الجزيرة ثم رجح ارسال الاشتر فاستدعاه وولاه مصراً وارسله اليها فتبعه معاوية باحد اتباعه وقتله على بحر القلزم « البحر الاحمر » كما تقدم القول في ترجمة الاشتر . وظلّ محمد بن أبي بكر عاملاً لسيدنا علي على مصر وهي على ما عرفنا من استفحال أمر معاوية بن حديج فيها

على انّ عمراً بن العاص عندما عاد بعد التحكيم الى الشام جعل يلحف على معاوية بالمسير على مصر وفتحها وزاد الحافاً بعد موت الاشتر وما بلغه من استفحال أمر معاوية بن حديج فرضي معاوية بارسال حملة على مصر بقيادة عمرو بن العاص يعاونه فيها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الخزرجي الذي عرفناه عامل عثمان على حمص وصحب عمرو معه كثيرين من بطن الشام والعرب الا أنّ معاوية قبل ارسال الحملة كتب الى معاوية بن حديج السكندي ومسلمة بن مخلد الانصاري وكانا شيعة له يأمرهما بالثبات بدعوتهما للمطالبة بدم عثمان ويمنيهما بارسال حملة على مصر فجاوباه بأنّ امرهما قد استفحل وتعجلاه بارسال الحملة فرسل حينئذ عمراً بن العاص بستة آلاف مقاتل على مصر . ولما انتهى عمرو بن العاص الى حدود مصر طاويا سيناء انضمّ اليه من كان على شيعة عثمان وتربث هناك وكتب الى محمد بن أبي بكر كتابا يقول فيه : « أما بعد ، فتنحّ عني بدمك ، يا ابن أبي بكر فاني لا أحبّ أن يصيبك مني ظفر ، وان الناس في هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، وهم مسلموك ، لو قد التقت حلقتا البطان ، فاخرج منها ، فاني لك من الناصحين ، والسلام » وكان عمرو قد صحب معه كتاباً من معاوية الى محمد بن ابي بكر فصحبه مع كتابه هذا وهاك نص كتاب معاوية : « أما بعد ، فانّ غبّ الظلم والبغي عظيم الوبال ، وانّ سفك الدم الحرام ، لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا ، والتبعة الموبقة في الآخرة ، وما نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ، ولا أسوأ عيباً ، ولا أشدّ عليه خلافاً ، منك ، سعيت عليه مع الساعين ، وساعدت عليه مع الساعدين ، وسفكت دمه مع السافكين ، ثمّ تظنّ اني نائم عنك ، فتأتي بلدة فتأمن فيها ، وجلّ أهلها أنصاري ، يرون رأيي ، ويرفضون قولك ، ويستصرخون عليك ، وقد بعثت لك قوماً حناقا عليك ، يسفكون دمك ، ويتقربون الى الله عزّ وجلّ بجهادك ، وقد اعطوا

قُرَيْشٌ أَهْلُهَا مَاعَنْ رِضًى خَضَعَتْ لِلْمُرْتَضَى مَالَهُ تَصْفُو مَطَاوِيهَا
مِنْ بَعْدِ مَاهَلَكَتْ أَبْطَالُهَا وَعَلِيٌّ كَانَ فِي الْجَمَلِ الْمَشْهُورِ مُرْدِيهَا
وَبَادَرَ الْبَصْرَةَ الْغَنَّا بِحَمْلَتِهِ يَقُودُهَا الْحَضْرَمِيُّ الْقَدْمُ يَخْطِيهَا
فَمَا لَهُ خَضَعَتْ آمَالُهَا وَأَبَتْ حَرْبَ الْخَلِيفَةِ قَالَتْ: لَا نُوَخِّيهَا
وَلَا نَرُومُ بَدِيلًا عَنْ أَبِي حَسَنٍ وَلَا خِلَافَتُهُ الْغَرَّا نُعَادِيهَا
وَلَمْ تَزَلْ مَعَهُ مَكْرًا تُطَاوِلُهُ وَلَمْ يَزَلْ مَعَهَا مَكْرًا يُدَارِيهَا
حَتَّى إِلَيْهَا انْتَهَتْ مِنْ عِنْدِ حَيْدَرَةٍ جُنُودُهُ تَبْتَغِي نِضَالَ مُغْوِيهَا

الله عهداً ليقتلونك ، ولو لم يكن منهم اليك ما قالوا ، يقتلك الله بأيديهم ، أو بأيدي غيرهم من اوليائه ، وأنا احذرك وأنذرك ، فانّ الله مقيد منك ، ومقتصّ لوليه وخليفته ، بظلمك له ، وبغيك عليه ، ووقيعتك فيه ، وعدوانك يوم الدار عليه ، تطعن بمشاقصك فيما بين احشائه واوداجه ، ومع هذا فاني اكره قتلك ، ولا أحبّ ان اتولى ذلك منك ، ولن يسلمك الله من النقمة أين كنت ابداً ، فتنحّ وانجُ بنفسك والسلام » آه

لاجرم ان معاوية وعمراً بن العاص ما كتبا هذين الكتابين الى محمد بن أبي بكر الا وهما يريدان ان يرهباه ويحملاه على التنحيّ عن مصر بغير حرب لانهما كانا يحسبان حساباً كبيراً لمقاومته وامداد سيدنا علي عليه صلوات الله رغماً عما كانا يعلمانه من افتراق كلمة أصحاب الخلافة وتشتت أميالهم.

أما محمد بن أبي بكر فقد عرف من هذين الكتابين ومما سمعه عن وصول حملة عمرو بن العاص الى حدود مصر ومما شهده من استفحال أمر شيعة عثمان القائم بها معاوية بن حديج أنّ موقفه قد تحرّج وانّ لا قبل له على المقاومة طويلاً الاّ انّه لم يسعه أن يتنحى عن مصر ويتركها لقمة سائغة لعمرو ابن العاص على ما كان عليه من الاخلاص لامير المؤمنين فبادر الى اصحابه يستنصرهم من جهة واوفد مع ساعٍ خصيص كتابي معاوية وعمرو بن العاص الى سيدنا علي مع كتاب منه ينبئه به عن حقيقة موقفه وما يتهدده ومصر من الاخطار من الجهة الثانية

أما عمرو بن العاص فما أمهل ان قصد مصر فأخرج محمد بن أبي بكر الى لقائه كنانة بن بشر في ألفي مقاتل قصدوا جيش ابن العاص في ضواحي الفسطاط وجرت هنالك مواقع عظيمة بين الجيشين كان النصر في اولها لجيش كنانة وكاد يفشل عمرو بن العاص لو لم ينجده في آخر الوقت معاوية بن حديج بمن معه من مقاتلة المصريين المنضوين الى رايته حينئذ تغلبوا على جيش كنانة وقتل هذا شهيداً وتقدم عمرو بن العاص نحو الفسطاط فدخلها دخول الظافر . أما اصحاب محمد بن أبي بكر فلما بلغهم مقتل كنانة وهلاك جيشه خارت عزائمهم وارفضوا من حوله واذ وجد هذا نفسه وحيداً هرب في الحال من وجه بن العاص وأوى الى خربة فاختفى فيها . وعندما تمّ الظفر لابن العاص رأى من الحكمة أن لا يدع محمداً بن أبي بكر مختفياً متنقلاً في بلاد مصر مخافة ان يهبّ المصريون لنجدته فيضطرّ ان يشتبك معهم بحرب ثانية فأرسل معاوية بن حديج بطلبه .

خرج معاوية بن حديج بطلب محمد بن أبي بكر فجعل يتنسم اخباره من الناس في ضواحي الفساط فاخبره

فأوقعت بغزاة الشام مفنية ... جموعها كان رب العرش مفنيها

والحضرمي لقد لاقى الردى معها ... وهكذا تاكل النيران ملطيها

وخاب فيما ابتغى جهلاً معاوية ... من فتح بصرتنا أو من تعصيها

وكيف يبلغ منها سؤله ورجا ... ل المرتضى باسمه سالت مذاكيها

لكن معاوية ما انفك يخبط في ... غلوائه يتأبى أن يخليها

فعاد ثالثة للشر يطلب إقـ ... ـلاق الخلافة يبغي قهر حاميها

أحد العلوج بانه رأى رجلاً في خربة بالقرب من المحل الذي كانوا فيه فقصد الخربة بمن معه من اصحابه فوجدوا محمداً بن أبي بكر فيها وبكاد العطش يهلكه فقبضوا عليه وارسل معاوية بن حديج احد اعوانه ينبيء عمراً بوقوع محمد بن أبي بكر في قبضته وانه عزم على قتله فلما وصل رسول معاوية بن حديج الى عمرو بن العاص كان في حضرته عبد الرحمن بن ابي بكر اذ كان هذا في جيشه فاكبر قتل اخيه وقال لعمرو بن العاص : لا والله لا يقتل أخي صبراً فابعث الى معاوية بن حديج فانهه فارسل عمرو رسولاً الى معاوية بن حديج يقول : ائتني بمحمد حياً . فلما وصل رسول ابن العاص الى معاوية بن حديج قال هذا والغضب آخذ منه مأخذه : أقتلتم كنانة بن بشر بن عمي وأخلي عن محمد ؟ هيهات . أكفاركم خير من اوليائكم ؟ أم لكم براءة في الزبر ؟ قال هذا وهو عازم على قتله فسأل محمد بن أبي بكر شربة ماء فقال له معاوية بن حديج لاسقاني الله ان سقيتك قطرة أبداً انكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرماً فسقاه الله من الرحيق المختوم. والله لاقتلنك يا ابن أبي بكر وأنت ظمآن ويسقيك الله من الحميم والغسلين . فقال محمد بن أبي بكر : يا ابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك اليوم اليك ، ولا الى عثمان ، انما ذلك الى الله ، يسقي اولياءه ، ويظمىء اعداءه ، وهم أنت وقرناؤك ، ومن تولاك ومن توليته ، والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني ما بلغتم ، فقال معاوية بن حديج وهو يتبسم تبسم الحاقد : أتدري ما سأصنع بك ؟ أدخلك جوف هذا الحمار الميت ، ثمّ احرقه عليك بالنار ، قال محمد : ان فعلتم ذلك بي ، فطالما فعلتم مثله باولياء الله ، وايم الله اني لأرجو أن يجعل الله هذه النار التي تخوفني بها ، برداً وسلاماً ، كما جعلها الله على ابراهيم خليله ، وان يجعلها عليك وعلى اوليائك ، كما جعلها على نمرود واوليائه ، واني لأرجو ان يحرقك الله وامامك معاوية وصاحبك عمرو بن العاص، بنار تلظى ، كلما خبت زادها الله سعيراً ، فقال معاوية بن حديج : اني لا أقتلك ظلماً ، انما اقتلك بعثمان . قال محمد : وما أنت وعثمان ، رجل عمل بالجور ، وبدل حكم الله والقرآن، وقد قال الله عزّ وجلّ «ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون» فنقمنا عليه اشياء عملها ، فأردناه أن يخلع نفسه من الخلافة فلم يفعل ، فقتله من قتله من الناس . فغضب معاوية بن حديج وأمر بمحمد فضرب أحد أعوانه عنقه ثمّ أمر فالقي في جوف حمار ميت كان في هاتيك الخربة واحرق بالنار . وهكذا بلغ عمرو بن العاص امنيته وعاد الى حكم مصر

أما سيدنا علي عليه صلوات الله فعند ما انتهى اليه كتاب محمد بن أبي بكر مع كتاب معاوية وعمرو بن العاص اللذين ارسلاهما الى محمد اسرع في الخروج الى المسجد ودعا الناس وأخذ يحرضهم على الذهاب الى

أَوْفَى لِذَلِكَ بُسْراً غَيْرَ مُعْتَبِرٍ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ يَغْزُوهَا وَيُؤْذِيهَا
هُنَالِكَ قَدْ وَذَلَّ ٱلْأَنْصَارَ حَقَّرَهَا وَلَمْ يَكُنْ ذَاكِراً زَاهِيَ مَآتِيهَا
وَجَازَهَا قَاصِداً أُمَّ ٱلْقُرَى فَأَتَى بِهَا ٱلْفِعَالَ ٱلَّتِي آذَتْ قُرَيْشِيهَا
وَحَلَّ فِي ٱلطَّائِفِ ٱلْخَضْرَاءِ وَأَخْضَعَ كُرْ هاً لِٱبْنِ حَرْبٍ بِلَا حَرْبٍ أَهَالِيهَا
وَوَاصَلَ ٱلسَّيْرَ بُسْرٌ طَالِباً يَمَناً فَكَانَ فَاتِحَ دَانِيهَا وَقَاصِيهَا
كَذَاكَ شَذَّبَ أَغْصَانَ ٱلْخِلَافَةِ بُسْـــرٌ بَيْنَ مُزْهِرِهَا ٱلزَّاهِي وَذَاوِيهَا

مصر ورد الاعداء عنها فما لبوا الا بعد جهد جهيد ، وتسويف طويل . لباه منهم نحو الالفين فسار بهم مالك بن كعب مدداً لمحمد بن أبي بكر على انهم ما كادوا يبعدون عن الكوفة بضع مراحل حتى ورد على سيدنا علي نعي محمد بن أبي بكر وسقوط مصر في يد عمرو بن العاص فحزن حزناً شديداً وخرج الى المسجد والناس مجتمعون وقام فيهم خطيباً فحمد الله واثنى عليه وقال : ألا وان مصر قد افتتحها الفجرة ، أولياء الجور والظلم ، الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الاسلام عوجاً ، ألا وان محمداً بن أبي بكر قد استشهد ، رحمة الله عليه ، وعند الله نحتسبه ، أما والله لقد كان ما علمت ، ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحب سحت المؤمن ، اني والله لا ألوم نفسي على تقصير ولا عجز ، واني بمقاساة الحرب لجد بصير ، اني لأقدم على الحرب ، واعرف وجه الحزم ، وأقوم بالرأي المصيب ، فستصرخكم معلناً ، واناديكم مستغيثاً ، فلا تسمعون لي قولاً ، ولا تطيعون لي أمراً ، حتى تصير الامور الى عواقب المساءة ، وأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر ، ولا تنقضي بكم الاوتار ، دعوتكم الى غيات اخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فخرجتم على جرجرة الجمل الاشر ، وتثاقلتم الى الأرض تثاقل من لا نية له في الجهاد ، ولا رأي له في الاكتساب للأجر ، ثم أخرج الي منكم جند متذائب ضعيف ، كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ، فأف لكم » آه قال هذا سيدنا علي وهو غضب حزين ونزل . ثم ان سيدنا علي عليه صلوات الله اجتهد كثيراً لتأليف جيش يبعثه لفتح مصر ثانية واستدعى لهذا الغرض عبد الله بن عباس وكان عامله على البصرة الى الكوفة فما توفق لأن الناس كان قد أوهى عزائمهم تفرق كلمتهم بتأثير الخوارج الذين كان سيدنا علي تعباً جداً في محاربتهم وهكذا كانت الخوارج من كل جهة تعمل على اقلاق خلافته وتشنيع بهجة حكمه

« ترجمة محمد بن أبي بكر »

لا ضرورة لذكر نسب محمد بن ابي بكر من ابيه بعد ان سبق لنا ذكر ابيه وانما نذكر هنا امه فهي اسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خثعم كانت تحت جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه الى الحبشة فولدت له هناك عبد الله بن جعفر الجواد ثم قتل جعفر يوم مؤتة فتزوج أبو بكر زوجه اسماء بنت عميس فولدت له محمداً هذا ولما مات أبو بكر تزوج اسماء هذه سيدنا علي عليه صلوات الله وحضن ولدها محمد وهو غلام يترعرع فشب في حجر سيدنا علي وتربى على يديه وكان يجريه مجرى أولاده فيقول محمد ابني وان يكن من صلب أبي بكر . وكان محمد بن أبي بكر يحب علياً حباً جماً ويتشيع له ولا يعرف له أباً غيره ولا يعتقد لاحد فضيلة تقارب فضيلته وكان له في الثورة التي قتل فيها عثمان يدان على ما تقدمت الاشارة في الحواشي السابقة وصحب سيدنا

وَمَا ٱسْتَطَاعَتْ دِفَاعاً فِي مَوَاقِفِهَا   وُلَاةُ حَيْدَرَةٍ عَسْماً بِأَيْدِيهَا
وَلَا ٱسْتَطَاعَ عَلِيٌّ أَنْ يَرُدَّ عَنِ ٱلْأَ   مْلَاكِ إِذْ شَامَهَا تَغْزَى مُغِيرُتُهَا
إِذْ لَمْ تَكُنْ صَحْبُهُ تَرْضَى لِنُصْرَةِ رَا   يَةِ ٱلْخِلَافَةِ أَنْ تُنْضِي مَوَاضِيهَا
وَمَا عَلَى دَفْعِ ذِي ٱلْأَرْزَاءِ قَدْ وَجَدَتْ   رَأْياً وَمَا رَأْيُهُ ٱلْعَالِي بِمُرْضِيهَا
أَغْرَاضُهَا جَزَّأَتْ مَجْمُوعَهَا فِرَقاً   وَقَدْ أَضَاعَتْ قُوَاهَا فِي تَجَزِّيهَا
وَأَطْمَعَتْ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَبِٱلْـ   مُلْكِ ٱلَّذِي كَانَ يَحْمِيهِ أَعَادِيهَا

علي في يوم الجمل وحارب معه وهو الذي تولى أمر عائشة بعد أن تلاشت أصحاب الجمل وعاد بها الى مكة المكرمة مكرّمة حسب أمر عليّ عليه صلوات الله ثمّ عاد الى صحبة سيدنا علي وهو في الكوفة فولاه مصر كما تقدم القول وكانت خاتمته كما رأينا القتل شهيداً بيد معاوية بن حديج والحرق بجوف حمار في تلك الخربة التي أوى اليها وكان عمره وقتئذ نحو أربعين عاماً

« هجوم أصحاب معاوية على البصرة »

كان استيلاء عمرو بن العاص على مصر ومقتل محمد بن أبي بكر واليها في سنة ٣٨ للهجرة ولما تمّ لمعاوية هذا الفوز المبين طمع بسيدنا علي وخلافته وعزم على مواصلة الحرب لفتح امصار الخلافة وقال في نفسه انّ عمار بن ياسر ومالك الاشتر كانا يدا الخلافة فقطعتا واصبحت بعدهما جزءاً قاعدت أخافها . قال هذا وأجال بصره بامصار الخلافة فما وجد أولى بالهجوم غير البصرة فقال ان البصريين ما اطاعوا علياً برضائهم بل بايعوه مقهورين وفي نفوسهم من كرهه بعد ان قتل منهم الخلق الكثير في يوم الجمل ما فيها وانهم يرون راينا في عثمان وتد قاتلوا حول الجمل في الطلب بدمه فهم بذلك حنقون يودون أن يأتيهم من يجمع كلمتهم وينهض بهم في الطلب بثارهم ودم امامهم . ولم يفت معاوية ايضاً انه لو تملك البصرة أصبح على عنق الخلافة المستقرّة في الكوفة فيسهل عليه استهواء الكوفيين باموالة ثمّ الحملة على سيدنا علي وقهره واستخلاص الخلافة من سلطانه . وعلى هذه الوساوس التي خطرت لمعاوية استدعى عبد الله بن الحضرمي وأمره ان يسير بسرية من الجيش الى البصرة مبيناً له اهواء قبائلها ليوالي التي من حزب عثمان ويحذر التي من حزب سيدنا علي فسار عبد الله بن الحضرمي بهذه المهمة ضارباً في البرية حتى اذا ما دنا من البصرة نزل في بني تميم واتاه الناس يستطلعون طلع مقدمه فأخذ يرغبهم بعصيان سيدنا علي ويحضهم على القيام مع معاوية للمطالبة بدم عثمان فاعترضه الضحاك بن قيس الهلالي وكان على شرطة البصرة وقال : قبح الله ما جئتنا به وما تدعونا اليه أتيتنا والله بمثل ما أتانا به طلحة والزبير أتيانا وقد بايعنا علياً واستقامت أمورنا فحملانا على الفرقة حتى ضرب بعضنا بعضاً ونحن الآن مجتمعون على بيعته وقد أقال العثرة وعفا عن المسيء أفتأمرنا ان ننتضي أسيافنا ويضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً ؟ والله ليومٌ من ايام علي خير من معاوية وآل معاوية . وما كاد الضحاك يتمّ كلامه حتى انتهره عبد الله بن خازم السلمي قائلاً اسكت فلست بأهل أن تتكلم ثمّ اقبل على ابن الحضرمي وقال نحن انصارك ويدك والقول قولك فاقرأ كتابك فخرج الحضرمي كتاب معاوية واخذ يقرأه عليهم وكانت خلاصته انه يذكر لاهل البصرة موت عثمان وانه قتل مظلوماً ويستنهضهم الى الانتصار له ويتعهد لهم انه اذا تمت له البيعة يعمل فيهم بالسنة ويعطيهم

فَمَا هِيَ ٱجْتَمَعَتْ مِنْ حَوْلِ سُدَّتِهِ ... لِمَا مُعَاوِيَةٌ أَمْسَى مُنَاوِيهَا
وَلاَ مَمَالِكُهُ مِنْ نَفْسِهَا ٱمْتَنَعَتْ ... لَمَّا رَأَتْ إِبْنَ أَرْطَأَةٍ مُوَافِيهَا
وَطَالَمَا طَلَبَتْ عُمَّالُهُ مَدَدًا ... مِنْهُ وَمَا ٱسْطَاعَ يَوْمًا أَنْ يُلَبِّيهَا
وَإِذْ دَرَى كُلَّ مَا بِسْرٌ أَتَاهُ مِنَ ٱلْآ ... مِ سَوَاءٌ فِي يَمَنٍ مِنْ فَمٍ وَالِيهَا
عَلاَ عَلَيْهِ صَلاَةُ ٱللهِ مِنْبَرَهُ ... مُحَدِّقًا بِرَعَايَاهُ يُفَاهِيهَا
فَقَالَ: مَا هِيَ إِلاَّ كُوفَتِي وَأَنَا ... دَوْمًا لَأَبْسُطُهَا بَسْطًا وَأَطْوِيهَا

عطائين في السنة (وهذا بيت القصيد والشفيع المقبول) فلما فرغ الحضرمي من كتاب معاوية قام الاحنف وقال : لا ناقتي في هذا ولا جملي ونفض رداءه وانصرف . وقام عمر بن مرحوم العبدي فقال : ايها الناس ، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا تنكثوا بيعتكم، فتقع بكم الواقعة . فاعترضه عباس بن حجار العبدي وقال لننصرنَّ معاوية بأيدينا وألسنتنا فانتهره المثنى بن مخربة العبدي وقال: والله لئن لم ترجع الى مكانك الذي جئتنا منه لنجاهدنك باسيافنا ورماحنا ولا يغرنَّك هذا الذي يتكلم وتبع ذلك سجس بين القوم ظهر منه للحضرمي انَّ شيعة سيدنا علي هي الفائزة فخاف على نفسه وعلى السرية التي يقودها ومال الى صبرة بن شيمان وهو من وجوه تميم وقال له انك ناب من أنياب العرب فانصرني فقال له لو نزلت في داري لنصرتك فسار الى داره وأصبح نزيله

وكان عامل سيدنا علي على البصرة وقتئذٍ عبد الله بن عباس الا انَّه كان تركها متوجهاً الى الكوفة بعد سقوط مصر كما تقدم القول عائداً الى سيدنا علي في الكوفة مستخلفاً عليها زياد بن أبيه فلما وصل عبد الله الحضرمي بجنود معاوية ليفتن الناس ويسطو على البلد خاف زياد من مجيئه وانضمام الناس اليه واستدعى اليه حصين بن المنذر ومالك بن مسمع وقال لهما : انتم يامعشر بكر بن وائل انصار أمير المؤمنين وثقاته وقد كان من ابن الحضرمي ما ترون وأتاه من أتاه فامنعوني وبيت المال حتى يأتيني أمر امير المؤمنين فقال حصين لبيك وقال مالك — ولم يكن مخلصاً لعلي — هذا أمر لا أبتُّ فيه رأياً لأنَّ لي فيه شركاء استشيرهم ثمَّ انظر ولما رأى زياد تثاقل مالك عن اجارته خاف ان تختلف عليه ربيعة فأرسل الى صبرة بن شيمان الحداني الازدي يطلب منه ان يجيره مع بيت مال المسلمين فقال ان حملته الى داري وجئتني اجيركما فاسرع بما لديه من اموال المسلمين الى دار ابن شيمان ونقل اليها المنبر ايضاً وكان يصلي الجمعة بمسجد الحدان

وكان زياد في حال وصول ابن الحضرمي الى البصرة بادر فأنبأ سيدنا علي بمقدمه فبادر عليه صلوات الله فأرسل جارية بن قدامة السعدي وهو من سعد من تميم وبعث معه خمسمائة مقاتلاً (وقول بعض الرواة ان سرية جارية كانت خمسين مقاتلاً خطأ ينفيه العقل لانَّ من المستحيل أن يسير جارية لقتال الحضرمي ومن معه من جيش معاوية ومن يحتمل ان ينضمَّ اليه من قبائل البصرة باقلَّ من خمسمائة مقاتل) ولما بلغ جارية واصحابه البصرة نزل على الازد وجمع البصريين وقرأ عليهم كتاب سيدنا علي الذي كان يحمله وفيه يحرضهم على الثبات على بيعته ويتهددهم لو نكثوا البيعة بيوم افظع من يوم الجمل فصاحوا جميعاً اننا موالون أمير المؤمنين صادقون في طاعته وساروا مع جارية للقاء عبد الله الحضرمي فحاربوه مع من انضمَّ اليه من قبائل البصرة وما هي غير ساعة حتى انجلت الموقعة عن تهر

إنْ لَمْ تَكُنْ لِيَ إلاَّ أَنْ تَهُبَّ أَعَا ... صِرٌ بِأَرْضِكَ عَالِيهَا وَوَاطِيهَا .
إلاَّكِ إنْ لَمْ يَكُنْ مُلْكٌ فَقَبَّحَكِ الْـ ... ـخَلاَّقُ مِنْ بَلْدَةٍ أَصْبَحْتُ ثَاوِيهَا
يَانَاسُ أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدْ غَزَا يَمَناً ... وَقَدْ طَغَى وَبَغَى مَا بَيْنَ أَهْلِيهَا
إخَالُ وَاللهِ أَنَّ الْقَوْمَ ظَافِرَةٌ ... بِكُمْ وَبَالِغَةٌ مِنْكُمْ أَمَانِيهَا
لِسُوءِ فُرْقَتِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وَلأَ ... نَّ حَوْلَ بَاطِلِهَا الْمُخْزِي تَجَمِّيهَا
لِشَرِّ عِصْيَانِكُمْ حَقّاً لِصَاحِبِكُمْ ... وَحُسْنِ طَاعَتِهَا بُطْلاً لِرَاعِيهَا

أصحاب الحضرمي وفرّ هذا مع عبد الله بن خازم السلمي وكان اركان حربه وتبعهما سبعون من مقاتلتهما وهم الذين سلموا من حيش الشام وكان يربو على الخمسمائة وأووا الى قصر سنبيل وهو من قصور فارس القديمة وكان حوله خندق فهو بمقام حصن فتحصنوا فيه فتبعهم جارية وأحرق ذلك القصر بمن فيه فهلكوا جميعاً . وهكذا انتهت حملة معاوية بالفشل وعلم منها هذا حقيقة ما أراد الشاعر بقوله

كلّ ما ترتجيه سهل ولكن ... عثرات الآمال ليست بسهلة

« استيلاء بسر بن ارطاة على الحجاز واليمن »

كلما ازداد اصحاب سيدنا علي عليه صلوات الله ضعفاً بانقسامهم على انفسهم كلما كان أصحاب معاوية يزدادون قوةً بانضمامهم الى بعضهم البعض تحت راية معاوية والسبب في ذلك بسيط جداً لا يحتاج الى بحث وتنقيب واعمال روية . فإنّ الناس عند سيدنا علي كانوا يعلمون يقيناً بانهم يجاهدون لله والاسلام وليس لهم من خيرات الخلافة الا ثواب الآخرة . أما أصحاب معاوية فهم موقنون أنّ الخيرات التي تصيب صاحبهم هم شركاؤهم فيها كلّ على قدر وجاهته ونفوذه وقلّ في الناس الذين يكفرون بانفسهم ويتجرّدون عن أهوائهم وينصرفون الى آخرتهم والاكثرون يهتمون بعاجلتهم ويطمعون بملاذ دنياهم على ما نشاهد باعيننا وعلم اختبارنا من طبيعة هذا الانسان ومبلغ ضعفه بهذا الوجود فكأني بهم يحسبون أنفسهم خالدين وما الخلود الاّ لله رب العالمين

فانّ معاوية وأصحابه ما ضعضع عزيمتهم فشلهم في البصرة إزاء ما شاهدوه من تخاذل أصحاب سيدنا علي عن الذهاب الى مصر واستخلاصها من عمرو بن العاص فرأى أن يقصد الحجاز واليمن حتى اذا ما تمكن من تدويخهما وفصلهما عن الخلافة العلوية هاجم العراق بخيله ورجله بعدان تنكسر نفوس أهليها بامتداد سلطانه الى سائر امصار المسلمين وفيها المدينة المنورة مهبط الرسالة ومكة المكرمة مقرّ الكعبة المشرفة اما اصحاب معاوية فكان رأيهم غير رأيه كانوا يرون ان يهاجم معاوية بهم سيدنا علي في العراق حتى اذا ما ملكها ونال أربه من سيدنا علي عليه صلوات الله دانت له الامصار بغير قتال فخالفهم وظلّ على رأيه اذ كان يتخوّف من نتيجة مهاجمة سيدنا علي في عقرداره ولا سيما بعد أن أتخذلت حملته في البصرة

وبعد أن أعمل معاوية رويته طويلاً أقرّ على تنفيذ خطته واختار لهذه المهمة رجلاً من أصحابه يدعى بسر بن أرطاة العامري من بني عمر بن لؤي بن غالب وكان هذا الرجل فظاً غليظ القلب سفاكاً للدماء لا رأفة عنده ولا رحمة فاستدعاه اليه وأمره أن ياخذ طريق المدينة فمكة حتى ينتهي الى اليمن وقال له : لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي الاّ بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاء لهم

لِأَنَّكُمْ خُنْتُمُونِي مَعْ أَمَانَتِهَا   إِلَى مُعَاوِيَةٍ صِدْقاً تُؤَدُّونَهَا
وَلِلْفَسَادِ ٱلَّذِي أَلْفِيهِ عِنْدَكُمُ   مَعَ ٱلصَّلَاحِ ٱلَّذِي يَمْلَا مَثَاوِيهَا
لَاهُمَّ قَدْ سَئِمُونِي إِذْ سَئِمْتُهُمُ   مَلَالَةً كُلُّنَا أَمْسَى يُعَانِيهَا
أَبْدِلْهُمُ بِيَ شَرّاً مِنْ خَلِيفَتِهِمْ   يَسُوقُهُمْ بِعَصَاهُ وَهُوَ مُهْوِيهَا
كَذَا بِهِمْ كَمَا أَبْدِلْ بِأَخْيَرَ مِنْهُمْ   نَفْسَ صَاحِبِهِمْ يَكْفِي تَعَنِّيهَا
وَمِثْ وَقَدْ قَسِيَتْ هٰذِي ٱلْقُلُوبُ كَمَا   يُمَاثُ فِي ٱلْمَاءِ مِلْحٌ كَيْ تُطَرِّيهَا

منك وانك محيط بهم ثمّ اكفف عنهم وادعهم الى البيعة لي فمن أبى فاقتله واقتل شيعة علي حيث كانوا فخرج بسر بأمر معاوية ومعه ثلاثة آلاف مقاتل وسار في طريق المدينة فدخلها وكان عامل سيدنا علي عليها أبو أيوب الانصاري صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج هذا عند وصول بسر برجاله هارباً لعلمه أنه يعجز عن قتاله فاستولى بسر على المدينة وخطب في الناس فشتمهم وتهددهم وتوعدهم وقال شاهت الوجوه ان الله تعالى ضرب مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها وقد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم وجعلكم أهله . كان بلدكم مهاجر النبيّ ومنزله وفيه قبره ومنازل الخلفاء من بعده فلم تشكروا نعمة ربكم ولم ترعوا حقّ نبيكم . وقتل خليفة الله بين أظهركم فكنتم بين قاتل وخاذل ومتربص وشامت ان كانت للمؤمنين قلتم ألم نكن معكم ؟ وان كان للكافرين نصيب قلتم ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ ثمّ شتم الانصار فقال : يامعشر اليهود أبناء العبيد بني زريق وبني النجار وبني سالم وبني عبد الاشهل أما والله لاوقعنّ بكم وقعة تشفي غليل صدور المؤمنين وبني أمية وأصحابهم المطالبين بدم عثمان . أما والله لأدعنّكم أحاديث كالأمم السالفة وهكذا أطال في تهديدهم حتى خافوا أن يوقع بهم ففزعوا الى حويطب بن عبد العزّى فسار اليه وناشده فقال عترتك وانصار رسول الله وليسوا بقتلة عثمان ولم يزل به حتى تظاهر بالرضى والعفو ودعا الناس الى بيعة معاوية فبايعوا وما اكتفى بهذا بل أراد ان يبقي بينهم آثار بطشه فحرق دوراً كثيرةً في المدينة المنوّرة منها دار زرارة بن حرون أحدبني عمرو بن عوف ودار فاطمة بن رافع الزرقي ودار أبي أيوب الانصاري . واقام بعد ذلك أياماً ثمّ هم بالخروج الى مكة وقبل سفره جمع رؤساءهم وقال لهم : اني قد عفوت عنكم وان لم تكونوا لذلك بأهل . ماقوم قتل امامهم بين ظهرانيهم بأهل ان يكفّ عنهم العذاب . ولئن نالكم العفو مني في الدنيا اني لأرجو ان لاتنالكم رحمة الله في الآخرة. وقد استخلفت عليكم أبا هريرة فاياكم وخلافه. فأطاع القوم واكدوا توبتهم وهكذا تركهم وسار قاصداً مكة كرمها الله

وعند ما بلغ بسر مكة هرب منها عامل سيدنا علي عليها وكان تمام بن العباس فدخلها وشتم أهل مكة وأنبهم وتهددهم وتوعدهم كما فعل في المدينة فجاؤوه طائعين مبايعين لمعاوية فعفا عنهم واستخلف عليهم شيبة بن عثمان. وكان قد هرب من مكة قبل دخول بسر امامّ انقرى سليمان وداود ابنا العباس وامهما حورية ابنة خالد بن فرطة الكنانية وهما غلامان فظفر بهما بسر وذبحهما . ثمّ سار بسر الى الطائف فسلمت له . ثمّ خرج منها فاتى نجران فتهددها فسلمت له . ثمّ أتى موضع اسمه « أرحب » فقتل فيه أبا كرب وهو سيد من كان في البادية وكان من شيعة سيدنا علي عليه صلوات الله . واتى بعد ذلك اليمن فقابله اليمانيون مقاتلين فقاتلهم وغلبهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ودخل صنعاء فقتل فيها مئة

هُنَاكَ لَوْ رُحْتُ أَدْعُوهَا لَمَا مَهِلَتْ ... أَنْ بَادَرَتْنِي كَسَيْلِ ٱلسُّحْبِ هَامِيهَا
وَمَا ٱنْتَهَى ٱلْمُرْتَضَى مِنْ سَرْدِ خُطْبَتِهِ ... عَلَى رَعَايَاهُ حَتَّى ٱنْصَاعَ غَاوِيهَا
وَأَسْرَعَتْ نَحْوَهُ فِي ٱلْحَالِ طَائِفَةٌ ... مِنْهَا لِنُصْرَتِهِ تُبْدِي تَنَخِّيهَا
وَكَانَ « جَارِيَةُ » ٱلسَّعْدِيُّ قَائِدَهَا ... إِلَى مُنَاضَلَةِ ٱلأَعْدَا وَمُمْضِيهَا
وَأَفَى بِهَا يَمَنَاً وَٱلنَّاسُ قَدْ لَقِيَتْ ... مِنْ بُسْرَ مَا قَدْ عَلَا مِنْهُ تَشَكِّيهَا
فَكَانَ قَاهِرَهُ فِيهَا وَنَاصِرَهَا ... عَلَى ٱلظَّلُومِ ٱلَّذِي أَجْرَى ٱلدِّمَا فِيهَا

شيخ من ابناء فرس لانَّ ابني عبيد الله بن العباس الذي كان عامل سيدنا علي على اليمن وفرَّ قبيل قدوم بسر كانا مختبئين في بيت امرأة من ابنائهم تعرف بابنة بزرج واستولى على اليمن

كل هذا فعله بسر بن ارطاة في زمن يسير وبمجرد الوعيد والتهديد ومنه يتضح لنا ان خروج بسر الى الحجاز واليمن بأمر معاوية لم يكن مفاجأة غير منتظرة من الحجازيين واليمانيين بل لا بد ان يكون معاوية قد سبق واستوثق من ولاء كثيرين من وجهاء هذين المصرين وأهل النفوذ فيهما كما ان عمال سيدنا علي ما كانوا يهربون من وجه بسر كلٌّ بدوره عن جبن أو خيانة ولكن لتقنهما بانَّ الناس ليسوا معهم بل اكثرهم قد كانوا من شيعة معاوية وعلى ارتباط معه واذا كان قد اغفل المؤرخون ذكر هذه الملاحظة فان وقائع الحال تثبتها والاَّ فما معنى ان تدين المدينة المنورة ومكة المكرمة والطائف وعموم الحجاز الى بسر وهو قادم عليهم بثلاثة آلاف مقاتل فقط ؟ وما معنى هرب عمال سيدنا علي عليه صلوات الله من وجه بسر وما منهم من يُشكُّ باخلاصه أو من كان يطمع بخير من معاوية وقد عرفناهم فيما بعد قد ثبتوا على ولاء سيدنا علي الى النهاية ؟ لاجرم ان معاوية اشتغل بدهائه كثيراً حتى استمال الناس اليه كما انَّ ما ذاع وشاع عن تخاذل اصحاب سيدنا علي قد كسر قلوب الناس وهيأها الى الخضوع لحكم معاوية

وكانت اعمال بسر تصل الى المسامع الحيدرية الشريفة في اوقاتها فيتألم عليه صلوات الله منها وكان يبذل كل ما يمكن ان يبذله راعٍ حكيم لرعيته من الحضّ على قتال هؤلاء الذين آلوا على انفسهم ان يبيتوا فساداً في بلاد الخلافة فلا يجد ملبياً وطالما قرع الاسماع بخطبه فما أثرت على تلك الافئدة التي تأكلها انقسامها على أنفسها وأبى سيدنا أمير المؤمنين ان يبطش بها بطشة الحاكم المطلق الذي يضرب العاصي بالمطيع ويسوقها بيد حديدية الى نصر خلافته . وما زال هذا حال أمير المؤمنين مع أصحابه في الكوفة حتى دخلها عبيد الله بن عباس عامله على اليمن وقد رأيناه قد هرب من وجه بسر ومعه سعيد بن نمران صاحب الخراج فلامهما عليه صلوات الله على تركهما اليمن لعدوهما وسار يتثاقل متضجراً الى المسجد الكوفي فدعا الناس الى الصلاة وصلى بهم ثمَّ صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثمَّ قال : « ماهي الاَّ الكوفة اقبضها وابسطها ، ان لم تكوني الاَّ أنت تهبُّ أعاصيرك ، فقبحك الله (وتمثل بقول الشاعر)

لعمر ابيك الخير ياعمرو انني ... على وضرٍ من ذا الاناء قليل

ثمَّ قال : « أنبئت بسراً قد اطلع اليمن ، واني والله لاظنُّ أنَّ هؤلاء القوم ، سيدالون منكم ، باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، وبمعصيتكم امامكم في الحقّ ، وطاعتهم امامهم

وَرَايَةُ ٱلْمُرْتَضَى قَدْ رَاحَ نَاشِرَهَا ... مِنْ بَعْدِ أَنْ بَاتَ ظُلْماً بِسْرُ طَاوِيهَا
وَوَطَّدَ ٱلْبَيْعَةَ ٱلْغَرَّا لِحَيْدَرَةٍ ... وَكَانَ بَيْعَةُ رَبِّ ٱلشَّامِ مُلْغِيهَا
وَهٰكَذَا حَمْلَةٌ صُغْرَى لَقَدْ بَلَغَتْ ... بِٱسْمِ ٱلْإِمَامِ مِنَ ٱلْأَعْدَا أَمَانِيهَا
فَكَيْفَ لَوْ كَانَتِ ٱلْأَمْيَالُ صَادِقَةً ... مِنْ حَوْلِ حَيْدَرَةٍ مَا ٱلْحِقْدُ فَاشِيهَا
تَٱللّٰهِ مَا كَانَ فِي كُلِّ ٱلْخِلَافَةِ مَنْ ... يَجْرَا عَلَيْهَا وَيَنْوِي انْ يُنَاوِيهَا
وَكَمْ رَأَيْنَا عَلِيّاً بَيْنَ أُمَّتِهِ ... يُرِيدُ تَوْحِيدَهَا عَطْفاً يُدَالِيهَا
فَكَانَ يَخْطُبُ فِيهَا وَهْوَ نَاصِحُهَا ... مُبَيِّناً شَرَّ مَا يَجْنِي تَرَاخِيهَا
لٰكِنْ رَأَى عَزَمَاتِ ٱلْقَوْمِ خَائِرَةً ... مِنْ حَوْلِهِ قَدْ تَنَاهَتْ فِي تَبَاطِيهَا
وَإِنَّ أَقْوَالَهُ مَا أَثْمَرَتْ ثَمَراً ... يَالِلْأَسَى بَيْنَ قَوْمٍ خَابَ دَاعِيهَا

في الباطل ، وباداتهم الامانة الى صاحبهم وخيانتكم ، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم ، فلو ائتمنت أحدكم على قعب ، لخشيت أن يذهب بعلاقته ، اللهمّ ، اني قد مللتهم وملوني ، وسئمتهم وسئموني ، فأبدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شراً مني ، اللهمّ ، مث القلوب كما يماث الملح في الماء ، أما والله ، لوددت أنّ لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم

هنالك لو دعوتَ أتاك منهم ... فوارس مثل أرمية الحميم

ثمّ نزل عليه صلوات الله عن المنبر والغضب ظاهر على وجهه الكريم فتنخى بعض الناس بكلماته فألف منهم حملةً بقيادة جارية بن قدامة السعدي فسيرها وراء بسر وكانت في ألفي مقاتل فشخصت الى البصرة ومنها سارت الى الحجاز فاليمن وعلم هناك «جارية» أنّ بسراً أصبح في بلاد بني تميم فستعاد اليمن الى حكم سيدنا علي وهربت شيعة عثمان الى الجبال واخذ جارية بعد ذلك بتعقب بسراً حتى أخرجه من اليمن والحجاز فعاد الى صاحبه معاوية وهو يفتخر بمن قتل من المسلمين بسيوف رجاله وبلغ عدد القتلى ما يقرب من ثلاثين الفاً وكان رجوعه في أوائل سنة ٤٠ للهجرة

ومن تامّل نجاح حملة « جارية » وهي لاتتجاوز الألفي مقاتل وانه بهذه الحملة القليلة استطاع ان يعيد الحجاز واليمن الى حكم أمير المؤمنين ظهر له ان تراخي أصحاب سيدنا علي في الكوفة وانقسامهم على انفسهم هو الذي قوّى معاوية وهيأه للخلافة وانهم لو كانوا على غير ما عرفناهم متضامنين مع أمير المؤمنين على نصرة الخلافة يطيعونه في السير الى معاوية ومحاربته منذ ظهور خديعة عمرو ابن العاص لأبي موسى الاشعري كما كان يلحّ عليهم لكان بلا جدال قد انتهى ذلك الشرّ وزال وخيم الأمن على ربوع الاسلام ولكن قدّر فكان ولا مردّ لقضاء الله

وكان سيدنا علي عليه صلوات الله متألماً مما فعله بسر بالمسلمين فكان يقول « اللهمّ ، انّ بسراً باع دينه بالدنيا ، وانتهك محارمك ، وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك ، اللهمّ ، فلا تمته حتى تسلبه عقله ، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار ، اللهمّ العن بسراً ، وليحلّ عليه غضبك ، ولتنزل به نقمتك ، وليصبه بأسك وزجرك الذي لاترده عن القوم المجرمين » ولقد

قَسَاءَهُ مَارَأَى فِيهَا وَمَا سَمِعَتْ   أُذْنَاهُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ عَنْ أَعَادِيهَا
وَمَا يُسِيءُ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُسِي   لِلشَّرِيعَةِ مَا يُؤْذِيهِ يُؤْذِيهَا

هجوم أبو غامد على الانبار

وَبَعْدَ أَنْ عَادَ بِسْرٌ عَنْ رُبَى يَمَنٍ   وَنَفْسُهُ لَمْ تَنَلْ مِنْهَا تَمَنِّيهَا(١)
رَأَى مُعَاوِيَةٌ أَنْ يُزْعِجَنَّ عَلِيًّا   فِي ٱلدِّيَارِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَ يَثْوِيهَا
بِحَمْلَةٍ مِنْ كُمَاةِ ٱلشَّامِ أَرْسَلَهَا   إِلَى ٱلْعِرَاقِ فَجَدَّتْ فِي مَغَازِيهَا
وَأَوْقَعَتْ بِبَنِي ٱلْأَنْبَارِ جَائِرَةً   فِي حَرْبِهَا وَٱسْتَطَالَتْ فِي تَعَدِّيهَا
فَٱغْتَاظَ حَيْدَرَةٌ مِنْ خَزْلِ صُحْبَتِهِ   دَعْوَى ٱلْجِهَادِ ٱلَّتِي أَمْسَى مُوَخِّيهَا
وَسَارَ وَٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ مُطَّلِبًا   أَرْضَ ٱلنُّخَيْلَةِ غَارِيَ ٱلنَّفْسِ رَاغِيهَا
وَقَدْ عَلَا رَبْوَةً عُلْيَا وَأَرْسَلَ مِنْ   أَلْحَاظِهِ شَرَرًا بَادٍ تَلَظِّيهَا

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء سيدنا علي عليه صلوات الله فان بسراً في نحو سنة ٤٥ للهجرة ذهب عقله فجُنّ فكان يهذي بالسيف ويقول اعطوني سيفاً أقتل به لا يزال يردّد ذلك حتى اتخذوا له سيفاً من خشب وكانوا يدنون منه المرفقة فلا يزال يضربها حتى يغشى عليه فلبث كذلك الى ان مات

(١) بعد ان عاد بسر من الحجاز واليمن مقهوراً غير منيل مولاه معاوية مآربه من تأييد بيعته على ذينك القطرين عاد معاوية الى رأي الذين اشاروا عليه من أصحابه بأن يقصد سيدنا أمير المؤمنين في العراق لينهي معه المشكلة رأساً امّا عليه وامّا له على انه أراد بادي بدء أن يهجم عود أمير المؤمنين فوفد الى العراق سرية بقيادة أبي غامد وهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي نسبة الى غامد وهي قبيلة من اليمن تنتمي الى الازد وكان زعيمها يلقب بغامد واسمه عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الازد وسمي غامداً لانه عالج شراً قد انتشر بين قومه فصلحه وتغمدهم بذلك فسموه غامداً . وقد روى سفيان بن عوف الغامدي عن هذه الغزوة التي غزا بها الانبار فكانت آخر قتال بين سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله وبين معاوية بن ابي سفيان قال : دعاني معاوية فقال اني باعثك في جيش كثيف ذي اداة وجلادة فالزم لي جانب الفرات حتى تمرّ ببلدة « هيت » فتقطعها فان وجدت بها جنداً لعلي فأغر عليهم والا فامضِ حتى تغير على الانبار وأهل المدائن فكأنك اغرت على الكوفة. واعلم يا سفيان ان هذه الغارة على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كلّ من له فينا هوىً منهم وتدعو الينا كلّ من خاف ان تدور الدوائر عليه . فعليك ان تقتل كل من لقيته ممن لا يكون من حزبك واخرب كل ما تمرّ عليه من القرى . واحرب الاموال فانّ حرب الاموال شبيه بالقتل وهي اوجع للقلب. قال سفيان : فخرجت من عنده فعسكرت وقام معاوية في أهل الشام فخطب فقال : ايها الناس ، انتدبوا مع سفيان بن عوف فانّه وجه عظيم فيه أجر ، سريعة اوبتكم ان شاء الله ثمّ نزل . فسرع الي نيف وستة آلاف

وصاح صوتاً جهيراً عنده اضطربت ... تلك النفوس التي التفريق مؤهيها
وقال : حمداً لرب ماسواه على الـ ... مكروه محمد اي الحمد أسديها
ثم الصلاة على الهادي أرددها ... بحرقة النفس أبغي أن تطفيها
وبعد قد جعل الله الجهاد لكم ... باباً لجنته يا تيه راجيها
والله سبحانه قد كان فاتحه ... للأولياء التي تسمو مآتيها
وإنه لباس للتقي قد ار ... تداه من ينشد الأخرى ويبغيها
وإنه درع ربي بل وجنته ... لمن يلاقي من الدنيا فواجيها
فمن غدا زاهداً فيه وتاركه ... ليطلب العيش تنعيماً وترفيها
فالله مكسيه أثواب المذلة والـ ... هوان يغمره بالشر ضافيها
وهو المديث فعلاً بالصغار وبالـ ... قماءة النائل التغيير راضيها
وقد غدا وهو ممنو بضربة إسـ ... هاب وأمسى سفيه القوم هاذيها
وقد أديلت بتضييع الجهاد حقو ... قه فما هو بالتهذار ملفيها
وسيم خسفاً وما ألفى له نصفاً ... من قومه وانثنى لوكاً للاكيها
ألا وإني قد ناديتكم لقتا ... ل الشام من بعد أن ساءت مآتيها
وكنت أدعوكم ليلاً لذا ونها ... راً دعوة بح بحاً صوت داعيها
وكنت أعلنها طوراً على ملأ ... منكم وطوراً عن الغوغاء أخفيها

مقاتل فسرت بهم طالباً الفرات حتى اذا ما وصلته لزمت شاطئه واغدوت السير حتى أمر بيلدة «هيت» فبلغ أهلها اني غشيتهم فقطعوا الفرات فررت بهاوليس فيها عريب كأنها لم تسكن قط فوطئتها حتى أمر بيلدة « صدوداء » وكان أهل هيت قصدوها ففروا من وجهي فلم الق بها أحداً فمضيت اقصد الانبار وكان اهلها قد بلغهم نبأي فخرج صاحب المسلحة الي فوقف لي فلم اقدم عليه حتى اخذت غلماناً من أهل القرية فقلت لهم اخبروني كم في الانبار من اصحاب علي قالوا كانوا اقرأ مسلحين لا يتجاوزون الخمساية ولكنهم قد تبددوا ورجع إكثرهم الى الكوفة ولا ندري كم بقي منهم فلعلهم لا يتجاوزون المئتين . قال سفيان : فاستبشرت وقسمت رجالي الى كتائب واخذت أبعثهم كتيبة باثر اخرى فيقاتلهم صاحب المسلحة والله ويصبر لهم ويطاردهم ويطاردونه في الازقة فلما رأيت ذلك انزلت اليهم نحواً من مئتين مقاتلاً واتبعتهم الخيل فلما حملت على رجال علي الخيل وامامها الرجال تمشي ما أمهلوا ان تفرقوا وقتل صاحبهم حسان في نحو ثلاثين رجلاً وحملنا ما كان في الانبار من

وَقُلْتُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَغْزُوكُمُ عَلَنَاً   هُبُّوا إِلَيْهَا ٱطْلُبُوهَا فِي مَثَاوِيهَا

وَٱللهِ مَا أُمَّةٌ فِي دَارِهَا غُزِيَتْ   إِلاَّ وَذُلَّتْ عَلَى أَيْدِي مُذِلِّيهَا

وَذَا أَخُو غَامِدٍ يَانَاسُ قَدْ وَرَدَتْ   أَنْبَارَنَا رَكْبُهُ وَٱلشَّرُّ حَادِيهَا

أَزَالَتِ ٱلْخَيْلَ ظُلْمَاً عَنْ مَسَالِحِهَا   وَأَهْلَكَتْ صَاحِبِي حَسَّانَ وَالِيهَا

وَقَدْ تَعَدَّتْ عَلَى ٱلأَعْرَاضِ تَهْتِكُهَا   مِنْ أَهْلِ مُسْلِمِهَا هَتْكَاً وَذِمِّيهَا

وَمَا نَجَتْ مَرْأَةٌ مِنْ هَتْكِ حُرْمَتِهَا   إِلاَّ بِمَا بَذَلَتْهُ مِنْ لآلِيهَا

وَلَمْ يَنَلْ وَاحِداً مِنْهَا بِفَعْلَتِهَا   شَرٌّ وَقَدْ أَمِنَتْ إِيذَاءَ مُؤْذِيهَا

فَلَوْ قَضَى مُسْلِمٌ مِنْ بَعْدِ ذَا أَسَفَاً   مَا كَانَ فِي قَوْمِهِ مِنْ مُسْتَلِيمِيهَا

بَلْ كَانَ عِنْدِي جَدِيراً بِٱلْمَنِيَّةِ إِذْ   تُخْفِي مَذَلَّتَهُ عَنْ عَيْنِ رَائِيهَا

إِنِّي لأَعْجَبُ أَيْمُ ٱللهِ مِنْ فِئَةٍ   عَلَى ضَلاَلَتِهَا شِمْنَا تَجَمُّعَهَا

ثُمَّ لأَعْجَبُ مِنْ بَادِي تَفَرُّقِكُمْ   عَنْ حَقِّكُمْ فِرْقَةٌ ذُو ٱلْحَزْمِ يُزْرِيهَا

قُبْحَاً لَكُمْ حِينَ صِرْتُمْ لِلْعِدَى غَرَضَاً   يُرْمَى إِذَا مَا رَمَى ٱلأَنْبَالَ رَامِيهَا

فَلاَ تَغِيرُونَ لٰكِنْ تُمْسِكُونَ هَوَا   نَاً صَابِرِينَ عَلَى عُدْوَى مُغِيرِيهَا

تُغْزَوْنَ غَزْواً وَلاَ تَغْزُونَهَا جُبُنَاً   بِأَنْفُسٍ قَدْ تَوَلَّتْ مُشْتَهِينِيهَا

وَٱللهُ يُعْصَى وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ وَتَرْ   ضَوْنَ ٱلْمُعَاصَاةَ فِي إِهْمَالِ عَاصِيهَا

فَإِنْ أَمَرْتُكُمُ هُبُّوا لِصَائِفَةٍ   قُلْتُمْ حَمَارَةُ قَيْظِ ٱلصَّيْفِ نَتَّقِيهَا

الاموال ثمَّ انصرفتُ . قال سفيان : فوالله ما غزوتُ غزاةً كانت أسلم ولا أقرَّ لعيون ولا أسرَّ للنفوس منها وبلغني انها ارعبت الناس آه

ومن هذه الرواية تعلم هول هذه الموقعة التي ازعجت سيدنا علي عند ما بلغه ما كان فيها من اعتداء ابن غامد على أهل الانبار حتى على النساء الذين جردهن من حليهنَّ واعتدى على عفافهنَّ وحرمتهنَّ سيان في ذلك المسلمة والمعاهدة . قالوا وقد قدم علج من أهل الانبار على سيدنا علي عليه صلوات الله فأخبره الخبر فنادى بالناس وسار بهم الى النخيلة خارج الكوفة ووقف فيهم خطيباً فقال:

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، والصلاة والسلام على خاتمة النبيين ، أما بعد ، فانَّ الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة ، فمن تركه رغبةً عنه ، ألبسه الله ثوب الذلّ ، وشمله البلاء ، وديّث بالصغار والقماءة ، وضرب على قلبه بالاسهاب ، وأديل الحق منه بتضييع الجهاد ، وسيم الخسف ، ومنع

وَإِنْ أَمَرْتُ شِتَاءً بِالْمَسِيرِ أَجَبْتُمْ ... صَبَارَتُهُ نَأْبَى تَلَقِّيهَا

فَمِنْ شِتَاءٍ إِلَى صَيْفٍ وَعَكْسِهِمَا ... تُمَاطِلُونِي بِحَرْبٍ رُمْتُ أُلْظِيهَا

فَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ وَحَرِّ ... الصَّيْفِ كُنْتُمْ إِنْ ثَارَتْ مُفِرِّيهَا

فَيَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ الْخَائِرِينَ قُوًى ... وَلَا رِجَالٌ تُقَاوِي مَنْ يُقَاوِيهَا

لَكُمْ حُلُومُ بَنِيكُمْ مَعْ عُقُولِ نِسَا ... كُمْ حَبَّذَا لَوْ خُبِئْتُمْ فِي مَخَابِيهَا

وَدِدْتُ لَوْ أَنَّنِي مَا كُنْتُ أَعْرِفُكُمْ ... وَلَا رَأَيْتُ بِكُمْ بَلْوَى أُعَانِيهَا

فَرُبَّ مَعْرِفَةٍ قَدْ أَوْرَثَتْ نَدَمًا ... وَأَعْقَبَتْ سَدَمًا مِمَّا يُتَالِيهَا

لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي اللَّهُ قَاتَلَكُمْ ... شَحْمًا وَنَفْسِيَ غَيْظًا فَهُوَ مُوهِيهَا

جَرَّعْتُمُونِيَ تَهْمَامِي عَلَى نُغَبٍ ... أُسْقِيتُهَا وَأَنَا أَلْحُو مُسَقِّيهَا

وَبِالْمُعَاصَاةِ وَالْخِذْلَانِ رَأْيِيَ قَدْ ... أَفْسَدْتُمُ زِدْتُمُ خِزْيًا وَتَسْفِيهَا

حَتَّى رَمَتْنِي قُرَيْشٌ بِالْجَهَالَةِ فِي ... صِنَاعَةِ الْحَرْبِ قَالَتْ لَسْتُ أَدْرِيهَا

وَيْلُ امِّهَا هَلْ فَتًى مِنْهَا أَشَدُّ مِرَا ... سًا فِي الْحُرُوبِ إِذَا تَلْظُو لَوَاظِيهَا

وَهَلْ فَتًى قَدْ قَضَى أَعْوَامَهُ بِظِلَا ... لِ الْمَشْرَفِيَّةِ يَهْنَا فِي تَظَلِّيهَا

مِثْلِي أَنَا فَارِسُ الْهَيْجَا إِذَا اشْتَبَكَتْ ... فِيهَا الصُّفُوفُ وَهَلْ غَيْرِي مُجَلِّيهَا

النصف ، ألا واني قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً واعلاناً ، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غـزي قوم قطّ في عقر دارهم الاّ ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنّت عليكم الغارات ، وملكت عليكم الاوطان ، وهذا أخو غامد قد وردت خيله الانبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكري ، وأزال خيلكم ، ولقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة ، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ووعثها ، ما تمتنع منه الاّ بالاسترجاع والاسترحام ، ثمّ انصرفوا وافرين ، ما نال رجلاً منهم كلمة ، ولا أريق له دم ، فلو أنّ امرءاً مسلماً ، مات من بعد هذا اسفاً ، ما كان به ملوماً ، بل كان به عندي جديراً ، فيا عجباً والله ، يميت القلب ، ويجلب الهمّ ، اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرّقكم عن حقكم ، فقبحاً لكم وترحاً ، حتى صرتم غرضاً يرى ، يغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون ، اذا امرتكم بالسير اليهم في أيام الحرّ ، قلتم حمّاره القيظ أمهلنا يتجه عنا الحرّ ، واذا أمرتكم بالسير اليهم في الشتاء ، قلتم هذه صبّارة القرّ أمهلنا ينسلخ عنا البرد ، كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ ، فاذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرون ، فأنتم والله من السيف افرّ ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الاطفال ، وعقول ربات الحجال ، لوددت أني لم أركم ، ولم اعرفكم ، معرفة والله جرّت ندماً ، واعقبت

بِهَا نَهَضْتُ وَمَا ٱلْعِشْرُونَ بَالِغُهَا ... مِنَ ٱلْحُؤُولِ ٱلَّتِي قَدْ كُنْتُ طَاوِيهَا

وَهَا أَنَا ٱلْيَوْمَ فِي ٱلسِّتِّينَ أَبْسَلُ مَنْ ... خَاضَ ٱلْمَعَامِعَ أَوْ لَاقَى مَذَاكِيهَا

لٰكِنَّ مَنْ لَمْ تُطِعْهُ ٱلنَّاسُ لَيْسَ لَهُ ... رَأْيٌ بِهِ لِٱعْتِزَازِ ٱلْحَقِّ يُمْشِيهَا

وَكَانَ يَهْدِرُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ حَيْدَرَةٌ ... بِمِثْلِ ذَا يَقْرَعُ ٱلْأَسْمَاعَ يُؤْذِيهَا

بِخُطْبَةٍ مَا ٱلدَّرَارِيُّ ٱلزُّهْرُ سَاطِعَةٌ ... تُرَصِّعُ ٱلْأُفْقَ تَدْنُو مِنْ دَرَارِيهَا

يَجُولُ فِيهَا لِسَانٌ قَدْ تَعَوَّدَ أَنْ ... يَجْتَاسَ أَنْفُسَ مُصْغِيهَا وَوَاعِيهَا

«فَكَهْرَبَ» ٱلنَّاسَ فِي سَامِي خِطَابَتِهِ ... فَأَصْبَحَتْ كُتْلَةً فِي «كَهْرَبَائِيهَا»

وَصَاحَ صَائِحُهَا هَيَّ بِنَا لِنُسِلَا ... قِي مَعْ خَلِيفَتِنَا ٱلْأَعْدَا وَنُرْدِيهَا

وَهَمَّ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْطَالِ حَيْدَرَةٌ ... إِلَى ٱلشَّآمِ سَرِيعاً كَيْ يُرَبِّيهَا

فَعَاجَلَتْهُ ٱلْمَنَايَا وَٱلْقَضَاءُ قَضَى ... عَلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ ٱلدُّنْيَا لِأَهْلِيهَا

اجمال الحال

مِنْ بَعْدِ خَيْبَةِ آمَالِ ٱلْجَمَاعَةِ بِٱلتَّـ ... ـحْكِيمِ بَاتَتْ وَنَارُ ٱلشَّرِّ تَكْوِيهَا(١)

وَمَرَّتِ ٱلْحِجَجُ ٱلسُّوءَى ثَلَاثَتُهَا ... عَلَى ٱلْخِلَافَةِ فِي أَقْسَى دَوَاهِيهَا

فَلِلْخَوَارِجِ فِي أَرْضِ ٱلْعِرَاقِ حُرُو ... بٌ لَا ٱنْقِضَاءَ لَهَا إِبْلِيسُ مُلْظِيهَا

سدماً ، قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً ، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً ، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان ، حتى لقد قالت قريش ان ابن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لاعلم له بالحرب ، لله ابوهم ، وهل احد منهم أشد لها مراساً ، واقدم منها مقداماً مني ؟ لقد نهضت بها وما بلغت العشرين ، وها أنا قد ذرفت على الستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع» آه

ولما انتهى سيدنا علي عليه صلوات الله من خطابه تحمس الناس وقد رأوا أن عدوهم قد دنا منهم وتقدموا منه طائعين ملبين فأمرهم ان يستعدوا للمسير معه الى الشام لنهو هذه المشكلة على شفار السيوف ولكن لسوء الحظ ونكد الطالع أبت الأقدار ان تتم هذه الحملة اذ فجع العالم الاسلامي بالمصاب الاكبر بمقتله عليه صلوات الله على ما سترى ...

(١) اجملنا هنا خلاصة الحالة التي وصلت اليها الخلافة في السنوات الثلاث التي تلت التحكيم وذكرنا من اسبابها ما فيه الكفاية في الحواشي السابقة واهمها اباء المرتضى عليه صلوات الله ان يرشو الناس باموال المسلمين ويميز بعضهم على بعض فخرجت عليه الخوارج بحجة قبوله التحكيم وقد علمنا ان المرتضى لم يكن له في التحكيم رضى وان هؤلاء الخوارج هم الذين اصروا على التحكيم وأبوا الا توقيف القتال مع معاوية بينما كان يرى الاشتر النصر داني القطوف لو امهلوه ساعة واحدة

وَفِي ٱلشَّآمِ أَعَادٍ غَيْرُ غَافِلَةٍ   عَنِ ٱلْخِلَافَةِ بِٱلأَرْزَاءِ تَرْمِيهَا

وَلِلْمَطَامِعِ تَأْثِيرٌ وَكَانَ أَمِيـــرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلأَطْمَاعِ آبِيهَا

سَوَّى ٱلْخَلِيفَةُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِهَا   أَعْيَانَهَا لَمْ يُمَيِّزْ عَنْ أَدَانِيهَا

كَانَتْ جَمِيعاً لَدَى ٱلشَّرْعِ ٱلشَّرِيفِ سَوَاءً بِٱلْحُقُوقِ فَلَمْ تَقْبَلْ تَسَاوِيهَا

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ يَأْبَى أَنْ يَجُوزَ حُدُودَ ٱلشَّرْعِ كَيْمَا رَعَايَاهُ يُرَاضِيهَا

فَكَانَ يُنْفِذُ فِي هٰذَا شَرِيعَةَ طَـــهَ مِثْلَمَا أُنْزِلَتْ وَحْياً فَحَاوِيهَا

وَكَانَ فِي كُلِّ إِسْبُوعٍ يُفَرِّغُ بَيْـــتَ ٱلْمَالِ بِٱلأُعْطِيَاتِ ٱلْكُثْرِ يُولِيهَا

ثُمَّتَ يُقِيلُ بِذَاكَ ٱلْبَيْتِ مُبْتَهِجاً   بِخَلْوَةٍ مِنْ حِطَامِ ٱلأَرْضِ مُخْلِيهَا

يَقُولُ فَلْتَخْدَعِ ٱلصَّفْرَاءُ غَيْرِيَ وَٱلْـــبَيْضَا سِوَايَ فَإِنِّي لَسْتُ شَاهِيهَا

لٰكِنَّهُ كَانَ يُعْطِي ٱلنَّاسَ أَجْمَعَهَا ٱلأَمْوَالَ سِيَّانِ عُلْوِيهَا وَسُفْلِيهَا

وَلَا يُحَاوِلُ إِرْشَاءَ ٱلْوُجُوهِ بِهَا   حَاشَاهُ لَمْ يَكُ بِٱلأَمْوَالِ يَرْشِيهَا

حَتَّى قُرَيْشُ أَبَى إِبْلَاغَ سَادَتِهَا   مِنْ جَاهِ دَوْلَتِهِ ٱلْعُلْيَا أَمَانِيهَا

وَإِنَّ عُشَّاقَ صَفْرَاءِ ٱلنُّضَارِ وَبَيْـــضَاءِ ٱللُّجَيْنِ أَبَتْ إِلَّا تَصَبِّيهَا

كَانَتْ تُرِيدُ عَلِيّاً لَا لِحِكْمَتِهِ   وَعَدْلِهِ بَلْ لِكَيْ بِٱلْمَالِ يُغْنِيهَا

وَكَانَ كُلُّ زَعِيمٍ يَرْتَجِي غُنُماً   مِنَ ٱلْخِلَافَةِ أَوْ يُمْسِي مُنَاوِيهَا

وَٱلنَّاسُ إِنْ طَمِعَتْ بِٱلْحَاكِمِينَ رَجَتْـــهُمْ أَنْ يَكُونُوا كَمَا شَاءَتْ مُمَيِّزِيهَا

وَإِنْ أَبَتْ دَوْلَةٌ تَمْيِيزَ مَنْ طَمِعُوا   بِهَا تَوَلَّوْا وَأَمْسَوْا مُسْتَمِيزِيهَا

وَذَاكَ شَأْنُ عَلِيٍّ مَعْ خَوَارِجِهِ   وَذَاكَ سِرُّ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ يُنْمِيهَا

وهاجم جيش معاوية الذي كانت قد خارت عزائمه في موقعة صفين . اما الذين لم يخرجوا على سيدنا علي وظلوا على ولائه فكانوا متراخين عن نصرته متهاونين في تلبية أوامره يسوفونه ويماطلونه لانه كان يدعوهم الى الجهاد معه بنية نصرة الحق وثواب الآخرة وهم من أهل الدنيا يريدون خيراتها ويطمعون بها وكانوا يسمعون عن الشام ما ينال أصحاب معاوية من خيرات دنياهم فطمعوا بمثلها وهيهات لابن أبي طالب عليه صلوات الله ان يمالئهم على رغباتهم ويعمل على مرضاتهم فيغضب الله ويتعدى حدود الشريعة السمحاء . وهكذا كانت سني سيدنا علي في العراق سني جهاد واستشهاد الله يعلم ما دخل على نفسه الشريفة فيها من الاوصاب والاوجاع ونقدر أن نلم ببعض الآلام التي كان يعانيها من

كَانَتْ تَحُجُّ عَلِيّاً بِٱلْحُكُومَةِ وَهْـــيَ دُونَهُ طَلَبَتْهَا وَهُوَ جَافِيهَا

وَكَانَ عِصْيَانُ أَهْلِ ٱلشَّامِ يُطْمِعُهَا   وَأَصْبَحَتْ وَهُوَ بِالشَّنْآنِ يُغْرِيهَا

وَٱلْمُرْتَضَى كُلَّمَا دَاوَى بِأُمَّتِهِ   جِرَاحَةً نَغَرَتْ أُخْرَى تُضَاهِيهَا

وَكَانَ صَاحِبُنَا فِي ٱلشَّامِ يُزْعِجُ أَمْـــصَارَ ٱلْخِلَافَةِ غَرْبِيهَا وَشَرْقِيهَا

فَمِصْرُ قَدْ سَادَهَا عَمْرٌو وَكَانَ كَمَا   بَغَى عَلَى رَغْمِ أَنْفِ ٱلدَّهْرِ وَالِيهَا

وَبِسْرُ لَمْ يَتْرُكْ مِنْ شَرِّهِ يَمَناً   وَلَا ٱلْحِجَازَ فَأَمْسَى ٱلْبُؤْسُ فَاشِيهَا

وَعَمَّتِ ٱلْحَرْبُ أَطْرَافَ ٱلْخِلَافَةِ طُـــرّاً وَٱلْمَصَائِبُ نَالَتْ كُلَّ مَنْ فِيهَا

لَوْلَا عِنَايَةُ رَبِّي بِٱلْحَنِيفَةِ لَمْ   تَسْلَمْ خِلَافَتُهَا مِنْ سَطْوِ عَادِيهَا

وَقَدْ تَحَكَّمَتِ ٱلْفَوْضَى بِأَرْبُعِهَا   وَٱلظُّلْمُ حَلَّ بِقَارِيهَا وَبَادِيهَا

وَسَاءَتِ ٱلْحَالُ سُوءاً لَا صَلَاحَ لَهُ   وَلَا مَسَالِكُ إِصْلَاحٍ يُنَاجِيهَا

وَمَلَّتِ ٱلنَّاسُ هَاتِيكَ ٱلْحُرُوبَ وَمَا   كَانَتْ تَجُرُّ عَلَيْهَا مِنْ دَوَاهِيهَا

وَمَا دَرَتْ مُوجِباً يَدْعُو لِسَفْكِ دِمَا   ءِ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلَّتِي فَاضَتْ مَجَارِيهَا

وَمِثْلَمَا كَانَ طَـهَ مَعْ أُمَيَّةَ أَمْـــسَى ٱلْمُرْتَضَى مَعَهَا يَقْلُوهُ قَالِيهَا

وَمَا مُعَاوِيَةٌ فِي حَرْبِ حَيْدَرَةٍ   وَقَدْ تَمَادَى بِهَا مَا ٱنْفَكَّ يُورِيهَا

إِلَّا مِثَالُ أَبِي سُفْيَانَ وَالِدِهِ   مَعَ ٱلنُّبُوَّةِ فِي مَاضِي مَغَازِيهَا

أَعْيَتْ أُمَيَّةُ عَنْ مَحْوِ ٱلْهِدَايَةِ وَٱلـــرَّحْمٰنُ مُثْبِتُهَا مُعْلِي مُمَجِّيهَا

لٰكِنْ خِلَافَتُهَا قَدْ حَوَّلَتْهَا إِلَى   مُلْكٍ عَضُوضٍ وَنَالَتْهُ بِأَيْدِيهَا

نُبُوَّةُ ٱلْمُصْطَفَى تَمَّتْ بِذَاكَ كَمَا   قَدْ كَانَ صَلَّى عَلَيْهِ ٱللهُ مُنْبِيهَا

خطبه الكثيرة التي كان يدعو بها الناس الى نصرته وهم متهونون متقاعسون ورجال معاوية يمونون في امصار الخلافة فساداً حتى ملكوا مصر والحشوا في الحجاز واليمن وقد يدعوا مصراً من امصار الخلافة لم ينالوه بأذى فاستحكمت الفوضى وعم البلاء واصبحت الناس ولا تعرف لها فرجاً من هذا المصاب العميم الشامل . ومن عجائب ما اعاد التاريخ نفسه فكان سيدنا علي وصحبه واهل الشام يحاربون خلافته كما كان المصطفى واصحابه مع كفار قريش يحاربون نبوته وكان معاوية للمرتضى كما كان ابوه ابو سفيان لمحمد . والله سبحانه نصر النبوة على اعدائها وسمح للخلافة ان تتداعى وتتحول الى ملك عضوض في أيدي معاوية وبني أمية لامر يريده الله وقد سبق وانبأ عن ذلك المصطفى عليه الصلاة والسلام

المؤامرة على أمراء المسلمين

عَمَّتْ نُفُوسَ جَمِيعِ ٱلْمُسْلِمِينَ تَبَاً ... رِيحُ ٱلْحُرُوبِ ٱلَّتِي عَمَّتْ عَوَادِيهَا
فَأَصْبَحَتْ ضَجِرَاتٍ غَيْرَ مُبْشِرَةٍ ... بِمَا مِنَ ٱلْغِيَرِ ٱلشَّتَّى يُنَجِّيهَا
وَسَاوَرَتْهَا كُرُوبٌ غَيْرُ نَازِحَةٍ ... عَنْهَا وَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تُعَانِيهَا
فَجُنَّ مِنْ أُمَّةِ ٱلْهَادِي ثَلَاثَةُ أَشْـ ... ـخَاصٍ لِتَشْلَتِهَا مِمَّا يُؤْذِيهَا
ثَلَاثَةٌ مِنْ بَنِي ٱلْإِسْلَامِ قَدْ هَوِسَتْ ... عُقُولُهُمْ وَتَنَاءَتْ عَنْ تَرَوِّيهَا
هُمُ ٱبْنُ مُلْجَمٍ مَعْ عَمْرِو ٱبْنِ بَكْرٍ وَعَبْـ ... ـدِ ٱللهِ كَانُوا لِذِي ٱلْبَلْوَى أَثَافِيهَا
رَأَوْا ٱلشُّرُورَ ٱلَّتِي شَاعَتْ مَصَائِبُهَا ... فِي ٱلنَّاسِ لَا شَيْءَ غَيْرُ ٱلْقَتْلِ يُنْهِيهَا
وَقَدْ قَضَوْا أَنَّ عَمْراً مَعْ مُعَاوِيَةٍ ... مَعَ ٱلْوَصِيِّ لَقَدْ كَانُوا مُذِيعِيهَا
وَإِنَّ قَتْلَهُمُ تُفْضِي لِرَاحَةِ خَلْـ ... ـقِ ٱللهِ وَٱللهُ يَرْضَى عَنْ مُؤَدِّيهَا
تَآمَرُوا بِحِمَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ عَلَى ... جِنَايَةٍ كَانَ بَعْلَزْبُولُ مُوحِيهَا
كَانُوا بِمَكَّةَ تَحْوِيهِمْ مَعَاهِدُهَا ٱلْـ ... ـقُدْسِيَّةُ ٱلْكَاسِبُ ٱلرِّضْوَانَ آتِيهَا
وَكُلُّهُمْ كَانَ مَجْذُوباً أَخَا هَوَسٍ ... يُرِيدُ زُلْفَى مِنَ ٱلْخَلَّاقِ يَقْنِيهَا
بِٱلْقَتْلِ مَا كَانَ قَتْلُ ٱلنَّاسِ لَوْ رَشَدُوا ... يُثَابُ آتِيهِ بِٱلْجَنَّاتِ يَثْوِيهَا

---

(١) ثلاثة من الخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي عليه صلوات الله ظلماً وعدواناً لانه وافقهم على التحكيم الذي أكرهوه عليه هالهم بطش أمير المؤمنين بذويهم وامثالهم من الخوارج في أطراف العراق ولا سيما في موقعة النهروان وهالهم ما سمعوه من هجوم جيوش الشام على امصار الخلافة والعوث فيها فساداً ذقرّوا على اتيان عمل كبير ينقذون به الممالك الاسلامية من الفوضى التي استحكمت فيها بدسائس معاوية على ما زعموا ولا يزال صنيع هؤلاء المجرمين الثلاثة سراً من اسرار التاريخ الاسلامي ما استطاع مؤرخ مدقق من المؤرخين يكشف عنه الغطاء

ان اسماء هؤلاء الثلاثة الذين تآمروا على قتل سيدنا علي ومعاوية وعمرو بن العاص غيلةً في صبيحة يومٍ واحدٍ معروفة فهم عبد الرحمن بن ملجم صاحب سيدنا علي والبرك بن عبدالله التميمي صاحب معاوية وعمرو بن بكر التميمي صاحب بن العاص . نعم عرفنا هؤلاء المجرمين الفوضويين وعرفنا ايضاً انهم من الخوارج وقد اجتمعوا في الكعبة في موسم الحج حجاجاً في حجة ٣٩ للهجرة وتعاهدوا على قتل اولئك الامراء . ولكن هل كانت مؤامرتهم من عند انفسهم ام كانوا مدفوعين اليها من جمعية فوضوية سرية ؟ هذا ما لم يبتّ به حكماً أحد المؤرخين . وهل كان اجتماع هؤلاء الاشقياء صدفةً في موسم الحج في مكة المكرمة فخطر لهم هناك خاطر البطش بالامراء أم قصدوا الحج على هذه

عَابُوا ٱلثَّلَاثَةَ مَا ٱسْتَثْنَوُا ٱلْفَضِيلَ وَلَا ... هُمُ مَيَّزُوا مُحْسِنِيهَا مِنْ مُسِيئِيهَا

كَلَّا وَلَا ذَكَرُوا فِي مَكَّةٍ قِصَصًا ... مَا كَانَ مِنْ أَحَدٍ فِي ٱلنَّاسِ نَاسِيهَا

نَسُوا حَدِيثَ أَبِي سُفْيَانَ وَهُوَ عَدُ ... وٌّ لِلنُّبُوَّةِ يَسْعَى فِي تَلَاشِيهَا

يَسْتَنْفِرُ ٱلنَّاسَ مِنْ أَقْصَى ٱلْقِفَارِ لِمَلْـ ... ـقَى ٱلْمُسْلِمِينَ جُمُوعًا كُلٌّ مُحْصِيهَا

كَمَا نَسُوا ٱلْمُرْتَضَى إِذْ كَانَ أَبْسَلَ مَنْ ... لَاقَى قُرَيْشًا حَدِيدَ ٱلنَّفْسِ قَاهِيهَا

إِنَّ ٱلْحَنِيفَةَ لَوْلَا ذُو ٱلْفِقَارِ وَعَوْ ... نُ ٱللهِ مَا قَهَرَتْ يَوْمًا مُلِدِّيهَا

وَإِنَّ أَعْمَالَ رَبِّ ٱلْفَضْلِ حَيْدَرَةٍ ... فِيهَا لَكَا ٱلشَّمْسِ فِي زَاهِي تَلَالِيهَا

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعُمْيُ نُورَ ٱلشَّمْسِ جَاهِلَةً ... لَهَا ٱلضِّيَاءُ ٱلَّذِي يُلْفِيهِ رَائِيهَا

وَٱلرُّمْدُ قَدْ تَتَأَذَّى مِنْ أَشِعَّتِهَا ٱلْـ ... ـزَّهْرَا فَتَشْكُو وَلَٰكِنْ مِنْ تَأَذِّيهَا

وَٱلشَّمْسُ تَبْقَى كَمَا كَانَتْ مُلَأْلِئَةً ... بِهَا ٱلْبَرَايَا إِلٰهُ ٱلْعَرْشِ يُحْيِيهَا

الفكرة السوداء ؟ هذا ايضاً لم أجد من ذكره وفي الاخير من نتيجة هذه المؤامرة بعد تنفيذها قد يتسرب بلنفس الباحث المدقق شكٌّ بما أراد المؤرخون ان يثبتوه من قصر الجريمة على المتآمرين انفسهم دون سواهم اذ راينا ابن ملجم عليه لعنة الله والناس اجمعين الى يوم الدين قد فتك بسيدنا علي عليه صلوات الله ولكن راينا البرك صاحب معاوية يضربه بسيفه على أليته وهي أبعد المواضع من الخطر على الحياة في جسم الانسان وراينا عمراً بن العاص يمرض أو تمارض في ذلك اليوم فيرسل من ينوب عنه في الصلاة فيقتل . أفلا يجوز بعد ظهور هذه النتيجة ان يخطر الى أبله مني ان عمراً بن العاص داهية العرب كان صاحب تلك المؤامرة أو على الاقل كان و تماً على سرها ؟ وأنه أحكم الحيلة فارسل ثلاثة في وقت واحد للتظاهر بالفتك بثلاثتهم مخافة ان يرسل واحداً لسيدنا علي عليه صلوات الله وحده فيقتله وتظهر يد الامويين في مقتله ولو على سبيل الشبهة فيقوم الناس لمطالبة معاوية والامويين بدم سيدنا علي كما قاموا لمطالبة سيدنا علي وأصحابه بدم عثمان . وان عمراً بن العاص أوصى صاحب معاوية ان لا يفتك به على انه لم يخبر معاوية قائلاً في نفسه اذا هلك هذا ايضاً دنا للخلافة . وما يدعوني الى الاشتباه بعمرو ابن العاص في هذه الجريمة هو أنَّ صاحبه الذي تولى قتله لم يتوانَ عن قتل من ناب عنه بالصلاة اذ لا يعقل ان الرجل الذي أخذ على عاتقه ان يقتل عمراً ويريح أمة محمد عليه الصلاة والسلام من شره على ما كان يزعم قد اقام في « الفسطاط » من محرم الى رمضان ولم يعرف شخص الرجل الذي كان يريد قتله حتى يقتل شخصاً آخر في اليوم المضروب لمجرد انه اقبل على المسجد يريد أن يصلي بالناس عوضاً عنه . ان المؤرخين يصورون لنا هؤلاء المجرمين ذوي هوس في الدين وانَّ هوسهم هو الذي حملهم على اتيان جريمتهم والمهووس في دينه يبقى ولا شكّ وهو يريد ان يرتكب جريمته لمحض ارضاء ربه والتزلف اليه عزّ وجلّ أن يقدم على قتل شخص يعتقد أنَّ في قتله مثوبة من غير ان يتحقق من شخصيته . كما اننا نعرف من التاريخ انَّ عمراً بن العاص كان يصلي بالناس في الفسطاط في كل يوم

كَذَا ٱلإِمَامُ وَإِنْ عَمَّهُ ٱلْبَصَائِرِ أَوْ   مَرْضَى ٱلْقُلُوبِ دَعَتْهُ ٱلْيَوْمَ مُؤْذِيهَا

فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِي أَوْجِ سُؤْدُدِهِ   بَعْدَ ٱلرَّسُولِ أَجَلَّ ٱلنَّاسِ تَوْجِيهَا

لٰكِنَّ مِنْ أَيْنَ يَدْرِي ذَا عَتَاهِيَةُ ٱلإِ   سْلَامِ فِيمَا رَوَيْنَا عَنْ تَنَادِيهَا

أَحْصَتْ مَعَ ٱلْمُجْرِمِينَ ٱلْمُرْتَضَى سَفَهاً   ثُمَّ عَلَيْهِ قَضَتْ بِٱلْمَوْتِ تَعْمِيهَا

صَاحَ ٱبْنُ مُلْجِمٍ شَرُّ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِهَا: إِنِّي لِحَيْدَرَةٍ أُرْدِيهِ تَجْزِيهَا

وَصَاحَ فِي ٱلْحَالِ عَبْدُ ٱللهِ صَيْحَتَهُ   فَقَالَ: أَكْفِي ٱلْبَرَايَا مِنْ مُعَاوِيهَا

وَصَاحَ عَمْرُو ٱبْنُ بَكْرٍ قَائِلاً: وَأَنَا   عَلَيَّ قَتْلَةُ عَمْرٍو لَا أُوَنِّيهَا

وَقَدْ أَقَرَّتْ عَلَى يَوْمٍ تُنَفِّذُ فِيـــهِ   بِيَ ٱلْجَرَائِمَ تَنْفِيذاً وَتُمْضِيهَا

لِسَبْعِ عَشْرَةَ مِنْ شَهْرِ ٱلصِّيَامِ لِعَا   مِ ٱلأَرْبَعِينَ وَقَالَتْ: فِيهِ نَجْنِيهَا

ثُمَّ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ ٱلْعُلْيَا تَمَدَّحَتْ   أَنْ لَا تَهَابَ ٱلْمَنَايَا فِي مَسَاوِيهَا

جمة فلا يحتمل أنّ المجرم الذي تدم الفسطاط لا لعمل سوى قتله ان يتم بضع شهور في هاتيك المدينة ولم يشهد الصلاة في « جامع عمرو » ويصلي مع الجماعة فيتعرّف شخصية عدوه المريد دمه كما لا يعقل ايضاً انه في كل هاتيك المدّة لم ير عمراً بن العاص متجولاً في شوارع الفسطاط للاشراف على البلد . اني والحق يقال لم اقف فيما امامي من كتب التاريخ على رأيٍ كهذا ولم أجد المؤرخين يتهمون بهذه المؤامرة عمراً بن العاص أو عمراً ومعاوية معاً ولكن نتيجة المؤامرة أدّت بي الى هذا الخاطر فقد أكون فيه مخطئاً واسأل من يقرأ علويتي المباركة وهو على علم بشيء من اسرار هذه المؤامرة ان يوافيني بما يعلم خدمةً للتاريخ

أما حادثة المؤامرة هذه فكلّ ما اتصل بي منها انها جرت كما يأتي: اجتمع في مكة كرمها الله ثلاثة من الخوارج في موسم الحج سنة ٣٩ للهجرة فتذاكروا في حالة المسلمين التعسة والفوضى السائدة على ديارهم فذكروا هجوم جيش معاوية على مصر فالبصرة فالحجاز فاليمن واسفوا لما جرى من القتل والنهب في هذه الامصار ثمّ ذكروا علياً ومعاوية وعمراً بن العاص فعابوهم وعابوا اعمالهم ومطامعهم بغير استثناء فما ذكروا فضيلة سيدنا علي عليه صلوات الله ولا خدماته الكبرى للاسلام ولا تفانيه في سبيل نصرة القرآن ولا احقيته بالخلافة بل ضموه مع صاحبيه وجموعهم جميعاً في صعيدٍ واحدٍ وذكروا أهل النهروان وهم الخوارج الذين بطش سيدنا علي بهم فترحموا عليهم وقالوا بعد ذلك : لو أنا بذلنا أنفسنا الله عزّ وجلّ فأتينا أئمة الضلال (كذا) وطلبنا غرّتهم لأرحنا العباد والبلاد وثأرنا باخواننا الشهداء بالنهروان . وهكذا تعاقدوا عند انقضاء الحجّ سنة ٣٩ للهجرة على تنفيذ جريمتهم فتعهد عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله بقتل سيدنا علي عليه صلوات الله والبرك بن عبد الله التميمي بقتل معاوية وعمرو بن بكر التميمي بقتل عمرو بن العاص وضربوا لجرائمهم موعداً واحداً هو صبيحة يوم ١٧ رمضان من السنة التالية ٤٠ للهجرة واقسموا على الكعبة بان ينفذوا جرائمهم بالدقة والاحكام وانهم قد سموا

وَفَرَّقَتْهَا اللَّيَالِي فِي مَنَاهِجِهَا ... وَالإِثْمُ سَائِقُهَا وَالشَّرُّ تَالِيهَا
سَارَتْ تُيَمِّمُ مِصْراً وَالشَّامَ مَعَ الْـ ... ـعِرَاقِ تَطْلُبُ عَنْ بَغْيٍ أَضَاحِيهَا

موتورة النهروان

مَلِيحَةٌ مِنْ بَنِي تَيْمِ الرِّبَابِ لَهَا ... مِنَ الْمَحَاسِنِ زَاهِيهَا وَرَاضِيهَا(١)
إِذَا نَضَتْ عَنْ مُحَيَّاهَا بَرَاقِعَهَا ... شَعَّ السَّنَاءُ فَغَشَّى عَيْنَ رَائِيهَا
فَوَجْهُهَا الْبَدْرُ لَكِنْ لَيْسَ تَنْقُصُ مِنْ ... لأْلاءِ طَلْعَتِهَا الزَّهْرَا لَيَالِيهَا
وَقَدْ تَدَلَّتْ حَوَالَيْهِ ضَفَائِرُهَا الْـ ... ـسُّودَا وَلَوْ نُشِرَتْ أَدْجَتْ دَيَاجِيهَا
نَجْلاءُ عُشَّاقُهَا يَا طَالَمَا سُحِرَتْ ... بِلَحْظِهَا مَا رُقَى الْكُهَّانِ تَرْقِيهَا
لَمْيَاءُ تَبْسِمُ عَنْ حُلْوِ الرُّضَابِ وَكَمْ ... قَدِ اشْتَهَتْ رَشْفَهُ الْعُشَّاقُ مِنْ فِيهَا
وَعُنْقُهَا صِيغَ مِنْ مَحْضِ اللُّجَيْنِ فَمَا ... يَحْتَاجُ لِلْحُلْيِ لَكِنْ كَانَ حَالِيهَا

سيوفهم حتى تكون ضرباتهم قاضية على اولئك الامراء لا محالة وتفرقوا بعد ذلك فقصد الملعون ابن ملجم الكوفة والبرك دمشق الشام وعمرو بن بكر مصر ليعدوا عدتهم للقتل في اليوم الموعود ومما يستلفت النظر ايضاً انهم اطالوا موعد تنفيذ جرائمهم وهذا أيضاً مما يدعو الى الشك بهذه الرواية لان المجرم الناوي الاجرام اذا طال عليه موعد تنفيذ جريمته قد يعرض له ما يحوله عن عزمه اذ يطيل التفكر بعقبى عمله فيعود الى رشده فيضن بحياته وهو يعلم انه متعرض للموت أو ان يعرض له من يحوله عن شره فكيف ظل هؤلاء الثلاثة كل المدة بين محرم ورمضان ولم يحدث ولو لاحدهم ما يحوله عن تصميمه على القتل من غير ان يكون وراءهم دافع يدفعهم الى اخراج ما كانوا ينوونها هذا ايضاً مما يدعو الى التفكر ولا يحسن معه السكوت مهما قالوا ان هؤلاء الخوارج كانوا متهوسين يحسبون انهم يتزلفون الى الله بقتل عمرو ومعاوية وأمير المؤمنين وانهم حلفوا على تنفيذ جرائمهم خير الاسلام والمسلمين الى آخر ما قرأنا من روايات المؤرخين

(١) ان مشكلة الخوارج من أعضل المشاكل التي عرضت لسيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله في خلافته وقد تعاصى حلها واستفحل أمرها فكانت من أظهر دواعي غلبة معاوية على الخلافة الاسلامية وتحويلها الى ملك عضوض لبني أمية . وحكاية هؤلاء الخوارج لقد تكررت الاشارة اليها غير مرة في الحواشي السابقة وخلاصتها ان معاوية عندما أمر اصحابه أن يرفعوا المصاحف بوجوه أصحاب سيدنا علي وأمرهم أن يدعوا الناس الى تحكيم كتاب الله بينهم حسب اشارة عمرو بن العاص قدر على أهل العراق ان يحسنوا الظن بأهل الشام ويحسبوا دعوتهم صادقة وأبوا الا موافقتهم على تحكيم القرآن في ذلك التشاجر وأصموا مسامعهم عن نصيحة سيدنا علي الذي عرف ان دعوة معاوية للقرآن حيلة يريد بها ان يتقي الانكسار وقد لاحت له بوادره وقد رأينا هؤلاء الناس يتهددون سيدنا علي بأن يقتلوه كما قتلوا عثمان ان لم يجب اهل الشام الى التحكيم ورأينا بعد الاشتر يقول للناس

مَيَّاسَةُ ٱلْقَدِّ لاَ تَخْتَالُ مَائِسَةً ... إِلاَّ لِتَخْتِلَ بِٱلْإِدْلاَلِ رَائِيهَا
قَدْ أَفْتَتَنَتْ بِهَوَاهَا كُلُّ مَنْ عَرَفَتْ ... مِنْ قَوْمِهَا فَغَدَوْا صَرْعَى تَصَبِّيهَا
تَحَكَّمَتْ بِمُحِبِّيهَا فَتَحْسِبُهَا ... مَلِيكَةً وَهُمُ طُرّاً حَوَاشِيهَا
أَوِ ٱلْإِلَهَةَ وَٱلْعُشَّاقُ عَابِدَةٌ ... جَمَالَهَا عِنْدَهُ ضَحَّتْ أَضَاحِيهَا
وَطَالَمَا عَبِثَتْ بِٱلْعَاشِقِينَ فَمَا ... فَازُوا بِغَيْرِ هَوَانٍ مِنْ تَجَنِّيهَا
هٰذِي قَطَامِ ٱلَّتِي ٱلرَّحْمٰنُ سَلَّطَهَا ... عَلَى ٱلْأُلَى عَشِقُوا زَاهِي مَعَانِيهَا
مَا وَاصَلَتْ مِنْهُمُ صَبّاً وَلاَ رَضِيَتْ ... بَعْلاً وَلٰكِنْ تَجَافَتْ عَنْ مُحِبِّيهَا
كَانَتْ تُحَاوِلُ أَخْذاً لِلثَّأْرِ إِذْ فَقَدَتْ ... أَباً لَهَا وَأَخاً وَٱلْحُزْنُ مُشْجِيهَا
رَاحَا ضَحِيَّةَ عِصْيَانِ ٱلْخَلِيفَةِ فِي ... حَرْبِ ٱلْخَوَارِجِ إِذْ فَحَّتْ أَفَاعِيهَا
كَانَتْ قَبِيلَتُهَا بِٱلشَّرِّ خَارِجَةً ... عَلَى ٱلْوَصِيِّ وَجَدَّتْ فِي تَعَصِّيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى بِحُسَامِ ٱللهِ أَدَّبَهَا ... إِذْ رَاحَ يَفْرِي بِهِ فَرْياً هَوَادِيهَا
وَحِزْبُهَا دُعِيَتْ بِٱلنَّهْرَوَانِ وَكَمْ ... لاَقَى ٱلْفَنَا مِنْ عِدَاهُ نَهْرَوَانِيهَا

امهلوني ساعةً لاكسب لكم الحرب فيها فأبوا الا التحكيم حتى اذا ما كتب صك التحكيم امضاه سيدنا علي ومعاوية مضى به الاشعث يقرأه على الناس فقبله أهل الشام لانه في مصلحتهم واقلّ ما فيه من الفائدة لهم انه يقيهم ذلّ الانكسار وعار الخذلان أما اهل العراق فانتبهوا الى غلطهم وأخذوا ينادون انّ الحكم لله ولا نقبل بالتحكيم ورجعوا الى سيدنا علي يطلبون منه ان ينكث عهده ويرجع بوعده ويؤاتيهم على العودة للقتال فرفض عليه صلوات الله طلبهم الثاني لانه مخالف للشرع ومعارض لنص القرآن ومتى كان سيدنا علي يرضى ان لا يفي بالعهود التي يبرمها ولو فعل هذا لانتفت ثقة الناس بالعهود وهل يتصوّر ذو عقل انّ سيد قريش وصنو المصطفى يأتي بمثل هذه الدّلة فتكون عليه سبة الا بد حاشا لله ذلك

وجاهد سيدنا علي طويلاً ليقنع اولئك الخارجين عليه بالحجة مبيناً لهم انهم هم الذين اكرهوه اكراهاً على قبول التحكيم وحملوه رغم ارادته على امضاء العهد بينه وبين معاوية وانّ النكث به بعد امضائه يخالف نصّ القرآن الصحيح فما اقتنعوا وطفقوا يتهددونه بالانقلاب عليه ان لم يرجع بالعهد وينكث به كما تهددوه من قبل ان لم يقبل التحكيم . وفي هذا منتهى الغرابة فقتل الانسان ما اكفره

ابتدأ أمر الخوارج في صفين على اثر امضاء العهد بين سيدنا علي ومعاوية وعاد اهل العراق الى ديارهم وهم مفترقون بعضهم من شيعة سيدنا علي يعتقدون انه أُكره على قبول التحكيم وانّ اصحابه هم الذين اكرهوه عليه وبعضهم اعداءٌ له ينادون بحربه وعصيان خلافته لقبوله التحكيم . وانصرف سيدنا علي عليه صلوات الله الى ملاطفة الخوارج واقناعهم بالحجة انه لم يكن مخطئاً بقبول التحكيم وانه مثلهم يعتقد انّ التحكيم غلطة يتعذّر تلافيها وانه غير معيد للمسلمين السلام الذي يتوخونه

فَأَقْبَلَتْ هَاتِهِ ٱلْخَوْدُ ٱلْوِقَاحُ عَلَى ... مَرَابِعِ ٱلْكُوفَةِ ٱلزَّهْرَاءِ تَثْوِيهَا

وَٱسْتَخْدَمَتْ لِأَمَانِيهَا مَحَاسِنَهَا ... بِهَا تُرِيدُ ٱنْتِقَامًا مِنْ مُعَادِيهَا

كَانَتْ بِهَا تَتَصَبَّى ٱلنَّاسَ طَالِبَةً ... مِنْهُمْ جَرِيئًا عَلَى ٱلْعُدْوَى يُوَاتِيهَا

وَلِلنِّسَا سُلْطَةٌ تَٱللهِ نَافِذَةٌ ... عَلَى ٱلرِّجَالِ كَمَا تَهْوَى تُمَشِّيهَا

وَإِنْ حَقَدْنَ وَرُمْنَ ٱلْانْتِقَامَ فَلَا ... يَهُمُّهُنَّ عِبَادُ ٱللهِ تَشْقِيهَا

وَمَا قَطَامِ سِوَى إِحْدَى كَرَائِمِ حَـوَّاءٍ وَهَيْهَاتَ أَنْ تَعْدُو مَبَادِيهَا

وَفِي مُصِيبَتِهَا لِلْحَقِّ مَا نَظَرَتْ ... وَلَا لَهُ ٱنْتَبَهَتْ وَٱلْحُزْنُ مُعْمِيهَا

كَانَتْ عَوَاطِفُهَا لِلشَّرِّ تَدْفَعُهَا ... بِقُوَّةٍ مَا ٱسْتَطَاعَتْ أَنْ تُقَاوِيهَا

رَأَتْ أَخَاهَا مُسَجًّى قُرْبَ وَالِدِهَا ... عَلَى ٱلثَّرَى بَيْنَ قَتْلَى خَابَ مُحْصِيهَا

فِي مَشْهَدٍ مُفْجِعٍ يُدْمِي ٱلْقُلُوبَ وَيُو ... رِي سَعْرَةَ ٱلْحِقْدِ فِي خَافِي مَطَاوِيهَا

فَأَرْسَلَتْ دَمْعَهَا حُزْنًا بِعَاطِفَةِ ٱلْإِ ... مْ شِفَاقِ وَٱلْخَطْبُ مُؤْذِيهَا وَمُشْجِيهَا

وَفِيهِ مَا ذَكَرَتْ أَنَّ ٱلْمَصَائِبَ قَدْ ... حَلَّتْ بِأَصْحَابِهَا مِنْ كَسْبِ أَيْدِيهَا

وَأَنَّهَا خَرَجَتْ بَغْيًا بِغَيْرِ هُدًى ... عَلَى ٱلْإِمَامِ فَلَاقَى ٱلْهُلْكَ بَاغِيهَا

من ورائه ولكن لا بدّ من الصبر الى ظهور النتيجة من دومة الجندل فما كان في الخوارج من يصغي الى نصيحته ويعود عن الحقد عليه وينزل على رايه

وعند ما ظهرت نتيجة التحكيم على ما علمنا من فشل أبي موسى الذي جاء به هؤلاء الخوارج انفسهم مع ما علموا من انحرافه عن ولاء الحضرة السنية الحيدرية تعاظم شرّ هؤلاء الخوارج فطفقوا يتعرضون لشيعة سيدنا علي ويعتدون على اصحابه ويقطعون الطرق على السابلة ويعيثون في أرض العراق فساداً فضطرّ سيدنا علي عليه صلوات الله اضطراراً الى محاربة هؤلاء الخوارج وتدويخهم فكان له معهم مواقع شتى نصره الله بها عليهم نصراً مبيناً حتى ضعف شأنهم وتلاشت سطوتهم وعاد الامن او كاد يعود الى اطراف العراق الا أنّ هذه الحروب الداخلية اورثت الخلافة العلوية ضعفاً بيّناً لسببين اولهما انّ اصحاب سيدنا علي قد سئموا الحرب اذ كانوا في كل وقت مضطرين الى حمل السلاح لقتال الخوارج فتثاقلوا عن دعوته عليه صلوات الله لحرب الشام وثانيهما انّ حرب الخوارج هذه قد قللت انصار سيدنا علي واصحابه لان الخوارج انفسهم كانوا من انصاره وانفصلوا عنه واصبحوا اعداءه فهلك منهم خلق كثير وهلك من اصحاب سيدنا علي خلق كثير ايضاً

واعظم مواقع سيدنا علي عليه صلوات الله كانت في « النهروان » وهو نهر يقال لاعلاه « تامرا » ولاسفله « النهروان » بين « الخافيق » و « طرفاء » فتدهلكت هنالك الخوارج فلم يسلم منهم اكثر من عشرة ولم يقتل من اصحابه اكثر من عشرة وكان عليه صلوات الله قد أنبأ اصحابه

نَعَمْ نَسَتْ كُلَّ هٰذَا وَهِيَ طَالِبَةٌ   لِنَفْسِهَا ٱلثَّأْرَ عَنْ هَلْكَى تُرَثِّيهَا
وَٱلثَّأْرُ فِي صَدْرِهَا مَا كَانَ غَيْرُ هَلَا   كِ ٱلْمُرْتَضَى عَلَنًا شَيْءٌ يُطَفِّيهَا
مَاهَمَّهَا إِنْ أَتَتْ ظُلْمًا جَرِيمَتَهَا   أَنْ تَظْلِمَ ٱلشِّرْعَةَ ٱلسَّمْحَا وَأَهْلِيهَا
وَأَنْ تُضَيِّعَ حُقُوقَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَقَدْ   صِينَتْ بِهِمَّتِهِ إِذْ كَانَ حَامِيهَا

غرام ابن ملجم لعنه الله

أَتَى إِلَى ٱلْكُوفَةِ ٱلزَّهْرَاءِ يَسْكُنُهَا   ذَاكَ ٱلَّذِي كَانَ يَنْوِي قَتْلَ عَالِيهَا(١)
وَكَانَ ذَا حَذَرٍ يُخْفِي جَرِيمَتَهُ   بِصَدْرِهِ لَيْسَ لِلْأَصْحَابِ يُفْشِيهَا
وَكَانَ فِي سَئَمٍ مِنْ شَرِّ نِيَّتِهِ   يَعُدُّ أَيَّامَهُ يَطْوِي لَيَالِيهَا
يَسْتَنْظِرُ ٱلْمَوْعِدَ ٱلْمَضْرُوبَ يَطْلُبُ أَنْ   يَأْتِي جِنَايَتَهُ فِيهِ وَيُمْضِيهَا
وَإِذْ تَعَرَّفَ بِٱلْحَسْنَا قَطَامِ لَهَا   بِحُسْنِهَا وَغَدَا صَفْوًا يُلَاهِيهَا
فَلَمْ تَزَلْ تَتَصَبَّاهُ وَتَدْعَبُهُ   حَتَّى تَدَلَّهَ فِي ذَا ٱلْحُبِّ تَدْلِيهَا

بهذا قبل الموقعة فصدقت نبوءته وكان الخوارج هناك بنو « تيم الرباب » فهلكت مقاتلتهم جميعاً ومن بينهم الاخضر وابنه وهما من وجهاء هاتيك القبيلة فتلاهم من قتل في تلك الوقعة الشعواء

وكان للاخضر هذا ابنة تدعى قطام فعزّ عليها مصرع أبيها واخيها بين ابطال قومها وآلت على نفسها ان تنتقم لهما من سيدنا علي عليه صلوات الله وكانت هذه من الجمال على اعظم جانب حتى قالوا انها كانت اجمل نساء زمانها فرأت ان تستخدم جمالها في سبيل انتقامها فتركت النهروان وقدمت الى الكوفة فأقامت في دار أحد مواطنيها من بني تيم الرباب وجعلت تخدع الرجال وتستميلهم الى هواها بغية أن تجد مجنوناً منهم يقع بحبائل حبها فتغريه على قتل سيدنا علي وانت تعلم ان النساء اذا حقدن وطلبن الانتقام لايقف في سبيلهنّ عائق . وهكذا اصبحت قطام في الكوفة ولاهمّ لها الا ان تبادل الشبان نظرات الغرام وتتصاهم الى هواها توصلاً الى مجنون ذي هوس منهم يعينها على بلوغ ماتصبو اليه من الانتقام وماكان يردعها عن هذا الشرّ الذي تسعى اليه دين ولا اسلام

(١) أتى عبد الرحمن بن ملجم الكوفة بعد قفوله من مكة وهو عاقد العزيمة على تنفيذ الجناية التي أخذ على عاتقه أمر تنفيذها وكان وصوله اليها في محرّم سنة ٤٠ للهجرة وكان مضطراً حسب العقد الذي عقده مع صاحبيه أن ينتظر يوم ١٧ رمضان للتنفيذ وسبق لنا أن اظهرنا العجب من ضرب اولئك المجرمون يوم ١٧ رمضان لجنايتهم مع انهم كانوا يوم تعاهدوا على هذا الشرّ في ذي الحجة والمسافة بين الموعدين طويلة كما لايخفى يتعذّر فيها على الجاني ان يثبت على عهده ويظلّ مصمماً عليه لانّ علماء الاجتماع قد قرّروا انّ جريمة القتل يأتيها المجرم في اثناء ثورة جنون ومهما طالت هذه الثورة لا يعقل ان تظلّ في رأس صاحبها بضع شهور على التواني ولا يعرض له ما يرجعه الى هداه

وَقَدْ تَنَاسَى بِمَرْآهَا مُهِمَّتَهُ ٱلسُّوءَى ٱلَّتِي كَانَ قَبْلَ ٱلْحُبِّ نَاوِيهَا

وَجَاءَهَا خَاطِبًا يَبْغِي تَزَوُّجَهَا وَذِلَّةُ ٱلْحُبِّ وَٱلتَّوْلِيهِ يُبْدِيهَا

فَكَشَّرَتْ عَنْ نُيُوبِ ٱلشَّرِّ بَاسِمَةً وَقَابَلَتْ بِٱلرِّضَى وَٱلْبِشْرِ دَاعِيهَا

وَبَيْنَ بَسْمَتِهَا رَاحَتْ تَفُحُّ سُمُو مَهَا وَتُظْهِرُ مَعْ هٰذَا تَدَلِّيهَا

قَالَتْ : وَمَاذَا تُسَمِّي لِلصِّدَاقِ حَبِيـ ـبِي وَٱلَّذِي يَخْطُبُ ٱلْحَسْنَاءَ يُرْضِيهَا

فَقَالَ : مَالِكَتِي إِنِّي عُبَيْدُكِ فَاحْـ ـكُمِي عَلَيَّ بِأَمْوَالٍ اؤَدِّيهَا

قَالَتْ: وَهَلْ أَنْتَ تُعْطِينِي مَآرِبَ نَفْـ ـسِي قَالَ: لَوْ تَطْلُبِينَ ٱلنَّفْسَ اعْطِيهَا

قَالَتْ : ثَلَاثَةُ ٱلآلَافِ مُؤَلَّفَةً مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ قَدْ لَالَا لُجَيْنِيهَا

ثُمَّ وَصِيفٌ يُدَارِينِي وَجَارِيَةٌ لِخِدْمَتِي أَنْتَ تَشْرِيهِ وَتَشْرِيهَا

وَبَعْدَ ذَا قَبْلَتَهُ وَهْيَ قَائِلَةٌ وَٱلْغُنْجُ قَدْ زَادَ فِي زَاهِي مَعَانِيهَا

وَتَقْتُلُ ٱلْمُرْتَضَى جَهْرًا وَقَتْلَتُهُ يَدْوِي إِنْبَاؤُهَا فِي ٱلْأَرْضِ دَاوِيهَا

وَعِنْدَمَا سَمِعَ ٱبْنُ ٱلْمُلْجَمِ ٱلْمُتَهَوِّ رُ ٱلْإِتَاوَةَ ثُمَّ ٱلْقَتْلَ تَالِيهَا

وَكَانَ حُبُّ قَطَامٍ قَدْ أَعَادَ لَهُ حُبَّ ٱلْحَيَاةِ فَأَمْسَى غَيْرَ سَالِيهَا

مهما كان الباعث له على جنايته قوياً حتى ولو كان بدافع وهمي اقتنع به من موجبات الدين مما يرضى عنه رب العالمين

وصل عبد الرحمن بن ملجم الى الكوفة حافظ سره في صدره لا يبوح به الى احد ويظهر لي انه كان في سن الشباب وذا سعة ويسار بدليل عشقه قطام بن الاخضر التي سبقت الاشارة اليها وبذله في سبيل خطبتها ما طلبته وهو ثلاثة آلاف درهم وغلام وجارية وهو بذل لا يأتيه دوو الخصاصة

تعرف عبد الرحمن بن ملجم بقطام لانه من الخوارج ولانها هي ايضاً من الخوارج فتعارفهما ليس فيه شيء من الغرابة لان اهل الحزب الواحد سرعان ما يتعرف بعضهم ببعض اذا كانوا في بلد واحد

واخذت قطام تتصبى عبد الرحمن وتشغله بحسنها ودلالها ويظهر انه لم يكن الوحيد في الرجال الذين اوقعتهم بشرك هواها حتى اذا موثقت من حبه لها اخذت تتجنى عليه وتبعد بين الجفوة والرضاء حتى فتنته وذهبت بلبه لجعلها خاصباً وهذا يدلنا على ان قطام تكن فجرة زانية والا لم يطلبها حليلة بل طلبها خليلة كما يدلنا ايضاً على انه كان شاباً في مقتبل العمر كما سبق القول ولو كان كهلاً لما تمكنت مثل قطام ان تلعب بقلبه ليس فقط حتى عشقها بل وتقدم من خطبتها يريد أن يتزوجها

وفي رأيي ان عبد الرحمن بن ملجم عندما اشتعل قلبه بهوى قطام اخذ يتناسى عهده بقتل سيدنا علي عليه صلوات الله حتى اذا ما دفعه الحب اعرض عن تنفيذ تلك الجريمة الشنعاء بتاتاً بدليل تقدمه من التزوج بقطام ولو كان مصراً على نية القتل لما خطر له الزواج ببال انه لابد انه لما وصل بقطام الى تلك الدرجة من الحب الا بعد ان امضى بضع شهور في الكوفة ولم يبق له على موعد

نَادَى: فَدِيتُكِ هَلْ تَبْغِينَ هَلْكَةَ نَفْـ ـسٍ كَانَ حُبُّكِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ مُحْيِيهَا

لَوْلَا هَوَاكِ لَمَا رُمْتُ ٱلْحَيَاةَ وَلَا ... أَمْسَيْتُ لُقْيَةَ هَوْلِ ٱلْمَوْتِ خَاشِيهَا

فَإِنْ قَتَلْتُ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَلَا ... سَلَامَةً أَتَرَجَّى أَنْ أُلَاقِيهَا

وَلَا أَفُوزُ بِقُرْبَى بِتُّ أَنْشُدُهَا ... مِمَّنْ أُحِبُّ وَمَا تَبْغِينَ يُقْصِيهَا

فَأَرْسَلَتْ شَرَراً تِلْكَ ٱلْقَبِيحَةُ مِنْ ... أَلْحَاظِهَا وَبِهِ لَاقَتْ مُنَاجِيهَا

وَأَظْهَرَتْ عَزَمَاتٍ لَا تُحَوِّلُهَا ... عَنْهَا ٱلْحَوَائِلُ تَبْغِي أَنْ تُجَرِّيهَا

وَبِٱبْنِ مُلْجَمَ صَاحَتْ: إِنْ جَبُنْتَ وَمَا ... شَفَيْتَ غُلَّةَ نَفْسِي مِنْ مُظَلِّمِيهَا

وَمَا أَخَذْتَ بِثَأْرِ ٱلْأَخْضَرِ ٱلْبَطَلِ ٱلْـ ... ـمَقْتُولِ فَٱبْنَتُهُ لَا تَطْمَعَنْ فِيهَا

وَهَا أَخِي صَارِخٌ: أُخْتَاهُ لَا تَدَعِي ... لِقَاتِلِي عِيشَةً بِٱلرَّفْهِ يَقْضِيهَا

وَإِنَّنِي لَمْ أَزَلْ أَبْكِي أَبِي وَأَخِي ... بِلَوْعَةٍ مَا كُرُورُ ٱلدَّهْرِ يُطْفِيهَا

فَٱشْفِقْ عَلَى أَمَةٍ مَفْجُوعَةٍ عَظُمَتْ ... ارْزَاؤُهَا لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُعَزِّيهَا

مَوْتُورَةٍ لَا تَرَى حِلَّ ٱلتَّمَتُّعِ بِٱلْـ ... أَزْوَاجِ إِنْ هِيَ لَمْ تَبْلُغْ تَشَفِّيهَا

حَبِيبَ قَلْبِيَ إِثْأَرْ لِي وَفُزْ بِغَرَا ... مِي وَٱغْنَمَنَّ حَيَاةً أَنْتَ بَاغِيهَا

أَحْيَا لِأَجْلِكَ أُصْفِيكَ ٱلْوَلَاءَ قَضِيْ ... ـيَ ٱلْعُمْرَ مَعْكَ كَمَا تَخْتَارُ تَرْفِيهَا

تنفيذ الجريمة غير وقت قصير يلقى بعده حينه لانّه كان يدرك حقّ الادراك أنّ لا سلامة له من القتل سواء أفلح بالجريمة الشنعاء التي كان مقدماً عليها أو لم يفلح

وبعد هذا نورد النصّ التاريخي الذي أورده المؤرخون عن هذه الحادثة قالوا : وزار عبد الرحمن بن ملجم عندما قدم الكوفة بعد المؤامرة رجلاً من اصحابه ذات يوم من بني تيم الرباب فصادف عنده قطام بنت الاخضر من بني تيم الرباب وكان علي قتل أخاها وأباها بالنهروان وكانت من أجمل نساء أهل زمانها فلما رآها شعف بها واشتدّ اعجابه بحسنها فخطبها فقالت له ماتسمي من الصداق فقال احتكمي مابدا لك فقالت احتكم عليك ثلاثة آلاف درهم ووصيفاً وخادماً وأن تقتل علي بن أبي طالب فقال هالك جميع ما سألت واما قتل علي فأنّى لي بذلك ؟ وكيف ترضين أن اتعرّض لهذا الخطر بعد أن شغلت بهواك وغدوت اطمع بالحياة لاجلك ؟ وخذت تلحّ بتنفيذ مأربها وهي تتودد عليه وتقبله وما زالت به حتى اغرته على القتل فقال وكيف استطيع الفوز بقتل علي ؟ قالت تلتمس غرته فان أنت قتلته شفيت نفسي وهناك العيش معي (على أرغد ما تحبّ) وان قُتلت فما عند الله خير لك من الدنيا فقال لها أما والله ما أقدمني هذا المصر وقد كنت هارباً منه لا أُمن أهله إلاّ ما سألتني من قتل علي . قالت له فانا طالبة لك بعض من يساعدك على هذا ويقويك ثمّ بعثت الى وردان بن

فَقَالَ وَالْيَأْسُ قَدْ أَوْهَى جَلَادَتَهُ ... وَالْحُبُّ مِنْ قَبْلُ وَالْأَذْلَالُ مُوهِنُهَا

قَطَامِ رِفْقًا بِصَبٍّ تَبْتَغِينَ بِأَنْ ... يَسِيرَ نَحْوَ الْمَنَايَا لَا يُمَادِيهَا

قَالَتْ: حَبِيبِي إِنْ تَسْلَمْ فَإِنَّكَ لِي ... أَوْ إِنْ تَمُتْ فَلَكَ الْجَنَّاتُ تَثْوِيهَا

وَثِقْ بِأَنِّيَ لَا أَنْسَى هَوَاكَ كَمَا ... قَطَامِ مَا كُنْتَ يَا ابْنَ الْوِدِّ نَاسِيهَا

فَيَا سَنِهِبِسرُ إِلَى مَلْقَى الْوَصِيِّ وَجَنْـــدِلُهُ ... قَتِيلاً وَهَذَا الْقَتْلُ يُهْنِيهَا

فَعَادَ لِلْهَوَسِ الْمَلْعُونُ مُطَّلِبًا ... حَيَاةَ خَيْرِ الْوَرَى بِرًّا وَتَفْقِيهَا

وَصَاحَ: مَا جِئْتُ إِلَّا لِلْفُتُوكِ بِهِ ... تَاللهِ كُوفَةَ بَلْ مَا كُنْتُ آوِيهَا

وَقَدْ هَرَبْتُ نُفُوراً مِنْ حُكُومَتِهِ ... أُسَائِلُ اللهَ بِالْأَهْوَالِ يَمْنِيهَا

وداع ابن ملجم لحبيبته

فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ الْمَضْرُوبُ مَوْعِدُهَا ... لِقَتْلَةِ الْأُمَرَا مِنْ مُسْتَبِيحِيهَا(١)

وَافَى ابْنُ مُلْجَمَ مُشْتَاقًا حَبِيبَتَهُ ... شَوْقَ الَّذِي لَمْ يَعُدْ يَرْجُو تَلَاقِيهَا

فَقَابَلَتْهُ بِمَكْرِ الْمَاكِرَاتِ وَأَبْـــدَتْ ... غَيْرَ مَا كَانَ يَخْفَى فِي مَطَاوِيهَا

وَأَظْهَرَتْ صَبْوَةً تَاللهِ مَا شَعَرَتْ ... بِهَا لَهُ وَهَوًى فِيهِ وَتَدْلِيهَا

مجالد أحد بني تيم الرباب فخبرته الخبر وسألته معاونة ابن ملجم فتحمل لها ذلك (ولا نعرف ان كان هذا منه لانه هو ايضا كان من عشاقها أو لانه كان من الحاقدين على سيدنا علي هلاك قبيلته في النهروان) وخرج بن ملجم فأتى رجلا من أشجع يقال له شبيب بن بجيرة وقال له : ياشبيب هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال وما ذاك ؟ قال تساعدني على قتل علي وكان شبيب على رأي الخوارج فقال له هبلتك الهبول لقد جئت شيئا ادا وكيف تقدر ويحك على قتل ابن أبي طالب؟ قال ابن ملجم نكمن له في المسجد الاعظم (في الكوفة) فاذا خرج لصلاة الفجر فتكنا به وقتلناه وشفينا انفسنا منه وادركنا ثأرنا فلم يزل به حتى اجابه فأقبل به حتى دخلا على قطام فاخبرها ابن ملجم بانضمام شبيب اليه ايضا لقتل سيدنا علي فرحبت بشبيب وشجعته على الجريمة ووعدتهما ان تكون يوم الجناية في المسجد الكوفي آه ومما يستفاد من رواية المؤرخين هذه ان اغراء قطام بن ملجم وانضمام وردان وشبيب الى ذلك الملعون تحت اشرافها وسيطرتها لم يكن في وقت بعيد عن يوم ١٧ رمضان وهو اليوم الاسود الذي ضربه اولئك الاشقياء الملاعين لفتك بأمير المسلمين

(١) اشرنا في هذا الفصل الى الحجج التي كان يحتج بها الخوارج على سيدنا علي عليه صلوات الله وكلها تنحصر بقولهم ان الحكم لله وان التحكيم خروج على القرآن ومروق من الدين وان سيدنا علي قد اخطأ بقبول التحكيم وانه كان من الواجب عليه ان ينكث عهده مع معاوية بعد كتابته واذ لم يفعل فلم تعد له بيعة في اعناقهم واصبحوا اعداء لخلافته يحاربونها . هذه كل حججهم على سيدنا علي التي لاجلها اعلنوا

وَشَجَّعَتْهُ عَلَى ٱلْجَزْمِ ٱلْقَطِيعِ بِبَسْمَةِ ٱلرِّضَى وَٱلْهَوَى وَٱلذِّلِّ مِنْ فِيهَا
وَوَدَّعَتْهُ وَدَاعاً لَيْسَ يَعْقُبُهُ لُقًى بِدَمْعٍ هَتُونٍ مِنْ مَآقِيهَا
رَاحَتْ تُسَعِّرُ نِيرَانَ ٱلْكَرَاهَةِ وَٱلْبَغْضَاءِ فِي نَفْسِهِ ظُلْماً وَتُورِيهَا
تَقُولُ: حَيْدَرَةٌ خَانَ ٱلشَّرِيعَةَ بِٱلتَّحْكِيمِ وَٱلْحُكْمُ لِلْخَلَّاقِ مُوحِيهَا
فَعَارَضَتْهُ أُنَاسٌ وَهْيَ طَالِبَةٌ إِرْجَاعَهُ لِلْهُدَى طَوْعاً لِبَارِيهَا
فَمَا ٱرْتَضَى رَجْعَةً عَنْ عَهْدِهِ ذَهَبَتْ بِحُكْمِهِ مِثْلَمَا كُنَّا نُوَخِّيهَا
وَمَا ٱكْتَفَى عِنْدَمَا لَاحَتْ نَتِيجَتُهَا بِأَنَّهُ مُخْطِئٌ مُذْ رَاحَ مُمْضِيهَا
فَيُعْلِنُ ٱلتَّوْبَةَ ٱلْكُبْرَى عَلَانِيَةً حَتَّى نُصَالِحَهُ وَٱلنَّارُ نُطْفِيهَا
لَكِنْ أَصَرَّ عَلَيْنَا أَنْ نَعُودَ إِلَى مَنْشُودِ طَاعَتِهِ قَهْراً فَنُسْدِيهَا
وَإِذْ أَبَيْنَا ٱنْصِيَاعاً سَاقَ حَمْلَتَهُ عَلَى قَبَائِلِنَا ٱلْكُبْرَى لِتُفْنِيهَا
وَٱللهِ مَا رَحِمَتْ فِتْيَانَنَا وَشُيُوخَنَا فَبَاتَتْ وَهَوْلُ ٱلْمَوْتِ غَاشِيهَا
وَيْلَاهُ أَشْلَاؤُهَا كَانَتْ مُغَطِّيَةً دِيَارَنَا وَٱلدِّمَا تَجْرِي فَتُسْقِيهَا
وَكَانَ مِنْ بَيْنِ قَتْلَانَا أَبِي وَأَخِي إِنِّي لَأَبْكِيهِمَا دَوْماً وَأَبْكِيهَا
وَلَمْ يَجُرَّ ٱلرَّزَايَا غَيْرُ حَيْدَرَةٍ عَلَى ٱلْعِبَادِ فَأَخْلِقْ أَنْ يُلَاقِيهَا
فَسِرْ حَبِيبِي بِلَا خَوْفٍ لِمَسْجِدِهِ وَٱبْلِغْ فَتَاتَكَ إِذْ يُرْدَى تَشَفِّيهَا
فَإِنْ أَعِشْ بَعْدَهُ يَوْماً فَقَدْ بَلَغَتْ نَفْسِي فَبُشْرَى لَهَا أَقْصَى تَمَنِّيهَا

عليه الحرب وطفقوا يتصدون لشيعته ويقاتلونها ويعوثون في العراق فساداً لاجلها وما كانوا يصيخون السمع لسيدنا علي عليه صلوات الله اذ كان يدعو زعماءهم اليه ويقنعهم بالحجة بانّ حججهم باطلة ماهي من الدين ولا في مصلحة المسلمين وكان يذكرهم بأنهم هم الذين اكرهوه على قبول التحكيم وتهددوه بالقتل اذا رفضها وانه بعد أن نزل على حكمهم بقبولها ورضي بها وكتبت الصحيفة وأمضاها اصبح مقيداً بها طوعاً للقرآن العظيم الآمر بالوفاء بالعهود أمراً جلياً لا يقبل التأويل . واغرب ما كان يطلبه الخوارج من سيدنا علي عليه صلوات الله هو ان يعلن توبته ووالله هم انفسهم ما كانوا يدركون كنه طلبهم هذا وكيفية القيام به فاذا كانت التوبة عن خطيئة فانّ سيدنا علي لم يخطيء بقبول التحكيم ليتوب فهو من بدء الخديعة عرفها وابأ بها فجهلوها واصرّوا عليه بقبول الحكومة فكان عليهم هم ان يتوبوا ويتوبوا اليه ويجرّدوا سيوفهم لحرب معاوية بعد أن ظهرت الخديعة باتمّ معانيها في دومة الجندل حيث خدع عمرو بن العاص أباموسى الاشعري وسخر به وقال غير ما كان الاتفاق عليه

وَإِنَّنِي مَعَكَ يَاخُلِّيَّ لَذَاهِبَةٌ ... لِكَيْ أَرَى الْقَتْلَةَ الْمَغْبُوطَ جَانِيهَا

أَرَى بِعَيْنِيَ ذَاكَ الْإِنْتِقَامَ وَمَا ... يَتْلُوهُ مِنْ لَذَّةٍ ذُو الْحِقْدِ يَدْرِيهَا

وَقَبَّلَتْ بَعْدَ ذَا الْمَلْعُونَ صَاحِبَهَا ... وَأَرْسَلَتْ دَمْعَهَا كِذْبًا وَتَمْوِيهَا

وَأَظْهَرَتْ جَزَعًا مِنْ شَرِّ وَقْفَتِهِ ... عِنْدَ الصَّبَاحِ لِأَهْوَالٍ يُلَاقِيهَا

وَاللهِ مَا جَزِعَتْ حَقًّا وَلَا نَطَقَتْ ... صِدْقًا وَمَا هُلْكُهُ الْمَحْتُومُ مُبْكِيهَا

وَإِنَّمَا خَدَعَتْهُ فِي تَلَهُّفِهَا ... عَلَيْهِ كِذْبًا وَفِي مُشْجِي تَبَاكِيهَا

وَمَثَّلَتْ «دَوْرَهَا» مَعَهُ كَعَاشِقَةٍ ... تَرَى فِرَاقَ الَّذِي تَهْوَاهُ يُشْقِيهَا

وَأَرْسَلَتْهُ يُضَحِّي النَّفْسَ يُهْلِكُهَا ... وَالْحَنِيفَةَ بِالْبَلْوَى يُفَاجِيهَا

بِقَتْلِ مُسْلِمِهَا الْأَتْقَى وَعَاهِلِهَا الْأَ ... عْلَى وَعَالِمِهَا الْأَسْمَى وَقَاضِيهَا

فَرَاحَ يَخْطُو إِلَى الْإِثْمِ الْفَظِيعِ خُطَى ... آثَارُهَا كَانَ بِعَلْزَبُولَ قَافِيهَا

المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام

مَنْ لِي بِعِلْمِ عَلِيٍّ مَعْ بَلَاغَتِهِ ... كَيْمَا أُبَيِّنَ الْآلَامَ يُعَانِيهَا(١)

يُرِيدُ إِحْيَاءَ سُنَّاتِ الرَّسُولِ فَيَلْـ ... ـقَى حَوْلَهُ مُمْرِضِيهَا أَوْ مُمِيتِيهَا

وَتَلْتَقِيهِ خُرُوقٌ فِي الْخِلَافَةِ لَا ... تَرْفَا فَأَعْيَى عَيَاءً وَهْوَ يَرْفِيهَا

مَا أَعْوَزَتْهُ أَسَالِيبُ الدَّهَاءِ وَلَا ... سِوَاهُ أَدْرَى بِبَادِيهَا وَخَافِيهَا

لَكِنْ هُنَالِكَ أُخْرَى كَانَ يَرْهَبُهَا ... وَلَا يَرَى هَاتِهِ الدُّنْيَا تُوَازِيهَا

بينهما على انهم لم يقعدوا وما اكتفوا بعصيانهم خليفتهم والاستعداد عن نصرته بل اخذوا يحاربونه بالاعتداء على اصحابه وشيعته فكان عليه شرعاً ومصلحة ان يجرد سيفه لتأديبهم فقضى فكانوا هم الجانين على انفسهم وعلى الخلافة معاً اذ هدت معظمهم وضعف قوة الخلافة في حربهم وفتور عزم اصحابه بسببهم على انهم ما ارعووا بكل هذا حتى أقدم متهوس منهم على أشنع اجرامه و شنعه وشرها عاقبة بقتل سيد الخلائق بعد المصطفى سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام

(١) يستحيل على اديب الكتاب وافصح الخطباء تفصيل الحالة المعصية التي كان عليها سيدنا علي عليه صلوات الله في سني خلافته الاربعة مما عاناه من الرزايا والخطوب فيها فقد كانت كلها حروباً وثورات داخلية ومسارح شقاق ونفاق واضطراب حتى اصبح كالمداوي جرحه في جسم الخلافة سالت جروح وحتى اصبح وهو لا يتمنى على الله الا ان يلقى وجهه الكريم عاجلاً لانه لا راحة له الا

لِذَاكَ قَدْ سَئِمَ ٱلأَمْرَ ٱلَّذِي يَتَفَا … نَى ٱلنَّاسُ مِن دُونِهِ وَٱللهُ مُغْنِيهَا
وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي ٱلصَّوْمِ مُظْلِمَةٍ … كَانَ ٱلْوَصِيُّ بِذِكْرِ ٱللهِ يُحْيِيهَا
وَيَسْأَلُ ٱللهَ فِيهَا أَنْ يُرِيحَهُ … مِنَ ٱلرَّزَايَا ٱلَّتِي يَدْهَاهُ دَاهِيهَا
وَإِذْ بِهِ سَحَراً بَعْدَ ٱلْوُضُوءِ وَمِنْ … قَبْلِ ٱلصَّلَاةِ ٱلَّتِي مَا كَانَ يُزْكِيهَا
عَلَى وُسَادَتِهِ ٱلْخَشْنَا تَمَدَّدَ هَوْ … نًا ذَاكِراً فِي صُرُوفِ ٱلدَّهْرِ قَارِيهَا
وَإِذْ بِهِ مَلَكَتْهُ عَيْنُهُ فَغَفَا … وَخَالَطَتْ نَفْسَهُ ٱلْعُلْيَا هُيُولِيهَا
فِي ٱلْحَالِ قَدْ سَنَحَ ٱلْهَادِي ٱلأَمِينُ لَهُ … يَحْبُوهُ عَطْفَتَهُ ٱلزَّهْرَا وَيُسْدِيهَا
قَالَ ٱلْعَلِيُّ: رَسُولَ ٱللهِ يَا سَنَدِي … فَدَتْكَ نَفْسِي وَمَا بِٱلْغَيْرِ أَفْدِيهَا
أَشْكُو إِلَيْكَ ٱلَّذِي أَلْقَاهُ مِنْ أَوَدٍ … وَمِنْ خِصَامٍ وَمِنْ بَلْوَى أُقَاسِيهَا
فَقَالَ: مِنْ أُمَّتِي تَشْكُو أَلَا ٱدْعُ عَلَيْـ … ـهَا دَعْوَةً فِي ٱلسَّمَا رَبِّي يُلَبِّيهَا
فَقَالَ: أَبْدَلَنِي رَبِّي بِأَخْيَرَ مِنْـ … ـهَا وَهْيَ بِٱلشَّرِّ مِنِّي ذَاكَ يَكْفِيهَا
ثُمَّ صَحَا ٱلْمُرْتَضَى وَٱلْفَجْرُ مُنْبَثِقٌ … فَقَالَ: مَوْتِيَ ٱلْفَرَّا أُدَانِيهَا
فَأَحْمَدُ ٱللهَ قَدْ قَارَبْتُ مُنْصَرَفِي … إِلَى أَحِبَّةِ قَلْبِي فِي أَعَالِيهَا
وَقَدْ دَعَا حَسَناً فِي ٱلْحَالِ أَنْبَأَهُ … رُؤْيَاهُ قَالَ: فَثِقْ مَوْتِي مُتَالِيهَا
وَسَارَ يَبْغِي صَلَاةَ ٱلْفَجْرِ يَنْشُدُهَا … فِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ ٱلْكُوفِيِّ يَقْضِيهَا

في جنان النعيم . وكانت عادته عليه صلوات الله ان يحيي لياليه في تلاوة الذكر الحكيم وذكر الله عزَّ وجلَّ ولا سيما ليالي رمضان المبارك وكذلك تفعل ليلة ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة ساجداً مصلياً ذاكراً متعبداً حتى اذا ما ابثق الفجر باشر وضوءه واذ كان موعد الصلاة لم يحن بعد تمدّد على وسادته الخشناء وطفق يجول بنفسه في ماضيه ذاكراً ما مرَّ عليه من المتاعب والاحن في جهاده المتواصل في سبيل الاسلام وكيف كانت النهاية السوداء بتكاثر اعدائه وتناقص اصحابه لكثرة ما في هذه الدنيا من محبيها وقلة من يهتمون منهم بآخرتهم فيعملون لها وبينما هو كذلك غفت عيناه فسنح له رسول الله عليهما الصلاة والسلام وكان بينهما ما رواه سيدنا الحسن عليه السلام عنه قال «في صبيحة اليوم الذي استشهد فيه أمير المؤمنين دعاني اليه وحدثني قائلاً : ملكتني عيني وانا جالس ، فسنح لي رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقلت : يارسول الله ألا أخبرك ما ذا لقيت من امتك من الا ددو اللدد ? فقال : أدع عليهم ، فقلت : أبدلني الله بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شرّاً لهم مني ، فانتبهت ، وعلمت من رؤياي هذه أنّ موعد منيتي قد دنا ، وقد دعوتك لأخبرك بذلك ، واوصيك بامة محمد خيراً . قال سيدنا

جرح أمير المؤمنين

فِي ٱلصَّوْمِ كَانَتْ تُقَـضِّي فِي ٱلْمَسَاجِدِ عَنْ ... تَقْوَى ٱلثُّقَاةُ بِإِخْبَاتٍ لَيَالِيَهَا (١)
وَٱلْمَسْجِدُ ٱلْأَعْظَمُ ٱلْـكُوفِيُّ كَانَ بِتِلْـــكَ ٱللَّيْلَةِ ٱلنَّاسُ فِيهِ وَهْوَ آوِيهَا
وَكَانَ مِنْ بَيْنِهَا فِي قُرْبِ مَنْبَرِهِ ... رَهْطٌ تُصَلِّي وَلَا يَعْيَا مُصَلِّيهَا
تَتْلُوْ قِيَامًا قُعُوْدًا غَيْرَ وَانِيَـةٍ ... آيَ ٱلْـكِتَابِ فَتُشْجِيهَا مَثَانِيهَا
بِذَا قَضَتْ لَيْلَهَا سَهْرَى مُهَجِّدَةً ... فَمَا غَفَا أَوْ شَكَا ٱلْأَوْصَابَ جَانِيهَا
وَعِنْدَ مَا لَاحَ نُوْرُ ٱلْفَجْرِ أَقْبَلَ مَوْ ... لَانَا ٱلْوَصِيُّ وَسِيمَا ٱلْمَجْدِ يُبْدِيهَا
وَصَاحَ فِي ٱلنَّاسِ هُبُّوْا لِلصَّلَاةِ عِبَا ... دَ ٱللهِ أَفْضَلُـكُمْ سَعْيًا مُؤَدِّيهَا
وَمَا أَتَمَّ عَلِيٌّ حَيْعَلِيَّتَهُ ... إِلَّا بَرِيقُ سُيُوْفٍ كَانَ تَالِيهَا
وَصَائِحٌ قَائِلٌ: مَا ٱلْحُـكْمُ حَيْدَرَةٌ ... إِلَّا لِرَبِّكَ رَبِّ ٱلْخَلْقِ دَارِيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى بِجُمُوْعِ ٱلنَّاسِ صَاحَ: فَلَا ... يَفُوْتَـنَّكُمْ قَاتِلِي وَٱلذُّعْرُ فَاشِيهَا
أَمَّا تَفَاصِيلُ مَأْسَاةِ ٱلْإِمَامِ فَقَدْ ... جَرَتْ كَمَا نَقَلَ ٱلرَّائِيْ لِرَاوِيهَا
فَقَالَ: أَنَّ شَبِيْبًا كَانَ أَوَّلَ مَنْ ... أَهْوَى بِضَرْبَةِ سَيْفٍ رَاحَ نَابِيهَا
ثُمَّ ٱبْنُ مُلْجَمَ أَهْوَى ضَرْبَةً ثَبَتَتْ ... فِيْ رَأْسِ حَيْدَرَةٍ لَا كَانَ مُهْوِيهَا
وَفَرَّ بَعْـدُ شَبِيبٌ نَحْوَ مَنْزِلِهِ ... يَبْغِي ٱلسَّلَامَةَ لَـكِنْ لَيْسَ لَاقِيهَا

الحسن : فمتقع لوني ، ووجف قلبي ، وقفّ الشعرُ في رأسي وجسمي ، وأيقنت بانقضاء أجل أمير المؤمنين، ثمّ سار الى المسجد فكان مقتله عليه السلام » آه

(١) كانت ليلة ١٧ رمضان ليلة الجمعة وكان الناس يرجون ان تكون ليلة القدر ولعل هذا الرجاء هو الذي حمل اولئك الممهوسين على تخصيص صباح اليوم المذكور لجريمتهم المثلثة اذا سلمنا مع المؤرخين بأنّ الجريمة لم توجد في ادمغة اولئك الفجرين الفسقة بدسيسة أحد بل بمجرّد التقرّب الى الله سبحانه بارتكاب هذا الاثم العظيم . وكان من عادة المسلمين في رمضان ان يقضوا قسماً من لياليهم في المسجد ولا تزال هذه عادتهم حتى يوم الناس هذا يأوون اليه للصلاة والاذكار والعبادة وكان بعض الزهاد المتعبدين يحيون ليالي رمضان بطولها في المسجد ولا سيما ليالي الجمع على اعتقاد ان تكون احداها ليلة القدر التي العبادة فيها افضل من عبادة ألف شهر

وقد نقل الرواة الثقاة عن عبد الله بن محمد الازدي وكان شهد عيان في مصرع سيدنا علي عليه صلوات الله قال « اني لأصلي في تلك الليلة (ليلة الجمعة ١٧ رمضان) في المسجد الاعظم (في

إِذْ جَدَّ فِي أَثَرِهِ مِنْ آلِهِ بَطَلٌ   شَهْمٌ إِسَاءَتُهُ مَا كَانَ غَاضِيهَا
وَقَالَ: وَيْلَكَ أَهْلَكْتَ الْخَلِيفَةَ لَوْ   مَاً مَا الْخِلَافَةُ تَبْقَى بَعْدَ حَامِيهَا
خُذْهَا عَدِمْتُكَ مِنِّي غَيْرَ خَائِبَةٍ   وَرُحْ بِهَا لِجَحِيمِ النَّارِ تَصْلِيهَا
وَرَاحَ ضَارِبُهُ بِالسَّيْفِ قَاتِلَهُ   فَخَرَّ مُخْتَبِطَ الْأَحْشَاءِ دَامِيهَا
وَالنَّاسُ قَدْ لَزِمَتْ شَرَّ الْخَلِيقَةِ طُـ   ـرّاً لَزْمَةً أَوْشَكَتْ تُودِي بِهِ فِيهَا
كَانَتْ تُعَضْعِضُهُ عَضّاً وَتَضْرِبُهُ   ضَرْبَاً وَمَا بَلَغَتْ مِنْهُ تَشَفِّيهَا
كَانَتْ تَقُولُ: عَدُوَّ اللهِ وَيْلَكَ فَجَّـ   ـعْتَ الْحَنِيفَةَ فِي أَسْمَى مُذِيعِيهَا
وَأُمَّةُ الْمُصْطَفَى أَهْلَكْتَهَا بِشَبَا الـ   ـسَّيْفِ الَّذِي فِيهِ قَدْ أَهْلَكْتَ رَاعِيهَا
وَذَلِكَ الْمُجْرِمُ ابْنُ الْمُلْجَمِ الْمُتَهَوِّ   سُ اللَّعِينُ صَمُوتٌ لَا يُفَاهِيهَا
لَوْلَا خِطَابُ شَهِيدِ الْمُسْلِمِينَ لَمَا   نَجَا مِنَ الْمَوْتِ تَمْزِيقاً بِأَيْدِيهَا
فَقَالَ صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ وَالدَّمُ يَكْـ   ـسُوهُ مِنَ الْحُلَلِ الْحَمْرَاءِ قَانِيهَا
وَصِيَّتِي لَكُمُ يَانَاسُ فَاسْتَمِعُو   هَا وَاطْلُبُوا الْعَفْوَ وَالْحُسْنَى لِمُوصِيهَا
أَنْ تَعْبُدُوا رَبَّكُمْ لَا تُشْرِكُوا أَحَداً   مَعْـهُ عِبَادَةَ بِرٍّ فَازَ آتِيهَا
وَسُنَّةُ الْمُصْطَفَى الْغَرَّا احْفَظُوا وَلَقَدْ   خَابَتْ مَسَاعِي الْأُلَى بَاتُوا مُضِيعِيهَا
ذَانِ الْعَمُودَانِ يَاصَحْبِي مُقِيمُهُمَا   تَاللهِ يُلْفِي مِنَ الْآمَالِ سَامِيهَا
ذَانِ السِّرَاجَانِ يَاصَحْبِي مُضِيئُهُمَا   لِيَأْمَنُ الْغِيَرَ السُّوءَى وَيَتَّقِيهَا
نَصِيحَتِي فَاسْمَعُوا اسْمَعْاً خَلَاكُمْ ذَ   مٌّ حَاذِرُوا أَنْ تَكُونُوا مُسْتَهِينِيهَا

الكوفة) مع رجال من أهل المصر كانوا يصلون في ذلك الشهر من اول الليل الى آخره اذ نظرت الى رجال يصلون قريباً من السدة قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً ما يسأمون اذ خرج عليهم علي ابن ابي طالب الفجر فأقبل ينادي : الصلاة الصلاة . فرأيت بريق السيف وسمعت قائلاً يقول : الحكم لله ياعلي لا لك . ثمَّ رأيت بريق سيف آخر وسمعت صوت علي عليه السلام يقول : لا يفوتكم الرجل » وذيل ابو الفرج الرواية وهو ناقلها قائلاً اما بريق السيف الاول فانه كان سيف شبيب بن بجيرة ضربه فأخطأه ووقعت ضربته في الطاق . واما بريق السيف الثاني فانَّه سيف الملعون عبد الرحمن بن ملجم ضربه فأثبت الضربة في وسط رأسه وشدَّ الناس عليهما فأفلت شبيب وتمكن من الهرب فسرع الى منزله فدخل عليه ابن عمٍّ له فرآه يحلُّ الحرير عن صدره فقال له يا

قَدْ كُنْتُ يَا قَوْمِ فِي أَمْسِي مُصَاحِبَكُمْ صَحَابَةً لَمْ أَكُنْ تَاللهِ رَاضِيَهَا
وَهَا أَنَا بِدِمَائِي عِبْرَةٌ لَكُمُ ذَا الْيَوْمَ يُنْذِرُنِي بِالْمَوْتِ هَامِيهَا
وَفِي غَدٍ يَا بَنِي أُمِّي مُفَارِقُكُمْ بِغُرْبَةٍ لَمْ أَكُنْ يَوْمًا مُبَالِيهَا
أَنَا وَلِيُّ دَمِي إِنْ أَبْقَ بَيْنَكُمُ أَعْدَاؤُهُ مِثْلَمَا أَهْوَى أُقَاضِيهَا
وَإِنْ فَنِيتُ فَمِيعَادِي الْفَنَاءُ وَقَدْ بَلَغْتُهُ وَحَيَاتِي اللهُ مُفْنِيهَا
وَإِنْ عَفَوْتُ فَزُلْفَى لِلْمُهَيْمِنِ عَفْـــوِي بَلْ مَبَرَّتُهُ عَنْكُمْ أُؤَدِّيهَا
فَاعْفُوا فَفِي الْعَفْوِ خَيْرٌ ثُمَّ مَثُوبَةٌ إِنَّ الْكِرَامَ تَعْفُو عَنْ مُسِيئِيهَا
أَلَا تَوَدُّونَ أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ غُفْـــرَانًا خَطِيئَاتِكُمْ وَالْكُلُّ مُخْطِيهَا
وَاللهِ مَا فَجْأَةُ الْمَوْتِ الزُّؤَامِ كَرِهْـــتُهَا وَلَا رُمْتُ عَنِّي أَنْ أُفَجِّيهَا
وَلَا لَهُ طَالِعٌ أَنْكَرْتُ طَلْعَتَهُ وَإِنْ تُكَرِّهْ أَهْلَ الْأَرْضِ تُكْرِهُهَا
وَلَمْ أَكُنْ غَيْرَ ظَامٍ شَامَ مَوْرِدَهُ وَطَالِبٍ بُغْيَةً أَضْحَى مُلَاقِيهَا
وَمَا لَدَى اللهِ خَيْرٌ لِلْأُلَى زَهِدُوا فِي ذِي الْحَيَاةِ وَقَدْ جَافُوا مَلَاهِيهَا
نَعَمْ لَقَدْ أَثَّرَتْ أَقْوَالُ حَيْدَرَةٍ كَمَا أَرَادَ شَهِيدُ الدِّينِ مُلْقِيهَا

هذا ؟ءألملك قتلت أمير المؤمنين وانتضي سيفه وقتله . وأما الملعون عبد الرحمن بن ملجم فحدق به الناس وطفقوا ينهشون لحمه بأسنانهم كأنهم السباع ويقولون يعدو الله ماذا صنعت ؟ أهلكت أمة محمد وقتلت خير الناس كل هذا وهو لعنه الله صامت لا ينطق ببنت شفة وكاد الناس يقتلونه لولا ان يدوي في الجامع صوت أمير المؤمنين عليه صلوات الله والدم يتدفق من رأسه الشريف فقال : أيها الناس ، وصيتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ومحمد صلى الله عليه وآله ، فلا تضيعوا سنته ، أقيموا هذين العامودين ، وأوقدوا هذين المصباحين ، وخلاكم ذم ، أنا بالامس صاحبكم ، واليوم عبرة لكم ، وغداً مفارقكم ، ان ابق ، فأنا ولي دمي ، وان أفنى فالفناء ميعادي ، وان اعف فالعفو لي قربة ، وهو لكم حسنة ، فاعفوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ ، والله ما فجأني من الموت وارد كرهته ، ولا طالع انكرته ، وما كنت الا كقارب ورد ، وطالب وجد ، وما عند الله خير للابرار » آه .

وعندما انتهى سيدنا علي عليه صلوات الله من خطابه هذا روح الناس مستمعين حكمته راضين لرضائه ونقلوه وهم جزعون الى منزله الشريف واستاقوا الملعون بن ملجم الى السجن رهين ما يجري به الاقدار على أمير المؤمنين فاما ان يشفى ويحكم بأمره وقد يعفو عنه كما قال في خطابه وأما أن يقضي فلا يكون له غير الموت جزاء فلتسه الشفاء على ما يقضي به القرآن الشريف « ولكم في القصاص حياة يا ذوي الالباب »

وَسَارَتِ النَّاسُ بِالمَوْلَى الجَرِيحِ إِلَى ... دِيَارِهِ وَالبُكَا يَمْلَأُ مَآقِيهَا
وَسِيقَ بِالمُجْرِمِ المَلْعُونِ إِذْ حَبَسُوهُ ... حَبْسَةً لَمْ يَكُنْ تَاللهِ نَاجِيهَا

جرح معاوية وسلامته

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ يَوْمِ الشُّؤْمِ قَدْ حَدَثَتْ ... جَرِيمَةُ الشَّامِ فَاهْتَزَّتْ نَوَاحِيهَا
بَيْنَا مُعَاوِيَةٌ فِي الجَامِعِ الأُمَوِيّ ... لِلصَّلَاةِ وَقَدْ وَافَى يُوَفِّيهَا

---

(١) خرج معاوية في فجر يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة الى الصلاة في الجامع الأموي وما كاد يحيل على الصلاة حتى فاجأه البرك بن عبد الله التميمي بضربة سيف اصابت أليته فهجم الناس عليه واستاقوه مقيداً الى السجن وحمل معاوية الى داره وارسل فاستدعى اليه البرك وسأله عن سر جريمته وأبى ان يبوح بشيء غير قوله ان عندي خبراً اسرك به فان اخبرتك هل تعفو عني قال معاوية قل لنرى قال البرك ان أخاً لي قد قتل علياً في صباح هذا اليوم . قال معاوية : فلعله لم يقدر على ذلك · قال البرك بل يقدر فان علياً ليس معه أحد يحرسه ومع هذا فاتركني حياً حتى اذا ما قتل أخي بقتل علي ذهبت أنا وقتلته فتبسم معاوية وقال كلا لا يكون هذا أبداً وأمر به فقتل في الحال . وبعث معاوية الى الساعدي وكان من أشهر اطباء الشام وتشذر فلما نظر إليه قال اختر اما أن احمي حديدة فأضعها موضع السيف واما أن اسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها فان ضربتك مسمومة فقال معاوية أما النار فلا صبر لي عليها وأما الولد فان في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني فسقاه شربة فبرىء ولم يولد له ولد بعدها . وأمر معاوية بعد ذلك ان تقام له مقصورة في الجامع الاموي يصلي فيها وارصد حراساً لتخصه يحرسونه ليلاً ونهاراً وهو أول من عمل هذا في الاسلام

نقول ولقد سألنا كثيرين من اصدقائنا الاطباء عما اذا كان يوجد دواء يطهر الانسان من سم دخل الى جسمه بواسطة جرح ويقطع الولد فاجابوا انهم لا يعرفون دواء يفعل هذا الفعل لا في الطب القديم ولا في الطب الحديث

« ترجمة معاوية »

وهنا يخلق بنا ان نأتي على ترجمة معاوية بن أبي سفيان اذ لا رحمة لنا الى ذكره في علويتنا المباركة فنقول:

هو أبو يزيد ويدعى أبو عبد الله معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . وامه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد منـاف بن قصي . وهي أم أخيه عتبة بن أبي سفيان . واما يزيد بن أبي سفيان ومحمد بن أبي سفيان وعيبة بن أبي سفيان وحنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فهم من امهات شتى . وأبو سفيان هو الذي ساق قريشاً في حروبها الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو رئيس بني عبد شمس بعد قتل عتبة بن ربيعة في غزوة بدر الكبرى ولذلك دعي ابو سفيان صاحب العير وعتبة صاحب النفير ومنها جرى على السن الناس المثل المأثور « لا في العير ولا في النفير » يقال ذلك للرجل الخامل . ودعي أبو سفيان صاحب العير اشارة الى العير التي كان قادماً بها من الشام وهي تحمل العطر والبر فلما سمع بخروج المسلمين للقائه ارسل الى مكة يستنصر أهلها وضرب بوجوه عيره الى البحر فساحل بها حتى انقذها من الخطر الذي كان محدقاً بها وكانت غزوة بدر الكبرى التي مر معنا تلخيص حوادثها لاجلها . وسمي عتبة صاحب

إِذَا بِضَرْبَةِ سَيْفِهِ فِي عَجِيزَتِهِ ‏ ‏ ‏ قَدْ أَصْبَحَ ٱلتُّرْكُ ٱلْمَفْتُونُ مُمْضِيهَا

وَمَا عَلَيْهِ قَضَتْ لٰكِنَّهَا شَفِيَتْ ‏ ‏ ‏ مِنْ بَعْدِ مَا أَحْكَمَ ٱلْآسِي تَدَاوِيهَا

وَأَنْبَأَ ٱلتُّرْكُ ٱلْمَخْذُولُ صَاحِبَهُ ‏ ‏ ‏ عَنْ فَجْعَةِ ٱلْكُوفَةِ ٱلسَّوْدَاءِ تَجْرِيهَا

وَقَالَ: لَا تَقْتُلُونِي قَبْلَ أَنْ تَقِفُوا ‏ ‏ ‏ عَلَى حَقِيقَتِهَا مِنْ عِنْدِ أَهْلِيهَا

النفير لانه نفر الى نصرة أبي سفيان برجالة قريش واشتبك مع المسلمين في موقعة بدر وقتل فيها فدعي صاحب النفير وهو جدّ معاوية لامه . وكانت هند أم معاوية تذكر في مكة بفجور وعهر حتى كان الناس يشكون في نسب أولادها فيعزون معاوية الى اربعة وهم مسافر بن أبي عمرو وعمارة بن الوليد بن المغيرة والعباس بن عبد المطلب ومغنٍ لأبي سفيان يقال له الصباح . قالوا وقد كان أبو سفيان دميماً قصيراً وكان الصباح خادماً لابي سفيان ونديماً وهو شاب وسيم الوجه حسن الطلعة فدعته هند الى نفسها فغشيها . وقالوا انّ عتبة بن أبي سفيان من الصباح ايضاً وقالوا انها كرهت ان تضعه في منزلها فخرجت الى أجياد فوضعته هناك . ومن الناس من يبرئون هنداً من العهر ويدافعون عن طهارتها وحصانتها والله أعلم . وطالما كان الناس يعيبون معاوية بامه في الجاهلية والاسلام وهو يقول ما هند بشرّ نسائكم

وولد معاوية في مكة المكرمة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وكان عمره يوم فتح مكة ٢٣ سنة واسلم في ذلك اليوم مع أبيه ومن أسلم من قريش وهم الذين يطلق عليهم اسم « الطلقاء » واصبح بعد الفتح من كتبة الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله في جملة الكتاب . وفي خلافة أبي بكر تولى قيادة جيش ارسله ابو بكر مدداً للجيش الذي كان يقوده اخوه يزيد بن أبي سفيان في فتح الشام فاشترك مع يزيد في فتح صيداء وعرقة وجبيل وبيروت من سواحل سوريا . وفي عهد عمر تولى ولاية الاردن ولما توفي يزيد اخوه في طاعون عمواس وكان والياً لدمشق ولاه عمر بن الخطاب دمشق ثمّ سوريا بجملتها . وكان معاوية أدهى دهاة العرب فما كاد يستلم ولاية سوريا حتى طمحت نفسه الى الاستئثار بها فطفق يجمع المال ويدخره علماً منه انه « قاضي الحاجات » وبالرغم عما اشتهر عن شدة عمر بن الخطاب على عماله وعزله كل من استغنى منهم ومال الى الترف بالرغم من كل هذا أبقى على معاوية في ولاية سوريا وما استطاع حمله على التخلي عن الاموال التي كان يخزنها وعن الترف الذي صار اليه حتى انه كان يتشبه بملوك الروم في ملبسه ومأكله وفخامة رياش بيته وعظمة مواكبه قالوا وقد لامه عمر يوماً على ترفه فقال له ان القوم في الشام قد اعتادوا على رؤية ملوكهم في العظمة والترف فلا يأبهون ان لم يروه مثلهم قالوا فرضي عمر بن الخطاب بهذا الجواب واقتنع به أما نحن فعلى قلة علمنا نقول ان عمر بن الخطاب لم يقتنع بجواب معاوية ولا كان راضياً عن حاله ولكنه كان رشيداً ذكياً فهم ان أمره قد استفحل وانه يعجز عن عزله فأبقى عليه وسكت عنه والله سبحانه أدرى بالحقيقة واعلم

وعندما قتل عمر بن الخطاب وتولى عثمان الخلافة حسب الشورى التي أوصى بها الخليفة المقتول ذهب لنا شك في انّ لمعاوية هذا يداً في تولية عثمان مع عدم ارجحيته على الستة ولا سيما سيدنا علي كما ذهب لنا الشك في ما هو ابعد من ذلك في انّ عمر بن الخطاب ما ترك الامر شورى لستة الا وهو يعلم انه لو اوصى بها لواحد لتقدم غيره عليه من مرشحيه وتوقعت فتنة والله سبحانه اعلم بهذا ايضاً

وفي عهد عثمان كانت الخلافة رهن ارادة وتدبير وتحكم مروان بن الحكم في المدينة المنورة ومعاوية بن أبي سفيان في الشام وكل ما نقمه المسلمون على عثمان كان بجريرتهما والله يعلم والتاريخ

فَإِنْ قَضَى ٱلْمُرْتَضَى أَنْتُمْ وَشَانُكُمُ مَعِي وَبُغْيَتُكُمْ لِي كُنْتُ بَاغِيَهَا
وَإِنْ نَجَا فَاتْرُكُونِي كَيْ أُسِيرَ إِلَيْهِ إِنَّ قَتْلَتَهُ مَا زِلْتُ نَاوِيَهَا
فَمَا إِلَى قَوْلِهِ أَصْغَى مُعَاوِيَةٌ وَلَا إِمَاتَتُهُ قَدْ كَانَ مُرْجِيَهَا
قَضَى عَلَيْهِ سَرِيعاً بِالْإِمَاتَةِ تَمْثِيلاً فَرَاحَ إِلَى ٱلنِّيرَانِ يَأْوِيهَا

يشهد انّ عثمان لم يكن راضياً عن كلما كان ولكنه كان ضعيفاً بإذاء صاحبيه وبني أمية من ورائهما فاستسلم لارادتهما فساقاه الى تلك النتيجة السوداء

وبعد مقتل عثمان اتهم معاوية سيدنا علي بقتله وهو يعلم قبل غيره ان الذي قتله في الحقيقة ليس علي ولا سواه بل هو نفسه ومروان بن الحكم ومعاشر الامويين الذين تعجلوا بالسيطرة على الخلافة وجرّ منافعها لانفسهم وما كان يتهم معاوية سيدنا علي بقتل عثمان زوراً الاّ لحمل الناس على كرهه وعصيان أمره حتى كان ما قد ورد لنا بيانه فيما تقدم ومع أنّ اتهام سيدنا علي بمقتل عثمان كان في مصلحة معاوية والامويين لرغبتهم باستخلاص الخلافة لانفسهم فيسودون العرب في الاسلام كما كانوا يسودونهم في الجاهلية مع ذلك كان معاوية شخصياً يكره سيدنا علي ويبغضه ويحقد عليه وينقم لانه قتل يوم بدر اخاه حنظلة وخاله الوليد بن عتبة واشترك في قتل جده عتبة نفسه وقتل عليه صلوات الله عدا هؤلاء عدداً كبيراً من بني عمه عبد شمس وترات معاوية هذه على سيدنا علي مردي الكفار والمشركين هيهات ان ينساها له ويخضع لأمره وينزل على حكمه

وظلّ معاوية وهو والي سوريا الى قبل حرب صفين حيث بايعه الناس على ان يدع الامر شورى يختارون لانفسهم الخليفة الذي يرضونه ولكنه بعد التحكيم إدّعى ان حيلة عمرو بيعة صحيحة له فنادى بنفسه خليفةً للمسلمين فبايعه أهل الشام ثمّ أخذ يرسل جيوشه لغزو بلاد الخلافة واكراه الناس على بيعته فبايعه أهل مصر بحزم ودهاء عمرو بن العاص وبايعه أهل الحجاز واليمن كرهاً على عهد بسر ثم رفضوا بيعته بعد ان جاءهم جارية من قبل سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله ولذلك لم يعتبر الفقهاء والمؤرخون بيعته صحيحةً معتبرةً . وقول حضرة الشيخ الخضري في محاضراته في الجامعة المصرية انّ أهل الشام انتخبوا معاوية خليفةً لهم تضليل للحقيقة والتاريخ فانّ معاوية كان متغلباً على أهل الشام يكرههم على ما يريد اكراهاً فبايعوه مكرهين غير مختارين ولا منتخبين وان أهل الشام لا يملكون حق انتخاب الخلافة ولا جزءاً من ذلك الحق بل الذين يملكونه هم بقايا المهاجرين والانصار واولاد الذين ماتوا منهم ومعظم هؤلاء انتخبوا سيدنا علي للخلافة وبايعوه بها بيعة علنيةً في المسجد النبوي في المدينة المنورة . وبعد قتل سيدنا علي عليه صلوات الله تولى الخلافة سيدنا الحسن عليه السلام ببيعة أهل العراق غير أنه عليه السلام رأى بعد ستة أشهر ان يتخلى عن الخلافة لمعاوية ففعل لاسباب سنأتي عليها عند ذكرنا ترجمة سيدنا الحسن في حاشية تجيء ان شاء الله

وظلّ معاوية على عرش الخلافة الى سنة ٦٠ للهجرة ففي جمادي الثانية من تلك السنة مرض مرض الموت ومات لهلال رجب من السنة المذكورة « ٧ أفريل سنة ٦٨٠ مسيحية » وكانت وفاته في دمشق ودفن فيها ومما لا جدال فيه ان معاوية كان من الدهاء ومضاء العزيمة على اعظم جانب وكان طماحاً الى العلاء يستسهل كل شيء في سبيله على ما رأينا من أعماله فيما تقدم من حواشي هذه العلوية المباركة

نجاة عمرو بن العاص

هَلِ ٱلْقَضَا أَمْ وُفُورُ ٱلْحَظِّ أَنْقَذَ عَمْـرًا مِنْ مَنِيَّتِهِ إِذْ رَاحَ مُنْسِيهَا(١)
أَمْ يَخْبِطُ ٱلْمَوْتُ كَالْعَشْوَا بِغَيْرِ هُدًى فَمَا يُصِيبُ مِنَ ٱلأَرْوَاحِ يُرْدِيهَا
أَمْ أَنَّ عَمْرًا لَهُ فِي بَيْ ٱلْفِعَالِ يَدٌ سَوْدَاءُ أَمْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ يَدْرِيهَا
فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ عَمْرٌو عَلَّ وَٱطَّلَبَ ٱلْـطَّبِيبَ لِلْعِلَّةِ ٱلْفُجْئَى يُدَاوِيهَا
أَوْ قَدْ تَمَارَضَ كَيْ يَبْقَى بِمَنْزِلِهِ مُحَاشِيًا ضَرْبَةً صَعْبٌ تَوَقِّيهَا
وَنَابَ عَنْهُ بِأَمْرٍ مِنْهُ خَارِجَةٌ لِكَيْ يُقِيمَ صَلَاةَ ٱلصُّبْحِ يَقْضِيهَا
فَأَمَّ جَامِعَ عَمْرٍو غَيْرَ مُكْتَرِثٍ إِلَى ٱللَّيَالِي وَمَا تَنْجَا فَوَاجِيهَا
وَإِذْ بِعَمْرِو ٱبْنِ بَكْرٍ رَاحَ بَاغِتَهُ بِضَرْبَةٍ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مُثَنِّيهَا
وَضَجَّتِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْفُسْطَاطِ ضَجَّتَهَا لِفَعْلَةٍ جَهِلَتْ جَهْلًا خَوَافِيهَا
وَمَاتَ خَارِجَةٌ مِنْ جُرْحِهِ غَدَهُ ضَحِيَّةً مَا أُرِيدَتْ مِنْ مُضَحِّيهَا
وَيْلُ آمِّهِ كَيْفَ لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ مَنْ قَدْ رَامَ قَتْلَتَهُ مَا ٱنْفَكَّ يَنْوِيهَا
أَمَا رَأَى عَمْرَو يَوْمًا فِي ٱلصَّلَاةِ وَلَا فِي ٱلسُّوقِ أَوْ سُبُلِ ٱلْفُسْطَاطِ يَمْشِيهَا
أَمَا تَبَيَّنَ مَنْ يَبْغِي إِمَاتَتَهُ قَبْلًا لِيَأْمَنَ فِي إِجْرَامِهِ ٱلتِّيهَا
إِنِّي أُشَكِّكُ فِي هٰذِي ٱلْحَوَادِثِ مَا أَظُنُّ عَمْرًا بَعِيدًا عَنْ مَنَاحِيهَا
لٰكِنَّ عَمْرًا لَقَدْ أَرْدَى لِسَاعَتِهِ ٱلْـمَعْتُوهَ أَرْسَلَهُ لِلنَّارِ يَصْلِيهَا
لَوْلَا ٱلدُّهَا مَا نَجَا عَمْرٌو بِمُهْجَتِهِ مِنَ ٱلْمَنِيَّةِ يَاسُبْحَانَ مُنْجِيهَا

---

(١) في فجر ذلك اليوم الاسود ايضاً اي يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة مرض عمرو بن العاص أو تمارض « الله اعلم بالحقيقة » قالوا اشكى بطنه فأمر خارجة بن أبي حبيبة وكان صاحب شرطته وهو من بني عامر بن لؤي نخرج ليصلي بالنـاس فشدَّ عليه عمرو بن بكر بسيفه فضربه فقتله وهجم الناس على قاتله واستاقوه الى عمرو بن العاص ومر بقتله في الحـال فقال امهاني وعندي خبر يسرُّك قال وما هو؟ قال ان اخاً لي قتل الساعة علياً بن أبي طالب في الـكوفة . قال لعله عجز عن قتله قال انسيء قتلي اذن وذا عجز عن قتله أمضي أنا واقتله قال بل اقتلك الساعة وأمر بقتله فقتل. ثمَّ انَّ عمراً بن العاص زار خارجة وهو يحتضر فطيب خاطره وهو ضحيته وقال أرادني القاتل والله لم يرد . فقال خارجة ولـكني كنت بديلك والامر لله

وصية أمير المؤمنين للحسنين

سَلَامَةُ ٱلْمُرْتَضَى هَمَّتْ صَحَابَتَهُ … فِيهَا ٱلسَّلَامَةُ مِنْ دَهْرٍ يُنَاوِيهَا (١)

كَذَاكَ هَمَّتْ جُمُوعَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَفِيـهَا لِلْخِلَافَةِ صَوْنٌ مِنْ أَعَادِيهَا

وَعَمْرُكَ ٱللهَ قَدْ كَانَتْ جِرَاحَتُهُ … فِي قَلْبِ كُلِّ تَقِيٍّ مِنْ أَهَالِيهَا

ضَاقَتْ لَهَا ٱلْكُوفَةُ ٱلرَّحْبَا بِسَاكِنِهَا … وَٱلْحُزْنُ خَيَّمَ فِي ضَافِي مَغَانِيهَا

وَبَاتَتِ ٱلنَّاسُ فِي هَمٍّ وَفِي جَزَعٍ … عَلَى ٱلْخَلِيفَةِ مَا أَمْنٌ تَحَزُّنُهَا

وَأَصْبَحَتْ بِجَوَاهَا تَسْتَبِينُ نَبَا … عَمِيدِهَا ٱلْمُفْتَدَى وَٱلْخَوْفُ فَاشِيهَا

وَتَسْأَلُ ٱللهَ أَنْ يُبْرِي ٱلْوَصِيَّ مِنَ ٱلْـ … ـجِرَاحَةِ ٱلْمُشْتَكِي مِنْهَا وَيُبْرِيهَا

وَعَادَتِ ٱلنُّطُسُ ٱلْحُذَّاقُ خَيْرَ شَهِيـ … ـدٍ تَرْتَجِي بُرْأَهُ وَٱلطِّبُّ مُعْيِيهَا

وَكَانَ يَحْذُقُ تَطْبِيبَ ٱلْجُرُوحِ أُثَيْـ … ـرٌ فِي مَرَاهِمِهِ ٱلشَّتَّى يُدَاوِيهَا

وَإِذْ تَكَشَّفَ جُرْحَ ٱلْمُرْتَضَى وَرَأَى … قَدْ سُمَّ نَادَى: فَلَا رُجْعَى لِرَاجِيهَا

وَقَالَ: فَٱعْهَدْ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِلَا … وَنًى ٱلْعُهُودَ ٱلَّتِي تُرْضِيكَ نُجْرِيهَا

فَإِنَّ سَيْفَ عَدُوِّ ٱللهِ وَاصَلَ أُ … مَّ ٱلرَّأْسِ قَدْ كَانَ يَا لَلهِ مُدْمِيهَا

فَلَمْ يَخَفْ مَنْ أَخَافَ ٱلْمَوْتَ مَوْتَتَهُ … لٰكِنْ بِهَا نَفْسُهُ أَمْسَى يُمَنِّيهَا

وَقَالَ فِي يَوْمِهِ مَا كَانَ قَائِلَهُ … فِي ٱلْأَمْسِ قَالَ: أَحْبَابِي أُوَافِيهَا

فَقَالَ جُنْدُبُ: آمِرْنَا نُطِعْكَ وَنَرْ … جُو أَنْ تَعِيشَ لِقَوْمٍ أَنْتَ هَادِيهَا

فَهَلْ لِأَمْرِكَ إِنْ حُمَّ ٱلْقَضَا حَسَنٌ … وَهَلْ لَهُ ٱلْبَيْعَةُ ٱلْكُبْرَى نُؤَدِّيهَا

---

(١) عند ما نقل سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله الى داره وهو جريح دعوا لعيادته اطباء الكوفة فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من اثير بن عمرو بن هانيء السكوني وكان متطبباً صاحب كرسي يعالج الجراحات وكان من الاربعين غلاماً الذين كان بن الوليد اصابهم في عين التمر فسباهم. فلما نظر اثير الى جرح أمير المؤمنين دعا برئة شاة حارّة وستخرج منها عرقاً ادخله في الجرح ثمّ نفخه ثمّ استخرجه واذا عليه بياض الدماغ فقال يا أمير المؤمنين اعهد عهدك فانّ عدوّ الله قد وصلت ضربته الى أمّ رأسك . فتبسم عليه صلوات الله تبسم من يهزأ بالموت وقال الحمد لله فاني ذاهب الى احباب قلبي وهكذا لم يخف من المنية من اخافها وتقدم منه جندب بن عبد الله فقال : ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال عليه صلوات الله ذلك حق المسلمين فلا آمركم ولا انهاكم انتم أبصر

فَقَالَ: ذٰلِكَ حَقُّ ٱلْمُسْلِمِينَ فَإِنْ   رَأَوْهُ أَهْلاً لَهَا رَاحُوا مُبِيعِيهَا

ثُمَّ أَجَالَ بِمَنْ حَوْلَيْهِ نَظْرَةَ تَوْ   دِيعٍ بِعَيْنٍ أَلِيمُ ٱلْجُرْحِ مُطْفِيهَا

وَشَافَهَ ٱلْحَسَنَيْنِ ٱلطَّاهِرَيْنِ بِمَا   فِي نَفْسِهِ مِنْ وَصَايَا رَاحَ تَالِيهَا

فَقَالَ: أُوصِيكُمَا يَا صَاحِبَيَّ بِتَقْـ   ـوَى ٱللهِ هِيَّ ٱسْمَعَاهَا مِنْ مُوَصِّيهَا

وَإِنَّ دُنْيَا كُمَا لَا تَبْغِيَا وَلَئِنْ   بَغَتْكُمَا فَهْيَ لَا تَصْفُو لِبَاغِيهَا

وَمَا زَوَتْ عَنْكُمَا مِنْ زَهْوِ زُخْرُفِهَا   عَلَيْهِ لَا تَأْسَفَا بَلْ وَٱزْهَدَا فِيهَا

وَٱلْحَقَّ قُولَاهُ جَهْرًا فَهْوَ حِلْفُكُمَا   عَلَى ٱلْأَعَادِي ٱلَّتِي تَبْغِي ٱلتِّرَارِيهَا

أَلَا ٱعْمَلَا لِنَوَالِ ٱلْأَجْرِ جُهْدَكُمَا   أَعْمَالَ بِرٍّ إِلٰهُ ٱلْعَرْشِ يَجْزِيهَا

وَنَاصِرًا كُلَّ مَظْلُومٍ شَكَا وَعَلَى ٱلـ   ـظُّلَّامِ كُونَا وَكُونَا عَوْنَ شَاكِيهَا

أُوصِيكُمَا وَجَمِيعَ ٱلْأَهْلِ وَٱلْوَلَدِ ٱلْـ   أَنْجَابِ وَٱلْعِتْرَةِ ٱلْمَسْعُودُ نَاشِيهَا

وَمَنْ إِلَيْهِ ٱنْتَهَى هٰذَا ٱلْمَقَالُ بِتَقْـ   ـوَى ٱللهِ إِنِّي بِمَا أُوصِي أُثَنِّيهَا

أُمُورُكُمْ نَظِّمُوهَا فَٱلنِّظَامُ عَلَى   مَا تَشْتَهُونَ مِنَ ٱلْآمَالِ يُمْشِيهَا

وَأَصْلِحُوا بِصَفَاءٍ ذَاتَ بَيْنِكُمُ   لَا شَيْءَ لِلنَّاسِ أَجْدَى مِنْ تَصَافِيهَا

فَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ جَدَّكُمَا   يَقُولُ قَوْلَةَ حَقٍّ لَسْتُ أَزْوِيهَا

إِنَّ ٱلصَّلَاحَ لِذَاتِ ٱلْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ   صَوْمٍ وَخَيْرِ صَلَاةٍ مِنْ مُصَلِّيهَا

أَللهَ أَللهَ فِي ٱلْأَيْتَامِ لَا تَدَعُوا   هَا تَشْتَكِي وَٱرْهَبُوا ٱلْبَارِي مُشَكِّيهَا

أَفْوَاهُهَا لَا تَغِبُّوا فِي ٱلطَّعَامِ وَلَا   تَضِيعُ مَعْكُمْ فَمَا أَشْقَى مُضِيعِيهَا

أَللهَ أَللهَ فِي جِيرَانِكُمْ فَلَهَا   حَقُّ ٱلْوَلَا وَٱلصَّفَا كُونُوا مُوَدِّيهَا

ثمَّ اجال سيدنا علي عليه صلوات الله عينيه بمن حوليه وفيهم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وخاصة اصحابه ونظر اليهم نظرة وداع وقال مخاطباً الحسنين بكلام متقطع: «أوصيكما بتقوى الله، وان لا تبغيا الدنيا وان بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، وقولا الحقَّ، واعملا للاجر، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، أوصيكما وجميع ولدي وأهلي، ومن بلغه قولي هذا، بتقوى الله، ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فاني سمعت جدَّكما صلى الله عليه وآله يقول: اصلاح ذات البين أفضل من عامَّة الصلاة والصيام، اللهَ اللهَ في الايتام، فلا تغبوا افواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم، اللهَ اللهَ في جيرانكم، فانَّهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم، حتى ظننا انَّه

مَازَالَ يُوصِي بِهَا ٱلْهَادِي نَبِيُّكُمُ حَتَّى ظَنَنَّاهُ حَقَّ ٱلْإِرْثِ يُولِيهَا
أَللهَ أَللهَ فِي ٱلْقُرْآنِ فَٱحْتَفِظُوا بِآيِهِ وَٱفْقَهُوا عَالِيْ فَحَاوِيهَا
لَا تَتْرُكُوا غَيْرَكُمْ يَا قَوْمِ يَسْبِقُكُمْ إِلَى ٱلتَّعَامُلِ فِي سَامِي مَبَادِيهَا
أَللهَ أَللهَ فِي خَيْرِ ٱلصَّلَاةِ فُرُو ضٌ مِنْذُ أَوَّلِهَا صَلُّوا لِخَامِيهَا
فَهِيَ ٱلْعَمُودُ ٱلَّذِي شِيدَتْ حَنِيفَتِكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى سَكَنْتُمْ فِي مَبَانِيهَا
أَللهَ أَللهَ فِي بَيْتِ ٱلْإِلٰهِ فَأُمُّـــوهُ حَجِيجاً يَنَالُ ٱلْغُفْرَ سَاعِيهَا
وَلَا تُخَلُّوهُ مَا عِشْتُمْ فَتَرْكَتُهُ تُشَوِّهُ ٱلسُّمْعَةَ ٱلْوَضَّاءَ تَشْوِيهَا
أَللهَ أَللهَ فِي حُسْنِ ٱلْجِهَادِ لِسُبْـــلِ ٱللهِ حَتَّى تُنَقَّى مِنْ خَوَاشِيهَا
فَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ خَيْرَ جِهَا دٍ بِٱلنُّفُوسِ فَمَا أَسْمَى تَفَادِيهَا
كَذَا بِأَلْسِنِكُمْ يَسْمُو ٱلْجِهَادُ وَبِٱلْأَ مْوَالِ يُنْفِقُهَا فِي ٱلْخَيْرِ قَانِيهَا
وَوَاصِلُوا بَعْضَكُمْ بَعْضاً مُوَاصَلَةً حَسْنَا ٱلْقُلُوبُ بِهَا يَسْمُو تَصَافِيهَا
وَأَكْثِرُوا مِنْ هَدَايَاكُمْ فَإِنَّ ذَوِي ٱلْأَ رْحَامِ يَشْغَفُهَا وُدًّا مُهَادِيهَا
وَحَاذِرُوا جُهْدَكُمْ شَرَّ ٱلتَّدَابُرِ وَٱلْـــتَّقَاطُعِ ٱلْمُورِثِ ٱلْعُلْيَا تَدَاعِيهَا
لَا تَتْرُكُوا ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ فَهُوَ لَكُمْ شَرٌّ وَأَسْوَاؤُهُ تُخْشَى غَوَاشِيهَا
بِذَيْنِ لَا يَتَوَلَّاكُمْ شِرَارُكُمُ وَنَكْبَةُ ٱلنَّاسِ تُدْهَى مِنْ تَوَلِّيهَا
وَإِنْ تَهَاوَنْتُمُ عَنْهَا فَدَعْوَتُكُمْ لَا يُسْتَجَابُ وَلَا يُصْغَى لِدَاعِيهَا
لَأُلْفِيَنَّكُمُ يَا آلَ مُطَّلِبِ بَعْدِي وَقَدْ بَلَغَتْ رُوحِي تَرَاقِيهَا
سَتَسْفِكُونَ دِمَاءَ ٱلْمُسْلِمِينَ لِأَخْـــذِ ٱلثَّأْرِ لِي سَفْكَةً مَا كُنْتُ رَاضِيهَا
سَتَمْلَأُونَ ٱلْفَضَا ٱلْأَعْلَى بِصَيْحَتِكُمْ لِقَتْلَتِي صَيْحَةً قَدْ بُتُّ خَاشِيهَا

سيورثهم ، الله الله في القرآن ، لا يسبقكم بالعمل به غيركم ، الله الله في الصلاة ، فانها عمود دينكم ، الله الله في بيت ربكم ، لا تخلوه ما بقيتم ، فانه ان ترك لم تناظروا ، الله الله في الجهاد بأموالكم وانفسكم والسنتكم ، في سبيل الله ، وعليكم بالتواصل والتباذل ، واياكم والتدابر والتقاطع ، لا تتركوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فيولى عليكم اشراركم ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم » اهـ . قال هذا سيدنا أمير المؤمنين وسكت قليلاً مغمضاً عينيه تعباً ثم فتحهما وقال : « يا بني عبد المطلب ،

فَلَيْسَ يُقْتَلُ إِلاَّ قَاتِلِي نَصَفاً وَٱلنَّفْسُ بِٱلنَّفْسِ فِي أَحْكَامِ بَارِيهَا
فَإِنْ أَنَا مُتُّ مِنْ تَأْثِيرِ ضَرْبَتِهِ خُصُّوا بِهِ ضَرْبَةً نَجْلاَ تُحَاكِيهَا
وَلاَ يُمَثَّلُ قَطْعاً بِٱبْنِ مُلْجَمَ إِ نَّ ٱلْمُثْلَةَ ٱلْمُصْطَفَى قَدْ كَانَ نَاهِيهَا
وَكَانَ صَلَّى عَلَيْهِ ٱللّٰهُ يَنْشُرُهَا تِيكَ ٱلْوَصِيَّةَ بِٱلْآلاَمِ يُلْقِيهَا
وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِي مِنْهَا وَزَفْرَتُهُ يَدْوِي بِآذَانِ مَنْ حَوْلَيْهِ دَاوِيهَا
حَتَّى تَلاَشَتْ قِوَاهُ فَوْقَ مَفْرَشِهِ فَمَا أَمَرَّ عَلَى ٱلدُّنْيَا تَلاَشِيهَا
وَنَفْسُهُ ٱنْصَرَفَتْ لِلّٰهِ خَالِقِهَا وَٱلْحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ وَٱلْإِذْكَارُ فِي فِيهَا
كَانَتْ تُنَاجِي رَسُولَ ٱللّٰهِ شَيِّقَةً إِلَيْهِ إِذْ كَانَ عَنْ شَوْقٍ يُنَاجِيهَا
وَحَوْلَهَا مَعْشَرُ ٱلْأَمْلاَكِ قَائِمَةٌ مُرَحِّبَاتٌ بِهَا تَهْوَى تَلاَقِيهَا

وفاة أمير المؤمنين ورثاؤه

فِي لَيْلَةِ ٱلْأَحَدِ ٱلْمَشْئُومُ طَالِعُهَا فِي سَاعَةٍ لَيْتَ لَمْ تُخْلَقْ ثَوَانِيهَا (١)
حُمَّ ٱلْقَضَا وَنَعَى ٱلنَّاعِي ٱلْهُدَى وَمَضَى لِلْجَنَّةِ ٱلْمُرْتَضَى بُشْرَى لِأَهْلِيهَا
وَسَاوَرَ ٱلنَّاسَ حُزْنٌ مَا بِهِ شَعَرَتْ إِلاَّ لِفَجْعَتِهَا فِي مَوْتِ هَادِيهَا
خَطْبٌ أَلَمَّ بِأَهْلِ ٱلْأَرْضِ إِذْ خَسِرَتْ بِهِ حَنِيفَتُهَا أَسْنَى دَرَارِيهَا
وَأَوْرَثَ ٱلْحُزْنَ أَبْنَاءَ ٱلزَّمَانِ مَدَى ٱلْأَجْيَالِ مَا أَنْ يُلاَشَى أَوْ يُلاَشِيهَا
لِمِثْلِهِ خُلِقَ ٱلدَّمْعُ ٱلسَّخِينُ بِأَعْـ ـيُنِ ٱلْوَرَى فَهُوَ هَامٍ مِنْ مَآقِيهَا

لأ لفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً ، تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن بي الا قاتلي ، انظروا اذا أنا متّ من ضربته هذه ، فاضربوه ضربةً بضربةٍ ، لا تمثلوا بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور) » آه ثمّ اغمض سيدنا علي عينيه وخارت قواه وأخذ لسانه يتاجلج بالاذكار والحمد ونفسه منشغله بمناجاة ربها ورسوله والملائكة حولها ترحب بملقاها

(١) جرح سيدنا علي عليه صلوات الله في صباح يوم الجمعة وظلّ جريحاً يعاني غصات الموت الى ليلة الاحد حيث راحت نفسه الى خالقها راضيةً مرضيه فانضمت الى محبيها في جنان النعيم حيث الابرار والصالحون ولقيها المصطفى وفاطمة بعد طول الفراق واصبحت حول العرش الاسنى عرش الله تسبح ذاته القدسية مع المسبحين وكانت فرحة في السماء لا يعادلها الجزع الذي عمّ المسلمين عند ما نعى النعاة لهم خير الخلائق اجمعين بعد سيد المرسلين عليهما الصلاة والسلام

تَبْكِي عَلَى أُمَّةٍ قَدْ ضَاعَ مُرْشِدُهَا ... وَدَوْلَةٍ عَنْ حِمَاهَا غَابَ حَامِيهَا
وَمِلَّةٍ فَقَدَتْ فَقْداً مُهَذِّبَهَا ... وَعِتْرَةٍ خَسِرَتْ خُسْراً مُوَاسِيهَا
مَنْ لِلْحَنِيفَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْوَصِيِّ يَفِيـ ... ـهَا حَقَّهَا حَسْبَمَا قَدْ شَاءَ مُوحِيهَا
مَنْ لِلشَّرِيعَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْفَقِيهِ إِذَا ٱسْـ ... ـتَفْتَتْهُ أُمَّتُهَا بِٱلْهَدْيِ يُفْتِيهَا
مَنْ لِلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْخَلِيفَةِ يَرْ ... عَى عَهْدَ مُسْلِمِهَا عَدْلاً وَذِمِّيهَا
مَنْ لِلْعَدَالَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلأَمِينِ يُسَا ... وِي ٱلنَّاسَ فِي ٱلشَّرْعِ سُفْلِيهَا وَعُلْوِيهَا
مَنْ لِلْمَعَامِعِ مِنْ بَعْدِ ٱلْكَمِيِّ إِذَا ... مَا دَوْلَةُ ٱلدِّينِ فَاجَتْهَا أَعَادِيهَا
مَنْ لِلْحَوَادِثِ مِنْ بَعْدِ ٱلْخَبِيرِ بِهَا ... وَإِنَّهَا بِضَمِيرِ ٱلدَّهْرِ يَحْكِيهَا
مَنْ لِلْخِطَابَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْخَطِيبِ إِذَا ... رَامَ ٱلتُّقَاةُ ٱهْتِدَاءً مِنْ مَفَاهِيهَا
مَنْ لِلْبَلَاغَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْبَلِيغِ وَآ ... يَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ قَدْ وَلَّى مُوَشِّيهَا
مَنْ لِلْمَوَاهِبِ مِنْ بَعْدِ ٱلْجَوَادِ إِذَا ... وَافَتْ عَوَافِيهِ لِلإِحْسَانِ يُغْنِيهَا
فِي ذِمَّةِ ٱللّٰهِ صِهْرَ ٱلْمُصْطَفَى وَأَخَا ... هُ إِنَّهُ نَازِلُ ٱلْجَنَّاتِ آوِيهَا
وَٱلْمُصْطَفَى يَتَلَقَّاهُ بِفَرْحَةِ مُشْـ ... ـتَاقٍ لِطَلْعَتِهِ ٱلزَّهْرَا يُحَيِّيهَا
بِهِ يَسِيرُ لِتَسْبِيحِ ٱلْمُهَيْمِنِ وَٱلأَ ... مْلَاكُ حَوْلَهُمَا تَشْدُو أَغَانِيهَا
وَفِي ٱلسَّمَاءِ نُفُوسُ ٱلصَّالِحِينَ تَلَا ... قِي ٱلْمُرْتَضَى وَبِهِ عَمَّتْ تَهَانِيهَا
بَيْنَا ٱلْبَرِيَّةُ تَبْكِيهِ وَقَدْ فَقَدَتْ ... بَعْدَ ٱلرَّسُولِ بِهِ أَسْمَى ذَرَارِيهَا
إِذَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلأَبْرَارُ مُبْشِرَةٌ ... وَقَدْ أَتَاهَا وَأَثْوَى فِي عَلَالِيهَا

« ترجمة سيدنا علي »

لقد مرَّ معنا ترجمة سيدنا علي عليه صلوات الله في هذه العلوية المباركة اسهاباً فنذكر هنا منها ما لم نرَ موضعاً لذكره من قبل فنقول

ان نسبه الشريف هو نفس نسب المصطفى عليهما الصلاة والسلام كلاهما فرعا دوحة واحدة في اعاليها ومولده ونشأته واعماله الباهرة ذكرناها كلها . واما أزواجه فانه عليه صلوات الله لم يتزوج على سيدتنا فاطمة الزهراء في حياتها ومرَّ معنا انها ولدت له سيدنا الحسن وسيدنا الحسين وسيدنا محسن وهذا لم يعش وولدت له ايضاً زينب الكبرى وام كلثوم الكبرى . وبعد وفاتها تزوج عليه صلوات الله امّ البنين بنت حرام الكلابية فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان وعاشوا وشبوا وقتلوا مع سيد الشهداء سيدنا الحسين عليه السلام في الطفّ بكربلاء ولم ينسلوا نسلاً الا العباس فقد

فِدَى ٱلْأَ مِيرِ نُفُوسُ ٱلنَّاسِ أَجْمَعُهَا ... وَنَفْسُهُ مَا نُفُوسُ ٱلنَّاسِ تَجْزِيْهَا
نَفْسٌ مُطَهَّرَةٌ قَدْ نُوِّرَتْ بِسَنَا ٱلْـقُرْآنِ وَٱللهُ بِٱلْإِلْهَامِ مُسْنِيْهَا
تَرَفَّعَتْ عَنْ دَنَايَا ٱلْأَرْضِ جُمْلَتِهَا ... وَلِلْمَلَائِكِ حَاكَتْ فِي تَعَالِيهَا
لِذَاكَ قَدْ أَكْثَرَ ٱلنَّاسُ ٱلْعِدَاءَ لَهَا ... إِذْ لَمْ تَكُنْ بِسَجَايَاهَا تُحَاكِيهَا
وَأَتْعَبَتْهَا ٱللَّيَالِي وَهْيَ ظَالِمَةٌ ... وَلَمْ تَزَلْ بِمَسَاوِيهَا تُنَاجِيهَا
فَلَمْ تَجِدْ دُونَهَا إِلَّا مُقَارِعَهَا ... وَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهَا إِلَّا دَوَاهِيهَا
وَٱفْجَعَةَ ٱلدِّينِ مِنْ بَعْدِ ٱلْوَصِيِّ وَأَهْـلُوهُ تُنُوِّهُ طُولَ ٱلدَّهْرِ تَأْوِيهَا
وَإِنَّهُمْ مَعَهُ وَٱللهِ قَدْ فَقَدُوا ... رُوحَ ٱلشَّرِيعَةِ فَٱعْتَاصَتْ مَعَانِيهَا
وَبَعْدَهُ ذَكَرُوا شَجْواً مَقَالَتَهُ ... وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَبْغِي تَنَاسِيهَا
يَقُولُ: هَيَّا ٱسْأَلُونِي فِي شَرِيعَتِكُمْ ... مِنْ قَبْلِ أَنْ تَفْقِدُونِي يَا أَهَالِيهَا
بَلَى فَقَدْ مَاتَ مُفْتِي ٱلشَّرْعِ وَٱنْطَفَأَ ٱلنُّورُ ٱلَّذِي يَكْشِفُ ٱلْإِضْلَالَ وَٱلتِّيهَا
وَمَاتَ مَنْ عُمَرٌ فِيهِ شَهَادَتُهُ ... قَدْ أَصْبَحَتْ مَثَلاً يَتْلُوهُ رَاوِيهَا
لَوْلَا ٱلْعَلِيُّ لَلَاقَى هُلْكَهُ عُمَرٌ ... وَبَاتَ فِي ٱلنَّارِ تَشْوِيهِ لَوَاظِيهَا
وَكَانَ يَسْعَى إِلَى دَارِ ٱلْوَصِيِّ لِيَسْـتَفْتِيَ ٱلْفَتَاوَى وَمَا إِلَّاهُ فَاتِيهَا
أَجَلْ وَقَدْ فَقَدَ ٱلْإِسْلَامُ مُنْفَجِعاً ... إِسَّ ٱلْخِلَافَةِ فَٱنْهَارَتْ مَبَانِيهَا
وَأَصْبَحَتْ بَعْدَهُ تَٱللهِ دَوْلَتُهُ ... مُلْكاً عَضُوضاً يُجَافِي مِنْ مُحِبِّيهَا

تزوج ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلية التميمية فولدت له عبيدالله وأبا بكر قتلا مع سيدنا الحسين أيضاً وقيل ان عبيد الله بن العباس بن علي قتله المختار بالمذار وقيل لا بقية لهما . وتزوّج عليه صلوات الله اسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له محمداً الاصغر ويحيى ولا عقب لهما وقيل أنّ محمداً لامّ ولد وقتل مع سيدنا الحسين. وتزوج عليه صلوات الله الصهباء بنت ربيعة التغلبية وهي من السبي الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر وولدت له عمر بن علي ورقية بنت علي وعمّر عمر هذا حتى بلغ خمساً وثمانين سنة فحاز نصف ميراث علي ومات بينبع . وتزوج عليه صلوات الله امامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزّى بن عبد شمس وامها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فولدت له محمداً الاوسط. وتزوج عليه صلوات الله خولة بنت جعفر من بني حنيفة فولدت له محمد الاكبر وهو المعروف بابن الحنفية وكان يحبه كثيراً ويوم مصرعه اوصى به خصيصاً الحسنين عليهما السلام واوصاه بطاعتهما قال الراوي « فنظر عليٌّ الى محمد بن الحنفية (بعد ان أوصى الحسنين وصيته التي

وَمَا خُرُوبُ عَلِيٍّ مَعْ مَتَاعِبِهِ   إِلاَّ لِتَبْقَى عَلَى تَنْسِيقِ مُنْشِيهَا

إِنَّ ٱلْخِلاَفَةَ تَبْكِي يَاعِبَادُ بِهِ   مُصِيبَهَا بِتُقَاهُ مِنْ مُهْدِيهَا

تَبْكِي عَلَى صِنْوِ طَـهَ فِي قَدَاسَتِهِ   خَلاَ ٱلنُّبُوَّةِ تَبْكِيهِ وَتَبْكِيهَا

تَبْكِي عَلَى صِنْوِ طَـهَ فِي نَبَاهَتِهِ   خَلاَ ٱلنُّبُوَّةِ تَنْعِيهِ وَتَنْعِيهَا

تَبْكِي عَلَى صِنْوِ طَـهَ فِي وَجَاهَتِهِ   خَلاَ ٱلنُّبُوَّةِ بَزَّ ٱلنَّاسَ تَوْجِيهَا

تَبْكِي عَلَى صِنْوِ طَـهَ فِي فَقَاهَتِهِ   خَلاَ ٱلنُّبُوَّةِ فَاقَ ٱلنَّاسَ تَفْقِيهَا

تَبْكِي عَلَى صِنْوِ طَـهَ فِي زَكَاتِهِ   خَلاَ ٱلنُّبُوَّةِ مَا خَابَتْ مَرَامِيهَا

تَبْكِي عَلَى صِنْوِ طَـهَ فِي نَجَادَتِهِ   خَلاَ ٱلنُّبُوَّةِ تَرْثِيهِ وَتَرْثِيهَا

تَبْكِي عَلَى صِنْوِ طَـهَ فِي سَخَاوَتِهِ   خَلاَ ٱلنُّبُوَّةِ مَا أَهْمَى هَوَامِيهَا

تَبْكِي وَسَوْفَ تَظَلُّ ٱلدَّهْرَ بَاكِيَةً   حَتَّى تَعُودَ بِآتِيهَا لِمَاضِيهَا

هِيَ ٱلْخِلاَفَةُ حَقُّ ٱلْعُرْبِ دُونَ سِوَا   هَا لاَ يَقُومُ بِهَا إِلاَّ قُرَيْشِيهَا

مِنْ آلِ أَحْمَدَ مِنْ بَيْتِ ٱلنُّبُوَّةِ مِنْ   صُلْبِ ٱلْعَلِيِّ بِهِ تُلْفِي تَمَنِّيهَا

وَٱلْمُرْتَضَى عَاشَ مَشْقِيّاً لِعِزَّتِهَا   وَكَانَ يَالِلأَسَى أَغْلَى أَضَاحِيهَا

إِيهِ ٱبْنَ مُلْجَمَ يَاشَرَّ ٱلْخَلِيقَةِ قَدْ   وُجِدْتَ فِي هَاتِهِ ٱلدُّنْيَا لِتُؤْذِيهَا

سبق لنا ذكرها) وقال : هل حفظت ما اوصيت به أخويك ؟ قال : نعم قال : فاني اوصيك بمثله واوصيك بتوقير اخويك العظيم حقهما عليك وتزيين أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما. ثمّ ارسل نظره الى الحسنين وقال : اوصيكما به فانه اخوكما وابن ابيكما وقد علمتما أنّ اباكما كان يحبه » آه .
وتزوّج عليه صلوات الله امّ سعد ابنة عروة بن مسعود الثقفية فولدت امّ الحسن ورملة الكبرى وامّ كلثوم . وكان له عليه صلوات الله بنات من امهات شتى لم يذكرن لنا منهنّ امّ هانيء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وامّ كلثوم الصغرى وفاطمة وامامة وخديجة وامّ الكرام وامّ سلمة وامّ جمانة ونفيسة كلهنّ من امهات اولاد . فجميع ولده اربعة عشر ذكراً وسبع عشر امرأةً وكان النسل منهم للحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس بن الكلابية وعمر بن التغلبية

أما صورته عليه صلوات الله كما وصفه الذين اسعدهم الحظ فتشرفوا برؤيته ومعاشرته فهي انه كان ربعة القوام ، أدعج العينين ، كأنّ وجهه القمر ليلة البدر حسناً ، ضخم البطن ، عريض المسربة ، شثن الكفين ، ضخم الكسور ، كأنّ عنقه ابريق فضة ، أصلع الرأس من خلفه شعر خفيف ، لمنكبه مشاش كمشاش الأسد ، اذا مشى تكفأ وماد به جسده ، ولظهره سنام كسنام الثور لا يبين عضده من ساعده قد ادمجتا ادماجاً ، لم يمسك بذراع رجل قط الا أمسك بنفسه فلم يستطع ان

يَا لَيْتَ امَّكَ لاَ كَانَتْ وَلاَ وَلَدَتْ أَفْعَى تَفُحُّ سُمُوماً فِيْ تَحَوُّنِهَا
عَلَيْكَ لَعْنَةُ رَبِّيْ مَعْ مَلاَئِكِهِ مَعَ ٱلْبَرِيَّةِ قَانِيهَا وَنَاشِئِهَا
فَجَعْتَ أُمَّةَ طَـهَ بِٱلْوَصِيِّ فَلاَ تَنفَكُّ لِلْحَشْرِ حَيْرَى فِيْ تَعَازِيهَا
فَنِلْ جَزَاءَكَ نَاراً لاَ ٱنطِفَاءَ لَهَـا وَسُبَّةَ ٱلأَبَدِ ٱلْمَلْعُونُ قَانِيهَا

غسل أمير المؤمنين ودفنه

مَا ٱسْتَأْثَرَتْ رَحْمَةُ ٱلْبَارِيْ بِحَيْدَرَةٍ وَغُبْطَةُ ٱلْخُلْدِ قَدْ أَمْسَى مُوَافِيهَا(١)
حَتَّى ٱنبَرَى حَسَنٌ حَالاً لِغَسْلَتِهِ بِنَفْسِهِ وَأَلِيمُ ٱلْخَطْبِ مُشْجِيهَا

يتنفس ، ولونه ابيض يميل الى شيء من السمرة ، وهو اقنى الأنف ، اذا مشى للحرب هرول ، وكانت عيناه السوداوان تتدفقان ذكاء فاذا سدّدهما بالناس ادخلتا على قلوبهم الرهبة ، وكان آيةً من آيات الذكاء اذا حدّث تدفق كالبحر الداخر ، وفصيح اللسان اذا خطب خلب الالبـاب ، وجاء بفصل الخطاب ، وكان عظيم اللحية ، كثير شعر الصدر ، وكان شعره اسود ذا لمعـان ، ثمّ أزانه المشيب ، وكان مجلس عليٍّ مهيأً على بساطته ، فتراه عليه صلوات الله يتربع على وسـادته الخشنة ، في اطماره المرقعة ، فاذا الهيبة والجلال يغشيانه ، وزهده بزخارف الدنيـا يزيده رفعةً وجلالاً .
هذا ما نجمله من صورته السنية وسنأتي على صفاته وعلومه وفضائله باسهاب فيما يجيء ان شاء الله تعالى
أما مدة خلافته عليه صلوات الله فقد رأينا انه بويع بالخلافة يوم مقتل عثمان في المدينـة المنوّرة وكان مقتله عليه صلوات الله في الـكوفة يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة وله من العمر ٦٤ سنة

(١) توفي سيدنا علي عليه صلوات الله ليلة الأحد ١٩ رمضان سنة ٤٠ للهجرة وقام بالغسل سيدنا الحسن وسيدنا الحسين ومحمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وكفنوه في ثلاثة اثواب ليس فيها قميص ثمّ خرجوا به ليلاً من منزله حتى مروا به على منزل الاشعث بن قيس ثمّ خرجوا به الى الظهر بجنب الغري حيث واروه الثرى وهو القبر الذي اصبح بعد البيت العتيق في مكة المكرمة والروضة النبوية في المدينة المنوّرة مقصد الناس يزورونه ويتبركون به فينالهم ثواب الآخرة وسعادة الدنيا

« تاريخ الـكوفة »

الـكوفة بالضم هو المصر المشهور بارض بابل من سواد العراق ويسميها قوم خدّ العذراء وسميت الـكوفة لاستدارتها أخذاً من قول العرب للرميلة المستديرة كوفاناً بضم الكاف وفتحها . وقيل غير ذلك وقيل سميت الـكوفة لاجتماع الناس بها من قولهم قد تكوّف الرمل اذا اجتمع بعضه لبعض . وهذا البلد يقع في طول درجة ٦٩ ونصف وعرض درجة ٣١ وثلثين . وكان تمصر الـكوفة مع البصرة سنة ١٧ للهجرة على عهد عمر وذلك انّ سعداً بن أبي وقاص لما فرغ من وقعة رستم بالقادسية وضمّن أرباب القرى ما عليهم ونظم شؤون فتحه توجه نحو مدائن كسرى الى يزدجر فقدم لحربه هناك خالد بن عرنطة حليف بني زهرة من كلاب فلم يقدر عليه حتى فتح خالد بن الوليد ساباط ثمّ توجه الى المدائن فلم يجد معابر فدلوه على مخاضة عند قرية الصياد من أسفل المدائن فعبر منهـا بخيله وهرب يزدجر الى اصطخر فأخذ خالد كربلاء عنوةً وسبى أهلها فقسمها سعد بين اصحابه ونزل

وَكَانَ مَعَهُ حُسَيْنٌ وَٱلْمُحَمَّدُ وَآلِـــشَّهْمُ ٱبْنُ عَبَّاسَ كَانُوا عَوْنَهُ فِيهَا
وَكَفَّنُوهُ بِأَكْفَانٍ مُثَلَّثَةٍ وَبِٱلدُّمُوعِ ٱلَّتِي تَهْمِي هَوَامِيهَا
وَفِي دُجَى ٱللَّيْلِ قَدْ سَارُوا بِجُثَّتِهِ وَنُورُ خَالِقِهَا ٱلأَسْنَى مُغَشِّيهَا
إِلَى ٱلْغَرَى بِجِوَارِ ٱلظَّهْرِ إِذْ حُفِرَتْ لَهَا حَفِيرَةُ تَمْجِيدٍ تُآوِيهَا

كل قوم في الناحية التي خرج سهمهم فيها فسكنوها. وكتب سعد بما كان الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر ان حوّل الناس فحوّلهم الى سوق حكمة ويقال الى كويفة ابن عمرون وما في ذاك الجوار فتمقموا فكتب اليه ان العرب لا يصلحها من البلدان الا ما أصلح الشاة والبعير فلا تجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف فلما بلغ سعد كتاب عمر سأل من حوله عن الريف فقال له ابن بقيلة اني لأ دلك على أرض انحدرت عن الفلاة وفيها خصب كثير هي سورستان فسار اليها سعد وحسنت في عينه فضرب فيها خيام جنده وهي الكوفة المعروفة الى اليوم وباشر بناء دار له فيها فكانت اول دورها وعرفت بدار سعد وكتب بذلك الى عمر فاجابه ان اختط فيها مسجداً يسع مقاتلتكم فاختط مسجدها وكان يسع أربعين الف رجل بجوار داره التي اتينا على ذكرها. وكان في ظاهر الكوفة منازل النعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدير والقرّبان وما هنالك من المنتزهات والديرة الكبيرة

واصبحت الكوفة على عهد سيدنا علي عليه صلوات الله حاضرة الخلافة الاسلامية استقرّ فيها بعد تغلبه على اصحاب الجمل في البصرة فازداد بذلك عمرانها ونموها وكان في ظاهرها عينان يقال لاحداها الربض وللاخرى النجف تسقيان عشرين ألف نخلة وكان هنالك مسنّاة تمنع سيل الماء ان يعلو الكوفة ومقابرها وكانت هنالك الحدائق والبساتين وصفها ابراهيم الموصلي في قصيدة له قال:

ما ان أرى الناس في سهل ولا جبل	أصفى هواءً ولا أغدى من النجف
كأنّ تربته مسك يفوح به	أو عنبر دافه العطار في صدف
حفّت ببرّ وبحر من جوانبها	فالبرّ في طرف والبحر في طرف
وبين ذاك بساتين يسيح بها	نهر يجيش بجاري سيله القصف
وما يزال نسيم من أيامنه	يأتيك منه بريّا روضة أنف
تلقاك منه قبيل الصبح رائحة	تشفي السقيم اذا أشفى على التلف
لو حلّه مدنف يرجو الشفاء به	اذاً شفاه من الاسقام والدنف

« الروضة العلوية »

لم يشأ سيدنا الحسن واخواه سيدنا الحسين ومحمد بن الحنفية وابن عمه عبد الله بن العباس ان يدفنوا سيدنا علي عليه صلوات الله في مقابر الكوفة وأقرّوا على ان يكون دفنه في موضع لا يهتدي اليه الا خاصة أولاده واحبابه مخافة ان ينال رفته الشريفة شيء من أذى اعدائه الكثيرين سواءً بني أمية الذين كان أمرهم قد استفحل بمقتله أو الخوارج في العراق فدفنوه في ظلمة الليل في الظهر بجانب الغرى وعدوا الى الكوفة وقد انبثق نور الفجر. قالوا وزيادة في الاحتياط حفروا حفائر عديدة احداها في المسجد الكوفيّ واخرى برحبة قصر الامارة وثالثة في حجرة من دور آل جعدة ابن هبيرة المخزومي ورابعة في أصل دار عبدالله بن يزيد القسري بحذاء باب الوراقين مما يلي قبلة المسجد وخامسة في الكناسة والسادسة في الثوية . فصبح الناس صباح الاحد ١٩ رمضان ووجدوا هذه

فِي مَوْضِعِ ٱلنَّجَفِ ٱلْمُبْتَنَى لِمَنْعِ سُيُوْ ... لِ ٱلْمَاءِ عَنْ كُوْفَةٍ مَا فَاضَ جَارِيهَا
هُنَاكَ كُبِّرَ خَمْساً خَاشِعاً حَسَنٌ ... عَلَى ٱلْهُدَى وَهْيَ تَدْنُو مِنْ تَوَارِيهَا
وَبَعْدَ ذَا وُلْدُهُ ٱلنُّجْبُ ٱلْكِرَامُ عَلَى ٱلْـــ ... ـــرُّفَاتِ سَوَّتْ وَمَا أَشْجَى تَسَوِّيهَا
نَفْسِي فِدَى تُرْبَةٍ قَدْ غَيَّبَتْ وَطَوَتْ ... خَيْرَ ٱلْوَرَى وَلَهُ أَبْدَتْ تَحَنِّيهَا
وَأَدْمُعُ ٱلْأَعْيُنِ ٱلشَّكْرَى تَفِيضُ سَحًا ... بَاتٍ عَلَيْهَا فَتَسْقِيهَا وَتَرْوِيهَا

الحفر قد سوّيت ثانية وما وقفوا على حقيقة موضع القبر الشريف واختلفت رواياتهم في ذلك اختلافاً شديداً وما فيهم من يعرف الحقيقة الا الذين تولوا دفنه حتى ادّعى قوم أنّ جماعة من طيء وقعوا على جمل في تلك الليلة وقد أضلـه أصحابه بيلادهم وعليه صندوق فظنوا فيه مالاً فلما رأوا ما فيه (كذا ولعلهم ارادوا انهم راوا في ذلك الصندوق الجسد الشريف) خافوا أن يطلبوا به فدفنوا الصندوق بمـا فيه ونحروا البعير وأكلوه وشاعت هذه الخرافة في بني أمية وشيعتهم واعتقدوه حقاً وصدقاً فقال الوليد بن عقبة من أبيات يذكره عليه صلوات الله فيها

فان يك قد ضلّ البعير بحمله ... فمـا كان مهدياً ولا كان هاديا

ونقول نحن أنّ ابناء الناس اعرف بقبور موتاهم لانهم هم الذين وسدوهم فيها فبالأولى ان يكون أولاد سيدنا علي أدرى النـاس بقبر أبيهم العظيم واعرف وهذا القبر الذي بالغري هو الذي كان بنو سيدنا علي عليه صلوات الله يزورونه قديماً وحديثاً ويقولون هذا قبر أبينا لا يشكّ أحد في ذلك لا من الشيعة ولا من غيرهم . وقد روى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في تاريخه المعروف بالمنتظم وفاة أبي الغنائم محمد بن علي بن ميمون الرسي المقرّي قال : توفي أبو الغنائم هذا في سنة عشر وخمسماية وكان محدثاً من أهل الـكوفة ثقةً حافظاً وكان من قوّام الليل من أهل السنة وأصحاب الحديث وغيره . وكان يقول : مات بالـكوفة ثلثماية صحابي ليس قبر أحد منهم معروفاً الاّ قبر أمير المؤمنين سيدنا علي وهو هذا القبر الذي يزوره الناس الآن جاء جعفر بن محمد عليه السلام وابوه محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام فزاراه ولم يكن اذ ذاك قبراً معروفاً ظاهراً وانما كان به معالم وآثار حتى جاء محمد بن زيد الداعي صاحب الديلم فأظهر القبة .

وقد ذكر الخطيب أبو بكر في تاريخه أنّ قوماً يقولون انّ هذا القبر الذي يزوره المسلمون الى جانب الغرى هو قبر المغيرة بن شعبة وقد غلطوا غلطاً بيناً في قولهم هذا فانّ قبر المغيرة وقبر زياد ابنه بالثويّة من أرض الـكوفة ونحن نعرفهما وننقل ذلك عن آبائنا واجدادنا وينشد قول أبي تمام :

صلى الاله على قبر وطهره ... عند الثويّة يُسقى فوقه المور
زفت اليه قريش نعش سيدها ... فالحلم والجود فيه اليوم مقبور
أبا المغيرة والدنيـا مفجعة ... وانّ من غرّت الدنيا لمغرور
قد كان عندك للمعروف معرفة ... وكان عندك للمنكور تنكير
وكنت تغني وتعطي المال من سعةٍ ... فاليوم قبرك أضحى وهو مهجور
والناس بعدك قد خفّت حلومهم ... كانمـا نفخت فيها الاعاصير

وقال قطب الدين نقيب الطالبيين أبو عبد الله الحسين بن الاقساسي : نحن نعرف مقابر ثقيف

تُرَى فَهَل عَرَفَتْ تِلْكَ ٱلحَفِيرَةُ أَنَّ ٱلشَّمْسَ فِيهَا ٱستَقَرَّتْ وَهِيَ تُخْفِيهَا
وَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ أَرْضاً مُقَدَّسَةً بِٱلمُرْتَضَى كُلُّ ذِي تَقْوَى لَيَأْتِيهَا
وَإِنَّهَا سَتَظَلُّ ٱلدَّهْرَ مَظْهَرَ دِيــنِ ٱللهِ إِذْ يَتَلاَلاَ مِنْ مَغَانِيهَا
كَذَا ٱلبِلاَدُ كَأَهْلِيهَا فَتُسْعِدُهَا ٱلأَقْدَارُ عَفْواً بِلاَ سَعْيٍ وَتُشْقِيهَا

الاقتصاص من الملعون ابن ملجم

وَعَادَتِ ٱلوُلْدُ مِنْ دَفْنِ ٱلإِمَامِ إِلَى رِحَابِ مَسْجِدِهَا وَٱلحُزْنُ غَاشِيهَا(١)
هُنَاكَ صَلَّتْ صَلاَةَ ٱلفَجْرِ خَاشِعَةً يَؤُمُّهَا ٱلحَسَنُ ٱلمَبْرُورُ حَامِيهَا

الى الثوية وهي الى اليوم معروفة وقبر المغيرة فيها الا انها لا تعرف قد ابتلعها السبخ وزبد الارض وفورانها فطمست واختلط بعضها ببعض . وجاء في كتاب الاغاني في ترجمة المغيرة « انه مدفون في مقابر ثقيف » وأمثال هذا كثير وكله مثبت بأن سيدنا علي عليه صلوات الله قد دفن في الغرى في الموضع الذي فيه روضته الشريفة اليوم . وقد ظل هذا القبر الشريف مخفياً عن الناس لا يعرف به غير آل البيت العلوي الطاهرين كل مدة حكم بني أمية وأوائل حكم العباسيين حيث كانت المنافسة بين العباسيين والطالبيين على الخلافة شديدة مخافة أن يسيء مسيء ويجر الى تلك التربة المقدسة حتى سنحت الفرصة لشيعته عليه صلوات الله فأقبلت بجملتها على تلك الروضة الشريفة فأقامت لها القبب وبنت بجوارها المسجد ثم ابتنت حواليها دور الاتقياء الراغبين بجيرته وطلبة العلم الذين يتوسمون أن يفتح الله على عقولهم بمدد روحانيته وبركات جواره وهكذا أصبحت النجف بهؤلاء بلداً كبيراً تحول اليها الناس من الكوفة وغيرها من أمصار العراق وايران وأصبحت اليوم تلك البقعة الشريفة وفيها من طلبة العلم وحدهم نيف وثلاثون ألفاً عدا المجاورين الذين تركوا ديارهم وأقبلوا على العتبة الحيدرية المقدسة رغبة المجاورة عن حب صادق وعدا الزوار الكثيرين الذين يأتون هذه العتبات المباركة زرافات ووحداناً من جهات العراق وايران والهند وغيرها من أمصار المسلمين

أما وصف العتبات الشريفة والمسجد الحيدري الذي بجانبها وما دونها وقببها المكسوة بالذهب الوهاج حتى اذا ما أشرقت عليها الشمس انعكست أشعتها فرآها الناس من مسافة ساعتين وثلاثة وما في المسجد والروضة من التحف الثمينة والثريات الغالية الثمن والجواهر النادرة والسجاجيد الوفيرة القيمة فما يعجز القلم عن وصفه ومما يشير الى المكانة القدسية العلية التي له عليه صلوات الله في قلوب المسلمين بل وكل العالمين أفاض الله علينا بركاته وكراماته مع صنوه سيد المرسلين

(١) بعد أن عاد أولاد سيدنا علي وخاصته من دفنه عليه صلوات الله وقد انبثق الفجر صلى سيدنا الحسن بالناس ثم طلب الملعون ابن ملجم فجيء به وهو يرسف بقيوده وأغلاله ولعنة الله مغشية وجهه القبيح فعاجله سيدنا الحسن عليه السلام بقوله قتلت الامام قتلك الله فأجابه بكل قحة وفجور لقد بلغت نفسي مناها ولكن خبرك يا حسن أني اتفقت وصاحبين لي على قتل معاوية وعمرو بن العاص مع أبيك بجوار الكعبة وأقسمنا على ذلك وأخاف أن يفشل صاحبي مهمتهما فأمهلني ريثما تتبين نبأهما وما كان من أمرهما فاذا فشلا أسير بنفسي فأقتل معاوية وعمرو بن العاص ثم أعود اليك لتجري علي القصاص

ثمَّ إلى المسجدِ الكوفيِّ جيءَ بشـرّ الناسِ أرذَلِها طُرّاً وطَاغيها
وكانَ يرسفُ بالأغلالِ مُرتجفَ الأ م عضّابِ مُضطربَ الأفكارِ هاذيها

فقال الحسن : لا والله لا ترين الماء حتى تنوي في جهنم وبئس المصير قال هذا وشهر سيفه وضربه به ضربة واحدة جندله بها قتيلاً وأرسلت أم هيثم فاستوهبت جثته وأحرقتها فذرتها الريح وهكذا انتهت حياة هذا الشقي الملعون .

أما قطام فلم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عما كان من أمرها بعد قتل الامام عليه صلوات الله والطاهر ان سيدنا الحسن لم يهتم بأمرها لانه عليه السلام كان يعلم ان أهل النهروان بعد أن نكل بهم أمير المؤمنين كانوا كلهم موتورين فلاعجب اذا شمتوا بقتله أوعملوا له اذ كانوا ولا يزالون ظالمين

ويخلق بنا هنا أن نذكر شيئاً عن آل البيت الطاهر عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام تتميماً لتأريخ حوادث صدر الاسلام التي كان تأثيرها على مستقبل البلاد الاسلامية عظيماً فنقول :

« كلمة في الحسنين »

هما فرعا الدوحة النبوية المثمران ونجما سماء الرسالة المحمدية المضيئان وخير من انجبت الآباء والامهات في بني الانسان هما سبطا رسول الله عليه وعليهما وعلى ابويهما الصلاة والسلام

ولد سيدنا الحسن في العام الثالث للهجرة وولد سيدنا الحسين في العام الرابع للهجرة وامهما سيدتنا فاطمة الزهراء وابوهما سيدنا علي بن أبي طالب وجدهما محمد الهادي الامين رسول الله ونزلت في هذه العترة المقدسة آية « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ويطهركم تطهيراً » وعند ما نزلت هذه الآية على النبي الامي ضم اليه علياً وفاطمة والحسن والحسين وطرح عليهم كساء وقال « اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب الرجس عنهم » وما بعد هذا القول شك بانتماء الحسنين وأنسالهما الى رسول الله انتماء صحيحاً صريحاً لا ينكره الا المنافقون

وقد أزاد الحسنين التصاقاً برسول الله وفاة ولديه القاسم وابراهيم عليهم الصلاة والسلام حينئذٍ لم يبق لحفظ النسب الشريف الا هذان النيران المضيئان فهما وانسالهما بركة للعالمين

وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يدعو الحسنين ولديه وكان يحبهما كثيراً وطالما احتملهما على عاتقه الشريف وهما غلامان وما في الصحابة من لم يشهد عنايته بهما ولم يسمع تسميته لهما « زهرة شباب أهل الجنة » وكان برأ المرتضى عليه صلوات الله ان يزجهما في معامع الحرب حرصاً على حياتهما الثمينة التي اذا اصيبت بمكروه انقطع نسل رسول الله ومرة في موقعة صفين رأى سيدنا أمير المؤمنين ابنه الحسن يتسرع الى القتال فصاح بمن حوليه : « أملكوا عني هذا الغلام لا يهدني، فانني أنفس بهذين (ويريد الحسن والحسين) على الموت ، لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله، صلى الله عليه وآله » اه .

وقيل يوماً لمحمد بن الحنفية لما يغرر بك ابوك في الحروب ولم يغرر بالحسنين ? فقال : لانهما عيناه وانا يمينه فهو يذب عن عينيه بيمينه . وهو تشبيه لا أبدع منه ولا أعجب حسبنا صدوره عن ابن ابي الحسن عليه صلوات الله

وحاول اعداء سيدنا علي وأولاده في جملة ما حاولوه من الحط من أقدارهم العالية في نفوس الناس فنكروا انهم عترة رسول الله وان الحسنين ولداه لقوله تعالى « ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم » واستشهاد هؤلاء الاعداء بهذه الآية الشريفة من قبيل المغالطة والتضليل لانها نزلت في زيد وكان هذا عبداً لرسول الله وجرت عادة العرب أن ينسبوا العبيد لمواليهم فيقولون فلان بن فلان ويريدون عبده فلما حدثت حادثة امرأة زيد وتزوج رسول الله بها بعد طلاقها بأمر من السماء دفق المنافقون

فأرْسَلَتْ أعْيُنُ النَّاسِ الشَرَارَ لَهُ وَكَادَ يَحْرُقُهُ . تَاللهِ حَامِيهَا
حَتَّى إِذَا مَا اسْتَوَى فِي شَرِّ وَقْفَتِهِ مُسْتَقْبِلَ الْمَوْتَةِ الشَّنْعَا مُنَاجِيهَا

يلفظون بان رسول الله تزوج مطلقة ابنه فنزلت هاتيك الآية الشريفة مبينة ان رسول الله بصفته النبوية الخاصة ليس أباً لاحد من المسلمين حتى ولا عبيده بل هو رسول الله اليهم جميعاً . ولكن من افن الرأي وفساد البصيرة ان تتخذ هذه الآية لنفي الابوة الطبيعية عن المصطفى فلا يقال انه أبو القاسم وانه ابو ابراهيم فانه عليه الصلاة والسلام أبوهما الطبيعي وكذلك يقال أيضاً أبو الحسن وأبو الحسين

أما قول هؤلاء الاعداء بان اولاد البنات لا ينتسبون الى آبائهم أمهاتهم فهذا صحيح في الاصطلاح وغير صحيح في الطبيعة البشرية فمن الوجهة الطبيعية نعرف ان الجنين يتكون من نطفة ابيه ودم امه بالاشتراك باذن الله تعالى وخلقه فابواه هما اللذان اعطياه من دمهما ولحمهما وعظامهما دمه ولحمه وعظامه بقدرة الخالق العظيم وما كان لانسان ان يوجد من امرأة وحدها أو من رجل وحده وذلك تقدير العزيز العليم . ومن جهة العطف والحنان نجد الجد يعطف على ابن ابنته مثل عطفه على ابن ابنه فلا يفرق بينهما بل هما في عواطفه الأبوية بمنزلة واحدة واما في الاصطلاح فقد اصطلح الناس على نسبة الابن لأبيه دون امه فيحمل اسم عائلة أبيه وهذا لم يكن في الحسنين لانهما يحملا اسم العترة النبوية الهاشمية لان أبهما وجدهما من نسب واحد . وفي الميراث لقد جعلت الشريعة السمحاء تفاوتاً في الارث بين الذكور والاناث وانسالهم لحكمة يقتضيها الاجتماع البشري لا لانكار النسب والرحم والقرابة وفي هذا كفاية للمنصفين

وقد دخلت سيدتنا فاطمة الزهراء على ابيها المصطفى ذات يوم ومعها الحسنان غلامان يترعرعان عليهم الصلاة والسلام وقالت : يارسول الله هذان ابناك فورثهما شيئاً فقال أما الحسن فان له هيبتي وسؤددي وأما الحسين فان له جرءتي وجودي . صدق رسول الله فكان الحسن والحسين كما ذكر

تربى الحسنان بين ايدي جدهما المصطفى وابيهما المرتضى وامهما فاطمة الزهراء فبالدلال الخليق بهما وشبا على اعلى الاخلاق الموروثة والمكتسبة ولم يأتيا أمراً يستلفت النظر في عهد أبي بكر وعمر وعثمان الا يوم مقتل عثمان حيث ارسلهما سيدنا علي ليمنعا عنه الناس فسارا الى بيت عثمان وحالا دون الثائرين والدار وحترمهما الثائرون ولم يؤذوهما وصعد نفر منهم الى سطح بيت عثمان من بيت بجواره وقتلوه كما تقدم ومن هذا الحادث تعلم مبلغ الاحترام الذي كان لولدي رسول الله هذين حتى في نفوس الثائرين منهم وفي اشد اوقات ثورة خواطرهم

وصحب الحسنان سيدنا علي الى البصرة يوم الجمل وصحباه الى صفين ولكنهما لم يحاربا معه لانه كان يمنعهما عن خوض غمرات الحرب خوفاً عليهما كما تقدمت الاشارة

وعند ما جرح سيدنا علي عليه صلوات الله ويأس أصحابه من حياته سئل ان كان يريد ان يوصي بالخلافة الى سيدنا الحسن فقال : ذلك حق المسلمين لا آمر به ولا أنهى عنه وسبق لنا ذكر هذه الرواية في غير هذا المكان ونحن شاكون في صحتها فان الحق الصريح الذي كان يطالب به سيدنا علي في الخلافة هو نفس الحق الذي لابنه الحسن عليه السلام لا جدال في هذا ولا نكران.
وعلى فرض صحة هذه الرواية واتهام تدس من الامويين لا تفيد لا معنى واحداً وهو أن سيدنا علي كان يعلم من حال المسلمين وتفرق كلمتهم واضطراب حبالهم واستفحال أمر الامويين بينهم ما جعله أن يزهد بالخلافة وبالحياة أيضاً كما مر معنا فلا بدع اذا كان قد أشفق على ولده وفلذة كبده أن يقاسي في الخلافة ما

قاساه من الارزاء والاهوال والمصاعب والمتاعب فما أمره بالولاية ولا نهاه عنها . أما حق المسلمين في تولية الخلافة فما لا ينكره منكر فان الشورى الاسلامية لا تترك الولاية العامة ارثاً بغير رضاء المسلمين الذين هم أهلها ولكن المختلف عليه هو في هل حق المسلمين في الخلافة يطلق أيديهم في بيعة من يشاؤون حتى لو كان تركياً أو يقيد المسلمين في دائرة محدودة لا يصح لهم أن يتجاوزوها؟ ومجال الخلاف واسع حول الخلافة فمن الناس من يرون أنها من حق الطالبيين لانها ارث عن جدهم المصطفى وأبيهم المرتضى ومنهم من قال بجواز استخلاف الهاشميين على التعميم ومنهم من قال ان الخلافة من حق قريش وذكروا لذلك حديثاً نسبوه الى المصطفى عليه الصلاة والسلام. ولكن ليس من المسلمين من قال بجواز الخلافة في غير قريش على ما اعلم . حتى آخر الزمان اذ جاءنا ابن خلدون المؤرخ المشهور فقال في مقدمته عند ذكره الخلافة وتجوز بيعة السلاطين العثمانيين بها انها تصح لفقدان القوة والعصبية من قريش ووجودهما في العثمانيين على ان مقالته هذه هي قول ذي غرض أو سقطة من يتوخى رضاء العثمانيين لمصلحة والحقيقة ان الاسلام ابطل عصبية الجاهلية والرجوع اليها ليس من الاسلام في شيء وفرق هذا وأجمع العرب على الطالبيين لما فقدوا عصبيتهم

ولقد بايع الناس سيدنا الحسن على أثر مقتل أمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام في المسجد الاعظم في الكوفة وكان أول من بايعه هو قيس بن سعد الانصاري فقال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المحلين (وهم الذين أحلوا بيعة أبيه سيدنا علي عليه صلوات الله وهم الخوارج وأصحاب معاوية) فقال الحسن : « بل على كتاب الله وسنة رسوله فانهما يأتيان على كل شرط » فبايعه وتبعه الناس فبايعوه وكان سيدنا الحسن يشترط على مبايعيه أن يكونوا معه فيسالمون من سالمه ويحاربون من حاربه

ومر معنا فيما تقدم ان الناس تجهزوا قبيل مقتل سيدنا علي عليه صلوات الله للمسير الى حرب الشام فحال مقتله الفاجع واأسفاه دون مسير هذه الحملة قالوا وكان عدد رجالها أربعين الفاً . وما كاد يتربع سيدنا الحسن على دست الخلافة حتى لمنه أن معاوية قد سار الى محاربته وانه قد بلغ « مسكنه » وهي قرية على الفرات قريبة من حلب ولا تبعد كثيراً عن موضع صفين فخف سيدنا الحسن الى لقائه بالجيش الذي كان أعده أبوه وجعل قيس بن سعد بن عبادة الانصاري على مقدمته في اثني عشر ألف مقاتل واتجه سيدنا الحسن الى الشام ومعه عبد الله بن عباس مستشار له ورئيس أركان حربه ولما نزل الحسن في المدائن ظهر الخلل في جنده وأكثروا من التقمقم عليه والتراخي في صحبته وما كفاهم هذا حتى سادت عليهم الفوضى فنفروا كالانعام الجفلى لدى صائح صاح بهم ان قيس بن سعد قد قتل ونهبوا في نفارهم هذا كل ما كان مع الحملة من زاد ومتاع حتى نازعوا سيدنا الحسن بساطاً كان تحته فيئس عليه السلام من الانتصار على معاوية بعد أن خزله أصحابه ورجع الى الكوفة منكسر القلب

أنا أعتقد اجتهاداً ما لا أظنه تعدى الذي حصل فان معاوية ما كاد يبلغه نبأ قتل سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله حتى أرسل جواسيسه بأحمال الاموال الى العراق فتن بها الاصدقاء وجمع بها كلة الخوارج الاعداء ونهض بعد ذلك بنفسه لغزوة سيدنا الحسن فأقام في « مسكنه » ينتظر نتيجة دسائسه في الاقطار العراقية . ولا أحسب ماجرى في مدائن كسرى في جيش سيدنا الحسن الا دسيسة مدبرة من اولئك الجواسيس فصاح الصائح كذباً ينعي للناس قيس بن سعد الذي كان

قَالَ ٱبْنُ مُلْجَمٍ : حَسْبِي إِنْ قَتَلْتَهُ   قَدْ أَبْلَغَتْ مُهْجَتِي أَقْصَى تَشَهِّيهَا

على القدمة وظلّ عليه السلام في معسكره وحيداً بعد ان نازعوه سجادته لانصير له ولا معين .

هذا هو مبلغ رأيي في هذه الحادثة بنيته على ما أمامي من التواريخ الغامضة التي تذكر الحوادث غثها وثمينها كما اتصلت بكاتبيها من غير ان تبدي رأياً فيها يجلوغوامضها . وقالوا ان سيدنا الحسن عليه السلام عند ما بقي في مدائن كسرى وقد تركه الجيش طمع بالاستفادة من حالته تلك شاب غر يدعى المختار بن ابي عبيد فقصد عمه سعيد بن مسعود الثقفي وكان حاكم المدائن من قبل سيدنا علي وقال له هل لك في الشرف والغنى قال سعد وما ذاك ؟ قال المختار تستوثق من الحسن وتستأمن به الى معاوية فقال سعد : عليك لعنة الله أأثب على ابن بنت رسول الله وأوثقه واسلمه لعدوه ؟ لبئس الرجل أنت . ومن هذه الرواية يتضح لنا أنّ فكرة الاثراء بخدمة معاوية وكسب الشرف « ويراد به نيل الوظائف » تحت رايته كانا شائعين يملآن عقول الناس فلا يالون في سبيلهما أيّ السبل سلكوا

وزعموا أن سيدنا الحسن عليه السلام عند ما رجع من المدائن وقد خزله أصحابه يئس وكتب لمعاوية يعرض عليه التسليم له والنزول على حكمه وانّ معاوية كتب له قبل وصول كتابه يعرض عليه التسليم له بالشروط التي يريدها وهذه الرواية مارضيتها ولا اقتنعت بصحتها لانّ أنفة سيدنا الحسن لتحمله على الموت دون هذا التسليم المشين لدى أول صدمة اصطدم بها في حياته السياسية . وعندي أنّ معاوية « وكان معه عمرو بن العاص » في « مسكنه » كان يدبر المكيدة بدهاء وذكاء فما بلغه فرار الناس من حول سيدنا الحسن ورجوعه عليه السلام الى الكوفة وهو منكسر القلب حتى أسرع يعرض عليه الصلح فأرسل اليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس ومعهما صحيفة بيضاء ختمها بختمه فجاءا سيدنا الحسن وعرضا الصحيفة المختومة بختم معاوية عليه ومعهما كتاب منه يقول فيه « أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك » فلما أنتهت اليه الصحيفة صحت عزيمته على التسليم مشترطاً أن يعطى ما في بيت مال الكوفة وكان يبلغ نحواً من خمس ملايين درهم وخراج دارا بجرد من فارس وأن يمتنع عن سبّ سيدنا علي . قالوا فرجع رسولا معاوية اليه بهذه الشروط فرضي بها الا الامتناع عن سبّ سيدنا علي فرجع الرسولان الى سيدنا الحسن بذلك فرضي عليه السلام على أن لا يسبّ سيدنا علي بحضرته وهذه الرواية لا أصدقها أيضاً لانّ الذي يرسل صحيفةً بيضاء مختومةً ويقول اشترط ما تشاء لا يمتنع عن قبول شرط بسيط كالذي اشترطه سيدنا الحسن وعندي انها ملفقة من رواة لا يزنون القول بميزان العقل بل ينقلون كلّ ما يعرض عليهم على علاته وعدا عن بساطة هذا الشرط الذي قالوا امتنع معاوية عن قبوله فاننا موقنون أنّ سيدنا الحسن عليه السلام كان أهون عليه أن يلقى معاوية وجيشه بصدره وحيداً ويموت تحت ظلال الاسنة ولا يسلم بالخلافة لمعاوية ان لم يتعهد بالامتناع عن سب أبيه عليهما صلوات الله والصحيح انّ معاوية تعهد بالامتناع عن السبّ فيما تعهد به للحسن ولكنه نكث عهده فيما بعد وهذا شأنه

وعند ما جاء رسولا معاوية الى سيدنا الحسن بالصحيفة البيضاء المختومة رأى عليه السلام أن يستشير الامة في الامر فدعا الناس الى المسجد الاعظم في الكوفة وصلى بهم صلاةً جامعةً ثمّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيها الناس ، انّا والله ما يثنينا عن أهل الشام شكّ ولا ندم ، وانّا كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر ، فشيبت السلامة بالعداوة ، والصبر بالجزع ،

وكنتم في مسيركم الى صفين ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، ألا وأصبحتم اليوم بين قتيلين ، قتيل بصفين تبكون له ، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره ، وأما الباقي فخاذل ، وأما الباكي فثائر ، ألا وانّ معاوية دعانا لأمر ليس فيه عزّ ولا نصفة ، فان أردتم الموت ، رددناه عليه ، وحاكمناه الى الله عزّ وجلّ بظبى السيوف ، وان أردتم الحياة ، قبلناه وأخذنا لكم الرضى » وما انتهى سيدنا الحسن الى هذا القول حتى دوت في الجامع أصوات الناس وهم يقولون : البقية البقية وامض الصلح . فنزل عليه السلام عن المنبر وهو يحوقل ويسترجع وقد زال من صدره الشريف كلّ أمل بانتصار الناس له وطفق يخابر رسولي معاوية بالشروط التي يرضاها حتى إذا ما تمّ التفاهم بينهما بواسطة الرسولين وهو في الكوفة ومعاوية في «مسكنه» أحبّ أيضاً أن لا يتحمل مسئولية هذا الصلح وحده فجمع الناس في المسجد ووقف فيهم خطيباً فقال « أيها الناس ، انما نحن امراؤكم وضيفانكم ، ونحن أهل بيت نبيكم ، الذين أذهب الله عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيراً » وكرّر ذلك حتى ضجّ الناس بالبكاء فبكا سيدنا الحسن معهم وبينما شهقات البكاء كانت تملأ جوانب المسجد وقف قيس في الناس وهو الذي عرفناه قائداً لمقدمته فقال « أيها الناس : اختاروا الدخول في طاعة امام ضلالة ، أو القتال مع غير امام » فقال بعضهم نصالح وقال البعض بل نحارب فقال سيدنا الحسن عليه السلام « بل نصالح ، فقد رأيتكم لا يثق بكم أحد الا غلب ، ليس أحد منكم يوافق الآخر على رأي ولا هوى ، مختلفين لا نية لكم في خير ولا شرّ ، لقد لقي أبي منكم أموراً عظاماً ، فليت شعري لمن تصلحون بعدي ؟ » ونزل فأمضى شروط الصلح وأرسلها مع الرسولين الى معاوية فأقبل هذا بجيشه ومعه عمرو بن العاص الى الكوفة ودخلها دخول الظافر وقصد الجامع الاعظم فخطب بالناس وطلب بيعتهم فبايعوه ثمّ تقدم عمرو بن العاص وأسرّ في أذن معاوية أن يأمر سيدنا الحسن بالخطابة ليقول كلمة تزيد في نفوذ معاوية على أهل العراق وتسقط من قدر آل البيت فأمره بذلك فقال سيدنا الحسن بأنفة هاشمية ونعرة نبوية طالبية : أيها الناس ، انّ الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وانّ لهذا الامر مدةً ، والدنيا دول ، وانّ الله عزّ وجلّ قال لنبيه (وان أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين) فغضب معاوية وأمر سيدنا الحسن بالسكوت والجلوس ونظر الى عمرو غاضباً وقال « هذا من رأيك »

ثمّ انّ سيدنا الحسن عليه السلام سار الى المدينة المنوّرة مع اخوانه وغلمانهم وحشمهم وما وفى له معاوية بالشروط التي اشترطها فلا أعطاه خراج دارا ولا امتنع عن سبّ سيدنا علي عليه صلوات الله وما صعب على معاوية أن ينكث بعهوده وقد اعتاد هذا من قبل

وقد لام كثيرون سيدنا الحسن عليه السلام على تسليمه لمعاوية فكانت أجوبته لهم منحصرة في معنى ما أجاب به المسيب بن نجية فقال « يامسيب ، لو أردت بما فعلت الدنيا ، لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ولا أثبت عند الحرب مني ، ولكني أردت صلاحكم ، وكفّ بعضكم عن بعض ، فارضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح برّ ، ويستراح من فاجر » اه

وكانت مدة خلافة سيدنا الحسن عليه السلام ستة اشهر فقط اذ تمّ صلحه مع معاوية في ربيع الآخر سنة ٤١ للهجرة

اما قيس بن سعد وهو اكبر قواد سيدنا الحسن فانه اذ رأى نية سيدنا الحسن بالتسليم لمعاوية أكبره وأباه وحدث وقتئذ انّ عبيد الله بن عباس وكان امير جنود سيدنا الحسن قد راسل

معاوية بعد ان شعر برغبة الحسن بالتسليم يسأله الامان لنفسه بما أصاب من مال وماشية فأجابه الى ذلك فترك الجيش الذي كان يقوده وسار الى جيش معاوية الذي كان يدنو من الكوفة بقيادة عبد الله بن عامر فما كان من قيس بن سعد الا ان تقدم من جيش عبيد الله بن عباس وعرض نفسه لقيادته واستلم زمامه وتعهد ان لايسلم لمعاوية الاّ بعد ان يستوثق منه لشيعة سيدنا علي عليه صلوات الله ولمن كان معه على دمائهم واموالهم فلم يقاتله معاوية بل عاهده على ذلك وهكذا دخل قيس ومن معه في طاعة معاوية ولكن في دخولهم لم يسلم معاوية في تسوّده على العراق بغير حرب كما كان يريد فثار عليه الخوارج واضطرّ الى محاربتهم لحاربهم بشدة عرفوا من ورائها فضل سيدنا علي عليه صلوات الله الذي ماكان يرضيهم عدله وحلمه وشفقته وهكذا استقرّ الامر لمعاوية في العراق وبالتالي في عموم البلاد الاسلامية

وكان سيدنا الحسن عليه صلوات الله حليماً شفوقاً صالحاً ورعاً زاهداً عابداً ومات في المدينة المنوّرة في سنة تسع واربعين عن سبع واربعين سنة وسبب وفاته انّ معاوية دسّ اليه سماً على يد جعدة بنت الاشعث بن قيس زوجة الحسن قيل أنّ معاوية أرسل اليها جاسوساً فرشاها بمئة الف درهم ووعدها ان يزوجها من ابنه يزيد لو هي قتلت سيدنا الحسن بالسمّ فقطت فوفى لها بالمال ولكنه لم يزوجها من ابنه قائلاً قدلا تمتنع عن خيانة ابني التي ما امتنعت عن خيانة الحسن. وقد اجمع المؤرخون على أنّ سيدنا الحسن عليه السلام قد توفي مسموماً وان زوجته جعدة هي التي دست له السمّ واكثرهم اتهموا معاوية بجريمة قتله ولكني لما أجد فيما امامي من التواريخ من ذكر سبب اقدام معاوية على قتله مسموماً ويظهر لي أنّ معاوية أراد بقتله تمهيد الطريق امامه لبيعة ابنه يزيد اذ كان لا يجهل ان وجوده عليه السلام في الحياة يحول دون هذه الرغبة التي ما كان يهمّ معاوية بغيرها بعد ان دانت له الخلافة الاسلامية وقبض على عنقها بيده الحديدية

أما سيدنا الحسين عليه السلام فانّه كان في حياة المرتضى عائشاً في ظله وكان منصرفاً الى العلم والفقه متبحراً في الشريعة حتى أجمع الرواة على أنه كان أحسن مثال لسيدنا أمير المؤمنين علماً وفضلاً

وعند ما عقد سيدنا الحسن الصلح مع معاوية لم يقاومه سيدنا الحسين ولم يعارضه في ذلك لأمرين أحدهما احتراماً لسنه لانّه الاكبر منه وثانيهما لانه هو أيضاً كان يرى أنّ البقاء على عداء معاوية وبلاد المسلمين على ما نعهد من الفوضى وأنصار العلويين على ما نعلم من الانقسام لا نتيجة له سوى زيادة القلاقل والفتن وسفك الدماء وسافر مع سيدنا الحسن وآل البيت العلوي الطاهر الى المدينة وأقاموا فيها كلّ مدة حكم معاوية وكان معه على خير لا هو راض عنه ولا هو غاضب عليه وكان معروف المكانة في مدينة جده عليهما السلام يأتيه الناس للافتاء والتبرك

« فاجعة العالمين في مقتل الحسين »

وفي سنة ٥٦ للهجرة خطر لمعاوية وقد وثق من الخلافة وأمن المعارضين والمقاومين والخوارج واستقر حكمه فيها وغدا الناس في قبضته على ما يحب أن يبايع ابنه يزيد فلم يكن في وجوه قريش من واجهه برفض هذه البيعة غير ثلاثة وهم سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وكان من أمرهم مع معاوية في ذلك ما ذكرناه في حاشية سابقة

ومات معاوية سنة ٦٠ للهجرة فخلفه ابنه يزيد بعد أن أعدّ له أبوه البيعة بدهائه كما تقدم

إِنْ لَمْ يَهُزَّ بُرَكٌ قَبْلِيْ بِقَتْلَتِهِ وَكَانَ قَدْ أَمَّهَا يَبْغِي مُعَاوِيَهَا

القول ولم يكن له همٌّ بعد أن بايعه الناس الا أن يأخذ بيعة النفر الذين رفضوا بيعته من قبل وأنكروها على معاوية وهم سيدنا الحسين وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير لانه كان يعلم مكانة هؤلاء الثلاثة في الاسلام وانّ رضاء الناس كلهم بيبعته لا يوازي رضاءهم فكتب الى ابن عمه الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان وكان عامل أبيه على المدينة المنوّرة ينعي اليه معاوية ويطلب منه أن يأخذ اولئك الوجوه أخذاً لا رخصة فيه حتى يبايعوا فاستدعى الوليد مروان بن الحكم وأخبره بوفاة معاوية وخلافة يزيد وأمره القاطع بخصوص أولئك النفر فقال مروان وكان غير راض عن معاوية لانه عزله عن حكم المدينة ان الرأي عندي أن تدعوهم في الحال اليك فامّا أن يبايعوا يزيد أو تضرب أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية فانهم اذا علموا بموته وثب كلٌّ منهم الى ناحية في الحال ودعا الناس الى نفسه واشتعلت نيران الفتنة في البلاد . أما الوليد بن عتبة فتهيب تنفيذ هذا الرأي ولم يجهل ما يتلوه من الفتن ولكنه تظاهر لمروان بقبوله وقال اجلس لا بعث بطلبهم وأرسل في الحال عبد الله بن عمرو ابن عثمان وهو غلام حدث الى سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير يدعوهما اليه فسار اليهما فوجدهما في المسجد النبوي فأبلغهما أمر الوليد فقالا في مثل هذه الساعة لا يجلس الوليد للناس ومع ذلك فاذهب أنت ونحن نوافيه فتركهما وانصرف فقال عبد الله بن الزبير ما تظنّ في دعوة الوليد هذه؟ فقال الحسين أظنّ أنّ طاغيتهم قد هلك فبعث الينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو خبره في الناس فقال الزبير وأنا على هذا الظنّ فما تريد أن نصنع ؟ فقال الحسين : اجمع فتياني الساعة ثمّ أسير اليه واجلسهم على الباب وادخل عليه فقال ابن الزبير اني لأخاف عليك منه فقال الحسين لا آتيه الا وأنا قادر على الامتناع وبالفعل نهض سيدنا الحسين فسار فجمع أصحابه ومواليه وأقبل بهم على باب الوليد حتى اذا ما انتهى اليه قال لهم البثوا هنا فاذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليّ بأجمعكم والا فلا تبرحوا هذا المكان حتى أخرج وتركهم ودخل على الوليد فاذا مروان عنده فعجب سيدنا الحسين من اجتماعهما وبعرفهما متنافرين وقال : الصلة خير من القطيعة والصلاح خير من الفساد وقد آن لكما أن تجتمعا أصلح الله ذات بينكما . وكان في كلمات سيدنا الحسين هذه اشارتان أحداهما الى ما كان بين الوليد ومروان من الحقد بخصوص ولاية المدينة كما سبقت الاشارة والثاني الى أنه قد شعر بوفاة معاوية وانهاهي التي جمعتهما ولم تخف هاتان الاشارتان على الوليد فصارحه القول ونعى اليه معاوية وطلب منه البيعة ليزيد فاسترحم الحسين وطلب لمعاوية الرحمة وقال وأما البيعة ليزيد فانّ مثلي لا يبايع سراً فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً فقال له الوليد حسناً فانصرف الآن فقال مروان هامساً لئن فارقك الساعة ولم يبايع لاقدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه فاحبسه في الحال فان بايع والاّ ضربت عنقه فوقعت هذه الكلمات في أذن سيدنا الحسين فغضب غضبة هاشمية وقال لمروان يا ابن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله ولؤمت ثمّ تركهما وخرج غير خائف وعيداً ولا تهديداً حتى أتى منزله أما مروان فلام الوليد اتركه الحسين قال أما والله وقد عصيتني فوالله لا يمكنك من نفسه ثانيه ابداً فقال الوليد والله ما أحبّ أنّ لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه واني قتلت حسيناً ان قال لا أبايع والله اني لا ظنّ أنّ امرءاً يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الحساب يوم القيامة فهزّ مروان كتفيه وقال عسى أن لا تندم . أما عبد الله بن الزبير فسار من المسجد الى بيته واعتصم فيه وجمع اليه اصحابه فاحتمى بهم واخذ يلح الوليد عليه بالحضور وهو يمتنع حتى اذا ما تكاثرت رسل الوليد أرسل اليه أخاه جعفر بن الزبير فقال

ثمَّ أَعُودُ إِلَيْكُمْ لِلْقَصَاصِ كَمَا   تَقْضِي ٱلشَّرِيعَةُ إِنِّي لَسْتُ خَاشِيَهَا

له: لقد اكثرت بطلب عبد الله حتى افزعته فمر رسلك ان ينصرفوا عنه وهو غداً يوافيك ان شاء الله فرضي بذلك وامر رسله بالانصراف عن عبد الله بن الزبير وما خيم الغسق حتى فر عبد الله بن الزبير واخوه جعفر الى مكة وليس معهما ثالث وفي ثاني يوم علم الوليد بهربهما فارسل رجاله يطلبهما فما عثروا عليهما وفي الليلة التالية هرب الحسين الى مكة مصطحباً بنيه واخوته وبني أخيه الحسن وجل أهل بيته الا محمد بن الحنفية فقد قال له يا أخي أنت أحب الناس الي واعزهم علي ولست أدخر النصيحة لاحد من الخلق أحق بها منك تنح ببيعتك عن يزيد وعن الامصار ما استطعت وابعث رسلك الى الناس وادعهم الى نفسك فان بايعوا لك حمدت الله على ذلك وان أجمع الناس على غيرك لم ينقص بذلك دينك ولا عقلك ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك اني أخاف أن تأتي مصراً وجماعة من الناس فيختلفوا عليك فمنهم طائفة معك وأخرى عليك فيقتتلون فتكون لاول الاسنة فاذا خير هذه الامة كلها نفساً واباً واماً وجداً أضيعها دماً واذلها اهلاً فقال الحسين فأين أذهب يا أخي؟ قال انزل مكة فان اطمأنت بك الدار فبسبيل ذلك وان نأت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال وخرجت من بلد الى بلد حتى تنظر الى ما يصير أمر الناس ويفرق لك الرأي أصوب مايكون رأياً واحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً ولا تكون الامور أبداً أشكل منها حين تستدبرها فأصغى الحسين الى نصح أخيه ووعده باتباع رأيه وقصد مكة كرمها الله . أما عبد الله بن عمر بن الخطاب فارسل اليه الوليد يطلب بيعته فقال ابايع اذا بايع الناس فتركه لان الامويين ما كانوا يتخوفونه

وعند ما بلغ سيدنا الحسين واهله مكة هرع الناس للسلام عليه واخذوا يختلفون اليه وكان عبد الله بن الزبير عندما بلغ مكة اعلن انه عائذ بالكعبة وصار لايفارقها ليلاً ونهاراً الا انه كان يختلف الى سيدنا الحسين ويتظاهر بصحبته ولكنه كان يستثقل وجوده هناك لعلمه أن الناس لايبايعونه ما دام الحسين بقربه

اما أهل الكوفة فعند ما اتصل بهم منعى معاوية وامتناع الحسين وعبد الله بن الزبير عن البيعة ارجفوا بيزيد واجتمعت شيعة سيدنا علي عليه صلوات الله في منزل سليمان بن صرد الخزاعي واقروا على بيعة الحسين والانتصار له وكتب زعماؤهم له الكتاب التالي « بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليك ، فانا نحمد اليك الله ، الذي لااله الا هو ، اما بعد ، فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد ، الذي انزى على هذه الامة ، فابتزها أمرها ، وغصبها فيأها ، وتأمر عليها بغير رضى منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وانه ليس علينا امام ، فاقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا عيد ، ولو بلغنا اقبالك الينا أخرجناه ، حتى نلحقه بالشام ، ان شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » آه وقد أمضى هذا الكتاب سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجية ، ورفاعة بن شداد ، وحبيب بن مظاهر ، وغيرهم من رؤساء أهل الكوفة وارسلوه مع عبد الله بن سبع الهمداني وعبد الله بن وال وما اكتفوا بهذا الكتاب حتى شفعوه بثان مثله وجهوه اليه بعد يومين وكتب الناس اليه كتباً خاصة بهذا المعنى بلغ عددها نحو مئة وخمسين كتاباً أرسلوها مع حامل الكتاب الثاني ثم بعد يومين آخرين سيروا له كتاباً ثالثاً بالمعنى يشددون عليه بالقدوم الى الكوفة ويعدونه بالنصرة ثم كتب اليه شبث بن ربعي وحجار بن أبجر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رويم وعروة بن قيس وعمرو بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير التميمي بذلك

وَقَصَّ قِصَّتَهُ مَعَ صَاحِبَيْهِ بِمَكَّـــةِ وَمَا احْتَاطَ فِي إِفْشَاءِ مَطْوِيِّهَا

فلما انتهت رسل أهل الكوفة بعضها تلو البعض بهذه الكتب الى سيدنا الحسين عليه السلام رأى ان يستوثق الى نفسه من أمر أهل الكوفة بعد أن عرف حالهم مع ابيه عليهما صلوات الله فورسل اليهم مسلم بن عقيل بن أبي طالب لينظران كانوا كما كتبوا له عن اجماعهم على نصرته وصحبه بكتاب كتبه اليهم وهاك نصه « اما بعد ، فقد فهمت كل الذي اقتصصتم ، وقد بعثت اليكم باخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب اليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم ، فان كتب الي انه قد اجتمع رأيُ ملئكم ، وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم ، أقدم اليكم وشيكاً ان شاء الله ، فلعمري ما الامام ، الاَّ العامل بالكتاب ، والقائم بالقسط ، والدائن بدين الحق ، والسلام » آه ولبث سيدنا الحسن عليه السلام في مكة ينتظر ما يكشف الله عليه بواسطة ابن عمه مسلم بن عقيل

سارمسلم بن عقيل الى الكوفة مستخفياًونزل في دار المختار واقبلت عليه شيعة سيدناعلي عليه صلوات الله وكان كلما اجتمع بطائفة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين فيبكون ويعدونه من انفسهم القتال والنصرة . غير أنَّ أمر مسلم بن عقيل لم يظلَّ مكتوماً فعلم به النعمان بن بشير أمير الكوفة من قبل الامويين وكان هذا حليماً ناسكاً يحبّ العافية فعلا المنبر والصلاة جامعة وقال «أما بعدفلاتسارعوا الى الفتنة والفرقة ، فانَّ فيهما تهلك الرجال ، وتسفك الدماء ، وتغصب الاموال ، ألا واني لا اقاتل من لم يقاتلني،ولا أثب على من لايثب عليَّ ،ولا انبه نائمكم ، ولا اتحرَّش بكم، ولا آخذ بالقرف، ولا المظنة ، ولا التهمة ، ولكنكم انابديتم صفحتكم ، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم امامكم (ويريد يزيد بن معاوية) ، فوالله الذي لااله غيره ، لاضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، وان لم يكن لي منكم ناصر ولا معين ، أما واني أرجو ان يكون من يعرف الحقَّ منكم ، أكثر ممن يرديه الباطل » وعند ما انتهى النعمان بن بشير أمير الكوفة من خطبه قام اليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي وكان من شيعة بني أمية وقال « لا يصلح ما ترى الا الغشم ، ان هذا الذي أنت عليه رأي المستضعفين » فقال النعمان « لان أكون من المستضعفين في طاعة الله أحبُّ اليَّ من أن أكون من الاعزين في معصيته » ونزل عن المنبر . واذ رأى عبد الله بن مسلم انالنعمان لم ينتصح بنصحه اسرع فكتب الى يزيد بن معاوية يخبره بقدوم مسلم بن عقيل الى الكوفة ليجمع كلمة أهلها على بيعة الحسين وختم كتابه بقوله « اذا كان لك في الكوفة حاجة فابعث اليها رجلاً قوياً ينفذأمرك ويعمل مثل عملك في عدوّك فانَّ النعمان رجل ضعيف أو هو يتظاهر بالضعف » ولم يكن عبد الله بن مسلم هذا هو الوحيد الذي تزلف الى يزيد بهذه الفتنة بل تبعه في مثل ذلك كلٌّ من عمارة بن الوليد ابن عقبة وعمرو بن سعد بن أبي وقاص وغيرهما ممن يطلبون المنافع لانفسهم

وعند ما رأى مسلم بن عقيل اقبال الناس على بيعة سيدنا الحسين والتفافهم حوله وتراخي النعمان وضعفه كتب الى سيدنا الحسين بواقعة الحال وقال له انَّ لديه ثمانية عشر ألفاً بايعوه على القتال ويستحثه على التعجيل بالمسير الى الكوفة فلما انتهى الى سيدنا الحسين كتاب عقيل أخذ يتحفز للمسير فجاءه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنصحه أن لا يسير الى العراق طالما عمالها أمويون ومعهم مفاتيح بيت المال مذكراً له بأنَّ الناس عبيد الاموال فلا عجب اذا اشتراهم الأمويون بها فتغلبوا عليه وجاء ابن عباس فنصحه أن لا يسير الى العراق الا اذا كان العراقيون قد ثاروا على عمالهم الامويين وأجلوهم عن بلادهم وجاءه بعد هذا عبد الله بن الزبير وسبق لنا القول أنه كان يستثقل

اقامته في مكة لعلمه أنّ الحجازيين لا يبايعونه والحسين فيمابينهم فسأله أولاً عن مسيره ثمّ قال له والله لو أنّ لي شيعة كشيعتك في العراق لسرت اليها ثمّ خاف أن يستغشه فقال ولو أردت أن تظهر الدعوة ههنا لبايعناك ونصحنا لك فقال الحسين « ان أبي عليه صلوات الله حدثني انّ للكعبة كبشاً به تستحلّ حرمتها فما أحبّ أن أكون أنا ذلك الكبش » فقال عبد الله بن الزبير أقم هنا وولني أنا ويكون الامر الاعلى لك في خلاقي فقال الحسين ولا أريد هذا أيضاً ثم قال والله لئن أقتل خارجاً عن الكعبة بشبر أحبّ اليّ من ان اقتل فيها والله ليعتدنّ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت فتركه الزبير وانصرف وما فات الحسين رغبة صاحبه بأن يخرج من الحجاز ليخلو بها له الجو . ثمّ عاد اليه عبدالله بن عباس فألحّ عليه بالاقامة بالحجاز وحاول كثيراً اقناعه بالعدول عن المسير الى العراق فما رضي فعرض عليه أن يسير الى اليمن فما قبل فقال له عبد الله بن عباس اذن سافر بنفسك فلا تأخذ معك صبيتك ونساءك مخافة أن يقتلوك وهم ينظرون اليك فما سمع منه وأصرّ على المسير فقال لقد أقررت عين بن الزبير بخروجك من الحجاز وخرج من عنده غاضباً فمرّ على عبد الله بن الزبير صدفةً فقال له وهو يتبسم

يالك من قبّرةٍ بمعمر خلا لك الجوّ فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت أن تنقّري

فتبسم ابن الزبير وقال لا تمّ الشطرة الاخيرة فقال ابن العباس ومن يدري انها ستتم والشطرة الاخيرة هي « لا بدّ من صيدك يوماً فاصبري »

والمدع سيدنا الحسين عليه السلام يتحفز للمسير الى العراق ولنرجع الى دمشق فقد كان فيها يزيد كما سبق القول شديد الاضطراب والقلق من أمر الحسين وعبد الله بن الزبير وامتناعهما عن بيعته وهربهما الى مكة المكرمة واعتصامهما بالكعبة المشرّفة والتفاف الناس حولهما وبينما هو في مقعدٍ مقيم من أمرهما وصلت اليه كتب النفر الثلاثة التي ذكرناها وعرف منها أنّ الحسين يدعو الى نفسه وانّ رسوله وابن عمه مسلم بن عقيل في الكوفة يدعو الناس الى بيعته وقد بايعوه فرأى أن خوفه من الفتنة في محله واستشار أحد موالي أبيه معاوية ويدعى سرجون وكان معاوية كثير الثقة برأيه فيمن يولي على الكوفة ويكون شديداً صلب العود فأشار عليه بعبيد الله بن زياد فرضيه مع أنه كان حاقداً عليه طوعاً لرأي سرجون وولاه الكوفة والبصرة فتوجه الى البصرة أولاً وكان سيدنا الحسين كتب الى أشرافها يدعوهم الى كتاب الله وسنة رسوله قائلاً : ان السنة قد ماتت، والبدعة قد أحييت . فكتم البصريون جوابه الا المنذر بن الجارود فقد حسب جواب الحسين دسيسةً من ابن زياد الذي كان قد بلغ البصرة في طريقه الى الكوفة فسار اليه بالكتاب وحامله فأمر ابن زياد بقتل حامل كتاب الحسين وخطب في الناس فقال « أما بعد ، فوالله ما بي تقرن الصعبة ، وما يقعقع لي بالشنآن ، واني لنكل لمن عاداني ، وسلم لمن سالمني ، وانصف القارة من راماها ، يا أهل البصرة ، ان أمير المؤمنين (ويريد يزيد بن معاوية) قد ولاني البصرة والكوفة معاً ، وأنا غادٍ الى الكوفة بالغداة ، وقد استخلفت عليكم اخي عثمان بن زياد ، فاياكم الخلاف والارجاف ، فوالله لئن بلغني عن رجل منكم خلاف ، لأقتلنه وعريفه ووليه ، ولآخذنّ الادنى بالاقصى ، حتى تستقيموا او لا يكون فيكم مخالف ولا مشاق ، واني انا ابن زياد ، اشبهته من بين من وطيء الحصى ، فلم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم » له فكان لخطابه هذا تأثير على نفوس البصريين أخافهم فلم ينزعوا الى نصر سيدنا الحسين وسار بعد ذلك ابن زياد الى الكوفة

لٰـكِنَّهُ لَمْ يَبُحْ عَمَّا يُحِيطُ بِهَا ۞ مِنَ ٱلْخَفَايَا ٱلَّتِي كَانَتْ تُغَشِّيهَا
فَمَا عَرَفْنَا إِذَا كَانَتْ جِنَايَتُهُ ۞ فَرْدِيَّةً هَوَساً قَدْ كَانَ آتِيهَا

ومن اغرب ما يروى انّ عبيد الله بن زياد عند ما بلغ الكوفة حسبه الناس سيدنا الحسين عليه السلام فقبلوا عليه عند دخوله وهم يقولون مرحباً بك يا ابن رسول الله ونحن أعوانك وبين يديك ياسيد شباب الجنة فساءه ما رأى من تعلق الناس بسيدنا الحسين. وسمع النعمان بن بشير أمير الامويين في الكوفة لغط الناس بوصول الحسين واحتفاء الناس به فاقفل باب الامارة فرقاً واعتصم فيها فاما اقبل عبيد الله بن زياد على دار الامارة جعل يطرق الباب فاطلّ عليه النعمان وهو يحسب انه الحسين وقال « انشدك الله الاّ تنحيت عني ، فوالله ما أنا بمسلم اليك امانتي ، وما لي في قتالك من حاجة » فغضب عبيد الله بن زياد وقال له افتح ويلك لافتحت فما أنا بالحسين فسمع الناس قوله وقال بعضهم لبعض ويلكم ما هذا بالحسين وانصرفوا وفتح النعمان لعبيد الله فدخل دار الامارة واختليا فيها وهناك أبلغه نبأ عزله .

وفي صباح اليوم التالي خرج عبيد الله بن زياد الى المسجد الكوفي فصلى بالناس ثمّ علا المنبر خطيباً فقال « أما بعد فانّ أمير المؤمنين (ويريد يزيد) ولاني مصركم وثغركم وفيئكم ، وأمرني بانصاف مظلومكم ، واعطاء محرومكم ، وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدة على مريبكم وعاصيكم ، وأنا متبع فيكم أمره ، ومنفذ فيكم عهده ، فأنا لمحسنكم كالوالد ، ولمطيعكم كالأخ الشفيق ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري ، وخالف عهدي ، فليبق كل امرئ على نفسه » ونزل وقد ترك الناس في وجل من تهديده ووعيده

واخذ عبيد الله الناس على التهمة وجعل يشدّد على من يظنّ بهم الميل الى الحسين عليه السلام وينكل بهم تنكيلا اما مسلم بن عقيل الذي كان مختفياً في الكوفة فصار يرى ان الناس يتضايقون من اقامته بينهم فخرج من دار المختار التي كان فيها وقصد هانيء بن عروة المرادي فدخل داره فكره هذا ضيافته وقال له لقد كلفتني شططاً ولولا دخولك داري لاحببت ان تنصرف عني غير انه يأخذني من ذلك ذمام فاقم عندي وهكذا أقام مسلم بن عقيل في دار هانيء مختفياً والشيعة تختلف اليه سراً ويتآمرون على ابن زياد الذي كان دائم السهر على ما يجري حوله في طيّ الخفاء ومازال يتجسس اخبار مسلم بن عقيل حتى عرف انه يقيم في دار هاني فاستدعاه اليه واتهمه بالميل الى العلويين وشدّد عليه بتسليم مسلم بن عقيل نزيله فأبى فضربه عبيد الله بن زياد بيده فهشم وجهه وقامت الفتنة في الكوفة وكادت شيعة سيدنا الحسين تتغلب على ابن زياد لو لم يكن هذا مستوثقاً من اشراف البلد بما ادرّ عليهم من الاموال فخرج هؤلاء الى الناس وفرقوهم بحيث لم يبق مع مسلم بن عقيل غير ثلاثين نفراً بعد ان كانت البلد بجملتها معه حينئذ هرب الى بيت عجوز فأوى اليه ولكن ابنها في اليوم التالي اوصل خبره الى ابن زياد فارسل هذا سبعين رجلاً من مقاتلته الى بيت العجوز فحاربهم مسلم بنفسه ونكل بكثيرين منهم ولكن كثرتهم تغلبت عليه فأوصلته الى ابن زياد مهشماً فأمر بقتله فقتل . على انّ مسلم بن عقيل في أثناء هذه الشدّة وبعد أن رأى أن الناس خزلته استطاع أن يرسل رسولاً الى سيدنا الحسين يخبره بأن يعدل عن القدوم الى الكوفة لتمكن ابن زياد من استمالة اشرافها اليه بالاموال وذلك انّ مسلم بن عقيل عند ماتغلب عليه رجال ابن زياد واحتملوه على بغلة دمعت عيناه فقال له محمد بن الاشعث وكان على رأس رجال ابن زياد ماالذي يبكيك والقوم (ويريد بنو أمية) بنو عمك وليسوا بقاتليك؟ ؟

ابوُ أَنَّهُ مُنْفِذٌ فِيهَا مُؤَامَرَةً   سَوْدَاءَ يَعْلَمُ اِبْنُ الْعَاصِ مُنْشِيهَا
لِذَا بِهِ حَسَنٌ نَادَى فَلَا تَرِدَ   نَّ الْمَاءَ حَتَّى تُلَاقِيَ النَّارَ تَصْلِيهَا

فقال ولكن تسليمي أول غدركم بي ثمَّ بكى فقال عبيد الله بن عباس السلمي وكان مع رجال ابن زياد من يطلب مثل طلبك لايبكي اذا نزل به مانزل بك فقال ما أبكي لنفسي ولكن ابكي لأهلي المنقلبين اليكم أبكي للحسين وآل الحسين ثمَّ مال الى محمد بن الاشعث وكان قد أمنه حتى استسلم اليه اني أراك لتعجز عن أماني وحقن دمي فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته ولا يغرَّه أهل الكوفة فانهم أصحاب أبيه الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو بالقتل ؟ فقال له ابن الاشعث والله لأفعلنَّ وقد برَّ هذا الرجل وكتب الى الحسين بما أوصاه به مسلم وأرسل كتابه اليه مع رسول خاص رغماً عن الشدة التي كان يبديها الملعون بن زياد ضد انصار الحسين

وقتل ابن زياد بعد مسلم بن عقيل هاني الذي كان مسلم نزيله وأرسل برأسيهما الى يزيد فكتب له هذا يشكره ويوصيه بالسهر على البلاد ومحاربة الحسين اذا قصدها بكل شدَّةٍ وبلا رحمةٍ

أما سيدنا الحسين عليه السلام فقد خرج من مكة يوم التروية (يوم الجمعة ٨ ذوالحجة قيل له ذلك لانهم كانوا يرتوون فيه)سنة ٦٠ للهجرة فاعترضه جماعة عمر بن سعيد بن العاص أمير الحجاز من قبل الاموبين وكان على رأسهم أخوه يحيى بن سعيد بن العاص فقاتلهم الحسين وفتح لنفسه طريقه ومضى حتى اذا مابلغ التنعيم رأى هناك عيراً مرسلة من اليمن الى يزيد بن معاوية وعليها الورس والحلل فأخذها وخير أصحاب الابل أن يسيروا معه الى العراق بأجرتهم أو أن يعودوا أدراجهم بما يستحقون من الاجرة ففارقه بعضهم وماشاه البعض . ولما انتهى الحسين الى الصفاح لقيه الفرزدق الشاعر فدعا له بالنصر وأخبره بأن قلوب أهل العراق معه وسيوفهم مع بني أمية . ولما بلغ الحسين الحاجر كتب الى أهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداوي يعرّفهم بقدومه ويأمرهم بالجد في أمرهم ولما بلغ رسوله القادسية قبض عليه الحصين بن نمير التميمي وكان صاحب شرطة ابن زياد في الكوفة وقد أوفاه هذا اليها لترصّد الحسين بعد أن بلغه نبأ خروجه من مكة قاصداً الكوفة فأرسله مع الكتاب الى ابن زياد فمزّق هذا كتاب الحسين وقتل حامله

ثمَّ انَّ سيدنا الحسين عليه السلام أقبل نحو الكوفة فانتهى الى ماء من مياه العرب فاذا عليه عبد الله بن مطيع فرحب هذا به وقال بأبي أنت وأمي ياابن رسول الله ماأقدمك ؟ وحاول كثيراً أن يثنيه عن عزمه فما أفلح . وعند ما بلغ سيدنا الحسين الثعلبية أتاه رسول محمد بن الاشعث ونقل اليه كلام مسلم بن عقيل وما جرى له فما ثنى هذا عزيمته وواصل السير فكان كلما مرَّ على عين ماء اتبعه من عليها فلما وصل الى الزبالة بلغه أنَّ ابن زياد قد تمكن من رقاب الناس ولا يرجى أن ينصروه فأعلم الناس بذلك وقال لهم قد خذلتنا شيعتنا فمن شاء فليبق معنا ومن شاء فلينصرف فانصرف عنه كل الذين مشوا معه في طريقه وهم يظنون انه سائر الى بلد قد استقام له أهله ولم يبق معه غير الذين خرجوا معه من مكة واستأنف بهم السير حتى وصل بطن العقبة فلقيه رجل من العرب فاخبره انه قادم على الاسنة والسيوف وطلب منه أن يعود فما سمع له وواصل السير حتى اذا ما اجتاز شراف وقد انتصف النهار كبر رجل من أصحابه فقال له مما كبرت ؟ قال رأيت النخل فقال رجلان من بني أسد ما بهذه الارض نخلة قط فقال الحسين فما هو؟ فقالا لانراه الاَّ هوادي الخيل فقال وأنا أيضاً أراه كذلك أما لنا ملجأ نلجأ اليه ونجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجهٍ واحدٍ ؟ فقالا بلى هذا

ثُمَّ نَضَى سَيفَهُ حَالَاً وَأَوقَعَهُ ... مَافَوقَ هَامَتِهِ إِذْ آضَ فَارِسُهَا
فَخَرَّ حَالَاً صَرِيعَاً لَاحَيَاةَ بِهِ ... مُضَرَّجَاً بِدِمَاهُ غَائِصَاً فِيهَا

ذو جشم الى جنبك تميل اليه عن يسارك فان سبقت القوم اليه فهو كما تريدفمال اليه فما كان بأسرع من أن طلعت الخيل وعدلوا اليهم فسبقهم الحسين الى الجبل فنزل فيه وجاء القوم وهم ألف فارس بقيادة الحرّ بن يزيد التميمي فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه في نحو الظهيرة فأمر الحسين أن تسقى الخيل فسقيت ثمّ نظم أصحابه صفوفاً واذا بصلاة الظهر قد حضرت فاذّن المؤذن ووقف الحسين بالناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، انها معذرة الى الله واليكم ، اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم : ان أقدم الينا ، فليس لنا امام ، لعلّ الله أن يجعلنا بك على الهدى ، فقد جئتكم ، فان تعطوني ماأطمئنّ اليه من عهودكم ، أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا أو كنتم بمقدمي كارهين ، انصرفت عنكم ، الى المكان الذي أقبلت منه » قال هذا سيدنا الحسين وهو ينظر في وجوه الناس فما كان فيهم مجيب وبعد سكوت قصير قالوا للمؤذن أقم فأقام الآذان وصلى سيدنا الحسين بالناس فصلى معهم الحر ورجاله وبعد الصلاة خلا بكثيرين من وجوه الناس يذاكرهم بالأمر ثمّ أقام صلاة العصر كلّ هذا والحرّ بن زياد وجماعته مع الحسين لايبادئونه العداء وهو عليه السلام يحسب انهم من أهل الكوفة وقد جاؤوا لنصرته غير أنّ الحرّ بن يزيد سأل الحسين عن الكتب التي ذكر غير مرّة انها وصلته من أهل الكوفة فأخرج له خرجين ممتلئين كتباً فنظر الحرّ في تلك الكتب قليلاً وقال : نحن لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك نحن رجال ابن زياد وقد أمرنا اذا نحن لقيناك أن لانفارقك حتى نقدمك الكوفة فقال الحسين الموت أدنى اليك من ذلك ومال الى أصحابه فامرهم أن يركبوا الخيل ليقفل بهم راجعاً الى الحجاز فمنعهم الحرّ من الرجوع وتجادلا ملياً في الكلام ثمّ اتفقا على أن يأخذ الحسين طريقاً لاتؤدي الى الكوفة أو الحجاز ريثما يكتب الى ابن زياد ويرى رأيه على أن يظلّ بأصحابه حارثاً له .

فأخذ سيدنا الحسين عليه السلام طريق العذيب والقادسية حتّى انتهى الى عذيب الهجانات فاذا بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على هجنهم فأخبره أحدهم وهو مجمع بن عبيد العامري فقال : أمّا أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك وأما سائر الناس بعدهم فانّ قلوبهم تهوي اليك وسيوفهم غداً مشهرة عليك . وقال له الطرماح بن عدي وهو ثانيهم والله ماارى معك كثير احد ولو لم يقاتلك الا هؤلاء الذين يلازمونك لكفى وقد رايت في الكوفة قبل خروجي جموعاً كثيفة تهيأ لقتالك والرأي عندي ان تسير معنا الى أجا فنمنعك فيه وتستدعي طي لنصرك فتلبيك وأنا ضمين أن يأتيك منهم عشرون ألف مقاتل فأبى الحسين دعوته وشكره . وانصرف النفر الاربعة عنه وهم وجلون عليه

ثم سار الحسين حتى بلغ قصر بني مقاتل فرأى هناك عبيد الله بن الحرّ الجعفي فطلب نصرته فرفض قائلاً ما تركت الكوفة الاّ مخافة ان تدخلها وأنا فيها ثم استأنف الحسين المسير وكان قد هجم الليل فما هي الاّ ساعة حتى غفا غفوةً وهو على ظهر جواده ثمّ انتبه لنفسه فحمدل واسترجع فسمعه ابنه علي بن الحسين فدنا منه بجواده وقال : فدتك نفسي ما الذي جرى ؟ قال الحسين : لقد غفوت فعنّ لي فارس على فرس فقال « القوم يسيرون والمنايا تسير اليهم » فعلمت أنّ انفسنا قد نعيت الينا فقال علي بن الحسين : يا أبت لا أراك الله سوءً ألسنا على الحقّ ؟ قال بلى والذي يرجع اليه العباد قال اذن لانبالي ان نموت محقين فقال الحسين : جزاك الله من ولد خيراً ما جزى ولداً عن والده

فَاسْتَقْبَلَتْ رُوحَهُ أَهْلُ الْجَحِيمِ وَأَلْـقَتْهَا لِنِيرَانِهِ الْحَمْرَا لِتَشْوِيَهَا
بِهَا شَيَاطِينُهُ قَدْ رَحَّبَتْ وَغَدَتْ لَهَـا وَمِنْهَا وَمَعْهَا فِي مَخَازِيهَا

وظلّ سيدنا الحسين سائراً طول ليله الى الصباح حيث نزل بمن معه فصلى بهم الفجر ثمّ عجل الركوب فأخذ يتياسر باصحابه يريد ان يفرّقهم فتصدّى له الحرّ يريد أن يمنعه عن رغبته وما زالا يتشادان والناس سائرون حتى بلغوا نينوى فنزلوا هنـاك وبعد قليل اقبل فارس من الكوفة واعطى الحرّ كتاباً من ابن زياد فاذا فيه « أما بعد ، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ، ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله الاّ بالعراء ، في غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولي ان يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك أمري والسلام » آه . حينئذٍ انقلب الحرّ من مسلم يحترم ابن رسول الله الى وحش ضارٍ وأمر سيدنا الحسين عليه السلام ان يتبعه الى العراء فجعل يلحّ عليه ان يبقى في نينوى أو يسير الى الغاضرية أو شفية واذ لم يرقّ الحرّ لملتمس الحسين اشار عليه أحد اصحابه وهو زهير بن القين بان يقاتل الحرّ قائلاً انّ قتاله ومن معه أهون من قتال الذين وراءهم فأبى الحسين قائلاً لا ابدأهم بالقتال قال اذن سر بنا الى هذه القرية حتى ننزلها فانها حصينة وهي على شاطئ الفرات فقال الحسين وما هو اسمها قال العقر قال اللهمّ اني اعوذ بك من العقر وأبى المسير اليها . وكان وذلك يوم الثلاثاء السابع من محرّم سنة ٦١ للهجرة

اما ابن زياد فعند ما ارسل رسوله بكتابه الى الحرّ اسرع فارسل عمر بن سعد بن أبي وقاص بالمسير لمقاتلة الحسين باربعة آلاف مقاتل فلما انتهوا حيث ابن رسول الله نازل ارسل اليه عمر رسولا يسأله عن مقدمه فاجابه قائلاً كتب اليّ أهل مصركم هذا ان اقدم عليهم فاذا كانوا تكرهوا مقدمي فانصرف عنهم فارسل عمر بجواب الحسين الى ابن زياد فكتب اليه هذا يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فاذا قبل ينظر في أمره وان يمنع عنه الماء فلما انتهى كتاب ابن زياد الى عمر بن سعد ارسل عمراً بن الحجاج على خمسمائة فارس فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين والماء حتى اذا ما عطش الحسين وأهله وأصحابه أمر الحسين أخاه العباس بن علي فسار في عشرين راجلاً يحملون القرب وثلاثين فارساً فدنوا من الماء وقاتلوا عليه وملأوا قربهم وعادوا وفي اليوم الثاني بعث الحسين ابن قرظه بن كعب الانصاري الى عمر بن سعد يطلب مقابلته في الليل بين العسكرين وبالفعل تقابلا وكان ذلك في الليلة الثانية التي منع عن الحسين واصحابه الماء فيها وتحادثا طويلاً ليجدا للمشكلة حلاً فاذا عمر لا يرضى الا ان يبايع الحسين يزيد والحسين يرى الموت أهون من بيع دينه ببيعة يزيد على انه كان يطلب ان يدعوه فيعود الى الحجاز ثمّ تكررت هذه المقابلات وقال الناس ان الحسين طلب ان يسير الى يزيد في دمشق ويتفق معه على رأي أو ان يسير الى أي ثغر من ثغور المسلمين ويكون واحداً من أهله الاّ انّ أهل الثقة من المؤرخين ينفون هذا . والظاهر ان عمر بن سعد كان يميل الى مساعدة الحسين والسماح له بالرجوع الى الحجاز وكتب بذلك غير مرة الى ابن زياد في الايام الثلاثة التي منع الماء فيها عن الحسين . فلما وقف ابن زياد على ما دار بين عمر والحسين نادى شمر بن ذي الجوشن وقال له اخرج بهذا الكتاب الى عمر فليعرض على الحسين واصحابه النزول على حكمي فان فعلوا فليبعث اليّ بهم سلماً وان أبوا فليقاتلهم فان فعل (ويريد عمر بن سعد) فاسمع له واطع وان أبى فانت الامير عليه وعلى الناس واضرب عنقه (عنق عمر) وابعث اليّ برأسه وكان في كتاب ابن زياد الى عمر ما يأتي « أما بعد ، فلم أبعثك الى الحسين ، لتكفّ عنه ، ولا لتمنيه ، ولا لتطاوله ،

وَلَعْنَةُ ٱللّٰهِ تَغْشَاهَا وَتَصْحَبُهَا ۞ إِلَى ٱلْخُلُوْدِ فَتُرْدِيْهَا وَتُشْقِيْهَا
وَٱلْجُثَّةُ ٱسْتَوْهَبَتْهَا أُمُّ هَيْثَمَ ثُمَّ ۞ أَحْرَقَتْهَا وَكَانَ ٱلرِّيْحُ ذَارِيْهَا

ولا لتقعد له عندي شفيعاً ، انظر فان نزل واصحابه على حكمي ، واستسلموا لي ، فابعث بهم الي سلماً ، وان أبوا فازحف اليهم ، حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون ، فإن قتل الحسين ، فاوطيء الخيل صدره وظهره ، فانه عاق شاق ، قاطع ظلوم ، فان أنت مضيت لامرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان انت أبيت فاعتزل جندنا ، وخل بين شمر وبين العسكر ، والسلام» .

سار شمر بكتاب بن زياد الى عمر بن سعد وسار معه عبد الله بن ابي المحل بن خزام فأخذ هذا من ابن زياد اماناً للعباس وعبد الله وجعفر وعثمان اولاد سيدنا علي عليه صلوات الله من عمته ام البنين بنت خزام بصفته خالهم . ولما انتهى شمر وعبد الله بن خزام الى عمر بن سعد اسرع عبدالله فارسل كتاب الامان الى من ذكرنا من اولاد سيدنا علي عليه صلوات الله مع رسول فرفضوه قائلين امان الله خير من امان ابن سمية (أي معاوية) أما شمر فسلم كتاب بن زياد الى شمر فقرأه هذا وارتجفت فرائصه وقال له : مالك ويلك ؟ قبح الله ما جئت به ، والله اني لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كنت كتبت اليه به ، فقد أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح ، والله لا يستسلم الحسين ابداً والله انّ نفس أبيه لبين جنبيه . فقال له شمر أحسب ما شئت وقل لي ما أنت صانع الآن ؟ فاستعاذ عمر بن سعد في سره من شرّ ما هو مقدم عليه وحب الدنيا غالب على نفسه وقال اتولى ذلك . وعند ما سمع عبد الله بن خزام أنّ حرب الحسين واقعة لامحالة اسرع الى معسكر سيدنا الحسين عليه السلام ودعا العباس ابن سيدنا علي واخوته اليه فجاؤوه فقال أنتم يابني عمتي آمنون فدعوا الحسين وسيروا معي فقالوا بصوت واحد : لعنك الله ولعن امانك لئن كنت خالنا اتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له ؟؟ فرجع عبد الله مخزولاً الى صاحبه شمر

وفي عصر الخميس تاسع محرم ركب عمر بن سعد وشمر والناس معهما قاصدين معسكر سيدنا الحسين عليه السلام وقد كان الحسين وقتئذ جالساً امام خيمته محتبياً بسيفه فغفت عيناه وسقط رأسه على ركبته بينما كان الاعداء يقصدونه فسمعت زينب بنت علي ضجيج الهاجمين فأسرعت لاخيها الحسين فألفته غافياً ورأسه على ركبته كما تقدم فايقظته فقال لها : رأيت جدي رسول الله في الحلم فقال انك تروح الينا . فلطمت زينب وجهها وقالت ياويلتاه . قال ليس لك الويل يا أخية اسكتي رحمك الله . وبينما كان الحسين يخاطب اخته واذا بأخيه العباس أقبل عليه وقال : اظر قد أتاك الناس . فنهض عليه السلام وقال يا أخي لاركب بنفسي فقال العباس بل أروح أنا . فقال الحسين اركب أنت حتى تلقاهم فاسألهم مابدا لهم وعما جاء بهم فأتاهم في نحو عشرين فارساً فيهم زهير بن القين فسألهم عن مقدمهم فقال عمر بن سعد ان ابن زياد أمرنا ان ينزل الحسين ومن معه على حكمه فيسيرون اليه سلماً أو نكرهه على التسليم على شفار السيوف فقال امهلوني ريثما ارجع اليه بالخبر وأرى رأيه فيه فقبلوا وعاد الى الحسين مبقياً اصحابه بين اعداء الله ورسوله يذكرونهم الله وكتابه وعاقبة ما هم قادمون عليه

اما العباس فاسرع على جواده الى اخيه الحسين فاطلعه خبر القوم فقال له عليه السلام : ارجع اليهم فان استطعت تؤخرهم الى غدوة لعلنا نصلي لربنا هذه الليلة وندعوه ونستغفره فهو يعلم اني كنت أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار فرجع العباس بأمر اخيه حتى اذا ما بلغ موقف القوم دنا من عمر بن سعد وقال له ارجع برجالك عنا العشية حتى ننظر في هذا الامر

فَخَفَّفَتْ عَنْ نَجِيعِ ٱلْأَرْضِ نَتْنَتَهَا وَنَزَّهَتْ تُرْبَهَا عَنْ أَنْ تُسَدِّرَهَا
بِذَا حَيَاةُ أَشَرِّ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِهَا قَدِ ٱنْتَهَتْ إِنَّمَا ظَلَّتْ مَسَاوِيهَا

فاذا اصبحنا التقينا ان شاء الله فاماً رضينا به واماً رددناه . فقال عمر بن سعد الى شمر وقال له ما ترى في هذا ؟ فقال شمر أنت الامير والرأي لك . فأقبل عمر بن سعد على الناس وهو يتمنى أن ينتهي الخلاف بغير أن يتعرض لأعظم اثم في محاربة سيدنا الحسين وقتله وقال لهم : ان الحسين يستمهلنا الى الصباح فما ترون ؟ فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدي : سبحان الله ، والله لو كان من الديلم ثم سألكم أن تمهلوه الى غده ، لكان ينبغي لكم أن تجيبوه . وقال قيس بن الاشعث بن قيس : أجبه الى ما طلب ، لعمري ليصبحنك غدوةً بالقتال . فرجع عمر بالناس الى معسكرهم ينتظر الغد

اما سيدنا الحسين عليه السلام لجمع اصحابه حوليه ووقف فيهم خطيباً فقال : أثني على الله أحسن الثناء ، وأحمده على السراء والضراء ، اللهمَّ اني احمدك على أن اكرمتنا بالنبوة ، وجعلت لنا اسماعاً وابصاراً وافئدةً ، وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا في الدين ، فاجعلنا لك من الشاكرين ، أمَّا بعد ، فاني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا أخير من اصحابي ، ولا أهل بيت أبرَّ ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني خيراً ، ألا واني لأظن يومنا من هؤلاء الاعداء غداً ، واني قد أذنت لكم جميعاً ، فانطلقوا في حلٍ ليس عليكم مني ذمام ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ، وليأخذ كلُّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، جزاكم الله جميعاً خيراً ، ثمَّ تفرقوا في البلاد في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرج الله ، فانَّ القوم يطلبوني ، ولو أصابوني لهوا عن غيري » آه . وبعد ان انتهى من خطابه نظر اليهم ليرى رأيهم . فقال له اخوته وابناؤه وابناء اخوته وابناء عبد الله بن جعفر : لا نفعل هذا لنبقى بعدك ، لا أرانا الله ذلك أبداً . فقال الحسين يابني عمي عقيل بن أبي طالب ، حسبكم قتل مسلم بن عقيل ، اذهبوا فقد أذنتُ لكم . قالوا فما نقول للناس ؟ أنقول تركنا شيخنا ، وسيدنا ، وبني عمومتنا خير الاعمام ، ولم نرمِ معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب بسيف ، ولا ندري ماصنعوا ؟ ؟ ؟ ؟ لا والله لا نفعل ، ولكننا نفديك بأنفسنا ، وأموالنا واهلينا ، ونقاتل معك ، حتى نرد موردك ، فقبح الله العيش بعدك . وتقدَّم منه مسلم بن بن عوسجة الأسدي فقال : أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله في اداء حقك ؟ أما والله لا افارقك ، حتى اكسر في صدورهم رمحي ، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، والله لو لم يكن معي سلاحي ، لقذفتهم بالحجارة دونك ، حتى أموت معك . وتكلم بقية أصحابه بنحو هذا فشكرهم الحسين وصرفهم وهو مستسلم لقضاء الله وقدره وعاد الى خبائه يحيي ليله بالصلاة والدعاء

لم ينم سيدنا الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء وكيف ينام وهو يعرف انه بعد ساعات سائر باخوته وبنيه واقربائه الادنين الى المنية لكثرة الاعداء وخيبة الامل بالاصدقاء فصلى الى الله طويلاً ودعا كثيراً وطلب الرحمة والغفر والشهادة والاجر وما زال كذلك الى منتصف الليل فاستند الى وسادته وانشد

يادهر أفٍّ لك من خليلِ كم لك بالاشراق والاصيلِ
من صاحبٍ أو طالبٍ قتيلِ والدهر لا يقنع بالبديلِ
وانما الأمر الى الجليلِ وكل حيٍّ سالك السبيلِ

ثمَّ بكى قليلاً لا عن جزع ولكن على هذا الانسان الذي أبى الاَّ أن يظلم أخاه الانسان وعاد فكرر هـذه الابيات ثانياً وثالثاً وسمعت أخته السيدة زينب بكاءه ونشيده فلم تملك نفسها

فَأَصْبَحَتْ أُمَّةُ ٱلْهَادِي بُعَيْدَ عَلِـــيٍّ ٱلْمُرْتَضَى تَتَمَنَّى فِي تَلَقِّيهَا
فَــكَانَ أَهْوَنَهَا أَنَّ ٱلْخِلَافَةَ بَا تَتْ لِٱبْنِ حَرْبٍ فَأَمْسَى وَهْوَ رَاعِيهَا

فدخلت عليه وهي تقول : واثكلاه ، ليت الموت أعدمني الحياة ، اليوم ماتت فاطمة أمي ، وعلي أبي ، ومحمد جدّي ، والحسن أخي ، آه يا خليفة الماضي ، وثمال الباقي ، الى ماذا أنت صائر ؟ فنظر اليها سيدنا الحسين بقلب يقطر دماً وقال : صبراً يا أخيَّة لا يُذهبنّ حلمك الشيطان . قالت استقتلت بأبي أنت وأمي ، نفسي لنفسك فداء ، فردّد سيدنا الحسين عليه السلام غصته وترقرقت عيناه بالدموع وقال : لو ترك القطا لنام فلطمت السيدة زينب وجهها وقالت : واويلتاه ، أفتغصبك نفسك اغتصاباً ؟ فذلك أقرح لقلبي ، وأشدّ على نفسي . قالت هذا ولطمت وجهها ، وشقت جيبها ، وخرّت على الارض مغشياً عليها . فحوقل سيدنا الحسين واسترجع ونهض اليها وصبّ على وجهها الماء وما زال بها حتى أفاقت فقال : اتقي الله ، وتعزّي بعزاء الله ، واعلمي أنّ أهل الارض يموتون ، وأهــل السماء لا يبقون ، وأنّ كلّ شيء هالك الا وجه الله ، جدّي خير مني ، وأبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولــكل مسلم برسول الله أسوة . وما زال عليه السلام يلطف مصابها بمثل هذه الاقوال العذبة حتى أنس منها التجمل فقال لها : يا أخيَّة ، اني أقسم عليك ، ان لا تشقي عليّ جيباً ، ولا تخمشي عليّ وجهاً ، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور ، ان أنا هلكت . وبعد هذا أرجعها الى خباء النساء وهي في اشد الجزع وجلس لنفسه فبكى قليلاً على حال النساء اللواتي معه ذاكراً نصيحة عبدالله بن عباس أن لا يصحبهنّ وقال : انه القضاء ولا رادّ لما قضى به الله . ثمّ عاد الى الصلاة فأحيا بقية ليله مصلياً ســاجداً داعياً مسلماً أمره وأمر أهله الى الله . وهكذا أحيا بقية أصحاب الحسين ليلتهم بالدعاء والاستغفار والصلاة الى الصباح وهم لا يجهلون ما خبأه لهم القضاء

وعند ما انبثق نور فجر اليوم الاسود يوم عاشوراء من سنة ٦١ للهجرة وهو اليوم الذي له كل محبّ لرسول الله وآل البيت الطاهر ينفجع قلبه وتتكسر نفسه خرج عليه السلام الى اصحابه فأمرهم أن يدنوا خيامهم بعضها من بعض ويحيطوا بالخيام وهي وراءهم ويستقبلوا الاعداء بوجوههم ففعلوا بأمره واستعدوا للقتال فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه وحبيب بن مظهر في ميسرتهم وأعطى رايته الى أخيه العباس وكان كل من معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً فقط بينما كان يربو عدد جيش ابن الزياد الذي يقوده عمر بن سعد على الاربعة آلاف . وأمر سيدنا الحسين أصحابه أن يجمعوا حطباً وقصباً في مكان منخفض كان وراء مخيمهم ففعلوا فأمر بشعله لحماية قفوتهم

أما عمر بن سعد فانه عند الصباح صلى بالناس ثمّ خرج بهم للقتال فجعل على ربع أهل المدينة عبد الله بن زهير الازدي . وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الاشعث بن قيس . وعلى ربع مذحج وأسد عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي . وعلى ربع تميم وهمدان الحرّ بن يزيد الرياحي وهو الذي تصدى للحسين ومنعه من الرجوع . وكان عمرو بن الحجاج الزبيدي على ميمنة عمر بن سعد . وعلى ميسرته شمر ابن ذي الجوش الذي انتدبه الملعون ابن زياد لمراقبة تنفيذ هذه الجريمة الفظيعة . وعلى الخيل عروة ابن قيس الاحمسي . وعلى الرجال شبث بن ربعي اليربوعي التميمي . واعطيت راية الاثم والشر والكفر الى دريد . وكان عدد المقاتلين الاشرار يربو على الاربعة آلاف مقاتل . وهنا لا يسع المؤرخ المنصف الا ان يبدي الدهش والاستغراب من تجمع هذه الجموع الـكثيفة بهذا الاستعداد الحربي العظيم لمقاتلة فئة قليلة لا يربو عددها على الاثني والسبعين رجلا فقط كانوا نازلين تحت الخيام في

عَنْهَا تَخَلَّى لَهُ فِي رَغْمِهِ حَسَنٌ ... مِنْ بَعْدِ سِتِّ شُهُوْرٍ مِنْ تَوَلِّيهَا
لَمَّا رَأَى نَفْسَهُ فَرْداً وَقَدْ هَرَبَتْ ... مِنْـهُ أَخِلاَّؤُهُ طَوْعاً لِرَاشِيهَا

أرض جرداء فهل سمع الاولون والآخرون بجريمة كهذه وهل كان يخطر على قلب بشر انّ قوماً من المسلمين يهاجمون البقية الباقية من آل رسول الله ووصيه عليهما الصلاة والسلام فيوقعوا بهم بمثل هذه الوحشية . لا والله لايستطيع العقل البشري ان يحدّ مبلغ بشاعة هذه الجريمة وفظاعتها بل ان يدي لترتجف وهي تلخص حوادثها ودموعي لتنهلّ على القرطاس فتمحو الحروف التي اكتبها وفؤادي يتفطر حزناً وألماً وانا ادون وقائعها الفظيعة ولا اعرف كيف اعبر عن فظاعة هذه الموقعة التي أقلّ ما يقال فيها انها غدر وكفر . وليت شعري ما كان يضرّ هؤلاء القوم وابن زياد في الكوفة على رأسهم ويزيد في دمشق ولي أمرهم لو تركوا سيدنا الحسين يرجع بأهله وأولاده واخوانه واصحابه من حيث أتوا كما كان يطلب منهم عليه السلام وقد يقال انهم كانوا يخافون ان يثير على يزيد المتغلب على الخلافة فتنةً جديدةً في موضع آخر وهذا كل حجتهم ولكن التجربة علمتهم انّ السيادة لمن معه المال وانهم طالما هم قابضون على بيت مال المسلمين ينفقونه جزافاً على الذين يبيعون آخرتهم بدنياهم وكثيرٌ هم فلا خوف عليهم من محارب ولا هم يحزنون حتى لو كان ان رسول الله بل لو كان رسول الله نفسه عليهما الصلاة والسلام . وبعد هذه التجربة التي جربها معاوية غير مرة ونجحت أما كان خليق بهم ان يظهروا شيئاً من التدين والورع والاحترام لشخص رسول الله بالابقاء على ذريته الطاهرة وفتح الطريق لها لترجع ادراجها من حيث أتت ؟ انهم لو فعلوا هذا لما كان من المستحيل عليهم الاحتفاظ بدنياهم واستجلاب رضاء سيدنا الحسين وآل البيت الطاهر بالامر الواقع ولا سيما بعد ان علم بالاختبار بان اصحابه لا يركن اليهم طالما يسهل على يزيد وعماله ان يشتروا ذممهم بالاموال كما جرى في الكوفة . ومن ثمّ ما كان يجهل يزيد بن معاوية وعماله قاتلهم الله انّ سيدنا الحسين عليه السلام ليس وحده المطالب بالخلافة بل هنالك آخرون يرونه مغتصباً للخلافة ويطمعون بها وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير ونعم ان هؤلاء ليس لهم من الشأن والنفوذ في الاسلام ما لآل البيت الطاهر ولكنهم على كل حال اصحاب كلمة عليا في الاسلام ما كان يجهلها الامويون وجرت بالفعل اذ قام عبد الله بن الزبير بالدعوة للخلافة وحارب الامويين السنوات الطويلة كما رأينا في ترجمته . ولكنّ لله احكاماً نجهل حكمتها فقد سمح الله سبحانه بهذه الجريمة الفظيعة بقضاء وقدر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

رأى سيدنا الحسين عليه السلام اعداء الله ورسوله متحفزين لمهاجمته فاغتسل وتعطر استعداداً للموت وخرج فركب جواده ودعا بالقرآن فوضعه امامه ودعا النفر الذين حوليه الى الاستشهاد فلبوا مشهري سيوفهم فرفع يديه الى السماء وقال : اللهمّ ، أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدّة ، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدّة ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد ، وتقلّ فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت به العدو ، انزلته بك ، وشكوته اليك ، رغبةً فيك ، عما سواك ، ففرجته ، وكشفته ، وكفيتنيه ، فأنت ولي كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل رغبة ، سبحانك أرحم الراحمين . ثمّ أمر سيدنا الحسين بالاستعداد للقاء الاعداء على ان لا يبدؤهم القتال بينما كان لسان النار يندلع من وراء خيامه كما سبقت الاشارة

اما اصحاب عمر بن سعد فإذ رأوا النار تلتهب وراء خيام الحسين اظهروا الدهشة وهجموا على معسكره حتى اذا ما دنوا من الحسين واصحابه قال شمر مخاطباً سيدنا الحسين « تعجلت النار

في الدنيا قبل القيامة » فعرفه عليه السلام وقال « أنت اولى بها صلياً » ثمّ تقدّم من اعدائه بقلب قُدَّ من الحديد وصاح بهم بصوته الجهير بحيث يسمعونه كلهم فقال : « ايها الناس ، اسمعوا قولي، ولا تعجلوني حتى اعظكم بما يجب لكم عليّ ، وحتى اعتذر اليكم من مقدمي عليكم ، فان قبلتم عذري ، وصدقتم قولي ، وانصفتموني كنت بذلك اسعد ، ولم يكن لكم عليّ سبيل ، وان لم تقبلوا مني العذر ، فاجمعوا امركم وشركاءكم ، ثمّ لايكن أمري عليكم غمة ، ثمّ اقضوا عليّ ولا تنظرون، انّ وليي الله ، الذي نزّل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » ولما انتهى الى هذا المقام من قوله ارتفعت أصوات النواح والعويل والولاويل من خيام الحسين من اخواته ونسائه وبناته فدوت بآذان الجميع فنادى سيدنا الحسين اخاه العباس وابنه علياً وامرهما ان يذهبا اليهنّ ويسكتاهنّ وقال لعمري ليكثر بكاؤهنّ بعد اليوم فلما ذهبا قال : صدق عبد الله بن عباس فقد نصحني ان لا أذهب بهنّ ولكن هذا ايضاً بقضاء الله ومن كان يعلم ان الناس يطلبوني ويتعهدون بنصرتي ثمّ ينقلبون عليّ ؟ ؟

وصبر سيدنا الحسين عليه السلام قليلاً ريثما سكتت النساء في الخيام فعاد الى مخاطبة الناس فحمد الله واثنى عليه وصلى على محمد وعلى الملائكة والانبياء وقال ما لايحصى كثرةً فما سمع ابلغ منه ثمّ قال : أما بعد ، فانسبوني ، فانظروا من أنا ؟ ؟ ، ثمّ راجعوا انفسكم فعاتبوها ، وانظروا هل يصلح لكم قتلي ، وانتهاك حرمتي ؟ ألست ابن بنت نبيكم ؟ ؟ وابن وصيه ؟ ؟ وابن عمه ؟ ؟ واولى المؤمنين بالله ؟ ، والمصدق لرسوله ؟ ، أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ؟ ، أو ليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمي ؟ ، أولم يبلغكم قول مستفيض : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ولأخي انما شباب أهل الجنة وقرّة عين أهل السنة ؟ ، فان صدقتموني فيما قلت، وهو الحقّ والله ما تعمدت كذباً ، مذ علمت ان الله يمقت عليه ، وان كذبتموني ، فانّ فيكم من ان سألتموه عن ذلك أخبركم ، سلوا جابر بن عبد الله ، أو أبا سعيد ، أو سهلاً بن سعد ، أو زيداً بن أرقم ، أو انساً ، يخبروكم انهم سمعوه من رسول الله ، أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي ؟» فاعترض شمر لعنه الله سيدنا الحسين قائلاً اني لاعبد الله على حرف ان كنت أدري ما تقول . فقال له حبيب بن مطهر ويلك ياشمر والله اني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً وان الله قد طبع على قلبك فلا تدري ما تقول . فما عبيء سيدنا الحسين بما جال بين الاثنين واستتلى خطابه فقال« ايها الناس، ان كنتم في شك مما اقول ، أو تشكون في أني ابن بنت نبيكم ، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري ، لامنكم ولا من غيركم ، أخبروني هل تطلبوني بقتيل منكم قتلته ؟ أو مال لكم استهلكته ، أو بقصاص من جراحة ؟ » وسكت قليلاً عله يسمع جواباً فما اجابه أحد فوجه خطابه الى شبث بن ربعي وحجار بن ابجر وقيس بن الاشعث وزيد بن الحارث واسماهم باسمائهم وقال لهم « ألم تكتبوا اليّ أن اقدم عليكم ؟ » فقال هؤلاء بكل قحة كلا لم نفعل.فقال عليه السلام بلى فعلتم وكتبكم عندي . ثمّ قال « ايها الناس ، أما وقد كرهتموني ، فدعوني انصرف الى مأمني من الارض » فقال له قيس بن الاشعث حنئذٍ وكأنه قد خجل عند ما ذكره الحسين بكتابه يستدعيه الى الكوفة ثم خرج مع الظالمين الذين خرجوا لقتاله : ألاتنزل على حكم ابن عمك ؟ (ويريد يزيد ابن معاوية على اعتبار العمومة الموجودة بين الهواشم والامويين) فانك لن ترى الاّ ماتحبّ . فقال الحسين « أنت اخو أخيك » اتريد ان يطلبك بنو هاشم ، باكثر من دم مسلم بن عقيل ؟، لا والله ، ولا اعطيهم بيدي عطاء الذليل ، ولا أفرّ فرار العبد ، عباد الله ، اني عذت بربي

وربكم أن ترجموني ، اعوذ بربي وربكم من متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » وادار وجه فرسه . فتقدم من الناس زهير بن القين على فرسه وهو مدَّجج بالسلاح وقال « يا أهل الكوفة ، بدار لكم من عذاب الله بدار ، انَّ حقاً على المسلم ، نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد ، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فاذا وقع السيف ، انقطعت العصمة وكنا نحن أمَّة وانتم أمَّة ، انَّ الله قد ابتلانا واياكم بذريَّة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ، لينظر ما نحن وانتم عاملون ، انَّا ندعوكم الى نصر الله ورسوله بنصر ابن رسوله ، وخذلان الطاغية ابن الطاغية ، يزيد بن معاوية ، وعامله عبيدالله بن زياد ، فانكم لا تدركون منهما الا سوءً ، يسملان أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ، ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جزوع النخل ، ويقتلان أمثالكم وقراءكم ، أمثال حجر بن عدي وأصحابه ، وهاني بن عروة وأشباهه ، فاغتاظ الناس مما سمعوه وسبوا زهيراً وأثنوا على يزيد وابن زياد وقالوا والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو نبعث بهم سلماً الى الامير عبيد الله بن زياد . فقال زهير : ياعباد الله انَّ ولد فاطمة أحقُّ بالودّ والنصر من ابن سمية (ويريد بزيد بن معاوية وهو ابن سمية لانَّ سمية أمُّ معاوية وجدة يزيد) فان كنتم لا تنصروهم ، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم ، خلوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلعمري أنَّ يزيد يرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين » وما كاد ينتهي زهير عند قوله هذا حتى خاف الملعون شمر أن يؤثر به على الناس فبادره بسهم رماه به وقال : اسكت أسكت الله نامَّتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك . فسبه زهير وقال : والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين وابشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الاليم . فضحك شمر وقال انَّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة . فقال زهير أفبالموت تخوفني ؟ والله للموت مع الحسين أحبُّ اليَّ من الخلد معكم . ثمَّ رفع صوته وقال : عباد الله ، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي ، فوالله لا تنال شفاعة محمد قوماً أهرقوا دماء ذريته ، وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ، وذبَّ عن حريمهم . واذ رأى سيدنا الحسين عليه السلام ان مثل هذا الكلام لا يؤثر على قوم ختم الله على أبصارهم وآذانهم فأمره أن يسكت ويرجع فامتثل

وعند ماعزم عمر بن سعد على تنفيذ تلك الجريمة الشنعاء التي ترتجف لذكرها فرائص المسلمين تقدم منه الحر بن يزيد فقال له : أصلحك الله ياعمر أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال عمر : أي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الايدي . قال : أفما لكم في هذه الخصال التي عرضها عليكم رضى ؟ فقال عمر والله لو كان الامر اليَّ لفعلت ولكن أميرك (ويريد عبيد الله بن زياد) قد أبى ذلك . فتركه بغير جواب ورجع وهو نادم على مافعل من حجزه الحسين أولاً وقد عرض عليه العودة الى الحجاز وأخذ يتردَّد في أمره بين الاقدام على نصرة الحسين وهو لا يرى وراءها الا الموت الزؤام مع كسب الجنة وبين حرب الحسين ويرى وراءها الحياة مع خوض نار الجحيم وبينما هو في تردده اعترضه رجل يدعى المهاجر بن أوس قائلاً : والله ياحر انَّ أمرك لمريب ، والله مارأيت منك في موقف قطُّ مثل ماأراه الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ؟ لما عدوتك . فقال الحرُّ . اني والله أخير نفسي بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئاً ولو تقطعت اربأ وحرقت جثتي . قال هذا وهمز في خاصرة جواده فطار به نحو معسكر سيدنا الحسين فقصده وقال : جعلني الله فداك يا ابن رسول الله ، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ، وسايرتك في الطريق ، وجعجعت بك في هذا المكان ، ووالله ماظننت ان القوم يردُّون عليك ماعرضت عليهم أبداً ، ولا

يبلغون منك هذه المنزلة أبداً ، فقلت في نفسي لاأبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ، ولا يرون اني خرجت من طاعتهم ، واما هم فيقبلون بعض ماتدعوهم اليه ، ووالله لو ظننت انهم لايقبلونها منك ، ماركبتها منك ، واني قد جئتك تائباً مما كان مني الى ربي ، مواسياً لك بنفسي ، حتى اموت بين يديك ، افترى ذلك توبةً ؟؟ قال الحسين نعم يتوب الله عليك ويغفر لك . وحينئذٍ استبشر الحر بتوبته وكرَّ على اعداء الحسين وصاح بهم فقال : ايها القوم ، الا تقبلون من الحسين خصلةً من هذه الخصال التي عرض عليكم ، فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟؟ فأجابه عمر بن سعد قائلاً : لقد حرصت لو وجدت الى ذلك سبيلاً . فقال الحرّ : ياأهل الكوفة ، لامكم الهبل والثكل ، ادعوتم الحسين ، حتى اذا اتاكم ، استلمتموه ، وزعمتم انكم قاتلو انفسكم دونه ، ثمّ عدوتم عليه لتقتلوه ، امسكتم بنفسه ، واحطتم به ، ومنعتموه من التوجه في بلاد الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن اهله ، فأصبح كالاسير لايملك لنفسه نفعاً ، ولايدفع عنها ضرّاً ، ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجاري ، يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي ، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وهاهو واهله قد صرعهم العطش ؟ بئسما خلفتم محمداً في ذريته ، لاسقاكم الله يوم الظمأ ، ان لم تتوبوا وتنزعوا عما انتم عليه . فلما سمع الناس من الحرّ هذا التوبيخ بادروه بنبالهم فكرّ راجعاً الى الحسين عليه السلام . وعلى الاثر رمى عمر بن سعد معسكر الحسين بسهم وقال لاصحابه اشهدوا لي اني اول رامٍ فتبعه الناس يرمي نبالهم غير خائفين الله ولامحترمين رسوله في ذريته عليهم لعنات الله الى يوم الدين

وبينما اصحاب يزيد يرمون اصحاب الحسين بنبالهم برز منهم يسار مولى زياد وسالم مولى عبيد الله وطلبا البراز فخرج عبد الله بن عمير الكلبي وكان قد أتى مع زوجه لنصرة الحسين من الكوفة فقالا له من أنت ؟ لانعرفك . فانتسب لهما فقالا لانعرفك فليخرج الينا زهير بن القين أو حبيب ابن مظهر أو برير بن خضير فقال الكلبي ليسار : يا ابن الزانية ترغب عن مبارزة أحد من الناس ولا يخرج اليك أحد الا وهو خير منك وحمل عليه فضربه بسيفه وثنى وثلث فحمل سالم على الكلبي وضربه فاتقى ضربته بيده اليسرى فطارت اصابعها فما كان من الكلبي الا أن مال على سالم بسيفه فأهلكه ورأت امرأته وتسمى ام وهب ما كان من امره مع خصميه فأسرعت اليه بعمود في يدها وهي تقول : فداك أبي وامي ، قاتل دون الطيبين ، ذرية محمد ، فردّها الكلبي نحو النساء فامتنعت وقالت : لن ادعك دون ان أموت معك فناداها الحسين عليه السلام قائلاً : جزيتم عن أهل البيت خيراً ارجعي رحمك الله ليس الجهاد الى النساء فرجعت .

وبينما هذا البراز يجري زحف عمرو بن الحجاج وكان على ميمنة عمر بن سعد بفرسانه نحو معسكر الحسين فجثا انصار الحسين على ركبهم واشرعوا رماحهم ليتلقوا هؤلاء الهاجمين الطغام فخافت الخيل من الدنوّ منهم ورجعت بهم فرماهم رجال الحسين بنبلهم فقتلوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين وتقدم رجل منهم يقال له ابن حوزة وقال أفيكم الحسين ؟ قالوا نعم فما حاجتك قال لعنه الله أبشر ياحسين بالنار فاجابه عليه السلام كذبت بل اقدم على ربٍّ رحيم وشفيع مطاع فمن أنت ؟ قال ابن حوزة . فرفع الحسين يديه فقال اللهمّ ، حزه الى النار . فغضب واقتحم فرسه في نهر بينهما فتعلقت قدمه بالركاب وجالت به الفرس فسقط منها فانقطعت فخذه وساقه وقدمه وبقي جنبه الآخر متعلقاً بالركاب يضرب به كل حجر وشجر حتى مات وذهبت روحه الى النار . وكان مسروق بن وائل الحضرمي قد خرج معه رجال ابن زياد وهو يملي نفسه ان يقتل الحسين ويصيب بذلك منزلةً عند ابن

زياد فلما رأى ما حلَّ با ابن حوزة بدعاء الحسين ارعوى وتاب ورجع ادراجه وهو يقول . لقد رأيت من أهل البيت شيئاً مخيفاً فلا اقاتلهم أبداً

واشتبك القتال بعد هذا وكثرت المبارزة بين رجال الحسين ورجال ابن زياد وكان الله في عون رجال الحسين القلاقل فقتلوا خلقاً كثيراً من الجموع الكثيفة الهاجمة عليهم وكان قتالاً تشيب له الاطفال وبالحقيقة ان رجال الحسين وهم ٣٢ فارساً و٤٠ من المشاة قد ابلوا اعظم بلاء برجال يزيد وذلك بكرامة المصطفى وآل بيته عليهم الصلاة والسلام وما انتصف النهار حتى كان قد استعر القتال وكثر عدد الهلكى واستبسل الالوف الذين كلهم لعنة الله وانبيائه والناس اجمين الى يوم الدين فعقروا خيولهم واصبحوا مشاةً وهاجموا معسكر سيدنا الحسين وخيامه وما زالوا يأتونه بفظائعهم التي ترتجف الفرائص عند ذكرها حتى انتهى شمر الى فسطاط الحسين فنادى عليَّ بالنار حتى احرق هذا البيت على أهله فصاحت اخوات الحسين وبناته وخرجن وصاح به الحسين انت تحرق بيتي على أهلي احرقك الله بالنار واعترض حميد بن مسلم وشيث بن ربعي شمر وكفاه عن حرق بيت الحسين واهلاك نسائه واطفاله وذهب لينصرف فحمل عليه زهير بن القين في عشرة رجال فكشفهم عن البيوت بعد أن هلك من رجال ابن زياد خلق كثير اهلكهم رجال الحسين ولكن لقلة هؤلاء كان اذا قتل منهم واحد أو اثنان يظهر فيهم خلافاً لاولئك الذين لكثرتهم لم يؤثر عليهم هلاك من هلك منهم

ثمَّ كانت قد حانت الظهيرة فتقدم ابو ثمامة الصائدي من سيدنا الحسين وقال له نفسي لنفسك فداء فاني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك والله لاتقتل حتى اقتل دونك واحبُّ ان القى ربي وقد صليت الظهر معك فقال الحسين أذكرتني بالصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين نعم هذا اول وقتها ثمَّ نادى بمن حوله سلوهم ان يكفوا عنا حتى نصلي ففعلوا فلم يجبهم اصحاب ابن زياد بل واصلوا القتال فكثر القتل والجرح نحو الساعة فقتل الحر بن يزيد في جملة من قتل من اصحاب الحسين وفي هذه الاثناء صلى الحسين بالبقية الباقية من اصحابه صلاة الخوف ثمَّ استانفوا القتال فكان على اشده فقتل خلق كثير من اصحاب بن زياد واصحاب الحسين القلاقل وفيهم زهير بن القين وعند العصر رأى اصحاب الحسين وباتوا لايتجاوزون عدد الاصابع انهم يعجزون عن حمايته فأخذوا يتنافسون على السبق للقتل بين يديه متفانين دونه حتى قتلوا جميعاً فبارك الله في هذا الاخلاص الذي أبدوه وباتوا معه في الجنة شهداء

ومما يذكر ان سيف بن الحارث بن سريع ومالك بن عبد بن سريع جاءا الحسين وهما يبكيان فقال عليه السلام ومايبكيكما ؟ اني لأرجو ان تكونا عن ساعة قريري عين . فقالا والله ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك نراك قد احيط بك ولا نقدر أن نمنعك . فقال جزاكما الله جزاء المتقين. وتقدما بعد ذلك من الناس فما زالا يراميانهم بالنبال ويضاربانهم بالسيوف حتى قتلا . وجاء حنظلة ابن اسعد الشبامي فوقف بين يدي الحسين وجعل ينادي : ياقوم ، اني اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب ، مثل دأب قوم نوح ، وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد ، ياقوم ، اني أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فليس له من هاد ياقوم ، لاتقتلوا الحسين ، فيسحتكم الله بعذاب ، وقد خاب من افترى . فاعترضه الحسين عليه السلام قائلاً رحمك الله ، قد استوجبوا العذاب ، حين ردُّوا ما دعوتهم اليه من الحقّ ، ونهضوا ليستبيحوك واصحابك ، فكيف بهم الآن ، وقد قتلوا اخوانك الصالحين ؟ فما كان من حنظلة الا ان سلم على الحسين وصلى على جده المصطفى وابيه المرتضى وآلهما الاخيار وتقدم وقاتل حتى قتل . وهكذا كان

يفعل اصحابه القلاقل الباقون فيقتلون وكان آخر شهيد منهم سويد بن أبي المطاع الخثعمي

وكان اول من قتل من بني أبي طالب في ذلك اليوم المشئوم الاسود هو علي الاكبر ابن الحسين وامه ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفية فان هذا البطل العلوي الحسيني حمل على أعداء الله ورسوله لعنهم الله وهو يقول

انا علي ابن الحسين ابن علي نحن ورب البيت أولى بالنبي

تالله لايحكم فيا ابن الدعي

فحمل عليه مرة بن منقد لعنه فطعنه فصرع فهجم عليه اولئك الوحوش واعملوا في جسده الشريف سيوفهم فلما رأى سيدنا الحسين ما حل بابنه وفلذة كبده عليهما السلام قال : قتل الله قوماً قتلوك يابني ، قاتلهم الله ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسوله ، على الدنيا من بعدك العفاء . واقبل عليه ومعه فتيانه فقال لهم : احملوا أخاكم . فحملوه حتى وضعوه بجانب الفسطاط الذي كانوا يقاتلون امامه . وقتل بعد ذلك نفر فيهم اولاد عقيل بن أبي طالب . وتقدم القاسم بن علي وبيده السيف فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل الازدي لعنه الله فضرب رأسه بالسيف فسقط القاسم الى الارض وهو يصيح ياعماه فانقض الحسين اليه كالصقر ثم شد شدة ليث أغضب فضرب عمراً بالسيف فاتقاه بيده فقطع يده من المرفق فصاح وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمراً فاستقبلته بصدورها وجالت عليه فوطئته حتى مات وانجلى الغبار والحسين واقف على رأس القاسم بن الحسن وهو يفحص برجليه والحسين يقول بعداً لقوم قتلوك ، وخصمهم فيك يوم القيامة حداك المصطفى والمرتضى . ثم قال : «عز والله على عمك ، أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك ثم لاينفعك صوته ، والله هذا يوم كثر واتره ، وقل ناصره » ثم أن سيدنا الحسين عليه السلام حمل القاسم على صدره وسار به فألقاه بجانب ابنه علي ومن قتل معه من الطالبيين بجوار الفسطاط

وكان الملعون عبدالله بن عقبة العنوي قد قتل أبا بكر بن الحسين بن علي بسهم فهجم اخوته العباس وعبد الله وجعفر وعثمان اولاد الحسين على الناس فقتلوا خلقاً كثيراً منهم عن آخرهم كما قتل أيضاً محمد بن علي بن أبي طالب قتله رجل من بني ابان لعنه الله

ومما يحسن ذكره هو ان سيدنا الحسين عليه السلام كان متعرضاً طول مدة القتال الى أعدائه الاشرار وهم يكرهون قتله فلا يقدمون عليه ولو راموا أن يقتلوه من بدء الموقعة لما تعذر ذلك عليهم وما زال متعرضاً لنبالهم وسيوفهم الى عصر ذلك النهار المشئوم والقتل دائر والارواح تباع فيه بيع السماح وحينئذ تقدم من الحسين خبيث زنديق كافر من كندة يقال له مالك بن النسير فضربه لعنه الله على رأسه الشريف بالسيف فقطع البرنس وأدمى رأسه وامتلأ البرنس دماً . فقال له الحسين: لاأكلت بيمناك ولا شربت وحشرك الله مع الظالمين وألقى عليه السلام البرنس ولبس القلنسوة وأخذ الكندي البرنس

ثم ان سيدنا الحسين على ماذكرنا من جرحه في رأسه الشريف دعا بابنه عبد الله وهو طفل صغير كان على شفير الهلاك من الظمأ يصيح الماء الماء وأجلسه في حجره وقال أيها الظالمون ألا تسقوا هذا الطفل البار نهلة من الماء ؟ فرماه زنديق من بني أسد لعنه الله بنبلة فقضت عليه فأخذ الحسين دم طفله فصبه في الارض وقال : رب ان تكن حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير ، وانتقم من هؤلاء الظالمين .

لَوْلاَ جَرِيمَةُ ذَيَّاكَ الأَثِيمِ لَمَا   هٰذِي ٱلْمَصَائِبُ قَدْ عَمَّتْ دَوَاهِيهَا

ثمّ انّ سيدنا الحسين عليه السلام اشتدّ عليه العطش فجرّر نفسه الى الفرات وهو قريب من بجسمه ليشرب وكان الدم المتدفق من جرح رأسه قد صبغ شيبته الطاهرة حلةً أرجوانية فرماه الملعون حصين بن نمير بسهم فوقع في فمه الطاهر عليه السلام فجعل يتلقى الدم بيمناه ويرمي به الى السماء وهو ناظر اليها بخشوع وعيناه مغرورقتان بالدموع . ثمّ حمد الله وأثنى عليه وقال : اللهمّ ، اني أشكو اليك ، مايصنع هؤلاء ، بابن بنت نبيك ، اللهمّ ، أحصهم عــدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً . قال هذا وحمل نفسه فجرّرها يريد الرجوع الى فسطاسه فاعترضه الملعون الاكبر شمر بن ذي الجوشن ومعه عشرة رجال فحالوا بينه وبين الفسطاس فقال لهم الحسين عليه السلام : ويلكم ، ان لم يكن لكم دين ، وان كنتم لاتخافون يوم المعاد ، فكونوا أحراراً ذوي أحساب ، امنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالكم . فقال شمر الملعون : ذلك لك يابن فاطمة . قال شمر هذا وهجم على الحسين بأصحابه الفجار الملاعين وهم عبد الرحمن الجعفي ، والقشعم بن نذير الجعفي ، وصالح بن وهب اليزني ، وسنان بن أنس النخعي ، وخولي بن يزيد الاصبحي ، وبحر بن كعب بن تيم الله ، وأربعة آخرين وطفق شمر الملعون يحرّضهم على الاقدام على قتل الحسين وهو يحمل عليهم فينكشفون رهبةً لمقامه النبوي العظيم . ثمّ انهم لعنهم الله أحاطوا بالحسين . وفي هذه الاثناء تقدم أحد عبيد الحسين فاخترق اولئك الاشرار ووقف الى جانب سيدنا وسيده يريد الموت دونه . فتقدم الملعون بحر بن كعب والسيف مشهر بيده يريد الفتك بسيد شباب الجنة فعترضه العبد قائلاً : يابن الخبيثة أتقتل عمي ؟؟ (وكان العبيد يسمون مواليهم أعماماً من يوم نزلت آية (ما كان محمداً باأحد) في قصة زيد وكانوا قبلها يسمونهم آباءً وما زال هذا حال الموالي مع أسيادهم في العراق الى يوم الناس هذا فانهم يسمونهم أعماماً اه) فما كان من الملعون بحر الا انه ضرب الغلام فاتقى العبد السيف بيمناه فاطنت الى الجلدة . فنادى العبد ياأمتاه فاعتنقه الحسين وقال له : يابن أخي اصبر على مانزل بك فان الله يلحقك بآبائك الطاهرين الصالحين (ويريد أسياده) برسول الله وعلي وحمزة وجعفر والحسن . ثمّ رفع سيدنا الحسين عينيه الى السماء وقال : اللهمّ أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم بركات الارض ، اللهمّ ، فان متعتهم الى حين ، ففرقهم فرقاً ، واجعلهم طرائق قدداً ، ولا ترضي عنهم الولاة أبداً ، فانهم دعونا لينصرونا ، فعدوا علينا فقتلونا . ثمّ انّ سيدنا الحسين عليه السلام هجم على أولئك الاشرار هجمةً علويةً طالبيةً متخذاً من الضعف قوةً وحاله معهم ماعرفنا فكشفهم عنه ثمّ عادوا اليه وقد أتاهم غيرهم مدداً لهم فأحاطوا به عن يمينه ويساره فحمل على الذين عن يمينه ففرقهم وكرّ على الذين عن يساره ففرقهم ولم يرو التاريخ عن شجاع مقهور كالحسين قتل أبناؤه واخوانه وأصحابه ولم يبق بقربه غير النساء ينحن ويولولن ويعولن وهو رابط الجأش ثابت الجنان اجرأ مايكون في موقف الطعان بينما يرى أعداءه يتكاثرون عليه وليس له من معين ونصير واولئك الاعداء ينكشفون من حوليه انكشاف المعزى عن الذئب معاذ الله بل قل عن الأسد الغاضب ولعمري من كان جده المصطفى وأبوه المرتضى خليق به أن يكون واحداً بمقام ألف

وبينما كان سيدنا الحسين عليه السلام في موقفه المحزن امام أولئك الوحوش المفترسة خرجت أخته زينب وهي محلولة الشعر دامعة العين وكانت تقول : ليت السماء انطبقت على الارض . وماكادت عليها السلام تدنو من الحسين حتى كان عمر بن سعد قد دنا منه عليه السلام مدداً لشمر وأصحابه الذين عجزوا عن قتل سيد الشهداء فقالت له : ياعمر . أيقتل أبو عبد الله ، وأنت تنظر ؟ فبكى حتى سالت دموعه

على خديه ولحيته وصرف وجهه عنها وكان الحسين في ذلك الوقت يجول بين أعداء الله ورسوله جولة الاسد الغاضب ويقول : أعلى قتلي تجتمعون ؟ أما والله لاتقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخط عليكم لقتله مني ، وأيم الله اني لارجو أن يكرمني الله بهوانكم ، ثم ينتقم لي منكم ، يسفك دمائكم ، ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم يوم القيامة

وظل الحسين مدة غير قصيرة على هذه الحال بين أعدائه ولو شاؤا قتله لقتلوه فانهم جماعة وهو فرد مهما كانت قوته عظيمة وشجاعته نادرة ولكن كان أولئك الاشرار يتهيبون قتل البضعة النبوية الطاهرة فيتقي بعضهم ببعض ويحب كل منهم أن يكون القاتل سواه فلما طال المطال عليهم ناداهم اللعين شمر قائلاً : ويحكم ماذا تنتظرون ؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم . فحملوا علية لعنهم الله من كل جانب حملة لئام أشرار كفرة لايهابون الله ولا يحترمون رسوله . فضرب الملعون زرعة بن شريك التميمي بسيفه كف الحسين وثنى الضربة على عاتقه فجعل عليه السلام يقوم ويكبو فحمل عليه الملعون سنان بن أنس النخعي فطعنه برمحه ونادى بالملعون خولي بن يزيد الأصبحي قائلاً احتز رأسه بالحال فحاول هذا الشرير أن يفعل فضعف وأرعد فصاح به الملعون سنان قائلاً : فت الله عضدك ونزل اليه عليه السلام فذبحه واحتز رأسه الشريف فدفعه الى الملعون خولي

فياسماء اغضبي ويا أرض انشقي ويا شمس أظلمي ويا قلوب تفطري لوعة وأسى فان ابن رسول الله وسيد شباب الجنة قد ذبح ذبح الخروف بايدي فسقة كفار أشرار يدعون الاسلام كذباً ونفاقاً فياويلاه وياسكبتاه ولا حول ولا قوة الا بالله والامر لله

وبعد ان تم القضاء وقتل سيدنا الحسين قتل الشهداء بفظاعة وحشية ترتجف لها القلوب وتتفتت لهولها الضلوع هجم اولئك الفساق الفجرة فأخذوا اسلابه فكانت سراويله من حظ الملعون بحر بن كعب وقطيفته من حظ الملعون قيس بن الأشعث فصار يسمى بعدها قيس قطيفة ونعلاه من حظ الملعون الاسود الاودي وسيفه من حظ ملعون من رحال دارم ومال اولئك الاشرار بعد ذلك على الفرش والحلل والابل فنهبوها ونهبوا ثقله ومتاعه وما على نسائه واخواته حتى كانت هاتيك السيدات الشريفات العلويات الهاشميات عرضة لاولئك الفساق ينتزعون عنهن بتوحش اثوابهن ويتركونهن عرايا فهل سمع الاولون والآخرون بشر مثل هذا الشر وفظاعة مثل هاته الفظاعة وهل يخطر على قلب بشر ان قوماً يدعون الاسلام ويأتون مثل هذا الاثم والفظائع مع أشرف اشراف المسلمين بالاجماع وينتهكون بهن حرمة المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام ؟

وما اكتفى هؤلاء الفساق الكفار بهذه الشرور حتى ارادوا ان يستأصلوا النسل الطاهر فطلبوا سيدنا علي زين العابدين بن الحسين وكان صبياً محموماً بين النساء يريدون قتله أراد ذلك الملعون شمر فاعترضه حميد بن مسلم قائلا سبحان الله اتقتل الصبيان المرضى فدعه بين النساء وبينما كان حميد يعترض شمر وصل عمر بن سعد فدخل فسطاط الحسين واخرج اولئك الفساق منه ومنع شمر عن اتمام جرائمه الفظيعة بقتل سيدنا علي زين العابدين وأمر الناس ان يردوا ما نهبوا من النساء فما رد أحدهم شيئاً مما أخذ

ثم خرج عمر بن سعد لعنه الله خارج الفسطاط وصاح بالناس من ينتدب الى الحسين فيوطئه فرسه فانتدب عشرة منهم الملعون اسحق بن حياة الحضرمي فأتوا فداسوا الجسد الحسيني الشريف بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره ووجد بعد ذلك في جسده الطاهر ثلاث وثلاثون طعنة وأربع

وثلاثون ضربة غير الرمية . ثمَّ دفن سيدنا الحسين واولاده واخوته واصحابه في ذلك الموضع المسمى كربلاء أهل القاخرية من بني اسد في اليوم التالي لمقتلهم الفاجع

ثمَّ ان عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن ارسلا رأس سيدنا الحسين ورؤوس اصحابه الى الملعون عبيد الله بن زياد مع خولي يزيد وحميد بن مسلم الازدي لعنهم الله فلما قدما الكوفة قصدا الملعون بن زياد بالرؤوس الشريفة فجلس لعنه مجلساً عاماً وأذن للناس فدخلوا عليه وأمر بالرؤوس فاحضرت بين يديه فمدَّ قضيباً بيمناه وجعل ينكت به ثنيتي سيدنا الحسين عليه السلام فعل ذلك طويلا فناداه زيد بن الارقم قائلا : اعلُ هذا القضيب عن هاتين الشفتين ، فوالذي لا اله غيره ، لقدريت شفتي رسول الله عليه الصلاة والسلام ، على هاتين الشفتين يقبلهما . قال هذا زيد بن الارقم وبكى وصاح به الملعون ابن زياد قائلاً : أبكى الله عينك ، فوالله لولا أنك شيخ خرفت ، وذهب عقلك لضربت عنقك . فنضب زيد وخرج وهو يقول : أنتم يامعشر العرب ، لعبيد بعد اليوم ، قتلتم بن فاطمة ، وأمَّرتم بن مرجانة (ويريد عبيد الله بن زياد) فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ، بالذلّ ، فبعداً لمن يرضى بالذل .

أما عمر بن سعد فانه أقام يومين بعد هذه الفاجعة الفظيعة التي أورثت المسلمين الحزن والشجن الى يوم الدين في تلك الارض المقدسة التي استشهد بها خير الشهداء ثمَّ قدم الكوفة ومعه بنات الحسين واخواته ومن كان معه من الصبيان وعلي زين العابدين بن الحسين وهو محموم مريض فاجتاز بهم على مدافن الشهداء فصاحت النساء ولطمن خدودهنَّ وصاحت السيدة زينب بنت علي : يامحمداه ، صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطع الاعضاء ، وبناتك سبايا ، وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا . وكان قولها هذا مبكياً اولئك الأعداء الفساق الاشرار

ولما انتهى عمر بن سعد بهاتيك السبايا الى الكوفة سار بهم الى بيت الملعون عبيد الله بن زياد فوضعن في غرفة ثمَّ دخل عليهنَّ ابن زياد لعنه الله وقال : الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم واكذب احدوثتكم فقالت زينب بنت علي بشممها المحمدي : الحمد لله ، الذي أكرمنا بمحمد ، وطهرنا تطهيراً ، لا كما تقول يا كافر ، وانما يفتضح الفاسق ، ويكذَّب الفاجر . فقال لعنه الله : فكيف رايت صنع الله بأهل بيتك ؟ قالت : لقد كتب عليهم القتل ، فبرزوا الى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم ، فتختصمون عنده . فغضب الملعون ابن زياد وقال : قد شفى الله غيظي من طاغيتك ، والعصاة المردة من أهل بيتك . فبكت السيدة زينب وقالت : لعمري لقد قتلت كهلي ، وابرزت أهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي ، فان يشفك هذا الداء ؟ فقد اشتفيت . فقال الملعون : هذه شجاعة ولعمري لقد كان ابوك شجاعاً . فقالت السيدة زينب : ما للمرأة والشجاعة ؟ اخزاه الله وسكت

ثمَّ التفت الملعون ابن زياد الى سيدنا علي زين العابدين فقال له ما اسمك ؟ قال علي بن الحسين . فقال لعنه الله : أو لم يقتل الله علي بن الحسين ؟ فسكت ذلك السيد الصبي ولم يتكلم . فقال الملعون ابن زياد . ما لك لا تتكلم ؟ فقال : كان لي أخ يقال له أيضاً علي فقتله الناس . فقال ابن زياد لعنه الله : انَّ الله قتله فقال ذلك السيد الصبي : انَّ الله سبحانه يتوفى الانفس عند موتها وما كان لنفس ان تموت الاَّ باذن الله . فهزَّ الملعون ابن زياد رأسه وقال والله ان هذا الصبي لمن تلك الدوحة . ثمَّ أمال رأسه الى احد اتباعه وقال : أنظر هذا الصبي هل أدرك ؟ اني لأحسبه رجلاً فكشف عنه ذلك الرجل وكان يدعي مري بن معاذ الاحمري وقال نعم تدارك فقال الملعون

ابن زياد اقاله ويحك . فاعترضه سيدنا علي زين العابدين بجرأة هاشمية قائلاً : ويلك ان انا قتلت فمن توكل بهذه النسوة ؟ وماكاد يتم عليه السلام كلماته حتى اسرعت السيدة زينب واعتنقت ابن أخيها وقالت : يا ابن زياد حسبك منا ، أما رويت من دمائنا ؟ وهل أبقيت منا أحداً غير هذا الغلام ؟ فاسألك بالله ان كنت مؤمناً ان تقتلني معه مادمت مصراً على قتله . وما انتهت من قولها حتى قال سيدنا علي زين العابدين : ان كان بينك وبين هاته النساء قرابة فابعث معهن رجلاً يصحبهن بصحبة الاسلام وبعد ذلك فاقتلني . فصمت ابن زياد مدة يفكر ثم قال : دعوا الغلام ينطلق مع نسائه وخرج

وبعد ان خرج الملعون ابن زياد من غرفة النساء قصد المسجد الاعظم ونادى الصلاة الجامعة فاجتمع الناس فصلى بهم ثم علا المنبر خطيباً فقال : الحمدلله ، الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته . قال هذا ذلك الملعون ابن الملعون ولم يخف الله ولم يحترم رسوله ولا راعى ضميره وذمته وما خلا المسلمون وقتئذ من ذي حمية ودين وهو عبد الله بن عتيق الازدي وكان شيخاً ضريراً من بقايا السلف الصالح قد فقد احدى عينيه يوم الجمل والاخرى يوم صفين في اثناء جهاده تحت راية سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله فلما سمع هذا الصالح ان الملعون ابن زياد يتهجم على سيدنا الحسين وابيه بالهجر واللغو والسفاهة وثب عليه وقال : يا ابن مرجانة ، ان الكذاب ابن الكذاب ، هم انت وأبوك ، والذي ولاك وابوه ، ياابن مرجانة ، اتقتلون أبناء النبيين ، وتتكلمون بكلام الصديقين ؟ فغضب الملعون ابن زياد من ذلك الصالح المجاهد في سبيل الله الملازم المسجد للصلاة من الصباح الى المساء عبد الله بن عتيق الاردي وأمر بأخذه فأمسك به زبانيته الملاعين ثم نادى بشعار الازد « يامبرور » فوثب اليه فتية من الازد فانتزعوه من بين الناس وقتلوه شر قتلة . وما اكتفى الملعون ابن زياد بهذا حتى زاد عليه ان أمر بصلبه فصلب على ملأ من الناس ليكسر قلوبهم

ثم ان الملعون ابن زياد أمر ان يطاف برأس الحسين في الكوفة فطاف اصحابه لعنه ولعنهم الله بالرأس الشريف واراد بذلك ان يدخل الرهبة على أهل الكوفة الذين كان يعلم تشيعهم لسيدنا علي واولاده عليهم وعلى المصطفى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام

ثم ان الملعون ابن زياد كتب الى الملعون يزيد بن معاوية ينبئه بهذه الفاجعة فقال : « ابشر ياأمير المؤمنين ، بفتح الله وبنصره ، وبعد ، فقد وردعلينا الحسين بن علي ، في ثمانية عشر من أهل بيته وأربعة وخمسين من شيعته ، فسرنا اليهم فسألناهم أن ينزلوا على حكم أمير المؤمنين (ويريد يزيد) أو القتال ، فاختاروا القتال ، فعدا عليهم جيش عمر بن سعد مع شروق الشمس ، فأحاطوا بهم من كل ناحية ، حتى اذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم ، جعلوا يهربون الى غير وزر ، ويلوذون بالآكام والحفر ، كما لاذت الحمائم من صقر ، فوالله ماهو الا جزر جزور ، أو نومة قائل ، حتى أتينا على آخرهم ، فأصبحت أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة ، وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس ، وتسفي عليهم الريح ، زوارهم العقبان والرخم ، في بقاع سبسب » آه فلما انتهى الكتاب الى يزيد بن معاوية فرح به واستبشر وأرسل الى ابن زياد يحمد له صنيعه ويبشره برضائه الا أنه تخوف من غضب الناس عليه ان هم سمعوا ما فعله عامله لعنهما الله بآل البيت الطاهر مالا يفعله الكفار بالمؤمنين فجعل يقول بين أصحابه انه ما كان يريد قتل الحسين واخوته وابنائهم وانه مستاء من هذه الجريمة الشنعاء وطفق هؤلاء يشيعون ذلك عنه مع ان قلبه كان يتهلل فرحاً بما كان بل ان ماكان لم يكن الا بأمره وما كان ابن زياد

ليقدم على قتله الشنعاء لولا ان يستأنس برضائه

على انّ يزيد أرسل الى ابن زياد مع شكره له يأمره أن يرسل الرؤوس الشريفة والسبايا الكريمة الى دمشق فارسلها له ابن زياد مع شمر بن ذي الجوشن ومحفر بن ثعلبة فلماوصلا بركبهما الى دمشق الشام طفقا يناديان بالاسواق قائلين جئنا برأس أحمق الناس فكان الناس يلتفون حولهما ويردّدون مقالتهما حتى اذا ما انتهيا الى دار الامارة دخلا على يزيد وكان مجلسه عامراً ببقية الناس فوضعا الرأس الشريف بين يديه وحدثاه بشرّ ماصنعت جنوده مما أغضب الله ورسوله وملائكته وأنبياءه والصالحين وأفرح الكفار والمشركين والفسقة الفاجرين وكان يزيد وأصحابه يصغون الى ذلك الحديث وهم منذهلون وكان اكثرهم انذهالاً يزيد لا كباره الجريمة وهو الآمر بها واثمها على عنقه قبل غيره لاخوفاً من الله ورسوله بل لحذره من سوء وقعها في نفوس المسلمين وبينماهو كذلك واذا بهند بنت عبدالله بن عامر بن كريز وكانت زوج يزيد قد سمعت من وراء الحجاب قصة تلك الفاجعة المخيفة فتقنعت بثوبها وخرجت فقالت يا أمير المؤمنين أهذا رأس الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال يزيد نعم فعولي عليه وحدّي فأخذت تعول وتبكي . وبينما هند تبكي وتندب صريحة قريش وسيد شباب الجنة عليه السلام جعل الملعون يزيد ينكت ثغر الحسين بقضيب في يده فاعترضه أبو برزة الأسلمي قائلاً : أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين ؟ أما لقد أخذ قضيبك في ثغره مأخذاً طالما رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام يرشفه ، أما انك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك، ويجيء هذا ومحمد شفيعه . قال هذا وولى هارباً واكمدّ وجه الملعون يزيد ولم يحر جواباً

ثمّ انّ يزيد صرف الناس وطلب نساء الحسين والرأس الشريف بين يديه فجعلت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين تتطاولان لتنظرا الى الرأس وجعل يزيد لعنه الله يتطاول ليستره عنهما فلمارأتا الرأس صاحتا فصاحت بقية نساء الحسين وصاحت نساء يزيد من داخل الدار وولولت بنات معاوية . ثمّ انّ فاطمة بنت الحسين تقدمت بجرأة من يزيد وقالت له : أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟ فقال يزيد وهو في أشدّ الهمّ والقلق اني لهذا كنت أكره . قالت والله ما ترك لنا خرص . فقال يزيد لعنه الله : مايؤتى اليكنّ أعظم مما أخذ منكنّ . وكان أحد أهل الشام حاضراً بقرب يزيد فقال له هب لي هذه (ويريد فاطمة) فأخذت فاطمة بثياب أختها زينب مستجيرة فقالت زينب كذبت ولؤمت ماذلك لك ولا ليزيد . فغضب يزيد لعنه الله وقال كذبت أنت والله انّ ذلك لي ولو شئت أن أفعله لفعلته . قالت : كلاّ والله ما جعل الله لك ذلك الاّ أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا . فازداد يزيد لعنه الله غضباً واستطار حقداً وقال أياي تستقبلين بهذا ؟ انما خرج من الدين أبوك وأخوك . فقهقهت زينب ساخرةً به وقالت انما بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك . قال لعنه الله كذبت يا عدوّة الله . قالت أنت أمير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك . فاستحى يزيد من نفسه وسكت عن سفاهته ورقاعته وأمر بالسيدات آل البيت الطاهر عليهنّ السلام ان يدخلن داره فدخلنها واجتمعت عليهنّ نساء يزيد وأقمن معهنّ المآتم . فكنّ بذلك أحسن تديناً من رجالهن

ثمّ انّ الملعون يزيد بن معاوية أمر بسيدنا علي زين العابدين عليه السلام ان يؤتى به اليه فادخلوه عليه وهو مصفد بالاغلال فلما وقعت عينا ذلك الصبي النبيل على الملعون يزيد قال : والله لو رآنا جدّنا رسول الله مغلولين لفكّ عنا . قال يزيد صدقت وأمر بفك اغلاله ففكت . فقال سيدنا علي زين العابدين : والله لو رآنا جدّنا بعداء لأحبّ ان يقرّبنا فأمر به فقرّب منه وقال له معتذراً:

يعرِ يا علي بن الحسين ان أباك هو الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به مارأيت فتبسم سيدنا علي زين العابدين وقال : ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كلّ مختالٍ فخور . فقال يزيد لعنه الله : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم

وأقام سيدنا علي زين العابدين وسيداتنا الطالبيات عند يزيد مدّة ثم سيرهنّ معه بالاكرام والهدايا الى المدينة المنورة فأقاموا فيها موضع اجلال المسلمين بجوار جدهم المصطفى

ولقد اكبر المسلمون فاجعة سيد الشهداء سيدنا الحسين وكرهوا يزيد لاجلها وأخذوا يلعنونه سراً وجهراً وما زالوا يلعنونه وسيظلون يلعنونه الى يوم الدين وما فيهم الا من يردّد قول الشاعر

أيها القاتلون جهلاً حسيناً أبشروا بالعذاب والتنكيلِ
كلّ من في السماء يدعو عليكم من نبيّ وملأك وقبيلِ
قد لعنتم على لسان ابن داو دٍ وموسى وصاحب الانجيلِ

وعند هذه الفاجعة الكبرى نقول رداً على الذين يحسبون أنّ جهاد العلي والحسين عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام في سبيل الخلافة هو من قبيل التزاحم على الملك ورغبةً في التسوّد انّ هذا لم يخطر لهما على بال بل كانا ازهد العالمين بالدنيا وزخارفها وانما كانا يريان ان مصلحة الاسلام والمسلمين تدعو الى جهادهما ليقيما حدودالله وينفذا أحكامه ويقسطا بين الناس ويجريا فيهم سنة نبيهم وانّ هذا واجب على كلّ مسلم على التعميم فكيف لا يجب عليهما واحدهما وصيّ رسول الله والثاني حفيده؟؟ لا جرم أنّ جهاد العلي والحسين عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام كان لمجرد اعزاز الدين وارضاء ربّ العالمين والتفاني في سبيل مجد الاسلام وخير المسلمين شأن الصالحين المتقين . على أنّ الامويين والذين تشيعوا لهم في عهد بني أمية أرادوا ان يجملوا جهاد سيدنا علي أولاً وجهاد سيدنا الحسين ثانياً سياسياً أو شبه سياسي مسبب عن طمع دنيوي ليصيّروا عدواً أو شبه عدو لمعاوية ويزيد فيما فعلا وتابعهم كثيرون من المسلمين بعد ذلك بقوة استمرار هذه الفكرة التي بثها دعاة الامويين من عهد سلطانهم حتى رأينا ابن خلدون ينسى أو يتناسى الفكرة الدينية في هذه المسألة ويقول ان قوة عصبية الامويين تغلبت على ضعف عصبية الهاشميين ورأينا في آخر الزمان الشيخ محمد الخضري في محاضراته في الجامعة المصرية يدافع عن معاوية ويزيد ويبرئهما من معظم الاثم الذي ابترماه في محاربة آل البيت طمعاً بالخلافة والبحث بهذا مستفيض ومارجعنا اليه بكتابٍ اذا فسح الله بالاجل

« كربلاء »

وقال للارض التي قتل فيها سيدنا الحسين واخوته وابناؤه عليهم السلام « كربلاء » وكان اسمها هكذا منذ القدم قالوا انها سميت كذلك لرخاوتها أخذاً من قولهم « جاء زيدٌ مكربلاً » أيّ مرتخي الاقدام . وموضع كربلاء هو الموضع الذي قالوا عنه العقر فتشاءم سيدنا الحسين من النزول فيه . وقالوا انه عليه السلام سأل في الموضع الذي عوّقه فيه الحرّ بن يزيد ما اسم هذه الارض ؟؟ قالوا كربلاء فقال أرض كربٍ وبلاء وموضع قبره الشريف عليه السلام في كربلاء لا جدال فيه ولا خلاف ومن عهد قتله عليه السلام قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل زوج الحسين في رثائه

واحسيناً فلا نسيت حسيناً سأطيل على الحسين البكاءْ
غادروه بكربلاءَ صريعاً لاسقى العيث بعده كربلاءْ

ويقال لارض كربلاء ايضاً الطف كما قال أبو دهبل يرثي سيدنا الحسين واصحابه

مررت على أبيات آل محمدٍ ... فلم أرها أمثالها يوم حلّتِ
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وان اصبحت منهم برغمي تخلّتِ
ألا أنّ قتلى الطف من آل هاشمٍ ... أذلّت رقاب المسلمين فذلّتِ
وكانوا غياثاً ثمّ أضحوا رزيّةً ... ألا عظمت تلك الرزايا وجلّتِ

وقال أيضاً

تبيت سكارى من أميّة نوّماً ... وبالطفّ قتلى ما ينام حميمها
وما أفسد الاسلام الاّ عصابةٌ ... تأمّر نوكاها فدام نعيمها
فصارت قناة الدين في كفّ ظالمٍ ... اذا اعوجّ منها جانب لا يقيمها

ومعنى الطف لغةً ما أشرف من ارض العرب على ريف العراق . وحسب تدقيق الجغرافيين ارض من ناحية الكوفة في طريق البرية في موضع العقر أو كربلاء

« ترجمة يزيد »

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وامه ميسون بنت بحدل ولد في دمشق الشام سنة ٢٦ للهجرة في اثناء وجود ابيه أميراً للشام على عهد عثمان بن عفان ولما شبّ اخذ ابوه معاوية يرشحه للخلافة فولاه امارة الحج مرتين بعد ان استتبّ له أمر الخلافة وولاه الصائفة وارسله في الجيش الذي سار لغزو القسطنطينية وكان يزيد هذا مغرم بالصيد مولع بالخمرة ميالاً للهو ومداعبة النساء منصرفاً عن العلم والشريعة فصبح ذلك موضع نقد الناقدين الا ان هذا لم يثن معاوية عن استخلافه فأخذ له البيعة قهراً من روساء الامصار لا كما قال الشيخ الخضري بانّ معاوية استشار أهل الامصار في بيعته والله يعلم والناس لا ينكرون أنّ أهل الامصار في ذلك الزمان لو كان لهم حرية الاختيار لما اختاروا يزيد ولياً لعهد الخلافة بل لما ارتضوا بخلافة معاوية نفسه . وبعد موت معاوية نادى يزيد بنفسه خليفةً للمسلمين فاطاعه الناس وبايعوه مكرهين الا سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ابن الخطاب لحسب لتخلفهم ألف حساب وحساب ولولا علمه بانّ الناس يكرهون خلافته وهم على استعداد الى الانقلاب عليه لدى أول فرصة تسنح لهم لما كان تخوّفه من اولئك النفر الثلاثة بمحله فعلى مَ الشيخ الخضري استخفّ باولئك الثلاثة في محاضراته وقد رأى هو نفسه كيف تمت الخلافة بمجرّد امتناعهم عن بيعته السنوات الطوال

وامتاز عهد يزيد بفاجعة سيدنا الحسين واخوته واولاده عليهم وعلى جدهم الصلاة والسلام وهي الفاجعة التي جعلت يزيد قرين اللعنة الى يوم يحشرون . ومن أغرب ما قرأته في محاضرات الشيخ الخضري قوله انّ الناس الذين كتبوا لسيدنا الحسين يستدعونه اليه كانوا من محبي الشرّ ودعاة الفتنة مع انهم في الحقيقة كانوا لا يعرفون صاحب حقّ بالخلافة غير ابناء رسول الله ولكن للمال والسلطة الجائرة تأثيرهما على النفوس وهما اللذان جعلا أهل العراق كما قال للحسين احد اصحابه المخلصين « ان قلوبهم معه وسيوفهم عليه » وكان بعد ذلك ما مرّ بما أوا أسفاه

ولم يقف شرّ يزيد عند فجعة سيد الشهداء سيدنا الحسين واخوانه واولاده على فظاعتها ووحشيتها بل جرى له ما يعادل فظاعتها وذلك بانتهاكه حرمة مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك انّ يزيد ولىّ على المدينة المنوّرة ابن عمه عثمان بن محمد بن أبي سفيان فوجد الناس يتحفزون

وَلِلأَعَارِبِ بُشْرَى بِالْمُعِزِّ حَبِيـــبِ الْمُرْتَضَى وَبِهِ الدُّنْيَا تُهَنِّيهَا

للانقلاب على يزيد على اثر تمثيله بصفوة آل البيت ذلك التمثيل المفجع وما سمعوه بعد ذلك من انصرافه الى اللهو والخمر فرأى عثمان هذا أن يوجه نفراً من وجهاء أهل المدينة الى يزيد فيستميلهم اليه بهباته ويتلافى الفتنة بذلك وبالفعل وجه عبد الله بن حنظلة الانصاري وعبد الله بن أبي عمرو ابن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الابير ونحوهم من كبار المهاجرين والانصار الى دمشق فاستقبلهم يزيد بالاكرام واغدق عليهم الهبات غير انهم رأوا عياناً ما كرهوه منه على السماع من انصرافه وهو خليفة المسلمين الى ما حرّم الله من الموبقات والمخازي فرجعوا الى المدينة وهم اشدّ نقمة على يزيد فاطلقوا السنتهم بعيبه وسبوه أشنع السبّ واعلنوا انهم خلعوا بيعته فتابعهم الناس وكانوا كما سبق القول يكرهون خلافته وحصروا مَن في المدينة من الامويين بدار مروان بن الحكم فوجه عليهم يزيد جيشاً من اثني عشر الف مقاتل بقيادة مسلم بن عقبة المرّي فلما وصل مسلم الى المدينة دعا أهلها للخضوع فأبوا فحاربهم وحاربوه فكانت الغلبة لاهل الشام بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير وما اكتفى مسلم بهذا الشرّ بل أباح مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاثة ايام فأعمل رجاله فيها ايدي النهب والسبي والقتل غير محترمين جيرة رسول الله وانها والله لجرءة لم يقدم عليها ذو سلطان في الاسلام وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على انهم خول له يحكم في دمائهم واموالهم واعراضهم فمن امتنع عن ذلك قتله وكانت هذه الواقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٦٣ للهجرة . وقد نال الشيخ الخضري من أهل المدينة المنوّرة وهم جيران المصطفى باللوم والتقريع والزمهم بجزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة المنورة غير انه هداه الله رأى من باب « الذوق » ان يقول انه كان من اللازم على يزيد وأمير جيوشه مسلم ان لا يسرفا بمعاملتهم هذا الاسراف فتأمل . على ان الذي يسهل عليه قتل اولاد رسول الله لا يصعب عليه انتهاك حرمة مدينته والوقيعة بجيرانه

وتلا هذان الحادثان الفظيعان حادث ثالث لا يقلّ عنهما فظاعةً في عهد يزيد ومشيريه وهم مَن علمنا من تحليل كلّ محرَّم وذلك الحادث هو حصار مكة المكرمة وانتهاك حرمة كعبتها المشرّفة. وذلك انّ عبد الله بن الزبير بعد ان بلغه مقتل سيدنا الحسين عليه السلام دعا أهل مكة وهو فيها الى بيعته فتألّب عليه الناس لما علمنا من كرههم لخلافة يزيد فلما وجه هذا مسلماً لحرب المدينة المنوّرة امره أن يسير بعد أن يبطش بأهلها الى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير فصدع مسلم بالامر وسار من المدينة المنورة الى مكة المكرمة وهلك في الطريق في موضع يدعى المشلل فخلفه في قيادة جيش يزيد الحصين ابن نمير بذلك سبق وأمر يزيد فسار بالجند الى مكة فوصلها لاربع بقين من المحرم سنة ٦٤ للهجرة وقدم عليه ابن عامر الحنفي الخارجي نجدةً له فخرج اليهم عبد الله بن الزبير وحاربهم فغلبوا على جيشه فارتد الى مكة فاقاموا عليه يحاربونه بقية المحرَّم وصفر كله غير مكترثين بحرمة القتال في محرَّم وفي اليوم الثالث من ربيع الاول رموا مكة كرّمها الله بالمنجنيق وحصروها وما زالوا يحاصرونها حتى بلغهم انّ صاحبهم يزيد لعنه الله قد هلك فارتدوا راجعين

ولعمر الحقّ أنّ هذه الحوادث الفظيعة التي حدثت على عهد يزيد وبأمره لتدهش عقول الناس فتستقلّ معها كلّ فظاعة يأتيها طغمة الملوك فلا عجب اذا ذاقت يزيد [illegible] امة المسلمين [illegible] يوم الدين . [illegible] صاحبنا الشيخ [illegible] كل [illegible] الجرم وهو أبوها وامها بل يجمل نصيبه منها الجزء الصغير هذا حكم الشيخ الخضري فما رأي المسلمين ؟؟

وهلك يزيد لاربع عشرة خلت من شهر ربيع الاول سنة ٦٤ للهجرة « ١٠ نوفمبر سنة

فضائل أمير المؤمنين

فَضَائِلُ ٱلْمُرْتَضَى كَٱلشُّهْبِ نَيِّرَةٌ ... وَكُلُّ ذِي بَصَرٍ فِي ٱلنَّاسِ رَائِيهَا(١)
مَا أَنْ تَعُدَّ لِيُحْصِيهَا ٱلْحَسِيبُ وَهَلْ ... تُحْصَى ٱلنُّجُومُ وَتُسْتَقْصَى دَرَارِيهَا
وَلَيْسَ يُنْكِرُهَا إِلَّا ٱلْمُكَابِرُ وَٱلْـ ... ـحَسُودُ وَٱلشَّانِئُ ٱلْبَاغِي تَوَارِيهَا

---

٦٨٣ مسيحية » وكانت وفاته بحوران من أرض الشام وله من العمر ٣٩ سنة وكانت مدة خلافته المتالة من الكوارث والفظائع ثلاث سنوات وثمانية اشهر واربعة عشر يوماً والحمد لله انها لم تطل اكثر من ذلك سبحانه لطيف العباد

قلنا انَّ يزيد كان مسرفاً بالمحرمات ومن جملتها ادمان الخمرة فحدث انه في حجته الاولى في عهد أبيه نزل في مدينة الرسول وعوضاً عن زيارة الروضة الشريفة جلس على الشراب وجاءه سيدنا الحسين للزيارة فاذن بادخاله عليه فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب فقال مستهزءً : لله درُّ طيبك ما أطيبه قال هو طيب يصنع في الشام ثمَّ دعا بقدح فشربه ثمَّ دعا بآخر وقال للساقي اسقِ أبا عبد الله فقال له الحسين عليه السلام عليك بشرابك ياصاح لاعين عليك مني فقال يزيد وكان شاعراً حسن الشعر

ألا ياصاح للعجبِ ... دعوتك ذا ولم تجبِ
الى الفتيات والشهوا ... ت والصهباء والطربِ
وباطيةٍ مكلّلةٍ ... عليها سادة العربِ
وفيهنَّ التي تبلت ... فؤادك ثمَّ لم تتبِ

فنهض سيدنا الحسين عليه السلام وقال بل فؤادك يا ابن معاوية تبلت . ومن هذه القصة تعلم حال يزيد ولا تتعجب بعدها من استحلاله المحرمات واقدامه على شرِّ الفظائع والمنكرات

(١) لابدَّ للمؤرخ المصنف ان يرسل نظرة نقّادٍ حازمٍ الى الظروف التي تبعت عهد أمير المؤمنين عند ما يبحث في فضائله السامية العظيمة التي جعلته على رأس الخلائق بعد المصطفى لاجرم انه لو فعل ذلك لعرف ان ما بقي امامنا منها هو جزء يسير مما غاب عنا لجهلناه وهذا ما نريد أن نوضحه في هذه الحاشية

ان معاوية استلم الخلافة الاسلامية اغتصاباً وهذا لاخلاف فيه لاننا رايناه حارب الخليفة الشرعي الذي تولى الخلافة كما تولاَّها الدين سبقوه ببيعة الذين لهم حقٌّ بالبيعة وهم الصحابة المهاجرون والانصار في المدينة المنوَّرة وهذا الخليفة الشرعي فضلاً عن صحة بيعته وشرعيتها له من نسبه وحسبه وسابق جهاده في سبيل الاسلام وقديم صحبته للمصطفى ما ليس لمعاوية شيءٌ منه على الاطلاق وعدا ذلك فرغبة المصطفى فيه ظاهرة بكلِّ جلاء في الاحاديث الثابتة المرويَّة عنه عليهما الصلاة والسلام وهذه الاحاديث الشريفة النبويَّة الثابتة لها من التأثير الديني على نفوس المسلمين ما لا تستطيع القوَّة القاهرة التغلب عليه كما لايخفى فمن الضرورة قد أصبح معاوية ومن تبعه من خلفاء بني أمية في اضطراب دائم من تأثير هاتيك الاحاديث الشريفة على خلافتهم بحيث يجعلها دائماً أبداً قلقةً بهم وأصبح يهمهم جداً أن يضعفوا تأثيرها بأمرين اولهما ان يمنعوا تداولها بين الناس وثانياً ان يوجدوا احاديث تشابهها والله يعلم مقدار صحتها وثبوتها يدعون ان المصطفى قالها لغير سيدنا علي من

وَهَبْهُمُ نَكَرُوا الشَّمْسَ الضُّحَى أَفَيَعْمَى النَّاسُ تَاللهِ عَنْ زَاهِي تَلَالِيهَا
وَهَلْ أَكُفُّهُمُ بِالشَّمْسِ ظَافِرَةٌ وَقَدْ أَفَاضَتْ سَنَاهَا كَيْ تُخَفِّيهَا
لَوْلَا الْمَطَامِعُ تَسْتَغْوِي النُّفُوسَ لَمَا شِمْنَا جُحُوداً لَهَا فِي النَّاسِ شَانِيهَا
وَلَا سَمِعْنَا رُوَاةَ الْكِذْبِ تَطْلُبُ دُنْيَاهَا بِمَا قَدْ رَوَتْهُ مِنْ تَمَنِّيهَا
وَالدَّهْرُ نَقَّى أَبَاطِيلَ الرُّوَاةِ وَلَا شَاهَا وَضَعْضَعَ شَارِيهَا وَمُنْشِيهَا
وَأَظْهَرَ الْحَقَّ وَضَّاحاً لِأَعْيُنِ أَهْلِ الْأَرْضِ كَالشَّمْسِ فِي أَسْنَى تَجَلِّيهَا
وَلَاحَ حَيْدَرَةٌ أَسْمَى الْخَلَائِقِ إِفْضَالاً وَأَرْفَعَهَا قَدْراً وَتَوْجِيهَا

عناية الله بأمير المؤمنين

قَالَ الرَّسُولُ الْمُفَدَّى فِي أَبِي حَسَنٍ مُنَوِّهاً بِاسْمِهِ فِي النَّاسِ تَنْوِيهَا(١)
فَقَالَ: رَبُّ الْبَرَايَا فِي الْعَلِيِّ أَخِي قَدْ قَالَ لِي قَوْلَةً عَصْمَاءَ أَرْوِيهَا

الصحابة ولا سيما الذين تولوا الخلافة منهم وللوصول الى هذا الغرض استعمل معاوية المال فكان يهب الالوف لمن حوله من الذين صحبوا المصطفى من المهاجرين والانصار ليكفوا السنتهم عن ذكر الاحاديث الشريفة التي قيلت في سيدنا أمير المؤمنين وعن ذكر بواهر اعماله في الغزوات النبوية وليقولهم من الاحاديث ما لم يقله المصطفى عليه الصلاة والسلام أو ليزيدوا على ما قال ما فيه مصالحه وهذا نطق به علماء الحديث تارةً صراحةً وطوراً ضمناً بعد زوال الملك من بني أمية ، على أنَّ معاوية لم يستعمل القوة ضد الذين كان يعرف انهم من انصار الحق لا يخفونه على ما اعلم خلافاً للذين تولوا الخلافة بعده فانهم أخذوا يضطهدون كلَّ من جهر بفضائل سيدنا علي أو روى الاحاديث النبوية التي قيلت فيه سواء بالزج في الحبوس أو بالقتل احياناً . وأنت تعلم أنَّ الخلافة الاسلامية ظلت في أيدي الامويين نحو المئة عام « من سنة ٤١ للهجرة الى سنة ١٣٢ للهجرة » ففي كلّ هذه المدة الطويلة كان الناس يتزلفون الى الامويين بذمّ سيدنا علي وسبه ويتعرض المتشيعون له الى انواع المظالم والمغارم فلا عجب بعد هذا اذا قلنا انا فقدنا كثيراً من معرفة فضائل سيدنا علي وبواهر اخباره

واذا عرفنا ان الناس في ذلك الزمان ما كان لديهم من اسباب التدوين والنشر ما لدينا الآن فما كان كتابهم كثيرين ولا كان عندهم مطابع ولا ما يشبهها وكان جلّ اعتمادهم على الحفظ لا نعجب بعد هذا اذا قلنا ان المسلمين اصبحوا في أواخر المئة الأولى من الهجرة وهم لا يعلمون عن فضائل سيدنا علي واعماله الباهرة الا ما عجز الامويون عن اخفائه وهو بالطبع القليل من كثير على أنَّ هذا القليل يكفي لنعرف كنه ذلك الرجل العظيم الكامل الذي لا يفضله انسان في خلائق الله عزَّ وجلَّ الا المصطفى عليهما الصلاة والسلام

(١) اذا لم يكن في سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله غير هذا الحديث الشريف الذي لم يطعن بصحته طاعن ولم يشكّ في صدقه شاكّ لكفى الناس اعتقاداً ببراءته وعناية الله عزَّ وجلَّ به

فَقَالَ سُبْحَانَهُ : أَنَّ ٱلْعَلِيَّ غَدَا … فِي ٱلنَّاسِ رَايَةَ هَدْيٍ رُحْتُ مُزْيِنَهَا

وَأَوْلِيَائِيَ مَنْ كَانَ ٱلْإِمَامَ لَهَا … وَكَانَ وَاعِظَهَا ٱلْهَادِيْ وَحَامِيَهَا

وَإِنَّهُ نُورُ مَنْ فِي طَاعَتِيْ نَشَأَتْ … تَجَاوُزْ بِهِ فِيْ مَخَاطِبِهَا دَيَاجِيهَا

وَإِنَّهُ غَايَةُ ٱلْقَوْمِ ٱلتُّقَاةِ وَقَدْ … أَضْحَى لَهَا قِدْوَةً أَمْنٌ تَقَدِّيهَا

أَحَبَّنِيْ مَنْ لَهُ بَاتَ ٱلْمُحِبَّ وَقَدْ … أَطَاعَنِيْ مَنْ لَهُ قَدْ طَاعَ تَجْزِيهَا

بَشِّرْهُ فِيْ ذَا فَدَيْتُ ٱلْإِلَهَ : بَلَى … بَشَّرْتُهُ وَهِيَ بُشْرَى ٱلْحَمْدُ تَالِيهَا

فَقَالَ : إِنِّيَ عَبْدُ ٱللهِ نَفْسِيَ فِيْ … يَدِ ٱلْمُهَيْمِنِ مُفْنِيهَا وَمُحْيِيهَا

فَإِنْ قَضَى بِعَذَابِيْ لَيْسَ يَظْلِمُنِيْ … بَلْ فِيْ ذُنُوبِيَ ٱلَّتِيْ قَدْ كُنْتُ جَانِيهَا

وَإِنْ يُتِمَّ ٱلَّذِيْ قَدْ كَانَ وَاعِدَنِيْ … فَرَحْمَةٌ مِنْ رَحِيمٍ كَانَ مُسْدِيهَا

وَقُلْتُ : رَبَّاهُ إِنِّيْ قَدْ دَعَوْتُ لَهُ … وَدَعْوَتِيْ بِٱلرِّضَى أَنْتَ ٱلْمُلَبِّيهَا

لَاهُمَّ طَهِّرْ خَفَايَا قَلْبِهِ وَبِكَ ٱلْإِ … يمَانَ دَعْهُ كَمَا يُرْضِيكَ يَشْوِيهَا

فَقَالَ سُبْحَانَهُ : أَبْشِرْ فَعَلْتُ وَلٰـكِنْ دُونَهُ … نُوَبٌ لَاشَكَّ لَاقِيهَا

خَصَصْتُهَا بِعَلِيٍّ لَمْ أَخُصَّ بِهَا … مِنْ أَوْلِيَائِيْ فَتًى فَهُوَ ٱلْمُعَانِيهَا

فَقُلْتُ : لَاهُمَّ رَبِّيْ رَحْمَةً لِعَلِـ … ـيٍّ صَاحِبِيْ وَأَخِيْ إِنِّيْ ٱلْمُرَجِّيهَا

فَقَالَ سُبْحَانَهُ : قَدْ كَانَ مُبْتَلِيًا … وَمُبْتَلَى تِلْكَ بَلْوَى لَسْتُ مُزْجِيهَا

وَذَا بِسَابِقِ عِلْمِيْ كَانَ وَٱكْتُتِبَتْ … حُرُوفُهُ وَقَضَائِيْ كَانَ مُمْلِيهَا

هٰذِيْ رِوَايَةُ طَـهَ فِيْ أَبِيْ حَسَنٍ … لَقَدْ جَرَتْ مِثْلَمَا قَدْ كَانَ رَاوِيهَا

وَإِنَّهَا وَحْدَهَا تَكْفِيْ ٱلْعَلِيَّ فَخَا … رًا إِذْ تَوَجُّهُهُ فِيْ ٱلنَّاسِ تَوْجِيهَا

وعالي منزلته عند ربه سبحانه وتعالى فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « انَّ الله قدعهدالي في علي عهداً ، فقلت : يارب بينه لي ، قال : اسمع ، انَّ علياً راية الهدى ، وامام اوليائي ، ونور من أطاعني ، وهو الكلمة التي الزمتها المتقين ، من أحبه فقد أحبني ، ومن أطاعه فقد أطاعني ، فبشره بذلك ، قال رسول الله : قلت قد بشرته يارب ، فقال لي : أنا عبد الله وفي قبضته ، فان يعذبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً ، وان يتم لي ما وعدني فهو أولى . قال رسول الله : وقد دعوت له فقلت : اللهمَّ ، اجل قلبه ، واجعل ربيعه الايمان بك . قال سبحانه : قد فعلت ذلك ، غير أني مختصه بشيء من البلاء ، لم اخصّ به أحداً من اوليائي . قال المصطفى : فقلت ربي ، هو أخي وصاحبي قال

عبادة أمير المؤمنين

عِبَادَةُ ٱللّٰهِ مِنْ أَسْنَى ٱلْفُرُوضِ عَلَى   أَهْلِ ٱلتُّقَى فَازَ بِٱلنُّعْمَى مُؤَدِّيهَا (١)

بِهَا ٱلتَّقِيُّ يُوَفِّي حَقَّ خَالِقِهِ   حَمْداً عَلَى نِعَمٍ مَا ٱنْفَكَّ يُسْدِيهَا

وَٱلْمُرْتَضَى أَعْبَدُ ٱلْعُبَّادِ أَجْمَعِهَا   لِرَبِّهِ بِعِبَادَاتٍ يُتَلِّيهَا

وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ صَوْماً عَنْ تُقًى وَصَلَا   ةً كَانَ عَنْ وَرَعٍ دَوْماً يُصَلِّيهَا

مِنْهُ تَعَلَّمَتِ ٱلنَّاسُ ٱلْهُجُودَ فَتُحْـ   ـيِي بِٱلصَّلَاةِ لِبَارِيهَا لَيَالِيهَا

وَعَنْهُ قَدْ تَخِذَتْ مَبْدَا مُلَازَمَةِ ٱلْأَ   م وِرَادِ يَكْتَسِبُ ٱلْغُفْرَانَ تَالِيهَا

كَذَا نَوَافِلُهَا عَنْهُ قَدِ ٱقْتَبَسَتْـ   ـهَا فِي ٱلْعِبَادَةِ وَٱنْصَاعَتْ تُؤَدِّيهَا

وَمَا يُظَنُّ بِمَنْ يَتْلُو ٱلْوُرُودَ بِلَيْـ   ـلَةِ ٱلْهَرِيرِ ٱلَّتِي عَمَّتْ كَوَادِيهَا

جَثَا عَلَى ٱلنِّطْعِ وَٱلْأَنْبَالُ مُرْسَلَةٌ   حَوْلَيْهِ تَتْرَى وَلَمْ يَرْهَبْ رَوَامِيهَا

وَمَا يُظَنُّ بِمَنْ تَٱللّٰهِ جَبْهَتُهُ   قَدْ شُوِّهَتْ بِلِمَاسِ ٱلْأَرْضِ تَشْوِيهَا

مِنَ ٱلسُّجُودِ فَحَاكَتْ ثَفِنَةَ ٱلْجَمَلِ ٱلْـ   ـبَرَّاكِ أَوْ فِي جَفَاهَا مَا يُحَاكِيهَا

وَمَنْ وَعَى دَعَوَاتِ ٱلْمُرْتَضَى وَمُنَا   جَاةٍ بِهَا ٱلْعِزَّةُ ٱلْعُلْيَا يُنَاجِيهَا

وَمَا حَوَتْهُ مِنَ ٱلتَّعْظِيمِ أَسْطُرُهَا   لِلّٰهِ فِي كُلِّ حَرْفٍ مِنْ مَبَانِيهَا

مَعَ ٱلْخُشُوعِ وَإِظْهَارِ ٱلْخُضُوعِ لَهُ   سُبْحَانَهُ حَسْبَمَا تَرْمِي فَحَاوِيهَا

دَرَى حَقِيقَةَ مَا فِي نَفْسِ حَيْدَرَةٍ   وَمَا أَسَرَّتْ مِنَ ٱلتَّقْوَى لِبَارِيهَا

سبحانه : انه سبق في علمي انه لمبتلى ومبتلي » آه لاجرم انّ عناية الله سبحانه بسيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله لتكفي للدلالة على وجاهته العليا عنده جلّ جلاله

(١) ليس مَن يخالفنا اذا قلنا أنّ سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله قد كان أكثر المسلمين اخلاصاً لله سبحانه وتعالى بل واطهرهم نيةً في عبادة ربه واعظمهم ورعاً في سجوده وقيامه ولا عجب في هذا بعد أن عرفنا انه نشأ في حجر المصطفى عليهما الصلاة والسلام وتربى على يديه وحضر وجبريل يغدو اليه ويروح بالوحي الالهي ومَن نشأ نشأته القدسيّة لاجرم ان يظلّ الدهر صائماً مصلياً متفانياً في مرضاة ربه منصرفاً الى الاخرة بكليته

وأجمع المؤرخون على أنّ الناس تعلموا منه عليه صلوات الله صلاة الليل وملازمة الاوراد وقيام النافلة. وما يبلغ الظن برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع في صفين ليلة الهرير وهي أشد ليالي تلك الحرب الشعواء قتالاً فيصلي عليه ورده والسهام تقع بين يديه وتمرّ على صماخيه يميناً

وَإِنَّهَا بَعْضُ مَا فِي نَفْسِهِ بَدَرَتْ   مِنْ فِيهِ وَالْقَلْبُ بِالْإِخْلَاصِ مُمْلِيهَا
وَالْمُرْتَضَى كَانَ لِلْخَلَّاقِ مُنْجَذِبًا   بِرُوحِهِ كَانَ بِالتَّقْوَى تَحَجِّيهَا
وَقَدْ تَجَلَّتْ لَهَا ذَاتُ الْمُهَيْمِنِ فِي   أَنْوَارِهَا فَتَمَلَّتْ مِنْ تَجَلِّيهَا
وَطَالَمَا شَارَكَتْ جَمْعَ الْمَلَائِكِ فِي التَّـ   ـسْبِيحِ مُنْشِدَةً فِيهِ أَغَانِيهَا
عِبَادَةٌ مَا لَهَا إِلَّا أَبُو حَسَنٍ   وَمَا سِوَاهُ حُقُوقَ اللهِ يَقْضِيهَا

أمير المؤمنين وتفسير القرآن

لَا يُدْرِكُ الْآيَ إِلَّا الرَّاسِخُونَ بِعِلْـ   ـمِ الدِّينِ مَنْ فَقِهُوا سَامِي مَعَانِيهَا (١)
وَهُمْ لَقَدْ فَسَّرُوهَا بَعْدَ أَنْ دَرَسُوا   مِيقَاتَ تَنْزِيلِهَا مَعْ قَصْدِ مُوحِيهَا
عَلَى الْأُلَى صَحِبُوا طَـٰهَ وَقَدْ شَهِدُو   هَا نَازِلَاتٍ عَلَيْهِ فِي مَثَانِيهَا
وَلَمْ يُلَازِمْ كَمِثْلِ الْمُرْتَضَى أَحَدٌ   مُحَمَّدًا صُحْبَةً ثَبْتٌ أَوَاخِيهَا
وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ذَكِـ   ـيٌّ مِثْلُهُ بَيْنَ طِيبِيهَا وَمَكِّيهَا
يَعِي وَيُدْرِكُ آيَاتِ الْكِتَابِ وَأَقْـ   ـوَالَ الرَّسُولِ وَيَسْتَجْلِي خَوَافِيهَا

وشمالاً فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من صلاته ؟ وما الظن برجل كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده ؟ ومن تأمل دعوات المرتضى وما طوي طيّ مناجاته لربه ووقف على ما فيها من تعظيم الله سبحانه واجلاله وما يتضمنه من الخضوع لهيبته والخشوع لعزّته والاستخذاء له عرف ما انطوت عليه نفسه الشريفة من الاخلاص لله عزّ وجلّ وفهم من أي قلب خرجت تلك الادعية الصادقة الصالحة وعلى أي لسان طهور جرت

(١) انّ تفسير القرآن الشريف الذي لا يدرك آياته الاّ الله والراسخون في العلم هو من أجلّ العلوم التي تتوقف عليها الهداية الى حقائق أوامر الله ونواهيه . وبالبداهة انّ اقدر الناس على تفهم الآيات وادراك فحاويها هم الذين تلقوها من فم المصطفى عليه الصلاة والسلام ولا يتمّ هذا الا للذين تشرفوا بصحبته وشهدوا الظروف التي نزلت فيها وتلقوا من فم الحضرة النبوية تفسيرها وليس في اصحاب رسول الله من المهاجرين والانصار من لازمه ملازمة سيدنا علي وقد عرفنا انه لزمه وهو فتىً وتربى على يديه وتأدب بادبه وساعده ذكاؤه الفطري العجيب على وعي هاتيك الحقائق الالهية وادراك سامي معانيها فما عجيبٌ والحالة هذه اذا ما كان عليه صلوات الله أفضل من تفهم المثاني وفسرها للناس وقال غير مرة « اسألوني قبل أن تفقدوني » بل وهل غيره يستطيع ان يقول هذا القول فيجمع الناس على انه ما ادعى دعوى لم يدعمها ببرهان ولا قال قولةً يكذبها الامتحان

ومن المعلوم أنّ علماء التفسير من صدر الاسلام حتى يومنا هذا يستندون الى ما روته الصحابة في تفسير الآيات وميقات نزولها والضرورة التي نزلت لاجلها وتفسير المصطفى عليه الصلاة والسلام

فَمَا عَجِيبٌ إِذَا مَا كَانَ أَفْضَلَ مَنْ   قَدْ فَسَّرَ الآيَ وَاسْتَقْصَى فَحَاوِيهَا
وَقَالَ: هَيَّا اسْأَلُونِي فِي شَرِيعَتِكُمْ   مِنْ قَبْلِ أَنْ تَفْقِدُونِي عَنْ مَرَامِيهَا
وَبَاتَ كُلُّ عَلِيمٍ قَدْ تَعَرَّضَ لِلـ   ـتَّفْسِيرِ آثَارُهُ الْغَرَّاءُ قَارِيهَا
إِلَيْهِ يَرْجِعُ فِيمَا قَدْ رَوَى وَقَضَى   وَقَوْلَةُ الْمُرْتَضَى كُلُّ الْهُدَى فِيهَا
أَوْ لِابْنِ عَبَّاسَ تِلْمِيذِ الْوَصِيِّ وَقَدْ   رَوَى الْأَحَادِيثَ عَنْهُ فَهْوَ رَاوِيهَا
وَقِيلَ يَوْمًا لِعَبْدِ اللهِ: أَيْنَكَ مِنْ   عَلِيٍّ مَنْ مِنْكُمَا قَدْ فَاقَ تَفْقِيهَا
فَقَالَ: نِسْبَةُ عِلْمِي لِلْعَلِيِّ كَنِسْـ   ـبَةِ الْقُطَيْرَةِ لِلْأَبْحَارِ ضَافِيهَا

أمير المؤمنين وقراءة القرآن

مَا كَانَ يَحْفَظُ إِلَّا الْمُرْتَضَى بِحَيَا   ةِ الْمُصْطَفَى الآيَ فِي سَامِي تَتَالِيهَا (١)
وَلَمْ يَكُنْ غَيْرُهُ مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ أَوْ   أَنْصَارِهِ الْمَعِيُّ النَّفْسِ وَاعِيهَا
فَكَانَ جَامِعَهَا بَعْدَ الشَّتَاتِ بِقُرْ   آنٍ كَمَا نَزَلَتْ هَدْيًا لِأَهْلِيهَا

لها واكثر ما يستشهدون به هو مرويات سيدنا علي أمير المؤمنين وعبد الله بن عباس واقوالهما. أما سيدنا علي فحاله من صحة الرأي وصدق التفسير ما لا مجال الى الشك فيه . وأما عبد الله بن عباس وهو ابن عم رسول الله العباس فقد تربى وتثقف على يدي سيدنا أمير المؤمنين وصحبه طول حياته منذ شب الى يوم فرق بينهما الموت ما فارقه لحظة فيكون كل ما نقل عن عبد الله بن عباس كأنه منقول عن معلمه ومربيه وهكذا يرجع فن تفسير القرآن الى سيدنا أمير المؤمنين بغير جدال

وبعد وفاة أمير المؤمنين عليه صلوات الله اصبح المرجع الاكبر لتفسير القرآن عبد الله بن عباس فكان موضع ثقة المسلمين وقوله حجة عندهم ومازالت منزلته العامية تعلو في نظر المسلمين حتى حسبوه مدانياً لمرتبة علي بن أبي طالب وجاءه منهم من سأله قائلاً : أين علمك من علم ابن عمك علي ؟ فتبسم عبد الله وقال : ان نسبة علمي الى علم أمير المؤمنين كنسبة القطرة الى البحر المحيط . وعبد الله بن عباس كان يعرف مبلغ علم سيدنا علي اكثر من جميع الناس وشهادته فيه لها نصيبها من الاعتبار

(١) اجمع الرواة على ان المرتضى عليه صلوات الله كان اكبر ثقة في حفظ القرآن على حياة المصطفى عليهما الصلاة والسلام كما ان آيات الوحي كان يكتبها على الواح الجمال ويحفظها عنده ويتقن عن رسول الله قراءتها كما كان يرويها عندما توحى اليه . وعندما توفي المصطفى انصرف أمير المؤمنين الى جمع الآيات وتنسيقها صيانة لها من التحريف والتصحيف وكان يقرئها الناس ايضاً لكي لا يخطئوا في قراءتها وسبق لنا القول ان نسبة القرآن الى عثمان بن عفان ليس لانه هو الذي جمعها كما تبادر الى أذهان بعض الناس ولكن لحادث آخر وهو ان حروف الكتابة في ذلك الزمان كانت خالية من النقط والحركات كما نرى من بقايا نسخ القرآن الشريف المحفوظ بعض نسخها في المكتبة السلطانية بمصر فعندما

وَضَابِطاً بَعْدَ تَدْقِيقٍ قِرَاءَتَهَا   كَيْ يَأْمَنَ ٱلْخَطَأَ ٱلْمَجْحُودَ قَارِيهَا
أَرَادَ فِي ذَاكَ صَوْنَ ٱلْآيِ مِنْ خَطَرِ ٱلـتَّحْرِيفِ إِنْ تُرِكَتْ فَوْضَى لِتَالِيهَا
وَأَنْ يُسَهِّلَ لِلنَّاسِ ٱلْوُقُوفَ عَلَى   وَحْيٍ بِهِ ٱلْمُصْطَفَى قَدْ جَاءَ يَهْدِيهَا
فَمِنْهُ تَعْلَمُ أَحْكَامَ ٱلشَّرِيعَةِ وَٱلـدِّينِ ٱلْحَنِيفِ كَمَا قَدْ نَصَّ مُوحِيهَا
وَتَمَّ ٱلْبُغْيَةُ ٱلْعُظْمَى بِهِمَّتِهِ ٱلـشَّمَّا ٱلَّتِي تَحْمَدُ ٱلدُّنْيَا مَسَاعِيهَا
وَأَجْمَعَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلْمُتَّقُونَ عَلَى ٱلْإِ م قْرَارِ بِالنِّعْمَةِ ٱلْكُبْرَى لِمُسْدِيهَا
كَذَاكَ كُتْبُ ٱلْقِرَاآتِ ٱلَّتِي نُشِرَتْ   تَجْلُو حَقِيقَةَ مَا قُلْنَا وَتُبْدِيهَا
أَمَّا أَئِمَّةُ قُرَّاءِ ٱلْكِتَابِ إِلَى ٱلـسُّلَمِيِّ تَرْجِعُ فَٱعْلَمْ أَنَّ سُلَمِيهَا
قَدْ كَانَ تِلْمِيذَهُ عَنْهُ قَدِ ٱتَّخَذَ ٱلْـقُرْآنَ مَجْمُوعَةً صَحَّتْ أَمَالِيهَا
كَذَا ٱنْتَهَى عِلْمُنَا فَنُّ ٱلْقِرَاءَةِ لِلْإِ م مَامِ مِثْلُ فُنُونِ ٱلدِّينِ بَاقِيهَا

علم أمير المؤمنين

بَحْرُ ٱلْعُلُومِ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِلَا   رَيْبٍ وَفِي صَدْرِهِ مَثْوَى لَآلِيهَا (١)
هَيْهَاتَ مَا فِي عِبَادِ ٱللهِ ذُو بَصَرٍ   إِلَّا وَعَنْهُ تَلَقَّاهَا وَيَرْوِيهَا
مَا فَاتَهُ أَبَداً إِدْرَاكُ ظَاهِرِهَا   أَوِ ٱلْوُصُولُ إِلَى أَخْفَى خَوَافِيهَا
وَٱلْمُصْطَفَى شَاهِدٌ حَقٌّ شَهَادَتُهُ   فِيهِ وَإِنَّ عِبَادَ ٱللهِ تَدْرِيهَا

نقل المسلمون القرآن كما جمعه سيدنا علي وتداولوه فيما بينهم تطرأ اليه شيء من الخطأ في القرآءة وأخذوا يختلفون في ايّ النسخ هي الصحيحة وصاروا يقولون قرآن فلان يقول كذا وقرآن فلان يقول كذا وكان ذلك على عهد عثمان فجمع هذا نسخ القرآن وأقرّ بمعاونة سيدنا علي واكابر الصحابة التقاه على الصحيح منها وكتب منه سبع نسخ فكانت هي موضع اعتبار المسلمين وبذلك نسب القرآن الى عثمان مع ان جامعه ومنسقه هو سيدنا علي اشتغل في ذلك على اثر وفاة المصطفى عليهما الصلاة والسلام. أما كتب القراآت فمرجعها كلها الى قراءة أبي عمرو بن العلاء وعاصم بن أبي النجود وأمثالهما من الائمة وهؤلاء كلهم تلاميذ أبي عبد الرحمن السلمي القاري فتفقهوا على يديه واتخذوا قراءة القرآن عنه وأبو عبد الرحمن السلمي القاري هو تلميذ سيدنا علي ومن فمه الشريف تعلم قراءة القرآن ورواها وهكذا يكون جمع القرآن وصيانته من التحريف واتقان قراءته بفضل سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله

(١) لا جدال ولا اشكال أنّ سيدنا علي عليه صلوات الله قد كان أعلم العلماء وافقه الفقهاء واسمى من جمع في صدره علوم الدنيا والآخرة وهذا مسلّم به من كل عالم وفقيه من الاولين

فَقَالَ : إِنِّيَ لِلْعِلْمِ ٱلْمَدِينَةُ وَٱلْـبَابُ ٱلْعَلِيُّ وَمِنْهُ فَازَ آتِيهَا
وَقَالَ : خَازِنَ عِلْمِيْ كَانَ حَيْدَرَةٌ وَكَانَ عَيْبَتَهُ فَتْوَىً وَتَفَقِيهَا

أمير المؤمنين والعلم الالهي

أَسْمَى ٱلْعُلُومِ وَأَعْلاهَا وَحَتِّكُمُ ٱلْـعِلْمُ ٱلَّذِيْ كَانَ مُخْتَصّاً بِبَارِيهَا (١)
عِلْمٌ بِهِ يَعْرِفُ ٱلْمَخْلُوقُ خَالِقَهُ حَتَّى يَهِيمَ بِهِ حُبّاً وَتَدْلِيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ بِٱلْإِحْكَامِ وَاضِعَهُ هِدَايَةً لِلْوَرَى مَا ضَلَّ هَادِيهَا
وَعَنْهُ قَدْ أَخَذَ ٱلنَّاسُ ٱلْهِدَايَةَ لِلْـعِلْمِ ٱلْإِلٰهِيِّ فِيْ أَسْنَى مَجَالِيهَا
وَإِنَّ مُعْتَزِلِيهَا هُمْ تَلَامِذَةٌ لَهُ بِغَيْرِ مِرَا مَعْ أَشْعَرِيِّيهَا
كَذَا ٱلْإِمَامِيَّةُ ٱلْمَحْمُودُ مَنْشَؤُهَا مَعَ ٱلزُّيُوْدِ فَمَا إِلَّاهُ مُنْشِيهَا
طَرَائِقٌ خَطَّهَا رُشْداً أَبُوْ حَسَنٍ لِسَالِكِيهَا فَمَا ضَلُّوْا مَمَاشِيهَا
فِيهَا ٱلْعَدَالَةُ وَٱلتَّوْحِيدُ وَٱلنَّظَرُ ٱلْـبَعِيدُ لِلْحَقِّ يَهْدِيْ خَطْوَ مَاشِيهَا

والآخرين وقد شهد له المصطفى عليه الصلاة والسلام بذلك فقال : « أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد الحكمة فليأت الباب » وقال فيه ايضاً « خازن علمي » وقال فيه أيضاً « عيبة علمي » والعيبة حقيبة من آدم يجعل فيها الثياب

(١) لاجدال انَّ أشرف العلوم هو العلم الالهي لانَّ شرف العلم بشرف المعلوم وهذا العلم مصدره الوحي الالهي والذكر الحكيم والاحاديث النبوية وكان أول وأفضل من نظر في القرآن والسنة وأفتى بهما وأظهر جلائل مراميهما هو سيدنا علي عليه صلوات الله باجماع المهاجرين والانصار وحسبنا انَّ أبا بكر وعمر وعثمان كانوا يرجعون اليه ليفتيهم بما أشكل عليهم فضلاً عما في خطبته الغرّاء وأقواله المأثورة من درر هذا العلم الالهي حتى أصبح هذا العلم بغير مراء مقتبساً من كلامه ونقل عنه ومنه ابتدأ واليه انتهى . وهؤلاء هم المعتزلة المعروفون بالتوحيد والعدل حتى أصبحوا بهما أساتذة الناس هم تلاميذه وقد اغترفوا من بحر علمه الزاخر لانَّ كبيرهم واصل بن عطاء هو تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وأبو هاشم هذا أخذ علمه عن أبيه محمد بن الحنفية ومحمد هذا تثقف على يدي أبيه سيدنا علي عليه صلوات الله . وكذلك نقول عن الاشعرية الذين هم تلاميذ المعتزلة فلهم ينتمون الى أبي الحسن علي بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الاشعري وهذا تلميذ علي الجبائي وعلى يديه تثقف في التوحيد والعدل وأبو علي الجبائي هو أحد مشائخ المعتزلة الذي بينا انهم تلاميذ المرتضى عليه صلوات الله . وأما الامامية والزيدية فانتسابهما الى سيدنا أمير المؤمنين معروف مشهور وزعيماهما ولداه وعلمهما مقتبس من علمه وفضلهما منبثق من فضله

أمير المؤمنين وعلم الفقه

وَٱلْمُرْتَضَى جَعَلَ ٱلْفِقْهَ ٱلْمُشَرَّفَ عِلْمًا ... ذَا أُصُوْلٍ لَهُ تُنْمَى أَمَالِيهَا (١)

وَعَنْهُ قَدْ أَخَذَ ٱلنَّاسُ ٱلتَّفَقُّهَ فِي ... شَرِيعَةِ ٱللّٰهِ سِنِّيهَا وَشِيعِيهَا

وَإِنَّمَا فُقَهَاءُ ٱلْمُسْلِمِينَ عَلَيْـــهِ عَيْلَةٌ ... حَاجُهَا مَا أَنْتَ كَافِيهَا

عَلَيْهِ قَدْ قَرَأَتْ فِقْهَ ٱلشَّرِيعَةِ أَصْـــحَابُ ... ٱلرَّسُوْلِ وَأَبْدَتْ فَضْلَ مُقْرِيهَا

فَذَا ٱبْنُ عَبَّاسَ عَبْدُ ٱللّٰهِ صَاحِبُهُ ... مِنْهُ فَقَاهَتُهُ ٱلْغَرَّاءُ جَانِيهَا

وَهُوَ ذَا عُمَرٌ أَحْكَامُ إِمْرَتِهِ ... قَدْ كَانَ حَسْبَ فَتَاوِيهِ يُجَرِّيهَا

وَكُلُّ مُجْتَهِدٍ فِي أَهْلِ شِيعَتِهِ ... مِنْهُ ٱلْفَتَاوَى تَلَقَّاهَا وَيَرْوِيهَا

وَمَا تَجَاوَزَ آرَاءٌ مُسَـــدَّدَةٌ ... لَهُ بِأَحْكَامِهِ مَا هَمَّ يُمْضِيهَا

وَمَا أَئِمَّةُ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ ٱلْفُقَهَا ... ءُ ٱلْمُسْتَجَازَةُ فِي ٱلدُّنْيَا فَتَاوِيهَا

---

(١) ان علم الفقه عليه مدار الاحكام الشرعية وبه يصل العالم الى درجة الافتاء السامية ولا خلاف انّ سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله هو أصله وأساسه وكل فقهاء المسلمين قديمهم وحديثهم عيالٌ عليه قد اغترفوا من بحر علمه الزاخر يدلك على ذلك استناد هؤلاء على مايروى من أقواله الدرية أومارواه تلاميذه الذين اقتبسوا الفقه منه

وقد اشتهر عبد الله بن عباس بعلم الفقه حتى كان أفقه الصحابة بالاجماع وأقواله حجة عند الفقهاء لايشكون بصحتها وقد سبقت لنا الاشارة بأنّ عبد الله بن عباس قد تعلم وتثقف على يدي سيدنا علي وكان من أنجب تلاميذه

وهذا عمر بن الخطاب فقد كان يرجع الى أمير المؤمنين في كل ما يشكل عليه من الاحكام والروايات في ذلك كثيرة لامنكر لها ولا جاحد وكان يقول « لولا علي لهلك عمر » ويريد لولا علم عليٍّ . كما كان يقول «لا بقيت لمعضلة ليس لها أبوالحسن » وكان يقول أيضاً جهرةً «لا يفتينَّ أحد في المسجدوعليٌّ حاضر » وأقوال عمر بن الخطاب هذه هي الشهادة العليا بأنه كان متفقهاً على يديه مهتدياً بعلمه معترفاً له بالتفوق في التفسير والتشريع

وأنت تعلم انّ المسلمين ينقسمون الى مذاهب أخصها السنة والشيعة ورجوع علماء الشيعة الى علم أمير المؤمنين واستنادهم الى فقهه لايحتاج الى بحث طويل فهم تلاميذه بالتسلسل ورأيه هو الاعلى عندهم فهم اذن يقفون علمه ويحكمون بفقهه . وأهل السنة يرجعون بفقههم الى مجتهديهم الاربعة المشهورين وهم أبو حنيفة والشافعي ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل . فأبو حنيفة كما نقرأ في ترجمته قد قرأ على جعفر بن محمد بن الحنفية وهذا أخذ العلم عن أبيه فيكون أبو حنيفة تلميذ سيدنا علي ويرجع بفقهه اليه . وأما الشافعي فقدقرأعلى محمد بن الحسن تلميذأبي حنيفة فيكون مرجعه بفقهه الى أبي حنيفة الذي رأيناه تلميذ أمير المؤمنين . وأما أحمد بن حنبل فقد قرأ على الشافعي

إِلاَّ تَلاَمِيذُهُ عَنْـهُ لَقَدْ أَخَذَتْ   عُـلُومَهَا وَعَهِـدْنَاهُ مُرَبِّيْهَا
كَذَا إِلَى ٱلْمُرْتَضَى بِالْفِقْهِ تَرْجِعُ أَرْ   بَابُ ٱلْمَذَاهِبِ فِي ٱلْإِسْلَامِ بَاقِيهَا
فَإِنْ تَدَبَّرْتَ تَدْقِيقاً تَسَلْسُلَهَا   وَجَدْتَ فِي بَابِهِ ٱلْعَالِي أَوَالِيهَا
وَٱلْمُصْطَفَى قَالَ : أَقْضَاكُمْ أَبُو حَسَنٍ   وَٱلنَّاسُ قَدْ شَهِدَتْ رُشْداً بِقَاضِيهَا

امير المؤمنين وعلم التصوف

إِنَّ ٱلتَّصَوُّفَ فِي شَتَّى طَرَائِقِهِ   لِتَابِعِيهِ ٱلأُلَى بِٱلزُّهْدِ تَمْشِيهَا(١)
جَمِيعُهَا ٱلْمُرْتَضَى قَدْ كَانَ مَصْدَرَهَا   وَعَنْهُ قَدْ أَخَـذَتْ سَامِي مَبَادِيهَا
بِذَاكَ صَرَّحَ أَقْطَابُ ٱلطَّرَائِقِ تَصْـرِيحاً   وَنَادُوا بِهِ فِي ٱلنَّاسِ تَجْرِيهَا
وَإِنَّ خِرْقَتَـهُ كَانَتْ شِعَارَهُمُ   وَلَمْ يَزَالُوا بِتَقْوَاهُمْ مُصِيبِيهَا
بَلِ ٱلطَّرَائِقُ فِي ٱلْإِسْلَامِ أَجْمَعُهَا   إِلَيْهِ تُنْمَى بِلَا رَيْبٍ مَسَارِيهَا
وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ هَادِيهَا وَمُرْشِدَهَا   إِلَى ٱلْعِبَادَةِ بِٱلْإِخْلَاصِ تَقْضِيهَا
وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ فِي ٱلْإِخْلَاصِ قُدْوَتَهَا   مَا أَخْلَصَتْ فِي تَرَجِّي عَفْوَ بَارِيهَا
بَلْ أَنَّهُ قُدْوَةُ ٱلصُّلَّاحِ أَجْمَعِهَا   إِلَى ٱلْفَرَادِيسِ قَدْ كَانَ ٱلْمُخَطِّيهَا

فهو تلميذ الشافعي الذي هو تلميذ أبي حنيفة الذي هو تلميذ أمير المؤمنين وأما مالك بن أنس فقد قرأ على ربيعة الرأي وقرأ ربيعة على عكرمة وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس وقد علمنا مما تقدم أنَّ عبد الله بن عباس قد اقتبس علمه من أمير المؤمنين فيكون مرجع مالك الى سيدنا أمير المؤمنين. وبالاحرى يكون فقه أهل السنة مقتبس من شمس علم سيدنا علي أمير المؤمنين عليه صلوات الله ومثل هذا يقال عن زعماء بقية المذاهب الاسلامية الاخرى فانَّ علماءها الاولين الذين تنتمي اليهم لو دققت في تراجمهم وجدتم ينتهون الى بابه العالي وانهم تلاميذه ولولا التطويل وما هنا محله لاتينا على ذكر هذه المذاهب والمشترعين فيها وكيف كان زعماؤها تلاميذاً له وعيالاً عليه. وخير ما نقوله هنا هو شهادة سيدنا محمد لامير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام فقد قال بحديث ثابت لا جدال في صحته « أقضاكم علي » وما اقضى القضاة الا أفضلهم في علم الفقه

(١) من بحث في الطرائق المختلفة الاسلامية وما فيها من التصوف وعلم الحقيقة رأى زعماءها وواضعيها تنتهي علومهم الى علم سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله وانهم تلاميذه وعيال عليه وقد صرَّح بذلك الشبلي والجنيد وسرّي وابو يزيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم من ثقاة المحققين وحسبنا دلالة على ذلك الخرقة التي هي شعارهم الى يوم الناس هذا فهم يسندونها باسناد متصل الى سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله وما احتفاظهم بها الا اعترافاً منهم بأنَّ طرائقهم مقتبسة من نور علمه راجعة الى فقهه واجتهاده

أمير المؤمنين وعلم النحو

مَا كَانَتِ ٱلْعُرْبُ تَدْرِي لِلْكَلَامِ قَوَا ... عِدَاً وَمَا لَاحِنٌ فِي ٱلْقَوْلِ لَاغِيهَا(١)

إِنْ حَدَّثَتْ اوْ عُقُوْدُ ٱلشِّعْرِ قَدْ نَظَمَتْ ... عَفْوَاً فَلَا غَلَطٌ يَغْشَى أَمَالِيهَا

حَتَّى إِذَا ٱخْتَلَطَتْ مَعْ غَيْرِهَا ٱلحَنَتْ ... فَلَا يُبَلِّغُ مَقْصُوْدَاً مُفَاهِيهَا

وَرَاحَ يَلْحَنُ بِٱلآيَاتِ مُنْشِدُهَا ... وَصَارَ يَغْلَطُ بِٱلتَّجْوِيدِ قَارِيهَا

وَلَمْ تَكُنْ حَرَكَاتٌ فِي كِتَابَتِهَا ... تَصُوْنُ عَنْ لَحْنٍ قَارِيهَا فَحَاوِيهَا

فَهَالَ ذَا ٱلْمُرْتَضَى هَوْلَاً وَلَحْنَةُ لَحَّـــان ... عَلَى سَمْعِهِ مَرَّتْ مَسَاوِيهَا

فِي آيَةٍ ضَلَّ قَارِيهَا ٱلهُدَى وَغَوَى ... بِفَتْحَةٍ كَانَ كُفْرُ ٱلْقَوْلِ تَالِيهَا

فَقَالَ: إِنْ لَمْ نَضَعْ شَتَّى ٱلقَوَاعِدِ لِلْـــكَلَامِ ... شَوَّهَهُ ٱلعُرْبَانُ تَشْوِيهَا

وَضَاعَ مَعَهُ كِتَابُ ٱللهِ وَٱخْتَلَطَتْ ... آيَاتُهُ وَٱخْتَفَتْ زَهْرَاً مَعَانِيهَا

وَبَادَرَ ٱلْعَمَلَ ٱلْمَحْمُوْدَ تُسْعِفُهُ ... فِيهِ زَكَانَتُهُ وَٱللهُ مُذْكِيهَا

وَجَاءَ بِٱلْمُعْجِزَاتِ ٱلْمُحْكَمَاتِ مِنَ ٱلْــقَوَاعِدِ ... ٱلزُّهْرِ فَهْوَ ٱلْحَقُّ مُنْشِيهَا

بِذَاكَ قَدْ أَوْجَدَا ٱلنَّحْوَ ٱلَّذِي لُغَةُ ٱلْأَعْـ ... ـرَابِ لَوْلَاهُ مَا صِيْنَتْ مَبَانِيهَا

فَقَالَ: أَلْفَاظُهَا مَهْمَا تَنَوَّعَتِ ٱسْــمٌ ... ثُمَّ فِعْلٌ وَحَرْفٌ فِي تَجَزِّيهَا

---

(١) كل ما نسميه اليوم نحواً وصرفاً ومعاني وبديعاً وعروضاً لم يكن معروفاً لاسلافنا أقطاب هذه اللغة وفحولها قبل الاسلام فانهم ما عرفوا هذه الاسماء لفنون تدرس وتحفظ كقوانين تصون فمهم من الخطأ والخلل وتحسن آدابها من نثر ونظم بل كانوا على السليقة والفطرة يتكلمون ويخطبون ويقرضون الشعر فاذا كل ما يقولوه صواب لا لحن فيه من جهة الاعراب ولا ركاكة في ما نثروا من كتاب وخطاب ولا خلل فيما نظموا على البديهة من الشعر الخلاّب . وقد اتخذ العلماء بعد الاسلام كلام العرب المنظوم والمنثور وتمعنوا باساليبه وتركيبه وفصلوه تفصيلاً كقواعد قيدوناها فلا يتخطاها وذلك بعد أن خالط العرب غيرهم من الاعاجم الغرباء عن العرب باللسان فافسدوا عليهم لغتهم الفصحى برطانتهم الاعجمية . ثمّ انّ العرب انفسهم لم يكونوا يتكلمون لغةً واحدةً بل كانت لهم لغى مختلفة وانما نزول القرآن في لغة قريش جعل هذه اللغة هي اللغة العربية الفصحى وامات كلّ ما عداها من لغات العرب ايضاً

واوّل من تنبه الى وضع قانون للغة العرب القريشية ليصونها عن اللحن والخطأ هو سيدنا علي أمير المؤمنين الساق الى كلّ مكرمة عليه صلوات الله قالوا فبينما كان ذات يوم سائراً في شوارع الكوفة يتعهد الناس شأن الأب الرحيم والحاكم العادل سمع أحدهم يتلو من كتاب الله قوله عزّ وجلّ

وَهوَ ٱلَّذي قَالَ فِي ٱلأَسْمَاءِ مَعْرِفَةٌ   وَشَامِلٌ نَكِرَاتِ ٱلشَّيْءِ يَعْنِيهَا
وَهوَ ٱلتَّوَابِعُ بِٱلتَّحْقِيقِ فَصَّلَهَا   مُبَيِّناً كَيْفَ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا
وَهوَ ٱلَّذِي قِسْمَةَ ٱلإِعْرَابِ بَيَّنَهَا   رَفْعاً وَنَصْباً وَخَفْضاً فِي تَتَالِيهَا
وَهوَ ٱلَّذِيْ جَاءَ فِيْ شَتَّى قَوَاعِدِهِ   إِلَىٰ أَبِي ٱلأَسْوَدِ ٱلمَعْرُوفِ يَرْوِيهَا
وَقَالَ: يَاصَاحِ هٰذَا ٱلنَّحْوَ أَنْحُ بِلاَ   بُطْءٍ وَتَمِّمْ مَهَاماً كُنْتَ بَادِيهَا
لِذَاكَ قَدْ دُعِيَتْ تِلْكَ ٱلقَوَاعِدُ نَحْـ   ـواً حَسْبَ أَمْرِ عَلِيٍّ وَهوَ مُوحِيهَا
لَوْلاَ ٱلإِمَامُ أَمِيرُ ٱلمُؤْمِنِينَ لَبِتْـ   ـنَا نَشْتَكِي فِي لُغَى قُرْآنِنَا ٱلتِّيهَا
وَفَضْلُهُ أَنَّهُ أَنْشَا قَوَاعِدَهَا ٱلْـ   ـغَرَّاءَ وَهوَ بِهَا لاَ شَكَّ مُحْيِيهَا
فَمَا رَطَانَةُ أَعْجَامٍ بِنَا ٱخْتَلَطَتْ   تُضِيعُهَا أَوْ كُرُورُ ٱلدَّهْرِ مَاحِيهَا

شجاعة أمير المؤمنين

لَمْ يَخْلُقِ ٱللهُ لِلْغَمَرَاتِ مِنْ رَجُلٍ   كَٱلمُرْتَضَى يُنْكِبُ ٱلأَعْدَاءَ يُنْكِيهَا (١)
تَخْشَى ٱلأُلُوفُ لِقَاهُ وَهوَ مُنْفَرِدٌ   لَهَا وَمَا كَانَ إِذْ تَلْقَاهُ خَاشِيهَا

« وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ الا اذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان » فقرأ ذاك الرجل اسم الجلالة منصوباً « اللهَ » فتحول بذلك معنى الآية الشريفة الى كفر صريح اذ جعل فاعل النسخ ما يلقيه الشيطان والمنسوخ هو الذات الازلية الواجبة الوجود الدائمة وتعالى الله عن ذلك . فلما سمع سيدنا العلي هذا النكر الذي أدى اليه ابدال ضمة بفتحة هاله ذلك وقال في نفسه ان لم تتدارك هذه الامة بتدوين قواعد لها يرجع اليها القراء لتشوهت وفسدت وفسد معها كتاب الله ووحيه وفي الحال انصرف عليه صلوات الله الى وضع قواعد للنحو فكان اول ما قال ان الكلام كله ثلاثة اشياء اسم وفعل وحرف وان الاسم منه معرفة ومنه نكرة ثم تناول التوابع فيها وقسم الاعراب الى رفع ونصب وجر وتسكين وعدا ذلك ثم له مجموعته في ذلك استدعى اليه أبا الاسود الدؤلي وكان من نبهاء اصحابه القراء واذكاهم فلقى عليه ما جمع وقال له انح هذا النحو أي اقصد هذا القصد فسمي حينئذٍ فن قواعد اللغة العربية نحواً أي قصداً وذلك لان أبا الاسود الدؤلي كان كلما املى ما تلقاه عن الامام وما اهتدى اليه من اكتشاف قواعد اللغة الأخرى على أحد تلاميذه يكرر على مسامعه قوله عليه صلوات الله « انح هذا النحو » لاجرم ان اهتداء سيدنا أمير المؤمنين الى وضع قواعدٍ للغة العرب يصونها من اللحن والخطأ هو من كراماته المشهورة ونوادر اعماله العظيمة وبوادر آثار ذكائه النادر وبواهر خدماته التي تعترف الامة ويعترف الاسلام له بها

(١) انَّ الكلام على شجاعة سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله من قبيل القول الشمس طالعة ونورها يبهر الابصار في رائعة النهار وتالله لو تجسمت الشجاعة وتمثلت في شخص لكان ذلك

لَهُ ٱلشَّجَاعَةُ تُنْمَى فَهُوَ سَيِّدُهَا ٱلْإِ ... مُ عَلِي وَقَدْ رَضِيَتْ مِنْهُ تَأَتِّيهَا

أَنْسَى بِهَا ٱلنَّاسَ شُجْعَاناً لَهَا سَلَفَتْ ... قِدْماً وَلَمْ يُبْقِ مِنْ فَخْرٍ لِآتِيهَا

وَذِي مَوَاقِفُهُ فِي ٱلْحَرْبِ ذَائِعَةٌ ... يَرْوِي حَوَادِثَهَا بِٱلْعُجْبِ رَاوِيهَا

بِهَا ٱلْوَرَى تَضْرِبُ ٱلْأَمْثَالَ تَذْكُرُهَا ... إِلَى ٱلْقِيَامَةِ عَفْواً فِي نَوَادِيهَا

وَمَا نَسَتْ نَوْمَةً قَدْ نَامَهَا بِفِرَا ... شِ ٱلْمُصْطَفَى وَهُوَ هَادِي ٱلنَّفْسِ هَانِيهَا

وَٱلنَّاسُ تَطْلُبُ خَيْرَ ٱلْخَلْقِ رَاغِبَةً ... لَهُ ٱلْهَلَاكَ وَدَاعِي ٱلشَّرِّ دَاعِيهَا

وَإِنَّهَا نَوْمَةٌ تُوهِي ٱلْعَزَائِمَ مَا ... غَيْرُ ٱلْمَنِيَّةِ إِنْ فَكَّرْتَ تَالِيهَا

وَكَمْ تَصَدَّى وَحِيداً لِلْعِدَى فَكَفَى ٱلْإِسْلَامَ ... وَٱلدِّينَ وَٱلدُّنْيَا تَعَدِّيهَا

مَا فَرَّ يَوْماً إِذَا نَارُ ٱلْوَغَى ٱسْتَعَرَتْ ... بَلْ كَانَ وَٱللهِ قَبْلَ ٱلنَّاسِ صَالِيهَا

وَلَمْ يَهَبْ أَنْ يُلَاقِيَ فِي ٱلْحُرُوبِ كَتَا ... ئِبَ ٱلْعِدَى مَا تَمَادَتْ فِي تَجَنِّيهَا

وَطَالَمَا رَهِبَتْهُ مَا تُجَرِّدُ ذَا ٱلْـ ... فَقَارِ يُمْنَاهُ إِذْ يَفْرِي هَوَادِيهَا

الشخص سيدنا أمير المؤمنين بل لو عرف قدماء اليونانيين ثاني سادات قريش لاتخذوه الها للشجاعة في جملة آلهتهم التي افترضوا وجودها وعبدوها . لاجرم انّ سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله قد أنسى ذكر من تقدمه في الشجاعة ولم يبق ذكراً لمن يأتي بعده . ومقاماته عليه صلوات الله في الحروب مشهورة تضرب بها الامثال الى يوم القيامة . وهو الشجاع الذي ما فرّ قط ولا ارتاع من كتيبة بل ولم يعرف في حياته الشريفة بطولها معنى الفزع . وهو الذي ما بارز احداً الا وقتله . ولا ضرب ضربةً وثناها بل كانت الاولى هي القاضية على عدوّه وفي الحديث الشريف « كانت ضرباته وتراً »

وانّا لنرجع بالقاري الكريم الى ما تقدم في هذه القصيدة المباركة وحواشيها من مواقف سيدنا أمير المؤمنين في الغزوات النبوية وحروبه الكثيرة في العراق : ونذكر على الخصوص نومته على فراش المصطفى عليهما الصلاة والسلام يوم طلب كفار قريش ومن مركوهم رسول الله يريدون قتله فقرّ من وجوههم الشريرة وهاجر الى المدينة المنوّرة على ما ترى تفصيل ذلك في موضعه

وكانت شجاعة المرتضى عليه صلوات الله تخيف أعداءه الاشرار وترهب قلوبهم وترجف فرائصهم . وقد رأينا في موقعة صفين كيف هجم أمير المؤمنين بنفسه وحيداً على جيش معاوية فبدّده ثمّ طلب معاوية لمبارزته فاختفى هذا من وجهه هارباً الى مؤخرة جيشه ومن المضحكات انّ عمراً ابن العاص قال وتشفى لمعاوية وهو هارب من امام سيدنا علي هرب العصفور من الشاهين ان بارزه وانهِ هذه الحرب وكيف أجاب معاوية عمراً بقوله : ما غششتني منذ نصحتني الا اليوم أتأمرني بمبارزة أبي الحسن وأنت تعلم انه الشجاع المطرق وأراك طمعت بامارة الشام بعدي . ولعمر الحقّ أنّ هذه الشهادة من معاوية وهو شرّ اعداء أمير المؤمنين لتكفي وحدها للدلالة على اجماع الناس انه أشجع شجعانهم بغير نزاع

وَحَسْبُنَا ٱلْمُصْطَفَى قَدْ قَالَ ضَرْبَتُهُ   وِتْرٌ فَلَمْ يَكُ فِي ٱلْأَعْدَا يُثَنِّيهَا

بَلْ حَسْبُنَا غَزَوَاتُ ٱلْمُصْطَفَى لِحَيَا   ةِ ٱلدِّينِ وَٱلْمُرْتَضَى ٱلْأَسْنَى مُجَلِّيهَا

وَكَانَ يَشْهَدُهَا لِلّٰهِ مُضْطَلِبَاً   رِضْوَانَهُ بِمَسَاعٍ فَازَ سَاعِيهَا

وَذَا مُعَاوِيَةٌ قَدْ هَابَ بَرْزَتَهُ   فِي حَرْبِ صِفِّينَ نَادَى: لَسْتُ رَاضِيهَا

وَقَدْ دَعَاهُ إِلَيْهَا ٱلْقَرْمُ حَيْدَرَةٌ   وَقَالَ عَمْرٌو إِذَا لَبَّيْتَ تُنْهِيهَا

فَقَالَ: وَيْلَكَ هَلْ يَلْقَى ٱلْعَلِيَّ فَتًى   يَهْوَى ٱلْحَيَاةَ وَيَبْغِي أَنْ يُبَقِّيهَا

وَهَلْ أَبُو حَسَنٍ مِمَّنْ يُبَارَزُ وَهْـ   ـوَ ٱلْأَرْوَعُ ٱلرَّائِعُ ٱلدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا

وَمَا إِخَالُكَ إِلَّا قَدْ طَمِعْتَ بِأَرْ   ضِ ٱلشَّامِ تَطْلُبُ مِنْ بَعْدِي تَوَلِّيهَا

وَطَالَمَا ٱفْتَخَرَ ٱلْعُرْبُ ٱلْكِرَامُ بِمَلْـ   ـقَاهُ وَإِنْ كَانَ بِٱلْأَهْوَالِ لَاقِيهَا

لِعِلْمِهَا أَنَّهَا تَلْقَى بِهِ بَطَلاً   فَذَا لَهَا ٱلْعُذْرُ إِمَّا رَاحَ يُرْدِيهَا

مِنْ ذَاكَ قَوْلَةُ عَبْدِ ٱللهِ مُفْتَخِرٌ   فِي ٱلشَّامِ لَمَّا هَزَا مِنْهُ مُعَاوِيهَا

شَجَاعَتِي هَلْ أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ تُنْكِرُهَا   وَقَدْ لَقِيتُ عَلِيّاً قَالَ: صَهْ إِيهَا

ثمّ انّ العرب لأنفتهم وعزّة نفوسهم كانوا يستحون اذا قتل واحداً منهم جبان أو من كان غير مشتهر بالشجاعة كما انهم كانوا يفخرون بقتلاهم اذا قتلهم الاكفاء الشجعان وقد اثبت التاريخ انّ أهالي القتلى الذين شرّفهم سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله بقتلهم بيده الشريفة او الذين فازوا بشرف الوقوف امام ذاته المنيفة في موقف قتال وأسعدهم الحظ ان نجوا من القتل رحمةً منه أو قضاءً وقدراً يتبجحون بهذا الشرف العظيم ويذكرونه في أشعارهم ومجالسهم كما انّ بعضهم كانوا يدعون شرف هذه الوقفة للافتخار كذباً وبهتاناً اثباتاً لادعائهم الشجاعة والبطوله .

من ذلك انّ عبدالله بن الزبير ولم يكن جباناً وان كانت لا تذكر شجاعته بشيء بجانب شجاعة سيدنا أمير المؤمنين دخل يوماً على معاوية بعد فراره من موقعة الجمل الى الشام فوجده نائماً فجلس عند قدميه بقرب سريره حتى اذا ما انتبه قال له عبدالله مداعباً لقد هممت ان أفتك بك يا أبا يزيد فتبسم معاوية وقال هازئاً : لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر فغتاظ عبدالله بن الزبير وقال : وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في الصف بازاء علي بن أبي طالب فزداد معاوية ضحكاً وقال لا جرم انه قتلك وأباك بيسرى يديه وبقيت اليمنى فارغة يطلب من يقاتله بها . وفي الحقيقة لو تصدّى عبدالله بن الزبير لسيدنا علي عليه صلوات الله يوم الجمل لالحقه بأبيه بطرف ذي الفقار المشهور بيمينه بغير مراء

ومن ذلك ما قالته أخت عبد ودّ الذي قتله سيدنا علي في غزوة الخندق ولم تعرف العرب أشجع منه فانها قد قالت ترثيه وتفتخر بانّ قاتله سيد شجعان العرب وبذلك قد تعزّت عن مقتله قالت :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله   بكيته أبداً ما دمت في الأبد

إِذَنْ يُسْرَاهُ تَفْنَى مَعْ أَبِيكَ وَيُمْـــنَاهُ يَرُومُ بِهَا قَوْماً لِيُفْنِيهَا
وَكَانَ أَرْهَاطُ قَتْلاَهُ تُفَاخِرُ فِي أَنَّ ٱلْوَصِيَّ وَمَا إِلاَّهُ مُضْمِيهَا
وَهُوَ ذَا عَبْدُ وُدٍّ وَهُوَ قَاتِلُهُ وَكَانَ إِنْ تُذْكَرَ ٱلشُّجْعَانُ سَامِيهَا
وَأُخْتُهُ كَفْكَفَتْ هَامِي مَدَامِعِهَا تَقُولُ: قَتْلَتُهُ مِنْ كَفِّ كَافِيهَا

قوة أمير المؤمنين

لَمْ تَشْهَدِ ٱلنَّاسُ أَقْوَى مِنْ أَبِي حَسَنٍ إِنْ تُذْكَرَ ٱلْأَقْوِيَا يَوْماً وَتُحْصِيهَا(١)
وَقَدْ تَفَرَّدَ فِي مَفْتُولِ سَاعِدِهِ بِقُوَّةٍ لَيْسَ مِنْ مَرْءٍ يُقَاوِيهَا
حَتَّى بِقُوَّتِهِ ٱلْأَمْثَالُ تُضْرَبُ بَيْـــنَ ٱلنَّاسِ رَاوِيَةً شَتَّى مَآتِيهَا
فَلَمْ يُصَارِعْ فَتًى إِلاَّ وَخَرَّ صَرِيـــعاً لِلثَّرَى خَائِرَ ٱلْأَعْصَابِ وَاهِيهَا
وَبَابُ خَيْبَرَ فِي إِبَّانِ غَزْوَتِهَا قَدْ رَاحَ رَافِعَهُ مِنْ دُونِ أَهْلِيهَا
بِهِ تَتَرَّسَ لَمَّا ٱلتُّرْسُ مِنْ يَدِهِ قَدْ طَيَّرَتْهُ ٱلْأَعَادِي وَهُوَ لاَقِيهَا
وَحَمْلُهُ أَعْجَزَ ٱلْأَعْوَانَ إِذْ طَلَبَتْ تَجْرِبَةً وَوَهَتْ عَنْ ذَاكَ أَيْدِيهَا

لكنَّ قاتله من لا يُعاب به وكان يُدعى أبوه بيضة البلد
من هاشم في ذراها وهي صاعدة الى السماء تميت الناس بالحسد
قومٌ أبى الله الاَّ أن تكون لهم مكارم الدين والدنيا الى أمد
يا أمَّ كلثوم فأبكيه ولا تدعي بكاءً معولةٍ تبكي على ولد

(١) وكانت قوَّة أمير المؤمنين لا تعادلها قوَّة وما عجزت قط الاَّ عن حمل النبوَّة كما رأينا في فتح مكة المكرمة وما هرقل اله القوة عند اليونانيين القدماء الا مثال لسيدنا أمير المؤمنين وأجمع رواة التاريخ على انه عليه صلوات الله ما صارع انساناً قط الا صرعه

وقد رأينا في غزوة خيبر التي مرَّت معنا مثالاً لقوته اذ عند ما طار الترس من يده احتمل بيساره باب القلعة وقد عجز جمهور من الناس عن حمله فتترس به وحارب أعداءه فهو اذاً جبار من الجبابرة بل سيد الجبابرة أهل القوة بغير جدال . وناهيك يوم فتح مكة بصنيعه بهبل وهو أعظم اصنام العرب وكان مثبتاً بالاوتاد على سطح الكعبة شرفها الله على عظمه وكبره فتناوله بيمناه وهو على كتفي رسول الله وانتزعه انتزاعاً وألقى به الى الارض فحطمه تحطيماً . ومثل هذا صنيعه بالصخرة التي انتزعها وأخرج من تحتها الماء في طريقه الى صفين وهو سائر الى قتال معاوية كما مرَّ بنا فقد عجز رجاله عن نزعها فتقدم منها وانتزعها وهي مثبتة في الارض وفي ذلك ما فيه من القوَّة الخارقة لطبيعة البشر التي ارهبت اعداءه فجعلوا يتقونه ويتحاشون مبارزته . وأمثال هذا كثير رواه عنه عليه صلوات الله المؤرخون ونكتفي بالاشارة اليه لشهرته

وَمَا تَعَاصَتْ عَلَيهِ فَوْقَ كَعْبَتِنَا ... تَاللهِ دُمْيَتُهَا إِذْ رَاحَ رَامِيهَا

وَقَدْ تَنَاوَلَهَا مِنْ فَوْقِ كَتْفِ رَسُوْ ... لِ اللهِ يَهْزَأُ هُزْءً مِنْ مُقِيمِيهَا

وَهُوَ الَّذِي الصَّخْرَةَ الْكُبْرَى مُزَحْزِحُهَا ... لِيُخْرِجَ الْمَاءَ لِلأَجْنَادِ يُسْقِيهَا

مِنْ بَعْدِ أَنْ عَجِزَتْ عَنْهَا صَحَابَتُهُ ... وَأَعْلَنَتْهُ بِأَنَّ الأَمْرَ مُعْيِيهَا

وَقُوَّةُ الْمُرْتَضَى بِاللهِ قَدْ تَرَكَتْ ... اعْدَاءَهُ وَهْيَ تَخْشَى أَنْ تُلاقِيهَا

وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُهَا يَدْعُو إِلَى دَهَشِ الأَ ... مِ بِطَالِ مَا ذَكَرُوهَا فِي نَوَادِيهَا

جهاد أمير المؤمنين

قَدْ أَنْزَلَ اللهُ آيَاتِ الْجِهَادِ عَلَى ... مُحَمَّدٍ وَأَخُو الإِيمَانِ وَاعِيهَا (١)

وَنَصْرَةُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِهِ وَبِأَصْـ ... ـحَابٍ لَقَدْ أَظْهَرَتْ مَعَهُ تَفَانِيهَا

وَمَنْ يُجَاهِدْ لِوَجْهِ اللهِ كَانَ لَهُ ... مِنْ رَبِّهِ النِّعَمُ الشَّتَّى يُلاقِيهَا

وَفِي الْجِهَادِ جَلالٌ لِلْمُجَاهِدِ فِي الـ ... ـدُّنْيَا وَمَثُوبَةٌ تُرْضِي مُؤَرِّخِيهَا

وَإِنْ يَعُدَّ الْوَرَى أَهْلَ الْجِهَادِ فَمَوْ ... لانَا أَبُو الْحَسَنَيْنِ الْبَرُّ سَامِيهَا

قَدْ كَانَ سَيْفاً بِكَفِّ الْمُصْطَفَى وَبِهِ ... عِدَى النُّبُوَّةِ نَالَتْهَا مَخَازِيهَا

وَكَانَ سَيِّدَ أَرْبَابِ الْجِهَادِ جَمِيـ ... ـعاً بَيْنَ سَابِقِهَا الْمَاضِي وَآتِيهَا

وَمَا الْجِهَادُ لِغَازٍ غَيْرِهِ أَبَداً ... مِنْ أُمَّةِ الْعُرْبِ بَادِيهَا وَقَارِيهَا

وَقَدْ أَقَرَّتْ أَعَادِيهِ بِذَا عَلَناً ... وَكَانَ إِخْفَاؤُهُ وَاللهِ مُعْيِيهَا

وَهْيَ الْحَقِيقَةُ لا بُطْلٌ يُقَارِبُهَا ... كَلاَّ وَلا سَفَهُ الأَعْدَاءِ يُخْفِيهَا

وَقَدْ رَأَيْنَا مَغَازِي الْمُصْطَفَى وَأَمِيـ ... ـرُ الْمُؤْمِنِينَ بِلا رَيْبٍ مُجَلِّيهَا

---

(١) الجهاد فرض على المسلم يقوم به لنصرة الدين ومحاربة المشركين والكافرين وقد سبق لنا ان ذكرنا فيما مضى شيئاً عنه فلا نعود اليه . وتفوّق سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله بجهاده في سبيل نشر الاسلام لا يختلف فيه اثنان بل نقدر ان نقول انه نشأ وشبّ وكهل وشاخ الى أن توفاه الله شهيداً وهو يجاهد في سبيل الله بيده ولسانه وقلبه . وأعماله الباهرة في جهاده ساطعة كالشمس في رائعة النهار يعترف بها كل مسلم أو قارىء تاريخ صدر الاسلام وقد سبق لنا ان فصلناها تفصيلاً فلا نعود اليها الآن . ونستطيع ان نقول انه بعد المصطفى عليهما الصلاة والسلام

وَقَدْ رَأَيْنَاهُ فِيهَا وَهُوَ يَنشُرُ تَشـــراً هَامَ أَعْدَاءِ دِينِ ٱللّٰهِ يَفْرِيهَا
وَكَانَ فَرْداً يُلَاقِي غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِٱلْمَوْتِ أَعْدَاءَ هَدْيِ ٱللّٰهِ يُرْدِيهَا
مُكَبِّراً مُخْلِصاً لِلّٰهِ مُعْتَمِداً عَلَى ٱلْعِنَايَةِ بَرَّ ٱلنَّفْسِ تَاقِيهَا
وَمَا مُجَاهَدَةُ ٱلْمِغْوَارِ حَيْدَرَةٍ لِلدِّينِ خَافِيَةٌ وَٱلدِّينُ مُبْدِيهَا
كَلَّا وَلَيْسَ لَهَا مِنْ مُنْكِرٍ لِتَحَجُّـــهُ بَيِّنَةٍ غَـــرًّا نُؤَدِّيهَا
لٰكِنْ بِهَا ٱعْتَرَفَ ٱلْإِسْلَامُ وَٱنْتَشَرَتْ رَايَاتُهُ فَهُوَ بِسْمِ ٱللّٰهِ مُزْ يِنُهَا
تَاللّٰهِ لَوْلَاهُ لَمْ تُعْلَنْ هِدَايَةُ طَـــهَ فِي ٱلْجَزِيرَةِ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا
وَلَا تَلَاشَتْ جُمُوعُ ٱلْمُشْرِكِينَ وَقَدْ شِمْنَا عَلَى أَحْمَدَ ٱلْهَادِي تَجَمِّيهَا
وَتِلْكَ آيٌ وَٱلْهُدَى غَرًّا مَوَاقِعِهِ تُحْنَى رُؤُوسُ ٱلْوَرَى شُكْراً لِآتِيهَا
وَأَصْبَحَتْ مِثْلَ هَذِي ٱلشَّمْسِ سَاطِعَةً وَكُلُّ ذِي بَصَرٍ فِي ٱلنَّاسِ رَائِيهَا

حلم أمير المؤمنين وعفوه

أَلْحِلْمُ فَضْلٌ إِذَا مَا ٱلْأَقْوِيَاءُ بِهِ لَاقَتْ وَقَدْ قَدَرَتْ عَفْواً أَعَادِيهَا (١)
وَإِنَّهُ ٱلْعَجْزُ إِنْ جَاءَ ٱلضَّعِيفُ بِهِ يَزِيدُهُ عِنْدَ أَهْلِ ٱلرَّأْيِ تَسْفِيهَا
وَأَيُّ مَكْرُمَةٍ أَسْمَى وَأَجْمَلُ مِنْ نَفْسِ ٱلْحَلِيمِ ٱلَّتِي تَأْبَى تَشَفِّيهَا
مِنْ بَعْدِ مَا بَاتَتِ ٱلْأَعْدَاءُ فِي يَدِهَا فَإِنْ أَحَبَّتْ فَرَتْ فَرْياً هَوَادِيهَا

كان السبب الأكبر في نشر الاسلام في جزيرة العرب وانه كان السيف المشهر بيد رسول الله على المشركين والكفار وما زال يحارب في جانب الحق فيزهق الباطل امامه الى ان راح شهيداً لصحبة الابرار الاخيار في جنان النعيم نقول هذا ونحن نعترف ان الله سبحانه هو العامل الاكبر لنشر دينه ولكن اعتقادنا هذا لا يحظر علينا الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخر سيدنا أمير المؤمنين وسيدنا محمد سيد المرسلين لنشر دينه القيم في العالمين

(١) الحلم من الفضائل المحمودة والكمالات التي تشرّف صاحبها ولا سيما اذا كانت عن قدرة اذ لا يكون الحلم حلماً الا اذا كان صاحبه قد قدر فعفا ماذا والاّ فهو العجز والضعف والصغار. ومتتبعو سيرة سيدنا علي عليه صلوات الله يجدون الحلم في أسمى معانيه وأشرفها في هذا الرجل الكامل صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام

كان سيدنا علي عليه صلوات الله مؤمناً مسلماً بكلّ معنى الايمان والاسلام ولذلك كان قلبه لا يعرف الحقد والضغينة على مسلم الاّ اذا كان قد أساء الى الشريعة السمحاء وعمل على الاضرار

وَمَا عَرَفْنَا حَلِيمَاً كَالْوَصِيِّ إِذَا دَانَتْ عِدَاهُ لَهُ قَهْرَاً يُدَارِيهَا
فَكَانَ أَحْلَمَ خَلْقِ ٱللهِ أَجْمَعِهَا عَلَى ٱقْتِدَارٍ صَفُوحَاً عَنْ مُسِيئِيهَا
وَحِلْمُهُ لَمْ يَكُنْ عَجْزاً وَلاَ هُوَ عَنْ ضُعْفٍ وَقُوَّتُهُ مَا مَنْ يُقَاوِيهَا
وَإِنَّمَا كَانَ مِنْهُ بَعْدَ قُدْرَتِهِ عَلَى عِدَاهُ وَقَدْ خَالَتْهُ مُفْنِيهَا
فَكَانَ أَوْسَعَ صَدْرَاً أَنْ يُمَامِلَهَا بِمَا جَنَتْهُ فَيَلْقَى ٱلْحَيْنَ بَاغِيهَا
وَقَدْ رَأَيْنَاهُ يَعْفُو عَنْ إِسَاءَةِ مِرْ وَانٍ وَقَدْ بَلَغَتْ أَسْوَا مَرَامِيهَا
وَبَاتَ فِي يَدِهِ مِنْ بَعْدِ نُصْرَتِهِ فِي وَقْعَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَلْعُونُ مُلْظِيهَا
وَلَوْ أَرَادَ لَأَمْسَى وَهُوَ قَاتِلُهُ وَإِنَّ قَتْلَتَهُ مَا جَارَ آتِيهَا
لٰكِنَّمَا ٱلْمُرْتَضَى مَا كَانَ مُنْتَقِمَاً مِنْهُ فَأَرْسَلَهُ فِي ٱلأَرْضِ يَطْوِيهَا
وَقَالَ: يَبْغِتُهُ هَيْهَاتَ أَقْبَلُهَا مَادَامَ يَبْذِلُهَا حِيناً وَيُلْغِيهَا
فَرَاحَ لِلشَّامِ يَرْوِي حِلْمَ حَيْدَرَةٍ إِلَى كَبِيرِ أَعَادِيهِ مُعَاوِيهَا
وَذَا ٱلزُّبَيْرُ وَمَا كَانَ ٱلزُّبَيْرُ يُخَبِّـ ـيْ بِغْضَةَ ٱلْمُرْتَضَى مَعْ مَنْ يُخَبِّيهَا
بَلْ كَانَ يَجْهَرُ جَهْرَاً بِٱلْعَدَاوَةِ لِلْـ ـوَصِيِّ يَدْعُو إِلَيْهَا ٱلنَّاسَ تَجْرِبَهَا
وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ عَاصَى ٱلإِمَامَةَ جَهْـ ـرَةً وَيَا طَالَمَا ٱسْتَغْوَى مُطِيعِيهَا
مَعْ كُلِّ ذَا كَانَ مَوْلاَنَا ٱلْعَلِيُّ يَغُـ ـضُّ ٱلْعَيْنَ عَنْهُ بِمَحْضِ ٱلْحِلْمِ يُغْضِيهَا
يَقُولُ: مَازَالَ مِنَّا نَحْنُ آلَ رَسُو لِ ٱللهِ صُحْبَتُهُ ٱلزَّهْرَا نُرَاعِيهَا

بها حينئذٍ يغضب غضبته الهاشمية ولا يعود فيرضى أبداً أو تسلم شريعة الله التي أوحيت الى ابن عمه المصطفى عليهما الصلاة والسلام من الأذى

وحوادث سيدنا أمير المؤمنين في الحلم كثيرة لا تتسع لها حاشية كهذه وعلى سبيل الاستشهاد نذكر بعضها . فقد رأيناه يعفو عن مروان بن الحكم بعد ان ظفر به في البصرة على أثر الفشل الذي أحاق بأصحاب الجمل ومروان في الاصل لم يكن مسيئاً شخصياً الى سيدنا أمير المؤمنين بقدر اساءته الى الخلافة المحمدية والاسلام والمسلمين باستبداده بأسرة ابن عمه عثمان بن عفان وهو في الحقيقة مسيء الى عثمان بن عفان ايضاً أكثر مما هو مسيء الى سيدنا علي نفسه في حوادث الخلاف التي شجرت بينهما على عهد عثمان بن عفان في المدينة المنورة ومع ذلك عندما ظفر سيدنا علي بمروان واصبح هذا في قبضته أبى ان يفتك به بل أطلق سبيله ليذهب حيث يشاء وهو عليه السلام كان يعرف انه ذاهب الى الشام الى ابن عمه معاوية للعمل على اقلاق راحة الخلافة واحداث الاضطرابات فيها والقلاقل

حَتَّى إِذَا شَبَّ عَبْدُ ٱللهِ أَبْعَدَهُ ... عَنَّا بِأَطْمَاعِ نَفْسٍ كَانَ يَنْوِيهَا
وَقَدْ رَأَيْنَا عَلِيّاً وَهْوَ يَجْبَهُ مُرْ ... دِيهِ يُبَشِّرُهُ بِٱلنَّارِ يَصْلِيهَا
لَمَّا أَتَاهُ يُرَجِّي أَجْرَ قَتْلَتِهِ ... مِنْهُ وَيَحْسَبُهُ قَدْ كَانَ بَاغِيهَا
فَقَالَ: مَا كَانَ وَٱللهِ ٱلزُّبَيْرُ جَبَا ... نَاً فِي مُصَاوَلَةِ ٱلْأَقْدَارِ خَاشِيهَا
لٰكِنْ مَصَارِعُ عَادِي ٱلدَّهْرِ قَدْ صَرَعَتْـ ... ـهُ ٱلْيَوْمَ وَٱسْتَمْكَنَتْ مِنْهُ عَوَادِيهَا
وَأَظْهَرَ ٱلْحِلْمَ فِي ذِكْرَى فَضَائِلِهِ ... فِي خِدْمَةِ ٱلْمُصْطَفَى إِذْ رَاحَ يُبْدِيهَا
كَذَا لَقَدْ أَظْفَرَ ٱللهُ ٱلْعَلِيَّ بِعَبْـ ... ـدِ ٱللهِ فِي ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّاءِ يَثْوِيهَا
مِنْ بَعْدِ نُصْرَتِهِ فِي وَقْعَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْـ ... ـمَعْهُودِ إِذْ خَذَلَ ٱلْبَارِي مُثِيرِيهَا
هُنَاكَ قَالَ لَهُ: سِرْ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ... بِشَرِّ آثَامِهِ يَبْغِي تَنَاسِيهَا
وَلَوْ أَرَادَ لَهُ هُلْكاً لَأَرْسَلَهُ ... إِلَى مَنِيَّتِهِ أَلْقَاهُ فِي فِيهَا
وَهْوَ ٱلَّذِي شَنِئَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ أَوْرَثَهُ ٱلـ ... ـزُّبَيْرَ فَٱنْصَاعَ يَشْنَاهَا وَعَالِيهَا
وَهْوَ ٱلَّذِي عَاثَ فِي أَرْضِ ٱلْخِلَافَةِ إِفْـ ... ـسَاداً وَنَاوَا عَلِيّاً وَهْوَ وَالِيهَا
وَطَالَمَا سَبَّهُ سَبّاً وَقَالَ: هُوَ ٱلْـ ... ـوَغْبُ ٱللَّئِيمُ فَعَالُ ٱلسُّوءِ يَاتِيهَا

ومما يذكر انه عرض على سيدنا علي وهو في البصرة بعد الجمل أن يبايعه خوفاً من بطشه بواسطة محمد بن أبي بكر فرفض عليه صلوات الله قبول بيعته قائلاً: لم يصدق في الاولى « لانه بايعه في المدينة » ليصدق في الثانية وفي هذا من الحلم وسعة الصدر ماهو خليقٌ بسيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله

ومثل هذا حلمه عليه صلوات الله مع الزبير الذي هرب من المدينة على أثر بيعة سيدنا علي وبعد أن بايعه فقصد مكة وحمل عائشة على المسير الى البصرة للاعتصام باهلها على نقض بيعته ونقدر أن نقول انه كان أحد زعماء اعدائه الذين حملوا ايام خلافته كلها قلاقل وفتن ومع ذلك كان عليه صلوات الله افرط حلمه اذا ذكر امامه الزبير يقول « ما زال الزبير منا نحن أهل البيت حتى كبر ابنه عبدالله » فكأنه بهذا كان يريد أن يبرئه من جريمة عصيانه على خلافته . ومما يشير الى حلمه العظيم عليه صلوات الله انه جبه قاتل الزبير عند ما قصده يبشره بقتله وبشره بالنار وقال وقتئذٍ في الزبير كلمةً طيبة على ما مرَّ بنا

ومثل هذا حلمه عليه صلوات الله على عبد الله بن الزبير . فإن سيدنا علي كان يعتقد أنَّ الزبير ابن العوام ما زال صادقاً في حبِّ آل البيت مخلصاً لهم حتى كبر ابنه عبد الله فحمله على عدائهم : ومن علم أنَّ هذا العداء الذي احدثه عبد الله بن الزبير في صدر أبيه قد أضرَّ الاسلام ذلك الضرر العظيم بفتح باب الشرّ على سيدنا علي منذ تحرّ خلافته تجسم في نظره اثم هذا الرجل وعظمت لديه اساءته الكبرى للاسلام عموماً ولسيدنا علي خصوصاً ومع ذلك أبى سيدنا علي عليه صلوات الله أن ينتقم منه بعد أن فشلت

كَذَاكَ عَائِشَةٌ قَدْ رَدَّهَا كَرَماً ... إِلَى ٱلْمَدِينَةِ كَيْ بِٱلرَّغْدِ تَأْوِيهَا
أَحَاطَهَا بِنِسَا قَيْسٍ مُعَمَّمَةٍ ... مِثْلَ ٱلرِّجَالِ سَرَتْ مَعْهَا تُمَاشِيهَا
كَانَتْ لَهَا خَفَراً فِي طُولِ رِحْلَتِهَا ... وَعَنْ مَصَائِبِهَا ٱلشَّتَّى تُسَلِّيهَا
وَهِيَ ٱلَّتِي نَاوَأَتْ ظُلْماً خِلَافَتَهُ ... وَلَيْسَ فِي ٱلنَّاسِ أَشْقَى مِنْ مُنَاوِيهَا
وَهُوَ ٱلَّذِي قَدْ عَفَا عَنْ صُحْبَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْأَغْرَارِ ... نَادَى ذَوِيهِ أَنْ تُوَاسِيهَا
بِٱلْحِلْمِ أَمَّنَهَا مِنْ بَعْدِ أَنْ غُلِبَتْ ... وَأَسْرَعَتْ هَرَباً تَأْوِي مَخَابِيهَا
وَعِنْدَ مَا كَانَ يَسْعَى ٱلْمُرْتَضَى بِحُمَاةِ ٱلدِّينِ لِلشَّامِ ... إِذْ أَبْدَتْ تَعَصِّيهَا
أَلْفَى ٱلْعُصَاةَ عَلَى شَطِّ ٱلْفُرَاتِ أَبَتْ ... لُؤْماً عَلَى قَوْمِهِ ٱلْأَمْوَاهَ تُسْقِيهَا
فَكَانَ بِٱلسَّيْفِ عَنْ تِلْكَ ٱلْمِيَاهِ يَحُولُ ... ٱللهِ قَاهِرَهَا قَهْراً وَمُجْلِيهَا
لَكِنْ أَبَى عَنْ وُرُودِ ٱلْمَاءِ يَمْنَعُهَا ... وَكَانَ يُهْلِكُهَا لَوْ رَامَ يُظْمِيهَا
وَكَمْ لِحَيْدَرَةٍ مِنْ وَقْفَةٍ يَتَجَلَّى ... ٱلْحِلْمُ فِيهَا لِسَانُ ٱلشُّكْرِ يَحْكِيهَا
وَإِنَّهَا وَقَفَاتٌ لِلْمَلَا بَهَرَتْ ... وَمَا سِوَى ٱلْمُرْتَضَى تَٱللهِ يَأْتِيهَا

مساعي أصحاب الجمل وتلاشت جموعهم وفرَّ عبد الله بن الزبير الى البصرة واختفى في أحد دورها فعفا عنه أحلم الحلماء عليه صلوات الله واطلق سراحه فسار الى معاوية

ومثل هذا أيضاً ما بذله سيدنا علي من الاكرام لعائشة بنت أبي بكر بعد وقعة الجمل مع انها اساءت اليه أكبر اساءة بجهرها بغير سبب ولا ذنب بعداته وبعد رأيناه عليه صلوات الله كيف اعتنى بأمرها واجتهد بتوفير اسباب الراحة لها في مدة اقامتها القصيرة في البصرة وفي تسريحها الى مكة فالمدينة

ومثل هذا أيضاً عفوه عليه صلوات الله عمن سلم من أصحاب الجمل اذ اعلن اصحابه بعد أن نصرهم الله أن لا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا فاراً ولا يعتدوا على بيت من بيوت البصرة

ومثل هذا أيضاً بل واعظم منه ما رأيناه يعمله في صفين اذ رأينا أصحاب معاوية يملكون الشريعة ويمنعون الماء عن اصحاب سيدنا علي فلما امتلك هؤلاء الماء بالقوة جاؤوا الى سيدنا علي وعرضوا عليه أن يمنعوا الماء عن أصحاب معاوية فأبى حلماً ومكرمةً وفضلاً وقال بل نسقيهم مع انه ما كان يجهل انه لو منع الماء عن أصحاب معاوية في صفين وقتئذٍ لسلموا اليه ظمئاً ولكن ما كان يرضى مثل هذا لقوم من المسلمين غرَّر بهم معاوية وساقهم الى قتاله

ومن حوادث حلمه ما شهدناه منه عليه صلوات الله من سعة الصدر في ملاطفة الخوارج الذين ارغموه على قبول التحكيم ثمَّ نقموا عليه ونادوا بعداته لانه لم يمالئهم على نكث العهد الذي قطعه على نفسه في ذلك التحكيم ومن يراجع تاريخ اولئك الخوارج يجد أنَّ سيدنا علي عليه صلوات الله حلم كثيراً عليهم وجاهد طويلاً ليردهم بالحسنى الى هداهم وحاول جهده أن يقنعهم بفساد مزاعمهم من قبل

وَكَانَ آخِرَهَا إِعْلَانُ رَغْبَتِهِ ... بِالْعَفْوِ أَعْلَنَهَا فِي النَّاسِ تَجْزِيهَا
عَنْ قَتْلِ قَاتِلِهِ الْمَلْعُونِ إِنْ بُرِئَتْ ... جُرُوحُهُ وَدِمَاهُ سَالَ قَانِيهَا
وَإِنَّ ذَا فَوْقَ مَا نَدْرِي وَنَعْرِفُ مِنْ ... حَوَادِثِ الْحِلْمِ مَا وَاللهِ يَحْكِيهَا
ذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَحِيمٍ نَفْسُهُ عَلِيَتْ ... عَنِ الْخَلَائِقِ أُنْسِيهَا وَجِنِّيهَا

رأى أمير المؤمنين وتدبيره

كَانَ الْعَلِيُّ لَدَى الْأَخْطَارِ مَادَهَمَتْ ... أَدْهَى الصَّحَابَةِ فِي تَلْطِيفِ دَاهِيهَا(١)
وَفِي الْمَصَاعِبِ أَدْرَى مَنْ يُبَدِّدُهَا ... بِحِكْمَةٍ مَا تَنَاهَتْ فِي تَعَصِّيهَا
يَرَى بِصَائِبِ رَأْيٍ مَاتَجِيءُ بِهِ الْأَ ... يَّامُ مِنْ قَبْلِمَا تَدْهَى دَوَاهِيهَا
وَكَانَ يَلْقَى صُرُوفَ الدَّهْرِ يَدْفَعُهَا ... بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ عَنْهُ وَيَتَّقِيهَا
وَكَانَ رَبَّ سَدَادٍ فِي الْأُمُورِ إِذَا ... مَاأَعْمَلَ الرَّأْيَ فِيهَا لَيْسَ يُخْطِيهَا
بِرَأْيِهِ عُمَرٌ أَمْضَى عَزِيمَتَهُ ... لِلْفَتْحِ وَالْغَزْوِ فَهْوَ الْحَقُّ مُمْضِيهَا
فَدَوَّخَ الشَّامَ مَعْ أَرْضِ الْعِرَاقِ وَطَا ... عَتْهُ الْأَهَالِي عُرَاقِيهَا وَشَامِيهَا
وَلَوْ أَصَاخَ إِلَى مَسَامِي نَصِيحَتِهِ ... عُثْمَانُ إِذْ رَاحَ بِالْإِخْلَاصِ يُسْدِيهَا

أن يبطش بهم بطشته المشهورة وما كان حلمه الا ليزيدهم شططاً

ولسيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله وتقات في الحلم كثيرة هذا القليل منها يغني عن تفصيل كثيرها وآخرها اعلانه رغبته الشريفة بالعفو عن الملعون الأثيم ابن ملجم ان شفيت جراحه على ماراًينا في خطابه عند ماجرح وذا والله فوق حوادث الحلم التي نعرفها بل هـذا رحمة من رحيم عليت نفسه عن نفوس العالمين

وقصارى القول أنّ سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله كان من الحلم على أعظم جانب بل ما كان في الناس أحلم منه وسوف لا يكون ولا عجب في ذلك فانه تربى على يدي سيد الحلماء سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام

(١) كان أمير المؤمنين عليه صلوات الله أسدّ الناس رأياً وأصحهم تدبيراً وأبعدهم نظراً في الامور يعرف في يومه ما يجيء به العد شأن الذكي الحازم العارف مما كان ماسيكون فما اخطأت فريسته ولا طاش في اصابة غرضه سهمه . وهو الذي اشار على عمر بن الخطاب بغزو الفرس والروم في العراق والشام بعد أن كان متردّداً بين الاقدام والاحجام فقويت بسديد رأي المرتضى عزيمته فجرّد جيوشه وفتح الامصار تلك الفتوحات الاسلامية العظيمة وايده فيها أحسن تأييد . ولا جدال أنّ عثمان بن عفان لو أصغى الى النصائح الرشيدة العلوية والاراء الصائبة الحيدرية لما قامت تلك الفتنة على عهده فكان أوّل ضحاياها ولما مني المسلمون بعدها بما منوا به من الشدائد التي لا يزال تأثيرها

لَمَّا تَفَاقَمَتِ ٱلْفَوْضَى وَلَا فُتِنَتْ ... فِيهَا ٱلْعِبَادُ فَأَمْسَى مِنْ أَضَاحِيهَا

نَعَمْ وَلَوْلَا نُصُوصُ ٱلشَّرْعِ يَحْفَظُهَا ... وَلَا يَهُونُ عَلَيْهِ أَنْ يُخَطِّيهَا

لَكَانَ أَدْهَى رِجَالَاتِ ٱلرِّئَاسَةِ فِي ٱلْإِسْلَامِ إِنْ تَنْشُدَ ٱلدُّنْيَا سِيَاسِيهَا

لٰكِنْ شَرِيعَةُ طَـٰهَ حَسْبَمَا نَزَلَتْ ... قَدْ قَيَّدَتْهُ بِأَحْكَامٍ يُجَرِّيهَا

فَعَابَهُ ٱلْقَوْمُ فِي تِلْكَ ٱلْقُيُودِ وَقَا ... لُوا أَخْطَأَ ٱلرَّايَ وَٱلتَّدْبِيرَ تَمْوِيهَا

أَجَابَ: لَوْلَا ٱلتُّقَى وَٱلدِّينُ كُنْتُ بِلَا ... شَكٍّ أَفُوقُ دُهَاةَ ٱلْعُرْبِ أُعْيِيهَا

أَجَلْ جَوَابُ عَلِيٍّ قَدْ أَصَابَ بِهِ ... كَبْدَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي اقْصَى مَخَابِيهَا

فَإِذْ أَبَتْ أَنْ تُوَاتِيَهُ صَحَابَتُهُ ... عَلَى هِدَايَتِهِ أَمْسَى مُجَافِيهَا

وَعَمْرُكَ ٱللهَ هَلْ يُرْضِي ٱلشَّرِيعَةَ مَنْ ... يَبْغِي رِضَا ٱلنَّاسِ يَرْجُو أَنْ يُرَاضِيهَا

وَهَلْ مَطَامِعُ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ يُنْفِذُهَا ... مَنْ يَتَّقِي بِحُدُودِ ٱلشَّرْعِ بَارِيهَا

وَهَلْ تَسَاوَى ٱلَّذِي يُمْضِي ٱلْأُمُورَ عَلَى ... نَصِّ ٱلشَّرِيعَةِ مَعْ مَنْ لَيْسَ يُمْضِيهَا

وَٱلنَّاسُ تَطْلُبُ دَوْماً مَنْ يُسَايِرُهَا ... عَلَى هَوَاهَا جِهَاراً أَوْ يُمَارِيهَا

كَلَّا وَحَاشَا فَلَا يَبْغِي أَبُو حَسَنٍ ... إِلَّا إِرَادَةَ بَارِيهِ فَيُمْضِيهَا

وَلَا يَبِيعُ بِدُنْيَاهُ وَزُخْرُفِهَا ... مَسَارِحَ ٱلْخُلْدِ مَعْ هَانِي مَغَانِيهَا

على العالم الاسلامي عظيماً الى هذا اليوم. ولقد شنع أعداؤه عليه صلوات الله به فقالوا انه كان فئل الرأي لنظرهم نظراً سطحياً الى ماقام في وجهه من المصاعب في سنوات خلافته القليلة ولـكن فات هؤلاء النظر الى الظروف التي احاطت به في خلافته والى حقيقة شخصه الاقدس ولو امعنوا النظر وتنزهوا عن الغرض لوجدوا أنّ المصاعب التي اعترضته وجعلت ايام خلافته ملأى بالقلاقل والفتن لم تكن من سوء تدبيره وقصر نظره في عواقب الامور بل لتمسكه باهداب الشرع وابائه بيع آخرته بدنياه في وقت كثر فيه طلاب الدنيا وعدم طلاب الآخرة وقد قال عليه صلوات الله لأمثالهم من جاهلي مبلغ سداد رأيه ودهائه « لولا الدين والتقى لـكنت أدهى العرب » وهو القول الحقّ الذي لايدانيه الباطل. ولعمري أنّ من كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه ويلائمه سواء طابق الشرع الشريف أو خالفه لابدّ أن تكون احواله الدنيوية أقرب الى الانتظام ممن لايخطو خطوة في سياسته وأحكامه الاّ اذا كان للشرع فيها رضى بينما نرى الناس يطلبون منافعهم ويسعون وراء مطامعهم ويعملون لدنياهم وهم غافلون عن آخرتهم . وعلى هذا فتكون المصاعب التي اعترضت سيدنا أمير المؤمنين في خلافته ناجمة عن تدينه وورعه واستمساكه باهداب الشريعة السمحاء لامن فساد رأيه وسوء تدبيره كما يشنع اعداؤه الاغرار الجهلاء

شدة أمير المؤمنين في سياسته

فِي ٱللهِ مَا كَانَ مَوْلاَنَا ٱلأَمِيرُ يُرَا … عِي ذَا طَمَاعِيَةٍ قَدْ رَاحَ بَاغِيهَا(١)

وَكَانَ فِيهِ شَدِيدَاً مَا لِشِدَّتِهِ … هَوْنٌ لِعِزَّةِ دِينِ ٱللهِ يُبْنِيهَا

فَكَانَ يَشْجُبُ مَنْ جَازَ ٱلشَّرِيعَةَ مِنْ … عُمَّالِهِ رَاقِبَاً شَتَّى مَآتِيهَا

سِيَّانِ مَنْ كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ عِتْرَتِهِ … أَوْ كَانَ فِي ٱلْعُرْبِ مِنْ أَسْمَى قُرَيْشِيهَا

حَتَّى أَخُوهُ عَقِيلٌ كَانَ جَابَهَهُ … لَمَّا أَتَاهُ بِأَطْمَاعٍ يُوَخِّيهَا

وَغَايَةُ ٱلْقَوْلِ مَا كَانَ ٱلإِمَامُ يُرَا … شِي ٱلنَّاسَ كَيْ يَتَّقِي قَاسِي تَعَادِيهَا

لَوْ كَانَ مَا تَرْتَجِيهِ مِنْ مَطَامِعِهَا … مِنَ ٱلْخِلاَفَةِ وَٱلإِسْلاَمِ يُعْطِيهَا

لَمَا تَكَلَّفَ فِي أَيَّامِ أَمْرَتِهِ … حَرْبَ ٱلرَّعَايَا وَلاَ تَأْدِيبَ عَاصِيهَا

وَلاَ ٱلزُّبَيْرُ عَصَا يَوْمَاً خِلاَفَتَهُ … كَلاَّ وَلاَ طَلْحَةٌ قَدْ رَاحَ آبِيهَا

كَلاَّ وَلاَ أُمُّ عَبْدِ ٱللهِ عَائِشَةٌ … لاَقَتْ عَلَى ٱلْحَرْبِ أَعْوَانَاً تُوَاتِيهَا

كَلاَّ وَلاَ ٱلشَّامُ عَاصَتْهُ بِطَمْعِهَا … وَقَدْ أَطَاعَتْ مُعَادِيهِ مُعَاوِيهَا

كَلاَّ وَلاَ عَمْرُو ٱبْنُ ٱلْعَاصِ جَاهَرَ بِالْـ … ـعِصْيَانِ يَرْجُو بِهِ مِصْرَاً وَيَبْغِيهَا

كَلاَّ وَلاَ خَرَجَتْ يَوْمَاً خَوَارِجُ ارْ … ضِ ٱلنَّهْرَوَانِ عَلَيْهِ فِي تَعَصِّيهَا

وَمَا حُرُوبُ عَلِيٍّ فِي خِلاَفَتِهِ … قَدْ يَسْتَحِيلُ وَلاَ يُرْجَى تَلاَفِيهَا

لَوْ أَنْ تَسَامَحَ فِي أَحْكَامِ خَالِقِهِ … مَعَ ٱلرَّعَايَا وَأَوْلاَهَا أَمَانِيهَا

وَإِنَّ حَيْدَرَةَ أَتْقَى وَأَقْدَسُ مِنْ … أَنْ يَسْتَمِيلَ ٱلرَّعَايَا أَوْ يُجَارِيهَا

بِمَا يُعَارِضُ أَحْكَامَ ٱلشَّرِيعَةِ جَهْـ … ـرَاً فِي أَوَامِرِهَا أَوْ فِي نَوَاهِيهَا

---

(١) كان أمير المؤمنين عليه صلوات الله شديداً في سياسته خشناً في تنفيذ احكام الله لم يراقب في ذلك غير الحق سبحانه وتعالى فانه لم يراقب في ذلك ابن عمه في عمل ولا اباه ولا أخاه في مطامعه التي ردّها بها . وتلك حروبه في الجمل وصفين والنهروان كلها كان في طوقه تلافيها من أهون الطرق لو راشي الناس وصانعها وواتاها على مطامعها واغضب الله في مرضاتها ولكنه كان أعظم تديناً واسمي تقىً وتورعاً أن يعمل ما يغضب الله ليرضي عباده وأشقى الناس من أغضب المولى وأرضى العبيد . وشدّته هذه هي التي صرف الناس عنه وحملتهم على التألب على عدائه فهم لم يطعنوا عليه بظلم ولا اتهموه بجريرة ولكنهم طلبوا منافعهم وملذاتهم واذ لم يجدوها عنده انصرف بعضهم الى عدائه وتراخى البعض عن نصرته ولله الامر من قبل ومن بعد

الراعي والرعية في نظر أمير المؤمنين

هٰذِي مَبَادِئ عَلِيٍّ فِي حُكُومَتِهِ إِنْ تُغْضِبِ النَّاسَ كَانَ اللهُ رَاضِيهَا(١)
وَسَنَّ سُنَّتَهُ فِيهَا لِتَتْبَعَهَا مِنْ بَعْدِهِ النَّاسُ عُجْمِيهَا وَعُرْبِيهَا
فَقَالَ صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ قَوْلَةَ حَـقٍّ وَالسَّعِيدُ الَّذِي قَدْ بَاتَ صَاغِيهَا
لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ كُلُّ الحُقُوقِ عَلَى عِبَادِهِ وَاجِبٌ فَرْضٌ تَقَاضِيهَا
وَخَصَّ بِالبَعْضِ مِنْهَا بَعْضَهَا وَبِبَعْـضٍ بَعْضَهَا حَيْثُمَا أَمْسَى مُجَزِّيهَا
قَضَى بِأَنْ تَتَكَافَا فِي الوُجُوهِ عَلَى جَمِيعِنَا وَدَعَانَا أَنْ نُرَاعِيهَا
وَلَيْسَ لِلبَعْضِ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ عَلَى الـعِبَادِ مُفْتَرَضاً مِنْ دُونِ بَاقِيهَا
وَإِنَّ أَعْظَمَ هَاتِيكَ الحُقُوقِ بِلَا رَيْبٍ وَأَفْضَلَهَا فِي عَيْنِ وَاعِيهَا
حَقُّ الرَّعَايَا عَلَى الوَالِي يُقَدِّسُهُ بِلَا تَرَاخٍ بِهِ كَيْمَا يُرَضِّيهَا
وَحَقُّهُ وَهْوَ مَفْرُوضٌ وَمُحْتَرَمٌ عَلَى رَعِيَّتِهِ مَادَامَ رَاعِيهَا
فَرِيضَةٌ قَدْ تَعَالَى اللهُ فَارِضُهَا عَلَى الجَمَاعَةِ قُلْ إِفْلَاحُهَا فِيهَا
وَاللهُ جَاعِلُهَا خَيْرَ النِّظَامِ لِأُلْـفَةِ الجَمَاعَةِ مَعْ زَاهِي تَآخِيهَا
وَإِنَّهَا سَبَبٌ أَسْمَى لِعِزَّةِ دِينِـهَا وَعِزَّتُهُ كُلٌّ يُؤَرِّخُهَا
وَفِي صَلَاحِ وُلَاةِ الأَمْرِ تَصْلُحُ أَشْـتَاتُ الرَّعِيَّةِ عَافِيهَا وَمُثْرِيهَا
وَفِي اسْتِقَامَةِ أَخْلَاقِ الرَّعِيَّةِ تَصْـلُحُ الوُلَاةُ الأُلَى لِلعَدْلِ تَبْغِيهَا
فَإِنْ تُؤَدِّي إِلَى الوَالِي الرَّعِيَّةُ حَقَّـهُ وَأَدَّى إِلَيْهَا الحَقَّ وَالِيهَا

(١) لقد أشرنا في الفصلين السابقين حيث نوهنا بدهاء سيدنا علي عليه صلوات الله وشدة في سياسته الى تلك الروح الطيبة الطاهرة التي ما كانت تعرف الا العدل باوسع معانيه حسبما يقضي الشرع الشريف ولقد وضع عليه صلوات الله اساساً وطيداً لحقوق الرعاة والرعية قال عليه صلوات الله : « ثم جعل سبحانه من حقوقه ، حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض ، فجعلها تتكافأ في وجوهها ، ويوجب بعضها بعضاً ، ولا يستوجب بعضها الا ببعض ، وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق ، حق الوالي على الرعية ، وحق الرعية على الوالي ، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل ، فجعلها نظاماً لالفتهم ، وعزاً لدينهم ، فليست تصلح الرعية الا بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة الا باستقامة الرعية ، فاذا أدت الرعية الى الوالي حقه ، وأدى الوالي اليها حقها ، عز الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت

قُلْ بَيْنَهَا ٱلْحَقُّ قَدْ عَزَّتْ جَوَانِبُهُ   فَمَا ٱلْأَبَاطِيلُ تَدْهَاهَا وَتُوهِنُهَا

وَقُلْ مَنَاهِجُ دِينِ ٱللهِ قَائِمَةٌ   عَلَى ٱلْهُدَى تُؤْمِنُ ٱلتَّضْلِيلَ وَٱلتِّيهَا

وَقُلْ قَدِ ٱعْتَدَلَتْ لِلنَّاسِ أَجْمَعِهَا   مَعَالِمُ ٱلْعَدْلِ فِي عَالِي مَبَانِيهَا

وَقُلْ جَرَتْ مِثْلَمَا يَرْجُو ٱلْحَكِيمُ عَلَى   إِذْلَالِهَا ٱلسُّنَنُ ٱلْمَحْمُودُ مُجْرِيهَا

بِذَاكَ يَصْلُحُ تَٱللهِ ٱلزَّمَانُ وَتَلْـــقَى ٱلنَّاسُ فِيهِ كَمَا تَرْجُو أَمَانِيهَا

نَعَمْ وَنَطْمَعُ فِي طُولِ ٱلْبَقَاءِ لِدَوْ   لَةٍ عَلَى مِثْلِ ذَا سَارَتْ أَهَالِيهَا

وَمِنْ تَضَعْضُعِهَا أَوْ مِنْ تَبَدُّدِهَا   أَوْ مِنْ تَدَهْوُرِهَا خَابَتْ أَعَادِيهَا

أَمَّا إِذَا غَلَبَ ٱلرَّاعِيْ رَعِيَّتُهُ   وَبَاتَ لُعْبَةَ هُزْءٍ بَيْنَ أَيْدِيهَا

أَوْ جَارَ وَالٍ فَلَمْ يُنْصِفْ رَعِيَّتَهُ   وَكَانَ مُرْهِقَهَا عَسْفاً وَمُؤْذِيهَا

فَقُلْ هُنَالِكَ آرَاءٌ مُبَعْثَرَةٌ   وَيَسْتَحِيلُ عَلَى هَدْيٍ تَجَمُّعُهَا

وَٱلْجَوْرُ قَدْ ظَهَرَتْ شَتَّى مَعَالِمُهُ   فِي ٱلنَّاسِ كَيْمَا تُعَانِيهِ وَيُشْقِيهَا

وَٱلدِّينُ قَدْ كَثُرَ ٱلْإِدْغَالُ سَيِّئُهُ   فِيهِ فَأَوْلَاهُ بَعْدَ ٱلْحُسْنِ تَشْوِيهَا

كَذَاكَ فَٱلسُّنَنُ ٱلْغَرَّا مَذَاهِبُهَا   لَا شَكَّ مُهْمَلَةٌ مَا مَنْ يُخَطِّيهَا

وَبِٱلْهَوَى تُعْمَلُ ٱلْأَعْمَالُ أَجْمَعُهَا   حَتَّى تَسُوءَ وَلَمْ تَصْلُحْ لِأَهْلِيهَا

وَقَدْ تَعَطَّلَتِ ٱلْأَحْكَامُ وَٱنْدَرَسَتْ   فَلَسْتَ تُلْفِي حَصِيفَ ٱلرَّأْيِ يُجْرِيهَا

وَفِي ٱلنُّفُوسِ تَفَشَّتْ جَهْرَةً عِلَلٌ   قَتَّالَةٌ ذُو ٱلْحِجَى يَخْشَى تَفَشِّيهَا

فَإِنْ تَعَطَّلَ حَقٌّ أَوْ تَأَيَّدَ بُطْـــلٌ لَيْسَ يُوحِشُهَا هٰذَا وَيُشْجِيهَا

وَٱلذُّلُّ وَٱلْقَهْرُ لِلْأَبْرَارِ يَصْحَبُهَا   وَٱلْعِزُّ وَٱلْمَجْدُ لِلْأَشْرَارِ يُمْهِيهَا

معالم العدل ، وجرت على اذلالها السنن ، فصلح بذلك الزمان ، وطمع في بقاء الدولة ، ويئست مطامع الاعداء ، واذا غلبت الرعية واليها ، وأجحف الوالي برعيته ، اختلفت هنالك الكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وكثر الادغال في الدين ، وتركت محاجّ السنن ، فعمل بالهوى ، وعطلت الاحكام ، وكثرت علل النفوس ، فلا يستوحش لعظيم حقّ عطل ، ولا لعظيم باطل فعل ، فهنالك يذلّ الابرار ، ويعزّ الاشرار ، وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد ، فعليكم بالتناصح في ذلك ، وحسن التعاون عليه ، فليس احد وان اشتدّ على رضاء الله حرصه ، وطال في العمل اجتهاده ، ببالغ حقيقة ما الله سبحانه أهله من الطاعة له ، ولكن من واجب حقوق الله سبحانه على عباده النصيحة بمبلغ

وَبَعْدَ ذَا تَبِعَاتُ ٱللهِ تَعْظُمُ عِنْـ   ـدَ ٱلنَّاسِ وَهِيَ ٱلَّتِي بِٱلشَّرِّ تَجْنِيهَا
تَنَاصَحُوا يَا عِبَادَ ٱللهِ أَجْمَعَكُمْ   فِي ذَاكَ دَعْوَى يُرِيدُ ٱلْخَيْرَ دَاعِيهَا
وَإِنَّنِي أَبْتَغِي مِنْكُمْ مُعَاوَنَةً   حَسْنًا عَلَى ٱلْحَقِّ يَلْقَى ٱلْأَجْرَ آتِيهَا
وَمَا ٱجْتَهَدْتُمْ بِأَعْمَالِ ٱلْبَرَارَةِ وَٱلـ   ـتَّقْوَى بِخَيْرِ فِعَالٍ لَا خَطَا فِيهَا
وَمَا حَرِصْتُمْ عَلَى رِضْوَانِ رَبِّكُمُ   بِأَنْفُسٍ تَتَّقِي إِغْضَابَ بَارِيهَا
فَلَيْسَ يَبْلُغُ مِنْكُمْ حَقَّ طَاعَةِ رَ   بِّ ٱلْعَرْشِ حَتَّى بِتَقْوَاهُ يُؤَدِّيهَا
لَـٰكِنْ عَلَى ٱلنَّاسِ مِنْ حَقِّ ٱلْمُهَيْمِنِ أَنْ   تُبْدِي ٱلنَّصِيحَةَ عَفْوًا لَا تُخَبِّيهَا
وَأَنْ تُقِيمَ حُقُوقَ ٱللهِ أَجْمَعَهَا   عَلَى ٱلتَّعَاوُنِ فِي أَسْمَى مَبَادِيهَا
وَلَا ٱمْرُؤٌ مَا عَلَتْ فِي ٱلدِّينِ رُتْبَتُهُ   وَفِي ٱلْفَضِيلَةِ تُسْمِيهِ وَيُسْمِيهَا
بِفَوْقِ أَنْ يَتَلَقَّى مِنْ صَحَابَتِهِ   مَعُونَةً وَهِيَ بِٱلْإِخْلَاصِ تُسْدِيهَا
كَيْمَا يَقُومُ بِمَا ٱلرَّحْمٰنُ حَمَّلَهُ   مِنْ حَقِّهِ فِي ٱلرَّعَايَا وَهُوَ حَامِيهَا
وَلَا ٱمْرُؤٌ مَا دَنَتْ فِي ٱلْجَاهِ رُتْبَتُهُ   وَكَانَ فِي ٱلنَّاسِ مِنْ أَدْنَى أَدَانِيهَا
بِدُونِ أَنْ يَبْذُلَ ٱلْعَوْنَ ٱلْجَمِيلَ وَأَنْ   يُعَانَ تِلْكَ حُقُوقُ ٱللهِ يَقْضِيهَا
ذَا رَأْيُ حَيْدَرَةٍ بَلْ ذَا عَدَالَةُ شَرْ   عِ ٱللهِ حَيْدَرَةٌ قَدْ رَاحَ يُبْدِيهَا
أَيَّامَ كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْأَرْضِ آلِهَةً   وَنَاسُهَا مَا تَعَالَتْ عَنْ مَوَاشِيهَا
وَلَمْ تَكُنْ مِنْ حُقُوقٍ لِلرَّعِيَّةِ تَرْ   عَاهَا ٱلْمُلُوكُ وَتَرْضَاهَا وَتَدْرِيهَا
فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَعْطَى ٱلشُّعُوبَ حُقُو   قَهَا وَقَيَّدَ تَقْيِيدًا مَوَالِيهَا
وَمَا أُرْبَةٌ فِي ذَا ٱلْعَهْدِ نَازِلَةٌ   إِلَّا عَلَى حُكْمِهِ وَهُوَ ٱلْمُقَوِّيهَا
فَإِنْ نُؤَرِّخْ شُورَاهَا نَقُولُ عَلِـ   ـيٌّ ٱلْمُرْتَضَى دُونَ شَكٍّ كَانَ مُنْشِيهَا

جهدهم ، والتعاون على اقامة الحقّ بينهم ، وليس امرؤ وان عظمت في الحق منزلته ، وتقدمت في الدين فضيلته ، بفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه ، ولا امرؤ وان صغرته النفوس ، واقتحمته العيون ، بدون ان يعين على ذلك ، أو يعان عليه » آه

أقول ولو طلب اليوم من أبلغ بلغاء أوروبا وأخطب خطبائهم أن يجمل ناموس العمران والاجتماع والشورى وارتباط الناس بعضهم ببعض وحكامهم بمحكوميهم لعجزوا عن الاتيان بمثل خطبة

سخاء أمير المؤمنين

أَبْهَى وَأَزْهَى سَجَايَا ٱلْعُرْبِ أَجْمَعِهَا … سَخَاؤُهَا وَٱلسَّخَا اسْمَى مَبَادِيهَا (١)

فَإِنْ تَجِدْ عَرَبِيّاً لَيْسَ ذَا كَرَمٍ … فَقُلْ دَخِيلٌ عَلَيْهَا مِنْ مَوَالِيهَا

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ أَسْخَى ٱلْعُرْبِ أَفْضَلَهَا … جُوداً إِذَا ذُكِرَتْ بِٱلْحَمْدِ جَادِيهَا

لَوْ أَنَّ فِي يَدِهِ ٱلسُّحْبَا حَشَاشَتَهُ … لَرَاحَ لِلنَّاسِ أَيْمُ ٱللهِ يُعْطِيهَا

كَمْ بَاتَ جَوْعَانَ مَطْوِيَّ ٱلْحَشَا تَعِباً … وَقَدْ أَتَتْهُ جِيَاعُ ٱلنَّاسِ يَقْرِيهَا

فَلِلْأَيَامَى وَلِلْأَيْتَامِ كَانَ غِذَا … هُ وَٱلْأَسَارَى بِحُبِّ ٱللهِ يَغْذِيهَا

« وَيُطْعِمُونَ » بِحَقٍّ فِيهِ قَدْ نَزَلَتْ … تُثْنِي عَلَيْهِ فَيَاسُبْحَانَ مُوحِيهَا

وَكَانَ يَوْماً لَدَى عُلْيَاهُ أَرْبَعَةٌ … مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ بِٱلْأَوْصَابِ جَانِيهَا

بِوَاحِدٍ جَادَ لَيْلاً ثُمَّ جَادَ بِثَا … نٍ فِي ٱلنَّهَارِ سَمُوحَ ٱلنَّفْسِ سَاخِيهَا

وَقَدْ تَصَدَّقَ عَنْ تَقْوَى بِثَالِثِهَا … سِرّاً وَرَابِعُهَا أَعْطَاهُ تَجْرِيهَا

فِي ذَاكَ قَدْ نَزَلَتْ بِٱلْحَقِّ آيَةُ « يُنْـــفِقُونَ » وَهِيَ ٱلَّتِي جِبْرِيلُ مُلْقِيهَا

بِمُهْجَتِي ٱلْمُرْتَضَى أَفْدِي وَقَدْ مَجُلَتْ … يَدَاهُ مِنْ أَرْضِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقِيهَا

أمير المؤمنين هذه وبأرق من مباديها وبأوق من أغراضها بصرف النظر عن بلاغة التعبير التي هي من مميزاته عليه صلوات الله حتى قيل بحق ان كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق . ولعمري أنّ هذه الشورى التي تمشت عليها أوروبا في هذا الزمن فبلغت بها سؤددها المشهور ما هي الا من بعض منشآت أمير المؤمنين وموضوعات القرآن المبين الذي انزله الله سبحانه على سيد المرسلين

(١) انّ السخاء سجية خلقية في العرب والكرم شيمة طبيعية في نفوسهم والسماحة من مميزاتهم التي لا يدانيهم بها غيرهم من الناس فاذا وجدت عربياً بخيلاً شحيحاً فاحكم على البداهة انه ليس من العرب بل دخيل عليهم . وعلى هذا فالسخاء الذي يقول الحكماء انه يخفي العيوب ويستعبد القلوب ليس بالامر الغريب ان يتصف به سيدنا أمير المؤمنين وهو والمصطفى صفوة قريش وأعرق الناس شرفاً وسؤدداً بين الناطقين بالضاد عليهما الصلاة والسلام . وأجمع رواة التاريخ انّ المرتضى عليه صلوات الله كان أسخى أسخياء العرب واسمحهم نفساً وأوفرهم جوداً حتى ليجود على عفاته بنفسه لو وجد اليها سبيلاً . فلا غرو والحالة هذه اذا قالوا انّ نفسه الشريفة لم تغرّ بالمال قطّ ولا صبت اليه ولا عرفت له قيمة وانه لقد صدق يوم قال « ان دنياكم عندي كعفطة عنز »

وما اشتهر سيدنا أمير المؤمنين بالسخاء عند ما تدفقت خيرات الله على المسلمين بعد ان نصر الله سبحانه دينه وتمّ لعباده ذلك الفتح العظيم فكان له مثل غيره من وجوه المسلمين النصيب الوافي من الفيء ولا بعد ان أصبح خليفة المسلمين وباتت مفاتيح خزائن بيت المال في قبضته الكريمة بل

وَكَانَ يُؤْثِرُ أَرْبَاحاً يُحَصِّلُهَا ... بِكَدِّهِ وَهُوَ جَوْعَانٌ يُبَاعِنُهَا
وَإِنَّمَا ٱلْجُودُ أَنْ يَشْقَى ٱلْفَتَى وَبِمَا ... لَدَيْهِ يَلْقَى مِنَ ٱلْأَتْرَابِ عَافِيَهَا
لَا ٱلْجُودُ أَنْ يَبْذِلَ ٱلْإِنْسَانُ فَضْلَةَ أَمْـ ... ـوَالٍ لَدَيْهِ بِلَا نَفْعٍ مُخَبِّيهَا
كَذَاكَ كَانَ سَخَاءُ ٱلْمُرْتَضَى وَعَطَا ... يَاهُ ٱلْقَلِيلَةُ بِٱلْأَوْصَابِ يَجْنِيهَا
أَيَّامَ كَانَتْ جَمَاعَاتُ ٱلرَّسُولِ عَلَى ... خَصَاصَةٍ بِرِضَى ٱلْبَارِي تُعَانِيهَا
وَٱلْمُرْتَضَى لَمْ يَقُلْ يَوْماً لِسَائِلِهِ ... لَا إِنَّ لَفْظَةَ لَا مَا كَانَ يَدْرِيهَا
وَلَمْ يُخَيِّبْ رِغَاباً لَا تُخَالِفُ شَرْ ... عَ ٱللهِ أَوْ سُنَّةَ ٱلْهَادِي لِرَاجِيهَا
وَذَا مُعَاوِيَةٌ وَهُوَ ٱلْعَدُوُّ أَتَا ... هُ مُحْفَنٌ لَهْجَةَ ٱلتَّمْلِيقِ يُبْدِيهَا
فَقَالَ : يَاصَاحِبِي مِنْ عِنْدِ أَبْخَلِ أَهْـ ... ـلِ ٱلْأَرْضِ جِئْتُكَ بِٱلْآمَالِ أُزْجِيهَا
فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ قَدْ وَافَيْتَ مُرْتَبِعِي ... أَجَابَ : مِنْ كُوفَةٍ مِنْ عِنْدِ عَالِيهَا
فَقَالَ: وَيْحَكَ تَرْمِي ٱلْمُرْتَضَى بِصِفَا ... تِ ٱلشُّحِّ حَاشَاهُ حَاشَا أَنْ يُدَانِيهَا
لَوْ كَانَ يَمْلِكُ بَيْتاً مِلْؤُهُ ذَهَبٌ ... وَمِثْبَناً وَٱنْجَلَى فِي ٱلنَّاسِ يُجْدِيهَا
لَأَنْفَذَ ٱلتِّبْرَ قَبْلَ ٱلتِّبْنِ تَبْذِلُهُ ... يُمْنَاهُ بِرّاً وَإِحْسَاناً لِجَادِيهَا

قبل ذلك يوم كان مترباً فقيراً على خصاصة يومئذ كان يصوم ويطوى ويؤثر بزاده المساكين فأرضي باحسانه ربَّ العالمين فأنزل فيه قوله عزَّ وجلَّ « ويطعمون الطعام على حبه ، مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، وانما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً » ولعمري أنَّ من شهد الله سبحانه له بالسخاء بهذه الآية الكريمة لهو السخيُّ المحسان

وكان سيدنا علي في صدر الهجرة يشتغل بعرق جبينه لينفق على نفسه وزوجه فاطمة الزهراء عليهما وعلى المصطفى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام فتوفر له يوماً من ربحه الحلال أربعة دراهم فتصدَّق بأحدها نهارا والثاني ليلاً وبالثالث سرَّاً وبالرابع جهرةً فرضي الله عن هذا الاحسان الكثير احسان الرجل بكل ما جنى بعرق جبهته وانزل فيه آية « الذين ينفقون بالليل والنهار سرَّاً وعلانيةً » ولعمر الحقّ انَّ هذا الاحسان لا يعادله احسان

وكان سيدنا علي عليه صلوات الله يسقي نخيل رجل من اليهود في المدينة المنوَّرة حتى مجلت يده وكان يتصدَّق بما يكسب ويشدّ على بطنه حجراً من الجوع وهذا فوق الكرم والسخاء

وروى الثقاة ان سيدنا أمير المؤمنين ذكر يوماً في مجلس التميمي فقال هذا فيه « كان على الخلق الذي يحبه الله السخاء والجود ما قال لسائل (لا) قط وهذا معروف مشهور يعرفه ويعترف به كلُّ من وقفوا على سيرة أبي الحسنين سواءٌ كانوا من محبيه أو مبغضيه

وهذا معاوية وهو عدو المرتضى اللدود كان معجباً بسخاء أمير المؤمنين عليه صلوات الله

وَهِيَ ٱلشَّهَادَةُ مِنْ مَرْءٍ عَدَاوَتُهُ ... لِلْمُرْتَضَى لَمْ يَكُنْ يَوْماً يُدَارِيهَا
فَمَا تَقُولُ وَنَحْنُ ٱلأَصْدِقَاءُ بِهِ ... وَبِالأَيَادِي ٱلَّتِي قَدْ كَانَ يُسْدِيهَا
وَهُوَ ٱلْمُكَنِّسُ بَيْتَ ٱلْمَالِ مُفْرِغَهُ ... عَلَى ٱلْعُفَاةِ ٱلأُلَى ٱلأَقْدَارُ تُشْقِيهَا
يَقُولُ: مَا غَرَّتِ ٱلْبَيْضَاءُ مِثْلِي وَٱلْـ ... ـصَّفْرَاءُ كَلَّا وَلَا أَرْضَى تَصَبِّيهَا
وَحَسْبُهُ لَمْ يُخَلِّفْ مِنْ خِلَافَتِهِ ... لِأَهْلِهِ مِنْ مَوَارِيثٍ تُرَجِّيهَا
نَعَمْ أَبُو حَسَنٍ مَا كَانَ يَبْذُلُ أَمْـ ... ـوَالَ ٱلْخِلَافَةِ لِلأَعْوَانِ يَرْشِيهَا
وَلَمْ يُنِلْ رُؤَسَاءَ ٱلنَّاسِ رَغْبَتَهَا ... فَيَظْلُمُ ٱلْفُقَرَا ظُلْماً وَيُغْنِيهَا
لٰكِنَّهُ كَانَ يَلْقَى بِٱلْمَوَاهِبِ أَرْ ... بَابَ ٱلْخَصَاصَةِ يَبْغِي وَجْهَ بَارِيهَا
وَهُوَ ٱلَّذِي مَلَكَ ٱلدُّنْيَا بِرَاحَتِهِ ... وَلَمْ يَغُرَّ فَأَبْقَاهَا لِأَهْلِيهَا
وَٱلْمَالُ عَارِيَةٌ فِي جَيْبِ خَازِنِهِ ... لِكَيْ يُوَرِّثَهُ ٱلأَعْقَابَ يُهْنِيهَا
فَإِنْ وَفَى مِنْهُ حَقَّ ٱللهِ سَارَ إِلَى ٱلْـ ... ـخُلُودِ بِٱلصَّفَحَاتِ ٱلْبِيضِ يُسْنِيهَا
وَإِنَّ صَفْحَةَ مَوْلَانَا أَبِي حَسَنٍ ... بَيْضَاءُ أَزْهَى مَجَالِي بِرِّهِ فِيهَا

فقد حدَّث المحدِّثون أنَّ محفن ابن أبي محفن الضي جاء يوماً متملقاً وهو أمير الشام فسأله من أين أنت قادم يا محفن ؟ قال ويريد ان يتملقه : من الكوفة من عند أبخل الناس . فجبهه معاوية قائلاً : ويحك كيف تقول عن علي أبخل الناس وهو الذي لو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لانفد تبره قبل تبنه فخجل محفن وصمت واجماً . ولعمري انَّ شهادة معاوية لسيدنا علي بالسخاء هي الحجة الكبرى لما تعلم ما كان يضمره في نفسه له من العداء والفضل ماشهدت به الاعداء

ولقد ذكرنا فيما مرَّ معنا في هذه العلوية المباركة وحواشيها أنَّ سيدنا علي عليه صلوات الله كان في كل يوم جمعة بعد الصلاة يوزع على المساكين ما في بيت مال المسلمين من ذهب ولجين ثم يكنس البيت ويصلي فيه لربه ويقول : يا صفراء ويا بيضاء غرِّي غيري

وقد تربع سيدنا أمير المؤمنين على دست الخلافة وأصبح خراجها يأتيه من كل صوب وحدب ومع ذلك كان ينفق على نفسه وعياله الكفاف ولم يرض ان يختصَّ بشيء من المال يتركه لاولاده من بعده بل كان جميع حقه الشرعي من الفيء ينفقه على المعوزين والمساكين لوجه الله الكريم

على انه عليه صلوات الله كان يحسن بهذا الكرم العجيب في حالتي يسره وعسره ولكن لوجه الله تعالى لا يريد من وراء احسانه جزاء ولا شكوراً ولا يرمي به الى مصلحة دنيوية خلافاً لغيره من الذين كان احسانهم تجارة يرمون بها الى تكثير اعوانهم وتوفير دواعي القوة بهم للتغلب على الخلافة مما رأينا نتائجه فيما تقدم من هذه العلوية المباركة وهي الاكثار من أعداء سيدنا علي من طلاب الدنيا وتراخي أصحابه عن نصرة الله ورسوله وشريعته تحت رايته العليا

فصاحة أمير المؤمنين وبلاغته

إِنَّ ٱلْفَصَاحَةَ مَادَانَتْ لِذِي لَسَنٍ   مِنَ ٱلْبَرِيَّةِ عُرْبِنِهَا وَعُجْمِيهَا (١)
كَمَا ٱنْثَنَتْ بِبَهَاهَاوَهِيَ خَاضِعَةٌ   لِلْمُرْتَضَى ٱلْسِنِ ٱلْقَوَّالِ رَاعِيهَا
كَأَنَّهَا خُلِقَتْ خُلْقَاً لَهُ وَكَأَ   نَّهُ مِنَ ٱلْعَدَمِ ٱلْمَجْهُولِ مُبْدِيهَا
قَدْ بَذَّ كُلَّ فَصِيحٍ قَبْلَهُ عُرِفَتْ   آثَارُ آدَابِهِ وَٱلنَّاسُ تَرْوِيهَا
وَلَمْ يَدَعْ بَعْدَهُ سُبْلاً لِمُطَّلِبٍ   سَبْقَاً بِمِضْمَارِهَا إِنْ رَامَ يَمْشِيهَا
لَمْ يُبْقِ ذِكْرَاً لِقُسٍّ وَهُوَ أَفْصَحُ مِلْـ   ـسَانٍ وَلَا خُطَبٍ قَدْ كَانَ يُلْقِيهَا
نَعَمْ فَصَاحَتُهُ مَا مَنْ يُقَارِبُهُ   فِيهَا وَحَسْبِي عَلِيٌّ كَانَ يُنْشِيهَا
وَإِنَّهُ دُونَ رَيْبٍ سَيِّدُ ٱلْفُصَحَا   ءِ ٱلنَّاثِرِينَ مِنَ ٱلْأَقْوَالِ دُرِّيهَا
وَإِنَّهَا فَوْقَ أَقْوَالِ ٱلْبَرِيَّةِ طُـ   ـرَّاً إِنَّمَا دُونَ مَا قَدْ قَالَ بَارِيهَا
وَهِيَ ٱلَّتِي تَسْحَرُ ٱلْأَلْبَابَ مَاتُلِيَتْ   سِحْرَاً حَلَالاً يُغَشِّي نَفْسَ تَالِيهَا
هِيَ ٱلشَّمُولُ بِأَلْبَابِ ٱلْوَرَى لَعِبَتْ   لِعْبَ ٱلشَّمُولِ بِلَا إِثْمٍ لِسَاقِيهَا

---

(١) لا جدال أنّ سيدنا علي أمير المؤمنين عليه صلوات الله هو امام الفصحاء واستاذ البلغاء وأعظم من خطب وكتب في عرف أهل هذه الصناعة الالبّاء وهذا كلامه عليه صلوات الله قد قيل فيه بحق انه فوق كلام الخلق وتحت كلام الخالق قال هذا كل من عرف فنون الكتابة واشتغل في صناعة التحبير والتحرير بل هو استاذ الكتاب العرب ومعلمهم بلا مراء فما من أديب لبيب حاول اتقان صناعة التحرير الا وبين يديه القرآن ونهج البلاغة ذاك كلام الخالق وهذا كلام أشرف المخلوقين وعليهما يعوّل في التحرير والتحبير اذا أراد ان يكون في معاشر الكتبة المجيدين. ولعلّ أفضل من خدم لغة قريش الشريف الرضي الذي جمع خطب وأقوال وحكم ورسائل سيدنا أمير المؤمنين من أفواه الناس واماليهم وأصاب كلّ الاصابة باطلاقه عليه اسم « نهج البلاغة » وما هذا الكتاب الا صراطها المستقيم لمن يحاول الوصول اليها من معاشر المتأدبين ولعلّ أحسن وصف قرأته لنهج البلاغة قول الاستاذ الكبير الفيلسوف الشيخ محمد عبده المصري رحمه الله فقد وصف ما كان يشعر به وهو بين يدي تلك الدرر الحسان المزرية بعقود الجمان قال « كان يخيل لي في كل مقام ، انّ حروباً شبت ، وغارات شنّت ، وانّ للبلاغة دولة ، وللفصاحة صولة ، وانّ للاوهام عرامة ، وللريب دعارة ، وانّ جحافل الخطابة ، وكتائب الذرابة ، في عقود النظام ، وصفوف الانتظام ، تنافح بالصفيح الابلج ، والقويم الاملج ، وتتلج المهج ، برواضع الحجج ، فتفلّ دعارة الوساوس ، وتصيب مقاتل الخوانس ، فما أنا الا والحقّ منتصر ، والباطل منكسر ، ومرج الشكّ في خمود ، وهرج الريب في ركود ، وانّ مدبّر تلك الدولة ، وباسل تلك الصولة ، هو حامل لوائها الغالب ،

عُقُودُ دُرٍّ لِجِيدِ ٱلشَّرْعِ قَدْ نُظِمَتْ　　فَهَا كَهُ قَدْ تَحَلَّى مِنْ لآلِيهَا
فِي حُسْنِهَا جُلِيَتْ مِثْلَ ٱلْعَرَائِسِ فِي　　حِلِيِّهَا تَبْهَرُ ٱلدُّنْيَا مَجَالِيهَا
أَضْحَتْ تِلَاوَتُهَا وَٱللهِ مُطْرِبَةَ ٱلْأَ　　مْسَمَاعِ مَا نَغَمَاتُ ٱلطَّيْرِ تَحْكِيهَا
فَمَنْ تَلَاهَا تَلَاهَى عَنْ فَرَائِضِهِ　　إِنْسَاً بِهَا نَاسِيَ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
ضَمَّتْ مَوَاعِظَهُ ٱلْغَرَّاوَحِكْمَتَهُ ٱلْكُبْرَى　　وَأَخْلَاقَهُ ٱلزَّهْرَا فَحَاوِيهَا
وَجَاءَ فِيهَا بِأَحْكَامٍ تُوَضِّحُ آ　　يَاتِ ٱلْكِتَابِ عَلَى مَاشَاءَ مُوحِيهَا
وَكَانَ يَكْسُو مَعَانِيهِ ٱلسَّنِيَّةَ أَلْفَاظاً　　تَلِيقُ بِهَا أَعْظِمْ بِكَاسِيهَا
وَكَانَ يُرْسِلُهَا عَفْوَاً بِلَا تَعَبٍ　　عَلَى ٱلْمَنَابِرِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُشْجِيهَا
كَذَا رَسَائِلُهُ ٱلْغَرَّاءُ كَانَ بِلَا　　تَكَلُّفٍ بِدَرَارِيهِ يُوَشِّيهَا
ظَلَّتْ وَحَقِّكَ كَنْزاً لَانَفَادَ لَهُ　　مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ لِلْأَعْرَابِ يُغْنِيهَا
مِنْهَا تَعَلَّمَتِ ٱلنَّاسُ ٱلْفَصَاحَةَ لَـكِنْ　　أَعْجَزَتْ كُلَّ مَنْ يَبْغِي تَحَدِّيهَا
بِذَلِكَ ٱعْتَرَفَتْ أَهْلُ ٱلصِّنَاعَةِ بِٱلْإِ　　جْمَاعِ مُصْدِرَةً فِيهِ فَتَاوِيهَا
وَعَمْرُكَ ٱللهَ هَلْ أَجْلَى وَأَفْصَحُ مِنْ　　أَقْوَالِ حَيْدَرَةٍ أَوْ مِنْ مَعَانِيهَا

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، بل كنت كلما انتقلت من موضع الى موضع ، أحسّ بتغير المشاهد ، وتحوّل الماهد ، فتارةً كنت أجدني في عالم تعمره من المعاني أرواحٌ عالية ، في حلل من العبارات زاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ، وتدنو من القلوب الصافية ، توحي اليها رشادها ، وتقدّم منها مرادها ، وتنفر بها عن مداحض المزال ، الى جواد الفضل والكمال ، وطوراً كانت تنكشف لي الجمل ، عن وجوه باسرة ، وأنياب كاشرة ، وأرواح في أشباح النمور ، ومخالب النسور ، قد تحفزت للوثاب ، ثمّ انقضّت للاختلاب ، فخلبت القلوب على هواها ، وأخذت الخواطر دون مرماها ، واغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء ، واحياناً كنت اشهد ، أنّ عقلاً نورانياً ، لايشبه خلقاً جسدانياً ، فصل عن الموكب الالهي ، واتصل بالروح الانساني ، فخلعه على غاشيات الطبيعة ، وسما به الى الملكوت الأعلى ، ونما به الى مشهد النور الأجلى ، وسكن به الى عمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس ، وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ، باعلياء الكلمة ، وأولياء أمر الامة ، يعرّفهم مواقع الصواب ، ويبصرهم مواضع الارتياب ، ويحذرهم مزالق الاضطراب ، ويرشدهم الى دقائق السياسة ، ويهديهم طرق الكياسة ، ويرتفع بهم الى منصات الرئاسة ، ويصعدهم شرف التدبير ، ويشرف بهم على حسن المصير » اه هذا مارآه الاستاذ الامام رحمه الله وما شعر به وهو مجدٌّ في درس نهج البلاغة سائر اليها فلاعجب اذا فاز منها بالنصيب الأعلى فكان أفصح من كتب في المتأخرين وقد قال لي رحمه الله مرةً اذا رمت ان تكون كاتباً فخذ

فِيْ كُلِّ مَا نَظَمَتْ أَوْ كُلِّ مَا نَثَرَتْ   اهلُ الزَّكَانَةِ فِيْ شَتَّى أَمَالِيْهَا
لَوْلَا التُّقَى قُلْتُ آيَاتٌ مُنَسَّقَةٌ   فِيْهَا الْهِدَايَةُ أَوْ تَجْرِيْ مَجَارِيْهَا
وَذِيْ كِتَابَتُهُ «نَهْجُ الْبَلَاغَةِ» فِيْ   سُطُوْرِهَا وَبِهِ هَدْيٌ لِقَارِيْهَا
وَحَسْبُنَا مَا رَأَيْنَا لِلصَّحَابَةِ آ   ثَاراً تُحَاكِيْ الَّذِيْ أَبْقَاهُ عَالِيْهَا
وَهُمْ لَقَدْ وَرَدُوْا مَعَهُ مَنَاهِلَ دِيْـــنِ اللهِ وَالْمُصْطَفَى قَدْ كَانَ مُجْرِيْهَا
فَإِنْ تَقُلْ غَيْرَ هَيَّابٍ فَصَاحَتُهُ   لِلنَّاسِ مُعْجِزَةٌ لَمْ تَلْقَ تَسْفِيْهَا
وَذَاتُ يَوْمٍ أَتَى مَثْوَى مُعَاوِيَةٍ   لِجِدْيَةٍ مَحْفَنٌ قَدْ كَانَ يَبْغِيْهَا
فَقَالَ: مِنْ عِنْدِ أَعْيَى النَّاسِ جِئْتُكَ يَا   رَبَّ الْفَصَاحَةِ أَنْشِدْنِيْ مَثَانِيْهَا
فَقَالَ: وَيْحَكَ تَرْمِيْ بِالْفَهَاهَةِ وَالْإِ   مَ عَيَاءَ حَيْدَرَةَ كِذْباً وَتَمْوِيْهَا
وَلَمْ يَسُنَّ قَوَانِيْنَ الْفَصَاحَةِ إِلَّا   مَ هُ لِأُمَّتِنَا حَتَّى قُرَيْشِيْهَا
وَتِلْكَ قَوْلَةُ حَقٍّ مِنْهُ قَدْ بَدَرَتْ   عَفْواً بِمَجْلِسِهِ مَا اسْطَاعَ يَزْوِيْهَا
وَالْفَضْلُ لِلْمَرْءِ مَا أَعْدَاؤُهُ شَهِدَتْ   لَهُ بِهِ وَرَوَتْهُ فِيْ نَوَادِيْهَا

الامام أمير المؤمنين عليه صلوات الله استاذاً واتخذ أقواله الدرية في ظلمات ليلك نبراساً . وذكر مرةً لي المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي اكتب كتاب العرب وامام أساتذة اللغة فيهم في العهد الأخير بالاجماع قال « ما اتقنت الكتابة الا بدرس القرآن العظيم ونهج البلاغة القويم فهما كنز العربية الذي لا ينفد وذخيرتها للمتأدب وهيهات أن يظفر أديب بحاجته من هذه اللغة الشريفة ان لم يحي لياليه سهراً في مطالعتهما والتبحر في عالي أساليبهما » وهذا ما نقوله هنا لمن يريد ان يكون كاتباً بلغة الاعراب أو متفوقاً في مواقف الجدل والخطاب

ومع هذا فاننا نشير هنا الى شهادة معاوية بن أبي سفيان عدو سيدنا أمير المؤمنين واقراره الصريح بتفوقه عليه صلوات الله في هذه الصناعة والفضل ما شهدت به الاعداء وبه قل لمحفن الذي وافاه متملقاً فقال جئتك من عند اعيى الناس كما سبق وقال له جئتك من عند أبخل الناس فجبهه معاوية قائلاً ويحك كيف يكون عليّ اعيى الناس فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره وهذا حسب.

وفي هذه المناسبة يخلق بنا أن نشير الى مايتداوله الناس من القصائد الحكمية المنسوبة الى سيدنا علي عليه صلوات الله وأجمع المؤرخون على انها ليست للامام بل نسبها اليه ناظموها ربما عن تقى وربما عن اقتباس . ولهؤلاء حجج كثيرة منها انّ ما يتداوله الناس من الاشعار المنسوبة للا ماهي من البلاغة بمنزلة المعهود من أقواله الشريفة ومنها انّ الشريف الرضي لم يذكر في نهج ال شيئاً من شعره ولا ذكر مع حرصه على كل ما ينسب لامير المؤمنين انّ له شيئاً من ال على هذا الرأي والله أعلم

زهد أمير المؤمنين

قِفِي لَدَى سَيِّدِ الزُّهَّادِ وَاعْتَبِرِي   يَانَفْسُ آثَارَهُ فِي الزُّهْدِ وَاقْفِيهَا(١)

فَمَنْ تَكُونِينَ فِي جَنْبِ الإِمَامِ وَقَدْ   شُمْنَاهُ مُتْرِكَ الدُّنْيَا لِأَهْلِيهَا

فَإِنَّهُ مَا امْتَلَا مِنْ مَطْعَمٍ أَبَداً   وَطَالَمَا بَاتَ طَاوِيَ النَّفْسِ خَاوِيهَا

وَكَانَ مَأْكَلُهُ خَشْناً وَمَلْبَسُهُ   مَا بَيْنَ صَحْبٍ قَضَوْا الأَعْمَارَ تَرْفِيهَا

وَقَدْ تَدَثَّرَ ثَوْباً كُلُّهُ رِقَعٌ   جُلُودُهَا خِيطَتْ فِي جَنْبِ لِيفِيهَا

وَإِنْ رَأَى كُمَّهُ طَالَتْ عَلَى يَدِهِ   يَقُصُّهَا كَارِهاً مِنْهَا تَدَلِّيهَا

وَيَغْتَذِي بِبُقُولِ الأَرْضِ مُتْرِكاً   مِنَ المَآكِلِ لِلنُّهَّامِ شَاهِيهَا

وَقَلَّمَا أَكَلَ اللَّحْمَ الشَّهِيَّ وَأَلْـ   ـبَانَ النِّيَاقِ إِذَا مَا فَاضَ رَاغِيهَا

يَقُولُ: لَا تَجْعَلُوا هٰذِي البُطُونَ قُبُو   راً لِلْمَوَاشِي تُوَارِيهَا مَخَابِيهَا

فَانْظُرْ لِمَلِكٍ بِلَادُ اللهِ فِي يَدِهِ   وَكَانَ يَرْضَى بِنَبْتٍ مِنْ بَرَارِيهَا

وَإِنَّ خَيْرَاتِهَا تُجْبَى إِلَيْهِ وَلَا   تَنَالُهَا غَيْرُ أَيْدِي مُسْتَحِقِّيهَا

أَللهُ أَكْبَرُ فِي المِفْضَالِ حَيْدَرَةٍ   وَفِي فَضَائِلِهِ وَالزُّهْدُ مُحْلِيهَا

يَعْرَى وَيَطْوَى وَيُكْفِي فِي مَكَارِمِهِ   أَهْلَ الخَصَاصَةِ طَاوِيهَا وَعَارِيهَا

وَمَنْ تَزَهَّدَ وَالأَمْوَالُ فَائِضَةٌ   عَلَيْهِ مِثْلَ مِيَاهِ السَّيْلِ جَارِيهَا

أَسْمَى وَأَفْضَلُ مِنْ زُهْدِ المُقِلِّ عَلَى   خَصَاصَةٍ وَهْوَ يَعْيَا عَنْ تَحَصِّيهَا

هٰذَا هُوَ الزُّهْدُ زُهْدُ القَانِتِ الوَرِعِ الـ   ـتَّاقِي الَّذِي يَقْصِدُ الجَنَّاتِ يَبْغِيهَا

هٰذَا وَصِيُّ رَسُولِ اللهِ وَارِثُ آ   لَاءِ النُّبُوَّةِ فِي أَسْنَى تَلَالِيهَا

عَلَيْهِمَا صَلَوَاتُ اللهِ خَالِدَةٌ   تُتْلَى مَدَى الدَّهْرِ وَالرَّحْمٰنُ رَاضِيهَا

---

(١) انّ من أحلى صفات أمير المؤمنين عليه صلوات الله زهده ويعجز القلم وتضيق الصحف عن استيعاب أنباء زهده التي طالما أشرنا اليها في هذه القصيدة المباركة فلا غرو اذا قلنا انه سيد الزهاد وبدل الابدال واليه تشدّ الرحال وعنده تنفضّ الاحلاس فانه ما شبع من طعام قط وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً. قال عبدالله بن أبي رافع دخلت على عليّ يوم عيد فقدم له جراب مختوم فوجدنا فيه خبز شعير يابساً مرضوضاً فأكل منه الـكفاف وختمه واعاده فقلت يا أمير المؤمنين لماذا

وصف أمير المؤمنين لزهده

وَذَاتِ يَوْمٍ دَعَا فِي بَصْرَةٍ رَجُلٌ ⁂ إِلَى وَلِيمَتِهِ بِالصِّنْوِ وَالِبْنِهَا (١)

فَمَا تَأَخَّرَ عَنْهَا وَهُوَ مُطَّلِبٌ ⁂ أَشْهَى وَأَطْيَبَ مَا يَطْهُوهُ طَاهِيهَا

وَقَدْ دَرَى ٱلْمُرْتَضَى بِالأَمْرِ أَكْبَرَ فِيهِ تَرِفَةً ⁂ لاَ يَصُونُ ٱلْعَدْلَ نَافِيهَا

فَبَادَرَ ٱلْعَامِلَ ٱلْمَدْعُوَّ يَرْدَعُهُ ⁂ عَنْ مِثْلِهَا رَاغِباً أَنْ لاَ يُثَنِّيهَا

وَقَدْ أَرَادَ بِأَنْ تُمْسِيَ رِسَالَتُهُ ⁂ أُمْثُولَةً يَسْتَفِيدُ ٱلرُّشْدَ قَارِيهَا

فَقَالَ : يَا ٱبْنَ حَنِيفٍ قَدْ عَرَفْتُ وَلِيمَةً ⁂ دُعِيتَ إِلَيْهَا أُضْتُ دَارِيهَا

أَقَامَهَا ذُو ثَرَاءٍ مِنْ أَكَارِمِ بَصْرَةٍ ⁂ فَكُنْتَ بِلاَ بُطْءٍ مُوَافِيهَا

إِلَيْكَ قَدْ نُقِلَتْ فِيهَا ٱلْجِفَانُ وَإِنَّكَ ⁂ ٱسْتَطَبْتَ مِنَ ٱلأَلْوَانِ شَاهِيهَا

إِخَالُهَا بُسِطَتْ وَٱلنَّاسُ دَائِرَةٌ ⁂ حِيَالَهَا بَيْنَ جَاثِيهَا وَمُقْعِيهَا

تختمه قال أخاف من هذين الولدين ان يلتاه سمن أو زيت اه أقول وقد كان ثوبه مرقوعاً بجلد تارةً وبليف أخرى وكان نعلاه من ليف وكان يلبس الكرباس الغليظ فاذا وجد كمه طويلاً قطعها بسكين ولم يخطها فكانت لا تزال متساقطةً على ذراعه حتى تبقى سدىً لا لحمة له . وكان يأتدم اذا ائتدم بخل أو بملح فان زاد على ذلك فبعض نبات الارض واذا اسرف فبقليل من لبن الابل وما كان يأكل اللحم الا قليلاً ويقول « لا تجعلوا قلوبكم مقابر الحيوان » وكان مع ذلك أشدّ الناس قوةً واعظمهم يداً فلا أنقص الجوع قوّته ولا خوّر الاقلال عزمه وهو الذي طلق الدنيا فلم يعبأ بخيراتها مع انّ الاموال كانت تجبى اليه من جميع بلاد الاسلام الا من الشام التي كان مغتصبها معاوية

(١) خليق بنا هنا ان نظم احدى رسائل أمير المؤمنين عليه صلوات الله وقد وصف فيها زهده أحسن وصف وهذه الرسالة العصماء أرسلها الى عثمان بن حنيف عامله على البصرة وقد بلغه انه دعي الى وليمة قوم من أهلها فمضى اليها قال :

« أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني انّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة فأسرعت اليها ، تستطاب لك الالوان ، وتنقل اليك الجفان ، وما ظننت انك تجيب الى طعام قوم ، عائلهم مجفوّ ، وغنيهم مدعو ، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم ، فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه ، ألا وانّ لكلّ مأموم اماماً يقتدي به ، ويستضيء بنور علمه ، ألا وانّ امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ، ومن طعامه بقرصيه ، ألا وانكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد ، وعفة وسداد ، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً ، ولا حزت من أرضها شبراً ، ولا اخذت منها الا كقوت أتان دبرة ، ولهيَ في عيني أوهى وأهون من عفصة مرّة » اه

ويخلق بنا عند ذكر هذه الرسالة الكريمة التي سطرها أمير المؤمنين عظةً للحكام والناس

خرَّتْ لِأذْقَانِهَا تَبْغِي مُسَابقَةً فِي حَلْبَةٍ أَنتَ فِي ظَنِّي مُجَلِّيهَا
وَمَا عففتَ وَمَا أَهلُ ٱلعفَافِ يرُو دُوْنَ ٱلوَلَائِمِ حُبًّا فِيْ أَشَاهِيهَا
وَلَمْ تَخفْ تخمَةً تُوْدِيْ بِصَاحِبِهَا حذَارِ أَنْ تَكُ يَوْمًا مِنْ أَضَاحِيهَا
وَأَكْلَةٌ تُحرِمُ ٱلإِنسَانَ لَذَّتَهُ إِلَى زَمَانٍ خَلِيقٌ أَنْ تُجَافِيهَا
وَمَا ظَننتَ تُلَبِّي دَعْوَةً بَدَرَتْ مِنْ زُمْرَةٍ قَدْ تَمَادَتْ فِيْ مَلَاهِيهَا
تَدْعُوْ إِلَى زَادِهَا أَهلَ ٱليَسَارِ وَتَجْـفُوْ ٱلمُتْرِبِينَ وَلَا تَقْرِيْ عَوَافِيهَا
فَٱنظُرْ إِلَى مِقْضَمٍ أَمْسَيْتَ قَاضِمَهُ بِنَهْمَةٍ قَدْ يَكُوْنُ ٱلإِثمُ تَالِيهَا
فَمَا ٱشْتَبَهتَ بِهِ فَٱلْفِظْهُ صَاحِ وَنَلْ مَا كُنْتَ تُوْقِنُ فِيْهِ ٱلحَلُّ تَجْزِيهَا
وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلفَتَى ٱلمَأْمُومَ قِدْوَتُهُ إِمَامُهُ فِي خِطًى قَدْ رَاحَ خَاطِيهَا
وَيَسْتَضِيْءُ بِأَنْوَارٍ مُلَأْلِئَةٍ مِنْ عِلْمِهِ عَنْ هُدًى مَا ٱنفَكَّ يُسْنِيهَا
وَهَا إِمَامُكُمُ قَدْ رَاحَ مُكْتَفِيًا مِنَ ٱلثِّيَابِ ٱلَّتِيْ رَثَّتْ بِبَالِيهَا
وَبَاتَ مُقْتَنِعًا بِٱلْخُبْزِ يَأْكُلُ أَقْرَاصًا لَقَدْ يَبِسَتْ يَأْبَى يُطَرِّيهَا

أجمعين ان ننبه الى أمور نرى في التنبيه اليها دفاعاً عن حقّ أضاعه اكثر شارحي كتاب « نهج البلاغة » اذ ذهبوا في هذه الرسالة الى انه عليه صلوات الله أراد بها ذم أهل البصرة بقوله «عائلهم مجفو وغنيهم مدعو » والذي أراه ان الامير لم يردبهذا الذم عموم أهل البصرة ولكن زمرة معينة من أهلها كان صاحب الولمية واحداً منها وحاشى له على عدالته التي لا يختلف فيها اثنان ان يرمي البصريين كلهم بمساوي طائفة منهم لا يخلو من مثلها بلد من بلاد الدنيا كأنّ هذه الولمية قد أولمت قبل حرب الجمل فما من داع لذم البصريين أو بعضهم فيها وبهذا كفاية . وارجع الى الرسالة التي نحن بصددها فقد كتبها أمير المؤمنين عليه صلوات الله وهو في المدينة المنورة قبل ان يخرج منها لموقعة الجمل ودليلي على هذا هو ان عثمان بن حنيف الانصاري الذي كتبت له هذه الرسالة هو الذي كان عامل الامام على البصرة ولاه عليها عند خلافته ومنه استخلصها طلحة والزبير عند ما قدما البصرة بعائشة وجملها وكان استخلاصهما المدينة من يده قوةً وقهراً وعلى هذا لم يكن لامير المؤمنين ما يبعثه على ذم أهل البصرة كما تقدم

ومما يجدر بي قوله انّ ما هو منشور ومشهور من أقوال أمير المؤمنين عليه صلوات الله في ذمّ أهل البصرة في مختلف خطبه لم يكن موجهاً لعموم أهاليها كما يستفاد من اقوال اكثر شراح نهج البلاغة واني مع كل عارف بالنفس العلوية العالية من العدل والفضل انزهه عن تعميم الذم في كل البصريين وانما كان الذم مقتصراً على الطائفة التي عصت خلافته وانضمت الى أعدائها وهي خلافة شرعية لا عفو ولا غفران لمن عصى عليها وانكرها والثابت ان كثيرين من البصريين كانوا موالين لخلافته وكثيرين منهم نصروها بسيوفهم فكانت موقعة بينهم وبين أصحاب الجمل عند ما قدموا بلدهم

أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى هٰذَا وَفِيهِ مِنَ ٱلأَوْصَابِ قَاسِيهَا
لٰكِنْ أَعِينُوا بِتَقْوَاكُمْ إِمَامَكُمْ مَعُونَةً لَمْ أَزَلْ مِنْكُمْ أُرَجِّيهَا
وَبِالعَفَافِ وَبِالرَّأْيِ ٱلسَّدِيدِ وَبِالْـ جُهْدِ ٱلَّذِي يُبْلِغُ ٱلْخَيْرَاتِ بَاغِيهَا
وَإِنَّنِي وَٱسْمِ رَبِّي مَا كَنَزْتُ مِنَ ٱلْـ دُنْيَا ٱلْكُنُوزَ وَإِنِّي زَاهِدٌ فِيهَا
وَلاَ ٱدَّخَرْتُ لِنَفْسِي مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْرَاً وَلاَ حُزْتُ شِبْرَاً مِنْ أَرَاضِيهَا
وَلاَ طَلَبْتُ لِثَوْبِيْ فِي رَثَاثَتِهِ طِمْرَاً وَحَسْبِي ثِيَابُ ٱلطُّهْرِ كَاسِيهَا
وَمَا أَخَذْتُ مِنَ ٱلأَقْوَاتِ أَكْثَرَ مِنْ قُوتِ ٱلأَتَانِ ٱلَّتِي ٱلأَسْقَامُ تُوهِيهَا
وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ أَوْهَى وَأَهْوَنُ فِيْ عَيْنَيَّ مِنْ عَفْصَةٍ مُرٌّ تَعَاطِيهَا
هٰذِي نَصِيحَةُ مَوْلاَنَا أَبِي حَسَنٍ إِلَى ٱلتُّقَاةِ جَمِيعَاً كَانَ مُوفِيهَا
فَلاَ يُقِيمُ أَخُوْ جَاهٍ وَلاَئِمَهُ لِلأَغْنِيَاءِ وَأَهْلُ ٱلْفَقْرِ يُقْصِيهَا
وَكُلُّ مَنْ وَصَلَتْهُ دَعْوَةٌ لِوَلِيمَةٍ تَرَوَّى بِهَا ثُمَّ يُلَبِّيهَا
مَا كُلُّ دَعْوَةِ دَاعٍ تُسْتَجَابُ وَلاَ كُلُّ ٱلْمَآكِلِ تُغْذِي مُسْتَطِيبِيهَا

على ما هو صريح في التاريخ وكثيرون منهم اعتزلوا القتال وبعضهم جاهدوا جهاداً كبيراً في تسوية الخلاف ومنع القتال وحمل العصاة على الطاعة فكلّ هؤلاء لا يتناولهم الذمّ الموجه من أمير المؤمنين بحقّ الى الذين مالئوا اعداء خلافته ونصروهم من البصريين

وأرى في الرسالة التي نحن بصددها أنّ أمير المؤمنين عليه صلوات الله أراد فيها مطلق النصيحة فلم يحسب مؤاكلة عامله للناس جريمةً ولكن الذي أراده هو تنبيه خاصةً وتنبيه كلّ عامل على التعميم بل أهل العدل اجمعين ان يلفظوا ما اشتبه عليهم علمه وان ينالوا مما أيقنوا بطيب وجهه وان لا يواكلوا قوماً لا يقرون الجياع ويدعون الى موائدهم الاغنياء وفوق هذا اني أرجح أنّ أمير المؤمنين عليه صلوات الله قد أراد ايضاً ان يحظر على العمال قبول دعوات فئة الناس أي كرامهم مخافة ان تؤثر مثل هذه الولائم عليهم فلا يقيمون العدل في أحكامهم بين الناس والله أعلم

اما ترجمة عثمان بن حنيف بضمّ الحاء وفتح النون فهو ابن وهب بن العكم بن ثعلبة بن الحارث الانصاري ثمّ الاوسي أخو سهل بن حنيف ويكنى أبا عمرو وقيل أبا عبدالله صحب المصطفى عليه صلوات الله في مغازيه وولاه عمر بن الخطاب في خلافته مساحة الارض وجبايتها في العراق وضرب الخراج والجزية على أهلها ثمّ عزل في خلافة عثمان وما زال معزولاً حتى ولي أمير المؤمنين عليه صلوات الله الخلافة فولاه على البصرة وعندما وصلها طلحة والزبير باصحاب الجمل أخرجاه منها قهراً والظاهر انه مالأ أصحاب الجمل لان أمير المؤمنين بعد انتصاره عليهم وفي مدى خلافته لم يوله عملاً وبعد وفاته عليه صلوات الله قدم عثمان بن حنيف الكوفة وسكنها الا انه لم يعش طويلاً بعد ذلك فمات في أوائل خلافة معاوية

محاسن أخلاق امير المؤمنين

كَانَ ٱلأَمِيرُ عَلَى سَامِي مَكَانَتِهِ   مُجَمَّلاً بِٱلْخِلاَلِ ٱلزُّهْرِ حَالِيهَا (١)
فَمَا سِوَى ٱلْمُصْطَفَى تَاللهِ مِنْ بَشَرٍ   لَهُ شَمَائِلُهُ أَوْ مَا يُضَاهِيهَا
كَانَتْ بَشَاشَتُهُ فِي ٱلنَّاسِ دَائِمَةً   بِهَا يُقَابِلُ عَافِيهَا وَمُثْرِيهَا
وَكَانَ أَطْيَبَ أَهْلِ ٱلأَرْضِ أَجْمَعِهَا   سَرِيرَةً مَا طَوَتْ ضِغْناً مَطَاوِيهَا
وَكَانَ فِي أُمَّةِ ٱلْهَادِي كَوَاحِدِهَا   إِنْ أَمَّهَا فِي نَوَادِيهَا يُنَادِيهَا
فَمَا تَعَالَى وَلَيْسَ ٱلزَّهْوُ شِيمَتَهُ   عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ سُفْلِيهَا وَعُلْوِيهَا
وَلاَ تَرَفَّعَ عَنْ قَوْمٍ يُجَالِسُهَا   وَإِنْ تَكُنْ فِي ٱلرَّعَايَا مِنْ أَدَانِيهَا
وَكَانَ مَعْ صَحْبِهِ صَفْواً يُمَازِحُهَا   وَفِي خَلاَئِقِهِ ٱلسَّمْحَا يُصَافِيهَا
وَكَانَ يَخْدِمُهَا فِي بَيْتِهِ كَرَماً   بِنَفْسِهِ وَكُؤُوسُ ٱلصَّفْوِ يُسْقِيهَا
وَكَانَ يَلْقَى وُفُودَ ٱلنَّاسِ مُبْتَسِماً   لَهَا وَيُبْلِغُهَا أَسْنَى أَمَانِيهَا
وَكَانَ يَجْلِسُ فِي ٱلأَسْوَاقِ يَحْكُمُ بَيْـ   ـنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْعَدْلِ وَٱلأَحْكَامُ يُجْرِيهَا
وَكَانَ بِٱلْعَطْفِ يُجْرِي ٱلإِشْتِرَاكِيَةَ ٱلْـ   ـعُلْيَا ٱلَّتِي سَنَّهَا ٱلإِسْلاَمُ تَجْرِيهَا
فَكَانَ فِيهَا مِثَالاً صَادِقاً لِمُلُو   كِ ٱلأَرْضِ مَا تَبِعُوا سَامِي مَبَادِيهَا
وَغَايَةُ ٱلْقَوْلِ أَخْلاَقُ ٱلأَمِيرِ تَسَا   مَى فِي ٱلْمَحَاسِنِ بَادِيهَا وَخَافِيهَا
مَعْ ذَاكَ هَيْبَتُهُ كَانَتْ بِأَنْفُسِ أَهْـ   ـلِ ٱلأَرْضِ أَجْمَعِهَا وَٱلْكُلُّ خَاشِيهَا
وَإِنَّهَا هَيْبَةُ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي صَحِبَ ٱلـ   ـتَّقْوَى مَعَ ٱلْبِرِّ فِي أَسْنَى مَجَالِيهَا
وَذَاتِ يَوْمٍ تَلاَقَى مَعْ مُعَاوِيَةٍ   قَيْسٌ بِنَدْوَةِ صَفْوٍ كَانَ نَادِيهَا

---

(١) كان أمير المؤمنين عليه صلوات الله طلق المحيا رحب الصدر باش الثغر سمح النفس لين العريكة طاهر السريرة كثير التواضع وديعاً يجالس الناس على اختلاف مراتبهم ويعتني بصغيرهم قبل كبيرهم ويخدمهم بنفسه اذا كانوا في بيته وكان يجلس للناس في الاسواق فينصف مظلومهم من ظالمهم وبالاجمال انه كان المثال الاجلى للاشتراكية المحمودة التي بثها الاسلام بل خير مثال للملوك الديموقراطيين وقد رويت عن محاسن أخلاقه الروايات وضربت فيها الامثال مالو أردنا احصاءه لاحتجنا الى القول الكثير وحسبنا ما قاله فيه صعصعة بن صوحان قال « كان عليّ فينا كاحدنا لين جانب وشدة تواضع

وَٱلصفوُ جرَّهُمَا لِلْمُرْتَضَى وَحَوَا ... دِثِ ٱلْخِلَافَةِ جَارِيهَا وَمَاضِيهَا

فقَالَ فِيْ ٱلْمُرْتَضى هزءُ مُعَاوِيَةٌ : ... قَدْ كَانَ مَجْلِسُهُ يَمْلَاهُ تَفْكِيهَا

أَرَادَ فِيْ ذَاكَ أَنْ يَرْمِيْ ٱلْأَمِيرَ بِإِتْـــيَانِ ... ٱلدُّعَابَةِ فِيْ أَسْوَا مَسَاوِيهَا

فقَالَ قَيْسٌ كَذَا كَانَ ٱلرَّسُوْلُ بِمَزْ ... حِ ٱلْقَوْلِ يَلْقَى ذَوِيهِ فِيْ مَثَاوِيهَا

أَرَى تُسِرُّ لَهُ حَسْوَاً بِقَوْلِكَ فِيْ ٱرْ ... تِغَاءِ ٱظْهِرْ رِغَابَاً أَنْتَ تُخْفِيهَا

تُعِيبُ مَزْحَاً لَطِيفَاً فِيْ مَجَالِسِهِ ... يَلْقَى بِهِ صَحْبَهُ عَطْفَاً فَيُهْنِيهَا

فَمَعْ فُكَاهَتِهِ مَعْ أُنْسِ طَلْعَتِهِ ... مَا بَيْنَ أَصْحَابِهِ صَفْوَاً يُفَاهِيهَا

قَدْ كَانَ أَهْيَبَ مِنْ ذِيْ لِبْدَتَيْنِ عَلَى ... طَوَى وَفِيْ زُمْرَةِ ٱلْآسَادِ ضَارِيهَا

وَإِنَّهَا هَيْبَةُ ٱلتَّقْوَى وَلَيْسَ كَمَا ... تَهَابُكَ ٱلشَّامُ قَسْرَاً يَا مُعَاوِيهَا

منزلة أمير المؤمنين عند الناس

لِلْمُرْتَضَى رُتْبَةٌ بَعْدَ ٱلرَّسُوْلِ لَدَى ... أَهْلِ ٱلْيَقِيْنِ تَنَاهَتْ فِيْ تَعَالِيهَا(١)

ذُوْ ٱلْعِلْمِ يَعْرِفُهَا ذُوْ ٱلْعَدْلِ يَنْصِفُهَا ... ذُوْ ٱلْجَهْلِ يَسْرِفُهَا ذُوْ ٱلْكُفْرِ يَكْمِيهَا

وَإِنَّ فِيْ ذَاكَ إِجْمَاعَاً بِغَيْرِ خِلَا ... فٍ فِيْ ٱلْمَذَاهِبِ مَعْ شَتَّى مَنَاحِيهَا

وَإِنْ أَقَرَّ بِهَا ٱلْإِسْلَامُ لَا عَجَبٌ ... فَإِنَّهُ مِنْذُ بَدْءِ ٱلْوَحْيِ دَارِيهَا

وَإِنْ تُنَادِيْ جُمُوْعُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ بِهَا ... فَقَدْ وَعَتْ قَدْرَهَا مِنْ هَدْيِ هَادِيهَا

لٰكِنَّ مَا قَصُرَتْ قَصْرَاً تَجِلَّتُهَا ... عَلَى بَنِيْ ٱلدِّيْنِ مَعْ زَاهِيْ تَجَلِّيهَا

وسهولة قياد وكنا نهابه مهابة الاسير المربوط للسياف الواقف على رأسه » وقال معاوية لقيس ابن سعد يوماً رحم الله أبا الحسن فلقد كان هشاً بشاً ذا فكاهة فاجابه قيس نعم كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ويبسم الى أصحابه واراك تسرّ حسواً في ارتغاء وتريد ان تعيبه أما والله لقد كان مع فكاهته وطلاقته أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى تلك هيبة التقوى ليس كما يهابك طغاء أهل الشام يا معاوية فاخزوى هذا وسكت

(١) انّ الكلام في منزلة أمير المؤمنين بعد ان نوّه بها رسول الله عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام من باب تحصيل الحاصل أو اللغو دون المسلمين على اختلاف مذاهبهم يجمعون على انه أفضل فاضل في الاسلام بعد المصطفى لا بل هو صنوه في كل شيء الا النبوّة على انّ منزلة المرتضى العالية هذه لم تقتصر على المسلمين فعرفوها بل تعدتهم الى غير المسلمين فهوذا أهل الذمة وهم لا يقرّون بالنبوّة ولكنهم يحبونه ويحترمونه وهوذا الفلاسفة تعظمه وتبجل مقامه وتعجب بحكمته واكثرها معطلة أو جاحدة

بَلْ جَاوَزَتْهُمْ إِلَى ٱلْأَغْيَارِ فَٱنْصَرَفَتْ نُفُوسُهُمْ نَحْوَهَا بِٱلْحَمْدِ تُطْرِيهَا

وَذِي فَلَاسِفَةُ ٱلْجُحَّادِ مُعْجَبَةٌ بِهَا وَقَدْ أَكْبَرَتْ عُجْباً تَسَامِيهَا

وَرَدَّدَتْ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ مِدْحَتَهَا فِيهِ وَقَدْ صَدَقَتْ وَصْفاً وَتَشْبِيهَا

كَذَا ٱلنَّصَارَى بِحُبِّ ٱلْمُرْتَضَى شَغَفَتْ أَلْبَابُهَا وَشَدَتْ فِيهِ أَغَانِيهَا

فَلَسْتَ تَسْمَعُ مِنْهَا غَيْرَ مِدْحَتِهِ ٱلْـ ـغَرَّاءِ مَا ذَكَرَتْهُ فِي نَوَادِيهَا

فَٱرْجِعْ لِقُسَّانِهَا بَيْنَ ٱلْكَنَائِسِ مَعْ رُهْبَانِهَا وَهِيَ فِي ٱلْأَدْيَارِ تَأْوِيهَا

تَجِدْ مَحَبَّتَهُ بِٱلْإِحْتِرَامِ أَوَتْ نُفُوسَهَا وَلَهُ أَبْدَتْ تَصَبِّيهَا

وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلدَّيْلَمِ ٱلشُّجْعَانِ خَائِضَةِ ٱلْـ ـحُرُوبِ وَٱلتُّرْكِ فِي شَتَّى مَغَازِيهَا

تَلْفِ ٱسْتِعَاذَتَهَا بِٱلْمُرْتَضَى وَلَقَدْ زَانَتْ بِصُورَتِهِ ٱلْحَسْنَا مَوَاضِيهَا

وَآمَنَتْ أَنَّ تَرْصِيعَ ٱلسُّيُوفِ بِصُوْ رَةِ ٱلْوَصِيِّ يُنِيلُ ٱلنَّصْرَ مُنْضِيهَا

وَمَا أَقُولُ بِمَنْ تُنْمَى ٱلْأَنَامُ لَهُ تَرَى بِذَلِكَ تَمْجِيداً وَتَجْوِيهَا

وَتَنْتَمِي لِعُلَاهُ تَسْتَعِزُّ بِهِ وَتَسْأَلُ ٱللهَ فِيهِ أَنْ يُنَمِّيهَا

حَتَّى ٱلْفُتُوَّةُ تُنْمَى لِلْعَلِيِّ أَمِيـ ـرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى سَامِي مَرَامِيهَا

تَقُولُ : إِنَّ ٱلْفَتَى مَنْ لَا يَرَى حَسَناً مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ يَبْغِي أَنْ يُرَبِّيهَا

مَا كَانَ مُسْتَقْبَحاً مِنْ نَفْسِ صَاحِبِهِ مِنَ ٱلْخِلَالِ ٱلَّتِي سَاءَتْ مَسَاوِيهَا

وَقَدْ رَأَتْ مِنْ دَوَاعِي ٱلْفَخْرِ نِسْبَتَهَا إِلَى عَلِيٍّ ٱلْمُرْتَضَى مَا بَيْنَ أَهْلِيهَا

فَأَلَّفَتْ كُتُباً فِيهَا مُعَزَّزَةَ ٱلْإِ م سْنَادِ قَدْ عَنْعَنَتْهُ فِي حَوَاشِيهَا

وَٱسْتَشْهَدَتْ بِٱلَّذِي قَدْ قِيلَ فِي أُحُدٍ مِنَ ٱلسَّمَا وَعَلِيٌّ ٱلْقَرْمُ غَازِيهَا

لَا سَيْفَ إِلَّا ٱلَّذِي يَنْضِي ٱلْعَلِيُّ وَلَا فَتًى سِوَاهُ لَدَى ٱلْأَعْدَاءِ يُنْكِيهَا

وَقَدْ دَعَتْ سَيِّدَ ٱلْفِتْيَانِ حَيْدَرَةً وَإِنَّهُ سَيِّدُ ٱلدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا

وفوق هذا فان ملوك الترك والديلم قد صوروا على سيوفهم صورته الشريفة تعويذة لهم وطلباً للنصر باسمه الشريف وبركاته فقد كانت الصورة العلوية المباركة على سيف ركن الدولة وعلى سيف ابنه عضد الدولة وعلى سيف ألب أرسلان وعلى سيف ابنه ملكشاه وعلى سيوف غيرهم من الابطال الاتراك الكثيرين وقصارى القول ان المرتضى عليه صلوات الله له من الاجلال في النفوس ماحبب الى كل

محبو أمير المؤمنين ومبغضوه

رَوَتْ رُوَاةُ أَحَادِيثَ ٱلرَّسُوْلِ بِتَحْقِيقٍ حَدِيثاً صَحِيحاً فِي أَمَالِيهَا(١)
قَالَتْ: لَقَدْ قَالَ طَهَ فِي ٱلوَصِيِّ مَقَا لَةً صَدَاهَا دَوَى فِي أُذْنِ وَاعِيهَا
يُحِبُّكَ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلتَّاقِي وَيُبْغِضُكَ ٱلْمُنَافِقُ ٱلْمُظْهِرُ ٱلْإِيْمَانَ تَمْوِيهَا
وَقَدْ رَوَتْ بَعْدَ هٰذَا عَنْ صَحَابَتِهِ مَقَالَةً سَمِعَتْهَا مِنْ مَفَاهِيهَا
قَالَتْ: وَكُنَّا عَلَى عَهْدِ ٱلرَّسُوْلِ وَأَهْلُ ٱلشِّرْكِ تَنْطِقُ بِٱلْإِيْمَانِ مِنْ فِيهَا
بِبُغْضَةِ ٱلْمُرْتَضَى صِهْرِ ٱلرِّسَالَةِ نَعْرِفُ ٱلْمُنَافِقَ مَهْمَا رَاحَ يُخْفِيهَا
وَقَالَ حَيْدَرَةٌ وَٱلنَّاسُ مَا سَلِمَتْ مِنَ ٱلنِّفَاقِ وَلَمْ يَجْهَلْ خَوَافِيهَا
لَوْ أَنَّ وَجْهَ أَخِي ٱلْإِيْمَانِ أَضْرِبُهُ بِٱلسَّيْفِ مَا بَغْضَنِي قَدْ كَانَ رَاضِيهَا
وَلَوْ صَبَبْتُ عَلَى هَامِ ٱلْمُنَافِقِ دُنْيَاهُ لِحُبِّي أَبَاهُ وَهُوَ بَاغِيهَا
هٰذِي مَوَاثِيقُ رَبِّي كَانَ آخِذَهَا مِنَ ٱلْخَلَائِقِ لِي فَضْلاً وَمُعْطِيهَا

شهادة سيد المرسلين لأمير المؤمنين

وَطَالَمَا نَوَّهَ ٱلْهَادِي ٱلْأَمِينُ بِفَضْلِ ٱلْمُرْتَضَى بَيْنَ أَهْلِ ٱلدِّيْنِ تَنْوِيهَا(٢)
لَنَا بِهٰذَا أَحَادِيثٌ مُعَنْعَنَةٌ غَرَّاءُ ثَابِتَةٌ تَسْمُو مَعَانِيهَا

أحد ان يتكثر به وودّ كل أحد ان يتجمل ويتحسن بالانتساب اليه سواء كان مسلماً أو غير مسلم موحداً أومشركاً أو كافراً. حتى الفتوّة وأحسن مافيل في حدها « ان لاتستحسن من نفسك ماتستقبحه من غيرك » فان أصحابها نسبوا أنفسهم اليه وصنفوا في ذلك كتباً وجعلوا لذلك اسناداً انهوه اليه وقصروه عليه وعضدوا مذهبهم بالبيت المشهور الذي سمع من السماء في يوم أحد وعليّ يقاتل كفار قريش وينكل بهم « لاسيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي» وهم يدعونه عليه صلوات الله « سيد الفتيان »

(١) قد اتفقت الاخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدثين على انّ النبي قال لامير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام « لا يبغضك الا منافق ولا يحبك الا مؤمن » وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة قالوا « ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله الا ببغض علي بن أبي طالب » وقال أمير المؤمنين عليه صلوات الله « انّ الله عزّ وجلّ أخذ ميثاق كل مؤمن على حبي وميثاق كل منافق على بغضي فلو ضربت وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني ولو صببت الدنيا على المنافق ما احبني »

(٢) قال رسول الله مخاطباً أمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام « يا علي ، ان الله قد زينك

مِنْهَا حَدِيثٌ عَظِيمُ ٱلشَّأْنِ مُعْتَبَرٌ ... رَوَتْهُ أَصْحَابُ طٰـهَ فِي أَمَالِيهَا

قَالُوا لَقَدْ لَقِيَ ٱلْهَادِي الإِمَامَ بِيَوْ ... مٍ فِي تَبَارِيحِ أَكْدَارٍ يُعَانِيهَا

فَقَالَ : أَبْشِرْ عَلِيٌّ أَنَّ رَبَّكَ قَدْ ... أَعْطَاكَ أَفْضَلَ مَا ٱلْعُبْدَانُ مُعْطِيهَا

أَزَانَ شَخْصَكَ أَسْنَى مَا أَزَانَ بِهِ ٱلْـ ... ـعِبَادَ زِينَةَ بِرٍّ بَتَّ قَانِيهَا

فَلَسْتَ تَرْزَأُ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَلَا هِيَ تَرْ ... زَا مِنْكَ سَوَّاكَ رُشْدًا زَاهِدًا فِيهَا

حَبَاكَ نِعْمَةَ حُبِّ ٱلْمُعْوِزِينَ فَهُمْ ... رَعِيَّةٌ لَكَ قَدْ خَارَتْكَ رَاعِيهَا

طُوبَى لِمَنْ رَاحَ مَشْغُوفَ ٱلْفُؤَادِ بِآ ... لَاءِ حِسَانٍ لَقَدْ زَانَتْكَ يَرْوِيهَا

وَيْلٌ لِمُبْغِضِكَ ٱلرَّاوِي عَلَيْكَ أَكَا ... ذِيبَ ٱلْمَسَاوِي وَبَيْنَ ٱلنَّاسِ يُفْشِيهَا

لِلشَّيْخِ خَزْعَلٍ طُوبَى ٱلْمُصْطَفَى وَلَقَدْ ... أَمْسَتْ تُصَاحِبُ عَلْيَاهُ أَحَاظِيهَا

بِحُبِّهِ لِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ ... بَزَّ ٱلْمُحِبِّينَ تَوْلِيهَا وَتَدْلِيهَا

وَقَوْلِهِ ٱلصِّدْقَ فِي سَامِي فَضَائِلِهِ ... جَهْرًا فَيُشْجِي بِهِ شَجْوًا مُحِبِّيهَا

عجوز تصف أمير المؤمنين

حَجَّ ٱبْنُ حَرْبٍ لِيُبْدِيَ جَاهَ إِمْرَتِهِ ... مِنْ بَعْدِ مَا فَازَ فِي تَدْوِيخِ أَهْلِيهَا (١)

وَبَيْنَمَا هُوَ فِي أُمِّ ٱلْقُرَى ذَكَرُوا ... لَهُ كِنَانِيَّةً شَمْطَاءَ تَثْوِيهَا

قَالُوا لَهُ : إِنَّهَا تَقْلُوكَ مُعْلِنَةً ... هَوَى ٱلْوَصِيِّ بِهِ تُبْدِي تَحَجِّيهَا

فَقَالَ : هَيَّ ٱطْلُبُوهَا إِنَّنِي كَلِفٌ ... بِمِثْلِهَا أَتَمَنَّى أَنْ أُحَاجِيهَا

وَعِنْدَمَا مَثَلَتْ كُرْهًا بِحَضْرَتِهِ ... مَا هَابَتِ ٱلنَّظَرَاتِ ٱلشُّزْرَ يُلْقِيهَا

بزينة لم يزين العباد بزينة أحبّ اليه منها ، هي زينة الابرار عند الله تعالى ، الزهد في الدنيا ، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ، ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى بهم اتباعاً ، ويرضون بك اماماً ، فطوبى لمن احبك وصدق فيك وويل لمن أبغضك وكذب فيك » اه

(١) بعد ان استتب أمر الخلافة لمعاوية ببضع سنين طلب الحج حتى اذا ما بلغ مكة كرمها الله بلغه انّ امرأةً فيها من بني كنانة تسبه وقد اشتهرت بالبغض له فارسل بطلبها وعند ما مثلت بين يديه قال لها علامَ واليت علياً وعاديتني ؟ قالت لقد أحببت علياً على عدله في الرعية وقسمته الاموال بالسوية وعنايته بالمساكين واعطامه لامر الدين وعاديتك على قتالك من هو أولى بالولاية منك وطلبك ماليس لك بحق وسفكك الدماء وجورك في العرباء فقال وهل رأيت علياً وسمعت كلامه ؟ قالت لقد

نَادَى بِصَوْتٍ حَلِيمٍ بِالْعَجُوزِ : عَلَا ... مَ تَشْهَرِينَ عَلِيَّ الْحَرْبَ تَجْنِيهَا

عَلَامَ بِاللهِ وَالَيْتِ الْعَلِيَّ مُوَا ... لَاةً سَمِعْتُ صِحَابِيْ عَنْكِ تَرْوِيهَا

قَالَتْ بِلَا وَجَلٍ : أَحْبَبْتُ حَيْدَرَةً ... لِمَأْثُرَاتٍ حِسَانٍ كَانَ آتِيَهَا

فَكَانَ يَعْدِلُ فِي الْأَحْكَامِ يُنْفِذُهَا ... عَلَى رَعَايَاهُ عُلْوِيهَا وَسُفْلِيهَا

وَكَانَ يَقْسِمُ مَالَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ... جُمُوعِهِمْ وَبِهِ قِسْطًا يُسَاوِيهَا

وَكَانَ يَعْنَى بِأَهْلِ الْفَقْرِ يَرْحَمُهُمْ ... وَبِالْأَيَامَى وَبِالْأَيْتَامِ يَكْفِيهَا

وَكَانَ يُعْظِمُ أَمْرَ الدِّينِ مُتَّقِيًا ... وَرَايَةُ الشَّرْعِ بِالْإِجْلَالِ يُزِينُهَا

وَقَدْ قَلَوْتُكَ إِذْ قَاتَلْتَ مَنْ هُوَ أَوْ ... لَى بِالْإِمَامَةِ مِنْ شَتَّى مُرِيدِيهَا

وَقَدْ سَفَكْتَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ بِلَا ... حَقٍّ بِمَجْزَرَةٍ عَمَّتْ مَسَاوِيهَا

وَجُرْتَ فِي الْحُكْمِ لَمْ تُنْصِفْ بِهِ أَحَدًا ... مِنَ الرَّعِيَّةِ عُجْمِيهَا وَعُرْبِيهَا

فَقَالَ : هَلْ أَنْتِ شَاهَدْتِ الْعَلِيَّ عِيَا ... نًا هَلْ شَهِدْتِ لَهُ الْأَحْكَامَ يُجْرِيهَا

وَهَلْ سَمِعْتِ عَلِيًّا فِي مَجَالِسِهِ ... مَا بَيْنَ أَصْحَابِهِ يَوْمًا يُنَادِيهَا

قَالَتْ : رَأَيْتُ عَلِيًّا وَالْخِلَافَةُ لَمْ ... تَفْتِنْهُ عَنْ دِينِهِ مُذْ بَاتَ حَامِيهَا

كَلَّا وَلَا أَبْطَرَتْهُ نِعْمَةٌ وُجِدَتْ ... لَهُ وَلَمْ تُلْهِهِ لَهْوًا مَلَاهِيهَا

كَذَا خِطَابَتُهُ كَانَتْ وَحَقِّكَ تَجْ ... لُو عَنْ صُدُورِ الْأُلَى أَصْغَوْا دَوَاعِيهَا

فَكَانَ يَنْثُرُ مِنْ فَوْقِ الْمَنَابِرِ مِنْ ... دُرَرِ الْمَوَاعِظِ وَالْآدَابِ غَالِيهَا

وَعَى ابْنُ حَرْبٍ بَيَانَاتِ الْعَجُوزِ وَلَمْ ... يَغْضَبْ وَكَانَ وَحَقِّ اللهِ يَدْرِيهَا

وَقَالَ : هَلْ لَكِ عِنْدِي حَاجَةٌ فَأَنَا ... ذَا الْيَوْمَ حِلْمًا وَفَضْلًا صِرْتُ أَقْضِيهَا

كنت رأيته فاذا الملك الذي فتنك لم يفتنه والنعمة التي شغلتك لم تشغله وكان كلامه يجلو الهموم عن القلوب فوالله ما علا المنبر الا وكان ينثر على الناس درر المواعظ والآداب فقال معاوية وهو يكظم غيظه وهل لك من حاجة ؟ قالت نعم أريد مئة ناقة فيها فحلها وراعيها لاغذي الصغار واستحيي الكبار بالبانها قال وهل احلّ عندك محل علي ان اعطيتك ذلك ؟ قالت ماء ولا كصدّاء « هذا مثل عربي يراد به اثبات الجودة للواحد مع انحطاطه عن رتبة الآخر » فتجلد معاوية مخفياً غضبه وأمر لها بما طلبت كفاً لها عن سبه وان أعلنت انها تأبى حبه والجفاوة به وأنشد

قَالَتْ : مُعَاوِيَ إِنِّي أَبْتَغِي مِئَةً ۝ مِنَ ٱلنِّيَاقِ لَهَا فَحْلٌ وَرَاعِيهَا
أُغْذِي بِأَلْبَانِهَا وُلْدِي ٱلصِّغَارَ وَأَسْـ ۝ ـتَحْيِي ٱلْكِبَارَ وَأُغْنَى مِنْ ذَرَارِيهَا
فَقَالَ : عِنْدَكِ هَلْ لِي أَنْ أَحُلَّ مَحَـ ۝ ـلَّ ٱلْمُرْتَضَى يَا تُرَى إِنْ رُحْتُ أُعْطِيهَا
قَالَتْ بِجُرْأَتِهَا : مَا لَا وَلَيْسَ كَصَدَّ ۝ اءٍ وَمَا رَهِبَتْ فِي ذَا مُفَاهِيهَا
فَقَالَ فِي ٱلْحَالِ : اعْطِيكِ ٱلنِّيَاقَ وَلَمْ ۝ يُزِدْ وَغَيْظَتُهُ قَدْ آضَ يُخْفِيهَا
وَقَالَ : هَيْهَاتَ أَنْ تَلْقَى ٱلْأَعَارِبُ حِلْـ ۝ ـمًا مِثْلَ حِلْمِيَ مِنْ مَلْكٍ يُرَاضِيهَا
خُذِي ٱلنِّيَاقَ وَلَا تَنْسِي صَنِيعَ فَتًى ۝ بِٱلسِّلْمِ ذَاتَ ٱلْعِدَا وَٱلْبُغْضِ يُصْفِيهَا
أَمَا وَحَقِّكِ لَوْ كَانَ ٱلْعَلِيُّ لَمَا ۝ أَلْفَيْتِهِ مَا أَطَلْتِ ٱلْقَوْلَ مُعْطِيهَا
فَقَهْقَهَتْ وَأَجَابَتْهُ : وَلَا وَبَرَا ۝ تٌ مِنْ نِيَاقِ عِبَادِ ٱللهِ يُولِيهَا
وَهَرْوَلَتْ بِعَطَاهُ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ ۝ مِنْهُ وَفِي نَفْسِهِ مِنْ ذَاكَ مَا فِيهَا

نصائح أمير المؤمنين لابن الحسن

نَصَائِحِي لِبُنَيَّ ٱلنَّاشِيءِ ٱلْحَسَنِ ٱلْـ ۝ ـزَّاكِي بِرَحْمَةِ رَبِّي رُحْتُ أُسْدِيهَا (١)
فَمِنْ أَبٍ زَاهِدِ ٱلدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ۝ إِلَى ٱلْفَتَى ٱلْعَاشِقِ ٱلدُّنْيَا مُوَافِيهَا
وَمِنْ مُسَاكِنِ مَوْتَى فِي دِيَارِتِهَا ۝ حِينًا وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ يُخَلِّيهَا
إِلَى غَرِيمِ ٱلْمَنَايَا وَهُوَ وَارِثُ مَوْ ۝ تَاهَا حَلِيفِ هُمُومٍ غَيْرِ نَاجِيهَا

اذا لم اكن يوماً حليماً عليكمُ ۝ فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجدٍ ۝ جزاك على حرب العداوة بالسلم

واردف قائلاً اما والله لو كان علي لما اعطاك منها شيئاً فقالت وهي ضاحكة لا والله ولا وبرة من مال المسلمين وانصرفت وفي قلب معاوية ما فيه

(١) هذه نصائح سيدنا أمير المؤمنين كتبها السيدنا الحسن على ما قال الشريف الرضي وهو في موقعة صفين وفي رأيي انه كتبها له يوم ولادته أو بعد ذلك بقليل فانه جعل مطلعها الى فتى غرّ لا يزال في مقتبل العمر مع انّ سيدنا الحسن كان في موقعة صفين في الثالثة والثلاثين من عمره وهاك هي :

من الوالد الفاني ، المقرّ للزمان ، المدبر العمر ، المستسلم للدهر ، الذامّ للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، الظاعن عنها غداً ، الى المولود المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد هلك ، غرض الاسقام ، ورهينة الايام ، ورمية المصائب ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايا ، وأسير الموت ، وحليف الهموم ، وقرين الاحزان ، ونصب الآفات ، وصريع الشهوات ، وخليفة الاموات :

وَبَعْدُ يَا ٱبْنِي دُنْيَايَ لَمُدْبِرَةٌ   عَنِّي وَإِنِّي لَا أَرْجُو تَبَقِّيهَا (١)

وَإِنَّ آخِرَتِي حَتْماً لَمُقْبِلَةٌ   عَلَيَّ إِنِّي بِلَا رَيْبٍ مُوَافِيهَا

وَإِنَّ لِي شَاغِلاً عَمَّنْ سِوَايَ بِنَفْـــسِي إِنَّنِي لِلِقَا رَبِّي أُهَيِّيهَا

لٰكِنْ رَأَيْتُكَ بَعْضِي مَا يَضُرُّكَ يُؤْ   لِينِي ٱلْمَضَرَّةَ أَبْعِدْ أَنْ أُحَاشِيهَا

لِذَا عَنَانِيَ مِنْ إِصْلَاحِ نَفْسِكَ مَا   مِنْ أَمْرِ نَفْسِيَ يُعْنِينِي لِأُهْنِيهَا

فَجِئْتُ أُسْدِيكَ نُصْحاً تَسْتَضِيءُ بِهِ   إِذَا لَيَالِيكَ قَدْ أَدْجَتْ دَيَاجِيهَا

سِيَّانِ إِنْ ظِلْتُ حَيّاً فِي جِوَارِكَ أَوْ   رَحَلْتُ عَنْكَ إِلَى ٱلْجَنَّاتِ أَثْوِيهَا

أُوصِيكَ يَا حَسَنِي أَنْ تَتَّقِي أَبَداً   بَارِيكَ تُقْيَةَ بَرِّ ٱلنَّفْسِ نَاقِيهَا (٢)

وَأَنْ تُلَازِمَ مَا تَحْيَا أَوَامِرَهُ ٱلْــــغَرَّا   وَتَحْذَرَ أَفْعَالاً تُنَافِيهَا

وَأَنْ تُعَمِّرَ تَعْمِيرَاً بِذِكْرِكَهُ ٱلْــــنَّفْسَ ٱلَّتِي هُوَ مُحْيِيهَا وَمُفْنِيهَا

وَأَنْ تُمَوِّتَهَا بِٱلزُّهْدِ تَأْلَفُهُ   وَبِٱلْمَوَاعِظِ وَٱلْإِرْشَادِ تُحْيِيهَا

وَحَذِّرِ ٱلنَّفْسَ مِنْ غَدْرِ ٱلزَّمَانِ وَمِنْ   صُرُوفِهِ عَلَّهَا بِٱلْحَزْمِ تَتْقِيهَا

وَعُدَّهَا لِلْمَنَايَا فَهْيَ مُسْرِعَةٌ   بِإِثْرِ مَنْ سَبَقَتْهَا كَيْ تُلَاقِيهَا

وَلَا تَبِعْ يَا فَدَتْكَ ٱلنَّفْسُ آخِرَةً   تَبْقَى بِزَائِلَةِ ٱلدُّنْيَا فَتَشْرِيهَا

---

(١) أمّا بعد ، فانّ فيما تبينت من ادبار الدنيا عني ، وجموح الدهر عليّ ، واقبال الآخرة اليّ ، ما يزعني عن ذكر من سواي ، والاهتمام بما ورائي ، غير أني ، حيث تفرّد بي دون هموم الناس ، همّ نفسي ، فصدّقني رأيي ، وصرّفني عن هواي ، وصرّح لي محض أمري ، فأفضى بي الى جدٍّ لا يكون فيه لعب ، وصدقٍ لا يشوبه كذب ، وجدتك بعضي ، بل وجدتك كلي ، حتى كأنّ شيئاً لو أصابك أصابني ، وكأنّ الموت لو أتاك أتاني ، فعناني من أمرك ، ما يعنيني من أمر نفسي ، فكتبت اليك كتابي مستظهراً به ، ان أنا بقيت لك أو فنيت.

(٢) فأني أوصيك بتقوى الله ، أي بنيّ ، ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، وأيّ سببٍ أوثق من سببٍ بينك وبين الله ان أنت اخذت به ؟ أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهادة ، وقوّه باليقين ، ونوّره بالحكمة ، وذلله بذكر الموت ، وقرره بالفناء ، وبصرّه فجائع الدنيا ، وحذّره صولة الدهر ، وفحش تقلب الليالي والايام ، وأعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الاولين ، وسر في ديارهم وآثارهم ، فانظر فيما فعلوا ، وعمّ انتقلوا ، وأين حلوا ونزلوا ، فانك تجدهم انتقلوا عن الأحبّة ، وحلوا دار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فأصلح مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ،

دَعِ ٱلْخِطَابَةَ إِلاَّ إِنْ دُعِيتَ لَهَا ... وَلَا تَقُلْ قَوْلَةً إِلاَّ وَتَدْرِيهَا

وَلَا تَسِرْ فِي طَرِيقٍ أَنْتَ تَجْهَلُهَا ... لِتَأْمَنَ ٱلتِّيهَ فِي خَافِي مَمَاشِيهَا

وَكُنْ لِقَوْمِكَ بِٱلْمَعْرُوفِ آمِرَهَا ... وَعَنْ خَطَا ٱلْمُنْكَرِ ٱلْمَكْرُوهِ نَاهِيهَا (١)

فِي ٱللهِ جَاهِدْ وَلَا تَأْخُذْكَ لَوْمَةُ لَوَّ ... امٍ بِقَوْلَةِ حَقٍّ أَنْتَ حَاكِيهَا

وَٱخْلِصْ لِرَبِّكَ فِي شَتَّى صَنَائِعِكَ ٱلْـ ... ـحُسْنَى وَكُنْ فِي سَبِيلِ ٱلْخَيْرِ مُجْرِيهَا

لِلْحَقِّ خُضْ غَمَرَاتِ ٱلْحَرْبِ مُعْتَمِداً ... عَلَى رِضَى ٱللهِ لَا تَرْهَبْ دَوَاهِيهَا

وَعَوِّدِ ٱلنَّفْسَ صَبْراً يَا بُنَيَّ عَلَى ٱلْـ ... ـمَكْرُوهِ مِنْ نُوَبٍ صَعْبٌ تَحَاشِيهَا

وَٱخْلِصْ لِرَبِّكَ فِي مَا أَنْتَ سَائِلُهُ ... مِنْهُ ٱلْعَطَايَا، وَمَا إِلاَّهُ يُعْطِيهَا

وَٱفْهَمْ وَصَايَايَ لَا تُهْمِلْ فَوَائِدَهَا ... وَلَا تَجُزْ إِنْ تُرِدْ خَيْراً مَرَامِيهَا

بُنَيَّ جِئْتُكَ عَنْ خُبْرٍ وَتَجْرِبَةٍ ... بِصَفْوَةِ ٱلنُّصْحِ أُلْقِيهَا وَأُمْلِيهَا (٢)

وَأَنْتَ بَعْدُ فَتِيٌّ لَمْ تَقْسُ نَفْسُكَ عَنْ ... قَبُولِ قَوْلَةِ ذِي نُصْحٍ يُؤَدِّيهَا

وَإِنَّمَا أَنْفُسُ ٱلْأَطْفَالِ صَالِحَةٌ ... لِكُلِّ مَا تَتَلَقَّى مِنْ مَفَاهِيهَا

فَاقْبَلْ عَلَى قَوْلَتِي إِقْبَالَ مُعْتَبِرٍ ... بِمَا ٱسْتَفَدْتُ مِنَ ٱلْأَيَّامِ قَاسِيهَا

والخطاب فيما لم تكلّف ، وأمسك عن طريقٍ اذا خفت ضلالته ، فان الكفّ عند حيرة الضلال ، خير من ركوب الاهوال.

(١) وأمر بالمعروف تكن من أهله ، وانكر المنكر بيدك ولسانك ، وباين من فعله بجهدك ، وجاهد في الله حقّ جهاده ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وخض الغمرات للحق حيث كان ، وتفقه في الدين ، وعوّد نفسك التصبر على المكروه ، ونعم الخلق التصبر في الحقّ ، والجيء نفسك في أمورك كلها الى الهك ، فانك تلجئها الى حرزٍ حريز ، ومانعٍ عزيز ، وأخلص في المسألة لربك ، فانّ بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة ، وتفهم وصيتي ، ولا تذهبنّ عنك صفحاً ، فانّ خير القول ما نفع ، واعلم انه لا خير في علم لا ينفع ، ولا ينتفع بعلم لا يحقّ تعلمه.

(٢) أي بنيّ ، أني لما رأيتني قد بلغت سناً ، ورأيتني أزداد وهناً ، بادرت بوصيتي اليك ، واوردت خصالاً منها ، قبل ان يعجل بي أجلي ، دون أن أفضي اليك بما في نفسي ، او أن أنقص في رأيي ، كما نقصت في جسمي ، أو يسبقني اليك بعض غلبات الهوى ، وفتن الدنيا ، فتكون كالصعب النفور ، وانما قلب الحدث ، كالارض الخالية ، ما ألقي فيها من شيء قبلته ، فبادرتك بالادب قبل ان يقسو قلبك ، ويشتغل لبك ، لتستقبل بجدّ رأيك من الامر ، ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته ، فتكون قد كفيت مؤونة الطلبة ، وعوفيت من علاج التجربة ، فأتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه ، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه .

فَتَسْتَبِينُ امُوْرَاً كُنْتُ أَجْهَلُهَا ... وَمَا أَمِنْتُ عِثَارَا مِنْ تَوَلِّيهَا
بُنَيَّ إِنْ لَمْ أُعَمَّرْ عُمْرَ مَنْ سَلَفَتْ ... مِنَ ٱلْخَلَائِقِ لَمْ أَجْهَلْ مَآتِيهَا(١)
فَقَدْ نَظَرْتُ إِلَى شَتَّى فَعَائِلِهَا ... وَإِنَّ آثَارَهَا قَدْ كُنْتُ قَارِيهَا
حَتَّى غَدَوْتُ كَأَنِّي بَيْنَهَا بِمَدًى ... تِلْكَ ٱلدُّهُورِ ٱلَّتِي عَاشَتْ أُمَاشِيهَا
وَقَدْ عَرَفْتُ ٱلَّذِي قَدْ سَاءَهَا وَأَسَرَّ ... هَا وَمَا كَانَ يُهْنِيهَا وَيُشْقِيهَا
وَهٰذَا لَكَ أَسْتَصْفِي خُلَاصَةَ مَا ... يُفِيدُ مِنْ عِبَرٍ كَانَتْ تُلَاقِيهَا
وَكُنْتُ أَرْغَبُ انْ اتْلُوَ عَلَيْكَ دُرُوْ ... سَاً فِيْ ٱلشَّرِيعَةِ مَعْ تَأْوِيلِ خَافِيهَا
لٰكِنْ خَشِيتُ ٱلْتِبَاسَاً فِيْ تَفَهُّمِهَا ... يَسْطُوْ عَلَى نَفْسِكَ ٱلسَّمْحَا فَيُؤْذِيهَا
وَكَمْ لِذَاكَ مِنْ هَلْكَى بِمَا ٱلْتَبَسَتْ ... مِنَ ٱلْمَعَانِي عَلَيْهَا فِي تَلَقِّيهَا
لِذَا ٱكْتَفَيْتُ بِمَا فِيهِ ٱلنَّصِيحَةُ فِي ... وَصِيَّتِي فَأَصِخْ سَمْعَاً لِمُوْصِيهَا
وَٱعْلَمْ بُنَيَّ أَحَبُّ ٱلصَّالِحَاتِ إِلَــــيَّ وَٱلَّتِي أَنْتَ مِنْ نُصْحِي لَجَانِيهَا(٢)
أَنْ تَتَّقِي ٱللّٰهَ فِي كُلِّ ٱلْأُمُوْرِ وَلَا ... تَجْتَازَ فِيهَا فُرُوْضَاً كَانَ مُمْضِيهَا

---

(١) أي بنيَّ ، اني وان لم أكن عمرت عمر من كان قبلي ، فقد نظرت في أعمالهم ، وفكرت في أخبارهم ، وسرت في آثارهم ، حتى غدوت كأحدهم ، بل كأني بما انتهى اليَّ من أمورهم ، قد عمرت من أولهم الى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت لك من كلّ أمر جليله ، وتوخيت لك جميله ، وصرفت عنك مجهوله ، ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق ، وأجمعت عليه من أدبك ، أن يكون ذلك وانت مقبل العمر ، ومقتبل الدهر ، ذو نية سليمة ، ونفس صادقة ، وان ابتدئك بتعليم كتاب الله عزّ وجلّ وتأويله ، وشرائع الاسلام وأحكامه ، وحلاله وحرامه ، لا اجاوز ذلك بك الى غيره ، ثمّ اشفقت ان يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه ، من أهوائهم وآرائهم ، مثل الذي التبس عليهم ، فكان احكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك له ، أحبّ اليّ من اسلامك الى أمر ، لا آمن عليك به الهلكة ، ورجوت أن يوفقك الله فيه لرشدك ، وأن يهديك لقصدك ، فعهدت اليك وصيتي هذه .

(٢) واعلم يابنيّ ، أنّ أحبّ ما أنت آخذ به اليّ من وصيتي ، تقوى الله ، والاقتصار على ما فرضه الله عليك ، والأخذ بما مضى عليه الاولون من آبائك ، والصالحون من أهل بيتك ، فانهم لم يدعوا ان نظروا لانفسهم كما أنت ناظر ، وفكروا كما أنت مفكر ، ثمّ ردّهم آخر ذلك الى الاخذ بما عرفوا ، والامساك عما لم يكلفوا ، فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا ، فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم ، لا بتورّط الشبهات ، وعلق الخصومات ، وابدأ قبل نظرك في ذلك ، بالاستعانة بالهك ، والرغبة اليه في توفيقك ، وترك كلّ شائبة اولجتك في شبهة ، أو أسلمتك

وَٱتْبَعْ خُطَى ٱلصُّلَحَا مِنْ آلِ بَيْتِكَ فِي ... أَحْكَامِ رَبِّكَ لَا تَجْتَزْ مَنَاحِيهَا
فَإِنَّهَا فَقِهَتْ آيَ ٱلْكِتَابِ وَلَمْ ... تَفُتْ رِغَابًا إِلٰهُ ٱلْعَرْشِ مُوحِيهَا
وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلْبَرَايَا ٱللّٰهُ خَالِقُهَا ... سُبْحَانَهُ وَهُوَ بِٱلتَّحْقِيقِ مُفْنِيهَا(١)
وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْتَلِيهَا بِٱلْكَوَارِثِ حَتْمًا ... وَهُوَ عَنْ رَحْمَةٍ عُلْيَا يُعَافِيهَا
وَأَنَّ دُنْيَاكَ ذِي لَمْ تَسْتَقِرَّ عَلَى ... حَالَاتِهَا مِثْلَمَا ذُو ٱلرَّأْيِ يُلْفِيهَا
إِلَّا بِقُدْرَتِهِ ٱلْعُظْمَى وَرَغْبَتِهِ ٱلْـ ... ـعُلْيَا ٱلَّتِي لَيْسَ مَنْ يَدْرِي خَوَافِيهَا
فَإِنْ رَأَيْتَ بِهَا مَا أَنْتَ جَاهِلُهُ ... مِنَ ٱلشُّؤُونِ ٱلَّتِي ٱلْإِشْكَالُ غَاشِيهَا
فَذَا لِجَهْلِكَ فِيهَا وَٱلْجَهَالَةُ تَصْـ ... ـحَبُ ٱلْفَتَى وَهُوَ مَا يَحْيَا مُدَانِيهَا
وَكَمْ جَهِلْتَ أُمُورًا لَا عِدَادَ لَهَا ... ثُمَّ رَأَيْتُكَ يَا ٱبْنَ ٱلْوُدِّ تَدْرِيهَا
وَكُنْ بِرَبِّكَ يَا ٱبْنِي خَيْرَ مُعْتَصِمٍ ... فَهُوَ ٱلْمُسَوِّيكَ وَٱلدُّنْيَا ٱلْمُسَوِّيهَا(٢)
وَمَا وَحَقِّكَ عَنْهُ مِثْلُ جَدِّكَ قَدْ ... أَنْبَا ٱلْبَرِيَّةَ هَادٍ فَهُوَ هَادِيهَا
فَخُذْهُ رَائِدَكَ ٱلْأَسْنَى وَقَائِدَكَ ٱلْأَ ... مْ عَلَى إِلَى ٱلْجَنَّةِ ٱلْخَضْرَا لِتَأْوِيهَا
وَٱعْلَمْ فَدَيْتُكَ انَّ ٱللّٰهَ مُنْفَرِدٌ ... فَمَا لَهُ شُرَكَاءُ كَيْ تُرَاعِيهَا(٣)

الى ضلالة ، فان أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع ، وتمّ رأيك فاجتمع ، وكان همك في ذلك همّاً واحداً ، فانظر فيما فسرت لك ، وان أنت لم يجتمع لك ما تحبّ من نفسك ، وفراغ نظرك وفكرك ، فاعلم أنك تخبط العشواء ، وتتورّط الظلماء ، وليس طالب الدين من خبط أو خلط ، والامساك عن ذلك أمثل .

(١) فتفهم يابنيّ وصيتي ، واعلم أنّ مالك الموت هو مالك الحياة ، وأنّ الخالق هو المميت ، وأنّ المفني هو المعيد ، وأنّ المبتلي هو المعافي ، وأنّ الدنيا لم تكن لتستقرّ ، الا على ما جعلها عليه من النعماء ، والابتلاء والجزاء في المعاد ، أوماشاء ممّا لا تعلم ، فان اشكل عليك شيء من ذلك ، فاحمله على جهالتك ، فانّك أول ماخلقت به جاهلاً ، ثمّ علمت ، وما اكثر ما تجهل من الامر ، ويتحير فيه رأيك ، ويضلّ فيه بصرك ، ثمّ تبصره بعد ذلك .

(٢) فاعتصم بالذي خلقك ، ورزقك وسوّاك ، فليكن له تعبدك ، واليه رغبتك ، ومنه شفقتك ، واعلم يابنيّ ، أنّ أحداً لم ينبيء عن الله سبحانه ، كما أنبأ عنه جدّك المصطفى صلى الله عليه وآله ، فارض به رائداً ، والى النجاة قائداً ، فني لم آلك نصحاً ، وانك لن تبلغ في النظر لنفسك وان اجتهدت مبلغ نظري لك .

(٣) واعلم يابنيّ ، انه لو كان لربك شريك لاتتك رسله ، ولرايت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه اله واحد كما وصف نفسه ، لايضادّه في ملكه أحد ، ولا يزول

وَأَنَّهُ أَزَلِيٌّ لَا ٱبْتِدَاءَ لَهُ ... وَلَا ٱنْتِهَا وَهُوَ مُبْدِي ٱلْخَلْقِ مُنْهِيهَا
وَذَاتُهُ مَا عُقُولُ ٱلنَّاسِ تُدْرِكُهَا ... وَلَا قُلُوبُهُمُ تَدْرِي مَعَانِيهَا
وَإِنْ عَرَفْتَ كَذَاكَ ٱللهَ جِئْتَ إِلَى ... عُلْيَاهُ بِٱلطَّاعَةِ ٱلْمَاجُورُ مُسْدِيهَا
وَأَنْتَ لَوْلَاهُ فِي ضَعْفٍ وَفِي خَوَرٍ ... عَنْ كُلِّ رَغْبَةِ نَفْسٍ رُمْتَ تَقْضِيهَا
وَهِبْتَ يَوْمَ ٱلتَّنَادِي مِنْ تَسَخُّطِهِ ... وَمِنْ عُقُوبَتِهِ ٱلْكُبْرَى تُلَاقِيهَا
فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا إِلَى حَسَنٍ ... يَدْعُو ٱلْعِبَادَ وَعَمَّا سَاءَ يُنْهِيهَا
بُنَيَّ أَنْبَأْتُكَ ٱلدُّنْيَا وَحَالَتَهَا ... وَكَمْ سَرِيعٌ لِثَاوِيهَا تَلَاشِيهَا(١)
وَقَدْ تَطَرَّأْتُ لِلْأُخْرَى وَنَبَأْتُهَا ... وَمَا أُعِدَّ مِنَ ٱلْبَارِي لِأَهْلِيهَا
وَفِيهِمَا جِئْتُ بِٱلْأَمْثَالِ أَطْلُبُ فِيـ ... ـهَا ٱلْعِبْرَةَ ٱلْآنَ مِنْ ٱلْإِعْثَارِ جَانِيهَا
وَإِنَّ مَنْ خَبَرَ ٱلدُّنْيَا لَيَعْرِفُ أَنَّـ ... ـهُ إِلَى مَنْزِلٍ أَهْنَى مُخَلِّيهَا
يَجْتَازُهَا وَهُوَ مَسْرُورٌ وَمُبْتَهِجٌ ... إِلَى دِيَارَةِ أَفْرَاحٍ يُوَافِيهَا
وَمَنْ بِهَا ٱغْتَرَّ يَخْشَى أَنْ يُفَارِقَهَا ... إِلَى دِيَارِ ٱلشَّقَا بِٱلْكُرْهِ يَثْوِيهَا
أَحْبِبْ لِغَيْرِكَ يَا ٱبْنِي مَا تُحِبُّ لِنَفْـ ... ـسِكَ ٱلطَّوْعَةِ وَٱحْذَرْ مِنْ تَشَهِّيهَا(٢)

أبداً ولم يزل ، أوّل قبل الاشياء بلا أولية ، وآخر بعد الاشياء بلا نهاية ، عظم أن تثبت ربوبيته باحاطة قلب أو بصر ، فاذا عرفت ذلك ، فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره ، وقلة مقدرته ، وكثرة عجزه ، وعظيم حاجته الى ربه ، في طلب طاعته ، والخشية من عقوبته ، والشفقة من سخطه ، فانه لم يأمرك الا بحسن ، ولم ينهك الا عن قبيح .

(١) يابنيّ ، قد أنبأتك عن الدنيا وحالها ، وزوالها وانتقالها ، وانبأتك عن الآخرة وما أعدّ لأهلها ، وضربت لك فيها الامثال ، لتعتبر بها ، وتحذو عليها ، انما مثل من خبر الدنيا ، كمثل قوم سفر ، نبابهم منزل جديب ، فاموا منزلاً خصيباً ، وجناباً مريعاً ، فاحتملوا وعثاء الطريق ، وفراق الصديق ، وخشونة السفر ، وجشوبة المطعم ، ليأتوا سعة دارهم ، ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لشيء من ذلك ألماً ، ولا يرون نفقة فيه مغرما ، ولاشيء أحبّ اليهم مما قرّبهم من منزلهم ، وأدناهم الى محلتهم ، ومثل من اغترّ بها ، كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب ، فنبابهم الى منزل جديب ، فليس شيء أكره اليهم ، ولا افظع عندهم ، من مفارقة ما كانوا فيه ، الى ما يهجمون عليه ، ويصيرون اليه .

(٢) يابنيّ ، اجعل نفسك ميزاناً ، فيما بينك وبين غيرك ، فاحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك ، واكره له ما تكره لها . ولا تظلم كما لاتحبّ أن تظلم ، وأحسن كما تحبّ أن يحسن اليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك ، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم

وَلا تَقُلْ غَيْرَ مَا قَدْ كُنْتَ عَارِفَهُ ... كَيْ لاَ يُسَفِّهَكَ ٱلسُّمَّاعُ تَسْفِيهَا

وَلاَ تَكُنْ مُعْجَباً وَٱلْعُجْبُ مَنْقَصَةٌ ... بِٱلنَّفْسِ دَعْ عَنْكَ يَا ٱبْنِيَ ٱلْكِبْرَ وَٱلتِّيهَا

إِخْشَعْ لِرَبِّكَ إِنْ تُهْدَى لِقَصْدِكَ وَٱعْلَمْ ... أَنَّ نُعْمَاكَ كَانَ ٱللهُ مُعْطِيهَا

وَٱعْلَمْ طَرِيقَكَ طُولَى وَٱلْمَشَقَّةُ فِيهَا ... لاَ تَهُونُ عَلَى مَنْ رَامَ يَمْشِيهَا(١)

وَٱحْسِنْ لَهَا ٱلإِرْتِيَادَ ٱلْمُبْلِغَ ٱلأَرَبَ ٱلأَسْمَى ... وَعُدَّ مِنَ ٱلأَزْوَادِ كَافِيهَا

وَخَفِّفِ ٱلْحِمْلَ يَا ٱبْنِيَ عَنْكَ جُهْدَكَ حَتَّى ... لاَ تَخُورُ ٱلْقُوَى عَنْهُ فَيُوهِيهَا

وَإِنْ وَجَدْتَ أُنَاساً عَنْكَ تَحْمِلُهُ ... مِنَ ٱلْعُفَاةِ ٱلأُلَى بِرٌّ تُولِيهَا

فَٱغْنَمْ مَعُونَتَهَا فَهِيَ ٱلْمُخَفِّفَةُ ٱلأَ ... حْمَالِ فِي ٱلرِّحْلَةِ ٱلْمَتْعُوبُ بَاغِيهَا

وَأَنْتَ مِنْ بَعْدِهَا لاَ بُدَّ تَبْلُغُ جَنَّةَ ٱلرِّضَى ... أَوْ إِلَى ٱلنِّيرَانِ تَصْلِيهَا

وَٱعْلَمْ فَدَيْتُكَ مَنْ طَوْعاً لِرَاحَتِهِ ... خَزَائِنُ ٱلأَرْضِ وَٱلْجَنَّاتِ مَا لِيهَا(٢)

قَدْ كَانَ مُؤْذِنَكَ ٱلرَّاضِي بِدَعْوَتِهِ ... وَقَدْ تَكَفَّلَ عَطْفاً أَنْ يُلَبِّيهَا

وَهُوَ ٱلْمُؤَامِرُ بِٱلإِخْبَاتِ تَسْأَلُهُ ... قَضَا حَوَائِجِكَ ٱلشَّتَّى لِيَقْضِيهَا

وَأَنْ تُوَافِيهِ تَبْغِي فَيْضَ رَحْمَتِهِ ... وَهُوَ ٱلرَّحُومُ بِلاَ شَكٍّ لِيُسْدِيهَا

وَلَمْ يُقِمْ حَاجِباً مِنْ دُونِ قُدْرَتِهِ ... يَزْوِيكَ عَنْهُ وَعَنْ رَجْوَاكَ يَزْوِيهَا

وان قلّ ماتعلم ، ولا تقل ما لاتحبّ أن يقال لك ، واعلم انّ الاعجاب ضدالصواب وآفة الالباب ، فاسع في كدحك ، ولا تكن خازناً لغيرك ، واذا أنت هديت لقصدك ، فكن أخشع ماتكون لربك.

(١) واعلم ، أنّ أمامك طريقاً ذا مسافةٍ بعيدةٍ ، ومشقةٍ شديدةٍ ، وأنه لا غناء بك فيه عن حسن الارتياد ، وقدر بلاغك من الزاد ، مع خفة الظهر ، فلا تحملنّ على ظهرك فوق طاقتك ، فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك ، واذا وجدت من أهل الفاقة ، مَن يحمل لك زادك الى يوم القيامة ، فيوافيك به غداً ، حيث تحتاج اليه ، فاغتنمه وحمّله اياه ، وأكثر من تزويده ، وأنت قادر عليه ، فاملك تطلبه فلا تجده ، واغتنم من استقرضك في حال غناك ، ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك ، واعلم أنّ أمامك عقبة كؤوداً ، المخفّ فيها أحسن من المثقل ، والبطيء عليها ، أقبح حالاً من المسرع ، وأنّ مهبطك بها بلا محالة ، امّا على جنة أو على نار ، فارتد لنفسك قبل نزولك ، ووطيء المنزل قبل حلولك ، فليس بعد الموت مستعتب ، ولا الى الدنيا منصرف .

(٢) واعلم ، أنّ الذي بيده خزائن السموات والارض ، قد أذن لك في الدعاء ، وتكفل لك بالاجابة ، وأمرك أن تسأله ليعطيك ، وتسترحمه ليرحمك ، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه ، ولم يلجئك الى من يشفع لك اليه ، ولم يمنعك ان اسأت من التوبة ، ولم يعاجلك بالنقمة ، ولم

وَلاَ إِلَى ٱلشُّفَعَا قَدْ كَانَ مُلْجِئَكَ ٱلـــرَّحْمٰنُ إِنْ رُحْتَ بِٱلآمَالِ تُزْجِيهَا

وَإِنْ اسَأْتَ فَلَمْ يَمْنَعْكَ يَاوَلَدِي مِنْ تَوْبَةٍ عَنْ خَطَايَا كُنْتَ مُخْطِيهَا

وَلَمْ يَكُنْ مُعْجِلاً تَوْقِيعَ نَقْمَتِهِ عَلَيْكَ فَٱجْهَدْ بِلاَ بُطْءٍ لِتَتَّقِيهَا

وَلَمْ يَكُنْ مُظْهِراً يَوْمَا فَضِيحَتَكَ ٱلـــسُّوءَى إِذَا كُنْتَ بِٱلتَّعْجِيلِ مُخْفِيهَا

وَلَمْ يَدَعْكَ بِيَأْسٍ مِنْ مَرَاحِمِهِ إِنْ رُحْتَ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَى تُرَجِّيهَا

بَلْ إِنَّهُ كَرَمَاً قَدْ كَانَ تَوْبَتُكَ ٱلْــكُبْرَى مِنَ ٱلحَسَنَاتِ ٱلزُّهْرِ مُحْصِيهَا

وَٱلسَّيِّئَاتُ فُرَادَى كَانَ حَاسِبَهَا عَلَيْكَ إِنْ تُبْتَ عَنْهَا فَهْوَ مَاحِيهَا

وَحَاسِبُ ٱلحَسَنَاتِ ٱلزُّهْرِ وَاحِدَةً بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِنْ أَنْتَ تَأْتِيهَا

إِنْ أَنْتَ نَادَيْتَهُ لاَ شَكَّ يَسْمَعُ أَوْ إِنْ كُنْتَ نَاجَيْتَهُ نَجْوَاكَ يَدْرِيهَا

لَهُ هُمُومَكَ تَشْكُوهَا فَيُفَرِّجُهَا وَٱلمُزْعِجَاتُ ٱلَّتِي تَدْهَى فَيُجْلِيهَا

تَجِيئُهُ طَالِبَاً مِنْ فَضْلِهِ نِعَمَاً مَا ٱلغَيْرُ يَمْلِكُهَا أَصْلاً لِيُولِيهَا

زِيَادَةُ ٱلعُمْرِ مَعْ رِزْقٍ وَعَافِيَةٍ مُنىً جَمِيعُ عِبَادِ ٱللهِ تَبْغِيهَا

تَنَالُهَا بِٱلدُّعَا فِي بَابِ رَحْمَتِهِ وَبِٱلصَّلاَةِ ٱلَّتِي بِرّاً تُصَلِّيهَا

لاَ تَيْأَسَنَّ إِذَا أَرْجَا إِجَابَتَهُ عَلَيْكَ يَوْمَاً وَقُلْ لِلْخَيْرِ يُزْجِيهَا

فَرُبَّ مَسْأَلَةٍ فِيهَا ٱلْهَلاَكُ وَلاَ تَدْرِي فَتَسْأَلُهَا جَهْلاً وَيُلْغِيهَا

يفضحك حيث تعرَّضتَ للفضيحة ، ولم يشدد عليك في قبول الانابة ، ولم يناقشك بالجريمة ، ولم يوئسك من الرحمة ، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة ، وحسب سيئتك واحدة ، وحسب حسنتك عشراً ، وفتح لك باب المتاب ، وباب الاستيعاب ، فذا ناديته سمع نداءك ، واذا ناجيته علم نجواك ، فافضيت اليه بحاجتك ، وأبثثته ذات نفسك ، وشكوتَ اليه همومك ، واستكشفته كروبك ، واستعنته على أمورك ، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على اعطائه غيره ، من زيادة الاعمار ، وصحة الابدان ، وسعة الارزاق ، ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه ، بما اذن لك فيه من مسألته ، فمتى شئتَ استفتحت بالدعاء ابواب نعمته ، واستمطرتَ شآبيب رحمته ، فلا يقنطنك ابطاء اجابته ، فان العطية على قدر النية ، وربما أخرت عنك الاجابة ، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، واجزل لعطاء الآمل ، وربما سألتَ الشيء فلا تؤتاه ، واوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً ، أو صرف عنك لما هو خير لك ، فلربَّ أمرٍ قد طلبته فيه هلاك دينك لو اوتيته ، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله ، وينفى عنك وباله ، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له .

سَلْهُ الرِّغَابَ الَّتِي تَبْقَى مَحَاسِنُهَا ... لِمُبْتَغِيهَا وَلَا شَرٌّ يُتَالِيهَا

وَلَا تَجِدَّ وَرَا الْأَمْوَالِ تَجْمَعُهَا ... مَا أَنْتَ بَاقٍ لِتَقْنِيهَا وَتُفْنِيهَا

وَاعْلَمْ حَيَاتُكَ يَا ابْنِي لِلْفَنَاءِ وَإِ ... نَّ الدَّهْرَ مَهْمَا تَطُلْ لَا شَكَّ مُبْلِيهَا(١)

وَأَنْتَ يَا ابْنِي طَرِيدُ الْمَوْتِ فِي وَجَلٍ ... مِنْهُ وَهَجْمَتُهُ تَخْشَى تَسَطِّيهَا

لَكِنَّمَا الْمَوْتُ لَا تَنْجُو فَرَائِسُهُ ... مِنْهُ وَلَا بُدَّ يَلْقَاهَا وَيُرْدِيهَا

فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ فَجْءِ هَجْمَتِهِ ... وَأَنْتَ فِي مَعْصِيَاتِ اللهِ تَأْتِيهَا

أَكْثِرْ بُنَيَّ ادِّكَارَ الْمَوْتِ وَاذْكُرِ الْأُخْرَى وَلَا تَكُ نَاسِيهِ وَنَاسِيهَا

لَا تَغْتَرِرْ بِبَنِي الدُّنْيَا وَخُدْعَتِهِمْ ... بِهَا وَمَا طَلَبُوهُ مِنْ مَلَاهِيهَا

فَاللهُ مُنْبِيكَ عَنْهَا وَهْيَ نَاعِيَةٌ ... لِذِي الْحِجَى نَفْسَهَا فَاسْمَعْ مَنَاعِيهَا

وَانْظُرْ إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْقَلْبِ هَا هِيَ قَدْ ... تَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مُخْزِي مَسَاوِيهَا

وَأَهْلُهَا كَكِلَابِ الْحَيِّ نَابِحَةٌ ... أَوْ قُلْ حَكَتْ مِنْ وُحُوشِ الْقَفْرِ ضَارِيهَا

يَهِرُّ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ وَيَأْكُلُ أَرْ ... بَابُ الْقُوَى ضُعَفَاهَا مَعَ ذَرَارِيهَا

كَأَنَّهُمْ نَعَمٌ فِي الْأَرْضِ سَارِحَةٌ ... تَبَدَّدَتْ فِرَقاً إِذْ غَابَ رَاعِيهَا

بِهِمْ لَقَدْ سَلَكَتْ سُبُلَ الْغَوَايَةِ دُنْـ ... ـيَاهُمْ فَمَا أَمِنُوا فِي سَيْرِهَا التِّيهَا

وَيْلٌ لَهُمْ أَلْهَوُا الدُّنْيَا وَقَدْ لَعِبَتْ ... بِهِمْ وَهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُسْتَثِيبِيهَا

---

(١) واعلم ، انك انما خلقت للآخرة لاللدنيا ، وللفناء لاللبقاء ، وللموت لاللحياة ، وانك في منزل قلعة ، ودار بلغة ، وطريق الى الآخرة ، وأنت طريد الموت ، الذي لاينجو منه هاربه ، ولا يفوته طالبه ، ولا بدّ أنه مدركه ، فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حال سيئة ، قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة ، فيحول بينك وبين ذلك ، فاذاً أنت قد اهلكت نفسك ، يابني اكثر من ذكر الموت ، وذكر ما يهجم عليه ، وتفضي بعد الموت اليه ، حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك ، وشددت له أذرك ، ولا يأتيك بغتة فيبهرك ، واياك أن تغترّ بما ترى من اخلاد أهل الدنيا اليها ، وتكالبهم عليها ، فقد نبأك الله عنها ، ونعت لك نفسها ، وتكشفت لك عن مساويها ، فانما أهلها كلاب عاوية ، وسباع ضارية ، يهرّ بعضها على بعض ، ويأكل عزيزها ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها ، نعم معلقة ، وأخرى مهملة ، قد أضلت عقولها ، وركبت مجهولها ، سروح عاهة ، بوادٍ وعثٍ ، ليس لها راعٍ يقيمها ، ولا مسيمٍ يسيمها ، سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، وأخذت بابصارهم عن منار الهدى ، فتاهوا في حيرتها ، وغرقوا في نعمتها ، واتخذوها رباً ، فلعبت بهم ولعبوا بها ، ونسوا ما وراءها ، رويداً يسفر الظلام ، كأن قد وردت الأظعان ، يوشك من اسرع ان يلحق .

وَقَدْ نَسَوْا مَا وَرَاهَا لَا أَبَا لَهُمْ ... كَأَنَّهُمْ أَمِنُوا طُولَ ٱلثَّوَى فِيهَا

وَٱعْلَمْ فَدَيْتُكَ يَا ٱبْنِي مَنْ مَطِيَّتُهُ ... زَمَانُهُ نَهْرُهُ تَتْلُو لَيَالِيهَا(١)

بِهِ يُسَارُ وَلَا يَدْرِي وَيَحْسِبُ جَهْـلاً ... أَنَّ رَحْلَتَهُ مَا ٱلدَّهْرُ مُنْهِيهَا

وَٱعْلَمْ يَقِينًا بِأَنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ طُوِيَتْ ... وَسَوْفَ يَطْوِيكَ مَنْ قَدْ كَانَ طَاوِيهَا

لَنْ تَعْدُوَ ٱلْأَجَلَ ٱلْمَحْدُودَ ثَانِيَةً ... وَلَنْ تَفُوزَ بِآمَالٍ تُوَخِّيهَا

فَخَفِّفِ ٱلطَّلَبَ ٱلْمُضْنِي لِمُكْتَسَبٍ ... يَجُرُّ جَرًّا مِنَ ٱلْأَرْزَاءِ قَاسِيهَا

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ ٱلْأَرْزَاقَ نَائِلُهَا ... مَا كُلُّ مَنْ أَجْمَلَ ٱلْمَسْعَى لَمُقْصِيهَا

وَٱرْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْضَى مَهَانَتَهَا ... لِنَيْلِ مَا قَدْ تَعَاصَى مِنْ أَمَانِيهَا

وَٱللّٰهُ سَوَّاكَ حُرًّا لَا تَكُنْ أَبَدًا ... عَبْدًا لِغَيْرِكَ فِي رُغْبَى تُرَجِّيهَا

لَا تَتْرُكْ نِعْمَةً لِلْغَيْرِ فَاصِلَةً ... مَا بَيْنَ نَفْسِكَ وَٱلرَّحْمٰنِ بَارِيهَا

وَنِعْمَةُ ٱللّٰهِ مَا قَلَّتْ لَأَعْظَمُ مِنْ ... نُعْمَى خَلَائِقِهِ ٱلْكُبْرَى تُؤَدِّيهَا

وَإِنْ تَكُنْ نِعَمُ ٱلدُّنْيَا بِجُمْلَتِهَا ... مِنْ فَيْضِ إِحْسَانِهِ لِلنَّاسِ مُعْطِيهَا

وَلَازِمِ ٱلصَّمْتَ لَا تَنْطِقْ بِغَيْرِ تَرَوٍّ ... وَإِنْ تُجَالِسْ أَصْحَابًا تُفَاهِيهَا(٢)

فَٱلصَّمْتُ سَهْلٌ تَلَافِي ضَرِّهِ وَلَقَوْلُهُ ... تَضُرُّكَ مَا سَهْلٌ تَلَافِيهَا

وَحِفْظُ مَا أَنْتَ قَانِيهِ لَأَهْوَنُ مِنْ ... سُؤَالِكَ ٱلنَّاسَ عَمَّا فِي أَيَادِيهَا

وَٱلْيَأْسُ مِنْ رَغَبَاتٍ أَنْتَ رَاغِبُهَا ... أَحَقُّ مِنْ أَنْ إِلَى ذِي ٱلشُّحِّ تُزْجِيهَا

---

(١) واعلم يابنيّ أنّ من كانت مطيته الليل والنهار ، فانه يسار به وان كان واقفاً ، ويقطع المسافة وان كان مقيماً وادعاً ، واعلم يقيناً انك لن تبلغ أملك ، ولن تعدو أجلك ، وانك في سبيل من كان قبلك ، نخفض في الطلب ، وأجل في المكتسب ، فانه ربّ طلبٍ قد جرّ الى حرب ، وليس كلّ طالب بمرزوق ، ولا كل مجمل بمحروم ، واكرم نفسك عن كلّ دنية ، وان ساقتك الى الرغائب ، فانك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً ، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً ، وما خير خيرٍ لاينال الا بشرّ ، ويسرٍ لاينال الا بعسر ، واياك أن توجف بك مطايا الطمع ، فتوردك مناهل الهلكة ، وان استطعت ان لايكون بنك وبين الله ذو نعمةٍ فافعل ، فانك مدركٌ قسمك ، وآخذ سهمك ، وانّ اليسير من الله سبحانه ، أعظم واكرم من الكثير من خلقه ، وان كان كلٌّ منه.

(٢) وتلافيك ما فرط من صمتك ، أيسر من ادراكك ما فات من منطقك ، وحفظ ما في الوعاء بشدّ الوكاء ، وحفظ ما في يديك احبّ اليّ من نظرك الى ما في يدي غيرك ، ومرارة اليأس ، خير من الطلب الى الناس ،

وَإِنَّ مَتْرَبَةً مَعَهَا ٱلْعَفَافُ لَخَيْـــرٌ مِنْ غِنًى فَجْرَةٍ تُخْزِي مُوَافِيهَا
وَإِنَّمَا ٱلْمَرْءُ أَحْرَى أَنْ يَصُونَ عَنِ ٱلْأَ م خْوَانِ أَسْرَارَهُ مَا رَامَ يُخْفِيهَا
وَرُبَّ سَاعٍ مُجِدٍّ فِي مَضَرَّتِهِ فَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يُحَاشِيهَا
وَمُكْثِرُ ٱلْقَوْلِ نَالَ ٱلْهَجْرُ مَنْطِقَهُ فَٱقْصِدْ إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ تُنَادِيهَا
وَمَنْ يُكَثِّرْ زِيَارَاتِ ٱلصِّحَابِ فَلَا بِدْعٌ إِذَا لَقِيتَهُ فِي تَجَافِيهَا
وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي أَعْمَالِهِ لَرَآ هَا فِي حَقَائِقِهَا مِنْ قَبْلُ يَأْتِيهَا
بَايِنْ ذَوِي ٱلشَّرِّ حَاذِرْ أَنْ تُشَاكِلَهُمْ وَقَارِنِ ٱلصُّلَحَا تُصْبِحْ مُحَاكِيهَا
وَبِئْسَ أَطْعِمَةُ ٱلْإِنْسَانِ مَا حَرُمَتْ وَٱلْوَيْلُ مُتَّبِعٌ مَثْوَى مُحِلِّيهَا
وَٱلظُّلْمُ فُحْشٌ وَلٰكِنْ كَانَ أَفْحَشَهُ ظُلْمُ ٱلضِّعَافِ ٱلْأُلَى ٱلْقُرْآنُ يَحْمِيهَا
مَا ٱلرِّفْقُ يُحْمَدُ فِي كُلِّ ٱلْمَوَاطِنِ بَلْ فِي ٱلشِّدَّةِ ٱلْحَمْدُ أَحْيَانًا لِمُجْرِيهَا
وَرُبَّ دَاءٍ شَفَى دَاءً مُنِيتَ بِهِ وَرُبَّ أَدْوِيَةٍ يُؤْذِي تَعَاطِيهَا
وَرُبَّ قَوْلَةِ ذِي مَكْرٍ نُصِحْتَ بِهَا وَقَوْلَةِ ٱلنُّصْحِ كَانَ ٱلْغِشُّ غَاشِيهَا
وَٱلْإِتِّكَالُ عَلَى ٱلْآمَالِ مُتَّجَرُ ٱلْـــحَمْقَى وَتَجْرَتُهَا ٱلْخُسْرَانُ تَالِيهَا
إِنَّ ٱلتَّجَارُبَ قَدْ تُولِي ٱلْحَكِيمَ مَوَا عِظًا بِهَا يَتَّقِي ٱلْأَخْطَارَ يُخْلِيهَا
وَإِنْ تُضِعْ فُرْصَةً لِلْخَيْرِ سَانِحَةً تُصْبِحْ بِغُصَّةِ مَنْ رَاحُوا مُضِيعِيهَا
مَا كُلُّ مُبْتَعِدٍ يَوْمًا يَؤُوبُ وَلَا كُلُّ ٱلْمَطَالِبِ يُلْفِيهَا مُرَجِّيهَا
إِضَاعَةُ ٱلزَّادِ مَعْ شَرِّ ٱلْمَعَادِ فَسَا دٌ لِلْعِبَادِ وَخَيْرُ ٱلنَّاسِ تَاقِيهَا
لِكُلِّ أَمْرٍ إِذَا فَكَّرْتَ عَاقِبَةٌ فَلَا تُعَالِجْ أُمُورًا كُنْتَ خَاشِيهَا
لَا تُحْمِلِ ٱلنَّفْسَ جُهْدًا فَوْقَ طَاقَتِهَا فَكُلُّ مَا كَانَ مَقْدُورًا لَيَأْتِيهَا

والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور ، والمرء احفظ لسرّه ، وربّ ساعٍ فيما يضره ، من أكثر أهجر ، ومن تفكر تبصر ، قارن أهل الخير تكن منهم ، وباين أهل الشر تبن عنهم ، بئس الطعام الحرام ، ظلم الضعيف أفحش الظلم ، اذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً ، ربما كان الدواء داءً والداء دواءً ، ربما نصح غير الناصح وغشّ المستنصح ، اياك والاتكال على المنى فانها بضائع النوكى ، والعقل حفظ التجارب ، وخير ما جرّبت ماوعظك ، بادر الفرصة قبل أن تكون

وَلِلتِّجَارَةِ أَخْطَارٌ وَرُبَّ قُنُو ع بِٱلْيَسِيرِ نَمَتْ أَرْبَاحُهُ فِيهَا

لَا خَيْرَ فِي عَوْنِ مَرْءٍ مَعْ إِهَانَتِهِ فَٱبْعِدْ سُؤَالَكَ عَنْهُ كَيْ تُحَاشِيهَا(١)

أَوْ فِي صَدَاقَةِ إِخْوَانٍ يَسُوءُ بِمَنْ صَافَتْ بِلَا رِيبَةٍ مِنْهُ تَظَنِّيهَا

وَسَاهِلِ ٱلدَّهْرَ مَا ذَلَّتْ شَوَامِسُهُ فَقَدْ تَنَالُ ٱلْأَمَانِيَ مِنْ تَذَلِّيهَا

وَلَا تُخَاطِرْ بِأَشْيَاءٍ ظَفِرْتَ بِهَا لِنَيْلِ أُخْرَى كَثِيرَاتٍ تُرَجِّيهَا

وَلَا تَلُجَّ عِنَاداً لِلَّجَاجِ مَطَا يَا جَامِحَاتٌ لَقَدْ أَعْيَتْ مُهَدِّيهَا

وَٱحْمِلْ صِحَابَكَ إِنْ صَدَّتْ عَلَى صِلَةٍ وَإِنْ تَنَاءَتْ عَلَى رَاضِي تَدَانِيهَا

إِنْ أَخْطَأَتْ لَكَ كُنْ بِٱلْحِلْمِ عَاذِرَهَا وَكُنْ إِذَا قَسِيَتْ رِفْقاً مُلَاقِيهَا

وَكُنْ كَأَنَّكَ عَبْدٌ فِي ٱلْوَلَاءِ لَهَا قَدْ كَانَ نَائِلَ نُعْمَاهَا وَجَادِيهَا

وَٱحْذَرْ فِعَالَكَ ذِي يَوْماً تُضَيِّعُهَا بِوَضْعِهَا عِنْدَ قَوْمٍ لَا تُكَافِيهَا

لَا تَتَّخِذْ مَنْ يُعَادِي أَصْدِقَاءَكَ إِخْـ وَاناً فَتَخْسَرُ مَنْ كُنْتَ ٱلْمُوَالِيهَا

وَٱمْحَضْ نَصَائِحَكَ ٱلْإِخْوَانَ إِنَّ وَفِـ يَّ ٱلْوُدِّ يَمْنَحُهَا صِدْقاً وَيُبْكِيهَا

تَجَرَّعِ ٱلْغَيْظَ وَٱعْلَمْ أَنَّ جُرْعَتَهُ وَإِنْ تُمَرَّ فَعُقْبَى ٱلْخَيْرِ تُحْلِيهَا

وَكُنْ لِمَنْ لَكَ قَدْ لَاقَى بِغِلْظَتِهِ بِذَاكَ مِنْ غَيْرِ مَا إِثْمٍ مُلَاشِيهَا

بَادِرْ عِدَاتَكَ بِٱلْحُسْنَى فَتَقْهَرُهَا وَبِٱلْبَشَاشَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ تُنْسِكُهَا

وَإِنْ قَطَعْتَ أَخاً فَلْتُبْقِ نَفْسُكَ مَوْ ضِعاً لَهُ عِنْهُ يَوْماً يُوَافِيهَا

وَمَنْ بِشَخْصِكَ ظَنَّ ٱلْخَيْرَ ظِنَّتَهُ حَقِّقْ وَرَغْبَتَهُ إِيَّاكَ تَزْوِيهَا

غصة ، ليس كل طالبٍ يصيب ، ما كلُّ غائبٍ يئوب ، من الفساد اضاعة الزاد ، ومفسدة المعاد ، لكل أمرٍ عاقبة ، سوف يأتيك ما قدر لك ، التاجر مخاطر ، وربَّ يسير أنمى من كثير.

(١) لاخير في معينٍ مهين ، ولا في صديقٍ ظنين ، ساهل الدهر ما ذلَّ لك قعوده ، ولا تخاطر بشيء رجاء الاكثر منه ، اياك ان تجمح بك مطية اللجاج ، احمل نفسك من أخيك عند حرصه على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل ، وعند تباعده على الدنوّ ، وعند شدَّته على اللين ، وعند جرمه على العذر ، حتى كأنَّك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك ، واياك ان تضع ذلك في غير موضعه ، أو ان تفعله بغير أهله ، لا تتخذنَّ عدوَّ صديقك صديقاً فتعادي صديقك ، وامحض أخاك النصيحه ، حسنةً كانت أو قبيحة ، وتجرَّع الغيظ ، فاني لم

وَلاَ تُضَيِّعْ حُقُوقَ ٱلصَّحْبِ مُتَّكِلاً عَلَى مَوَدَّتِهَا بَلْ كُنْ مُؤَدِّيهَا
وَكُنْ لِأَهْلِكَ مُهْنِيهَا وَمُسْعِدَهَا أَوْلاَ فَتَشْقَى بِهَا جَهْلاً وَتُشْقِيهَا
مَنْ عَنْكَ يَزْهَدُ لاَ تَرْغَبْ بِهِ أَبَداً خِلاً وَصُحْبَتَهُ فَاقْطَعْ أَوَاخِيهَا
وَكُنْ عَلَى صِلَةِ ٱلْأَصْحَابِ أَقْدَرَ مِنْـــهَا فِي ٱلْقَطِيعَةِ إِنْ هَمَّتْ لِتَأْتِيهَا
وَكُنْ عَلَى ٱلْخَيْرِ أَقْوَى مِنْ مُبَادَءَةِ ٱلْأَصْحَابِ بِٱلشَّرِّ كُنْ خَيْراً مُبَادِيهَا
لاَ يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ٱلظُّلْمُ فَٱلظَّلَمَا تَسْعَى لِنَفْعِكَ وَٱلْأَضْرَارُ تَجْنِيهَا
وَلاَ تَسُؤْ أَنْفُساً سَرَّتْكَ يَا وَلَدِي حَاشَاكَ أَنْ تَكُ بِالسُّوءَى مُجَازِيهَا
وَٱلرِّزْقُ رِزْقَانِ رِزْقٌ أَنْتَ تَطْلُبُهُ تُنْضِي خُطَاكَ إِلَيْهِ وَهْوَ مُعْيِيهَا(١)
وَآخَرٌ دُونَ سَعْيٍ مِنْكَ تَطْلُبُهُ يَأْتِي دِيَارَكَ بِٱلتَّوْفِيقِ يَثْوِيهَا
أَقْبِحْ بِذِي حَاجَةٍ يُبْدِي تَلَطُّفَهُ لَهَا وَيَخْشُنُ إِمَّا رَاحَ قَاضِيهَا
وَغَيْرُ مَا يُصْلِحُ ٱلْمَثْوَى وَحَقِّكَ مَا لِلْمَرْءِ مِنْ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
وَإِنْ جَزِعْتَ عَلَى مَا قَدْ تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ قَدْ كُنْتَ تَقْنِيهَا
فَٱجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ نِعَمٍ إِلَيْكَ مَا وَصَلَتْ فَٱلنَّفْسُ تَبْغِيهَا
إِنَّ ٱلْأُمُورَ لَأَشْبَاهٌ فَحَاضِرُهَا قِسْهُ إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ بِمَاضِيهَا
وَلاَ تَكُنْ مِنْ أُنَاسٍ لَيْسَ يَنْفَعُهَا وَعْظٌ إِذَا لَمْ تُقَرَّعْ مِنْ مُلِيمِيهَا
فَذُو ٱلْمَدَارِكِ بِٱلْآدَابِ مُتَّعِظٌ أَمَّا ٱلْبَهَائِمُ فَٱلضَّرْبُ ٱلْمُرَبِّيهَا

أرَ جرعةً أحلى منها عاقبةً ، ولا ألذّ مغبةَ ، ولن لمن غالظك ، فانّه يوشك ان يلين لك ، وخذ على عدوّك بالفضل فانّه أحد الظفرين ، وان أردت قطيعة أخيك ، فاستبق له من نفسك بقية يرجع اليها ، ان بدا له ذلك يوماً ما ، ومن ظنّ بك خيراً فصدّق ظنه ، ولا تضيعنّ حقّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه ، فانه ليس لك بأخ من أضعت حقه ، ولا يكن أهلك اشقى الخلق بك ، ولا ترغبنّ فيمن زهد عنك ، ولا يكوننّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا يكوننّ على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا يكبرنّ عليك ظلم من ظلمك ، فانه يسعى في مضرته ونفعك ، وليس جزاء من سرّك ان تسوءه .

(١) واعلم يابنيَّ ان الرزق رزقان ، رزق تطلبه ورزق يطلبك فان أنت لم تأته أتاك ، ما اقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى ، انّ لك من دنياك ما أحكمت به مثواك ، وان جزعت على ماتفلت من يديك ، فاجزع على كلّ ما لم يصل اليك ، استدلّ على ما لم يكن بما

سَرِّحْ هُمُومَكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَبِالْـ   يَقِينِ بِاللهِ وَالْأَقْدَارُ تُجْلِيهَا

مَنْ يَتْرُكِ الْقَصْدَ فِي أَعْمَالِهِ فَقُلِ الْأَ   م قْدَارُ قَدْ تَيَّهَتْهُ فِي دَيَاجِيهَا

وَصَاحِبُ الْمَرْءِ أَحْرَى أَنْ يُنَاسِبَهُ   فَانْظُرْ حَقِيقَةَ أَصْحَابٍ تُوَاخِيهَا

مَنْ كَانَ يَصْدُقُ فِي الْغَيْبِ الصَّدِيقَ فَذَا الْـ   صَّدِيقُ صُحْبَتُهُ ذُو الرَّأْيِ يَبْغِيهَا

إِنَّ الْهَوَى لَشَرِيكُ الْعَمَى وَأَخُو   هُ مَا هِدَايَتُهُ تَاللهِ رَائِيهَا

وَرُبَّ مُبْتَعِدٍ أَدْنَى لِنَفْسِكَ مِنْ   دَانٍ إِلَيْهَا وَلَكِنْ لَا يُهَاوِيهَا

وَمَا الْغَرِيبُ غَرِيبُ الدَّارِ نَازِحُهَا   لَكِنَّ مَنْ مَالَهُ صَحْبٌ يُوَالِيهَا

مَنْ جَاوَزَ الْحَقَّ قُلْ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ   بِوَجْهِهِ لَيْسَ يَدْرِي كَيْفَ يَمْشِيهَا

وَمَنْ عَلَى قَدْرِهِ قَدْ بَاتَ مُقْتَصِراً   فَمَا الْمَصَاعِبُ تُشْقِيهِ فَوَاجِيهَا

وَخَيْرُ مَنْ تَرْتَجِي يَوْماً مَعُونَتَهُ   هُوَ الْمُهَيْمِنُ كُنْ مِنْهُ مُوَخِّيهَا

مَنْ لَمْ يُبَالِكَ إِنْ كُنْتَ الْأَمِيرَ فَذَا   مِنَ الْعُدَاةِ الْأُلَى فَرْضٌ تَوَقِّيهَا

وَالْيَأْسُ قَدْ يَكُ إِدْرَاكاً إِذَا تَبِعَ الْـ   هَلَاكُ أَطْمَاعَ مِطْمَاعٍ يُرَجِّيهَا

لَيْسَتْ عُيُوبُ الْعِدَى تَبْدُو بِأَجْمَعِهَا   لِعَيْنِ مَنْ رَامَ يَغْزُوهَا وَيُرْدِيهَا

وَلَا تُصَابُ إِذَا بَادَرْتَهَا فُرَصُ الْـ   خَيْرَاتِ طُرّاً فَلَا تَحْزَنْ لِخَالِيهَا

وَرُبَّمَا بَلَغَ الْأَعْمَى مَقَاصِدَهُ   دُونَ الْبَصِيرِ الَّذِي قَدْ كَانَ رَائِيهَا

لَا تَعْجَلَنْ بِشُرُورٍ أَنْتَ رَاغِبُهَا   فَقَدْ يَكُونُ صَوَاباً أَنْ تُؤَنِّيهَا

قَطِيعَةُ الْجَاهِلِ الْمَغْرُورِ تَعْدِلُ إِنْ   تَرْشُدْ مُوَاصَلَةَ الذَّاكِي وَتَحْكِيهَا

مَنْ يَأْمَنِ الدَّهْرَ فَلْيَنْظُرْ خِيَانَتَهُ   وَمَنْ يُعَظِّمْهُ يَلْقَى الْهُوْنَ تَجْزِيهَا

كان ، ولا تكونن ممن لاتنفعه العظة الا اذا بالغت في ايلامه ، فن العاقل يتعظ بالآداب ، والبهائم لاتتعظ الا بالضرب ، اطرح عنك واردات الهموم ، بعزائم الصبر وحسن اليقين ، من ترك القصد جار ، والصاحب مناسب ، والصديق من صدق غيبه ، والهوى شرك العمى . رب قريب أبعد من بعيد . ورب بعيد أقرب من قريب . والغريب من لم يكن له حبيب . من تعدى الحق ضاق مذهبه . ومن اقتصر على قدره كان أبقى له . وأوثق سبب اخذت به ، سبب بينك وبين الله سبحانه ، ومن لم يبالك فهو عدوك ، قد يكون اليأس ادراكا ، اذا كان الطمع هلاكا ، ليس كل عورة تظهر ، ولا كل فرصة تصاب ، وربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الاعمى رشده ،

مَا كُلُّ رَمْيَةِ رَامٍ قَدْ تُصِيبُ وَكَمْ مِنْ رَمْيَةٍ أَخْطَأَتْ دَانِي مَرَامِيهَا

إِذَا تَغَيَّرَ سُلْطَانٌ تَغَيَّرَتِ ٱلْأَ مُ يَّامُ فِي أَهْلِهَا مَا دَامَ حَامِيهَا

سَلْ عَنْ رَفِيقِكَ مِنْ قَبْلِ ٱلطَّرِيقِ وَقَبْـ ـلَ ٱلدَّارِ عَنْ جِيرَةٍ تَثْوِي نَوَاحِيهَا

لَا تَذْكُرَنَّ مِنَ ٱلْأَقْوَالِ مُضْحِكَهَا وَلَوْ عَنِ ٱلْغَيْرِ قَدْ أَمْسَيْتَ رَاوِيهَا(١)

وَٱحْذَرْ مُشَاوَرَةَ ٱلنِّسْوَانِ مُجْتَنِبًا آرَاءَهُنَّ فَإِنَّ ٱلْأَفْنَ تَالِيهَا

وَكُفَّ أَبْصَارَهُنَّ بِٱلْحِجَابِ وَصِنْ دِيَارَهُنَّ عَنِ ٱلْأَغْيَارِ تَأْتِيهَا

إِنَّ ٱلنِّسَاءَ رَيَاحِينٌ وَلَيْسَ بِهِـ ـنَّ ٱلْقَهْرَمَانَةُ فَٱلْأَخْطَارُ تَتْقِيهَا

وَٱحْذَرْ مُغَايَرَةً فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا مَا بَيْنَهُنَّ يَلِيهَا ٱلشَّرُّ تُلْقِيهَا

وَٱجْعَلْ لِكُلٍّ مِنَ ٱلْخُدَّامِ عِنْدَكَ أَعْـ ـمَالًا مُخَصَّصَةً لَا بُدَّ يُجْرِيهَا

بِذَاكَ تَأْمَنُ مِنْ مُؤْذِي تَوَاكُلِهَا بِمَا يُنَاطُ بِهَا أَوْ مِنْ تَوَانِيهَا

أَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّكَ لَا تَعْلُو وَتُكْرَمُ إِلَّا فِي تَعَالِيهَا

فَهِيَ ٱلْجَنَاحُ بِهِ فِي أُفْقِ سُؤْدُدِكَ ٱلْأَ مُ سْمَى تَطِيرُ إِلَى ٱلْعَلْيَا تُدَانِيهَا

وَهِيَ ٱلْأُصُولُ ٱلَّتِي مِنْهَا نَشَأْتَ وَمَا تَعْلُو تَصِيرُ إِلَيْهَا لَا تُنَاوِيهَا

وَهِيَ ٱلْيَمِينُ ٱلَّتِي تَسْطُو بِهَا وَتَصُو لُ إِنْ دَهَاكَ مِنَ ٱلْأَرْزَاءِ دَاهِيهَا

أَسْتَوْدِعُ ٱللهَ رَبَّ ٱلْعَرْشِ دِينَكَ مَعْ دُنْيَاكَ ذِي بُغْيَتِي لِلّٰهِ أُسْدِيهَا

أخّر الشرّ فانك اذا شئت تعجلته ، وقطيعة الجاهل ، تعدل صلة العاقل ، من أمن الزمان خانه ، ومن أعظمه أهانه ، ليس كلٌّ من رمى أصاب ، اذا تغير السلطان تغير الزمان ، سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار .

(١) اياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً ، وان حكيت ذلك عن غيرك ، واياك ومشاورة النساء ، فان رأيهن الى أفن ، وعزمهن الى وهن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك اياهن ، فان شدّة الحجاب أبقى عليهن ، وليس خروجهن باشدّ من ادخالك من لا يوثق به عليهن ، وان استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل ، ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها ، فان المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، ولا تعدُ بكرامتها نفسها ، ولا تطمعها بأن تشفع بغيرها ، واياك والتغاير في غير موضع غيرة فان ذلك يدعو الصحيحة الى السقم ، والبريئة الى الريب ، واجعل لكلّ انسان من خدمك عملاً تأخذه به ، فانه أحرى أن لا يتواكلوا في خدمتك ، واكرم عشيرتك ، فانهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي اليه تصير ، ويدك التي بها تصول ، استودع الله دينك ودنياك ، واسأله خير القضاء لك ، في العاجلة والآجلة ، والسلام اه

مقتبسات من حكم امير المؤمنين (١)

« قليل العطاء خير من الحرمان »

وَافَى إِلَى ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّا ٱلْمُعِزُّ بِيُمْنِ ٱللهِ فِي لَيْلَةٍ عَمَّتْ تَهَانِيهَا(٢)
وَكُنْتُ مَا بَيْنَ مَنْ حَوْلَيْهِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعُرْبِ بِصَرِيهَا ٱلذَّاكِي وَكُوفِيهَا
فَأَقْبَلَتْ شُعَرَاءُ ٱلْقَوْمِ تَنْشُدُ فِي عُلَاهُ كُلَّ بَدِيعٍ مِنْ قَوَافِيهَا
فَكَانَ بَارَكَ رَبِّي فِي مَكَارِمِهِ يُجِيزُ مُنْشِدَهَا ٱلشَّادِي وَرَاوِيهَا
يُعْطِي ٱلْكَثِيرَ وَلَا يَنْفَكُّ مُعْتَذِرًا بِقَوْلَةِ ٱلْمُرْتَضَى يَرْوِي مَعَانِيهَا
يَقُولُ: لَا تَكُ فِي بَذْلِ ٱلْعَطَاءِ حَيِيًّا مَا يَقِلُّ فَخَيْرُ ٱلنَّاسِ سَاخِيهَا

---

(١) ان الحكمة المأثورة عن سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله فهو ولا جدال سيد الحكماء وعنه تروى الحكمة في مواطن السرّاء والضرّاء وقد وردت الحكمة على لسانه الشريف في كثير من رسائله وخطبه واقواله حتى قالوا انه كان ينطق بالحكمة في كلّ موطن اقام فيه ومجلس جلسه وموقف وقفه بل كانت جميع اقواله الشريفة واعماله المنيفة حكماً مأثورة منبثقة عن توقد ذكاء وسعة تجربة واختبار ولقد جمع الشريف الرضي بعض هاتيك الحكم في آخر كتاب نهج البلاغة فكانت حلية في الآداب ملأى بما يسدّد خطى الناس الى الرشاد والصواب وقد اقتبسنا بعضها فنظمناها حليةً لجيد علويتنا المباركة والأمل أن تعمّ فائدتها وتحسن على القراء الاتقياء عائدتها وبالله المستعان

(٢) عند ما شرعنا باقتباس الحكمة عن سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله اخذنا ندرسها ونتبحر في معانيها العالية حكمةً بعد حكمةٍ حتى وصلنا الى قوله الشريف « لا تستح من اعطاء القليل فان الحرمان اقلّ منه » تلونا هذه الحكمة وذكرنا في الحال عظمة مولانا معزّ السلطنة السردار أرفع الشيخ خزعل خان ادم الله شريف وجوده مدى الدوران فنه على سخائه المعهود وعطائه الجمّ المشهود يولي عوافيه العطايا بسخاء ويعتذر على كثرتها بقلتها متمثلاً بقول سيد الحكماء واذكراني سمعتها من فمه الشريف لاول مرة في شتاء سنة ١٩١١ مسيحية حيث كنت في خدمة ذاته السنية فصحبني معه الى البصرة في مساء يوم دعي فيه الى حفلة حافلة اقامها كرام البصريين لعظمته الملوكية شكراً له على مآتيه الطيبة لخير بلدهم واذ سمع شعراء العراق بتلك الحفلة اقبلوا زرافات اليها وهم يحملون اليه قصائدهم فلما بلغنا موضع الاحتفال في العشار ونزلنا الدار التي كانت مزدانة بالاعلام والانوار مدّت ابسطة الطعام فاكلنا هنيئاً مريئاً ثمّ جلس عظمة مولانا في صدر المجلس يحفّ بحضرته السنية الوالي وكبار المأمورين وسادات البصرة وعلماؤها واعيانها وتقدم الشعراء من حضرته الملوكية ينشدونه قصائدهم انشاداً بانغام شجية على عادة أهل العراق ومن كان منهم لا يحسن الانشاد كان يعتمد به على روايته على طريقة قدماء الشعراء وكان عظمة مولانا المعزّ يهتزّ للمديح اهتزاز الغصن المورق المثمر بهبوب الريح ويتبسم ابتسامة الرضاء والانشراح للمجيدين من اولئك المدّاح وكلما انتهى شاعر من تلاوة قصيدته أمر له بعطية ملوكية هي فوق ما كان يعطيه خلفاء بني العباس وكرام امراء

إِنَّ ٱلعَطَايَا وَإِنْ قَلَّتَ لَأَفْضَلُ مِنْ حُرْمَانِ مَنْ جَاءَنَا يَاصَحْبُ يَبْغِيهَا
وَتِلْكَ عَادَتُهُ مَعْ مَنْ يُبَلِّغُهُ أَقْصَى ٱلأَمَانِيَ ٱلَّتِيْ وَافَاهُ يُزْجِيهَا
لِلّٰهِ دَرُّكَ يَامَوْلَايَ خَزْعَلُ مِنْ سَمْحٍ عَطَايَاهُ قَدْ أَغْنَتْ مُرَجِّيهَا
لَوْ أَنَّ نَفْسَكَ فِيْ كَفَّيْكَ تَبْذُلُهَا عَفْواً وَأَنْتَ لِتَنْهَىْ ٱلنَّاسَ تُشْقِيهَا
تَرَىٱلْكَثِيرَ ٱلَّذِيْ لِلنَّاسِ تَبْذِلُهُ يَقِلُّ وَهْوَ وَأَيْمُ ٱللهِ مُغْنِيهَا
فَقُلْ لَنَا كَثْرَةُ ٱلإِعْطَاءِ كَيْفَ تَكُوْ نُ مِثْلَمَا انْتَ يَامَوْلَايَ تَدْرِيهَا
أَمَا كَثِيرٌ بِأَنْ تُلْفِيْ عُفَاتَكَ بِالآ م لَافِ يَغْمُرُ غَادِيهَا بِآتِيهَا
تَأْتِيْ خِفَافاً وَبِٱلأَثْقَالِ تُرْجِعُهَا إِلَى مَوَاطِنِهَا بِٱلْيُمْنِ تَثْوِيهَا
وَأَنْتَ رَازِقُهَا مِنْ بَعْدِ خَالِقِهَا وَأَنْتَ عَنْ كُلِّ خَلْقِ ٱللهِ مُغْنِيهَا
إِنْ كَانَ هٰذَا قَلِيلاً وَهْوَ مُبْلِغُنَا مَجْداً وَيُمْناً وَإِسْعَاداً وَتَرْفِيهَا
فَمَا ٱلْكَثِيرُ ٱلَّذِيْ تَبْغِيهِ نَطْلُبُهُ إِلاَّ كَثِيرَ حَيَاةٍ أَنْ تُلَاقِيهَا
فَفِيْ حَيَاتِكَ لِلْعُرْبِ ٱلْحَيَاةُ وَمَا آمَالُهَا ٱلْكُثْرُ إِلاَّ أَنْتَ مُحْيِيهَا

العرب الاكياس وكان يشفع العطاء بالاعتذار قائلاً : « اعذر ياصاح فدروك أغلى من هذا العطاء واذكر قول أمير المؤمنين عليه السلام فانه قال : لاتستح من اعطاء القليل فان الحرمان اقلُّ منه » ووالله الذي نفسي بيده ماكان في اولئك الشعراء من يطمع ببعض مانال ولو كان اسلافنا الشعراء في عصر عظمته لما ساءتهم الحال وشكوا من دهرهم على ما ابقوه لنا من العتب على الدهر في مأثور الاقوال فعجبت بالكرم الخزعلي الحاتمي ايما اعجاب وملت الى من حولي من الاصحاب وقلت : اذا كان هذا العطاء الجمّ هو القليل فكيف يكون الاحسان الكثير ???? فتبسم الحاضرون من قولي وقالوا ان السردار ارفع ليغني الناس ويعتذر فقلت في الحال

ومن حسنات الدهر ان ثتَّ لائذاً بخزعلَ أسمى من تسوَّد في العرب
يلاقي العوافي وهو معتذر لهم وينثر فيما بينهم بُدر الذهب

فتبسم عظمة مولاي لقولي وما رايته والله غير مبتسم وقال في الحال

قليل عليَّ بذل مالي جميعه لأُحيي موات العلم في العرب والأُدب
ومَن بيَ دون الناس أحسن ظنَّه فما بكثيرٍ أن أبلِّغه الأُرب
وان كنت لا أشري الثناء من الورى علىمَ الهي خصَّ بي الجاه والنشب

اقول فقد كانت ابيات عظمة مولانا الابيَّات لتربو على ما نثر من وفير الهبات فتعالت اصوات الدعاء لعظمته الملوكية ممن حضر وشهد هذه الصفات العالية والاخلاق الراضية

« وصية المعزّ لنصرة الملك »

رَوَتْ وَتَرْوِي عَلَى مَرِّ ٱلزَّمَانِ حَوَا ... دِثَ ٱلْمُحَمَّرَةِ ٱلزَّهْرَا أَهَالِيهَا(١)
فَكُلَّ يَوْمٍ لَهَا مِنْهَا ٱلْجَدِيدُ مِنَ ٱلْآ ... لَاءِ تَشْهَدُهَا مِنْ فَضْلِ حَامِيهَا
وَحَسْبُهَا أَنَّهَا فِي ظِلِّ خَزْعَلِهَا ... فَازَتْ بِكُلِّ بَعِيدٍ مِنْ أَمَانِيهَا
وَخَصَّهَا بِٱبْنِهِ ٱلْمِقْدَامِ جَاسِبِ خَا ... نِ نَصْرَةِ ٱلْمُلْكِ إِذْ سَمَّاهُ وَالِيهَا
وَقَدْ دَعَاهُ إِلَيْهِ كَيْ يُوَصِّيَهُ ... بِأُمَّةٍ بِٱسْمِهِ قَدْ بَاتَ رَاعِيهَا
فَقَالَ: فَٱذْكُرْ هَدَاكَ ٱللهُ يَا وَلَدِي ... وَصِيَّةَ ٱلْمُرْتَضَى أَعْظِمْ بِمُوصِيهَا
فَقَالَ: إِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَعِينُ بِهِ ... مِنَ ٱلصِّحَابِ عَلَى ٱلْأَحْكَامِ تُجْرِيهَا
أَقِمْ شَرِيعَةَ طَهَ فِي أَوَامِرِهَا ... بَيْنَ ٱلْعِبَادِ وَفِي شَتَّى نَوَاهِيهَا
وَٱقْمَعْ بِهَا نَخْوَةَ ٱلْفُجَّارِ مَا أَثِمَتْ ... وَلِلْعَرَارَةِ يَا ٱبْنِي كُنْ مُنَخِّيهَا
وَأَمِّنِ ٱلنَّاسَ مِنْ دَاهِي مَخَاوِفِهَا ... وَمِنْ صُرُوفِ ٱللَّيَالِي أَنْ تُفَاجِيهَا
وَفِي ٱلْهُمُومِ ٱسْتَعِنْ بِٱللهِ فَهْوَ بِلَا ... شَكٍّ بِرَحْمَتِهِ ٱلْكُبْرَى يُجَلِّيهَا
وَفِي ٱلرَّعِيَّةِ كُنْ ذَا شِدَّةٍ مُزِجَتْ ... بِٱللِّينِ فِي ذَاكَ لِلْإِنْصَافِ تُمْشِيهَا
فَٱرْفُقْ بِهَا إِنْ وَجَدْتَ ٱلرِّفْقَ يَنْفَعُهَا ... وَٱشْتَدَّ يَوْمَ يَكُونُ ٱلرِّفْقُ مُؤْذِيهَا
وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لَا هَوْنًا وَلَا ضِعَةً ... لَهَا وَبِٱلْحِلْمِ كُنْ يَا ٱبْنِي مُمَاشِيهَا

---

(١) يخلق بنا ونحن نقبس الحكمة عن سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله ان نذكر ما سبق لنا ذكره من تمثل مولانا السردار ارفع صاحب العظمة الشيخ خزعل خان بالحكم العلوية من ذلك انه حفظه الله عند ماولى كبير الانجال حضرة نصرة الملك صاحب السمو الشيخ جاسب خان ولاية المحمرة وحكمها دعاه اليه وقال له : ياولدي انك لسائر وانت في مقتبل العمر لحكم فئة من رعاياي هم سكان المحمرة واريد أن أوصيك ولكني لااوصيك من عند نفسي بل اذكرك بوصية سيدنا أبي الحسن عليه السلام وقد كتب بها الى احد عماله فقال « أمّا بعد ، فانك ممن استظهر به على اقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأثيم ، وأسدّ به لهاة الثغر المخوف ، فاستعن بالله على ما اهمك ، واخلط الشدّة بضغث من اللين ، وارفق ماكان الرفق أرفق . واعتزم بالشدّة حين لايغني عنك الا الشدّة ، واخفض للرعية جناحك ، وابسط لهم وجهك ، وألن لهم جانبك ، وآس بينهم في اللحظة والنظرة ، والاشارة والتحية ، حتى لا يطمع العظماء في حيفك ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك ، والسلام » أقول بهذه الوصية العلوية الثمينة أوفى عظمة المعزّ كبير انجاله الى المحمرة حاكماً عليها فسار سمو نصرة

وَٱبْسُطْ لَهَا وَجْهَكَ ٱلْمَيْمُونُ طَالِعُهُ ... لَمَّا تَجِيئُكَ بِٱلآمَالِ تُزْجِيهَا

وَآسِ مَا بَيْنَهَا حَتَّى بِنَظْرَةِ عَيْـــنٍ رُحْتَ مُرْسِلَهَا وَٱحْكُمْ تُسَاوِيهَا

فَمَا بِحَيْفِكَ فِي ذَا تَطْمَعُ ٱلْعُظَمَا ... يَوْمًا وَتَأْتِي كَمَا تَهْوَى مَسَاوِيهَا

وَلَا مِنَ ٱلْعَدْلِ يَسْتَوْلِي عَلَى ٱلضُّعَفَا ... يَأْسٌ فَإِنْ يَئِسَتْ لَا شَيْءَ يُرْضِيهَا

أَوْصَى ٱلْمُعِزُّ ٱبْنَهُ تِلْكَ ٱلْوَصِيَّةَ مُبْـــدِيًا ... لَهُ مَا تَعَالَى مِنْ مَرَامِيهَا

فَكَانَ مُتَّبِعًا أَحْكَامَهَا أَبَدًا ... بَيْنَ ٱلرَّعِيَّةِ سُفْلِيهَا وَعُلْوِيهَا

فَٱسْتَرْسَلَتْ بِدُعَاهَا أَنْ يَدُومَ لَهَا ... مُعِزُّهَا وَٱسْتَجَابَ ٱللهُ دَاعِيهَا

« حسن التحية وشكر النعمة »

كُنَّا وَكَانَتْ لَنَا ٱلنُّعْمَى بِمَجْلِسِ مَوْ ... لَانَا ٱلْمُعِزِّ ٱلْمُفَدَّى وَهُوَ مُولِيهَا (١)

فِي خَلْسَةٍ هِيَ أَغْلَى مَا ٱلزَّمَانُ بِهِ ... قَدْ جَادَ يَا لَيْتَ لَمْ تَنْفَدْ ثَوَانِيهَا

وَإِذْ أَتَاهُ ٱبْنُهُ عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ يُرِيـــدُ ٱلْإِذْنَ فِي رَحْلَةٍ قَدْ كَانَ نَاوِيهَا

وَكَانَ لِلْبَصْرَةِ ٱلْفَيْحَاءِ يَقْصُدُ كَيْ ... يُرَوِّحَ ٱلنَّفْسَ فِي زَاهِي مَغَانِيهَا

الملك بها وهو يدرس معانيها العالية فطبقها اجمل تطبيق في حكومته فانطلقت ألسن الناس بالدعاء لعظمة مولانا ومولاه السردار ارفع وانه الدعاء المستجاب ان شاء الله

وعلى ذكر سمو نصرة الملك تقول انه تولى المحمرة للمرة الاولى في سنة ١٩٠٧ ثم تولى ناصرية الاهواز في سنة ١٩١٠ ثم عاد فولي المحمرة سنة ١٩١٤ ولا يزال حاكمها الى الآن وهو ساهر على اجراء العدل في البلد والعمل على انجاح اهله واسعادهم تحقيقاً لنوايا عظمة والده العظيم الخيرية التي تحمدها الرعية وتذكرها بالثناء عموم البلاد العربية وقد تشرّفنا بالانتماء الى سموه فكنا ولا نزال معجبين بسداد رأيه وجمّ كرمه وباهر آلائه ولا غرو في ذلك فهو ابن خزعل خان مصدر البرّ والعرفان والولد سرّ ابيه فلا عجب وقد نجب أن يحكيه بيرّ اياديه

(١) اشرنا في فاتحة علويتنا المباركة الى ما اعتاده عظمة مولاي ولي النعم صاحب العظمة الشيخ خزعل خان المعظم من ترديد حكم سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله في مجالسه العالية عظةً للناس وذكرى وما مجالس عظمته الا عكاظ الأدب والعلم والشعر تغصّ دائماً أبداً بالعلماء والشعراء والادباء فيعيشون ببرّه ويتأدبون بادبه . وقلنا اننا تربينا على يدي عظمته على حبّ الحضرة المقدسة الحيدرية وتلقينا من فمه اقوالها الشريفة وخطبها المنيفة . فلما أخذنا نقتبس من الحكمة العلوية دررها انتهينا الى قول أمير المؤمنين عليه صلوات الله « اذا حييت بتحية فحيّ بأحسن منها ، واذا اسديت اليك يد فكافئها بما يربي عليها ، والفضل مع ذلك للبادي » فذكرت حادثةً مرّت بي عندما كنت متشرفاً بخدمة هذا الامير الجليل الذي

فَقَالَ : يَاوَلَدِيْ سِرْ فِيْ حِمَايَةِ رَ ... بِّ ٱلْعَرْشِ فَازَ ٱلَّذِي يَبْغِي تَظَـلِّـيْهَا
وَكُنْ بِرِحْلَتِكَ ٱلزَّهْرَاءِ ذَا أَدَبٍ ... مَعْ كُلِّ مَنْ أَنْتَ مُلْفٍ فِيْ مَثَاوِيْهَا
وَٱحْفَظْ وَصِيَّةَ مَوْلَانَا أَبِيْ حَسَنٍ ... مَعَ ٱلْكِرَامِ ٱلأُلَى تُمْسِي مُلَاقِيْهَا
حَيِّ ٱلْمُحَيِّيْ بِأَوْفَى مِنْ تَحِيَّتِهِ ... وَإِنْ تَمُرَّ بِقَوْمٍ رُخْ مُحَيِّيْهَا
وَإِنْ إِلَيْكَ يَدٌ قَدْ أُسْدِيَتْ فَبِمَا ... يُرْبِي عَلَيْهَا بُنَيَّ كُنْ مُكَافِيْهَا
وَٱلْفَضْلُ مَعْ ذَاكَ لِلْبَادِيْ وَبَدْأَتُهُ ... مَشْكُوْرَةٌ لَا تَكُنْ مَا عِشْتَ نَاسِيْهَا
بِمِثْلِ ذَا خَزْعَلٌ مَا زَالَ يَغْرِسُ فِيْ ... أَذْهَانِ أَبْنَائِهِ ٱلآدَابَ زَاهِيْهَا
حَتَّى غَدَتْ أَنْجُمًا فِي افْقِ سُؤْدُدِهِ ... وَإِنَّهُ شَمْسُهَا ٱلْبَادِيْ تَلَالِيْهَا

« المناقب الخزعلية »

تَسَاوَتِ ٱلنَّاسُ إِلاَّ فِيْ خَلَائِقِهَا ... هُنَاكَ يَظْهَرُ عَالِيْهَا وَوَاطِيْهَا(١)
وَلَيْسَ يُظْهِرُ أَخْلَاقَ ٱلْخَلَائِقِ غَيْـ ... ـرُ ٱلدَّهْرِ فَهْوَ ٱلَّذِي يُبْدِيْ خَوَافِيْهَا
وَهْوَ ذَا خَزْعَلٌ أَبْدَى ٱلزَّمَانُ لَهُ ... مِنَ ٱلْمَآثِرِ وَٱلآلَاءِ سَامِيْهَا

مضت الدهور وما أتين بمثله ... ولقد اتى فعجزن عن نظرائه

وذلك انا في ضحى ذات يوم من صيف سنة ١٩١١ مسيحية بينما كنا في الحضرة السنية الخزعلية في القصر المعمور في الكمالية من ضواحي المحمرة المحمية واذا بالشبل النجيب نجل الانجال صاحب السمو الشيخ عبد الحميد خان حاكم الاهواز اليوم دخل بعد الاستئذان على عظمته وهو شاب صبوح الوجه باهر الأدب لم يكن وقتئذ في اكثر من الثالثة عشرة من ربيع عمره وكان مقدم سموه للاستئذان لقضاء بعض ايام في البصرة ترويحاً للنفس بعد عناء المطالعة والدرس فتبسم عظمة مولانا ولي النعم تبسم الأب الشفيق الحنون واظهر لسمو نجله من الحنو الأبوي ماتتمناه على كل أب نحو أولاده وقال حفظه الله : ياولدي ، انك ذاهب للبصرة ، فبرعاية الله ، واوصيك أن تظهر لاهلها من آدابك ، ماهو خليق بمقامك ، ولا تنس حكمة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وهي « اذا حييت بتحية فحي بأحسن منها ، واذا اسديت اليك يد فكافئها بما يربي عليها ، والفضل مع ذلك للبادي » فقال سمو الامير النجيب وهو ماثل امام عظمة والده بغاية الادب والاحترام : انها لحكمة ربيتنا عليها يا ابتاه ، وحاشا لي ان اعمل الاما فيه رضاء امير المؤمنين ورضاك . فعجبنا بالولد والوالد ، وقلنا ألا هكذا فلتكن المحامد ، وهكذا فليرب الماجد ابناءه الاماجد . نقول وهذه الحكمة العلوية القسم الاول منها آية من كتاب الله على ما لايخفى

(١) أي والله انَّ عظمة مولانا السردار ارفع روحي فداه لقد تجمل بالاخلاق الراضية والمآثر المتلالية حتى ليعجز اللسان عن شكرها والبيان عن تبيانها فمن سماح الى حزم الى كرم الى ما

فَمِنْ سَمَاحٍ إِلَى حِلْمٍ إِلَى كَرَمٍ   إِلَى جَلَالٍ خِلَالٌ جَلَّ مُسْنِيهَا
بِالْعَفْوِ يَلْقَى أَعَادِيهِ وَيَصْفَحُ عَنْ   آثَامِهَا وَهُوَ كَيْفَ أَنْ يُرَبِّيهَا
يَقُولُ: أَوْلَى الْوَرَى بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ   عَلَى الْعُقُوبَةِ إِنِّي لَسْتُ اجْزِيهَا
وَيَبْذِلُ الْمَالَ مِنْ قَبْلِ السُّؤَالِ إِلَى   عُفَاتِهِ وَبِهِ عَفْواً يُفَاجِيهَا
يَقُولُ: إِنَّ السَّخَا مَا كَانَ يَصْدُرُ عَفْـــواً وَابْتِدَاءً وَخَيْرُ النَّاسِ سَاخِيهَا
فَإِنْ يَجُدْ ذُوْ عَطَا مِنْ بَعْدِ مَسْأَلَةٍ   فَعَنْ حَيَـاءٍ عَطَايَاهُ يُؤَدِّيهَا
فَذَا الْمُعِزُّ وَذِي غُرًّا خَلَائِقُـهُ   يُبْدِي الزَّمَانُ لَنَا زَاهِي لَآلِيهَا

« خيار الرجال »

قَدْرُ الرِّجَالِ عَلَى مِقْدَارِ هِمَّتِهَا   فَهِيَ الَّتِي فِي مَجَالِي الْمَجْدِ تُعْلِيهَا(١)
وَصِدْقُهَا مِنْ جَنَى سَامِي مُرُوءَتِهَا   وَهِيَ الَّتِي عَنْ هَوَانِ الْكِذْبِ تُنْئِيهَا
وَقُلْ شَجَاعَتُهَا مِنْ فَضْلِ نَخْوَتِهَا   بِهِ تُلَاقِي بِلَا خَوْفٍ أَعَادِيهَا
كَذَاكَ عِفَّتُهَا مِنْ فَضْلِ غَيْرَتِهَا   تَصُونُ آدَابَهَا صَوْناً وَتُرْقِيهَا
فَفِي خَلَائِقِ مَوْلَانَا الْمُعِزِّ بِهَـا   قَدْ نَالَ مِنْ رُتَبِ الْعَلْيَاءِ سَامِيهَا

« الشفيع جناح الطالب »

إِنَّ الْحَوَائِجَ لَا تُقْضَى بِغَيْرِ شَفَا   عَةٍ إِذَا عَظُمَتْ اوْ عَزَّ مُسْنِيهَا(٢)
كَذَا الشَّفِيعُ جَنَاحٌ قَدْ يَطِيرُ بِهِ   إِلَى رَغَائِبِهِ فِي الْحَالِ رَاجِيهَا

شاء الله من محامد الخلال والفعال وطالما شهدناه يعفوعن عداته وهو قادر على التنكيل بهم ثمَّ يتمثل يقول سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله « أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة » وكم شهدناه اعزَّ الله به العرب يبذل امواله الى عفاته بسخاء وغيرطلب بل يفاجئهم به مفاجئةً بمافوق الأرب ويقول لمن حوله من الاعوان واعظاً مذكراً مقالة سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله «السخاء ما كان ابتداءً فإن كان عن مسألة فحياء وتدمم » فهذا هو أميرنا المحبوب الذي نعيش في ظله الظليل فهل نلام اذا افتديناه بنفوسنا ؟ ؟

(١) قال أمير المؤمنين عليه صلوات الله « قدر الرجل على قدر همته ، وصدقه على قدر مروئته ، وشجاعته على قدر انفته ، وعفته على قدر غيرته » وانها والله الخلال الزاهرة التي تجمل بها عظمة مولاي السردار ارفع روحي فداه

(٢) قال سيدنا أمير المؤمنين « الشفاعة جناح الطالب » وخير شفيع للناس هم المصطفى والمرتضى وآل البيت الخيرين عليهم الصلاة والسلام

« فاعل الخير خير منه »

لَمْ تَعْرِفِ ٱلنَّاسُ جَوَّاداً كَخَرْعَلِنَا بِٱلْبِرِّ وَٱلْيُسْرِ وَٱلْحُسْنَى يُلَاقِيهَا
وَأَدْرَكَتْ فِي حِمَاهُ أَنَّ هِمَّتَهُ تَزِينُ جُودَتَهُ ٱلْحَسْنَا وَتُسْمِيهَا
وَإِنَّهُ يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَاتِ وَهْوَ وَأَيْـمُ ٱللهِ أَخْيَرُ مِنْهَا يَوْمَ يَأْتِيهَا(١)
وَأَنَّهُ يَزَعُ ٱلْأَشْرَارَ يَعْرِفُ أَنَّ ٱلشَّرَّ مِنْ بَعْضِ مَا تُخْفِي مَطَاوِيهَا
هٰذَا ٱلَّذِي تَتَغَنَّى بَيْنَ أُمَّتِنَا بِمَدْحِهِ ٱلزَّاهِرِ ٱلزَّاهِي فَتُشْجِيهَا

« المرء كثير باخوانه »

إِحْفَظْ عُهُودَ ٱلْأُلَى أَصْفَوْكَ وِدَّهُمُ مِنَ ٱلْأَحِبَّةِ دَانِيهَا وَنَائِيهَا
فَٱلْمَرْءُ يَكْثُرُ بِٱلْإِخْوَانِ إِنْ كَثُرَتْ بِهَا عَوَادِي ٱلْقَضَا ٱلسُّوءَى يُلَاقِيهَا(٢)
وَأَعْجَزُ ٱلنَّاسِ مَنْ أَعْيَتْهُ حِيلَتُهُ عَنِ ٱكْتِسَابِ قُلُوبِ ٱلنَّاسِ يَقْنِيهَا(٣)
وَكَانَ أَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ أَضَاعَ صِحَابَةً لَقَدْ صَدَقَتْهُ فِي تَآخِيهَا

« حب الخلود »

عَجِبْتُ لِلنَّاسِ تَغْنَى بِٱلْحَيَاةِ وَتَرْجُو أَنْ تُخَلَّدَ فِيهَا لَا تُخَلِّيهَا
وَهُمْ كَرَكْبٍ نِيَامٍ وَٱلزَّمَانُ بِهِمْ يَسْعَى وَسَاعَاتُهُ تَحْدُو ثَوَانِيهَا(٤)

«ربَّ أخ لم تلده أمك»

إِنْ لَمْ يُعِنْكَ عَلَى ٱلْأَخْطَارِ ذُو رَحِمٍ فَقَدْ يُعِنْكَ غَرِيبٌ فِي تَوَقِّيهَا
وَقِيلَ رُبَّ أَخٍ يَحْنُو عَلَيْكَ وَلَمْ تَعْرِفْهُ أُمُّكَ يَوْمًا فِي ذَرَارِيهَا(٥)
وَإِنْ أَضَاعَكَ فِي ٱلشِّدَّاتِ صَاحِبُكَ ٱلْأَدْنَى أُتِيحَ لَكَ ٱلْأَقْصَى لِتُقْصِيهَا

---

(١) ان عظمة مولانا السردار أطال الله بقاءه لحريٌّ ان نقتبس في مديحه الاسنى الحكمة الحيدرية العالية وهي « فاعل الخير خير منه ، وفاعل الشرّ شرٌّ منه » على نحو ما رأيت فبارك الله فيه

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قتل جعفر بمؤتة « المرء كثير باخيه »

(٣) قال امير المؤمنين عليه صلوات الله « اعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان ، واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم »

(٤) قال سيد الحكماء سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله «أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام»

(٥) قال صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام «رب أخ لم تلده امك» وقال عليه صلوات الله « من ضيعه الاقرب اتيح له الابعد »

« الصديق الخدّاع »

قُلْ لِلَّئِيمِ ٱلَّذِي يُخْفِي ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْـبَغْضَاءَ وَٱلْحِقْدَ تَضْلِيلاً وَتَمْوِيهَا
لاَ بُدَّ مِنْ فَلْتَةٍ يَجْرِي ٱللِّسَانُ بِهَا عَفْوَاً فَتَظْهَرُ أَخْلاَقَاً تُخَفِّيهَا(١)
وَٱلْوَجْهُ تَاللهِ نَمَّامٌ بِصَاحِبِهِ عَلَى سَرِيرَتِهِ لِلنَّاسِ يُبْدِيهَا
وَقَلَّمَا يَخْدَعُ ٱلإِخْوَانَ يَخْتِلُهَا إِلاَّ إِلَى أَجَلٍ يُقْضَى مُمَارِيهَا

« الحقّ والباطل »

خَيْرُ ٱلْعِبَادِ ٱلَّذِي قَدْ بَاتَ يَنْصُرُ حَقَّ ٱللهِ فِي حَرْبِ مَنْ يَبْغِي ٱلتَّرَارِيهَا
وَشَرُّهُمْ مَنْ أَبَاطِيلَ ٱلْوَرَى نَصَرُوا وَمَالَئُوا رَغْبَةَ ٱلدُّنْيَا مُوَالِيهَا
أَمَّا ٱلأُلَى خَذَلُوا حَقَّاً وَمَا نَصَرُوا بُطْلَا فَسَفَهُهُمْ تَاللهِ تَسْفِيهَا(٢)

« ان أفلت اللسان عقر »

إِنَّ ٱللِّسَانَ إِذَا أَطْلَقْتَهُ لَحَكَى مِنَ ٱلْوُحُوشِ ٱلَّتِي تُؤْذِي ضَوَارِيهَا(٣)
فَيَعْقِرُ ٱلنَّاسَ عَفْوَاً وَهُوَ مُنْطَلِقٌ فِي هَذْرِهِ حَيْثُ يَبْغِي أَنْ يُرَاشِيهَا

« اللسان يجلب الهوان »

صُنِ ٱللِّسَانَ وَحَاذِرْ أَنْ تَفُوهَ بِهِ لَغْوَاً وَشَرُّ عِبَادِ ٱللهِ لاَغِيهَا(٤)
وَمَنْ عَلَى نَفْسِهِ يَسْطُو بِلَا حَذَرٍ لِسَانُهُ فَهْوَ فِي ٱلإِهْوَانِ مُلْقِيهَا

« العفو شكر القدرة »

إِنَّ ٱلْكَرِيمَ يَصُونُ ٱلنَّفْسَ عَنْ نَزَعَاتِ ٱللُّؤْمِ إِنْ قَهَرَتْ يَوْمَاً مُعَادِيهَا
تُلْفِيهِ يَصْفَحُ حِلْمَاً وَهْوَ مُقْتَدِرٌ عَلَى ٱلْعِدَى لَوْ يَشَا أَمْسَى مُلاَشِيهَا
وَيَجْعَلُ ٱلْعَفْوَ شُكْرَ ٱلاِقْتِدَارِ عَلَيْـهَا حَامِدَاً لِمُقَوِّيهِ وَمُوهِيهَا (٥)

---

(١) قال الامام علي عليه السلام «ما أضمر أحد شيئاً، الا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه»

(٢) قال ابو الحسن عليه السلام في الذين اعتزلوا القتال معه في صفين « خذلوا الحقّ ولم ينصروا الباطل » فذهبت كلمته مثلاً وحكمة

(٣) قال سيدنا أبو الحسنين عليه صلوات الله « اللسان سبع ان خُلّي عنه عقر »

(٤) قال سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله « هانت عليه نفسه مَن أمَّر عليه لسانه »

(٥) قال المرتضى عليه صلوات الله « اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه »

« مخالطة الناس »

خَيْرُ ٱلْخَلَائِقِ مَنْ كَانَتْ خَلَائِقُهُ مَحْمُودَةً قَدْ تَنَاهَتْ فِي تَسَامِيهَا
يُخَالِطُ ٱلنَّاسَ بِٱلْحُسْنَى مُخَالَطَةً يَسُرُّ ظَاهِرُهَا ٱلْبَادِي وَخَافِيهَا (١)
فَإِنْ يَمُتْ تَبْكِهِ حِزْنًا عَلَيْهِ وَإِنْ يَعِشْ يَفُزْ بِجَلِيلٍ مِنْ تَمَنِّيهَا

« الدنيا وأهلها »

يَا أَهْلَ وُدِّي هِيَ ٱلدُّنْيَا ٱلْغَرُورُ فَمَا مِنْهَا أَمَانٌ وَلَا صَفْوٌ لِأَهْلِيهَا
نَعَمْ فَإِنْ أَقْبَلَتْ يَوْمًا عَلَى فِئَةٍ تُعِيرُهَا مِنْ صِفَاتِ ٱلْغَيْرِ زَاهِيهَا (٢)
أَمَّا إِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهَا فَتَسْلُبُهَا مَحَاسِنًا عُرِفَتْ بَيْنَ ٱلْوَرَى فِيهَا

« من رضي من نفسه كثر الساخط عليه »

بِٱلنَّفْسِ لَا تَغْتَرِرْ يَا صَاحِ فَهْيَ مَطِيَّةُ ٱلْغُرُورِ وَحَاذِرْ انْ تُجَارِيهَا
وَلَا تَكُنْ رَاضِيًا عَنْهَا فَيَسْخَطُ أَكْثَرُ ٱلْأُلَى نِلْتَ مِنْهُمْ فِي تَرَضِّيهَا (٣)

« المسالمة خبء العيوب »

مَنْ سَالَمَ ٱلنَّاسَ يَسْلَمْ مِنْ عَدَاوَتِهَا فَلَمْ تَنَلْهُ بِفِيهَا فِي نَوَادِيهَا
وَفِي ٱلْمُسَالَمَةِ ٱلْحَسْنَاءِ خَبْءُ عُيُوبِ ٱلْمَرْءِ فَهْوَ أَمِينٌ مِنْ تَفَشِّيهَا (٤)

« القناعة مال لا ينفد »

مَا لِلْغَنِيِّ وَأُلْفِيهِ عَلَى طَلَبِ ٱلْأَ مْوَالِ مُنْعَكِفًا يَعْنَى لِيَجْنِيهَا
أَظَنَّ يَحْيَا خُلُودًا أَمْ بِهِ عَمَهٌ عَنِ ٱلرَّزَايَا ٱلَّتِي حَوْلَيْهِ يُلْفِيهَا
وَفِي ٱلْقَنَاعَةِ مَالٌ لَا نَفَادَ لَهُ لَدَى ٱلْحَكِيمِ إِذَا مَا بَاتَ رَاضِيهَا (٥)

---

(١) قال أبو الحسنين عليه صلوات الله « خالطوا الناس مخالطةً ، ان متم معها بكوا عليكم ، وان عشتم حنوا اليكم »

(٢) قال سيدنا علي عليه السلام « اذا أقبلت الدنيا على قوم ، اعارتهم محاسن غيرهم ، واذا ادبرت عنهم ، سلبت محاسن أنفسهم »

(٣) قال سيف الله الغالب عليه صلوات الله « من رضي من نفسه كثر الساخط عليه »

(٤) قال يعسوب الدين عليه صلوات الله « المسالمة خبء العيوب »

(٥) قال صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام « القناعة مال لا ينفد »

« المنى والمنون »

لاَ تَشْتَغِلْ بِأَمَانٍ لاَ تُنَالُ فَإِنَّ ٱلنَّفْسَ لاَ تَنْقَضِي يَوْماً أَمَانِيهَا
وَمَنْ جَرَى فِي مَيَادِينِ ٱلْمُنَى صَدَمَتْهُ فَاجِعَاتُ ٱلْمَنَايَا وَهْوَ نَاسِيهَا (١)

« الزهد ثروة »

إِنْ لَمْ تَفُزْ بِكُنُوزِ ٱلأَرْضِ تَكْنِزُهَا فَٱزْهَدْ بِهَا وَتَرَفَّعْ عَنْ مُحِبِّيهَا
وَٱلزُّهْدُ لِلْمُدْرِكِ ٱلْمَحْرُومِ أَكْبَرُ ثَرْوَةٍ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ ٱلدَّهْرِ يَقْنِيهَا (٢)

« السلامة في التسليم »

سَلِّمْ أُمُورَكَ لِلْخَلاَّقِ مُعْتَمِداً عَلَيْهِ فَهْوَ عَلَى مَا شَاءَ يُمْضِيهَا
وَلِلْمَقَادِيرِ أَحْكَامٌ مُنَفَّذَةٌ عَلَى ٱلْخَلاَئِقِ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا
لَهَا تَذِلُّ أُمُورُ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِهَا حَتَّى لَتَعْجَزَ عَجْزاً عَنْ تَوَقِّيهَا (٣)

« صدر العاقل صندوق سرّه »

صُنْ فِي سَرِيرَتِكَ ٱلأَسْرَارَ لاَ تَكُ ثَرْ ثَاراً تَفُوهُ بِهَا لِلنَّاسِ تَرْوِيهَا
وَإِنْ أَمِنْتَ عَلَيْهَا ٱلْغَيْرَ عَنْ سَفَهٍ فَلاَ تَلُمْهُ إِذَا مَا رَاحَ يُفْشِيهَا
وَصَدْرُ رَبِّ ٱلنُّهَى لِلسِّرِّ يَجْعَلُهُ خِزَانَةً وَيَعِيهِ فِي مَطَاوِيهَا (٤)

« الصبر »

أَصْبِرْ فَفِي ٱلصَّبْرِ مَنْجَاةٌ مِنَ ٱلْغِيَرِ ٱلَّتِي دَهَتْ رَيْثَمَا بِٱلصَّبْرِ تُقْصِيهَا
وَٱصْبِرْ أُخَيَّ عَلَى مَا أَنْتَ تَكْرَهُهُ وَعَنْ أَمَانٍ مَضَتْ قَدْ كُنْتَ رَاجِيهَا (٥)

« عيبك مستور ماأسعدك جدّك »

إِنْ أَسْعَدَ ٱلْجَدُّ إِنْسَاناً وَأَسْعَفَهُ أَخْفَى مَعَايِبَهُ عَنْ عَيْنِ رَائِيهَا (٦)
وَبَاتَ وَٱلنَّاسُ طُرّاً عَنْهُ رَاضِيَةٌ تَرْوِي مَحَاسِنَهُ ٱلْغُرَّا وَتُطْرِيهَا

---

(١) قال صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام « من جرى في عنان أمله ، عثر بأجله »
(٢) قال وصي رسول الله عليهما الصلاة والسلام « الزهد ثروة »
(٣) قال امام المتقين عليه صلوات الله « تذلّ الامور للمقادير، حتى يكون الحتف في التدبير »
(٤) قال أمير المؤمنين عليه صلوات الله « صدر العاقل صندوق سره »
(٥) قال المرتضى عليه صلوات الله « الصبر صبران ، صبر على ماتكره، وصبر عما تحبّ »
(٦) قال يعسوب الدين عليه صلوات الله « عيبك مستور ما اسعدك جدّك »

« مسرة النفوس مثاب »

وَبَيْنَمَا كُنْتُ فِي قَصْرِ ٱلْكَمَالِيَةِ ٱلْـــعَالِي بِغُرْفَتِيَ ٱلْعَلْيَاءِ ثَاوِيهَا(١)
مُفَكِّرًا بِسُعُودٍ قَدْ خُصِصْتُ بِهَا مِنْ فَضْلِ رَبِّيَ رَاضٍ عَنْ تَقَنِّيهَا
وَإِذْ بِثَالِثِ أَنْجَالِ ٱلْمُعِزِّ مَجِيـــدٍ لِلزِّيَارَةِ وَافَانِي يُؤَدِّيهَا
فَقَالَ لِي: مَرْحَبًا وَافَيْتَ دَارَ أَبِي يُمْنًا وَنَالَ ٱلْمُنَى حَتْمًا مُوَافِيهَا
وَنَحْنُ أَبْنَاؤُهُ سَلْنَا حَوَائِجَكَ ٱلْـــكُبْرَى فَبِٱسْمِ أَبِينَا ٱلْبَرِّ نَقْضِيهَا
فَحِرْتُ كَيْفَ ٱلَاقِي عَطْفَ زَائِرِيَ ٱلْـــمَجِيدِ أَوْ أَيَّ آيِ ٱلْحَمْدِ أُزْجِيهَا
ثُمَّ جَلَسْتُ إِلَيْـهِ مُعْجَبًا بِشَمَا ئِلِ حِسَانٍ عَلَيْهِ لَاحَ زَاهِيهَا
فَشِمْتُ فِي شَخْصِهِ ٱلْآدَابَ بَاهِرَةً وَٱلرُّشْدُ وَٱلرِّفْدُ مِنْ أَسْنَى مَجَالِيهَا
ثُمَّ ٱنْثَنَى رَاجِعًا بِٱلْيُمْنِ تَتْبَعُهُ نَفْسِي ٱلَّتِي عَطْفُهُ قَدْ رَاحَ سَابِيهَا
وَقَدْ ذَكَرْتُ لِمَوْلَايَ ٱلْمُعِزِّ زِيَا رَةَ ٱلْأَمِيرِ وَبُشْرِي مِنْ تَلَقِّيهَا
فَقَالَ: إِنْ أَوْرَثَتْكَ ٱلْبِشْرَ فَهْوَ بِهَا يُثَابُ مَثُوبَةً ذُو ٱلدِّينِ يَبْغِيهَا
إِذْ قَالَ حَيْدَرَةٌ نَفْسِي ٱلْفِدَاءُ لَهُ مَقَالَةً فَازَ بِٱلنَّعْمَاءِ مُصْغِيهَا
مَنْ يُودِعُ ٱلْأَنْفُسَ ٱلْأَفْرَاحَ فَهْوَ يَرَا هَا فِي ٱلنَّوَائِبِ إِنْ يَغْشَاهُ غَاشِيهَا
وَٱللهُ يَخْلُقُ مِنْهَا ٱللُّطْفَ يَبْعَثُهُ عَلَى شَدَائِدِهِ كَيْمَا يُجَلِّيهَا
فَقُلْتُ: مَوْلَايَ أَفْرَحْتَ ٱلنُّفُوسَ جَمِيـــعَهَا لَكَ ٱلْأَجْرُ مِنْ إِحْسَانِ بَارِيهَا
وَٱسْلَمْ لِأُمَّةِ طَـهَ وَٱلزَّمَانُ بِأَيْـــدِيكَ ٱلْحِسَانِ ٱلَّتِي عَمَّتْ تَهَنِّيهَا

---

(١) قلنا وكررنا القول أنَّ عظمة مولانا السردار أرفع رعاه الله يتمثل دائماً أبداً بالحكم العلوية المنيفة ويطبقها على اعماله الشريفة شأن المحب الصادق والورع الصالح . وحدث اني بينما كنت يوماً في الخدمة السنية الخزعلية في القصر المعمور في الكمالية وانا منزوي في غرفتي التي تفضل عظمة مولاي ولي النعم تخصني بها في الدور الخارجي المعد لنزول خاصة عبيده ومماليكه واذا بمولاي صاحب السمو الشيخ عبد المجيد خان ثالث الانجال الكرام مقبل لزيارتي فخرجت للقائه واحتفيت بمقدمه فبادرني بالترحاب متلطفاً بي وبشرني ببلوغ الآمال من فيض مراحم الوالد الكثير المحامد ولقيت من عطفه ولطفه ما غل لساني عن الشكر والثناء فانصرفت الى الدعاء بطول بقائه مع اخوانه النجباء في ظل ظليل الحضرة السنية الملوكية وبعد أن مكث طويلاً وشهدت من كمالاته المعجب المدهش مع انه حفظه الله لم يكن وقتئذ في اكثر من

وَإِنَّ عَهْدِيَ بِٱلْأَهْوَازِ أَذْكُرُهُ ... مَا عِشْتُ كُنْتُ بِهِ بِٱلْيُمْنِ آوِيهَا(١)
إِذْ كَانَ مَوْلَايَ فَخْرُ ٱلْعُرْبِ خزعلُهَا ... بِجَيْشِهِ يَطْلُبُ ٱلْأَعْدَا لِيُرْدِيَهَا
لٰكِنَّهَا ٱسْتَدْرَكَتْ حَرْبًا تُبَادُ بِهَا ... وَأَدْرَكَتْ أَنَّهُ لَا شَكَّ مُفْنِيهَا
وَسَلَّمَتْ وَبِذَا تَٱللهِ قَدْ سَلِمَتْ ... مِنَ ٱلْمَصَائِبِ وَٱلْأَرْزَاءِ قَاسِيهَا

الحادية عشرة من ربيع عمره الزاهر انصرف بحاشيته الكريمة وقد تفضل بالوعد بالعودة الى زيارتي فشكرت وحمدت. وحظيت بعد هذه الزيارة المباركة بتشرف المثول لدى الحضرة السنية الخزعلية فذكرت لعظمة مولاي امتناني وشكري لزيارة سمو الشيخ عبد الحميد وما أورثتني زيارته المباركة من السرور والغبطة فتبسم مولاي ولي النعم تبسم الارتياح وقال هل ادخلت زيارة عبد الحميد المسرّة على قلبك ؟ قلت أي والله يامولاي قال فهو المثاب بها وله الاجر فقد قال سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله: لكميل بن زياد النخعي « يا كميل أوص أهلك، ان يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة من هو نائم، فوالذي وسع سمعه الاصوات ، ما من أحد أودع قلباً سروراً ، الاّ وخلق له من ذلك السرور لطفاً ، فاذا نزلت به نائبة ، جرى اليها كالماء في انحداره ، حتى يطردها منه كما تطرد غريبة الابل » فدهشت لهذه الاخلاق العالية التي خصّ الله بها نفس عظمة مولاي السردار أرفع بفضل تعلقه بسيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله فعمل بها وربى عليها ابناءه الانجاب . وقلت مولاي روحي فداك فانّ كلّ ثناء هو دون فضلك وبرّك فما عساي أن اقول غير أطال الله عمرك فاننا لانستبشر الاّ ببشرك ولا نسرّ الا في مجامع برّك

وعلى ذكر سمو الشيخ عبد المجيد خان نقول أنّ سموّه حفظه الله يقيم في قصر خاص به كاخوانه الانجال الكرام في روضة تبعد عن الكمالية مسافة ثلاثين دقيقة وقد تشرفت بزيارته السنية غير مرّة في المعية السنية اذ جرت عادة عظمة مولانا أن يزور ابناءه الكرام في اوقات مختلفة لما هو معروف عنه من المبالغة في « مواصلة الرحم » وهي أبرّ المبرات

(١) خرج عظمة مولانا ولي النعم السردار أرفع المعظم في صيف سنة ١٩١١ الى الاهواز وأمر بان تحتشد جيوشه المنصورة وقبائله المخلصة لتأديب الخوارج الذين طمعوا بحلمه فنشزوا عن طاعته واغراهم الشيطان بعدوانه فاتاح لي الحظ وقتئذ أن أرى بعينيّ حملة عربية اذكرتني بحملات الحضرة المقدسة الحيدرية فشهدت وقتئذ المجد الخزعلي العالي باجلى مجاليه وابهى تلاليه بارك الله فيه

ولقد خرج عظمة مولانا السردار أرفع على يخته « ايران » يحيط بذاته السنية اعيان الشيوخ امراء العائلة الجاسبية الكريمة وكبير وزرائه صاحب السعادة الحاج محمد علي خان رئيس تجار عربستان والحاشية الكريمة ومن حسن حظي اني كنت بينها وكان يتبع اليخت ايران اليخت « همشير » وكان يقلّ امراء العسكرية واركان الحربية فاليخت «مظفري» وكان يقل الخدم والحشم وعند خروج هذه اليخوت من ماء الفيلية اطلقت المدافع من القلاع وما زالت تمخر في نهر قارون حتى انتهت الى ناصرية الاهواز التى اتخذها عظمة مولانا معسكراً لجيشه المنصور فاستقبلها حضرة الامير النبيل صاحب السمو نصرة الملك الشيخ جاسب خان كبير انجال الحضرة الخزعلية وحاكم

وأقبلت نحو منصور اللواء طويـ ـل العمر سيدنا تبدي تذللها
ترجو لعصيانها من فيض رحمته عفواً فنالت من المولى تمنيها
وجاسب نصرة الملك الهمام لذا ك الوقت قد كان في الأهواز واليها
وكنت باسم أبيه في ضيافته ممتعاً بالغنا يمنا وترفيها
أقمت فيها بنعماء المعز مدى ستين يوماً طوالاً مع لياليها
فكنت بالقرب من أنجال سيدنا الـ سردار أرفع يومياً ألاقيها
كانت صغاراً على الآداب عاكفة والكتب من حولها تقرا أماليها
وحولها العلما تلقي الدروس عليـ ـها وهي تجهد دوماً في تلقيها

الاهواز مع اركان حكومته بينما كانت المدافع تطلق والموسيقى الخزعلية تشنف الاسماع . وهناك طلب سمو نصرة الملك بكرمه الجم من عظمة مولاي ولي النعم أن أكون أنا العبد المملوك بضيافة سموه في قصره المعمورة فتفضل عظمته بقبول الملتمس وهكذا انتقلت الى ضيافة سموه فخصني بعنايته وجميل رعايته

ثمّ أخذت تفد على الاهواز ابطال القبائل في كل بكرة وعشية وكان كل فوج منها عندما ينتهي الى الاهواز يقوم بمظاهرة عربية فيهزج الاهازيج ويردد اماديح الحضرة السنية الخزعلية بشكل مبهج مفرح وما هي الا بضع ايام حتى انتشرت خيام الجيش الخزعلي المنصور حوالي الاهواز الى مسافات شاسعة وكان عظمة مولانا يتعهد هؤلاء الجنود بنفسه الشريفة ويستعرضها يومياً ويتعهد راحتها ورفاهها ويجتمع بروسائها وزعمائها ويذاكرهم بالامر

وعند ما انتهى للقبائل الناشزة نبأ احتشاد الجنود الخزعلية المنصورة خافت مغبة حرب لاقبل لها بها فاسرعت تطلب العفو والمغفرة مستنزلةً شفقة هذا الامير الجليل الحليم وتوسط في أمرها جناب قنصل دولة بريطانيا العظمى في المحمرة وارسلت الوزارة الايرانية من طهران التيلغرافات بعضها تلو البعض الى عظمته تطلب منه الرفق باولئك الناشزين فرأى عظمته حفظه الله بعد الالحاح بالملتمس أن يصفح عن اولئك الناشزين ويغفر لهم ذنبهم على أن لا يعودوا الى العصيان وأن يتركوا زعماءهم رهينةً لديه وهكذا وسعت رحمته الذنب فصفح وعفا بعد القدرة وانصرفت النازلة بحقن الدماء بفضل حلم ورحمة عظمة مولانا الامير الجليل

ومن حسن حظي اني في هذه المدة التي اقمتها في الاهواز وطالت ستين يوماً تشرفت بصحبة حضرات الامراء العظام انجال عظمة مولانا السردار أرفع الثلاثة الصغار وهم صاحب السموّ الشيخ عبد العزيز خان شقيق مولاي نصرة الملك وسمو الشيخ عبد الكريم خان وسمو الشيخ عبد الله خان وهو اصغرهم عمراً وكان حاكم الفلاحية تولاها وهو يافع لان ربة الصون والدته ابنة أميرها وقد كنتُ مندهشاً مما اشهده من هؤلاء الامراء الانجاب من الذكاء الباهر والادب الجم والكمال والجلال مع صغر السن وكانوا حفظهم الله منصرفين الى طلب العلم على ايدي اساتذتهم العلماء الذين أناط بهم عظمة مولانا تثقيفهم وتربيتهم على آداب الدين الحنيف ليشبوا على ما تقرّ به العيون وتثلج

كَذَا لَقَدْ كَانَ عَهْدِي بِٱلعَزِيزِ شَقِيـ ـــقِ ٱلجَاسِبِ ٱلبَاهِرِ ٱلآلَاءِ مُثْنِيهَا
وَبِٱلكَرِيمِ ٱلمُفَدَّى ذِي ٱلذَّكَاءِ وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي نُجُومِ ٱلمَجْدِ خَامِنِهَا
وَبِٱلمُؤَمَّلِ عَبْدِ ٱللهِ مَظْهَرِ آ يَاتِ ٱلنَّجَابَةِ هٰذَا ٱلشَّهْمُ سَادِيهَا
كَانَتْ نُجُوماً وَمَا زَالَتْ تُضِيءُ سَنَا مِنْ نُورِ خَزْعَلَ حَامِينَا وَحَامِيهَا
لَمْ أَنْسَ لَا أَنْسَ يَوْماً يَمَّمَتْهُ بِهِ إِلَى سَفِينَتِهِ إِذْ كَانَ يَشْوِيهَا
فَكَانَ بِٱلبِشْرِ وَٱلإِينَاسِ مُفْرِحَهَا وَبِٱبْتِسَامَتِهِ ٱلزَّهْرَا مُحَيِّيهَا
وَقَالَ: لِلْعِلْمِ يَا أَوْلَادِيَ ٱنْشَطُوا فَبِهِ ٱلْـ ـــعَلْيَاءُ تَدْنُو مَنَالاً مِنْ مُرَجِّيهَا
وَقَالَ حَيْدَرَةٌ فِيـــهِ مَقَالَتَهُ فَرَدِّدُوا أَبَداً غَرّاً مَعَانِيهَا

له الصدور من تزيين اخلاقهم العالية المنبثقة من اعظم رجل في العرب هو عظمة مولاي ابيهم بحلى العلوم والآداب

ولا أنسَ لم انسَ مجلساً خزعلياً عظيماً اذ أقبل على الحضرة السنية الخزعلية بالسعود والاقبال في البخت الملوكية «ايران» هؤلاء البدور الثلاثة اللا ألئة في سماء المفاخر لعرض عبوديتهم على والدهم وولي النعم دام سعوده فهش لهم عظمته وبشّ واستقبلهم بعطفه الابوي وأخذ يسألهم عن العلوم التي يتلقونها ويحضهم على الانصراف الى العلم والأدب الى أن قال حفظه الله : وتعلمون يا أولادي انّ معلمنا الاكبر ومربينا الاعظم هوسيدناومولانا أمير المؤمنين وهنذا اذكركم بما قاله عليه السلام لصاحبه كميل بن زياد يوم اخذه الى الجبان ليعظه بالاموات فقد قال له :

« ياكميل بن زياد انّ هذه القلوب اوعية فخيرها أوعاها ، فاحفظ عني ما أقوله لك ، الناس ثلاثة ، فعالم ربانيّ ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كلّ ناعق ، يميلون مع كلّ ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا الى ركن وثيق ، يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الانفاق ، وصنيع المال يزول بزواله ، ياكميل بن زياد ، معرفة العلم دينٌ يدان به ، به يكسب الانسان الطاعة في حياته ، وجميل الاحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، ياكميل بن زياد هلك خزان الاموال وهم احياء ، والعلماء باقون مابقي الدهر ، اعيانهم مفقودة ، وامثالهم في القلوب موجودة ، ها انّ ههنا لعلماً جمّاً (واشار بيده الشريفة الى صدره) لو اصبت له حملة ، بلى أصيب لقناً غير مأمون عليه ، مستعملاً آلة الدين للدنيا ، ومستظهراً بنعم الله على عباده ، وبحججه على اوليائه ، أو منقاداً لحملة الحق ، لا بصيرة له في احنائه ، ينقدح الشكّ في قلبه ، لاوّل عارض من شبهة ، ألا لاذا ولا ذاك ، أو منهوماً باللذّة ، سلس القياد للشهوة ، أو مغرماً بالجمع والادخار ، ليسا من رعاة الدين في شيء ، أقرب شيء شبهاً بهما الانعام السائمة ، كذلك يموت العلم بموت حامليه ، اللهمّ بلى ، لا تخلو الارض من قائم لله بحجة ، أمّا ظاهراً مشهوراً ، وأمّا خائفاً مغموراً ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم ذا ، وأين اولئك ، والله الاقلون عدداً ، والاعظمون عندالله قدراً ، يحفظ الله بهم حججه وبيناته

وَرَاحَ يَسْرُدُهَا سَرْداً وَيُظْهِرُ مِنْ ... آدَابِهِ مَا تَسَامَى مِنْ فَحَاوِيهَا
فَأَدْهَشَتْنَا وَقَدْ لَاحَتْ زَكَاتُهُ ... اللهُ أَكْبَرُ مَا أَزْهَى تَلَالِيهَا
وَقُلْتُ بَارَكَ رَبِّي بِالْمُعِزِّ وَبِالْأَ ... م نَجَالِ وَهُوَ عَلَى التَّقْوَى يُرَبِّيهَا
مَا لِلْمَعَارِفِ وَالْآدَابِ غَيْرُ عُلَا ... هُ فَهُوَ فِي الْعَرَبِ الْعَرْبَاءِ مُحْيِيهَا

« ان الله يحب المحسنين »

مَوْلَايَ خَزْعَلُ يَامَنْ عَمَّمَ النِّعَمَ الْـ ... ـكُبْرَى وَأَغْنَى بِهَا بِرّاً عَوَافِيهَا(١)
لَا يُزْهِدَنَّكَ فِيهَا أَنَّ نَائِلَهَا ... لَمْ يَشْكُرَنَّكَ لُؤْماً رَاحَ نَاسِيهَا
فَقَدْ تَقُومُ بِفَرْضِ الشُّكْرِ طَائِفَةٌ ... بِهَا لَقَدْ سَمِعَتْ مِنْ دُونِ مُلْفِيهَا
وَقَدْ يُلَاقِيكَ مِنْ شُكْرَانِ شَاكِرِهَا ... أَضْعَافُ كُفْرَانِ مَنْ أَمْسَوْا مُضِيعِيهَا
وَحَسْبُكَ اللهُ أَنَّ الْمُحْسِنِينَ لَهُ ... صَحْبٌ يُحِبُّهُمُ حُبّاً وَتَوْلِيهَا

« قيمة كل امرىء ما يحسنه »

لَا تَفْتَخِرْ بِعِظَامٍ يَا أَخِي نَخِرَتْ ... إِنْ كُنْتَ تَنْمِي إِلَى مَاضِي تَعَالِيهَا(٢)
فَقِيمَةُ الْمَرْءِ مَا قَدْ رَاحَ يُحْسِنُهُ ... فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ وَافْخَرْ فِي مَآتِيهَا

حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها في قلوب اشباهم ، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، وباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بابدان ارواحها معلقة بالمحلّ الأعلى ، اولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة الى دينه ، آه آه شوقاً الى رؤيتهم ، انصرف يا كميل اذا شئت » اه وبعد ان تلا عظمة مولانا ولي النعم المعزّ المعظم هذه الاقوال الدرية على انجاله الانجاب اخذ يشرح لهم معانيها العالية بادبه العميم وعلمه الكثير حتى حسبناه حفظه الله استاذاً يلقي محاضرة في العلم ثمّ تفضل بارك الله فيه فقال لهم ما قال أمير المؤمنين لصاحبه كميل انصرفوا الآن يا أولادي اذا شئتم فانصرفوا بعد أن دعوا لعظمته الملوكية بطول البقاء وهو الدعاء المستجاب ان شاء الله تعالى

أما كميل هذا فهو ابن زياد بن نهيل بن هشيم بن سعد بن مالك ينتهي بنسبه الى النخع فأدد وكان من أصحاب سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله وكان من أدنى المقربين من ذاته القدسية وأعظم أنصاره وشيعته اخلاصاً قتله الحجاج لتشيعه مع من قتل من اصحاب سيدنا علي ومريديه

(١) قال أمير المحسنين سيدنا علي عليه صلوات الله « لا يزهدنّك في المعروف ، من لا يشكره لك ، فقد يشكرك عليه ، من لا يستمتع بشيء منه ، وقد تدرك شكران الشاكر ، أكثر مما أضاع الكافر ، والله يحبّ المحسنين » ويخلق بنا أن نواجه بهذه الحكمة العلوية المنيفة عظمة مولانا السردار أرفع روحي فداه ، وطالما غمط الناس فضله ، وتناسوا بلؤمهم شكره ، على انه حفظه الله ، يسدي الاحسان لوجه الله الكريم ، لا يطلب عليه شكر الناس ولكن رضاء الله الرحيم

(٢) قال أمير المؤمنين عليه صلوات الله « قيمة كلّ امرىء ما يحسنه »

« وأما بنعمة ربك فحدّث »

يَاصَاحِبِي لَا تُضِعْ لِلّٰهِ أَنْعُمَهُ وَكُنْ لِقَوْمِكَ بِالشُّكْرَانِ مُبْدِيَهَا(١)
وَحَدِّثَنْ بِهَا الْإِخْوَانَ مُفْتَخِراً مِنْ غَيْرِ زَهْوٍ وَحَاذِرْ أَنْ تُوَارِيَهَا

« لم يذهب من مالك ما وعظك »

مَا ضَاعَ مَالٌ لَقَدْ أَصْبَحْتَ مُخْتَبِراً بِهِ الْخَسَائِرَ وَالْأَرْبَاحَ دَارِيَهَا(٢)
إِنَّ الْخَسَارَةَ إِنْ تَذْهَبْ الْفَتَى وَبِهَا قَدْ بَاتَ مُتَّعِظاً فَالرِّبْحُ تَالِيهَا

---

(١) قال الله سبحانه في كتابه العزيز « وأمّا بنعمة ربك فحدّث » وقال سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله « لا تضيّعنّ نعمةً من نعم الله عندك ، وليُرَ عليك أثرُ ما أنعم الله به عليك » أقول ولا غروَ أن يتشابه القولان والمرتضى ربيب كتاب الله متأدّب بأدبه . وعلى ذكر هذه الحكمة الباهرة أروي لقراء علويّتي المباركة حديثاً أحبّ أن أشركهم به فقد كنت يوماً في خدمة عظمة مولاي السردار أرفع روحي فداه في الكمالية واذا بساعٍ من سعاة الشرّ كان متصلاً بالمجلس الجزعلي العالي فسعى برجل من الخاصة وما هو فيه من بحابح النعم فذكر أثاث بيته وما يقتني من نخيل وخيل ومال وما يبذل للناس من الأموال فأصغى عظمة مولاي لذلك الساعي النمام بما عهد الناس فيه من سعة الصدر الى أن انتهى من سعايته فقال حفظه الله : لقد سررتني ياهذا بما رويته عن فلان فهو يحدّث الناس بنعمة الله ويشكره باظهارها وعليّ أن أزيد له بالعطاء ثمّ مال أطال الله بقاءه الينا وقال : انّ التحدث بالنعمة لهو الشكر بعينه لمسديها وهل يسرّني الا ان يكون فلان في الخير الذي سمعتم وقد عرفه الناس من خاصتي وقد قال الله سبحانه « وأمّا بنعمة ربك فحدث » وقال أبو الحسن عليه السلام « ولا تضيّعنّ نعمةً من نعم الله عندك ، وليرَ عليك أثر ما أنعم الله به عليك » ألا واني لمحدثكم حديثاً قديماً فيه العبرة البالغة فقد خرج الرشيد يوماً مع وزيره جعفر مستخفيين لزيارة الاصمعي الشاعر المشهور وصحب معه ألف دينار نوى أن يصله بها فلما بلغا داره وجداها بكساءٍ جرداء وبارية سملاء وحصير مقطوع وخباء قديمة وأباريق من خزف وحيطان مملوءة من نسج العنكبوت ووجداه جالساً على بساطٍ رثّ في سمال بالية وبين يديه دواة من زجاج ودفاتر عليها التراب فوجم الرشيد لتكتم شاعره بنعمه وطالما أغدقها عليه وجلس اليه من غير أن يعرّفه بنفسه وسأله مسائل غثة وانصرف بدنانيره الالف مع وزيره جعفر حتى اذا ماخرجا قال الرشيد لصاحبه :- ألا ترى الى نفس هذا المهين فقد بررناه بخمسين ألف دينار وهذه حاله لم تظهر عليه آثار نعمتنا والله لا دفعت اليه شيئاً بعد اليوم . أقول فخجل الساعي من سعايته واصفرّ وجهه وتمنى لو فغرت الارض فاها وابتلعته . أما نحن فأعجبنا بالحكمة الجزعلية العالية في تربية المتصلين بذاته السنية اذ يردعهم بمثل هذا الظرف واللطف عن السعاية والنميمة ويسلكهم المسالك القويمة كما أعجبنا بتناهيه في الكرم حتى لا يسرّ الا اذا ظهرت على عبيده آثار مايغدق عليهم من وفور النعم . واتصل بنا انّ قوماً ذكروا لعظمة مولانا وليّ النعم ظهورنا بنعمته في مصر على ما يليق بشرف انتمائنا الى ذاته السنية فقال لهم : كذلك يكون العبد الشكور فمن لم تظهر عليه نعمتنا فهو غير خليق بها فوجموا ساكتين .

(٢) قال امام الراشدين عليه صلوات الله « لم يذهب من مالك ما وعظك »

« البشاشة حبالة المودّة »

إِنَّ ٱلْمَوَدَّةَ فَاعْلَمْ مَا حِبَالَتُهَا إِلَّا ٱلْبَشَاشَةَ كُنْ صَاحِ ٱلْمُهَيِّيهَا(١)
وَصِدْ بِهَا أَنْفُساً تَخْشَى عَدَاوَتَهَا وَأَنْفُساً تَتَمَنَّى أَنْ تُصَافِيَهَا

« أيها الطبيب اشف نفسك »

إِنَّ ٱلَّذِي يَتَصَدَّى لِلْإِمَامَةِ كَيْ يُعَلِّمَ ٱلنَّاسَ أَوْ كَيْمَا يُرَبِّيهَا(٢)
فَنَفْسَهُ أَوَّلاً يَبْدَا بِهَا فَيُرَبِّيهَا وَعَنْ كُلِّ مَا يُزْرِي يُنَحِّيهَا
وَلْيَجْعَلِ ٱلْمَثَلَ ٱلْمَحْمُودَ سِيرَتَهُ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَضْرِبَ ٱلْأَمْثَالَ يَرْوِيهَا
إِنَّ ٱلَّذِي نَفْسَهُ رَبَّى لَأَخْلَقُ بِٱلْإِ م جْلَالِ مِمَّنْ يُرَبِّي ٱلنَّاسَ يَهْدِيهَا

« خير الوصايا »

أُوصِيكَ يَا ٱبْنِي خِلَالاً لَوْ عَمِلْتَ بِهَا لَبِتَّ أَوْسَعَ خَلْقِ ٱللهِ تَرْفِيهَا(٣)
لَا تَرْجُوَنَّ سِوَى بَارِيكَ مُضْطَلِبَاً مِنْهُ رَغَائِبَكَ ٱلْحُسْنَى لِتُلْفِيهَا
وَلَا تَخَفْ غَيْرَ مَا قَدْ كُنْتَ جَانِيَهُ مِنَ ٱلذُّنُوبِ ٱلَّتِي مَا فَازَ جَانِيهَا
لَا تَسْتَحِ ٱلْقَوْلَ لَا أَدْرِي إِذَا سَأَلُو كَ عَنْ أُمُورٍ بِحَقٍّ لَسْتَ تَدْرِيهَا
وَسَلْ بِلَا وَجَلٍ مَا أَنْتَ جَاهِلُهُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّذِي تَدْرِيهِ وَاعِيهَا
وَقَابِلَنَّ بِصَبْرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَصَا ئِبَ ٱلزَّمَانِ إِذَا يَدْهَاكَ دَاهِيهَا
هٰذِي وَصَايَا أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِي عُشَّاقِهِ أَنْ يَعُوا غَرًّا فَحَاوِيهَا
وَأَنْ يَؤُمُّوا عُلَاهُ مُرْتَجِينَ رِضَا هُ مَعْ شَفَاعَتِهِ وَهْوَ ٱلْمُؤَدِّيهَا

---

(١) قال ابو تراب عليه صلوات الله « البشاشة حبال المودة »

(٢) قال سيد الواعظين عليه صلوات الله « من نصب نفسه للناس اماماً ، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه ، قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته ، قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها ، أحقّ بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم »

(٣) قال سيف الله الغالب سيدنا علي بن أبي طالب « أوصيكم بخمس ، لو ضربتم اليها آباط الابل ، لكانت لذلك أهلاً ، لا يرجونّ أحد منكم الا ربّه ، ولا يخافنّ الا ذنبه ، ولا يستحينّ أحد منكم اذا سئل عما لايعلم ، أن يقول لا أعلم ، ولا يستحينّ أحداذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه ، وعليكم بالصبر فإنّ الصبر من الايمان ، كالرأس من الجسد ، ولا خير في جسد لارأس معه ، ولا في ايمان لاصبر معه »

« الهيبة والحياء »

مَنِ اسْتَحَى مِنْ تَقَاضِي حَقِّهِ لَشَكَى ٱلْحِرْمَانَ شَكْوَى أَخُو ٱلْحِرْمَانِ يَدْرِيهَا (١)
وَمَنْ يَهَبْ دَهْرَهُ مَا نَالَ حَاجَتَهُ   وَخَابَ فِي كُلِّ رَجْوَى رَاحَ رَاجِيهَا

« الجبن منقصة »

إِنَّ ٱلشَّجَاعَةَ يَلْقَى ٱلْفَخْرَ صَاحِبُهَا   مِنْ قَوْمِهِ حَيْثُ يُمْسِي وَهُوَ حَامِيهَا
وَٱلْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ فِي ٱلْمَرْءِ تَجْعَلُهُ   أَحَطَّ أَقْرَانِهِ أَدْنَى أَدَانِيهَا (٢)

« العقل والجهل والأدب والمشورة »

خَيْرُ ٱلْغِنَى ٱلْعَقْلُ مَا نَفْعُ ٱلْغَنِيِّ إِذَا   مَا كَانَ مُخْتَلِطَ ٱلْأَفْكَارِ سَاهِيهَا (٣)
وَٱلْجَهْلُ فَقْرٌ وَإِنْ كَانَ ٱلْجَهُولُ غَنِيًّا   جَامِعًا بُدَرَ ٱلْأَمْوَالِ قَانِيهَا
وَإِنَّمَا ٱلْأَدَبُ ٱلْمَحْمُودُ أَفْضَلُ مَا ٱلْأَ   م بَاءُ قَدْ وَرَّثَتْ يَوْمًا ذَرَارِيهَا
وَإِنَّ مَشُورَةَ ٱلْإِخْوَانِ أَفْضَلُ عَوْ   نٍ لِلْعِبَادِ إِذَا تَقَّتْ مُشِيرِيهَا

« الافراط والتفريط »

لَا تَسْرِفَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ ذَا رَشَدٍ   فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ بِتَّ ٱلْمُعَانِيهَا (٤)
فَلَا تَرَى جَاهِلًا إِلَّا يُفَرِّطُ فِي   أَعْمَالِهِ أَوْ تَرَاهُ مُفْرِطًا فِيهَا

« صروف الدهر »

يُجَدِّدُ ٱلدَّهْرُ فِي ٱلنَّاسِ ٱلرِّغَابَ وَيُخْلِقُ ٱلْجُسُومَ فَتَدْنُو مِنْ تَلَاشِيهَا (٥)
وَهُوَ ٱلْمُقَرِّبُ لِلنَّفْسِ ٱلْمَنِيَّةَ إِذْ   يُنْئِي بِلَا رَحْمَةٍ عَنْهَا أَمَانِيهَا
وَإِنَّ قَوْمًا تَوَلَّاهَا لَقَدْ شَقِيَتْ   بِهِ وَإِنْ صَدَّ عَنْهَا فَهُوَ مُشْقِيهَا

---

(١) قال وصيّ المصطفى عليهما الصلاة والسلام « قرنت الهيبة بالخيبة . والحياء بالحرمان »

(٢) قال الامام علي عليه صلوات الله « الجبن منقصة »

(٣) قال سيدنا حيدرة عليه صلوات الله « لا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا ميراث كالادب ، ولا ظهير كالمشاورة »

(٤) قال سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله « لا ترى الجاهل الا مفرطاً أو مفرّطاً »

(٥) قال حيدرة عليه صلوات الله « الدهر يخلق الأبدان ، ويجدّد الآمال ، ويقرّب لمنية ، ويباعد الامنية ، من ظفر به نصب ، ومن فاته تعب »

« المرء وعمله »

وَإِنَّمَا الْحَسَبُ الْمَوْرُوثُ تَالِدُهُ ... يَزْدَادُ بِالطَّارِفِ الْمَكْسُوبِ تَوْجِيهَا
وَلَيْسَ يُسْرِعُ بِالْإِنْسَانِ سُؤْدُدُهُ ... إِلَى الْمَعَالِي الَّتِي مَا انْفَكَّ يَبْغِيهَا (١)
إِنْ أَبْطَأَتْ وَهْوَ مِكْسَالٌ فَعَائِلُهُ ... عَنْهَا بِهِ بَلْ بَعِيدٌ أَنْ يُدَانِيهَا

« العقل غريب في بلدته »

عَجِبْتُ لِلنَّاسِ تَهْوَى الْمَالَ تَعْبُدُهُ ... كَأَنَّمَا هُوَ دُونَ اللهِ كَافِيهَا
تَجْفُو الْفَقِيرَ وَتَحْفَى بِالسَّرِيِّ وَلَا ... يَهُمُّهَا غَيْرُ أَنْ تَدْنُو لِمُثْرِيهَا
فَكَمْ غَنِيٍّ يُرَى فِي وَسْطِ غُرْبَتِهِ ... أَحِبَّةً تَتَمَنَّى لَوْ يُصَافِيهَا
وَكَمْ مُقِلٍّ غَرِيبٍ وَسْطَ بَلْدَتِهِ ... مَا مِنْ صَدِيقٍ لَهُ مَا بَيْنَ أَهْلِيهَا (٢)

« المبذرون اخوان الشياطين »

مَا بَيْنَ بُخْلِ الْفَتَى بُخْلًا يُشَانُ بِهِ ... وَبَيْنَ تَبْذِيرِهِ الْأَمْوَالَ يُفْنِيهَا
تَاللهِ مَرْتَبَةٌ وُسْطَى يَنَالُ بِهَا ... مَفَاخِرًا ذُو الْحِجَى وَالدِّينِ يَبْغِيهَا
فَلَا تَدَعْ يَدَكَ الْمَلْأَى بِأَصْفَرِهَا ... لِلْعُنْقِ مَغْلُولَةً شُحًّا بِمَا فِيهَا (٣)
وَلَا تَكُنْ مُسْرِفًا لِلنَّاسِ تَبْسُطُهَا ... فَإِنَّ بَسْطَتَهَا مَا اللهُ رَاضِيهَا
وَالْمُسْرِفُونَ لَإِخْوَانٌ بِغَيْرِ جِدًا ... لِلشَّيَاطِينِ فَاحْذَرْ أَنْ تُوَاخِيهَا (٤)
وَكُنْ سَمُوحًا وَحَاذِرْ أَنْ تَكُونَ مُبَـ ... ـذِّرًا بِجَدْوَاكَ إِنْ وَافَاكَ رَاجِيهَا (٥)
وَلَا تُقَتِّرْ وَقَدِّرْ مَا تَجُودُ بِهِ ... عَلَى الْعَوَافِي فَتَهْنَا ثُمَّ تُهْنِيهَا

---

(١) قال سيدنا أبو الحسن عليه صلوات الله « من أبطأ به عمله ، لم يسرع به حسبه »
(٢) قال استاذ البلغاء وأمير الفصحاء عليه صلوات الله « المقلّ غريب في بلدته »
(٣) قال الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز « ولا تجعل يدك مغلولةً الى عنقك ، ولا تبسطها كلّ البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً »
(٤) قال الله سبحانه في هديه « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً »
(٥) قال سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله « كن سمحاً ، ولا تكن مبذراً ، وكن مقدراً ، ولا تكن مقتراً »

« اذا لم يكن ما تريد فلا تبلُ كيف تكون »

إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ يَا آبْنِي مَا أَنْتَ رَاغِبُهُ فَلَا تُبَالِ بِحَالٍ كَيْفَ تُلْفِيهَا (١)
فَإِنَّمَا يَغْلِبُ ٱلْأَيَّامَ يَقْهَرُهَا مَنْ رَاحَ يَرْضَى وَلَا يَجْفُوْ مَآتِيهَا

« الشكوى لغير الله مذلة »

إِنْ نَالَكَ ٱلدَّهْرُ يَوْماً بِٱلْمَصَائِبِ فَٱكْتُمْهَا وَلَا تَكُ لِلْإِخْوَانِ مُبْدِيهَا (٢)
فَإِنَّ مَنْ نَالَهُ ضُرٌّ وَأَظْهَرَهُ فَقُلْ مَذَلَّتُهُ قَدْ بَاتَ رَاضِيهَا
وَكُلُّ شَكْوَى لِغَيْرِ ٱللهِ ذَاهِبَةٌ سُدًى وَمَا نَالَ غَيْرَ ٱلذُّلِّ شَاكِيهَا (٣)

« من حذَّرك كمن بشرك »

إِنَّ ٱلَّذِي جَاءَ بِٱلتَّحْذِيرِ يَطْلُبُ أَنْ يُنْجِيكَ مِنْ غِيَرِ ٱلْأَيَّامِ تَنْقِيهَا (٤)
كَمَنْ يَجِيئُكَ بِٱلتَّبْشِيرِ يَطْلُبُ أَنْ تَهْنَا بِنُعْمَى وَشِيكٌ أَنْ تُلَاقِيهَا
بَلِ ٱلْمُحَذِّرُ مَا فَوْقَ ٱلْمُبَشِّرِ إِحْسَاناً بِقَوْلَةِ صِدْقٍ رَاحَ مُلْقِيهَا
بِهَا ٱلْفَتَى يَتَلَافَى دَاهِمَاتِ أَذًى لَوْلَا مُحَذِّرُهُ صَعْبٌ تَلَافِيهَا

« ذوو المروآت »

ذَوُو ٱلْمُرُوآتِ أَهْلٌ لِٱحْتِرَامِ عِبَا دِ ٱللهِ يُكْرِمُهُمْ تَٱللهِ تَاقِيهَا
فَإِنْ هُمُ عَثَرُوا لَا شَكَّ عَثْرَتَهُمْ تُقَالُ وَٱللهُ رَاضٍ عَنْ مُقِيلِيهَا (٥)
وَإِنَّ عَاثِرَهُمْ بَارِيكَ يُنْهِضُهُ مِنْ هَوْلِ عَثْرَتِهِ حَتَّى يُخَطِّيهَا

---

(١) قال سيد الوعاظ والمرشدين عليه صلوات الله « اذا لم يكن ما تريد فلا تبلُ كيف تكون » وهذا القول العلوي الشريف لقد جهل الكثيرون مغزاه وهم يحفظون عن الحكماء قولهم « اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون » على أن قول سيدنا علي عليه صلوت الله أبعد مرمى وأبلغ نصحاً ومعناه اذا لم يكن لك يا صاح ما تريده فلا تبلُ أي لا تكترث بالحال التي تكون فيها مهما صعبت ولا تحمل لذلك هماً

(٢) قال سيدنا علي عليه صلوات الله « رضي بالذل من كشف ضرَّه »

(٣) قال سيدنا أمير المؤمنين عليه صلوات الله « الشكوى لغير الله مذلة »

(٤) قال سيدنا المرتضى عليه صلوات الله « من حذَّرك كمن بشرك»

(٥) قال سيف الله الغالب علي بن أبي طالب عليه صلوات الله « اقيلوا ذوي المروآت عثراتهم ، فما يعثر منهم عاثر ، الا ويده بيد الله يرفعه »

« البخل عار »

جُدْ بِالنِّضَارِ فَإِنَّ الْجُودَ مَحْمَدَةٌ وَأَفْضَلُ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ سَاخِيهِ
وَالْبُخْلُ عَارٌ وَرَبُّ الْبُخْلِ عُرْضَةُ لَوْ لِ النَّاسِ فَلْيَحْذَرِ الْمُثْرِي لاَ كِيهَا (١)

« الفقير أخرس »

إِذَا أَتَاكَ أَخُو عِسْرٍ بِحَاجَتِهِ فَكُنْ وَإِنْ لَمْ يَجُلْ فِيهَا مُلَبِّيهَا
فَالْفَقْرُ مُخْرِسٌ عَنْ حَاجَاتِهِ الْفَطِنَ الْـ مِلْسَانَ فَهْوَ لَعِيٌّ فِي تَرَجِّيهَا (٢)

« دوام النعم »

إِنْ كَانَ رَبُّكَ قَدْ أَوْلاَكَ نِعْمَتَهُ وَلَمْ تَكُنْ طَائِعاً يَاصَاحِ مُوْلِيهَا (٣)
فَاحْذَرْهُ لاَ تَتَمَادَى فِي الْعَصَاوَةِ فَالـ رَّحْمٰنُ يُحْرِمُكَ النُّعْمَى وَيُقْصِيهَا

« التكفير عن الذنوب »

غِثْ يَا أَخَا الْفَضْلِ مَلْهُوفاً وَكَرْبَتَهُ نَفِّسْ وَحَقِّقْ مُنًى قَدْ جَاءَ يُسْدِيهَا (٤)
بِذَا تُكَفِّرُ عَنْ شَتَّى ذُنُوبِكَ عِنْـ دَ اللهِ حَاضِرِهَا الْمُخْزِي وَمَاضِيهَا

« الصبر شجاعة »

أَصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الأَيَّامِ صَبْرَ كَرِيـ ـمٍ حَازِمٍ لَمْ يَهَبْ فَاجِيَ لَيَالِيهَا
فَإِنَّمَا أَشْجَعُ الشُّجْعَانِ اصْبَرُهَا عَلَى الْمَكَارِهِ قَاسِيهَا وَدَاهِيهَا (٥)

« انتهاز الفرص »

بَادِرْ إِلَى فُرَصِ الْخَيْرَاتِ مَا سَنَحَتْ وَلاَ تَنَمْ يَا ابْنَ وُدِّي عَنْ تَوَلِّيهَا
فَإِنَّمَا فُرَصُ الْخَيْرَاتِ أَسْرَعُ مَا تَمُرُّ مَرَّ سَحَابِ الأُفْقِ صَيْفِيهَا (٦)

---

(١) قال اخو المصطفى عليهما الصلاة والسلام « البخل عار »

(٢) قال امام الحكماء عليه صلوات الله « الفقير أخرس »

(٣) قال سيد الناصحين عليه صلوات الله « يا ابن آدم ، اذا رايت ربك سبحانه وتعالى ، يتابع عليك نعمه ، وانت تعصيه ، فاحذره »

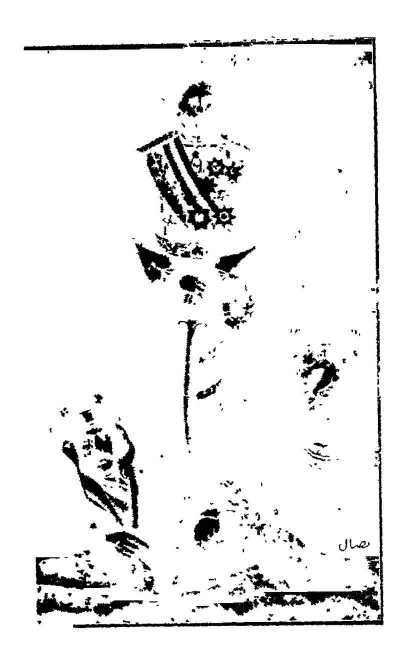
(٤) قال الامام علي عليه صلوات الله « من كفارات الذنوب العظام ، اغاثة الملهوف ، والتنفيس عن الكروب »

(٥) قال سيدنا ومولانا سيف الله الغالب عليه صلوات الله « الصبر شجاعة »

(٦) قال سيدنا المرتضى عليه صلوات الله « الفرصة تمر مر السحاب ، فانتهزوا فرص الخير »

مسك الختام

يَا امَّةَ ٱلْمُصْطَفَى يَا مَنْ أَعِيشُ لَهَا وَلَسْتُ أَرْغَبُ إِلاَّ فِي تَعَالِيهَا
إِلَيْكِ مُلْحَمَتِي بِٱسْمِ ٱلْمُعِزِّ أَمِيـرِ ٱلْعُرْبِ قَدْ جُلِيَتْ غُرًّا قَوَافِيهَا
جَمَعَتْ فِيهَا حَدِيثاً كُلُّهُ عِبَرٌ تُفِيدُ قَارِءَهَا رُشْداً دَرَارِيهَا
مُبَيِّناً كَيْفَ قَدْ نَادَى ٱلرَّسُولُ إِلَى ٱلْـهُدَى ٱلْخَلاَئِقَ عُرْبَهَا وَعُجْمِيهَا
وَكَيْفَ قَدْ نَاوَءَتْ بِٱلْجَهْلِ دَعْوَتَهُ قُرَيْشُ وَهْوَ ٱبْنُهَا لِلْخَيْرِ دَاعِيهَا
وَكَيْفَ قَدْ أَعْرَضَتْ عَنْ نُورِ شِرْعَتِهِ لَمَّا أَضَاءَ لِتَبْقَى فِي دَيَاجِيهَا
وَكَيْفَ بِٱلصَّبْرِ قَدْ دَاسَ ٱلْمَصَاعِبَ حَتَّـى ٱلْحَقُّ أَزْهَقَ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلتَّرَارِيهَا
وَكَيْفَ كَانَ جِهَادُ ٱلْمُخْلِصِينَ عَظِيـمًا فِي نَتَائِجِهِ ٱلْبَادِي تَجَلِّيهَا
وَكَيْفَ كَانَ عَلِيٌّ خَيْرَ صَحْبِ رَسُو لِ ٱللَّهِ يَلْقَى أَعَادِيهِ وَيُفْنِيهَا
وَإِنَّ آثَارَهُ فِي ٱلدِّينِ خَالِدَةٌ عَلَى ٱلْمَدَى خَيَّبَ ٱلْبَارِي مُضِيعِيهَا
فَمَنْ تَدَبَّرَ حِرْمَانَ ٱلْوَصِيِّ حُقُو قَهُ ٱلَّتِي ٱلشَّرْعُ رَاضِيهَا وَمُمْضِيهَا
وَصَبْرَهُ وَهْوَ مَظْلُومٌ عَلَى غِيَرِ ٱلأَ يَّامِ حَتَّى غَدَا تَٱللَّهِ مُغْنِيهَا
وَظَلَّ أَصْدَقَ أَهْلِ ٱلدِّينِ أَجْمَعِهِمْ سَعْياً لِأُمَّتِهِ يَبْغِي تَرَقِّيهَا
هَانَتْ عَلَيْهِ حُقُوقٌ مِنْهُ ضَائِعَةٌ بِنَفْسِ حُرٍّ تَنَاهَتْ فِي تَفَانِيهَا
نَعَمْ فَأُسْوَتُنَا بِٱلصَّبْرِ حَيْدَرَةٌ وَكُلُّ نَفْسٍ بِهِ تُلْفِي تَأَسِّيهَا
كَذَاكَ قَدْ كَانَ بِٱلإِقْدَامِ قُدْوَتَنَا عَلَى ٱلصِّعَابِ فَلَمْ يَرْهَبْ تَوَلِّيهَا
فَلْنَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلْمُرْتَضَى لِنَنَا لَ ٱلْمَجْدَ مَا نَالَهُ إِلاَّ مُخَطِّيهَا
وَيَا بَنِي ٱلْعُرْبِ ٱلأَجْوَادِ زَادَكُمُ رَبِّي بِنَهْضَتِكُمْ مَجْداً وَنَجْوِيهَا
أَرَدْتُ خَيْرَكُمُ فِي نَظْمِ مُلْحَمَتِي وَهَا إِخَالُكُمُ تَسْتَنْشِدُونِيهَا
فَٱدْعُوا مَعِي لِأَمِيرِ ٱلْعُرْبِ خَزْعَلَ أَنْ يَحْيَا فَلَوْلاَهُ مَا كُنْتُ ٱلْمُوَشِّيهَا
أَثَابَهُ ٱللَّهُ عَنَّا مَا يُثَابُ بِهِ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْخَيْرَاتِ مُسْدِيهَا



ناظم العلوية في ظلال الحضرة الخزعلية

فِي ظِلِّ خَزْعَلَ فِي فَيَّاض أنعُمِهِ ... نِلتُ ٱلْمُنَى وَأَنَا بِٱلشُّكْرِ أُبْدِيهَا

وَإِنَّنِي عَائِشٌ رَغداً بِنِعْمَتِهِ ... فَٱلْحَمْدُ يُسْدَى إِلَى أَعْتَابِ مُوْلِيهَا

مَا كُنْتُ أَهْلاً لَهَا إِنْ كُنْتُ مُتَّرِكًا ... شُكْرَانَهَا بَيْنَ قَوْمِي مَا افَاهِيهَا

إِنِّي لَأَشْكُرُ مَوْلَايَ ٱلْمُعِزَّ وَقَدْ ... بِهِ غَنِيتُ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِيهَا

وَمَا ٱفْتِخَارِيَ إِلَّا أَنَّ مَنْزِلَتِي ... مِنْ مَجْدِهِ مِثْلَمَا تَبْدُو لِرَائِيهَا

تُظِلُّنِي حَيْثُمَا أَثْوِي عِنَايَتُهُ ... وَمَا أَنَا بِسِوَى شُكْرِي مُكَافِيهَا

الصحابة العشرة

نشرت في حاشية صفحة ٢٢٤ كلمة في الصحابة العشرة الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، فذكرت فيهم خالد بن الوليد خطئاً لا أعلم كيف تسرّب الى قلمي مع انه ليس منهم ونسيت سعيد بن زيد وهو منهم فتداركاً لهذا الخطأ عقدت هذا الفصل لذكر شيء مفيد عن هؤلاء العشرة ونسبتهم الى رسول الله مع ترجمة سعيد هذا فاقول انّ هؤلاء العشرة هم السابقون الاولون في صحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام وكلهم من قريش وهاك جدول يتضمن قرابتهم من المصطفى مع ذكر شجرته النبوية الطاهرة

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب — علي بن أبي طالب بن

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن

ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن

سعد بن مالك بن أهيب ابن عبد مناف بن زهرة بن

طلحة بن عبيد الله ابن عثمان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن

سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل بن عبد العزى ابن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن

كلاب بن مرة بن كعب

عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة بن

أبو بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن

أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن

ابن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن مدركة بن الياس بن مضر بن معد بن عدنان الى سيدنا اسماعيل

وقد جاء محمد بن أحمد بن خلف بأسماء هؤلاء الصحابة العشرة بيضع أبيات من الشعر فقال:

صلاة ربي دائماً   والطيبين البرره   على النبي المصطفى   وآله والعشره

فاله من فاطمٍ   ومن أخيه حيدره   وشيبة الحمد لهم   اصل اطاب الثمره

ويعدهم عثمان من   عبد مناف الخيره   ومن قصيٍ لحق الز   بير مردي الكفره

سعد المفدى من كلا   ب وابن عوف آزره   صديقنا وطلحة   من مرة ما أشهره

فاروقنا من كعبهم   سعيد يقفو اثره   وعامر الامين من   فهر كمال العشره

وللمسلمين آراء متباينة في هؤلاء الصحابة العشرة فبعضهم يرى أنهم غير مسئولين عما فعلوا والبعض يسامحونهم والبعض يؤاخذونهم ونحن لا نتعرض لهـذا ولا نطيل في بيانه لان عملنا في علويتنا المباركة مقتصر على الوجهة التاريخية فقد روينا ما كان على ماقدرنا أن نفهمه وتجنبنا على قدر الامكان ما ألبسه الناس ثوباً دينياً فهم أدرى بذلك منا ونحن نعترف بالعجز والتقصير ولا سيما بأزاء كل ما له علاقة بالدين

« ترجمة سعيد بن زيد »

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزّى بن رباح القرشي العدوي المـكي الصحابي من اقدم رجال الصحابة وأحد العشرة الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ وكان متزوجاً فاطمة أخت عمر بن الخطاب وأسلم معها وهو من المهاجرين الاولين وآخى رسول الله بينه وبين أبي بن كعب وشهد مع رسول الله جميع المشاهد بعد بدر الـكبرى وبعضهم يجعله بدرياً أي انه حضر غزوة بدر الـكبرى . وكان صالحاً زاهداً عابداً قانتاً مقتصراً على نفسه لا يتعدّاها ولذلك لم يرد له ذكر بعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم يدخله عمر بن الخطاب في أهل الشورى الستة مع انه نسيبه وهذا ماجعلني انسى وجوده بين العشرة فلم أحصه معهم فوقعت في الخطأ الذي اعتذر منه وكذلك لم يرد له ذكر في الحوادث التي جرت لعثمان بن عفان في مدى خلافته ولا سيما في وقت الثورة . ولم أجد له ذكراً في بيعة سيدنا علي ولا وجدته بين مبايعيه أو العاصين عليه بل كان في كل هذه المدّة الطويلة مقيماً في المدينة المنورة منعكفاً على الصلاة والعبادة معروفاً بالصلاح يتبرك به الناس ويعتقدون به الـكرامة . وكان ذا دعوةٍ مـستجابة عند الله من ذلك انّ امرأة تدعى أروى بنت أوس خاصمته زوراً الى مروان مدعيةً انه اغتصب لها حقاً وجاءت بشـهود زور فما استطاع أن يردّ دعواها الباطلة فقال : اللهمّ ان كانت كاذبة فاعم بصرها واقتلها في أرضها وبالفعل فقدت بصرها في اقرب وقت ووقعت في حفرة وماتت . وعاش سعيد طويلاً كما قلنا في خلوته فلم يتعرّض لكل ماجرى حوله ومات سنة ٥٠ وقيل بعدها ودفن في العقيق من المدينة المنورة

ومما يذكر عن هذا الصحابي ان اباه زيد بن عمر بن نفيل كان أحد من اعتزل عبادة الاوثان في الجاهلية وامتنع عن أكل كلّ ماذبح لها وكان يقول لقومه: يامعشر قريش ايرسل الله قطر السماء وينبت بقل الارض ويخلق السائمة فترعى فيه وتذبحونها لغيره ماهذا منكم بعدل أما والله ما أعلم على وجه الارض احداً على دين ابراهيم غيري . وكان قول زيد هذا يغضب عمومته قريش وبعد أن عجزوا من تقريعه لهم منعوه من دخول مكة وكان اشدهم عليه الخطاب بن نفيل والد عمر بن الخطاب . وكان زيد اذا خلص الى البيت استقبله قائلاً : يامولاي لبيك حقاً حقاً تعبد أورقاً البرّ أرجو لا الخال وهل يهجر من قال :

عذت بما عاذ به ابراهم   مستقبل الـكعبة وهو قائم

يقول أبقى لك عان راغم   مهما تجشمني فني جاشم

وظهور مثل زيد من معتزلي عبادة الاوثان في ذلك الزمان كان من مقدمات ظهور النبوّة وقد ذكر امام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه وقال سيبعث يوم القيامة أمةً وحده

استدراك واعتذار ورجاء

لا يدرك الشوق الاّ من يكابده ولا الصبابة الاّ من يعانيها

توليت الاشراف على طبع هذه القصيدة المباركة بالشكل الكامل بنفسي وفي اثناء رجوعي اليها رجوعاً ابدل شكلها تماماً عما نشرته منها في العمران وضاعف فصولها وابياتها ولذلك ما استطعت مع كل ما بذلت من الجهد اخراجها سليمةً من الاغلاط المطبعية أو الاغلاط التي ذلّ بها القلم من غير انتباه لتراكم العمل عليّ بين نظم وتاليف ومراجعة التواريخ العديدة وتبييض وتصحيح الأمثلة الاولى قبل الطبع وما كان يتعذّر عليّ الرجوع الى هذه الاغلاط وتصحيحها بجدول على ما يفعل غيري لولا اني وجدت العمل يستغرق وقتاً آخر لا متسع أمامي له وما هذه الاغلاط بذات شأن جوهري بل أكثرها بديهية يدركها القاري اللبيب عند مروره عليها وجلها اغلاط في بعض الحركات حدث معظمها عن سقوطها أو كسرها وتصرّف العامل بوضع بدلها من غير مراجعتي ومنها ما فات عليّ أنا ولا نكران للحق وجلّ من لا يخطيء واني لأرجو أن تكون الطبعة التالية أكثر دقة وأوفر صحةً سواءٌ في الاغلاط المطبعية أو غير المطبعية أو فيما هتني من المواضيع التاريخية ولا سيما في التراجم

ولا بدّ لي من استلفات أنظار أهل الفضل الى حقيقة يخلق الجهر بها وهي اني كنت انظم هذه القصيدة المباركة واعلق حواشيها بروح اخلاص وصداقة منزّهة عن جميع المؤثرات الاخرى التي يتعرّض لها الآخرون فاذا تدبر المنصفون هذا اصغوا لي عذراً اذا ما رأوا فيما ذهبت اليه ما يخالف اهواءهم وأغراضهم والكريم يعذر والله سبحانه من وراء النيات ولا يكلف الله نفساً الاّ وسعها

ثمّ اني أرجو كلّ منصف غيور من أهل العلم والأدب وحفظة التاريخ أن لا يبخلوا عليّ بنقد هذه القصيدة المباركة من الوجهتين الادبية والتاريخية لاستدرك ما فاتني في طبعة أخرى تكون اتمّ من هذه وأدقّ ان شاء الله واني لوالله لأستحي من الحق اذا عرفته أن لا أرجع اليه والحقّ حبيب الله واني على اتمّ استعداد لنشر ما يرد عليّ من النقد على صفحات جريدتي العمران على شرط أن يكون خالياً مما اعتاده بعضهم من اللغو فقد اعتدت أن أمرّ على اللغو مرّ الكرام واني اذكّر الناقدين بانّ الحقيقة لا تظهر بالمهاترة بل بالحلم وسعة الصدر والاتيان بساطع البرهان وحينئذٍ يصح قولهم « انّ الحقيقة بنت البحث » وعندي انه لا يطمس معالمها شيء مثل الهزر والهزيان

والذي أقوله بكل صراحةٍ هنا هو أنّ هذا العمل الكبير يحتاج الى تعب آخر كالتعب الذي عانيته لتخرج هذه العلوية المباركة على ما أحبّ من الدقة وما يعزيز على مولاي ولي النعم صاحب العظمة الشيخ خزعل خان الذي اغدق عليّ مواهبه حتى وجدت سعةً من الوقت لنظمها وتعليق حواشيها أن يوجد لي في ظله الظليل متسعاً آخر من الوقت لأعمل على زيادة اتقانها واخراجها للناس في ثوب نقيّ يقول معه أهل الفضل « ليس في الامكان أبدع مما كان » وأقول أخيراً ما قلته أولا انّ الفضل كله لعظمته الملوكية ادامه رب البرية وأثابه أعظم ثواب في الدارين على اعماله المبرورة الخيرية ووفقني الى حمده والثناء عليه والدعاء له في كل بكرة وعشية . والحمد لله على نعمائه في البدء والختام سبحانه مصدر كل فضل واحسان وانعام

وكان الفراغ من طبع هذه العلوية المباركة في يوم الاثنين ١٦ رجب الفرد سنة ١٣٣٨ للهجرة الموافق ٣ افريل (نيسان) سنة ١٩٢٠ مسيحية في مدينة مصر القاهرة عاصمة السلطنة المصرية

عبد المسيح انطاكي

أبيات العلوية المباركة

بلغ عدد أبيات العلوية المباركة ٥٥٩٥ بيتاً فكانت بذلك أكبر قصيدة نظمت في اللغة العربية حتى يوم الناس هذا فضلاً عن أنها فذة في بابها لتضمنها حادثاً تاريخياً بحذافيره وما هي إلا نفحة من نفحات سيدنا أمير المؤمنين لجاه عظمة السردار أرفع أفضل المحسنين



صفحة

صفحة

مطبعة رعمسيس بالفجالة أتقن المطابع المصرية وأكثرها تساهلا ، والمخابرة مع صاحبها : كيرلس مادرس المنقبادي